

مَجْلَةُ الْأَنْهَرِ

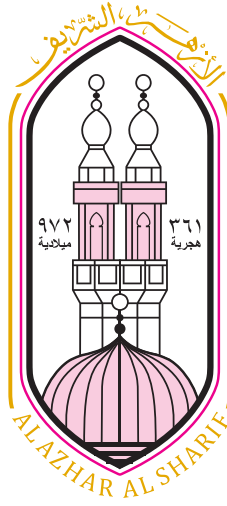
مَجْلَةُ شَرْيَةِ جَامِعَةِ

تُصَدَّرُ عَنْ شَيْخِ الْأَنْهَرِ رَفِي أَوَّلِ كُلِّ شَهْرِ عَرَبِي

٢٢

المجلد الثاني والعشرون

السنة ١٣٧٠ هـ



مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25907497 / 25899823

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

www.azhar.eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م



SAQIFAT AL-SAFA TRUST

لبوان - ماليزيا

www.saqifat-alsafa.org

E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مجلة الأزهر

المجلد الثاني والعشرون

١٢
٢٠٢٦
رواتب

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمَّد فرید حجازي

٤٠	}	الاشتراك السنوى
٥٠		
لمصر والسودان		
لخارج القطر المصرى		

ثمن العدد ٥٠ مليمًا

ادارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة



مطبعة الأزهر

١٩٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة الأزهر في عامها الثاني والعشرين

الحمد لله على ما وفقنا إليه من خدمة دينه القويم ، والصلاة والسلام على نبيه
ورسوله الكريم محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإننا قد شارفنا السنة الثانية والعشرين من حياة هذه المجلة ، اللسان
الناطق للأزهر والأزهريين ، ولست بمبالغ إذا قلت إنها نالت في هذه السنوات
القليلة ما لم ينله سواها في مثلها من الشهرة ، وبعد الصيت ، والثقة التي لا تحد ،
وقد أدت في مدى هذه المدة من الخدم للعالم الإسلامي في مشارق الأرض
ومغاربها ، ما لا يتفق لغيرها ، لنسبتها إلى الأزهر المعمور . فترى المسلمين يتلقون
أعدادها كلها ظهرت تلقى الظنم للعلم النير ، فيكتبون على قراءتها ، ومن لم يعرف
العربية منهم يترث حتى يترجم له قومه ما بهم جماعتهم منها . وهذه المنزلة ترجع
لحبهم للأزهر ، واعتقادهم الراسخ أنه كعبة العلوم الدينية ، ومورد الثقافة
الإسلامية ، والذين يحررونها خيرة الأزهريين علما وعملا .

إن هذه المنزلة توجب علينا المزيد من التدقيق فيما ننقل من مقالات أصحاب
الفضيلة العلماء الذين يتفضلون بتزويدها من محصولهم العلمي الثمين ، وتضطرننا
لأن نزيدها تحسينا بقدر ما تمكنا منه الطاقة البشرية ، فإنه ليس وراء هذه الخدمة
بجال تصرف الألمعية فيه ، ولا بعدها غاية تتوق الهمة البشرية أن تصل إليها .

وأننا في هذا المقام نرى لزما علينا أن ننوه بالتشجيع الذي تترى شآئبه
علينا من حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، ونذكر ما يمنحنا إياه من
عطفه الملكي الثمين ، فإن هذا كله من العوامل التي ثبتت وتثبت أركان هذه المجلة ،
وتنها قوة على مضاعفة جهودها في خدمة الإسلام والمسلمين .

كذلك لا يجوز أن تغفل ما يبذله شيوخ الازهر الأكرمون من العناية بأمرها ، والرعاية للقائمين بها ، وخاصة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، فإن فضيلته كان يمدّها بفتاويه القيمة في الشؤون الدينية والدينية ، مما كان لها أكبر الآثار في كسب إكبار المسلمين لها ، واعتزازهم بها .

أما وقد وفيّا ببعض ما عاهدنا الله عليه من صادق الخدمة ، وخالص الوفاء لهذه المجلة ، فإننا نعد قراءها بأننا سنكون عند ظنهم بنا حماة مخلصين لعقائد الإسلام ، ودعاة مروجين لفضائله بين الأنام ، معتمدين على الله في أداء واجبنا نحو دينه ، راجين منه العون والكفاية ، إنه ولي التوفيق ، وهو أكرم مسئول .

محمد فريبر ومبرى

الاستاذ الاكبر الجديد

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ عبد المجيد سليم

صدر أمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول ، في اليوم السابع من شهر أكتوبر الجارى ، بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخاً للجامع الازهر ، خلفاً للاستاذ الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخه السابق رحمه الله وتولاه برضوانه .

لقد وفق الله جلالة الملك توفيقاً عظيماً ، وسدد مرماه أكمل تسديد ، باختياره هذا الحبر النبيل لمشيخة الازهر ، وهو البقية الصالحة من الاعلام الذين حفظوا تراث العلم جيلاً بعد جيل ، وصانوا ثروته القيمة في أحوال كانت تكنى لأن تبددها كما بددت سواها من مذخور آبائنا الاولين .

وفضيلته مع تحليه بهذه الدرجة العالية من العلم ، قدر له أن يكون مشرفاً على تيار التطور الاجتماعى الذى تقلبت الامة في أدواره في عهدها الاخير ، بتوليته مهمة الإفتاء في الشؤون العامة سنين كثيرة ، فكانت وظيفته تستدعى منه أن يكشف عن مكنونات الشريعة الخالدة ، وأن يحلّى سماحتها ، وسعة صدرها لكل جديد نافع ، ولكل طريف لا بد منه ، فما كل بدعة ضلالة ، ولا كل محدث جهالة . فكان بفتاواه القيمة نعم العون للأمة في دور نهوضها العقلى والمادى ؛ إذ جنبها موقف سوء الظن الذى وقفته أكثر الشعوب الإسلامية حيال التيار المدنى الحديث ، فلم تستفد منه شيئاً وجمدت حيث هى فأصبحت نهياً للمستعمرين .

وإن في تولى فضيلته مشيخة الازهر على سعة علمه بالعوامل التى تعمل في الامم الإسلامية من ناحية العلم وناحية الدين ، تحت تأثير المدنية الغربية ، وما تسلمت به هذه من علوم وفلسفات وفنون ، سيكون له إن شاء الله أثر بالغ في هذا الدور من الانتقال الذى نحن فيه .

ولسنا نشك في أن فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم رجل هذا العهد السعيد ، فلندع لفضيلته بالتوفيق ، ولجلالة الملك المعظم بدوام التأيد .

محمد فريد وهبى

إلى فضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر

تحية من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
الأستاذ بكلية اللغة العربية

اعلُ ، وسد ، واهتز ، يا أزهري هذا سليم ، شيخك الأكبر
في سمته ، في طي أبراده تطابق المظهر والنخبر
السلف الصالح عادت به أيامه ، والطابع الأشعر
والأمل البسمام لاحت لنا في وجهه ، أنواره تزهر

يأبها الشيخ الجليل الذي لا يعوز الأزهر علم وما
شجاعة الدين ، وإيمانه فانهض بروح الدين في حصنه
واهتف بشرع الله في قدسه لن يُخذل الحق ، وأنت الذي
ينفح طيب المسك إذ يُذكر للعلم إلا بابه — مصدر
أعز ما ينشده الأزهر بحللك الأسود والاحمر
يشكف هذا الزمن الأغبر يدعو به ، والأزهر المنبر

تهنئة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم
شيخ الجامع الأزهر

يوم أغر على الزمان مخلد
وافتر ثغر الدهر عن بسماته
والقوم بين مهل ومكبر
سبحانك اللهم فضلك سابغ
والأزهر المعمور صنت عريته
وبعثت فيهم قائدا من بينهم
شيخ الشيوخ ولا أبالي قائلا
ولكم دعونا فاستجيب دعاؤنا
الأزهرى سليقة وطبيعة
وهو البصير بدائم ودوائهم
يأوحد العلماء أنت إمامهم
لك غيرة في الدين ذاعت شهرة
والحلم طبع والوفاء ببيعة
ومنايع التقوى تفيض جداولها
اخلع على المعمور منك مهابة
في الشرق والإسلام هزة نشوة
دم للشرعية حاميا ومناخا

سطعت كواكبه ولاح الفرقد
والأزهر المعمور شكرا يسجد
بالبشر يشدو هاتف ومردد
تحمى الحنيقة أن تمد لها يد
وأعدت عهدا للأولى قد شيدوا
يعلو بهم هام السحاب ويصعد
أنت المرجى والرئيس الأوحده
وأنت تعلى ما بنوا وتشيد
أدرى بطبع الأزهرى وأرشد
يأسو الجراح وللجراح يضمده
فاسلك بهم سبل الهداية يهتدوا
ما العلوم فأنت فيها المفرد
والعدل تاج شع منه العسجد
من نور قلبك والدلائل تشهد
وأعد إليه شبابه يتجدد
هتفوا بحبك يا إمام ورددوا
في ظل فاروق تعيش وتسعد

السباعي السناوي

المراقب بالأزهر

من فضيلة شيخ الجامع الأزهر إلى إخوانه المسلمين وأبنائه الأزهريين

نشر فيما يلي الكلمة التي وجهها حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر
الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر ، إلى المسلمين وأبنائه الأزهريين ،
لمناسبة رأس السنة الهجرية :

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونؤمن بك ، ون托كل عليك ، ونستغفرك وتوب
إليك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسألك العصمة من الزل ،
والتوفيق إلى صالح العمل ، ونصلي ونسلم على نبيك الذي بعثته رحمة للعالمين ،
وعلى آله وصحبه أجمعين .

« ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .
ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين
آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم . »

أما بعد ، فإنني أهني إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى
الهجرة النبوية المباركة ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العام مباركا عليهم ،
وأن يوفقهم فيه إلى تبوي مكانة العزة والقوة ، وأن يربط على قلوبهم برباط
الإيمان والأخوة في الإسلام حتى يكونوا في سائر شعوبهم وبلادهم كالجسد الواحد ،
يشعر قاصيهم بما يشعر به دانيهم ، ويرتفعوا بأنفسهم وأمتهم عن عوامل التفرق
والتقطع ، وأسباب التنازع والتباغض .

وإنه ليسعدني ويشرح صدري أن يكون أول ما أطلع به إخواني المسلمين
بعد أن توليت منصبى هو هذا البيان الذى أتفامل خيراً بمناسبته السعيدة وأجعل
النصح فيه ، والدعاء شكراً لله على ما حباني به من نعمة ، وولاء للمليك المعظم
على ما تفضل به على من ثقة ، وعرفانا وتقديراً لعاطفة إخواني المسلمين الذين رحبوا
بمقدمى وهناؤنى بمنصبى .

إذا كانت الذكريات في تاريخ الأمم مشارف وعزاز ، يثيرها الآخرون إعجاباً وغرراً ، بما فعل الأولون ، فإن فيها لعباً ينبغى أن تدرك ، ومثلاً يجب أن تحتذى ، وإلا كانت مجرد أقوال تقال ، وخطب تذاع .

وإن تاريخ نبينا الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، هو تاريخ المثل العليا ، والأخلاق الفاضلة ، والبطولة التي أساسها الصبر على المكروه ، والثبات للحن ، والتضحية بكل عزيز وغال في سبيل الحق والخير والإصلاح ، وما الهجرة إلا فصل من فصول التاريخ العظيم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إلى المدينة فوق الخمسين من عمره بثلاث سنين ، فلم يركن في هذه السن إلى الهدوء والراحة ، ولم يفسد النعيم والدعة ، ولكنه احتمل عبء الجهاد في سبيل الله راضياً مطمئناً صابراً على الأذى محتسباً أجره على الله ، واثقاً بالنصر والفوز ، وقد راودوه عن دينه ورسالته ، على أن يكون ملكاً أو يملأوا عليه بيته فضة وذهباً ، فأبى واستمسك بما نده الله إليه ، وقال كلمته الخالدة التي يهتز لها قلب كل مؤمن : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

وظل يصدع بكلمة الحق في وجوه أساطين الباطل عالية تدوى بها أرجاء مكة وما حولها ، وتقض مضاجع مشركيها وطواغيتها ، فأآذوه إيذاء شديداً وحاربوه حرباً منكراً ، وألبوا عليه قوى الشر والفساد تأليباً ، فما لانت قناته ، ولا صدعت صفاته ، حتى إذا لجئوا إلى آخر وسيلة يلجأ إليها المبتطلون حين يضيقون بأهل الحق ذرعا همّوا بقتله ، ودبروا تدبيرهم الخبيث للفتك به ، أمره الله أن يخرج من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بلد طيب ، صالح لاستقبال بذور الخير والصلاح ، ونباتها إنباتاً حسناً « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » .

وهكذا ضرب المثل في الصبر حين صابر ، وفي الهجرة حين هاجر ، وعلم المؤمنين وسائر المصلحين أن أول مراتب الجهاد هي الصبر كل الصبر والاحتمال كل الاحتمال ، فإذا لم تجد المثابرة والمصابرة في بيئة من البيئات لفسادها والتوائها كان الرأي والحزم أن تتحول دعوة الحق إلى غيرها ، وأن تطرق أسماعا جديدة وعقولا

رشيدة، فإن المبادئ والدعوات كما تحتاج في نشرها وتنبيتها إلى قوة وشجاعة وصبر واحتمال، تحتاج كذلك إلى سياسة وبصر وحسن تصرف وتجديد في التماس وسائل النجاح .

إن هذه الذكرى تطالع المسلمين ، وقد تألبت عليهم في شتى بلادهم قوى الشر، وداخلتهم عوامل الفساد ودواعي الفشل والضياع، فإذا لم ينتهبوا من غفلتهم ويستيقظوا من رقادهم ، ويعالجوا أسباب ضعفهم وخذلانهم ، فإن الأمر والله جلال ، وقد دلتنا عبر التاريخ وحوادث الدهر ، أن الأمم إذا انحلت أخلاقها ، وفست عقيدتها وخرجت على دينها والصالح من تقاليدها ، وتسكرت للفضائل ، وانغمست في الرذائل ، كان ذلك من علامات ساعتها ودلائل آخرتها .

فإذا كنت موجها في بياني هذا إلى إخواني المسلمين نصيحة ، فهي أن يفيثوا إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم ، ويعودوا إلى دينهم ، ويخلعوا أنفسهم من المبادئ والمنكرات وسائر ما نهى الله عنه ، ويتمسكوا بالفضائل وأخلاق الشرف والاستقامة التي قصت سنة الله في خلقه ألا تنهض الأمم إلا بها ، ولا تقوم الحياة السعيدة إلا عليها ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا .

أما أنتم أيها الإخوان والأبناء في الأزهر من أساتذة وطلاب فنصيحتي إليكم أن تدركوا حق الإدراك أنكم مجتهدون في سبيل الله ، تبينون للناس طريق الهدى وتدعونهم إلى الخير ، وتأمرونهم بالمعروف وتنهونهم عن المنكر ، وسبيلكم إلى ذلك أن تصلحوا أنفسكم أولا ، وأن تعملوا منها مثلا عملية يراها الناس فيحتذونها ، في الدين والعلم والخلق والمظهر والخبر ، فأقبلوا على دراساتكم ناشطين مخلصين ، وابدلوا في سبيل كمالكم العقلي غاية ما تستطيعون ، وتجهلوا بالفضيلة فيما بينكم وفيما بين الناس ، فإن العلم سلاحكم والخلق صلاحكم ؛ وليستحضرا الاستاذ وطلابه دائما أن العلاقة بينهم كالعلاقة بين الأب وأبنائه . له عليهم السمع والطاعة والتوقير والإجلال ، ولهم عليه الإخلاص والصدق والنصح والتوجيه إلى التي هي أقوم .

إننى أريد لكم الخير وأبغىكم سبيل الرشاد، وأرجو تحقيق آمال الأمة فيكم، وإعلاء كلمة الدين والعلم بكم، وتأييد الحجة القائمة على أنكم أعلام الحق ودعائم الخير، فأعينونى على إصلاح شأنكم، وارفعوا رأسى أرفع رؤوسكم، واستوجبوا العدل والإنصاف بالجد والإخلاص، وكونوا على اختلاف بلادكم وشعوبكم ومذاهبكم إخوانا فى الله متحابين. «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان».

أسأل الله لى ولكم الصلاح والرشاد.

«يأيتها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» .
«والعصر، إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» .

اللهم إنى أتوجه إليك ، توجه العبد الخاضع ، لجلالك وعظمتك ، الراجى لرحمتك ونعمتك ، أن تنصر الإسلام والمسلمين ، وأن تسكلاً بعين رعايتك ، وتمد بتوفيقك وهدايتك ملوكهم ورؤساءهم ، ولا سيما ملك مصر وملاذها وموضع آمالها ، ومناطق مجدها وعزها ، فاروقا الأول حفظه الله وأيده بنصره ، ووفق رجال حكومته إلى ما فيه الخير والصلاح .

اللهم وارحم ملك مصر الراحل الطيب الذكر فؤادا الأول ، وأسبغ عليه حلال غفرانك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

والحمد لله رب العالمين ، وسلام الله ورحمته وبركاته عليكم أجمعين .

احتفال الأزهر

بذكرى الهجرة النبوية

احتشدت ألوف مؤلفة من العلماء والوجهاء والطلاب يوم الجمعة أول العام الهجرى بعد صلاة العصر بالجامع الأزهر ، لسماع كلمة الجامعة الأزهرية في يوم الهجرة النبوية ، وكان حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم في مقدمة المحتفلين بهذا اليوم الكريم ؛ فنهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر فألقى كلمة أحسن فيها كل الإحسان ، ووفى المقام حقه أكمل توفية ، فقابلها المستمعون بالإعجاب والثناء . وما هي :

إذا ذكرت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم رجع الذهن إلى سبعين عاما وثلاثة عشر قرنا مضت على حادث تمخض عنه التاريخ ، لم يحدث مثله في العصور القديمة قط ؛ حادث تغير له وجه الزمان ، وانقلبت به الأوضاع والشرائع ؛ ذلك هو هجرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ؛ حادث تجلت فيه قوة العزيمة ونفاذ البصيرة ، وكال البطولة ، وصدق الإرادة ، وقوة الإيمان ، وغاية التضحية والإيثار .

أجر فجر النور المحمدى ، وأشرق سنأؤه ، وتباج ضياؤه في جزيرة العرب ، وكان يسودها ظلام الشرك والجهالة ، وتتناوشها أحابيل الشرور والبواقي ، وعقاييل الاضطهاد والمظالم ، والعالم كله كان يئن تحت أنقال الحياة وضراوتها .

ظهر المعصوم ، صلى الله عليه وسلم ، في هذه البيئة يدعو الناس إلى الصراط المستقيم ، فوعد وأوعد ، وبشر وأنذر ؛ فنهض من آمن به وهم قل ، ومنهم من صد عنه ، وهم من هاهنا قومه وعشيرته من قریش ، ومن لف لفهم من صناديد العرب المقادير ذوى العصبيات والكثرة ، فلم يلق منهم إلا تأييا ونفورا ، فما زال بهم يلاينهم ويصانعهم ، ويقتل بهم في الغزوة والغارب ، وما زالوا به يحاورونه

ويداورونه ، ويلفون حوله بالتهديد مرة ، وبالإغراء أخرى ، ويمدون ويمنونه بالمال والجاء والملك والشرف ، وهو عن ذلك متأبٍ ، معرض أشد الإعراض ، فعدلوا عن الإغراء إلى مطاردته والتضييق عليه ، وتعذيب أصحابه أشد العذاب . كان يصلي بالكعبة فأنوه وهو ساجد ، ووضعوا سلا البهائم على رأسه ورقبته ، فجاءت فاطمة باكية وأماطت هذا الأذى عنه . وكان يصلي مرة أخرى فيجىء أحد أعمامه ويخنقه ، وجعل يعتصر رقبته حتى جحظت عيناه فيأتى أبو بكر ، ويمنع عنه ، ويقول : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، ومع ذلك التضييق والتعذيب يشبث في دعوته ، ويحتمل الأذى في سبيلها ، ماضياً لا يصدده صاد ، مقداماً لا يرهب الردى . ويؤخذ بلال ، وهو أحد الموالى المؤمنين بالدعوة ، ويجلد بالسياط وهو يقول : « أحد أحد » . وعمار بن ياسر توضع الصخرة محماة فوق بطنه ، ويعذب هو وأهله بالنار ، وهم صابرون ثابتون على إيمانهم .

ولقد تفنن المشركون في ضروب الإيذاء للصادق المصدق ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في غضون ذلك ينتهز الفرص في المواسم ، ويدعو الوافدين على أسواق مكة ، والبيت الحرام ، ويعقد البيعة سراً على الهدم والدم مع رهط من الخزرج من أهل المدينة ، فكانوا أعضداً له وأنصاراً في مستقبل الأحداث الجسام .

ولقد منى المسلمون بأعظم المحن والبلايا في أنفسهم وفي أموالهم ، ففر كثير منهم رجالاً ونساء إلى الحبشة ، وإلى غير الحبشة من الاصقاع النائية ، وبقي البعض بمكة يعاني من الشدة والضيق ما لا يحتمل ، ولا يستطيع الصبر عليه ، وفي آخر الامر رأى أعداء الحق أن يقضوا على الدعوة قضاء مبرماً ، وأن يفتالوا صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فاشتوروا وترادوا الأمر بينهم ، واتفقوا على أن يقوم بالأمر في ذلك فتيان أشداء من قبائل العرب ، ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد المطلب على النار له ؛ فأطلعه الله على مكرهم ، وتأذن له بالهجرة إلى المدينة ، وإذ يمسكرك بك الذين

كفروا اليُثْبُوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين .

مضى النبي قدما إلى الغاية التي رسمها الله له ، ومعه صاحبه أبو بكر ، وضربا في الصحراء في ليل أليل حتى بلغا غار ثور ، فلما بلغاه تقدم أبو بكر فاستبرأه ، ودخله الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصديق رضى الله عنه ؛ ويصبح المتآمرون وقد دخلوا دار الرسول شاهرين أسلحتهم ، لتنفيذ ائتمارهم ، فيجدون عليا نائما في موضعه ، مسجى بردائه صلى الله عليه وسلم ، فيرتدون خائبين . ثم تجدد قريش في طلبه واللاحاق به ، ويمرون بغار ثور ، ولو أنهم نظروا تحت أرجلهم لرأوه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أعمى أبصارهم كما أعمى بصائرهم ، وأنجاه من كيدهم .

« إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم . »

وبعد ثلاثة أيام مضاهها الرسول صلى الله عليه وسلم في غار ثور ، اتخذ سبيلا إلى المدينة فاستقبله أهلها مكبرين مهللين . قال البراء : « ما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله يوم جاء المدينة . » وبذلك تمت هجرته صلى الله عليه وسلم ، وسمى المسلمين بالمدينة الانصار .

وعلى أثر ذلك هاجر كثير من أصحابه إلى المدينة ، فأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الانصار ، وجعلهم أمة متراصة متماسكة قوية ، ثم وحد بين الاوس والخزرج ، وقد دخلوا في الإسلام أفواجا أفواجا ، فكانوا إخوة متحدى الافسدة والغاية والامل ، وزال ما كان بينهم من جفاوة وعداوة قديمة مستحكمة .

وبعد أن استقر الامر للرسول صلى الله عليه وسلم عباً للجيوش ، وعقد

لها الأولوية ، وبعث البعوث ، وأخذ من ذلك الحين يحمى الدعوة الإسلامية ويدود عنها ، ويقاقل من يصد عن سبيلها .

« ألا تقاقلون قوما نكشوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدوكم أول مرة ، أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويؤخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، » .

ومن ذلك قويت شوكة المسلمين ، وتأمنت الدعوة الإسلامية ، وجعل الناس يدخلون في دين الله آمنين مطمئنين ، وعم الإسلام ربوع الجزيرة ، ثم أخذ يزحف إلى جوارها ، وما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى حتى كان الإسلام قد شرق وغرب ، وكانت له الكلمة العليا .

والعبرة في الهجرة :

١ — أن القادة والاحرار إذا سيموا الضيم في أوطانهم ، ولم يستطيعوا تأدية رسالتهم في قومهم ، هاجروا إلى بلاد يتيسر لهم فيها العمل أحراراً ، ويتمسكون من إسماع صوتهم إلى مواطنهم .

٢ — أن الاحرار بهجرتهم يستطيعون بحيلتهم ، وحسن سياستهم أن يجمعوا حولهم أنصاراً يساندونهم في بلوغ غايتهم ، ومعتقد آمالهم ، وبذلك يرجعون إلى أوطانهم منتصرين فاتحين .

ويقول الله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ،

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعياً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً ، » .

وفي هذه الهجرة بالذات تحققت تلك العبرة : وكانت فرقا بين الحق والباطل ، والظلام والنور ، والخير والشر ، وكان فيها هداية الناس ، وسعادة البشر .

وإن الأزهر إذ يحتفل بالهجرة النبوية ، إنما يحتفل بحادث إسلامي عظيم له خطره في حفز الجماعة الإسلامية إلى أقدم الغايات ، وأسمى المقاصد ؛ وتذكيرهم بأيام البطولة الخالدة للمسلمين الذين كانوا يعيشون للحق ويتسابقون إلى سُوح الموت والشهادة ؛ للزيادة عن الراية الإسلامية ، وإعلاء كلمة التوحيد .

أما بعد : فإن الأزهر ليأسف أشد الأسف لفقد شيخه السابق المغفور له فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى ، فقد كان عضداً للدين ، وأباً رحماً للساتذة والطلبة ، وكان ميمون النقيبة ، عظيم النفع .

وللإسلام والمسلمين خير عوض في شيخ الأزهر الحالى ، فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، ولقد فرحنا بتوليته كرسى المشيخة فرحاً عظيماً ، ففضيلته معروف بالورع والتقوى ، وللغيرة على الدين والكرامة ، والتضلع من علوم أصول الدين ، والفقه الإسلامى على الأخص .

حفظه الله نصيراً للدين ، وأبقاه عضداً للعلم والعلماء ، وأعانه على عمل الخير للأزهر والأزهريين .

ونصلى ونسلم عليك يا رسول الله صلاة وسلاماً دائماً ملك الله .

وندعوك اللهم أن تهدينا بهديه ، وأن تيسر لنا السير في سبيله ، وأن تبصرنا بحالنا ، وأن توفقنا إلى خدمة الوطن الإسلامى ، وأن تسدد خطوات ولاية الأمور فينا ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة المتوكل على الله الملك فاروق الاول ، ناصر الدين ، وحامى حى الإسلام والمسلمين .

اللهم احمه بحمايتك ، وارعه برعايتك ، واكفل له حياة مديدة مقرونة بالعز والتأييد .

وأن توفى رجال حكومته الرشيدة لعمل ما فيه خير العباد والبلاد .

ليس هيناً نبأ

صدر كتاب تحت عنوان (من هنا نبدأ) أحيط بلبط شديد ، ثم صدر ، و وكل أمره إلى محكمة القاهرة الابتدائية ، فحكمت بأن ليس للقانون مسوغ في مصادره ومنع انتشاره ، فأقبل الناس على قراءته ليروا مشار الضجة التي أوجبت محاكمته ، حتى طبعت منه عدة طبعات في مدى نحو ثلاثة أشهر ؛ وهو لإقبال لم يصادفه كتاب قبله في هذه البلاد . ولذلك عنيينا بأمره وقرأناه بعناية ، فوجدنا مؤلفه الفاضل فضيلة الأستاذ خالد محمد خالد خريج كلية أصول الدين ، قد خاض بحراً لا ساحل له من فلسفة الدين ، وفلسفة الاجتماع ، أداه إلى وجهات نظر تحتاج لتحصيص دقيق ، وتحليل محكم ؛ لأنه بعد أن منحه المصادر هذه الدرجة من الذبوع يجب أن يبال حقّه من النقد ، لاسيما وقد عاج أعظم المسائل خطورة ، وهي الدين ، والاجتماع ، وتوزيع الثروة العامة ، ولا توجد مجلة من اختصاصها هذه المسائل أجدر من مجلة الأزهر بنقده .

* * *

كتاب (من هنا نبدأ) يشتمل على أربعة أبواب ، أولها (الدين لا السكينة) ، وقد شغل منه ثمانية وأربعين صفحة ؛ ثانيها (الخبز هو السلام) ؛ وقد استدعى منه ثمانية وأربعين صفحة أيضاً ؛ ثالثها (قومية الحكم) وقد أخذ منه خمسة وستين صفحة ؛ رابعها (الرئة المعطلة) وقد استوعب منه تسعة وخمسين صفحة . وقد وضعنا كتاباً ناقشنا فيه فضيلة الأستاذ مناقشة علمية ، الغرض منها الوصول إلى الحقيقة لا إثارة المهاترة ، وعرقلة المساعي التي تبذل للإصلاح والتسكل ، وقد سلمناه للطبعة على أن لا تذيبه إلا بعد أن يتم نشره في هذه المجلة .

قال فضيلة الاستاذ في أول فصل من كتابه :

« كل ما نود أن ننصح به ، هو أن نبارك هذا (الوعي) وندعه ينمو ويتسلق ، وأن لا نحاول قط كبجه وزجره ، فإن ذلك هو السبيل كل السبيل إلى خلق المجتمع الحر الباسل ، الذى نريد أن نكونه . قد تصيب مرة وتخطئ مرات (يريد الأمة) ، وتهتدى تارة وتضل تارات ، ولكنها أخيراً سوف تضع أقدامها على صراط الحقيقة والصواب . »

« إننا لن نقدم لمجتمعنا فى هذه الفترة الحاضرة خبراً من (الحرية) ، كى يستطيع فى ضوءها وسناها أن يرى ، ويفكر ، ويختار الطريق القويم . »

« والتحرر من (الخوف) هو نقطة البدء فى طريقنا الطويل ورحلتنا الشاقة . »

« ومن أجل ذلك يحىء هذا الكتاب فى أوانه ، ليقول للمجتمع (لا تخف) ، وليزيح من طريقه تلك الأشباح التى تخيفه وتخلذه وتملؤه روعاً ورعباً - كما يهيب بالمواطنين جميعاً حكومة وشعباً وأفراداً ، أن يتحملوا تبعات الرشد فى شجاعة وغبطة ، وأن يتقبلوا الواجبات الجديدة التى تفرضها علينا الحياة وظروفها ، وأن يكون كل مواطن أداة حية تساهم فى التحول الاجتماعى الرشيد الذى تتوق إليه ، والذى يجب أن يبدأ فوراً ويتم سريعاً . »

ثم فسر حضرته ما يريده من قوله التحول الاجتماعى ، أنه : « إلى قومية شاملة لا تنافر فيها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها ، وإلى وعى ناضج سليم لا سلطان للرجعية ولا للسكينة عليه ، وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حباً ... وتربصه ولاء وأمناً ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة . »

ونحن نعلق على هذا الكلام بقولنا :

إن وعى الجماعات كوعى الأفراد يكون عادة مقدمة لبلوغها جميع مقدمات الحياة ، وأسباب البقاء ؛ ولكنها كما هو لدى الأفراد يحتاج لتوجيهات من الآباء والمعلمين ، هو كذلك لدى الجماعات فى حاجة ماسة إلى هداة ومرشدين ؛ فإن أعوزوا ارتد هذا الوعي كارثة عليهم ، وانقلب بحكم التطور إلى اندفاع لا يقف فى عنقه عند حد ، وهو مانعنايه اليوم من تدهور الاخلاق ، وانحلال الرُّبُط الادبية

وتدافع الجماهير إلى ما يبدها ويبددها . ومن العجيب أن المؤلف ينصح - والحال كما ترى - بمنحها (الحرية) ويعظمها بالتححرر من (الخوف) أيضاً ١ .

إن الخروج على الآداب المتفق عليها في هذا الدور الذى نحن فيه ، ويسميه الأستاذ ، وعيا ، ويطلب له المزيد من الحرية ، قد بلغ إلى حد لا يمكن أن تقبله وتطبيقه أمة لها أمل في البقاء ، فقد عتق الآباء والآباء والأمهات ، واستخفوا بالآداب والمعتقدات ، ولولا أن القوانين تحد قليلا من هذه الإباحة الجنونية ، لأصبحت الطرقات والمتنزهات بؤرا لأحقر ضروب الموبقات .

أفيظن مؤلفنا أن هذا الضرب من الوعي المفروك لسلطان الشهوات ، يؤدي إلى ما يتخيله من نهوض ، وخاصة بعد أن يهيه الناس قسماً من الحرية أوفى مما كان سبباً في هذه المنكرات ؟ لم يقل بهذا الرأي عالم اجتماعي في العالم ، لأنه مما لا يعقل ؛ فإن الشعوب إذا تبادت في ركوب أهوائها ، جرفتها انحرافاتنا في متاهة من الضلال ليس وراءها إلا التفسك والانحلال .

إن الشعب الذى يترك له الزمام ، وخاصة في دور شبوبه ، لا يزال يهيم في متاهات طيشه حتى يصاب بالإعياء الذى يسلمه إلى اليأس ، وإذا ذاك إما أن يفنى في جثمان شعب آخر ، أو أن تحتله دولة مستعمرة تستغل الدماء الذى بقى له من الحياة . أما البقاء فلا والله ، إلا إذا وعى الحياة على ما يفهم المصلحون ، وحد من شهواته وحرته ، واحترم الوصايا التى أجمع العالم كله على أنها أصول الرقى ، وينابيع الفلاح .

ومن عجب أن الأستاذ يتيح للشعوب أن توثق كل هذه (الحرية) ، وينصح بعدم الحد لها منها ، ويوصيها أيضاً بأن تنزع (الخوف) من قلبها ، أى أن لا تحسب لمغبة تهورها حساباً ! فليسمح لى أن أقول : إنه لا يوجد شعب يدخل في هذا الدور ملقى حبله على غاربه ثم يخرج منه وله وجود بين الشعوب ! بل أن أقول : لم يوجد شعب كتب له البقاء وجد في الشروط التى يوصى بها الأستاذ منذ عرف التاريخ ؛ فقد جرت سنة الله على أن الشعوب التى كتب لها الوعى

والارتقاء ، ينشأ من صميمها أفراد يتولونها بالنصح والإرشاد ، ويعملون من هوجها كلها انحرفت عن الطريق ، ويرشدونها إلى سواء الصراط ، تارة بالوعظ والتذكير ، وطوراً بالزجر والعقاب ، حتى تبلغ أشدها ؛ ولا تحرم في دور من أدوارها من المرشدين والهداة . فعلى أى أساس على يدعو الأستاذ القادة والقائمين على الاخلاق والآداب أن يلزموا الصمت والاستكانة ، تاركين شعبهم يهيم على غير هدى حتى يتنزل عليه الرشد من نفسه فيستقيم ؟ هذا طلب ما لا يمكن ولا يكون ، وما لم تجر سنة الله به في أمة من الأمم من يوم خلقها إلى هذا اليوم .



وبعد ، فإلى أى هدف يرمى الأستاذ بعد إسدائه هذه النصائح : « إلى قومية شاملة لا تتأخر فيها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها ، وإلى وعى ناضج لا سلطان للرجعية ولا للسكينة عليه ، وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حبا ... وتربصه ولاء وأمنا ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة » .

نقول : أما الاشتراكية فهي لا تزال في الميزان ، فقد قال بها أفلاطون قبل نحو ألفين وأربعمائة سنة ، فاعتبر قوله الناس من الأمور الخيالية . ولكن التفكير فيها بقي حياً يظهر حيناً ويختفي أحياناً . ففي القرن الخامس عشر دعا إليها الفيلسوف (توماس مور) الإنجليزي . فشرع الناس يؤسسون مدناً على النظام الاشتراكي البحت ، فلم تقم لها قائمة ، وعلل الاشتراكيون فشلها بأنها لم يراع في إنشائها ما يحيط بها من المؤثرات .

فلما نبغ (كارل ماركس) ، وكان من يهود ألمانيا ، وضع للاشتراكية أساساً علمياً ، فدعا إلى الاشتراكية العالمية لتوحد الأنظمة في سائر الممالك ، ويكون ذلك داعياً لبقائها ، فاعتبر أبا للاشتراكية . وهي تقوم على أصلين رئيسيين : إلغاء الملكية الفردية إلى حد ما ، وإلغاء الوراثة إلغاء تاماً ، لتسكون الأرض ملكاً لجميع العائشين عليها . فهي كما ترى تصطدم بعقبتين كأداوين : إلغاء الملكية والوراثة ، وهما أعلق بقلب الإنسان من أعز شيء عنده ، ولسكنهما يسهلان على من لا يملك شيئاً .

نعم لا توجد مملكة تخلو من دعوة اشتراكية واشتراكيين ، ولكنهم في كل بلد ، ما عدا روسيا ، قلة لا تستطيع أن تنفرد بالحكم فيه ، ومع ذلك يقول الأستاذ في صفحة (١٢٨) من كتابه : « لقد انعقد (إجماع العالم المتحضر كله) على أن النظام الذي تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدّها الأقصى في الوقت الحاضر هو الاشتراكية ، ويتجلى هذا (الإجماع العالمي الرشيد) في أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله . ولكنه في شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة . وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهي سائرة في طريقها إلى قم الاشتراكية العليا . »

نقول : إننا نعجب من قول الأستاذ بالانعقاد إجماع العالم المتمدن على أن الاشتراكية خير نظام تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدّها الأقصى ، وأن الدول الناهضة تأخذ بها وتطبقها الخ ، وأنت ترى وتقرأ في الجرائد كل يوم أن الاشتراكية حزب من الأحزاب لا أكثر ولا أقل ؛ وأنها لم تل الحكم فيها منفردة بالسلطان إلا في إنجلترا ، ولكن اشتراكي الإنجليز معتدلون لا يقولون بإلغاء الملكية الفردية ولا الوراثة ، بل لهم مطالب يتقاضونها من أصحاب رؤوس الأموال طلباً لتحقيق التوازن الاقتصادي ، ودفع كابوس البؤس عن الطبقة العاملة ، وقد رضخ لهم أصحاب رؤوس الأموال بكثير مما يطلبون . وقد فازوا في الانتخابات مراراً وتولوا الحكم ، فلم يصدر منهم أقل تطرف يشير ثائرة المحافظين . ووزارتهم اليوم في إنجلترا على وشك السقوط ، فلا تزيد أغليتها عن نحو ستة أصوات .

ولم يلِ الاشتراكيون الحكم منفردين قط لا في فرنسا ولا في إيطاليا ولا في أية مملكة أوربية ، ورغمما عما يحدثونه من المشاغبات والإضرابات عن العمل هناك ، فإن تلك الممالك لا تههم في الانتخابات العامة إلا عدداً محدوداً من المقاعد لا تبلغ ربع ما لبقية الأحزاب . وذلك لأنهم يكرهون العمال ويرونهم أجدر بالسكد والإرهاق ، ولكنهم يكرهون التنازل عن الملكية الخاصة

والوارثة ، ويتساحمون بكل ما دونهما ، فأصبح ما سمحوا به من مطالب العمال الحققة حدا يشكرون عليه .

فالدول الأوروبية لم تأخذ بالنظام الاشتراكي كما يقول الاستاذ ، ولم ينعقد إجماع العالم المتحضر كله على أن الاشتراكية هي النظام الذي تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدا الأقصى في الوقت الحاضر . ألا ترى أنه لو كان الأمر كذلك لاندجحت جميع الأحزاب في الاشتراكية ، ولانتخب الناس لمجالسهم النيابية الاشتراكيين دون سواهم .

يجوز أن تصبح الاشتراكية في عهد من العهود المستقبلية مذهب الناس أجمعين ، ولكن ذلك لن يكون إلا إذا بلغ الناس حداً من التعاطف الإنساني ، والترابط الأخوي ، ومن عدم الأنانية ، والتزهد عن الذاتية ، بحيث تنعدم في نظرهم الفوارق الشخصية ، وهذا ، إن لم يكن محالاً ، فإن يكون إلا بعد أدوار عديدة من التطور العقلي والنفسي لا يمكن أن نتخيله تخيلاً ، لأنه لا يوجد في العالم بعد بلوغ الثقافة إلى الحد الذي وصلت إليه اليوم ما يدل عليه . فلا تزال الأمم تميل للتناحر ، والآحاد في أرقاها كمبا في المدنية دائبين على التزاحم ، ولا تزال الطبيعة البشرية يشينها حب الذات ، والميل إلى التفوق ، ويزيدها شينا الكبر والحسد والضغينة والطمع والشره ، وتلوثها بشرور كثيرة من حب العدوان والثأر والسرقه والغش والتدليس والتحايل وغيرها مما لا يحصى ، أفلا ترى معي أنه قبل أن يعيش الناس إخواناً مشتركين في الحياة ، يجب أن تزول كل هذه الآثام والأرجاس من الطباع ، وأن تطهر النفوس من أدرانها ، وما تؤدي إليه من مآسيها ، وأن يحل محلها أصدادها من الصفات النبيلة ، والميول السامية ، والنوايا السليمة ، ليسكن أن يعيش الناس جميعاً كأنهم أفراد أسرة واحدة ؟

فإن أردت - مع تلوث بني آدم بكل هذه الشرور - أن تسود الاشتراكية الأمم ، فذلك لن يكون إلا بإكراهها عليها ، ومن ذا الذي يكرها وهي حرة تعطي بلادها من ضروب الحكم ما تشاء .

محمد فريد وهبى

التَّارِيخُ

لفضيلة الاستاذ الشيخ فسكرى يس

أخرج البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : « ما عدُّوا من مَبِيعَتِ
النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، ولا من متوفاه ، وإنما عدُّوا من مَقْدَمِهِ المَدِينَةَ » .

* * *

يُنَبِّئُنَا هَذَا الْأَثَرُ الْجَلِيلُ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَجْعَلُوا وَقْتَ مَبِيعَتِهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا وَقْتَ وَفَاتِهِ مَبْدَأَ لَعَدَدِ السَّنِينَ وَالْأَعْوَامِ ، وَحِسَابِ
الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ ، وَتَارِيخِ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ ، وَإِنَّمَا جَعَلُوا وَقْتَ خُرُوجِهِ
مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَهَاجِرًا هُوَ الْمَبْدَأُ لِذَلِكَ ، فَقَدْ اتَّفَقَتْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَرْبَعُ حَوَادِثَ جَسَامٍ ، وَقَضَايَا عِظَامٍ ، كُلُّ مِنْهَا يَصِحُّ أَنْ يُؤْرَخَ بِهِ ، وَيُصْلَحَ
أَنْ يَكُونَ مَبْدَأً لِلتَّارِيخِ ، وَهِيَ : مَوْلَدُهُ ، وَمَبِيعَتُهُ ، وَهَجْرَتُهُ ، وَوَفَاتُهُ ، وَلَكِنْهُمْ
رَجَّحُوا الْهَجْرَةَ عَلَى غَيْرِهَا ، لِأَنَّ الْمَوْلَدَ وَالْمَبِيعَةَ لَا يَخْلُو كُلُّ مِنْهُمَا مِنَ الْخِلَافِ
وَالنِّزَاعِ حَوْلَ تَعْيِينِ وَقْتِهِ بِالضَّبْطِ وَالتَّحْدِيدِ ، وَلِأَنَّ الْوَفَاةَ يُوقِعُ تَذَكُّرَهَا
وَاسْتِحْضَارَهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْفِ وَالْأَلَمِ عَلَى فِرَاقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاخْتَارُوا
الْهَجْرَةَ ، لِأَنَّهَا لَا يَنْجُمُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

وَالتَّارِيخُ بِالْهَمْزِ ، ثُمَّ تَرَكَ تَخْفِيفًا ، وَهُوَ تَعْرِيفُ الْوَقْتِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَقْتُ ،
وَمِثْلُهُ التَّوْرِيخُ بِالْوَاوِ ، وَهُوَ قَلِيلُ الْاسْتِعْمَالِ ، يُقَالُ : أَرَخْتُ وَوَرَخْتُ : وَقَّيْتُ ،
وَقِيلَ : تَارِيخٌ كُلُّ شَيْءٍ غَايَتُهُ وَوَقْتُهُ الَّذِى يَنْتَهَى إِلَيْهِ ، وَمِنْهُ قِيلَ : فَلَانُ تَارِيخُ قَوْمِهِ ،
أَيَّ يَنْتَهَى إِلَيْهِ شَرَفُهُمْ وَرِيَّاسَتُهُمْ .

وَالتَّارِيخُ فِي الْأَصْطِلَاحِ : تَوْقِيتُ الْفِعْلِ بِالزَّمَانِ ، لِيَعْلَمَ مَقْدَارُ مَا بَيْنَ ابْتِدَائِهِ ،
وَبَيْنَ آيَةِ غَايَةِ فُرُضَتْ لَهُ ، فَإِذَا قُلْتُ : كَتَبْتُهُ فِي يَوْمٍ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا
مِنْ سَنَةِ كَذَا ، وَقُرِئَ بَعْدَ مَا كَتَبْتُهُ بِسَنَةِ مِثْلًا ، عُلِمَ أَنَّ مَا بَيْنَ الْكِتَابَةِ
وَبَيْنَ قِرَائَتِهَا سَنَةٌ ، وَقِيلَ : هُوَ أَوَّلُ مَدَّةِ الشَّهْرِ ، لِيَعْلَمَ بِهِ مَقْدَارُ مَا مَضَى .

وكان التأريخ يستعمل أولاً في نفس الوقت الذي يحدث فيه الشيء، ثم توسع فيه حتى صار يستعمل فيما يعرض لهذا الشيء من أحوال .

وهناك خلاف مشهور في أن لفظة « تأريخ » هل هي عربية أو أعجمية ؟ ، فمن يرى أنها عربية يقول : إنها مشتقة من الأرخ — بفتح الهمزة وكسرهما — وهو ولد البقرة الوحشية ، كأنه شيء حدث كما يحدث الولد ، وقيل : الأرخ : الوقت ، والتأريخ التوقيت ، وقيل : التأريخ قلب التأخير .

ومن يرى أنها أعجمية يقول : إنها معرب « ماه روز » ، ومعناه حساب الشهور والأيام .

وقال بعض الباحثين : إن كلمة « تأريخ » في اللغة العربية مولدة من كلمة « ياروخ » في اللغة العبرية ، ومعناها فيها هو القمر ، والقمر في اللغة التركية اسمه « ياروق » ، ومعنى الاسم هو المنير المضيء ، استعارته اليهود من الأتراك ، كما استعارت اسم « التوراة » من « توره » ، ولذا لم ترد كلمة « تأريخ » في القرآن ، ولا في لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

والتأريخ معروف عند الناس من قديم الزمان ، فإنه لما كثر بنو آدم ، أرخوا بهبوط آدم من الجنة ، فلما بعث الله نوحاً ، أرخوا من الطوفان ، فلما كان تحريق إبراهيم ، أرخوا من ذلك إلى زمان يوسف ، ثم إلى خروج موسى من مصر ، بنى إسرائيل ، ثم إلى زمن داود ، ثم إلى زمن سليمان ، ثم إلى زمان عيسى ، وقيل : أرخت اليهود بخراب بيت المقدس ، والنصارى برفع المسيح ، وقيل : كان بنو إسماعيل يؤرخون من بنيان البيت ، حتى مات كعب بن لؤى ، فأرخوا من موته ، فلما كان عام الفيل أرخوا منه ، وقيل : كان في اليمن والحجاز تواريخ كثيرة ، يتوارثونها خلفاً عن سلف ، وأنها كانت باعتبار حوادث وقعت في الأيام الخالية ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ، اتخذ المسلمون هجرته مبدأ للتأريخ ، وتناسوا ما قبله .

وذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتأريخ يوم قدم المدينة مهاجراً في شهر ربيع الأول ، ويعضد هذا ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران ، وأمر عليّاً أن يكتب فيه : إنه كتب لخمس من الهجرة ، فيكون أول مؤرخ بالهجرة — على هذا — هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن المحفوظ المشهور أن أول من وضع التاريخ الهجرى هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد ذكروا فى سبب ذلك عدة روايات :

منها أنهم كانوا قبل خلافة عمر يسمون كل سنة باسم حادثة وقعت فيها ، كسنة الإذن ، وسنة الأمر ، وسنة الابتلاء ، فلما كانت خلافته رضى الله عنه سأله بعض الصحابة فى ذلك ، وقالوا : هذا أمر يطول ، وربما يقع فى بعض السنين اختلاف وغلط ، فاختر رضى الله عنه عام الهجرة مبدأ من غير تسمية السنين بما وقع فيها ، فاستحسن الصحابة رأيه فى ذلك .

ومنها أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر أنه يأتينا من أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ، ولا ندرى بآتيها نعمل ، فجمع عمر الناس ، فقال بعضهم : أرخ بالبعث ، وقال بعضهم : أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل ، فأرخوا بها ، وذلك سنة سبع عشرة ، فلما اتفقوا على التاريخ بالهجرة ، قال بعضهم : ابدأوا برمضان ، فقال عمر : بل بالمحرم ، فإنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفقوا عليه .

ومنها أنه رُفِعَ لعمر صكٌّ محمَّله شعبان ، فقال : أى شعبان هو ؟ ، الماضى ، أو الذى نحن فيه ، أو الآتى ؟ ، ثم قال : إن الاموال قد كثرت فينا ، وما قسمناه غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ضبطه ؟ ، فقال له ملك الاهواز — وكان قد أمر وأسلم على يده — : إن للعجم حسابا ، يسمونه د ماه روز ، ويستندونه إلى من غلب من الاكاسرة ، ثم شرحه له ، وبين كيفية ، فقال رضى الله عنه : ضعوا للناس شيئا من ذلك يتعاملون عليه ، ويضبطون به أوقاتهم ، فذكروا له تاريخ الفرس ، فلم يوافق عليه ، فاستحسنوا الهجرة تأريخا .

ومنها أنه قدم رجل من اليمن فقال : رأيت باليمن شيئا يسمونه د التاريخ ، يكتبون من عام كذا ، وشهر كذا ، فقال عمر : هذا حسن ، فأرخوا ، فلما أجمعوا على جعله من الهجرة ، قال عمر : بأى شهر نبدأ ؟ ، فقال قوم : من رجب ، وقال آخرون : من رمضان ، فقال عثمان : أرخوا المحرم ، فإنه شهر حرام ، وهو أول السنة ، ومنصرف الناس من الحج ، وكان ذلك سنة سبع عشرة ، أو ست عشرة فى منتصف ربيع الاول .

ومنها أن عمر جمع الناس ، فسألهم عن أول يوم يكتب التاريخ ، فقال على : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك أرض الشرك ، ففعله عمر .

هذا هو المحفوظ المشهور في وضع التاريخ الهجرى ، ويرى بعض العلماء أنه لا تنافى بينه وبين الاول ، فإنه لا مانع من أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتاريخ من الهجرة ، وأن عمر قد تبعه في ذلك .

وذكر السهيلي أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » ، لأنه من المعلوم أنه ليس أول الايام مطلقا ، فتعَيَّن أنه أضيف إلى شيء مضمّر ، وهو أول الزمن الذى عَزَّ فيه الإسلام ، وعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ربّه آمنا مطمئنا ، وابتدأ بناء المسجد ، فوافق رأى الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم ، وفهم من فعلهم أن قوله تعالى : « من أول يوم » ، أنه أول أيام التاريخ الإسلامى ، أى أول يوم كدخل فيه النبي وأصحابه المدينة .

ولذا كانت الهجرة قد وقعت في شهر ربيع الاول ، فما هى الحكمة في تأخير التاريخ منه إلى التاريخ من المحرم ؟ .
وقد بينوا الحكمة في ذلك من عدة وجوه :

أحدها : أن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ، إذ البيعة وقعت في أثناء ذى الحجة ، وهى مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة ، والعزم على الهجرة هلال المحرم ، فناسب أن يجعل مبدأ للسنة الهجرية .

ثانيها : أن المحرم أول شهور السنة عند العرب ، وكانوا يعظمونه ، ويستأنفون فيه أعمالهم بعد انصرافهم من الحج ، أخرج البخارى في تاريخه عن عبيد بن عمير قال : المحرم شهر الله ، رأس السنة ، فيه يكسى البيت ، ويؤرخ التاريخ ، ويضرب الورق .

ثالثها : أن أول يوم من المحرم هو اليوم الذى تنفجر منه السنة وتبتدىء ، كما يشير إلى ذلك تفسير ابن عباس وقتادة من أن الفجر الذى أقسم به الله تعالى في أول سورة الفجر ، هو أول يوم من شهر المحرم فجر السنة .

وعلى كل حال ، فالذى يستفاد من مجموع الآثار والروايات الكثيرة الصحيحة أن الذى أشار بجعل المحرم مبدأ للسنة الهجرية هم عمر وعثمان وعلى ، والصحابة وافقوهم على ذلك .

وأما ما قيل من أنهم كانوا فى صدر الإسلام يؤرخون بربيع الاول ، فالمراد منه أن ذلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يؤرخون بسنة القدوم ، وبأول شهر منها ، وهو ربيع الاول ، وأما ما حدث فى زمن عمر ، فهو التأريخ بالهجرة وبالمحرم .

ويقول أهل الصناعة فى الكتابة والتحرير : إنه لا بد من تأريخ الرسائل والمكاتيب ، لأنه لا يُدَلَّ على تحقق الاخبار ، ووقوع الحوادث ، ولا يُعرَف قربُ عهد الكتابة وبعده ، وتقدمه وتأخره إلا بالتأريخ .

ومن أصحاب هذه الصناعة من ينظر فى التأريخ إلى ما مضى من الشهر ، وما بقى منه ، فإن كان ما بقى أكثر من نصف الشهر ، كتب لكذا وكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف ، جعل مكان مضت . . . بقيت . ومنهم من لا يؤرخ إلا بما مضى من الشهر ، لأنه واقع معروف ، وما بقى مغيب مجهول ، وأكثر العمل جار على هذه الطريقة .

والليل فى تأريخ العرب مقدم على النهار ، فإن السنين عندهم مبنية على الشهور القمرية ، فالليالى سابقة على الايام ، لأن القمر إنما يطلع ليلا ، ولأن أول الشهر ليلة ، وآخره يوم ، ولهذا يقال فى التأريخ بأول ليلة : كتب لأول ليلة من الشهر ، أو لغرفته ، أو لمهله ، أو لمستهله ، وفى الليلة الثانية : كتب لليلة الثانية من كذا ، وعلى هذا القياس إلى آخر الشهر ، ويكتب فى الخامس عشر : للنصف من كذا ، لأنه أخصر ، وفى الليلة الأخيرة يكتب : لآخر ليلة منه ، أو سائحه ، أو انسلاخه ، وكذلك يكتب فى اليوم الاخير ، وإذا كتب لآخر ليلة ، أو لآخر يوم ، علم أن الشهر كان تاما .

وكانوا فى مبدأ التأريخ بالهجرة ، لا ينعنون السنة بكونها هجرية ، ولهذا لا يكاد يوجد أثر لذلك فى الكتب العربية القديمة ، ويظهر أنهم لم يحدثوا هذا النعت إلا بعد استعمال التأريخ بغير الهجرة ، فاحتجج إليه للاحتراز ؟

الْمُنْتَفِعُونَ بِكِتَابِ الْقُرْآنِ

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

سأل سائل عما ورد في وصف القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :
 « هدى للمتقين » ، « وذكرى للمؤمنين » ، « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، عما
 يفيد أن القرآن ليس له تأثير إلا على صنف خاص من الناس : هم المؤمنون
 أو المتقون ، أما غيرهم فلا تأثير له عليهم ، ولا ينتفعون بهديه ، ولا تشرق على
 قلوبهم أنواره ؛ وإذا كان القرآن كذلك فهو كتاب خاص لقوم مخصوصين ،
 ولا يصلح أن يكون « عالمياً » ، قادراً على هداية الناس أجمعين .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال تتبعنا ما ورد في القرآن الكريم من مثل
 ذلك ، فوجدناه على ما قرر السائل ، فإن كلمة « هدى » ، أو « موعظة » ، أو « ذكرى » ،
 أو « شفاء » ، لم يوصف بها كتاب الله إلا مضافة « للمتقين » ، أو « المؤمنين » ،
 أو « المحسنين » ، أو ما إليها من الأوصاف الخاصة ، ولإذن فما بنى عليه السؤال
 صحيح ، وعلينا أن ننظر في الجواب :

إن هذا الوصف للقرآن الكريم وصف متفق مع الواقع وحقيقة الأمر
 في الناس ، فليس كل إنسان مستعداً لقبول الهداية الإلهية والانتفاع بها ، فإن
 النفوس تختلف ، فمنها نفوس غلبت عليها المادية المظلمة ، فصار أصحابها أجساداً
 ليس للروح سلطان عليها ، وليس للمعنويات حظ فيها ، ومنها نفوس صافية
 راقية تعلم أن الحياة ليست مُحَصَّنات خُصَب ، وتثق فيما وراء هذه المادة أكثر
 من وثوقها بالمادة ، وتتقبل في اطمئنان حكم الشعور القلبي ، والإحساس
 الداخلي ، كما تتقبل المراتب أو المسموعات أو الملبوسات .

والصنف الأول من الناس أقرب إلى البهائم ، بل فيهم شبه من الجماد الذي
 لا يعي ولا يعقل ، أما الصنف الثاني فهو مثال الإنسانية ، وكلما ارتقى فيه هذا

الشعور الروحي ، والإحساس المعنوي ؛ اقترب إلى الكمال ، حتى يصل إلى
 « المثل الأعلى ، في الإنسانية ، والقرآن الكريم يصف لنا الصنف الأول في كثير
 من الآيات فيقول : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم
 إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ، « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون
 بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ،
 « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ويقول « ثم قست
 قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه
 الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، .

وهو يبنى على هذه الطبيعة التي يقررها عنهم ، ما يذكره من انصرافهم عن
 الذكر ، والتوائهم عن الحق ، وإعراضهم عما فيه صلاحهم ، فيقول : « إنك
 لا تسمع الموقى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى
 عن ضلالتهم ، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، « أفأنت
 تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، .

وقد صور الله لنا هذه الطبيعة الجامدة في عدة آيات تصويراً رائعاً يبين لنا
 أمرها أتم بيان ، فمن ذلك قوله جل وعلا : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي
 إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم
 فهم لا يبصرون ، ولا شك أن صورة المغلول الذي أحاطت الأغلال بعنقه ،
 ووصلت بعرضها إلى ذقنه ، فأقححته - أى تركت رأسه مرفوعاً لضيقها فلا يستطيع
 له حراكا - وقد حشر في مكان ضيق قد سدت من دونه المنافذ فلم يس له عنه
 متقدم ولا متأخر ، وغشى على بصره فهو غير قادر على رؤية ما حوله ؛ لا شك
 أن صورة كهذه الصورة البيانية البليغة تدل على مقدار فساد الفطرة ، وجود
 الطبيعة ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان رسوله نوح عليه السلام : « قال رب إنى
 دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدكم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم
 جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ،
 ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فهذه أيضا صورة
 واضحة في بيان معنى الإعراض والالتواء ، يصور فيها قوما فسدت طبائعهم ، فلم

يتقبلوا الهدى على أى نحو جاءهم ، فإذا أسمعههم الداعى وضعوا أصابعهم فى آذانهم وإذا تعرض لهم استغشوا ثيابهم ، وإذا حاول أن يعالجههم من نواحيهم النفسية بالجهلهم تارة ، والإعلان تارة ، والإسرار تارة ، أفسدوا عليه سائر محاولاته لإصراراً واستكباراً ، فهم كالوحوش الكاسرة ، أو القردة العاصية ، أو النور الشرسة ، ومن ذلك قوله تعالى ، وقد صرح فيه بطبيعتهم الوحشية النافرة :
 « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حرم مستنفرة فرت من قسورة ، إلى غير ذلك من الآيات .

أما الصنف الثانى من الناس فهو صنف طبع حساس مرهف الشعور ، فيه صفات الإنسانية : يخاف ويرجو ، ويسمع ، ويعقل ، ويتدبر ويدرك ، وتهزه الذكرى ، وتنفعه الموعدة ، ويتفتح قلبه للهدى ، وبهوى فؤاده للإيمان ، وينشرح به صدره ، ويطمئن إليه نفساً ، ولا تزيده حوادث الخير والشر إلا ثباتاً ، هذا الصنف هو الذى يعدده القرآن حياً ، ويوجه إليه الدعوة ، ويخاطب فيه ضميره وقلبه « إنما يستجيب الذين يسمعون . » « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، » « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب . » « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . » « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . »

وكما صور الله الصنف الأول بما ذكرنا ، صور الصنف الثانى فى كثير من الآيات ، فمن ذلك قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاقيقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، فهذه صورة الممتثل فى رياض الذكر ، تمر به آية تخويف فيقف عندها خائفاً وجلال يقشعر لها بدنه ، ويرتجف من هول وعيدها فؤاده ، ثم تمر به آية ترجية فيلين ويرجو ويقبل على الله ، لا يخاف ظلماً ولا هضمياً . »

ومن ذلك قوله جل علاه « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا تؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، وهذه الآية فى وصف بعض النصارى وبيان استعدادهم لتقبل الحق ، والإيمان به ، لما فى قلوبهم من الرقة والخشوع ، ويقول الله تعالى فى وصف

قوم آخري من أهل الكتاب : د ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ، وكل ذلك تصوير للطبيعة الصّافية المواتية من أى ملة كان صاحبها ، فليس الأمر في ذلك خاصا بدين ، ولا مقصورا على طائفة بعينها من الناس ، وإنما هو أمر الطبيعة البشرية حيثما كانت ، وفي أى زمان وجدت .

تبين بهذا موافقة التعبير القرآني للواقع الطبيعي ، وأن القرآن حين يقول : هدى للمتقين ، و ذكرى للمؤمنين ، وما إلى ذلك ، يصف الناس على حقيقتهم ، ويشير لأرباب الدعوات وأصحاب الأفكار إلى تلك الطبيعة فيهم ، حتى لا يضيعوا أوقاتهم ، ولا يشتتوا جهودهم في تطلب الماء إلا من ينابيعه ، وفي استنبات الخطيِّ إلا من وشيجه :

وهل ينبت الخطيُّ إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

وهذه حقيقة إذا فهمت وتقررت في نفوس الدعاة والمصلحين كان لها في رسالتهم أعظم الجدوى ، وكانت لأشخاصهم نعم السلوى ، أما جدواها ففي أن تسير القافلة قدما لا تلوى على من ندَّ أو شدَّ ، ولا تنظر من تخلف أو كلَّ ، فإنه من الخير كل الخير للإنسانية أن تخطو في سبيل الإصلاح خطواتها غير عابئة بمن يحاولون تعويقها ، ويعملون على إيقاعها وتكجيلها ، فلتدعهم فيما هم فيه ، ولتض لطيتها راشدة قوية فسوف تحملهم بذلك على مجاراتها ، وتجد بهم ، ولو على الرغم منهم ، إليها ، وأما سلواها ففي أنها تطرد عن العاملين دواعي الحزن والأسف ، فإن صاحب الفكرة إذا جوبه بالعداوة في سبيلها ، وعوند فيها ؛ ران على قلبه رَيْنٌ من الحزن والأسى ، فإذا علم أن الذين يعادونه ويعاندونه هم أصحاب الطباع الملتوية ، والنفوس الفاسدة ، سرَّى عنه وذهب ما يلاقى من الأسف والحزن .

وقد أرشد القرآن الكريم إلى الجدوى والسلوى جميعاً ، ذلك أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسير في سبيله دون اكتراث بمن حقت عليهم الكلمة

« إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم ، » « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ، » « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، » « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، » كما أنه سلاه واستل ما في نفسه من اللوعة بمثل قوله « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، » « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتذنبه وذكري للمؤمنين ، » « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، » « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، » .

أما بعد فإن القرآن الكريم آية من آيات الله الكبرى ، فيه للعقول تبصرة ، وللقلوب موعظة ، ولكن لمن أراد أن يذكر : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، » .

سعة الصدر

هجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلي المدني الحسن بن زيد بن الحسن بن هلي بن أبي طالب ، وهو من هو علماً وعملاً وشرفاً ، فقال فيه :

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول

فاتفق أن تولى الحسن المدينة ، فأتاه أبو عاصم الأسلي المذكور ، متسكراً في زى الأعراب ، وأنشده قوله فيه :

ستأتى مدحتى الحسن بن زيد وتشهد لى بصفتين القبور
قبور لم تزل مذ غاب عنها أبو حسن تعاديهما الدهور
هما أبواك من وضعاً فضعه وأنت برفع من رفعا جدير

فقال له الحسن : من أنت ؟ فأجابه : أنا الأسلي .

فقال له الحسن : إذن حياك الله ، وبسط له رداءه ، وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولم يلبه بكلمة عما قال فيه .

الحج من الناحية الفلسفية

للدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

الحج ، كما نعلم جميعا ، ركن من أركان الإسلام ، وشعيرة يتطلب القيام بها البذل من المال والنفس ، وعبادة لا يتم للقادر عليها دينه إلا بالاضطلاع بها ، حتى ليُروى عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » . وليس من همى الآن ببيان ما للحج من مقدمات ومعالم وشروط لا يتم إلا بها ، بل موضوع الحديث هو الحج باعتباره عملا اجتماعيا تدعو إليه الفكرة الفلسفية ، لو لم يدع إليه الدين .

* * *

الإنسان مركب من عنصرين : أرضى وهو الجسد ؛ وسماوى وهو الروح . وقد يما قام النزاع الحاد بينهما كما يكون بين الشيثيين أحدهما للآخر ضد وعدو . والناس فى ميلهم لهذا العنصر أو ذاك بين مفرط ومُفرط ، إلا من كان حكيما فعرف لىكل حقّه وأرضاه بقدر . ولم ترتطم الإنسانية فى هذه الغمرة التى نلّسها هذه الأيام إلا بسبب انحيازها للناحية المادية وانغماسها فيها .

لهذا ، كان لابد من عمل يلفقنا بقوة عن هذه الحياة بما يستلزمه من إعراض عن زينة الدنيا وطيباتها ، وبما يوجبّه من مساواة لشعر الغنى منا بأنه أخ لمن يعيش بينهم من عبيد الله لا يتميز عنهم فى ملبسه ومظهره وعامة أحواله .

هذا العمل هو الحج الذى ، كما يقول الغزالى ، يعتبر فى الشريعة الإسلامية عوضا عن الرهبانية فى المسيحية ، إذ فيه ما فيه من كبت الشهوات والبعد عن الدنيا والإقبال على الله والسمو بالروح ، وقد سلم بما يلزم الرهبانية من عنف وإرهاق دائمين .

ثم ، في الحج مع هذا ، زيارة البيت العتيق الذى أضافه الله تعالى إلى نفسه لشرفه ، وجمع لا كبر عدد من المسلمين في صعيد واحد يؤمون غرضاً واحداً ، ولكل من هذين حكمته وأثره البعيد في حياة الأمة أفراداً وجماعات . إنما تشقى الأمة إذا تناكدت وتفرقت بها السبل ؛ والإسلام ، الذى حث المسلمين على أن يأتروا بينهم بمعروف ، جعل لهم مؤتمرات : بعضها يومى وهو الصلاة جماعة ، وبعضها أسبوعى ، أوسع وأعم من سابقه ، وهو صلاة الجمعة ، وبعضها كل عام على نحو أشمل وهو صلاة العيدين ، وأخيراً المؤتمر الأكبر وهو الحج الذى يجب أن يشهده كل مسلم قادر ، مرة واحدة على الأقل في حياته .

ومن الناس من لا يفهم الحقائق إلا بمثلة ، أو مرموزاً لها بمثل محسة ، فكان من الحكمة أن يكون من شعائر الحج الطواف بالبيت واستلام الحجر الأسود ، رمزاً لما يجب أن يكون عليه المسلمون من وحدة في الهدف واتحاد في التوجه لله . إن البيت الذى أمرنا بالطواف حوله ، هو بيت الله ، الذى جعله مثابة للناس وأمناً ، وفي الطواف به تشبه بالملائكة الخافين بالعرش ، الطائفين به قانتين مسبحين لا يفترّون ، وفي ذلك ما فيه من سمو للروح وعروج بها إلى السموات العلى . ونفس الحلول بالبيت ورحابه ، تمهيد طيب لرؤية صاحبه جل وعلا ، متى صفت النفس ، فصارت أهلاً لهذه السعادة القصوى ، وفي استلام الحجر من المسلمين كافة بيعة منهم جميعاً لله عز وجل على كل ما هو حق وجميل وخير وفضيلة .

أليس هذا الحجر المقدس ، كما جاء في الحديث الشريف ، يمين الله يصافح بها خلقه ؟ ، إن في استلام هذا الحجر ، وهذا ما يرمز له ، حافزاً قوياً على وفاء الحاج بما يماهد الله عليه من بُعد عن الشر ، وحب للفضيلة ، وحرص على عمل الخير .

وفي الحج مع هذا كله ، دلالة قوية على الثقة بالله واستجلاب لدونه . تعزم على الحج المرأة الضعيفة بطبيعتها والرجل الضعيف لمرضه وسنه الكبيرة ، فما هو إلا أن يبدأ من هذه حالته السعى له حتى يجد من نفسه القوة ومن غيره المساعدة ، وحتى يعود صعب الأمر ذلولاً ، فتنهياً له السبل ويمضى لما أراد دون عقبات

أو صعب . ذلك بأنه نزع عنه رداء الغرور بنفسه وحوله ، وألقى نفسه في سبيل الله واثقاً به ، متكلاً عليه ، معتمداً به وحده ، فكان له ما أراد .

والحج ، بعد ما نعرف من الأعمال الظاهرة ، له حقائق باطنة يجب النفوذ إليها ، وأحوال نفسية يشعر بها الحاج وينعم بها . إنه ليعبجني في هذا حديث جرى بين الشبليّ رضوان الله عليه ، وبين صاحب له . كان من هذا الحديث أن الشبليّ — وهو متصوف حريّ بهذا الوصف ، وليس كأدعياء التصوف في هذه الأيام — يرى أن من عقد الحج لله ، ولم يفسخ بهذا العقد كل عقد يخالفه ، كان كأنه ما عقد الحج ونواه ؛ وأن من تجرد من ثيابه للإحرام ، ولم يتجرد مع هذا من المعاصي ، يكون كأنه ما تجرد من ثيابه ؛ وأن من لبى ، ولم يذق من الله جواب تليته ، يكون كأنه ما لبى ؛ وأن من أشرف على مكة ، فلم يشرف عليه حال من الله تعالى ، يكون كأنه ما دخلها ؛ وأن من صافح الحجر الأسود ، فلم يجد أثر الأمن ، كان كأنه ما صافحه أو لمسه ، لأن من صافح الحجر فقد صافح الحق سبحانه وتعالى ، ومن صافح الله صار في أمن وسلام منه ؛ وأن من رمى الجمار ، فلم يرم بهذا جهله ولم يزد به علماً يظهر عليه ، كان كأنه ما رمى ؛ وأن من مضى من مكة إلى المدينة فزار الروضة الشريفة ، ثم لم يكشف بشيء من الحقائق ، ولم ير زيادة في السكرامات عليه ، كان كأنه ما زار ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الحجاج والعمار زوار الله ، وحق على المزور أن يكرم زواره » . وهكذا ، نجد من الشبليّ ، رحمة الله عليه ، تحليلاً دقيقاً طريفاً للحج وأعماله ومشاعره ، تفهم منه كثيراً من أسرار وفلسفته .

ومن الحق أن نوافق الشبليّ وأمثاله في نظرهم للحج وحكمه وأسراره ، هذه النظرة الفلسفية العالية . إن منا من يذل في سبيل السفر للحجّاج كثيراً من المال ، ويتعب نفسه بكثير من المشقات ، وذلك في سبيل أن يظفر بلقب « حاج » ، ينال به من عروض الحياة الدنيا ! ومنا من يعيش أيام الحج في تلك البلاد المقدسة والأجواء الروحية السامية ، ثم لا يتذوق شيئاً منها ، فيعود أغلظ قلباً مما ذهب ! ومنا أخيراً من عرف يقيناً خطر ما هو مقبل عليه ، وعلم

أنه يهجر الأهل والوطن والشهوات واللذات في سبيل الله وزيارة بيته الحرام ، وإذاً فهو يقدر البيت قدره ويرى لربه عظمته وجلاله ، فيخلص النية له ويرعاه في كل خطوة له وعمل ، ويجاهد نفسه وهواه حتى يرجع لبلده خيراً مما ذهب ، ويعود لأهله وقد تقبل الله حجه ورضيه وأرضاه .

ذلك ، والحج للكعبة وإن كان من خصائص أمتنا الإسلامية ، فإنه ، باعتباره قصداً إلى مكان مقدس ، عرفته الأمم المتقدمة في العصور المختلفة : عرفه اليونان فكانوا يحجون قبل المسيح عليه السلام إلى معابد مقدسة لديهم ، وعرفه الهنود والصينيون القدامى ، ثم عرفه اليهود والمسيحيون الذين لا يزالون يحجون إلى بيت المقدس .

وما يجدر ملاحظته أن الحجاج من هذه الأمم المختلفة وغيرها ، يلتزمون أثناء الحج التقشف والزهد في هذه الدنيا كما تلتزم ، ليشعروا أنفسهم شيئاً من الروحية العالية ، وطلباً لمرضاة معبوداتهم وطمعاً في ثوابها . وليس هذا التوافق من الأمم المختلفة بعجيب ؛ فالإنسان هو الإنسان في كل زمن ، ولأنه ليحس في قرارة نفسه : الحاجة للسمو الروحي والتقرب من المعبود أو من الرمز الذي اتخذته لهذا المعبود . وهذا السمو وهذا التقرب لها سبل عدة ، من أهمها تجشم التعب وبذل المال في سبيل الحج للكان المقدس الذي يراه ألصق البقاع بما اتخذته من إله .

هذا هو خطر الحج عند الأمم المختلفة لما يعتبرونه مقدساً من مكان ، فكيف عندنا وهو تلبية لنداء أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام وإجابة لرجائه ربه إذ يقول : « رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » ! وهو مع ذلك استجابة لأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين أمره الله بقوله : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات » . فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآيات صعد أبا قبيس فقال : « يا أيها الناس حججوا بيت ربكم ، فأسمعه الله تعالى من في أصلاب الرجال

وأراح النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق في علمه تعالى أنه يحج ، من الطائفين والقائمين والركع السجود .

إنى أحاول أن أتصور ديننا خلا من الحج لمشهد مقدس وبقاع طاهرة ، فلا أكاد أظفر إلا بصورة باهتة لدين ميت لا حياة فيه ، وقاصر عن بلوغ الكمال بمتبعيه . إنه من النافع كل النفع أن يصلى المرء ، فى هذا رياضة للجسم والروح ؛ وحسن وجميل أن يصوم ، ففقه تعويد على الصبر وترقى للنفس وفائدة للجسم ؛ ومن الخير للمجتمع أن يودى أفراد الزكاة على اختلاف ألوانها ، فى هذا اقتلاع للحسد والحقد من قلوب المعوزين على القادرين ، وعون للفقراء على متاعب الحياة ، وإغلاق لكثير من السجون ، وفتح لغير قليل من المنشآت الاجتماعية . ولكن ، هذه العبادات كلها لا تغنى عن التزام الأمة للحج لمكان واحد وقصد غرض واحد ، والعيش فترة من الزمن فى تجرد عن الحياة ومفاتها ، وإقبال على الله وحده ، واستعداد لتلقى فيضه ورحمته ما دمنا قد سعينا إلى بيته مخلصين النية له .

من ذلك كله ، نعرف أن الحج عمل يأمر به العقل قبل أن يوحى به الدين ، وأن لكل عمل من أعماله وشعيرة من شعائره حكمته وفلسفته ، وأن ديننا صحيحا لا يمكن أن يقوم بدونه ، وأن أمة من الأمم لا يسعها أن تستغنى عنه . وحسبنا دلالة على هذا ، ما أشرنا إليه من أن الأمم التى خلت عرفته وعرفت له خطره ، وأن الأمم التى تعمر العالم اليوم — على اختلاف مللها ونحلها — تعدّ الحج لمكان ما ، أمراً مقدسا فيه رياضة للجسم وسمو للنفس وخير للأمة عامة . وإن أمراً تجمع عليه الأمم فى العصور الخالية والأيام الحاضرة ، رغم ما يفرق بينها من اختلاف فى الجنس والدين والتقاليد ، لهُو أمر لا يقادر قدره ولا يكاد يُدرك كل ما فيه من جمال وخير وفضيلة .

من أجل هذا ، أدعو الله أن يوفقنا لهذا الخير مرة بعد مرة ، وأن يجعل حج من يحج من المسلمين عامة حجاً مبروراً ليس له جزاء إلا الجنة كما جاء فى حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؟

المهاجرون والأنصار

لفضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

الدين الإسلامى يطلب إلى المسلم الفرار بدينه عن الفتن ، والنأى بعرضه عن الشبهات ، والبعد بنفسه عن مواطن الأذى ، خصوصاً إذا كان ذلك لا يجر إلى عقبى طيبة ، ونهاية محمودة ، وخاتمة مشكورة .

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم ظل بمكة يتحمل هو وأصحابه العنت ، ويتعرض للمهالك ، ويقدم نفسه بنفسه للموت الرخيص ، والقتل الحقيق ، الذى كان يستهدف له هنالك ، لما قامت لدعوته قائمة ، ولظلت القوضى ضاربة أطناها فى ربوع الجزيرة كلها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

على أنه ليس من حصافة العقل ، وحزامة الرأى ، ونضج التفكير ، أن يقف الأعرل لشاكي السلاح ، أو ينازل الضعيف القوى ، أو يصول أفراد قليلون أمة بأسرها لا تزال فيها جاهلية السفهاء ، وطيش المأفونين .

ولهذا ، فقد كان الانتقال من مكة إلى المدينة بمثابة الهدوء الذى يسبق العاصفة - كما يقولون - أو الخطط الموضوعة فى نظام الحرب ، وأساليب الهجوم ، والذى يعرف أن المسلمين تكتلوا بعدها للغزو ، وتجمعوا للجهاد ، وباعوا أنفسهم لله ، يدرك إلى أى مدى غيروا وجه الزمن ، وحولوا معالم الدنيا ورسوموا حدود الحياة وأبعادها ، واقترحوا على الدهر ما يجب أن تكون عليه نظمه وتقاليده .

ولولا أن المهاجرين تسللوا خلسة ، وخرجوا مباغتين ، لضرب عليهم المشركون الحصار ، وحالوا بينهم وبين الخروج إلى يثرب ، لأنهم لا يشكون فى أن العدو الذى يفارق ميدان القتال ، ربما كان فراره خداعاً أو تحفراً للوثوب .

وفي التاريخ ما يدل على أنهم لم يهاجروا لمصر ، أو تهدأ لهم عاصفة ، أو تخمد لهم جذوة ، حتى إذ عدوا أن محمداً قادم إلى مكة بعد تسع سنوات يفتحها ، ويبسط سلطانه عليها ، تقدموا إليه بعنوان « أخ كريم وابن أخ كريم » ، وأبى أدبه - حينئذ - إلا أن يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذا تلخيص ذلك الحادث الذي يردد الناس الكلام عنه طويلاً ، والتعليق عليه مستفيضاً ، وفي خلال هذا وهذا يفوتهم أن يهتدوا إلى الصواب ، أو يصيبوا أكباد الحقيقة .

والطريف الجديد في هذا الحادث أنه تمخض عن لون من ألوان التنافس الديني ، والعصبية غير المرذولة . جعل الأذهان تتفتح إلى نعمة لم يكن لهم بها عهد سابق ، تلك هي كلمة « المهاجرون والانصار » .

ففي المدينة لقيت هذه الرسالة مرتعاً خصيباً ، وجواً مناسباً ، وبيئةً صالحةً ، ونفوساً تفتديها بدمائهم وأموالها . ولقي هؤلاء الذين تركوا ديارهم وزروعهم وثمارهم « أهلاً بأهل وجيراناً بحيران » ، وتسابق الأوس والخزرج في الإحسان إلى « اللاجئين » ، وامتدحهم القرآن بقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وتمكنت منزلتهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وزادت محبته لهم ، وثقتهم بهم ، واطمأنانه إليهم ، إلى درجة أنه كان يحرمهم من الفداء ويقول : « إني لأهبط الرجل ، وغيره أحب إلى » .

على أن أهل مكة لا يقلون في الفضل ، ولا ينقصون في المزية ، فإنهم احتضنوا الدعوة في مهدها ؛ وتعهدوها في بادئ أمرها ، وجعلوا شمسها تسطع ونورها يضيء ، وكلتها تدوى ، وصوتها ينبعث ، ومنهم السابقون الأولون .

ورجالانهم المرموقون أمثال الخلفاء الأربعة دعموا البناء ، ورفعوا اللواء ، وقفى العرب على آثارهم ، ومضوا على سننهم ، خصوصاً عمر الذي استجاب الله به دعوة الرسول : « اللهم انصر الإسلام بأحب الرجلين إليك » .

وإذا كان في الحديث ، الانصار كرشى وعيتى ، واستوصوا بالانصار خيرا ، والله الله في الانصار ، ولا يحبهم إلا مؤمن ، وغير ذلك مما يدل على أنهم بلغوا شأوا عظيما ، فإن القرآن — كذلك — يذكر المهاجرين أولا ، ويعدهم بالثواب الجزيل ، والمنزلة الرفيعة ، والنعيم المقيم ، ويجعل للهجرة أجر الجهاد والاستشهاد .

وقد أغرى ذلك كله فريقاً من أولئك جميعاً أن يشغلوا زمنا طويلا بالمفاضلة بين المهاجرين والانصار ، مفاضلة فيها شيء من المبالغة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتبأ بما يكون وراء هذا الجدل من الخطل في رأى ، والخطأ في التقدير حين يقول : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وإذا ذكرتم أصحابي فأمسكوا ! ، :

وما كان يدور بخلد إنسان أن المسلمين الذين عاصروا الوحي وأدركوا نزول الآيات ، وتشرفوا بنور وجهه الكريم تكون فيهم نزعة المكاثرة بالفضل ، والمفاخرة بالطاعة ، إلا أن الذى يدرى قرب عهدهم بما كان عليه أسلافهم من هذا الخلق الذى كانوا يقيمون له الأسواق ، ويختارون المحكمين ، يقول : شفتنة أعرفها من أخزم .

وفي اليوم الذى اختار الله فيه بحمدا صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون في سقيفة بنى ساعدة يتحدثون في انتخاب الخليفة الذى يرعى شؤونهم ، ويقضى بينهم ، ويرد عدوانهم ، ويكبح جماحهم ، ويقيم عليهم الحدود ضربوا على هذه النغمة : المهاجرون والانصار ، وأخذ أبو بكر رضى الله عنه يكيل الثناء للفريقين ، ويغدى في المديح للطرفين ، عساه أن يحمد نيران الفتنة ، ولولا ما كان له من الصحبة للرسول ، وأنه خصه بالنيابة عنه في الصلاة بالمسلمين في مرض موته ، وأن عمر بن الخطاب سارع إلى مبايعته فبايعه كثيرون فكانت الحال غير الحال : كفانا الله شر الخلاف ، ورحم الانصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين ؟

مِنْ تَوْجِيهَاتِ الْإِسْلَامِ

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالازهر

« ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ،

بنفسى وأهلى أولئك الذين تجردوا من أنفسهم ولذاتهم ، ومن أموالهم وأبنائهم ، فباعوا كل ذلك لله ، وبذلوه فى سبيل الله ، إنهم لجديرون بأن نعطأطىء الروس إذا ذكروا ، وأن تلين لعظمة نفوسهم الجلود والقلوب ، أولئك الذين هدام الله . وأولئك هم أولو الألباب . »

قد عرف الإسلام كثيرا من هؤلاء المجاهدين الصابرين وعلى رأسهم سيد الأمة وأستاذها ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت فيه الأسوة الصالحة الكريمة لكل من يجاهد فى سبيل الله ، ويشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، لقد كان يؤذى فى ذات . ولواه . ومن أخلص أهليه وذوى قرباه ، فى غـدوه ورواحه ، وفى مسائه وصباحه .

ولقد تضافرت عليه قریش ، وتألبت عليه العرب ، فما وهن لما أصابه فى سبيل الله وما ضعف وما استكان ، ولا زاد على أن قال كلمته الخالدة المدوية فى فضاء هذا الوجود ، الناصعة المشرقة فى صفحات البشرية والخلود : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته . »

ولقد كان لاستاذيته العظيمة فى العزة الإسلامية والكرامة الأدبية ، والتمسك بالحق أثرها الخالد العظيم فى نفوس أصحابه وأتباعه ، منذ قام الصراع بدعوته الكريمة بين الحق والباطل ، ومنذ شمرت قریش عن ساعدها تتفنن فى أذى من عرف السبيل إلى الدين الحق ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من

المسلمين ، يعذبونهم بشتى الألوان وصنوف الموان . فهذا يلقى عبده الحبشى
 « بلالا ، على الرمل فى الهجير تحت الشمس المحرقة ، ويضع على صدره الحجر
 ويسلمه للبوت وهو يقول « أحد أحد ، ثم يمر به ورقة بن نوفل فيرثى لحاله ،
 ويكى له ويقول : « والله لئن قتلتك قرىش لاتخذنه حنانا ، ثم يشتريه أبوبكر
 فيعتقه كما عتق كثيرا من الموالى قبله وبعده ، منهم جارية لعمر بن الخطاب قبل
 إسلامه ، وهذه امرأة أخرى عذبت أشد العذاب حتى ماتت ، لاتنصرف عن
 دينها الحق ، ولا تتحول عن مبدئها الصدق ، وهذه وهذا ، ومن إليهم من المعذبين
 فى ذات الله وفى سبيل مرضاته ، وابتغاء وجهه الكريم .

وعزز الإسلام موافقهم . ووجه الناس جميعا وجهتهم إذ يقول : « أم حسبتم
 أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم : مستهم البأساء والضراء
 وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله
 قريب ، بنفسى وأهلى أولئك الذين اشترى الله سبحانه أنفسهم وأموالهم « بأن لهم
 الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل
 والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو
 الفوز العظيم .

كل تضحية يضحي بها المؤمن فى سبيل الله فهمى سعادة له ، وإعتاق لنفسه ،
 وبرهان على أن الإيمان الصحيح خالط قلبه ، وكذلك الإسلام حين تخالط
 بشاشته القلوب .

التمسك بالحق ، والبقاء على المبدأ القويم ، والسكينة الصادقة العادلة عند
 السلطان الجائر ، وعدم الرضا بالظلم ، ولا المبالاة بما يصيب المؤمن فى الثبات
 على مبدئه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على ما يصيب فى سبيله
 وما يقع من تضحيات لأجله ؛ كل ذلك شراء للنفس ابتغاء مرضاة الله . ذلك
 بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله . ولا يطأون موطئا
 يغيظ به الكفار . ولا يبالغون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع
 أجر المحسنين .

ليت شعرى متى نرى فى أمتنا هذه ، أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

هم الذين تعمربهم الأرض ويستقر السلام والأمن وترضى السماء ، وتم السعادة والرخاء .

أما أولئك المنافقون ، الذين يلقون هؤلاء وهؤلاء بوجه ، ويتجمعون لكل من يلقون ، فيعاملون الجائر المقيم على جورهِ معاملة المعاونة والصفاء ، ويقابلون التقى المغرق فى نسكهِ مقابلة الجمالة والرياء ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون ، فانهم شر وبلاء على هذه الامة أ كثر من أعدائِها ، وهم الشؤم على الحياة والمجتمع ، وهم الذين يغفلون شركة الجماعة ، ويغفلون أيدى أهل الحق والطاعة ، غثاء كثغاء السيل ، ما يبالى الله فى أى واد هلكوا ، ولا من أى أبواب الجحيم ولجوا .

إن شراء النفس ابتغاء مرضاة الله فريضة محكمة ، وسنة قائمة ، وعزيمة صادقة ، يحلها الجهاد الصادق لإعلاء كلمة الحق ، وإصلاح المجتمع الذى يعيش فيه المرء ، وإن يكون ذلك إلا بعد أن يجاهد المؤمن نفسه أولاً ، ليحصن إيمانه وليحفظ قلبه ولسانه ، وليستعمل جوارحه فى الخير وللخير ، فيجعلها كلها لله وبالله ، لا يرضن بصالحة ، ولا يدخر وسعاً فى منفعة ، وإن يكون ذلك أيضاً إلا بعد جهاد الشيطان والانتصار عليه ، حتى يسلم المجاهد من عبثه به ، فيعصى أمره ، ويكذب وعده ، فإنه متربص ببنى آدم . يعدم وينتهم وما يعدم الشيطان إلا غرورا .

« الشيطان يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدمكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم . »

وإن فى مجاهدة الشيطان لا كبر قوة للنفس ، ومناعة للقلب من الامراض الفتاكة التى تعميه عن إِبصار الحق ، وتفتره عن توجيه الجوارح فى الخير . .

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . »

وإذا تم جهاد النفس والشيطان . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، فقد سهل

جهاد الكفار والمنافقين وأهل الزيغ والمارقة ، واستطاع المؤمن أن يعيش كريماً عظيماً ، ويدعى بذلك في ملكوت السماء . .

ولقد ذكر الإمام العالم الصوفي ابن قيم الجوزية في كتاب « زاد المعاد » أن جهاد النفس على أربع مراتب :

١ — جهادها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذي لا فلاح بدونه ولا سعادة إلا به .

٢ — جهادها على العمل به ، فإن العلم وحده إن لم يضرها لم ينفعها .

٣ — جهادها على الدعوة إليه وتعليمه ، وإلا كان من الذين يكتبون ما أنزل الله من البينات والهدى .

٤ — جهادها لتصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق في سبيلها .

فن استكمل هذه المراتب فهو من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرقتان :

الأولى : دفع ما يلقي إليه من الشبهات والشكوك في الإيمان ، وذلك يشمر اليقين .

الثانية : دفع ما يلقي من الإرادة والشهوات ، وذلك يشمر الصبر .

واليقين والصبر هما اللذان رفع الله بهما من رفع من عباده ، كما يشير إليه قوله . . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون . .

فن استطاع أن يقوم نفسه ، وأن يزرع شيطانه فقد اعتز بالله ، وارتفع عن كل من سواه ، يقول الحق ولو على والديه والأقربين ، ولا يكتم الشهادة ، وينصر أولياء الله مهما تخل عنهم سواه ؛ ويخذل أولياء الشيطان مهما تنافس الناس في القرب منهم ، الضعيف قوى عنده حتى يأخذ له حقه ، والقوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه . يتعمد جاره وعشيرته وصديقه بإخلاص وطيب نفس ،

ويجد في مصالح المحتاجين . وإغاثة الملهوفين . نفسه منه في غناء ، والناس جميعاً منه في راحة .

ويعجبني من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام في كلمة لأخيه عقیل :
 « وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال فإن رأيي قتال المحلين حتى ألقى الله ،
 لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، ولا تحسبن ابن أبيك ،
 ولو أسلمه الناس ، متضرعاً متخشعاً . ولا مقرأ للضيم وإهنا ، ولا سلس الزمام للقائد ،
 ولا وطيء الظهر للراكب ؛ ولكن كما قال أخو سليم :

فإن تسأليني كيف أنت فأنتى صبور على ريب الزمان صليب
 يعز على أن ترى بي كآبة فيشمت عاد أو يساء حبيب

العفو

لما دخل المأمون بغداد أحضر (دُعَيْلا) الشاعر بعد أن أعطاه
 الأمان ، وكان قد هجاء وهجا أباه ، فقال له : يا دُعيل (من الحضيض الأوهـد)
 يشير المأمون إلى ما قاله فيه من قصيدة هجاء بها .

فقال دُعيل : يا أمير المؤمنين قد عفوت عمن هو أشد جرماً مني . وقد أراد
 المأمون من اللفظين اللذين واجه الشاعر بهما أن يذكره بالقصيدة التي هجاء بها
 ومنها قوله يخاطب المأمون :

لإني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
 شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الأوهـد

نوه له في هذا البيت بما قام به طاهر بن الحسين من قتل أخيه محمد بن الرشيد
 وتوليته المأمون مكانه واستنشد هذه القصيدة . فاستغفاه ، فقال : لا بأس عليك
 وقد رويتها ، وإنما أحببت أن أسممها منك . فلما أنشده إياها وانتهى إلى قوله منها :

بنات زياد في القصور مصونة وبنت رسول الله في الفلوات

بكي المأمون وجدد له الأمان ، وأحسن له الصلة .

دعاء مستجاب

لفضيلة الأستاذ حسن جاد

المدرس بكلية اللغة العربية

ليس في تاريخ الإسلام كله صفحة أبلغ في الأسى والأسف ، وأدعى إلى الشجن والالام ، من تاريخ الأندلس . ففي الأندلس وحدها طوى للإسلام بساط ممدود ، ودالت دولة كبيرة ، وبادت أمة عظيمة ، ونحيت حضارة زاهرة . ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال دارسة ، وذكريات حزينة ، تثير في أغوار النفس بالغ الحسرات ، وتحفر في قلب كل مسلم أعماق الجراحات .

فقد انفرط عقد الخلافة ، وشت شمل الوحدة ، ودبّ ديبب العصية والفرقة ، واستبدت بكل فرد شهوات الحكم ونزوات السلطان ، وزال عن الكبرياء ذلك السلطان القاهر الذي خضعوا له منذ عهد عبد الرحمن الناصر ، اضطرب أمر الدولة وتخاذلت سواعدها ، ومادت أركانها . وصارت بعد ابن أبي عامر نهبا مشاعاً يتجاذبه الخلائف من ملوك الطوائف ، فإز كل ما استطاع من البلاد ، وأخذت المدن الكبرى تستقل عن قرطبة منذ سنة ٤٠٤ هـ ؛ تغلب قواد البربر في الجنوب ، وكبراء الصقالبة في الشرق ، واستقل بالنواحي الأخرى أسر كبيرة من العرب . وكان أول المتغلبين بنو ذى النون في طليطلة ، ثم كان بنو هود في سرقسطة ؛ وبنو عباد في إشبيلية ، وبنو الألفطس في بطليوس ، وبنو جمهور في قرطبة .

وهكذا وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يفتسمونها ، وقامت الدويلات في المقاطعات والمدن ينافس بعضها بعضا ، وتحاول كل واحدة أن تنتزع ما بيد الأخرى ، ووجد عدو الأندلس الخالد — أسبانيا النصرانية — فرصته السانحة ،

فأخذ يؤلب بعض الدويلات على بعض ، و ملوكها يرتمون في أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفهم على خصمه ، حتى انتقص النصارى البلاد من أطرافها ، وتوغلوا فيها إمارة بعد إمارة ، إلى أن طووا صفحة الإسلام بعد ثمانية قرون ، وخرج آخر جماعة إسلامية جلست عن الأندلس سنة ١٠١٧ هـ بعد ما رأوا مصارع إخوانهم ونفيهم وتشريدهم . وتوالت السنون ، ومرت الايام ، والمأساة تحز في نفس كل مسلم ، وتتجدد في صدر كل عربي ، وكأنه في موقف أبي الحزم ابن جهور حين وقف على قصور الامويين وقد تقوضت أبنيتها ، وعوضت من أنيسها بالوحوش أفنيتها ، فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أيننا ^(١)

تولى أبو الوليد بن جهور أمر قرطبة بعد أبيه فيمن تولوا الأمر واستقلوا بالمدن الكبرى من ملوك الطوائف ، فلما أدركه الإعياء وألحت عليه الشيخوخة ، ترك الأمر لابنه عبد الملك ، وأسلمه الزمام . فلما طمع يحيى بن ذى النون في قرطبة ، على عادة هؤلاء الملوك ، وقد توفرت دواعي الطمع من الانحلال والفرقة ، وأرقته الرغبة في الاستيلاء عليها فيمن تورقه من المتربصين ، أنشب مخالبه فيها فاستجار عبد الملك بالمعتمد بن عباد المتغلب على إشبيلية ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، حيث كان هو الآخر متبعا بقرطبة حتى جلا عنها ابن ذى النون يأسا . ولكن ما انفشعت سدفه الليل حتى هتك العباديون الحريم . خرج عبد الملك لى يشيعهم ويشكرهم على حمايته فلم يرعهم إلا لإحداقهم بقصره وارتماع أصواتهم بالبراءة من أمره . وقبض عليه وعلى سائر أهله ، وأخرج أبوه الشيخ أبو الوليد مفلوج الشدق ، مائل الشق ؛ فلما وسط به قنطرة قرطبة خارجا منها على هجين رفع يديه إلى السماء وأخذ يبتهل : اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجب لنا ، ^(٢) .

(١) مطمح الأنفس ص ١٧ والفتح - ١ ص ٢٤٩ .

(٢) عن الذخيرة لابن بسام - ٢ ص ١١٤ وما بعدها .

ترى هل استجاب الله هذا الدعاء ؟

كان المعتمد هذا أكبر ملوك الطوائف وأنداهم راحة ، وأرحهم ساحة ، وكانت دولته كما يقول أبو بكر الداني أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل ؛ وكانت حضرته ملتقى الرجال ووسم الشعراء ، وكان ذكي النفس ، غزير الأدب رقيق الشعر ، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله ^(١) . أما ترفه وإسرافه وبذخه فشيء يسمو على الخيال ، ويتقاصر دونه افتتان القصاص . قالوا إن جاريته « اعتماد » رأت يوما نساء البادية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين ، فاشتتت أن تفعل هي وجواربها مثل هؤلاء النسوة ، فأمر المعتمد بالمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا في القصر ، وجعل لها قربا وحبالا من إبريسم وخرجت هي وجواربها تخوض في ذلك الطين ^(٢) .

أما نهايته فكانت من أجمع الهيايات ، وكانت ظروفها على هذا النحو الذي سلمه هؤلاء الملوك من الرغبة في الاستبداد بالملك ، وحوك الدسائس ، وتحين الفرص ، والاستعانة بالأجنبي .

طمع الأذفونش في بلاد المعتمد ، فأرسل إليه يتهده ، فحضر المعتمد الرسول وقتل من معه ، فتأهب له الأذفونش ، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف ابن تاشفين ، فتم له النصر . ولكن دعاء أبي الوليد لا يزال يتردد في أطباق السماء ، فسكما كان المعتمد نارا حين استجار به أبو الوليد من رمضان ابن ذى النون ، كان يوسف بن تاشفين نارا على المعتمد من رمضان الأذفونش ، فقد غدر بالمعتمد وانتزع البلاد من أبنائه ، وقتل ابنه الظافر المتولى زمام قرطبة المغصوبة ، في حالة مؤثرة وصفها صاحب القلائد ، ثم ابنه المأهون كذلك . وحوصر المعتمد بأشبيلية وقبض عليه واعتقل بمدينة « أغمات » ، وأودع ذل قيدها وظلام سجنها ، و« شرّد » أبنائه ، وذلت بناته ، وتحطم ملكه الشاوخ ، وانطوى بساط عزه ومجده .

دخلت عليه بناته في سجنه يوم عيد وكن يغزلن للناس بالاجرة في أغمات ،

(١) نفح الطيب ٢ ص ١١٣٤ .

(٢) المعجب - للرا كشي .

حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه ، فرآهن المعتمد في أطهار بالية وحالة رثة ، فصدعن قلبه فقال :

فيما مضى كنت بالاعباد مسرورا فساءك العيد في أغمت مأسورا
ترى بناتك في الأطهار جاعة يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في التراب والاقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
من بات بعدك في ملك يسره فإنما بات بالاحلام مغرورا

وكان القدر كان يسخر من عبثه مع جاريته (اعتماد) فردّ بناته إلى الطين الحقيقي : طين الريفيات حاملات الجرار ، لاطين المسك والعنبر والكافور :

يطأن في الطين والاقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أجل :

أرغب أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضربها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه إذا يبدو النداء
ولكن الدعاء إذا دعاه ضمير مخلص نفع الدعاء

ويدخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الاسود ، وهو لا يطيق لإعمال قدم ، فلما رآه بكى وقال :

قيدي أما تعلمني مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرني فيك أبو هاشم فيمتحن والقلب قد هشما
ارحم طفيلًا طائشا له لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيمات له مثله جرعتن السم والعلقما

وما زال يرسل من زفراته ، ويسكب من عبراته حتى مات بالسجن سنة ٤٨٨ هـ ، بعد أن صدع القلوب بأمانته الكسيرة ، وهزّ النفوس بمواجهه الالمية ، فما أمر الغلة بعد العز ، وما أقسى الشقاء بعد النعيم ! . وقف ابن اللبانة في جماعة من الشعراء على قبره في يوم عيد ، والناس عند قبور أهلهم ، فأنشد بصوت عال :

أهل النار يخلصون

لفضيلة الأستاذ علي محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر في السودان

نعوذ بالله من النار ومن خصوماتها ، وإنها لخصومات عنيفة لا عهد لأهل الدنيا بمثلها ؛ فهي خصومات بين السادة والمسودين ، بين الاتباع والمتبوعين ، ظلم الجميع أنفسهم فرأوا العذاب ، فغبرأ المتبوعون ، وندم التابعون .

وهذه قصة عرض لها القرآن الكريم في أكثر من موضع ، فبين في وضوح وجلالة حال أولئك الكبراء الذين حملوا أوزارهم ، وأوزار الذين أضلواهم بغير علم ، وحال أولئك الضعفاء الذين صغرت نفوسهم ، وسخفت عقولهم ، وذات أرائدهم ، فانقادوا لكبرائهم ، يؤمنون بهم ، ويحبونهم كحب الله أو أشد حبا ، ويعتقدون أنهم سيجعلونهم على أجنحتهم يوم يحشر الناس حفاة هراة ، فللمؤمن محبوب

ملك الملوك أسامع فأنادى أم قد عدتكَ عن السماع عواد
لما نقلت عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنتَ في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وجعلت قبرك موضع الانشاد
واستمر في القصيدة يبكي والناس يجتمعون عليه ويكون .

تُرى هل استجاب الله دعاء أبي الوليد حين أخرجه المعتمد مفلوج الشدق مائل الشق ؟ نعم . ولعلها عظة لمن يصول بالقوة ، ويدل بالبأس ، ويعميه الغرور فيسكيد للضعيف ، ويستبد بالمغلوب ، ويستعمر الشعوب ، ويستعبد الممالك ، ويدبر في الخفاء . وإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه ، وإنها لدعاء نافع مستجاب ، كما يقول المعتمد نفسه :
ولكن الدعاء إذا دعاه ضمير مخلص نفع الدعاء .

واحد — هو الله تعالى — يعتقد أنه كل شيء ، ويبيده ملكوت كل شيء ، وله القدرة والسلطان على جميع الأكوان ، فما ناله من خير فهو بهدايته وتوفيقه ، وما تعذر عليه من أمر فهو يكمله إليه ، ويعول فيه عليه ، وللشرك أرباب متفرقون ، فإذا تعذر عليه أمر ، لجأ إلى بشر أو صخر ، أو توسل بحيوان أو قبر ، أو استشفع بزيد أو عمرو ، فهو دائماً مضطرب البال ، لا يستقر من القلق على حال ^(١) .

هكذا يزين السادة للضعفاء ، وهكذا يذل الضعفاء للسادة ، ولكنهم ما يكادون يفارقون هذه الحياة حتى يتبين لهم ، فإذا بلغت الروح الخلقوم ، وحضرت الملائكة تنوفي أولئك الضعفاء ، سألتهم : أين الذين كنتم تعتمدون عليهم ، وتتوسلون بهم ، وتعتقدون أنهم شركاء لله ، فيلتفت الضعفاء يمنة ويسرة ، فلا يرون من يرد عنهم الموت ، أو يخفف من سكراته ، فيعرفون — لأول مرة — أنها كانت خدعة ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ، قالوا ضلوا عنا . وينفخ في الصور فيخرجون من قبورهم فاكسى رؤوسهم ، خشعاً أبصارهم ، يهولهم الموقف ، ويشدد عليهم الحساب ، فيلتفتون لعلهم يجدون من يأخذ بأيديهم ، فإذا سادتهم يبرزهم الملائكة لهم ، لكن لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، ولا يسأل حميم حميماً ، فهم يترامون ، ويبصر بعضهم بعضاً ، ولكن يفر المرء من أخيه وصاحبه ، فيسمعون الصوت ساخراً منهم ، هائلاً بهم : ما لكم لا تناصرون ، فيمتعابون عتاباً خفيفاً هادئاً ، يقول الاتباع : إنكم كنتم توسوسون لنا ، وتزينون لنا الشرك والكفر ، فيجيبهم المتبوعون في حمرة لاذعة ، وألم بالغ ، : ما كان لنا عليكم من سلطان ، بل أنتم الذين آثرتم الشرك . واحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتسالمون ، قالوا إنكم كنتم تأتونا عن البين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين . ولكن يشتد عليهم العذاب ، ويطول بهم

الموقف ، فترفع أصواتهم وينفجر غيظهم ، وحنقهم على رؤسائهم ، فيتراجعون القول ، ويتقاذفون التهم ، الضعفاء يتهمون ساداتهم بأنهم أضلوه ، ومنعوه من الهدى ، وحادوا بهم عن طريق الحق ، وأوهموهم أن الخير في اتباعهم ، والرشاد في السير وراءهم ، والمستكبرون يتهمون الضعفاء بأنهم كانوا راغبين في الشهوات ، طامعين في الملمات ، محبين للفساد في الأرض ، متهاونين في حق أنفسهم ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أتمم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب .

ثم يساق المستكبرون إلى النار يجدون فيها جزاء ما اكتسبوا ، في سحور ، وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، ويلتفتون في ساعة من ساعات الضيق والقلق - وكل ساعاتهم كذلك - إلى أبواب الجحيم ، فإذا الزبانية يسوقون فوجاً في السلاسل والأغلال ، فيتأملونهم فإذا هم أتباعهم في الدنيا ، فيتقربون منهم ، وينادونهم ، لا مرحباً بكم ، ولا سهلاً لكم ، كنا ظنناكم نجوتكم من العذاب ، وبعدتم عن النار ، ولكنكم تدخلونها كما دخلناها ، فلا حياكم الله ، فيرد عليهم الاتباع حانقين ثائرين : « بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . » وهكذا كلما دخل فوج لعن الأول الآخر ، ولعن الآخر الأول ، فإذا اجتمعت الأفواج كلها ، جعلوا يتصايحون ويتسابون ، ويظنون كذلك يتسابون ويتلاعنون حتى يأذن الله : « قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أحرأهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأحرأهم : فما كان لنا عليكم من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . » فإذا لم يجدوا من هذا التلاعن فائدة لجأ الضعفاء - كعادتهم في الدنيا - إلى ساداتهم - ولعلمهم يرجعون هذه المرة ساخرين - رجعوا إليهم يرجونهم أن يخففوا عنهم شيئاً من العذاب ، ولكن كيف ! وكل فيها : « وإذا يتعاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم

مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد ، ، وتبرأوا منهم - وهم منذ بعيد يتبرأون - ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم ، حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ، نعم ، لا رجعة ولا عودة ، ولا أمل في رجعة أو عودة ، فلم يبق إلا اليأس ، اليأس من المتبوعين ، واليأس من العودة إلى الدنيا ، فيندمون على ما فعلوا ، ويلجأون إلى الله يطلبون منه أن يضاعف لسادتهم العذاب : « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

حكم الله بين العباد ، وجازى كلا بما قدم ، جازى المتكبر بضلاله وإضلاله ، ولم يرحم الضعيف العقل ، السخيف الرأي ، فجازاه على ضلاله ، واستخفافه بعقله ، واتباعه لغيره على غير هدى ولا بصيرة ، ولم يذفع الاتباع بمتبوعيه ، ولا خفف عن المتبوعين أن الاتباع معهم في النار ، والقرآن الكريم يخاطب هؤلاء وهؤلاء : « ولئن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » .

أهل النار يختصمون : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ، ويتحاجون ويتلاعنون ، ويتبرأ الكبار من الصغار ، ويشترك الجميع في العذاب » .

هذه هي القصة التي ذكرها القرآن الكريم في مواضع غير قليلة ، وبينها واضحة جلية ، فهل لنا أن نطمع في أن يلتفت إليها أولئك الذين يعبدون الله على حرف ، ويتعلقون بآمال كاذبة ، وهل لهم أن يعلموا أن كل علاقة تقوم بين اثنين على غير رضا الله ومحبه هي وبال على الاثنين معاً ، يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة ، ولا يغني مولى عن مولى شيئاً ، و « الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ،

لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

لفضيلة الشيخ محمود جميلة
المدرس بكلية اللغة العربية

أجناس المخلوقات متنوعة ، وأنواعها متفاوتة وأعمال الإنسان متعددة ، وأقواله متكاثرة ، وقد اختار الله من كل جنس أطيبه ومن كل نوع أحسنه ومن كل عمل أصدقه ومن كل قول أوفاه .

فطيب كل شيء هو مختاره تعالى وموضع قبوله ورضاه ، وأن تناول خلقه ما سواه ، ففضل النورانية للطيفة على البشرية للكشيفة ، ورفع الطين على النار ، وميز الناطق على الأعمم والحيوان على الجماد ، وجعل في كل ذلك ما به تأتلف وتختلف ، وتتحده وتفترق ، وتقبل وترد ، وتعلو وترسب .

والإحسان في كل شيء هو طلبته وموضع محبته وإليه دعوته ومنه اسمه وإليه مرده وعنده جزاؤه والزيادة منه وثوابه والفضل عليه .

والحسن يحب الحسن والمحسنين ، ويكره الخبيث والخبيثين ، كما أن الطيب يحب الطيب والطيبين ، ويكره الخبيث والخبيثين فأعمال الإنسان وأقواله خاضعة لهذا الوضع تابعة لهذا القانون : من أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .

والقول الحسن أو الكلام الطيب الذي إليه يصعد وبه يرضى وعنده يقبل هو المنزه عن الفحش والتفحش ، والكذب والبهتان ، والخبث والزور ، والباطل والضلال . فكان نصحاً للمسلمين أو صلحاً بين المتخاصمين أو شهادة تظهر الحق أو قولة تبطل العدوان أو سفارة مخلصة أو شفاعة حسنة أو ذكراً يرطب القلوب أو استغفاراً يمحو الذنوب أو صلاة ناهية أو حكمة شافية أو دعوة للإصلاح أو صرخة في الحق أو نداء في سبيل الله .

والعمل الصالح الذى إليه يرفع ولديه ينزل وعنده يقع موقعه من الرضى والقبول هو ما حسنته الفطر السليمة والشرائع المنزلّة والعقول الصحيحة .
 كتوحيد المبدع وإيثار رضاه على هدى النفس وتخصيصه بالطاعة والعبادة والإحسان إلى خلقه بنصحهم وانصافهم وتحمل أذاهم ، والكف عن أعراضهم ومعاملتهم بالحسنى والاختذ بيدهم إلى طريق النجاة وامثال أوامره واجتناب نواهيه ، كما أنه تعالى اختار من الأخلاق أذكاهما وأطهرها كالوفاء والرحمة ، والتواضع والعزة ، والحلم والشجاعة ، والحق والصبر ، والمروءة والسخاء ، وصيانة الوجه ، ونقاء القلب من الغل والحسد والحقد إلى غير ذلك من خلال الخير وصفات الرحمة التى أيدها النظر ودعت إليها الأديان ، ووافقت عليها الطبائع وقضت بها العقول .
 ويحب الله لعباده من الغذاء أو النساء أو الرائحة أو العشاء - الحلال الجلى ، والسليم الهنى ، والمرى الشهى ، والطيب الذكى ، والخل الوفى ، والناصح الابى ، والصاحب النقى .

فسيحانه وتعالى يحب الطيب لعباده ومن عباده ، ويكره لهم الخبيث فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ودعاهم بما أودع فيهم من قوة التمييز وقدرة التفكير وبعد النظر وصحة التأمل والاعتبار - إلى النافع الناصع والصالح الظاهر والحق المبين والطريق المستقيم ؛ حتى إذا ما استقاموا على الطريقة وطابت نفوسهم بالطيبات ونفرت من الخبائث توفتهم الملائكة طيبين ، وقال لهم خزنة الجنة سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين .

فالجنة طيبة ، غرسها طيب ، وماؤها طيب ، وربحها طيب ، أعدها الله للطيبين واختارها للمتقين ، كما أن النار خبيثة ، ربحها خبيث ، وطلعها خبيث ، أعدها الله للخبيثين ، وجعلها دارا للسرفين ؛ فهما داران لسكل منهما جزء مقسوم ونصيب معلوم وعدد مرسوم .

أما الدنيا فقد جمعت بين الأمرين ، واتسعت للنفيسين واشتملت على الضدين ففيها : شر وخير ، وعدل وظلم ، ونور وظلمة ، وهدى وضلال ، وعلم وجمل ، وحكمة ونزق ، وذنب وتوبة ، وإصلاح وإفساد ، وطيب وخبيث ، كل ذلك وما وراءه لا تتردد النفوس فيه ولا يتطرق الشك إليه ، فالحلال بين والحرام بين ولكن للعقول المميزة بين هذه المتخالفات وتلك المتباينات قد يغطيها صدا يعكر

صفوها أو سحاب يستر ضوءها أو حجاب يمنع نفوذها فتتردى في الباطل باسم الحق وتؤمن بالزور والضلال خضوعا لغلبة الشهوة وسيطرة الشيطان .

وما كان الله ليدع عباده في ظلمة الدنيا حيارى بين حق مستور ، وباطل مشهور ، وهو دون أن يبين لهم الطريق ويوضح لهم السبيل ويفتح لهم باب الرشاد والقبول - وكيف يجعل لهم موعدا ، ويضع لهم ميزانا ويعد لهم صراطا ويقفهم وقفة السؤال والحساب ، ويزف المحسن إلى الجنة ، ويسوق المجرم إلى النار وهو عدل في قضائه ورؤوف بعباده ، وقد بقيت الحجة للأخوذ ، والمعذرة للمطلوب ، تعالى الله عن ذلك ، وتنزه عما هناك ، فقضت كلمته وشامت لإرادته أن تكون الحجة له والمعذرة لآليه ، فله الحجة البالغة على خلقه ، وليس لخلق عليه حجة ، فاصطفى من عباده من شاء أن يصطفى ، واختار منهم من شاء أن يختار ، اصطفى رسلا من الناس للناس ليتم التفاهم ، وتقطع الأعذار ، وتبطل العلل ، ويزول اللبس وتقوم الحجة ويحصل الإلزام .

أرسلهم لتمييز ما اختلط ، وكشف ما استتر وتوضيح ما اشتبه ، ونشر الحق وإقامة العدل وفتح مسالك الجنة وسد مسالك النار .

أرسلهم مبشرين ومنذرين وهادين وناصحين وداعين ومرشدين . صنعهم بيده وعلمهم من كلمته وأسبغ عليهم من نعمته وجعلهم مصابيح مضيئة تهدي إليه ، وتدل عليه وتحيا لأجله وتموت لأمره وتدهو لجنته وتنفر من ناره ؛ أمدهم بنصره وأيدهم بعنايته وأنزل معهم الكتب والحجج فاستبان الأمر ووضح السبيل وسلك كل طريقة وصوت الحق يناديه : هذا حلال وهذا حرام ، لهلك من هلك ويحيا من سلك .

وقد شاءت حكمة الحكيم بعد دعوة المرسلين أن يبقى في الناس من الناس أمثلة من أمثلة الخير ودعاة من دعاة المعروف وهداة من هداة الآمة ، تهذب نفوسهم وسمت عقولهم وصدقت نياتهم وتولاهم ربهم ، فطهر قلوبهم وعرفهم بنفسه فباعوا من أجلها نفوسهم فلا يردون ولا يصدرون إلا متقين مؤمنين ممتثلين موقنين ، وهؤلاء هم الأنبياء قبل حكم النبوة والاولياء والعلماء بعد البعثة الحمدية ، أولئك دعوا الناس بأفعالهم وأقوالهم وصفتهم ونطقهم فكانوا قدوة تحذى وعصبة ترتجى ، رحمة من ربك وفضلا من خالقك ، وفقنا الله لمتابعتهم والسير على سنتهم ؟

الأفضل بن بدر الجمالى

الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

كان بدر الجمالى ، والد الأفضل ، أرمنى الجنس ، اشتراه جمال الدولة بن عمار ورباه عنده ، ولصائب رأيه ، وقوة عزمه ، وشهامته ، استنابه المستنصر الفاطمى على مدينة صور ، وقيل عكا . ثم أخذ يتدرج فى المناصب الكبرى لما أصابه من نجاح فى الحروب السورية ، وحرب الأتراك ، حتى أضفى أشد الحكام قوة فى سوريا . ولما أطبقت المصائب على الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر استجار به الخليفة ، ليربأ الصدع ، ويقوم المعوج ، فقدم مصر على رأس جيوشه السورية المسماة « الشرقيين Easterns » ، تميزا لهم عن الترك ، والبرابرة ، والعناصر الموجودة بالبلاد ، وذلك بعد أن فتكت المجاعة بأهل البلاد ثمانى سنوات (٤٤٦ - ٥٤٤ هـ) . وبعد أن عاث الترك فيها فسادا . وبعد بجيشه فوض له الخليفة كل شىء ، فسميت الوزارة باسم « وزارة التفويض » ، ومن ثم علا نجم الوزارة وهوى نجم الخلافة ، وذلك طابع التاريخ الفاطمى ، فى عهده الأخير . وألحق يقال إن البلاد تدين لبدر وابنه الأفضل مدى نصف قرن بما سادها من هدوء ورخاء .

ولما مرض بدر الجمالى ، أوصى بتدبير المملكة من بعده ، لولده الثانى ، « شاهين شاه » ، وذلك لطول ما لازمه ، وتدريب على يده ، واكتسب من سيرته . ولما تولى « شاهين شاه » الوزارة ، لقب بالأفضل ، وبجميع الألقاب ، والامتيازات ، التى كانت لأبيه ولقد كان للأفضل ، أخ ، يكبره ، يدعى « الأوحد » ، لم يعهد إليه أبوه ، بالوزارة ، لأنه خرج عليه ، وتحصن فى الاسكندرية ، فضى إليه أبوه ونازله حتى هزمه ، ودخل الاسكندرية ، وبنى بها مسجد العطارين . أضف إلى ذلك ما تحلى به الأفضل من أخلاق وميزات ، لم تكن لأخيه الأوحد .

ولم يخلص الأمر للأفضل بسهولة ، فإن « أمين الدولة لاوون » ، وهو من فتيان بدر ، تنكر لمناضيه مع سيده ، وحاول في ساعات بدر الأخيرة ، أن يقفز الى الوزارة ، عن طريق رشوة الأمراء ، واسترضاء الخليفة الفاطمي ، فأبى المستنصر الوفي ذلك عليه ، ودس له منافسه « ناصر الدولة أفتكين » ، حتى اجتمع الأمراء ، على مناصرة الأفضل . فركب الأفضل ، بعد فشل « لاوون » ، إلى باب العيد ، فأكرم الخليفة وفادته ، وأقامه مقام أبيه ، وسد به مسده ، وأتبع ذلك بزيارة لبدر ، وهو على فراش الموت ، مقرأً أمر ابنه من بعده ، بحاملة له ، وطمأنه على مصير ابنه . وبذلك أضحى الأفضل وزيراً مكان أبيه ، واجتمع له من الرتب والألقاب والادعية ما كان لأبيه . أما « لاوون » ، فقد عفا عنه الأفضل ، وأبقى عليه ، ثم اعتقله أثناء حركة « نزار » ، بالاسكندرية ، مخافة خيانتة ، وظل كذلك حتى مات في معتقله .

وقد كان الأفضل يلقب « بالسيد الاجل » ، الأفضل ، سيف الامام ، جلال الإسلام ، شرف الانام ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين ، أبو القاسم شاهين شاه ، ابن السيد الاجل ، أمير الجيوش المستنصري ، وفي الحقيقة أن لقب الأفضل ، يسترعى انتباهنا . وبقدر المستطاع تلست علة هذه التسمية أثناء قراءتي في الخطط المقرزية إذ يقول المقريزي ما نصه : « فلما قام شاهين شاه أمير الجيوش من بعد أبيه ، ومات الخليفة المستنصر ، وأجلس ابن بدر في الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلي ، صار يقال له الأفضل ، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب بها أيضاً . » فن حديث المقريزي يمكن أن نستنتج أن لقب الأفضل صار له عند ما فضل خلافة المستعلي على نزار ، وأقامه بدل أخيه . منذ ذلك الحين صار يقال له الأفضل ، أما الوزراء الذين حملوا هذا اللقب من بعده ، فقد حملوه تقليداً وأشبهاً .

قضى المستنصر عام ٤٨٧ هـ (٢٩ ديسمبر ١٠٩٤ م) ، وخلف من بعده ، سبعة أولاد ، كان أصغرهم المستعلي ، الذي اعتلى العرش ، بمساعدة الأفضل ، وأكبرهم نزار ، الذي أقصى عن العرش . وتضطرب الرواية الإسلامية في هل عهد الخليفة الراحل من بعده بالخلافة الى ولده نزار أم لا ؟ ويقال إن الخليفة

قد نص صراحة في حياته على أن يخلفه ولده « أبو المنصور نزار » ، فلما مرض أراد أخذ البيعة له ، فتقاعد الأفضل ، ودافع المستنصر من يوم الى يوم حتى مات . ولقد عمد الأفضل بشتى الوسائل الى إبعاد نزار عن الخلافة ، فأخذ يدس له ، عند العوام والخواص ، وخوفهم منه ، حتى انفضوا من حوله ، ثم فاوض عمه نزار في ولاية أبي القاسم على أن يلقب بالمستعلي على أن تكون لها كفالة الدولة فشهدت بأن المستنصر عهد له بمحضر القاضى والداعى . جد الأفضل بعد ذلك في أخذ البيعة للمستعلي ، وتم ذلك بحضور قاضى القضاة المؤيد بنصر الانام « على بن نافع بن السكحال » ، على مقدمى الدولة ورؤسائها وأعيانها ، واستجاب لهذه البيعة كل من اسماعيل وعبد الله ابنى المستنصر ، وكتب بذلك محضرا قرأه على الامراء « الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسينى » ، الكتائب بديوان الإنشاء .

لم يترك نزار الأمر يمضى على هذا النحو سهلاً ليناً ، وهو فيما يرى صاحب حق مغتصب ، وقال للأفضل يوم طالب منه مبايعة المستعلي « لوقطعت ما بايعت من هو أصغر منى سنأ ، وخط والدى عندى بأنى ولى عهده » ، وأنا أحضره . وخرج مسرعاً حيث مضى هو وأخوه عبد الله - ناقضاً البيعة - وابن « مصال السلسكى » الى الإسكندرية ، وهناك استمال نزار واليها المدعو « ناصر الدولة أفتكين التركى » ، إذ وعده بالوزارة ، وكذا بايع أهل الإسكندرية نزاراً ولقب « بالمصطفى لدين الله » ، وساعده على ذلك « ابن عمار » قاضى الاسكندرية ، فكان البيعة التى تمت بالقاهرة على يد قاضى القضاة « على بن نافع بن السكحال » ، قد تم مثلها بالاسكندرية على يد قاضى الاسكندرية « جلال الدولة على بن أحمد بن عمار » . وذلك ما أزعج الأفضل كثيراً ، فأخذ يعد العدة لملاقاة نزار .

وفي آخر المحرم ٤٨٨ هـ (فبراير ١٠٩٥ م) ، أعد الأفضل حملة سار بها متجهماً الى الاسكندرية ، غير أنه انكسر فى جولته الاولى ، وتمكن نزار من الاستيلاء على الوجه البحرى بما توافر لديه من الانصار العديدين من أعراب الدلتا ، وبذا أصبح نزار خطراً حقيقياً يهدد سلامة الدولة . رجع الأفضل الى القاهرة منكسراً ، وليس خائب الرجاء ، فجمع على عجل جيشاً آخر ، وتوسل

بوسائل الدس والرشوة لدى أعوان نزار وأفتكين ، وأخذ يعدهم الوعود الطيبة ، فانفض أعوان نزار من حوله ، وأقدم على محاصرة الاسكندرية ، وضيق عليها الخناق ، ففر « ابن مصال » إلى المغرب ، وضعفت بذلك شوكة نزار وأفتكين ، وطلبوا الأمان فأمنهما ، ثم قبض عليهما وعلى « ابن عمار » وأرسلهم مخفورين إلى القاهرة ، فأما نزار فإنه قتل في القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه ، وأما أفتكين فقد قتله الأفضل بعد قدومه ، ويقول ابن خلدون [ج ٤ ص ٦٦] إنه قتل بالضرب بالعصى لأن الأفضل أحضره يوماً ووبخه فهم بالرد عليه .

وعلى هذا نرى أن الأفضل أدخل بالأمان الذي أعطاه لنزار وأفتكين وابن عمار ، لأنه كان حائقاً حقيقاً كبيراً على نزار وأفتكين ، ولأن الأخير كان يلعن المستعلي والأفضل على المنابر . كذا قتل الأفضل عبد الله أخ نزار ، وولى « أبا الحسن بن حديد » قاضياً على الاسكندرية بدل ابن عمار .

وتردد بعض المصادر سبباً طريفاً تعلل به فرار « ابن مصال » إلى بلاد المغرب ، وذلك أن ابن مصال رأى في منامه أنه راكب فرساً والأفضل يسير في ركابه فقتل المعبر : المشاي على الأرض أملك لها ، فلما سمع ذلك جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب ، ويقال إن الأفضل أتمن ابن مصال واستقدمه وأبقى عليه . وهكذا استطاع الأفضل القضاء على هذه الفتنة في مهدها ، التي لو قدر لها النجاح لاطاحت بوزارته وبخلافة المستعلي .

ويجدر بنا أن نتساءل : ما هي الأسباب التي حملت الأفضل على إقصاء نزار عن الخلافة ؟ تردد غالبية المصادر وخاصة العربية منها أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر ، وكان الممر مظلماً فلم يره الأفضل ولم يترجل ، فصاح به نزار « انزل يا أرمي الجنس ،

وفى رواية أخرى «انزل يا أرمنى يا كلب» وفى الثالثة «انزل يا أرمنى يا نجس» ، وعلى هذا أضمر كل لصاحبه الكراهية ، ومن دواعى هذه الكراهية أيضاً ، أن كان لنزار حاشية وأعوان يعملون على إقصاء الافضل عن الوزارة .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الافضل يعارض نزاراً فى أيام أبيه ويستخف به ويضع من حواشيه وأسبابه ويبتطش بغلمانه . . . فلما مات المستنصر خاف الافضل على نفسه فعمل على إقصائه عن العرش . أما المصادر الاجنبية فتورد جملة تعليقات لهذا الإقصاء ، من أهمها أن الافضل كان يرغب فى الاحتفاظ لنفسه بالقوة التى كانت لأبيه أيام المستنصر ، فعمل على إقصاء نزار عن الخلافة وكان عمره إذ ذاك خمسين عاماً ، أما المستعلى فكان عمره فى ذلك الحين ثمانى عشرة عاماً ، فيكون ولا شك فى يده أطوع أمراً وأسلس مقادة من أخيه الممن ، فكان الافضل بإبعاده نزاراً عن العرش ، كان مدفوعاً بعوامل شخصية قوامها الكراهية والطمع فى تركيز السلطة فى يده ، ولم تذكر المصادر عربية كانت أو أجنبية عيوباً خلقية أو خلقية تحول دون تولى نزار الخلافة .

ويجدر بنا أن نلم فى ختام هذا المقام بالنتائج التى ترتبت على حركة نزار وهزيمته ، وأهمها نتيجتان : الأولى ازدياد قوة الافضل بالطبع ، إذ ظل المستعلى مسلوب السلطة معه طيلة خلافته . والثانية أن هذه الحركة سببت الانقسام فى صفوف الفاطميين ، فأصبح الفاطميون وأعوانهم بمصر قسماً ، وأتباعهم خارج مصر قسماً آخر ، وهؤلاء هم النزاریون الذين كانوا يدعون مبدئياً للمذهب الفاطمى عامة ، ثم أصبحوا بعد مقتل نزار سنة ٤٨٨ هـ حزباً قائماً بذاته يعمل على مناوئة الفاطميين بمصر ويقول بإمامة نزار ، ولقد سببت هذه الطائفة كثيراً من المتاعب للدولة الفاطمية ، ولقد دخل بعضهم مصر ولايبعد مطلقاً أن يكونوا هم الذين دسوا السم للإمام المستعلى .

والى مقال قادم نعرض فيه لفرقة النزارية ، ونتم فيه الحديث عن وزير جليل خطير من أهم وزراء العهد الفاطمى هو الافضل بن بدر الجمالى .

دراسات في التصوف :

العقل والنقل والذوق

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

نشأت بين الفقهاء والصوفية خصومة عنيفة دامية ، بدأت مع بدء التصوف كعلم ، واستمرت تشتد وتضطرم كلما تقدم بها الزمن . فالصوفية قد اتبعوا مذهبها ، واصطنعوا آراء ، هي على طرف نقيض مع آراء الفقهاء ، فكان النضال بين الفريقين فضال مذاهب :

طريق التصوف ، كما نعرف ، هو التخلص من ربة البدن ، وهو تنقية النفس وتصفية الروح ، والصعود بها إلى السماك الأعلى ، هناك حيث تتحد بالحق ، وحيث تنكشف لها أنوار اليقين ، فالروح إن تخلصت من البدن ، سمت وارتفعت عن أدران الأرض وأحقادها ، إلى عالم الله ، إلى عالم الحقيقة . هنالك تجد الروح لذة لا تعادلها لذة . أما السبيل إلى ذلك فهو كما قلنا التخلص من ربة البدن : بالرياضة والمجاهدة والزهد والحرمان والتقشف .

تلك جميعا هي وسائل في سبيل غاية أولى ، ومقصد أسنى وأنبى ، لا بل في سبيل شيء أعظم من ذلك وأقدس ، إنما هي وسائل فصل بوساطتها إلى عين الحق . يريد هؤلاء القوم أن تتلاشى عن أبصارهم حجب المساديات ، فيأخذون أبدانهم بالمجاهدات والرياضات ، حتى يتخلصوا — إن أمكنهم ذلك — من مظهر الوجود الشخصى المحدود : يريدون الفناء عن أنفسهم في الله ، والتخلص من أبدانهم ليتصلوا بالله .

ولكن الفقهاء أبوا أن يسيروا مع الصوفية في نفس الطريق ، فأصموا آذانهم دون هذا الحديث ، فإنه لحديث مشكل ، وطريق غير معبد ، لا يستطيع السير

فيه إلا من يسلك طرق الصوفية ويتبع خلتهم ، فإنهم وقد بنوا عليهم على أصول كشفية ، وعلوم ذوقية ، فإن علينا أن نحكم الأصول حتى نعرف الفروع ، وأن نتجرد عن الدنيا والآخرة حتى ندوق ، وعلينا قبل أن نبدأ فهم كلامهم أن نكون منهم ، وأن نعلم ماهية النفس على طريقتهم .

وهنا نجد الفقهاء يخالفونهم في السير ، ويباينونهم في الفهم ؛ إن الروح عندهم من أمر ربهم ، لا يقبلون فيها نقاشاً أو جدالاً ، إنها حقيقة مسلمة أمرهم الله ألا يبحثوها ، ولذا عجز الفقهاء عن فهم الصوفية ، فرماهم هؤلاء بأنهم لا يعلمون من الحكمة إلا الحشف والقشر ، وحاصل ما حصلوه إنما كان معرفة الجسم وبعض أعراضها ، وبعض عوارض الوجود ، بل وليت ذلك سلم من الأخطاء ، فإن به الكثير من الخطأ .

رأى للفقهاء أن الصوفية يتزهدون ، ويعرضون عن الدنيا ، لا يبغون منها مأرباً ، وإنما هم يبغون وجه الله ذى الجلال والإكرام ، لا يسعون إلى منفعة إن عاجلة أو آجلة في عالم الفناء ، ولكنهم يرغبون في عالم الحقيقة ، يرغبون الاتحاد بالله والفناء فيه . ولكن الفقهاء يرون أن الزهد مخالف للشرعية السمحاء ، نهى الله عنه بآياته البينات ، أفلم يقل عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعمدوا إن الله لا يحب المعتبدن » ، ولكن ليت الأمر وقف عند الزهد ، فإن أمره سهل ميسور ، ولكن تعداه إلى ما هو أكثر من ذلك خطراً وأقوى أثراً ، فنأدى الصوفية بالسكر والغيبة ، قد سكروا وغابوا ، يقولون إن أرواحهم في العالم القدسي ، في حضرة الربوبية ، فهم إن نطقوا فإنما ينطقون بلسان الله ، وإن تكلموا فإنما يتكلمون عن الله ، فإن قال الحلاج : أنا الحق ، أو إن قال : ما في الجبة إلا الله ؛ أو إن قال ابن عربي :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حملنا بدنا

نظر الاشرافيون إليهم نظرة إكبار وإجلال ، ولم لا ، وهم الواصلون إلى درجة العرفان ، المتحدون بالله قلباً وقالباً ، الناطقون عن لسان الحق ، المتكلمون عن إله الخلق ، إذن فليس في حديثهم هذا غرابة ، ولا يحق لنا أن ندهش إن سمعناه ، أو أن نعجب منه ، أو أن نستنكره ؛ أما الفقهاء فيرون فيه كفرأ

والحاداً : فمن هو ذلك الإنسان ، ذلك العبد الذى يرتقى فيصل إلى الله ، من هو هذا المخلوق من طين وماء مهبين ، أين هو من الله : نور السموات والارض ، النور على النور ، الذى يسكاد نوره أن يخطف الأبصار ، الله الذى إذا تجلى لجبل لخرَّ الجبل من هيئته تعالى ؛ أين هذا الإنسان إذن من عظمة الله وجبروته وقوته ، وأنى له أن يتصل به ، إن هو إلا إفك وبهتان ، وإن هو إلا تضليل للعقول :

فدع الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا فهم ذئاب خفاف

فالتصوف عند الفقهاء كان حقاً في عهد واحد وحقبة من الزمن واحدة ، أما ذلك العهد وتلك الحقبة ، فهو عهد الصحابة والتابعين ، عهد السلف الصالح ، أما بعد ذلك فقد خلط التصوف بالفلسفة الإشراقية ، وكسى بلون من الزهد الفارسي ، فأخذ التصوف حياة غير الحياة التي عرف بها الزهاد والوعاظ في صدر الإسلام ، وشاع يومئذ الغلو في الزهد ، وراج ماتوهموه في معنى التوكل من أنه نزع اليد من الأسباب جملة .

ووحدة الوجود هي أهم المسائل التي أحنقت الفقهاء على الصوفية ، وأثارهم ضدهم ، فنظروا إليهم نظرتهم إلى الملاحدة أو الكفار .

ولعل هذه النظرية في أصلها هندية أو فارسية ، متأثرة ببعض الافلوطينية ، ولكن الصوفية قد صبغوها بصبغتهم الخاصة ، وأسبغوا عليها من روحهم ما أحالها إسلامية إشراقية خالصة : فالسكائات كلها مظهر لعلم الله وإرادته ، وفيض صدر عنه مباشرة أو بالواسطة ؛ فوجودها مستمد منه جل شأنه ، ولا موجود بذاته ولذاته إلا الله الواجب الوجود ، المستغنى عن كل ما سواه ، وعنه صدرت السكائات الأخرى ، وأفادت الوجود والحياة فوجودها عرضي وبالتالي ، ومن هنا يظهر لنا أنه ليس ثمت إلا كائن واحد ، موجود حقيقة وضرورة بل هو الوجود كله . أما السكائات الأخرى ، فلا تسمى موجودات إلا مجازاً . وإذا كان الله هو الموجود الحق ، فكل ماعدها ظواهر وأوهام . فليس ما ثم وجود قديم خالق ، ووجود حادث مخلوق ، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله .

ولابن تيمية نقد مشهور لهذه النظرية ، يقول : لو صح هذا الذى يقولون لكان الله هو عين الخنازير والكلاب وسائر المخلوقات الدنيا ؛ وهذا كفر وبطلان ليس بعدهما كفر وبطلان . وثبت نتيجة تتفرع منها : لو أننا كنا نحن هين الله ، نحن بضعة منه وجزء ، فأفعالنا إن أحسننا هي أفعال الله ، وأفعالنا إن أسأنا هي أفعال الله ، فكأن الله إن أثاب إنما يثيب نفسه ، وإن عاقب فإنما يعاقب نفسه ، وهذا هدم للشرع والدين .

ونادى الفقهاء بتكفير من يقول بهذه النظرية ، وكأنما أحس الصوفية بما ينتج عن نظريتهم هذه فقالوا قولهم المشهور : إن العلم علمان : علم مكتسب ، وعلم موحى به . أما الاول فلندعه لهؤلاء المنقبين بين الصفحات ، الباحثين بين الكلمات الساهرين الليل الطويل ، القارئین المؤلفين ؛ أما العلم الثانى فسيبيله الله ، والله وحده هو الذى يصطفى عبده ، ويختيه ، ثم يشرق على قلبه نورا ليس بعده نور ، وعلما أكثر من العلم المكتسب ، بل وليس بينهما سبيل للمقارنة . وعلى الفريق الاول أن يكتفى بعلم الدنيا ، وألا يحاول أن ينفذ الى علم الله الذى لا يعرفه إلا هو ، والراستخون فى العلم المقربون منه المصطفون . [يتبع]

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدى يصف كلام رجل :
يسكنى قليل كلامه وكثيره ثبت إذا طال النضال مصيب
وأشدد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقض
توليده من حظ القديم شيئا :

طبيب بداء فنون الكلام	فلم يعنى يوما ولم يهذر
فإن هو أطنب فى خطبة	قضى للتبيل على المنذر
وإن هو أوجز فى خطبة	قضى للعقل على المكثر
وقال شاعر آخر يصف خطيبا :	
فإذا تسكلم خلت منه متكلما	بجميع عدة ألسن الخطباء
فكأن آدم كان عليه الذى	قد كان علم من الاسماء

العلاقة بينه سلام والنصرانية

لحضرة الاستاذ سالم أحمد الرشيدى
أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعو بابا روما إلى
اعتناق النصرانية ويعدده بالشهرة والمجد]

أخذت الدولة العثمانية بعد قيامها واستقرارها فى آسيا الصغرى ، فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى تمد فتوحاتها شرقاً وغرباً ، وعبرت مضيق الدردنيل إلى أوروبا واستولت على كثير من ممالكها حتى بسطت سيطرتها على معظم البلقان . وقد أثار هذا التقدم السريع الباهر الذى أحرزته الدولة العثمانية الفزع والرعب بين دول أوروبا ، وطالما دعت البابوية فى روما إلى شن الحروب الصليبية على هذه الدولة الإسلامية الفتية والقضاء عليها .

وعند ما تولى محمد الفاتح عرش السلطنة سنة ٨٥٥ هـ (١٥٤١ م) كانت لا تزال فى آسيا الصغرى بعض قلاع وإمارات إسلامية ونصرانية لم تدخل بعد فى نطاق الدولة العثمانية ، وكانت كلها تضمر لهذه الدولة أشد العداء والكرهية التى يمازجها شئ من التخوف والخشية . وما لبثت هذه القوى المختلفة أن أخذت تتآمر وتنظم الخطط للقضاء على الدولة العثمانية التى تزداد كل يوم قوة وخطراً ، ولا سيما بعد استيلاء السلطان الفاتح على القسطنطينية . وتولت زعامة هذه الحركات والمؤامرات طرابزون (١) .

(١) إمارة نصرانية صغيرة تقع فى شمال شرق آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود ، وكانت تعرف باسم : د إمبراطورية طرابزون ، .

وكان يوحنا انبراطورها (١) وقتذاك كغيره من الروم ، كبير الاعتداد والعجب بنفسه ، يعتقد أنه لا يدانيه أحد في المهارة السياسية ومعرفة دخائلها وحبايلها ، فكان يستغف بأعدائه ويستهن شأنهم وقوتهم . ولما بلغته وفاة السلطان مراد الثاني وقيام السلطان محمد الفاتح مكانه - وهو فتى شاب - استطار فرحاً وغبطة ، إذ ليس أيسر عليه - في اعتقاده - من أن يتغلب بمحنكته ودهائه على هذا الشاب الغر ، ويخضعه لأمره ، وأن في قدرته أن يستميل إليه من حوله من الأمراء في آسيا الصغرى وفيما وراءها من آسيا ، بل وفي أوروبا أيضاً ، يشد بهم أزره ويستخرم لأغراضه ، ويؤلبهم جميعاً على العثمانيين .

وقد وجد يوحنا في الأمير الطموح أوزون حسن (٢) خير حليف ونصير يعينه على تحقيق هذا الأمر ؛ إذ كان مثل يوحنا بنفس على الدولة العثمانية ما تحرزه من مجد وانتصارات ، ويكن لها أشد الكراهية والعداوة . غير أنه اشترط على يوحنا لمساعدته أن يزوجه ابنته كاترينه التي شغفته حباً بن كثرة ما سمع عن جماها وحسنها ، وقبل الامبراطور يوحنا ما طلبه أوزون حسن ، وسره أن يكسب هذا الحليف العظيم بهذا الثمن البخس ، وبعث إليه ابنته مع أخيه داود يصحبها عدد من الوصيفات النصرانيات وجماعة من الرهبان والقسس لمعاونتها على أداء شعائر دينها . ونجح يوحنا إلى جانب ذلك في توحيد صفوف الأمراء المجاورين له - أمراء سينوب والقرمان والكرج وأرمينيا الصغرى - الذين جمعهم على اختلاف أجناسهم وعمائدتهم الحقد على الدولة العثمانية ، وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بهجوم واحد عليها . وجاش في نفوس هؤلاء المتحالفين أو المتآمرين أمل قوى في قهر السلطان الفاتح وإخراجه من آسيا .

(١) يقول اللغوي العلامة الآب انستاس ماري الكرملى « أن كتابة الامبراطور بهذا الرسم ، كما يرسمه المعاصرون لا يوافق القواعد العربية ، لأنه لا يرى في الكلم الضادية من عربية ومعربة فيها الميم ساكنة ويلها باء متحركة . فاذا وقع مثل ذلك رسمت الميم نونا ، ولهذا يجب أن تكتب « الانبراطور » بنون ،

(٢) أمير تركاني كان يحكم آمد وديار بكر .

وحاول الانبراطور يوحنا أن يضم إلى هذه القوى الشرقية المجتمعة قوة الأوربيين في الغرب ، فتزلف إلى البابوية بالعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وإزالة أسباب الخلاف بينهما على الرغم من أنه في قرارة نفسه كان شديد التمسك بأرثوذكسيته ، شديد التعصب لها ، لا يؤمن بالاتحاد ولا يعتقد صحته .

وفيا كان الانبراطور يوحنا يحرك هذه المأمرة ويرسم الخطط ويعد العدة للقضاء على الدولة العثمانية ، يدفعه إلى ذلك أعظم الآمال ، ويرنو إلى المستقبل بنظرة واثقة باسمه إذ بغته الموت في سنة ١٤٥٨ م قبل أن يشهد شيئاً مما كان أعد ودبر ، وقبل أن يشهد العاصفة التي كان يعمل على إثارتها وترك وراءه طفلاً صغيراً في الرابعة من عمره يدعى الكسيوس ، ولم يجد عمه داود صعوبة في تنحيته وأن يستبد بالحكم دونه .

واصل الانبراطور داود ما قد بدأه أخوه في تكوين تلك الجبهة المتحدة ضد العثمانيين ، وصرف كل جهده وقواه في التأهب للحرب المقبلة ، ولم يكن داود أقل من أخيه يوحنا عجباً وغروراً بنفسه ، يستخف قوة الدولة العثمانية وقوة الجيش العثماني ، ويعتقد أن أسوار مدينته طرابزون لا تقفح ، سيرتدعها السلطان الفاتح إن هاجمها ، كما ارتد عنها غزاة من قبله ، كيف وقد اجتمعت حوله قوات أمراء الشرق ، وسفناصره بعد ذلك قوات أمراء الغرب !

وكانت شؤون الروم في بلاد المورة تشغل بال الفاتح إذ ذاك ، فرأى أن ينهي أمره هناك ويقر فيها السلام ، قبل أن ينقل جيشه إلى آسيا . وبذلك تهيأت لداود فسحة من الوقت امتدت سنتين قبل بدء القتال يحكم فيها أمره واستعداداه ، فأتم زواج ابنة أخيه كاترين بأوزون حسن ، فقد توفي الانبراطور يوحنا قبل إتمامه . واستطاعت هذه العروس الحسنة الذكية أن تحلب لب الأمير التركياني وتسيطر على نفسه ، وأخذت توجب نيران الحقد الذي كان يتقد في صدره على السلطان العثماني وما آتاه الله من مجد وسلطان . وجدد داود المحالقات السابقة التي عقدت مع من حوله من الأمراء .

وكان البابا كاليكست الثالث Calixte III - وهو الذى أخذ منه السكرادة ميشاقا غليظا عندما انتخبوه للبابوية فى سنة ١٤٥٥ ليبدل أعظم الجهد فى قتال الأتراك العثمانيين - قد أرسل لوى دى بولونى Louis de Bologne - من رجال الفرنسيسكان وكان يجيد كثيرا من لغات الشرق - إلى امبراطور طرابزون وأوزون حسن وغيرهما من أمراء الشرق يدعوهم إلى الائتلاف والتضافر على قتال الأتراك . ثم عاد الرسول الفرنسيسكانى إلى الغرب يصحبه رسل آخرون بعثهم إلى الغرب هؤلاء الأمراء الشرقيون وفى مقدمتهم ميخائيل البيجرى Michael Aligeri رسول امبراطور طرابزون ، وكان يحمل رسالة خاصة من سيده للبابا عدد له فيها الجيوش الجرارة التى أعدها هو وأمراء الشرق لقتال العثمانيين ، ورسالة أخرى لفيليب لبون Philippe le Bon دوق بورغندي أشد أمراء أوروبا تحمسا لقتال الأتراك .

سلك هؤلاء الرسل فى رحلتهم إلى الغرب طريق البر وعرجوا على المجر والنمسا ، وعندما وصلوا البندقيه استقبلهم الناس بحماس عظيم وحفاوة بالغة ، وهم يحقدون بأبصارهم فى تطلع واستغراب إلى ملابسهم الشرقية الفضفاضة . ومن البندقية شخصوا إلى روما ، وكان البابا كاليكست الثالث قد توفى وخلفه البابا باى الثانى Pie II ، وكان يفوق سلفه فى الحماس إلى قتال الأتراك ، فاحتفى بهؤلاء الرسل وأكرمهم وقدم لهم رسائل توصية لملوك أوروبا . وبعث برسالة خاصة إلى دوق بورغندي يوصيه فيها أن يحسن لقضاء أولئك الرسل ويكرم وفادتهم ويستحثه على التعجيل فى القيام بالحملة الصليبية ، وأن لا يكون أقل همة وبلاء فى هذا السبيل من أمراء الشرق .

وفى شهر مايو من سنة ١٤٦١ كان هؤلاء الرسل الشرقيون فى باريس لدى بلاط الملك شارل السابع ، وذكروا له أن أمراء الشرق قد استجابوا دعوة أهل الصليب ، وأنهم قد عقدوا العزم على قتال العثمانيين ، وطلبوا منه أن تشترك فرنسا

بجنودها في هذه الحملة . ومن هناك ذهب هؤلاء الرسل إلى سان أمير Saint Omer (في شمال فرنسا) حيث التقوا بفيليب لوبون دوق بورغنديا . ولم يكن هذا الدوق في حاجة إلى من يثير حماسه ويحثه على قتال العثمانيين ، فقد كان في مقدمة من دعا إلى طردهم من أوروبا قبل استيلائهم على القسطنطينية ، فكيف بعد استيلائهم عليها ؟ وسلم إليه ميخائيل اليجري رسالة سيده الانبراطور داود وفيها يحضه على الائتلاف والتحالف بين أمراء الشرق وأمراء الغرب والتألب على العدو المشترك ، ووعد داود بأن يعاونه — بعد إحراز النصر على الأتراك — على تنويجه ملكا على بيت المقدس .

وكانت الخطة المرسومة بين المتآمرين هي أن يهجم أمراء الغرب من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ، ويزحفون إلى الشرق ، ويهجم أمراء الشرق من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ويزحفون إلى الغرب . ويقع العثمانيون بذلك بين فكي د كاشه ، واسعة تضغط عليهم من هنا وهناك وتعصرهم عسراً لا تبق منهم على أحد إلا أن ينفلت إلى البحر ! وعاد هؤلاء الرسل بعد تطوافهم بأوروبا إلى روما .

وكانت جنوا تملك فيما تملك من مستعمرات في الشرق مدينة د إمصرة ، في آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود و د كفه ، بشبه جزيرة القرم .

وتعد هاتان المستعمرتان وبخاصة الأخيرة منهما ، من أهم المراكز التجارية لجنوا في الشرق . ولم تكن البابوية من جانبها أقل اهتماما بمصير هذه المستعمرات الشرقية إذ كانت تنظر إليها على أنها مواقع أمامية للصراينة ، فأخذت تمد الجنويين بالأموال عوناً لهم على الدفاع عن هذه المواقع . وأخذت من جهة أخرى تعمل على إنجاح تلك المؤامرة الكبرى التي لا نعرف لها نظيراً في التاريخ والتي ائتلفت فيها الروح الصليبية بالمصلحة التجارية والاحتقاد الشخصية على الدولة العثمانية .

من قريح بدر

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد حسن كحيل

مبعوث الازهر بالمدينة المنورة

[قمنا برحلة دراسية من المدينة المنورة إلى بدر ، ثم ينبع ،
فرأيت أن أرسم صورة صحيحة لبدر ، وأتبع الطريق النبوي إليها ،
وأصور ما شاهدت فيها لحضرات القراء ، وأنجل ما جال في قلبي
من آلام وآمال] .

قد كانت بدر المعركة الفاصلة بين الحق والباطل ، والموقعة الحاسمة بين الإيمان
والشرك ، ضرب فيها الكفر على هامه ضربة خفت لها صوته ، وتقطعت أنفاسه
ولم تقم له قائمة بعدها ، وقويت شوكة الإسلام وتآلق سنائه وامتد لواؤه ، ومن
يومئذ وهو يزداد عزاً وقوة وتأبيداً ؛ حتى تكونت الامبراطورية الإسلامية ،
فعلى أكتاف أبطال بدر وبطبي سيوفهم وأسلات رماحهم قامت الدولة الإسلامية
وانتشر الإسلام من الصين شرقاً الى الأطلس غرباً ، ولو قدر لهذه الفئة المؤمنة
أن تهزم يومئذ لحبا ضوء الإسلام ، وأفل نجمه وقتلت الدعوة المحمدية وهي
لا تزال في المهد . وهذا ما كان يحسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤمن به
وقت أن حمى وطيس القتال فوقف في العريش يناجي ربه ويضرع إليه فيقول :
« اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة المؤمنة اليوم لا تعبد
في الأرض أبداً . » ولهذا المعنى تجلى الله على أهل بدر فقال أعملوا ما شئتم . فمن
ذا الذي يذكر بدرًا ولا يتلفت الى هذا التاريخ الحافل والعز الغابر والمجد الدائر
أيام كانت القلوب مؤتلفة والشمائل مجتمعة ؟ من ذا الذي يذكر بدرًا ولا يذكر
تلك القلوب العائرة بالإيمان ، الفياضة بالإخلاص ، وتلك النفوس الزكية التي
ضربت أروع المثل في التضحية والبذل ؟

من ذا الذي يذكر بدرًا ولا يذكر كيف يفعل الإيمان بالنفوس ، فيخلق

من الضعف قوة ، ومن القلة كثرة ، ومن الخور شجاعة وعزما ، وإقداما وحزما ؟؟ . من الذى يذكر بدرا فلا يهفو إليها قلبه ، ولا يهوى إليها فؤاده طلبا للذكر ، وشوقا إلى تلك السهول والربا التى طامسا هبطت عليها الملائكة ، وسالت على بطاحها دماء المسلمين ، ورفرفت فى أجوائها أرواح الشهداء ؟؟ .

* * *

خرجنا إلى بدر - وقلوبنا تسبقنا - نلتمس العظة والذكرى ، ونبتغى غذاء الروح والعقل ، ففيها عظات بالغات ، وحياة للعقول ومتعة للأرواح وجلاء للقلوب ، وما أحوجنا فى هذا العصر لتلمس العظات بين أطلال الماضى وفى زوايا التاريخ علنا نجد قيسا يهدى الأمة الإسلامية وينقذها من ضلالها . ويبدد تلك الغياهب التى اكتشفتمها ، ويمنعها المطاعم والشهوات التى فرقها !! والحكمة عالية أمرنا الله أن نضرب الأرض نتبع تاريخ الاولين وآثار الغابرين .

ولقد كننا فى رحلتنا حريصين على أن نتبع الطريق النبوى إلى بدر لنعرف مقدار ما عاناه الصحابة من جهد وما تحملوا من نصب . فبعد أن خرجنا من المضينة إلى وادى العقيق سرنا فى طريق الحاج الى مكة فمررنا بذى الحليفة وعرق الظبية وهى جبل قبل المسيجيد بأربعين ميلا تقريبا ، وفى هذا المكان قتل الرسول أحد الاسرى واسمه عقبة بن معيط ، ثم مررنا بالروحاء وهى قبل المسيجيد بعشرة أميال تقريبا يقال لها بئر الراحة ، وقد نزل بها الرسول .

ثم واصلنا السير الى المسيجيد ، والسهل الفسيح الذى تقع فيه المسيجيد ، هو الذى كان يقال له المنصرف . وفى هذا المكان قسم الرسول الغنائم ثم تركنا طريق مكة الى يسارنا وملنا ذات اليمين فقطعنا وادى رحقان عرضا ، ثم دخلنا فى وادى الصفراء وسرنا فيه مسافات مررنا خلالها ببعض الخيوف ومنها خيف الحزامى ، فلما وصلنا الى خيف الحمراء وجدنا أن الطريق النبوى اتجه الى وادى ذفران ، وهو واد يتصل بالصفراء ولا يصلح لمرور السيارات ، فاضطررنا إلى أن نواصل السير فى وادى الصفراء وهو طريق عودة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد وقفنا فى هذا المكان ، حيث يتصل وادى ذفران بوادى الصفراء ، نستوحيه العبرة ، ونستلهمه العظة ، فقد جرت فيه أروع حوادث التاريخ وتجلت

فوقه أعظم مظاهر الإيمان وآيات البطولة الخالدة ، إذ بلغ المسلمين في هذا المكان أن قریشاً خرجت في جيش جرار لتحمي تجارتها ، وتدافع عن هيبتها ، والرسول مع أصحابه قلة لم يخرجوا لقتال ولا للحرب فماذا هم فاعلون ؟ !

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادي ذفران مؤتمراً يجمع المسلمين يستشيرهم في الأمر إذ أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن طاغية مستبدًا برأيه بل كان قائداً حكيمًا . فقال عليه السلام : أشيروا علي . فقام أبو بكر فتكلم خمس وقام عمر فتكلم خمس ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ؛ وسكت . ثم التفت الرسول ناحية الانصار وقال : أشيروا علي وكان يريد رأى الانصار الذين بايعوه يوم العقبة ، فقام سعد بن معاذ صاحب راية الانصار فقال يا رسول الله : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . ؛ فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك ، لو استعرضت بنا البحر خضضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ؛ فما انتهى سعد من كلامه ، حتى أشرق وجه رسول الله بالسرور ، وقال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين !! لله تلك النفوس المؤمنة !!! ثلاثمائة رجل يخرجون للاستيلاء على تجارة قریش التي أخرجتهم من ديارهم ، واستلبت أموالهم ، وفتنتهم عن دينهم ، ولم يخرجوا للحرب ولا لقتال ، ثم يعلمون أن قریشاً خرجت إليهم في جيش كثيف العدد ، سابع الدروع وافر العدة ، فلا تزلزل قلوبهم ولا ينتشون عن قصدهم بل يصمدون للعدو ويحرسون على نزاله !! .

إن هذا في لغة عصرنا تهور وانتحار ، ولكنه في لغة العصر الاول تضحية وإيمان .

قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم سلك في عودته من بدر وادي الصفراء ولم يرجع من وادي ذفران وفي هذا الوادي — الصفراء — دفن عبيدة بن الحارث

ابن عبد المطلب أحد الأبطال الثلاثة — على وحمة وعبيدة — الذين خرجوا لمبارزة عتبة وشيبة أبي ربيعة والوليد بن عتبة . فأصيب عبيدة بجراح ظلت تنزف دما ، واستشهد في الطريق وهم عائدون الى المدينة متأثراً بجراحه ولا يعلم على وجه التحقيق الموضع الذى دُفن به ، وكل ما يقال عنه إنما حُدد ورجم بالغيب لا يعتمد على شاهد ثبت ولا تحقيق تاريخي صحيح .

واصلنا السير فى وادى الصفراء متجهين غربا ، وقد يميل بنا الوادى ذات اليمين وذات الشمال ، وقد ينفرج ويتسع حتى يعظم اتساعه وقد يضيق حتى يشتد ضيقه .

وفى هذا الوادى الى بدر تكثر العيون التى يجرى منها الماء ويتدفق غزيراً فيروى ماحولها من نخيل ويطلق على كل عين وماحولها من نخيل « خيف » ، وأهم خيوسف هذا الوادى خيف الحزامى وخيف الحمراء وخيف أم ديام وخيف الواسطة .

ومن الغريب أنه لا يروى من ماء هذه العيون إلا النخيل ، مع أن كثيراً من أرض الوادى صالحة لزراعة الفاكهة والخضر !! ويدولنا أن هذا الوادى غزير المياه ، طيب التربة : لو عنى به ، وغرست فيه أشجار الفاكهة ، وزرعت به بعض الخضر ، لدر الخير على أهل البادية ، ولا طعمهم من جوع ، وكفاهم من عوز ، وأغناهم من فقر . بل لقام بكفاية المدن ، فعسى أن يظفر هذا الوادى بحظ من عناية الحكومة السعودية واهتمام رجال الزراعة ، كما ظفر التعليم فيه بعناية المعارف ، فأنشئت فيه المدارس القروية والابتدائية لمحاربة الجهل ، فليست محاربة الفقر ومكافحة الجوع بأهون قدراً وأقل خطراً من محاربة الجهل !!

ولقد سررنا ما رأيناه من إقبال أهل البادية على التعليم ، وكما كان جميلاً أن نرى أبناء البادية وهم يخترقون الأودية ، ويتسلقون الجبال ، وينحدرون فوق الهضاب عند انصرافهم من المدرسة .

وفى الواحدة مساء قبل العشاء ، كنا نندفع من مضيق الصفراء إلى سهل بدر فنطرق أبواب هذه القرية الهادئة النائمة الغارقة فى ذكريات التاريخ ! فكم سجل لها

التاريخ نفرا ، ورفع لها بين المدن والأمصار ذكرا !! لا يذكر حق منتصر ، ولا باطل منكسر ، إلا وذكرت بدر ! ولا يذكر تعاون واتحاد إلا كانت بدر مثلاً ! ولا يذكر تضحية وإيمان إلا كانت رمزا وعلماً !!

وكان أول من استقبلنا فيها مدير مدرستها ، وهو شاب يفيض نشاطاً وأريحية وكرماً ، فوضعنا رحالنا في المدرسة وقضينا صدر ليلتنا نسهر ونتجاذب أطراف الحديث حول بدر وما فيها من آيات وعبر بالغات !! وكانت أكبر عبرة تمثلناها وأحسبنا أنها أننا وصلنا بدرًا بعد رحلة دامت سبع ساعات ، وقد أجهدنا السفر وبلغ منا النصب مداه ونال السكلال غايته ومقتهاه ! — مع ضخامة المركب ولين الفراش وغدوية الماء ونوفر أسباب المتعة والراحة ، هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يسلكون هذا الطريق وهو وعمر لم يمهّد وصعب لم يذلّل ، ويقطعون معظمه سيراً على أقدامهم ! أى والله سيراً على أقدامهم ! إذ لم يكن إلا سبعون بعيراً تحمل زادهم ومتاعهم فكانوا يعتقبونها كل ثلاثة أو أربعة أو خمسة يتناوبون بعيراً حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أسعد حظاً من أصحابه فقد قطع ثلثي الطريق سيراً على قدميه ، كان يتناوب بعيره مع علي بن أبي طالب ومرقد الغنوى ، ويقطعون هذه المرحلة القاسية في ثمانية أيام ثم لا يجدون في انتظارهم — كما وجدنا فراشاً وثيراً ولا طعاماً شهيماً !! بل يجدون عدواً صعب المراس شديد الشماس متقد الحماس شاكي السلاح لا يمهّلهم حتى يستريحوا من وعاء السفر وعورة الطريق ، بل يصحبهم في اليوم التالي فيخوضون معه المعركة ذابن عن دين الله مجاهدين في سبيل الحق يلتقون شبا الا سنة وظلمات السيوف بنحورهم ويستقبلون شائك السهام بوجوههم وصدورهم لا يشكون ظملاً ولا يبدون تعباً .

فمن أين لهم هذه القوة التي بهرت العدو وفرقت شمله وفلت حده !! إنها قوة اليقين وحرارة الإيمان وسلطان الحق وروح من عند الله أمد بها جنده ، ونصر بها عبده وصدق بها وعده ! سيهزم الجمع ويولون الدبر ! .

عظمة الهجرة عنتها

لفضيلة الأستاذ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

تعنى الأمم بذكر الحوادث الجسام ، لما لها من التوجيه الحازم فى حياتها والاساس القويم فى تكوين نهضتها والاثـر الخالد فى عزها وإسعادها . وإذا نظرنا إلى موضوع الهجرة ، وجدناه حادثاً فذاً فى تاريخ الإنسانية ، يجمع من السمو والعظمة ما تتضام أمامه قوة الحوادث وتلاشى روعتها . فهو أرفعها شأنًا ، وأنبـلها قصداً ، وأوسعها يـمناً وإقبـالاً ، لذا كان أولى بالتقدير والإكبار ، وأحق بالتقديس والإعجاب .

وقد تضمّن هذا الحادث الخطير أموراً جليـلة يصح كل منهما أن يكون مثلاً كريماً للبـدا القيم ، والهدى الرشيد ، والعظة النافذة ، والحكمة البالغة .

فقد نشأ سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بقعة من بقاع الأرض حُجبت عنها أنوار المعرفة ، وغابت شمس الهداية ، وأظلت الناس سحـب قائمة من الباطل الأثيم ، والضلال البعيد . وطبعت على الشر نفوسهم ، فعكفوا على عبادة الأوثان ، وتدنسوا برجسها ، وارتكسوا فى حضيض الشهوات ، وخف فى العلم وزنهم ، وطاش فى تقدير الأمور سهامهم لحسبوا الشرك ديناً ، وسفك الدماء شجاعة وانتهاك الحرمات إقداماً وأد البنات عفافاً وشرفاً . وخيل لإلهم أن هذا نهاية ما تصل إليه الإنسانية من رفعة وكال . فن تنسكب سيـلهم أجمعوا على محاربه والسكيد له حتى يتخبط فى أهوائهم ويخوض باطلهم ويركض فى ضلالتهم .

لكن الإله جلت قدرته جعل نبيه خلقاً آخر فاصطفاه طيب العنصر ، نقى الجوهر ، وفطره على الإيمان الكامل ، والخلق الماجد ، ورضيه أن يكون أمين وحيه ، ومبلغ شريعته .

وإنما اختار الله نبيه من تلك البيئة التي هي أبعد البيئات عن المدنية والحضارة ليكون ذلك معجزة كبرى ، وآية عظمى تدفع إلى الإيمان به والتصديق برسالته .
صدع الرسول بأمر ربه ، وهانت عليه نفسه في سبيل طاعته ، ودعا قومه إلى التشرف بعبادة الله وحده ، والتخلص من أدران الوثنية . وأقام على ذلك من الدلائل ما يتفق هو والفطرة البشرية ، وأحاطهم إلى ماركز في نفوسهم ، وما تدركه حواسهم ، فاستجاب لندائه نزرٌ يسيرٌ فتحوا أعينهم لنوره فاستضاءت به وقلوبهم لهديه فلأها حكمة وأمنا ، وسداداً ورشداً . لكن الأغلبية الساحقة أخلدوا إلى الأرض ، وصرفوا أبصارهم ولووا رؤوسهم ، وأصموا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصرروا على هنادهم ، واستكبروا استكباراً .

كل هذا لم يهيج عاطفة الرسول ضدهم ولم يمنعه من الحذب عليهم . والاهتمام بأمرهم . والحرص الفائق على هدايتهم ، فالتزم معهم ما يسديه الطبيب إلى المريض من كريم العناية . وصادق المواساة حتى لقد نزل عليه قولُ ربه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) .

وليت أمرهم وقف عند هذا الحد . بل أمعنوا في السكيد له ، وسلطوا عليه من أنواع الإيذاء ما سولته له نفوسهم ، ووسعته قدرتهم ، وجدوا في إيقاظ الفتن حوله ، وتأليب العرب عليه ، وتنفير الناس من دعوته ، ووضع العقبات في سبيلها ، وعاملوه مع أقاربه معاملة المشبوزين ، وحاصروهم حصاراً اقتصادياً كما يفعل اليوم في عصر هذه المدنية العاتية الطائشة ، وقسوا في الانتقام من أصحابه ، وتربصوا بهم الدوائر ، وقعدوا لهم كل مرصد ، ولم يتحصن هؤلاء الضعفاء إلا بقوة الإيمان ، وكأن برد اليقين يطفئ نار الألم .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعي

أيقن الرسول بعد هذا أن جذور الشر تغلغلت في نفوسهم فأوصدت دونهم أبواب الخير وسدت مسالك الهداية ، فليس من الحكمة إذن أن يستمر على قرع آذانهم بحقه بعد أن جرف سيل الباطل حواسهم وأهدر آدميتهم (لهم قلوب

لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (حقاً لقد كانوا أخس من الأنعام فإنها لا تحمل ضغناً لمن أحسن إليها . أما هم فكان جزاء إرشاده لهم أن أجمعوا على المنكر في ناديم ودبروا مؤامرة لاغتياله والقضاء عليه قبل أن يعظم أمره فتستعصى عليهم معالجته ، لكن عين ربه تسكؤه وعنايته ترعاه ، وقد أعطاه أماناً موثقاً بقوله (والله يعصمك من الناس) ، لا شك أن الرسول يثق بجودة تعاليمه وصلاحتها إلى حد تقصر عنه سوابق الأوهام ، غير أنه قد ظهر لديه أن قلوبهم قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فقتشقت نفسه إلى أفئدة خصبة يودعها بذوره الطاهرة لتنبت أصلاً قوياً ، وغرساً كريماً ، وتؤتي أكلاً مضاعفاً .

وهذا أقوم إرشاد لكل مصلح يؤمن بقيمة مبادئه ويبتلى بأناس لا يرفعون لها رأساً ولا يقيمون لها وزناً .

لذا كان من رحمة الله بنبيه أن أذن له في الهجرة إلى بلد يتفصيلاً فيه ظلال الأمن ويستشقى نسيم الحرية ، ويستمتع بجلال الإيمان وعزته ، وصفائه وروعته ، ويجد بيئة صالحة متسعة الأفق ينشر فيها وحيه المقدس ، وهديه الحكيم .

هكذا أمر الرسول بالارتحال عن قراره المسكين ، وحب الوطن لاصق بنفس كل إنسان فقد أظلمت سماؤه وأرواه مأؤه ، وهو مشوى الأهل والعشيرة ومدرج الطفولة ، ومرتع الحداثة ، ومسرح الاحبة والخلان .

لكن محمداً عليه السلام قد أنساه شرف الغاية كل هذه الأمور واستأنس بلذة الطاعة ، وتجرد من جميع حظوظه ، وأسلم وجهه لله محسناً في تنفيذ أمره .

والهجرة ما جأ أمين لكل مضطهد في رأيه ، محارب في عقيدته . ربما يخاطر على بعض الأذهان أنه ما دام النبي يؤدي رسالة ربه . ويبلغ دينه فلم لم يُسِعه بالمعونة فيجعل له من قومه ظهيراً وسنداً ؟

ولا يخفى أنه لو حصل هذا لارتاب الناس في أمره وقالوا فمكرة أدعاها محمد واتفق عليها مع أهله وأحاطها بسياج من الهيبة والحلال .

أما وقد وقع أن حاربه أقرب الناس إليه ، ونصره أبعدهم عنه . فإن شمس الإيمان به تبديد ظل الشكوك والأوهام .

وجد الإسلام في المدينة ملاذا حصينا . وركنا رشيدا . فرسخت قوائمه . وامتدت فروعه فصار يغزو القلوب متحكما فيها والضمائر مهيمنا عليها وظلت حرارته تصهر غيوم الشبهات وتكسر أشواك الشك حتى ظفر الناس بروض اليقين ، ونعموا بعزة الملوك وطهارة الملائكة ، من هذا يتبين أن حادث الهجرة فيصل التفارقة بين الضعف والقوة والذلة والعزة ، كما تمثل صراعا عنيفا ، دار بين الحق والباطل وأن الأخير مها كان أمضى سلاحا وأعز نفرا ، لا بد أن يكتسحه طوفان الحق عملا بسنة قه الخالدة (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

أيها المسلمون : ليس المقصود من ذكرى الهجرة أن تنشدد القصائد وترتل الكلمات مع الغفلة عن موضع العبرة منها ، فإنى أخشى إن صنعنا ذلك أن ندخل في قول الله سبحانه : (وكأى من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) إنما الواجب أن يأخذ كل منا نفسه بسيرة صاحب الهجرة ، فقد نجحت دعوته بعقيدته الراسخة ، وسياسته البارعة ، وعزيمته الماضية ، وصبره الذى افتنم به المحن وقهر الأهوال ، فخرج منها ظافراً منتصراً كالسيكك الخالصة لا يجد الناقد الأملحى فيها مغمزا .

والهجرة ، وإن انقضت بصورتها وشكلها ، إلا أنها باقية لجميع المسلمين بروحها وجوهرها ، فلزام عليهم أن يهجروا أسباب غضب الله وموجبات سخطه حتى لا ينزل بهم ما حل بغيرهم من الأمم التى انحرفت عن الهدى الإلهى فتردت في هاوية الشقاء وعوقبت بحرب ضروس تحصد الناس حصدا ، وتستأصلهم إستئصالا ، تركت الأطفال يتامى والغمام أرامل ، فجعت النفوس ، وأدمت القلوب ، وسلبتها لذة العطاء نينة والامن ، وأكلت الأخضر واليابس ، وأصلت المدن الزاهرة التى تأخذ زينتها بالابصار ، وتستهوى الالباب ليلا بهيما ، وحطاما بالياً ، وهشياً تذروه الرياح (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذته أليم شديد) .

شواهد البلاغة

والإعجاز في القرآن الكريم

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

المدرس بكلية اللغة العربية

القرآن كتاب الله المعجز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الاولى والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ؛ فقصت على الاوهام الباطلة ، والاساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والاديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء ، والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى ، والجهل علما ومعرفة وثقافة ، نهل من معينها الزاخر كل من رغب في الخير ، وطمح إلى النور والهدى والأمن والسلام ؛ ونقّلت البشرية من الفوضى والطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الاموال وهتك الاعراض ، إلى حياة فيها رضا وطمأنينة ، وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة ، وعمران ومدنية ، وحدود ، وشرائع ، ونظم وضعت لسعادة الناس واجتماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الارض ، على سيد الخلق ، وأكرم الرسل ، محمد صلوات الله عليه ، فبلغه الناس ، وبشر به العرب والبشر كافة ، وهدى به الدنيا كلها ، وفتح به صفحة جديدة في تاريخ العالم كله ، وأنقذ الناس من ضلال الجاهلية الاولى :

تصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا هدايته النادرة ، وفصاحته الباهرة ، وما فيه من روعة التصوير ودقة التعبير ، وشدة التأثير ، قالوا : إى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر يثر ، إن هذا إلا قول البشر ، وكذبوا وأيم الله ، فما هو إلا وحي يوحى ، ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى على مر العصور .

إن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة ، وجلالة الروح ، وإشراق البيان ، وجمال الديباجة ، وقوة المنطق ، وعبقرية التصوير والتعبير .

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، والقوة والعذوبة ، وحرارة الإيمان ، وتدفق البلاغة ، فهو السحر الساحر ، والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم في أسلوب لا يضارعه أسلوب ؛ فلا هو شعر ولا هو بجمع ، ولا هو مزاجية ، ولا هو ثر مرسل ولا خطابة . إنما هو نظم رائع ، وألفاظ عذبة ، وجلال وروعة ؛ جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الإعجاز .

تحدى الله به العرب فعجزوا ، فتحداهم بسورة منه فهروا ، فتحداهم بأقصر سورة فخرسوا ؛ ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم يحدوا له خاشعين . وما إيمان عمر حين سمع د طه ، ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة » ^(١) حين سمع د فصلت ، ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، وما عجزهم بعد التحدى ؛ ما كل ذلك إلا مظهر الإعجاز الذي شهد به العلماء والبلغاء على مر الأجيال . يقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن :

« إن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعمود من نظام كلام العرب ، ومباين للألوف من ترتيب خطابهم ؛ وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه ، عن أساليب الكلام المعتاد ؛ وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ؛ على هذا الطول ، وعلى هذا القدر ؛ فهو على ما وصفه الله تعالى به : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ،

ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

ذلك إلى أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف إليها .

وهناك شيء آخر ، وهو ورود تلك المعاني التي يتضمنها في أصل الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، بهذه الأساليب البليغة ، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، وقد علم أن تخيير الألفاظ للمعاني المتداولة المسألوفة أسهل وأقرب من تخيير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مستحدثة ؛ وبراعة اللفظ في المعنى البارع أعجب من براعته في المعنى المتداول .

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا ملتو على الأفهام ، ولا مستكره في اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، ويضئ كما يضئ الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح في البدن ، والنور في الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ، والصباح المبين .

وخصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ، وبإيجاز المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والسكناية ، وساحر الطباق والجناس ، ومحكم الإيجاز والاطناب المفيد ؛ كل ذلك كثير جداً ، إلى حد يصعب بيانه إلا في مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال في كل غرض في الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعيد والوعيد ، وفي الدين والتشريع والتوجيه ، وهو في كل ذلك كتاب الله الحكيم المعجز الصادق .

وأما معانيه فحسبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال ، وهي من غير معين العرب الذي ينهلون منه ، لاطمئنان النفوس إليها ، وارتياح

القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة ، والأدلة الساطعة والاحكام الصائبة ؛ وبحق إنه معجزة البيان وآية السماء .

وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها ، مع السلاسة والعدوبة ، ومع البعد عن الوحش والغريب النافر والسوقى المبتذل والبعيد المعقد ؛ فوق ما تتحلى به من سحر وجمال ، وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة وخصائص البيان والإعجاز .

وأما بلاغة القرآن فهي حديث الدنيا ، والقضية التي سلم بها أساطين البيان ، وخول البلاغة ؛ أرايت هذا التحدى مع العجز الواضح ، ومع الحزى الاليم ؟ وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع منه ثم قال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمشعر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . ثم أرايت هذا الاعرائى وقد سمع قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟ .

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتجيدها ، ويهزها البيان الجيد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاول الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لا تحسب سحر البيان إلا لها ، وبلاغة الكلام إلا وقفاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً ؛ وقد دعاهم فعجزوا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدوها ، ثم حاروا فى وصف بيانه وإعجازه ، وخروا لحكمته ساجدين . أفليس ذلك كله مع ما قدمناه لك أدلة الإعجاز وشواهد ، وحجته وبرهانه ؟ ألسنت إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدنى خالد على مر الأيام والعصور ، تجد فيه الإنسانية هداها ، والفضيلة مبتغاها ، والنفس البشرية رشدها وسعادتها ؛ لا تجد أمامك إلا القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ؟

أيها القلم قف ، فبلاغة القرآن وإعجازه فى غنى عن الدليل ، ومتى تحتاج الشمس فى وجودها إلى برهان ؟ وسر بلاغته وإعجازه يستعصى هلى البيان ، ويدق على الفهم ، ويعلو على العقول ، لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التي اختص بها رسوله الأعظم محمد صلوات الله عليه ؟

منابع التصوف الإسلامي

للدكتور ينولد ا. نيكلسون
تعريب الأستاذ نور الدين شريية
خريج كلية اللغة العربية

برهن البحث الحديث على أن أصل الصوفية لا يمكن أن يرد إلى سبب واحد محدود . ومن هنا لم يرتض باحث منصف ، هذه التعميمات الجارفة ؛ من أمثال : أنها راد فعل العقل الآري تجاه الدين السامي الفاتح ؛ أو أنها ليست إلا نتاجا خالصا للفكر الفارسي أو الهندي .

وأمثال هذه الاحكام — وإن يكن لها نصيب من الصحة — تغفل البديهية التي تحتمل لإقامة رابطة تاريخية بين (ا) وبين (ب) أنه لا يكفي أن تستدل بشبه أحدهما للآخر ، من غير أن تبين في الوقت عينه :

١ — أن صلة (ب) الفعلية مع (ا) بحيث تجعل النسبة المدعاة جائزة .

٢ — أن الغرض المحتمل متفق مع جميع الحقائق المؤكدة المدعمة .

وهذه الآراء ، التي ذكرت ، لا تقوم لهذه الشروط . فإن لم تكن الصوفية شيئاً غير أنها ثورة الروح الآرية ، فكيف نفس الحقيقة ، التي لا سبيل إلى الطعن فيها ، من أن بعض كبار رواد التصوف الإسلامي من أهل سوريا ومصر ؟ وأنهم عرب الجنس ؟

وكذلك يغفل المتحمسون للأصل البوذي ، أو الفيدى ؛ عن أن التيار الرئيسي ، للتأثير الهندي على الحضارة الإسلامية ، ينتمى إلى همد متأخر ؛ مع أن علم الكلام ، والفلسفة ، والعلم في الإسلام ، قد آتت بواكيرها الغضة ، فوق تربة تشربت الحضارة الإغريقية .

والحق أن الصوفية شيء معقد . ومن هنا لم يكن في الطوق أن يقدم جواب بسيط في السؤال عن أصلها . ولعلنا أن تقرب من الجواب إذا حددنا القوى

والحركات المختلفة ، التى صاغت الصوفية ، وحددت الاتجاه الذى صارت إليه ، فى عهود نموها الباكورة .

ولنعتبر أولا أهم التأثيرات الخارجية ، تلك التأثيرات غير الإسلامية ، وأهمها :

١ - المسيحية

من الجلى أن ميول الزهد والتأمل ، التى أشرت إليها ، كانت على وفاق مع النظرية المسيحية ، ومنها استمدت أسباب قوتها . فكثير من نصوص الإنجيل ، ومن الأقوال المنسوبة إلى المسيح ، مقتبس فى أقدم تراجم الصوفية . والراهبة المسيحيون كثيراً ما يظهرون فى مقام المعلمين ، يولون النصيح والتشديد لزهاد مسلمين متقلبين . وقد رأينا أن ثوب الصوف — الذى منه جاء الصوفى — مسيحى الأصل ، ونذور الصوم عن الكلام ، والذكر ، ورياضات الزهد الأخرى ، لعلها أن ترد إلى هذا الأصل نفسه . وفيما يتصل بمذهب الحب الإلهى ، ندع هذه المقتطفات تترجم عن نفسها :

« روى أن المسيح مر على طائفة من العباد ، وقد احترقوا من العبادة ، كأنهم الشنان البالية ، فقال : « ما أنتم ؟ » قالوا : « نحن عباد » ، قال : « لاي شيء تعبدتم ؟ » قالوا : « خوفنا من النار نخفنا منها » ، فقال : « حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم . ثم جاوزهم ، فر بأخرين أشد عبادة ، فقال : « لاي شيء تعبدتم ؟ » فقالوا : « شوقنا إلى الجنان ، وما أعد فيها لأوليائه » ، فنحن نرجو ذلك » ، فقال : « حق على الله أن يعطيكم ما رجوتهم . ثم جاوزهم فر بأخرين يتعبدون ، فقال : « ما أنتم ؟ » قالوا : « نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفاً من ناره ، ولا شوقاً إلى جنته ، ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله . » فقال : « أنتم أولياء الله حقاً ، معكم أمرت أن أقيم ، فأقام بين أظهرهم . وفى لفظ آخر أنه قال للأولين : « مخلوقا خفتم ، ومخلوقا أحببتهم . وقال لثولاء : « أنتم المقربون ، »^(١) .

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب . ٣ ص ٨٢ ص ١٣ - ١٩ المطبعة المصرية .

حدث أحمد بن أبي الحواري ^(١) قال : « قلت لراهب : « أى شيء أقوى ما تجدونه فى كتبكم ؟ » . قال : « ما نجد شيئاً أقوى من أن تجعل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق » ^(٢) .

وسأل بعض الزهاد راهباً آخر : « متى يكون الرجل أكثر إمعاناً فى العبادة ؟ » فأجاب : « حين يملك الحب قلبه ، فليس له عندئذ من مسرة ولا رغبة : إلا فى العبادة المتصلة . »

وتأثير المسيحية — من خلال أحبارها ، ورهبانها ، وفرقها الخوارج ، من أمثال فرقة « المصلين » ^(٣) Euchitae ، — ذو وجهين . زهدى ، وصوفى . والتصوف الشرقى المسيحى : كان — على أى وجه — يحوى عنصراً وثنياً . فقد تشرب منذ بعيد أفكار أفلوطين ، واصطنع لغة المدرسة الأفلاطونية الحديثة .

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي الحواري الدمشقي ، من أهل دمشق ، يروى عن وكيع ابن الجراح الكتّيب ، وعن الولد بن مسلم وصحب أبا سليمان الدرائي وحفظ عنه الرقائق . انظر الأنساب للسمعاني ص ١٨٠ طبع ليدن سنة ١٩١١ فى سلسلة « جب Gibb » التذكارية .

(٢) أبو نعيم : حلية الأولياء ح ١٠ ص ٨ س ٧ - ٩ مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٣) « المصلون Euchitae » فرقة مسيحية غالية ، من الهرطقة ، يقوم مذهبها على أن الصلاة المتصلة يمكن أن تجتث أصل الخطيئة وتبلغ بالإنسان حد الكمال الروحى والتحقق . وقد قاموا بنشر مذهبهم ابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى حتى القرن السادس . بل إن تأثيرهم لامتد إلى ما بعد ذلك . وهم يعتقدون أن كل إنسان قد وكل به شيطان يقويه على الوقوع فى الآثام ؛ وليس التعميد بكاف فى طرد هذا الشيطان ، إنما يجتث التعميد هذا الآثم من ظاهره ويدع جذوره غائرة فى أحشائى النفس . والدواء الشافى لذلك هو الصلاة المتصلة ، حتى يحس الإنسان إحساساً قوياً أن شيطانه قد فارقه . وقد تشاهد حينئذ الروح القدس داخلة إلى جسم الإنسان على هيئة نار غير مؤذية ، بينما تشاهد روح الشر عندئذ خارجة من فيه على صورة حبة فى أكمامها . ثم يتبع ذلك وقت السعادة حين تحس الروح اتحادها مع عريسها ، كما تحس الزوج نفوة العناق مع زوجها حين يدخل بها ، وإذا فالصلى يعتقد انه مشارك فى الطبيعة الإلهية ، وهم يدعون أن لهم انكشافات وكرامات لا تيسر لعامة الناس . وكانوا يرقصون ليطأوا بأقدامهم شياطينهم التى كانت تترامى لهم . وكانو يدعون لأنفسهم علم الغيب ، والكشف عما فى نفوس الناس . كما كانوا ينظرون نظرة عدم الاكتراث إلى وسائل الكنيسة العادية فى مقاومة الخطيئة من نحو رياضة الرهينة و « والعشاء الربانى Eucharist » ، وقد قصرُوا أوقانهم كلها على الصلاة وجعلوا يتكفون الناس حتى يشدوا رمةهم . كما أنه كان من بينهم طوائف فى الأرض من الرجال والنساء قد تخلوا عن الدنيا ومتاعها . وفى الصيف كانوا ينامون على قارعة الطريق . على أن مناهضهم يرمونهم بالفساد وانتشار الاخلال بينهم .. انظر: Encyclopaedia of religion and Ethics المجلد الخامس ص ٥١٠ .

رسالة الازهر

وكيف يؤديها ... ؟

للشيخ أحمد محمد صقر

ليس في رسالة الازهر قولان . . ولا اعتراض على تلك الرسالة في موضوعها . ولكن الخلاف يقع في الوسيلة التي يمكن بها أداء ذلك الواجب كاملاً . . .

فلو أراد باحث دقيق أن يطالب في تحديد هدف الازهر لما خرج عما نوجزه في كلمات قصار هي أن غاية الازهر « المحافظة — على الدين الإسلامي واللغة العربية ونشرهما . . . » ، ذلك أن الازهر حصن الإسلام . وهو القائم على درسه ونشره وحفظ أصوله وفروعه ما بقيت السموات والأرض . . . ولا سبيل إلى ذلك الحفظ إلا بإتقان الفصحى وحفظ موادها وتذوق أديها ورعاية طرق الأداء فيها . . . وقد يظن إنسان ذلك أمراً سهلاً المتال قريب المتناول . . ولكن من يدرك معنى الإسلام ومعنى اللغة العربية لا يسيغ لنفسه الحكم على مهمة الازهر الناهض بهما بأنها مهمة سهلة ميسورة . .

فلو كان الإسلام دين رهبانية وصوامع . . أو دين عصر معين ومكان محدود فقط لمان الأمر وخففت المثونة . . ولكنه دين مجتمع ودين سياسة . دين نظام ودين اقتصاد . . دين حكومة وإدارة وقانون . . وفوق ذلك فهو دين الغد كما كان دين الأمس ، وكما هو دين اليوم . . ليس محدود السلطان ولا موقوت العمل . . ولا مقصوراً على بلد من بلاد الله . . .

لحينما تقرر أن رسالة الازهر هي المحافظة على هذا الدين العظيم ونشره يجب علينا أن نتصور مشقة الواجب وعبء الأداء . . وطول الطريق . . . وفي الوقت نفسه ننظر فترى الازهر لا يملك إلا رجالاً يشتغلون بالعلم والتعليم بمعنى أنه ليس هيئة سياسية ترسم الخطط وتحتال على الوصول إلى أهدافها ، وليس جماعة مالية تنثر الذهب في طريقها لتبلغ ما تريد . . .

وبالرغم من ذلك لا يستطيع أحد أن يدعى عيباً على الأزهر ، الذى يتخذ الحسنى وسيلته ، ونشر الثقافة جهده المستطاع .

فقد غزا العالم نوره ، وملا مسامع الدنيا صوته ، فتقاطر المبعوثون إليه يغترفون من معينه ، وتتابع المتخرجون فيه صوب النفوس الظماء ، ييلون أوامها ، ويروون غليلها ، ويرفقون بالافئدة الصادية ، والانفاس اللاهثة .

وأصبح الأزهر قبلة العالم الإسلامى يحج إليها طلباً للنور والمعرفة ، وما كان ذلك بقيادة عبقرى مغوار ، بل كان بفضل الرسالة نفسها ، فإن ديناً أراد له الله الخلود ، ولغة حق لها البقاء ، لا بد أن ينتهزها على أحداث الزمن وصروف الدهر . ولا بد أن تسرى قوة الرسالة فى أوصال حاملها فتخلق منهم بشراً لا كالبشر ، وشباناً يسمون الشيوخ ، لأنهم جمعوا حكمة الشيخوخة وعزها الشباب . حملوا مشعل النور منذ ألف عام رغم الأعاصير الهوج ، والريح الرعزع والعاصفة النكباء ، فما ضعفوا ولا انقادوا طوع الهوى .

وفى الحق أنى ما تأملت تلك المأثرة التى تمت على يد الأزهر ، إلا تملكنى شعور بالحب نحو هذا المعهد القديم العتيق .

وسرى فى نفس تيار من العرفان بالجميل والاعتراف بالواجب على العالم الإسلامى إزاء ذلك الحصن المنيع ، حقاً ما كان القرآن أن يضيع فالله تعالى ضمن له الحفظ والبقاء . ولكن لو لم يكن الأزهر لاستعجمت اللسان وماتت القريحة العربية ، ولو ظل الأمر العربى سائراً فى طريق الشوك منحدرأ إلى الهاوية بعد أن ذبلت زهرته فى بغدادا لكننا اليوم فى ظلمات من الجهالة لا يعلم كنهها غير الله تعالى ؛ فاقترضت عناية الله أن يتلقف الأزهر مشعل الحياة ، ويختزن الثقافة الإسلامية وتصبح أروقة مثابة الدارسين من كل بقعة وأمة ، وقد تخرج فى صحن الأزهر القديم رجال دافعوا عن الدين وحفظوا اللغة العربية وتدرج الأزهر فى أطوار متعاقبة فبعث العلم والأدب وكان محط أنظار الشعوب بمثابة معقل ترفرف عليه راية الزعامة الشعبية وليس غلوا أن نقرر : أن الأزهر هو الذى خطا بمصر نحو الحياة الدستورية وهياها لسبق أخواتها فى الشرق .

وصارت الأمور إلى الأزهر الجديد ، فقد مضى الأزهر القديم مجحوداً مشكوراً ، وتجددت الحياة في العالم الإسلامي وفي مصر زعيمة هذا العالم .. وكان لزاماً أن يتجدد الأزهر كعبة العلوم الإسلامية .

وقد كان ١١٠ ولم يشمل التجديد ذلك الطابع الأزهرى ، وظلت الفكرة الأصلية واضحة ، وتمشياً مع مقتضيات العصر اتبع نظام التخصص في المراحل العالية فأنشئ فيه كليات ثلاث وحددت لكل كلية مهمتها ونوع المواد التي تدرس فيها ، وكل ذلك جميل وعظيم ، غير أننا نحس في الأزهر الجديد فتوراً لعله نتيجة حتمية للبيئة والعصر ، وهى ظاهرة تتجلى في كل أنواع التعليم على اختلاف أهدافه . وهناك شيء آخر نلحسه في الأزهر الجديد ولا ندرى أنسميه قصوراً أم تقصيراً ؟ ..

ذلك أن الطالب لا ينال اهتماماً مذكوراً ولا يُراعى حقه في الثقافة العصرية كأنه مضطر أن يفسخ كل الانسلاخ من بيئته ولا سيما في مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى ، فيشب الطالب غريباً بين قومه كسير الفؤاد عاجزاً عن مسابقة إخوانه منهم في ذوقه وتفكيره ، فإذا تسكلم في الأمور العامة أعرض الناس عنه كأنهم يقولون : ما للأزهرى والحياة العامة ، وماله ولثقافة العصر ، ؟ إن هو إلا منقطع للعلوم القديمة ، والخلافات الميتة العديمة الفائدة ! ولذلك كله أثر في نفسية الطالب لا ينمحي وطابع يسمه بميمم الانزواء والبعد عن مشاكل العالم . ولعل تلك الضجة التي أثارها الكتاب على صفحات الجرائد منذ قريب .

حول السكتب الأزهرية ، والبرامج التعليمية في الأزهر تعتبر نتيجة للشعور بهذا النقص ... وإنى مع ذلك لا أوافق على كل تلك النقدرات ... فالأزهر صلة بين الماضى والحاضر ... ولا بد من الإبقاء على ما يربطنا بهذا الماضى ، وإن كنا نطلب التخفيف وإضافة مواد تتصل بالاجتماع والاقتصاد يستعين بها الطالب على تبليغ رسالته إلى قوم يعجبون بعصرهم ويقصدون جديدهم ، حتى لا ينفروا كل النفور من الدعاة والمصلحين ، وخير الناس من لبس لكل حال لباسها ، وطابق بين مقتضى الحال وما يقول ، أما في مرحلة التعليم العالى فإنى أحس السطحية غالبية على دراستها ونحن في حاجة إلى الغوص وإلى الدراسة بعمق ، كما يقول

النقاد المحدثون ، أما الدراسة السطحية العرضية فإنها عقيم لا تفتح ولا تفيد ، نريد دراسة مستفيضة وتوسعاً في البحوث .

نريد أن تكلفونا تكليفاً بالغرض واستخلاص المعلومات من المراجع الشثيثة ، نريد أن تدفعونا دفعاً إلى الاعتماد على النفس ، وتتبع العروق العلمية في مناجمها !! نحن نعتز بأننا ننال قسطاً كبيراً من الحرية في المناقشة ولكن هذه الحرية مقصورة على كتب معينة وآراء لقوم سبقونا ولم يدعوا لأنفسهم العصمة ، فنحن نداور ونحاور ثم نعود إلى رأى فلان من المجتهدين ، ولو كان ضعيفاً اعتماداً على ما له من المسكنة ، فإذا سئل أحدنا عن أمر يتعلق بالدين أو اللغة ، نجد أنفسنا مسوقين إلى ترديد تلك الخلافات فيمل السائل ، وينصرف هنا معتقداً ألا نفع فينا ولا خير عندنا ، وليس هذا الكلام بعيداً عن رسالة الأزهر بل إن ذلك جوهرها ، فإن التقارب بين المصلح والناس أول خطوة في نجاح الفكرة ، فنحن لا نتعلم لأنفسنا فقط ، ولا للناس فقط ، بل نقصد للثقافة لعقولنا وأفكارنا حتى نستطيع التأثير في غيرنا .

وقد أصبح التجديد في وسائل الاداء جزءاً من الرسالة نفسها . . . فإذا تم للأزهر ذلك استطاع طلابه تبليغ الرسالة وأداءها . . . فكل فرد يعتبر داعية حينما حل . . . في قريته وبين أهله . . . والأزهر هو المسئول عن تسليحه ليكون صورة قوية واضحة من صور الأزهر . . . وليكون عنواناً صحيحاً للإسلام . . . أما أداء الرسالة العالمية التي وقف الأزهر نفسه عليها فإنه يحتاج في أدائها إلى التجديد في العرض والابتكار في التبليغ كما هو الشأن في الجامعات العلمية الحديثة وذلك بأن يخرج مطبوعات بانتظام تقوم مقام المشافهة والخطاب . . . وتلك هي الطريقة الجماعية . . . فيعيد طبع الكتب النافعة وتوضيحها وتحليل أفكارها وتبسيطها لتكون في متناول الناس في عصرنا .

ويعيد الكتابة في تاريخ الإسلام كتابة منصفة مليمة بالتحقيق والتحليل والنقد النافع والتمحيص الثمر ، وليكن للأزهر دائرة معارف إسلامية كبرى تعين المتبعين للثقافة العربية الدينية ولتسكن له رسائل تبحث في مشاكل العالم من الوجهة الإسلامية ليشتعر الناس أننا قوم نخدم البشرية ونتابع أطوارها .

أسلوب التمثيل

في القرآن الكريم

لحضرة الأستاذ عز الدين اسماعيل

قال الاصبهاني : لضرب العرب الامثال ، واستحضار العلماء النظائر شان ليس بالحق في إبراز خفيات الدقائق ، ورفع الاستار عن الحقائق ، ترك المتخيل في صورة المتحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ؛ وفي ضرب الامثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع لضاوة الجاح الابي ، فإنه يؤثر في القلوب مالا يؤثر وصف الشيء في نفسه ، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الامثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الامثال وفشت في كلام النبي وكلام الانبياء والحكماء (١) . وقال تعالى : ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ، وقال أيضا : وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون . وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال ؛ فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالامثال (٢) . وإذن فأسلوب التمثيل من الاساليب العربية البليغة ، عرفه العرب وكثر في القرآن والحديث ، فكانت له بذلك أهمية خاصة . وفيما يلي نستعرض تمثيلا من التمثيلات القرآنية لنعرف قيمته ونطلع على سر بلاغته وأدلة إعجازه .

قال تعالى : وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء

(١) الانقان للسيوطي ، ٢ - ص ٢٢٣ ط ٣ - ١٩٤١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢ .

ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير .

قال الزمخشري في الكشاف : « لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هدام الذي باعوه بالنار المضئمة ما حول المستوقد ، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم ، وتركهم في الظلمات . كانت حواسهم سليمة ، ولكن لما سدوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم ، جعلوا كأنما ألغيت مشاعرهم . . . ثم ثنى سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف وإيضاحا غب إيضاح . وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يحمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع . وقد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فمما شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد والبرق وبالصواعق ؟ لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق . والمعنى أو كمثل ذى صيب . والمراد كمثل أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا . ثم كيف يصنعون في تارتى خفوق البرق وخفيته ؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وماهم فيه من غاية التحير والجهل

بما يأتون وما يذرون ، إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم
انتهزوا تلك الخفقة فرصة غطوا خطوات يسيرة ، فإذا خفي وفتر لمعانه
بقوا واقفين متقيدين ، ولو شاء الله ل زاد في قصيف الرعد فأصمهم وفي ضوء
البرق فأعماهم .

وقد أغفلنا في نقل هذا الشرح للزخشرى — وهو من أقوم الشروح —
ما يتعرض له بين الفينة والفينة من مشكلات لغوية وبلاغية . والآن نبين رأيه
في بلاغة هذا التمثيل فنراه يقول في مستهل كلامه : لما جاء بحقيقة صفتهم أعقبها
بضرب المثل زيادة في الكشف وتعميق للبيان . ثم ينقل عبارة الأصهباني التي
صدرنا بها هذا المقال ، إلى أن يقول : والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو
النظير . يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه . ثم قيل للقول السائر الممثل
مضربه بمورده مثل . وإذا سأل سائل هل ما في الآية استعارة أجب بأنه مختلف
فيه ، وأن المحققين على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور
وهم المنافقون . ونجده يورد آخر الأمر رأيا لعله أدنى إلى الصواب والفهم السليم
فيخلص إلى أن الصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه هو أن التمثيلين جميعا
من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكف الواحد واحد شيء . يقدر
شبهه به . ويبانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض ، لم يأخذ
هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرهما كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن ، وتشبه
كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى
كقوله تعالى : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به
نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا .
فالمراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر . فأما أن يراد تشبيه الأفراد
بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيئا واحدا فلا . فكذلك لما
وصف وقوع المناققين في ضلالتهم وما ضبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت
حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طغمت ناره بعض إيقادها في ظلمة الليل
وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

هذا الرأي الأخير الذى انتهى إليه الزمخشري رأى طيب لو أحسنّا استخدامه؛ فالذى لا شك فيه أن التمثيل فى الآية لا يمكن أن يفصل كل جزء من أجزائه ليُشبه به ذلك الجزء من المشبه الذى لم يظهر فى الكلام ، لأن جوامع الشبه بذلك ستختلف وتعدد دون أن يُقصد إلى شيء من هذا الاختلاف والتعدد ، وإنما الذى قصد من التمثيل فى الآية هو إكساب المشبه الصفة الحاصلة من الصورة التى ترسمها جميع أجزاء المشبه به مجتمعة متضامة . ونحن الآن بسبيل الإشراف على جوهر الفكرة ورسم الخطوط الواضحة للعملية الفنية التى يقوم عليها التمثيل فى الآية وفى غيرها من الآى . فالملاحظ أنه فى كل أساليب التمثيل لا يكون لدينا إلا مشبه واحد . وهذا المشبه فى الأغلب الاعم يكون أمراً معنوياً لأنه يكون صفة ، والصفة على العموم تفهم ولا تحس ؛ ففى قوله تعالى « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » ، إنما يصف أعمال الكفار ، فإذا الصفة أمر معنوى فينقله بالتمثيل فى قوله كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف إلى شيء محسوس . ولكن يجب أن نقبّه هنا إلى أنه لا يقصد أن أعمال الكفار تشبه الرماد الذى اشتد به الريح فى اليوم العاصف وإلا لما كان ذلك مفهوماً ، وإنما المقصود هو أن الصفة التى يمكن أن توصف بها أعمال الكفار تلتقى أخيراً بالنتيجة التى يستنبطها العقل من صورة الرماد حين تعصف به الريح . فصفة أعمال الكفار ، ومفهوم الصورة المادية التى رسمها الله لها هما اللذان يلتقيان ويتشابهان ، وهما فى الوقت نفسه أمران معنويان ، وغاية ما فى الأمر أن للصورة أو التمثيل المادى لصفة أعمال الكفار بهذه الصورة المادية ، صورة الرماد تذرّوه الرياح إنما هو أسلوب لا يقصد لذاته ولا يؤخذ فتفصل أجزاؤه لا كاستناه معناه والوقوف على مرماه ، وإنما هو وسيلة إلى غيره ، هو وسيلة إلى تصوير معنوى لصفة معنوية هى صفة أعمال الكفار . وهذا التصوير المعنوى يتحصل بالضرورة من مجموع تلك الصورة المادية التى اتخذت معداة أو قنطرة إلى تلك الصورة المعنوية . فتجسيم القرآن وتشخيصه للمعنويات بهذه الصورة ينتج عملاً فنياً هو من الأعمال الفنية فى الذروة ، كما يؤدى غرضه الاصيل المقصود من التصوير وما يمكن أن ينقله إلى النفس من إحساس بالمعنى المفهوم وإدراك له .

رثاء

انتقل الى الدار الآخرة في اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ العالم الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر متأثراً بداء عضال ألم به نحو ثلاثة أشهر ، فكان لنعيبه أسف عميق لدى كل من عرفه ، وغشى مجلسه ، لما كان عليه ، رحمه الله ، من محاسن الشيم ، والتواضع ، وحسن الإصغاء لذوى الحاجات . تلقى رحمه الله العلم فى الأزهر ، ونال درجة العالمية فى سنة (١٩٠٦) ، وعين مدرسا فى معهد الاسكندرية ، ثم تولى القضاء بالمحاكم الشرعية ، وتقلب فى وظائفها واشتهر فيها بإيثار العدل والإنصاف .

وفى سنة (١٩٣٦) اختير ليكون إماما خاصا للمغفور له الملك فؤاد ، فشغل هذا المنصب نحو خمس سنين ، كان فيها حاصلا على رضا صاحب الجلالة وعطفه . وفى سنة (١٩٣١) ، حين وضع للتدريس بالأزهر نظام جديد ، وقسمت الدراسة العالية فيه الى ثلاثة فروع ، وأنشئت لها كليات ثلاث : واحدة للشرعية وأخرى لأصول الدين ، وثالثة للغة ، اختير الشيخ رحمه الله شيخا لسلكية الشرعية ، فسكث يشغل منصبه فيها بكفاية محمودة ، وعمل مشكور قرابة ثلاث عشرة سنة .

وفى سنة (١٩٤٤) أسندت إليه وكالة الجامع الأزهر ، وكان المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخا له ، فلبث فى هذا المنصب حتى توفى الاستاذ المذكور ، وترددت الحكومة فى تخير رجل كفاء لشغل منصب المشيخة ، فوقع الاختيار على المرحوم الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، فرئى أن قانون الأزهر يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من هيئة كبار العلماء ، ولم يكن الاستاذ المذكور منها ، فاستحسن أن ينقح هذا القانون حتى يتسع لتعيين من يصلح بمن لا تنطبق عليه شروطه من أجلاء العلماء ، مادامت تتوافر فيه المؤهلات العلمية والادبية . فلما عرض هذا الحل على المرحوم الشيخ محمد مأمون الشناوى أبى ورأى أن يستقيل من منصبه ، وأن يتولى هذا الأمر غيره . فقبلت استقالته . ومضت الحكومة فى إصلاح ذلك القانون ، وعين المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر . فلما كانت سنة (١٩٤٨) وتوفى الاستاذ المذكور ، أسندت الحكومة مشيخة الأزهر إلى

الشيخ محمد مأمون الشناوى فى الشهر الأول من تلك السنة . فلبث فيها إلى أن وافته أجله فى الحين الذى ذكرناه آنفا .

ومما يجب تسجيله للأستاذ المرحوم حالة الاستقرار الذى شمل جميع طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية ، وفاء منها بشكر ما أداه إليهم من الخدم فى مساواة خريجهم بخريجى الجامعة المصرية فى المرتبات ، وفيما كان عاملا عليه من تحقيق أمانهم .

محمد فرير وهدى

مرشد الأنام

لمعرفة الحلال والحرام

هذا كتاب قيم ، جليل القيمة ، عظيم النفع ، وضعه الأستاذ النابه على فكرى بك ليكون لمقتنيه مرشدا أميناً لكل ما يهمه معرفته من الحلال والحرام ، فهو ذخر دينى لمن يستشيريه فى أموره الدينية ، لا يستغنى عنه المسلم الذى يهمه أن يترسم فى حياته الطريق المستقيم .

كتبنا مقدمة لهذا الكتاب قلنا فيها :

« وقد تعقب مؤلفنا الفاضل المحرمات الى أبعد وأخفى مظانها ، كما يتعقب (البكتريولوجى) الميكروبات الضارة فى أدق وأعضل مظاهرها . فقد أتى على المحرمات الصادرة عن هواجس القلوب ، ومسارح العيون ، واصغاء آذان الآذان وفضول الالسة ، كأضمار الشرور ، والنظر الى المحرمات ، وسماع البهتان والغيبة والنميمة الخ... فهذه كلها محرمات يتجاهلها أكثر الناس ، ويتخيلون أنهم ما داموا بعيدين عن مشهورات المحارم ، كالخمر والميسر والفسق ، فهم فى حل لأن يقعوا فى أعراض الناس بالظنون السيئة ، وأن يغتابوهم بغير ثبوت ، وأن يشهروا بهم ، لا كراهية فيما يرتكبون ، ولكن تشفيا منهم ، ونشرا لمساوئهم ، ليحملوا الناس على تحقيرهم وكراهتهم ، وما دروا أنهم يسيئون الى أنفسهم قبل أن يلحقوا الأذى بخصومهم . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيَان

مضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

شيخ الجامع الأزهر

في اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ دعا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم جمهوراً من حضرات العلماء ورجال الصحافة ، وألقى فيهم بيانا مفصلاً ، لما انتوى إحداثه من الإصلاحات في الأزهر ، وفضيلته في سمو تفكيره ، ومضاء عنيمته ، وحبه للإصلاح ، جدير أن يرى ضرورة إحداث هذه الإصلاحات الجليلة ، وما يتجدد منها في الناهيتين الدراسية والنظامية ، حتى تصير الجامعة الأزهرية أجمع جامعة لتشتيت المعارف ، كما هي أقدمها جميعاً في الوجود ، وأنها لمهمة جد خطيرة ، نرجو أن يمدد الحق بروح من عنده ليوفيقها حقها .

أهوائي وأبنائي الصحفيين

أحمد الله تعالى اليكم ، وأصلي وأسلم على نبيه وصفوته من خلقه سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وأسأله تعالى أن يجعلني وإياكم من الداعين إلى الخير ، الآمرين بالمعروف ، الناهين عن المنكر ، الحافظين لحدود الله ، وأن يؤيد بعنايته وتوقيه حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، صاحب اليد الطولى ، والفضل المشكور في كل توجيه شديد إلى ما فيه مصلحة الأمة ، وتركيز الحق والعدل ، وإعلاء شأن الدين والعلم ، كما أسأله تعالى أن يوفق رجال حكومته الجليلة وسائر أفراد رعيته المخلصين إلى ما يرفع شأن الأمة ، ويحيي مجدها ، ويثبت دعائمها ، وأن يفسر على العالم في مشارق الأرض ومغاربها ، لواء رحمته ، وظل سكينته ، ويهديهم صراطه المستقيم .

لقد دعوت إلى هذا المؤتمر اعتداداً بالصحافة الرشيدة ، وإدراكاً لمساكنتها وأثرها في توجيه الأمة إلى مواطن الخير والاستقامة والرشاد في شتى نواحي الحياة ، وإن بين الصحافة الموقفة والأزهر الشريف لاتفاقاً في الغاية ، وتلاقياً على الهدف ، ذلك بأنهما يرميان كلاهما إلى الإصلاح والتقويم ، ويرشدان إلى أهدى السبل لتحقيق الخير ، وتثبيت دعائم الحق ، لذلك لا أراى في حاجة إلى مناشدتهم أن يكونوا عوناً لدعوة الإصلاح والفضيلة في الأمة ، وأن يحبوا إليها أخلاق الشرف والاستقامة التي تنهض بها الأمم ، وتقوم عليها الشعوب ، ويُكسّرُ هوا إليها أخلاق الضعف والانحلال التي ما تفتشت في أمة إلا أخذها الله بالعذاب ، وأتى ببيانها من القواعد ، صان الله أمتنا ووقاها ، وأعازها من كل سوء .

لقد تشرفت في العاشر من المحرم سنة ١٣٧٠ هـ الموافق (٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٠) بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم ، لرفع فروض الولاء والشكر لجلالته على ما تفضل به من إسناد منصب المشيخة إلى ، وأصار حكم بأننى كنت قبل أن أتشرف بهذه المقابلة محسباً بثقل التبعة ، مشفقاً على نفسى من تحمل هذه الامانة الكبرى ، فلما تشرفت بمقابلة جلالته ، ولقيت من عطفه السامى ما لقيت ، وشعرت وأنا في حضرته بشدة رغبته في الإصلاح ، وعظيم حرصه على أن ينهض الأزهر برسالته ، وكريم استعدادده لتأييد العاملين المخلصين ؛ شرح الله صدرى ، وأقر عيني ، وأحسست أن روحاً من القوة والعزيمة يسرى في نفسى .

لقد وجدت جلالته حفظه الله محيطاً بشئون هذا المعهد دقيقها وجليلها ، حريصاً على أن يحفظ أمانته الغالية التي ائتمنه الله عليها ، وكان من ذلك أن جلالته - أدام الله توفيقه - بادرنى بتوجيهات وإرشادات سامية ، أضادتلى السبيل إلى تحقيق ما أبتغيه من ضروب الإصلاح ، وإنى إذ ألخص لحضراتكم خطى ومنهاجى في الاضطلاع بشئون الأزهر ؛ إنما أصدر عن هذه التوجيهات الكريمة ، والإرشادات السامية .

إن مهمة الأزهر ، ذات شقين عظيمين :

أحدهما : تعليم أبناء الأمة الإسلامية دينهم ولغة كتابهم تعليماً قوياً مشمراً يجعلهم حملة للشريعة ، أئمة في الدين واللغة ، حُفَظًا حراساً لكتاب الله وسنة رسوله وراث السلف الصالح .

الثاني : القيام بما أوجبه الله على الأمة من تبليغ دعوته ، وإقامة حجته ، ونشر دينه ، فإن هذا الدين عام خالد إلى يوم القيامة ، وقد شرعه الله للناس جميعاً ، وأنبأنا أن فيه صلاح العالم واستقامته على الصراط السوي ، وأنه سبيل الأمن والسلم والحياة الطيبة ، وأوجب على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يقوموا بالدعوة إليه ، وإظهار نوره ، وأن يسلكوا لذلك سبيله ، ويأخذوا بأسبابه .

وإذا كان تبليغ الدين ، ونشر أحكامه ، وبث تعاليمه واجباً على المؤمنين في كل الأوقات ، فإنه على أهل الأزهر أوجب ، وفي هذا الزمان ألزم ، فإن العالم ينوء اليوم تحت أعباء الدعوات الفاسدة ، والمبادئ الخطرة ، ولا يقوم من كارثة إلا إلى كارثة ، وأهل الأزهر بما لهم من الصدارة الدينية ، والتاريخ المجيد ، أقدر الناس على بيان ما في الإسلام من مزايا تكفل للعالم الحياة السعيدة والأمن والسلام ، وتوطد فيه دعائم الحرية الصحيحة والمساواة الحقيقية لا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، إلا بما يقدمه العاملون من أعمال صالحة ، وجهود نافعة . يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

على رعاية هذين الجانبين يجب أن تقوم خطة الإصلاح في الأزهر ، وأن يعمل العاملون على تحقيق آمال الأمة فيه .

وسيبلى إلى ذلك في الأمر الأول ، التي آخذ بها نفسى ، وأدعو إليها إخوانى وأبنائى الأزهريين ، أن نستحضر دائماً هذه المبادئ ، وأن نصدر عنها في كل شئوننا التعليمية .

فأول ذلك ، أن يكون همنا الأكبر التفرغ لتكميل أنفسنا ، والتزود من العلم يزداد طيب يعيننا على أداء حقوق الله وحقوق أمتنا العزيرة ، ويجعل لنا في الناس

منزلة وشأناً ، فإن العلم هو غذاء العقول ، وكال النفوس ، وأساس التقدم ، وما من خير يناله الأفراد ، وتحصل عليه الأمم والجماعات ، إلا والعلم أصله ، والمعرفة أساسه ، وما من شر أو ضعف أو فقر ، أو اضطراب أو اختلال أو انحلال ، إلا ومصدره الجهل ، وخطأ التصور والقصور أو التقصير في المعرفة والإدراك .

وإذا قلت العلم ، فإنما أريد العلم الذى يطبع أصحابه بطابع الفضيلة والخلق الكريم ، وتظهر آثاره فى أشخاصهم وأعمالهم قبل أن تظهر فى أقوالهم وكتاباتهم وخطبهم .

إذا استحضرتنا هذا المبدأ دائماً ، فجعلنا العلم غايةنا ، والتجمل بالمعرفة والفضيلة شعارنا ، أمكننا أن نتغلب على المشاق ، وأن نقهر الصعاب ، وأن نعتصم بالصبر فى جميع شئوننا ، وأن نطمئن إلى أن أمورنا ستيسر ، وأن آمالنا ستتحقق ، وأن الأمة ستقدرنا حق قدرنا ، وأن الدولة ستوفر لنا أسباب المعونة والإنصاف ، ولا تبخل علينا بما تجود به على غيرنا .

إن الأزهريين كغيرهم من طوائف الأمة ، للأمة عليهم حقوق ، ولهم عليها حقوق ، والمساواة بينهم وبين أمثالهم فى حقوقهم ، كالحرص على قيامهم بواجباتهم ، جزء من برنامجي ، وموضع من مواضع اهتمامي وعنايتي ، وإني لوائق أنهم بالعمل الدائب ، والجهد الخالص ، رافعون إن شاء الله صوتي ، ومؤيدون حجتي . أسأل الله أن يحقق آمالي فيهم ، وآمالهم في ، وأن يحقق فينا جميعاً آمال الأمة التى هى أعز آمال المليك المعظم .

المبدأ الثانى : أن نغنى بالآهم من العلوم بالنسبة إلينا ، فنبذل أكبر جهودنا لدراسة الدين واللغة وما يتصل بهما ، ويعين عليهما ، وألا نتخلى فى الوقت نفسه عن العلوم التى تفيدنا فى حياتنا العامة ، والتى لا يسعنا ولا يحمل بنا أن نجهلها .

إن الأمة تريد من الأزهر أن يخرج لها علماء فى الدين والشريعة واللغة وسائر العلوم العقلية والاجتماعية المتصلة بها ، على أن يكون هؤلاء العلماء مزودين مع هذا بقدر صالح من العلوم الأخرى التى تفيدهم فى مجتعمهم ثقافة عامة .

المبدأ الثالث : أن المقصود الأول من التعليم هو تحصيل المصلحة الصحيحة في العلم ، والنزود من قواعده ومسائله بما يفيد وينفع ، فكل تعليم لا يؤدي إلى غايته ، ولا يفيد الفائدة المقصودة من العلم إنما هو تضییع للأوقات والجهود وإنفاق للأموال والمواهب فيما لا طائل تحته .

فإذا استحضرنّا هذا المبدأ كان لزاما علينا أن نعمل على مراجعة ما لدينا من الكتب ، فنقر منها ما ثبتت صلاحيته لتحقيق الغاية من العلم ، ونبعد منها ما لم تنوّر فيه أسباب تلك الصلاحية .

إن الكتب التي ورثناها نوعان :

أحدهما : تلك الكتب الأولى التي ألّفت والعلّم صاف ، والمؤلفون يكتبون على سجيّتهم ، ويمضون في البحث على فطرهم ، لا يقصدون إلا تجلية ما يبحثون والوصول إلى الفائدة من أقرب الطرق .

وهذا النوع من الكتب فيه علم غزير ، ومادة صالحة طيبة ، وغذاء للعقول وتخرج لها على طابع استقلال مثمر ، فليس من الرأي أن نحرم أنفسنا ما فيها من المزايا ، وأن نفل عنها مبعدين .

النوع الثاني : ما كتبه المتأخرون حين كانت تسودهم الرغبة في الإيجاز وجمع المعلومات الكثيرة في الالفاظ القليلة ، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى حد الإلغاز .

وهذه الكتب من شأنها أن تضییع أوقات المشتغلين بها ، وتبعث في نفوسهم الكراهية لها ، والنور منها ، والطالب لا يصلحه -إلا أن يحب كتابه كما يحب أستاذه ، فإذا كره هذا أو ذاك كان غذاؤه كرها ، وهضمه كرها ، وربّ غذاء تضوى به الأجسام .

لكنها مع ذلك تحوى كثيرا من الفوائد العلمية ، التي قد تخلو منها كتب النوع الأول ، وتمثل في الوقت نفسه عصرا من عصر التفكير العلمي لا يسع الأزهر أن يحمله ، وأن يعجز عن مزاولته ، وإدراك ما فيه من خير .

والرأى عندى أن يراعى الأزهر المصلحتين ، وأن يوفق بين هاتين الغايتين
المحمودتين .

وسيكون من أهم ما أعنى به إن شاء الله تأليف لجان من جماعة كبار العلماء
وأساتذة الكليات والمعاهد والمختصين فى شئون التعليم لمراجعة الكتب الدراسية
ولإبقاء الصالح منها ، واختيار لون جديد يوجه الطلاب توجيهها حسناً إلى العلم النافع
من أقرب طريق وأيسره .

ولا يفوتنى أن أشجع - إن شاء الله - مع هذا حركة التأليف والتجديد
عن طريق الجوائز وغيرها حتى يتصل حبل العلم ويمتد ، وتأخذ العقول والأفكار
سبيلها إلى غابات قد يكون فيها خير وبركة على العلم والدين .

* * *

أما الشق الثانى من مهمة الأزهر ، وهو القيام بتبليغ الدعوة ، ونشر دين الله
فسبيل الأزهر إليه أن ينظم اتصاله بالعالم اتصالاً فكرياً وعملياً .
وقد تشرفت فى هذا الشأن أيضاً بتوجيهات سامية حكيمة من لدن
جلالة الملك :

منها العمل على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، نشر أ لكتاب
الله الكريم فى بيئات ومواطن يجب علينا أن ننشره فيها ، ولا يقبغى أن نتجاهل
ما يعود على ديننا وأمتنا من الفوائد الجليلة فى ذلك .

وقد كان هذا المشروع موضع تفكير الأزهر من قبل ، وأقرته جماعة
كبار العلماء بعد دراسته وتبين حكم الله فيه ، ويسرنى الآن أن أعلن ما اعتزمته
من أعداد العدة للشروع فيه على بركة الله ، وأسأله جل شأنه المعونة
والتوفيق والساداد .

ومنها توجيه العلماء - أولاً - إلى وضع أبحاث فى الفقه والتشريع تسائر
الروح العلمى الحاضر ، وتسكفل إبراز ما فى الفقه الإسلامى من قواعد العدل
والرحمة والمصلحة التى تشهد بها الفطر السليمة ، والعقول الراجعة ، وتبين للناس
أن ما جاء فى التشريعات الحديثة القائمة على أسس سليمة ؛ موجود فى الفقه الإسلامى
مع بيان أدلته وحججه ، ودفع الشبه عنه .

و - ثانياً - إلى إصدار نشرات ووضع مؤلفات باللغات الأجنبية لبيان حقيقة الإسلام، والتعريف بمزاياه . حتى يعلم المنصفون من الأمم أن الإسلام هو السكفيل وحده بالحياة الطيبة للفرد والأسرة والجماعة .

ومنها العمل على النهوض بالبعوث الإسلامية وتنظيم الاتصال بالبلاد المحتاجة إلى معونة الأزهر ، ولا سيما البلاد التي تربطها بمصر روابط وثيقة ، حتى يؤدي الأزهر واجبه في نشر الثقافة الدينية بين المسلمين ، ويجعل من يتلقاهم أو يسمعونهم مثلاً صالحاً تكون خيرة عنوان له .

ومنها العناية بمجلة الأزهر حتى تكون في طليعة المجلات الكبرى ، وتمكن من أداء مهمتها على الوجه الأكمل .

ومنها العمل على إنشاء مطبعة خاصة تعين على إخراج ما يرى الأزهر لإخراجه من الكتب ، وعلى طبع مؤلفات علمائه .

ومنها العمل على تنفيذ الرغبة السامية بشأن كتب الحديث الشريف .

* * *

هذه هي الخطوط الرئيسية في برنامجي للنهوض بالأزهر ، والسير به في طريق التقدم والكمال .

ولست أشك في أن أهل الأزهر سيتلقون هذه التوجهات الملكية السامية بعزائم صادقة ، وهم وثابة ، معترزين بها ، عاملين على تحقيقها ، وأن حكومة جلالة الملك ستعيني عليها ، وتؤيدني فيها ، فإن ما أعلمه عن صاحب المقام الرفيع رئيسها ، وأصحاب المعالي زملائه السكرام من حرص على كل ما يثبت دعائم الدين والعلم والخلق ، ويحقق آمال الأزهر وآمال الأمة فيه ، ليعتد الاطمئنان كل الاطمئنان إلى قلبي وقلب كل مؤمن .

وفقنا الله جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه ، ويسر لنا سبيل العمل الصالح لخير الإسلام والمسلمين بل لخير العالم أجمع ، وأظل بالرعاية والتوفيق جلالة مليكنا المعظم ورجال حكومته ، إنه سميع مجيب ؟

لَيْسَ هُنَا نَبَلٌ

من هم الذين يوصمون بالكهانة ويصح أن يطلق عليهم لفظ الكهنة ؟

تابعنا قراءة كتاب (من هنا نبدأ) لحضرة مؤلفه الاستاذ خالد محمد خالد فالفينا يقول :

هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الاولى ... وهي ذات تعاليم ومبادئ ضارة وقاتلة . . ! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل عليه وتحاطب بعض تعاليمه ، ثم راحت تنفث سمومها المبيدة في دأب ومثابرة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض !! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها ، وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها ، حتى يظل ولاء الناس له ، وإعجابهم به . .

نقول لم يذكر الاستاذ مؤلف الكتاب الطائفة التي تمثل هذه الكهانة ، واكتفى بقوله : أنه يقصد بها جماعة تزويوا بزى رجال الدين ، وانتدبوا لبيت تعاليمه في الناس ، وهم ليسوا منه في شيء . وقد أعملنا الفكر لنصل إلى تعيينهم ، فلم نهمد إلا الى رجال من جبهة الناس تزويوا بزى رجال الدين ، واندسوا بين العامة يفتونهم بما لا يعلمون ، ويصورون لهم الدين على ما يهون ، تصورا يخرجهم عن حقيقته . وهم شر على الدين من أعدائه ، ويجب على أولى الأمر منعهم من تسميم عقول السذج بضلالاتهم الضارة .

ولكننا رجعنا فقلنا لو كان يريد بهم هؤلاء فإن أمرهم أهون من أن يكتب

فيهم فصلاً يقع في نحو تسعين صفحة من الكتاب ، ومن أن ينزعج هذا الانزعاج الذى يتمثل في هذه السطور من كتابه وهى :

« وهكذا تظل الحكمة تزحف وتمزج بتعاليم الدين ، وتحتل عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يذعنوا له ولا يناقشوه ! وهنا ينبج ضرران خطيران : (الأول) استماع الناس لها ، واقتداؤهم بها حيث تسير بهم الى الهاوية ، بعد أن تسكرهم بتعاليمها التى تريحهم مما يتعب الكرام ، وحيث يظلون عبيد نصوص ميمية ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب . (الثانى) أنه على مر الزمن لا بد من ظهور طبقة مثقفة فى المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق الى الموت والظلام . . . فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذى يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين ، ثم أخذت تنمو فيه حتى اكتسبت شخصيته ، واتسمت بسماته وملاحه . عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ، ويدعون الناس الى الشك فيه ، والتمرد عليه . هذا هو الذى حدث فى أوروبا والغرب ، وهو الذى نخشى أن يحدث فى الشرق إذا لم نبادر بعزل الحكمة عن الدين ، وتنقيته من شوائبها ، ونقدمه للناس وضيئاً متألئاً كيوم نزل من لدن حكيم عليم . »

قرأنا فى الكتاب هذه العبارات ، فازددا حيرة فى تعيين الطائفة التى يسمها بالحكمة ، ويهبها من التأثير بحيث تحتل كهانتها عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يذعنوا له ولا يناقشوه الخ ! نعم ازددا حيرة ، لأننا لم نجرؤ أن نفهم منها أنه يريد بها علماء الدين ، فليس للعلماء دعوة غير ما ينشرونه فى مجلته من المقالات ، وما ينادى به وعاظهم فى الأقاليم ، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ول هؤلاء أيضاً مجلة خاصة ينشرون فيها ما يعن لهم من البحوث ، وكلها من خير ما تنمره الثقافة الفاضلة والمذهب القويم ؛ فكان بحسب الأستاذ خالد أن ينقل عنهما بعض ما تنشرانه من الاضاليل ، ليرى قراءه بدليل محسوس كيف تسم هذه الحكمة عقول إخوانه فى الدين !

أعدنا نظرننا فيما كتبه الأستاذ فى (الحكمة) لعلنا نعرف أى الطوائف فى مصر يريد . فرأيناه يقول أيضاً :

هناك شيء اسمه السكينة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى ، وهي ذات تعاليم ومبادئ ضارة وقائلة . ! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تنطفئ عليه وتخالط بعض تعاليمه ، ثم راحت تنفث سموها المبيدة في دأب ومثابة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض !! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى هزل هذه السكينة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها .

ثم قال :

« فإلى أي شيء تدعو السكينة ؟ نستطيع أن نعرف الجواب من مناوئتها الحادة لرغبات المجتمع وطموحه ، فعندما اشتد احساس الشعب بؤسه وخصاصته ، وتضرم شوقا إلى عدالة اجتماعية يستجم فيها من وعاء لغوبه الطويل ، وبدا كأن الفرص تستجيب له ، وقام جلاله الفاروق يمد بنفسه طريق اليقظة الشعبية الزاحفة ، ففاجأ مجلس الوزراء في إحدى جلساته ، وخاطب الوزراء بنبرات حازمة مؤثرة تحمل آلام عشرين مليوناً من البشر : « جئت أطلب بحق الفقير والمحروم والمرضى ، ! عندما حدث ذلك . . . رأينا السكينة المصرية تحتط مذهباً عجيباً . ! إذ راحت تمطر الناس بخرافاتها ، وسال جشاؤها سيل العرم حاملاً مبادئها الحزينة المدبرة ، داعية الناس إلى القناعة المقدسة ، بيد أن السكينة أنفسهم ألد أعداء القناعة ، وأسبق الناس إلى اقتناص المغنم ، والبحث عن المال والجاه ! ، انتهى .

لما طالعنا هذه الفقرات رجعنا نشك فيما ظنناه من أن المراد بالسكينة مذهب علماء الدين ، ففتى عهد الناس أن واحداً منهم دعا إلى الرجعية الاقتصادية أو دافع عن مزايا الفقر والجهل والمرض ؟ أما كان يجدر بحضرة الكاتب أن يأتي بعبرة من خطابة منبرية لأحدهم ، أو كتاب وضعه بعضهم ، يثبت هذه التهمة عليهم ؟ وإذا كان الدينيون يستبطنون مذهب الرجعية ويعملون على ترويجه ، فكيف يقل أنهم مع ذلك يقررون تدريس علم الاقتصاد السياسي في كلياتهم ، وهو يثبت بأدلة لا تقبل النقص أن المال ضروري للجماعات ضرورة الدم

للجسم الحى ، وأن لكل منهما دورة حيوية لا بد منها لحفظ الحياة الفردية والاجتماعية .

ثم إذا كان الدينيون المعاصرون رجعيين ، فكيف يعقل أن يخطوا في سبيل التجديد هذه الخطوات الجديدة الجريئة ، فيقرروا تدريس العلوم الطبيعية والرياضية والمذاهب الفلسفية الحديثة في كلياتهم ، ليتخرج الطالب آخذاً من كل علم بطرف ؟ .

إن المدارس والكليات المسيحية تدرس هذه العلوم في العصور الحديثة ، ولكن لا تدرس منها إلا ما هو مؤلف بأقلام أعلامهم ، ولا تسمح بأن يلقيها إلا رجال منهم ، على خلاف كليات الأزهر فإنها تعين أساتذة هذه العلوم من الحاصلين على إجازات فيها من المدارس الأميرية ، ومن لا علاقة لهم بالدين أصلاً ، بل زادوا على ذلك فقرروا تدريس اللغات الأجنبية في تلك الكليات ، وبالغوا في هذا التسامح فأرسلوا بأنحب طلبتهم إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا لدراسة هذه اللغات وإتقانها ، ودراسة بعض الفروع العلمية بها . فهل يظن بل هل يعقل أن يصدر مثل هذا التسامح كله من طائفة تدين بالرجعية ، وتتلمس مثلها العليا من الجهل ، والمرض والفقر ؟؟؟

لست أريد بهذا أن أقول إن الدينيين وصلوا بتسامحهم هذا ، الذى أصبح مضرب الأمثال ، إلى المثل العليا التى ينشدونها ويعملون للوصول إليها ، ولكنى أريد أن أقول إن اتهام أولى الحل والعقد منهم بالرجعية ، وتشبيههم بالسكنة ، وعملهم فى سبيل بلوغ المثل العليا ما رأيت ، يعتبر تجنياً يحار العقل فى فهم مداه وفى تعليله !

إن الأزهر لم يبلغ هذا التطور الجديد من حياته إلا منذ سنين معدودة ، وهو ماض فى سبيل الوصول إلى ما يقتضيه هذا التطور من التجديدات بكل ما يملكه من وسيلة ، ولكن أمثال هذه الانتقالات تقتضى المصلحين وقتاً كافياً لتثمر فيه ثمراتها المنتظرة منها ، بل لتتكمل وتصلح للإنتاج والإثمار . ولو كان الناقدون يشاركون العاملين فى أحداث هذا الانقلاب ، ويعانون بعض مشقاته والتواءاته ، لأدركوا أن كل جديد لابد له من وقت لينضج فيه ، ووقت آخر

ليؤتي ثمراته . فلو أمهل الأزهريون جامعتهم ملاوة من الدهر مع مشاطرة كبار شيوخها جهودهم على النهوض بها ، لبلغوا الغاية في مدة وجيزة ، لاسيما وحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ عبيد المجيد سليم ، من أشد الناس شغفا بجعل الأزهر مثلاً أعلى للجامعات الدينية ؛ أما لو تعجلنا الثمرة قبل نضجها ، وعملنا على الإسراع بها قبل استيفائها أدوار إيناعها ، اضطررنا بحكم الظروف لانتظار زمن أطول للحصول على ما نتخيله لمرضاتنا .

يقول مؤلفنا الفاضل :

« وما دمنا بحاجة الى تقديم ثقافة دينية جديدة بريئة ، فلا بد من العمل على خلق جيل جديد من الوعاظ وأئمة المساجد ، والأزهريون اليوم على أتم الاستعداد النفسى والذهنى للقيام بهذه الرسالة الجديدة . وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ، ومناهج علمية سليمة تتفق والوعى الجديد . فإذا أبى شيوخ الأزهر ذلك أو عجزوا عنه ، كان حقاً لزاماً على الدولة أن تنشئ في كل جامعة من جامعاتنا العلمية القائمة والتي ستقوم ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادئ الصحيحة التى تهدي الى حياة دينية ناهضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى التقدم والارتقاء ، ويتخرج منها وعاظ من طراز جديد . كوعاظ الكنيسة في أوروبا . ولا بد من الإجابة بالعلماء الراشدين كى يعرضوا كل قضايا الدين من جديد عرضاً وافياً خالفاً ، وإذا كننا نقدر خطر تعاليم السكمانية على حياتنا ، ونؤمن بأن الأفكار أقوى من الجيوش ، فإن الدولة ستهم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان ، بالقضاء على السكمانية ومكائنها ، فتؤلف بجمع العلماء ليقوم بالمهمة التى ذكرناها . وهى عرض التعاليم الدينية صحيحة عرضاً جديداً ، ويؤلف السكتب فى ذلك ويشترك فيه علماء الدين واسعو الأفق مع صفوة تختار من رجال الفكر والادب والاجتماع ، انتهى .

ونحن نقول :

إن الحالة التى وسماها الاستاذ المؤلف بالسكمانية ليس لها وجود فى مصر ، وإن وجدت فى طبقة من الجملة لاتخلو منها أمة فى الارض ، مهما بلغت من السمو العلى والمدنى ، وإن كل ما تناء حضرته لهذه الأمة من الرشد فى الدين ، والفهم

الصحيح له ، لمواجهة فتنة عهدنا العلمى المدنى الراهن ، حدث منذ أكثر من سبعين عاما بنبوغ الفيلسوف الإسلامى الجليل جمال الدين الأفغانى . وقد عاونه على نشر تعاليمه ، وبث أصوله وفلسفته ، جمهرة من نبغاء الأزهرين على رأسهم العلامة الجليل الشيخ محمد عيده ، فى مجلة تدعى العروة الوثقى أذاعوها فى الخافقين ، فتتقظ نهاء المسلمين من سباتهم الذى كان قد طال عليهم الالامد فيه ، وشرعوا يوقظون من حولهم بمن لا بصر لهم بما هم عليه ، ولا بما سيتأدون إليه تحت ضغط شبهات علمية لاقدرة لهم على فهمها ، ولا على اتقاء آثارها : مهيين بهم إلى تدارك ما هم منتهون إليه من التدهور المادى والأدبى ، ثم منه إلى الفناء فى أمم ليس بينها وبينهم أية صلة من الصلات الروحية والاجتماعية ، ولكن كيف تصل هذه الدعوة الى قلوبهم ، بل الى أسماعهم ، وهم فى درجة من الالامية لا تسمح لهم بفهم شىء مما يشغل بال هؤلاء المصلحين الذين يهيئون بهم الى طريق النجاة ؟ ومع هذا فان هذه الصيحات الإصلاحية التى بدأت ضعيفة متخاذلة ، أخذت تقوى وتشتد رويدا رويدا حتى أصبح صوتها الآن مدويا فى الخافقين .

واليوم وقد زال خطر هذه الالامية ، ونبغ عندنا ألوف وألوف من رجال العلم والقلم ، وصدرت ألوف من المؤلفات تنشر أصول الإسلام الصحيحة ، وتدل على أن هذه الاصول أحكم وأكمل ما تأخذ به الامم لبناء وجودها ، وفى العالم الإسلامى اليوم مئات من المجلات تبين ماهية الإسلام ، وتبرهن بالدلائل المحسوسة على أن تعاليمه تبنى فى مراميها الأدبية والاجتماعية والعلمية جميع التعاليم الموجهة الى الامم عامتها وخاصتها ، لتأخذ فى أسباب بناء مدنية فاضلة تناسب مواهب الإنسان وغاياته البعيدة ، وتنتشر فى جميع البلاد التى يسكنها أبناء هذا الدين جرائد ومجلات تردد هذه الدعوة . وتنقل عن فلاسفة الاوروبين وعلمائهم ، إعجابهم بالدين الإسلامى وشهاداتهم له بأنه الدين الوحيد الذى يأخذ بيد الإنسانية الى الغايات القصية ، والمثل العليا البعيدة ؛ قلنا اليوم وقد بلغ العلم بماهية الإسلام الى هذا الحد من الذبوع والانتشار ، هل يخطر على بال أحد أبنائه أن يكتب ما كتبه الاستاذ خالد فى كتابه وهو قوله :

« انه على مر الزمن لابد من ظهور طبقة في المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتحن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق إلى الموت والظلام فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذي يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتمرد عليه . ، انتهى .

فهل يعقل ان يبلغ العالم بأجمعه صيت الاسلام في الحكمة ، وفي اسلوبه الفذ في إحياء الامم والشعوب ، وترقيتها أدبيا وماديا ، وفي ايتائها خلافة الله في الارض ، ولا يصل خبره الى طبقتنا المثقفة فيحسبوا جام غضبهم عليه ، ويدعون الناس إلى الشك فيه ؟ لا أظن ذلك . . . ١

محمد فريد وجدي

المستفيدون من كتاب القرآن

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

كتببت في العدد الماضي من مجلة الأزهر الغراء بعض ما أسعف به الخاطر فيما يدل عليه مثل قوله تعالى في وصف القرآن الكريم « هدى للمتقين ، وذكرى للمؤمنين ، » وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إلى غير ذلك من الآيات التي تشير لأرباب الدعوات وأصحاب الأفكار ، إلى أنه لا يكتفي في سيادة الحق وتقبله من الداعين إليه أنه حق ثابت تبدو معاملته ، ويعرف بسمياه ، ولكن يجب أن يكون المدعوون إليه ذوي قلوب حية ، ونفوس غير ملتوية ، حتى يكونوا مستعدين لتقبله ، وتقبله ، والارتفاع به .

وقد ظلت دعوة الإيمان تتردد في أرجاء مكة ثلاثة عشر عاما ، يصدع بها رجل منهم ، عرفوه بالصدق والامانة ، وشهدوا له بالفضيلة والزكاة ، واختبروه بألوان الابتلاء ، فما تزلزل ولا تحول ، ومع ذلك لم تشرق على قلوب أهلها شمس الحقيقة ، ولم يتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المقام بينهم آمنا على نفسه ودعوته وأصحابه ، فهاجر إلى بيئة صالحة مستعدة ، هداه الله إليها ، فهدى به ، وأظهر دينه على الدين كله .

هذا المعنى الذي تناولته في مقال السابق يشير في نفسى معنى طالما رددته ورويت فيه ، هو أن هذا القرآن يعطى كل ذى اختصاص في ناحية من النواحي العقلية دليلا يناسبه على إعجازه وسموه وكونه من عند الله جل جلاله ، ومن ذلك أنه يتحدث عن النفوس البشرية في كثير من آياته حديث الخبير بها . العارف بدقائقها وما تنطوى عليه ، وكثيراً ما أمر ببعض هذه المواطن فيه فأقف

عندها موقف المأخوذ بما لها من روعة وجلال ، إذ أرى فيها تحليلات نفسية قوية لا يطمع المشتغلون بالفلسفة وعلم النفس أن يصلوا إلى مداها مهما توغلوا في البحث ، وصوبوا وصعدوا في آفاق النظر .

ولنضرب لذلك مثلاً من الآية التي جرّت إلى هذا الحديث وما اتصل بها من الآيات في أول سورة البقرة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » فقد قررت أولاً منزلة الكتاب الكريم بهذه العبارة الموجزة التي يضرب بها البليغ المثل في القوة ، ويتخذونها مثلاً لما تفيد الإشارة والتعريف باللام من التعظيم والتفخيم والقصر ، ثم نفت عنه الريب بهذا الأسلوب المقيد للعموم حيث أتت بالنكرة في سياق النفي ؛ ثم أثبتت بعد تعظيمه وتفخيمه ونفى جميع ألوان الريب والشك عنه هذه الحقيقة التي كانت موضع بحثنا في المقال السابق ، ثم جاءت بعد هذا الإجمال بالصفات التي تنطوي عليها كلمة « المتقين » ، فقالت « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

أفادتنا هذه الآيات في وصف المتقين خمس صفات :

الوصف الأول : الإيمان بالغيب ، والناس في هذه الناحية ليسوا سواء ، فمنهم من قر في نفسه أن الحياة هي ما يراه ويشاهده ويعرض كل حين من المحسّات والمبصرات ، فتراه لا يؤمن إلا بما يحسه أو يصل إليه عن طريق من طرق العلم المادى ، ومنهم من يعلم أنه وما يبصر وما يفعل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم الذى غاب عنه أكثره ، وأن وراء هذا الكون ما لا يعلم إلا الله ، فهو يقف عند حده ولا يغتر بما يعلمه ، ولا يتأبى على الاقرار بضعفه وعجزه وقصوره وحاجته إلى اللجوء إلى القوة القاهرة الخفية التي تسيطر عليه وعلى كل ما في العالم ، والتي تجري في أحكامها وتصاريفها على سنن يعلم بعضها ويجهل أكثرها .

فأما الصنف الأول ، فإنه بمنأى عن هداية القرآن ، لا ينتفع بها ، ولا تعمل فيه ، لأن هداية القرآن تستلزم الإيمان برب القرآن ، وبأنه أوحى إلى عبده ما أوحى ، وبأن هذا الوحي كان صلة خاصة بين ملك سماوى وبشر أرضى

بإذن الله ، وعلى سنة منه ، وكل هذا غيب ، وهو لا يؤمن بالغيب ، وأما الصنف الثانى فهو لإنسان الفطرة الذى يرى نفسه فى كل حال موضعاً لتأثيرات خارجة عنه ، فلا هى من نفسه ، ولا هى من بنى جنسه ، تأثيرات خفية تخيفه أحياناً ، وترجسيه أحياناً ، وتضعفه أحياناً ، وتقويه أحياناً ، ويرى نفسه يأخذ بكل ما يتبع عليه فكره من أسباب فى ناحية من النواحي ، ومع ذلك لا يصل إلى الغاية التى تطلع إليها وابتغاها ، إما لأن أسباباً أخرى غابت عنه ، وإما لأن مانعاً منع وليس فى حصابه ، فهو إذن قاصر ، ووسائله قاصرة ، وعلمه محدود ، وقدرته محدودة ، وهو لهذا مؤمن بالغيب ، واثق بأن قوة وراء القوى الظاهرة لا بد أن تسكون ، ولا بد أن يؤمن بها ، وذلك هو مبدأ الإيمان بالغيب ، وذلك هو أول شروط الانتفاع بالقرآن ، والنزول على حكم القرآن .

الوصف الثانى : إقامة الصلاة ، والإيمان بالغيب لا يستلزم إقامة الصلاة ، فإن الأول علم ، والثانى عمل ، وكثيراً ما نجد مؤمنين بالله معترفين بالغيب لا يقيمون الصلاة ، وإقامة الصلاة شرط من شروط الانتفاع بهدى القرآن ، ذلك أن طبيعة الإنسان هى النسيان والصلاة تذكير ، فالمدائمة عليها من شأنها أن تقطع الجفوة ، وتفتح القلب فى الحين بعد الحين إلى وافدات الهداية ، وخواطر العرفان عن الله كما يقول المتصوفة ، وقد جربنا أن المرء إذا واطب على الاتصال بكبير ذى منزلة فى نفسه ، وهيبة فى قلبه ، فهم عنه ، وعرف إشاراته ومراميه ، وكان على بينة من روجه ، وما له من توجهات أو توجيهات ، وأن على العكس من ذلك المنقطع عنه ، البعيد عن مجلسه ، الذى لا يناجيهِ ولا يلاقيه ، فالعبد المواظب على حضرة مولاه ، الحريص على الوقوف بين يديه كل يوم خمس مرات مقبلاً لصلاته ، مؤدياً لها على وجهها ، كما يفهم من التعبير بمادة « الإقامة » لا بد أن يكسب من هذه الإقامة ، وتلك المواظبة على الحضرة ، روحاً يجعله أهلاً لأن يفهم وينفع ويمتدى .

الوصف الثالث : الإنفاق من الرزق ، وهو لازم لسماحة النفس وما تطوى عليه من الجود ومحبة البذل .

إن البخل والكراسة والحرص على المال والضم به عن مواضعه أماره على فساد الطبع ، وضعف الإيمان ، فأما كون ذلك أماره على فساد الطبع ؛ فلأن المال وسيلة لا غاية ، فإذا انقلب غاية ، وصار جمعه والاحتفاظ به مقصوداً لذاته ، فقد خرج صاحبه بذلك على الفطرة ، وجانب الوضع السليم ، وأما كونه أماره على ضعف الإيمان ؛ فإن المرء لا يكمل إيمانه حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، وليس كذلك البخيل .

وكثيراً ما ترى أناساً يصلون ويصومون ويقومون حتى إذا امتحنوا ولو بالقليل في أموالهم ، ليستدوا معروفاً ، أو يؤدوا حقاً ؛ رأيهم ينفضون رموسهم ، وينظرون إلى من يدعوهم إلى ذلك نظر المغشى عليه من الموت .

فهؤلاء لست أقول قد خرج الإيمان من قلوبهم فإنهم مؤمنون ، وقد يبخل المؤمن ، ولكن أحداً منهم لن يكون مرآة صافية ينعكس عليها نور القرآن ولن يتفتح قلبه لتلقى هدايته كما تتفتح قلوب ذوى السباحة والصفاء ومن هانت عليهم الدنيا .

الوصف الرابع : الإيمان بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله ، ولا يصل إلى ذلك إلا من خلا قلبه من التعصب والتحيز ، فإن الذى يؤمن ببعض الكتب ويكفر ببعض كالذى يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، والدين عند الله واحد هو الإسلام ، فإما أن يؤمن المرء بالجميع وإما أن يكون كافراً ، وفى هذا بلاغ للذين يزعمون أنهم يجدون فى القرآن أو فى الكتب السماوية بعض أحكام صالحة للعصر ، موافقة للحضارة والرقى ، وبعض أحكام يزعمونها رجعية عتيقة كالحدود أو تحريم الربا أو ما إلى ذلك مما فتوا فى شأنه بما عندهم ، وهم عن أسرارهم غافلون ، فثل هؤلاء لا تتجلى لهم هداية القرآن ، ولا ينتفعون بها ، لأنهم يحكمون فيها ما عندهم ، ولا يحكمونها هى فيما عندهم ، فهم بما عندهم مؤمنون ، وبما جاءهم من الله كافرون ، فكيف يرجى لهم النفع ، وينتظر منهم الاهتداء ؟ وإنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون .

الوصف الخامس : الإيمان بالآخرة ، وهذه العقيدة هي أجدى شيء على الإنسان من حيث تصفيته وتهيئته للانتفاع بهدي القرآن ، فإن المؤمن بأن وراء هذه الدار داراً يحاسب فيها كل امرئ على ما قدمت يداه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، تكون نفسه دائماً مستعدة لتقبل هداية القرآن ، التي كثيراً ما تعتمد على الترغيب والترهيب ، أما الكافر بذلك فإنه يستخر بما يسمع ، ويعتقد أنه غير مسئول عما يفعل ، ويقول : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، فيحمله ذلك على أن يركب رأسه ، ويتأدى في غلوائه ، ويعرض عن كل نصيح ، ويخرج على كل هدى ، ولذلك يصفهم الله تعالى بمثل قوله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » .

أما بعد . فهذا مثال من حديث القرآن عن النفوس ، ووصفه للطبائع البشرية ، ولنا إلى الموضوع عودة إن شاء الله .

بين رؤبة وأبي مسلم

قال الأصمعي : حدثني رؤبة قال : دخلت على أبي موسى صاحب الدعوة للعباسيين ، فلما أبصرني نادى يارؤبة ، فأجبتة :

ليبك إذا دعوتني لبيكا أحمد ربا ساقى إليك

الحمد والنعمة في يديكا

قال : بل في يدي الله تعالى ، ثم قلت : يأذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد ؟ قال : نعم ، فأنشدته :

ما زال يأتي الملك في أقطاره وعن يمينه وعن يساره
مستعراً لا يصطلي بناره حتى أقر الملك في قراره

فقال : يارؤبة إنك أنيتنا وقد شف المال ، واستنفذه الإنفاق ، وقد أمرنا لك بجائزة ، وهي تافهة يسيرة ، ومنك العود وعلينا المعول .

القرآن كتاب جامع شامل

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : « أنزل في هذا القرآن كل علم ، وبتين فيه كل شيء ، ولكن علمنا يقصر عن إدراك ما بين لنا في القرآن ، .

مهما كتب السكاتبون ، وأجاد المنشثون ، وأبدع المؤلفون ، وأحسن الباحثون ، وأكثروا من الحديث عن القرآن ، وبيان أسرارهِ ومقاصده ، واستنباط أحكامهِ وحكمهِ ، وإظهار مبادئهِ وتعاليمهِ ، والكشف عن فضائلهِ ومحاسنهِ ، فإنهم لن يبلغوا شأوَ السنة في هذا المضمار ، ولن يصلوا ما جاءت به من فرائد وآيات ، أو على الأقل لن يخرجوا عما رسمته من مناهج ، وأوضاعته من معالم ، وعبيدته من طرق ، وأوحى به من توجيهات ، وأرشدت إليه من موضوعات .

أجل ، فلقد تناولت الكلام عليه من كل نواحيهِ ، وعالجته من جميع أطرافهِ ، ولم تترك دقيقة ولا جليلة إلا ألمت بها ، أو دلت عليها ، أو أشارت إليها .

ومن أول ما تحدثت به السنة عن القرآن تبيان أنه كتاب سماوى جامع ، وسفر إلهى شامل ، « وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع سرا ولا حكما إلا صرح به ، أو رمز إليه .

نعم وإن كان هذا كله قد يكون معلوما من مثل قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، ، وقوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ،

ومن الامر بالسؤال عما لا نعلم في قوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، إلا أن السنة قد زادت ذلك بيانا ، وأوسعته إيضاحا ، ووفته حقه من الشرح والتفسير .

ومن أجمع ما جاء في السنة مقورا لذلك ، وناطقا به ، ما أخرجه الترمذى وغيره عن علي رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكونون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ ، قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبا من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا تمثله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقض عجايبه ، هو الذى لم تفته الجن إذا سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، (١) .

وما أخرجه أبو بكر محمد بن القاسم عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ، وذلك أن المأدب العامرة الفاخرة ، تجمع في العادة شتى أنواع الاطعمة ، ومختلف الألوان والاصناف ، ويجد فيها الآكل ما يريد ويشتهي ، فشبه الحديث الشريف القرآن الكريم بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ومصالح وفوائد ، ثم دعاهم إليه .

وقد ورد غير هذا كثير من الاحاديث والآثار ، وكلها تؤيد ما ذكرناه ،

(١) في سند هذا الحديث الحارث بن عبد الله ، وقد قال عنه القرطبي : « رماه الشعبي بالكذب ، وليس بشيء ، ولم يبن من الحارث كذب ، وإنما فقم عليه إفراطه في حب على ، وتفضيله له على غيره ، ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الشعبي ، لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر ، وإلى أنه أول من أسلم ، ، وقال أبو عمر بن عبد البر : « وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهذلي : حدثني الحارث ، وكان أحد الكذابين ، .

وتشهد له ، ومن ثم كثرت عبارات العلماء في هذا المعنى ، وتعددت أقوالهم عنه ، وإن اختلفت صيغها باختلافهم في المشارب والمنازع ، فقد قال الشافعي : « جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن » .

وقال غيره : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحيط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة رضى الله عنهم وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما ، حتى لقد قال : لو ضاع لى عمال بعير ، لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضام أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه » .

وقال آخر : « ما من شيء إلا يمكن استخراج من القرآن ، لمن فهمه الله تعالى ، حتى إن البعض قد استنبط أن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله سبحانه في سورة المنافقين : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » ، فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقده بنفس ذلك النبي صلى الله عليه وسلم » .

فهذا كله يدل على مقدار ما يشتمل عليه القرآن الكريم من علوم وفنون ، وغايات وأهداف ، وينبئ بأن عجزنا عن الإحاطة بها ، والوقوف على تفصيلاتها ، واستخراجها من مواطنها ، إنما يرجع إلى تقصيرنا في الوسائل العلمية الصحيحة الموصلة إلى معرفتها ، وإلى الفتور في الهمم والعزائم ، والقصور في المدارك والافهام ، لا إلى خلو القرآن الكريم ، وتجرده من تلك المعاني والأغراض .

ومما تحدثت به السنة عن القرآن أيضاً ، لإخبارها بأنه مؤيد للكاتب السالفة ، ومصداق لما جاء فيها ، أورد بن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : « ومهيمننا عليه » ، قال : « القرآن أمين على كل كتاب كان قبله » .

فإن توجيه هذا الكلام أن القرآن قد تضمن تصديق جميع ما أنزل قبله ، لأن الأحكام التي فيه ، إما مقررّة لما سبق ، وإما ناسخة - وذلك يستدعي إثبات المنسوخ - وإما مجددة ، وكل ذلك دال على تفضيل المجدد .

ويؤيد هذا ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه ، » فقد قالوا في بيان معنى تصديقه للكتب السابقة عليه : إنه نزل حسبما نعت فيها ، أو نزل مطابقاً لها في أصل الملة والدين ، أو مطابقاً لما لم ينسخ ، كالقصص والمواعظ ، وبعض المحرمات ، كالكذب والزنا والربا ، أو نزل موافقاً لجميع ما فيها ، والمخالفة في بعض جزئيات الأحكام ليست بمخالفة في الحقيقة ، بل هي موافقة لها من حيث إن كلا منها حق في عصره ، متضمن للحكمة التي يدور عليها فلك التشريع ، وليس في الكتب السابقة ما يدل على أبدية أحكامها المنسوخة ، حتى يخالفها ما ينسخها ، بل إن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، وانتهاء وقتها الذي شرعت للمصلحة فيه .

وليس هذا من البداء في شيء ، فإن المخالفة في تلك الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف عصر وزمان ، حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتقدم ، ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم ، وإلى ذلك يشير ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « حين قرأ بين يديه عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيئاً من التوراة ، : « لو كان موسى حيّاً لما وسعه إلا اتباعي ، » وجاء في رواية الدارمي : « والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل ، ولو كان حيّاً ، وأدرك نبوتي لاتبعتني ، »

وقالوا في بيان معنى هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب : إنه رقيب على سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التغيير ، حيث يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويبين أحكامها المنسوخة ، وقيل : إنه شاهد عليها بأنه الحق ، أو إنه حافظ لها ، ومؤتمن عليها ، كما قال سعيد ابن جبير : « القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب ، »

وعلى أى حال ، خلاصة ما قيل فى بيان هذين المعنيين : أن الذى يؤخذ منهما فى الجملة هو موافقة ما أفادته السنة فى أخبارها الكثيرة من تأييد القرآن للكتب السابقة ، وتصديقه لها ، وتقريره أو تعديله ، أو تجديده لأحكامها ، كما سلفت الإشارة إليه .

ومن حديث السنة عن القرآن كذلك ما جاء فيها شرحاً لمعناه ، وتفسيراً لنصوصه ، وتأكيذاً لمحكمه ، وتوضيحاً لمشكله ، وبسطاً لمختصره ، وتخصيصاً لعامة ، وتقييداً لخاصه ، وتبييناً لما أجمل فيه من الأحكام ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم والطهارات والذبائح والانكحة ، وما يتعلق بها من الطلاق والرجعة والظهار واللعان وغير ذلك ، وهذا كيان مواقيت الصلاة وركوعها وسجودها ، وسائر أحكامها ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها ، ونُصَب الأموال المزكاة ، وتعيين ما يزكى وما لا يزكى منها ، وكيان انتهاء أمد الحكم الأول ، وهو النسخ . وكالبيان بطريق الإلحاق والقياس ، والتفريع على القواعد العامة ، وبيان الحكم الزائد على الكتاب ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، والحكم بالشاهد واليمين ، وغير ذلك مما لو رحنا نستوعبه ونستوفيه ، ونستعرض قضاياه ومسائله ، ونستكمل نصوصه وأمثله ، لطال بنا القول ، وأعيانا الاستقصاء ، ومما نتركه هنا للكلام عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وعلى الجملة ، فقد توافرت أحاديث السنة عن الكتاب ، وامتدت إلى موضوعات كثيرة غير هذا ، كنزول القرآن وكيفية إنزاله ، وأول وآخر ما نزل منه ، واللسان الذى نزل به ، والأحرف التى نزل عليها ، وجمعه وترتيبه ، وكتابه وقرآئه ، وتعليمه وتعلّمه ، وفضله على سائر الكلام ، وحفظه واستظهاره ، وتعاهده واستذكاره ، وترتيبه وترجيّعه ، وتحسين الصوت بتلاوته ، وخشية الله عند قراءته ، والرياء فيها ، والتأكل بها ، وما إلى ذلك مما هو موضوع لكثير من العلوم والفنون ، ومادة لطائفة من البحوث والدراسات ، ومما سيكون محلاً لمحاولاتنا المقبلة فى الفصول الآتية بعون الله وتوفيقه .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الشجار

« احتاج محمد كتابا ،

يشيع هذا الاستعمال ، ولا يرى مستعملوه ضيقا ولا حرجا ، ولا يخالج بعضهم شك في صحته في العربية . وهو بجانب لما درج عليه الاستعمال العربي منابذ له . فقد جرى العرب على أن يعدى ما صيغ من الحاجة بالحرف ، فيقال : احتاج محمد إلى كتاب ، وبني حاجة إلى كتاب . وفي الأساس : « لا أحوجني الله إلى فلان . وهذه حاجتي ، أي ما أحتاج إليه وأطلبه .

وهذا الخطأ قديم ، فقد قال (١) ابن عنين ، وهو من شعراء الدولة الأيوبية ، وقد توفي سنة ٦٣٠ :

أنظر إلى بعين مولى لم يزل يولى الندى ، وتلاف قبل تلافى
أنا كالذئ : أحتاج ما يحتاجه فاغرم ثوابي والثناء الوافي
وقوله : « ثوابي ، أي الثواب من الله الذي يلحقك بإعائتي . وفي بعض روايات الديوان :

فاغرم ثنائي والدعاء الوافي

وقوله : « تلافى ، يريد تلقى ؛ ولم أقف على التلاف ، في التلف فيما رأيت من المعاجم ، وكأنا مد ابن عنين لام التلف وأشبع حركتها ، فجاء التلاف ؛ ويشفع له في ذلك موقف الشعر ، ورغبته في التجنيس الذي كان كغيره من البديع يصبو إليه كل شاعر وكاتب في ذلك العصر . ولم يأت ابن عنين في ذلك بدعا من الأمر ؛ فقد قال ابن هرمة من قبله :

وأنت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنزاج

(١) أنظر ديوانه ٩٢ ، ووفيات ابن خلكان في ترجمة الملك المعظم عيسى في أواخر حرف العين .

يريد بمنزج ؛ وقال الراجز القديم :

قلت - وقد خرت على الكلكل : يا ناقى أما جلت من مجال

يربد الكلكل ، وهو صدر الدابة .

وليبيى ابن عنين قصة طريفة أحببت لإيرادها . فقد كان أثيراً عند الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل من ملوك الدولة الأيوبية ، وكان ملازماً له ، فاقطع عنه مدة لمرضه ، وكتب إليه بهذين البيتين ، وكان الجواب على هذا أن عاده الملك المعظم ، وأعطاه صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأما العائد . قال ابن خلكان ، وقد أورد هذه القصة فى ترجمة الملك المعظم عيسى : « وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو فى ممارسته طول عمره لاستعظم ذلك منه ، لاسيما هذا الملك » . وكان من شئشنة ابن عنين أن يدخل فى شعره الاصطلاح النحوى ويستعمل معانيه ، وقال ابن هشام فى شرح القطر فى مبحث وجوب تأخر إن وأخواتها على اسمها : « وما أحسن قول ابن عنين يشكو تأخره :

كأنى من أخبار إن ، ولم يحز له أحد فى النحو أن يتقدما

وأعود لما كنت فيه من بحث ، فأقول : إن لابن عنين سلفاً قريباً منه هو يوسف بن محمد البلوتى صاحب كتاب « ألف باء » ، وقد طبع هذا الكتاب . وهذا البلوتى أخذ عن السهيلي المتوفى سنة ٥٨٩ ، وعن ابن الفخار ، ورحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه ؛ فأخذ عن الحافظ السلفى بسكندرية ، وغزا مع صلاح الدين الأيوبي فى الشام ، وتوفى فى رمضان سنة ٦٠٤ ، وترجم له ابن الأبار فى التكملة . وترجمته فى النسخة المطبوعة تحت الرقم ٢٠٨٩ . وقد عنيت بإيراد تاريخ وفاته إذ خلا منه مظان هذا التاريخ ؛ فكشف الظنون .

فقد تحدث عن كتابه « ألف باء » ، وذكر محتوياته ، ولم يعرض لتاريخ وفاته وكذلك فهرس دار الكتب المصرية . وفى معجم المطبوعات العربية لسركيس : « قيل : توفى سنة ٥٧٦ ، وتراه يأتى بهذا القول على جهة الشك والتردد ولا يذكر المراجع على عادة .

وأعود فأقول : إن البلوى قال في ألف باء ^(١) ، :

خرجت من شيء إلى غيره وكله علم وقول مسديد
يحتاجه القارىء والسامعو ن : السكل منهم راغب فى المزيد

وتراه يستعمل السكل ، بأل ، وفى هذا الاستعمال مجال للقول والنقد : فإن
د كلا ، مما يلزم الإضافة إن لم يكن فى اللفظ فى التقدير . وبعد ، فقد يذهب
ذاهب الى التضمنين فى هذه المادة ، وحديثى عن المنهج العربى ، وللتضمنين
بحث آخر .

(المستقيمون يحبون حيوات شريفة)

هكذا يستعمل العصريون جمع الحياة . وما وقفت على جمعها فى القديم .
وقد تكرر ذكر الحياة فى الكتاب العزيز فى ضيغة الإفراد ، ولم تجاوزه ألبتة .
وذلك أنها مصدر ، وسنة العرب الغالبة تجنب جمع المصدر ؛ إذ كان كاسم الجنس
يقع على القليل والكثير من الأحداث ، تقول : قام محمد ، أى حدث منه قيام ،
وهذا يشمل القومة والقومتين ، وما جاوز ذلك ، كما تشاء . قال ابن جنى فى اللع :
المصدر لا يثنى ولا يجمع : من قيل أنه بلفظه يدل على قليله وكثيره ، فأشبهه
من هذا أسماء الاجناس ؛ كالماء والزيت . فكما لا يثنى ولا يجمع أسماء الاجناس
فكذلك المصدر . فإن اختلفت أنواعه جاز تثنيته وجمعه ، بأن يكون ضرب أشد
من ضرب .

على أنه قد ورد عن العرب جمع المصدر ؛ فن ذلك قول الأعشى :

قد جربوه فما زادت تجاربهم أبا قدامة إلا المجد والفنعا

فتراه قد جمع التجربة ، ومنه قول الله تعالى : فى سورة الاحزاب : وتظنون
بالله الظنونا . وقد سوغ جمع الظن تعدد متعلقاته ؛ قال أبو حيان ^(٢) فى البحر :
والظنون جمع لما اختلفت متعلقاته ، وإن كان لا ينقاس عند سيديويه جمع المصدر

(١) ج ٢ ص ٦٥

(٢) ج ٧ ص ٢١٦ .

إذا اختلفت متعلقاته ، وينقاس عند غيره . وقد جاء الظنون جمعا في أشعارهم ؛
أنشد أبو عمرو في كتاب الالحان :

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا
وقد ذكر في اللسان أن الظن يكون اسما ومصدرا ، وأن الذى جمع فى الآيه
الاسم . والفرق بين الاسم والمصدر فيما اتحدت صيغته عسير .

وأيا ما كان الأمر فقد يدعو الحال إلى جمع الحياة لتعدد أنواعها ، وهناك
وراء هذا ما يدعو لجمع « حياة » وهو أن تجعل علماء وهذا جار الآن ، يستعمل
اسما للأشئ . وهذا يجوز جمعه من غير تكثير من أحد من النحاة .

وقد جرى البحث فى صيغتها فى الجمع ، فهل يقال : الحيوانات كما جرى به
الاستعمال العصرى ؟ أو يقال الحيات يماين ؟

إن تركيب الحياة هو « ح ي ي » أى إن العين واللام ياء . فالألف فى الحياة
مبدلة من الياء ، ومقتضى هذا أن ترد إلى أصلها فى الجمع ، فيقال : الحيات ؛
كما يقال : الفتيات والحصيات . ومن هذا مسأت الحاجة إلى النظر فى الصيغة
العصرية : « الحيوانات » .

وأقدم بين يدى البحث فى هذا الأمر أن العرب قالت : « الحيوان » فى الحياة
وذى الحياة ؛ فيرى الخليل وسيبويه أن الواو بدل من الياء استكراها لتوالى
اليامين ؛ ويقول سيبويه فى السكتاب (١) : « وأما قولهم حيوان فإنهم كرهوا أن
تكون الياء الأولى ساكنة ، ولم يكونوا يلزموها الحركة ههنا والآخرى غير معتلة
من موضعها ، فأبدلوا الواو ليختلف الحرفان ؛ كما أبدلوا فى رحوى حيث كرهوا
الياءات ، فصارت الأولى على الأصل ، يريد سيبويه أن « الحيوان » لو سكنت
الياء الأولى لنطق بالحرفين على الإدغام : « حيان » وكان ذلك عذبا فى النطق ،
مستساغا ، ولكن لا يدين لنا بهذا التسكين ؛ فإن الحيوان مصدر قصد به الدلالة
على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والخفقان ، وقصد أن تظهر الحركة

في اللفظ ، ولما لم يكن سبيل إلى الإدغام كان النطق بالياء من متحركين فيه استثناء ما ، فتجنب العرب هذا بقلمب الياء الثانية وأوا قراراً من توالى مثلين ، كما قيل رحوى وأصله رحي ، ولما جرى الإبدال في الثانية بقيت الأولى على الأصل . وهذا تعليل من سيدييه للشذوذ الذي وقع من العرب في هذه الكلمة . ولم تطب نفس المازني بهذا الشذوذ والتسكف له ، فهو يرى أن الحيوان ليس من تركيب « ح ي و » بل هو من تركيب « ح ي و » ، قالوا وفي الحيوان أصيلة غير مبدلة . وقد رد عليه مذهبه بأن التركيب « ح ي و » لم يأت منه فعَلْ ، فيقول في رد هذا : كم من لفظ لم يرد له فعل ؛ ألا ترى أنهم يقولون : فاط الميث ، يغيظ ، فيظاً ، وقالوا أيضاً : فوظا ، ولم يرد فعل لهذا الأخير ، فلم يقولوا : فاط ، يفوظ .

وأقول بعد هذا : إن الاختلاف في « الحيوان » لم نعهده في « الحياة » ، فكأنهم مجمعون على أن لامة ياء . وإذا دعا الأمر إلى تحريك هذه الألف في « الحياة » ، فهل لنا أن نأتى بالواو قراراً من توالى المثلين كما قيل في الحيوان ، فيقال : الحيوانات .

هذا ، وقد علمت أن إبدال الياء واوا في الحيوان عند الخليل وسيدييه شاذ لا ينقاس . ولقائل أن يقول : إن الشذوذ يُؤنس بالشذوذ ، فالشذوذ في الحيوان يقرب الشذوذ في الحيوانات . والناظر في اللسان تعترضه هذه العبارة : « الحياة : نقيض الموت ؛ كتبت في المصحف بالواو ، ليعلم أن الواو بعد الياء في حدّ الجمع ، فماذا يفهم القارئ من هذا الكلام ؟ أليس يحق له أن يفهم أن الحياة إذا جمعت كانت الواو فيها بعد الياء أى يتمال فيها الحيوانات ، وأن اللغويين لم يضعوا هذا إلا بعد أن وقفوا في كلام العرب على هذا الجمع للحياة .

ونرى في اللسان أيضاً النص الآتي : « وحكى ابن جنى عن قطرب أن أهل اليمن يقولون : الحَيَوة ، بواو قبلها فتحة ، أنكون مخطمين وجه الحق إذا أخذنا من هذا أن لام الحياة واو عند هؤلاء اليمنيين ، وإذا فالجمع عندهم حَيَوات ، ألبتة .

وهذا يصحح الحيوانات في الاستعمال العصري .

وورد في شعر مالك بن الحارث الهذلي قوله :^(١)

إذا خلّفت باطنى سرار وبطن هضاض حيث غدا صباح
تركت صديقنا ، وبلغت أرضاً بها عذر لنفسى أو نجاح
فلا ينجو نجائى ثم حى من الحيوانات ، ليس له جناح

فترى فيه الحيوانات ، وظاهر أمرها أنها جمع الحياة ، وكأن الكلام على حذف المضاف ، أى من ذوى الحيوانات ، والنجاء : الإسراع فى السير والعدو ، يريد أنه لا يبلغ مبلغه فى العدو حتى من ذوى الحياة ليس له جناح ، يستثنى بذلك الطائر ذا الجناح ، فهو لا يزعم أنه يسبقه . ولكن السكرى فى شرحه يقول : « من الحيوانات والحيوان ، أى لا ينجو نجائى حتى فيه الروح ليس له جناح ، أى ليس يطير . ومن الأحياء : أى لا يعدو عدوى شيء فيه روح يومئذ .

والحيوات : جمع الحية أى ليسوا بأموات ، فهو يرى أن الحيوانات جمع حية وكأنه يريد نفساً حية . فيشمل المذكور . على أن هذا الجمع لم يأت على لفظ واحد ، ولو أتى على لفظه لقليل : حيات . ولا أرى حرجاً فى حمل « الحيوانات ، فى البيت على أن يكون جمعاً للحياة على ما أسلفت . وعلى هذا يصح لنا الحيوانات .

ومما يؤنس لهذا ما جاء فى القاموس أن جمع الحية للشعبان : حيات وحيوات فتراهم قلبوا ياء حية الثانية فى الجمع واواً حين أرادوا تحريك اليامين ، وهذا يرشدنا إلى أن العرب ترفض فى هذه المسألة اجتماع اليامين متحركين .

ويخرج القارىء من هذا ، وكأنى به قد اقتنع بصحة الجمع :
« الحيوانات ،

(١) أنظر شرح أشعار الهذليين المطبوع فى أوربة فى أول الجزء الأول .

العلاقة بينه سلامه والنصرانية

الرئيس ساد سالم الأصمى الرئيسى

أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعو بابا]

روما إلى اعتناق النصرانية]

— ٢ —

لم تخف على السلطان الفاتح هذه الحركات والمؤامرات وما يدبره أعداؤه فى الشرق والغرب للقضاء عليه وعلى دولته ، وأدرك ضرورة الإسراع فى العمل قبل أن يطبق عليه أعداؤه من هنا وهناك ، فما أن انتهى من فتح بلاد المورة حتى أعد فى ربيع سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) جيشاً جديداً فى القسطنطينية وجيشاً آخر فى بروسه وأسطولا قوياً يتألف من نحو مئتين سفينة ، وزحف لتوه إلى أماسرة ، وأطبق عليها من البر والبحر ، وأخذت هذه المدينة على غرة فلم تجد مناصاً من الاستسلام لم تغن عنها قلاعها وعددها شيئاً ، وواصل الفاتح سيره بعد ذلك إلى سينوب ، ولم يحاول أميرها اسماعيل اسفنديا مدافعة العثمانيين ومقاتلتهم ، فقد استيقظ فى نفسه ضميره الإسلامى وكبر عليه أن يمالى الأجانب على سلطان مسلم لا يبنى عن الغزو والجهاد فى سبيل الله ، فأثر الاستسلام للفاتح وسلم له بلاده بغير قتال ، وأسرع السلطان الفاتح إلى ديار بكر وأخذ أميرها أوزون حسن على غرة ، فاستحوذ عليه الفزع والذعر ورأى أن لا قبل له بمفرده بمقاتلة السلطان الفاتح ، فبعث إليه أمه ساره خاتون مع بعض كبار رجال دولته يطلب الصلح ، وقبل الفاتح ما عرضه أوزون حسن على أن يكف عن مناصرة أنباطور طرابزون ، وعن الاغارة على الحدود العثمانية . ولم يسع الأنباطور

داود بعد أن قضى على حلفائه الأقربين إلا أن يستسلم صاغراً للسلطان الفاتح الذى نفاه وأهله إلى أدرنه .

وهكذا قضى السلطان الفاتح بما أظهر من نفاذ البصيرة وقوة العزيمة وسرعة الحركة ، على تلك المحالفة الكبرى التى دبرت للقضاء عليه وعلى دولته ، وقد كانت هذه المحالفة معقد آمال واسعة عريضة للمشاركين فيها لاسيما انبراطور طرابزون واوزون حسن والبابا . أما انبراطور طرابزون رأس هذه المؤامرة فقد كان يؤمل أن يبنى على انقراض الدولة العثمانية دولة بوزنطية عظيمة كذلك التى كانت فى عهد جستنيان ؛ واوزون حسن ذلك الأمير التركانى الطموح كان يستهدف - بعد القضاء على الدولة العثمانية - أن يقيم مكانها انبراطورية إسلامية كبرى فى الشرق تدخل فى حدودها مصر والجزيرة العربية ويتفرد هو بزعامتها ، أما البابا فقد كان يرمى إلى القضاء على هذه الدولة الإسلامية الفتية التى وصلت فتوحاتها إلى شواطئ بحر الادرياتيك وأصبحت تتحفز للوثوب على إيطاليا نفسها ويوطد أقدام الكاثوليكية فى هذه البلاد الشاسعة .

هذه هى الآمال ، أو بعض الآمال التى كانت تتخالج رؤوس بعض هؤلاء المتآمرين فأين هم الآن مما قدروا وأملوا ؟

أما الإنبرطور داود فقد سيق أسيراً إلى أدرنه ليعيش فيها مع أهله وذوى قرباه ، وأن كانت نفسه لا تزال تجيش ببعض الآمال وترقب الفرصة المواتية .

أما اوزون حسن فقد أكره على قبول ذلك الصلح لإكراها وقبله على مضض ومرارة وأن تظاهر بعكس ذلك ، ولم يلبث بعد ذلك أن اشترك فى حلف نصرانى جديد ضد الدولة العثمانية .

أما البابوية فقد كان لها موقف آخر بعد هذه الهزيمة . وكان على كرسي البابوية حينذاك البابا د باى ، الثانى ، وكان إلى جانب حماسه الدينى الشديد رجلاً واسع المعرفة والاطلاع ، واسع الخبرة والتجربة ، قد جاب كثيراً من بلدان أوروبا قبل توليه البابوية ، وشغل كثيراً من المناصب المدنية والدينية ، وقد آلمه فشل الحملات

الصلابية العديدة التي شذنها البابوية على الدولة العثمانية ، وآلمه تخاذل ملوك النصارى في كثير من الأحيان واشتغالهم بمصالحهم الخاصة ، ثم بدله ، رأى فريد لم يخطر ببال أحد من البابوات قبله :

لندسمع « باى » الثانى كثيراً عن تسامح السلطان محمد بن الفاتح في الدين فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام ، وسمع كثيراً عن مجالسه مع بطريك القسطنطينية ومناظراته معه في شؤون النصرانية ، فلم لا يحاول البابا أن يطرق قلب هذا السلطان ويدعوه بالحسنى إلى اعتناق النصرانية ويرضى في نفس الوقت طموحه إلى المجد والملك بعد أن فشلت جميع وسائل العنف والحرب لقمعه ويكسب بتنصره — وهو ما كان يتوقعه البابا — قوة عظيمة ، بل أعظم قوة في العالم كانت في ذلك الوقت ؟

ونفذ البابا « باى » الثانى رأيه فبعث إلى السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٦٣ م . كتاباً طويلاً يدعوه به إلى اعتناق النصرانية قال له فيه : « إذا أردت أن تبسط سيادتك وسلطانك بين النصارى وتضفى على اسمك المجد فإن ذلك في وسعك دون ما حاجة إلى مال ولا سلاح ولا جند ولا أسطول ، بل إن شيئاً هيناً جداً يستطيع أن يجعل منك أعظم رجل بين العالمين وأشدهم قوة وأوسعهم صيتاً وشهرة .

« ستسألنى ما هذا الشيء ؟ إنه لا صعوبة في وجدانه ولا حاجة إلى الذهاب بعيداً للبحث عنه ، إنه في متناول كل الناس ، إنه قليل من الماء تعتمد به ، فيجعلك نصرانياً خادماً للإنجيل . فإن فعلت ذلك فلن يكون على وجه الأرض أمير يستطيع أن يفوقك في المجد ولا أن يضارعك في القوة . إننا سننصبك إمبراطوراً للروم وللشرق وسيصبح ما فتحت من البلاد بالقوة وتمتلكها الآن ظلماً وعدواناً — سيصبح حينئذ حقاً وملكاً شرعياً لك ، وسيجعلك جميع النصارى ويختارونك حكماً لهم فيما يشجر بينهم من خلاف ، ويقصد إليك جميع المظلومين كما يقصدون إلى حاميمهم المشترك . »

ولا ندرى هل أجاب السلطان الفاتح على رسالة البابا هذه ، أو بماذا أجاب ؟ والامر الذى لا شك فيه أنه مضى في طريقه يجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمة

الإسلام. ولم يجد البابا «باى» الثانى بعد فشل محاولته بدا من أن يعود إلى الطريقة الأولى، التى درجت عليها البابوية من قبل، وهى طريقة الحملات الصليبية.

وكانت الحرب قد اندلعت نيرانها حينذاك بين جمهورية البندقية والدولة العثمانية، فوجد كل من البابا والبندقية فى الآخر الحليف الطبيعى فى كفاح العدو المشترك. وجد البابا فى إعداد حملة صليبية جديدة إلى الشرق، وقد أرادها هذه المرة أن تكون حملة فريدة فى تاريخ الحملات الصليبية فى القوة والروعة والمهابة، تتحدث عنها الأجيال القادمة إلى آخر الزمن، فسكتب إلى رئيس جمهورية البندقية، ودوق بورغنديا، يعلنهما أنه سيخرج بنفسه فى هذه الحملة وطلب إليهما أن يخرجاه معه، لأن وجودهم على رأس الجيش الصليبي سيكسبه روعة وثقافة، ويلقى فى نفوس المسلمين الروح والرهبة، ثم اجتمع بالكرادلة وخطبهم خطبة حماسية، طلب إليهم فيها أن يصحبوه فى الحملة القادمة، فإن ذلك وحده هو الكفيل بأن يحمل ملوك أوروبا على الخروج والاشتراك فيها، إذ سيخجلون من التخلف والقبوع فى ديارهم حينما يرون البابا - وقد هدته الشيوخوخة - وكرادته الموقرين، قد خرجوا بأنفسهم إلى القتال.

وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٤٦٣ أذاع الباب «باى» الثانى منشوراً حماسياً بليغاً على جميع النصارى دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الاتراك العثمانيين وأعلن إن احتشاد الجيوش سيكون فى انكون^(١) Ancone وأنذر بأن صواعق الكنيسة ستزل على المتخاذلين والذين يعكرون صفو السلام فى الداخل بمحاربة بعضهم بعضاً. ولكى يجمع البابا أكبر قدر ممكن من المال أمر ببيع صكوك الغفران فى جميع أرجاء القارة الأوروبية، وجعل لكل ذنب ثمتاً محدداً. والصك الكامل لغفران جميع الذنوب كان ثمنه عشرين ألف فلورن، ثم كتب مرة أخرى إلى رئيس البندقية يؤكد له عزمه على الخروج إلى الحرب الصليبية يصحبه الكرادلة والجنود المغاوير الأشداء، وسينفق فى ذلك كل ما يملك من مال وثروة وسيرافقه فى هذه الحملة دوق بورغنديا مع جنوده البواسل الذين يناط بهم النصر،

(١) مدينة فى منتصف إيطاليا على ساحل بحر الأدرياتيک،

بيد أن هذا النصر سيكون أبهى وأتم إذا خرج رئيس البندقية بنفسه مع الجيش النصراني، فإن ما للأمرء والملوك من الجلالة والمجد والنفوذ تأثيراً كبيراً في نفوس الجند، كما أن الأسماء الضخمة العظيمة ستلقى الرعب والفرع في نفس العدو الذي سيستخذي ويتطامن أمام شخص دوق بورغنديا ومهابة الكرسي الرسولي فكيف إذا ظهر معهما رئيس البندقية على سفينته الفخمة «بوسدنور»، وهو في ثيابه الفاخرة؟ إن آسيا كلها بل الشرق كله سيرتعد خوفاً ورعباً.

وفي ١١ يونيو ١٤٦٤ م أدى البابا د باي، الثاني آخر صلواته في كنيسة الرسل بروما ثم بدأ سيره إلى انكون ليبصر منها إلى الشرق. وهذه أول مرة في تاريخ البابوية والنصرانية، وآخر مرة أيضاً، يخرج فيها البابا من روما ليتولى قيادة حملة صليبية بنفسه. وقد انتابت البابا عند بدء سفره من روما حمى خفيفة ولكنه لم يحفل بها وطلب إلى أطبائه أن لا يذكروا عن ذلك لأحد شيئاً.

بيد أن هذه الحملة الصليبية برغم ما أحيطت به من الأسماء اللامعة وما أعد لها من الاستعدادات الضخمة لم تؤت الثمرة التي كان يتوقعها البابا د باي، الثاني فقد تفشت روح الفوضى والتفacs بين صفوف الصليبيين، وما لبث أن تشتت جموعهم وانتهى أمرهم بمأساة فاجعة أليمة، واغتم البابا لذلك غماً شديداً، وثار به العلل والاسقام ورزحت تحت وطأتها القاتلة شيخوخته الذابلة، وأحس الوهن يسرى في جسمه، وشعر بدنو أجله، فدعا إليه جميع الكرادلة لتوديعهم وطلب منهم أن يصلوا لأجله. ومات البابا د باي، الثاني بين أيديهم في ١٤ أغسطس ١٤٦٤.

على أن أثر هذه الحملة لم يقف عند هذا الفشل وهذه المأساة المحزنة، فانها فوق ذلك قد أشاعت في نفوس النصارى نوعاً من القنوط واليأس في نجاح أعداد أمة حملة صليبية أخرى ضد العثمانيين.

ولم يفت البابا د باي، الثاني قبيل موته، بعد أن تحقق من فشل الحملة التي أهداها أن يعود إلى محاولته الأولى فرجه نداء آخر إلى السلطان محمد الفاتح دعاه فيه إلى التنصر.

وكان ذلك آخر عمل قام به البابا د باي، الثاني في سبيل النصرانية.

الحج

المؤتمر الاسلامى الأكبر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

هذا الحج الذى تكلمنا عنه فى العدد الماضى من الناحية الفلسفية ، ويئسنا أنه المؤتمر الذى يجب أن يشهده المسلم مرة واحدة على الأقل فى عمره ، ليتذاكر فيه المسلمون أمورهم العامة ، ويعالجوا بعض ما يحسون به من مشاكل — نقول : هذا الحج بالوضع الحاضر للبلاد الإسلامية ، أيسلح حقاً أن يكون مؤتمراً عاماً للمسلمين يعقد كل عام فى البلاد المقدسة ؟ وهنا أجدنى ، بعد أن رأيت هناك ما رأيت وتحقق ما تحققت ، مضطراً للقول بأنه لا يمكن أن يكون المؤتمر المطلوب .

إن لكل بلد من بلاد الامة الإسلامية مشاكله الخاصة التى قد لا يستطيع حلها وحده لو ترك لنفسه ، فهو فى حاجة — لهذا — للاستعانة بغيره من البلاد الإسلامية ؛ وإن للعالم الإسلامى كله مشاكله العامة التى لا يكفى فى حلها ، كلها أو بعضها ، الأساليب التى يتبعها الرجال الرسميون فى الحكومات أو الجامعة العربية . لهذا وذاك ، لابد من مؤتمر عام يعمل لعلاج هذه المشاكل على نحو آخر غير ما عرفنا حتى اليوم ، ويشارك فيه ضرب آخر من رجالات الإسلام .

إلا أن ذلك يتطلب منا :

١ — أن تفتش اللغة العربية وتعم جميع العالم الإسلامى .

٢ — أن ينشأ مكتب دائم لهذا المؤتمر فى مكة والمدينة .

٣ — أن تتوفر ، لدى من يقوم على هذا المكتب ، النية الطيبة والإرادة الحازمة لعلاج هذه المشاكل .

١ — لأنه من الواضح والبدهي وجوب تعميم اللغة العربية ، حتى تكون اللغة الأولى لسلك مسلم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق . وبدون هذا لا يمكن التفاهم بين المسلمين والتشاور في كل ما ينبوهم من أمور ومشاكل تستحق النظر والعلاج من المسلمين جميعاً . وقد كان مؤسسا إلى أشد الألم أن أرى بجوارى بالحرم المقدس الأخ المسلم من تركيا أو إيران أو الهند أو الأفغان مثلاً ، وأن يحس كلانا العاطفة الطيبة لأخيه والحاجة للتحديث معه ، ثم لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، لجهله العربية .

وهناك في أمثال هذه المناسبات ، تذكر مع الأسف المؤلم والحزن العميق أن الأستاذ الشيخ محمد حسن الأعظمي الباكستاني لم ينجح فيما حاوله وبذل فيه كثيراً من جهده ونشاطه الكبيرين ؛ أغنى الاستعانة بمصر لتعليم العربية ونشرها بالباكستان ، الدولة التي كان ميلادها أعظم فرح أحسن به العالم الإسلامي في هذه السنوات . لقد اجتمعت لهذا المهم الجليل لجنة عامة كبيرة بدار المجمع للغوى بالقاهرة ، وكنت أحد الأعضاء الذين دعوا لهذا الاجتماع الذي ضم كثيراً من رجالات مصر المعنيين بالشئون الإسلامية العامة ، وكان في مقدمتهم الأستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين بك ، وكنت أنتظر الخير الكثير من هذه اللجنة ، ولكن - وما أمراً لكن - كان هذا الاجتماع الأول والآخر !

وفي مكة التقيت بأحد رجالات سوريا ، هو الوزير المفوض بالباكستان ، وهو يكاد يحترق لما يحسه من تخاذل المسلمين العرب وعدم عنايتهم بتعليم العربية ونشرها بالباكستان . لقد ذكر لي أن الباكستانيين يقولون في مؤتمر عقد في كراتشي هذا العام : لقد سئمنا من مد يدنا سنوات طويلة للمسلمين بشأن نشر اللغة العربية عندنا ، وأن لنا الآن أن نستجيب للجهة الأخرى التي تحاول بكل ما لها من قوة أن تجعلنا نتجه للاقتصار على الأوردية أو الانجليزية !

إذاً ، على الجامعة العربية ، على الحكومات الإسلامية ، على العرب المسلمين

على هؤلاء جميعاً واجب مفروض ، هو نشر اللغة العربية في البلاد الإسلامية بكل وسيلة ، وأن يكون ذلك عاجلاً ، وإلا كان من المستحيل أن يتفاهم المسلمون في أمورهم ، وأن يكون الحج مؤتمراً عاماً لهم يعالج شئونهم ومشاكلهم العامة .

٢ — ثم يجب أن يحدد كل عام المشاكل المهمة أو العاجلة التي تتطلب الحل ، وأن يقوم كل قادر من رجالات الإسلام بنصيبيته في علاجها ووضع حلول لها ؛ وهذا يستلزم طبعاً أن يكون للمؤتمر مكتب دائم بمكة والمدينة ، وبخاصة بالأولى ، لطول إقامة المسلمين بها ، ولأن من المسلمين من يرى أحياناً أن يتمتصر على الحج لهذا السبب أو ذاك .

ولعل من أول هذه المشاكل استحقاقاً للبحث والعلاج ، إن أمكن أن يقوم هذا المؤتمر ، مشكلة كيف يتم الحج لبيت الله الحرام بمكة المكرمة وزيارة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة بأقل ما يمكن من المتاعب والمشاق والتكاليف المالية ؛ فقد والله عانينا من كل هذا هناك ما جعل البعض منا يفنون بأن الحج أصبح غير واجب في هذه الأيام وفي هذه الظروف على كثير جداً من المسلمين . هذه المشكلة التي تتطلب البحث العميق والحل السريع ، تناول كل ما يتصل بالحج من جميع النواحي : وسائل السفر ؛ ورسم الإذن بدخول الحجاز لأداء هذه الفريضة المقدسة ، هذا الرمم الفاحش غير المعقول الذي فرض على الحجاج أدائه ؛ أماكن الإقامة بمكة والمدينة ؛ وسائل الانتقال وبخاصة من جدة للمدينة ، هذا الطريق الذي يساهم - بما فيه من عربات لا تصلح لنقل الاناسى - في استشهاد كثير من الحجاج والزوار ! ثم المرافق الصحية التي لا تعرف تلك البلاد لها وجوداً ، أو على الأقل لا نعرف لها وجوداً على وجه يرضى - في أدنى الدرجات - الكرامة الإنسانية .

٣ — وأخيراً ، يجب أن تتوفر لدى حكومات الإسلام ورجالات العرب والمسلمين ، الذين يقوم هذا المكتب والمؤتمر عليهم ، النية الطيبة في الإصلاح والإرادة الصادقة لنجاح هذا المؤتمر في معالجة مشاكل العالم الإسلامى .

بدون هذا يكون الحج فريضة تسقط عن المسلم بأدائها ، ولكن لا نكون

قد اتخذناه وسيلة لغايات من أرقى الغايات ، وأعظمها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين .

وقد يكون من الخير أن أشير هنا إلى أن الازهريين أنفسهم الذين يحجون كل عام لا يجدون من القائمين على الأمر هناك ما يجب أن يجدوه من تيسير أداء رسالتهم الدينية التي يجب عليهم أدائها في هذه البقاع المقدسة وفي تلك المناسبة الجليلة . بل إن وسائل التعارف بينهم وبين أمثالهم ممن يعنون بالتوجيه الديني في موسم الحج تكاد تكون معدومة ، وفي رأيي أنه يساعد في علاج هذه الناحية أن يكون هناك اتفاق سابق قبل موسم الحج بين هذه البعثات الدينية ، وبين الرجال الدينيين المشرفين على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، على نواحي التوجيه ، ووسائله .

هذا ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

عظمة

كان أهل المدينة قد ثاروا على المنصور الخليفة العباسي تحت قيادة محمد بن هبة الله بن الحسن من أهل البيت النبوي ، فقاتلهم المنصور ، وقبض على قائدهم فقتله ، ثم أحضر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فقال : « قد رأيت لإطباق أهل المدينة على حربي ، وقد رأيت أن أبعث إليهم من ينور عيونهم ، ويحمر نخلهم . »

فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين : إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتد بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون .

فقال له المنصور : « إن أحدا لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ، وإنما قلت هممت ولم ترفى فعلت ؛ وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الاساءة إليهم . »

نقد الدين البكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغي

مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

التاريخ الإسلامي في العلوم والفنون زاهر ، عظيم الفوائد ، جليل العوائد ، ومن أجل الظواهر التي نلفت إليها وننبه الباحثين عليها ؛ تخصص بعض الأسر من المسلمين في الاشتغال بالعلم والعناية به والنبوغ فيه ؛ تلك ظاهرة خليقة بالتسجيل والتكريم لما تدل عليه من شوق أصيل عند المسلمين إلى العلم وإقبالهم عليه وخدمتهم له ، حتى بلغوا فيه القدر المعلى والمقام الكريم ، وحسبي أن أشير هنا إلى أن علوم الدين بفروعها المختلفة من أصول وحديث وتفسير ، قد عرفت ثلاثة من أسرة واحدة ، كلهم يسمى ابن تيمية ، وهم جد وابنه وحفيده ، قد تتابعوا في نسق ، ومضوا على سبيل واحدة من التحصيل والفضل والتبريز .

فأولهم محمد الدين بن تيمية ، وهو عبد السلام بن عبد الله ، المولود بخران سنة ٥٩٠ هـ ، وابنه شهاب الدين بن تيمية وهو عبدة الحليم بن عبد السلام المولود بخران سنة ٦٢٧ هـ ، وحفيده تقي الدين بن تيمية وهو أحمد بن عبد الحليم المولود بخران ٦٦١ هـ ، ويجدر بالدارسين لآثارهم المطلعين على أبحاثهم ، أن يلاحظوا ذلك كي يدركوا ما بين آرائهم من فروق ، وما لكل منهم من اتجاه . وكذلك عرف الاسلام بالاندلس مثل ذلك من تعدد العلماء من أسرة واحدة ، فنحن نعرف ابن رشد الجسد وهو فقيه مالكي مقتدر مؤلف ، كثيرا ما يصادف القارئ في كتب المالكية الإشارة إلى كتابه المسمى بمقدمات ابن رشد ، ثم جاء بعده ابن رشد الفقيه المجتهد والفيلسوف النابغة مفخرة المسلمين وأبو الفلسفة الحديثة باعتراف الأوروبيين ، وهو معروف عند المؤرخين بابن رشد الحفيد تميزا له عن جده المذكور آنفا .

ومن تتبع هذه الظاهرة الكريمة استطاع أن يحصى من أمثالها البارزة كثيرا .

ولسكنى معنى هنا بأن أتحدث عن أسرة السبكيين المصرية الأزهرية فإنى أرى لهم من الفضل ما يستوجب نشر ذكرهم وتفصيل أخبارهم وسيقتضى ذلك بضع مقالات .
أما إنهم قد دارسوا العلم وخدموا الأزهر وألفوا فى علوم الدين واللغة ،
فذلك ما تشهد به مؤلفاتهم الجلية الكثيرة التى أمضى الأزهر قرونا وهو دارس
لها ، مهتم بها ، يرجع إليها كل أزهرى محقق ، وكل عالم باحث فى الفنون التى ألفت
فيها ، واعتبرت بحق مقياس البراعة وآية التحصيل لدارسها . والباغون من هذه
الأسرة أربعة علماء أجلاء سأنرجعهم لك تباعا مبتدئا اليوم بأولهم تاريخا الإمام
تقى الدين السبكي والآخرون أبناؤه وقريب له .

أما تقى الدين فهو : على بن عبد الكافى بن على بن تمام بن يوسف بن موسى السبكي
المسكنى بأبى الحسن الملقب بتقى الدين الفقيه الشافعى المفسر الحافظ الاصولى النحوى
اللغوى المقرئ البيانى الجدى ، ولد سنة ٦٨٣ هجرية بسبك إحدى قرى مديرية المنوفية
بالقطر المصرى ، وقد أظفروه بما سلف من أوصاف عديدة مجيدة سجلها مترجموه نشاطه
العجيب فى الدراسة ، وطموحه إلى مختلف العلوم وشعب المعرفة ، وملازمته لشيوخ
عصره ، ورحلته إلى داني البلاد وقاصيها فى سبيل التلقى والتحصيل ، فقد تلقى علم
القرآت هلى التقي بن الصائغ ، وأخذ التفسير عن العالم الواقى ، وتفقه على ابن الرفعة ،
وحذق الاصول على العلامة الباجى ، وتثقف فى النحو على أبى حيان ، وسمع الحديث
على الشرف الدمياطى ، ثم شاقه أن يضم إلى ثقافته الواسعة علم التصوف فرحل
إلى الإسكندرية وتلقاه على تاج الدين بن عطاء الله السكندرى .

ومن العلماء الذين عرفهم ودارسهم ، أبو الحسن يحيى بن عبد العزيز الصواف :
وعبد الرحمن بن مخلوف بن جماعة ، ويحيى بن محمد بن عبد السلام . ولم يزل به
تحصيل العلم وابتغائه حتى كاتب علماء بغداد وكاتبوه وقدروا علمه ، وأجاز له
منهم الرشيد بن أبى القاسم وإسماعيل بن الطبال ، وكذلك احتتمل وعشاء السفر
ومشقهته البالغة فى تلك الأيام فى سبيل العلم والتحقيق به ، فرحل إلى الشام وسمع
من ابن الموازى ، وهناك ذاعت شهرته وعلا بين العلماء قدره ، فتولى قضاء الشام
وكان قاضيا عادلا عفيفا نزيها لا يخشى فى الله لومة لائم ، وتولى مشيخة دار الحديث
الشامية البرانية ، ثم هوى فواده إلى بيت الله الحرام وزيارة الروضة النبوية ، على

ما كنها أفضل الصلاة والسلام ، ولقى في الحجاز الإمام ابن مشرف وسمع منه ، ثم عاد إلى القاهرة وقد عرف بالتبحر في العلوم واشتهر في الفقه بالاستنباطات الجليلة ، والدقائق اللطيفة ، والقواعد المحررة التي لم يسبقه إليها أحد فأقبل عليه الدارسون والمحصلون يقتبسون من علمه ويستبصرون بتحقيقه ومن أشهرهم : الحافظ أبو الحجاج المزي وأبو عبد الله الذهبي . ولقد كان رحمه الله ، على علو قدره وعظيم تمكنه ، منصفاً في البحث رجاءاً إلى الحق ، فلا جرم أن جمعت هذه الصفات القلوب حوله ، وبثت في القلوب حبه وحملت الناس على اتباعه وتوقيره ، ولم تمنعه كثرة أسفاره واشتغاله بالتدريس لتلامذته من التأليف ، بل قد بلغت مؤلفاته مبلغاً عجيباً في كثرتها ودقتها وشمولها للمباحث التي يتناولها ويحررها .

فأصحاب التراجم يعدون من مؤلفاته نحو مائة وخمسين كتاباً ، منها : تفسير القرآن ، وشرح المنهاج في الفقه ، ونيل العلا في العطف بلا ، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام رد به على ابن تيمية (ط) ، والعلم المنشور في إثبات الشهور (ط) ، والاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص . ومن مؤلفاته القيمة التي لها شأن في الأزهر جليل ، ويتنافس في دراستها أهل البراعة والتحصيل ، شرح منهاج البيضاوى في الأصول ، فقد ابتدأ شيخنا تقي الدين هذا الشرح ، ومضى فيه إلى قول البيضاوى رحمهما الله الواجب إن تناول كل واحد فهو فرض عين ، ثم أتم شرحه إلى آخر الكتاب ابنه العالم الجليل ، تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع . والدارسون لهذه الكتب من الأزهريين ، يشهدون على علم ويقين ، بما للترجم في علم الأصول من تمكن وإحاطة ، يجعلانه فارس ميدانه ، وواحد أقرانه . فكتاب جمع الجوامع - وإن كان من تأليف ابنه تاج الدين - يحتوى على أبحاث جليلة ، وتحقيقات فريدة لآبيه ، تجعله يشارك في فضله ويساهم في مجده ، وسنفضل القول عن هذا الكتاب حين نترجم لمؤلفه ، ونتوج هذه الترجمة بشهادة هؤلاء العلماء الاعلام للإمام السبكي بالفضل في علمه ومقدرته ودينه وسيرته . فالسيوطى عده من المجتهدين ، وقال الصلاح الصفدى : ما جاء بعد الغزالي مثله ، وقال السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعمانى : هو عندى مثل سفيان الثورى . وليس لى بعد ذلك إلا أن أقول : إنما يعرف الفضل من الناس ذوهه ، رحمهم الله أجمعين ، ونفع بسيرتهم وآثارهم المسلمين ؟

بشيرة النبي

افضيه الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الحسب

لما نال المسلمون من المشركين بيد مناهم ، وانتصروا عليهم ذلك الانتصار الرائع الذي حول مجرى التاريخ ، ولقت أذن الدنيا ، وأرهف سمع الدهر ، حفز الكفار جهودهم ، وشحذوا عزائمهم ، واستنهضوا همهم ، وجمعوا جمعهم ، للبارزة من جديد ، فخرجوا بأحد ليقاتلوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال المتنبي الحانق ، المتقيظ الغاضب ، راجين أن يضعوا بذلك حدا لما بينهم وبينه ، حتى لا يرتفع صوته ، ولا ندوى كلمته ، أو تسرى إلى النفوس دعوته ، وخرج معهم نساؤهم ، ليلهن فيهم الثورة ، ويوجعن نيران الحماسة ، وكان في النساء هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب المسماة آكلة الكبد ، وكان في الرجال جبير ابن مطعم ، وكلاهما موتور يتمنى أن تناح له الفرصة التي يأخذ فيها بوتره ، ويقتص لنفسه ، وكان لجبير عبد حبشي يدعى وحشى ، تمتلئ الجسم ، مفرط الشجاعة ، وفور القوة ، يخيف بشكله وبأسه ، طلب إليه أن يخرج لقتال المسلمين ، ومنه أن يعتقه إذا هو أردى الحزبة بن عبد المطلب ، وكانت هند قبل ذلك عرضت عليه مالا كثيرا ليقتل الحزبة . ولم يكن القامر على قتل هذا الرجل تبريدا للغلة ، وإرواء لظما ، وإنما كان كذلك لمساكنة الحزبة في المسلمين من البسالة والإقدام ، والعزم والقوة . وقد كان الرسول رضوان الله عليه يعتز بالحزبة ويحبه ، ويقدره ويحترمه ، لا لأنه عمه ، ولا لأنه منحاز إلى جانبه ، ولكن لأنه مع ذلك ، يغنى عن جيش محارب ، وجماعة مقاتلة ، والقضاء عليه هدم لركن متين ، وحصن حصين . وإذا كان الحزبة توافرت له معاني الشجاعة والإقدام ، والمغامرة والتضحية ، والعزم والمضاء ، والهمة وعدم المبالاة ، فإنه لم يعدم الى جانب ذلك الحذر والحيلة ، واليقظة والانتباه ، والرأى والتدبير ، والفكر والنظر ، والاتعاظ بالحوادث ، إلا أن الحين الذي يسبق جهد الحريص ، كان يخبئه له

المقدار في ضربة صوبها له وحشى . نخيم الوجوم ، وسادت السكينة ، من عظم ما أصاب المسلمين من ذهول ، واعتراهم من هموم ، وربما كان هذا القاتل يعلم مبلغ ما أصاب النبي نفسه صلوات الله عليه من جرم هذه الفاجعة ، ولذلك فإنه بعد أن عتق وأطلق سيده صراحة أسلم وحسن إسلامه ، واطمأن خاطره لتوفيق الله إياه ، واتجاهه الى سبيل المؤمنين ، لمكن شيئا واحدا لا يزال يحز في قلبه ، ويعتقد أن الله لا يغفره له مهما صام وصلى ، وافنى جهده في الطاعة ، وعمره في العبادة ، ذلك أنه أهاج حفيظة الرسول بهذا القتل ، ولهذا لم يجرؤ على أن يلاقيه وجها لوجه ، أو يضع يده في يده . وما زال هكذا يفر ويبالغ في الفرار ، ويهرب ويمعن في الهرب ، حتى قيل للنبي ها هو ذا . فقال له أنت ؟ ! قال : نعم أنا يا رسول الله وأرجو أن يكون الإسلام عفى على ما قبله ، فقال حول وجهك عني يا وحشى ، فإنى لا أطيق أن أرى يعينى رجلا قتل الجمزة بن عبد المطلب .

ويروى الرواة أن وحشيا قال ما زالت هذه تقلق مضجعى ، وتؤرق جفنى ، وتتعيب خاطرى ، وأنا أرجو أن يوفقنى الله لعمل أرضى به رسوله ، وأكفر ما عسى أن أكون قد اقترفته ، فلم أجد إلا أن أقتل مسيلة الكذاب حينما حمل راية الفتنة ، وشق عصا الطاعة ، وادعى النبوة في خلافة أبى بكر الصديق هداانا الله بهديه . . ولعل كثيرا ممن يمرون بهذه القصة أن يقولوا ما ذنب رجل لا ذنب له . . ولعلمهم يذهبون إلى أبعد من هذا كله ، فيقولون ما كان من اللائق أن يقف النبي هذا الموقف من مسلم راسخ القدم ، قسوى العقيدة ، صحيح الإيمان . وهذه الدعوى إنما يدعيها من يجرد الرسل من بشرتهم ، وعلماء النفس يقولون إن الألم الذى تفعله الذكريات الممضّة ، والصور البغيضة ، والمناظر المكروهة ، قد يقتل صاحبه بغير سكين ، ولا سيفا إذا كان من هؤلاء المرضى بما يسمى « ضغط الدم » ، والعياذ بالله ، فإنه يعتريه الشلل ، ثم يقضى لوقته . والمتنبى كان أدرى الناس بهذه الظاهرة البشرية على الرغم من أنه لم يدرس الطب ، ولم يزال الفلاسفة ، لأنه يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه — غذاء تضيى به الأجسام !!

والحواس تتغذى كما يتغذى الجسد ، ويعتريها الضنى والضعف ، والنحافة والهرزال ، والتهدم والمرض ، حين تتناول طعاما لا تستسيغه ولا تحبه ... ويقول الأدباء فيما يزعمونه من هذا القبيل : اكملت عيني لمراك ، وطاب قلبي بقلياك .

والحديث في هذا يطول وَيَسْتَرْسِلُ .. ونحن نود أن يفهم المؤمنون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن الكريم ينادى بأنه بشر يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، ينام ويصحو ، ويكره ويحب ، ويغضب ويرضى .. وكان مثار العجب في قريش أن تكون هذه المهمة الشاقة ، والمسئولية العظمى ، في عنق إنسان ، قد تستهويه الشهوات ، وتملكه النزوات ، وتصرفه الأهواء ، وتوجهه المآرب ، وهم لم يألفوا رجلاً تسمو به روحه إلى هذا الأفق الطاهر وتحلق ذاته في تلك الأجواء البريئة ، بحيث لا يظلم ولا يظنى ، فافرحوا أن يكون من الملائكة المقربين ، ورد الله جل جلاله هايم بقوله : ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، لأنهم لا يأتسون به ، ولا يفهمون منه ، ولا يتلقون عنه ، إلا إذا تحول إلى جنسهم ، وعاد إلى نوعهم .. وكان هو يُصرِّح بهذا إذا احتكم إليه خصمان ، وحاول أحدهما بسحر بيانه ، وطلاقة لسانه ، وعذوبة منطقته ، أن يهور الباطل على شكل الحق ، فينهام عن الالتجاء إلى هذا الأسلوب في التقاضى خوفاً من أن يلتبس عليه الامر ، وتشبهه المعالم ، فإذا هو يحكم بالشىء لغير صاحبه معلناً لهم أنه : بشر يخطئ ويصيب ، ... وإذا كان سبحانه بعث به إلى العرب أمياً لا يقرأ ولا يكتب ليتأتى التَّحَدُّى ، وَيَتَّبِعِينَ الإِجْاز ، فهو كذلك لم يجرد من حصائص البشر إرينا أن النسوة لا تنكسب بالتحصيل ، ولا تجيء بالاجتهاد ، بل هى سر إلهى يضعه الله فيمن يختاره من عباده الصالحين ؟

رضى الناس

لفضله الأستاذ الشيخ على حسن العمري

مبعوث الأزهر في السودان

من الامثال السائرة على السنة الخاصة والعامه (رضا الناس غاية لا تدرك) . وهذا المثل من أصدق الكلم ، وأحكم الحكم التي تعبر عن واقع محسوس ، ومشاهد ملموس ، فقد خلق الناس مختلفين في الطبائع والغرائز والاخلاق ، ولا يزالون مختلفين ، وموازينهم التي يزنون بها الرجال والاعمال مختلفة أشد الاختلاف ، ومقاييسهم مضطربة في أكثر الاحايين ، فما ظفر برضاهم خالق ولا مخلوق .

اختلفوا في ذات الاله ، واختلفوا في الانبياء ، فقال المسلمون عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه رسول الله وخاتم النبيين ، وقال المشركون إنه ساحر كذاب ، وقالت النصارى : المسيح بن الله ، وقالت اليهود : أنه ولد من غير أب شرعى ، وقال المسلمون — كما نطق كتابهم الكريم — ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . واختلفوا في الخلفاء من بعد الرسل فقد أحب عليا قوم حتى كفروا بحبه ، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببعضه ، وسمى جمهور المسلمين أبا بكر وعمر شيخي المسلمين وكفروهما بعض الناس بل كفروا من يقول إن لها نصيبا في الإسلام ، واختلفوا في العلماء والشعراء ، والولاة والقضاة ، وفي شأن كل نابه حتى قال بعض الكتاب : إن العظيم من الرجال من اختلف فيه الناس فرفعه قوم إلى السماء ونزل به آخرون إلى الحضيض ، وذكر العالم الكبير أبو عثمان الجاحظ أنه كان يقال : يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه ، ثم قال : ألا ترى عليا

رضى الله عنه قال يهلك في فتیان : محب مفرط ، وهذه صفة أنبه الناس ، وأبعدهم غاية في مراتب الدين وشرف الدنيا .

بل إن التقدير عند الشخص الواحد ليختلف في آن عنه في آخر ، فهو يزن رجلا فيرفعه ثم يعود بعد طويل أو قصير من الزمن فيخفضه ، وما حدث التاريخ ولا سمعنا أن إنسانا اتفق عليه الناس . وكيف وفي الناس قوم مولعون بالنقد ، مغرمون بتنقص ذوى الفضل والمواهب الخالدة ؟ فكلموا رجلا نابهة تلهوا له المثالب والعيوب ، فإن قاتل قالوا متهور وإن قعد قالوا جبان ، وإن أنفق قالوا مسرف ، وإن أمسك قالوا بخيل . . . وهكذا

ويروون في القصص الشعبي أن رجلا أراد أن يرى ابنه طبائع الناس ، فأخذ دابة وركبها وأردف ابنه خلفه ، ومرا بجماعة من الناس فقالوا : ما أقسى قلبه ! يركبان معاً على هذا الحيوان المسكين . فقال الرجل : يا بني تتعاقب ، فركب الرجل وسار ابنه خلفه ، فلما مرا بجماعة أخرى قالوا : ما أضعف تفكير هذا الرجل ، يشفق على الحيوان ، ولا يشفق على ابنه ، وهو فلذة كبده ! فتركب الرجل وأركب ابنه فقال من لقيهما من الناس : ما أسوأ أدب هذا الولد ، يركب ويترك أباه المسن الضعيف يمشى خلفه ؟ فقال الرجل : لم يبق يا بني إلا أن فسير معاً ، ونترك الدابة خفيفة الظهر ، حتى نسلم من انتقاد الناس ، ولكنهما ما سلما ، فما هو إلا أن مرا بجماعة من الناس حتى قالوا : ما أحقهما ، يمشيان ، ومعهما دابة موثقة الخلق ، قوية البنيان . فلم خلقت ؟

وهنا أخذ الرجل يعلم ابنه ويضع يده على موضع العبرة من حياته وتدبيره فقال : يا بني : ركبنا معاً فرماني الناس بقسوة القلب ، وركبت أنا فرموني بضعف التفكير ، وركبت أنت فرموك بسوء الادب ، وسرنا معاً فرمونا بالحق . فما أحد من ألسن الناس يسلم !

وأنت مع الناس شديد الشبه بهذا الشاعر مع صاحبه : شكا فلامته على شكواه ، وكتم حبه فأنكرت عليه صبره ، ودنا فأبعدته ، وتباعد فجذعت من بعده خمار في أمره وجعل يصيح :

شكوت فقالت كل هذا تبرما بحبي أراح الله قلبك من حبي
فلما كتتمت الحب قالت لشهدا صبرت . وما هذا بفعل شئى القلب
وأذنو فتقصيني فأبعد طالبا رضاها فتعبد التباعده من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوؤها وتجزع من بعدى وتفر من قربى
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها أحيوا بها واستوجبوا الشكر من ربى

ونحن نقول : غفر الله لك أيها الشاعر ، وعفا عن أمثالك ، فما نعلم ،
ولا كان الذين يعاصرونك يعلمون لك حيلة ، فمكذبا شأن القوافى ، ومكذبا
شأن الناس ، وأى كذا خلقت ، كما يقول النحويون . والإنسان مهما عامل الناس
بالحسنى ، وأخذهم باللين واللطف ، فلا بد أن يجد فيهم من يلتوى عليه .

عذرى من الإنسان ما إن جفوته صفالى ولا إن كنت طوع يديه
وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

ولذلك قال المأمون حين سمع هذا البيت . . . وإنى لمحتاج . الخ . أين
من يأخذ نصف ملكى ويعطينى هذا الصاحب ، ثم جاء البديع الهمذانى فى القرن
الرابع فكتب إلى بعض معارفه يقول : فأما الإنصاف فى الصداقة فهو ضالتي
عند الأصدقاء ولا أقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن
العشرة سلطان ، وليكنى أقول وإنى لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

وقد كنا نقترح الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل ، وإلى الله المشتكى لا منه .

وسئل شريح القاضى : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت ونصف الناس
على غضبان . هذا شأن شريح ، وهو بعد قاض عادل نزيه ، لا يميل به غرض
النفس عن قصد السبيل ، ولا يعدل به هوى الرأى عن جادة الصواب ،

ومع هذا فمثل شريح من كل رجل يحكم بالعدل ، ولا يقول إلا الحق يجب أن يغتبط بهذه الحال أشد الاغتباط ، فحسب امرئ حر الرأى ، قويم الدين ، نظيف السلوك أن يرضى عنه نصف من يعاشرهم من الناس ، وقديما قال خطيب العرب وحكيمها أكتنم بن صيفى : أن قول الحق لم يترك لى صديقا .

حتى بعد أن ينتقل الإنسان عن هذه الدنيا لا يعدم من يستنزل عليه الرحمت ومن يصب عليه اللعنات ، وقد يسلم روحه بين ابتسامة الشامت فيه ، ودموع الباكي عليه ، والشاعر يقول :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتسـوؤه الايام حتى ما يرى شيئا يسره
كم شامت بى إن هـلكت وقائل لله دره

والاديب الاربى ينبغى له أن يطلب رضا الناس فإن رضاهم يقيه من شرور كثيرة ، وليس أصعب من عداوات الرجال ، ولكن لا ينبغى أن يطلب رضاهم بما يسخط الله عز وجل فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : من أَرْضَى الله يَسْخَطِ الناس كَفَاهُ الله ما بينه وبين الناس ، ومن أَرْضَى الناس يَسْخَطِ الله وكله الله الى الناس ، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته .

فاذا لم يكن بد فليؤثر الإنسان رضا الله مهما كلفه ذلك من عنت ومشقة ، ولكن كما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، وهى تناجى ربها :

فليت الذى يبنى وبينك عامر ويبنى وبين العالمين خراب

« وبعد ، فرضا الناس غاية لا تدرك ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله »

مِيلَادُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميدة

المدرس بكلية اللغة العربية

سلام عليك يا رسول الله مولوداً ومبعوثاً ، ومقيماً ومهاجراً ، ومبشراً ومنذراً ، وحياً وميتاً ، وروحاً في عليين . سلام عليك ما تعاقبت السنين ، وتوالت الأيام تردد دعوتك ، وتنشر صفحتك ، وتظهر مجدك ، وتتلو على الوجود آياتك البينات ، وعظائمك البالغات ، فلقد كنت سلاماً على الوجود منذ تعلقت الإرادة بوجودك ، والمشيمة بخلقك ، فأنت حق من الحق ، ورحمة من الرحمة ، ونور من النور ، ولدت فكنت خير مولود عرفته الأرض نقاءً وطهرًا ، وصفاءً وكرماً ، ونسباً وحسباً ، ونشأت فكنت خير ناشئ خلقاً وخلقاً ، وعز ومجداً ، وأمانة وصدقاً ، وبعثت فكنت خير مبعوث خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

قدمتك العناية للناس رحمة بهم ، ومنقذاً لهم لما ضرب الفساد بجراحه في الأرض ، وشاع الضلال وذاع ، وتلاشت الحضارات الصحيحة ، والمدنيات السليمة ، وأنهك الأمم الراقية المبالغة في الترف والامعان في المجون ، وأصبحت الأرض تنتظر النجدة من السماء ليكشف ما بها من ضر ، وما أصابها من انحلال . ومهيات لامة انفصمت عراها ، وفقدت أخلاقها ، ونفدت طاقتها أن تقوم ببناء أو تعمیر ، أو بهدى أو إصلاح . لهذا لم تتجه الدعوة للإصلاح في الأرض إلى أصحاب الحضارات المشوهة ، والمدنيات الممسوخة ، وإنما ولت وجهها شطر الامة الامية التي أكسبتها العزلة منساعة ، حفظتها من أدوار المستهترين ، وامراض المسرفين ، فبقيت طاقتها البشرية صحيحة سليمة ، ونوفر لديها كل ما يصلح لتكون أمة حية تقود الوجود ، وتنشر السلام . ذلك أن الاميين عاشوا في جزيرتهم

هيشة شظف وجذب ، لا يعلمون شيئاً من مفاتن الدنيا ، ومباهج الحياة ، وبهرج الحضارة ، إلا بقدر لا يفتُّ من سواعدهم الفاتحة ، وطبائعهم السليمة ، فهم أهل جاهلية بما عند متاخيمهم — الفرس والروم — من خلاعة طغت على المعارف والحكمة ، وظلم جعل من الناس عجماوات مسخرة لتشيع بطوناً نهمة ، وسيادة كاذبة ، وألوهية ضالة . فالعرب قد لازمتهم الفطرة البريئة ، والبساطة المخففة من أنقال العيش ، وأعباء الحياة ، فصحت أجسامهم ، وصحت معها عقولهم ، ولم يكن لإسرافهم في الجهل والضلال إلا على وزان لإسرافهم في لذائذ العيش ومتع الحياة ، وأتقن للفقر والإقلال أن يتسعا للأسراف أو يهيئوا للفساد ، فكل ما عندهم تراحم على الكسرة ، وتناكب على القطرة ، وما وراء ذلك فهو على هامش حياتهم ، وليس من صميم وجودهم . لذلك كانت الأمة العربية أولى أمم الأرض بحمل الدعوة ونشرها ، وإقامة الحججة وإنقاذ البشرية من ضلالها .

وأمنع المترفون في الفسوق وأسرفوا في استيفاء الشهوات واللذائذ ، وانصرفوا عن كل خير في الأرض . فأفسدوا ولم يصلحوا وعطلوا ولم ينشئوا واختفت فيهم الفضيلة ، وتبجحت منهم الرذيلة ، وتطايير الشر من موافدهم موافد الضلال والفجور ، وحملت الرياح الهوجاء إلى مواضع الطهر والقداسة . ومراطن السذاجة والفطر السليمة ، فتغيرت النفوس الطاهرة ، وتغلب الهوى ، وتحفد الشيطان ، واتخذ العرب من أول بيت وضع للناس للتوحيد والتنزيه ، والمثوبة والأمن ، مكاناً للشركاء والأمداد ، ومبأة للضلال ، ومرتعاً للفساد .

عند ذلك تجلست رحمة الله بخلقه ، واختار خاتم رسله لخاتم دعوته ، ليجبر ما نصدع وينظم ما انفرط ، ويسمح ما علق بالفطر ، حتى تعود سيرتها الأولى ليرد بهم الناس إلى الحق البين ، والطريق المستقيم ، ولكن الضلال قد صادف قلوباً خالية فتمكن منها ، ووجد الشيطان نفوساً بريئة فنفث فيها الشر ، فوجد الرسول الكريم مشقة وجهداً في تخليص العرب من الأدواء التي أصابتها والأمراض التي نزلت بها فأسر بالدعوة أسراراً نحواً من ثلاث سنين ، ثم دعا جهاراً نحواً من عشرين لما قيل ، اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، وهىء الرسول تهية خاصة ، فكان مثال النبل والخير ، عرف بين آله وقومه بالطهارة والنزاهة ، والصدق والأمانة على الرغم مما كان عليه من قلة في المال ، ونقص في الولد ، لا ينتطح في ذلك عنزان

ولا يختلف فيه اثنان ، ولكن الشر قد تأصل في نفوس القوم ، فصمت الأذان عن سماع الحق ، وأقفلت القلوب عن قبول الهدى وعميت الأبصار عن رؤية آيات الله ، وتنكر للدعوة الإلهية القريب والبعيد والمحب والمبغض إلا من عصم الله وقليل ما هم .

وسلك الرسول الكريم في تبليغ خبر ربه طريقاً منطقياً ، فتحدث إلى الأصدقاء والإخوان في خلوات وفترات معلناً أمره موضحاً خبره ، وتحدث إلى الناس في المجالس والأسواق عن الفضيلة والأخلاق ، وأخذ يلزم من طرف خفي ما عليه القوم من بعد عن الحق ومجافة للعقول والمقبول ، وجوهر الدعوة سر في نفسه لا يجاهر به حتى تنهأ النفوس لقبوله .

وبدأ بإنذار العشيرة والأقربين ، وهم أولى باتباعه والاستجابة له ، إبقاء على وشيجة القرى ووفاء بحق الرحم فإن الرحم ، يوصل من وصله ، وأى صلة تدانى ديناً يهدى إلى الحق ، وإيماناً يورث الجنة ويبعد من النار ، ثم أعلن إلى قومه فدعاهم ليلاً ونهاراً فلم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ، فألح وألحف حرصاً على قومه أن يتعرضوا لسنخ ربه ، فيحل عليهم غضبه أو ينزل عليهم عذابه ، وهو بهم رءوف رحيم .

وكم ضاق صدره من خلاقم حتى كاد يهلك نفسه دونهم ، فلعلك باخع نفسك على آثارك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، ولا طفهم الرسول وقتل بالذروة منهم والغارب ، وتجاوزهن مسيئتهم ، عله يظفر منهم بلفتة إلى الحق أو نظرة إلى ما جاء به من دين تناول الذكور والإناث ، والأحرار والعبيد ، والبيض والسود ، قوامه التوحيد ، ودعامته الفضيلة ، وفي التوحيد تسفيه للشرك والشركاء والمشركين ، وفي الفضيلة طهارة وصفاء وتثبيت لدعامة الحق وانصاف للعقل على الهوى وتقرير للعدالة والمساواة وتنديد بالذيلة واحتقار للشر ومحو للباطل .

فكبر على القوم أن يكون من بينهم داعياً ولا خلاصاً مسفهاً ، وفي القرينتين من هو أولى بالشرف وأجدر بالسيادة ، وقالوا فيما قالوا : لو أنزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم ، فمكان الرد عليهم : أنهم يقسمون رحمة ربك ، وبالغوا في إيذائه وأسرفوا في السكيد له ، وقالوا فيه : ساحر أو مجنون ، بل قالوا شاعر نربص به ريب المنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون ، وتلك سمة الله في المرسلين ، ف : ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، قد مستهم البساء والضراء ، فصبروا حتى جاءهم النصر ، وتحقق وعد الله : لا غلبن أنا وسلي ، .

الأديب في الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسالوت

المدرس بكلية اللغة العربية

نحب أن نعرض هنا لمشكلة يحار فيها الناشئون ، وقد يختلف فيها العلماء والمتأدبون ، هي مشكلة تختلف فيها قولا وجدلا ، لا ينتهى عند حد ، ولا يقف لدى غاية ، تختلف فيها بيننا وبين أنفسنا حين تنازعنا البواعث المختلفة ، والعوامل المتباينة إلى القراءة ، فنقف مترددين حائرين .

هذه المشكلة ماذا نقرأ ؟ أتقرأ للقدمات أم للمحدثين . أم لها معا ؟ وأتقصر قراءتنا على ما تنضح به العربية من ألوان الثقافة وصور المعرفة أم لا بد من إحاطة واستيعاب ، أو على الأقل وقوف على نتاج الأفكار ، وثمرات القرائح ، ومطارح الأخيلى فى كل لسان ؟

إذا التمسنا حلا لهذه المشكلة مما نسمعه من أفواه المثقفين ، تنازعنا تيارات مختلفة وعوامل متباينة ، ففى بعض المجتمعات الأدبية تردصريحات وتبعث صرخات تقول : مالنا وللقدماء وآداب القدماء ، وقد عاشوا فى بيئات وسعتهم وانطوت عليهم ومنحتهم من المظاهر والأوضاع مالا م حياتهم ووافق أوضاعهم ، ثم لم تعد ألوان تفكيرهم ولا مطارح أخيلتهم ولا ماثور آدابهم تنسق مع ما نفكر فيه أو نتخيله ، ؟ نسى هؤلاء الناعبون أن الحياة إن اختلفت بعض ألوانها وتباينت بعض صورها ، فهى فى سماتها العامة ومظاهرها المشتركة لا تختلف فى قليل ولا كثير ، هؤلاء الذين ينفرون من القديم ، ويتسكرون للقدماء ، قد خانهم الصبر وخذلهم الجلد ، فلم تعد عقولهم تقبل إلا أخف ألوان الأدب وأبسط مظاهر الثقافة ، ونسوا أن الأساس الذى نبني عليه ، والمصدر الذى نقتبس منه والذخر

الذى نمنح من معينه هو الادب القديم ، فإن أغضينا عنه وأغفلنا شأنه بفينا حياتنا على شفا جرف هار ، وأقمنا مجردنا الأدبي على غير أساس .

وهناك أناس يسيئون الظن بكل جديد ، ويتهمونهم أشنع اتهام ، ويصفونه بالضعف والهزال ، ويؤمنون أعمق الإيمان أن هذا الادب الذى تهدر به طبائع المحدثين لا يصلح للبقاء ، ولا يستحق العناية والاهتمام . يستخفون فيه كل فكرة ويستهنون كل أسلوب ، ويلتمسون العيب فى كل صورة ، ويخترعون المسامة لكل ما يخلج به الفكر أو تنبض به القلوب . ولو سألتهم عن حقيقة ما يخترعون من شبه لأعوزهم الدليل واستعصت عليهم الحجة .

لا عيب فى الجديد لأنه جديد ، ولا مزية للقديم لأنه قديم . أنما السمو والايدياع أو التخلف والقصور فى القيم الفنية للأثر من ذات نفسه ، فهو الذى يدل على مكانه من الرفعة أو الانحطاط . والتقدم أو الانتكاس لا قدمه ولا حداته .

وقديما ملك أقواما التعصب ، واستولى عليهم الهوى مع جلال أقدارهم وعظم منازلهم ، وأصالة رأيهم فى دولة الادب ، حتى إن بعض هؤلاء المتعصبين للقديم أملى شعرا لبعض المحدثين على أنه قديم فامتدحه وأطراه وأثنى عليه أجزل ثناء . فلما أنبى بعد ذلك أنه لمحدث غضب ، ومزق أوراقه وصار يقول خرق خرق .

يقول القاضى الجرجاني فى كتابه الوساطة صفحة ٤٩ فى هذا الصدد (إن خصم المتنبي فريقان : أحدهما يعم بالنقص كل محدث ، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلى وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقه الشعراء رؤية وابن هرمة وابن ميادة ، فإذا انتهى إلى من بعدهم كبشار وأبي نواس وطبقتهم ، سمى شعرهم ملحا وظرفا واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان النادرة وأجراه مجرى الفكاهة ، فإذا نزلت به إلى أبي تمام وأضرابه نفى يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتا قط ، ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلجج بعيب المتأخرين - أن أحدهم يُنشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ونقض

قوله ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث
والاقرار بالاحسان لمولد .

حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال أنشدت الأصمعى :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيل العدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسروانى : لمن تنشدنى ؟ فقلت لإنهما ليلتهما فقال
لا جرم والله إن أثر الصنعة فيهما لظاهر .

ولكن إسحاق هذا جوزى جحوداً بجحود ونكراً بنكران ، فقد كان كما يقول
المرزبانى ينصر الاوائل فى كل أحواله وكان يتعصب على المحدثين ، ومن كان
يتعصب عليهم أباً نواس وكان يقول هو يخطئ . قال يحيى بن هلى فسكنت أنشده
جيد قوله فلا يحفل به لما فى نفسه فأنشدته قوله :

وخيمة ناطور برأس منيفة تهم يدا من رامها بزيل
إلى قوله .

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل
فسكان على أمره . فقلت والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجعلتها أفضل
شئ سمعته قط .

وكان من تعصبه على أبى نواس يقول ما ظننت أنى أعيش إلى زمان أرى
شعر أبى نواس يتفق فيه هذا النفاق ، وكان ابن الأعرابى يقول (ص ٢٤٦ الموشح
(إنما أشعار هؤلاء المحدثين من مثل أبى نواس وغيره ، مثل الريحان يشم يوماً
ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً) .
وهذا تعبير يحمل فى طياته ما كانوا يضررون من حقد واضطغان على
المحدثين : ويظهر أن المعاصرة غالباً تكون من أقوى أسباب التحاسد وأشد
عوامل التنافر والتحاقد ، حتى إن كلبة الحق فى مثل هذه المواطن تجعل الفحول
يشرقون بريقهم ويغصون بها إذا ضيق عليهم الخناق : ومهما أوتى بعض الناس
من قوة الحجة وسعة العقل ودقة الفهم فقد لا يملكون الغلبة على ما وقر فى
طباعهم من حقد ولا ما استكن فى نفوسهم من هوى أو موجدة .

يقول أبو عبد الله التميمي : كنا عند ابن الأعرابي ، فأنشده رجل شعرا لابي نواس أحسن فيه فسكت ، فقال له الرجل أليس هذا من أحسن الشعر . فقال بلى ولكن القديم أحب الى .

وقال أبو الحسن الطوسي : كنا عند ابن الأعرابي فقال : أيما أحسن عنكم قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالنى كانت هي الداء
أو الذي أخذ منه وهو يقول الأعشى :
وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
فسكتنا فقال ! السابق أجود :

وإن هذا لما يدعو إلى الغرابة والعجب ، فإن عصبية الرجل وحقده وغصته بقول الحق لما يثير الدهشة حقاً . مع أن أبا النواس فيما أرى فاقه بالاختصار وعذوبة الشعر وسلامته مما ينفر منه الطبع ويستكرهه السمع والنص الصريح على أن الخمر داء ودواء ، أما الأعشى فإنه يجهد السامع في تعرف مواطن الضمائر المتتابعة ويجعل صدره ضيقاً بها أشد الضيق .

قال ابن قتيبة (وكان الناس يستجيدون قول الأعشى الى أن قال أبو نواس بيته ، فزاد فيه معنى اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه ، فللأعشى فضل سبق عليه ، ولأبي نواس فضل الزيادة عليه) .

وكان الاخفش ينقد بشارا لأنه محدث ويطعن على شعره ، فلما بلغ ذلك بشارا تهدده بالهجوم ، فبكى الاخفش وقال وقعت في لسان الاعشى ثم أخذ بعد ذلك يحتاج في كتبه بشعره ليلبغه ذلك ، فكيف عنه .

فهذا عالم جليل وإمام كبير نقى الشاعر عصبية وأنفة ، ثم استرضاه فرقا ورهبا ، فلم يتجر قولة الحق ولا منهج الصواب .

وهذا ابن قتيبة الأديب الكبير يدلنا على ما كان يشيع من خلاق بعض العلماء وتحيز بعض الدارسين في عصره من تفضيل السابقين والعصبية على المحدثين ويعلم أنه لا يسير على سنتهم ولا يرضى بطريقتهم إذ يقول في مقدمة

كتابه : الشعر والشعراء : ما يأتي ، ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه — فأني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه مواضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم . بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عبادہ ، وجعل كل قديم منهم حديثا في عصره . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأئبنا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما أن الردى إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه .

ولقد أطلت في عرض كثير من الصور التي تدل على تحكم الهوى في كثير من النفوس . ولكن لادل على أن الناس في كل عصر هم الناس والعقول هي العقول والقياس هو القياس وإن اختلفت المظاهر وتباينت السمات .

وكما يختلف الناس في هذا الزمن في تفضيل القديم على المحدث أو المحدث على القديم كذلك كان الناس فيما مضى يختلفون ويتبارون .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لما نطالعه أو نحتاجه من ثمرات القرائح ونتاج العقول في الآداب الأجنبية . فكثير من الناس يدعون بسلوكهم وسمتهم إلى العزلة ويزعمون أن هذه الآداب تفسد الأذواق وتحيل الأخيلة وتشكك الناس في قيمة آدابهم .

وبعض الأدباء يتعامون عن تراثنا ويفضون عن نتاجنا ويرون أنه ليس هناك أدب إلا ما جاء عن العرب ونطق به أدباء الغرب .

وأولئك وهؤلاء غالون فيما يرون من رأى ويلتزمون من عقيدة . فأن الأدب الفطن والمفكر النابه لا ينبغي أن يلتفت إلى هذه الترهات والسفاسف بل يجب أن يلتزم ما يسمح له من ألوان المعارف وصور البيان مهما كان الزمن الذي تمخض عنها ومهما كان اللسان الذي جاءت فيه .

ولا يفوتني وأنا أعالج هذه الناحية أن أعرض هنا صورتين تكادان تتقاربان

في الموضوع : إحداهما لشاعر قديم والاخرى لشاعر محدث . وسنجد في كل منهما من روعة البيان وخلابة المنطق ، وتحليق الخيال ما يبعث على الإعجاب والإكبار ، فلم يعق المحدث حدائمه من الإجادة والإحسان ومساماة المتقدم على بعد عصره وتراعى زمنه .

قال ابن الرومي في وصف مغنيات :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بنيتها حوائ
مطغلات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقيات أطفالهن ثديا	ناهديات كأنهن الرمان
مفعمات كأنها حافلات	وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادى الغنى عن الترجمان

وقال في هذا المعنى أو ما يشبهه ، فأيدع أيما إبداع وأجاد أبرع إجادة

الاستاذ الشاعر المرحوم الشيخ أحمد الزين :

لامست في النفس أوتار هواها	غادة بالسحر تغزو من غزاها
كلما مست يداها وترا	حسد الآخر ما مست يداها
تمنح الاوتار كفا رخصة	أشجت الاوتار من قبل شجها
ويكاد العود يدى كفها	قبلا لو أن للعود شفاها
لحنها يبعث في ميت المني	نضرة العهد ومعسول صباها
خفقات يخفق القلب لها	هي أناث فؤادى أو صداها
وحنين كاد من رفته	أن يذيب اللحن في العود مياها
وشجون طالما أخفيها	نفد العود إليها فحكاها

إلى أن قال :

كل هذا نطق العود به وتناجى هو والنفس شفاها

فلننظر في شعر المحدثين إلى هذه الدقة العميقة ، وهذا الاستقصاء البارع وذلك الخيال البديع الطريف وتلك المعانى التى أنسايت من قريب ومن بعيد في ألفة عجيبة حتى ليحسب المرء أن له بها عهداً وما هي في الواقع مما تحتج للفكر وتنقاد للخيال ، إلا بعد كد ومطاوله وشدة احتيال ؟

دراسات في التصوف

العقل والنقل والذوق

للمؤلف: أستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

— ٢ —

وإن قال الجنيد : مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ^(١) ، فقد كان يؤمن دون شك بأنه وراء الكتاب ووراء السنة أمر آخر ، هو الله ، هو المقصد الأخير ، والغاية التي ليست بعدها غاية ، فالمتصوف لا يعمل لدنياه ، ولا يسعى لآخرته ، وإنما هو محب يرجو حبيبه في إلحاح ، لا يريد عنه بديلا ، ولا يسبغ به غيره ، ليكن في الأرض ما بها من خيرات ، وليكن في الجحيم نيران متأججات ، وفي النعيم أنهر من لجن ، ولكنه لا يريد هذا ، ولا يرغب في ذاك ، لا بل هو راغب عن ذلك جميعه ، راغب في الله ، والله وحده . راغب في الاتحاد بالله الذي هو أعلى مقامات النفس وأسمى مراتبها ، يحس معه الواصل كأنه والبارى شيء واحد ، يرى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويشعر بغبطة وسرور لا نظير لها . ويخترق الحجب ، ويصعد إلى عالم النور والملائكة ، فتتكشف له المغيبات والأمور الخفية ، فيخيل لجلالته أنه حاضر والواقع أنه غائب ، وأنه قريب والحقيقة أنه بعيد : قد انصرف عن كل شئون الدنيا وفنى في الله . وأول من نادى بهذا الفكر هو البسطامي ^(٢) ، ولعله قد

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) هو أبو يزيد البسطامي عاش في بسطام قرب شاهرود في خراسان من أعمال فارس في القرن الثالث الهجري ، وهو من أئمة التصوف .

استمدتها من تعاليم هندية كانت سائدة في بلاد الفرس مسقط رأسه . وحاول الصوفية تدعيم نظريتهم إن نثرا وإن شعرا ، وبحشوا لها عن آيات وأحاديث تؤيدها ، فوجدوا في هذا الحديث القدسي : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبني وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ، فبي يبصر وبى يسمع » أقول وجد الصوفية في هذا الحديث القدسي بعض ما يؤيد ما يذهبون إليه .

تلك هي أهم أفكار الصوفية التي عارضهم فيها الفقهاء ، ولكن ثمت فكرة أخرى زادت الهوة بين الفريقين اتساعاً ، ألا وهي قول الصوفية بتوحيد الأديان ؛ إن الدين عند الله الإسلام ، قول لاشك فيه ولا ريب ، صريح في دلالة ، صريح في عبارته ، ليس له باطن أو ظاهر ، ولكن جاء قوم ونادوا بأن الكل إنما يعبد الله ، وأن الإسلام والنصرانية وغير هذه أو تلك من الأديان إنما هي وسيلة لعبادة الله ، التعصب الديني ممقوت عندهم مكروه : لا تكن مسلماً ولا نصرانياً ، ولا تكن صابئاً ولا وثنياً ، ولكن كن من شئت ، على أى دين أردت (١) ، ولكن اعبد الله : اعبد الله إن على صورة الوثن الحجري ، أو متجلياً لك في الشمس أو في القمر ، واعبد الله إن متجرداً عن كل شيء ، أو متحداً بأشياء . لترمز لإلهك بأى رمز تريد ، فما دمت مخلصاً في نيتك ، موفياً لعبادتك ، كان ما تفعل حقاً : « فالأديان كلها لله ، شغل كل طائفة منهم بدين ، اختيار اعليهم ، لا اختياراً منهم ، أخذ بهذه الفكرة الحلاج وابن عربي وابن الفارض والجيلي والرومي وغيرهم كثيرون ، ونادوا بها جميعاً إن نظماً وإن نثراً ، ولعل من أجمل ما قيل فيها أبيات ابن عربي إذ يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى	إذا لم يكن دينى إلى دينه دان
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لاوثنان ، وكعبة طائف ،	والواح تورا ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

(١) اتخذت البابية البهائية - فيما بعد - هذه الفكرة ، فكانت أهم دعامة لدعاياتهم .

أو قوله :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه
أو قول بعضهم :

إن حراً للأحجار في البيد عاكف
وإن عبد النار المجوس وما انظفت
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم
سواي ، وإن لم يظهروا عقد نيتي

* * *

ويقول السعد النفطازاني^(١) معارضاً الآراء الصوفية ومتحدثاً عن مذهب وحدة الوجود : الحلول والاتحاد مستحيلان على الله ، والمخالفون في هذا منهم نصارى ومنهم منتمون إلى الإسلام ، ومنهم بعض المتصوفة القائلون بأن السالك إذا أمعن في السلوك ، وخاض لجة الوصول ، فربما يحل الله تعالى فيه ، كالنار في الفحم بحيث لا يتمايز به ، ويتحد بحيث لا اثنية ولا تغاير ، وصح أن يقول هو أنا وأنا هو ، وحينئذ يرتفع الأمر والنهي .

ومن هنا نادى الصوفية أن مسألة الإلهام ليس بحجة كما يقول ابن السبكي ، فجعلوا دلالة الذوق فوق دلالة النص ، وقالوا : إذا ما تعارض الأمر والذوق ، قدمنا الذوق على الأمر ، ويقول بعضهم :

يا صاحبي أنت تنهاني وتأمرني والوجد أصدق نهاء وأمار
فإن أطعك وأعصى الوجد رحت عم عن اليقين إلى أوهام أخبار

ومن هنا أيضاً قالوا بأن الصوفي يتلقى من السماء أحكامه ، التي قد تخالف أحكام الشريعة ، فالصوفية أباحت لهم أشياء هي محظورة على غيرهم .

(١) سعد الدين النفطازاني من كبار العلماء الأحناف له كتب كثيرة مشهورة ، كان يعيش في عصر تيمورلنك ، وروى لي الأستاذ أحمد ترجاني أنه قرأ أن شرف الدين الدرجزيني المتصوف سأله مرة : هل جاء ذكر المتصوفة في القرآن ؟ ، قال نعم ، جاء ذكرهم بعد العلماء ، قال في أي آية ، فأجابه في قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، يريد وصف المتصوفة بالذين لا يعلمون » .

وإن كان لهذه الآراء أثر ، فإنما كان عند الفقهاء ، الذين ، ولا شك ، حكموا بكفر هذا ، لأن دليلهم وطريقهم إنما هما الكتاب والسنة ، وهل بعد الكتاب والسنة دليل ؟! ، ومن خالف الكتاب والسنة فقد كفر ، فما بالك بهؤلاء القوم ، زعموا أن أحكامهم من السماء ، بل وزاد البعض منهم ، فادعى أنه وقد اتحد بالله ، وبلغ منزلة عليا ، فقد سقطت عنه التكاليف ، وزعم أن التكليف خاص بالعوام ، ساقط عن الخواص فإنه :

يطالب بالآوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

وهذه ولا شك دعوى باطلة ، اصطنعها قوم لرغبة في نفوسهم وغاية لهم ، وإما لرى الفقهاء محقين في هذه الناحية في تقدمهم لهذا الفريق من الصوفية . بل ومحقين في تجرييحهم لهم ، فقد يقبل المفكر أن يناقش فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد والحلول ، ولكنى لا أتصور أبداً مسألة سقوط التكاليف . إن زعم هؤلاء أنه وحى من الله ، فلعل الأرجح أنه وحى من الشيطان .

وتمت مسألة أخيرة أثرت بين الفريقين الفقهاء والصوفية ، هى مسألة السماع . نادى الفقهاء بأن لا ضير فى السماع ، سماع الجيد الصالح من الأقوال فإن النبي (ص) كان يستمع ويدعو إلى السمع ، ويحدثنا أبو حامد الخلفانى أنه قال لأحمد بن حنبل : يا أبا عبد الله ، القصائد الرقاق التى فى ذكر الجنة والنار أى شيء فيها ؟ فقال : مثل أى شيء ؟ قلت :

يقولون .

إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى

وتخفى الذنب من خاتى وبالعصيان تأتينى

فقال أعد ، فأعدت عليه ، فقام ودخل بيته ، ورد الباب ، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يردد البيتين . وليس فى مثل هذه الاناشيد من بأس ، فقد يكون فيها تذكرة لبعض النفوس الغافلة ؛ وإنما تدخل فى قبيل اللهو إذا كانت توضع فى ألحان الغناء ، حتى تكون اللذة فى طيب انغامها لا فيما لحنته من حكمة وموعظة .

هذه هي وجهة نظر الفقهاء كما يوضحها أحدهم ، ولكننا نرى الصوفية قد اتخذوا مجالس الأذكار ، يرددون فيها اسم الله آلاف المرات ، حتى إذا ما أخذتهم الجلالة - كما يقولون - خروا مغشيا عليهم ، إن تعباً أو خشية من الله . ونرى الغزالي يقول في الإحياء : متصوفة أهل هذا الزمان - إلا من عصمه الله - اغتروا بالزى والمنطق والهيئة من السماع والرقص ، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة .

ولكننا نجد الصوفية يغنون قصائدهم التي يتغنون فيها بحب الله وبالإعراض عن الدنيا ، إنهم فيها لا يتشبهون بغادة حسناء ، ولا يتغزلون بكاعب ناهد لعب ، ولكنهم يحدثون الله ، يبينون عن عشقهم لذاته ، ويظهرون حبهم له ، تلك القصائد التي نجدها في ديوان ابن الفارض وفي شعر ابن عربي والسهوردي المقتول :

أبدأ تحن اليكم الأرواح ووصالكم ريجانها والراح

* * *

هذه خلاصة للصلة بين النقل والتصوف تظهر لنا النضال الطويل بين الصوفية والفقهاء ، وهو نضال دافع فيه الصوفية عن عقائدهم ، دافعوا بالروح وبالبدن ، وكلفتهم آراؤهم ثمناً فادحاً ، فقد قتل منهم الخلاج والسهوردي ، ونكل بغير هذين .

ومن الحق أن نقول إن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم ، العالمين بأسرار الشريعة السمحاء ، لم يكونوا أبداً هم السبب في هذا الاضطهاد ، وإنما هي فئة قليلة ، توجد دائماً في كل عصر ومصر وزمان ، تؤلب الحكام على أمثال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتتعدهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ودعاة التقدم أعداء الجود ، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يلقون اضطهاداً ويقاسون عسفاً ، ثم لا يلبث التاريخ حتى ينصفهم ، فإذا بذكراهم تعود عاترة فياحة فصرة .

الاساطير عند مختلف الشعوب

المؤستاذ صمحه محمد الشيخ

لبسانيه فى الآدب الانجلىزى

لا نستطيع أن نلحق الاساطير Mythology بفروع المعرفة النافعة التى تزداد بها مقدرة الإنسان ، وتربو ثروته ، ويرتفع ذكره ، ويذيع صيته فى المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه . ولـكـنـها مع ذلك من المعارف التى لا غناء لنا عنها إذا جعلنا السعادة النفسية والمتعة الروحية هدفاً لنا ننمناه فى حياتنا ، فالاساطير مصدر لكثير من الثقافات الشعبية والعقائد الدينية التى إذا أجدنا فهم أسرارها وتوصلنا إلى المعين الذى صدرت عنه جداولها الاصلية ، أمكننا أن نحى حياة هادئة مستنيرة راسخة ، تعرف ماضيها ونستمد من بين رماده ومضات وهاجه تصلها بحاضرها ، وتبرق على أضوائها أحلام المستقبل .

وقد كان العربى قليل الحظ من الاساطير ، ومن ثم نشأت دياناته الاولى تافهة سطحية . لا يمكن أن تجرى مجرى الديانات الهندية أو الإغريقية أو الرومانية ذوات الفلسفات العميقة ، والآلهة العديدة الجبارة ، فهى نتاج أساطير رائعة استلهمتها تلك الشعوب من بيئتها الزاخرة بشتى الكائنات الخافلة بكثير من الاعاجيب . بل إن العرب قد عزفوا عن آداب الامم الاخرى وولوا عنها مدبرين ، حين لمسوا فيها ما يهدد عقيدتهم الدينية ويعدو على شعائرهم التى عكفوا عليها طويلاً ، وأمعنوا فى الحذر والخوف فتجافوا عن كثير من الفنون الجميلة كالنصوير والتشيل والنحت حين جاء الإسلام وقضى على عبادة الأصنام .

ولا جدال فى أن الأقليم تأثيراً قوياً فى النازلين به ، وفى مدى انفساح خيالهم وعمقه ، بل إن الإقليم هو المرجع الاول الذى نعزو إليه وفرة الاساطير وتعددتها فى أمة من الامم أو ندرتها وتفرقها ، ولذلك رأينا العربى فى صحرائه الجرداء يعيش عيشة بدوية ، لا مأوى له غير مساكن متنقلة يصطنعها من شعر

عنزته أو وبر ناقته ، ولا تكتنفها غير رمال شاسعة لا يحدّها البصر فاصطابغ خياله بتلك المسحة السطحية المنبسطة ، وعجزت ملسكة الابتكار فيه عن اختراع الموضوعات ، وخلق الشخصيات .

فأما ديانات الأغريق والرومان القدماء فقد انطلقت شعلتها منذ زمان طويل ، ولم نعد نرى لها بين الأحياء فرداً واحداً يتخذها عقيدة لنفسه ، فقد أصبحت لا تمت إلى العقائد الروحية بصلة ، بينما أضحت وثيقة الارتباط بفرعين من فروع المعرفة الإنسانية هما الآداب والفنون ، حيث مازالت تلقى ظلالها في صفوة النتاج الأدبي والفني قديمه وحديثه ، حتى أننا نندر اليوم ألا نجد إشارة إليها في قصائد الشعراء ومقالات الكتاب وخطب الخطباء . فلا بد لمن يبغي تذوق آداب عصره وانتهالها من النبايع التي أمدتها بالجمال الأسر والسحر الحلال الأخاذ ، أن يسبح بخياله في أجواء مفعمة بالأساطير الإغريقية والرومانية التي جادت بها ملسكة الابتكار عند شعوب نشأت في يديّات نابضة بالحياة نائرة بالحركة والنشاط .

ولا بد لنا لكي ندرك مغزى أساطير الأغريق أن نعرف شيئاً عن مدى ما وصل إليه علمهم بتركيب العلم جميعاً ، فقد تناقل الرومان وغيرهم من الشعوب عن الأغريق تلك المعرفة ، كما اقتبسوا منهم كثيراً من العلوم والدين .

وكان الأغريق يعتقدون أن الأرض منبسطة دائرية وأن بلادهم تشغل جزءها الأوسط حيث يحتل جبل أولمبس Mount Olympus ، مهيّط الآلهة ، المنطقة المركزية منها . وبدا ذلك القرص الدائري لأعينهم تحترقه من الغرب إلى الشرق مياه البحر الأبيض التي تشطره شطرين متساويين ، وتحف به مياه المحيط التي تجري من الجنوب إلى الشمال في الجانب الغربي وفي اتجاه عكس ذلك في الجانب الشرق ؛ تلك المياه التي يفيض تيارها ثابتاً هادئاً لا تهيج عاصفة أو تعيث به ريح .

واعتقدوا لذلك أن الجانب الشمالي من الأرض يسكنه قوم تغمرهم السعادة ويحوطهم النعيم الدائم ، لا يعانون مرضاً ولا يشكون عوزاً ولا يجهدون كدأ ولا يقنون حرباً . أما في الجانب الجنوبي فيعيش قوم يدعون الإثيوبيين Æthiopians تحبهم الآلهة عطفها وتسبغ عليهم كرمها . وفي الشريط الغربي يقيم

أناس في سهل الفردوس Elgsian Plain لا تمتد إليهم يد الموت العاتية ، فهم في متعة أبدية وفي رخاء مقيم .

وهكذا نرى قدماء الإغريق يكادون يجهلون أمر الشعوب الأخرى جميعاً فينهض خيالهم حينئذ يعمر مجاهل الأرض — كما تخيلوها — بأشباح ووحوش وسحرة ، أو بأقوام تؤازرهم الآلهة وتسبغ عليهم ودها وفيضها .

أما الشمس والقمر فقد حسبوهما يطلعان ويغيبان من المحيط ، وتخيّلوا لإله الشمس زورقا يجنحاً يذرع به الأرض جيئةً وذهوباً ، لينقله من غربها عبر مياه المحيط إلى مشارق الأرض ، حيث يطلع بنوره على الآلهة والناس . بل إن خيالهم مدّ لهم كثيراً في تصوراتهم ، فزعموا أن الآلهة تتقابل جميعاً في ردهة فسيحة بأحد القصور الملكية ، لتتناول طعامها وشرابها الذي توزعه عليها آلهة مفرطة الجمال تدعى « هيب » Hebe . وهناك يتناولون أمور السماء والأرض بالعرض والنقد حيث تصل إلى أسماعهم الموسيقى العذبة مناسبة من أوتار آلة يحملها إله الموسيقى .

وكذلك اعتقد المصريون القدماء أن أول من حكم الأرض هم الآلهة ، ثم انحدر منهم ملوكهم الأول الذين يرجعون إلى أصل سماوى ، وكانت تلك الآلهة — ككل الآلهة الوثنية — تتصف بكافة صفات البشر من التحاسد والتباغض ، والتآزر والتنافر ، فمن الأساطير المصرية الذائعة حول حكم الآلهة قصة أوزيريس وما جرى له مع منافسة أخيه « ست » ، وما انتهى إليه الأمر من قتل أوزيريس ، ثم عودته للحياة مرة أخرى ، واتخاذ المصريين بعد ذلك لهذين الإلهين رمزاً للبعث بعد الموت .

وصفوة القول في الأسطورة أنها ليست سوى قصة خرافية صاغها الإنسان البدائي وأنتجها خياله ، واتخذ لها مسرحاً الأفق الذى تمتد إليه ناظر تاه ، فإن ضاق به ، فإلى ميدان أرحب وأفسح يكون فيه أقدر على التحليق وافترض الفروض ، يفسر بها ما حير ذهنه وأعجز عقله بالغازه وأحاجيه . وبالرغم مما حوته تلك القصص من عقائد قد تبدو لنا اليوم سخيقة عابثة ، فهي صورة العهود التى كتبت فيها ، ومرآة تنعكس عليها عقليات الشعوب المختلفة في بداية نشأتها وما كانت تموج به نفسيات تلك الأمم من آمال وآلام .

عجالات في الأدب العربي :

جراحات لِقلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

مدرس الادب بالازهر

فيما ألقى إلينا التراث الأدبي العربي بقايا كثيرة غزيرة جدرة بالتقصي والدرس ، ومنها مخلفات الطعنات القاسية من القلم واللسان ، والرميات المدمية من الصرامة والبيان . وقديما جففت الصحراء العربية من المرواحات ، إلا في جوانب قليلة ، فسيطرت عليها عواصف العصبية وأخذتها نشوة الصرعات القبلية ، فسخرت الشعاعية في مسالك الهجو والتفاخر ، وأرسلت عنان القول في الجروح العادي والقول المصمى ، وفي حقل الهجاء ، ونظم الشعراء الجاهليين مياسم طائشة ومواسم سوداء قائمة ، حتى إذا أشرقت دعوة الإسلام ، ولما طلع الرسول على العالم بأدب القول والإحسان في الخصومة ، توارت نار العداوة القاسية في الصورة الفنية البيانية شيئاً ولم تخرج على الناس في ثوبها البشع .

ولما اتسعت وطنيات الإسلام ، وتوزعت الأقليمة الأدبية ، وقامت الدولات وتداخلت العناصر العربية وغير العربية ، وتلونت القرائح ، ومصرت الأمصار وتباعدت الأقطار ، وغلت مراحل الخصومات السياسية ، وتناطحت الآراء واختلفت المذاهب ، وعرفت الأفلام طريقها في مرق الرقاع ووجوه الصحف وأطواء الكتب وأجنحة القرايطيس : انتفضت الأقلام وتمردت ، وانغمست في حابر من الدماء ، وولغت في مسایل أُجرت بها ببياناً قاسياً ، وفنناً قاتلاً كاد يغطي على ما جاء في شعر الهجاء ، وما روى من نقائص الشعراء .

وساعد على هذا اللون صراع الدولة الأموية مع دعاة العباسية ، ثم قوى هذا الفن ما جدد في نخوة الدولة العباسية من سطوة الموالي وتمسكهم من قسمة الحكم والحجاية والسبق في ميادين العلوم والفنون . وإلى جانب هذا ما نشأت الحضارة من عبقريات نستشهد فيها بابن المقفع ، والجاحظ ، والصابي ، والحريري ، وابن أبي الحديد ، والقاضي الفاضل ، وكتاب مدرسته الصنع والمتصنعين .

* * *

ولست من الذين يضيقون بالثرات الذي خلفته المعارك البيانية ، لأنني أجد فيه قوة - إن سودها الغضب - فقد يشفع لها عندي متانة الأداء ، وصرامة الجلال وأصابة الهدف ، وتسديد الضربة ، وصدق القول أحيانا ، ومن وراء ذلك رسم معالم لنفس المتخاصمين والمتطاحنين قد لا نجده عند المداحين والمطربين بالحق والباطل . فالقارىء في رسائل المدح والشكر ، يجد مع البيان ملقا يزداد ثم يزداد حتى ليكد يصرفك عن التمزج بمتعة الإجادة الفنية ، ولكن الجاحظ مثلا حين يصور البخل ، والصابي حين يصف من يغدر بعد وفاء ، والحريري حين يرصع في الاشياء تلمس من وراء حرارة الصدق ما منيت به الإنسانية - ولا تزال - في نفوس تعرفها بسيماها من شر قابع في طواياها ، وغدر نابت في حناياها .

ولولا شكية الادباء ، وشككات أقلامهم . ولولا صحائفهم المصورة لتلك الطباع لضاعت معالم نجد لها في حياتنا المحدثه أشباها وأمثالا حية تجرى بيننا ولا توصف إلا بسحر البيان الماضى . في مثله ، وفي قصته ، وفي جملته البليغ ، وسبعته الموفقة ، ولذعته الساخرة ، وتعريضته المفصحة ، ووصته السارية ، وملحته التالدة ودعابته الشاقة .

ولأنك أيها القارىء لو اجد في كتب الرسائل والمحاضرات ، ومفردات النقد وبجاميع المحاسن والمساوىء والمكافآت والمقامات ، حيوات كاشفة عن الاتجاه الذى نذهب إليه وترتضيه من الادباء الذين عاشوا في حرب قلبية ، وأفنوا أعمارهم في ميادين الصراع السياسى والادبى ، وصدقونا ما وجدوا من متاعب ومصاعب وصارحونا حين لم يسكتهم سلطان الحاكم عن أناس تحكمت فيهم شهوة الطغيان وأطربهم سخار الانانية ، وأعماهم بريق المال ، وتحكم فيهم مارد البخل ، وشيطان

الشَّحْ ، والذي يتمتع في هذا الفن البياني ما صورت الأقلام في كتب الرحلات وما وصفت في طبائع بعض البلدان ، وما كشفت من خصائص الأقاليم ، وما قارنت به بين العواصم ، وما فاخرت به على ألسنة المدن ك بغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وأشبيلية ، و غرناطة . وأمتع ما يتمتع ما جاء في كتب الاندلسيين من مفاخرات بين مدائنهم . وقد تعرض فن القلم في هذا الميدان للأفراد والجماعات وتعدى الطبيعة إلى الحيوانات فضلا عن الدويلات وخلافها ، والممالك وساستها . وإنني لذا كر مثلاً موجزها ، ونفقا تشير إلى الخصائص والطرائف ويكفي منها الإيثار . روت كتب الأدب فيما أجمع الناس عاينه من بخل أهل (مرو) : إن تمامه ابن أشرس . قال :

« ما رأيت الديك قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاج وينثر الحب إليها ويلطف بها ، إلا في (مرو) فإنني رأيته يأكل وحده ، فعلت أن لوهمهم في المأكول ، . ومن رسالة « للبديع الهمداني ، يذم والياً فاشلاً في عمله : « إنما جره له الحبل ليصفع كما صفع من قبل ، وستعود تلك الحالة لحالة ، وتقلب تلك الحبل حباله ، إلى أن يقول : (ماذا ؟ أليس ما سلب أكثر مما أعطى ، وما حرم أفضل مما أوى وما عدم أوفر مما غنم) ، وما كتبه (بشر البلوى) في تصوير بعض الناس :

« أما بعد ، فإن من الناس من تحمل حاجته أهون من خش طلبه ، ومنهم من حل عداوته أخف من ثقل صداقته ، ومنهم من إفراط لا تمته أحسن من قدر مدحته ، وإن الله خلق (فلانا) ليغم الدنيا ويقدر به أهلها . . . فاسأل الذي فتن الأرض بحياته ، وغم أهلها ببقائه ، أن يدل بطنها من ظهرها ، .

* * *

ولا أريد أن أطيل في الاستشهاد ، فإن للشعراء والبُلغاء في الذم والهجاء نظماً ونثراً ما تضيق به الصحائف ، ولكننا لانكش في أن في الناس من يستحق الإهراق بالوسمات الأدبية القاسية ، ومن هؤلاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأراذل والاندال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطامه ودناره .

ومن أوجز ما قاله أديب أعرابي في وصف أقوام دهم أقل الناس ذنباً

الى أعدائهم، وأكثرهم تجرما على أصدقائهم، يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء، .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب في بنى سعيد بن مسلم بن فتيبة : « محاسنهم مساوية السفلى ، ومساوئهم فضائح الأمم ، والسفهم معقودة بالعى ، وأيديهم معقولة بالبخل ، وأعراضهم أعراض الذم ، فهم كما قيل .

لا يكثرون وإن طالت حياتهم ولا تنبذ مخازيهم وإن بادوا ، وقد لا يكون الكاتب صادقا في حملته ، ولكنه فيما يصور لا يعدم أن تكون ضرباته قيما توجه واجدة من تنزل عليهم صادقة واصفة مفصحة .

وانى لمنه الاستشهاد بصنيع الجاحظ في بخلائه حين وصف صد يقاله فقال . ولا تقولوا الآن : « قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه وأى الرجال المذهب .

هذا والله الشيعون ، والتبوع ، والبذاء وقلة الوفاء .

اعلموا أنى لم ألتبس بهذه الأحاديث عنه الا موافقته ، وطلب رضاه ومحبة ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكينا من كمانه وذلك أن أحب الأصحاب اليه أبلغهم قولا في آياس الناس عما قبله ، وأجودهم حسما لأسباب الطمع في ماله... الى أن يقول : لأن شهرته بالتقييح عند نفسه في هذا الاقليم قد أغنته عن التنويه والتنبيه على مذهبه . وكيف وهو يرى أن سهل بن هرون واسماعيل بن غزوان كانا من المسرفين ، وأن الثورى والسكندى يستوجبان الحجر ؛ وبلغنى أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله إلا أنه لم يبتلهم النفقة ، ولا بقول العيال : هات ، لعرفتم حالتهم ومنزلتهم) .

ومهما يكن ، فإن الادب الذى حمل أثر تلك الجراحات القلمية يستحق الدراسة النفسية ، والصيرفة البلاغية ، والمقارنات التاريخية ، والاستقصاءات لا العجالات المسرعة ، والخطرات الطائرة ، والنغبات الخاطفة وإنها لجراحات لا ينضب لها معين :

جراحات السنان لها الثمام ولا يلتام ما جرح اللسان

آراء في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم ففاهي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

عنى العلماء من قديم بالتأليف في إعجاز القرآن الكريم . ومن أشهر هذه المؤلفات :

١ — إعجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ولعل الذى دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ . وقد كشف فيه الجاحظ عن أمرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وبيان الفصيح المأثور .

٣ — إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى عام ٣٠٦ هـ ؛ وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه المعتضد وشرحاً آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ

٥ — كتاب إعجاز القرآن للرماني م ٣٨٣ هـ ، وكذلك للإمام الخطابي م ٣٨٨ هـ ، وكذلك للإمام القاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلاني م ٤٠٣ هـ .

٦ — دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ .

٧ — كما ألف في الإعجاز نحر الدين الرازى م ٦٠٦ هـ ، وابن أبى الاصبع م ٦٥٤ هـ ، والزميلكاني م ٧٢٧ هـ ، والرافعى المتوفى عام ١٩٣٦ م

- ٢ -

كان الجعد بن درهم في عصر بني أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة ^(١) ، وجاء بعده أبو إسحاق إبراهيم النظام المعتزلي المشهور فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويروى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلية .

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة وخصائصه البيانية الرائعة ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة ؛ فالقرآن في الذروة من البلاغة ، وفي القمة من الإعجاز ، وقد تحدوا به فلم يقدرُوا ، وسُجِّل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز الذي دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، وأرجعه إلى خصائص النظم العربي ودقائقه ، وما تجد ^(٢) بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من الوصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يجر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إسمكان وكما يقول عبد القاهر أيضاً : ^(٣) أعجزتهم مزايًا ظهرت لهم في نظمهم ، وخصائص صادفوها في سياق لفظهم ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرم أنهم تأملوه

(١) سنعود إن شاء الله إلى هذا الرأي بالبحث والنقد وإقامة الأدلة على بطلانه .

(٢) ص ٦ المدخل إلى دلائل الإعجاز من الطبقة الثانية .

(٣) ص ٣٢ دلائل الإعجاز .

سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها بل وجدوا أساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور . .

أما القاضي الباقلاني فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة : ما في القرآن من الأخبار عن الغيب مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ؛ وما فيه من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول الظاهرة ؛ ونظم القرآن الكريم وعجيب تأليفه ، وتباهيه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه . وقد شرح الباقلاني وجوه الإعجاز في نظم القرآن الكريم : وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، في كتابه المشهور « إعجاز القرآن الكريم » ، الذي قال فيه ابن العربي : لم يصنف كتاب مثله :

وتحدث القاضي عياض في كتابه « الشفاء » عن إعجاز القرآن الكريم وأرجعه إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتأم كله ، وفصاحته ، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة ، وثانيها صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لاساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ما انطوى عليه من الأخبار بالمخبيات ، ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة ^(١) . .

ومن العلماء من يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعارف لم يحيط بها أحد من علماء الأمم ، وما حواه من أخبار الأولى والآخرة ، ومشكلة بعض أجزائه بعضا ، وحسن إئتلاف أنواعها والنظام أقسامها وحسن التلخيص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره . ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفوائد والمقاصد والخواتيم في كل سورة وفي مبادئ الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطي في كتابه «الإتقان» ، لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضاً من آراء العلماء فيه ^(١) .

وأرجع الإمام الرازي الإعجاز إلى : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . وأرجعه الإمام الزمليكانى إلى تأليفه الخاص به .

وقال ابن حازم في «منهاج البلغاء» : «وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاء في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ، لا يقدر عليه أحد من البشر» .

وقال الإمام الخطاطي : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ثم قال : حتى لا ترى شيئاً من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذى لب يشهد له بالتقدم في أبوابه ، والترقى إلى أعلى درجاته .

إلى ما سوى ذلك من الآراء في إعجاز القرآن الكريم ، والتي تشعبت كلها ، ثم تلاقت في موجة ، في بحر لجى زاخر ، هو دون القرآن الكريم في روعته وجلاله ، ودون إعجازه العظيم في سره وسحره وعظمته . ولقد مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ؛ وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بظائل : فبعض جعل وجوه الإعجاز في ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ، ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطقي والأسلوب العلي . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

— ٣ —

وهذا كله على أى حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم في فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

ونحن نعود بالقارىء إلى فطرته الأدبية وحدها ، فنطالها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز .

(١) ص ١١٨ ج ٢ الإتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، وما بعدها .

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف في شرائع الإنسانية ، وأروع كتاب أثر في تاريخ البلاغة الأدبية : ودعى العرب إلى الإيمان برسالته ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم في فن البيان ، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً . ثم مضت الاجيال ، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان . ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سورته . ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة بمتعة ، لبعد ما يفنه وبين سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض : فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة : ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

— ٤ —

وبعد . فإننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم تتجلى فيما يلي :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث ؛ ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ؛ ثم هي للآن ، وبعد مضي أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال في أول الغاية ، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكناياته وتشبيهاته وأمثاله ، وحكمته وإعجازه وبجازه ، فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي والبياني في القرآن الكريم .

٢ — روعة القرآن وجودته ، وأخذه بالافتدة والاسماع والمشاعر والعواطف والنفوس .

٣ — عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ولتنفس البشرية في سلمها وحربها ، ولهوها وجدها ، وأملها وألمها ، وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا في الحياة المهذبة الكريمة التي يعمل لها الإنسان وتسير لشاغلها الأمين الإنسانية .

٤ — سمو الروح في القرآن الكريم : فهو ليس كتاب قصص أو تسليية ، أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع . وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من نفاقة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجددنا أن نقول : إنه كتاب الإنسانية كافة .

٥ — جلال أثره الأدبي في لغة العرب وأدبهم . وفي حياتهم ، وفي حياة المسلمين والعالم .

٦ — خلوده على مر الأيام والامكنة والعصور ، وبجز الناس عن معارضته مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ — بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته .

٨ — شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته وعمق منزعه ، وعلو تصويره .

٩ — والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعة مراميه ومناحيه ، وعبقريه غاياته ورسائله ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء والحق والعدالة ، والحرية والمساواة بين الناس ؛ وصدق الله العظيم حين يقول : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا ،

ولنا هودة إلى هذا الموضوع إن شاء الله ، وما توفيقي إلا بالله ؟

الشَّهَادَةُ

للمؤلف: أستاذ إبراهيم عمار

مراقب بالأزهر

من يوم أن اختفى عن الوجود صوت حافظ وشوقي ، والشعرُ العربي يُعاني أزمة عاتبة ، قد مُج لها صوته ، وخبا ضوءه ، ولم يعد يُسمع إلا كأنة المصدور .

وقد كان العهدُ به أنه الصوت المدوي الذي يسجل الأحداث ، ويسبق الزمن في رسم الخطط ، وتحديد الأهداف ، ويحفز الأمة إلى نيل حقها المنصوب وينير لها طريق الخلود ، ويذهبها إلى حياة أخلاقها وعاداتها ونهضاتها بسياج من الخلق والطموح والدين . كل ذلك وغيره في أدب تهفو له النفس ، وأسلوب تصبو إليه القلوب والعقول .

ومن عجب أن يكون هذا في وقت لم يتم للأمة نُضجها . ولم يتكامل وعيها ، ولم ينتشر التعليم في بنيتها ، ولم تُعم ثقافة الغرب ولم تتعدد البعثات ، ولم ترج الصحف ، ولم ترق وسائل المدينية ولم يرتبط العالم برباط المؤسسات ، وعقد المؤتمرات .

أجل ولم تسكن الفتاة إلا كما مهملا ، لم تدخل مدرسة ، ولم تقرأ كتابا ، ولم تغش النوادي ، وكان دون دخولها الجامعة خرط القتاد . . . ولم تُسد في الناس حالة الشك في كل شيء ولا شيء : شك في العقائد والعادات ، وشك في الهدوء والاستقرار ، وشك في الأمن وفي السلام ، وشك في أى النظم خير لبنى الإنسان .

فما بالنا اليوم نتفقد الشاعر فلا نجدده ؟ وإذا وُجد فلغته متخاذلة ، وخياله ذابل ، وهما نيه متداعية من الأعياء والانحطاط .

يقول أولو الرأي الثقات : إن سبب رقي الأدب بنوعيه « الشعر والنثر » ، ينحصر في ثلاثة :

١ — صلاحية البيئة .

٢ — انتشار الثقافة .

٣ — الحكم الديمقراطي .

وقد اكتملت لامتنا بفضل الله هذه الخلال ، ومع ذلك فقد هزل الشعر ، أو هو على وشك الزوال .

فهل من سبب لذلك ؟ .

قد يكون سببه أن ناشئتنا لا يجدون في برامج التعليم المنهل العذب الذي يروى ظمأهم ويحببهم في الشعر .

فليس هناك درس لانشاده ، ولا جائزة للتفوق فيه ، ولا عقاب ينال من لم يحفظ منه شيئاً ، ولا تقدير لمن يمارسه أو يحاول التبريز فيه .

وقد يكون أن الصحف والمجلات - وما أكرها - لا تفرد صفحة واحدة لانشاد الشعر والتفنن به ، فكانت نتيجة ذلك أن تبورى في النثر حتى بلغ الذروة أو قارب ، وطرح الشعر جانبا .

وقد يكون أن الأدباء أرادوا أن يسدوا النقص في الأدب العربي ، ويدروا عنه ما علق به ، فأقبلوا على « القصة » ، يتنافسون ويتبارون فيها ، وانتصر لهم أصحاب الصحف والمجلات وصادف ذلك هوى لدى كبار الكتّاب ، فعالجوها في بيان محكم واتقان بديع .

وقد يكون أن المجتمع المصري لا يعنى به في قليل ولا كثير : فلغة المحاضرات

والحوار في المنتديات ، والخطب في المناسبات ، تنثر كلها ، حتى في حفلات الرثاء والتأبين لا تكون نسبة الشعر لما يُلقى فيها إلا كنسبة الواحد للثمات .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، عاملاً قوياً من عوامل نفور المتعلمين من الشعر ، ورغبتهم عنه ، وانصرافهم إلى النثر يؤدونه كأحكم ما يكون الأداء ، ويتقنونه كأحسن ما يكون الاتقان .

وهكذا خلا مكان الشعر أو كاد ، وأصبحنا نعيش على الماضي وذكراه ، اللهم إلا من نفر يدعونه ويصطنعونه .

أنا لا أنكر أن الشاعرية هبة من عند الله ، ولكنها موهبة تذكو بالعمل ، وتنمو بالتعمد ، وتؤتي ثمارها في ظل الرعاية والتشجيع .

والآن وقد أتاح الله للغة العربية وللأزهر المعمور شيخاً ضليعاً ومصلحاً فذا خبيراً بشؤوننا العلمية والعقلية ومقوماتها فأنا نرتقب علاجه لهذه الحالة في لطفة واطمئنان ، ولا سيما وقد وثق نفسه بعهد أذاهه على رجال الصحف والمجلات ، في أوائل هذا الشهر ، بأنه سيعمل على تهذيب الكتب ، وتنقيح البراج ؛ ويعد بأنه سيمنح جائزة للمتفوقين في اللغة العربية .

فلعل ناشئة الأزهر تقدر هذه الرغبة ، وتقبل على رياض الشعر فتجنى أطيب ثماره ، وتستوحيه ألوان القول فتمضى به قدماً إلى أبعد غاياته ، وتسمو به إلى أرفع درجاته ، مضمنة إياه معاني تغذى العقول وتؤثر في النفوس .

ولعل معالي وزير المعارف وهو عميد الأدب وزعيم المتأدبين يهب تدهور الشعر قبساً من تفكيره العميق الدقيق ، وخبرته الطويلة واقتداره على التنفيذ فإذا المتروك مألوف ، وإذا المسكروه محبوب ، وإذا شباب الأمة مقبلون على الشعر يتذوقونه ، وعلى قوله يجيدونه .

لفتة من لفتاتك يا معالي الوزير الجريئة الخيرة تعيد للشعر مكانه ، وتزيل عن الأدب عابه ، وترفع اللغة رأسها ، والأمة صوتها ، وتجعلك في عداد المجددين الخالدين .

الأفضل بن بدران الجمالي

مؤسّس مدرسة عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

رأينا في مقالنا السابق ، كيف استطاع الأفضل ، أن يرفع المستعلى ، إلى عرش الخلافة ، بعد أن قضى على نزار وحركته ، وقد كانت فرقة النزارية ، إحدى النتائج التي تمخضت عنها هذه الحركة . وسأعرض لهذه الفرقة في إيجاز .

قدم مصر عام ٤٧٩ هـ حسن بن الصباح ، رئيس الاسماعيليين ، واجتمع بالخليفة ، المستنصر الفاطمي ، ، وتكفل بنشر الدعوة له في خراسان ، فأمدّه الخليفة بالمال ، وسأله ابن الصباح ، عن الخليفة من بعده فقال : ولدي نزار . وأقام ابن الصباح ، بمصر ثمانية عشر شهراً ، رحل بعدها إلى بلاد العجم ، حيث جد في نشر دعوته ، وبث تعاليمه ، حتى كثر أشياعه ، وأخذ يجمع السلاح سراً ، ولما قويت شوكرته ، استولى على قلعة الموت Castle of almut ، من ملوك الديلم ، وجعلها مركزاً لبث دعوته الاسماعيلية ، ثم استولى بعد ذلك ، على قلعتي الدروخان ، ومن قلعة الموت أرسل دعاته ورسله إلى مختلف الجهات ، وأخذ يلقى على العلماء مسائل ، منها : لم كانت الايام سبعة ؟ والبروج اثني عشر ؟ ، وادعى أنه استأثر من إمامه بغوامض العلوم ، وكثر اغتياله للملوك والرؤساء ، وجاء الامام د أبو حامد الغزالي ، إلى نيسابور ، حيث ناظر أتباع ابن الصباح ، وألف كتابه ، المستظهرى ، ، وأجاب عن مسائلهم . وسميت فرقة ابن الصباح هذه ، بادئ الأمر ، بالاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، ، جد الفاطميين الأكبر ، وتحت هذه التسمية خدمت طائفة الاسماعيليين الفاطميين خارج مصر ، ودعوا إليهم . وبعد مقتل نزار على النحو الذي أشرنا إليه ، سميت هذه الطائفة باسم النزارية ، نسبة الى نزار ، الذي نص الامام المستنصر على خلافته ، من بعده ، وهم يعتقدون أن نزاراً لا محالة ظاهر على وجه الارض مرة

أخرى وتحت هذه التسمية ، خدم النزاريون حزمهم ، وانفصلوا عن الفاطميين بمصر ، بل وعملوا على مناورتهم على نحو ما ذكرناه . وسميت هذه الطائفة أخيراً بالحشاشين ، ، إما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش *consommateurs de hachich* ، أو لأنهم كانوا يقومون بأعمال لا يأتها إلا الحشاشون ، فأطلق عليهم هذا الاسم تجوزاً ، وكانت لهذه الطائفة نظم تشبه نظم الطائفة الاسماعيلية عامة ، ولكنها تختلف عنها في التفاصيل . وهكذا كان نشوء فرقة النزارية ، من الظواهر العامة التي يتميز بها عهد الأفضل .

قضى المستعلي في ١٦ صفر سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، وتولى الأفضل أخذ البيعة الآمرية ، وخلف المستعلي ثلاثة أولاد هم : أبو علي ، ونعت بالآمر ، وجعفر وعبد الصمد ، وكان عمر الأمر يوم تولى الخلافة ، خمس سنوات وشهراً وأربعة أيام ، ولم يستطع الخليفة الطفل أن يعتدل على فرسه يومذاك ، فأجلسه الأفضل أمامه ، على فرسه ، وطاف به القاهرة على هذه الحال .

وللقارئ أن يتصور مدى السلطة التي كانت للأفضل أيام هذا الخليفة ، فلما كبر ، واشتد ساعده ، أحس بثقل يد الأفضل عليه ، ففكر في التخلص منه ، وفعلاً تم له ما أراد على نحو ما سنذكره .

وكان للأفضل سياسة داخلية واضحة ، فقد بنى دار الوزارة الكبرى ، ، التي يقول ابن عبد الظاهر ، إنها من بناء أبيه بدر ، ولكن كتب ابتاعيات الأملاك القديمة التي بتلك الخطة تدل على أنها من عمارة الأفضل ، وكانت هذه الدار طوال العهد الفاطمي ، مقر الوزراء ، ثم أصبحت بعد ذلك مقر الملوك ، وصار يطلق عليها الدار السلطانية . كذلك بنى الأفضل دمرصداً ، بسبب الاختلاف بين التقاويم الشامية والمصرية كل عام ، كما أمر ببناء خليج تسميه العامة دبحر أبي المنجاء ، نسبة إلى أبي المنجاء بن شعيب ، اليهودي الذي قام بحفره . كما بنى في عهده كثير من الجوامع والمساجد ، منها جامع القبيلة والمسجد الجيوشي ، وبنى المئذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص ، والمئذنة السعيدية المستجدة به أيضاً ، وبنى جامع الجزيرة كذلك . وجدد الأفضل عام ٥٠١ هـ ديواناً أسماه ديوان التحقيق ، أقام عليه دأبا البركات بن الليث النصراني .

وأنشأ الأفضل كثيراً من البساتين والحدائق . وكان من أهم التنظيمات التي أحدثها الأفضل نظام خيالة أطلق عليه Squires of the chamber .

وكان على هؤلاء الفرسان تنفيذ أوامره دون اعتراض ، فهم يشبهون عندنا اليوم ما نسميه بالفرق الفدائية . ويقص هليتا الأستاذ Hanotaux في كتابه *Egyptienme Histoire de la Nation* ، جزء ٤ ص ٢٦٧ طائفة أخرى من إصلاحات الأفضل . فيقول إنه بظهور الأفضل على مسرح التاريخ الفاطمي ، ابتدأت سلسلة متصلة من الإصلاحات المالية ، فقد غير من قيمة القطع النقدية ، كما وضع نظاماً لتولى الخلافة في حالة عدم وجود وريث ، كما أنشأ مجلساً للعددين ، ونتج عن إصلاحات الأفضل ، رخاء شامل ، وأضحى ناتج الضرائب ضعف ما كان عليه أيام أبيه ، وليس هذا نتيجة لتعسف أو نحوه ، وإنما بسبب الإصلاح الذي عم مرافق البلاد جميعاً . كذلك يجب أن نقرر أن ازدهار البلاط الفاطمي لم يكن مرجعه إلى الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً إلى وزراءهم الأكفاء الأقوياء الأثرياء .

أما عن سياسة الأفضل الخارجية ، فتتلخص في استرداد الممتلكات الفاطمية التي التهمتها دولة الأرتقيين ، وهي بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا ، وكانت دولة السلاجقة إذ ذاك بالقسم الشرقي من سوريا . كما كانت هذه القوى التي تنتظم الشرق الأدنى على شيء كثير من التفكك والانحلال ، مما مهد السبيل أمام الصليبيين إلى لقمة سائغة . ويجب أن نقرر هنا أن حملة الأفضل التي شنها على « سبكان » الأرتقي سنة ٤٩٠ هـ ، وانتزع بها بيت المقدس من يديه ، كانت في الواقع خطوة خطاها في صالح الصليبيين ، إذ بها أزال عقبة كثودا من سبيلهم ، ولقد تحمل السلاجقة الدقة الصليبية الأولى ، فذهبت امبراطوريتهم مع الريح ، وأضحى الشرق الأدنى كله تحت رحمة الصليبيين ، لما شاع بين دوله من التفكك والانحلال . ولقد عقد الأفضل مع الصليبيين معاهدة ذهبت المصادر في تحليلها مذاهب شتى ، فابن الأثير يقول إن الأفضل عمد إلى مخالفة الصليبيين خوفاً من قوة السلاجقة ، ويقول الأستاذ Hanotaux إن الأفضل قد توخى بذلك وجه الحكمة . « أما الأستاذ ستانلى ل. بول Stanley L. Poole ، فينقل عن كتاب Cp. Aist. Occ. der Croisades Iv. 48,78 تعليلاً ،

لا أراه من العقل في شيء ، إذ يقول : إن الأفضل ربما يكون قد اتنوى التحول إلى المسيحية ، وذلك ينتقضه ما نعرف عن عقيدة الأفضل ، ومواقفه الدينية المشهورة ويقولون كذلك إن الغطاء التي اقترفها الصليبيون قد خوفت الوزير المصري .

غير أن هذه المعاهدة الوهمية ، لم توقف الصليبيين عند حد ، إذ لم تمس الدافع الذي حرك الفرنجة من بلادهم ، وهو التعصب الديني الأعمى . والمهم هو أن الصليبيين اكتسحوا الشرق الأدنى ، وأشبعوا أهله تقتيلاً ، ودياره نهباً وتخريباً ، وكانت السياسة الدفاعية هي المسيطرة على الموقف حتى آخر الخلافة الفاطمية ، ويميل مؤرخو العرب إلى انتقاد سياسة الأفضل الخارجية من هذه الناحية .

ويحسن في ختام حديثنا عن الأفضل ، أن نلم بشيء من أخلاقه وصفاته ، كان الأفضل مكرماً لأهل العلم والأدب ، وكان هو نفسه شاعراً وأديباً ، وخلف مكتبة تحوى خمسة آلاف مجلد ، وصارت مصر مقصد الطامعين في جوده من الشعراء والأدباء . وكان شديد الغيرة على نسائه .

وكان الأفضل يميل ميل السنين ، فألقى الاحتفال بالموالد الأربعة : مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة رضي الله عنها ، ومولد سيدنا علي رضي الله عنه ، ومولد الإمام الخليفة القائم بالامر ، وكان ذلك في الواقع كافياً لتقويض دعائم الحكم الفاطمي ، كما كان ذلك أيضاً سبباً في كراهية الزاريين له ، وقد يكون ميله السني أحد العوامل التي أطاحت بحياته . كان الأفضل ثابت العقيدة راسخ الإيمان ، عادلاً ، حسن السيرة : حكى أنه لما قتل ، وظهر الظلم بعده ، اجتمع جماعة من الناس ، واستغاثوا بالخليفة ، ولعنوا الأفضل ، فسأهم الخليفة عن سبب لعنهم إياه فقالوا : إنه عدل وأحسن السيرة ، فغادرنا بلادنا وأوطاننا ، وقصدنا بلدك لعدله وأصابتنا بعده هذا الظلم ، فهو كان السبب في ظلمنا ، فأحسن الخليفة إليهم . وكان الأفضل كذلك لخل الرأي حسن التدبير ، معتزلاً بنفسه .

وقد ترك الأفضل ثروة ، أفاضت المصادر في عدها وحصرها ، حتى بالغت إلى حد كبير ، ولكنها تنبئنا على أي حال ، بما كان لذلك الوزير ، من سلطة مطلقة لاتحد . قضى الأفضل مقتولاً : قيل بتدبير من الطائفة البديعية التي ضيق عليها الأفضل في حياته ، وقيل - وهو الأرجح - بتدبير من الخليفة الأمر ، لتضييقه عليه ، وتدخله في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة .

الخليفة العباسي في القاهرة

للمستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

المعروف أن الظاهر بيبرس هو الذي فكر في اجتذاب الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد أن نزلت بها كارثة المغول ببغداد ، والمعروف أيضاً أن نجاحه في ذلك المشروع قد أقال الخلافة من عثرتها ، غير أنه من الحق أن يعلم أن بيبرس ليس أول من فكر في ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر الإسلامية ، وإنما هو الذي تولى تحقيقه بنجاح ، فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر كأمم أراد بذلك أن يلبس دولته الجديدة ثوباً شرعياً أو أنه كان يفكر في وسيلة ينتقم بها من الموفق ، فجاءت هذه الوسيلة خبط عشواء في إقامة الخلافة بمصر .

ولقد فكر محمد بن الإخشيد في ذلك حينما ذهب إلى الشام سنة ٩٩٤ ميلادية لإغاثة الخليفة المنفي .

ثم إنه لما وجد أمراء المماليك البحرية أن السلطة أصبحت في أيديهم بعد قتل المعظم توران شاه رأوا أن يوطدوا أركان دولتهم بموافقة الخليفة العباسي .

ولقد فعل ذلك أمراء المماليك عندما أعلنوا سلطة شجرة الدر ، وأرسلوا إلى بغداد يلتمسون الموافقة من الخليفة على ذلك السلطان ثم خلعوا السلطانة الماهرة تحت تأثير ما وصلهم من عدم رضا الخليفة .

ثم إن المعز أيبك لجأ للخلافة العباسية في الشهور الأولى من سلطنته ، ثم حدث أن تمزقت الخلافة العباسية بسقوط بغداد في يد هولاكو وقتل الخليفة وولده وأكابر بغداد .

ومن المحتمل أن معظم أبناء البيت العباسي قد قتلوا أثناء تلك الكارثة ، وقد فر من أبناء البيت العباسي ومن رجاله كل من استطاع إلى الفرار سبيلا

وربما كان معظم أولئك الذين استطاعوا الفرار من الابعدين في البيت العباسي وليسوا من القرييين في سلسلة الخلفاء .

ومهما يكن ، فقد غيرت هذه الحادثة من سياسة المماليك نحو الخلافة ، فعملوا بعد سقوط بغداد على اجتذاب الفارين من أبناء البيت العباسي وغيرهم إلى القاهرة .

والراجح أن السلطان قطز كان يفكر في أكثر من هذا ، وهو إما كان إعادة الخلافة إلى بغداد ، والدليل على ذلك أنه استدعى إلى دمشق بعد نصره العظيم في واقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ميلادية أحد أبناء البيت العباسي بالشام ، واسمه أبو العباس أحمد ، وبايعه بالخلافة وزوده بالجند ، ورجع هذا الخليفة من عند قطز إلى العراق وانتصر فيها على شرذمة من التتر وافتتح الأنبار وغيرها - ثم حدث أن اغتيل قطز فأرسل السلطان الجديد وهو بيبرس إلى أبي العباس أحمد يستدعيه إلى القاهرة ، غير أن أبا العباس كان قليل الحظ تلك المرة إذ أن سليلا آخر من أبناء البيت العباسي واسمه أبو القاسم كان قد سبقه إلى بيبرس - ولابد أنه أعلن أولويته وجدارته لمنصب الخلافة .

لإزاء هذا السباق بين هذين العباسيين فضل أبو العباس الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها شمس الدين أقوش ، وكان خارجاً عن طاعة بيبرس ، وقد بايع الخليفة أيضاً كثير من زعماء حلب - ثم أخذ أبو العباس يعد مشروع العودة إلى العراق وقصد بما اجتمع إليه من أمداد زوده بها أمير حلب إلى مناوشة التتر مرة أخرى ، وأقام هناك .

أما أبو القاسم فقد وصل إلى القاهرة ، وتلقاه بيبرس وأنزله بقلعة الجبل ، وبالغ في إكرامه وأحضر العربان للتعرف عليه وإعلان تسلسله من العباسيين وعقد مجلس عام أعلن فيه أن الأمير أبو القاسم ابن الخليفة الظاهر العباسي وبويع أبو القاسم بالخلافة ، كما بايع أبو القاسم السلطان بيبرس ، بأن يكون سلطاناً على البلاد الإسلامية وما يضاف إليها . ثم كتب بيبرس في نفس اليوم إلى الملوك والنواب في سائر الممالك ، بأن يأخذوا البيعة على أنفسهم وعلى من قبلهم للخليفة

الجديد ، وأن يدعى للسلطان بعد الخليفة ، وأن تنقش النقود باسمهما - وأخذ بيبرس يحجز الخليفة بالجيوش لاسترجاع الخلافة إليه .

ويقال إن ما أنفقه بيبرس لا يقل عن مائون دينار . وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق ، وفي عزمه أن يكون عدد الجيش الخلفي ١٠ آلاف فارس من عنده - غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان بدمشق أن الخليفة إذا استقر ببغداد نازع دولة المماليك وأخرجهم من مصر ، فأوجس بيبرس خيفة ولم يحجز الخليفة بأكثر من ٣٠٠ فارس ، وسار الخليفة بهذا العدد إلى العراق حيث انضم إليه ٤٠٠ فارس من عرب العراق الذين كان قد لجأ إليهم في أول أمره ، كما لحق به أعداد من حماة والموصل ، وتقدم الخليفة بهذا العدد القليل إلى مشهد على أطراف العراق حيث وجد منافسه أبا العباس أحمد في ٧٠٠ فارس من التركمان ، فانفقا على اجتماع الكلمة لإقامة الدولة العباسية ، وتقدما معاً شطر بغداد يريدان محاربة التتر ، وبالقرب من بلدة هيت إلتقى التتر بالعباسيين ، وكان أمراً مقصياً إذ غلب ذلك الجيش ، وفقى معظمه ، ولم يفلت سوى أبي العباس ، أما الخليفة المنكود فلم يعرف عنه خبر .

وسواء أُرسل الظاهر بيبرس يستدعى أبا العباس إلى القاهرة أم لم يرسل ، فإن المعروف أن هذا الأمير العباسي وصل إلى دمشق بعد واقعة هيت بشهر فقط ، وخرج منها إلى مصر ، واحتفل به بيبرس وأنزله في قلعة الجبل ، كما فعل مع الخليفة أبي القاسم .

على أن السلطان بدأ يفكر في إقامة الخلافة العباسية في مصر وأنه ترك فكرة إقامتها ببغداد — ثم أخذ بيبرس يعمل لمبايعة أبي العباس بالخلافة كما فعل مع منافسه السابق ، فقضى نسب أبي العباس على الناس بعد ما ثبت عند قاضي القضاة ولقب بالحاكم بأمر الله وبايعه السلطان بذلك ، ثم أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد الإسلامية وخطب للخليفة الثاني على منابر القاهرة ودمشق ومكة والمدينة .

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، وأراد بيبرس هذه المرة أن يكون الخليفة تحت عينه بالقاهرة — ولم يرد بيبرس بذلك أن يخلق

في عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته، بل أراد أن يكون الخليفة سلطة نافعة فحسب يستمد منها ما يحتاج إليه من الحماية الروحية والمركز الشرعى، ويدل على ذلك أن السلطان لم يأمر تلك المرة أن يكتب اسم الخليفة على السكة وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة الذى عرف فيما بعد ببرج الخليفة — ولم يترك له غير الدعاء فى الخطبة .

على ذلك لم تسكسب الخلافة العباسية إلا كسباً زائفاً، إذ كان سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت يفرضون لأنفسهم — حتى الفتح العثمانى — مركزاً ممتازاً بحجة أنهم حماة الخلافة، وصارت القاهرة مركز العالم الإسلامى وذلك فوق مركزها التجارى .

واستمرت الخلافة العباسية فى دولة المماليك قانعة بذلك القسط الطفيف من السلطان والنفوذ، ولم يفكر أحد من الخلفاء فى توسيع نفوذه، بل قنعوا بالتضييقات التى أحدثها قلاوون حين حوِّلت الخلافة إلى قلعة ثانوية بعيدة عن القلعة وهى قلعة السكش بالبغالة الحالية، غير أن الخلافة العباسية بدأت تتحرك فعلاً للانتقام من بيت قلاوون فى أيام الناصر محمد، حينما مالت إلى أحد السلاطين الذين تخللت عهودهم أيام هذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعوقبت الخلافة فى شخص القائم بها بعد عودة الناصر إلى السلطة مرة ثانية فى أوائل القرن ١٤ م .

وبقيت الخلافة على هذا الضعف تحت رقابة دائمة حتى انتهى عصر الناصر محمد فى أواسط القرن ١٤ م، وتولى الدولة المملوكية سلسلة أبناء البيت، القلاوونى وعملت الخلافة العباسية جهدها للانتقام من أبناء هذا البيت، وكان آخرها ما استطاعته من خلع آخر أبناء ذلك البيت من السلطة المملوكية فى أواخر القرن ١٤ م مما أدى إلى انتهاء دولة المماليك الأولى سنة ١٣٨٢ م وقيام الدولة الثانية (المماليك البرجية) .

وحاولت الخلافة فى عهد الدولة الثانية أن تجمع بين السلطة والخلافة معا لكنها فشلت فى ذلك، وبقيت هكذا على حالها من الضيق حتى حدثت لها النقلة الثانية من القاهرة إلى اسطنبول بعد فتح الأتراك العثمانيين لمصر وإزالة الدولة المملوكية بها .

أسلوب الجدل في القرآن

للمؤلف: الشيخ عز الدين اسماعيل

يلاحظ كل من قرأ القرآن الكريم وتدبره ، وعاش معه بعقله وقلبه فترة متطاولة ، أن قواعد الإيمان وأصوله التي هي لباب الدين الخفيف وجوهر الدعوة ، لم تعرض في القرآن بشكل تعقيدى جامد ، يأخذ الناس بالشدة ، ويقسروهم على قبول تلك المبادئ أو الأصول قسراً دون ما إجلالة للفكر ، وإعمال للذهن ، بل على العكس من ذلك تماماً ، إذ هو ينزل بتلك الأصول المقدسة إلى منزلة الأخذ والرد ، أو قل إلى منزلة الجدل والمناقشة .

فوجود الله سبحانه وتعالى ، ووحدانيته ، والحياة الآخرة ، والبعث ، وما شاكل ذلك من تلك الأصول ، نجدها جميعاً تعرض لا بصورة إلزامية وحسب ، ولكنها تعرض في صورة جدلية وأسلوب حجاج لا نقرر جديداً إذا قلنا إنه مفهم ومقنع وبالتالي يكون ملزماً ؛ ولكن الإلزام هنا عن بيّنة وبعد أقناع واقتناع .

ولا نقرر من صفات القرآن جديداً إذا قلنا إن هذا الجدل يعرض على ذهن كل إنسان - مهما اختلف الناس في ثقافتهم بين السذاجة والعمق - فيجد فيه مقنعاً أى مقنع ؛ بل أكثر من هذا ، فظنى أن هذا الجدل لم يكن في صورته المختلفة ليحدث في العقول الاقتناع لحسب ، بل كان يصحبه - وما زال - لون من الإيمان عميق ، نتيجة رضى وارتياح نفسى تحدثهما الحجة وأسلوب الحجة جميعاً . وما وقع لجبير بن مطعم من أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور . فقال : لما بلغ الرسول هذه الآيات : « أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض ، بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك ، أم هم المصيطرون ... » قال : كاد قلبي أن يطير ؛ وذلك أول ما وقر الإسلام

في قلبي ^(١) - فهذا مثل ملموس لما كان يتركه هذا الأسلوب الجدلي في النفوس من أثر، وما كان يحدثه من تعميق الإيمان في القلوب . وإذا كنا لا نستطيع أن نقرر أن عقلية العرب إبان الدعوة كانت آخذة بأسباب الفلسفة والكلام مثلما صارت إليه في العصر العباسي مثلاً ، فإن صور الجدل التي نزل بها القرآن هي الصور التي كانت توائم عقلية العرب التي لم توغل بعد في الفلسفة أو الكلام وإن صلحت فيما بعد لأن تكون مادة طيبة عندما تفلسفت العقول وأخذت بأسباب الكلام . وهنا لا يملك الإنسان إلا أن يشهد ويسجل لوناً من ألوان الإعجاز من رب القوى والقدر . والسيوطي لا يبعد عن هذا حينما يذكر لنزول الجدل بهذه الصورة هذين السببين :

أولاً : بسبب ما قاله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .

ثانياً : إن المائل إلى دقيق الحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن مَنْ استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغصان الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته في حاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة ، ويفهم الخواص من أنبيائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطاب .

والآيات الجدلية في القرآن معنية بجوانب ثلاثة هامة وبارزة ، أولها وجود الله ومعرفته ، وثانيها وحدانيته ، وثالثها الخلق أو الإنشاء والإعادة أو البعث وهذه الجوانب — كما سبقت الإشارة — أصول جوهرية في العقيدة نعرض لها فيما يلي .

أولاً : فيما يختص بمعرفة الله اثبات وجوده تصادفنا تلك الصورة الرمزية الرائعة المتمثلة في قصة إبراهيم عليه السلام ، وإذا قال إبراهيم لآبيه آذرتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملسكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما

أفل قال لئن لم يهتدي ربي لا كونه من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، فهذه الطريقة يرتقى العقل إلى معرفة الله الحق : فلا هو الكوكب ، ولا هو القمر ولا هو الشمس الأكبر ، ولكنه هو الذي فطرهن جميعاً وفطر السماوات والأرض . وفي ذلك تصوير دقيق لاستنباط العقل وجوده الثابت الدائم من المتغير ، الحائل ، وإننا لنقرأ هذه الآيات « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المستخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » فنقرأ فيها الأدلة المسادية والبراهين الملموسة على وجود الخالق المبدع ، وهذا من باب معرفة العلة بطريق المعلول ، « أفى الله شك فاطر السماوات والأرض .

ويهمنا أن هذا الأسلوب السهل البسيط الواضح في التدليل قد انطوى على مادة فلسفية أشعبت عقلية كعقلية ابن رشد بعد ذلك ببضعة قرون ، فاستنبط منها ما سماه دليل الاختراع والخلق ، أى إبداع الأشياء ، ودليل العناية Providence أى خدمة هذه المخلوقات لتحقيق غاية . وعلى هذا الأساس تدبر قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شئ ... » الآية ، وقوله . « راجع سر ٣١ آية ٢٠ ، ٢١ .

ثانياً : وبالمبدأ العلى البسيط يعرف كل إنسان أن لكل موجود موجد ، ولكن لم لا يشترك أكثر من موحد في إيجاد الشئ ؟

الجواب : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على أحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما . وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إمامته فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزئ الفعل إن فرض الاتفاق ، أو لا متناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، وإلا لاله لا يكون

عاجزا^(١) ، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض .

ثالثا : ثم لننظر أخيرا كيف قدم الحجج الباهرة لمن أنكر البعث كالدهر بين القائلين ، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، س ٢٣ آية ٣٧ . لقد دلت سبحانه وتعالى على إعادتهم وبهمهم من جديد بأن الذى يبدأ الخلق فى قدرته أن يعيده ، فهنا تقاس الاعادة على الابتداء كما صور ذلك تعالى فى أول سورة الحجج ، يأبى الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، فى هذه الآيات دليلان ، الأول نجده فى أنفسنا حيث كنا ترابا ثم نصير إلى الموت ، والثانى فى تلك الأرض الهامدة الميتة حتى إذا نزل عليها الماء دبت فيها الحياة وأنبتت نباتا حسنا . وهكذا فى الأرض أدلة وآيات ، وفى أنفسنا أدلة وآيات لا تترك مسرعا للشك ، ولا مجالا للمكابرة . وانظر إلى هذه المقدمات فى سورة ق : ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، ، فهل يخالج نفسك شك فى هذا ؟ فإذا آمنت — وإنك لا تملك إلا أن تؤمن — بهذا ، فكذلك يكون البعث ، أو « كذلك الخروج » ، وعلى هذا النحر تستطيع أن تندبر فى قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ... الخ ، الآيات ، آخر يس .

هذه هى النواحي الثلاث البارزة فى الجدل القرآنى . ولا أحسبك وقد أممرت عليها ذهنك ، ولبثت معها قليلا ، إلا قد أدركت مغزى قول جبير بن مطعم « كاد قلبى أن يطير » ، وأى رفق بالعقول ذلك الذى طالعته فى قوله تعالى :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون ، لقد أخذ بهذه البساطة في الحجة وقوتها مع ذلك ونصاعتها . ولو استطاع الإنسان أن يقرب ذلك بصورة من الصور لتثلث له صورة مرب كبير يأخذ الاطفال باللين والرفق ، وإذا اختلفوا معه قال : « يا أبناء الاعزاء رويدكم ! وهيا نتفاهم ، - وجل الله تعالى عن المثليل : وألست تحس بتلك الشفافية في قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » يقول ابن الاثير مذهباً ، ألا ما أحسن مأخذ هذا الكلام والطفه ، فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبه يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون صادقا يصيبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له . وهذا وفي الكلام من حسن الادب والإنصاف ^(١) ، وأين إذن يكون حسن الادب في المجادلة ، والإنصاف في الحكم ، إن لم يكن في كتاب الله الكريم ؟

ولنتبين مع ابن الاثير قوله يعالى : « واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذا قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عاصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً » . يقول ابن الاثير : هذا كلام يهز أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ؛ وهو أنه لما أراد ابراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذى عصى به أمر العقل ، رتب الكلام منعه فى أحسن نظام ، مع استعمال الجمالة واللفظ والادب الحميد والخلق الحسن مستنصحا فى ذلك بنصيحة ربه وذلك أنه طلب منه أولاً العلة فى خطيئته منبه على تماديه موقظ من غفلته ، لأن المعبود لو كان حياً مميزاً سمياً بصيراً مقتدرأ على الثواب والعقاب ، وأنه بعض الخلق يُستخف عقل من أهله للعبادة ، ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق

كالملائكة والنبين ، فكيف بمن جعل المعبود جماداً لا يسمع ولا يبصر ، يعنى به الصنم ؛ ثم فنى ذلك بدعوته إلى الحق مترففاً به فلم يسم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال إن مسمى لطائفة من العلم وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف . وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بهدابة الطريق دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل . ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال : إن الشيطان الذى استعصى على ربك ، وهو عدوك وعدو أهلك آدم ، هو الذى ورتك فى هذه الورطة ، وألقاك فى هذه الضلالة . ثم ربح ذلك بتخويفه لإياه سوء العاقبة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ، ولكنه قال إني (أخاف) أن يمسك (عذاب) فنسك العذاب ملاطفة لآييه . وصدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله . يا أبت توسلا إليه واستعظافاً (٢) .

وأخيراً ، فعله لم يعدد خافياً أنه من أراد أن يتعلم أسلوب المجادلة وآدابها وطرقها المنطقية والفنية ، فعليه أن يقرأ القرآن ، ويتدبر ، ويدبر النظر ، ليستخلص العبر وليجد غذاءه القلبي والنفسى موفورين .

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدى يصف كلام زجل :

يسكنى قليل كلامه وكثيره تبت اذا طال النضال مصيب

وأنشده أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقصه توليده من حظ القديم شيئاً :

طيب بداء فنون الكلام فلم يعى يوما ولم يهذر
فان هو أطنب فى خطبة قضى للمطيل على المنذر
وان هو أوجز فى خطبة قضى للمقل على المكتر

فِعْلُ الْمُؤَلَّفَاتِ لِلْحَدِيثِ

مؤلفات ابن سينا

ابن سينا من أشهر فلاسفة الإسلام إن لم يكن أشهرهم جميعاً . فقد وعى كل ما يمكن أن يعنيه محب للعلوم من المعارف التي كانت رائجة في زمنه ، وألف فيها كتاباً أو أكثر ، وهو معدود واحداً من الأفراد القلائل الذين جمعوا الثروة العلمية للعالم الإسلامي ، وتركوها أثراً قيماً لمن بعدهم . فلا غرو بعد هذا أن يبقى اسمه حياً في أفواه المتعلمين ، وقد يتعداهم إلى الأميين أيضاً ؛ فإنه كما ألفت في الأفلاك وحركات النجوم والكواكب ، ألفت في الفلسفة والطب والعلاج ، وتناقل الناس ما كتبه ، وعنوا به عناية خاصة لما كان عليه من الشهرة والتفوق . وقد لقبه العلماء بالشيخ الرئيس لفضله وغازاة علمه . كان تركي الأصل ولد ببلخ وانتقل إلى بخارى ومنها أخذ يتنقل في المدن طلباً للعلوم ، وتصيداً للمعارف . وقد عد له المحصون نحو مائة مؤلف في جميع العلوم . وقد اهتم العالم بتلك السكتب وتناسخوها لما حوت من نفائس المعارف ، وقد شغل العارفون بذلك في جميع مراكز العلم بعد وفاته إلى يومنا هذا . وقد نسب إليه بعض مروجي السكتب مؤلفات ليست له لتروج بين الناس ، وتنبه العلماء لهذا التدليس فتنبهوه في كل زمان وفي كل بلد بعد وفاته ، لتخليص مؤلفاته من الدخيل ، وقد وفقوا إلى ذلك بما بذلوه من جهد ومثابرة . وقل من أتعب عشاق العلم بعد وفاته ، كما أتعبهم ابن سينا ، ولكن ذلك يرجع إلى سمو مؤلفاته ، واستحقاقها لتجربتها بما ليس منها إبقاء على الثقة بها ، والتعويل عليها .

فلما أزف وقت إقامة مهرجان لابن سينا في هذا العام أو ربيع الذي يليه ، انتهزت الإدارة الثقافية من جامعة الدول العربية هذه الفرصة لاجل أن تجمع أكثر ما تستطيع جمعه من مظانه في أقطار الأرض ؛ فبعثت بعوثاً إلى تركيا وإيران وأسبانيا ليمكنوا مندوبيها من أخذ صور ما عساه أن يكون لديها من مؤلفات هذا الفيلسوف الإسلامي الفذ ، وقد ألفت في مصر لجنة لجمع المؤلفات التي تطبعها الأمم المتحدة بذلك لابن سينا ، وترتيب البحوث والخطب التي تلقى في المهرجان المنوى لإقامته احتفالاً بذكرى ابن سينا في ذلك المهرجان . فكان أول ما يجب على لجنة المهرجان عمله هو أن تحصى مؤلفات ابن سينا وتدل على أماكن وجودها ، وقد وكلت عمل هذا الإحصاء إلى الاستاذ المستشرق الضليع الألب جورج شحاتة قنواقي ، وكلفته حصر هذه الكتب في جميع المكتبات المشهورة ، وخاصة مكاتب استانبول التي جمعت من مؤلفات ابن سينا أكثر مما جمع غيرها ، وكلفته فوق هذا أن يصف هذه الكتب ويقسمها إلى موضوعاتها ، وأن يرتبها بحسب تواريخ ظهورها . وهذا تكليف تنوء به الجماعة فما بالك بفرد . ولكنه رغماً عن المشاق التي تعترض سبيله ، والمتاعب التي يجب تحملها للوصول إلى غرضه ، فإنه قد وفى بما عهد إليه . وإنى أدعه يحدد مدى عمله بقلبه فقد كتب في كتابه الذي بين يدي يقول :

« إنى لم أتوخ بعملى هذا أن أصل إلى موسوعة جامعة تحوى كل ما يخص ابن سينا ، ولا أدعى أن ما أقوله هنا هو الكلمة القاطعة في المشا كل العديدة التي تواجه الباحث المهتم بإنتاج ابن سينا . فعلى أكثر تواضعا من هذا وذاك . إنى أريد فقط أن أضع بين يدي الباحثين بعض الوثائق الخاصة بإنتاج ابن سينا ليستطيعوا على ضوءها أن يتابعوا أبحاثهم . وبمعنى أدق أن أحصر جميع مؤلفات ابن سينا ، مطبوعها ومخطوطها ، وأن أشير إلى محتوياتها ومظانها ، وإلى المواضع التي بها هذه المخطوطات ، مع وصفها على قدر ما تتسع له طاقتى .

« وما يجعل هذا العمل ذا أهمية إنى رجعت فيه إلى مخطوطات الآستانة التي أتيج لى أن أراها في زيارتي إلى تركيا سنة ١٩٤٩ . ففي الآستانة من مؤلفات ابن سينا القسط الأوفر ، إذ هناك ما يربو على الآلاف والخمسمائة مخطوط لابن سينا ولا يخفى أن الاطلاع عليها أمر أساسى لعمل كهذا ، . ولقد كان شعورى منذ

البدء أن يكون محور مجهودى مخطوطات الاستانة ، ولقد قلت هذا فى لجنة ابن سينا فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، فرحبت اللجنة بهذه الفكرة ، وكلفتنى أن أقوم بمحصر مخطوطات الاستانة حين إقامتى مع البعثة العلمية للمخطوطات التى أرسلت إلى هناك .

ثم أخذ يبين ما مهد سبيل البحث له وأفاض فى ذلك ، والمطالع على العمل الذى قام به ، والتدقيقات التى استخدمها لضبط أرقامها ، وتعيين موضوعاتها ، يدرك لأول وهلة المشقات التى كابدها ، والمجهودات التى بذلها ، ويجد نفسه مدفوعا إلى شكره عليها ، والثناء عليه من أجلها . فهى والحق يقال خدمة للعلم والحكمة قل من يكابد مثلها فى سبيل خدمة العلم والحكمة فى زماننا الراهن . فنرجو الله أن يثيبه عليها ثواب العاملين الخالصين ، وأن ينفع بها طلاب المعرفة ، وهو الغرض الذى توخاه من القيام بحققها ، والجزاء الذى يرجوه عليها .

تاريخ داريا

هو مؤلف تاريخى نفيس للقاضى عبد الجبار الخولانى رحمه الله ، عنى بنشره المجمع العلمى العربى بدمشق بعناية الاستاذ اللغوى النابه سعيد الافغانى .

أما داريا فهى أكبر قرى الغوطة الجنوبية لدمشق تبعد عن دمشق نحو ثمانية كيلو مترات جنوبا إلى غرب ، ويبلغ عدد اهلها خمسة عشر الفا وقد كانت فى أكثر العصور حاضرة العلم والادب . لذلك عنى بأفراد كتاب لتاريخها القاضى عبد الجبار الخولانى فى نحو سنة (٣٦٥) وترجم فيه لسبعة وأربعين من أهل الحديث فى داريا ، وهو عدد قليل لم يستوف ، فأين هو مما كتبه عنها ابن عساكر وهو يقع فى ستة اجزاء ؟ وهو كتاب يحتوى على فوائد مركزة ومزايا علمية لا توجد فى غيره ولذلك رأى المجمع العلمى العربى ان يأمر بطبعه فكان ما اراد وله الشكر . ولا يجوز أن ننسى فضل الذى عنى به وهو الاستاذ الجليل سعيد الافغانى فقد انفق من الجهود المشكورة ما يجعل كل قارىء يعجب بما خدمه به من التحقيقات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هَبْنَانِ جَلَّ

السكاهنة أيضا

فنعود اليوم لمناقشة ما كتبه حضرة الاستاذ خالد محمد في كتابه (من هنا نبداً) فنقول :

قال حضرته : .. والآن .. نقدم بهذه الاسئلة : ماذا تريد السكاهنة بدعوتها الناس إلى الفقر ؟ ولماذا تسخر نفسها للدفاع عن مصالح الكبار ؟ ولماذا تكافح كل محاولة لتحول اجتماعي يريده المجتمع ، ويتضرع شوقاً إليه ؟ .

نقول : لم نر نحن ولم نسمع ولم ير غيرنا ولم يسمع أن واحداً من العلماء تصدى يوماً من الايام لدعوة الناس إلى الفقر ، أفلم يكن من الحكمة في مثل هذا المقام الخطير أن ينقل عنه بعض ما قال حتى لا يتهم بأنه يكيل النهم جزافاً ، ليرد عليها ، توسلاً لقول ما يريد أن ينشره من المبادئ ، كما يفعل القصاصون . إن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم نفسه ، كره الفقر واستعاذ منه في حديث مشهور ، نقله أئمة الحديث ، فهل يجرؤ عالم إسلامي أن يمدحه ويتخذ ذلك مذهباً له ينشره بين الناس ، وفي عهدنا هذا ؟

وأى عالم ديني يسخر نفسه للدفاع عن مصالح الكبار ، وفي أى مجلة أو جريدة أو كتاب نشر هذا الدفاع ؟

وما هو التحول الاجتماعي ... الذي يريده المجتمع ويحول رجال الدين دونه ؟ كل هذا كان يجب بيانه للناس ليكون لكلامه وقع في نفوسهم وتأثير في عقولهم . أما ما نقله عن (ولز) وحاول الاستاذ أن يجعله مثالا للأمة الإسلامية في العصر الحاضر ، فطلب بعيد المثال ؛ فإن الفرق بين ما عليه المسلمون ، حتى عامتهم ، من العقائد الدينية ، ونظمهم الحكومية ، وروابطهم الاجتماعية ،

ووجهاتهم الأدبية ، وخاصة في هذا العصر ، لا يمكن أن يقارن بما ذكره (ولز) عن سلطان السكمان قبل آلاف السنين !
يقول الأستاذ خالد مستهزئاً :

« ليس من الإنصاف أن نظلم السكمانه فننعتها بالجمود المطلق ، فإن لها مرونة خارقة تمدّها دائماً بإمكانيات التفاعل مع التطور ، وتلبي بها حاجات المجتمع . ماذا يريد الناس ؟ أيريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى السكمانه اشتراكية جاهزة ، وهم مستعدون أن يجودوا بها عليهم ليعيشوا في ظلها أعزة شاخين كرماء ! تلك هي اشتراكية الصدقات ! فالصدقة في نظر السكمانه نظام اقتصادي وافي الخ . الخ ، يقول الأستاذ : يريد الناس اشتراكية وعدالة ، ونحن نقول : أما العدالة فلسنا نتكلم فيها فهي الغاية السامية لجميع الخلق ، ونحن هنا كيغيرنا نعظم شأنها ونطلبها ؛ ولكن الناس عندنا لا يطلبون الاشتراكية . نعم لدينا حزب اشتراكي وله جريدة تنشر مبادئه ، ولكن لم ينتخب من أعضائه أحد للبرلمان ، وقد رشع حضرة زعيمه نفسه لمجلس النواب مرات ، فلم يحصل على الأصوات الكافية ، لا نقول هذا تحقيراً له فهو محام فاضل ، ولا للمبادئ التي يدعو إليها ، ولكننا نقوله تدليلاً على أن هذه الأمة لا تروج فيها الدعوة إلى الاشتراكية . وليس في مجلسي البرلمان عضو واحد يمت إلى الاشتراكية بسبب ، فكيف بعد هذا يستطيع أن يقول الأستاذ خالد : إن الأمة تريد الاشتراكية ؟ بل ليس في العالم المتمدن كله غير روسيا والامم الواقعة في دائرة نفوذها هي التي يسود فيها هذا المذهب ، ولكن بقية العالم المتمدن ليس للاشتراكية فيها شأن خاص ، فهي هنالك تعتبر حزباً من الأحزاب عدد أعضاء نوابه في مجالسها النيابية أقل من ربع مجموعهم . فإذا كان هذا شأن أوروبا في تقدير الاشتراكية ، فهل يتصور أن تكون البلاد الإسلامية أكثر تقديرأ لها منها ؟

أما قول الأستاذ خالد مستهزئاً : « فالصدقة في نظر السكمانه نظام اقتصادي وافي ، ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر ، وإسعاد الشعب ، ومطاردة متاعبه وشقائه ، وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان في كل مناسبة حتى تكاد تشك هل أنت في مجتمع أو ملجأ ! » . ونحن نذكر المقصود من كلمة الصدقة هنا ونبين وجه اعتماد المصلحين الاجتماعيين من المسلمين عليها فنقول :

المقصود بكلمة الصدقة هنا (الزكاة) المفروضة على الاغنياء لتنفق في حفظ اتزان الطبقات الاجتماعية ودرء عللها ؛ وأشد هذه العلل وقوع طائفة كبيرة منها في إقلال لا يمكنها من توفية حاجات حياتها ، ولا حماية وجودها من شروها ؛ فيكون حقاً على الموسرين من إخوانهم أن ينزلوا عن جزء من أموالهم لتلك الطبقات لتتفادى غوائلها ، فهو حق طبيعي لهم باعتبار أنهم جزء من الهيئة الاجتماعية ، التي لا يتأتى لها أن تقوم برسالتها إلا بتضامن طوائفها ، وتكافل جماعاتها .

وقد فطن الأوروبيون لهذا الأمر الجلل في القرنين الأخيرين ، فعملوا جاهدين على القيام به ، فبدأوا بزيادة أجور العمال ، لحماية أسرهم من الغوائل الطبيعية ؛ وما زالوا يترقون فيه تحت حافز من مطالبات الطبقات الدنيا بالانصاف ، حتى بلغوا فيها شأوا بعيدا ، من أظهر آثاره ما قرروه من الإتاوات على رؤس الأموال وسموه بضريبة الضمان الاجتماعي ، وحقوق أخرى فرضوها على أصحاب الإيرادات الضخمة بلغت في بعض الأمم نحو تسعين في المائة من تلك الإيرادات . ولولا هذه المحاولات لما هدأت الفتن ، ولاندلعت السنة نيرانها من ناحية الطبقات المحرومة من المال .

ومن يتأمل بعلم يجد أن ما استخدمه الأوروبيون من هذه الوسائل القيمة من الضرائب المختلفة ، سبقهم إليها الاسلام بتكليفه الاغنياء بدفع (الزكاة) عن أموالهم . وقد سماها بالصدقات تحببها لأدائها إلى نفوسهم ، وعما يدل على أنها ليست من نوع الصدقات التي تمنح للفقراء والمعوزين أنها إجبارية ، والصدقة اختيارية ، وأنها لا تجب كما تجب الزكاة بواسطة عمال الدولة ، فهذه ضريبة حكومية واجبة التحصيل ، ولو أدى تحصيلها إلى اراقة الدماء . حتى إنه لما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الخلافة ، أضربت بعض القبائل عن دفع الزكاة . فعزم أبو بكر على أن يجبرهم على دفعها ، وأخذ في إعداد العدة لذلك . فبكلمه عمر بن الخطاب في الأمر ، ورجاه أن يتشد في تنفيذ ما أجمع عليه خشية أن تثور القبائل وتصبأ عن الإسلام وهي قريبة عهد به ، فقال له خليفة رسول الله . والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لقاتلنهم عليه ؛ وما عثم حتى أرسل إليهم بالجند أتري ، وقاتلهم وأراق دماءهم في سبيل تحصيل الزكاة ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الزكاة ركناً من أركان إقامة الدولة . مثلها كمثل الضرائب التي تتقاضاها الدول عن الأراضي الزراعية وعوائد الاملاك الخ .

وعلى هذا فيكون الإسلام قد سبق العالم أجمع إلى وضع ضرائب على الأثرياء
تجبي منهم لسد مفارق الاجتماع ، ورأب صدوعه ، بتفاوت الناس في درجات
الكسب . والحكمة في ذلك هي أن الأموال تجر الأموال ، فلو ترك الأغنياء
وشأنهم ، امتصوا بقوة وسائلهم معين الثروة الاجتماعية ، ولم يتركوا للفقراء
إلا الأوشال ، فقسوه حالهم ويتأخرون عن شأو غيرهم من الموسرين ؛ ولا يزال
يتسع الفرق بين الفريقين حتى يصبح الفقراء مستعبدين للأغنياء ، فقسوه حالهم ،
وكثيرا ما يحملهم الإملاق على الثورات ، فيختل نظام الجماعة ، ويعتل وجود
الامة ؛ ثم ما هي إلا بضعة مصادمات يتخللها ضروب شتى من النهب والسلب ،
حتى يعم الجميع الخراب .

من هنا ترى أن (الزكاة) نظام اجتماعي ثمرته حفظ التوازن بين طبقات
الجماعة ، كان الإسلام أول واضح له ، وهو من أقوى الأدلة على أن الشرع الإسلامي
وحى إلهي ، وضع لكل موطن من مواطن الضعف في الجماعات الآخذة به علاجا
يتقي به شرور الانحلال والتلاشي ، فإنا نحن بصدد من أمر الصدقات وهي الزكاة
يجب أن يعتبر آية موجبة لإكباره ، وباعثة على تأييده وإجلاله .

ولو عملت الحكومات الإسلامية بما شرعه الإسلام من تحصيل ضريبة
الزكاة ، لبلغ إيرادها منه ملايين كثيرة من الجنيهات تسد خلة الفاقة في الطبقات
الدنيا من الجماعات ، وتؤدي ما تؤديه الضرائب التي عمدت إليها في العهد الأخير
الحكومات الأوروبية لاتقاء شرور الإقلاق ، الذي تتعرض له الطبقات المحرومة
من المال في الجماعات ، ولأمكن بواسطته أحداث التعادل بينها على نسبة لاندع
للفقراء عذرا في زعزعة أركان الاجتماع ، والتألب على قلب نظمته التقليدية ،
وتفكيك عرى وحدته العمرانية .

ومن العجب العاجب أن الأستاذ مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) يتجاهل
هذا كله ، ويمضى كأنه يعتبر أن الزكاة التي عبر عنها الشارع في بعض المواطن
بالصدقات ، من النوع الذي يرضخ به الأغنياء للفقراء ، وهو يعلم أنه ليس كذلك
أصلا ولا موضوعا ؛ فإن هذا مما يتفضل به المحسنون على المستجدين طوعية بغير
إجبار ، وقد يمتنعون عنه بتاتا فلا يطالبهم به أحد ؛ أما ما نحن بصدد فـهو

(حق معلوم) يحجب بواسطة عمال الحكومة ، ويعاقب الممتنعون عنه . فإن دافعوا عن أنفسهم أجبروا عليه وأخذ منهم قسراً ؛ وله مصارف يوجه إليها ، وقاية للمجتمع من غوائل عدم التوازن بين الطبقات ، فأين هذا من ذاك ؟ ذاك شائع بين جميع الشعوب ، فإن في جميعها محسنين يعطفون على المعوزين ؛ ولكن هذا من موارد الحكومة الإسلامية ، تجنبه بواسطة عمالها ، وتنفقه في صيانة الاتزان بين طبقات الهيئة الاجتماعية ، حتى لا تميل كفة الميزان بواحدة منها فيختل نظامها ، وتصبح حرباً على الموسرين .

ولكن الأستاذ المؤلف يستغل هذه المغالطة إلى أقصى حد فيقول :

« معاذ الله أن يرضى لعباده المذلة والهوان . إن الإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعي ، لم تكن الصدقة (ولا يقول الزكاة) في حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . . بل هي شيء يشبه أكل الميتة فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك الرق ، ولكنها لا تعالج مستوى الهبوط المعيشي للأمم والجماعات . »

تشدد الأستاذ صاحب (من هنا نبدأ) تشدداً كبيراً في تحقير الصدقة ، وأطال في تحقيرها حتى قال متابعاً طريقته : « إنها أوساخ الناس ، إنها غسالة ذنوب الناس . فكيف نتصور أن يرفع الإسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ إننا نلقى على الأمة أعظم درس في الهوان والضعفة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هي الصدقات . »

وبعد هذه الثورة الشعواء التي لا موجب لها على الصدقة ، ولم يقل أحد بأنها مصدر كسب شريف ، أو وسيلة أريستوقراطية للمعيشة ، بل هي محتقرة حتى لدى الفقراء أنفسهم ، تدارك موقفه فقال :

« وكانت الصدقة في عصر الرسول ، وفي لغة القرآن ، تعني (ضريبة مفروضة) هي ضريبة الزكاة ، التي نزل فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، » وأما ما وراء ذلك من الهبات والتبرعات ، فكان الرسول يعالج بها ضرورات أخرى طارئة في مجتمعه الذي لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظم والمفصلات . » ثم قال : « إن الزكاة وإن سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل

الاختلاف لأنها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافلة من نوافل البر والإحسان . .

بعد ما اعترف الاستاذ خالد أخيرا بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) وأنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف ، عاد فقال :

« فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسلات والأوساخ ؟ ،

فهل من المنطق السليم أن الاستاذ بعد ما يفرق بين الصدقة والزكاة ، ويعترف بأن مراد القرآن منها في موضوع الزكاة أنها (ضريبة مفروضة) ، وبعد ما يصرح المصلحون المعاصرون أنهم إنما يقصدون بما يكتبون هذه الضريبة المفروضة ، يعود فيقول : « فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة بهذه الغسلات والأوساخ ؟ إننا نلقى على الأمة أعظم درس في الهوان والضعفة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها وشيوع العدالة فيها هي الصدقات ، ثم يمضى فيملاأ نحو صفحتين من كتابه في تحقير الصدقات وفي أنها أوساخ وأقذار !! .

ألا يعلم الاستاذ أن واحدا من الذين كتبوا في موضوع رفع مستوى الحياة في هذه الأمة وخاصة في العهد الأخير لم يقصد بذلك الاعتماد على الصدقات ، بل على تلك الضريبة المفروضة وهي الزكاة ؟ وإذا كان يعلم ذلك فهل عثر على قول لأحد العلماء أو طلبة العلم أو الشحاذين أنفسهم ، يعتبر التصديق بالقرش والقرشين وسيلة لإصلاح المجتمعات ؟

إذا كان يقول لا ، فما حكمة إسهابه في هذا الموضوع ، ونقل كل ما ورد في تحقيره عن الرسول والأئمة وخاصة المسلمين وعامتهم حتى ملأ به صحفا من كتابه ؟ وإذا كان يعترف بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) على المسلمين ، فهل تعتمد الدول الأوروبية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها على غير (الضرائب) التي تفرضها على الناس لوقاية الاجتماع من شرور الثورات والانقلابات ، ولتحسين حال أهل الإقلال في الجماعات ؟

محمد فريد ومجربى

القرآن وقواعد النحو

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

قرأت في جريدة البلاغ كلمة في مقال للدكتور زكي دبارك، يذكر فيها أن القرآن الكريم ربما تخطى قواعد النحو لغرض موسيقى، ودل لذلك بقوله تعالى « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت، فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ». والشاهد في قوله : « وأكن » بالجزم مع أنه معطوف على منصوب هو قوله : « فأصدق » ، كما مثل بقوله تعالى « والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر » حيث كان القياس أن تكون « والليل إذا يسر » بإثبات الياء .

وهذا الموضوع : موضوع الزعم بأن القرآن قد يتخطى القواعد النحوية ليس بالجديد ، فكثيراً ما نجد بعض المفسرين يخوض فيه مقررأ ما يراه إثباتاً أو نفياً ، وقد مر بي قريباً الاشتغال بذلك حينما كنت مكلفاً بالظر في كتاب « الفرقان » الذي صودر ، وقد جاء صاحبه بكثير من الآيات التي زعم أن فيها مخالفة للقواعد في معرض الإزراء بالقراءات ، أو التهجين لما فعله الأصحاب في رسم المصحف ، والحمد لله الذي وفق لإظهار شأن هذا الكتاب ، وضعف ما جاء به ، حتى حكم مجلس الدولة برفض طلب التعويض ، وإلغاء المصادرة ، بعد دفاع طويل ومذكرات مختلفة . وقد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل فلا أعود إليه . وإنما أريد أن أقول : إن مثل من يقرر أن القرآن قد تخطى قواعد النحو كمثال من يقرر أنه تخطى قواعد الأصول ، وكلاهما مخطئ ، لأن الأصول حين يقرر قاعدة ، فإنما يقررها بعد تتبع ما يدل عليها من كتاب الله وسنة رسوله ، وما يقضى به الفهم فيها ، فإذا أن يكون تتبعه صحيحاً كاملاً فلا نجد خلافاً بين القاعدة التي قررها ، وآية ما من الكتاب الكريم ، وإما أن يكون تتبعه ناقصاً

فنجده خلافاً بين القاعدة وبعض ما جاء في القرآن ، وحينئذ لا يقال إن القرآن خرج على قواعد الأصول ، ولكن يقال إن هذه القواعد قصرت في التبع أو قصر أصحابها ، وكان عليهم أن يكونوا أدق في وضع القاعدة .

وربما كان الأمر بالنسبة للقواعد النحوية أوضح ، فإن النحو هو القواعد المستنبطة من كلام العرب للأحوال الإعرابية والبنائية التي يكون عليها الكلام ، ولا شك أن القرآن الكريم هو أول حجة في جواز شيء أو عدم جوازه ، وإذا كان بعض القواعد النحوية ليس له شاهد إلا كلمة أو بيت من الشعر نطق به أعرابي ، فما بالك بشيء يحجى به القرآن الكريم .

وأذكر على سبيل الاستطراف ما قرأته قديماً في بعض كتب الأدب من أن الفرزدق كان يمزح مع عبد الله بن إسحق النحوى - فيما أظن - فقال له :

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له عبد الله : لقد أخطأت فأصلح خطأك . إنما هي مولى موال ، لا مولى مواليا ، فأجابه الفرزدق على الفور : إن على أن أقول ، وإن عليك أن تضع القاعدة .

يشير بذلك إلى أن الشاعر المحتج بقوله يقول ما شاء على فطرته وسجيته ، ولا يعد قوله خطأ ولا لحناً ، ولو خالف قاعدة مشهورة عند النحاة .

ولذلك يقتصد بعض المتحدثين في هذا فيقولون : جاء كذا على الكثير ، وخالف كذا القاعدة المشهورة ، إلى غير ذلك من العبارات التي لا يفهم منها التخطئة من قريب أو من بعيد .

* * *

بعد هذا ننظر في الآيتين اللتين استشهد بهما الدكتور زكي مبارك لنعلم هل خالفنا القواعد حقاً ؟

قال الطبرسي في تفسير مجمع البيان ، وهو بصدد الكلام عن قوله تعالى « فأصدق وأكن من الصالحين » : قرأ أبو عمرو : وأكون ، بالنصب ، والباقون : وأكن ، بالجرم . . والحجة — أى حجة القراءتين — أن من قرأ وأكن عطفه

على موضع قوله فأصدق ، لأنه في موضع فعل مجزوم ، ألا ترى أنك إذا قلت :
أخرني أصدق ، كان جزماً بأنه جواب الجزاء ، وقد أغنى السؤال عن ذكر الشرط ،
والتقدير : أخرني فإنك أن تؤخرني أصدق ، فلما كان الفعل المنتصب بعد الفاء
في موضع فعل مجزوم بأنه جواب الشرط ، حمل قوله « وأكن » عليه ، ومثل
ذلك قوله تعالى « ومن يضلل الله فلا هادي له ، ويذرهم » لما كان فلا هادي له
في موضع فعل مجزوم ، حمل « ويذرهم » عليه .. ومثل ذلك قول الشاعر :

أَيَّا سَلَسَكْتَ فَإِنِّي لَكَ كَاشِحٌ وَعَلَى انْتِقَاصِكَ فِي الْحَيَاةِ وَأَزْدَدُ

حمل « وأزدد » على موضع الفاء وما بعدها ، وأما قول أبي عمرو « وأكون »
فإنما حمله على اللفظ دون الموضع ، وكان الحمل على اللفظ أولى لظهوره
في اللفظ وقربه .

فمن هذا الذي ذكره الطبرسي في توجيه قراءة الجزم يتبين أن لا خطأ ولا تخطئ
وأزيد ما ذكره إيضاحاً في ناحية ما يشير إليه بقوله إن « أكن » في موضع الجزم
فأقول : إن إيراد ما قبل هذه الجملة يعين على فهم المراد ، فالله تعالى يقول
في سورة المنافقين :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلَهِكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَلَنْ
يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

فهذه الآيات تتحدث عن شأن الإنفاق والتصدق وما يجب على المؤمنين
فيه ، مقابلة بذلك ما جاء قبلها في قوله تعالى عن المنافقين : « هم الذين يقولون
لا تنفقوا على من هند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض
ولكن المنافقين لا يفقهون » فهي تبني الصلاح وعدمه في هذا المقام على التصديق
والبذل ، والصدق والبخل ، فمن تصدق وبذل فهو الصالح ، ومن بخل وأبى فهو
المنافق الخادع ، فإذا قال امرؤ حين يأتيه الموت « رب لولا أخرتني إلى أجل
قريب فأصدق وأكن من الصالحين » كان المعنى الذي يوحى به السياق ، والذي
يأتي في ذهن قائل هذا الكلام : وإن أصدق وأكن من الصالحين ، وتقدير

الكلام بحسب ترتيب المعنى المفهوم من جو الآيات : أخرنى فإنك إن أخرتني سأصدق ، وإن أتصدق أكن من الصالحين ، فالمراد الربط بين الصدقة والكون من الصالحين ، وليس المراد حصول الصدقة والكون من الصالحين بعد التأخير ، وإنما يقال ذلك في قراءة « وأكون » .

أما قوله تعالى « والليل إذا يسر » فيقول فيه الطبرسي أيضا : « قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائي « والليل إذا يسر » بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف ، وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف ، والباقون بالحذف فيهما .

ثم وجه هذه القراءات ، فذكر أن قراءة حذف الياء ترجع إلى قاعدة ذكرها سيبويه من أن ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه ألا يحذف نحو القاضى بالالف واللام ؛ يحذف إذا كان في قافية أو فاصلة ، قال سيبويه : والفاصلة نحو « والليل إذا يسر » و « يوم التناد » و « الكبير المتعال » فإذا كان شئ من ذلك في كلام تام شبه بالفاصلة ، فحسن حذفها ، نحو قوله تعالى « ذلك ما كنا نبغ » .

بهذا يتبين أن القاعدة لا تضيق عن حذف الياء كما زعم من زعم ، والله المستعان على ما يصفون ؟

السيادة

نظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير فقال : إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه ، فسمعت أمه هند فقالت : تكلمته إذا لم يسد غير قومه .

ودخل ضمرة بن أبي ضمرة على النعمان بن المنذر وكانت به دماة شديدة ، فالتفت النعمان إلى أصحابه وقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه .

فقال ضمرة : أيها الملك إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإن قال قال ببيان ، وإن قاتل قاتل بجنان .

قال النعمان : صدقت ، وبحق سوءك قودك .

نزول القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت :
« جاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ
منى الجهد ، ثم أرسلني ، وكرّر ذلك معه ثلاث مرات ، وفي الأخيرة قال له :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم
الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . »

* * *

النزول في الأصل . انحطاط من علو ، يقال : نزل عن دابته : إذا حطّ
عنها ، ونزل بكذا وأنزله بمعنى ، وإنزال الله تعالى نعمه ونقمه على الخلق :
إعطاؤهم إياها ، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه ، كإنزال القرآن ، وإما بإنزال
أسبابه ، والهداية إليه ، كإنزال الحديد واللباس ، ونحو ذلك ، والفرق بين الإنزال
والتنزيل في وصف القرآن ، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقا ،
والإنزال عام ، وأما التنزيل ، فهو كالنزل به ، يقال : نزل الملك بكذا وتنزل ،
ولا يقال : نزل الله بكذا ، ولا تنزل .

ويطلق النزول أيضاً ويراد به الحلول في المكان ، يقال : نزل في مكان كذا :
إذا حل فيه ، وأوى إليه .

غير أن النزول بمعنى انحطار الشيء من علو إلى سفلى ، وبمعنى الحلول
في المكان ، والأولى به ، لا تليق لإرادته في نزول القرآن من الله تعالى ،

ولا في إنزاله إياه ، لما يلزم هذين المعنيين من صفات الحدوث ، فلا بدّ إذن من استعمال النزول في معنى مجازي ، وقال البعض : إن المراد بإنزال القرآن إظهاره في مكان عال ، ثم إنزال الملك به من ذلك المكان ، وقال آخرون : إن المراد بإنزاله لإعلام الملك به ، وإفهامه إياه ، ثم إنزاله بما فهمه ، وقيل غير ذلك ، ويرى بعض الباحثين أن الأولى والأحسن جعل المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته .

ولما كان نزول القرآن يتصل اتصالاً وثيقاً بالوحي ، لمجيئه من طريقه ، ووصوله في بريده ، كان من الضروري أن نشير إشارة عابرة إلى معنى الوحي وأقسامه وكيفياته وصوره ، حتى يتسنى لنا أن نعرف حقيقة النزول في وضعها الصحيح الأكمل

فالوحي عند أهل اللغة يطلق على الإعلام في خفاء ، وعلى الكتابة والمكتوب والبعث ، والتصويت شيئاً بعد شيء ، وقد يجيء بمعنى الأمر نحو : د وإذ أوحيات إلى الخواصين أن آمنوا بي وبرسولي ، ، وبمعنى التسخير نحو : د وأوحى ربك إلى النحل ، أى سخرها لهذا الفعل ، وهو اتخاذها من الجبال بيوتا الخ ؛ وقد يعبر عن ذلك بالإلهام ، لكن المراد به هدايتها لذلك ، والافالإلهام حقيقة إنما يكون لعاقل ، نحو : د وأوحينا إلى أم موسى ، ، وقد يجيء الوحي بمعنى الإشارة نحو : د فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، وقيل : أصل الوحي التفهيم ، فكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة أو إيماء فهو وحي .

والوحي في اصطلاح الشرع : إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء إما بكتاب أو برسالة ملك ، أو منام ، أو إلهام ، وقد يطلق على الموحى كالقرآن والسنة من إطلاق المصدر على المفعول ، قال تعالى : د إن هو إلا وحي يوحى ، .

وأما صور الوحي في كيفية نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكروا له سبعة أحوال : أحدها : أن يكون ذلك في المنام ، كما في حديث عائشة : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة . ثانياً :

أن ينفتح الكلام في روعه نفثا ، كما في حديث : إن روح القدس ينفتح في روعي .
 ثالثها : أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، كما في حديث : كيف يأتيك الوحي ؟
 رابعها : أن يتمثل له الملك في صورة رجل ، كما في حديث كيفية الوحي أيضاً .
 خامسها : أن يتراعى له الملك في الصورة التي خلقه الله عليها ، سادسها : أن يكلمه الله من وراء حجاب ، إما في اليقظة ، كما كلمه في ليلة الإسراء ، وإما في المنام ،
 كما في حديث الترمذي : « أتاني ربي في أحسن صورة ، الحديث . سابعها : وحي إسرافيل ، فقد ثبت بالطرق الصحاح كما في مسند أحمد : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوة ، وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشئ . ولم ينزل القرآن ، فلما مضت ثلاث سنين ، قرن بنبوته جبريل عليه السلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة : عشرًا بمكة ، وعشرًا بالمدينة ، فأت وهو ابن ثلاث وستين سنة . »

وذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعا ، وغالبا من صفات حامل الوحي ، ومجموعها يدخل فيما ذكر من الصور السابقة .

وحي القرآن كله ، كان بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي تواترت الاخبار من لدن النبي عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا أنه الملك الذي كان يحمل الوحي ، وينزل بالقرآن على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأغلب ما كان يأتيه به على ضربين : أحدهما أنه كان يأتيه به ، فيلقيه عليه كما يلقى الرجل على الرجل ، والثاني أنه كان يأتيه به في مثل صوت الجرس ؛ فأما وحي إسرافيل ، فإنه لم ينزل عليه فيه شيء من القرآن ، والإلقاء في الروع راجع إلى الصلصلة ؛ والتكليم ليلة الإسراء ، كان بلا واسطة ؛ ورؤيته له في صورته التي خلق عليها لم تقع إلا مرتين : مرة عند ما طلب منه ذلك ، والآخرى عند المعراج .

وأما في النوم ، فإن القرآن كله قد نزل في اليقظة ، ولم ينزل منه في النوم شيء ، وذهب بعضهم إلى أن فيه ما نزل في النوم ، واستدل على ذلك بما روى مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم بين أظهرنا

في المسجد ، إذ أغنى لإغفامة ، ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ ، فقال : أنزلت على آتفا سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شأئك هو الأبر ، ، وقد رد على ذلك الرافعي في أماليه ، فقال : هم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفامة ، وقالوا : من الوحي ما يأتيه في النوم ، لأن رؤيا الانبياء وحى ، قال : وهذا صحيح ، ولكن الأشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزل في اليقظة ، أو عرض عليه الكوثر الذي وردت فيه السورة ، أو تكون تلك الإغفامة ليست لإغفامة نوم ، بل الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ، وتسمى برحاء الوحي ، قال السيوطي : الذي قاله الرافعي في غاية الانجاء ، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه .

فمن هذا كله تبين الحالة التي كان ينزل فيها جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه يعلم أنها تكاد تنحصر في كيفيتين : في الإتيان له في مثل صلصلة الجرس ، وهذه يدخل فيها دوى النحل وغيره مما يقاربه من الكيفيات ، وفي التمثل له بصورة رجل كدحية بن خليفة السكبي ، والاعرابي وغيرهما .

وهذا كله في نزول جبريل بالقرآن على النبي عليه السلام ، وأما نزول القرآن على جبريل ، وتلقيه له ، فهذا من أنباء الغيب التي لم ترد فيها نصوص ، ولم تعرف لها كيفية ، وكل ما هنالك أقوال للعلماء والباحثين يصح الاستئناس بها ، والاسترشاد بما فيها .

قال الطيبي : « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقاه تلقفا روحانيا ، أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيلقيه إليه . »

وقال البيهقي في معنى قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » : يريد - والله أعلم - إنا أسمعنا الملك ، وأفهمناه إياه ، وأنزلناه بما سمع .

وقال الغزالي : « وسماع الملك وغيره الوحي من الله تعالى بغير واسطة ، يستحيل أن يكون بحرف أو صوت ، لكن يكون بخلق الله تعالى للسامع علما

ضروريا بثلاثة أمور : بالمتكلم ، وبأن ما سمعه كلامه ، وبمراده من كلامه ، والقدرة الازلية لا تقصر عن اضطرار الملك وغيره إلى العلم بذلك ، وكما أن كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر ، فسماعه الذى يخلقه لعبده ، ليس من جنس سماع الأصوات .

وحكى القرافى خلافاً للعلماء فى ابتداء الوحي ، وهل كان جبريل ينقل له ملك عن الله عز وجل ، أو يخلق له علم ضرورى بأن الله تعالى طلب منه أن يأتى محمداً أو غيره من الأنبياء بسورة كذا ، أو خلق له علماً ضرورياً بأن يأتى اللوح المحفوظ ، فينقل منه كذا .

وللقرآن نزول آخر غير هذا ، وهو نزوله إلى اللوح المحفوظ ، ونزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ؛ فأما الاول ، فيشير إليه قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ، ولكن طريقة نزوله إلى اللوح ، وكيفية وجوده فيه ، ووقته ، كل هذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

وأما الثانى ، فقد اختلف فيه على أقوال كثيرة ، أشهرها وأصحها أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجماً فى عشرين سنة ، أو فى ثلاث وعشرين ، أو فى خمس وعشرين على حسب الاختلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ، ويشير إلى هذا القول قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » ، وقوله « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، وقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وتؤيده الاخبار الصحيحة الواردة فى ذلك ، والمنقولة عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « فصل القرآن فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر » ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه فى إثر بعض » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا » ، ونزله جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بجواب كلام العباد وأعمالهم ، ، إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة ، والأخبار الصحيحة .

وقيل : إنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة ، أو في ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة ، أو في خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة في كل ليلة ما يقدر الله تعالى إنزاله في كل السنة ، ثم نزل بعد ذلك منجبا في جميع السنة .

وقيل : إنه ابتدئ نزوله في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجبا في أوقات مختلفة من سائر الاوقات .

والذى يدل عليه استقرار الأحاديث أن القرآن كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا بحسب الحاجة ، وأنه كان ينزل بعض آية ، وآية ، وآيتين ، وثلاثا وأربعا ، وخمسا ، وعشرا ، وأكثر من ذلك . والسري في نزوله منجبا تثبتت فؤاده صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه بكثرة نزول الملك اليه ، وتجدد العهد به ، أو تيسير حفظه عليه ، لأنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق نزوله عليه ، ليسهل حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإنهم كانوا قارئين وكاتبين ، فيسهل عليهم حفظ الجميع إذا نزل عليهم جملة ، أو لأن القرآن منه الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار على قول قيل ، أو فعل فعل ، وكل هذا يقتضى أن ينزل مفرقا لاجملة .

واختلف في حقيقة المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، والحق أنه اللفظ والمعنى جميعا ، وأن جبريل وهى القرآن من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به على النبي صلى الله عليه وسلم .

وزعم بعض الناس أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عبر عنها بلغة العرب ، وزعم آخرون أن الله تعالى أوحى إلى جبريل بالمعنى فقط ، وأنه هو قد صاغه بلغة العرب في تلك الالفاظ المخصوصة ، ثم نزل به كذلك بعد ذلك . والظاهر أن هذين الزعمين بعيدان عن الحقيقة ، لأنهما يفتحان باب النقول على القرآن الكريم ، ويسهلان إثارة الشكوك حوله ، وينافيان إعجازه الذى يقوم على اتحاد اللفظ والمعنى في نزولهما معا من عند الله تعالى .

وقد قسم العلامة الجويني كلام الله المنزل إلى قسمين : قسم يجوز أدائه بالمعنى ، وقسم لا يجوز أن يغير منه كلمة ولا حرف ، وقال السيوطي تعليقا على تقسيم الجويني : القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السنة ، فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جازت رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى ، ولم تجز رواية القرآن بالمعنى ، لأن جبريل أداها باللفظ ، ولم يبح له أدائه بالمعنى ، والسرف في ذلك راجع إلى أن المقصود منه التعمد بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة ، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه — إلى أن قال : وقد رأيت من السلف ما يعضد كلام الجويني .

ولا خلاف في أن الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن هي ليلة القدر ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وفي أن هذه الليلة كانت في شهر رمضان كما قال تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، وهو الشهر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف فيه بغار حراء ويصومه ، حيث جاءه جبريل وعرض عليه أن يقرأ ، فقال له : ما أنا بقارى ، فأخذه وضمه إليه ضمنا شديدا ، حتى كان له غطيظ يشبه صوته صوت المختنق ، فلما بلغ ذلك منه غاية التعب والمشقة أطلقه ثم فعل ذلك معه ثلاث مرات ، وفي الثالثة قال له : « اقرأ باسم ربك ، الآيات .

وأما تعيين الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن ، فقد وقع فيها اختلاف كثير ، والجمهور من العلماء على أنها في أوتار العشر الاخير من رمضان ، وروى ابن سعد وغيره أن نزول الملك عليه بحراء ، كان يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة إحدى وأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، ويميل إلى هذا الاخير بعض أصحاب السير والمؤرخين .

كلمتان

لفضيلة الاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أخلاق

صدق الشاعر إذ يقول : « وإنما الأمم الأخلاق... » ، فإنه مما لا يجوز أن يشك فيه أن قوام الأمم الأخلاق ، فإن تخلت عنها أصبحت ولا عاصم لها من الضياع والتهدم . وهل أدل على هذا مما وقع ويقع تحت أسماعنا وأبصارنا من أمم تنهار ، وأخرى لا يزيد بها الزمن وما يجيء به من بلاء إلا قوة ، ولا الشدائد التي يطير لها قلب الشجعان إلا استمساكا ومنعة ! ومرجع هذا ضياع الأخلاق في الأولى ، وتأصلها وقوتها في الأخرى . هذا حق لا يحتاج لدليل فوق دليل الواقع ، وهو يصدق على الأفراد والجماعات الصغيرة ، كما يصدق على الجماعات الكبيرة والأمم ، كما يصدق كذلك على دور العلم وما إليها من المعاهد والمؤسسات المختلفة . إن نقيصة خلقية واحدة قد تكون سبباً قوياً في فساد الأمر وشقاء كثير من الناس .

ولتأمل لذلك بالكذب ، وبالكذب يقترفه كبير ممن يجب عليهم بحكم عملهم وتربيتهم وثقافتهم أن يتنزها عنه ، ويصدر عنه بسهولة ويُسر كما يصدر الصدق عن الصادق ، بل ربما وجد ذلك سائغاً لذذا !

تجتمع وبعض الإخوان والزملاء لأمر من الأمور العامة ، ويكون الغرض من هذا الاجتماع الصالح العام ، ويتحدث بعض المجتمعين في إخلاص وصدق مبينين هذا الصالح ومشيرين للوسائل الطيبة التي توصل إليه ، ثم ينتهي الاجتماع والكل مستبشر بما تم ووائق من نجاح القصد . وما هو إلا قليل حتى يتبين

للقائمين بهذا الاجتماع أن ما كان فيه قد تبرع بعض الإخوان بنقله محرراً مبدلاً تقريباً منه إلى الرؤساء ، دون أن يدري كبر ما تولى وإثم ما اقترف ! ودون أن يعلم أن ما نقل كاذباً سيبتين سريعاً كذبه ، وأن العاقبة ستكون حتماً سيئة له وللصالح العام الذي كان يقصده الجميع !

ومثال آخر : يكون لك عند هذا الموظف الكبير أمر هو من عمله بحكم منصبه ، فتذهب إليه معتقداً أن الأمر سهل لا عسر فيه ، وأنت بين أمرين في كل منهما رضى : إما نعم ، ثمرة ، وإما لا ، مريحة . يتلقاك هذا الرجل بأهلاً وسهلاً ، ويعبدك ويسرف في الوعد بإجابة ما ترجو ، حتى تخرج معتقداً أن ما ترجو صار على طرف الثمام أو حبل الذراع كما يقولون ، وتتم الأيام وأنت دائب السعى وهو دائب التوكيد لما وعد ، ملتصقا كل مرة تَعَلَّة من الإنجاز تقبلها وأنت راض معتقداً أنه صادق كما يكون الرجال . حتى إذا جدد الجد ، وحان آخر أجل ضربه لقضاء ما ألحقت فيه من أمر ، فرَّ منك وأنكر ما وعد ؛ فإذا بما كنت تعتقد من أمر مقضى صار معضلاً ، وإذا بمصالح تضيق عليك كان من الواجب ألا تضيق !

أيها الكاذب ، أيها الإنسان صورة للاحقيقة ! ليس الكذب إلا جرأة على الله وخوفاً من العبد . إنما يكذب المجرم خوف العقوبة ، ويكذب الخادم خوف السيد ، وقد يكون لهذين وأمثالهما من الجهل عذر في الجرأة على الله مالك الأمر كله ، والخوف من العبد الذى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً . ولكن ما عذرک أنت في نقل ما لم يكن ، وفي تحريف الكلم عن مواضعه ، وفي استسهال الكذب واستعذابه ! أنقوم أمة وأمثال هذا الرجل ، تجوزا ، كثيرون فيها ، بل ومن يسمع لهم !

رحم الله ابن السماك إذ كان يرى أن الكذب عما لا يتفق مع الأنفة والمروءة حتى ليخشى ألا يؤجر على تركه . ولعمري لقد صدق ابن السماك ؛ فالكذب يجب أن يترك أنفة لانه لا يلائم القطرة الى لم يلحقها لؤم ولا دنس ، ولذلك حرّمته الأديان كلها ، بل حرّمه الحكماء وإن كانوا وثنيين لم يأتهم نبى أو رسول .

من الرجولة :

الرجولة وأعنى بها احترام المروء لنفسه وتقدير ما منحه الله له من نعمة الحرية في الإرادة ، فلا يسخر نفسه لغيره تسخيراً يذهب بالكرامة والخلق ويحانب المروءة ، ولا يجعل نفسه عبداً لهذا ، وظلاً لذلك يزول بزواله ، حتى كأنه لا يعرف لنفسه وجوداً مستقلاً كإنسان ورجل ! الرجولة بهذا الفهم أمر يسير كل اليسر تارة ، وعسير كل العسر تارة أخرى . يسير على من يرى أن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً فلا يصح ولا يحمل أن يعودوا عبيداً ، ومن يعتد أن الله مالك الأمر كله ، فهو يعطى ويمنع متى شاء وحده دون أن يكون لأحد من خلقه أمر من الأمور معه . وهى أمر عسير إلى أقصى حدود العسر على من عدت ثقته بالله أو ضعفت ، فهو يرى أن الرزق والنعمة أمور يملكها ذوو الجاه وأصحاب السلطان وحدهم ، يتصرفون فيها كما يريدون بالبسط والإمساك فهو لهذا يبحث عن سيد يملكه نفسه ويتنازل له عن رجولته في سبيل ما ينال منه .

والامة لا تعظم بالملايين التى تضمها من الناس الذين يغدون ويروحون ، بل بما تضم من الرجال وإن كانوا قلة من الناحية العددية .

ليس برجل من لا يستطيع أن يقول : لا ، إذا سيم خطة خسف ! ليس برجل من إذا ضمه مجلس لكبير من الناس قعد منه مزجر السكب وجعل نفسه بوقاله يردد ما يقول ويؤمن بما يحدث ويتابع ما يرى ! ليس برجل من يكون مصداق الشاعر الذى يقول :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدنانى

ليس برجل من يقبل عليك مع الدنيا حين تقبل ويدبر عنك معها حين تدبر ، ويناولك لأن الرئيس تحدى عليك غضباناً !

إنما الرجل من آمن بالله وأنه الضار والنافع ، وخالط هذا الإيمان قلبه وروحه ، فهو يصدع بالحق وإن هدد بالويل والثبور . إنما الرجل من عرف حقاً أن الدنيا عرض زائل فاحتفظ برجولته وكرامته ، ولم يرض لنفسه أن تثلم هذه

السكرامة ولو كان البدل الدنيا بأسرها . إنما الرجل من ينصح لأمته وأولى الأمر فيها إن تلاق لهم أشباه الرجال الذين يدورون مع الريح ويغيرون ما سبق أن اعتقدوا من آراء كما يغير المرء قيصه وجلبابه إن غدا لا يتفق مع البدع !

مثل الرجولة كثيرة يزخر بها التاريخ أيام هز الإسلام ومجده . ومن فضول القول أن نذكر من هذه المثل ما كان من عمر الفاروق وقد أزمع الهجرة بدينه من مكة ، ومراجعته للرسول الذي لا ينطق عن الهوى في أمور نزل القرآن في بعضها مؤيداً لرأيه ، ونحو هذا مما حفظ التاريخ لكثير من الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم ، ولكني أكتفي من ذلك بمثال واحد فيه رجولة مكتملة .

هذا المثال تراه في محاولة الهادي الخليفة العباسي خلع هارون الرشيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه جعفر ، لقد جلس الهادي ، لما صحت منه العزيمة على هذه الفعلة للناس ، وشرع في أخذ البيعة لابنه جعفر وخلع الرشيد ، فبايع مشيخة العرب والقواد ، ثم جيء بالفائد هرثمة بن أعين ليبايع فأبى وقال : « إن يميني مشغولة ببيعة أمير المؤمنين ، وشألي مشغولة ببيعة هارون ، فأبايع بماذا ؟ ، فأجاب الهادي بقوله : « تخلع هارون وتبايع جعفر » ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل أدين بنصيحتك ونصيحة الأئمة منكم أهل البيت ، وبالله لو تخوفت أن تحرقني على صدق إياك بالنار لما حجزني ذلك عن صدقك ! إن البيعة يا أمير المؤمنين إنما هي إيمان ، وقد حلفت لهارون بمثل ما تستحلفني به لجعفر ، وإن خلعت اليوم هارون خلعت جعفر غداً ! ،

هنا استشاط الهادي غضباً ، وأمر بوجيء عنق هرثمة ، ثم تاب لرشده واكتفى بإسقاطه من قيادته وإخراجه ملوماً مدحوراً . وأخيراً ، وجم الهادي ساعة لا يأمر ولا ينهى ، ثم رفع رأسه وأمر برده وقال له : « يا حائك ! يبايع أهل بيت أمير المؤمنين وفيهم عم جده وعم أبيه وعمومته وإخوته وسائر لحته ، ويبايع وجوه العرب والموالى والقواد ، وتمسك أنت عن البيعة ! ، فقال هرثمة : يا أمير المؤمنين ! وما حاجتك إلى بيعة الحائك بعد بيعة من ذكرت من أعيان

الناس ! ألا إن الأمر على ما بايعت لك ، إنه لا يخلع اليوم أحد هارون ويبقى في غد لجعفر ! .

قال الضيف غوري راوى هذا الحديث : فالتفت الهادى إلى من حضر مجلسه ، وقال لهم : « شامت الوجوه ! صدق والله هرثمة ، وبر وغدرتم ! » ثم أمر هرثمة بخمسين ألف درهم وأقطعه أرضاً واسعة .

أرأيت هذه الرجولة الكاملة واعتزاز هرثمة ! يرفض في عزم ثابت إرادة الخليفة وهو الحاكم المطلق حين ذاك في أمر أجمع عليه كبار الدولة ، ويحاج في قوة عن رأيه رغم تهديده بالقتل ، ويصمم على ما يرى حتى يظفر بالغلبة والنصر ويعرف الخليفة له سداد الرأى وصدق الرجولة وكامل الوفاء ، فلا يخرج من حضرته إلا عزيزاً كريماً منصوراً متاباً ! .

أين هذا مما عليه كثير من كبرائنا وسادتنا بحكم مناصبهم ومراكزهم الذين فتنوا الناس في أخلاقهم ودينهم وأضلوهم السبيل ، إذ قلدوهم في شعارهم وهو الميل مع الريح حيث تميل !

مثل هذا الموقف العظيم لا يقفه إلا رجل يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويؤمن برجولته نعمة من الله يحب رعايتها ، ويؤمن بأن الخلق جميعاً لا يستطيعون أن ينفعوا أو يضروا أحداً بما لم يردده الله وإن كان بعضهم لبعض ظهيراً . وبهذا الخلق وأمثاله تعتز الأمة ويشجع الخير فيها ، بتقليد الصغير للكبير والعامه للسادة .

أما نحن فوأسفاه ، لا يحتاج الرئيس بله الحاكم ، لإعداد بعض من تحت رياسته أو تهديده ليطيع فيما يريد ، بل يكفي أن يستشف بعض هؤلاء الذين لهم صور الرجال دون حقائقها رغبة الرئيس ، فيسارع إلى تحقيق ما يريد ، لا يرضى في ذلك إلا ولا ذمة ولا كرامة !

وبعد ، فإننا نتوجه إلى الله الذى لا أحد لقدرته أن يغير ما بأنفسنا ، وأن يجعلنا رجالاً تعتز بهم الأمة العربية والإسلام .

ذكرى المولد الشريف

موشحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يا خجلتنا من بياض شيبى شوه وجهى لدى الغواقي ؛
فلا دموى ، ولا نسبى ولا ولوى ، ولا هوانى

* * *

أف لهذا المشيب يمحو أجمل ماخطه الشبابُ
ينغني الفتى غفوة ويصحو إذا زمانُ الصبا سراب
روضُ زها نبتُه ، وصبح يعقبه الجذب والضياب

* * *

يا لك من طارق غريب عن الهوى والصفاء لوانى
أحيابه عيشة الحريب بلا خيال ، ولا أمانى

* * *

يا لهف نفسى على شباب من المنى والحياة أحلى
الظرف ، والقصف ، والتصابي يوم تولى الشباب ولى
عوجوا على ربه ركابى أحط من ذى الهموم ثقلًا

* * *

أَسِيحُ فِي أَفْقه الرَحيب وَأُنشِقَ الشُّرْبَ فِي المَغَانِي
وَأَمَلًا الجَوِ بِالنَّحيب أَسَى وَحزنا عَلَى زَمَانِي

* * *

مَنْ لِي بِأَنْ اسْتَرَدَّ عَهْدًا شَرِبْتَهُ فِي الكُؤُوسِ نَحْرًا ؟
مَضَى ، وَأَهْدَى إِلَى وَجْدًا حَسِبْتَهُ فِي الفُؤَادِ جَمْرًا
كَانَ زَمَانُ الشَّبَابِ سَعْدًا فَعَادَ بَعْدَ المَشْيَبِ ذِكْرِي !

* * *

يَانْفَسْ ، قَدَّانَ أَنْ تَوَوَّبِي عَجَلِي ، إِلَى شَاطِئِ الأَمَانِ
وَفِي حِمَى المَصْطَفَى الحَبِيبِ تَلْقَيْنَ مَا شِئْتَ مِنْ ضَمَانِ

* * *

مِيلَادِهِ البَاهِرِ المَجِيدِ نَالَ بِهِ الِكُونُ مَا تَمْنَى
بَنُورِهِ أَشْرَقَ الِوَجُودُ وَهَزَ أَعْطَافَهُ ، فَنَغَى !
أَقْرَبَ عَيْنَ العَلَا وَلِيدِ قَرَبَهُ الِكُونُ وَاطْمَأْنَأ !

* * *

تَهْفُو بِمَجَالِيهِ بِالْقُلُوبِ كَمَا هَفَّتْ بِالنَّهْيِ المَشَانِي
تَضُمُّ ذِكْرَاهُ فِي وَجِيبِ وَفِي جَلَالِ ، وَفِي حُضْنِ

* * *

يَا قَوْمَ ، مَنْ شَامَ مِثْلَ طَهْ قَدْ أَنْبَتَ العِلْمُ فِي الصَّحَارَى ؟
أُمِيَّةٌ عَيْشٌ فِي هَدَايَا وَشَرَعَةٌ أَنْقَذَتْ حَيَارَى
لَاقَى بِهَا خَصْمَهُ وَجَاهَا خِفَارٌ فِي أَمْرِهِ وَمَارَى

* * *

مَنْ أَيْنَ لِلْكَفْرِ وَالصَّلِيبِ بَوَاهِرِ الوَحْيِ وَالْقُرْآنِ ؟
أَوَلَاكَ يَرُوءُونَ عَنْ غُيُوبِ وَذَا يَلْقَاهُ عَنْ عِيَانِ

* * *

دَعَا ، فَأَحْيَا القُلُوبَ غُلْفًا وَسَارَ وَالسَّعْدَ فِي الرِّكَابِ

وأوسع العالمين عطفاً في الحكم والسلم والغلاب
لم يملأ الخافقين خوفاً فتلك في شرعة الذئاب

* * *

من كل خيانة مريب يختص بالعطف كل جان
أو غادر فاجر لعوب يكسب بالعرض كالزواني !

* * *

قولوا لصهيون : ما لموسى
وللصليبي : ما لعيسى
تعمساً لأعلامكم ، ونكساً
لم يدعوا في الوري لحوب
ولا أغارا على الشعوب
يروع الآنسات قتلاً ؟ !
يملاً هذا الوجود ختلاً ؟ !
أما نبيكاً ، فجلاً
ولا لغدر ، ولا اختيان
بكل مسترزق حبان

* * *

سنعمر الكون من جديد
بالجنس ، خفاقة البنود
البدء في المشرق السعيد
بدن خير الامام طه
تذك أعلام من رماها
ينبع ، والغرب منهاها

* * *

ونحن في أمسنا القريب
في الهدى ، في السلم ، في الحروب
سرنا على هامة الزمان
في الحكم ، في العلم ، في البيان

* * *

مجدد مضي في الزمان حرأ
عهد ، لياليه كتن عُراً
ياسيد المصلحين طراً
وعز في ظله الانام
قد ساد من بعده الظلام
- عليك من ربك السلام -

* * *

اعطف على بائس أديب
قل لي - إذا خفت من ذنوبي - :
مروع في الحياة عاب
لا تبتئس ، أنت في ضماني !

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

زرتك أمس الأول ، وقدم محمد أول أمس
يتردد مثل هذا كثيراً ، ويعني بأمس الأول وأول أمس اليوم الذي قبل
أمس ؛ وهو اليوم الذي قبل يومك . فقول : حدث هذا الأمر أمس الأول
أو أول أمس إذا حدث ليومين خلوا من اليوم الذي يتحدث فيه . وفي صحيفة
المصرية الصادرة في يوم ٢٧/١١/١٩٥٠ : « وكنا قد أشرنا أول أمس إلى عزم
الولايات المتحدة على التوسط لتسوية الخلاف القائم بينهما » .

والاستعمال العربي الفصيح في هذا أن يقال : زرتك أول من أمس ، أى في يوم
أسبق من أمس ، وهو اليوم الذي يسبق اليوم الذي قبل يومك ، وفي مثال صحيفة
المصرية السابق ، وكنا قد أشرنا أول من أمس ، وهكذا . فهذا الذي ينبغي أن
يجرى عليه الناس وفقاً لما أثر عن العرب . فقد جاء في اللسان في (أمس) :
« ابن السكيت : تقول : ما رأيته منذ أمس ؛ فإن لم تره يوماً قبل ذلك قلت :
ما رأيته منذ أول من أمس » .

وإذا رأيت محمداً لثلاثة أيام خلون قلت : رأيت محمداً منذ أول من أول من
أمس ، ولا تتجاوز العرب في أمس ذلك ؛ قال في اللسان في (وأل) : « تقول :
ما رأيته منذ أمس ؛ فإن لم تره يوماً قبل أمس قلت : ما رأيته منذ أول من أمس ؛
فإن لم تره مذ يومين قبل أمس قلت : ما رأيته منذ أول من أول من أمس ، ولم
تجاوز ذلك » .

وفي فصيح ثعلب (باب حروف منفردة) : « وتقول : ما رأيته منذ أول
من أمس ؛ فإن أردت يومين قبل ذلك قلت : ما رأيته منذ أول من أول من أمس ،
ولا تتجاوز ذلك ، وقال شارحه الهروي : « أى لا يقال إلا ليومين قبل أمس .
وأمس هو اسم لليوم الذي قبل يومك » .

ولم أر عبارة "أمس الاول"، فيما وقفت عليه، فأما "أول أمس"، فقد جامت في سينية البحتري، ويعني به بدء أمس وبكرته. قال البحتري:

وكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخدس
وكان القيان وسط المقاص ير يرجعن بين حوض ولعس
وكان اللقاء أول من أم س ووشك الفراق أول أمس

فهو يقول: كان اللقاء كان في اليوم السابق أمس، وتراه قال فيه: أول من أمس لا أمس الاول، ويقول: كان الفراق كان بعد يوم اللقاء فكان أمس فما أسرع الفراق بعد التلاق، وقد جعل الفراق في غدوة أمس ليسكون أقرب إلى يوم التلاق إذ لم يكن في آخر أمس. وحسبك بكلام البحتري هذا مقنعا في أن تعدل عن استعمال "أول أمس"، حيث يجب أن يوضع "أول من أمس".

الماجريات

تجرى هذه اللفظة، الماجريات، كثيراً؛ ويراد بها الحوادث الجارية، وهي من الألفاظ المولدة التي دخلت في عداد ما يتكلم به الناس، وجاوزت لغة العامة إلى لغة الخاصة. ففي صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٥١ العنوان الآتي: "الباب السادس ما يكتب في الحوادث والماجريات"، وأصل تأليف هذه الكلمة هو الموصول وصلته "ماجرى"، أي الذي جرى وحدث، فتوهم أن ذلك كلمة مفردة فعولت معاملة الكلمات المفردة، وأدخلت عليها أداة التعريفات وجمعت فقيل: الماجريات، ومثلها في هذا مثل الماصدقات في اصطلاح المنطقة، ومعنى الماصدقات الجزئيات والأفراد التي يصدق عليها الكلى ويتحقق فيها، فاصدقات الإنسان زيد وعمر وخالد ومن جرى هذا المجرى في تحقق حد الإنسان فيه، وقد قال الصبان في حواشيه على شرح الملوى للسلم في المنطق في مبحث الذات والعرضي (فصل في مباحث دلالة الألفاظ). "ما صدق الشيء: أفراد التي يصدق هو عليها أي يحمل، وهو اسم مركب من ما الموصلة وصلتها.

وترى من هذا أن واحد الماجريات هو "ماجرى"، على حد ما قيل في واحد الماصدقات، وإن كادوا لا ينطقون بواحد الماجريات.

دلى أن صاحب صبح الاعشى يجعل واحد الماجريات « ماجرية » ، فقد قال تحت الترجمة السابقة : « ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع » ، فإذا وقعت للأديب ماجرية وأراد الكتابة بها إلى بعض إخوانه حكى له تلك الماجرية في كلامه ؛ مع تنميق الكلام في ذلك إما ابتداء ، وإما جواباً .

وقد رأيت أن هذا لا يتفق مع أصل تأليفها . ولو صح ما قاله صاحب صبح الاعشى في واحدتها وأنه « ماجرية » ، لما صح تصحيح الياء وإقرارها ؛ إذ أن القانون الصرفي يوجب قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فكان يجب يقال فيها : « المجارة » .

وصاحب صبح الاعشى هو أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، وكان يعيش في مصر في القرن الثامن الهجري ، وتولى ديوان الإنشاء ، وكانت وفاته سنة ٨٢١ كما في الضوء اللامع للسخاوي . وقد سقت تاريخ وفاته ليعلم أولية الكلمة التي هي موضوع البحث ، وهي « الماجريات » ، وأنها تضرب بعرق في القدم .

ومن الجلى بعد هذا أني لا أريد إقرار الكلمة التي أبحث فيها ولا تصويبها ؛ إذ كانت نائية عن مناج تأليف الكلمات العربية ، فن الحير تنكبها والعدول عنها . والله الموفق للصواب .

زينب الصباغ — الذرة الشامي

١ — يجرى الأسلوب الأول : « زينب الصباغ » ، في هذه الأيام : يعملون « الصباغ » ، وما جرى مجراه لقباً للأسرة لا يتغير ويلزم حالة واحدة ، فيقال : خالد البنّاء ، وفاطمة البنّاء ، وهكذا دون تفريق في ذلك بين حالتي التذكير والتأنيث وقد أخبرني ذو علم باللغات الغربية الحية أن القوم في اسم الأسرة فريقان : فريق يرى جمود هذا الاسم فلا يختلف في تذكير ولا تأنيث ؛ وهم الذين يتكلمون اللغات الجرمانية (الانكليزية والالمانية) ، والذين يتكلمون اللغات اللاتينية (الفرنسية والإيطالية والاسبانية) . وفريق يرى التفريق فيه بين حالتي التذكير والتأنيث فيباحق اللقب إذا كان جارياً على المأونات علم التأنيث عندهم ، وهم الذين يتكلمون اللغات السلافية ، ومنهم أمم الروس .

وسنة العرب في ذلك أن الصباغ مثلا يكون لمن يتعاطى هذه الحرفة ، فإذا شهر بها كان ذلك لقباً له ، وقيل : فلان الصباغ ليميز عن يشاركه في اسمه وليس بصباغ .

فإذا كان له ولد مثلاً وأريد نسبته إليه قيل : خالد الصباغي وفاطمة الصباغية بأداة النسب . وقد كان في الأنصار قطان مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام بنو عدى بن النجار ، فكان يقال لمن ينسب إليهم النجارى النجارية ؛ وفي الروض^(١) الأنف للسبيل في حديث زواج هاشم بن عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر نكاح هاشم سلمى بنت عمرو النجارية .

* فترى أن أهل عصرنا استنوا سنة فريق من الغربيين في لقب الأسرة ، فلا يفرقون فيه بين تذكير وتأنيث ، وتكتبوا سنة العرب .

وقد جاء في صحيفة الرسالة العدد (٦٨٦) مقال عزوردة اليازجية ، جعل الكاتب عنوانه : وردة اليازجى ، واليازجى كلمة تركية معناها الكاتب ، وقد جرت حيناً من الدهر على ألسنة الناس لاسيما في بلاد الشام على عهد الحكم التركي ، وعملت معاملة المفردات العربية ، وصارت لقباً لأسرة اشتغل أهلها بالأدب ، وكان لهم عليه فضل عظيم ، منهم ناصيف اليازجى وإبراهيم اليازجى . والمتبادر في العبارة السابقة أن يكون اليازجى ، وصفا لوردة فيكون مما تتحدث فيه ، ويكون هذا من الكاتب جرياً على المألوف في هذه الأيام . وقد يجوز أن يقرأ : وردة اليازجى ، يجر اليازجى ، بالإضافة ، أى وردة المنسوبة إلى اليازجى فلا يكون مانح فيه ، ولكن هذا خلاف المنابر .

٢ - وتجرى العبارة الثانية : الذرة الشامى ، كثيراً على ألسنة الناس ، والذرة فيها علم التأنيث ، فالواجب أن يقال : الذرة الشامية ، واست أدري مآنى هذا الزيغ عن الصواب ولا مرده . وقد يخرج هذا على تأويل الذرة بالنبت ، ولكن مثل هذا التخريج يلجأ إليه فيما سمع من العرب ، كما قال بعضهم : إن فلاناً رجل لغوب أتمه كتابي فاحتقرها ، فأنت الكتاب لها ذهب به مذهب الرسالة .

كيف تقارب الشعوب

منهج الاسلام في ذلك

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المرافعي

يحاول السياسة وقادة الفكر في الأمم التقريب بين الشعوب وإزالة الحواجز السياسية التي أقامتها الأطماع والأهواء، على مدى الأجيال بعد أن تكفلت الحضارة المادية بإزالة الحواجز الطبيعية من بحار وأنهار وجبال وصحارى ووديان، وأعنى بالحواجز السياسية هذه الحدود الوهمية من خطوط الطول وخطوط العرض وهذه الفروق الاعتبارية من جنسية وقومية وعصبية للألوان والثقافات .

وهدف هؤلاء القضاء على أسباب الحروب والتطاحن في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، ثم الوصول بالشعوب إلى حياة ناعمة في ظلال الأمن والسلام ولا يسع كل محب للسلام إلا أن يبارك هذه الجهود ويبدل من نفسه وماله ما يفضى إلى هذه الغاية، كما لا يسع كل منصف إلا أن يتقدر لهؤلاء جهودهم فيها . غير أنه رغم ما يبذل في هذا السبيل من جهود وما يجمع لها من جموع فإن التقدم لا يزال بطيئاً ولا يزال الهدف بعيداً والطريق وعراً، وأكبر الظن أنهم لن يبلغوا الهدف، وأن جهودهم ستبوء بالفشل .

ذلك أن الدعوة إلى هذه الغاية يعوزها الوسائل الصحيحة والعناصر القوية لانجاح الدعوات والبلوغ إلى الأهداف، ومن أهم هذه العناصر الاخلاص لها والتطبيق العملي من القائمين عليها، وإنا نشك كل الشك في توافر هذين العنصرين في الدعاة اليها، ودعواتهم في الواقع ما هي إلا سلسلة من الاخاديع السياسية

تبعث عليها مناسبات خاصة مداهنة للجماعات والأمم الصغيرة تخديراً لوعياها
الإنسانى واحتفاظاً بها أن تسير فى الطريق التى رسم لها ، وآية ذلك أنه إذا قيل
لهؤلاء الدعاة تعالوا إلى تطبيق مبادئكم وأعطوا الشعوب حقوقها السياسية
والاجتماعية وامنحوها حرياتهما وأشعروها بهذه المساواة ، لتسكن نفوسها إلى
ماندعوها إليه وتطمئن قلوبها إلى صدق نيائكم فيها ، لم تحل منهم بطائل وأجابوك
بمعسول من القول لا يغنى عن الواقع شيئاً .

ولو أنهم أخلصوا فى القصد وصدقوا فى العزم لصدقت أقوالهم أفعالهم
وكانت القدوة بأعمالهم أبعد أثراً وأعظم نجاحاً ، وشاهدنا التاريخ على ما نقول
محمد صلى الله عليه وسلم الداعى الإسلامى الأول والمصلح الإنسانى الفذ ، فلقد كان
مثلاً أعلى فى صدق عزمته وإخلاص دعوته ، فأصاب هدفه وبلغ غايته وربط بين
الأمة الإسلامية بروابط جعلتها أمة واحدة متماسكة الاجزاء وثيقة البنيان موحدة
المقاصد بعد أن كانت أوزاعاً متنافرة من القبائل والشعوب وغدا المؤمن الآسيوى
أخاً للمؤمن الأفريقى والأوروبى والمؤمن الحبشى أخاً للمؤمن العربى أخوة صادقة
عميقة لا تشوبها مظاهر النفاق والرياء ، نحنا صلى الله عليه وسلم منحنى غربياً ووضع
نظاماً رائعاً فى جملته وتفصيله وسن للجماعات والأفراد حقوقاً وواجبات على
أساس من الشورى والعدل والمساواة والتعاطف والمحبة والتناصح فى عمل
الخير وتجنب الأذى ، وعلى أساس من الرضا والقناعة واحترام حقوق الغير
فألغى الفوارق بين الطبقات أمام القانون وحرم التنابد بالعصبيات والتباهى
بالانساب وأوصى بالمرأة والضعيف ، والمسكين واللهيف وحرم الشفاعة فى
حرم الله وحذر من سوء الظن والتجسس وتتبع العورات ، ومن وصايا العامة
فى القرآن :

وأمرهم شورى بينهم ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، ، إنما المؤمنون
إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان ، ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً
منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلبسوا أنفسكم ولا تنابزوا

باللقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، .

ومن الوصايا العامة في السنة : ، الناس سواسية كأسنان المشط ، ، لا فضل لعربي ولا عجمي إلا بالتقوى ، ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ، المؤمنون تنكافأ دماؤهم ويسمى بذمتهم أدناهم وهم بيد على من سواهم ، ، كل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه . لا شفاعة في حد من حذر الله . من نفس من مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، .

وإن تعجب لشيء فاعجب لهذا التفصيل الذي تناولت به التعاليم المحمدية ، حياة الإنسان كفرد في سائر أحواله فقد تناولته عزباً وزوجاً ، وقریباً وبعيداً ، وحاكماً ومحكوماً ، وغنياً وفقيراً ، وعاملاً وعاطلاً ، وعالملاً وجاهلاً ، وتناولت شئونه في مطعمه وملبسه ، وحديثه ومجلسه ، وزيارته وساسته في جميع أحواله ورسمت له طرائق العمل في صور أحكام ذات ألوان ، وفرضت بعضها وسنت بعضها ، وندبت إلى بعض ، وأرشدت إلى أخلاق وآداب هي الغاية فيما وصلت إليه المدنية من خلق وذوق وأدب ، ووضعت بهذا أمتن الأسس في بناء المجتمع الإنساني تجهد عقول الفلاسفة ، وتقف منها في أول الطريق .

وكانت أفعاله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً عملياً لأقواله وتعاليمه ، فإذا دعا إلى الشورى ضرب المثل بنفسه ، فقد استشار بعض أصحابه في حوادث ونزل على رأيهم حيث بدا له وجه الخير فيها ، وإذا دعا إلى المساواة كان كذلك ، روى عنه أنه أقبل على بعض أصحابه يوماً فقاموا له لإجلاله فقال عليه السلام : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس ، وإذا دعا إلى التعاون فهو في تعاون المثل الاسمي ، روى أنه كان ذات يوم في سفر فأمر أصحابه بأصلاح شاة ، فقال رجل على ذبحها ، وقال ثان على

سلخها ، وقال ثالث على طبخها ، فقال الرسول صلى الله عليه : وعلى جمع الخطب فقالوا يا رسول الله : تكفيك العمل ، فقال تعلمت أنكم تكفونني إياه ، ولكنني أكره أن أتميز عليكم .

وإذا دعا إلى العدل صدق فعله قوله ، شفع إليه بعض أصحابه في جريمة فاشتد به الغضب وقال ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وقد نهج أصحابه نهجه ، خطب أبو بكر رضى الله عنه أثر مبايعته بالخلافة فقال أيها الناس ، أنى قد وليت عليكم ولست بخبركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن صدفت فقوموني ، الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

وكان عمر رضى الله عنه يتفقد أحوال رعيته ليلا ليطمئن على أداء واجبه فيها وجهر عثمان ثلث الجيش من ماله فى غزوة العسرة حين دعت مصلحة الامة إلى البذل والتضحية .

بهذا الاسلوب من التطبيق العملى لمبادئ الدعوة دعا محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الى التقارب بين الشعوب والتضامن بين الافراد ، فأفلحت دعوته ، وكان نجاحه فيها مثلاً تاريخياً فذا فى قوة التأثير وسرعة الاستجابة ، وكان موضع الدهش لدى المؤرخين من العرب والاوربيين ، وما نجحت دعوته إلا بأنها قامت على أساس من الاخلاق والعزم والتطبيق العملى لمبادئها ، فهل سلك الداعون للتقريب بين الشعوب الآن ذلك السبيل ، وهل صدقت أقوالهم أفعالهم أم كانت أقوالهم صيحات تبعثها المناسبات ، وهى مزيج من الدهاء والسخرية وألهيات ياهون بها الشعوب كلما حز بهم كرب أو نزلت بهم نازلة ألجأتهم إليها ، يلتمسون لديها تفرج هذه السكروب وتلطيف تلك النوازل ؟

الجواب هو فى واقع أحوال تلك الشعوب وموقفها من هؤلاء الدعاة وشعوبهم وفيما يسود العالم من قاق وفزع وسوء ظن ؟

سَيِّدِي اِبْرَاهِيمَ الدَّرَفِي

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

فكرت فى هذا الموضوع بعد زيارتى لمدينة دسوق منذ العاشر من المحرم هذا العام . فقد جالت بذهنى معان نحو التصوف ، وضممت إليها بعض حقائق عن هذا الشيخ المعتقد فيه كثيراً من المسلمين ، وأرجو ألا تخلو من فوائد توجه الناس وجهة وسطى صالحة ، فى نواح كثر الحديث حولها بين غلو وإسراف ، وتحامل وإسفاف ، وبالله التوفيق .

التصوف من العلوم الإسلامية ، وفرع من فروعها ، كالفقه والاصول ، وغيرهما ؛ فإذا كان الفقه يبحث فى صحة العمل وفساده ، وحله وحرمة ، لتنظيم أحوال المعاش ، فإن التصوف يبحث فيما هو أساس لإصلاح العمل وجريه على أكمل الوجوه وأتمها ؛ فهو يعالج رياضة النفس وإصلاح القلب ، وحسن رعايته ؛ والقلب هو المهيم على كل عمل يصدر ، والمحرك للأعضاء على وفق ما يبصر ؛ فإذا استقام استقام اللسان ، واستقامت الجوارح وسلمت الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، وأمثالها ، من آفات الرياء ، وما إليه من كل ما يجعل العمل خالياً من الروح التى قصد إليها الشارع الحكيم .

والقلب هو مصدر لفيوضات العلم الجمية ، وهو المرأة التى تبصر فيها حقائق الكون ، وأسرار الوجود ، وتنطبع فيها المعارف والحكم التى لا حد لها ؛ وهذه المرأة لا تعطيك الصور صادقة سالمة إلا إذا كانت مجلوة مشرقة ؛ وفى هذا العلم والعمل به يتعرف الطريق إلى جلاء تلك المرأة ، وتصحيح الإدراك بها للحقائق والمعارف ؛ وكل ما فى هذا العلم من مدارك مؤسسة على التقوى فن الشرع الشريف استمدادها ، ومن السكتاب والسنة منهاجها ؛ فالدين الإسلامى مبين على وضع الأعمال وضعا صالحا يقرب إلى الله ، ويشرح الصدر للإسلام ، وجميع

شعب الخیر ، و یوجه إلى أقرب الطرق فی سعادة الوجود ؛ فإذا كان فی قوله تعالى مثلاً « أقيموا الصلاة » دلالة علی فرضيتها كما یقول الفقهاء ، فإن فیہ دلالة علی ناحية لا تحصل الغایة التي نبه إليها الدین ، وهی النهی عن الفحشاء والمنکر ، بدونها ؛ ذلك أن الإقامة هی التعديل ، من أقام العود إذا عدله ، فكل صلاة لیست علی هذا الوجه لا خیر فیها ، وهی لا تنهی عن الفحشاء والمنکر ، بل لصاحبها الویل ، كما نطقت به آیه أخرى من القرآن الکریم . . .

وهكذا تجد الکتاب الکریم ، والسنة النبویة الصحیحة مشتملة علی أسس التصوف ، وقواعده السلیمة ، مما یجعل لكل عمل روحاً مشمرة ، ویخلق منه أذواقاً ونفوساً قیمة .

ولذلك یكون للتوفیرین هلی هذه النواحي الصالحة مواجید وحالات ، وتقع من بعضهم خوارق عادات ، ولا سیما أن سیرهم وسلوکهم مؤسس علی تغلب جانب الروح علی جانب الجسد ، وإیثارها بالخدمة ، وفی الروح ثروة عظیمة ، ولدنہا معارف وأسرار کریمة ، ولکن الناس یدسونها بالمادة والانهماک فی الملاد ؛ وفی القرآن الکریم : « قد أفلح من زکاه ، وقد خاب من دسأه » .

وهنا نشیر إلى أن بعض صور الكشف التي تصل إليها تلك النفوس قد لا یفهمها العقل ؛ لأن الروح فوق طور العقل ، وقد لا تتفق مع ظاهر الشرع الشریف ؛ لأن الشرع فی الاعم الاکثر یخاطب العقول ، ویمجاری جمیع استعدادات البشر ، وأحياناً یتدخل الشیطان مع بعض السالکین فی هذه الطرق ، فیلبس علیهم ، ویزل بهم ؛ وتلك هی أسباب الخلافات التي تقوم کثیراً بین المتصوفة وغيرهم . ومن الحق علی الصوفی ألا یظهر شیئاً من إدراکاته التي لا تتفق مع ظاهر الشرع ، وإلا کان عرضة للفتنة وإيقاع الخلاف بین طوائف الامة ؛ وإذا أظهر شیئاً من ذلك فن حق القائم علی الشرع إنسکاره ، ولا یکلفه الإسلام قبوله مهما کان صاحبه إلا أن یؤول کلامه بما یتفق مع الدین . ومبنى طریق هذه الطائفة علی الرياضة ، وتذلیل النفس ، ودفع رعوتها ، ومقاومة ما یدفعها إلیه الشیطان ، وبحسنه لها من أبواب الشر والفساد ؛ وخیر سبیل إلى ذلك الإغراق فی ذکر الله بالصور المختلفة ، ومعاشرة الصالحین ، والبعد عن أوساط المفسدین ؛

وبقدر ما ينال المرء من الذكر والطاعة السليمة من الآفات ، يكون حظه من التصرف ؛ ولهذا عرف الصوفية باتخاذ الأوراد التي هي ذكر مرتب في مواعيد معينة بصور وأحوال لا تختلف مع ما جاء به الكتاب والسنة من حث ومن توجيه ، وهي من الورد بمعنى الماء الذي يرده الظماء ، فيروون ظمأهم .

ولابن خلدون في هذا المقام بحث طويل في مقدمته ، يشير في بعضه إلى أن أصل طريقهم محاسبة النفس على الأفعال والتروك ، والكلام في هذه الأذواق والموارد التي تحصل عن المجاهدات ، ثم تستقر للبريد مقاما ، ويطرق منها إلى غيرها ؛ ثم لم مع ذلك آداب مخصوصة بهم ، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ؛ فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد من أهل الشريعة الكلام فيه ، وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات ؛ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ، ومحاسبة النفس ، والكلام في الأذواق ، والموارد العارضة في طريقها ، وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك ؛ ولما كتبت العلوم ودونت ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم ، وكتب كثير منهم في عدة نواح ، كالورع والمحاسبة على الأخذ والتروك ؛ وجمع الغزالي معارفهم الشرعية في كتاب الإحياء ، وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم ... ثم أشار ابن خلدون إلى أن الطريقة كانت أولا عبادة فقط تتأق أحكامها من صدور الرجال ، ثم صارت علما مدونا يطلق عليه اسم التصوف ، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب ، من التفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول . وتكلم ابن خلدون في الكشف والاطلاع على عوالم من أمر الله بسبب الخلوة والذكر ، وفصل سبب ذلك ، ثم بين أن الكشف لا يكون صحيحاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة .

وتنقل ابن خلدون في أحكام كثيرة تتصل بالتصوف ، وبما اشتهر من مذهب الحلول والوحدة ، وما إلى ذلك بما لا يعيننا الخوض في تفاصيله الآن ، وقد نعرض للحديث عنه في مقام آخر ؛ إنما الذي يعيننا أن نشير إلى أن هذه الطريقة لأمر ما انتشرت في القرن السابع الهجري ، وظهر رجال حلّقوا في

آفاقہا ، وربما فتن بهم كثير من الناس ، من أمثال السيد البدوي ، والدسوقي ، والرفاعي ؛ وللناس في طباعهم افتتان بهذه الخوارق التي تسمى كرامات ، وبما يظهر على أيدي بعض الناس من كشف يخبرون فيه عن الغيب الماضي أو المستقبل ؛ ولهذا كان يرجع الناس إلى السكهان فيعظمونهم ويحكمونهم في أمورهم ؛ وفي عوام المسلمين كثرة تغلو في تقدير هؤلاء غلوا تخرج به عن الدين ، وتورط في كثير من الزيغ الذي قد يفسد عقيدتهم ، ويخرجهم إلى حد الإلحاد أو الشرك ، نعوذ بالله من الضلال .

وليس في شرعة الإسلام أكثر من إنزال الناس منازلهم ، مع الحيطة ، حتى لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا يطرى بعضهم بعضاً مهما كان ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما الكل عبد الله وبشر من خلق ، لا يملك لنفسه نفعا ، ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ...

والإمام الدسوقي من أولئك العلماء المتصوفة الذين نشئوا بمدينة دسوق في القرن السابع الهجري الذي أشرنا إلى أنه ظهر فيه التصوف ظهوراً قويا ، وتغلغل فيه رجاله إلى حدود قد تسمى إلى بعض الناس في بعض عقائدهم بما تسربت عدواه إلى من بعدهم ودرجوا عليه ...

ولد الدسوقي بالمدينة المذكورة سنة ٦٤٣ هـ ، وتوفي بها سنة ٦٨٦ هـ ، فعمره نحو ثلاث وأربعين سنة ، قضى شطراً منها في طلب العلم ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ووضع فيه بعض كتبه ، ثم اقتنى آثار الصوفية ، كما حدث عنه الشعرائي في طبقاته ، فكان من أجلاء مشايخ الفقراء أصحاب الخرق ، وكان من صدور المقربين صاحب كرامات ظاهرة ، ومقامات فاخرة ، وسرائر طاهرة ، وبصائر باهرة ، وأحوال خارقة ، وأنفاس صادقة ، وهم عالية ، ورتب سفية ، ومناظر بهية ، وإشارات نورانية ، ونفحات روحانية ، وأسرار ملكوتية ، ومحاضرات قدسية ، وما إلى ذلك من عبارات خلعتها عليه الإمام الشعرائي ، قد تاقى ضوءاً على ما نحاول الوصول إليه من تجلية الرجل للقارئ ، شخصية حقيقية عرفها المتحققون من رجال الفن ، ونوهوا بشأنها ، وأعلوا من قدرها ؛ ونحن والقراء الكرام ، نرى فيما ينقلون عن الرجل من عجائب وكرامات يجب أن

تقرأ بغاية التحفظ ، وتؤخذ على أنها أخبار لم يتحر في نقلها ما يجب أن يراعى في صحة الأسانيد التي تاتي على الأخبار المنقولة ضوء العلم والإيمان الصحيح ، يستوى في ذلك ما ينقل عن الدسوقي وعن غيره ، مهما علت رتبته إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه . فهم يذكرون أنه كان يتكلم في المهد ، وأنه صام أول رمضان صادفه في حياته ، وأن ذلك كان بعد ولادته بيوم واحد ؛ ويقولون إنه يخاطب جبريل ، وإنه يقرأ اللوح المحفوظ ؛ ويذكرون عنه قصصاً كثيرة ، فيها كثير من العجائب والغرائب ؛ ففي بعضها أن نقيبه دفع سبعة من القضاة جاءوا يمتحنونه إلى ما خلف جبل قاف ، فمكثوا سنة ، ثم عفا عنهم بعد توبتهم ؛ وفي بعضها أنه أمر التمساح أن يلفظ صبيّاً كان ابتلعه ، فلفظ حياً ، ثم قال للتمساح مت بإذن الله فمت ؛ وكثير وكثير جداً من أمثال تلك الأشياء التي قلنا إنه يجب التحفظ في الإيمان بها ، مع الاعتقاد بأن الله قدير على خرق العادات لا يقف أمام قدرته شيء . على أننا نشير بوجوب المبادرة بتكذيب ما يدل الشرع على عدم وقوعه ، ونمسك القلم عن الخوض في تفصيل ذلك ، لنُدع المجال فيه لحضرات أصحاب الفضيلة أرباب الفتيا ، والمختصين من أهل الصناعة ؛ ثم يشير إلى أنهم نقلوا عن الإمام الدسوقي من النثر والنظم ، ما يدل على أنه كان من المتحققين والصوفية الذين بلغوا شأواً بعيداً في معرفة الله ، والاطلاع على كثير من الأسرار واللطائف ، والامتنياز في معرفة دخائل النفوس وأسقامها ، وعلمها وطرق علاجها .

من ذلك : قوله : « من عامل الله بالسرار ، جعله على الاسرة والحظائر ، ومن خلص نظره من الاعتكاس ، سلم من الالتباس ، لا يكمل الفقير حتى يكون محبا لجميع الناس ، مشفقاً عليهم ، ساتراً لعوراتهم ، فإن ادعى الكمال وهو على خلاف ذلك فهو كاذب ؛ من غفل عن مناقشة نفسه تلف ، وإن لم يسارع إلى المناقشة كشف . إن كنت ولدي حقاً ، ومتبعي صدقا ، فأخلص الرق لله تعالى ، واجعل واعظك من قلبك ، وكن عمالا ، ولا تلمس من أحد درهما ؛ فإن هذه طريق ، ومن أحبنى سلك معي فيها ؛ فإن الفقير الصادق هو الذي يُطعمُ ولا يُطعم ، ويُعطى ولا يُعطى ، ولا يلمس الدنيا ولا شيئاً من عروضها ، فإن الرشا في

الطریق ؛ حرام وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ لأحد فلساً ، ولا درهما ، وأطال (رحمه الله) في هذه الوصاة القيمة التي تدل على حال ما يقع فيه مدعو التصوف في أزمنةنا هذه ممن يعملون طريق الله شباكا لجميع الدنيا ، واحتياالا للتكاثر في الأموال ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا التي هي أبعد ما يكون عن ساحة هذه الطائفة الكريمة .

وقد نقلوا عنه كثيراً من النظم الذي يفيد مقدار منزلته في نواحي التصوف ، ويدل على أنه كان على جانب من البصر باللغة العربية وآدابها . ومن ذلك قوله :

سهم الليل صائبة المرامي	إذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها إلى المرمى رجال	يطيلون السجود مع الركوع
بالسنة تهمهم في دعاء	بأجفان تفيض من الدموع
إذا أوترن ، ثم رمين سهمها	فما يغني التحصن بالدروع

ومن نظمه أيضاً :

سقاني محبوبي بكأس المحبة	فنهت على العشاق سكرأ بخلق
ولاح لنا نور الجلالة لو أضأ	لصم الجبال الراسيات لدكت
وكنيت أنا الساق لمن كان حاضراً	أطوف عليهم كرة بعد كرة

هذه هي الصورة التي أردت أن أجليها للقراء . موجهها بها الكثير منهم إلى ميزان الاعتدال بقدر ما وسعه على وإطمأن إليه قلبي ، ولا أحب أن أختم هذه العجالة قبل أن ألقت النظر إلى ما اعتاد الناس للدسوقي وأمثاله من شد الرحال ، ونذر النذور ، وإقامة الموالد في هذه الصور التي نشاهدها جميعاً ، وما إلى ذلك من شئون كثير خوض الناس فيها لهؤلاء الأولياء ؛ وهو أيضاً مما أذع المجال فيه لحضرات السادة الفقهاء من أهل التوجيه والقائمين بالإصلاح والإرشاد ، مع حرص البالغ ووصاتي الصادقة الخالصة أن يساس الناس في التوجيه بلطف ودقة ، ورفق وحكمة ، وتوجيه إلى الحسنى بالحسنى ، والله ولى التوفيق .

مُتَاعِبُ الرُّسُولِ

لَفَضِيلَةِ السَّبِيحِ اِبْرَاهِيمَ اَبُو الْخَتَّابِ

المدرس بكلية الشريعة

الرُّسُلُ صلوات الله وسلامه عليهم صفوته سبحانه وتعالى من خلقه ما في ذلك شك . . . ولكن حياتهم مليئةٌ بالمتاعب . حافلة بالآذى ، محفوفةٌ بالسكدر ، محروطةٌ بالشدائد ، وقد دلَّ التاريخ على أنه لم يَحُلْ واحد منهم من الهموم والمشاق ، والنَّصَب والتَّغْيِص . . . وإذا صحَّ أن الامتحان مقياسُ لرضا والقبول ، والدرجات والمنازل ، فإن هؤلاء وصلوا بما تحملوه ، وحصلوا بما صادفوه ، على ما لا يُتَصَوَّرُ أن تناله البشرية كلها من مكانة مرموقة ، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم . . . إلا أن نبينا - جزاه الله عن الإنسانية أفضلَ الجزاء - كان أكثرهم تعرضا للعنف ، وأوفرهم نصيبا من المكروه ، لأن مهمته أخطر ، ورسالته أعظم ، وقومه أبعد ما يكونون عن اللين والهوادة ، والرحمة والرفق . . . ومنذ أول يوم نزل عليه جبريل وضمَّه إلى صدره فبلغ منه الجهد قائلا له « اقرأ باسم ربك الذي خلق » وذهب إلى خديجة يرجف فؤاده ، وهو يُهَمِّسُهُمْ بقوله « والله لقد خشيت على نفسي » وقال له ورقة بن نوفل ليتني كنت حيا إذ يخرجك قومك . . . قرأ عُتْوَانُ كتابه وعلم أنه يخوض غمار الغيب الغامض ، والمستقبل المجهول ، وكان كوقع الصاعقة عليه أن يقول له ورقة - على ضوء ما قرأ بالعبرانية في كتب الأديان السالفة - نعم ، فإنه لم يأت رجل بمثل ما أُتيتَ به إلا عودى !! ولم يكد بعد ذلك يصعد الصفا والمروة وينادى بطون قریش ليعان إليهم أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد ، حتى قال له أبو لهب تبت يدك ، ألهذا جمعتما ، وكان يرجو أن يأخذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، ونزلت فيه السورة المعروفة باسمه ، وكان ذلك إشعالا

لنيران عداوته ، وإذكاءً لاتون حقه ، فأخذ يكبد له صلى الله عليه وسلم ، ويفتح له صفحات أخرى من الإيلام والأذى ، والقسوة والعنف ، وقد كان يسكن إلى جواره هو وزوجته حمالة الحطب ، دون مراعات حرمة الجوار ، ولا لزمام القرابة .

أما الجار الثاني : فإنه عقبة بن أبي معيط ، وكان لا يقل في العداوة والبغض والإضرار والأذى عن أبي لهب . .

وقد أغراه أبو جهل ذات يوم أن يلقي الأقدار على رأس الرسول وهو ساجد ، وصنع وليمة دعا إليها الوجوه والأعيان ، ودعا صلى الله عليه وسلم فيمن دعى ، فلما حضر الطعام ، قال له : أنا لا أكل طعام مشرك كافر ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلما علم بذلك أبى بن خلف تهدده إن لم يرجع إلى دين الأشياخ ، وهو الذى تقصد إليه الآية : « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ، وهؤلاء كلبهم من المستهزئين الذين كفاه الله شرهم ، وأراه مصارعهم فى بدر وغيرها من الغزوات .

ولو أن تلك المتاعب كانت فى أول عهده بالدعوة ، لقلنا - هكذا - تكون الأمور فى الابتداء شاقة ، لأن المصلح الاجتماعى لا يحتاج إلى الجلد والاحتمال بعد هذه المرحلة ، حيث تكون القلوب قد تفتحت ، والأذهان قد تهيأت ، والطباع قد تحولت ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا الاستقرار والسكون .

إلا أنه صلى الله عليه وسلم ظل عمره الطويل ، وحياته المديدة ، فى جو مليد بالغيوم ، متخيم بالرياح والأعاصير .

ونحن إذا استثنينا فقد والديه ، وموت جده عبد المطلب ، وعمه أبى طالب ، ونشأته فى أحضان الفقر والمترية ، وغضون العوز والحاجة ، وجدنا أن أيامه كلها فى سبيل الدعوة لم يهنا له فيها صفو ، ولم يصادفه لذة ولا سرور .

وهاهى ذى عائشة رضى الله عنها تقول له : « هل أتى عليك يوم كان أشد

من أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل ، فناداني . فقال إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك . وفد بعث إليك ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال يا محمد . فقال ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدوه وحده لا يشرك به شيئاً ، وصدق الله العظيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . . أما أحد الذي تسأل عنه رضى الله عنها في الحديث ، فإنها الغزوة المعروفة بهذا الاسم ، إذ ترك بعض المسلمين أماكنهم من صفوف الجيش ، حين لاح لهم النصر ، طمعاً في أسلاب العدو ، وكان هذا الخلل سبباً في الهزيمة المنكرة ، التي حملت كثيراً منهم على الفرار ، ولا سيما بعد أن سمعوا منادياً ينادي : إن محمداً قدم ، وفي هذه الغزوة شجعت رأسه وكسرت رباعيته ، واحتمل من صنوف الأذى ، وألوان العذاب . ما لا يحتمله إلا صناديد الرجال ، ولما عاتب هؤلاء الفارين والمتسببين في تلك الهزيمة أجابوه بذلك العذر الواهي ، وهنالك نزلت فيهم الآيات ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ، وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . . ونحن نعلم أنه لم تكن تلك الغزوة فقط من الساعات الرهيبة ، واللحظات الحرجة التي لاقى فيها الشدائد ، وتحمل الأهوال ، فقد مرت بالمسلمين تبوك ، التي سماها القرآن ساعة العسرة ، لأنها صادفت حمارة القيظ ، ووافقت أيام الجذب والجوع ، وكانت محكا للإيمان الصادق ، والجهاد الخالص ، وهتك الله فيها أستارها كانت تغطي على النفاق .

مولد النور

لفضيلة الشيخ على رفاعي

مفتش الوعظ والارشاد بالأزهر

بميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انتشر نور الحياة في جزيرة العرب ، وأضاء الله به المشرق والمغرب ، وأحيا به أمة خيِّم على ربوعها الفناء ، وأطبق على أهلها ظلام الجهل ، فهي والأنعام سواء . ومن أراد أن يعرف ذلك تمام المعرفة فليُنظر إلى ما كان عليه شبه جزيرة العرب قبل بعثة من أرسله الله سراجا

وَقَدِّمُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف المسلمين في هذا الوقت كان مثالا على فدائية القائد الذي يسبق جنوده إلى الهلاك ، ويتقدمهم إلى الموت ، ويبيع قبلهم روحه رخيصةً في سبيل الله ، من غير نظر إلى ما يعرض له من العقبات والصعاب ... وقد عرفنا من حديث غزوة الخندق أنه كان يحفر بنفسه مع أصحابه ، فلما دَمِيَتْ أصبحه لم يَعْنُته ذلك عن متابعة العمل ، ولم يصدفه عن مواصلة السير فيه ، ولم يزد على قوله « وفي سبيل الله ما لقيت » ، وكان الذين يعملون معه كلها رأوا منه هذا التواضع ، وأَحْسَسُوا فيه هذا الإيمان ، وشاهدوا استهانتهم بما يلاقى تأججت عزائمهم ، واشتعلت هِمَمُهُمْ ، وضاعفوا جهودهم ...

وربما كان الذي لافاه من خصومه بعضا مما كان يلقاه من بعض أنصاره الذين كانت فيهم جفوة طباع ، وفظاظة قلب ، وخشونة معاملة ، وإذا كان العرب على العموم فساء الأكباد ، غلاظ العادات ، فقد كان قومه على الخصوص أكثر في ذلك كله من سواهم ... وفي الحديث أن رجلا أعرابيا جاء إليه فقال له بأسلوب العنف والشدّة ، يا محمد ، ثم جذبه من حاشية ردائه جذبة تأثرت بها رقبته ، وطلب منه أن يأمر له بشيء من مال الله ، فلم يزد على أن التفت إليه ضاحكا ، وأمر له بالعطاء ، وبهذا الديدن ، وذلك الخيم يسود الرجل ، ويستحق ثناء الله « وإنك لعلى خلق عظيم » .

يضىء وقرأ ينير ، يرى أن القوم كانوا في عمام ليس بعده عمام ، وجهالة ليس بعدها جهالة ، عقول كلبلة ، ونفوس مريضة امتطت الشر وركبت الفساد . الجفاء فيهم طبيعة ، والغلظة في أحوالهم غريزة . يرون الشجاعة في السفك والسلب واعتداء الأقوياء على الضعاف . لا تربطهم وحدة سياسية ، ولا تجمعهم رابطة دينية ، ولا يردعهم من فعل القبيح قانون ، ولا يعصمهم عن الوقوع في الدنيايا خلاق . فهم كما قال الله فيهم : « أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

حرموا نعمة النظر في مصنوعات الله ليؤمنوا بصانعها ، فالدين عندهم هوا . ينحتون الأصنام بأيديهم ، ويتخذونها أرباباً تعبد من دون الله ، يعتقدون فيها النفع والضرر ويقدمون لها القرابين ويخلصون لها التقديس والتعظيم . وليست الأصنام عندهم واحدة بل لكل قبيلة صنمها ومعبودها . وبلغ من تعلقهم بها أن الرجل منهم كان إذا رغب في السفر حرص على أن يصحب معه صنماً صغيراً يماثل صنم قبيلته يضرع إليه في حاجاته ، ويستمد منه المعونة في تحقيق رغباته وعجب ما يروى من سفاهة عقولهم وانحطاط تفكيرهم أن بعضهم كان يتخذ لإلهه من الحلوى فإذا جاع أكله ! فعل يدل على طمس البصيرة وانعدام التفكير ، وركوب الأهواء وتقليد الآباء « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل » .

وكانوا مع ذلك في عقائدهم أصنافاً شتى ، فمنهم من أنكر وجود الخالق وجحد البعث والإعادة ، وقالوا : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، ومنهم من اعترف بالخالق وابتداء الخالق وأنكر البعث والإعادة ، وفرقاً أنكروا الرسل واستبعدوا أن يبعث الله بشراً رسولا وعبدوا الأوثان والأصنام وزعموا أنها تقرهم من الله زلفى .

وجمهرة العرب كانوا من هذا الصنف . وقليل منهم كان يميل إلى اليهودية والنصرانية ، وبعضهم كان يعبد الملائكة ويعتقد أنهم بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذلك موجز حالهم الدينية ، أما حالتهم السياسية فلا تحزن عدوا ولا تسر صديقاً ، فقد كانوا أذلاء مستضعفين لدولتي الروم والفرس . وكانت قوانينهم ما اضطلحت عليه كل قبيلة ، أو ما رآه زعيمها من حسن وقبح ، فالحسن ما يحسنه

والقيسح ما يقبحه ، لا يرون جريمة في وأد البنات وقتل الاولاد ، ولا يأنف المرء منهم أن ينكح زوجة أبيه أو يجمع بين أختين على فراشه .

في هذا الظلام الحالك والليل البهيم بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، نأضاء ببعثته القلوب وأشرق عليها نور الهداية ، فبدل جفاءها مودة ، وغلظتها رقة ورحمة ، وجهلها علماً وحكمة ، وذلها عزاً ومجداً .

لقد جاء ميلاده وسط هذه الغياهب بما سبقه من إرهابات إيذانا بعمد جديد تتغير على صفحته تيارات الخلق برسوم من العزة والعظمة ، عصمت بها العقيدة وانتقل بها الفكر من الاحجار إلى بارئها وارتفع البصر من الأرض إلى السماء يتلفق منها حل قضيته ، لأن كتب المؤرخون وأكثروا وأطالوا البحث عن عظيم يكشفون للعالم ما استسر من نواحي عظمتهم . عظيم في قيادته لشعبه وتغلبه على سيء عاداته . أو عظيم في فلسفته يشق بالناس طريقاً إلى ما وراء المشاهدات ، أو عظيم في شخصيته التي تقهر من بعد وتغلب على العقول والقلوب من قرب . أو عظيم في نشأته وتكوينه ، تحوطه العجائب إلى غير ذلك مما يعنى به النقاد الوازنون للأشخاص والاعمال . فأنى لهم أن يكتبوا عن هذه الشخصية التي طامسا وضعها الباحثون من أهل الشرق والغرب أمام مناظيرهم حتى إذا وصلوا إلى ناحية زعموها محدودة لعظمتهم أشرق شعاع آخر من ناحية أخرى ليست في حسابهم ، فأرجعتهم القهقري وقد أحسوا بأنهم لم يصلوا إلى الغاية مما ينشدون .

قائد جمع الشتات ورسم الهدف ووضحه لكل ذى بصيرة . إنه أستاذ البشرية على اختلاف طبقاتها وتنوع مذاهبها عن طريق إحياء الفضيلة التي وضعها العالم قبله تحت الأقدام (إنما بعثت لأتم مكارم الاخلاق) .

ولم ينل هذا بكلمة واعظة أو صدقة مبذولة بل ناله ببذل الوقت وتكريس الجهد ، واستطاع بهذا الثمن أن يجمع من حوله هؤلاء النفر من صناديد الكفر إلى هداة وغزاة في سبيل الله .

تدرج بهم على هدى القرآن في الأدب العالى (فيما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنتم فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . .) (إنما المؤمنون إخوة)

(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . حتى فاجأوا كسرى على عرش عظمتهم وهم في خشونة الملابس وزهادة العيش بكلمة الحق جريئة حكيمة (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) فعبسوا الله مخلصين له الدين ، وعاملوا الخلق غير عادين ولا غاشين ، فملكوا الدنيا زاهدين فيها والآخرة عن طريق الدنيا وتركوا لنا من بعدهم ميراثا يفنى الزمان ولا يفنى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) فمن كمولانا الكريم أصلاً ونشأةً ومن مثله حياة تزخر بالخير وسط شرور قاصمة . ومن يدانيه في يتم توجه الاتزان وزانه الأدب وعهدنا بالآيتام الإهمال والضياع أو الدلال وفساد الحال . من كيتيم عبس الله رزانه وعقلا حتى لم تؤخذ عليه هفوة يعبر بها أو زلة لسان أو عثرة قدم تنقص مكانته (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أسعدوا أفكاركم أيها الكتاتيون وأقلامكم ، حين تزجون بها في حياة هذا المولود الذي سعد به العالم . إذ أطلق العقول بعد ما قيدتها الأديان الباطلة بالآوهام والاضاليل (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وحرر الطغام من قيود الاستعباد في الأموال والرقاب ، فأعطى كل امرئ حقه في حياته يرسم لنفسه ما يشاء من مسالك بحيث لا يضر غيره (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً -) (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ...) حتى خلع عن نفسه الحول والقوة ونزل إلى الناس واحداً منهم يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما للهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

لقد كان مولد النور والهدى لمن أراد النور والهدى . ولترجع قبل ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانين سنة ، كي تنمف معه وسط العالم المتخبط لتجعله أستاذاً مرشداً في ظروف شاه فيها وجه الحق وأصبح الزور والطغيان عند الأمم قانوناً بل وديناً . إننا إن فعلنا وحاولنا الخلاص فلا بد واصلون (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) فإن من حمله الرسالة وسلمه القيادة قال (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) .

أعلام الأزهريين

حمزة فتح الله

المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م)

لفضيلة الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

ينحدر من سلالة مغربية ، ولكنه ولد بـبغداد الاسكندرية ، سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) وشب بها ، حفظ القرآن في إحدى مكاتبها ، ودرس العلوم الشرعية واللغوية بجامع الشيخ ابراهيم باشا ، ثم ألحق بالأزهر ، فأتم به دراسته ، وتوفر على الآداب واللغة فتمكن منهما وأصاب حظا كبيرا ، ودبج الرسائل الادبية ، ونظم الشعر ، ثم عاد إلى الاسكندرية ، ورحل إلى تونس ، فلبث فيها بضعة سنين تولى في أثناءها تحرير جريدة الرائد التونسي ، فأكسبه ذلك مرانة ودربة على معالجة الكتابة الصحفية والسياسية . ثم عاد إلى مصر ، فألقى نار الثورة العرابية مشبوبة ، فاتصل بالخدوي ، وكان من أعوانه ومناصريه ، فأوحي إليه أن يحرر جريدة البرهان ، لمنشأها معوض فريد ، وقد كانت أسبوعية تصدر في الاسكندرية وتعلن أنها صحيفة الخديو ، وتفاخر بأنها دحلت من أعتابه العليا محل القبول . كانت الصحف المصرية تحبذ الشورى وتدعو لها ، والكتاب يعضدون هذا المسلك ويجهدون في سبيله ، ولكن الشيخ حمزة ، رحمه الله دعا دعوة رجعية تنافي ما أجمعت عليه الصحف في ذلك الحين ، ولم يقتصر في مناصرته للخديو على تحرير جريدة البرهان ، بل أصدر جريدة الاعتدال ، عام الثورة العرابية زيادا عن العرش ، وكثيراً ما كان يخطب معضداً هذه السياسة .

وفي سنة ١٨٦٦ م ندبته الحكومة المصرية لتمثيلها في المؤتمر العلمى الشرقى الذى عقد في دينا ، كما ندبته مرة أخرى لتمثيلها في مؤتمر العلوم الشرقية الذى اجتمع في استكهلم ، سنة ١٨٨٩ م .

ثم رأى أن يزاوِل التعليم فعين في سنة ١٨٨٨ م مدرسا بمدرسة اللسان ، ثم مدرسا بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج عليه طائفة من المُضَلَمين ^(١) في اللغة والآدب .

وفي سنة ١٩١٠ م عين مفتشا أول للغة العربية ، وظل كذلك إلى أن خرج بحكم الستين ، في سنة ١٩١٢ م ، فعكف على البحث والاطلاع والتقليب في كتب اللغة والآدب ، حتى وافته المنية في ابريل سنة ١٩١٨ م بعد أن كان كف بصره .

أثره في اللغة والآدب :

كان رحمه الله حجة في اللغة ، متمكنا من أصولها وفروعها ، ملها بأسرارها ودقائقها ، غيورا عليها ، شديد الحفاظ لها ، يلتزمها في حديثه مع جميع الناس حتى مع خادمه ، ولم ينزل عن غريبها في جميع ما كتبه من شعر أو نثر أو حديث أو مراسلة أو تقرير ، حتى كان بعض الآداباء يضع بعض النوادر في أسلوب غريب ، وينسبها إليه لتلصق به .

وكان شديد الحفظ قوى الذاكرة ، ملها بطائفة عظيمة من شعر الفحول وقصصهم ، وأحاديث السلف وما يتعلق بهم ، فما تذكر له حادثة إلا ويفيض في تقريرها وبيانها والتعليق عليها والانتقال منها إلى أخرى مشابهة لها .

هذا إلى عذوبة حديثه ، وصحة عبارته ، وحلاوة محاضراته ، وجمال دعايته ، وما يتدفق منه من بيان وعلم غزيرين .

وكانت له على المدرسين هيمنة واسعة ، وإشراف دقيق في أثناء تفتيشه بوزارة المعارف ، فقد كان يحاسبهم حسابا عسيرا على هفواتهم ، ويرشدهم إلى زلاتهم ،

وينبهم إلى مواطن الخطأ والصواب ، حتى اضطرهم إلى مراجعة معاجم اللغة ، والبحث في مجفواتها ، وما طال هجره من الالفاظ ، فأخرج كنوزها ، ورد إليها بهجتها ، ونفى عنها ما يداخلها من الأغلاط ، وخلصها من أدران العامية والدخيل ونقاها من عجمة الاساليب وفساد التراكيب .

ويحدث الاستاذ د عبد العزيز البشري ، رحمه الله عن أثره في اللغة فيقول :
« وفي أعقاب نهضة « المرصفي ، يقبل العالمان الأديبان « الشيخ حمزة فتح الله ، و « الشيخ ابراهيم البازجى ، فيكشفان عن مجفو العربية ، ويستظهران من أوضاعها وصيغها ما يدل على الكثير من الاسباب الدائرة ، ويتعقبان الأخطاء الشائعة ، ويدلان على الصحيح الناصح ^(١) من كلام العرب فيأخذ السكتاب والشعراء أنفسهم بالتحري في التماس الصحيح حذر النقد والتشهير ، وكذلك تصفو اللغة وتشرق ديباجتها ^(٢) .

كان من أثر هذه العناية وما أخذ به المدرسين من شدة المراقبة وعسر الحساب أن طبع كثير منهم بطابعه ، فتشددوا تشدده ، ونسجوا على منواله ، ووقفوا عند السماع وعكفوا عليه ، « بل تغالى بعض المفتونين منهم ، وتعدوا طورهم ، فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة في اللغة ، ولو وجدت في شعر فحول الأدباء من أهل القرون الأولى ^(٣) ، .

والحق أن هذه طريقة خدمت اللغة ، وكان لها أثر طيب في سلامتها ، ولكن الإمعان في التشدد ، وهجر ما سهل من الالفاظ إلى الغريب المتوهر ربما أورث الكتابة تعقيدا وغموضا .

وكثيرا ما كانت تعرض عليه وزارة المعارف ما تطبعه من كتب العربية فيقوم بتصحيحها ويخرجها سليمة من الأخطاء اللغوية والعربية .

مؤلفاته :

ترك الشيخ « حمزة فتح الله ، آثارا دالة غلى غزارة علمه ، ودقة بحثه ، وتمكنه

(١) نصح : خالص ، والناصح الخالص (٢) المختار ج ١ ص ٤١

(٣) الوسيط في الأدبي العربي ص ٣٤٠ .

من أسرار العربية وإلمامه بدقائقها ، وقد اتسمت هذه المؤلفات بالبحث المنظم ،
والذسج المحكم ، والاستيعاب الدال على سعة العلم .

ومن هذه المؤلفات :

(المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية) التى أحيا بها ما اندثر من آثار
السابقين ، وجرى فيها على طريقة الجاحظ والمبرد والقالى والمرضى فى أماليهم ،
وهى فنون من اللغة والأدب والعلم ، دالة على سعة اطلاعه ، وطول باعه
فى علوم مختلفة من أدب ونحو وصرف وبلاغة وتاريخ وفقه ومنطق وغير ذلك
فهى أخذ من كل فن بطرف ، وجمع لما يوسع المدارك ويشقف الأذهان ، وهو
إذ يعرض خطبة من خطب العرب أو قصيدة من قصائدهم أو رسالة من رسائلهم
يترجم للخطيب أو الشاعر أو الأديب ويذكر شيئاً من خبرهم ، ثم يشرح أثره
الشعرى أو الثرى شرحاً لغوياً دقيقاً ، ويستطرد إلى إعراب الشعر ، ويعرج
بذكر طرف من النحو أو الصرف أو البيان مقابل بين هذا المعنى وما ذهب
إليه غيره ، وهكذا لا يزال يتهم فى الأدب والعلم وينجد ، ويطوف بك بين رياضه
ويهدى إليك من ثماره ، وأنت مفتون بما أهدى إليك ، معجب بطريقته فى البحث
ومنحاه فى الدراسة ، وحسن تنظيمه وترتيبه . « والمواهب » جزآن حافلان
بالنسكت الأدبية والبحوث المختلفة التى تقوم الألسنة وتمد الأقلام ، وتنقح
الأديب بما لا غنية له عنه ، والسكتاب مطبوع متداول .

ومن مؤلفاته رسالة فى المفردات الأعجمية التى وردت فى القرآن الكريم ،
وهى بحث طريف أعان عليه سعة علمه ، وله رسالة أخرى فى الوسم سماها « هداية
الفهم إلى بعض أنواع الوسم » تحدث فيها عن وسم الخيل والغنم وغيرهما وأسماء
ذلك عند العرب بما عثر عليه فى كتاب المخصص لابن سيدة وغيره من كتب
اللغة ، وفى أول الرسالة فهرس بأسماء السمات مرتب على حروف الهجاء ، والرسالة
محلة بصور بعض الإبل الموسومة ، طبعت فى بولاق سنة ١٣١٣ هـ ، وله رسالة
فى التوحيد نهج فيها منهجاً عقلياً فى البحث والاستدلال ، وله رسالة « سماها
باكورة السلام » فى حقوق النساء فى الإسلام ، وهى مطبوعة أيضاً .

كتابته :

كانت له في الكتابة طريقتان : طريقة وعرة متكلفة ، وأخرى سهلة مرسلة ، فهو يلتزم السجع أحيانا ، ويفتن في استعمال الغريب ، ويعمد إلى الزخرف والصنعة ، فتجده كتابته ثقيلة متوعدة غامضة ، تنفر النفس من طول ما بذل فيها من التعمل والتكلف .

ولكنه يعمد أحيانا إلى السلاسة والسهولة ، ويتجنب السجع فلا يرد في كلامه إلا عفوا غير مطلوب ، ويتضح معناه ، ويشرق لعبيره .

وهو في كلتا الحالتين فصيح العبارة محكم النسيج ، شديد السطوة .

ويغلب أن يكون النوع الأول في رسائله ومعاطانه الوصف ، ومجاراته أساليب القدماء ، وأشد ذلك في توقيعاته .

ويغلب أن تكون السهولة والوضوح في كتابته الصحفية وما يتناول به الشئون الاجتماعية .

شعره :

أما شعره فهو غريب مسدود ، لا يجري مجرى الطبع والارتياح ، بل يتناول على استكراه وتكلف ، ويعنى فيه بالزخرف والصنعة ولا تنسم منه روح الشعر المطبوع ، ولم نعر على شيء من شعره إلا قليلا .

نماذج من كتابته

كتب إلى بعض الفضلاء يطلب وده ، وهو من نثره المتكلف الجارى مجرى الصنعة والتعمل :

« كما أن شغف ^(١) الجنان ^(٢) ، بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الانظار في محيا ^(٣) السكال ، ومجئتي ^(٤) الجمال ، فترى العين من تلك

(١) الشغف : شدة الحب . (٢) الجنان بالفتح : القلب .

(٣) المحيا بضم الميم وتشديد الياء : الوجه . (٤) مجئتي : منظره .

الغرة ^(١) ما يملؤها قرة ^(٢) ، فكذلك السماع يستدعى هذا الشغف فيتأثر الفؤاد بما يشنف ^(٣) الأذن مما تهذب به إليه طرائف ^(٤) الأخبار حتى كأن حاستي السمع والبصر في ذلك صنوان ^(٥) ، بل أخوان ، في هيكل هذا الجثمان ^(٦) .

• ألا وإن محاسن السيد الأجل لما سارت بها الركبان ، وأثني عليها كل لسان ، ما بين أخلاق أبيه من الروض النضير ^(٧) ، وأعراق ^(٨) أشهى من عذيب النسيم ^(٩) ، قد احتلت من فؤادي لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصبياً ، بل منزلة شماء ^(١٠) ، ودارة ^(١١) علياء ، وأوجاً ^(١٢) بطوالها السعيدة يسعد ويلوح بها من ذكره كل حين فرقد ^(١٣) ، فلم أنشب ^(١٤) أن قدمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللقاء ، علته أن يسمح به الزمان . وتشعر ^(١٥) عنه الليالي والأيام ، ليتاح لي رى الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : ما وصف لي أحد فرأيته إلا وجدته دون ما وصف لي سواك ، وإن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والاناة ، ^(١٦) مقتدياً بالإمام محمود جار الله ^(١٧) في تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه الشريف ابن الشجرى أول ما لقيه ، وكان قد تحابا بالسماع :

كانت مُساءلة الركبان تخبرنا عن جابر بن رباح أطيّب الخبر
حتى اجتمعنا فلا والله ما سمعت أذن بأحسن مما قد رأى بصرى ،

(١) الغرة : الوجه .

(٢) قرت العين : جف دمعها وبردت من السرور والاسم منه القرّة بضم القاف

(٣) يشنف الأذن : يطربها ، وأصله من لبس الشنف وهو القرط .

(٤) الطرائف : الأحاديث المستملحة . (٥) الصنوان : الأخوان الشقيقان

(٦) النضير : الحسن . (٧) الأعراق هنا : بمعنى الطباع والصفات .

(٨) النيمر : الكثير من الماء . (٩) شماء : عالية .

(١٠) دارة : دار ، ويراد بها المكانة (١١) الأوج : العلو .

(١٢) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى .

(١٣) لم أنشب : لم ألبث . (١٤) تشعر : تكشف .

(١٥) يتاح لي : يتهيأ لي . (١٦) الاناة : الوقار والحلم .

ومن كتابته السهلة الواضحة التي لا تتواء فيها ولا تعقيد ، ما كتبه بعنوان
« الشورى ومجلس النواب المصرى ، فمما قاله :

« نحن وإن كننا نعلم ما يترتب على الشورى من الفوائد العظيمة ، والمنافع
الجسيمة ، وما ينبج من التفرد بالرأى من سوء العاقبة ، غير أن ذلك لم يمنعنا من
إبداء ما نراه من الملاحظات فى الأمرين كليهما ، أعنى الشورى والتفرد بالرأى
المعروف بالاستبداد ؛ فأما الشورى ، فإنها وإن كانت بمدوحة عقلا وشرعاً بما ورد
فى الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى
أنها واجبة حتماً على أولى الأمر بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ
أحكامهم ، لأن هذا ما لا يقول به أحد ، بل إن مبلغ العلم فيها أنها من الأمور
التي ندبت إليها الشريعة المطهرة من قبيل إتمام مكارم الأخلاق .

« وأما الاستئناس بأن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ترك
الأمور شورية فهو غلط ظاهر .

« ألا وإن الملوك ظل الله تعالى فى أرضه ، لا يجوز الخروج عن طاعتهم ،
ولا البغى عليهم ، ولا تخف ذمتهم ولا تنكث بيعتهم ، ولا ينقض عهدهم فى حال من
الأحوال ، اللهم إلا بكفر صريح لا يحتمل التأويل ،^(١) .
نموذج من توقيعاته .

وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التي أرسلت إليه ليقرأها ، وكان
قد ضرب على بعضها ، فقال وهو غاية فى الغموض والإغراب :

« لم أرد بذلك الترميج^(٢) إلا الرعوى^(٣) على النشء ، فإن قُلّا مع حفظ
المبنى خير من كثر يطوح^(٤) به فى مواى^(٥) المنبت^(٦) ،

(١) نشرت بجريدة البرهان الصادرة فى أول ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

(٢) الترميج : إفساد السطور بعد كتابتها .

(٣) الرعوى ويضم النزوع عن الجهل وحسن الرجوع عنه .

(٤) يطوِّح به : يرمى به (٥) المواى : جمع مومة وهى الصحراء

(٦) المنبت : المنقطع عن السفر (٧) العود : البعير المسن .

نمذج من شعره .

قال في مؤتمر العلوم باستكملم :

حمد السرى يا أخى العود^(١) والناب^(٢)
ولو شهدت عبا با خضت لجته
يطفو إذا خفقت فيه بأجنحة
تجر في اليم أذيالا مصبغة
ومنها :

طفقت أختلها^(٣) شزرا^(٤) وقد سمرت
تقول ما للنوى بنى مولعاً دنفا
ومنها :

وهو الذى كان أغرانى بنظرته
فهو الذى إن كتمت الحب باح به
ومنها فى الحكم :

(١) الناب : الناقة المسنة (٢) الوعاء : المشقة .

(٣) إغباب : أغب الإبل صاحبها إذا ترك سقيها يوماً وليلتين .

(٤) الإخباب : الإمراع (٥) سفين : جمع سفينة .

(٦) خباب : مضطرب .

(٧) (١) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ، ج : خودات وخود .

(٨) الجلباب كسر داب : القميص ، وثوب واسع للمرأة دون الملحفة
أو ما تغطي به ثيابها من فوق كالمحفة ، أو هو الخمار .

(٩) أختلها : أخذها .

(١٠) شزرا : شزره وإليه يشزره نظر منه فى أحد شقيه أو هو نظر فيه
إعراض ، أو نظر الغضبان بمؤخر العين أو النظر عن يمين وشمال (قا، وس) .

(١١) فضت : خلعت .

كم جامع بالثرى راضيه ^(١) سفر فوق الثرى بين أكوار ^(٢) وأقناب ^(٣)
 إن الثواء ثواء ^(٤) والقصور قبو ر العاجزين ولا إبراء ^(٥) للخبابي ^(٦)
 ومن بنى نيل بمجد وهو في دعة فقد بنى من صفاء ^(٧) در أحلاب ^(٨)
 والمرء في موطن كالدر في صدف والتبر في معدن والتبع في غاب

وقال يمدح الوزير خير الدين باشا بقصيدة مطلعها :

آلاؤك ^(٩) الغرأ وآناؤك ^(١٠) الغرر زهابها في الزمان الجيد والطرر ^(١١)
 الله ملجؤنا إذ ليس يفجؤنا شر الخطوب وخير الدين لى وزر

(١) راضيه : ذلته .

(٢) الأكوار : الرجال أو بأدائها : جمع كور .

(٣) الأقناب : الأكف التى توضع على نقالة الاحمال ، جمع قتب .

(٤) الثواء : ثوى المكان وبه يشوى ثواء وثويا نزل ، وأثوى به أطال الإقامة به أو نزل .

(٥) الإبراء : أورى الزند إذا أخرج ناره .

(٦) الخبابي : خبت النار سكنت أو طففت .

(٧) الصفاء : الحجر الصلد الضخم لا يثبت .

(٨) أحلاب : الحلب ويحرك استخراج ما فى الضرع من اللبن ، والحلب محركة والحليب ، اللبن المحلوب .

(٩) الآلاء : النعم .

(١٠) الآماء : الوهن والساعة من الليل أو ساعة ما منه .

(١١) الطرر : جمع طرة (جانب الثوب الذى لا هذب له وشفير الوادى

والنهر وطرق كل شىء وحرفته ، والناصية) وأن تقطع للجارية

فى تقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج .

دراسات في التصوف :

السهروردي المقتول

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

[بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح]

إذا مر مار بحلب ، فقد يرى غرفة مظلمة باردة لا ينفذ إليها ضوء ، ولا تسرى إليها شمس ، ولا يتخللها هواء ، كأن الضوء والشمس والهواء ، تبخل على القبر الذي بها ، أو كأنها لا تعلم أن بها قبراً يضم رفات عقل حر ، وصوفي لقي من جمود عصره ، وصادف من تعنت قومه ، مالم يصادفه رجل آخر ؛ هو رفات لرجل كان مثلاً للشجاعة ، رجل لم يحفل بالموت واستقبله باسمها هازئاً ، كأنما يستقبل نعيماً أو سعادة حققة .

فإن كان سقراط مثل الفيلسوف الحر الذي أثر الموت ، ولم يحفل به ، الذي أعطى السكّاس وهي منية شفتى محب يشتهي التقبيل ، فإن هناك لصورة أروع ، ومأساة ألجج ، هي صورة هذا الشاب ، ومأساة ذلك المفكر الذي مات ميتة من أفدع الميئات وأعنفها ؛ مات فتنفرق عنه صحبه ، ثم نسي على مر الزمان ؛ وسواء أبكى بالدموع الغزار ، أو رثى بالدر من الأقوال ، فكل هذا قد ذهب ، كما ذهب مفكرنا ومات ، ذهب بعد أن ترك صفحة خطتها له يد الأقدار ، وبعد أن كتب في سجل الخلود اسمه ، وضمن البقاء لذكوره .

هذا هو شهاب الدين السهروردي .

ومن عرفوا بهذا الاسم في تاريخ الإسلام كثيرون ، اشتهر كل منهم بالعلم والفضل والآداب ، ولكن من ينعيننا من بينهم هو هذا الذي قتل بحلب بعد

أن حرر الفقهاء وثيقة كفره ، وسجلوا زندقته ، واتهموه بالتعطيل وإفساد عقول الشباب .

وليس السهروردى هو أول ضحايا الفكر ، ولن يكون آخرهم ، فكم غيره قد قتل أو سجن ، وكم غيره نفي أو شرد ، ولا ذنب لهذا أو لذلك إلا سعة الألفق وحرية رأى ، وهى سعة وحرية تأبى الاتفاق دائماً مع العقلیات العتيقة الرجعية الجامدة .

من هؤلاء فى تاريخ الفكر الإسلامى كثيرون ، منهم البسطامى الذى نفي ، وسهل بن عبد الله التسترى الذى أخرج من بلده متهماً بالقبيح والكفر .

وكفر الجنيد والشبلى ، ورُمى أبو مدين بالزندقة ، وقتل الحلّاج ، وأخرج أبو حسن الشاذلى من مصر بعد أن حكم عليه بالزندقة .

ولكن هؤلاء جميعاً اليوم يعدون من أساطين العلم وصناديد الفكر ، صفحتهم بيضاء نقية ، وسيرتهم عطرة زكية ، كانوا شهداء ، وغدوا مخلصين .

ولولا هذا الاضطهاد لازدهرت عقول كثيرة ونبتت ، وسطعت نجوم فى سماء الفكر ، خبا نورها واحتجب ، بفعل الاضطهاد .

* * *

اشتغل السهروردى بالفقه ، وراض نفسه على التصوف ؛ نظم الشعر ، وأملى فى الفلسفة ، ودوّن فى العلم ، وطوف فى البلدان وهو شاب فى ريعان العمر ، وما لبث أن قذفت به الأقدار إلى حلب ، فاتخذها له مقراً ، ولنشاطه العلمى مسرحاً . جادل فيها وناظر ، فأعجب به الشباب فأحبوه ، وخافه الفقهاء فحسدوه ، وما زالت فئة منهم تدس له المرة إثر المرة ، حتى ظفروا بهدر دمه . ذلكم الرجل الذى يتغنى الصوفية فى أروقتهم بقصيدته :

أبدا تحن اليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

هو يحيى بن حبش السهروردى ، شهيد من شهداء الفكر ، عالم مفكر ، ذكى حاد الذكاء ، حر النزعة ، فيلسوف متصوف ، شاعر رقيق ، زاهد ازدرى الحياة وزخرفها الفانى ، وطمع فى الله والقرب منه ، أراد بالحياة الدنيا حياة خيراً وأبقى ،

فأعرض عن الزائل من ملذات الحياة ، ولم يحاول أن يتقرب للناس أو للبلوك ، فسعى هؤلاء اليه ، مع ما كان عليه من هيئة زرية ، وثياب رثة ، لم يهتم بالشئون العرضية ، ولكنه سعى إلى جواهر الأمور وحقائقها العليا .

ذلك هو السهروردي كما اتفق عليه كل المؤرخين ، يقول عنه ياقوت الرومي : « شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي ، كان ، فقيها : شافعي المذهب ، أصوليا ، أدبيا ، شاعرا ، حكما ، متفتنا ، نظارا ، لم ينظره مناظر إلا خصمه وأخيه ؛ قرأ بالمرأغة على الشيخ الإمام مجد الدين الجيلي الفقيه الأصولي المتكلم ، ولازمه مدة ، ثم تنقل في البلاد على قدم التجرد ، ولقي بماردين الشيخ نجر الدين المارديني ، وصحبه ، وكان يثنى عليه كثيرا ، ويقول : لم أر في زمانى أحدا مثله ، ولكنه أخشى عليه من شدة حدته ، وقلة تحفظه . ثم رحل أبو الفتوح إلى حلب فدخلها في زمن الظاهر غازي بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ ، ونزل في المدرسة الحلاوية ، وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ، وبحث مع الفقهاء من تلاميذه وغيرهم ، وناظرهم في عدة مسائل ، فلم يجاره أحد منهم ، وظهر عليهم . وظهر فضله للشيخ افتخار الدين ؛ فحضر مجلسه وأدناه ، وعرف مكانه في الناس . ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء ، وكثر تشنيعهم عليه . »

أما صاحب النجوم الزاهرة ، فيورد لنا : « أن السهروردي كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب النيرانجيات ، فاستمال بذلك خلقا كثيرا وتبعوه ، وله تصانيف في هذه العلوم . »

ويراه ابن أبي أصيبعة ، في طبقات الأطباء : « وأحد أهل زمانه في العلوم الحسكية جامعا للعلوم الفلسفية ، بارعا في الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، وكان عليه أكثر من عقله . »

وكان « صاحب العبر » يراه : « أحد أذكيا بني آدم ، وأنه كان رأسا في معرفة علوم الأوائل ، بارعا في علوم الكلام ، مناظرا محججا ، متزهدا ، مزدريا للعلماء مستهزئا ، ولعل هذا هو السبب الذي حمل « ابن خلدون » على أن يعد « السهروردي » « رقيق الدين » ، وإن لم يذهب إلى اتهامه بالزندقة .

كان عصر السهروردي وبيئته ، عجيبين حقاً ، فقد كان عصر اضطراب بالغ ، وحروب وحشية ، بلغت من الشدة ، بلغاً عظيماً ، كانت حروب يدفعها دافعان ، ولها هدفان : الدين ، والوطن . قام المسلمون يذودون عن بلادهم عادية الصليبيين ، ويدفعون هلاقتهم ؛ ليحموا حتى دينهم ، فكان القوم في هوس وجنون ، في خوف وقلق : في اضطراب . نشأ عن ذلك كله أن طبع العصر بطابع ديني عنيف ، فكان للفقهاء فيه مكان مرموق ومرتبة سامية ، وكان كل ما يشتم منه رائحة الزندقة ، أو يظن فيه الخروج على الدين ، يمس الناس في أرق لإحساساتهم وأكثرها تأثراً .

* * *

بالقرب من زنجان من أعمال أذربيجان ، توجد بلدة ليست بالكبيرة الجميلة ، وليست بالصغيرة الخاملة ، وفيها كان يعيش صاحبنا ، لا يشغله إلا التفكير والغوص وراء درر المعاني وجواهر الوجود ، وكأماً ضاق شهاب الدين ببلده ، أو ضاقت به بيئته ، فزح عنها يحوب بلاد الله إلى أن ألقى عصي ترحاله في حلب ، وكانت آنئذ من أشهر مدن الإسلام ، يحكمها الملك الظاهر بن صلاح الدين ، الرجل الذي أنهض المشرق فهز المغرب ، والذي دافع ضد غزاة الشرق الآتين من الغرب ، يرجون بحق الإسلام ، ويريدون بيت المقدس .

شد شهاب الدين ، رحاله إلى سورية ، يحمل في وفاضه الحكمة ، ويطوى في ثنايا عقله العلم والمعرفة ، وما إن وصل حتى ألف حوله العلماء يناقشونه ، وكأماً سبقت شهرته إلى تلك البلاد ؛ وكأماً خيل إليه أنه في أرض الحرية والنور ، الأرض التي بزغ في جنباتها المسيح ، والتي إليها سرى نبي الإسلام ، فدخل حلب يحذوه الرجاء ويدفعه الشوق إلى أن ينادى بمذاهب جديدة ، وأن يبنى آراء جديدة ، وأن يكتب ويؤلف ويملي ، وأن يبدأ من جديد حياة جديدة .

ودخل السهروردي ، حلب ، وله من العمر ثلاثون عاماً ، وله من الشهرة حينذاك ما طغى على كل شهرة خاصة ، وإن كان ما زال شاباً . عرف فضله الشيخ ، افتخار الدين ، فقر به منه ونقل إلى السلطان أمره ، فأحب أن يعرفه ، ولكن الخصوم نقلوا إلى السلطان صورة قبيحة عنه ووصفوه وصفاً تقشعر منه النفوس :

زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ بدن ، لا يغسل له جسما أو ثوبا أو يداً ، لا يقص ظفراً ولا شعراً ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسمى على ثيابه فيهرب منه كل من يراه .

وهذه صورة بشعة تنفر النفس من صاحبها ، وتحمل الإنسان على البعد عنه ، ولكن إذا عرفنا أن السلطان قد قابله ، وما أن فاض السهروردي في حديثه ، وتكلم في أدق الشئون العقلية والدينية ، حتى قربه وأقبل عليه وتخصص به ، إذا عرفنا هذا ، علمنا مقدار المبالغة في الصورة التي رسموها للسهروردي . وهكذا ذهبت دسائس الخصوم أدراج الرياح .

تحدث السهروردي مع الملك الظاهر ، فرأى هذا منه : صفاء العقيدة ، وقوة الإيمان ، وحرية الرأي ، ونقاء الطوية ؛ فازداد عليه عطفاً ، وله تقريباً وإحساناً . وبالتالي ازداد خصومه منه حسداً وكهداً ، فإذا بالسهروردي عندهم : زنديق كافر معطل ، والادهى من ذلك والامر أن السلطان قد قرب به ، إذن فعلهم بصلاح الدين .

كان صلاح الدين في مصر ، وكان الطابع الذي يطبع العصر كما سبق القول هو وحدة العاطفة الدينية ، نتيجة للحروب الصليبية .

اجتمعت كلمة بعض الفقهاء على السهروردي ، فتألبت معهم جموع الجمل ، واجتمع شعث الجامدين ، ولم يكن تأمرهم إذ ذاك على السهروردي ، وإنما كان على الفكر وعلى العلم وعلى الحرية .

خطبوا على المنابر فأثاروا ثائرة الجماهير ، إذ استفزوا شعورها الديني ، وهي أدق ناحية وأكثرها حساسية عند الشعوب .

هي التي ساقط الأوربيين لفتح بيت المقدس ، وهي قبل ذلك التي دفعت بجموع العرب نحو مجدهم الرائع .

قال المتآمرون : إنهم إنما يريدون إنقاذ الدين ، بمحو زنديق كافر متمرد على الدين ، وذهبوا إلى السلطان والشعب من ورائهم ، ولكن السلطان كان يعرف السهروردي معرفة اليقين ، وكان يعرف مقدار ما في دعاويهم من صدق ، ناهيك بحبه للعلم ، وصلته الوثيقة بالعالم .

[يتبع]

صَوَّلْ عروج الجِسم الى السَّماء

لحضرة الأستاذ أحمد ترمجاني

أستاذ الأدب العربي بجامعة تبريز

والأستاذ الوائز بجامعة فواد الآن

[أصدر مجلس السكرادة برئاسة بابا روما قراراً أخواه
أن السيدة مريم قد رفعت إلى السماء ، فكتب هذا
المقال على هامش الموضوع]

كم في عصرنا من العجائب والغرائب في كل ناحية من النواحي : في
الاختراعات والاكتشافات ، وفي الأفكار والآراء ، وفي الأقوال والأفعال ،
وفي إبداء الحقائق وقلب موضوعها ، وفي بيان المصالح الاجتماعية البشرية ، ثم
في نقض الغرض منها وتطبيقها على الفوائد الخاصة بأمة أو هيئة أو فرد ، ولو كان
مرتباً على هذا النقض والتطبيق هلاك أمم أو آلاف من النفوس أو خراب
للعالم أجمع .

هذا ما في العالم من رذائل وشرور ومفاسد وحقن ، قد تعد أقل منها شأنًا ،
وإن غدت كالجرائم تنخر جسم المجتمع ، حتى نجد الناس في هذا العصر أحوج
ما يكونون إلى دعوة تربط بعضهم ببعض ، وتقرب بين عقولهم وأفكارهم
وعقائدهم وآرائهم ، لكي يحصل التفاهم والتعارف بين الشعوب والقبائل والأمم
والأفراد ، فتحقق من آلامهم وأسقامهم الروحية التي منوا بها ، من جراح
التعصبات الواهية القديمة في الأزمنة الغابرة ، ثم بما انضم إليها من الأهواء
والإطباع الحديثة ، والذروع إلى الاستعمار والاستثمار ، بسبب عبادة المادة وأتباع

الأغراض وإعراض الناس عن الله ، وجعلهم لإلههم هواهم ، فزادهم ذلك ضغنا على إبلالة .

نعم فى هذا العصر يقلب الناس وجوههم فى السماء ليجدوا فى الأرض من يخلصهم من هذه الظلمات التى بعضها فوق بعض ، فلا يجدون فى ساستهم وقادتهم الا مصداق قول الشاعر :

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فلاح
أو قول الآخر :

انى لأفتح عيني حين أفتحها على كثير . ولكن لا أرى رجلا

وبعد اليأس والقنوط من رجال الدنيا ونسائها لمعالجة هذه المشكلات ، أو التخفيف من أثمان شؤمها التى تنوء بالعصبة أولى القوة [عصبة الأمم وما فى بابها من لجان كبيرة أو صغيرة] ، كنت أود أن يكون فى رسالات الأديان ما يكون شفاء للناس من أمراضهم الروحية ، وكنت أود اتحاد الأديان ، أو تقاربها وتفاهمها على أصول بشرية لإسعاد الأمم والأفراد مادة وروحاً ، حتى تخرج ما فى صدورهم من غل ، ويصبحوا بنعمة الله إخواناً .

وكنت ولا أزال أرى أن هذا لا كان ولن يكون ، مادام الناس يرون أن الأديان كالأحزاب والمسالك السياسية قائمة على النقاش والجدال والتعصب والأهواء ، وكنت أود أن يكون من زعماء الأديان ورؤساء المذاهب رجال علماء — ولا أهنى بالعلم العلم الدراسى القابل للنش والتزوير ، أو المتغير بالمظاهر والأزياء ، أو المتأثر بالظروف والبيئات ، بل العلم الذى هو وحى وإلهام ، باعث للخيرات والفضائل ، دافع للشرور والرذائل ، مهذب للنفوس ومطهر لها بما غشيها من لواحق المادة وغواشيها ، ومصقل لمرايا القلوب من صدأ الآوهام ؛ أو العلم الذى هو نور ، ونور يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده ، والعالم الربانى فى عصرنا هو الطبيب النطاسى الذى جس نبض النفوس ، وعرف داءها ودواءها ، وشق القلوب وكشف غطاءها واكتشف ميولها

وأهواءها ، ويسعى لنشر الخير والفضيلة بين الناس ، ويعيذهم بالله من شر الوساوس الخناس ، حتى يتغلب النور على الظلام ، ويسود بينهم الصلح والسلام .

ولا يخفى على من له دربة وقلب سليم ، أنه كلما كثرت مشاركات الخلاف ، كثرت الشقاق والنفاق ، وكلما زادت نعمة في الطنبور ، رقص عليها الراقصون من هواة الجدل في مسارح شهواتهم ، ويزيدون عليها كل ما يوحى إليهم شياطينهم في خلواتهم ، وهكذا كانت الفساد بذرة بذورها في حبات القلوب ، وتلاحقت الاحقاب ، وتوارثها الأبناء عن الآباء ، ونمت وانبتت بأمطار من غمام الاوهام ، حتى صارت اليوم ظلاما في ظلام ، ويحق للحجر أن يرق للبشر .

نوع الإنسان ، على الرغم من انتشار العلوم والمعارف ، واكتشاف شيء كثير من أسرار الطبائع ، أسوأ حالا في هذا العصر منهم في كل زمان ، لأنهم قد تعلموا عن الفضائل المعنوية ، التي هي نتيجة العلم الحقيقي ، الذي يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وصاروا صدق تعريف يميز الإنسان عن الحيوان ، في طرف الرجحان ، هو : مستوى القامة ، عريض الاظفار ، ماش على القدمين ، وأما من طرف النقصان :

فقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

وفي هذا الزمان الذي طوى الفكر الإنساني فيه مراحل ما كان يخطر ببال الإنسان في القرون الأولى ، وكأنما سار على جناح البرق والبخار ، وتغير مجرى الفكر بمسافات بعيدة عما كان في القرون الوسطى وما قبلها ، وصارت عقول الناس لا تقبل إلا ما يقع تحت الحواس ، ولا اهتمام لاكثرهم بما وراء الطبيعة وحل غوامضها ، وكشف رموزها ، ومفتاح الرمز - وهو الإشراق والتجريد والصفاء - ليس في متناول أيديهم الآن .

فإن الناس اليوم ، في مختلف أصقاع العالم ، لا يقبلون عقيدة جديدة إلا ببرهان كالحس ، أو دليل كالشمس . وأصبح وقتهم كالذهب ، لكسب الذهب ،

ولا يصرفونه في المذهب ، ولا سيما في أمثال العقائد الروحية العويصة ، التي إن فرضنا إمكان إثباتها ، فيختص برجال منعزلين عن الدنيا وزخارفها ، والمادة وسفاسفها ، الذين قد جردوا أنفسهم للعروج إلى السماء ، والاتصال بالملا الأعلى ، ولا يخوض هذه الغمار إلا واحد بعد واحد . أفلا يحسن رجال اللاهوت أن يقللوا من المباحث الفلسفية العميقة المثيرة للشغابات والشبهات ، الموجبة لتشكيك الناس في عقائدهم ، المؤيدة لذبتهم ورجرجتهم ، فيما قبلوه بإقناعات من التوارث والتقليد ، وأن ينفذوا إلى قلوب الناس من طريق العواطف والوجدان ، ليقرّبوهم إلى الله زلفى ، وأن يدعوهم إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلوهم بالتى هي أحسن ، وأن يردعوهم عن الغوص في مثارات الاختلاف ، ومعتراك العقول والألباب ، وأن ينظروا بعيونهم إلى الإمام لا إلى الورا ، فإن العيون إنما خلقت لأجل هذا .

وكم أعجبنى وسرّنى ما قاله الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في بيانه الأخير من لزوم طرد الزوائد والحواشى ، وما يكتنفها من الغواشى ، والرجوع إلى أصول الدين ومبادئه ، والاخذ بشمراته ونتائجها ، وحذف القشور ، والاكتفاء باللباب ، ليكون نبراساً يهتدى به أولو الألباب ، ويخلص الناس من ظلمات الوسواس ، حتى يكون فيه خير العالم أجمع ، والحق أحق أن يتبع .

وكم في مشارق الأرض ومغاربها من ابتلاءات عجيبية من ناحية الاخلاق والأعمال نشأت من الخرافات والأوهام ، ومن الاختلاف في المذاهب والأديان ، ومن تفاوت اللغات والأجناس ، إن لم يتداركها زعماء الأديان - والدين أمّن حصن وآخر معقل للإنسانية - بالسعى في تلطيف العواطف البشرية وتوحيد طرق الدعوة إلى الحق ، ومحو آثار الحمية الجاهلية ، ونشر مبادئ الإخاء الإنسانى ، إن لم يتداركوها فعلى الدنيا السلام ، وعلى الدين ألف ...

والسلام على من اتبع الهدى .

مصر والسودان

وحدة لا انفصام لها

الدكتور عبد المنعم محمد السنج

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

إن المتتبع للقضية المصرية يروعه أن كان السودان دائماً ، هو الصخرة العاتية التي تتحطم عندها سفينة المحادثات المصرية البريطانية ، ذلك لأن اتحاد شقي الوادي ، أمر حيوي ، لا يمكن للمفاوض المصري ، أن يتجاهله ، ويسقطه من الحساب .

وسأعرض في بحثي هذا إلى العلاقات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والثقافية والقومية والجنسية واللغوية والدينية والسياسية بين الشطرين ، وحينئذ سيتضح أن الوحدة بينهما أمر محتوم ، رضى بذلك المستعمرون أم غضبوا .

العلاقات التاريخية بين مصر والسودان قديمة جداً ، وهي ترجع إلى عهد الأسرة الثالثة ، كما جاءت بذلك نقوش حجر « بالرمو » ، أى إلى حوالى ٢٩٠٠ ق.م ، وفى عهد الأسرة الثانية عشرة امتدت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثانى ، وأقيمت القلاع والمعسكرات إلى ما وراء الشلال الرابع ، وأضحت الأراضى السودانية إلى النيل الأزرق ، فى عهد الأسرة الثامنة عشرة جزءاً من مصر ، تسود فيه النظم الإدارية والسياسية المصرية ، ودلت الآثار على أن بلاد الصومال والووات ، كانت تدفع الجزية إلى « تحتمس الثالث » كما شيد « أمنحتب الثانى ، معبداً فى « وادى باع النجا » عند النيل الأزرق ، وشيد « أمنحتب الثالث ، كذلك معبداً له فى جهة « صلب » ، التى تبعد ١٥٠ ميلاً جنوب وادى حلفا . ولقد استتب الامر للمصريين مدى مائة وخمسين عاماً ، كان السودانيون خلالها يدينون بالدين

المصري القديم ، ويتكلمون أو يتكلم البارزون فيهم اللغة المصرية ، ودرجوا على الكثير من العادات المصرية .

وظلت العلاقة بين مصر والسودان قائمة طوال عهد الفراعنة ، تضعف أحياناً ، وتقوى أحياناً أخرى ، ولكنها تثبت على أى حال مدى تقدير العقلية المصرية القديمة لفكرة الربط بين الشطرين ، وما وراء هذه الفكرة من خير عميم لكليهما ^(١) . وفى عهد الأسرة العشرين ، ضعفت صلات مصر بالسودان ، وانفصلت عرى الرابطة بينهما فترة من الزمن ، حتى جاء د قبيز ، وغزا مصر ثم السودان عام ٥٢٥ ق . م . ولكنه لم يستطع إقامة أية علاقات معه .

وفى عهد البطالسة ، ازدهرت التجارة ، بين د بطليموس الثانى ، ود أركمين ، ملك النوبة ، ازدهاراً عظيماً . وقد ولى بطليموس وجهه شطر المرافئ البحرية ، القريبة من جنوبى السودان ، ليتخذها قواعد للتجارة مع تلك البلاد ، وهذه المرافئ هى بعينها الملحقات التى يطالب بها الحزب الوطنى اليوم ، وشيد بطليموس مدينة إبيثيراس Epitheras التى كان موقعها غير بعيد من سواكن ، واتخذها قاعدة اتصال وتجارة مع جنوب السودان وشرقه .

وقد نسج جميع حكام البطالسة على هذا النحو من الاهتمام بالسودان وتجارته وخيراته ، وبهمنا أن نعرف أن د أركمين ، ملك النوبة ومعاصر د بطليموس الرابع ، وقد لقب نفسه د طنائح آمن رع ، نسبة إلى د آمن رع ، وسمى نفسه د ابن رع وحبيب إيزيس .

وظلت العلاقة قائمة بين مصر والسودان فى عهد الرومان أيضاً منذ أيام د كورنيليوس جاليوس ، أول حكامهم على مصر ، وأخذوا يرسلون الحملات المتعاقبة لتثبيت حقوقهم فى السودان وتأديب القبائل المغيرة على حدود مصر الجيوبية ، وما الآثار والمعازل المنتشرة فى جنوب الوادى إلا دليل هذه العناية بشئون الجنوب .

هذا عرض سريع للاتصال الوثيق بين مصر الفرعونية والبطلمية والرومانية وبلاد النوبة فى الجنوب ، ولقد أطلق عليها فى التاريخ أسماء كثيرة ، فهى فى التوراة

(١) كما جاء وقت كن للنوبيين فيه دولة قوية حكمت مصر والسودان وامتد نفوذها إلى بابل .

« بلاد السكوش ، وكوش هذا ، فيما تقول التوراة ، هو جد النوبيين وأخو
 « مصر ايم ، جد المصريين ، وكلاهما من سلالة « حام بن نوح » ، وتقول بعض
 الروايات ، إن المصريين ، جالية نوبية نزحت إلى الشمال ، وتقول أخرى ،
 إن النوبيين جالية مصرية ، هاجرت إلى الجنوب ، وسواء أكان هذا أم ذاك ،
 فانه بما لا شك فيه ، أنهما من عنصر واحد ، وقد أثبتت الأبحاث العلمية
 التي أجراها العلامة « إليوت سميث . Eliot Smith ، في متابر مصر والنوبة أنه
 لا فرق بين المصرى والنوبى فى التكوين الجسمانى ، حتى ليتعذر من هذه الوجهة
 تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر !! وقد وقعت فى بدء الاسرات الملكية
 فى مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء الزنجية لقمحت بها الدم المصرى والنوبى .
 ولما جاء الفتح الإسلامى ، تدفقت سيول القبائل العربية الى تلك البلاد
 انتجاعاً للرزق ، وبحملاً وراء مناجم الذهب ، فاختلطت دماء النوبيين والبججه بالدماء
 العربية ، ونزلت هنالك بعض قبائل البربر ، ثم جاء الفتح التركى بعنصر آخر حتى
 صار النوبيون خليطاً من عدة عناصر أهمها العربى فالتركى فالبربرى فالنوبى ، ولقد
 أسفر الاتصال التاريخى بين مصر والنوبة عن إيجاد رابطة قوية بينهما ، فإن مملكة
 « نبتة » لم تقم إلا على أساس الحضارة المصرية ، التي أخذت تنمو وتزدهر
 وتسطيع بالصبغة الفرعونية .

وبقيت العلاقات بين مصر والسودان قائمة فى عهد الحكومات العربية
 الإسلامية التي وليت حكم مصر ، والتي ما فتئت ترسل الحملات الى تلك الجهات
 لتأديب المغيرين على حدود مصر الجنوبية وفرض الجزية عليهم . ولقد قال
 المتنبى يمدح كافوراً الاخشيدي :

يصرف الامر من مصر الى عدن الى الحجاز فأرض الزنج فالنوب

وجرد محمد على الكبير ، رأس الاسرة العلوية السكرية ، حملة لفتح السودان
 كان يرمى من ورائها ، إلى تأمين حدود مصر الجنوبية ، وقطع خط الرجعة على
 المماليك ، ولما أشار به عليه مستشاروه الفرنسيون ، من أهمية السودان
 الاقتصادية ، ووجود مناجم للذهب به ، ولحاجته إلى الجند . والمهم أن حدود
 مصر السودانية وصلت جنوباً إلى جزيرة « دنكا » أمام غندكروو إلى كردفان غرباً

وذلك بمقتضى فرمان الذى صدر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١، والذى وافقت عليه الدول . وأدخل المصريون بالسودان حينئذ زراعة القمح والخضر، وأنشأوا البساتين وزرعوا أشجار الفاكهة من رمان وعنب وبرتقال وليون . وأسس محمد على بالسودان عدة مدن منها الخرطوم وكسلا، التى أصبحت عاصمة إقليم التاكا، والسودان الشرقى، وكثرت هجرة المصريين إلى السودان، واتخذ كثير منهم مقاما، وتزوجوا بالسودانيات . كذلك أنشأ محمد على مدينة « فامكا » على النيل الأزرق سنة ١٨٤٢، وجعلها عاصمة مديرية « فازوغلى »، وأقام على بعد منها قصرًا ومعملا للتنقيب عن الذهب مازالت آثارها باقية إلى اليوم . ونظم محمد على الحكم فى السودان وعين له حاكماً يدعى « حاكم دار السودان »، يتبع ديوان الداخلية بمصر، وجعل الخرطوم عاصمة للسودان، ومقر حاكم داره، الذى خوله سلطات عسكرية ومدنية مطلقة .

وقسم السودان إلى سبع مديريات هى : دنقلة وبربر والخرطوم وكردفان وكسلا وسنار وفازوغلى، وعين لكل منها مديراً، وقسم المديريات إلى أقسام لكل قسم « ناظر »، وللندير وكيل ومعاونون وكتبة وقاض ومفت، ثم كون « مجلساً أهلياً »، و« ضبطية ».. وهكذا كان الحكم فى السودان صورة من النظام الإدارى بمصر.. واستتب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لهذا النظام الدقيق وقال مستر « بورنج » أحد السائحين الانجليز فى عهد محمد على : « إن استتباب الأمن شمل كل بلد حكمه محمد على، فحيثما بسط نفوذه وحكمه، وطد دعائم الأمن ورعاه، وحيثما ضاع نفوذه ضاع الأمن »، وقال قنصل فرنسا فى مصر « إن الأهالى والاجانب على السواء، يستطيعون السير فى أى بلد من البلاد التى يحكمها محمد على فى وادى النيل إلى أقاصى السودان، وفى سوريا وجزيرة العرب، فقد أقام العدل صارماً فى حزم وفى غير ضعف، فالسودان قد سادته الأمن كما ساد غيره » .

وبقى السودان فى عهد ابراهيم، كما كان فى عهد أبيه، بحدوده وإدارته، أما فى عهد عباس الاول فقد عهد السودان منى للمغضوب عليهم . وفى عهد سعيد باشا، أجاز صديقه نابليون الثالث لإمبراطور فرنسا، بفرقة سودانية،

أبلت بلاءً حسناً في الحرب المكسيكية ، ولقد بلغ الشناء والمديح منتهاه على هذه الفرقة ، في كل التقارير التي كتبت عن هذه الحرب .

أما في عهد إسماعيل باشا ، فلم تشهد مصر في تاريخها القديم والحديث مثلما شهدته في عهد إسماعيل من توسع منتظم وطيد في السودان ، فاحتلت الجيوش المصرية فاشودة سنة ١٨٦٥ م ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وأقاليم خط الاستواء ، وحصل إسماعيل بفرمان سلطاني في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٠ على ضم قائمقامي « سواكن ، و « مصوع ، إلى حكمه . وفي عهده تم فتح إقليم « خط الاستواء ، و « مملكة أونبوره ، وبسطت مصر حمايتها على « مملكة أوغنده ، وفتحت « مديرية بحر الغزال ، و « سلطنة دارفور ، وعند حدود الحبشة والبحر الأحمر ، امتدت الحدود وضمت « سنهيت ، و « بلاد البوغوص ، حتى « بوغاز باب المندب ، وضمت كذلك محافظتي « زيلع وبربره ، على خليج عدن ، وفتحت « سلطنة هرر ، في الجنوب الشرقى للحبشة ، ودخلت سواحل الصومال الشمالية في ممتلكات مصر السودانية ، إلى « رأس جوردفون ، على المحيط الهندي ثم إلى « رأس خافون .

وبهذا امتدت حدود السودان تحت الحكم المصري جنوباً إلى بحيرة البرت وبحيرة فسكتوريا ، وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود « ودای ، وحصل إسماعيل من السلطان على لقب « خديو مصر والنوبة ودارفور وكردفان وسنار ، ومد بالسودان في سنة ١٨٧٧ حوالي ٥٠ ميلاً من السكك الحديدية تبدأ من حلغا ، كلفته حوالي ٤٠٠ ألف جنيه .

هذا عرض سريع للرباط التاريخي بين مصر والسودان منذ عهد الفراعنة إلى عهد إسماعيل ، ومنه يتضح مدى اهتمام كل من ولي مصر بأمر السودان . وإلى مقال قادم نتابع فيه الحديث عن بقية العلاقات التي تراط بين جزئ الوطن الواحد مصر والسودان .

على هامس الجولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس في كلية اللغة العربية

ومن أطاع الرسول عاداه أعداؤه ، وأحبه أحيائه ، والباطل أليف الشهوة
وحبيب الشيطان ، والحق يعرفه العقل ويقره الوجدان ، ولكن الهوى متيقظ
والعقل وسنان ، والشيطان متحفز والإنسان عُفْلَان .

نادى الرسول الكريم قومه فلم يستجب له غير قلة قليلة تحملت معه لأواء
دهوته وخلاف أمته ، وشقاق قومه وعشيرته ، فلما خشيت الفتنة تركت مكة
إلى الحبشة مهاجرة بدينها وفارة بإيمانها ، غير مبالية مفارقة الأهل والعشيرة
والوطن والمال ؛ وتلك أول هجرة في الإسلام كان فيها عثمان بن عفان وزوجه
وأصحابه ، وقد لقيت من النجاشي إجلالا وكبارا وكراما وتقديرا برغم ما بذله
عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص في تهوين أمرها وتقليل شأنها . وليت
شعري ماذا خشى ابن أبي ربيعة وابن العاص من هجرة المهاجرين وخروج
المضطهدين حتى يلحقا بهم ويعملا على إفساد أمرهم واحباط عملهم ؟ إن القوم
قد فهموا أن الحق في جانب المخرجين ، وعرفوا أنهم أخرجوا من ديارهم بغير
حق ، وأن بذرتهم قوية شديدة إذا صادفتها التربة الخصبة أفرعت وأبذعت وآتت
أكلها وثمرها ، وعند ذلك تخر الآلهة الكاذبة أمام إله واحد ، ويصرع الباطل
من صرخة الحق ، ويتساوى السيد والمسود ، وتختلف بين الناس موازين التقدير ،
فلا قوة ولا مال ولا حسب ولا نسب ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي
على عجمي إلا بالتقوى .

وبقي من بقي بمكة يصلي نار العذاب فيكوى بعيدان محمية أو يصفد ويرمى به
في حَمَامَةِ القَيْظ ، حتى فتن من فتن ، ولم يبق إلا من استمرأ العذاب في سبيل الحق

والآلم في سبيل الله . وها هي ذى حادثة مروعة تربنا صورة اضطهاد الباطل للحق والكفر للإيمان والوجود للمعرفة ، والنكران للإحسان ؛ أسرة وادعة عاشت في كف قريش عيشة هادئة متواضعة تسمع وتبصر كل ماحولها من آثام وضلال ثم تسمع بعد صرخة الحق تدرى في الأفق ، ودعوة المختار يصدع بها في ربوع مكة ، وكلها خير وإصلاح وعدالة وسماحة ، فتسرع إليها بحجية ملية موقنة مخلصة ، فيعترض لها السادة المترفون ليصدوها عن دينها ، ويردوها عن إيمانها .

ولكن الحق قد انطبع في قلوبها ، والإيمان قد ملأ نفوسها ، فلم يقدرُوا على محوه أو تحويله عن وجهته ، برغم ما بذلوا من تخويف وتأليف ، وتعذيب وإغراء . وعظم الأمر أمام غطرسة المتغطرسين وكبر المتكبرين ، فتفتنوا في إرهابها وأمعنوا في عذابها ، وغالوا في إيلاها ، وهي رابطة الجأش ثابتة الجنان محتسبة صابرة في سبيل عقيدتها وإيمانها ، وليتهم حين عذبوها أحسنوا عذابها . أو قتلوها أحسنوا قتلها . لا بل تجاوزوا مع هؤلاء المستضعفين حدود الإنسانية في أبسط معانيها وأقل مراتبها .

هذا أبوجهل عميد الضلال ورأس الكفر وأليف الظلام وعدو النور ، يقتل سمية أم عمار وزوج ياسر بطعنات يصبها إلى مكان عفتها وموضع طهرها ، فلم يظفر منها إلا بتوحيد يذل شركه ، وإيمان يحقر جموده .

لقد عذبوا فلذة الكبد على مرأى ومسمع من الحب والعطف والرافة والرحمة ، وتجراًوا على العفة أمام حارسها وحاميها وحافظها وصائنها ، وبالغوا في إذلال الشيخ أمام كرامته وعزته وصاحبه وولده ، وهذا نوع من العذاب له لون ينفرده به وصورة يختص بها ، والأسرة عن بكرة أبيها تستعذب ما يقدم لها من مر الاضطهاد في سبيل طاعة رسولها ومرضاة ربها ، فصبرت على عذاب الناس وخافت من عذاب الله ، إلى أن أسلمت أرواحها الذكية راضية مرضية ، وتركزت دنيا العدوان والظلم إلى جنة الخلد والعدل ، وتلك فدائية نستطلع في ثناياها الصراع العنيف بين الضلال والهدى والإيمان والكفر والظلم والعدل ، لقد أسرف أعداء الله في الكيد لأولياته ليصدوا عن سبيله وما هم ببالغي غايتهم ولا مصيبي

هدفهم ، فالنصر العزيز قد كتب للمؤمنين في الدنيا والخلد النعيم قد كتب لهم في الآخرة فهم بين حسنيين ومرجعهما إلى جنتين .

وألح الرسول في دعوته وألح القوم في مطاردته ورد قوله ، وضائق قريش به كما ضاقت بأهله وعشيرته ، فائتمرت على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد مناف لا يبايعون ولا يناكحون ، تنفيذاً لعهد بغيض كتبته بغيض بن عامر للقوم وعلق على السكبة تعظيماً لشأنه وتوكيداً لأثره ، وحبس محمد وعشيرته في شعب أبي طالب وضيق عليهم فنعوا الميرة والمادة نحو ثلاث سنين ، حتى ضجعت أطفالهم من الجهد ورق لما أصابهم بعض القرشيين ، ومنهم هشام بن عمرو بن الحارث والمطعم بن عدى ، فسعوا في نقض الصحيفة وإبطالها بعد أن أتت عليها القرضة ، ونجحوا في ذلك وخرج رسول الله كما خرج من معه ، وتجهمت له الحياة ورأى من أهل مكة ما كان يراه منهم قبل عزلته .

وزاد في كربه مفاجأته بموت حاميه ومحاميه أبي طالب ، ثم موت الرقيقة المؤيدة والشريكة المؤازرة خديجة بنت خويلد أم العطرة وزوج الحضرة وأول مؤمنة وخير صاحبة .

هنا اشتد البلاء وقل العون وتجراً على الرسول الكريم سفهاء قومه وكاشفوه بالعداء ، وظهروا له بوجوه طالما قنعوها خشية من أبي طالب ، وصرخوا بالشر وأمعنوا في الإيذاء وضيقوا على الدعوة حتى لا تجد سبيلاً إلى الناس وتعطلت أعمال الرسالة ، وتلفت الرسول إلى ما حوله ومن حوله فوجد الطائف أرق نسيماً وأطيب هواء وأكثر زرعاً وماء ، ورضى أن يكون من سكانها من رق طبعه وطابت نفسه وافتحت مسالك قلبه لقبول الحق .

فقصدها ومعه زيد بن حارثة وهو مؤمل في قبول دعوته حريص على تبليغ رسالته ، ولكن طاش سهمه وخاب رجاءه ، فقد عرض أمره على أشrafهم في عشرة أيام لا يدع أحداً إلا جاءه ، فلم يكن من القوم إلا ما جناه من مكة وأهلها وكان معهم كالمستجير بعمره والمستجير من الرمضاء بالنار ، وكره القوم إقامته فيهم فأمره بالخروج من بينهم وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة كسفاه لعمله وجزاء لهديه ، وياله من بحث مرير وظلم عليل ، نور تطفئوه الظلمة وحق ينهره

الضلال وإيمان يطارده الكفر، لقد أدمت الحجارة قدم الرسول وها هو ذا زيد ابن حارثة يقيه بنفسه ويتوقى عنه بجسمه، فيشج رأسه وفاء وفداء، وانصرف الرسول راضيا من الغنيمة بالإياب وتجمعت نفسه أمامه ونظر الى عظيم ما يحمل وكريم ما يدعو اليه، ثم نظر الى ازدراء الناس له وهواته عليهم فتوجه لسيده المعز واهب القوة ومالك النواصي بكلمات ما كاد يتمها حتى فوض في إهلاكمهم وخبر في عذابهم . وهيات لمن ملئت نفسه بالخير وبعث رحمة للناس أن يذكر ألمه وغضبه عند ما يرجع القضاء له والفصل إليه والمستقبل كفيفيل بصدد المسرفين ورد المبطلين ؟

احتفال الأمة الإسلامية

؛ولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

احتفلت الأمة الإسلامية في جميع أقطار العالم على اختلاف أجناسها ولغاتها في يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وهو يوافق الثاني والعشرين من شهر ديسمبر الحالى ، بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم . وقد قامت هذه الأمة بنصيبها من هذا الاحتفال على أكمل وجه ، وأمثلة حال فتلا علماءؤها سيرته الشريفة ، وتاريخه المجيد في المساجد والمجتمعات ، وأذاع ملخصها بلسان الراديو حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس وزراء مصر ، فدوى صوت رفعة داخل الدور ، فكان ذلك داعيا لزيادة العناية بسماعها ، كما كان تطوعه لإلقائها بنفسه حافزا للناس إلى تفهمها ، وهى عناية نشكره عليها ، وزجرو أن يحذو حذو رفعة في هذه الطريقة كبار الرجال في جميع الشعوب الإسلامية .

ولا يجوز في هذا المقام أن تغفل ذكر النشاط العظيم الذى قامت به دار الإذاعة المصرية من تخصيص ساعات كثيرة من برنامجها لإحياء يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم وليلته بقراءة القرآن والابتهالات المختلفة . أعاد الله هذه الذكرى الشريفة على الأمة الإسلامية وهى مهيبية الجانب ، مرفوعة الرأس بين الأمم ، ما بقى الزمان ، وتعاقب الملوان .

حول إعجاز القرآن الكريم :

الرسول الأعظم

يتحدى الناس بالقرآن معجزته الخالدة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم صفامى

المدرس في كلية اللغة العربية

— ١ —

كانت العرب أمة مغطورة على البلاغة والادب والشعر ؛ تحبها وتعشقها وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوّه بهما ؛ وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ في القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح ، استبشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشيء العظيم ، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء ، ولل فراغ الكثير الذى كانوا فيه ، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ؛ وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستمرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون ...

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ، ويسرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ،

ويرفعون الخامل الوضعيع ؛ فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعياً ؛ وكان النابغة سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة ، وحكماً بين الشعراء في سوق عكاظ ؛ وكان الأعشى يخبر شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبني غسان ، ويسافر إلى الحبشة ؛ وكان قس بن ساعدة الأيادي الخطيب يفد على قيصر والغسانيين . . إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلاغ ، والشعر والشعراء . . وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب ، ويضع الهدنة ، فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

— ٢ —

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالاته إلى الناس كافة ، نزل عليه كتاب مطهر من السماء ، هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد ، والطهر والخير والحق ؛ وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة ، وأخبار الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ؛ وفيه كل ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع ، وعبادات ، وأخلاق ، وفضائل ، وآداب ، وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحي الصادق ، والدستور العظيم ؛ فكان في أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ، ومحاورات ، ومفاخرات ، ومنافرات ، ووصايا ، ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم ، غفروا ساجدين لفصاحته ، مدعنين لبلاغته ، مقرين بأنه تسيج وحده ، وعلم مفرد في طبقة في البيان . . . بهر الشعراء منهم ، نخرست ألسنتهم ، وسكتت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب في الصحراء ؛ وعجبت الخطباء فيهم ، نخرست مقاولهم ، وصمتت ماكانتهم ، وفقدوا مواهب البلاغة والقول . . وذهبت كل بلاغة في تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الاذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين .
فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على داعية الإسلام . .
فقالوا فى القرآن : هو شعر ، وهو سحر ، وهى أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا
مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحدهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ؛ بهذه المعجزة
الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربى المبين . قال الله
تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ،
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ،
فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين »^(١) ، وقال تعالى :
« أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين ؛ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله
وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ »^(٢) . وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ،
بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين »^(٣) . وقال تعالى :
« قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ،
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »^(٤) ، فسجل عجز البشر كافة ، وبين أنه لا يستطيع
الإنس والجن - ولو تظاهروا - على الوقوف أمام هذا التحدى ، ولا يقدر
على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم ؛ لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور
الإنس والجن ، الملك القادر ، والمدير الحكيم : الله جل جلاله ، وعلمت قدرته ،
وعظمت حكمته . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن
يكون شاعرا وساحرا ، ومن الافتراء والجننة ، ومن الكذب والخيال ، والنجم
إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ؛ إن هو إلا وحي
يوحى »^(٥) . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ وما هو بقول شاعر ، قليلا
ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ؛ ولو

[٢] هود : آية ١٣ و ١٤ - وهى مكية

[٤] الاسراء : د ٨٨ - وهى مكية

[١] البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ - وهى مدنية

[٣] الطور : د ٢٣ و ٢٤ - وهى مكية

[٥] النجم : د ١ و ٤ - وهى مكية

تقول علينا بعض الاقاويل ، لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، ولإنا لنعلم أن منكم مكذابين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ،^(١) .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ؛ وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة .

فعمجزوا أمام التحدى ، وباموا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة أو سور .. واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبلغتهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

— ٣ —

ثم امتدت الاجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صدهاء في المشارق والمغارب ، فلم نر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ؛ ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقى خطبة ، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ؛ ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر .

وفي تاريخ العربية نحول ونحول : كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع ، وكجيرير والفرزدق وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري وشوقي - ولكن أين بلاغاتهم من هذه البلاغة ؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة ؟ وهل منهم إلا من أذعن وبهر ، وخشع وسحر ، وخضع وأخذ ، وأيقن أنه وحى السماء . وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة : كنهج البلاغة ، ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، ومقامات البديع الخ .

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات ؟ وما مكانتها وما قيمتها ؟ وما أثرها وما خطرهما في البلاغة الأدبية ؛ أمام كتاب الله المعجز ، وكلامه الحكيم ؟ بل أمامك الحديث النبوي الشريف ، وهو في الدرجة العليا من الفصاحة ، ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان ؟ واقرأ إن شئت بلاغات البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر — بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفرغ لب ، وجمع عقل — في ذلك ، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين ^(١) .

وأراد مسيلة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاما ، نفذى وعجز ، وبأن عليه العى والخصر ، وباء بالخسران وسوء المنقلب : وأين يقع قوله ، والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد ، من رطب ولا يابس د ، وقوله والمبديات زرعاً ، والخاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً ، والثارذات ثزداً ، واللاقيات لقماً ، إهالة وسمناً ؛ لقد فضلتكم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، وغير ذلك من كلامه ^(٢) ، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز ، الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ^(٣) ؟

— ٤ —

وفى الامم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون ، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء . واسكل منهم كتب وآثار أدبية .

[١] ١٢٦ إعجاز القرآن للباقلانى طبعة ١٩٤٨ .

[٢] راجع طرفا منه فى المرجع نفسه ص ١٢٨ .

[٣] آية ٤٢ سورة فصلت .

ولكن هل هناك من هذه الآثار ، ما يعادل في أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ورسم لاهداف الأفراد والجماعات والشعوب ، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والاخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان ؟ . وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدمونه ، ويعدونهم دستورهم في الحياة ، ويقتبس الادباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الادبية والعلمية ؟ . وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طويلا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ .

وهل للقرآن — بربك — شيء من الكتب : وحد لغة وحفظها وأداعها في العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها ، وأساليها ، وأحيا فنونا جديدة من الادب ، وتأثر الناس بلاغته وعذوبته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والادب والبلاغة ... كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيائية وفكرية في لغة العرب ؛ فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفي حياة العالم والانسانية كافة ؟



ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الادب والبيان حتى اليوم ؛ يؤمنون ، إيمانا صادقا ، بأن لا سبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ؛ وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين الذي يعجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثله .

وستمضى الأيام ، وتوالى الاجيال ؛ وهو يضى كما يضى الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، ويفتن الالباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثاني : تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ؛ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، »

الخلافه بعد فتح الأندلس

المؤلف هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

تكلمنا في العدد الماضي من هذه المجلة عن الخلافة العباسية في القاهرة، ويريد أن نتابع في هذا البحث موضوع الخلافة العباسية، وموقف سلاطين آل عثمان منها بعد فتح سليم لأول لمصر سنة ١٥١٧ م :

لم يهتم العالم الإسلامي بهذه الخلافة اهتماما كبيرا خارج مصر، فالإمارات الإسلامية لم تسع في الحصول على تفويض للحكم من العباسيين بالقاهرة إذا استثنينا من ذلك محمد بن طهلق حاكم دلهي : وذلك أنه بعد أن حكم مدة ثمانية عشر عاما حكما استبداديا أراد أن يكون حكمه شرعياً، فتمكن من الحصول على تفويض للحكم من الخليفة العباسي بالقاهرة.

كذلك بلاد الحجاز مع أنها كانت خاضعة لحكم المماليك بمصر، فإنه لم يدع للخلفاء العباسيين في خطبة الجمعة من على منابرهم إلا مرة واحدة زمن الخليفة المستعين بالله أبي الفضل، الذي يربيع بالسلطنة والخلافة معا على أثر قتل الناصر فرج .

ولقد اتخذ معظم أمراء المسلمين خارج مصر — بعد أن شعر كل منهم بقوته في بلده — لقب خليفة، مثال ذلك ما حدث في تونس عندما تلقب أميرها أبو عبد الله الحفصى بهذا اللقب — كذلك تلقب تيمورلنك بلقب الخلافة — وكان السلطان محمد الفاتح العثماني يخاطب السلطان خراسان بلقب خليفة .

إذن يمكن القول بأن هذا اللقب قد اتخذته أكثر من حاكم إسلامي في وقت واحد، كل يحكم قطرا إسلاميا .

على هذا النحو اتخذ سلاطين آل عثمان هذا اللقب قبل فتح مصر سنة ١٥١٧ بمدة قرن ونصف — فاستيلاء السلطان سليم على مصر إذن لم يقدم أو يؤخر في اتخاذ هذا اللقب للسلطان .

أما ما تتداوله السكتب التاريخية من تنازل الخليفة المتوكل العباسي رسميا للسلطان سليم الأول عن الخلافة ، فإنه لم يرد في ذلك نص صريح يؤيد هذا التنازل : فثلا المؤرخ المصرى المعاصر بن إياس ، الذى عاصر الفتح العثمانى ووصفه بالتفصيل يقول :

« إن المتوكل سلم إليه مخلفات الرسول وهى : البردة التى كان يلبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وبعض من شعر لحية صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

من هذا يتضح أنه لم يوجد ما يؤيد صراحة التنازل عن الخلافة ، أما الدليل الوحيد الذى يستند إليه المؤرخون الأتراك والأوربيون بخصوص هذا التنازل الرسمى فهو ما ذكره موراجى دوسون Mowrajei D, Hosson سنة ١٧٨٧ فى كتابه « سلسلة عامة لنسب آل عثمان ، وحتى هذا المؤرخ الذى أشار إلى تنازل الخليفة المتوكل العباسى لسليم الأول عن الخلافة رسميا لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه حتى يؤيد هذا الزعم — ولم يحاول أحد من المؤرخين الذين نفلوا عنه الكشف عن حقيقة هذا القول ، ومن ثم انتقلت هذه الفكرة غير المستندة الى سند يؤيدها من كتاب الى آخر من السكتب التاريخية شرقية كانت أو غربية وأصبحت أمرا متفقاً عليه غير منازع فيه من حيث الدعاية الأوربية التى انتشرت فى العالم الإسلامى لتأييد دعوى العثمانيين للخلافة .

ولو اعتبر السلطان سليم نفسه خليفة للخلفاء العباسيين لاستعمل ألقاب الخلافة بالأسلوب القديم ، ومما يؤيد هذا أن سليما بعد فتحه لمصر لم يذكر فى مراسلاته مع ابنه سليمان ، أو حتى مع كبار الموظفين هذا اللقب أو أى لقب آخر يتصل به — أما الألقاب التى وردت فى هذه المراسلات فهى : الخاقان — السلطان خادم الحرمين ، وغيرها من ألقاب العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن لقب خادم الحرمين كان يعتز به سليم الأول ويفخر به عن غيره من الألقاب ، ثم توارثه عنه بقية سلاطين الدولة العثمانية — وكان هذا اللقب من ألقاب سلاطين دولة المماليك وليس من ألقاب الخليفة العباسي .

على ذلك يمكن القول بأن سلاطين آل عثمان قبل فتح مصر وحتى بعد الفتح لم يحفلوا باللقاب : الخليفة والإمام وأمير المؤمنين ، حتى إنه لم يرد لها ذكر في المكاتبات الرسمية — وربما كان ذلك راجعاً إلى تأثر العثمانيين بمذهب أبي حنيفة الذي يدينون بمبادئه ، والذي كان يرى أن الخلافة الحققة لم تدم إلا ثلاثين سنة كما أنه لم توجد هذه الألقاب فيما كتبه الفقيه التركي إبراهيم الحلبي في كتابه « ملتقى البحار » ، الذي أصبح مرجعاً هاماً في التاريخ العثماني ، كذلك ما دونه فريدون بك في رسائله السياسية التي قدمها إلى السلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٥م لم يعثر فيها على هذه الألقاب .

ولم يتلقب سلاطين آل عثمان بهذا اللقب إلا في القرن الثامن عشر الميلادي إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة بشكل جديد في معاملاتهم الدولية مع المسيحيين ، وكان ذلك لأغراض سياسية ، غايتها أن يكون لهم شيء من النفوذ الديني على العالم الإسلامي الذي كان كثير منه تحت سلطان الدول المسيحية — ففي معاهدة كيتشك كينارجي Kuchuch Kainarji التي أبرمت بين السلطان عبد الحميد الأول وكثرين الثانية ملكة روسيا سنة ١٧٧٤م اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة ، وأعطت هذه المعاهدة السلطان العثماني السلطة الروحية على المسلمين في شبه جزيرة القرم ، كما منحتة حق تفويض وإلى هذه البلاد بالحكم ، وتعيين القضاة ورجال الإفتاء — ولقد فطن الروس إلى أن هذه المادة تمهد السبيل لتدخل العثمانيين السياسيين في هذه البلاد ، فألغوها سنة ١٧٨٣ .

وفي القرن ١٩ أصبح للقب الخلافة المعنى القديم الذي يقصد به السيطرة على كافة المسلمين — وقد ظهر ذلك جلياً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في دستور مدحت باشا في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٩ ، حيث نصت الفقرة الثالثة منه على أن السلطنة العثمانية العظمى آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى ، وسوف تؤول

إلى أبناء البيت المالِك - وتنص الفقرة الرابعة على أن حضرة صاحب العظمة السلطان بصفته خليفة المسلمين قد أصبح حامى الدين الإسلامى .

ومن أهم العوامل التى جعلت الخلافة تظهر بهذا المعنى القديم ضعف العالم الإسلامى ووقوعه تحت سيطرة الدول الأوروبية الإستعمارية ، كوقوع الهند تحت الحكم البريطانى - وتقدم روسيا إلى أواسط آسيا فبسطت نفوذها على شعوب إسلامية ، واقتطعت فرنسا جزءاً من أملاك العثمانيين فى شمال أفريقيا - فشكل هذه العناصر الإسلامية المشتتة فى أنحاء العالم كانت تطمع فى أن يكون بينها ارتباط بأقوى دولة إسلامية وهى الدولة العثمانية .

ومن هذه العوامل أيضاً : أن السلطان عبد الحميد حكم الدولة العثمانية فى ظروف حرجية ، فالولايات المسيحية الباقية فى البلقان تحت حكم العثمانيين مثل الصرب والجبل الأسود واليونان كانت تتفاقم فيها الثورات بقصد الانفصال عن الدولة العثمانية ، أضف إلى ذلك إعلان روسيا الحرب على الدولة وتهديدها للقسطنطينية سنة ١٨٧٣ ، فذلك كله جعل العالم الإسلامى الذى خضع للنفوذ الأوروبى يتجه شطر الدولة العثمانية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أخذت الدولة العثمانية تتجه أيضاً إلى العالم الإسلامى الخارجى لتكسب عطفه الأدبى فى صراعها ضد المسيحيين ..

وقد جد عامل آخر جعل السلطان عبد الحميد يهتم بالخلافة ، وهو مقاومة الحركة الدستورية التى ظهرت فى تركيا بقيادة مدحت باشا ، فقضى عليها وعلى قائدها وحاول أن يحكم بطريقة استبدادية رجعية ، فعنى بإحياء الخلافة بمعناها القديم لى يؤكد الصبغة الدينية ، فتلقب بلقب خليفة الله فى الأرض ، ولقب أمير المؤمنين .

وقد نجح السلطان فى ذلك نجاحاً مؤقتاً حيث ثار عليه رجال حزب الاتحاد والترقى ، وخلعوه لعمله على تأييد حكمه الاستبدادى فى بلاده بإلغائه الدستور ووقوفه فى سبيل الإصلاح .

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، وهزمت فيها ، وفر مصطفى كمال إلى الأناضول ، وتمسك من إيجاد جيش بصعوبة دافع به عن الوطن التركى

وأحبطت المشروعات التي كانت ترمى إلى تقسيم الأناضول - وأعلن المجلس الوطني الكبير إلغاء السلطنة العثمانية ، وأعلنت الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها ، ورأى الأتراك أن بقاء الخلافة لم يعد له مبرر ويرجع ذلك إلى عدة عوامل من أهمها :

أن بقاء الخلافة قد يشير حوله حركات رجعية ودسائس ترمى إلى معارضة الحكم الكمالى ، وقد حدث هذا فعلاً فى داخل تركيا ، وحتى فى الخارج تزعم هذه الحركة أمراء الهند مثل أغاخان وأمير على .

ومن هذه العوامل أيضاً أن فكرة الخلافة ترتبط بحركة الجامعة الإسلامية ، أى جمع المسلمين تحت لواء واحد ، وهذه الفكرة المرتبطة بالخلافة تخالف فكرة الدولة القومية الحديثة التى أخذت بها الجمهورية التركية الجديدة ، إذ أن أغلب سكانها أتراك لا يريدون أن يكون لهم شأن بمشاكل العالم الإسلامى المشتت فى أنحاء مختلفة .

ومن هذه العوامل أيضاً رغبة مصطفى كمال فى أن يجعل الوطن التركى وحدة واحدة متجانسة لا تفريق فيها بين الأفراد أو الرعية بسبب المسائل الدينية . وهناك عامل آخر ، وهو أن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى الإسلام لا يتفق ونظام الخلافة .

والعامل الأخير ، هو أن وجود الخلافة فى تركيا ، يؤثر فى علاقة تركيا الحديثة بالدول الأوروبية - ولم يشأ مصطفى كمال أن تزعم تركيا العالم الإسلامى وهى فى حالة من الضعف والتفرقة ضد الدول الأوروبية المنتصرة ، التى استولت على معظم أملاك الدولة العثمانية القديمة - لذلك لم يرغب فى أن يزوج بيلاده ، فى مشكلات لا حل لها ، وفضل إلغاء الخلافة فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ . وكان لا مانع عنده من أن تقوم فى أى مكان آخر .

وفى سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر للخلافة فى القاهرة ، وحضر مندوب عن تركيا وأعلن أن لا مانع من إقامة الخلافة فى أى مكان ، ولكن ظروف العالم الإسلامى لم يهيء له قيام الخلافة منذ ذلك الوقت .

فَجِيعَةُ الشَّرِّ فِي مَهَامَا الْبُغْرِ

للإستاذ حمزة محمد الشيخ

ليسانس في الآداب الانجليزية

من جامعة فؤاد الأول

بالأمس القريب تجاوزت أسلاك البرق في العالم كله تذييع أن حياة برناردشو قد انتهت ! مات بعد حياة دامت أربعة وتسعين عاماً . فقال صديق له ، وهو يغادر منزله ، هذه نهاية حلقة من حلقات التاريخ ، ، وتلقى أندريه موروا ، الأديب الفرنسي ، النبأ بقوله : إن (شو) استطاع أن يقدم للمسرح الانجليزي طاقمه إبسن للمسرح السكنديناوى ، و وفاة (شو) سيكون لها صداها الكبير في العالم كله ، ذلك أن (شو) كان أحب الكتاب جميعاً لدى الرأى العام ، لا لما كان يقول ، ولكن للاتجاه الذى يمثله ، ، وقال ييتس ، Yeats ، الشاعر الايرلندى عن (شو) — : إنه أحد أبناء النور الذين نشأوا بين أبناء الدنيا . إنه ينطق بلغتهم ، ويفكر مثلهم ، ولكنه مأخوذ بطبيعة أرفع وأسمى ، ، وقال ماسفيلد الشاعر يحبيه فى عامه التسعين ، من قصيدة شعرية : « أيتها الرءوس الثيرة على هذا الكوكب . كرميه وهو بقاء الحياة ، ولبأت ولالة الفن الجليل بعد قرون فلبأ مروا له بالنصب والتماثيل ، .

أما د شو ، نفسه فكان يقول : إننى لا أحب الحياة لذاتها ، وليست الحياة مصباحاً صغيراً أحمله ، وإنما هى مشعل هائل أمسك به الآن فى يدي ، وأريد أن يشتعل وأن يزداد توهجه قبل أن أسلمه للأجيال المقبلة ، ، ولعل ذلك ما كان يراه من فرق بينه وبين شكسبير ، إذ كان يرى نفسه صاحب رسالة لجيله والأجيال التالية ، وأن شكسبير لم تكن له رسالة يحملها لجيل من الأجيال .

فما هي تلك الرسالة التي أداها «شو» ، والتي جعلت أبناء عصره يحيطونه بفيض من الشهرة والاعجاب كانا حقاً له ، بل دون حقه بكثير ؟ .

وقبل أن نخوض في جوانب الرسالة الشوئية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجل بنشأة الأديب التي كان لها أثر عميق في توجيهه ... فقد نشأ في أيرلندا ، والاييرلنديون قوم أرهقهم الحكم الأجنبي ، وعضهم الفقر ، فرحلوا من وطنهم يطلبون الرزق ويكدحون في سبيله ، ووجدوا في الفسكاهة المستقرة في أعماق نفوسهم خير معين على فقرهم وسلطانهم المسلوب ، ومن هذه البيئة استمد «شو» سخريته وتمرده وإيمانه بجذوى المال في حياة الناس . وورث برنارد شو عن أمه الذوق الموسيقي المزهف ، وحاكاه في تمرداها على التقاليد ، كما أخذ عنها الدعوة الصوفية النباتية فأصبح من النباتيين ، حتى إنه كان يدعو نفسه مهاتما الغرب ، كما كان - فيما بعد - يقول عن غاندى « إنه من العظماء الذين لا يجود التاريخ بأمثالهم إلا مرة في كل ألف سنة » .

وأناحت الأيرلندية لبرنارد شو أن يتجه تفكيره اتجاها عالمياً ، فنزع إلى الثورة على الاستعمار والاستغلال ، وحاول تحطيم الأغلال التي تستعين بها الأمم القوية في تقرير مصير الشعوب المستضعفة . وفي الحق إنه إذا كان العالم بأسره حرياً بأن يذكر ذلك الفكر الحر الطليق ، في وقت طغت فيه ذاتية الشعوب وقادتها على آرائها واتجاهاتها ، فإن مصر خاصة خليفة بأن تعز بصداقة مفكر هذا شأنه ، وبأن تقوم اليوم بتمجيده وإحياء ذكراه .

كان برنارد شو يعطف على مصر ، ويقرأ عنها كثيراً ، ويتقصى أنباءها المتقلبة تقلب الدهر ، بل إنه ساهم بنصيب كبير في عرض قضيتنا الحائرة أمام الرأي العام الإنجليزي ، ودافع عن المصريين أجد دفاع أيام محنة دنشواي ، فكتب فصلاً طويلاً ، لم يكتب أحد مثله ، في مقدمة روايته « جزيرة جون بول الأخرى » ، يدافع عن المصريين ، وقت أن كان لورد كرومر يعامل المصريين معاملة السيد لعيده وإمائه ، وفي حقبة حالكه من تاريخ مصر ، عز فيها الصديق الذي ينتصر للحق ، ويقاوم الطغيان أنى كان . وقد لاقى « شو » في سبيل دفاعه عن مصر كثيراً من تهكم بعض الكتّاب الاستعماريين ، الذين اشتقوا من اسمه واسم

دنشواى نسبة واحدة فقالوا ، شاقيان ، Shacrian ، غير أن ، شو ، واصل اهتمامه بالقضية المصرية ، فراح يعرض على قرائه تاريخ المحكمة المخصوصة ، التى أنشأها الإنجليز لمحكمة المصريين ، وأثبت بقلبه الصريح العادل وبسخريته اللاذعة ما لاقاه المصريون من جور وعسف واضطهاد . ولم يقر لسكانتنا العظيم قرار ولم تحب فيران حملته على مواطنيه ، حتى عفى عن المصريين الذين سجنوا ، وعادت المياه إلى مجاريها .

ولسنا نستطيع أن نفي الرسالة الشوئية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الإنجليزى الذى اتجه به ، شو ، اتجاهاً واقعياً ، أخذ أساسه عن هنريك إبسن النرويجى ، الذى استكشف الرجل العادى ، وأزاح الحجب عن حياته وسجل بطولته ، وعلى إبسن العظيم تلمذ ، شو ، العظيم . ومن هنا كانت المشكلات التى يعالجها ، شو ، ليست مشكلات خاصة بأصحابها ، ولكنها مشكلات اجتماعية تتناول العام قبل الخاص ، كالزواج وقديسيته التقليدية (مهنة مسز وارن) والدين ونفاق المتدينين (الميجر باربارا) والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة جون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (بيجاليون) . ويقوم ذلك المسرح الذى دعمه ، شو ، على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع ، فليس يفصل المشاهد غير الحائط الرابع ، الذى نعرفه بالستار ، لكنى يرى ما يجرى فى بيوت الناس .

أما فلسفة ، شو ، الاجتماعية فهى : الاشتراكية الغايبية ، التى نادى بها الجماعة الغايبية ، منذ تأسست فى سنة ١٨٨٤ ، وهى ليست سوى حركة تهدف إلى إصلاح المجتمع والحكومة بتوفير المال للجميع على اعتباره الوسيلة المجدية لتخليص الناس من الرذائل المسادية والمعنوية .

ولا يؤمن ، شو ، بالديمقراطية كذهب سياسى ، بل على عكس ذلك نراه يعجب بالديكتاتورية بمعسكرىها الفاشى والشيوعى . ولعل السبب فى ذلك أن الجماعة الغايبية ، نفسها كانت تنتمى إلى حاكم بأمره قديم ، ثم إننا رأينا ، شو ، يبشر بالسوبرمان فى مسرحيته ، الإنسان والإنسان الأعلى ، فلعله كذلك كان

يرى الدكتاتوريه أقرب السبل التى تؤدى إلى تحقيق الحلم الذى راوده طويلا ، وظل حياته كلها يرنو إليه ويوصى العالم بانتظاره .

هذه المسامة بالأديب الغربى الاشتراكى برناردشو ، الذى له دين فى أعناقنا نحن الشرقيين - ثقيل ، فقد امتزجت الثقافة الشيوعية الفنية بكافة الثقافات ، حتى لقد شهد منتصف القرن العشرين نقلة بعيدة فى ذلك الميدان ، كان فضل د شو ، فيها لا يدانيه فضل كاتب ولا أديب .

وحسب الراحل الكبير نغراً ، وكفى فنه تكريماً ، أن انتقل أدبه الأنيق الرائع إلى كل لغة حية ، واحتل فيها مكاناً مرموقاً . . . ود شو ، فنان إيرلندى بموطنه الاصلى ، بيد أن له فى كل بلد وطن ، ومدرسة ، وتلاميذ ، وسوف يظل حياً آلاف السنين ، لا بنفسه ، فقد خبت قوتها الملهمه إلى الأبد ، ولا بجسده ، فقد همد منذ بعيد ، ولكن فى التاريخ ، وتلك هى الحياة .

عشرة آلاف البيتين

دخل شاعر من أهل الرى يقال له أبو زيد على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، فأنشده هذين البيتين وهما :

اشرب هنيئاً عليك الناج مرتفعاً من شاد مهرودع غمدان لليمن
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه من هوذة بن على وابن ذى يزن

فأمر بعشرة آلاف درهم جائزة على هذين البيتين . ودخلت ليلي الاخيلية على الحجاج فأنشدته :

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضه تتبع أقصى دأها فشفاهها
شفاهها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هن القناة سقاها

فقال لها لا تقولى غلام ولكن قولى همام ، وقال يا غلام أعطها خمسمائة . قالت احسبها لبلا . فرد عليها قائل بقوله : إنما أمر لك الأمير بشاء . قالت الأمير أكرم من ذلك . فاضطر الحجاج أن يوافقها على ظنها فجعلها لبلا على استحياء وإنما كان أمر لها بشاء .

ظل اليراميه في البيان

لفهيدة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمونه

مدرس بالأزهر

إذا صعدت النظر وأمعنت التمثل في منظوم الادب العربي ومنشوره ، وجدت
القرائح في نتائجها تتدرج مع البيئته ، وسعة الحضارة ، وفسحة الصناعة الفنية
والاداة البيانية .

* * *

وأصدق ما يسعف القارىء - حتى لا يخالف ما نذهب إليه في عجالتنا -
معارض الرياحين وملاعب المورقات وفتن الزهر ومياس الغصون وملاحم
الورود وظلال الحدائق وجداولها ، مما أثر في أحاسيس الشعراء وأخيلتهم ، ولون
نثر الادباء وبيانهم .

ذلك لأن القرائح العربية ما إن تفتحت لها زهرة المفان وسخت الحضارة
واخضوضرت ، الاقاليم ، وازدانت بالحدائق وتوزعت المواهب بين فراديس
الابدلس ، وشواطئ النيل ، ومسائل الأبله ، وسندسيات غوطة
دمشق ، وجمال شعب بوان ، وسحر صغد سمرقند ، حتى لف الشعراء
والسكتاب فتون وجنون بالجمال المورد والخلابة الهنداء والطيوب الشدية . ماء
وظل وروح وربحان . و شقائق نعيان .

وهنا لهج الشعراء وأجاد الكتاب وطبروا أوصاف السوسن والاذريون والشقيق والبهار والأخوان والخيرى والنسرين والخلاف والتيلوفر .

وأبدعوا فى وصفهم للنفسج والنجس والياسمين والآس والزعفران .

وبعد أن كانت طاقاتهم مقطعات أو أبيات تعبر فى خرياتهم أو مدائحهم أو تشبيهاتهم حلمهم الشعور بالجمال على أن يخلصوا الرياحين بقصائد ورسائل بل زادوا على هذا ونخصص بعض الشعاعين والنائرين والكاتبين فى حسان الطبيعة فى لدات الحدائق وناشرات الطيب ومضمخات النسيم .

وفوق هذا تفننت القرائح وتناوحت وأمعنت فى الإخلاص بعرائس الروض ، فجعلت منها شعبا وفرقا تشبك الاهواء حوالها وتعلق بمحاسنها ، هذا ينتصر للورد وذاك بفضل الياسمين والآخر يروج للنجس ويمدح طريقه .

وفى كتب المحاضرات ، عقدت مناظرات ومخاضات كانت بطولاتها للرياحين ، ومحور الصراع والمفاخرة للآس أو الورد أو الياسمين .

وكأنى بالشعراء والكتاب - حين وجدوا أفنية الملوك والأمراء قد بخلت على فهم - انصرفوا إلى مملكة الرياحين يتوجون منها ما يحبون ويتضرعون لمن يحدون فى وجنتاه وميساته ما يرضى إحساسهم ويريح جوانحهم ويمتدح أبصارهم ويمسح عنهم غناء الحياة وجهامة الجسد فى كسب العيش ولاعجات الضيق بالحياة والاحياء .

* * *

وزاد شغف الشعراء والكتاب ، واضطرتها لكرمهم فى سوق الرياض وظلال الحدائق ، حتى ليخيل لمن ينقب فى نتاجهم ، أن الشعراء والكتاب أقاموا من الرياحين أحياء يخاطبونها ويشكون إليها وتمدحونها فتخجل ويتاجونها فتسمع ويظربون لها فتضطرب . ويخافون رقبتها ويحذرون عيونها ويخشعون لطلعتها .

ولقد أسرف الشعراء والكتاب بعد العصر العباسي الأول وبالغوا وصنعوا
وتكلفوا وأرهقوا قرائحهم ، حتى ضيعت الصناعة على بعضهم كثيرا من جمال
الوصف ودقة التعبير والتشبيه والتصوير ، وحظ البيان المشهور من طاقات الرياحين
لا يقل عن البيان المنظوم .

ويكنى أن نذكر (ابن يرد الأصغر) ثم نشير إلى رسالة له أجرى فيها
التفاوض والتحاور ، ثم قدم فيها الورد على الرياحين في مجلس عقده لرؤساء النوار
والأزهار ، منها النرجس الأصفر والبنفسج والبهاء والخيري .

ثم انتهى بأن عقد الرياسة للورد ، بعد أن أجرى على السنة الإبطال وجه
التفضيل ، ويضيق المقام عن نقل رسالة المولى الفاضل تاج الدين اليماني المتوفى
سنة ٧٠٦ في المفارقة بين النرجس والورد .

وكذلك ما جاء في الخريدة للعماد الأصفهاني من رسالة تفضيل الورد .

وإنا لنقبس بعض ما جاء على السنة الشعراء لندل على صناعة بيانية تأثرت
بمفاتيح الطبيعة الشذية لأبي العلاء صاعد الاندلسي في وردة .

وردتك يا سيدي وردة يذكر المسك أتعاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها
ولأبي طالب الرق :

وردة في بئان معطار حيث بها في بديع أسرار
كأنها وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار

* * *

ولشاعر :

كأنما الورد لما بدت في كف من أهوى ويهواني
حمة خديه وفي وسطها صفرة لوني حين يلقاني

* * *

ويقول العسكري :

أفضل الورد على النرجس لا أجعل الانجم كالأشمس

* * *

ويقول أبو دلف :

أرى ودكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد

ومن الأمثلة التي تشهد باستئثار الروض واستيلاء الرياحين على عواطف الشعراء ما قاله التنوخي .

أما ترى الروض قد وافاك مبتسما ومد نحو الندامى للسلام يداً
فاخضر ناضر في أبيض يقق واصفر فاقع في أحمر نضداً
مثل الرقيب بدا للعاشقين ضحى فاحمر ذا خجلا واصفر ذا كدا
ومن شعر كشاجم في قصيدة جيدة :

وروض عن صنيع الغيث راض كما رضى الصديق عن الصديق
كدأن غصونه سقيت رحيقاً فماست ميس شراب الرحيق
كان شقائق النعمان فيه مداهن من لجين للخلق
يذكرني بنفسجيه بقايا صنيع اللطم في الخلد الرقيق

* * *

وفي النرجس لصفي الدين الحلي :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلى وللتيام حولي المام
أيارب حتى في الحدائق أعين علينا وحتى في الرياحين نمام
وإني حين أوثر في استشهادي ذلك الضرب من الوصافين الصناعات لا أغفل
إعجابي بلفقات العباقرة من أمثال البهتري .

أناك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وما ضحكة الربيع إلا بسمات و النوار .

ولست بناس عشرات و النواصي ، ولا نفحات و ابن الرومي ، أو وصفيات
و ابن المعتز ، أو طاقات و ابن خفاجة ، ويكفي في إعجابي هذه الإشارة ، فليس لدى
من عدة البحث غير المعلق في الذاكرة ، وفراغ الصحيفة يضيق بالمزيد .

كيف ندرس الأدب

للدكتور أحمد محمد صفر

الطالب بكلية اللغة العربية

هذا رأى فى دراسة الادب للكاتب

تلك الآثار من نتاج الأدباء هى التى أعنيها من كلمة «الأدب» ، فنحن فى عصر أصبح فيه تحديد منهج البحث لازمة للكاتب والباحثين ، ولم يعد مُساعداً ذلك الشيوع فى الفكرة والاتساع فى دوائر الدلالات والتساع فى إطلاق الاسم على المسمى وما يجاوره ، وما يمت إليه بصلة واهية ، وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ليتمكن الإنتاج وليتنبأ التوافر على العمل ويصير الدرس أكثر نفعاً وأقرب متناولاً ؟

وبدهى أن نتولد من المادة الواحدة مواد متعددة ، فبعد أن كان التاريخ شاملاً لكل ما يتصل به من سياسة واجتماع وأفكار ومذاهب وعلوم وآداب ، أصبح التاريخ مقيداً بكونه تاريخ سياسة أو تاريخ فرق أو تاريخ علوم أو تاريخ آداب ، فهذه كلها فروع كانوا يطلقون عليها اسم التاريخ . وكفى !

وهذا العمل نفسه قد حدث للأدب ، إذ كان يطلق على كل العلوم العربية بما فيها من نحو وعروض وبلاغة ، وكانوا يقولون عن الأدب : « هو الأخذ من كل فن بطرف » ، ولكن الدقة العلمية جعلت هذه المواد تنفرط من حول الأدب ، فضاق معنى هذه الكلمة ، وأصبحت تطلق إطلاقاً فنياً على تلك الآثار والنصوص الأدبية فقط ، سواء أكانت شعراً أم نثراً ، رسائل أم خطباً ، أم محاورات .

فدراسة الأدب هي دراسة تلك النصوص . . . والقصد من هذه الدراسة تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الأدبي والسمو بالعواطف النبيلة بعد فهم هذه النصوص ليسهل الصب على قلبها والتوليد من معانيها والتشبيث بجمال ألفاظها وتراكيبها : ولكن نفس الغيور على الأدب تتقطع حسرات عند ما ينظر إلى طرق دراسة الأدب في معاهدنا على اختلاف أنواعها . وإن كل ذى حذب على تلك الآثار ليتلوى الملمأ على مصير هذا الفن الرفيع حينما يتخيل الظلام المخيم على هذا الركن من التراث العربي .

وما أحسب الناس إلا قانعين بما هم فيه من خلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية راقية . . . وبزبدني لإشفاقاً أني أسمع عن محاولات لإصلاح الدراسة في كل المواد ، ما عدا الأدب ، فكأن هذه المادة بلغت حد السكال ، ولم تعد في حاجة إلى النظر والتنظيم . . والله يعلم أن تلك هي المسألة في كل شيء . . بل أستطيع أن أقول : إن الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شيء في دور التعليم . . إذ أن الذي يدرس الآن هو تاريخ الأدب ممزوجاً بفقته اللغة . . ولم يقف الأمر عند هذا ، بل قطعت أوصاله ، ومزق شر ممزق بتقسيمه إلى عصور ومراحل تتبع الانقلابات السياسية وتغييرات الدول . .

هذان هما منبع النقص في دراسة الأدب العربي . . :

أولاً : غلبة التاريخ على مذكرات الأدب .

ثانياً : تقسيم الدرس تبعاً للعصور والانقلابات السياسية . .

وبذلك يضع الأدب باعتباره مادة مستقلة بين هذه الأخطاء التي ارتكبت ولا تزال ترتكب في كل كتاب يدرس على أنه في مادة الأدب . . ولا شك أن هناك مدافعين عن ذلك الوضع يقولون : إن التاريخ يبين لنا مراحل الآداب وأطوارها . . ودراسة البيئة تعيننا على دراسة الأدباء وفهم كلامهم . . ومعرفة الحالة السياسية تساعدنا على معرفة الحالة الأدبية . . ثم تقسيم الدرس باعتبار الانقلابات والدول يساعدنا على التحليل والتعمق ، إذ أن لكل عصر ميزة وطابعاً . . ولكل دولة تقاليد . . والأدب صورة من هذه الميزات والطوابع والتقاليد . . وهذا الدفاع لا يغني شيئاً ولا يفيد فائدة ، فنحن لا نطلب وضع

حجاب على التاريخ وطمساً لحقائقه .. كلا .. ولا نطلب الاكتفاء بهذا القدر المختصر .. بل نريد التوسع في التاريخ التحليلي ، فهو خير معين على دراسة الأدب كما نطلب فصل المعلومات التاريخية عن كتب الأدب فصلاً تاماً ، فيدرس تاريخ الأدب على أنه مادة مستقلة .

وأما الأدب ، فإنه النصوص الأدبية ، وهي الكنز الباقي لنا من مخلفات السابقين ، فحرام أن تضيع درره في أطلال التاريخ ، وتثر جواهره في الطرق والسراديب ، تطوها الأقدام وتمر عليها الأعين مر السكرام - إنك حينما تقلب كتاباً من كتب الأدب التي في أيدي الطلاب تأخذك الشفقة ، ويستولى عليك اليأس حينما ترى شجرة القبائل العربية وتاريخ اللهجات .. وأمثلة من العجعة والكسكسة والطمطمانية ، ونشأة اللغة .. والخلاف الطويل بين العلماء في هذا الموضوع .. وهكذا . ثم تجد في ذيل الكتاب نتفاً من الشعر وقطعاً من النثر مقتضبة مجتثة ، يحفظها الطلاب للاستشهاد بها عند ترجمه الأدباء .. أو يرتلون أمام اللجان في الامتحانات الشفوية .. دون فهم ودون بحث عن ناحية الجمال فيها .

هذه جناية خلط التاريخ بالأدب .. وسأعرض عليك الجناية الفنية الأخرى التي تجنيها الدراسة الحالية على تلك الآثار بتقطيع أوصالها ، وتجزئة الأغراض : إلى جاهلية وأموية وعباسية وغير ذلك .

وما أعتقد أن هناك نفعاً ولا فائدة في هذا النوع من الدرس ، لأن عنصر المقارنة والموازنة مفقود .

وسبيل البحث في الأخذ والنقل والسرقة غير ميسرة . فإن المنهج يفرض في كل عام عصراً من العصور بأدابه القليلة وتاريخه الكثير . فتجد المنهج مشحوناً بالمباحث التي لا تمت إلى الأدب بقراءة ، والمادة الأدبية نفسها ضئيلة ومقصومة الظهر ، فكأنك تطلع على عضو من جسم ، وذلك تشويه لعرض الأدب ، وإفساد لثمرته المرجوة ، وإملال للناظر فيه ، إذ هو مجبور على مطالعة آثار الجاهليين مثلاً فيرى جزءاً من كل غرض ، فإذا انتقل إلى العصر الثاني نسي العصر الأول واطلع على على عضو آخر منه هذا الجسم . فما ينتهي من العصور كلها ، إلا وفي ذهنه صورة

شوها غير متماسكة الأجزاء ، ولا متشابهة الأطراف ، لأنها لم ترسم على الخيلة إلا مبعثرة لا تقل لى : إن أدب كل عصر يكون مجموعة تدرس على حده لآنى ما رأيت روضا من الرياض يطلب منه أن يثبت نوعا متشابهها من الأزهار ، فقد يجمع الزهر المختلف اللون والعبير والحجم والشكل ، ومع ذلك يستمد بهجته من هذا الاختلاف وتطمع النفوس فى الانس به لهذا السبب . وهل الآداب إلا لزهارة اللغات تفوح وتنفع وتسرو تهيج ؟ نخذ غرضا كالغزل مثلا واجمع كل ما قيل فيه منذ أول العصور إلى عصرنا هذا ، وادرسه دراسة وافية ووازن بين المعانى المتقاربة ، وأرجع الفرع للأصل ، وتأمل كل تعبير ، وأكشف اللثام عن مناحى الجمال . وأنقد الفكرة واللفظ والمعنى ، وأظهر العيب والنقص . وخبرنى أذلك خير وأجدى ، أم دراسة قصيدة من كل غرض . فما أشبه الغرض الواحد بالخيط الممتد ، ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط . فيسكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ؛ لأن جماله فى تماسكه وتجانسه وفى جوهره ، أما أعراضه فليست حائلا يمنع من تكملة الصورة واستقلالها . فإذا انتهيت من دراسة هذا الغرض فانتقل إلى غرض آخر لتأخذ عنه فكرة كاملة لا مهوشة ولا مجزأة ، وبذلك يمكننا أن ندرس الادب دراسة فنية تؤدى بنا إلى الغاية المنشودة ، إذ أن الادب هو ثقة القلوب حينما تهز أوتارها الأشجان ، وهو صوت الشعور يناجى به الجمال ، وغناء الوجدان تحركه أنفاس الفجر ونغمات الزهر ، وهو مع ذلك أنة الثاقل ودمعة المحزون ، ودم الأعصاب التى عصرها الألم ، وشفها العذاب ؛ فهو صورة من النفس البشرية تبين آلامها وآمالها فلا بد من دراسته دراسة نافعة مشمرة مفيدة ، وذلك لا يتحقق إلا بتخليصه من هذه الشوائب ، ودراسة كل غرض كامل دراسة وافية .

فإذا فعلنا ذلك خرجنا أجيالا أكثر نفعا وأعظم فائدة لا يدورون حول أنفسهم ولا ينتهون حيث بدأوا ، بل يتقدمون ، ثم يتقدمون ؟

[مجلة الأزهر] نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها ، والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به ، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها .

رسالة الأستاذ الأكبر

إلى شعوب العالم الاسلامي

هذه الرسالة خير ما يوجه إلى الشعوب الإسلامية في العالم أجمع في الحالة الحاضرة جمعاً لصفوفها ، وصونا لوحدها .

إنني ، وقد توليت منصبى هذا ، أعد نفسي قد حملت أمانة غالية دقيقة لا شك أنى مسئول عنها أمام ربى ، وأسأله تعالى أن يهينى من لدنه عوناً ييسر صعبها ، ويذل عتابها ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم .

لقد عشت طول حياتى معنيا بأمر المسلمين ، مفكراً فيما يصلحهم ، وينقذهم مما تورطوا فيه من الضعف والتخاذل والانحراف عن الصراط السوى فى العلم والعمل ، فوجدت أن لا سبيل إلى ذلك إلا بأمرين :

أولهما : أن يؤمنوا إيماناً عن بينة وبصيرة بأنه لا صلاح لهم إلا بهذا الدين الذى صلح به أولهم ، وأنهم على حسب ما ينحرفون عن تعاليمه ومبادئه يصابون فى بلادهم وأنفسهم وسائر أحوالهم بالضراء وألوان الشقاء .

وثانيهما : أن ينسوا أحقادهم وميراث عداوتهم الذى أورثتهم إياه عوامل الضعف ، وعهود الذلة والخوف وتسلط الأعداء ، فيعودوا كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة واحدة عزيزة كريمة تشعر بعزتها وكرامتها ، ولا غرض لها إلا إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، والدفاع عن الحق حيثما وجدت لذلك سبيلاً .

* * *

إن المسلمين إذا آمنوا حق الإيمان بالأمر الأول ، استقر فى قلوبهم حب دينهم ، وحرصوا على أن يسلكوا سبيله فى حياتهم ، وأن يسيروا على خطته

ومناهجه الشديد في كل شئوهم ، فإن الإيمان بشئ ما هو أساس حبه وتوجه الرغبة إليه ، والحب الصادق يملك على صاحبه جوارحه وأعماله كما يملك قلبه وعواطفه ، وعلى هذا الأساس انتصر الإسلام في أوله ، فقد شرى المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله ، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما من المال والولد والنعمة والمتاع ولولا ذلك ما استقام لهم أمر ولا تمكنوا - وهم القلة الضئيلة الهزيلة المستضعفة - من السيطرة على أكبر الأمم في أقصر زمن عرفه التاريخ لأمة ناشئة ناهضة .

وقد سجل الله تعالى هذه الحقيقة في قوله جل شأنه : « قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأبنائكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

فبين بهذا القول الصريح ، أن أساس الإيمان هو إثبات الله ورسوله على كل ما سواهما بالحجة الخالصة الصادقة ، وأن إثبات شئ عليهما فسق وخروج على أمر الله ، لا يهدي الله أصحابه ، بل يجعلهم في موضع المتربص المتوقع للبلاء حتى ينزل به ويأتى عليه .

والمسلمون - مع الأسف الشديد - في هذا الموضع منذ زمن طويل ، فقلما نجد منهم من يؤثر الله ورسوله على شئ من متاعه الفاني ولو كان زهيدا ، ولذلك كانت حالهم هي تلك الحال التي تسر العدو ، وتسوء الصديق .

والسبيل إلى إصلاح هذه الحال ، أن يتعاون أهل العلم والرأى في كل شعب على تعليم المسلمين دينهم تعليما نافعا ، وأن يظهروهم على مافى الدين من محاسن ، ويقنعوهم بما يكفله لأهله من سعادة وقوة ، وينفوا عنهم ما أدخل عليهم من خرافات وأوهام ، كان الركود إليها سبب ضعفهم واستكانتهم .

ولا شك أن على الأزهر في ذلك أكبر قسط ، فإنه الجامعة الدينية التي تهوى إليها أفئدة المسلمين من كل صوب ، والتي تضم طلابا من مختلف أجناسهم نفروا إليها ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم . وقد أخذت على عاتق وشرعت - والله المستعان - في توجيه هذه الجامعة الكبرى الى ذلك توجيهها عمليا صالحا ، أرجو أن يكون مبارك الثرات على الإسلام والمسلمين إن شاء الله .

وسوف لا أدخر وسعا في إمداد المسلمين داخل الأزهر وخارجه بعلماء صالحين
مصلحين يكونون رسل الثقافة الإسلامية الصحيحة حيثما حلوا ، وأساءة الأرواح
والقلوب أينما سلكوا ، حتى تربي أمة جديدة شبيهة بالامة الأولى التي فتح الله بها
مشارك الأرض ومغاربها .

وإذا كنت أعلن ما اعتزمته وبدأته في ذلك ، وأدعو إليه أبنائي الأزهريين
أن يأخذوه بقوة فاني أدعو كذلك سائر أهل العلم في مختلف الشعوب والطوائف
الإسلامية أن يقوموا بما عليهم في ذلك ، وأن يبشوا الدعوة للدين والعلم به في أقطارهم
ويبحثوا على الأخذ بها أبناء وطنهم ، حتى يكون الإصلاح عاما ، والتوجيه كاملا .

أما الأمر الثاني ، وهو أمر الاتحاد وائتلاف القلوب ، والغض عن كل
ما يثير الاحتقاد ، وينسكأ الجروح ، فذلك أمر له فائدته الكبرى في التعجيل بالقضاء
على الضعف ، والتفرغ لما ينفع المسلمين ويصلح شأنهم .

إن مثل المسلمين ، إذا احتفظوا بخلافاتهم ، وأنصتوا لداعى الفرقة والقطيعة ،
كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة ، فهى تشغل ابناءه . وتستنفد قواهم ،
وتضيع جهودهم ، وتلهيهم عن إصلاح أحوالهم ، وتقويم معوجهم ، وتعين عليهم
أعداؤهم ، وتكون سببا دائما في انقال كواهلهم بما لا يتحملون من الأعباء ، وفي
إلباسهم لباس الذل والخوف والشقاء .

لقد ألحّت هذه الحروب الأهلية الضروس على الأمة الإسلامية منذ قرون ،
فقطعت ذات بينها ، وأفسدت كثيرا من خطط الإصلاح على واضعيها والداعين
إليها ، وما علمت حربا كهذه نيرانها حامية ، وأسبابها واهية .

فليتدبر المسلمون موقفهم ، ولا سيما في هذا الوقت العصيب ،
الذى فغرت فيه المطامع أفواها لابتلاعهم ، والذى أصبحت القوة فيه
والتسكتل هى لغة التخاطب السائدة ، وأسلوب التفاهم المفيد . ولينسوا ما بينهم
من الخلافات التى أوهنتهم ، وثبطت من عزائمهم . وليقفوا صفاً واحداً لإنقاذ
أنفسهم ودينهم ، بل لإنقاذ العالم من المطامع الفاسدة ، والمبادئ الخطرة . فإنهم
أهل فكرة ، ووارثو رسالة ، وإن الله سائلهم عما أورشهم .

إنى لأعلم أن أحسن ما تطفأ به هذه الحرب الأهلية التى ظلت مستعرة بين المسلمين قروناً طويلة ، هو التفاهم . وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر . ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلماً ، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين . ولا ينبغى أن يكون سبباً فى قطع جبل الأخوة والاتلاف . وسأنظر إن شاء الله تعالى فى كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة ، والعمل بمقتضاها . وإن رسالة جماعة التقريب فى ذلك لتلتقى مع رسالة الأزهر ، الذى يرى حقاً عليه أن يبصر الأمة الإسلامية بأمرها ، ويرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنها من المودة والتراحم والألفة ، وتبادل العلم والمعرفة .

أسأل الله أن يهيئ للمسلمين من أمرهم رشداً ، وأن يوفق قادتهم وزعماءهم إلى النجاة بهم من العواصف والانواء إنه سميع مجيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ

« المغفلون النافعون »

شغل الأستاذ خالد محمد مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) عشر صفحات منه تحت عنوان (المغفلون النافعون) وقصد بهم الذين يدعون الأمة إلى طريق قد انحرفوا هم عنه ، أو إلى إصلاح قد خرجوا به عن حقيقته ، وعلل تسميته إياهم بالنافعين بأنهم ينفعون أعداء الأمة ، فقال :

« فالعالم الذى ينحرف بالدين عن غايته التى هى إنهاض البشرية ، وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والإلحاد والاستعمار . والرجعى الذى يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الشعب ، كالمومياء المحنطة ، لا تدب فيها الحياة ، ولا يجرى فى عروقها دم جديد ، مغفل نافع للاستعمار والجهل .

إلى أن قال : « ولكن شر سبب فى سلالة المغفلين النافعين ، وأبعدهم أثراً فى مصير الأمة ومستقبلها ، أولئك المبشرون بالروحانية ، والداعون لها ، فلتحدث إذن عن هذه الروحانية ، هذه البدعة التى تطل علينا بوجهها الضامر كلما أذن بيتنا مؤذن : حى على الحياء .. وأود أن يكون مفهوماً ، إننا لا نسوق الحديث عن هؤلاء سخرية وتفكهاً ، وإنما هم وباء ، نريد أن نلفت الأنظار إلى مكلفته ، وتطهير البيئة منه . فإن هذه الفكرة البلهاء ، التى تزعم أن الروحانية هى علاج الشرق الوقائى ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، المنعمة بالرغد والرفاهية . هذه الفكرة الساذجة تجد لها أنصاراً كثيرين ، وتخدع حتى بعض الذين كان يظن أن لهم من ثقافتهم وعقولهم عاصماً » .

يقول مؤلفنا إن القول بأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، فكرة بلهاء فقد « أثبت العلم بتجاربه التى لا ريب فيها ، أن

أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته ، وتركيبه وأجهزته ، وليست شيئاً يناله صاحبه بدعوة صالحة ، أو موعظة رقيقة ، وليست شيئاً يهبط من السماء ، فيصيب أقواماً ويخطئ آخرين ، وما السلوك البشرى كله : خيرهُ وشرهُ ، صالحهُ وفاسدهُ ، ألا وليد حالتنا الصحية ، وحالتنا العقلية .

يقول الأستاذ أن من البلاهة القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، وأنها فكرة ساذجة وجدت أنصاراً كثيرين !
نقول نعم وجدت أنصاراً كثيرين في الرعيل الأول منهم الأنبياء والمرسلون ، ويليهم الفلاسفة الأولون ثم الحكماء الإسلاميون ، ثم خلفاؤهم الأوربيون تغص بهم جامعاتهم ، وأنديتهم ووراءهم جميع عقلاء الأمم في جميع أقطار العالم ؛ وأنه ليس صعب على الإنسان أن يتصور أن جميع هذه العقول تستهويها فكرة بلهاء ، وأولى بالعاقل وخاصة إذا كان قريب عهد بالعلم والفلسفة أن يتهم نفسه بالبله قبل أن يتهم هؤلاء الأساطين به . وهل مما يفهم قول الأستاذ بأن الروحانية أثر من آثار المادية المنظمة ، المفجمة بالرغد والرفاهية ؟

إن الروحانية عتميدة أولية يصادفها الإنسان عند أحط القبائل المتوحشة التي لا تحصل على غذائها إلا ما تنبته الأرض من أعشاب ، وما تنصيده هي من بعض الحيوانات ، وما يلقيه إليها البحر من جثث الأسماك الكبيرة الميتة ، وهم أشد تمسكاً بالاعتقاد في الروحانية من سكان القصور المشيدة المحاطة بالحدائق الغناء ؛ فأية مادية منظمة ولدت لهم فكرة الروحانية وغرستها في قلوبهم الى الحد الذي هم عليه ؟ وأى رغد من العيش ورفاهية من الحياة لديهم توصلهم الى هذه التخيلات الراقية من العقائد المجردة ؟

وهل من الحكمة أن عتميدة يتخيل أنها خدعت العالم كله وعالمه وجاهله ، متمدنه ومتوحشه ، عشرات لا تحصى من القرون تعامل هذه المعاملة من الاحتقار ، وتمجي من مجل الحقائق بجرة قلم في رسالة كتبت لتؤثر في العقول ، وتفتح طريقاً الى عهد جديد ؟
ثم قال :

« فالمجتمع المتمتع بعافية اقتصادية ، هو الذي تزدهر فيه الفضائل ، أما المجتمع السعiban المفضى ، فلا وجود فيه للفضيلة ، ولا للروح . إن الرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد ، وهو الخلايا التي تحيا بها الشعوب . »

نقول هذا كلام أشبه بالنثر الشعري منه بالتحقيق العلى ، والمشاهد المحسوس

من حالات الناس غير هذا ، فإن الذى لا يجد ما يكفيه الحاجات الأولية لا يتوسع فى الموبقات إلا بتدرج محدود ، خلافاً « للمتبعين بعافية اقتصادية » ، فانهم يغرقون الى أعناقهم ، ولا يبالون بسبب احتقارهم لمن دونهم أن يكونوا أمثلة سوء لغيرهم . وكل الجماعات التى جاهدت لترقية الأوضاع الحكومية والاجتماعية كانت من طبقة الفقراء تحت زعامة رجال من درجتهم . ناهيك أن الذين بادروا الى قبول هداية الأنبياء ، ووقفوا نفوسهم على نصرتهم كانوا من هذه الطبقة ، على حين أن الذين كانوا يتمتعون « بالعافية الاقتصادية » كانوا يعملون على إبطال هذه الدعايات الإصلاحية بكل الوسائل الإفسادية .

وهل ينسى أحد أن السواد الأعظم من مكتشفى أسرار العلوم ، ومخترعى أنفع الآلات والأدوات ، كانوا ولا يزالون من المحرومين من الأموال الذين يكادون لا يجدون ما يكفيهم من مقومات الحياة ؟ يقول الأستاذ : « إن الكلمة الأخيرة التى سنقولها للشعب دائماً هى أن طاقته الروحية وليدة طاقته الاقتصادية ، وأنه ما لم تطاوعه الفرص ، ويحيى فى غير حرج ولا فاقة ، فلن تكون له روح » .

ويقول : « هكذا نقول ، وبه تؤمن ... ولكن الطريق إلى هذا الإشراق الروحى ، وإلى السكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة : ما هو ؟ أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا السياسية وتترق) فهيات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته ... ثم قال : « إن الروحانية التى ندعو إليها لا تبدأ من نفسها بل هى تبدأ من المعدة الممتلئة فاذكروا هذا جيداً ؟ »

نقول : ذكرناه جيداً كما أراد المؤلف ، ولكنه ليس بحق ، فأمامنا جميع صاغة الأمم من رسل وطلاب ملك ، فما قالها منهم واحد ، بل قال خاتم المرسلين محمد بن عبد الله وهو صانع أعظم أمة ظهرت فى الأرض : « حسب أحدكم من الطعام لقيمت يقمن صلبة » .

ويقول الأستاذ خالد : « إن من البلبه الزعم بأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن العلم قد أثبت أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته وتركيبه ، فليس السلوك البشرى كله إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقلية » .

ونحن نقول : لو كان الأمر كما يقرره الأستاذ ، لكان كل صحيح الجسم سليم العقل على أكمل ما يكون من سمو الأخلاق ، ولكن قد يكون المشاهد المحسوس غير ذلك ، فكم من صحيح الجسم عبقرى العقل ، وهو على أخس ما يشاهد من انحطاط الأخلاق ؛ وكم من سقيم الجسم محدود العقل ، وهو على أرقى ما تتخيل من سمو الخلال ، وكرم الطباع . وبين ذلك حالات شتى يحار فيها الفكر ، ويعجز عن تعليلها العلم ، ذهب فيها العلماء مذاهب متضاربة .

ذلك لأن الروحانية مستقلة عن الجسم ، لا تمت إليه بسبب ، كيف لا وهى من طبيعة أرقى من طبيعة المادة فلا ينطبق عليها ما ينطبق على هذه . وقد لفتت مسألة وجود الروح بعد اكتشاف التنويم المغناطيسى منذ قرن أنظار العلماء فأمنوا بوجودها مستقلة عن الجسم ، وزاد عديدهم فى جميع البلاد المتقدمة ، وألف الباحثون فى ذلك مئات من الكتب ، وأنشئ لمتابعة البحث فيها ، ونشر أدلة وجودها بالأساليب الحسية الجديدة مئات أخرى من المجلات ، ومنها ما مضى عليه قرابة قرن من الزمان . فلا يجوز جهل أو تجاهل كل هذا الانقلاب ، وخاصة للمتنبسين إلى الدين ، وإصلاح النفوس . فإن هذا الإغفال فضلا عن أنه يوهم القارئ بأن المؤلف لم يصل إليه خبر عن هذه الثورة العلمية الكبرى ، أو أنه يتجاهلها ترويحاً لمبدأ المذهب المادى ، وكلا الأمرين شائنان لمن يتصدى لمفاجأة الجماهير بمثل ما يذهب إليه فى أخص ما يتعلق بالحياة الإنسانية .

ولكن الأستاذ خالد يفهم من كلمة الروحانية شيئاً غير العقيدة وهو السلام والإخاء والمحبة التى يفيضها على الإنسان تيسر العيش ، وهدوء النفس ، وما يحيط به من أمن وطمأنينة ، على النحو الذى تكون عليه الحال فى الجماعات النشطة الحرة ، وهو فهم لم يسبق إليه ، ولن ينازعه أحد فيه ، لا لأنه صادف محله ، ولكن لأن المقام لا يسمح بإضاعة الوقت فى الصغريات اللفظية .

ولكن الذى يهم القارئ أن يدركه هو الغرض الحامل للأستاذ على التوسل بكل هذه المقدمات للوصول إليه ، وقد أحفينا فى البحث عنه فوجدناه مكنياً به ، ثاويًا فى اطواء قوله : « أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفه الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا الاقتصادية وتترك) فبيهاث أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته » .

فتبين أن الأستاذ يرمى بعد كل ما ذكره إلى وجوب تغيير (أوضاعنا الاقتصادية) ولم يزد، وبدلاً من أن يسرع بشرح ما أجمل، أخذ يجول بالقارىء، وهو يتلف على معرفة النتيجة، في شئون شتى من مساوئ الكهانة في مختلف العصور، وما جتته على الإنسانية من تعطيل تطورها، ومن معاملتها مخالفيها بالعسف والاضطهاد، ومن توسلها بالمسجد والمنبر لتقويض المجتمع. و توسع في اتهامها بكل ما يصيب الناس من شر، وتمثل في ذلك ما أثر من أعمالها في العالم الغربي من تعطيل كل المحاولات التي بذلت لترقية الجماعات، أليس كان يجب عليه بدل كل هذا، وقد استوعب ثلاثة وعشرين صفحة، أن يسرع بالقارىء إلى شرح ما أجمله في عبارة (تغيير الأوضاع الاقتصادية) التي ظهر أنه يقصد بها إبطال الرأسمالية الفردية، أى إبطال أن يكون لأحد رأس مال خاص، وأن يكون مال الأمة كله تحت يد الحكومة يشترك جميع الأفراد في الانتفاع به تحت إشرافها.

وهنا أخطأ الأستاذ خطأ كبيراً حين ظن أن حكومة العمال في إنجلترا ألغت الرأسمالية الفردية فتمد قال :

« إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولا بد أن يكون هذا هو الذى حدث، وإن السياسة التي سلكتها حكومة العمال لتشهد بذلك. فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى، وتبعت أسباب ذلك فوجدتها تسكن في (الرأسمالية الفردية) التي تسخر كل امكانيات المجتمع لمطامعها! ولم تفكر حكومة العمال طويلاً، وقررت (فوراً) الانتقال بالمجتمع الانجليزي - لأول مرة في تاريخه - من اليمين المتطرف إلى اليسار المعتدل، أى من الرأسمالية السكونود الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المتسامحة، ولم نعد نسمع صيحات الجوع التي أزعجت بريطانيا العالم بها عقيب النصر، كما لم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للعبارات ومصالح الحكومة واحتلالها لينام فيها ويسكنها، لأن النظام الاشتراكي التي طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبداً، وللشردين مأوى .

نقول إن حكومة العمال لم تلغ الرأسمالية الفردية، ولو فعلت لاضطربت أسواق العالم كله، وكان له صدى لا يسكن حتى تنظم العلاقات التجارية بين إنجلترا والبلاد التي تعاملها وليس ذلك بالأمر الهين، بل هو حادث اجتماعي يشعر بأثره جميع الناس حتى البعيدون منهم عن التجارة. فهل أحس أحد بشيء من ذلك هنا ونحن من أخص

المتعاملين معها وخاصة في محصولاتنا القطنية . وكل الذى حدث أن حكومة العمال أمت بعض الصناعات المعدنية ، أى جعلتها تابعة للحكومة دون الأفراد ، ولو كان مكانهم المحافظون لأمموا كما فعلوا لأن المصالح العامة تقتضى ذلك .

أما (الرأسمالية الفردية) فهى لا تزال أساس النظام المالى فى إنجلترا وليس لها من خصوم غير حفنة من الشعب الإنجليزى تمذهبوا بالشيوعية منذ سنين ، كان يملهم عضوان سقط أحدهما فى الانتخابات التى جرت منذ نحو خمس سنين ثم سقط الثانى فى الانتخابات التى تلتها ؛ فغلا المجلس من أنصار الشيوعية ، ولم يبق غير حزب العمال ، وهو ليس بشيوعى بل ولا باشتراكي تام الاشتراكية . فهو اشتراكي من ناحية النزاع بين قيمة العمل ورأس المال ، ولكنه كغيره من سائر الأحزاب يقر الوراثة والملكية الفردية .

أما حزب العمال فلم يأت به للحكم الأميل الشعب الإنجليزى لحكومة تمثل الطبقات الفقيرة ، لشعوره بأن الحالة الاقتصادية بعد الحرب تستدعى وجود حكومة تعطف على تلك الطبقات لمسكافة الغلاء من جهة ، وتدارك حاجة العمال بزيادة أجورهم من جهة أخرى . والشعب الإنجليزى شعب حكيم ، ليس كغيره من الشعوب يشوب طبقاته تناكر ، ولكنه شعب متعاطف للطبقات يحس بعضها بحاجات بعض وتعمل على توفيتها ، اعتقاداً من الجميع بأن القلق الاجتماعى لا يقتصر على ناحية دون أخرى ، ولكنه يعمها جميعاً ؛ وهو لم يصل الى هذه الدرجة من الآداب الاجتماعية عفواً ، ولكن بعد أن ذاق مرارة ذلك القلق الاجتماعى فى أدوار شتى . فالأمر الذى نعجب منه ظن الأستاذ المؤلف أن المبالغة فى تعظيم مبدأ من المبادئ ، وتجاوز الحدود فى بيان آثاره ، يغرى الناس على الأخذ به دون أن تعدم الحوادث لقبوله ؛ وهو خطأ كبير ، لأن الأمم فى سيرها نحو المثل الأعلى من الاجتماع تمر بأدوار شتى لها شؤون خاصة لو استبدلت بها أرقى منها لما لم يدفعها التطور الطبيعى اليه ، لم تستفد منه شيئاً ، بل قد يفسد عليها ما هى فيه من النظام النسبى . وعليه فإن سوق المبادئ والأصول سوق البضائع ، وعرضها عرض السلع دون أن تدعو إليها ضرورة حيوية ، أو تطور جديد ، فليس من الحكمة فى شيء ؟

دِفَاعٌ عَنِ النَّعْصِبِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

الناس يكرهون التعصب ، ويصفون المتعصبين بضيق الأفق ، ويقيسون تقدم الأمة فكرياً بتمسكها بمرجع إلهي ، فإذا كانت الأمة متعصبة شديدة التمسك بمبدأ أو فكرة معينة في العلم أو العقيدة دل ذلك على أنها لم تنزل ذات عقلية « بدائية » وأنها تعيش في طرف من الحياة وحدها منعزلة عن روح التجدد التي طبع الله عليها العالم ، وجعلها سنة الدنيا ، أما إذا كانت الأمة أو الجماعة متساهلة متقبلة للأفكار والآراء دون تشدد أو ترزمت ، فانهم يصفونها بأنها أمة أو جماعة راشدة صالحة للحياة .

وإطلاق القول على هذا النحو مجافاة للصواب ، وذلك أن التعصب للآراء والمذاهب الفكرية إما أن يكون نتيجة الإيمان العميق بها بعد تأملها وإدراكها إدراكاً صحيحاً ، وإما أن يكون نتيجة تقليد وأخذ دون فهم وإدراك لما انبنى عليه الرأي ، أو نظر إليه القائل به .

فالأول محمود ، بل هو واجب ، بل هو قضية العقل ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن صاحباً لا يستطيع أن ينفك عنه ، أو يتخلى عن لوازمه ، فإن المعارف التي يصل إليها الإنسان بالنظر والفكر إما أن تكون متعينة في نظره فيكون القول بها واجباً عقلياً لا مناص منه ، وإما أن تكون راجحة وغيرها مرجوح فلا يخلو أمر الناظر فيها إما أن يأخذ بالراجح ويترك المرجوح أو يأخذ بالمرجوح ويترك الراجح ، ولا شك أن العمل يتمضي بالأول دون الثاني .

ولهذا تعتبر القاعدة القائلة « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ » يحتمل الصواب « قاعدة منصفة عادلة إذا صدرت من مجتهد ذي قوة تفكيرية ، يتحدث عن مذهب وصل إليه بطريق النظر وإعمال الفكر والاستنباط .

منصفة لأن القائل بها أنصف نفسه ، وأنصف غيره ، فأما إنصافه لنفسه فانه لا يسعه وقد رأى ما رأى بعد النظر والتأمل أن ينجاز إلى غيره ، ويناقض نفسه ، فهو متعصب لما رأى عن دليل وبرهان ونظر ، فلا لوم عليه في تعصبه وإنما يلام على تسامحه لو فعل ، لأنه مطالب بتكريم عقله ، وألا يوافق في حكمه . وأما إنصافه لغيره مع تعصبه لنفسه فلأنه احتاط في حكمه فقال : قد أكون مخطئاً برؤيتي غير الحق حقاً ، لتصور في لم أتدبته ، أو لتقصير لم أقصده ، وقد يكون غيري تبين ما غاب عني ، وعرف ما لم أعرف .

وهذا هو المعنى الذى حمل مالك بن أنس على أن يرفض ما عرضه عليه أبو جعفر المنصور من حمل الناس على ما فى الموطأ ، فمالك رضى الله عنه معتد بالموطأ ، مطمئن إلى ما فيه ، ولكنه ينصف غيره كما ينصف نفسه ، ويترك الفرصة للآراء والمذاهب فلعل شيئاً قد وصل إليه فيه ضعف لم يتبينه ، ولعل شيئاً قد وصل إلى غيره يبدل حكماً حكم به .

أما الثانى ، وهو التعصب الذى يكون نتيجة ميراث وتقليد فهو مذموم ، لأن صاحبه متجاوز حقه ، خارج عن طوره ، إذ معنى تعصبه أنه يرى كذا هو الحق بعينه ، وأن غيره هو الباطل ، مع أنه لم يتصور الأمر تصوراً يمكنه من الحكم .

ولهذا تعتبر القاعدة التى أسلفناها غير منصفة إذا صدرت من مقلد : لم ينصف فيها نفسه فيقف عند حده ، ويعرف قدره ، ولم ينصف فيها غيره ، بل حكم فى الأمرين بما لم يعرف ، وقضيه الإنصاف أن يكون الأمرين لديه سواء .

ولو أردنا توضيحاً لذلك لمثلنا الأمر برجل أعمى معه ثوب فقال له أحد الناس هذا الثوب أبيض ، وقال له آخر هو أحمر ، وهو غير مستطيع أن يحكم بصحة هذا القول أو ذاك لأنه فاقده وسيلة الحكم وهى البصر .

نعم قد يثق بأحدهما ثقة خاصة ، فيقدر حكمه ، ويرجحه على حكم الآخر ، وهذا هو ما يعتمد عليه المقلدون للمذاهب إذ يثقون بأئمتهم ما لا يثقون بغيرهم ، كما يثق هذا الأعمى بأن فلانا هو الصادق بعينه .

ولكن هناك فارقاً : ذلك أن الأئمة الذين يتردد العامة بينهم كلهم موثق بهم ، وإلا لما قلدهم الممثل ، وهم مختلفون فى درجة الفهم أو طريقتهم ، والمقلد لا يستطيع

أن يحكم ، هل طريقة هذا في النظر أو درجة فهمه هي المثلّي أو الأقوى ، لأن هذا أيضاً نظر ، وهو غير قادر عليه ، فأقصى ما يزعمه أن يقول سمعت كثيراً من أهل القدرة أو الشهرة بقررون أن فلاناً مبرز في فهمه ، دقيق في نظره ، وهذا تقليد في التقليد .

هذان هما نوعا التعصب ممدوحة ومذمومة ، والمتعصب من النوع الأول يسهل إقناعه وإرجاعه إلى مذهب غيره بالدليل والبرهان ، لأنه لم يتعصب إلا لما أدرك وفهم ، فإذا أدرك ما يحوله ويغير فهمه تقبله ورجع إليه ، لأنه متصف بعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل .

أما المتعصب من النوع الثاني فلا سبيل إلى التفاهم معه ، لأنه لم يعتق ما اعتق عن دليل فيرجعه الدليل ، وإنما اعتنقه ثقة بتمائله ، فهو لا يكف عنه ما دامت هذه الثقة قائمة في نفسه .



وفقدان التعصب يكون في حالتين :

الحالة الأولى : فقدان حرارة الإيمان بالرأى للانصراف عن موضوعه ، والاشتغال عنه بغيره ظاهراً أو باطناً ، فالاقتصاديون وأهل السياسة وأماهم من المشتغلين بأمور الدنيا ، لا يعينهم أمر الفقه أو الآراء الكلامية مثلاً ، فتراهم لا يكثرثون بهذا الشأن ، ولا يتعصبون لرأى من الآراء فيه ، ولو كانوا من أرقى الناس عتقولا ، وأدقهم فهماً وإدراكاً ، وذلك لأنهم لا يجدون في أنفسهم رغبة في دراسة هذه الموضوعات ، فتمد انصرفوا عنها إلى غيرها انصرفاً ظاهراً ، وقد يكون الانصراف باطناً غير ظاهر ، كما نراه في محترفي العلم والتدين ، فظاهر أمرهم أنهم متحمسون للحقيقة في أمثال هذه القضايا ، لهم غيرة عليها ، وعناية بها ، والواقع أنهم عن ذلك مشغولون بأنفسهم وأموالهم وأحوالهم ، فهم لا يقيمون وزناً لما يشتغلون به ظاهراً ، ولا يتحمسون لهذا الرأى أو ذاك مع علمهم بوجهة الحق ، فتراهم يتظاهرون بأنهم تاركون للتعصب ، مترفعون عن التزمّت والتشدد ، والله يعلم أنهم عن الحق لمشغولون .

وهذا أخطر ما تصاب به أمة في علمائها وأصحاب الرأي فيها ، وقد عبرنا عنهم « بالمحترفين » لأن الظروف قضت عليهم وعلى الناس أن يكون أهل شأن من الشئون ، بينما هم لا يتصدون إلا غايتهم وما يبتغون من عرض الدنيا ، متخذين ما هم فيه شعاراً يخفى حقيقتهم .

الحالة الثانية : حالة الجاهلين بشيء فهم لا يعرفون منه قليلاً ولا كثيراً ، وليس لهم قدرة على تتبع أصوله وأساسه التي أقيم عليها ، فهم لذلك لا يتعصبون له ، ولا يشتركون في نصرة طائفة على طائفة في شأنه ، وقد أنصفوا أنفسهم ؛ وكانوا منطقيين مع قصورهم وعدم استعدادهم ، فسكتوا عما لا يعلمون ، وكفوا عما لا يحسنون .

* * *

من هذا يتبين أن التعصب ليس كله مذموماً ، وأن التسامح ليس دائماً أمانة على الرقي الفكري واتساع الأفق العلي . والله المستعان ؟

من طرف الأدب

قال دعبل في طاهر بن الحسين :

أيا ذا اليمينين والدعوتين	ومن عنده العرف والنائل
أترضى لمثلي فتى أن يتم	بيابك مطرح خامل
رضيت من الود والعائدات	ومن كل ما أمل الآمل
بتسليمه بين خمس وست	إذا ضمك المجلس الحافل
وما كنت أَرْضِي بذا من سواك	أيرضى بذا رجل عاقل
وإن ناب شغل ففى دون ما	تدبره شغل شاغل
عليك السلام فإنى امرؤ	إذا ضاق بى بلد راحل

أول القرآن نزولاً وآخره

أفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

أخرج الحاكم في المستدرک ، والبيهقي في الدلائل ، وصحاحه عن عائشة رضی الله عنها قالت : أول ما نزل من القرآن : « اقرأ باسم ربك » الآيات .
وأخرج النسائي وابن أبي حاتم : أن آخر ما نزل من القرآن : « واتموا يوما ترجعون فيه إلى الله » الآية .

استغرقت المدة التي نزل فيها القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، فتمت بعث عليه السلام ، وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة بعد البعثة ما يقرب من ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالمدينة بعد الهجرة بلا خلاف عشر سنين ، وتوفي وله من العمر ثلاث وستون سنة ، كما اتفق على ذلك جمهور المؤرخين من السلف والخلف ، وما جاء في بعض الروايات مخالفا لهذا ، فإنه مبنى على عادة العرب في إلغاء الكسر ، والاكتفاء بذكر العدد الصحيح .

وأثبت الأقوال وأصحها وأشهرها أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو صدر سورة « اقرأ باسم ربك » إلى قوله سبحانه : « علم الإنسان ما لم يعلم » ، ويدل على هذا الحديث الذي معنا ، وحديث الصحيحين في بدء الوحي : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ، والحديث ، وحديث الطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال : « كان أبو موسى يترئنا فيجلسنا حلماً ، وعليه ثوبان أبيضان ، فإذا تلا هذه السورة : اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، قال : هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكثير غير ذلك من الآثار والأخبار .

وأما التمول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو : « يا أيها المدثر » والاستدلال له بحديث جابر بن عبد الله ، وقد سئل عن أى القرآن أنزل قبل ؟ فقال : « يا أيها المدثر » فيمكن تأويله بأن سؤال جابر إنما كان عن أول سورة كاملة نزلت من القرآن بعد فترة الوحي ، فيبين أنها سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ فإن أول ما نزل من القرآن صدرها ، ويؤيد هذا ما جاء في الصحيحين عن جابر نفسه ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن فترة الوحي ، ويتمول : « فإذا الملك الذى جاءنى بجراء » ، فان هذا يدل على أن هذه التمصة متأخرة عن قصة حراء التى نزل فيها : « اقرأ باسم ربك » ، أو يمكن تأويله بأن جابراً استند فى إجابته على اجتهاد منه ، لاعلى نص وارد فى ذلك ، فتقدم عليه الروايات السابقة ، لأن النص متمم على الاجتهاد .

وكذلك التمول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو سورة الفاتحة ، والاحتجاج له بما أخرجه البيهقي فى الدلائل من أن الملك ناداه : يا محمد ، قل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين » حتى بلغ « ولا الضالين — يمكن رده بأن هذا الحديث مرسل ستمط منه الصحابي ، فلا يتولى على معارضة الحديث المرفوع ، كحديث عائشة فى بدء الوحي وغيره ، ويحتمل أن يكون حديث البيهقي المذكور خبراً عن نزول الفاتحة بعد نزول اقرأ والمدثر ، وبعد مجيئه إلى ورقة بن نوفل ، وتحديثه له بما سمعه غير مرة من نداء خلفه ، وبمشورة ورقة عليه أن يثبت عند ذلك النداء حتى يعى ما يلقى إليه .

وأما التمول بأن البسملة هى أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ، فذلك قول لا يصلح أن يكون مستقلاً برأسه ، لأن البسملة ، كانت تنزل فى أول كل سورة ، فهى قد نزلت مع صدر سورة اقرأ ، ومع غيرها من السور ، فلا يستقيم انفرادها بالأولية فى النزول ، بل يشاركها فى ذلك صدر سورة اقرأ .

وقد أراد البعض أن يجمع بين هذه الأقوال فقال : إن أول ما نزل من الآيات : « اقرأ باسم ربك » ، وأول ما نزل من أوامر التبليغ : « يا أيها المدثر » وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة .

وهناك بعض أوائل مخصوصة ، نذكر لك طرفاً منها :

فأول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : النجم ، وحكى البعض الاتفاق على أن أول سورة نزلت بالمدينة : البقرة ، وقيل : سورة المطففين ، وقيل : سورة القدر ، وأول ما نزل في الأطعمة بمكة آية الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً » ، وبالمدينة آية البقرة : « إنما حرم عليكم الميتة » ، وأول سورة نزلت فيها سجدة النجم ، وأول آية نزلت في الخمر : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس » ، وأول آية نزلت في القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ، وقيل آية : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، وقيل آية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » .

* * *

كثر الاختلاف حول آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وتعددت الأقوال في ذلك ، ولم يرد أثر مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون هو الفیصل في هذا الشأن ، والأمر في الواقع لا يعدو أن يكون إلا كما صورّه القماضی أبو بكر حيث يتول في الانتصار : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ قال بضربٍ من الاجتهاد ، وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه ، أو قبل مرضه بتقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه هو » .

ولكن الذي تدل عليه الشواهد الكثيرة ، والروايات المتعددة والتمرائن المختلفة أن آخر ما نزل من القرآن إطلاقاً هو قوله تعالى في سورة البقرة : « واتوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ، فقد تكاثرت الآثار في ذلك ، واشتمل بعضها على ما يؤكدّه ويقويه كقول ابن أبي حاتم عتب روايته السابقة : وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول ، فهذا يؤيد أن هذه الآية كانت آخر قرآن نزل ، فضلاً عما تضمنته الآية نفسها من الدلالة على قرب الرجوع

إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل في الدار الآخرة ، ومن الإشارة بذلك إلى انتهاء مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وبلوغ الغاية من رسالته .

وأما ما قيل غير هذا في آيات أخرى من أنها آخر ما نزل من القرآن ، فإنه يصح حملها على أن المراد أنها أواخر مخصوصة متميزة بما نزلت فيه من وقائع ومناسبات ، لا أنها آخر ما نزل من القرآن إطلاقاً .

فآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، واذروا ما بقى من الربا » ، وآية : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدايقتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » — إذا صح نزولها مع آية : « واتقوا يوماً » دفعة واحدة ، كترتيبهما في المصحف ، فإنهما يشاركانها في الآخرة ، ويكون كل ما وقع من الرواة أنه أخبر كل راو عن بعض ما نزل من هذه الآيات الثلاث بأنها آخر ما نزل ، وهذا صحيح في ذاته إذا نظرنا إلى ذلك .

وآية : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » متميزة بأنها آخر الآيات التي نزلت في النساء ، فهي آخر مقيدة ، لا آخر مطلق .

وآية : « ومن يتمل مؤمناً متمعداً فجزاؤه جهنم » متميزة بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل إطلاقاً .

وآية : « يستفتونك ، قل : الله يفتيك في السكالة » يمكن حملها على أنها آخر ما نزل في المواريث ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

والقول بأن سورة المائدة هي آخر ما نزل من القرآن ، محجوج بأن المراد به أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فهي آخر مقيدة ، لا آخر مطلق .

وكذلك القول بآخرية خاتمة سورة براءة محمول على أنه آخر ما نزل من هذه السورة لا أنه آخر ما نزل مطلقاً ، وأيضاً آخر آية من سورة الكهف قالوا فيها : إنه لم ينزل بعدها آية تفسخها ، ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ، فهي آخر مقيدة لا مطلق .

وسورة : « إذا جاء نصر الله والفتح » محمولة على أنها آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً كما قال ابن عباس ، أو على أنها آخر ما نزل مشعراً بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه قال حين نزلت « نعت إلى نفسي ، وأن عمر بكى حين سمعها وقال : « الكمال دليل الزوال » .

وأما آية : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، فإنها وإن كانت قد نزلت في حجة الوداع ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعيش بعد نزولها أكثر من إحدى وثمانين ليلة ، إلا أنه قد علم أن هناك قرآناً نزل بعدها بأكثر من شهرين ، وأن آية : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » قد نزلت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال فقط ، فتسكون آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » آخر ما نزل من القرآن خاصاً بكامل الدين وإنجازه ، وإظهاره على الدين كله ، وإقراره في البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، فهي آخر مقيد لا مطلق ، ويشير إلى ذلك قول ابن جرير في تفسير هذه الآية : « الأولى أن يتناول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجه المسلمون لا يخالفهم المشركون .

ويؤيده أيضاً قول ابن عباس : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت براءة نفي المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركون في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة - وأتممت عليكم نعمتي . وإذا كنا قد عرفنا من هذا آخر آية نزلت بالمدينة فأخر سورة نزلت بها ، هي سورة براءة ، وآخر سورة نزلت بمكة هي المؤمنون ، ويتمال : العنكبوت ، وقد عرف فيما سبق أول ما نزل بهما من القرآن الكريم .

من الحكم

أنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم من قصيدة حماسية :

ولا خير في حسن الجسوم وطولها	إذا لم تزن حسن الجسوم عتول
فكائن رأينا من فرع طويلة	تموت إذا لم تحين أصول
فإن لا يكن جسيماً طويلاً فإنتى	له بالفعال الصالحات وصول
ولم أر كالمعروف أما مذاقه	خلو وأما وجهه فجميل

تاج الدين السبكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى

مدير المساجد بوزارة الأوقاف

يطيب لى أن أوفى بما وعدت فى مقالتي السابقة فأتابع الترجمة لهذه الأسرة المباركة من شيوخنا السبكيين الذين أسلفت لك الحديث عن أول أئمتهم ، وأصل دوحتهم تقي الدين السبكي . واليوم أترجم لابنه الفقيه العليم والإمام العظيم تاج الدين السبكي وهو من كبار قضاة المسلمين ونوابغ علمائهم تعدده مصر فى مفاخرها اللامعة ويذكره الشرق كله بين كواكبه الساطعة بما نشر من العلم وأكثر من التأليف وهو عبد الوهاب بن على بن عيد الكافى بن على بن تمام بن يوسف بن موسى ابن تمام السبكي الشافعى الملقب بقاضى القضاة تاج الدين المسكنى بأبي نصر الفقيه الشافعى الأصولى المؤرخ ولد بالقاهرة سنة ٧٢٧ هجرية وتلقى دراسته الأولى عن أبيه لأنه كان من أفاضل العلماء ثم تلمذ لغيره من علماء مصر فسكنه استعداد الفطرى الممتاز من أن يحصل فى قليل الزمن من العلم ما يعسر على سواه تحصيله فى الزمن الطويل والسنين الكثيرة وقد أراد الله سبحانه للنأشئ النابغة أن يزداد تقدما فى العلم وسبقا الى الفضل فرحل مع والده الى الشام فتهيأت له الفرصة الطيبة للأخذ عن علمائها والتخرج فى مجالس شيوخها ، ومن الشيوخ الذين أسعده الحظ بالتلقى عنهم والانتفاع بعلمهم الحافظ المزى والذهبي وشمس الدين بن النقيب وقد أجازوه بالتدريس والفتيا فأفتى ولم يتجاوز عمره ثمان عشرة سنة وأصبح نابغة فى الفقه والأصول وما زال يتألق فى سماء الشام نجمه ويذيع فى أرجائها صيته حتى ولى القضاء فى التاسعة والعشرين من عمره سنة ٧٥٦ هـ وتلك سن مبكرة شاهدة له بالفضل والتبريز فى العلم بما رشحه لمنصب القضاء الذى كان لا يتولاه إلا الشيوخ المتمدون والعلماء المسنون .

ولم يدرك في منصبه آية عصره يملأ الأبصار والاسماع غزارة علم واستقامة رأى وصحة استنباط يزين ذلك كله قوة حجة وطلاقة لسان وثبات جنان وما يجتمع لرجل تلك الجوانب المتعددة من الفضل والصفات النادرة في الحفظ والتحصيل والفقه والإحاطة إلا أوغرت عليه الصدور وأكثرت له الخصوم ولذلك تألب على الإمام السبكي المتألبون وكاد له المبطلون فافتروا عليه في دينه واتهموه في عتميته وشككوا في استقامته فعزل من منصبه وجرى به إلى مصر مغلولاً ممتيداً فصر الإمام العليم في محنته وأدى زكاة نعمته بما احتمل من آلام وقاسى من اضطهاد وفي ذلك يقول ابن كثير « لقد جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله وحصل له من المتاعب ما لم يحصل لسواه » وقد أعتبه الصبر الجليل ما وعد الله الصابرين من حسن عاقبة الدنيا وأجر الآخرة فبدله الله من الشدة فرجاً ومن الآلام سلاماً فبرئ من التهمة وخرج من هذه المكيدة عزيزاً كريماً وعاد سيرته الأولى في التضاءل بين الناس ونشر العلم بين المسلمين والظاهرة المحبوبة المشكورة في سيرة إمامنا السبكي إنه لم يشغله منصبه وواجباته عن التأليف والتصنيف فكانت حياته قصيرة الزمن إذ توفي سنة ٧٧١ هجرية وهو في الرابعة والأربعين من عمره كما هو معروف في حياة النابغين ينبغون مبكرين ويموتون مبكرين ولكنها حياة مباركة طيبة عظيمة النفع جليلة الأثر حالية اثر بها ترك من مؤلفات لا يزال بها إلى اليوم حياً ولا يدرى إلى الله كم تطول من أجلها حياته العلية ويمتد به البقاء ولكي نظهر على نواحي نبوغه وصنوف العلوم التي حصلها وأتمها وصنف فيها نسوق هنا ما قاله الحافظ شهاب الدين بن حجر في ذلك .

حصل تاج الدين فتوناً من العلم من فقهه وأصوله وكان ماهراً فيه وفي الحديث والأدب وبرع وشارك في العربية وكانت له اليد الطولى في النظم والنثر جسد البديهة صنف تصانيف عدة في فنون كثيرة على صغر سنه قرئت عليه وانتشرت في حياته وبعد موته وإليه انتهت رئاسة القضاء والمناصب بالشام ومن المدارس التي درس فيها في مصر والشام الشيخونية والجامع الطولوني والعزيرية والعدالية الكبرى والغزالية والعدراوية والشاميتين والناصرية والأمية ومشيخة دار الحديث الأشرفية . ومن هذا نتبين أن شيخنا السبكي قد قضى أيامه كلها عاملاً مجاهداً في

إقامة العدل بين الناس وإذاعة العلم فيهم لم يشغله عن ذلك نعمة ولا محنة ولا إقبال دنيا ولا إدبارها وكذلك العلماء إذا شغفهم العلم حباً فاستأثر بهم وشغلهم عن مباحج الدنيا وشواغلها حتى يكون هو في النعمة هناءهم وفي المحنة عزاءهم فتراهم قد أخلصوا وفنوا فيه وقد ترك لنا عمله الموصول وتأليفه المستمر مصنفات قيمة نبيها هنا تسجيلاً لفضله وتنوياً بجليل قدره وهي شرح مختصر ابن الحاجب في مجلدين سماه (رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب) وشرح منهاج البضاوى في الأصول الذى أتمه بعد والده كما بينا فى مماننا السابق والتواعد المشتملة على الاشباه والنظائر وطبقات الفقهاء الكبرى فى ستة أجزاء والوسطى فى مجلد ضخيم والصغرى فى مجلد صغير والترشيح فى اختيارات والده وجمع الجوامع فى أصول الفقه وشرحه بشرح سماه (منع الموانع) .

تلك مصنفات كثيرة العدد غزيرة العلم عظيمة النفع ، غير أنه يجدر بنا أن نشير من بينها إلى مصنف جمع الجوامع فى الأصول الذى يعرفه الأزهر معرفة أعلت ذكره وأجلت قدره وجعلته عمدة الدارسين لفن الأصول مدى عدة قرون من الزمان ، وجلة شيوخنا المحققين قد مارسوا هذا الكتاب وتخرجوا عليه واستنبطوا أسرارها واستخرجوا لبابها . ولقد كانت المقدرة على تفهم هذا الكتاب وإدراك مراميها مقياس البراعة وآية التحقيق فى فن الأصول إلى عهد قريب بين الأزهريين . رحم الله شيخنا السبكي وأمثاله من أئمتنا المحققين ، وعلماؤنا النابغين وورثتنا الأسوة بهم والافتداء على آثارهم ، حتى يصل الأزهر فى مجده طارفاً بتليد ويظل عزيزاً بحاضره وقابله كما يعتز بماضيه المجيد ؟

حماسة

قال قيس بن عاصم المنقرى وكان مشهوراً بالسيادة والحلم :

أنى امرؤ لا بطيء	حسبى	دنس بهجنه	ولا أفن
من منقر فى بيت	مكرمة	والغنص ينبت حوله	الغنص
خطباء حين يقول	قائلهم	بيض الوجوه	أعفة لُسُنْ
لا يفطنون لعب	جارهم	وهم لحفظ جواره	فطن

كَلِمَات

لمحاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

١ — العلم والعمل :

ما أكثر العلماء فينا وما أقل العاملين ! نعرف النجوى دقيقة وجليله ، ولكننا لا نعرف أن نقيم ألسنتنا إذا تحدثنا ؛ ونعرف المنطق قديمه وحديثه ، وكيف يتركب الدليل من مدمات تكون عنها نتائجها ، ولا نعرف مع هذا أن نكون منطقيين عملياً في تفكيرنا ؛ ونحذق علوم البلاغة ، وأن لسلك متمام متالاً ، وأن الكلام يكون بليغاً إذا توفر فيه كذا وكذا ، فإذا أخذنا في الكلام جاء ما ننطق به سقيماً عليلاً ؛ وعرفنا الأخلاق وأصولها ، والفضائل وطرقها ، والغرائز والأمرجة والعواطف وعلاجها ، ولكن عجزنا عن تكوين الضمائر الحية المستقيمة في نفوس طلابنا وقرائنا ؛ والفقه وعلم الحلال والحرام حفظنا الكثير من متونه ، وقتلنا بحشا الكثير من شروحه ، ولكننا في سيرتنا ومعاملاتنا لا نتفق وما عرفنا من الشريعة ؛ ونعرف كيف تدار المعاهد والمدارس ، وكيف ينشأ التلميذ على الطاعة والنظام ، وكيف يجب أن تكون العلاقة بين المدرس والتلميذ والرئيس والمرءوس ، ولكن لم يتبع منا كثير يعتبرون بحق إداريين حازمين محبوبين ممن تحت أيديهم ؛ ونعرف أن صحراء مصر وتربتها غنية بالمعادن المختلفة ، ولكننا لا نتقب في جد عنها ؛ وخزان أسوان نعلم علم اليقين ، منذ زمان وأزمان ، أنه يمكن الاستفادة منه في توليد الكهرباء ، فيكون مصدر رغد وسعادة وقوة للأمة ، ولكننا حتى الآن لم يتم لنا شيء في هذا السبيل أو نحتفل كل عام بعيدى الهجرة والمولد ، ونذكر جاهدین في هاتين المناسبتين العظيمتين كثيراً من مزايا الإسلام وأجاده ، ولكن لا يستطيع أن يزعم الكثير منا أنه يحقق في نفسه بعض هذه المزايا ويحاول أن يفيد حتماً من هذه الأجداد ؛ ومنا الطيب وهو بحكم عمله رسول رحمة ، وقد كان يسمى قديماً

باسم الحكيم وهو اسم من أسماء الله عز وجل ، والفيلسوف أو مدس الفلسفة التي تقوم على البحث عن الحكمة والتوفر عليها وطلب الحقيقة وحبا ، ولكن أصبح الكثير من الأطباء ودعاة الفلسفة بعيدين عن الرحمة والحكمة والحقيقة !

علام تدل كل هذه المثل ، التي انتزعناها من واقع الحياة الفردية والاجتماعية ، وسواها كثير ؟ إنها تدل على أننا أمة تتمول ولا تفعل ، وكـَـبُرَ ذلك ممقنا عند الله ما أكثر من يتكلم منا حتى الآن عن خطورة اختلاط البنات والبنين ، وبناته يملأن دور اللهو البريء وغير البريء ويجلسن مع الشبان جنبا لجنب في المعاهد الأجنبية والجامعة ! ومن يتكلم في الراديو حاثا على البر بالفقراء ومساعدة المسكرويين بلهجة تلين الأفتدة الجامدة ، ولكنه يأبى أن ينزل عن بعض ما يأخذ من أجر على ما يذيع للغاية التي يدعو إليها !

يا قوم ! ليس بمثل هذا تتقدم الأمة ويسعد الشعب ! نحن في حاجة الى من يؤمن بما يتمول إيمانا يدفعه الى العمل به ، وإلا فليوفر على نفسه وعلينا عناء التمول ! نحن في حاجة الى علماء وخطباء ودعاة إصلاح مؤمنين بعلمهم ، ويكونون بأعمالهم قدى صالحة لغيرهم ، فينفعون وينفع الله بهم . نحن في حاجة الى نفوس شريفة تعرف للعلم قيمته ، فتطهر به ، ثم تصدر عنه في كل ما تعمل .

وقع نظرى منذ أيام على كتاب « فى أخلاق العلماء » للمغفور له الشيخ محمد سليمان ، فأعجبني ما صدره به من كلمة يتقدمها لابنه ، كلمة تتصل بموضوع ما نتحدث به الآن . لهذا أتأمل بعضها ، ففيها عظة وتذكرة لمن يريد أن يتذكر ، وجمال وخير لمن يحب أن يرى ويسمع .

يقول رحمة الله له ورضوانه عليه : « واعلم يا بنى أن نور العلم أن تستقبله نفس مستعدة له ، فهي التي تستدير به ، وتشعه على الناس . إنه يصفىها فتصنى ، وتسكون به نورانية من ومض الله نور السموات والأرض ، كالمنار يهدى الضال ، وينير الدج فيسلخ الظلام ، وهذه وظيفة العلم . إنه يطهر النفوس كالبوتمة تصهر الذهب ، فيذهب ماله من خبث ، ثم يكرم حتى يتعامل به الناس ، وحتى يكون الثمن الذى يوازن به كل عرض فى الدنيا . أما العلم الذى تستقبله النفوس الصلدة

المظلمة ، فهو الذى لا يضر ولا ينفع ، ومثله يا بنى مثل ما ترى من لعب الصبيان بالمرآة إذا عكسوها على الشمس ، ألا ترى الشعاع المنعكس منها يعشى ويحرق ؟ ذلك أن وجه المرآة صلد لا ينفذ منه النور ، وقلبا أسود لا يتبله ، فارتد بذلك على الآخرين ناراً ونقمة ، ليست الغاية من العلم أن تعلم فحسب ، بل الغاية أن تعمل بما تعلم من الخير ، وأن تكون بعلمك قدوة الخير لتمامك ، التمددوة التى تؤثر فى الناس بالناسى . فكن كما تحب أن يعرف عنك ، بالحقيقة الواقعة ، لا بالتمول الموضوع ولا بالعمل المصنوع ، بل بالإخلاص فى صفاء النفس وتربية الضمير .

وهذا كلام جليل من رجل مجرب عرف الدنيا وعرفته ، وخالط الكثير من جميع طبقات الناس حاكمين ومحكومين ، فهو يجمل عن التعليق ، بل لعل التعليق عليه - إن حاولناه - أن يفسده ، وعسى أن ينفع الله به بعض قارئيه .

٢ - الصلة بين العلم والعمل :

والكلام على العلم والعمل على النحو الذى قدمنا ، يجر إلى الحديث عما بينهما من علاقة وصلة ؛ أهي صلة المعلول بعلة ، فكما وجدت هذه وجد ذاك ؛ أى كلما كان العلم بأن كذا خير ، حصل العمل وفق هذا العلم ، وذلك كما يرى سقراط مؤسس علم الأخلاق ؛ أم أن الأمر ليس كذلك ، كما يرى أرسطو المعلم الأول وأنصاره ؛ فتمد يعلم الإنسان ولا يعمل ، وقد يعمل على ضد ما يعلم .

إن كان كلام سقراط هو الحق ، فلا تفسير لوقوعنا فى الإثم أخلاقياً ، أى لتقصيرنا فى العمل ، إلا أننا لا نؤمن بما نعلمه إيماناً يتيقناً . وإن كان الحق فى جانب المعلم الأول ، وأن الخطأ الأخلاقى ليس مرجعه إلا إلى قوة الهوى وأسر الشهوة ، فتمد عزب عنا العتمل وغلبتنا الشهوات على أمرنا !

وأرى الخير والحيلة لأنفسنا أن نعمل على استكمال علمنا بالخير حتى يكون علماً لا يلبسه شك ، ويتميناً لا يخالطه ريب ، فيدفعنا ذلك للعمل على وقته ؛ وأن نأخذ فى ذات الوقت فى العمل على إضعاف الهوى ودواعيه التى تصرفنا عن استلهاهم العتمل واتباعه ، وتدفعنا لأسر الشهوات وقتتها .

ومما يعين على درك الغاية التي نرجو ، إدمان المطالعة في كتب التراجم
 إن هذه الأسفار عباب علم ، وصفحات مجد ونخار للإسلام وعليائه ، هؤلاء العلماء
 الذين خالط الإيمان قلوبهم ، فعرفوا الله حق معرفته ، وتجلت لهم الدنيا على
 حقيقتها قرأوها شيئاً تافهاً لا يوازن بشيء من الكرامة والمروءة. إن هذه الأسفار
 مليئة بأخبار جلة العلماء ، ومواقفهم مع الأمراء والسلاطين والخلفاء حتى في عصور
 الاستبداد ، وكيف كانوا لا يراعون إلا الله وحتمه والعلم وكرامته ، فعزت وعزت
 بهم البلاد ، وسعدوا وسعدت بهم الأمة .

إن في كتب سيرة المصطفى وأبطال الإسلام ، وترجمات العلماء الأعلام ،
 لغذاء النفوس ، ومتعة للقلوب ، وحافزاً للاعتزاز بالإسلام والتشبه برجاله .
 وكما يكون جميلاً وخيراً إذا جلونا للناشئة بعض هذه السير ، واتخذنا من أصحابها
 مثلاً علينا ، وكنا لهم قدوة طيبة عملية !

(٣) يشعر البعض منا بأنه غريب عن الناس ، هين عليهم ؛ فإذا ضممه مجلس
 الآخرين ليسوا على لونه في الثقافة رأيتهم يلم ثيابه ، ويتداخل في نفسه ، ويرى السلامة
 منهم غنيمة ، والانصراف من المجلس نجاة وراحة ، لماذا هذا الإحساس ؟
 وما عوامله ؟

لعل أهم عوامل هذا الإحساس لدى من يحسه ، هو شعوره بأنه يعيش في دنيا
 غير دنيا الناس ، فهو في واد وهم في واد آخر ، وهو لهذا تثمّل عليهم برم بهم ،
 إذ يعلبون ما لا يعلم من المعارف المتعددة الألوان ، وربما أنكروا عليه أن
 ما يعلمه ذو غناء في هذه الحياة .

ونعتقد أن في هذه النظرة الثقيلة غير قليل من التجنى والمغالاة ، كما أنها كانت
 تصدق في الماضي أكثر من الزمن الحاضر ، الذي صار فيه الأزهرى يشارك
 مشاركة طيبة في درس ألوان المعارف التي لا بد منها للثقافة العامة ، فضلاً عن
 دراسة ما تخصص فيه من علوم .

على أن هذا لا يمنع من أن نقول إننا لا زلنا ملومين من بعض النواحي ،
 إذ نبذل كثيراً من مجهودنا العتلى وزمتنا الدراسي في تعلم وتعليم ما لا يجدى ،
 سواء من ناحية المادة نفسها موضوع التعليم ، أو من ناحية طريقة تعليمها .

ولترك الآن أحد أعلام الأزهر وأفذاذه ، وهو المغفور له العلامة الشيخ حسين والى ، يضرب المثل لذلك من عناية الأزهريين بعلم الكلام عناية أعتوا أنفسهم بها ، وأضاعوا بسببها كثيراً من الوقت والجهد كان من الخير أن ينفقوا في العلم الناجع المفيد . يتولى السيد الأستاذ في الجزء الأول من كتاب التوحيد :

« علم الكلام حادث في الملة الإسلامية ، ومشى فيه الناس صوراً بعد صور ، وكل منهم يترر صحة العتائد ويستنهض الحجج والأدلة ، وما فعلوا ذلك إلا لوجود خصوم من المبتدعة وغيرهم فكانوا معذورين فيما كتبوا . أما الآن فتمد ذهبت تلك الخصوم وجاءت خصوم آخرون ، فلا يليق فرض الذهاب حاضراً وترك الحاضر الذى لا يردده إلا كتاب الله إذا بيّنه الراد وكان له عمل ! أما تلك الكتب ، فان فيها حجباً كشيقة تمنع النور وتحدث الظلمة ، وربما قضت على اعتماد صحيح ثابت .

أمن العقل والحزم أن يتوجه الإنسان إلى مباراة خصم موهوم ، ويترك الخصم الذى ضيق عليه المسالك وأوشك أن يميته موتاً ؟ إن هذا هو البلاء الممين ! أمن الحزم الرد على فرقة من فرق المسلمين ليس لها إسم أو وجود إلا فى السكتب ، وترك الرد على طاعن موجود الآن ؟ أمن الحزم أن يضيع الإنسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومة وإن كانوا ناجين لأنهم غير كافرين ؟ أمن الحزم أن يبحث الإنسان فى الجوهر والعرض ، ولا يبحث فى السكتب والسنة ليستفيد علماً خيراً من هذا نافعاً فى كل وقت ؟ ... إن الجوهر والعرض أصبحا فى نسيان بجانب الكهرباء وغيرها مما عرف اليوم ، فهل أخذوا فى معرفة ذلك حتى يفيدهم فى الكلام ما أفادهم ذاك ؟ حاش لله أن يأخذوا !

إن كانت معرفة ذلك نافعة فى علم الكلام ولها دخل فى منازع الاعتماد ، ولا إخال ذلك صحيحاً ، فليصرف الحاكم أو جماعة المسلمين طائفة من الناس لدراسته ليقوموا بهذا العبء ، ولا يتركوا طلاب العلم فى شتاء وبلاء ، ولا فائدة لهم تعود إلا استهزاء الناس بهم والخط من شأنهم . »

وبعد ! فهذا كلام لا يحسن كثير من الناس أن يتولوا مثله ، وهذا رأى يعزّ على الكثيرين فى سداده وصراحته ، فلنجعل خاتمة الحديث اليوم .

شِعْرَاءُ الْأَزْهَرِ

محمد الأسمر - شاعر الأزهر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٥ —

قطعت هذه السلسلة ، التي كنت أوافي بها مجلة الأزهر ، منذ حين ، لأننى إنسان فى طبيعته العزوف عن الزحام ، ولو أنه على الحياة ؛ وما أشد الزحام على مجلة الأزهر ! ولو أخذ برأى ، لاقتربت أن يكون التحرير فيها هوى ، لا كسبا ؛ إذن ، لحيتت ، وازدهرت ، ونفضت أكلافها ، التى يُعنى أولياء الأمور فى الأزهر الطبُّ لها ، على غير جدوى ، مهما أخلص الأساة ، واجتهد المعالجون .

بيد أن كثيراً ممن يتلمنون كتابتى بشيء من التبول ، أطالوا ملائى على هذا الانتطاع ، وزينوا لى مراجعة الكتابة فى المجلة ، وفى هذه السلسلة ؛ ثم ألزمنى ذلك إلزاماً لا فكاك منه ؛ رغبة الأستاذ العلامة مدير المجلة ، فى مواصالتها ؛ ورغبته أمر وتشريف وتكريم ، ولا يابى الكرامة إلا لئيم .

رجع ما انتطع .

* * *

كما يغرد البلبل خالصة وطبعاً ، وكما تسجع الحمامة خالصة وطبعاً ، وكما تَارجُ الزهرة خالصة وطبعاً ؛ يشعر محمد الأسمر خالصة وطبعاً ؛ فهو شاعر مطبوع ، موهوب ، قوى الموهبة الشعرية قوة طاغية ؛ يعترف بذلك من يبغض الأسمر ، كما يعترف به من يحبه ، ممن تمرسوا بالشعر ، وتذوقوه ، وعالجوه ، إنشاءً وتقدماً ؛ وليس فى هذه

الشهادة إسراف ؛ فان الموهبة شيء غير الشعر ، وإن كانت معينة له وفيماضه ،
فللتماد أن يذهبوا في الحكم على شعر الأسمر ، كل مذهب ؛ كما لهم أن يذهبوا في الحكم
على كل شاعر غير الأسمر كل مذهب ، ولكن ليس لنا قد أن ينكر أن الأسمر شاعر
موهوب ، إلا إذا أدخل التكلف على نفسه ، واصطنعه اصطناعا .

وقد أقام الأسمر على ذلك ، البرهان الذي لا يخامر ريب ؛ بإحرازه التفوق
في المباريات الأدبية غير مرة ، على حين أسف فحول الشعراء ؛ وبإجازة ديوانه
من لجنة الخالدين ، رجال مجمع فزاد الأول للغة العربية ، على حين بهرجت دواوين
شعراء تحتك أنوفهم بالسما تعالياً وزهواً وادعاء ؛ هذا مع أن الأسمر — كما عرفه
الناس — رجل ملول ، فنان ؛ لا يطبق السكد ولا الجد في طلب العلم ؛ ولا يصبر
على معاناة الدرس والبحث ، ولا يحتمل السهر إلا في بيت يبنيه ، أو قصيد ينشئ ؛
فهو شاعر شيطاني ، تسعة أعشار شعره من وحى الشياطين ؛ وهل يأتي هذا إلا من
قوة الطبع ، وغزارة الموهبة ؟

لى صديق من رجالات وزارة المعارف ، كان يتتبع متطوعات الأسمر
في الأهرام ، ثم يتول لى بعد أن يفرغ من قراءتها : يا أخى ، شعر أسمر كم هذا ،
يؤكل أكلا ! سبحان الوهاب !

ولفت نظرى مرة كلمة في جريدة « الإخوان المسلمون » نصها : « هما اثنان
في الأزهر ... فأما أحدهما فيأتاك ولسان حاله يفشر قول بشار :

إن فى بردىّ جسماً ناحلاً لو توكتأت عليه لانهدم

وأما الأسمر ، فانه يأتاك كأنه قصيدة رائعة تمشى على الأرض ! « ولئن أخطأ
صحة « المتارنة » لهد أصاب تشبيه الأسمر ؛ فان جميع مظاهره ومخايله شعر فى شعر
اللهم إلا إنشاده ؛ فان أضعف نواحي الأسمر إنشاده ، وبخاصة حين يحتفل ، ويبرز
صدره وكرشه ، وتفتخ أوداجه ، ويخرج الكلام من أسفل بطنه ؛ وهو إذا
أرسل نفسه على سجيته — وقبلها يفعل — يعجب ويضطرب .

وقد رشح الأسمر لأمارة الشعر ، خالد الذكر ، شاعر التطرين ، خليل
مطران ، وناهيك بشهادة شاعر القطرين !

وللأسمر شعران : شعر ظاهر ، حواه ديوانه ، ونسب إليه ؛ وشعر خفي ينساب في جداول كثير من دواوين الشعراء والمتشاعرين ؛ في كلمات ، أو أشطار ، أو أبيات ، يعرفها أعضاء « مصطبة الشعراء » قديماً ، ويعرفها كثير ممن يعرفونه حديثاً .

والأسمر بين إخوانه ظريف كل الظريف ؛ وكانت له « قفشات » مع المرحوم أحمد الزين تثير عواصف الضحك تزلزل أركان « النادى » : ينشد الزين شعراً له جديداً ، فيبادره الأسمر - في خبث - : « أنت بتكح ليه يا زين ؟ » ويلتفها الزين اللهاج ! ويدرك أن الأسمر يريد أن يشبه شعر الزين بنفشات المصدور ؛ فيحتاج الزين ، ويصيح في الأسمر : يا جاهل ، يا ... ، يا غبي ! متى ارتقى ذوقك إلى حد أن يتقدم كلام الزين ... ويخرج الأسمر بالصمت عن لا ، ونعم ، عدا نبرات ضحك خفيف ، ضحك من ظفر باصاصة شاكلة الرمي ، وفاز بإعجاب السامعين !

وبيت الأسمر العائلى ، بيت علم في الجملة ، فلئن ضربه أبوه على إغرامه بالشعر - على ما روى هو عن نفسه في فاتحة ديوانه - كما ضرب برد ولده بشاراً على الشعر ؛ ودافع الأسمر عن نفسه ، كما دافع بشار عن نفسه ، فدل ذلك على أن والده كان أمياً ؛ لقد روى المغفور له الأستاذ المهرأوى : أن الست والدة الأسمر كانت عالمة جليلة ؛ وإن كان الأسمر يتبادل رواية المهرأوى ، ببسمة مبهمة ، لا تفيد نفيّاً ولا إثباتاً ؛ ولا تواضعاً ولا إنكاراً .

فأما سنه ، فلا تتجاوز الخامسة والأربعين . . .

وأما حظه في الحياة ، فإنه حظ كان يكفي لصلاح حاله ، لولا هذا التاج الخيالى ، الذى امتحن أكثر الشعراء ، بأن يضعوه على رؤوسهم ، وإن كانت خاوية قرعاء .

وفي الأسمر وفاء ، يحمله على أن يكون الاعتراف بالجميل أعذب أحاديثه وأسماره ؛ وفيه إباء ، يجعله يأبى الضيم ، ويذكر السيئة ، ويثور للعدوان ؛ بيد أنه ليس هجاء ، ولا خبيث اللسان ؛ وإنما يلقى خصمه وجهاً ، كما يلقى الشجاع الشجاع ، لا كما يلقى الشاعر الشاعر ؛ وعلى الجملة ؛ فنواحي الفضل في الأسمر متعددة ، وخلال

الرجولة فيه متوافرة ؛ وإن قالوا فيه هنات ، وله خطايا ؛ فمن منا ليس له هنات ،
ومن منا ليس ذا خطايا ؟ !

وإذا كان الحديث عن الأسمر ، لا يكمل إلا بذكر شيء من أشعاره ، شاهداً
على ما أوردنا من أحكام ؛ فاسمعه ، حين يذكر المظاهرات الدامية لطلبة المدارس
وطالباتها ، وانظر عن أية عاطفة شاعرة يصدر :

ملاحم . بالغداة وبالعشى	رعاك الله من شعب أبي !
مشى للحق أعزل ، غير صوت	يردده ، كزجرة الآتي
فوا أسفا عليه ، وهو يتضى	شهيدا بالرصاص وبالعصى
رماه الظالمون وما رماه	فويل للضعيف من التوى
سلوه بعد ما ارتشف المنايا	أيشعر في مراقده برى ؟
وليس بظالم أبدا شهيد	سقى الأوطان من دمه الزكى

واقراً في قصيدته « عودة المجاهدين » قوله :

تبينت أن الحق إن لم تتح له	بواسل يخشى ظلمها فهو باطل
لعمرك لو أغنى عن الحق أنه	هو الحق ، ما قام النبي يتماثل
فلا تحسبن الحق ينهض وحده	إذا ملت عنه ، فهو لا شك مائل
من العقل ألا يطلب الحق عاجز	فليس على وجه البسيطة عادل
وما « سيشل » عندى التى كنتم بها	ولكننا دار الأذلاء « سيشل »

ثم أخبرنى عن أثر هذه الحكم الروائع فى مشاعرك وأحاسيسك !

أولا تحس نفحة من نفحات البهاء زهير ، حينما تقرأ للشاعر الأسمر ، قوله
للمغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ، شيخ الأزهر الأسبق :

يا أخا الزهر منظرا	وأخا الزهر مخبرا
قلت يوما لصاحبي	فى حديث لنا جرى
إنما الشيخ مصطفى	وردة نفحها سرى

ذاك رأي الذى أرى يا صديق فما ترى ؟
قال : بل فوق ما أرى قلت : بل فوق ما ترى !

ولم أحسد الأسمر على قصيدة ، حسدنى له على نبوته الرائعة ، التى لا أعلم أن شاعرا — غير شوقى — وفق إلى مثلها ، فى العصر الحديث ، وأى حسن وراء قوله فيها :

إن الرسول محمدا صبح بدا	من راح يعثر فى سناه ، فلالعا !
وافى بها بيضاء ، عدل كلها	لا تلقين بها الضعيف مضيعا
دخلت على الجبروت ، وهومتطب	صافا ، فأبصر وجهها فتفزعرا
دين المساواة الصحيحة دينه	يرعاهم فى الله أشفق من رعى
ما جر أثواب الحرير ولا مشى	بالتاج من فوق الجبين مرصعا
من ألبس الدنيا السعادة حلة	فضفاضة ، لبس التميص مرقعا
وهو الذى لو شاء نالت كفه	كل الذى فوق البسيطة أجمعا
مسك به اختتم المهيمن رساله	وأبان أمر الدين والدنيا معاً

* * *

أما بعد ، فإن وجوه الجمال الفنى فى شعر الأسمر ، تستطيع أن تعدّ منها ، ولن تستطيع أن تعدّها ؛ فلا تجزىء بهذا التليل المجمل ، وأحيل التراء الكرام ، على « ديوان الأسمر » الذى طبع حديثا ، فإن فيه الكثير الطيب ، والمعجب المطرب ، والبديع الطريف ؛ وجمال المنظر والخبر . وليس هذا إعلانا عن الديوان ، فإنه — صنع الله له ما كان يدعو له به صديقه المرحوم الهراوى — لم يهد إلى نسخة منه ، وإنما رأيته فى يد بعض من أهدى إليهم ، ممن يستأثرون بحبه وإيثاره ، ولعله — إذا قرأ هذه الكلمة — يتلوم ، فيتكرم ، ولو تطبعا . . .

أيها الأدباء ، أيها العلماء :

عليكم بديوان الأسمر ، فإنه ديوان الأزهر . . .

المبشرون بالإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

ربما راع القارئ الكريم أن أجعل هذه الكلمة عنواناً لمقال تنشره مجلة رسمية تعنى بإصدارها « مشيخة الأزهر » لتكون لسان صدق لها في العالم العربي وغير العربي ممن يشهدون أن الإسلام لم يعد بحاجة إلى من يحمل للناس دعايته ، ويرفع رايته ، ويغزو به نفوساً انغمست في زهرة الدنيا ، فلم تلتفت إلى تشريعاته وأحكامه ، ولم تؤمن بضرورة وجوده كنظام لا بد منه لحياة هادئة هانئة تنشد لها العتول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والطباع الوثابة إلى سعادة صحيحة ، وطمأنينة دائمة ، وباهنية معقولة .

ونحن نكذب أنفسنا ، ونغالط ضمائرنا ، حين ندعى أن الدين يشق — وحده — الطريق إلى القلوب ، دون تبشير به ، وأذان بصوته ، وإيقاظ لتلك البصائر التي ضلت وجهته ، وتنسكب سبيله ، وراحت تتلمس النور من غير سراج ، وإلا لما صحت كلمة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم إذ يقول عن الحلف العدول من أبناء تلك الأمة ، أنهم يحملونه إلى المسترشدين « ينفون عنه زيغ المبطلين ، وتحريف الجاهلين » . ولما لاقى الرسول وهو بصدد تبليغه هذا الصنف المهرق ، والجهل الشاق ، والإيلام الصارخ ، والإيذاء المضنى .

وكان من حق أصحابه من بعده أن يناموا نومة أهل السكف عن الجهاد له ، والذود عن حرمانه ، والغضب للعدوان عليه ، مع أنهم عاشوا وماتوا لدعم أركانه ورفع بنيانه ، وإعلاء كلمته ، والتنويه بشأنه في الأصقاع والبقاع إلى درجة أنهم لم يتركوا أعداءه « حتى يعطوا الجزية عن بدوهم صاغرون » .

وإذا كانت «الإرساليات» الأجنبية وقفت سبجها زمناً طويلاً لمحاربتة ، والغض من قيمته ، والتنديد بأتباعه ، تنديداً ينطوى على السكيد والبغضاء ، فإنها ربما ضاعفت من نشاطها ، وبالغت في عدوانها من جديد ، ولا سيما حينما تتجه الاتجاه الصحيح لطمس معالم الشيوعية وغيرها من المذاهب التي تتف بينهم وبين ما يهدفون إليه من مطامع ، ويطمحون له من نفوذ وسلطان ، لأنهم يعلمون تمام العلم أن للقرآن سحراً أخذاً ، سوف لا يذكر أحد معه شيئاً من تلك الشرائع ، ولا هاتيك المعتقدات ، إلى جانب أن دستوره في العمران والإصلاح ، والسيادة والملك ، قد لا يتلاقى مع هذه كلها في قليل ولا كثير ، لأنه اشتراكية محدودة ، تسكفل الحياة المعتمولة ، والإنتاج المنظم ، والتعاون العام للفرد والجماعة ، بحيث يكون الشعب جميعه متمتعاً بالحرية وفق التمانون ، مترابطاً في حدود الشعور بالحياة المثالية المنشودة ، والعربي والعجمي ، والأبيض والأسود ، والغنى والفقر ، في كل ذلك سواء .

ولا ينكر عاقل أن المسلمين — جميعاً — يعيشون الآن بعاطفة « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل » مع أن تعاليم كتابهم تحتم عليهم ما يتصل بالجماعة أكثر مما يتصل بالواحد ، وتشدد النكير على المتهاون في حقوق الإنسانية العامة أكثر من أى تهاون آخر .

وأبو بكر رضى الله عنه لما كان يشيع أسامة بن زيد على رأس الجيش المحارب ماشياً على رجله وأقسم عليه أسامه أن يركب فأبى قائلاً له « وماذا على أن تغبر قدمي ساعة في سبيل الله » كان يعلم مدى ما يستأهله المسلم من رضوان إذا نصب نفسه لإعلاء كلمة رب العالمين جل جلاله .

إلا أن أمراً يجب علينا ألا نغفله ذلك أن تلك الرسالة النبيلة ، رسالة « التبشير بالاسلام » والدعاية له ، لا يتمرن التوفيق بالمتحملين لها دائماً أبداً ، وعلى طول الخط — كما يقولون — لأن أصحابها ورثة الانبياء يجب عليهم أن يوطنوا أنفسهم على أنهم سيلاقون مثل ما لاقوا ، في صبر الدارين ، وحلم المؤمنين وصفح المتأدبين ، وعفو التماردين ، وكياسة العاقلين ، واحتيال الماهرين ، الذين نلاحظ فيهم الحذق وحسن التأني للأشياء .

على أننا وقد أصبحنا نرى السكرة الارضية تموج بالنظريات والفلسفة ، والعلوم والفنون ، والمذاهب والاتجاهات ، تتول إن العلم بالكتاب والسنة ، وفقه معناهما لا يسكنى فى الإقناع ، ولا يصح الاقتصار عليه فى الوعظ — والمسلبون الذين درسوا المنطق اليونانى ، والعلوم الفارسية ، فى الدولة العباسية ، وجعلوا من ذلك كله لقاحا سائغا فى أديهم وتفكيرهم وتأليفهم ، فاستفادوا منهم جم الفوائد ، لا يزالون بحاجة إلى أن يجاروا ركب الزمن ، وقافلة الايام ، ليعلموا ما تنطوى عليه الآفاق البعيدة ، والبوادر المحمودة ، لان الله سبحانه وتعالى لم يخلقهم لوطن ، ولم يرد منهم أن يموتوا بأرض ، ولا أن يعكفوا على بيئة واحدة — وهناك ناحية مهمة يجب أن نهتئ لها أنفسنا ، ونحسب لها الحساب العظيم . . وهذه هى حسن عرضنا للمسائل ، ليستطيع الآخذون عنا أن يستسيغوها ، وألا يتهمونا بالجهل ، ويتمهوا ديننا بالعقم ، ويظنوا بنا ظنون السوء ، ولست أتعرض لنماذج من قضايانا المغلقة التى تنتملها من الكتب كما هى بدون تصرف وأكتفى بمجرد الإشارة ، وأرجو من الله التوفيق .

أمثال سائرة

لابن عبد ربه مؤلف : العمد الفريد ، شعر جيد منه ما جعل فى كل بيت منه مثلاً أو مثلين . مثل قوله :

قالوا شبابك قد ولى فتملت لهم	هل من جديد على كر الجديدين
صل من هويت وإن أبدى معاتبة	فأطيب العيش وصل بين إلفين
فاقطع جائل خل لا تلامه	فر بما ضاقت الدنيا باثنين
فكرت فيك أبجر أنت أم قر	فقد تحير فكري بين هذين
إن قلت بجرأ وجدت البحر منحسراً	وبحر جودك ممتد العبايين
أو قلت بدرأ رأيت البدر متقصا	فتملت شتان ما بين اليزيدين

الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ

أفضلية الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

أما أن العلم في ذاته لا يستتبع العمل فذلك أمر مشهود جاء في الشاهد والغائب وهو مما استفاضت به الأخبار ، وطفحت به الآداب والأشعار ، وهو شيء لا ياباه العمل والمنطق السليم ، فإن العلم إنما يرفع ضده وهو الجهل ، ولا يرفع ضللا ولا طغيانا ولا مأثما ، فما أكثر مآثم العالمين ، ومفاسد الثرثارين والمتفيهقين ، وإنما كان الشأن في العلم أن يتطلب العمل من قبل أن العاقل من حتمه إذا علم النفع في شيء حرص عليه ، وإذا رأى الضرر في شيء ، فرّ منه تمشيا مع غريزة الحرص على جلب المنافع للنفس بتدريج الطاقة البشرية ، فإذا حمق العالم أو أخطأه التوفيق خلط في سيره وعرض نفسه لكل ما فيه عليه مقال ، نسأل الله السلامة والعصمة .

وفي الحق أن العلم كالماء ، يتلون بلون الإناء ويتبع المتصف به ، والله سبحانه قسم بين الناس العلم كما قسم الرزق ، ولكن عباده يتفاوتون في تقدير العلم والانتفاع به ، كما يتفاوتون في تقدير المال ووضعه في مواضعه ، ولذلك قرنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذى يرويه البخارى .

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

وفي حديث البخارى أيضا ، يتقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلمين أصنافا ، فقد شبه ما بعثه الله من الهدى والعلم بالغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلاّ والعشب ، فأكل الناس وشربوا وملئوا أستقيتهم وكان منها أرض أمسكت الماء للوارد والمستقى .

وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فأهل العلم منهم النافع والمتنفع

كالأرض الطيبة المنبته ومنهم النافع غير المنتفع وهو الذى يعلم الخير ولا يعمل به ومنهم من لا ينتفع ولا ينتفع كالقيعان .

ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما أنا قاسم والله المعطى فإذا وصل العلم والمعرفة إلى نفسى أفادت منها بقدر غنصرها واستعدادها واتجهت بها مع ظروفها وملايساتها ولهذا يصرف كثير من الناس العلم عن اتجاهه ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويؤولون آيات الكتاب بما يوافق أهواءهم يزعمون فى أنفسهم أنهم لا يريدون أن يقطعوا علاقتهم بالعلم ونسبتهم إليه وفى الحق لقد أوجد هؤلاء بينهم وبين العلم أكبر جفوة لأنهم فسروه على عكس اتجاهه والعلم لا يقبل ذلك لأنه نور فضاح يكشف كل من قرب منه وحام حول ضيائه وفى الحق أيضاً أن كل علم لا يوجه وجهته ففيه شائبة الجهل على أى اعتبار وفى أى وضع . قال بعض السلف ما عصى الله إلا جاهل وقرأ الآية الكريمة (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) وفى حديث شريف لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً بل إن فى بعض الآثار ما يدل على أن بعض المعاصى يرفع الإيمان وقت التلبس به فى الحديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الخ » ولهذا أكثر الناس من سلب الوصف عن أنصف به إذ الم يحقق ثمرته المقصودة ولذلك عندى وجهان من التأويل .

أحدهما أن المراد نفي الانتفاع فكأن هذا الشيء الموجود فى ذاته مفقود لأنه لم يحقق الغاية .

(الثانى) أنه ناقص من بعض نواحيه لأنه لم يحقق الغاية ولو كان كاملاً لحقق الغاية ولذلك تقسم المعارف فى بعض الاصطلاحات الى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ولهذا كان العلم مقولاً بالتشكيك عند التحقيق .

ومهما يكن من شيء فإن العلم فى ذاته لا يستلزم العمل ولا يقتضيه ولهذا أيضاً تفاوتت أقدار العلماء فعالم فى السماك وهو الذى يشبه أنبياء بنى إسرائيل يعلم الحكمة ويعلمها ويكون كالأرض الطيبة التى تنبت الطيب وتفيد الطيب النافع المصلح .

وعالم آخر فى الحضيض تلغنه الملائكة والأنس والجن ممن قال فيهم الرسول

صلوات الله وسلامه عليه « يؤتى بالعالم يوم القيامة فتندلق أقتابه في جهنم فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون مالك وقد كنت تأمرنا بالخير وتنهانا عن الشر الحديث » وهؤلاء هم الذين يشترون الضلالة ولا يبالون ما فعلوا .

ولذلك فأننا ننبه أهل العلم ومن آتاهم الله الكتاب والحكمة وخصهم بمزية العلم الذى يرفع المملوك الى مجالس الملوك ويجعل صاحبه فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلوه عليها ، هذا العالم الكريم ينبغى أن يحفظ علمه وكرامته وأن يحصن دينه وسمعته وأن يعز نفسه باعزازه وأن يكرر النظر فى مثل كلام التماضى الجرجانى الذى يقول فيه .

يقولون لى فيك إنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أشقى به غرسا وأجنبية ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا بحياء بالاطلاع حتى تبهما

يريد الوضع الطبيعى من رجل العلم أن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة يستفيد الناس من عمله مثل ما يستفيدون من علمه أو ما يغنى عن الاستفادة بعلمه وفى الواقع إنه مسئول بما يصدر منه عن الناس كما أنه مسئول عن نفسه ولهذا قالوا « اذا زل العالم زل العالم » ، « وصنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس الأمراء والعلماء » .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم نفسه من ثمرة هذا النور الكريم والإشراق السماوى العظيم فما أشد خسارة من يرى الضياء ولا يبصر فيه وما أسوأ حرمان من حرم التوفيق لما هو أقرب شئ إليه ومن أضل ممن ضل على علم وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم الكياسة إلى حد أن يهمل عمل الخير وقد تعلم ما يتنافس الناس فى نيله ليصلوا إلى ذلك الخير . هذا والله حماقة تنادى على صاحبها بالشبور والويل « ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل ألف مرة » . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .

إذا كان الناس يعظمون العلماء ويحسدونهم على ما هم فيه من الفضل العظيم وإذا كان الله سبحانه يرفع الذين أوتوا العلم درجات ، فذلك لأنهم يستطيعون أن يفعلوا الخير ويكونوا رحمة للإنسانية ومرهما للجراحها وطباً لأمراضها ، ولأن المفهوم في أمثال العلماء أنهم آمنوا العثار والزلل في القول والعمل ، ومن لم يكن كذلك فقد نزل عن رتبة الفضل والتقدير ، ووقع في حفرة التحقير .

« وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فثله كمثل الكلب . ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » .
« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

العلم في ذاته فضيلة لأنه يزيل رذيلة الجهل . والجهل ظلمة والعلم نور ، والجهل عمي والعلم بصر والجهل موت والعلم حياة « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » .

العلم فضيلة جليلة ، ما في ذلك ريب ولا مرية ، ولكن فضل تلك الفضيلة في استغلالها والارتفاع بها ، فعلى قدر نفاستها تكون نفاسة ما تؤدي إليه .
وبمقدار قيمتها كانت خسارة من لم ينتفع بها وآثامه وحسابه العسير .

ومن حق العلم على صاحبه أن يشعر الناس بمنزلة العلم الذي يحمله ، وذلك بتلبية داعيه الكريم ، والعمل بما يقضى به في جميع الشؤون وإلا استهان الناس بذلك العلم وحامله ونسبوه إلى الحق أو الجنون ، ووضعوا نصحه وتوجيهه موضع سخط المتاع ومالا وزن له وتأمل فيما يقول الله سبحانه :

« كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وبعد فما ظنك بشمعة تضيء للناس وتحرق نفسها ، وطبيب يداوى وهو سقيم أيأمنه الناس على شيء .

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى الناس وهو سقيم

على هامس الجولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس في كلية اللغة العربية

اتجه الرسول الكريم نحو مكة ، وهو يعلم أنها كارهة للقائه وصادفة عنه ومعادية لدعوته ؛ وتجربة الطائف لم تكن مشجعة له على التثقل بين أحياء العرب ولا على التردد بين قبائلها ، فالثقة بقريش لا زالت تملأ نفوس الكثرة العربية وقريش واقفة له بالمرصاد مهونة لشأنه محقرة لأمره ترد قوله وتصد الناس عن متابعتة ، وما تقول الناس في رجل عاداه أهله وخذله قومه وعشيرته لقد استضعف من مكان قوته وروع من مكان أمنه وانتقص من مكان كاله فأني للناس أن تجيبه أو تجاريه أو تهادنه أو تواسيه .

إذن لا بد أن يرد بصره الكليل نحو القرية التي أخرجته والبلد الذي خذله فإن ماضيه بها يهون على نفسه ظلم سكانها وألم المقام فيها . فأهلها أعلم به وإن كرهوه وأعرف بمكانته وإن أنكروه .

وقصد إلى مكة وهو شائع النفس محزون القلب منهوك القوى يجر رجلين لا تحملاه مصطحبا معه الحق المظلوم والقضية المضطهدة موقنا بالفتح مؤمنا بالنصر وسفهاء الطائف يتفون له سماطين يشيعونه بما يشيع به أهل البغي والعدوان والضلال والفساد ؛ ولو أنصفوه من أنفسهم لاحسنوا إهتقباله وأكرموا وفادته وودعوه وداع المحسن لشعبه المتمد لأتمته فتمد جاءهم بالمجد الخالد والسيادة العامة والهدى والإصلاح والنور والعلم رجاء أن يترب بهم بين الارض والسماء .

ويتصور الرسول الكريم موقفه من أهل الطائف ويذكر ضعفه وهوانه فيناجي مولاه « يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكفى إلى بعيد يتجهنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى

غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات واصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

وفي مرجعه نزل بنخلة وهي محلة تمام بقربها سوق عكاظ ، المعروفة في حياة العرب والأدب العربي ، وقام يصلي من الليل والصلاة قرّة عينه وحيية نفسه ، والليل أنس المحبين وعرس الواصلين ومقام الحامدين وبيننا هو في موقفه صرف الله إليه « نفرا من الجن يسمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين .

وكان ذلك عن غير شعور منه ولا ترقب عنده وهل يطمع الرسول الكريم في هداية هذا الجنس النافر المستخفي وقد استعصى عليه تذليل جنسه وتهذيب قومه ؟ ولكن الله قد جعل منه هادياً نافذاً في الطبائع ومؤثراً في الجبلات وجعل في رسالته قوة تخترق الحجب فيستجيب لها كل سميع ويؤثر بها كل حي فهي رسالة تدعو لنفسها وتشع من جوانبها وإذا وصلت إلى القلب أبت أن تستقل به وتقف عليه وإنما تخرج به داعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وأظهر الله رسوله على أمر الجن نحوه ، طمأنة لقلبه وترضية لنفسه ، والجن خلق آخر استروا وراء لطافتهم واختفوا تبعاً لطبيعتهم كما ظهر الإنسان أثراً لكشافته ، خلقهم الله من نار كما خلق الإنسان من طين ، وفي النار لطافة وحرارة ونور ، وفي الطين كثافة وغلظ وعتامة ، ولكن المبدع الختار يرفع ويضع لا معقب لحكمه فرفع الكيف على اللطيف وقال اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين « معترداً بأنه من نار وآدم من طين ونسى أنه في حضرة ربه عبد متهور ومخلوق مغلوب ، وجره كبره وغروره إلى الخروج من دار الجبور إلى دار الشرور ، ومن جنة وسعته إلى أرض لفظته .

والجن طرائق منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وفي طبعهم النفور وفي خلقهم الغرور ، وقد استمعوا لدعوة محمد صلوات الله عليه وانصتوا للقرآن فلانت طباعهم للحق وجعلوا من أنفسهم دعاة للهدى وأنصاراً للدعوة ورسلا على الرسول يدعون الله ويصدقون بكتاب الله وينذرون بالعذاب من لا يجب داعي الله ويبشرون بالجنة من آمن بالله ، وهذا أكرام من كريم وتقدير من حكيم رفقه الله به عن مصطفىاه وخفف عن مجتباها فأراه قوة دعوته وقدر رسالته وكيف أنها تدلل من الطباع النافرة وتعود النفوس المارقة وتجذب لرحابها جبلة كان منها من عصى ربه تكبرا على البشرية واحتقارا للآدمية .

لقد سمعت الجن واستجابت وأذعنت وآمنت ودعت قومها للهدى فكان ذلك تسليية مجزئة وترضية مقنعة بأن خلاها أن حجود القرشين وأهل الطائف بالدين لم يكن لتقصير في التبليغ ولا لوهم في الدعوة ولا لتقصير في الحق وإنما كان عن حسد ملأ النفوس وحتمد أكل الصدور ، فكفروا بعربي بعث من صميمهم وأرسل فيهم وأعزهم وعز عليه عنادهم وأحبهم وكره مخالفتهم ولم يدر أولئك أنه جاء بسعادتهم وسلطانهم .

وأقام بنحلة أياما يشكر ويفكر ويجمع نفسه لمواجهة قريش ويرى زيد بن ما يعاينه الرسول فيشفق على موقفه ويخشى عليه أن يتعرض لخطر يواجهه أو ظلم يستقبله فيقول كيف تدخل على قومك وقد أخرجوك ؟ فيجيبه مطمئنا مبشراً « إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » .

وانتهى إلى مكة ووقف بالحق على أبوابها ودار بخلاذه ما سيلقاها من قريش بعد أن رفض أهل الطائف متابعتها ، والطائفيون والمكيون متنافسون في الشرف متعادون في الرياسة لكنهم متفقون على نصرة باطلهم وخذلان حتمه ، ولا مناص له من دخول مكة معها كلف من عنت وأرهاق فتصريف أمور رسالته يحمله مضطراً على جعلها داراً لإقامته ومركزاً لقيادته إلى أن يهيء الله له داراً تحبه ويحبها يأوى إليها فتؤويه ويستنصر بها فتنصره . والقوم لا يرضون دخوله ولا يمكنونه ولا يتبرون إقامته بينهم وهو باق على عهده متمسك بأمره وقد مات أبو طالب فقل به النصير .

واستعرض رجال قريش في لحظة يسيرة إلى أن وقف نظره عند المطعم بن عدى فان له معه لحمه وماضيا يطعمان في نصرته ومأزرته ، وأرسل إلى مطعم رجلا من خزاعة ليخبره بخبره ، فلما علم مطعم خرج إلى الرسول واستقبله بعد أن دعا بنيه أن يحملوا السلاح ويقفوا عند أركان البيت ، ودخل رسول الله في صحبة مطعم ومعهما زيد بن حارثة حتى وصل المسجد الحرام وانتهى إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم وولده محدقون بالسلاح .

وأصرت قريش على عنادها وأمعنت في إيذائه والكيده له ، وعرضت عليه ألوانا متفرقة من العذاب ، قصدا لصدده عن غايته ، فن أشواك توضع في طريقه إلى فضلات توضع على رأسه الكريم وهو قائم لربه إلى غير ذلك من صنوف الإيلام وضروب الاستخفاف ، وهو محتسب صابر يعتذر لهم عند ربه ويطلب لهم الهداية فيقول : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » .

وضاقت مكة بالحق وأوصدت أبوابها دون ذلك النور ، واختلطت قلوبها بصخورها فلا سمع ولا استجابة ولا ارتداع ولا اتباع ، بل استجبوا العمى على الهدى ، وطاردوا الحق في كل مكان ، ومدوا أفواههم ليطفئوا مشعل الدين ، « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون » وبقي الرسول في مركز قيادته يتردد حول مكة في المجامع والأسواق ، عله يجد من الوافدين من يصدق بدعوته ويؤمن برسالته ، وكان يتم له قصده لولا مطاردة قريش له بنقد ما يبرم وإفساد ما يصلح ، وتخرج أمر الرسول في قومه وتلفت فيمن حوله فلم يجد فيهم رجاء في النصر ولا أملا في البيعة ، ولولا أن أهل الأوس والخزرج كانوا يعلمون من حلفائهم يثرب من اليهود أن نديا من صفته كذا أطل زمانه وجاء أوانه وأن اليهود ستبعه لتقاتل معه العرب ما أسرعتا في متابعته والاستماع إليه ، ولكنهم تأملوه فعرفوه ، واتجهوا إليه واستمعوا لحديثه ، ووافى الموسم منهم من آمن بالدعوة وبايع على النصر ورجع إلى قومه داعيا وهاديا ؟

الإسلام يحقق السلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

شهد العالم قبل الإسلام ويلات وويلات ، وسادته ضلالات أفست على العقول اتجاها إلى السمو وطلب الكمال ، وخضع لاستبداد طاغ في توجيه أموره ، وكل مقدراته ، لصوالح حكام في الشرق والغرب ، كل أهداف حكمهم . هي الجلوس في أبراج السيادة ، والإشراف منها على استغلال المحكومين ، وإن شئت قل إن حكام الشرق والغرب قبل الإسلام ، كانوا في صراع على السيادة في أرض الله ، ألقوا فيه إلى الجحيم كتلا من المحكومين الذين أهدرت آدميتهم ، في سبيل شهوات كسرى وقصر ، ولقد غشى العالم فساد عام شامل ، استشرى في كل ناحية من نواحيه . في الدين ، في السياسة ، في الاجتماع ، في كل شيء .

كذلك شهد العالم قبل الإسلام ألوانا مختلفة من الديانات والتشريعات ، المساوية والوضعية شهد اليهودية والنصرانية ، كما عرف الزرادشتية والمزدكية والمناوية والسكنفشيوسية ، والبوذية ، ولم يجد العالم في واحدة من هذه الديانات ، ما يهذب النفس ، أو يرقى بالروح معارج الجمال ، ولا ما ينظم مجتمعا سعيدا يقوم على الحب والسلام .

وجرب العالم منذ التدم تشريعات الفراعنة . وقوانين حمورابي ، وجملة تشريعات أخرى إغريقية ، ورومانية ، وفارسية ، ولم يسعد العالم أى حكم قام على هذه التشريعات ، إذ لم تنظم مجتمعا ، أو تحقق عدلا ، ولم تجلب رخاء ولا أمنا ، بل لم تحفظ حرمة الإنسانية . لأنها كانت تسير وفق قاعدة عامة تمثل الشرائع قبل الإسلام هي : من غلب على شيء أكله .

عالم عقلى أفسدته الوثنية ، ووثنية ألزمت الناس بعبادة الحجر ، أو عبادة الشجر ، أو النيران أو البشر ، وديانات عطلت المواهب ، واعتقلت العقول ، وأتجت سعي الحروب بين الشعوب . لا طلباً لكمال إنسانى ، ولا تحميماً لآخوة أو عدالة . بل لسيادة نوع من صنوف هذه الوثنيات .

وعالم اجتماعى أفسدته الطبقية . فأشراف هم سادة الناس ، وفى أيديهم الجاه والسلطان ، وعندهم ذهب الدنيا الوهاج ، وصنوف من الناس يتقاتون فى العبودية والاستغلال ، ويمتعون بالفتر والحرام ، ويكدحون لسادتهم فى سبيل الإبقاء على حق الحياة .

وعادات لا تدرى أهي عادات إنسان أو حيوان ، وجاهلية جاهلة ، قضت على التفكير الإنسانى ، فلم يتوجه لخدمة الإنسان ، ولم يسعف البشرية باصلاح ، وهي تلح فى طلب الإصلاح .

وصراع دائم مرير بين الشرق والغرب ، بين الفرس والروم ، على سيادة دنيا الله ، حروب فى إثرها حروب ، وكروب تتبعها كروب ، وغطرسة فى كسرى خربت الشرق ، وكبرياء فى قيصر خرب الغرب ، ومن غطرسة كسرى وكبرياء قيصر ، يتألف عالم سياسى يقوم على الظلم والفجور ، والإنسانية بين هذه العوالم المحرقة المدمرة ، تنادى ربها ، وتستغيث بآريها ، يارب تدارك عبادك بوسائل الإصلاح ؛

وأشرقت الأرض بنور ربها ، وانبلج صبح الإصلاح ، وبعث الله محمد بن عبد الله بالإسلام رحمة للعالمين ، ليخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد .

جاء الإسلام ليصحح الأوضاع السيئة ، ويصلح الفساد الذى يعانى العالم من جرائه ويلات الحروب . ويتمم مجتمع الإنسانية على أسس قويمه من العدالة والآخوة والمحبة والسلام .

ولقد بدأ الإسلام باصلاح العقيدة . عتيده الناس فى رب الناس . فاستهجن الضلالات السائدة . وأنكر أن يكون هناك أدنى تصرف فى أمور الناس . الشئ

من اللات والعزى ومناة . ومثيلاتها من أحجار وأصنام . أو لشيء من نيران
الفرس أو حيوان غيرهم . أو لشيء مما يعبد اليهود والنصارى .

وقرر أن الخالق واحد من كل وجه ، هو وحده المتصرف في كل شيء ،
وإليه يرجع الأمر في كل شيء ليس كمثله شيء . من حجر أو شجر ، أو بشر ، كل
الكون في قبضته ، وكل العوالم عبيده ويرجون رحمته ، ودعى الإنسان إلى تحرير
عقله من قيود الوراثة والوثنية ، فاذا حرر عقله فليُنظر فيما يحيط به متأملاً
فيما خلق الله ، وليحكم عقله المتحرر ، في قضية الألوهية . ولينظر « أرباب
متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ؟ « أفمن يخلق كمن لا يخلق » ؟ « أيشركون
مالم لا يخلق شيئاً وهم يخلقون » ؟ « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن
الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب
شيئاً لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله
لقوى عزيز » . ولا بد أن يصل العقل المتحرر من قيود الوراثة والوثنية في هذه
القضية إلى ما يدعو إليه الإسلام . لا إله إلا الله . فاذا استيقن بها الإنسان .
تفتحت له آفاق وآفاق . واستقام أمره على وجه من الإصلاح والصلاح لم يعهده
من قبل !!!

* * *

خالق الكون واحد وهو المتصرف فيه . وهو وحده سيد لما خلق . وكل
خلق الله عباد الله ونسبتهم إلى الله واحدة . فهم أحرار . لأن الله وحده هو خالقهم
وهم عند الله سواسية لأنهم جميعاً عبيده وهم إخوة لأن ربهم واحد وأباهم واحد
وأهمهم واحدة خلقوا لغاية واحدة أفضليهم عند الله أحسنهم عملاً وأنفعهم للناس
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم » فلا الأجناس والألوان ولا الأحساب والأنساب
ولا الجاه والسلطان والأموال ولا القوميات ولا العنصريات . لا شيء من ذلك
كله بمقياس ولا ميزان عند تقدير الصلاحية أو وزن القيم . فالإسلام قومية
المسلمين وهو الجنس واللون والحسب والنسب والمسلمون إخوة في الإنسانية
وإخوة في الإسلام ومن واجب الاخوة أن تقوم بينهم المحبة ويسود بينهم السلام

ومن واجب الاخوة أن يتعاونوا على البر والتقوى . لا على الإثم والعدوان
 فاذا تعاونوا على هذا المنهج فلا بد أن يحلوا مشكلة الغنى والفقركا قضوا على
 الطبقة الجائرة بتوحيد الله الذى خلقهم أحراراً متساويين ولم يجعل للشرف مقياساً
 غير حسن العمل ومدى ما يحققه الشخص من خدمات ومنافع للمؤمنين وللإنسانية!
 وإذا كانت نفس الإنسان قد جبلت على الشح فقد أراد الله سبحانه ألا يخضع
 التعاون على البر واثقاء الشرور لهوى النفس الشحيحة بل نظم هذا التعاون فى
 سبيل خير الجميع تنظيمًا عجا كان موضع إطراء خصوم الإسلام أنفسهم وجعله
 إلزاماً للأمة متضامنة ولكل فرد بوصفه الخاص . فالأمة متضامنة فى كفالة حياة
 الفرد حياة حرة كريمة وكل فرد مكلف برعاية مصالح الأمة . فالفرد والجماعة
 يتبادلان المعونة فى سبيل الخير العام .

للفقير حق معلوم فى مال الغنى ، ومال الغنى هو مال الله استخلفه فى استثماره
 وتميمته « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » والمؤمن الغنى جواد سمح ، لا يمسك
 مال الله عن الخير لعباد الله ، والمؤمن الفقير قانع عزيز ، يأخذ حتماً جعله الله له
 فى مال أخيه ، غير ذليل ولا مستذل ، والغنى يعطى ما وجب عليه غير مانٍ
 ولا متكبر ، وهذا وذاك يقوم بأمر الدين ، ويستجيب لله رب العالمين ، ولقد
 عين الإسلام مقادير محددة بنسب معينة وبشروط خاصة يدفعها الغنى إلى بيت
 مال المسلمين ، لتتفق فى سبيل الصالح العام للأمة وسمى هذا « زكاة » ثم أوجب
 على الأغنياء بعد ذلك الإنفاق فى سبيل الله ومصالح الأمة ، وترك التعيين والتحديد
 للمؤمن الغنى ، يتدر ويحدد بنفسه ما يجب عليه ، حسب ما يمل عليه لإيمانه ،
 وحبه لخير المسلمين .

والزكاة . والانفاق الذى يسمى صدقة ، أريد بهما ، مواجهة حاجة الدولة ،
 ومقتضيات عملها على توازن القوى فى المجتمع ، حتى لا تتجمع مالية الأمة فى أيدٍ
 قليلة قد تكون شحيحة ، فتولد الاحتماد فى النفوس ، ويرجع المجتمع إلى نظام
 الطبقة الذى قوضه الإسلام بتعاليمه . ثم عاد إلى المجتمع الإسلامى لما تنسكب
 صراط الإسلام كما أريد بهما . تربية النفوس وتمرينها على البذل عند دواعيه .

ومقاومة خلق الشح في نفس الإنسان الذي يدفعه في كثير من الأحيان إلى هجر الدين والفضائل في سبيل المال . ولتد طبق هذا النظام ونجح نجاحاً بعيداً في صدر الإسلام . وقد لفت أنظار الغربيين . فجعلوه أساساً لما ظهر بينهم من نظم تعاونية وجماعية . حتى لتكاد التبرعات عندهم . تنفي بحاجات شعوبهم الاجتماعية . وقد تصاب بعض النفوس بخديعة ثقافية . فيختلط عليها الأمر فترى في هذا النظام استدلالاً للفقير . وإهداراً لحرمته . وقد تصاب بلوثة . فترفض ما لا تفهم مما شرع الله . وهيئات أن يستقيم أمر الناس على غير ما شرع الله . ولن تحل مشكلة الفقر حلاً جميلاً . يحقق سلام المجتمع إلا على أساس ما شرعه العليم بالنفوس البشرية . فأقيموا الدين لله خالصاً من شوائب الشهوات . وتجردوا من لوثة النقاات الخادعة الوافدة . تحل مشاكلكم . ويصلح مجتمعكم .

وإذا أقام الإسلام مجتمعاً صالحاً على أساس من توحيد الله والاعتراف له وحده بالسيادة ، وتقرير الحرية والاخوة والمساواة بين الناس ، والتضامن بين الفرد والجماعة في سبيل الصالح العام للجميع . فإنه يتم حكم هذا المجتمع على أساس من الشورى الحرة . ويطلب أن يكون الحكم قيادة رشيدة للحكومين . تسعى إلى تحقيق أكبر قسط من سعادتهم . وتوفر لهم أسباب الحياة الشريفة . وتقيم بينهم العدالة وتسوى بينهم في توزيع الحقوق والواجبات . ويطلب من الحاكم أن يكون قدوة حسنة لرعيته . في قوة إيمانه والتزامه لمبادئ الدين . ووجه للخير والإيثار . حتى يحمل بسلوكه المحكومين على الاقتداء به . ويتحقق الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وطلب من المحكومين أن يطيعوا الحاكم ما استقام على أمر الله . وأخلص في رعاية مصالح الدولة . فاذا اعوج قوموه بالنصح والإرشاد . وإذا أشكل عليه أمر أرشده بالحكمة والموعظة الحسنة إلى وجه الخير فيه . وإذا جار وظلم عالجوه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . « وهو السلطة الكبرى التي جعلها الله لأدنى المسلمين يتبرع بها أنف أعلاهم » ، فاذا لم يرعوا لزجر . ولم يتلع عن الظلم بعد نصحه . فلهم أن يستبدلوا به غيره . وجعل المحكومين مسئولين عن الحاكم وصلاحه . مثل مسئولية الحاكم نفسه عن مصالح المحكومين . وهكذا يخلق الإسلام دولة قوية يركزها على دعائم

قوية — اجتماعية وسياسية — تضمن لها العزة والكرامة ما سارت على منهجه الواضح المرسوم .

وإذا أقام الإسلام دولته فانه يجعل أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلام . فحرم على المسلمين أن يعتدوا على غيرهم . ولم يجعل الاختلاف في الدين مبرراً للعدوان . فاذا جنح غير المسلمين إلى السلم فليسالمهم المسلمون . كما نهى المسلمين عن الهجوم على عدوهم الذي استيقنوا من عداوته . وتوقعوا عدوانه . من دون إنذار يرسلونه إلى العدو . بل حتى يصل الإنذار إلى العدو . ثم أنكر الإسلام الحرب لمجرد التوسع والاستعمار أو لهوى النفس . ولم ييجها إلا لحماية الدعوة أو دفع عدوان . فمن اختار البقاء على دينه . وسالم المسلمين . سالمه المسلمون . ومن عاهد المسلمين على الأمان فقد وجب على المسلمين الوفاء بالعهد . ومن عاقدهم على تجارة وفواله بالعمد . وهكذا في الجملة . يتمم الإسلام العلاقات بين الدولة الإسلامية . وغيرها . على أساس السلام . ويجب أن يكون السلام دائماً هو رائد العلاقات الدولية . ولا يقر الإسلام البغى والعدوان في أى مظهر من مظاهر الحياة للفرد أو الجماعة .

الإسلام منهج عام للسلام . للسلام الداخلى في كل أمة . والسلام الدولى بين الدول . ولهذا المنهج تفصيلات كثيرة ودقيقة . أرجو أن يسعدنى الله بفرصة لتجليتها . وبيانها للناس . منهج للسلام يهدى للتي هي أقوم . فلو أنصفت الإنسانية نفسها بالإسلام لاسعدها الإسلام . ولو شئت الإنسانية الأمان في مجتمعاتها الداخلية . فعليها بالإسلام .

ولو أرادت السلام العام بين الدول فإن الإسلام هو منهاج السلام . « سزيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . » فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » وستجلى الغمرة بعد غاشية تغشى الإنسانية — قريباً أو غير قريب — وسينظر العالم حائراً . وسيبحث عن مخلص يخلصه من ضلال العلم والإلحاد في الله وفساد الدين والسياسة والاجتماع . وستكون حيرته هذه كحيرته الأولى عند ما بحث عن منقذ قبل الإسلام . فكان الإسلام وسوف لا يجد العالم ما يخلصه من كربوه وإلحاده وماديته . ويرى من ويلات الحروب والخراب والدمار . سوى الإسلام . « ولتعلن نبأه بعد حين » .

في ميدان علم النفس :

تعريف الحكم

لحضرة الدكتور سعيد زابر

من بين المشاكل العديدة التي تتأرجح بين العلوم المختلفة وبين وجهات النظر المتباينة ، مشكلة الحكم . فهي مشكلة يتجاوزها علم النفس وعلم المنطق كل يريد أن يضمها الى حظيرته ، وكل يريد أن يدرسها بمنهجه الخاص ويعتبرها ضمن أبحاثه الخاصة .

ولذلك لا تأخذنا الدهشة عندما يفاجئنا هولنجورث في مستهل فصله بعنوان جزئى هو « تعقد المشكلة » يقول فيه إن المحاولات لتعريف طبيعة الحكم وتحديد مكائته في علم النفس أو المنطق ، قد استنفدت أبحاثا كثيرة ، وقد حددت هذه الأبحاث بدافع الحكم بالنسبة لموضوعات أساسية وأولية في علم النفس ، ولذلك إذا وصف الحكم بأنه حالة إثبات لعلاقة بين موضوعين أو حدين ، فهذا يتضمن معنى خاصا للأفكار التي تستعمل في التعريف .

ولكن ما هي حالة الإثبات كحالة مميزة عن بحث مجرد ؟ ما هي طبيعة العلاقة التي يمكن أن توجد فقط في حضور عضوين أو أكثر ؟ وما هي في الحقيقة الأعضاء أو الوحدات (المعانى) التي توجد بينها العلاقات ؟ هل تدرك العلاقات بصفة واقعية ؟ هل يمكن تصنيفها بطريقة ما حسب موازين وألوان ونغمات ؟ هل هي أيضا « محتويات الشعور » أم هي فقط « أفعال نسبية » ؟ وهل تتصف بصفات تتعلق بالكيفية والشدة وديمومة الإحساسات ؟ هل هي في الحقيقة مكتشفة أم هي

مخترعة فحسب ؟ كل هذه الأسئلة يضعها الكاتب في إبتداء الفصل وكلها — كما هو واضح — تنطق بتعقد المشكلة .

ولم يكتف الكاتب بهذا بل أراد أن يزيد في تبيان مقدار التعمد والصعوبة فكتب تحت عنوانه الجزئى الثانى يقول : ويمكن الاعتراض بأن نظرية فى الحكم لا تحتاج ضمناً إلى أى مؤيدات أوليه ، وبأن طبيعة الحكم يمكن التأكد منها مباشرة خلال التأمل كى تعطينا فكرة عما وجدته فى الوعى أثناء عملية الحكم ، ولكن هناك عدة عوائق هامة من أهمها أنه من المستحيل علينا أن نعطى فى أى وقت تقديراً تاماً عما يحدث فى الشعور حتى ولو كان فى بضع ثوان ، وكل ما يستطيعه التأمل هو أن ينتخب من التجربة الكلية تلك الحوادث التى تبدو له مؤيدة للعملية التى تفيد المجرى فيخبر عنها ويجهل الباقيات ، وإن أفكار الوعى التأملية التى تحدث أثناء التفكير تبدو فى هذا المجال كأنها فطرية ونادراً ما تبين اختيار حوادث معينة على ضوء نظريات سابقة ، فهى فى الغالب لا تخبر عن الأصوات الخارجية وأصوات التنفس وحركات الحجاب الحاجز والنشاط الجثمانى عديم الغاية والحركات المستمرة للسان وإبهامات الأرجل وأصابع اليد . من ذلك يتضح أن الأحكام لا تكون إلا للحوادث التى تحصل بوضوح فى الوعى لا إلى تلك التى تنكشف حيناً وتختفى حيناً آخر ، وللحوادث الجزئية أكثر من الحوادث الكلية .

ولذلك إما أن نخبر الذات تحت تأثير انتباه اختيارى معين ؛ أو أن من يكتب التقرير يختار لتقريره تعبيرات توافق العملية ، ومن المؤكد أنه لا يمكن لمفهوم ما أن يلخص خصائص العملية التى حدثت تحت أى حالة من الحالتين السابقتين وخاصة بالنسبة إلى وظائف الألفاظ الرمزية . وقد يذشأ اعتراض مهم بالنسبة إلى التجارب الفنية وهو وجوب إلزام الذات بأن تحكم لتقرر أو تخبر عن مجرى الوعى ولكن هذا يتطلب معرفتنا الواضحة لمساهمة الحكم وإلا كيف يمكننا أن نلزمها بالحكم وكيف نتأكد أنها حكمت ؟ وبعبارة أوضح كيف نجزم بأن ما أخبرت عنه هو بالذات عملية الحكم ؟ وكذلك فى إحدى دراسات الأستاذ مارب فى الحكم المبكر على طريقة التأمل الباطنى يحاول المختبر أن يعرف ما هى التجارب التى يجب أن تتوفر فى عملية الوعى حتى نرفعها إلى درجة الحكم أى نضيق المجرى تحت

حالات يمكنه فيها أن يختبر أنواع العمليات العقلية للحكم وحينئذ نسأله أن يبسط لنا التجارب التي حدثت له أثناء تلك العمليات يتضح مما سبق أنه يمكننا — بصفة مؤقتة — أن نعرف الحكم بأنه عملية الشعور الذي يمكن أن يحمل عليه في معنى ما نحملوا الصدق أو الكذب .

تعريف مارب :

يبدأ مارب تعريفه بضرب مثال فيقول : إذا كان لدى ثقلان وطلب منى أن أختبر أى الثقلين يبدو أثقل . أفلا يكون إخبارى بتمييزهما ، حكماً ؟ ولكن على أى أساس يقوم حكى بالموازنة بين الثقلين وعلى أى حقيقة يقوم ؟ وإذا ما تركت الاختبار جانباً وتقدمت قليلاً لأبين مقدار النقل إما بالكلام أو بالإيماء ، أفلا يمكن أن يتمال إن هذا القل يتفق أو لا يتفق مع حدث آخر وهو الأثر الحسى الذى أحدثه النقل بالفعل .

ويستطرد مارب قائلاً : وإذا سألتنى مضيفتى مثلاً رأيى فى قبعة جديدة وأى الألوان أنسب لها ، فانى سأخبرها طبعاً بلون ما . . فعلى أى أساس يقوم هذا الحكم ؟ وبأى مقياس يكون خطأ أو صواباً ؟ إن مضيفتى لا يهملها أن تأخذ رأيى فى اللون الذى أحبه ، بل كل ما يهملها هو أن ترى هل سيتفق تخمينى أنا مع ماستفعل حقيقة أم لا .

وهناك أحكام لا تتفق مع نظرية مارب ، بالرغم من إشارة Messer وإثباتات Titchener أن النظرية تتفق مع تجارب كثيرة لم نتعود أن نعتبرها حكماً كالاستظهار الحقيقى لمقاطع عديمة المعنى فى تجارب الذاكرة . وكاستجابة اللاعب (فى صالة الجمنيزم) للترا كيب اللفظية التى يصدرها المدرب .

ويجب أن نلاحظ أن مارب كغيره ممن أتوا بعد سواء بسواء ، لم يكن يبحث عن النموذج الأولى الحقيقى الداخلى للأحكام . بل كان يبحث عما يمكن تسميته الظواهر الملازمة أو « التجارب الثانوية » التى يمكن اعتبار وجودها معياراً ثابتاً .

وهذه هى الطريقة التى يتبعها البستانى الذى يفرق بين نوعين من فاكهة معينة باكتشاف نوع الحشرة الضارة التى تعيش باستمرار على كل نوع . . . ولكن

لماذا نعتمد على الحشرات للتمييز بين نوعي فاكهة ما ؟ ولم لا نبحتش الفاكهة ذاتها ؟
فالذي نريده أولاً وقبل كل شيء بياناً وافياً يعتمد على الظواهر للحوادث أو التجارب
أو العمليات التي تدل عليها لفظة حكم . ومثل هذا التعريف يدخل في علم النفس
أكثر منه في المنطق وهو ما نريد أن نبجته هنا .

ولن نحاول هنا أن نزن الآراء التي قيلت بصدد طبيعة الحكم عند مسز .
روول . بهلر . وغيرهم والتي تهيج منهج الاستبطان ولكننا سنحاول أن نبين الحجج
الرئيسية في عدم كفايتها .

مقاييس الحكم :

من بين المسائل الهامة التي ترتبط بالحكم سنغنى أولاً بما يسمى التعبير عن
الحكم . ويتصد به إشارات أو ألفاظ تبين محتوياته وتستخدم لأغراض خاصة
أهمها انتقال الأفكار والاتصال بالغير . ومما لا شك فيه أن التعبير عن الحكم
قضايا تتكون من موضوع ومحمول ورابطة .

وقد قامت مناقشات حول هذه المسائل اللغوية مراعاة للغة وأنها مرآة
للحوادث الفكرية دون نظر إلى العوامل العرضية والعملية التي تحدد تطورها
وتطور الكلام . ولكن اختلاف الطرق التي بها نعبر عن أحكامنا جدير بأن يمنع
الخلط بين علم النفس وعلم اللغة . فالحكم كما قال مارب يمكن التعبير عنه بطرق
مختلفة كالكلام والإيماء والتوافق العملي وتسلسل الخيال وتغير اتجاه التفكير .
ومهما كانت طبيعة التعبير . فليس جزءاً جوهرياً من الحكم إلا ما أدركه على أنه
حادثة نهائية ترتفع بالحكم ليصبح عملية إغلاق . وعلى ذلك تصبح القضية لا حكماً
فحسب بل نتيجة له .

وإذا أخذنا الفكرة الأخيرة فجدير بنا أن نبين العمليات المتضمنة في المواقف
العملية وما يدل عليها يمكن أن نسميها في مضمونها تفكيراً .

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أربعة أضرب هي : « الدالة على » ،
« المدلول عليه » ، « المدلل به » ، « الدلالة » ، ويتصد بالآولى ، المنبه أو الرافع

أو الباعث أو الإشارة أو التليح أو ما يقابل في المنطق الموضوع في التمضية .
ويقصد بالثاني ، التجارب الماضية التي يفصلها الباعث السابق الذكر وهو ما يقابل
الحد الأوسط في المنطق . ويقصد بالثالث حقيقة التيام بتنفيذ ما يطلبه العامل ،
كشفه الاستجابة والتوافق والصورة والشعور إلى غير ذلك من الحوادث النفسية
التي تعبر أو تشير إلى اتجاه الوظيفة وهو ما يقابل الرابطة المنطقية أو قانون
التداعي في علم النفس . ويقصد بالآخر ، الحادثة النهائية أو التعبير في ذاته كنتيجة
للباعث على ضوء العلاقات الماضية وتقابل في المنطق ما يسمى بالمحمول .

وواضح أن هذا التفصيل يتفق مع ما قيل عن الحكم في كتب المعاصرين
ولذلك عرض هولنجورث لبعض آرائهم توضيحاً لهذا التطابق ، فالى اللقاء
في العدد القادم إن شاء الله .

حكم نبوية

لعيسى عليه السلام في كتبنا حكم كثيرة منها قوله للحواريين :
« اتخذوا المساجد بيوتا والبيوت منازل ، وكلوا بقل البرية ، واشربوا الماء
القراح ، وانجوا من الدنيا سالمين » .

وقال عليه السلام : « لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب ، وانظروا
في أعمالكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ،
واحمدوا الله على العافية » .

وقال عليه السلام لحواريه : « عجبا لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير
عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل » .

وقال عليه السلام : « ألا أخبركم بخيركم مجالسة ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال
من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد في عملكم منطقته ، ويسوقكم إلى الجنة عمله » .

السهروردي المقتول

المؤلف: أستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

— ٢ —

ومن هنا رأى المتآمرون أن يتجهوا إلى صلاح الدين نفسه ، فأرسلوا إليه مصورين السهروردي في أقبح صورة ، ناعته بأبشع النعوت ، وأوصموه بكل صفة رديئة ، ثم ضربوا وترأ حساساً عند صلاح الدين ، فقالوا « أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته » .

وسارع صلاح الدين فأرسل إلى ابنه أن : ابعد عنك الرجل ، ولم ينفذ الظاهر وصية أبيه ، لعله بسر الأمر .

وهنا انقسم الرأى فى حلب قسمين : قسم يؤيد ، وقسم يناوئ : حماس ونقمة ، رأى الأولون فى السهروردي نبياً من أنبياء الفكر ، حكماً قد أوتى كل علم ، ورأى الآخرون فيه ملحد أكفراً ، أقل جزاء له الموت .

ويحدثنا القاضى شداد ، وقد عاصر هذه الحقبة من الزمن ، قال : « أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزندقه ، والله أعلم » .

لم يرض بعض الفقهاء بمسلك الملك الظاهر ، واجتمع منهم اثنان : زين الدين ومجد الدين ابنا حميد ، وأثارا نائرة العلماء ، وجمعوا جموعهم ، وتقدموا إلى الظاهر : أن نفذ وصية أبيك ، أن ابعد هذا الزنديق ، وأنقذ الدين من شره وخلص العقائد من خطره . وأخرج الظاهر أمام أبيه وأمام الشعب ، فرأى أن يخرج

من المأزق بحل وسط هو أن يعقد مناظرة لتسوية الخلاف؛ فرضى الفقهاء بهذا الحل كما رضى به صلاح الدين .

كان الظاهر واثقاً من قدرة السهروردى ومن بلاغته وفصاحته تعبيره ، ولكنه نسى أن السهروردى سيكون متهماً في مجلس قضائه هم أعداؤه . واجتمع المجلس ، وناظر السهروردى فيه وظهر عليهم ، وجاء بعض هذه المناظرة في الكتب :

« قالوا : انك قلت في بعض تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً .. وهذا مستحيل .

« قال : وما وجه استحالته ؟ فإن الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شيء . » .
ولم يذكر التاريخ هذه المناظرة كاملة ، فقد ضاعت مع ما ضاع من تراث المسلمين وأفكارهم وكتبهم .

وحكم المجلس بإدانة السهروردى ، وبعد مداولة قصيرة حكموا بكفره وجردوه من إيمانه . ثم كتبوا وثيقة بكفره ، وأذاعوها سراعا بين الناس . وهكذا نجحت المؤامرة وحكم على السهروردى بالموت . ولم يجد الظاهر بداً من أن ينفذ الحكم في صديقه ، واحتار القوم كيف يموت السهروردى : هل يمزقونه أم يصلبونه أم يقتلونه ، وكفاهم الملك الظاهر مؤونة التفكير فطلب إلى السهروردى أن يختار ميته ، فاختارها .

لقد كان - حتى في موته - زاهداً متصوفاً ، فاختار أن يحبس في مكان ، وأن يمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت جوعاً . كم من الآلام عانى وهو مضطجع يهرأ الجوع أحشاءه ، لقد أراد امتحان قوة صبره ، فكان له ما أراد . أو لعله كان ساجداً في ملكوت الله ، فانياً في بحار الحق ، متأملاً في إله الخلق ، فلم يشعر بجوع ولم يعرف العطش .

وتمت روايات أخرى عن موته ، فمن قائل إنه خنق ، ومن قائل إنه صلب ، ولكن الأثبت أنه في يوم جمعة من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، أخرج السهروردى ميتاً من الحبس .

ولم يعدم السهروردى من يدافع عنه ، فترى الشهرزورى صاحب « روضات

الجنات» ينعته «بالشيخ المعظم والفيلسوف المسكرم العالم الربانى والمتأله الروحانى». وهو عنده جامع بين الحكمتين الذوقية والبشئية. «كان فى المكاشفات الربانية آية والمشاهدات الروحانية نهاية».

ويستمر السهروردى : وصاحبنا كان الوحيد الذى تيسرت له الحكمتان ، فإننا لنرى البعض ، بل والغالبية العظمى لما يتيسر لها غير أحد الوجهين ، فأبو يزيد ، والحلاج ما تيسر لهم غير الكشف دون البحث ، والكثيرون من الحكماء تيسر لهم البحث دون الكشف .

* * *

مذهب السهروردى :

كننا نود أن نوفى مذهب السهروردى حقه من الكلام ، بعد أن أرخنا له ، ولكن ضيق المجال يضطرنا إلى أن نتحدث عن الخطوط العريضة لهذا المذهب فحسب ، وأن نتناوله تناولاً عاماً فنعطى عنه فكرة عابرة .

خلف السهروردى الذى قتل ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره - على أصح الروايات - كتباً عديدة ورسائل كثيرة ، بها حكمة وبها إشراق . ولكننا نجده على العموم ليس صاحب مذهب طريف ، بل إنه قد أخذ التليد من مذاهب السابقين ، وتأثر بالكثيرين ممن سبقوه وعلى الأخص «ابن سينا» ، الذى يحاكي مذهبه فى النفس محاكاة يكاد يذهب فيها إلى نفس كلمات الشيخ الرئيس فى قصيدته العينية :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمتع
حاكاها بقصيدته التى يبدوها :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى وصبت لمغناها القديم نشوقاً
كان السهروردى متديناً ، ولكن اعتقاده لم يكن اعتقاد العوام ، بل خاصة الخواص ، يقول فى آخر المطارحات : «هو ذا قد بلغ سننى إلى قريب من ثلاثين سنة ، وأكثر عمرى فى الأسفار والاستخبار ، والتفحص عن مشارك مطلع العلوم ، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة ، ولا من يؤمن بها» .

أما قصيدته المشهورة التي يتغنى بها المتصوفون ، فوصف حالة من حالات تجرده ، وإظهار لجة ولسكره ولشوقه :

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصا لكم ريحانها والراح
وأحسرتا للعاشقين تحملوا ثقل المحبة والهوى فضا
وهو يخاف أن ييوح بسرهم فإنهم :
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح
ولكن :

إذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح
إنه حبيب برح به الشوق ، وطوح العشق ، ليس له صبر على البعاد ، يتوسل
يرجو اللقاء :

جودوا على مسكينكم بلئائكم فالصب عند لئائكم يرتاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب في خفض الجناح ، جناح
جودوا بنور الوصل من غسق الدجى فلهجر ليل ، والوصال صباح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانهم ، فتمى الغرام ، فباحوا
حضرُوا فغابوا عن شهود ذواتهم وتهسكو لما رأوه وصاحوا
قم يا نديم الى المدام ، وهاتها فبحانها قد دارت الأرواح
هي خمرة الحب القديم ، ومنتهى غرض النديم ، فنعم ذاك الراح

هذه بعض أبيات من قصيدته ، تدل كل كلمة فيها عن خلجات نفسه ، وتعبر
عن شواهد روحه ، كتبها بقلبه وخطها بذوقه ، لم تملأ عليه أبدا روعة عقله ،
أو يلهمه إيائها صفاء بيانه ، وإنما هي حالة من حالات الغيب والغناء أنتجت تلك
الآليات التي نحس معها وكأن نفوسنا تتسامى مع معانيه ، فتسمو بعيدا بعيدا ،
في عالم الملكوت ، في عالم الحضرة الربوبية . أو ليس هو القائل :

لأنوار نور الله في القلب أنوار وللسر في سر المحبين أسرار
ولما حضرنا للسرور بمجلس وحف بنا من عالم الغيب أسرار
ودارت علينا للمعارف قهوة يطوف بها من جوهر العقل خمار^(١)

وهو يشرح لنا سبب ترحاله وكثرة أسفاره :

ذريني أن أسير فلا تنوحى فإن الشهب أشرفها السوارى

ورأيه في الاتحاد يتضح من قوله :

خليلى إن الأنس في فرقة الإنس فسكن أبداً ما عشت في حضرة القدس
فأنت هو المغنى وفيك وجوده وفيك جميع الخلق والعرش والكرسى

وليس أصرح من هذا قوله في وحدة الوجود ، فإنه يرى أن الإنسان يشمل
في ذاته كل شيء حتى العرش والكرسى ، وما أشبه فكرته بفكرة الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

أليس ذلك هو المعنى الذى يريده حين يقول : « فأنت هو المغنى وفيك وجوده »

وهو كتصوف ، يعرض عن لذات الدنيا ، يريد بها ما هو خير وأبقى :

لذة القرب من الله :

نزلنا على حى كرام بيوتهم متمدسة ، لا هند فيها ولا علوى
ولاحت لنا نار على البعد أضرمت وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
شفانا ، خيانا وأحيا نفوسنا وأسكرنا من راح إجلاله التقوى

كان السهروردي يتماهى بمن يرمونه بكل نقيصة ، فيتجاوز عن الإساءة إليه ،
تجاوز التقادر ، العالم ، الواصل إلى أسمى الدرجات :

الخلق رضوا بظلمة ذات حزن كم قلت ، وكم أقول ، لكن مع من ؟

يعرف السهروردي الصوفى بأنه هو الذى اجتمعت فيه الملكات الشريفة ،
أما التصوف عنده فهو اصطلاح عن هذه .

ونجد في مذهبه آثاراً مسيحية ، تبدو فيما استعمله من كلمات وما اصططنعه
من أساليب .

ويحمل على المشائين الذين « اختصروا على أمور تشبهه مقولة متى والملك ،
فإن هذه الأقاويل لناقصة ، ستنطمس حتماً إذا نادى المنادى الحق بظهور الحقائق ،

وإن بقيت فتبقى في المواقف الجدلية في رياضة المبتدئين ، فإن صاحب الزروة ذات الألق إذا أُنذر صدق ، وإذا وعد حقق .

وقد قرأ كتب أفلاطون ، ودعا إلى التأمل فيها ، وهو ولا شك قد أخذ منها وتأثر بها .

ويدعونا إلى تفهم الدين ، وأن لا نقبله على علاته : « فإن تعبد الله حبا ، خير من أن تعبدَه خوفا ، فإن التعبد بالتخويف دين اللئام » . وما أسمى رأيه : « إعمل لنفسك ، فلتد ذل من أحوج إلى الشفيع » . ثقة متناهية بالله ، وإيمان بعدله عميق هذا هو إيمان السادة ، لا إيمان العبيد .

وجدير بمن كان مثله أن يؤمن بالعقل ، ولم لا يؤمن به وقد درس الفلسفة ، والعقل هو آلة الفلاسفة ، اصطنعه السهروردي كما اصطنع الذوق ، والعقل عنده نور الله ، ولا يهدى إلى النور غير النور ، إذ النفس مرآة الله ، ومرآة الله لا تشبهها مرآة الأجسام ، وإذا انحل التركيب رجع الواحد إلى الوحيد .

من هذا نرى أنه يفرق بين النفس وبين البدن ، ويرى في النفس مرآة الله ، ولا تشبه النفس الأجسام ، فهذه غير تلك ، ومذهبه في النفس ، كما سبق هو مذهب ابن سينا ، على الأرجح ، وهو المذهب اليوناني القديم ، ولعله أقرب إلى تعريف أرسطو ، الذي ذكره وأخذ به فلاسفة العرب : إن النفس هي كمال أول لجسم طبيعي آلى ذى وجود بالقوة .

ويدعو السهروردي إلى معرفة الله « بأعاجيب آياته بشواهد هيبة الحضور فإن الفكرة لا تتسلط على إله الأرباب » .

وأكرر هنا ما سبق لنا قوله من أن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم ، العالمين بأسرار الشريعة السمحاء ، لم يكونوا أبداهم السبب في مثل هذا الاضطهاد ، وإنما هي فئة قليلة ، توجد دائما في كل عصر ومصر وزمان ، تؤلب الحكام على أمان هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتعداهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ، ودعاة التقدم أعداء الجمود ، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يلقون اضطهادا ، ويقاسون عسفا وجورا ، ثم لا يلبث التاريخ حتى ينصفهم ، فإذا بذكرهم تعود عاطرة فياحة نضرة .

ابن سنان و مذهب الصرف

لقضيد الأستاذ الشيخ علي محمد حسن العمري

تحدثت في مقالات سابقة عن نشأة مذهب الصرف ، وفهم العلماء السابقين واللاحقين له ، ثم تحدثت عما يمكن أن نفهمه منه بعد أن استعرضت موقف النظام ، وموقف الجاحظ من الاسلام بعامة ومن القرآن بخاصة ، وخلصت من كل ذلك إلى أن الذي يمكن أن يفهم من كلام الجاحظ أنه لا يقصد الصرف بالمعنى المفهوم عند العلماء ، وهو أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ، وإنما معنى الصرف عنده أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بأى معارضة للقرآن ، لئلا تشبه القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، ويجدوا من يقول أن هذا كالقرآن فى علو الطبقة ، فيثور الجدل حول كتاب الله ، ثم تمضى القرون ونجد عالين كبيرين عاشا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، أحدهما مشرقى والآخر مغربى ، وكلاهما كان رجل سياسة وعلم ، هما ابن حزم الظاهرى صاحب كتاب « الفصل فى المل والنحل » والثانى ابن سنان الخفاجى صاحب « سر الفصاحة » وكلاهما يصرح بأن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن ، والإتيان بمثله ، لكن الله صرفهم عن ذلك ، وهذا عندهما هو وجه الإعجاز وسره ، ولا شى غيره ، فرأيت أن أخص كل واحد منهما بحديث مستقل .

ابن سنان هو أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد الخفاجى الشاعر الأديب الشيعى

المتكلم تليذ العالم الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري ، ولعل مما يدل على تشيعه وتفضيله علياً على أبي بكر كما يفهم من قوله :

وقالوا قد تغيرت الليالي وضيعت المنازل والحقوق
وأقسم ما استجد الدهر خلقاً ولا عدوانه إلا عتيق
أليس يرد عن فذك (علي) ويملك أكثر الدنيا (عتيق)

وقد شهر الخفاجي بكتابه سر الفصاحة ، وهو من الكتب المعدودة في البلاغة ، ألفه على طريقة الأدباء ولكن كتابه دون كتب عبد التماهر ، كما شهر بالشعر ، وإن كان شعره في طبقة متوسطة ، وجيده قليل ، تولى بعض الولايات ، ثم غدر به أمير حلب ، ففس إليه من أصدقائه من سمه فتوفي سنة ٤٦٦ هـ ^(١) .

ابتدأ في مقدمة كتابه فذكر أن العلماء مختلفون في إعجاز القرآن على مذهبين اثنين ، أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته ، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية ، والباقي صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم ، وهو هنا لا يذكر أن الصرف رأيه ، ولا يجادل عنه ، وإنما يمهّد بذكر المذهبين ليعين مكان الحاجة على كلا المذهبين إلى معرفة الفصاحة والبلاغة ، ولكنه يبادر فينفي شبهة هي أول ما يتوجه إلى مذهب الصرفة ، ذلك أن المعارضة — فيما يرى ^(٢) — وقعت فعلاً فيرد على ذلك بأن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذي أورده خال من الفصاحة التي وقع التحدى بها في الأسلوب الخصوص ، ويقول أن كتابه سيدين أن فصاحة القرآن كانت من جنس فصاحة العرب .

وعنده أن القرآن في طبقة كلام العرب من حيث تلاؤم حروفه ، وتلاؤم ألفاظه ، قرر ذلك عندما عني بالرد على الرمانى فيما ذهب إليه من أن التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا ،

[١] ترجم له ترجمتين مستفيضةين الأستاذان الفاضلان الشيخ محمد كامل العتي في مجلة الأزهر ، والشيخ عبد المنعم خفاجي في كتيب خاص .

[٢] كتبت في مجلة الرسالة بحثاً نفيت فيه أن يكون وقع شيء من هذه المعارضات ، وإنما هي من تفككات الأخباريين .

وأن القرآن كله من النوع الثالث ، ولا يشركه في ذلك غيره ، فيقول في الرد : « وهذا الذي ذكره غير صحيح ، والقسمة فاسدة ، وذلك أن التأليف على ضربين متنافر ومتلائم ، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض ، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام في هذه القضية ، ويصور حجته وجداله ورأيه في الأمور الآتية :

(١) متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه .

(٢) يحمل على قول الرمانى ، ويعتبره دعوى فاسدة ، ويرى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا الابعاد الذى ينفر منه كل من علق من الأدب بشيء ، أو عرف من نقد الكلام طرفاً ، وأنه لا يخفى إلا على الأعاجم وأشباه الأعاجم الذين لا يميزون بين جيد الكلام وبهرجه ، وأن هؤلاء يقولون بأذواقهم السقيمة ، ولا يلجأون لأهل الصناعة .

(٣) يصرح هنا برأيه فيقول : وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك .

(٤) وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين تأليف غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .

(٥) ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة ، وادعينا أنه أفصح من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم نفتقر فى ذلك إلى ادعاء ما ادعاه من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة فى الفصيح من كلام العرب ، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف - فتمط - فصيحاً ، وإنما الفصاحة لهذا ولغيره .

(٦) أليس التلاؤم معتبراً فى تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرناه فيما تقدم ؟ فلا بد من نعم . فيقال له فما عندك فى تأليف كل لفظة من ألفاظ

القرآن بانفرادها ، أهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة الوسطى ؟ فان قال في الطبقة العليا ، قيل له : أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ، ولولا ذلك لم يكن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته ، فقد أقررت - الآن - أن في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا ، وهو الألفاظ المفردة ، وإن قال في الطبقة الوسطى قيل له ، إن مشاركة القرآن لطبقة الفاظهم على هذا الوجه لا تزال أيضاً .

(٧) إذن لا مانع أن يقال إن في كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضاً مثل القرآن في تأليفه ، فان علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر .

(٨) وليس تنازعنا في كلمة من كلم القرآن وتقول ليس هذا في الطبقة العليا ، إلا قلنا مثله في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض لأن الدليل على الموضعين واحد .

وهكذا يخلص من هذا النقاش في تلاؤم الحروف إلى أن أسلوب القرآن وأسلوب فصيح كلام العرب متحدان في تلاؤم التأليف ، وكل منهما - في هذا - في الطبقة العليا ، وعلى هذا التعميد يخلص في نهاية المطاف إلى ما أراد من أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب ، فعارضتهم كانت ممكنة لولا الصرفة ، ومعناها عنده على ما نقلنا آنفا أنهم سلبوا العلوم ، ولكي يتضح هذا المعنى نذكر الاحتمالات التي فهمها العلماء من هذا المذهب ، على نحو ما في كتاب الطراز لابن حمزة العلوى .

الاحتمال الأول : أن الله سلب دواعي العرب إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التفرع بالعجز ، والتكليف بالانقياد ، ومخالفة الأهواء .

الاحتمال الثانى : ان الله سلبهم العلوم التي لا بد منها في الاتيان بما يشا كل القرآن ، أعم من أن تكون حاصلة لهم فأزيلت عنهم ، أو غير حاصلة لكن الله صرف دواعيهم عن تحصيلها .

الاحتمال الثالث : ان الله منعهم بالالغاء على جهة التمسر من المعارضة مع كونهم

قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك . والثالث هو المشهور ، والثاني مذهب ابن سنان ، ويظهر أنه مذهب القائلين بالصرفة من الشيعة .

وقد ردد ابن سنان مذهبه مرة أخرى حين جعل يرد على من زعم أن القرآن لا يتفاوت في الفصاحة وذكر أن من يجعل الإعجاز هو بلوغ الدرجة العليا في الفصاحة لا يعكر عليه أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض ، ثم يقول :

لكن الصحيح أن وجه الإعجاز هو صرف العرب عن معارضته ، وعنده أن هذا هو المذهب المختار ، وعليه - زعم - أهل هذه الصناعة ، وأرباب هذا العلم ، ثم يقول : وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره ، وكنا نتمنى أن نطلع على هذه الأدلة حتى نناقشها على بينة ، لكنه فيما يظهر أودعها كتابه الذي ألفه في الصرفة ، والذي جاء ذكره في معجم الأدباء في ترجمة أبي العلاء المعري (قرأت بخط عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصرفة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله ، ألا إنهم صرفوا عن ذلك . . قال في تضاعيفه : وقد حمل جماعة من الأدباء قول (بالضم) أصحاب هذا الرأي أنه لا يمكن أحد من المعارضة بعد زمان التحدى ، على أن ينظموا على أسلوب القرآن ، وأظهر ذلك قوم ، وأخفاه آخرون ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه ^(١) الخ . ثم ساق قطعتين من كلام أبي العلاء .

ولسنا نرى في كلام ابن سنان هنا ما يجعلنا نؤمن بهذا المذهب ، لأنها دعوى يعوزها الدليل ، وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله أن تأليف القرآن من منهج تأليف كلام العرب في تلاؤم الألفاظ ، لأن الكلمات المفردة هي كلماتهم ، فلا بد أن تكون الأساليب أساليبهم ، ولا ندري كيف ذهب عليه أن الكلمات قد تكون واحدة ، ولكن الفصحاء يختلفون في الصياغة ، ألا ترى قطعة الذهب تكون

[١] العبارة في المعجم ج ٣ ص ١٤٠ ، وهي مغلوطة هناك أثبتناها على هذا الوجه السليم .

في يد أحد الصاغة صورة رائعة جذابة، وفي يد آخر بلدية ساذجة، وهي هي. أما الرد على نفس المذهب، فموعدنا به حين نفصل ردود العلماء السابقين عليه.

بقي أن نقول أن الخفاجي لم يتأثر بأستاذه في هذا المذهب، لأن أيا العلماء لا يقول به، وبعض العلماء يذكرون أنه عارض القرآن بكتابه (الفصول والغايات) وينفي ذلك الرافعي في إعجاز القرآن، وناشر الكتاب في المقدمة، وقد ذكر ابن سنان — على ما أرجح — قطعتين، وهو تليذ يتحدث عن أستاذه، فلا يبعد أن يكون أبو العلاء قصد بكتابه هذا أن يكون على نمط القرآن، دون أن يقصد الاتيان بمثله، ففهم الناس أنه يقصد المعارضة فقالوا ما قالوا، وكيف يكون ذلك والكتاب كله في تمجيد الله وتمديسه، حتى الفقرات التي ذكروها له، ونقلها الرافعي جاءت ناقصة ومبدلة، ويظهر أن ما حذف منه تعمدوا حذفه، لأنه يبطل دعواهم وهذه الكلمات مما حذف: (شعر النابغة وهذيل، وغناء الطائر على الفيل، شهادة بالعظمة لمقيم الميل^(١)). وإذا كان أبو العلاء قصد المعارضة على رأى ابن سنان وياقوت، فلا يكون قائلًا بالصرفة، على أن موقف أبي العلاء من ابن الراوندى وكتبه شهادة على عقيدة الرجل في القرآن، تعرض لكتيب ابن الراوندى في رسالة الغفران، وسخر منها سخرية بليغة ولم يتعرض لرأى من آراء ابن الراوندى، ولكنّه تناول كتبه جملة، ألا كلمة قالها في القرآن، وقد تعرض له ابن الراوندى في بعض كتبه فقال: إنه يجد في كلام أكتثم بن صيفي أحسن من إنا أعطيناك الكوثر، فخصه أبو العلاء بكلمة قوية جاء فيها (وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كتاب بهر بالإعجاز ولقى عدوه بالأرجاز، ما حذى على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا يجمع الكهنة أولى الأرب). والرجل مع ذلك قلق حائر مضطرب، فلسنا نستبعد أن يكون خضع لبعض ذلك في بعض أيامه، أما الذي نجزم به — على مبلغ ما اطلعنا عليه من كتبه — أنه لا يقول بمذهب الصرفة، والله الهادى الى سواء الطريق؟

على هامش الأخبار

عظة واعتبار، وزجر وانذار

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراقى

مدير المكتبة الأزهرية

نشرت صحيفة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ ١٩٥١/١/٥ خبراً ملخصه « أن فرقة الباليه الراقصة كانت تقوم باستعراض راقص بصالة جامعة فؤاد الأول بمشهد من بعض السفراء والعطاء والطلاب ، فأثارت مناظر الفرقة وحركاتها بعض الطلاب ، فتهجموا على العذارى يحاولون تمثيلهن ، وقد أغنى على بعضهن » ، ونشرت صحيفة أخرى « أن بعضهم قبل فعلا واحدة منهن ذكرت اسمها وصورتها ، وأن مدير الجامعة اعتذر إليها وإلى سفير دولتها . »

هذا هو الخبر بمختلف رواياته ، ولا شك أنه وصمة عار في جبين مصر ، وفي جبين الجامعة المصرية ، كما لا شك أن السفراء سيقابلونه بما يستحقه من الاستنكار والاستهجان ، لما سيكون له من أثر في الدوائر المصرية والأجنبية ، العلمية منها وغير العلمية ، وستجنى منه مصر عامة والهيئات الثقافية بوجه خاص أسوأ الثمرات ، وسيصور المصريون من جرائم بصورة البربر المتوحشين الذين لا يتمردون الفن ، ولا يرعون الخلق والتقاليد ، بله الكرامات والأعراض .

والحادث بذاته وبآثاره كارثة فادحة وشر مستطير ، إلا أنه برغم ذلك قد لا يعدم فيه رجل الدين ، والغيور على الحرمات الدينية ناحية من نواحي الخير ، بل قد يبدو له من التفحص فيه أكثر من ناحية من هذه النواحي .

ففي الحادث دلالة بالغة للغافلين والجاهلين على صحة الحكم ، وصواب الحكمة فيما جاء به الدين من تحريم اختلاط الجنسين ، وتحريم عرض مفاتن النساء على الرجال في أية صورة ولأى غرض ، لخطورة ذلك على الفتاة والأسرة والأمة . وفيه حجة دامغة على سنخ الأحاديث التي طالما سود بها المستهترون وجه الصحف ، وسخروا فيها من أحكام الدين وحكمه في هذه الناحية ، واتهموها زوراً وضلالاً وجهلاً بأنها من معوقات نهوض الأمة ، لحرمانها بما في الاختلاط من تهذيب للأخلاق . . . وسمو في الوجدان والعواطف ، وما إلى ذلك من نظريات فاسدة وأقوال خاطئة ، ونادوا بوجوب التحلل منها لتفيد الأمة مما حرمت منه ، وجعلوا من ذلك قضية لا يملون من معاودة الحديث فيها ، والغنى بمحاسنها .

أجل في هذا الحادث أوضح دلالة على سمو الحكمة الدينية في موضوع الاختلاط ، فهو الدليل السافر والبرهان القاطع الذي لا يحتمل شكاً أو ممارسة تسوقه الأقدار ، لمظاهرة رجال الدين فيما يتحدثون به ويدعون إليه ، وينفقون الوقت والجهد في طرائق الإقناع به ، وتسوقه الأقدار لتخذل به قوماً لداً حالفوا الشيطان ، واتخذوا من الاستخفاف بالدين وأحكامه وسيلة إلى الشهرة ، وسلباً إلى المطامع الدنيئة ، فضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وفي هذا الحادث دلالة على أن الإنسان مع أنه ناطق مفكر ، فهو بطبيعته حيوان يستجيب لداعى حيوانيته وغريزته لأول فرصة ، سيما في عنفوان الشباب وفوران الغريزة ، وأن ما يدعيه المتحذلقون من أن التهذيب يسمو به عن حيوانيته ويكاد يجره عن طبيعته ويحيل نظرته إلى الوقائع والأمور ، ويلحقه بالملائكة الأطهار والأصفياء الأبرار ، ما هو إلا سفسطة ومغالطة يدحضها الحس والواقع حين تبدو طبيعته سافرة لا تحجبها الظلال والألوان .

وفي هذا الحادث زجر وتأديب لأولئك المسؤولين الذين يسمحون لهذه المهازل أن تمثل باسم العلم والفن ويعرضون سمعة الأمة للتشويه والتشنيع ، ويصورونها

بل ويصورون خاصتها ومتعلّميها والشبيبة المرجاة لمستقبلها في صورة حمر الفلوات ووحوش الأدغال في وقت كنا نرجى فيه لمصر من وراء الاحتفالات العامة دعاية طيبة وسمعة كريمة ، وتنفق في سبيل ذلك ما لا يتدر من الجهد والمال .

ولعمر الحق ما ينبغي أن يكتفى في تأديب أولئك بهذا الزجر الأدبي وما باعوا به من الخزي والعار ، ولكن وجه الصواب في مؤاخذتهم ، وسبيل الحزم والصرامة معهم ، أن نقدمهم إلى المحاكمة بتهمة تعريض سمعة الأمة وكرامتها لمثل ما تعرضت له من تشويه وتشنيع واقضاح .

وفي هذا الحادث أخيراً نذير لأولياء أمور الفتيات والقوامين عليهن ، بأن لا يخذلهم زخارف القول في استحسان تحرر الفتيات وتحللن من أحكام الدين وتمايلد الشرق الكريمة باسم الرقي والتجديد ، وإباحة اختلاطن بالرجال في المنازل والملاهي .

ولا يخذلهم ما ينعب به المجددون من أن الحجاب أثر من آثار الاستبداد والآثرة وتحكم الرجل في المرأة وحكم من أحكام الدين القاسية ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فها هو إلا مرحلة من مراحل الدين ، وما هو إلا حكمة سامية في أن تكون الفتيات كما أراد الله لهن من التصون والعفاف والبعد عن أعين الغرباء وقلوبهم ، والسمو بهن عن أحاديث السوء والبهتان ، ليكن كالجواهر الكريمة يزيدها الاغتراب حباً إلى النفوس وإغراء بالتطلع إليها والمغالاة في المحافظة عليها :

وزاده كلفاً بالحب أن منعت وحب شيء إلى الإنسان ما منعا

هذه كلمات أوحى إلى هذا الخبر بكتابتها ، وفي النفس أشياء وأشياء ، وعسى أن يكون في تلك الكلمات خير فيصدق ما يقال :

« يأتي الخير أحياناً من طريق الشر » .

مصر والسودان

لماضرة الأستاذ عبد المنعم السنج

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

عرضنا فى العدد السابق من هذه المجلة ، للرباط التاريخى الجامع بين مصر والسودان . والآن نتابع بسطنا لهذا الموضوع ، موضحين بقية الروابط التى تقوى دعائم الوحدة ، وتشدد من أزر الداعين إليها ، العاملين على تحقيقها ، وتوهن دعوة الباطل ، وتسكت صوت الجور والطغيان .

فن الوجهة الجغرافية ، تعتبر مصر والسودان ، وطناً واحداً ، ويتقسم هذا الوطن الواحد ، إلى عدة أوطان محلية ، يمثل كل منها إقليمياً جغرافياً صغيراً ، كان له دوره الخاص فى نشأة المدينة وتطورها . ومن تلك الأقاليم جميعاً ، يتكون ذلك الوطن الواحد ، مصر والسودان ، الذى يربط نهر النيل بين أجزائه ، بحيث يتم بعضها بعضاً . ويحسن أن نشير فى هذا الصدد ، إلى أنواع الحدود الكثيرة : فهناك الحدود السياسية بصورتها المعروفة ، ثم الحدود الحيوية ، التى تشمل المصالح الضرورية ، كتلك التى ترتبط بها حياة مصر ، وهذه تمتد إلى معظم جهات حوض النيل ، لا سيما السودان والحبشة ، اللتين يأتى عن طريقتهما ماء الفيضان والغرين ، الذى يغذى الأرض ، ويجدد الخصب ، وكذلك الهضبة الاستوائية ، التى تمتد مصر بالمياه فى انتظام طول العام ، فتعوض من ذبذبة الفيضان الحبشى ، الذى يقتصر على جزء محدد من السنة . وهناك الحدود الثقافية والبشرية العامة ، التى تشمل تلك الأراضى التى تربطها بمصر التاريخية ، روابط قوية من الثقافة المتبادلة ومن مختلف النواحي البشرية العامة ، وهذه تشمل السودان الشمالى ، وبقية شمال أفريقيا وهناك كذلك الحدود العسكرية ، التى ترتبط بشئون الدفاع عن مصر ، وتشمل الصحارى المجاورة ، وتمتد إلى ما وراء الحدود السياسية من ناحية الجنوب ، على أننا إذا جمعنا بين الناحيتين الحيوية والبشرية العامة ، فإننا نصل إلى أن حوض

النيل الأوسط والأدنى في شمال السودان ووسطه وفي مصر يكوّن وطناً واحداً متماسك الأجزاء .

أما من الناحية الثقافية ، فإن مصر ترتبط بالسودان ، بروابط ثقافية ، تزيد الألفة بينهما ، ولعل هذه الرابطة حالياً ، وما تتمناه لها من الازدهار والنماء ، تكون من أقوى العوامل ، التي تؤازر فكرة التوحيد ، وتعمل على إيقاظها ، في جو من نور العرفان ، وتتميز حقائق الأمور .. وسأقي الآن على مختلف الوسائل الثقافية التي تنشرها مصر في السودان ، ولكن في شيء من الإيجاز : فهناك كلية الأقباط بالخرطوم ، وطلبها خليط من المصريين والسودانيين ، وبها أقسام ثلاث ، روضة وابتدائي وثانوي ، وتعينها وزارة المعارف المصرية ، بما تقدمه لها من مدرسين ومختلف المساعدات ، كما أزمعت وزارة المعارف المصرية ، إنشاء مدرسة ثانوية حكومية بالخرطوم ، ولكن الاعتماد اللازم لها حذف من ميزانية ١٩٣٩/٤٠ بسبب نشوب الحرب .

وتعمل وزارة المعارف المصرية جاهدة على تيسير العلم لأبناء الجنوب ، خفضت لهم أجور السفر ليسهل انتقلهم إلى الشمال ، ليعبوا من مناهله العذبة . كما أخذت ترسل إلى السودان بعض الأفلام التعليمية المصرية ، وعملت كذلك على إنشاء محطة للإذاعة المصرية هناك . ولوزارة الشؤون الاجتماعية لجنة فرعية ضمن لجنة السودان الدائمة ، وذلك لتنظيم الجهود الاجتماعية والخيرية ، لمساعدة إخواننا السودانيين في الملمات . ويحسن أن تعرف أن لنادى الصيد الملكي فرع بالسودان . وهناك وسائل كثيرة لزيادة الربط بين الشقيقين ، أمرها هين ميسور معروف ، لمن يريد أن يخطو خطوات موفقة في هذا السبيل .

وترتبط مصر بالسودان ، بروابط اقتصادية متينة ، فمن السودان تستورد مصر الأغنام والمواشى وجلود الماشية غير المدبوغة ، والسمن والأسماك المملحة ، والذرة العويجة والبقول السوداني ، والسمسم والفاصولياء ، والحبص والبازلاء ، ولب البطيخ والبلح . أما مصر فتصدر إلى السودان السكر والمنسوجات ، وخاصة المنسوجات القطنية المصبوغة بعد النسيج والمنسوجات القطنية المخلوطة بالحرير الصناعي ، ومنسوجات الحرير الطبيعي ، ومنسوجات الحرير الصناعي ، وتصدر مصر كذلك

إلى السودان الدخان والسجائر والتبأك والسيجار ، والأسمنت والصابون ، والفواكه الطازجة ، والحلوى والمربات المحفوظة ، والأرز والأحذية الجلدية ، والمصنوعة من التماش والمطاط .

ولكن يجب أن نقرر أنه ما زالت هنالك بعض العقبات في طريق صادرات مصر إلى السودان ومن ذلك ارتفاع أجور نقل المنتجات المصرية على السكك الحديدية السودانية ، كما انعدمت الدعاية المصرية للمنتجات في أسواق السودان ، ويدخل في ذلك أيضاً شدة المنافسة اليابانية للمنتجات المصرية ، وفساد النظام الجمركي في السودان ، ذلك النظام الذي لا يحمي المنتجات المصرية من الواردات الأجنبية ، أضف على ذلك السمعة السيئة ، التي أوجدها الوسطاء بتصرفاتهم غير المشروعة .

وأما عن الرباط القومي والسياسي ، فيبدو أن فكرة التوحيد بين الشطرين ، قد نبتت أولاً في الوطن المصري المتحضر ، الذي أدرك كنه هذه العلاقة ، فسير الجيوش لضم الشطر الشقيق ، أما فكرة الضم هذه فقد نبتت في أذهان السودانيين لما مستهم الحضارة والمدنية ، وحل بوادهم نور العرفان ، واعتقدوا ، كما اعتقد أشقاؤهم ، في الشمال ، أن لا حياة لمصر بدون السودان ، ولا حياة للسودان بدون مصر ، فتكونت عندهم الأحزاب السياسية التي تدعو إلى ذلك ، وتعمل جاهدة لبلوغ هذه الغاية المحببة .

ولكن لما طغت الموجة الاستعمارية على القارة الإفريقية ، ووقعت مصر والسودان في أرجل الأخطبوط الإنجليزي ، ظهر في الأفق ما يمكن أن نسميه بالمسألة السودانية المصرية ، لأن الذي كانت تستطيع مصر تحقيقه بقوة الجيش والعتاد ، أضحت تلجأ إليه سياسياً عن طريق المفاوضات والمحادثات . وهي إذا كانت مع الإنجليز دهاة السياسة ، وقراصنة الاستعمار ، أضحت الآمال من ورائها سرايا خداعا ، يقتل المغتر فيه !!

وسأتناول في هذه العجالة أبرز مشكلة في تاريخ علاقتنا بالانجليز ، خاصة بالسودان ، وهي اتفاقية ١٨٩٩ ، والحكم الناتئ في السودان ، وهي الاتفاقية ، التي بح صوتنا في المطالبة بالغائها . وتبتدىء هذه الاتفاقية بعرض حيثياتها ومقتضياتها ، فتقول بما أن بعض الأقاليم السودانية قد خرجت عن طاعة الخديوى ،

وأعيد فتحها بالجهود الحربية والمالية المشتركة بين مصر وانجلترا ، فقد أصبح لازماً ، أن تشترك الدولتان ، بحق الفتح ، في وضع النظام الإدارى والقانونى للسودان . ولست أبغى هنا سرداً لنصوص هذه الاتفاقية ، وإنما أكتفى بتفنيدها دعوى الانجليز فى تمسكهم بها بحجة الفتح المشترك ، وفى ذلك يقول رجال القانون المصريون ، إن الحكومة المصرية قد أكرهت على إخلاء السودان ، وإن الخديو بمقتضى الفرائمانات الشاهانية ، لا يملك حق النزول عن أرض مصرية أو تابعة لمصر ، وفوق ذلك فالفرائمانات التركية تحرم على الخديو إبرام اتفاقيات سياسية ، وانجلترا إحدى الدول المعترفة بهذه الفرائمانات ، وكذلك لم يقرن الاتفاق بملكية السلطان العثمانى للسودان ، وهو ملك له ، كما أن مصر كانت تابعة للسيادة التركية .

وعليه فاتفاقية عام ١٨٨٩ ، لا تربط مصر ، من الوجهة التمانونية الدولية ، أضف إلى ذلك ؛ أن عبء فتح السودان ، وقع أكثره على عاتق مصر ، حيث لم تشترك انجلترا فيه ، إلا بوضع مئين . ثم إن مساعدة الحماية الانجليزية لمصر فى هذا الفتح ، يعتبر من باب مساعدة الوصى لمحجوره فى رد جزء من أملاكه ، فقد بسبب سوء تصرفاته . وسوف لا أعرض لتاريخ النضال بين انجلترا ومصر ، من أجل السودان ، منذ بدء الحركة الوطنية وقبلها ، لأن ذلك يحتاج بحوثاً مستفيضة ، يضيئ بها الوقت ، والمهم هو أن نعلم ، أن قادة الشعب المصرى ، لا يفتأون يتطعون بالمفاوضات ، ويتعرضون لوطأة النفي والحرمان ، ضناً منهم بالتفريط فى قضية ، هى الحياة لسكلا الشطرين ، ويناصر قادة الشعب المصرى فى الشمال ، قادة الشعب السودانى وزعماءه المستتيرين فى الجنوب ، ذلك لأنهم يدركون أن الاتحاد ، ليس فى أى صورة من صوره ، استعماراً أو تسلطاً ، وإنما هو اتحاد المصالح المشتركة والعواطف المتبادلة .

أما عن الرباط الجنىسى واللغوى والدينى ، فنحن قد علمنا ، مما سلف فى العدد الفائت ، أن سكان السودان يفتخرون إلى أصول كثيرة ، منها الزنوج ، والبجة ، والنوبة والمولدون ، والمهاجرون والعرب ، وجلهم يقطن إقليم النوبة ، ولغتهم هى العربية ، ودينهم هو الإسلام ، وعلى ذلك نرى أن السودانيين تربطهم بالمصريين ، رابطة الدم واللغة والدين .

وختاماً لموضوعنا هذا يحسن أن نورد بعض التصريحات التى أجراها الحق

والعدل على السنة بعض ساسة الإنجليز ، ولكن هذه التصريحات ، لا تكاد تخرج من أفواههم ، حتى تذيبها حرارة جشعهم الاستعماري ، وتلاشى أمام الحقيقة المسيطرة المسيرة لسياسة الدول الاستعمارية ، وهي أن المبادئ الفلسفية ، والتوكيدات والمواثيق النظرية ، التي ينادى بها ، ساسة الدول ، إبان المحن والكروب ، لا يمكن أن تخرج إلى عالم الواقع ، إذا عاد السلام مرة أخرى !! قال اللورد « سالسبوري » لسفير فرنسا في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦ « إنني متمسك على وجه العموم بهذا الرأي - ذلك أن وادي النيل ، كان وما زال ولن يزال ملكا لمصر ، وإن كل مانع أو انتقاص ألم بحقوق هذه الملكية ، ومن جراء فتح أو احتلال المهدي قد زال وتلاشى بحكم انتصار الجيش الإنجليزي المصري » . وخطب اللورد « روسبري » في مدينة « أبسون » بتاريخ ١٢ أكتوبر عام ١٨٩٨ فقال « لكي نقرر حقوق مصر على فاشودة ، بطريفة حاسمة ، قد كفانا أن نذكر الحكومة الفرنسية بأقوالها في السنين الأخيرة ، وذلك باستعارة أقوال « المسيو دكريه » و « كوريسل » و « هانوتو » « نحن على وشك أن نرد لمصر ، ما هو من أرضها ، وذلك حسب التصريحات التي فاهت بها الحكومة المصرية » وهذا أمر جلي واضح ، حتى إنه ليشق على أن أصدق ، أنه في الإمكان العثور على شيء ينافيه . وكتب « اللورد كرومر » ، في تقريره عن عام ١٩٠١ « وليس الغرض من عقد اتفاقية عام ١٨٩٩ حرمان مصر من حقوقها في السودان ، بل تزويده بحكومة صالحة ، والتخلص من العقبات التي تلتقيها ، في مسألة الامتيازات » . وكتب اللورد كمبرلي في ٤ إبريل عام ١٨٩٥ إلى « اللورد دوفرين » « إذا كانت مصر تسترد السودان ، الذي كانت تحتله في المدة السالفة ، فمن الواجب علينا ، أن نعترف بحقها في امتلاكه » . واعترف « اللورد كرومر » في تقريره عام ١٩٠١ ، بمشروعية الملاحظات ، التي أبداه في مجلس الشورى ، عند الاقتراح على الميزانية الخاصة بالسودان ، فقد قرر فيها المجلس « أن السودان ، جزء متمم لمصر » .

تلك هي التصريحات والمكاتبات النظرية ، لكبار الإنجليز في المسألة المصرية السودانية . فأين نحن منها في عالم الواقع ؟ ويمكن أن نلح طابع الدهاء في السياسة الانجليزية ، عندما نعلم ، أنه بعد أن أعيد فتح السودان ، عيّنت الحكومة

السودانية ، مرتبات لأبناء المهدي وخلفائه وزعماء المهديوية ، وعينتهم في كثير من الوظائف ، وعملت أبنائهم بالمجان .

أما اهتمام ملوك مصر والزعماء فيها بأمر السودان فشيء غنى عن البيان ، وليست استقالة شريف باشا في أواخر عام ١٨٨٣ ، من أجل السودان ، بالامر الذى يغيب عن الأذهان ، وليست تغيب عن الأذهان كذلك ، مذكرة رياض باشا إلى السير « إفلن بارنج » في ٩ ديسمبر عام ١٨٨٧ ، وهى بشأن السودان ، وقد جاء فيها « لا ينازع إنسان في أن النيل ، هو حياة مصر ، وهذا أمر واضح جلى ، لا يختلف فيه إثنان . إذاً النيل هو السودان ، ولا يرتاب أحد ، في أن العلائق التى تربطهما لا انفكاك لها ، وهى أشبه شيء بعلاقة الروح بالجسد ، فإذا استولت دولة ما على ضفاف النيل ، فعلى مصر العفاء ، ويعلم من ذلك أن حكومة سمو الخديو لا يمكن أن تتبل بمحض رضاها واختيارها ، وبدون أن تسكره على ذلك تعدياً كهذا على وجودها وحياتها » وليس أدل على بالغ عنايتنا بشئون الجنوب ، من تشكيل محمود سامى باشا البارودى وزارة للسودان . وقد جاء فى مشروع الدستور الذى وصفته لجنة الدستور فى عهد وزارة عبد الخالق ثروت باشا عام ١٩٢٢ بشأن السودان : (مادة ٢٩) الملك يلتب بملك مصر (مادة ١٤٥) تجرى أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعها عدا السودان ، فع أنه جزء متمم لها ، يقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص .

ولقد استقالت وزارة ثروت باشا ومن بعدها وزارة نسيم باشا بسبب معارضة الحكومة الإنجليزية لهذين النصين ، وجاءت من بعدهما وزارة يحيى إبراهيم باشا فى ١٥ مارس عام ١٩٢٣ ، فرفعت كلية السودان ، حتى يقرر أمره نهائياً بواسطة المفاوضات ، ثم عدلت أيضاً فى المادة (١٤٥) بأن قالت « إن حذف كلمة : السودان جزء من مصر ، لا تمس ما لمصر من الحقوق فى السودان . وصدر الدستور على هذا الأساس فى ١٩ إبريل عام ١٩٢٣ .

وعلى هذا نرى أن فكرة إندماج شمال الوادى مع جنوبه ، فكرة مختلطة باللحم والدم ، وعقيدة رائخة فى قلوب المواطنين جميعاً ، سودانيين ومصريين ، وسوف لا يتحولون عنها ، ولو مزجوا ماء النيل ، بالدماء تتدفق مع تياره الى الشمال ، ويضوع عبرها مع نسائته الى الجنوب !!

ضَبْطُ النَّفْسِ

لفهيد الأَسَنَاءِ السَّيِّخِ مُحَمَّدِ عَبْدِ النَّوَابِ

مفتش الوعظ العام بالأزهر

كل بنى الإنسان فى هذه الحياة ، بين تصاريدها المختلفة ، وأوضاعها المتباينة ، متقلبون فى سراء وضراء ، تتقاذفهم منح ومحن ، وتتجاذبهم قوى الخير والشر ، والنعماء والبأساء .

والسكيس الفطن هو الذى يلقى الأحداث على ما فيها من شدة وحدة بأناة ، وصبر ، وضبط للنفس ، واعتصام بالسكينة يهديه إليها عقله المتبصر ، وقلبه المستنير ، ويمسكه بها دينه الذى يبشره فى دنياه وأخراه بالحسيدين ، ويوظفه بفضل الله ، وحمد الناس .

ضبط النفس حين تفرعها سفاهة السفهاء ، ارتفاع بها عن هذا الدرك البغيض ، وسمو لها فى حالق المجد ، وسموات الجلال .

وضبط النفس فى ملاقة أحداث الدهر ، جلادة نشط العزيمة ، وتوى الشكيمة ، وتفى عن القة بالله والرضا بقضاء الله .

وضبط النفس فى تحمل أعباء الحياة ، والقيام على شئونها فى تعامل واختلاط ، وتربية ، أجل أثراً ، وأعظم خطراً ، ففيه الأسوة الطيبة ، والعزة الغالبة ، والترويض الحكيمة فى شئون الأسرة ، يلزمن ضبط النفس ، فإذا اختلف الزوجان فى أمر صغير أو كبير ، وقام ضبط النفس ليسد على هذا الخلاف منفذه إلى الشر المستطير ، مرت العاصفة بسلام وهذا الزوجان إلى حسن التفاهم ، وحكم العقل ، وسداد التفكير .

وإذا اختلف الولد مع أبيه ، أو الأخ مع أخيه ، وأخذت الروية تحيط المختلفين بسكينتها ، وبصيرتها ، واستمع كل مخالف إلى نذير الفُرقة ، وتشيت الأسرة ،

ينعق بين هذا الخلاف ، فأقبل في اشفاق ، وحب ، يتمتع جبل هذا الشقاق ، ويصل ما كان من مودة ، وطاعة ، وألفة ، إذن : لكان لضبط النفس في الأسرة سبيل إلى العزة ، والسعادة والاتلاف .

وفي شؤون التربية والتعليم يلزمنا ضبط النفس فالأستاذ - لا ريب - يرى من جموح طلابه - في شبابهم - ومن نزواتهم ، ونزغاتهم ، ما لو برم بها ، ويأس من علاجها ، لاستفحلت ، واستعظمت ، وهنا في ضبط النفس ، وأخذ الأمور بالحكمة ، والحنكة وحسن التوجيه ، ما يرجى معه ، في حسن الاستعداد من الطلاب ، استكمال غايتهم ، وارتقاب ظفرهم ، ودوام الحب ، والتقدير ، وحسن الرعاية .

وضبط النفس في التعامل بين الناس ، تفويت للقصد السيء من المسىء ، وكسر من حدة الشر للبعدي ، وتضييق من هوة الخلاف ، حتى يرأب الصدع ، ويسكن النائر ، ويهدأ الخاطر

ذكروا أن رجلاً شتم الشعبي ، فقال الشعبي له : « ان كنت كما قلت فغفر الله لي وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك » .

وقسم معاوية رضى الله عنه قطُفاً ، فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة منها ، فلم تعجبه ، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية ، فأتاه ، فأخبره . . فتمال له معاوية : أوف بنذرك وليرفقى الشيخ بالشيخ . . .

وما أجمل ما ينطق القرآن الحكيم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ولقد جاء هذا الدين الحنيف — دين الإسلام — مبيناً شرف الغاية ، وجمال القصد ، في ضبط النفس قال عز شأته « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

كما جاء مبيناً للأثر السيء والخطر الجسمي ، في ثورة النفس ، وانطلاق شيطانها يعيش فساداً ، ويتوض وداداً ، ويتمتع الآمن والأمان .

روى الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : اقتل غلامان ، غلام من المهاجرين ، وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجر أو المهاجرون يا للهاجرين ، ونادى

الأنصارى : يا للأنصار ؟ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذا ؟ » دعوى أهل الجاهلية ... قالوا لا يا رسول الله ألا إن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر . قال . فلا بأس ، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينبه فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره .

وروى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال ما عادانى أحد قط إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال ... إن كان أعلى منى عرفت له قدره ، وإن كان دونى رفعت قدرى عنه ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه .

وقال الشاعر :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذهب	وإن كثرت منه إلى الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ، ومشروف ، ومثل مقاوم
فأما الذى فوق فأعرف قدره	واتبع فيه الحق ، والحق لازم .
وأما الذى دونى فأحلم دائماً	أصون به عرضى وإن لام لاثم
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا	تفضلت : إن الفضل بالفخر حاكم

وبعد : فإن نحن أهبنا بالناس جميعاً ، على اختلاف أجناسهم ومراتبهم ، رجالهم ونسائهم ، شبابهم وشيوخهم ، صناعاتهم وزراعتهم وتجارهم ، وأصحاب الأعمال ، وأرباب الوظائف ، والرؤساء والمؤسسين والحكام والمحكومين أن اضبطوا أنفسهم ، واكظموا غيظكم . وأيقظوا عاطفة الصنف والحلم والأناة ، فإن القرآن الكريم قد نادى بذلك المبدأ السامى النبيل « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وأن السنة المطهرة قد أبرزته واضحاً ناصحاً فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

الا : ولمثل هذا فليعمل العاملون ، والله الموفق .. والمستعان .

تَعْدُدُ الزَّوْجَاتِ

الأستاذ إبراهيم عمار

المراقب بالأزهر

هذه ثمرات عما في حياتنا من عيوب ، أردت من تصويرها أن أضع العلاج لها رجاء أن تقلع عنها ، إن لم يكن استجابة لنداء الدين ، فإجابة لداعى الوطنية ، وحرصا على النفوس من التدهور والسقوط .

يعتبر الدين الإسلامى الزوجة الدعامه الأولى فى بناء حياة الأسرة والخلية التى يتكون منها جسم الأمة ويقوم عليها صرح الدول ومجد الشعوب .

ويحرص على أن تكون هذه الخلية سليمة منيعة قوية لتفتح نسلا كثيرا منيعا قويا ، وبذلك يكثر سواد المسلمين ؛ وتتحقق فكرة الإسلام من عمارة الأرض ونماء الثروة ، وازدهار الحضارة ، وتقدم العلوم والفنون ، وأن يكون الناس كلهم إخوانا متساوين يسودهم القانون ، وتحقق على الرؤوس أُلوية الحق والعدالة والحرية والمساواة .

فتراه قد تعهد بها فى جميع مراحلها برعايته وعطفه وأحاطها بسياج من الضمانات القوية ، وطائفة من النظم القويمه ، ومكن لها فى بيتها ، وجعلها حفيظة على ما فيه من مال وبنين .

وحسبى فى التدليل على هذا سلوك النبى صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها : فلم يعرف عنه أنه وقف منها موقفا لا ترضاه ، ولم يحفظ لنا التاريخ « على طول ما حفظ من مراحل حياته دقيقها وجليلها حينها وعظيمها » أنه ألمها أو آذاها أو تركها تبث ليلة واحدة على غير تمجيده كزوج وكأب يرعى ابناءه ويتعهدهم ويكفل لهم الهناءة والإسعاد .

وغاية الإسلام من الزواج بيئة واضحة صريحة كما جاء في القرآن الكريم :
ومن آياته « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فأى تواد ورحمة عند قوم تتعدد في بيوتهم الزوجة ، وكيف يسكن الزوج لزوجته والزوجة لزوجها وهم يبيتون على عداة ؟

إن البيت الذى يضم بين جدرانه أولاداً ليسوا أشقاء ، هو بيت يُضنيه الحقد ويرديه الغل ، وتمضى عليه الأطلاع ، وتهلكه المنازعات .

وإن الولد الذى ينشأ فى أحضان هذا البيت ، هو ولدٌ قد قد قلبه من صخر وحيك ضميرُه من قسوة ، لا يعرف حبا ولا رحمة ، يُنكر حق الأخوة ، ويجهل ما لها من قداسة ، ولا يكن فى نفسه غير الجشع والطمع ، واستلاب مال أخوته الباقين ، قد انطوت نفسه على الحقد ، فلا ينفع فيه نصح ولا إرشاد ، وتربى على الغل ، فلا يشفى ما بنفسه إلا أن يبتلعهم : حتمهم ومالهم ، وأحيانا حياتهم ، وبذلك يصبح البيتُ جحima أو كالجحيم .

وإن المجتمع الذى يتكون من مثل هذا النشء ، هو مجتمعٌ عليلٌ هزيل ، قد أصابه التفكك والانحلال ، ليس له غاية مرسومة ، ولا مثل أعلى يسعى للوصول إليه ، بل لا هدف له من الحياة سوى أن يغتنى ، بأية طريقة يكون الغنى ، وأن يأكل كيف يكون الأكل ، لا يعتمد عليه فى حرب أو سلم ، لأنه فقد روحانية الحياة فى أيامه الأولى ، وليس بعائد إليها إلا بمعجزة ، ومن الأسف أن فات زمن المعجزات .
ومن العجب أن الدين ينادى ولا استماع ، والتاريخ يحدث ويطلق ، ولا وعى ولا اعتبار ، والعظات تفرع الأسماع كل يوم ، ولا ازدجار !

أما الدينُ ، فهذه غاية من الزواج قد عرفناها ، ولكن خالفناها ، ولم نصنع إلى قوله تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ولا تموله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . بل أطلعتنا لنفوسنا وشهواتنا ونزعانا العقل ، وعددنا من الزوجات ، فلم نصل إلى النتيجة التى أرادها الله بقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وأما التاريخ فيحدث أن أهم المعاول فى هدم الدولة العباسية ، وزوالها من

الوجود ، هو ذلك الصراعُ العنيف ، والحرب الدامية التي نشبت بين الأمين وأخيه المأمون ... ولو أنهما كانا من أم واحدة ، لما كانت الحرب ، ولما انتهت إلى هذه النهاية المفجعة ، ولما وجدت نيرانُ المطامع - بعد ذلك - وقوداً لها تشعله كلها هيئت الفرص ، ومهد السبيل .

ومن الغريب المخجل أن يعلم الناس هذا ، ثم لا يتحاشونه ، بل يقبلون عليه ، ويأخذون بأسبابه ، فأولوا الأمر يعددون من زوجاتهم ، وتعدد أولادهم تبعاً لذلك ، ثم ينتهجون نفس الخطة التي أودت بمن سبقتهم .

والناس أيضاً يقتلدون ويكثرون من الزواج ويعددون ويلدون ، ويمالون البيت عيالا مختلفي الأجناس والألوان ، فينشأون ولا رابطة بينهم بل بالعكس كل منهم عدو لأخيه ، الآخر يتحين الفرص لاستلابه أو لاغتياله ، فيعيش كل منهم على حذر من أخيه لا تهدأ نفسه ، ولا يطمئن باله ، ولا يقر له قرار . . وكل واحد قد رضع من أمه كره أخيه وعدم حب الخير له ، فنفسه متوثبة على اقتراس ماله أو شخصه أحيانا .

إذن فنفسهم غير قارة ولا هادئة ولا مطمئة : وأى نفس هذه حالها لا تنتج ، وإذا أنتجت فتتجأ مضطرب غير مرتكز على أساس من تفكير ومران واتزان . أعرف أسرا كثيرة منيت بهذا المرض وأعرف في نفس بنينا هذا الحل والانهلال والانحطاط ؛ ومن الغريب أن هذا مضطرب لم يخطئ مرة .

ومن الناس من يفر من لوثة تعدد الزوجات ويطيع شهواته وهواه ونوازع الشرفيه فيلجأ إلى عش يسمى في عرفهم « جرسونيرا » يزاول فيه إثمه ويهتك أعراض المجتمع .

ولو عرف هؤلاء الناس مقدار تأثير هذا في نفوس زوجاتهم وأبنائهم وضرره على كرامة أوطانهم وسمعة أديانهم ما فعلوه .

نعم أباح الاسلام مبدأ تعدد الزوجات ولكنه لم ييجح مسaire للشهوات البهيمية ولكن رأبا لصدوع الاجتماع من هذه الناحية ، فكثيراً ما تدعو إليه الحاجة وتستقيم به المصلحة وتحفظ به الكرامة .

فيجب على من يقدم عليه أن يلاحظ هذه الناحية من الشريعة السمحة وأن لا يتخذ من السماح به تكأة لاشباع شهواته والانقياد لأهوائه .

البريد في الإسلام

التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية

لـؤـسـتـانـهـا سـمـ محمـد ابراهيم

المدرس بمعهد القاهرة

نظام البريد نظام قديم يرجع إلى زمن الأمويين - بل إن الدولة العربية ورثت هذا النظام عن الدولة البيزنطية والفارسية .

فالبريد إذن ليست كلمة عربية إنما كلمة لاتينية مأخوذة من Veradus أى الدابة التى يركبها العامل ثم نقلت مجازاً إلى المسافة المقطوعة ثم استعملت إسماً للنظام كله .

وذهب آخرون إلى أنه فارسي معرب ، فأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه مقصوص الذنب وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز عن غيره من الدواب الأخرى وكان يطلق البريد على الرسول .

والبريد فى الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أما كن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

أما معناه اللغوى : فهو مسافة معلومة ممتدة باثنى عشر ميلاً (الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١) .

ويقال إن أول من وضع البريد فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان الذى أخذه عن الروم أثناء حكمه فى الشام وقد اهتم عبد الملك بن مروان بهذا النظام فأدخل عليه عدة تحسينات فأصبح أداة هامة فى إدارة شؤون الدولة الأموية ، وقد أثر عن عبد الملك أنه قال لأحد رجاله : ولتيتك ما حضر بابي إلا أربعة : المؤذن ، فإنه

داعى الله تعالى فلا حجاب عليه . وطارق الليل ، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً
لنام ، والبريد فتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فرمى أفسد على القوم سنة حبسهم
البريد ساعة . والطعام إذا أدرك ، فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس
وبين الدخول (التملقشندى ج ١٤ ص ٣٦٧) كذلك أنشأ عمر بن عبد العزيز
حانات ينام فيها الناس وأحواض للشرب .

وفي عهد العباسيين ازدادت العناية بنظام البريد ، فبلغ هذا النظام غاية كماله
أيام الرشيد والمهدى ، وكانت بغداد — عاصمة العباسيين — تتشعب منها الطرق
في كل الجهات ، وبلغ عدد الطرق التي تخرج من بغداد ٩٣٠ طريقاً مثل الطرق
الرومانية التي كانت قديماً متصلة بروما — فكل الطرق تؤدي إلى روما — وهذا
الوصف أيضاً يصدق على بغداد ، فكانت هناك طرق رئيسية وطرق فرعية أيضاً
فالطريق الرئيسى الأعظم هو الذى يخرج من بغداد إلى خراسان ويسير إلى حدود
الصين ، وهذا الطريق طويل جداً يشق الدولة الفارسية من الشرق والغرب ، ومن
الغريب أن هذا الطريق لا يزال يسلك إيران ، وهناك طرق أخرى من بغداد إلى
الأقاليم الشرقية والجنوبية والغربية : فمن بغداد إلى الحجاز لتسهيل أداء فريضة
الحج عن طريق الكوفة إلى الصحراء العربية إلى مكة والمدينة ، ثم طريق شمالى من
بغداد إلى الموصل ، ثم طريق شمالى غربى من بغداد إلى الأنبار ثم يعبر الشام
والثغور — وطريق آخر من الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ، وهذه الطرق
الرئيسية تتشعب منها طرق صغيرة لا حصر لها .

فنظام البريد إذن رغم أنه كان مشتقاً من البريد البيزنطى والفارسى إلا أنه
عنى به عناية شديدة ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين :

وهما : الحج ومراكب التجارة أو الاتصال البرى بين بغداد وأطراف الدولة
العباسية ، لذلك كان هذا النظام مهماً فى النواحي الدينية والاقتصادية والسياسية .

ويقال إن ميزانية البريد فى عهد العباسيين بلغت نحو ١٦٠ ألف دينار ، وكان
للبريد ديوان كبير فى بغداد وكان هذا النظام نظاماً رسمياً خاصاً بأعمال الدولة ،
وليس لنقل مراسلات الجمهور ، فكانت الدواب لا ينفع بها غير العمال خدام
الدولة فقط وكانت البغال والإبل والحمام الزاجل وسائل نقل البريد .

وقد أصبح للبريد أهمية أخرى فيؤثر عن المنصور أنه قال : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم ، فمقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن تنصت واحدة وهى ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لأثم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستنصى ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غنى ، والرابع ... ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة : آه آه قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة » (الطبرى ج ١ ص ٢٩٧) .

فكأن ولاية البريد إذن عيوننا للمنصور ، وبواسطتهم كان يتف على أعمال الولاية بل كان ولاية البريد يوافونه بالأسعار من قمح وجوب وأدم ومأكولات وغيرها - وقد كان عمال البريد يوافونه بذلك مرتين في اليوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح وافوه بما حدث في الليل .

وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ، فكتب إلى هذا الوالى : شككتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ! ما هذه العدة التى أعددتها للكتابة في الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم تستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان ، وألحق بأهلك مذموماً مدحوراً » (الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧) .

وهكذا كان في كل إقليم عامل بريد إذا وجد أمراً هاماً يرسل إلى صاحب البريد في بغداد وهذا يبلغ الخليفة ، فأصبح عمال البريد لهم صفة الجاسوسية على ما يجرى في الدولة وإطلاع الخليفة في الحال عما يحدث في الأقاليم ، وكان نظام الجاسوسية موجوداً في الدولة الفارسية القديمة وكان هذا مما ورثه العباسيون عن الفرس ، ودولة واسعة مستبدة الحكم محتاجة إلى هذا النظام من الجاسوسية وعهدنا بالدولة العثمانية قريب حينما انتشرت فيها الجاسوسية ، لذلك لم يكن البريد مجرد نقل رسائل ولسكنه تجاوز ذلك إلى الجاسوسية لمراقبة عمال الدولة على وجه خاص .

القصّة بين الذاتية والموضوعية

لخضرة الأستاذ حمزة محمد السنج

ليسانيه في الأدب الانجليزي

من جامعة فؤاد الأول

يهدف القصصى ، مهما تشعب به الابتكار فى ميدان الفكرة ، إلى تصوير أحداث أو وصف أشياء ، ويمتاز النثر الذى يصور الأحداث بامتلائه بالحركة والسرعة ، وأما النثر الذى يتناول الأشياء بالوصف ، فيمعن صاحبه فى مراقبتها عن كسب ، حتى ينتقل إلى القارىء حتميتها الأصلية ، فى غير تفريط أو إفراط ، ويتسم هذا النوع الأخير بسلبية الطابع وفنور الحركة . وسواء اتجه القصصى فى فنه الاتجاه الأول أو الثانى أو كليهما ، فإنه إنما يرمى إلى صوغ ما يسمعه وما يراه ، وما يعتلج فى قلبه من مشاعر ، فى رموز تيسر له نقل التأثير الذى خلفته المراتب فى نفسه إلى القارىء ... وتلك الرموز ، وهى الألفاظ التى تعين القصصى على تحقيق الوضوح العيني الذى ينشده ، قد يحسن القصصى استخدامها ، فيستطيع تصوير الأحداث فى سرعتها ، ووصف الأشياء فى حقائقها ، تصويراً تسوده الدقة ، ووصفاً لا تنقصه الأمانة ، كما أنه قد يسيء استخدام تلك الألفاظ ، فيتهاوت عليها ، ويسرف فيها بقصد الزينة ، ومن ثم يجد زمام القصة قد أفلت من يده فأصبحت الأحداث تمضى فى بطاء سقيم ، وتراخى مل ، والأشياء شوّهت معالمها ، فأُنحِت أدنى إلى الخيال منها إلى الواقع .

وهذه النزعة نحو التتميق elaboration ، والتوشية decoration فى الوصف القصصى ، إنما تعزى إلى نقص كامن فى النفس البشرية ، يدفعها دفعا نحو مزج الذات بكل أمر موضوعى ، ومن هنا كان تفاوت المتصيين فى طغيان شخصياتهم أو اعتدالها وتوازنها فى كتاباتهم .

ووجه الشبه كبير بين فنون كالموسيقى ، والرسم ، والتصوير ، وبين القصة الأدبية ، فللتقصي مدى يصل إليه ، وأفق يجول فيه ، بيد أن ذلك يختلف — إلى حد ما — عن مدى آلة التصوير ، إذ أن القصص يختار من نماذجه ، وينتقى من شخصياته ، ما يشاء مما يقع تحت ناظريه من بساط الحياة الفسيح ... أما آلة التصوير ، فلا يملك صاحبها مثل هذه الحرية الإيجابية في الاختيار ، إذ أن جهده الفني ينتهي باختياره للمنظر الذي يروقه ، وتثبيت آلة التصوير ، التي تأخذ في نقل تفاصيل المنظر ، وإن كانت لا ترتاح إليها عين المصور ؛ ومن ثم كان القصص أكثر حرية من المصور في الاختيار ، وأقدر على تصفية نماذجه ، وتهذيب شخصياته وإننا لنجد القصصيين يتراوحون حول فن التصوير قرباً وبعداً ، فكما قرب القصص من المصور كان موضوعي النزعة ، وكما بعد عن المصور في فنه كان ذاتي النزعة .

وفي الحق إنه ليندر أن نجد قصصياً يعنى بفكرته theme ، ويهتم بها أكثر من عنايته بمشاعره وآرائه الخاصة . ولكننا لو علمنا أن القصة ، في جوهرها ، ليست تعبيراً عن نفس صاحبها ، أو إبرازاً لميولها الذاتية ، وإنما هي مخاطب جمهوراً من القراء ... لو علمنا ذلك ، للسننا حاجة القصة إلى دقة الوصف والتصوير ، وإلى خلوها من الشرح والتعليق .

ويتوقف جزء كبير من نجاح القصص على انتقاء موضوعه ، وهذا هو الجانب الإيجابي للاختيار ، وكذلك من الأهمية بمكان ترك الموضوعات التي لا تتلاءم مع القصة ، وهذا هو الجانب السلبي للاختيار ، الذي لو عنى به كثير من القصصيين المعاصرين ، لكانوا اليوم في الصف الأول من حماة القصة ، والقائمين عليها ، إذ قلما نرى اليوم قاصاً ، إلا وينفق من وقته وجهده ، الكثير على السطحيات externals ، بينما يهمل إهمالاً مشيناً الجوهريات essentials ، فيصف شخصياته وصفاً سطحيّاً ، نعرف منه حياتهم معرفة يسيرة ، فأما أنفسهم وضمايرهم ، وما يضطرب في الأولى من خملجات وآمال ، وما يكمن في الثانية من نجوى وأسرار ، تنعكس على أسارير صاحبها ، فيخفيها في ابتسامة مغتصبة ، أو في ضحكة مريرة - فأما كل ذلك فإننا لا نجد إليه سبيلاً ، أو نعثر منه على النذر اليسير ، الذي لا يشفي غلة ، ولا يسد فراغاً .

وليس حسن الاختيار للموضوع وحده كافياً لكي يستطيع القاص أن ينتج أثراً أدبياً قيماً ، وإنما يكون ذلك نتيجة لتوافق بين الفكرة ومزاج الكاتب ، مما يمهّد له طريق الإبداع في نتاجه الفكري ، مهما بعدت خاتمته ؛ أما تجارب القاص ، فإنها مهما كانت واسعة المدى أو فسيحة المجال ، فلن يصل إلى أعماق شخصيته ، أو يشحذ قوته الخائفة ، غير القليل من تلك التجارب ، التي يجد فيها خياله مسرحه الخصب وميدانه الرحيب ، وهذه المسارب الضيقة ، من تجارب القاص ، هي التي تعنيه كفنّان ، لأنها قوام أفقه ، فأما ما خلا ذلك من تجارب ، فلا يهمه من أمرها شيء ، إلا ككائن حي تعرض له شتى ألوانها . . . وما ذلك إلا لأن الناص لا يستقبل تجاربه استقبالا سلبياً ، وإنما يعمل فيها عمله اللامح وعينه الفاحصة . . . ومن ثم يمكن القول بأن شخصيات القصة إنما تنشأ عن نواة صغيرة تستقر في تربة خصبة يرويها خيال الناص ويغذيها العمل وتجارب الصبا .

وقد عانى النثر القصصي في إنجلترا خلال القرن الثامن عشر الشيء الكثير من ذاتية الكاتب الطاغية ، التي ما برحت تبرز واضحة في تعليق القصصي ، أو نظرة جانبية فرعية side-glance أو تأملات فلسفية تعترض سير القصة ، كما وجدنا لورنس ستيرن (١٧١٣ — ٦٨) Sterne في قصته (Tristram Shandy) ينتهز كل أمر جل أو هان لكي يحيد عن محور القصة ، ويتقرب منه في هذا المضمار صمويل Butler في قصته (The Way of all Flesh) . ومثل هذا الاتجاه في كتابة القصة ، وإن كان يزيد لها امتاعاً ، نظراً لطرافة موضوعاتها وتنوعها ، بيد أنه يغض من قيمتها الفنية ، إذ أنها تفقد أحداثها وجدتها ، ويخلو أسلوبها من القصد في التعبير ، والاستواء في العبارة .

وقد تطغى الذاتية على نفسية الأديب ، فيحاول أن يستجيب لها في شتى صورها ، وربما بالغ الأديب في ذلك ، فأفرط في استخدام المحسنات البديعية من تورية pun ؛ وطباق antithesis ، وجناس alliteration حتى تغدو اللوحة الفنية ، التي يجهد نفسه في رسمها ، شوهاء منفرة لما خالطها من صنعة وكلفة mannerism ، وهذه المحسنات البديعية كالنار ، فهي خادم صالح وسيد طالح ، فإن أحسن الفنان استخدامها - كما فعل ولیم شکسپیر ، عاھل الأدب الانجلیزی ،

في ممتطوعاته الشعرية القصيرة sonnets ، التي زواج فيها بين المعنى والمبنى ، وجانس بين ظلال الصورة وإطارها - إن فعل الأديب ذلك ، أصبحت تلك المحسنات عينها إحدى مقومات البناء الفني للنتاج الأدبي التي لا غناء عنها للأديب لكي يعبر بها عن حالات شخصياته النفسية واتجاهاتهم الفكرية .

أما إن أساء الأديب استخدامها ، شأن الكثيرين من الأدباء الناشئين ، فإنه سرعان ما يجد نفسه كالعجوز التي تحاول يائسة ، ستر جمالها الذاوي بشتى أصناف العطور ، وسائر ألوان المساحيق والأصباغ لكي تبهر في النفوس الرغبة فيها والعجب بها . . . ولن يلقى الأديب هو الآخر من قرائه رغبة في تتاجه أو إعجابا به ، فقد اصططح الناس اليوم على بغض الزيف ، والمبالغة ، والصنعة الجارفة التي تجافي الذوق الأدبي السليم ، والتي لا نعر عليها اليوم إلا في تضاعيف فن الدعاية والإعلان . أما في الأدب الرفيع ، فإن المذهب الذي لن يخبو نوره ، والذي أصدر عنه كبار الفنانين ، مهما اختلف مصدر ثقافتهم أو تباين نوعها ، هو أن قوام الفن ستر بريقه المصنوع ، وإخفاء وهجه الخاطف أو كما يقال في اللغة اللاتينية ars est celare artem .

ولعل أسوء ما تلقاه القصة الأدبية على أيدي الفنان غير المطبوع ، هو استلهامه لذاتيته الطاغية - عن قصد أو غير قصد - حتى يجد نفسه يعلو ويهبط ، ويسير يمينا وشمالا ، حسبما يتجه به تياره الفكري ، لا كما يوجهه موضوع القصة ، والمحور الذي تدور حوله أحداثها ومرئياتها . . . ونحن بعد ذلك كله قد نستطيع أن نغفر للقصص أن يتراوح بين دفتي القصة ، قرباً من الموضوع ، وبعداً عنه ، لو أن القصة لم تكن شيئاً آخر غير الموضوع . . . أما والقصة صورة فنية للحياة حولنا ، فلذلك وجب أن تتوافر فيها عناصر أخرى إلى جانب المشابهة likeness ، كالبراعة في رسم القلب أو الاطار frame ، والأناقة في صوغ التصميم design ، والدقة في إخراج الانشاء الفني composition . . .

وهذه العناصر جميعا لو توفرت للقصص ، بعد نجاحه في اختيار موضوعه ، وحرصه على توازن عنصرى الذاتية والموضوعية في قصته ، لاستطاع أن يقدم للقارئ الانشائي creative reader نسيجاً متجانساً مؤثلاً ، ويعرض أمام ناظره ، موكبا حافلا متصلا ، ما يكاد يفرغ من استعراض صفحاته ، حتى يتمثله في مخيلته صوراً مفعمة بالحياة والانسجام .

حول مقال :

سوف أعود إلى الأرض

لحضرة الأستاذ محمد اسماعيل السليبي

تركت إدارة مجلة الهلال الغراء للقراء رأيهم فيما ذهب إليه حضرة صاحب العزة محمد توفيق دياب بك من عقيدة وآراء بثها عزته في مقالته في هلال ديسمبر الماضي تحت عنوان : (سوف أعود إلى الأرض) .

البحث العلبي والحقيقة الدينية الإسلامية :

من المقرر الثابت أنه سوف يأتي اليوم الذي فيه تكشف الفتوحات العلمية عن حقائق تجعل العقل والقلب معا يقران بما جاء به الإسلام من حقائق . وما جاء به المقال (سوف أعود إلى الأرض) لم يثبت عليها ولم يثبت دينيا .

لم يثبت دينيا إسلاميا :

قال الله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) أى معنى نبيل تتركه هذه الآية وترسخه في ساحة النفس المؤمنة ، إن صاحبها إذا ما رسخ هذا المعنى في صدره فسوف يلقي الحياة بأكبر قسط من التفاؤل والأمل الفسيح الغلاب للصعاب وفي ذلك سر نجاح الفرد في دنياه ، ودليل سعادته في أخراه ، ولذا يقول على كرم الله وجهه : هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن . لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب مرة ثانية وإذا عفا لا يعود .

هذه العقيدة السليمة في آلام الحياة وشدائدها ، وهى ذات أثر في الفرد والجماعة والذود عن حمى الوطن . ولقد علمنا من هذا أن في الشدائد دروسا وعظات ، وبها يظهر السر الدفين وتستيقظ الشعاعة الكمينه مرسله ضوءها خارج النفس فتكون الشجاعة ، ويكون الإحسان ، ويكون الإنصاف والعطف ،

وهل تنقذ الفضائل إلا بزمام الحوادث والتجارب ، وهل قويت عزائمنا وامتنت إلا عن طريق المصائب .

قال أهل الرجعة أو التناسخ : لقد عرفنا الآية أن المصائب أجزية على الذنوب فما بال الأطفال تتألم ولم تصبهم المصائب والفجائع ، وهل جنوا ذنبا ؟ لم هذا فتير جدا وهذا غنى جدا ؟

أما جواب السادة العلماء الذين تعلم منهم صاحب المآل (سوف أعود إلى الأرض) فكأنى بهم من شيوخ قرية مترمتين ، إذ كانوا يصيحون في وجهه السائل بقوله (لا يسأل عما يفعل) . وهو بحق لا يمتنع بما قالوا له . ولذا فتش عن العدالة الإلهية فلم يجدها إلا في الرجعة إلى الأرض ، ولعل المرء إذا كبرت سنه وقارب أجله ، اتخذ من هذه العقيدة ما يطمئنه بالرجعة إلى الأرض ، ولو علم أن في العالم الآخر ما هو أبهى وأبهى لقال (والله لا أرجع إليها أبداً) .

نعم لا يسأل الله عما يفعل . لأن فعله بالغ الحكمة وفي منتهى الدقة . ليس فيه خلل وليس فيه ما يدعو إلى السؤال ، فهو لذلك (لا يسأل عما يفعل) وعلى العمل مستعينا بالله أن يتفهم هذه العدالة الإلهية ، وهو يقررها في آية أخرى ، فيقول في التفاوت المالى الظاهر بين الناس : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) ويقول في أن الناس طبقات بعضها فوق بعض ، وما من يد إلا وفوقها يد الله (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

وهذه القصة بالغة الحكمة كاملة العدالة . ومثل ذلك يقال في آلام الأطفال ولم يحنوا ذنباً . فما العدالة الإلهية في ذلك . تلك هي الضريبة يؤديها الآباء والأمهات ومن يتصلون بأولئك الأطفال المتألمين يؤديونها لتكفر ذنوبهم (أى ذنوب الآباء) لتألمهم لمرض أبنائهم ، أو لحكم يعلمها الله ، وقد جعلها الله ميداناً للعقول ، تتنافس لفهم أسرارها . وربما صحت الأبدان بالعلل « والله بعباده خير بصير » .

وإذا فرضنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه ، فما الذنب إلا من النظر في النفس ولو كانت كاملة ما أذنبت . فلو قيل أن نقصها نشأ من الذنب

السابق قلنا : إن ذلك يلزم التسلسل وهو مستحيل . ومذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا فرضنا أن عدداً من الأرواح تلبس ملايين الأجنة البشرية ، ومع دوارة صاعدة هابطة ، وهو ما لم يقل به أحد . وإلا فبماذا ترى في الروح الإنساني الكامل الذي يتذكر في عهد المظلمات في شخص كشخص سيدنا نوح عليه السلام أو نبي من الأنبياء — كم جسماً خلعه وكم جسماً لبسه ، وعلى أي جسم يقع العذاب . إن قلنا العذاب للروح فكيف يعذب نبي ، وإن قلنا للجسم فكيف لا تباركه روح نبي ، وإن قلنا لهما معاً فكيف بذلك جميعاً ، أنا لازلت طالب يقين في عقيدة توفيق بك دياب . فما يقين عزته في هذا الإشكال .

أسألك يا سيدي . ماذا تقول في مسؤولية الجزاء وتقرير التبعية الشخصية في قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تتحمل نفس مذنبه ذنب نفس أخرى وقد قلت سيدي ، إن ألوف الملايين من الأرواح تتمص ألوف الملايين من الأجسام منذ بدء الخليقة البشرية إلى منتهاها ، وذلك يناقض عقيدة الإسلام في البعث والنشور وإلا فكيف يحاسب الناس .

وإذا صح ما تقول سيدي في عقيدة الرجعة . فإن لكل جسم اسماً ينادى به فبأي اسم ينادى به الشخص . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حديثه الصحيح (أحسنوا أسماءكم فإن الله يناديكم بها يوم القيامة) .

ما تقول سيدي في قوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) لأنهم استكانوا للعبودية ورضخوا لجباية العلم) فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - أي لتطلبوا حرماتكم وكرامتكم - فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

فهل جهنم هي الأرض إذا عادت إليها الروح مرة أخرى في جسم آخر غير جسم الأول .

الحق يقال أن مذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا هدمنا جانباً كبيراً من أركان الإسلام . فليس بصحيح ما قلته (إن هذه العقيدة لا تناقض الدين الإسلامي الخفيف في شيء . ولا تناقض المسيحية . . . الخ .

ثم أيمكن أن يدرك أساطين المؤمنين بعقيدتك هذه ما لا تدركه العفيف الحصان مريم ابنة عمران عندما قالت (يا لبنى مت قبل هذا وكنى نسياً منسياً) فلو سبق وجودها موت - كما يقول أصحاب عزتك ما تمت . وأنا أسألك ما رأى أخوتنا الأقباط فى عقيدة توفيق بك .

ما رأيك سيدى فى الآيه (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهى موتة واحد وحياة واحدة نحيهاها فى الدنيا ، ثم ننقل إلى العالم الآخر يذوق موتة واحدة .

أما عقيدة الرجعة فيقول أحد أساطينها فى مآله (الجسد ثوب تلبسه الروح زمانا ثم تلقيه) وتعود (أى بعد موته) إلى أفقتها ومصدرها ، ويقول انحدرت إلى الأرض مرة أخرى لتلبس ثوبا جديداً فى شخص جنين من ألوف الأجنة التى تولد فى جنبات الأرض فى الشرق والغرب — وهكذا رجعة بعد رجعة .

فكم رجعة وكم موتة ، آلاف الرجعات وآلاف الموتات ، والآية تقرر (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) .

مصدر الإنسان ورجعاته ومصدره :

إن الله قد استأثر بعلم مصدر النفوس ومصيرها إذ يقول (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فإذا فى علم الله المنزل فى كتاب الاسلام حتى يطمئن أستاذنا دياب بك .

إليك يا سيدى نبذة موجزة عن العقيدة التى قررها الإسلام عن « مصدر الإنسان ورجعاته ومصيره » .

— ١ —

الانسان يسمو إلى ربه بعد معارك جبارة عاتية ، قال تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه) . وهذا الكدح تفسره الآية فى نفس السورة والقرآن يفسر بعضه بعضاً قال تعالى (لتركبن عباقاً عن طبق) بمعنى أنكم يا بنى الإنسان تمرون فى دور بعد دور . وهذه الأدوار يذكرها الله بمجمله فى قوله (وقد خلقتكم أطواراً) فما تفصيلها .

- (١) قل الروح من أمر ربي .
 (٢) هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض .
 (٣) وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم .

٤ — والدور الرابع . بعد التسوية في تلك البطون من نقطة إلى علقه - الخ وفيه يقول الله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) فكيف يعلم بعض من آمن بالرجعة (مولدهم وميتاتهم الماضية وفي أى بلد من البلدان عاشوا حياة بعد حياة وإلى أى الآباء انتسبوا وأى اللغات تكلموا وأى الصناعات أو الأعمال اتخذوا وهل ذكورا كانوا أو إناثا في كل رجعة من رجعاتهم إلى الدنيا ليستأنفوا فيها الحياة) بالنص من مقال توفيق بك (والله يقول (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) هذا هو التناقض . . .

٥ — الدور الخامس هو ما يشير إليه تعالى بعد انتقال الروح (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فالأرواح تكون في برازخها أو الصور أو الناقور كما قرر القرآن . حتى إذا قامت القيامة الكبرى تزاوجت الأرواح مع أبدانها بعد أن كانت مفردة كما قال تعالى (وإذا النفوس زوجت) وليس المقال متسع لتفصيل هذه المعاني .

٦ — الدور السادس يشير إلى قوله سبحانه (وجاءت كل نفس معها من قبرها وبرزخها) سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

٧ — الدور الأكبر (فريق في الجنة وفريق في السعير) أما المحسنون في رسالتهم في حياتهم فإن الملائكة تستقبلهم أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .
 هذه نبذة موجزة عن العقيدة التي أؤمن بها في مصدر الإنسان ومصيره .

إلى الشباب : همسة في آذانهم

قرأنا في كتب التاريخ أن مذهب الرجعة أو التناسخ شاع في المجتمعات المتحللة الأخلاق وأن ضرره أكثر من نفعه فهو مضيع لذاتية الشخص ميسر للعدو دوس أو طائنا .

إن مذهب الرجعة يرمى عن قوس أهل الأهواء والنحل . ونحن أحوج ما نكون في الحاضر لمنايس علمية صحيحة ومضابط خلتية صادقة لترفع شأن الوطن .

وإذا كان (شوبنهاور) من أساطين المؤمنين بعميدة الرجعة في العصر الحاضر فإن ذلك لا يخدمنا عما يراد بنا . فإن تيارات الغرب المستعمر ، ونظرياته الملحدة امتداد لسياساتهم المحيطة لأعمالنا . تلك السياسات وهذه التيارات قد حولت أعناق خنازير وأفذاذ من كتابنا إليها ولكن من (أبدى صفحته للحق هلك) .

وإن الباحث المحقق ليعلم حق العلم موقف تلك العتائد الزائفة من آمالنا القومية . فإذا كان المعتقد بالرجعة أى بتناسخ الأرواح فتد يعود إلى الأرض في ثوب انجليزى أو صهيونى ... وإذا فلا ضرورة لجلاء ولا لزوم لمناداة بتهديم الصهيونية ونخرج من هذا أنه لا بقاء لقوميتنا وذلك كله ناتج من التسليم للعتائد الهدامة لأركان وطنيتنا .

يا شباب العصر :

روح الجهاد فيكم أو جهاد الروح منكم أن تك ونوا أنفسكم على عميدة سليمة ذات أثر فعال . وتحموا وطناً حراً قويا يمتد العالم من التردى في سقطات الزائفين . وأن تنبعث انسانيتكم السامية واقفة عند أمر ربها (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

يا شباب العصر : إن قيل لكم إنكم ستعودون إلى الأرض (كما زعم فيثاغورس أوسقراط قديماً وشوبنهاور حديثاً) فقولوا أتم : إننا سنعود إلى الله وعندكم دليلان قويان مقنعان ، تمتعان مشبعان ، (الأول) جاء ثوبان الفارسى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أين أنا إذا مت . فنزلت الآيتان الكريمتان جواباً عن سئالهما « ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً » سورة النساء .

مُشْكَلَاتُ الْمَدِينَةِ الْحَدِيثَةِ

أفضيلة الأستاذ - عبد الرحمن موسى

عدت علينا مدينة الغرب بخيلها ورجلها ، ومركبتها الطائشة ، وسيولها الجوارف ، فأزججتنا نحن الشرقيين من رخاء عيشنا وطيب أحلامنا ، وأذهبت عنا روح الطمأنينة والامتناع ، ونسألم الهدوء والاستقرار ! . وبدلت بخضراء الحياة صحراءها ، فلم نعد نستمرىء طعم الراحة وأمنة النعاس ، ولا نحس روح الطبيعة ولا نستشعر لمسة النعيم ! . وكأننا في ليل كافر لا نهار معه ، أو شتاء دميع لا ابتسام له ! فما السر في هذا جميعه ؟ هل المدنية الأوروبية تتصادم مع مدينة الإسلام فتفسير عكس اتجاهها ، وتسعى وإياها على طرفي تميز ؟ ذلك ما نريد أن نبينه وندلل عليه .. إن الدين الإسلامي في الواقع قد جمع كل ما تفرق في المذنيات والديانات الأخرى من محاسن وروائع إن لم يكن قد أربى عليها .. فلم يأمر بالرهبة والانقطاع إلى النسك بكهف أو دير أو رأس جبل ، ولم يحض على ترك الناحية الإيجابية لهارة الدنيا ، واستغلال قوى الكون واستثمار أرحام الأرض ، وطرح المعاش جانباً كما قالت المسيحية ، ولم يفرض على معتقيه أن يتكالبوا على موائد الرزق وحلبة القوت ، وحطام المتاع ، وزخرف الوجود ، كأنهم حيوانات سائمة لا هدف لها في الحياة ولا مرمى إلا الطعام والسفاد والفراش والشراب والمرعى بل جاء وسطاً معتدلاً بين رغائب الروح والجسد ، وغذاء الفسك ومشتبهات المعدة ولكننا لو نظرنا نظرة فاحصة جدية إلى المدنية الحديثة اليوم وهي وليدة المعامل الأوروبية لا الأفكار الروحية ولا الموارد السماوية ، لوجدناها تتجه صوب المادية الجسدية المتاعية اتجاهها ملموساً في ظواهر الأشياء وسطوحها ، بل تعدت إلى أسوار الباطن منها فخرقتها عن مواضعها ، وزلزلتها عن مستقرها ، وكيفيتها بميولها وأهوائها ، وصبغتها بألوانها وظلالها .

وإلا فن أين جاءتنا الأصباغ والمساحيق وأدوات التطرية والنعومة النسائية ؟
ومن أين كثرت حوادث انتحار الشباب وتفاهت التفكير فيه ؟
لقد نجمت من هنا مشاكل مستعصيات وعمد معقدات في التعليم والسلوك
والأخلاق ، والغرائز والنفسيات .

كما حدثت مشاكل أخرى في صميم الحيات والنظريات وأمها المسائل
المعنوية والاقتصادية والعلمانية ، كالمذاهب الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ،
وكنظام الدكتاتورية والارستقراطية والديموقراطية الخ . وكنظيم الأسرة ورعاية
الأفراد وكفالة الجماعات ، وتنشئة الأطفال وسياسة النساء وتأمين الحقوق ،
والحياة الزوجية ! وهل غرس في أرضنا بذرة النالوث الأصفر « الجهل والفقر
والمرض » إلا يد هذه المدنية ومحاماتها دون تمييز النافع والضار منها . حتى قطعت
على الشعراء أخيلتها الناعمة ، وعلى الفلاسفة أحلامها السابجة ، وعلى العلماء
والباحثين طرائق علمهم ومناهج تفكيرهم ، واصطدمت مع بعض الحقائق الكونية
وسدت على الناس منافذ الآفاق الروحية ومناجم السعادة النفسية . . ألم يكن في
الديانة الإسلامية غنية وكفاية لحل هذه المشكلات التي خلفها لئسار كعب المدنية
المعاصر بعامل الالتصاق والمجاورة ؟ ألم يكن فيها من الأنظمة القويمة والبلاسم
الناجعة ما هو كفييل بسعادة المجتمع البشرى ورفاهة العالم جميعاً ؟ لقد كان سلفنا
في ثروة روحية عظمى باتباعهم خطوات هذا الدين العالمى الخالد « الإسلام »
ولم يكن في عصورهم من هو أسعد منهم حالاً كما لم يكونوا فقراء من المدنية
والحضارة مثلاً يحسب الجاهلون ، بل كانوا أغنى منا حظاً وأهدى بصيرة وبصراً .
وهل لمتفلسف متشكك أن يجادلنا في مساوئ المدنية القائمة ومخازيها أو يجادل
عنها !؟ حتماً لقد ربطت المشارق بالمغرب .

ولتمحت الأفكار وغزت مناطق الشعور في الإنسان ، وفتحت باب العلم
المدنى والصراع الجدلى ، والنظر المحلق على مصراعية حتى كانت المدهشات
الغرائب من الكشوف والابتكارات ، والاختراع والتجديد في كل مضمار
وميدان ، ولم نعد في قرن السلاحفة أو الناقة والجل ، بل في عصر الذرة والطائرة
واللاسلكى والكهرباء ، وحتماً إنها سخرت كل طاقة صغيرة وكبيرة عل سطح

الكرة أو في ساريات الجو أو أجواف البحار فانتعشت الحضارة وانتفعت البشرية - وتغلغلت بمنظارها المسكبر إلى خبيئات النفوس وأعماق السرائر فتعددت الفنون وأطردت الصناعات واستبحر العمران وتقدمت الأذهان .

ولكن أليس ذلك كله عن طريق المادة ودولابها الحديدي وعجلاتها الطاحنة وآلاتها الجوامد الصماء؟ وهل كان ذلك إلا ابتغاء إطفاء سعار الجوع وإسكات صراخ الأمعاء وإشعال وقود الأوطار الترابية الأرضية؟ فهل انطفأت الحرفة أو سكت الصراخ أو أقلت من طغيانها وبغيها الانانية والنفعية؟ كلا بل لمسنا في سبيل هذه المدنية الآلية كبكبة وقلقاً، واضطراباً وعمتاً نفسانية، ومشكلات قامت وقعدت، وبسائط عميت وعمتت... فهذا شبح الطماعية البغيض، وتيار الحسد والشحناء يحض على الجريمة النكراء ويغري بالمنكر والفحشاء.

ويحجب الى المرء روح التذمر والثورة والتمرد والسخط على كل نظام. فكان بيننا البغاء والربا والخمر واليانصيب والميسر، وكان الظلام المطبق والحيرة التامة المهلكة، ونشأت شركات التأمين على الحياة والنفس لأن الإنسان لم يعد إنساناً بمدلوله الشرعي واللغوي، بل وحشاً من بنات الغاب فكيف يؤمن على الأموال والأعراض والأنساب؟ ووضعت المحاكم والسجون والقضايا والمرافعات من جراء القتل والسرقات والخيانات والاتهامات! وكسدت سوق الزواج وذاع الطلاق وفشت الإباحية الإلحادية، والحرية الهوجاء المتحللة من قانون العرف والخلق والفضيلة! ومن ثم نشأت الحروب واندلعت السنة الفتنة، وهبت الثورات والأحقاد كالعواصف الجامحة، تزلزل غربال الأرض، وتطفيء مصباح السلم، وتهصر غصن الزيتون، وتميت بسمات الربيع، وتلفع الشمس بعباءتها الدكناء؟! ولماذا عبث الاحتلال بالحرقات والسكرامات فأكلت الأمم النوية المستعبدة الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها لعمري وعمر أهلك ما خلق هذه الأدواء جميعاً، وأضعاف أضعافها إلا هذه المدنية الزائفة.. المادية الخالصة.. وبقدر ما سعيها نحوها مأخوذ من بلعة سراها، وسحر بريقها، بقدر ما خلعت أفقنا من العقيدة الصحيحة والإيمان بقوى السماء وقدره الصانع البديع، والبحث عن كنوز التوحيد والمعرفة الإلهية والرحمة والحكمة والإيثار والتقوى.

وانصرفنا بكليتنا عن الروحانية الصافية العميقة والعبادة المشرقة الطليقة ،
وما عدنا نقيم الشعائر والمناسك إلا في كسل وفتور وارتخاء أعصاب ! . وهي
في مجتمعنا اليوم عبارة عن ظلال ميتة وأشباح هزلى لا روح فيها ولا ذماء تؤديها
كمراسيم دولية أو شكليات عرفية ! . . . ومن ذا الذى يفرغ من الجلبة والضوضاء
آثان معدودة من سواد الليل أو بياض النهار للنجاسة والتفكر والصلاة
والاعتصام بجبل السماء ؟ . ومن منا أمسى يفكر في بر أو مرحلة أو تزكية وإحسان ؟ .
يخرجني ويخجل القلم في يدي أن أقول : إننا أصبحنا تحت تأثير هذه المدينيات الغربية
الحق نعد من مظاهر التأخر والرجعية والتخلف والجمود أن ننأى بتقنين الشريعة
وعودة حدودها إلى الأرض بعد طول غربتها ، وكيف ونحن في حمى التمانون
الفرنسي ننطلق أحرار الفكر والرأى والعقيدة بلا حسيب أو رقيب ! ؟ .

وهكذا أحسننا في هذا العصر بلهيب الحرمان ومجاعة الوجدان ودافع الحاجة
ومرارة اللوعة والخزيان .. نعم أحسننا الحاجة إلى الرجوع لمعين الإسلام
وطرق مصراع السماء والتطلع إلى أعلى ! . ذلك لأن المدينة الحديثة قد ألهبت
ظهورنا بسياط نارية إلى غير إشراق أو متاع أو استقرار إلى حيث الهاوية
والتطاحن والأزمات المبيدات ! . . فظمئت أنفسنا من المعرفة الوجدانية ، وقحلت
أرواحنا إلى النبع السماوى الدافق الفياض ، يبدل غُلَّتْها رِيا ، ويأسو جراحها
ويمسح آلامها ويقيم على أطلال خوفها واضطرابها صرح هناءتها وأمنها وسلامها ! .
أما هذه الحركة الدائبة المتعقعة ، والتسرع المجنون الأحمق الذى جعلنا نتندر ونسخر
بالمئاتى المتمهل قائلين : نحن في عصر السرعة ... والذى صرفنا عن دين محمد
وروحانية الشرق وتراث العروبة ، وميراث الحق وكتاب الخلود إلى الإسراف
في الشهوات والآمال والمطامع والرباب فما لا يقره حصيف ولا يرتضيه
أريب !! فهل من عودة يا أمناء الإسلام ؟ . . وهل من بعث للشرق الميت
من جديد ؟ ؟ ؟

جماعة التبشير الاسلامى والاصلاح

بأم درمان « السودان »

عبد الله سوفي الأوسر

كاتم السر

بقى جنوب السودان منذ آمد سحيقة فى عزلة عن العالم ، لم تعرف الحضارة إليه سبيلا بعلومها ونورها ، وظل أهله على فطرتهم الأولى حفاة عراة ، دينهم الوثنية ، وعلهم الجهل ، وصلتهم بالعالم الخارجى مقطوعة ، وبشمال السودان مبتورة ألا ما يتسرب إليهم من رسالات التبشير المسيحية .

وما كانت حالتهم تلك ، لا لترضى إخوانهم ومواطنيهم فى شمال السودان ، فوطنوا العزم على الاتصال بهم ، والقيام نحوهم بما يمليه الدين ، وتفرضه الوطنية ، فأهل شمال السودان وجنوبه ، مواطنون تجمعهم صلة الوطن التى لا انفصام لها . ولهم على بعضهم البعض حقوق وواجبات . ومن حق أهل الجنوب على أهل الشمال أن يأخذوا بأيديهم ، ويعملوا على إسعادهم عملا يفرضه الدين وتمليه الوطنية .

لهذا حتمت كلمة جماعة من كرام السودانيين ، ممن لهم مكانة مرموقة بين مواطنيهم ، ومن عرفوا بالتقوى والصلاح على تأسيس جمعية أسموها « جماعة التبشير الإسلامى والاصلاح » مقرها مدينة أم درمان ، وغرضها : القيام بنشر الإسلام وتعاليمه فى جنوب السودان ، وفى كافة أرجائه التى لم يصلها نور الدين الحنيف ، وقد اختارت لها لجنة تنفيذية مكونة من خمسة عشر عضواً .

وعهدت برئاستها إلى صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين القرشى التماضى الشرعى سابقاً ، وأمانة سرها إلى حضرة الاستاذ عبد الله شوقى الأسد .

وقدمت الهيئة بعد تكوينها إلى إدارة السودان طالبة التصريح لها بالقيام بمهمتها فصرحت لها بذلك ، وليس للهيئة أى غرض آخر غير هدفها الإسلامى الخالص ، تستوحى أعمالها بهدى القرآن ، وسنة السلف الصالح فى إعلاء كلمة الدين الخفيف متذرعة فى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، باذلة أقصى جهدها إلى نشر الوية الإسلام فى الجنوب .

بيد أن الوصول إلى الغايات الدينية الخالصة التى ترمع التيام بها ، ليست بالهيئة الميسورة ، فأمام الهيئة عتبات تستوجب التذليل ، ووسائل يجب أن تتوفر ، وليس العمل فيها قاصراً على مسلمى السودان وحدهم ، ولكنك فرض عين على إخوانهم مسابى شمال الوادى أيضاً ، بل والمسلمين فى كافة بقاع الأرض .

لهذا تتقدم الهيئة ، إلى كافة الهيئات والجماعات والأفراد فى وادى النيل طالبة التعاون معها ، وشد أزرها ، والمساهمة الشاملة فى نشر كلمة الله ، بما أمر الله وسار عليه رسوله الكريم .

والهيئة تستمد فى هذا العمل قوتها من عون الله ، ومن صدق نية العالمين فى سبيل الله ولله وحده ، وهى واثقة من أن عملها سيكلل بالنجاح ما خلصت النيات وصدقت الرغبات ، وهى مطمئنة إلى عون المسلمين فى وادى النيل عوناً خالصاً مستمراً ، حتى تتحقق الغايات ويتم الله نوره ، ويخلص جنوب السودان من ظلمات الوثنية والجهل ، ويتذوق أهله حلاوة الإسلام وطعم الإيمان بإذن الله إنه سميع مجيب ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

احتفال الأزهر بعيد الميلااد الملكى

مضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر بحبيبه بخطبه

احتفلت البلاد المصرية يوم الإثنين الثانى عشر من شهر فبراير ، بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة المعظم « فاروق الأول » ، فلبست جميعها حلة فاخرة من الزينات والأنوار ، وأذاع الراديو خطبة لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء فى تعداد مناقب جلالته ، وسرد فضائله ؛ وائتست جميع البلاد المصرية بعاصمتها فكانت البلاد فى عيد وطنى تبادل أهلها فيه التهانى والمسرات .

واحتفل الأزهر المعمور به ، فاجتمع فيه ألوف من عليّة الطبقات فى مقدمتهم سعادة أحمد يوسف بك السكرتير المساعد الخاص موفداً من جلالة الملك ، فنهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم وألقى كلمة بليغة جامعة ، سرد فيها صفات جلالته ومواهبه وفضائله ، متمنياً لجلالته طول البقاء وأن يجعله الله ذخراً للبلاد ، وملاذاً لأهلها مدى الأيام .
وهذه خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر :

اللهم إنا نحمدك حمد المؤمنين بك ، الخاضعين لعظمتك ، الشاكرين لنعمتك ، الراجين لرحمتك ، اللهم إنا نرغب إليك أن تصلى وتسلم على عبدك ورسولك ، وأمينك على وحيك وخيرتك من خلقك ، وخاتم أنبيائك سيدنا محمد الذى أرسلته رحمة للعالمين ، وإماماً للبتقين ، ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه وجاهدوا فى الله حق جهاده فاستخلفهم فى الأرض ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ومن بعد ضعفهم قوة وعزا وسلطاناً .

اللهم وفقنا إلى اتباعهم بإحسان ، واحي فينا سنتهم واجعلها يارب زادنا ونورنا فى معاشنا ومعادنا عليها نحيا وعليها نموت .

حضرة صاحب السعادة مندوب جلالة الملك المعظم :

أيها الإخوان : تحتفل الأمة المصرية السكريمة اليوم بعيد من أعز أعيادها القومية ، وهو عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول أطل الله في عمره وأيده بتوفيقه ونصره .

وقد أراد الله جلّت نعمته أن يضاعف للأمة في هذا اليوم السعيد سرورها ، ويزيد في غبطتها واستبشارها ، فوق جلالته الملك المعظم — أعزه الله — إلى هذه الخطبة السعيدة المباركة ، فكان العيد بذلك عيدين وكانت الغبطة غبطتين .

وحق للأمة المصرية السكريمة أن تحتفل بأعياد الفاروق العظيم ، وأن تشاركه الفرح بما آتاه الله من نعمة ، وأن تحمد الله تعالى وتشكر له على أن ربط عزها ومجدها بجلالة الملك السعيد الموفق .

إن أسعد الملوك من سعدت به رعيته ، وقد أسعد الله هذه الأمة بجلالة مليكها الفاروق ، حيث اقترنت بميلاده الميمون نهضتها وتدرجت مع تدرجه في عمره المبارك أسباب مجدها وعزتها .

وجدت النهضة المصرية القوية قبيل مولده الميمون ، وقد كانت مصر من قبل أمة تتنازعها عوامل الضعف والفساد من داخلها ، وعوامل الطمع والجشع من خارجها ، فلما أذن الله لنهضتها الكبرى أن تنجح ، كان ذلك مقترنا بمطلع الفاروق أعزه الله ، فرأى العالم يومئذ أمة فتية أبية مصممة على أن تنال حقها في الحياة العزيزة السكريمة ، مجمعة على الجهاد في سبيل ذلك بكل ما منحها الله من حول وقوة لا فرق بين شبابها وشيوخها ، ولا بين فتراثها وأغنيائها ، ولا بين حكامها ومحكوميها . روح من الله سرى فيها فأحياها وقواها وأيدها بالنصر المبين ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

ولم تسكن هذه النهضة في الناحية السياسية فحسب ، ولكنها نهضة قامت على أساس وطيد من الشعور بالعز والحرص على الكرامة والتمتع بما تتمتع به الأمم الحية من الاستقلال والحرية ، يؤازر ذلك برنامج صالح شامل في شتى نواحي الإصلاح والتجديد في التربية والتعليم ، في المال والتجارة ، في الزراعة والصناعة في الاتصال بالعالم الخارجي لتبادل المنافع والمصالح ، في الانتفاع بكل ما جد من اختراعات ووسائل إلى غير ذلك مما تحيا عليه الأمم ويقوم به مجدها وعظمتها .

صاحبت هذه النهضة الإصلاحية مولانا الملك فاروقاً أعزه الله منذ كان في المهد صبيّاً فاحتضنها المغفور له والده العظيم (طيب الله ثراه) كما احتضنه — فلقياً في كنفه الرعاية كل الرعاية والحفاظ أعظم الحفاظ حتى أسداهما إلى الأمة المصرية الكريمة بل إلى الشرق كله هديتين كريمتين، هما أعز ما يهديه ملك كريم إلى شعب كريم .
وها هو ذا الفاروق العظيم يتلقى تلکم النهضة من أبيه باليمين فيرعاهها ويواصل سعيه الحميد في تميمتها وتمويتها ويقف في شأنها موقف القائد الحكيم يوجه العاملين ويكافئ المخلصين ويثير الهمم .

ويحي العزائم وأنه لو اصل بها إن شاء الله تعالى إلى ما يبتغيه لأمته من المجد والنمو والعظمة والنصر المبين .

أيها الاخوان :

هذا هو يمن الفاروق على مصر وتلك هي رعايته لنهضتها وأسباب مجدها وعظمتها وقد فاز الأزهر الشريف بما ذكرنا بأفضل حظ وأوفر نصيب واستطاع أن يسجل في صفحات مجده تاريخاً حديثاً مجيداً .

كان من يمن الفاروق على الأزهر أن وجه الله قلب والده العظيم إلى إصلاحه وتمكينه من أداء رسالته على خير الوجوه وأفضلها فأصدر طيب الله ثراه قوانينه الإصلاحية وعدل مناهجه وزاد معاهده وأنشأ كلياته وأمر ببناء مدينة جامعية حديثة تليق به ورعى أهله أفضل رعاية وأكرمها وحرص على تقوية نزعة الدين والعلم فيهم وعلى بث روحها في الأمة حتى تقوم نهضتها على أساس متين من الخلق والفضيلة والاعتزاز بالدين فاستجاب بذلك — جزاه الله أحسن الجزاء — لآمال طاملا ساورت نفوس المصلحين وسعى في سبيله سعيه المحمود فأسدى إلى الدين والعلم صنيعاً مشكوراً أرجو أن يجعله الله له نوراً يوم يأتي المؤمنون يسعون نورهم بين أيديهم وبأيمانهم .

وكان من رعاية الفاروق للأزهر أن سار على سنة والده العظيم في العناية به والحدب على أهله والاهتمام بكل ما يعلى شأنه ويرفع قدره ويمكنه من تحقيق رسالته السامية في خدمة الإسلام والمسلمين بل في خدمة الناس أجمعين

أيقن جلالة مولانا الملك المعظم حفظه الله أن تزكية النفوس بالدين وتنقيتها بتعاليمه القوية ومبادئه القويمية هما أساس يقوم عليه الإصلاح والعزة والكرامة

وخير عصمة من المبادئ الضارة والمذاهب الهدامة ، فحرص منذ تولى عرش آبائه الأكرمين على أن يكون الأزهر الشريف منبع الهداية الإسلامية ، ومصدر التعليم الدينية الصحيحة لا في مصر وحدها بل في العالم كله .

ومن مظاهر ذلك في مصر أنه أمر بأن تبت المعاهد الدينية في الأقاليم فأنشئ منها في عهده المبارك خمسة نظامية وأضيف الى بعض المعاهد الابتدائية أقسام ثانوية وشجعت المعاهد الحرة فجعل لها في ميزانية الأزهر مبلغ كبير أعانها على أداء رسالتها في التهذيب والتعليم وبذلك زاد عدد المعاهد الدينية في البلاد حتى أربت على العشرين .

ومن مظاهر ذلك في خارج مصر أن جلالة حفظه الله أمر بإيفاد كثير من البعث التعليمية الى البلاد الإسلامية تفتيها لأبنائها ونشرا لدين الله فيها ، كما أمر باستقدام بعوث كثيرة من البلاد المختلفة لتلقى العلم في معاهده ووكلياته الى جانب إخوانهم المصريين ، وهامهم أولاء قد أوفت عدتهم على ثلاثة آلاف من مختلف الأجناس يجدون في كنف الفاروق من الرعاية والتكريم والتهذيب والتعليم ما يلهمهم بصداق الشكر وخالص الدعاء للمليك المحبوب ، كما أمر حفظه الله بأن توفد وفود من علماء الأزهر الى جامعات أوروبا ليحيطوا علما بما عند أهلها من علوم نافعة ويعرفوا لغاتهم ويدرسوا أحوالهم وينشروا بينهم محاسن الإسلام وينفعوا قومهم إذا رجعوا إليهم . وقد أنشئ بتوجيه جلالة الملك المعظم مركز ثقافي إسلامي في إنجلترا ، وسينشأ مثله إن شاء الله تعالى في أمريكا ، ونرجو أن يتمكن الأزهر من تحقيق رغبة جلالة في الإكثار من هذه المراكز .

ومولانا الفاروق أعزه الله لا يألو جهداً في العمل على تقوية الأزهر ، وتوطيد دعائمه ، وتوفير أسباب الطمأنينة لأهله من علماء وطلاب حتى يتفرغوا للعلم ويعكفوا على خدمة دين الله القويم .

وإني لأعلم من حذبه على الأزهر وعطفه على الأزهرين ما يجعلني مستبشراً بالخير ، واثقاً من أن هذه الجامعة الكبرى سترقى في عهده السعيد إن شاء الله تعالى إلى ذروة مجدها وتحقق آمال جلالة وآمال سائر المسلمين فيها .

وقد تلقيت من توجيهاته السامية في شتى نواحي الإصلاح ما جعلته برنامجي وعهدي ، وأسأل الله تعالى المعونة عليه والتوفيق إلى تحقيقه .

أيها الأزهريون :

إني لأعلم أن قلوبكم مفعمة بالولاء والحب والإخلاص لجلالة مولانا الملك المعظم ، وأعلم أنكم قادرون فضله عليكم وبره بكم حق قدرهما ، فسا أحراركم بشكر هذا الفضل والاعتزاز بهذا البر ، وإنما يكون ذلك بقيامكم بواجبكم علماء وطلاباً حتى تحققوا آمال المليك فيكم ، وتؤكدوا للعالم ما عرف عنكم من أنكم جنود الله وحفظة دينه ، وحملة كتابه ، وتبعثوا في الأمة الإسلامية على اختلاف شعوبها وأجناسها روحاً من التوبة والصلاح تستعيد به مجدها وسالف عزها وكرامتها .

إنه لا صلاح لهذه الأمة إلا بكم ، ولا قيام لها إلا على أساس دعوتكم ، فإنها دعوة الحق فانهضوا بأعبائكم كراماً أولى قوة وابتغوا وجهه الله تعالى فيما تعملون يصلح الله أموركم ، ويصلح بكم ، واعلموا أنكم جنود الله فجاهدوا في الله حق جهاده واصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

اللهم إنا نسألك ونبتل إليك أن تكلأ بعين رعايتك التي لا تنام جلالة مولانا الملك المحبوب فاروق الأول .

اللهم امنحه من لدنك نصراً مبيناً ، وارزقه دوام العافية ، وتمام النعمة وحسن المزيد .

اللهم يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، نسألك أن تجعل هذه الخطبة السعيدة فاتحة خير عظيم تقر به عين جلالة الملك ، وتسعد به أمته وتتحقق به آماله ، إنك يا رب أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين وذو الفضل العظيم .

اللهم أعز به الاسلام وأرفع به راية القرآن ، واجعل عهده حافلاً بالخير واليمن والاقبال وقوى به شوكة الإصلاح والمصلحين من عبادك الصادقين المخلصين .

اللهم أصلح في عهده الميemon جميع شئوننا ، ويسر أمورنا ، واجمع ، شئنا وألف بين قلوبنا ، ونسألك اللهم أن توفق رجال حكومة جلالة مولانا الملك إلى ما فيه الخير العميم وأن تسهل لهم كل صعب وتيسر لهم أسباب رفعة شأن الأمة وسمو مكانتها إنك يا رب ولينا وكفى بك نصيراً وأنت يا رب مولانا ونعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

لَيْسَ هَبْنَانِجَلْ

تبين لنا من متابعة اطلاعنا على كتاب (من هنا نبدأ) أن المؤلف يروج للإستراتيجية ، وهذا تطوع لا شية فيه ، فقد يكون مقتنعا بأن الأمة التي لا تأخذ بالاشترائية لا تقوم لها قائمة ، فلا يؤاخذ على أن ينصب من نفسه داعية لها في أمة دسورية ؛ ولكن الذى يؤاخذ عليه تصوير الدورة الاقتصادية للأمم تصويراً خاطئاً ، ورفع الاشتراكية العامة إلى مصاف العوامل الأولية في ترقية الشعوب ، واعتبار الأشكال الأخرى من الاجتماع ، صوراً وقتية آيلة إلى الاشتراكية لا محالة سواء أسرعت في تطوراتها أم أبطأت ؛ فأسرف لأجل ذلك في المرغبات فيها ، وارتكب في سبيل المبالغات ما لا يسمح به في كتاب على من أخطاء ، وفاته أمر خطير وهو أن للتطورات الاجتماعية أدواراً لا بد للجماعات من الدخول فيها ، واستيفاء آمادها حتى تستعد الجماعة لقبول ما يليها ، وربما نشأت حوادث دفعها للوراء درجات كثيرة بعد أن كانت على مقربة من آخر أطوارها .

قلنا إن المؤلف ارتكب في سبيل تخفيضه مواطنيه على الدخول في الاشتراكية ما لا يسمح به في كتاب على ، ونحن نناقشه الحساب في بعضها لأن في تركها على حالها في مؤلف كتب له الانتشار تضليلاً للكثير من القراء . فلتابع ملاحظتنا عليها فنقول :

قال في صفحة ٩٢ : « إن أخش غلطة نقترفها خلال سعيها للسلام هي التماسنا له في الخارج ، فنظن أن المعاهدات ودوراتنا في فلك دول أكبر سيملان بلادنا سلاماً وأماناً ، ولعل الدروس التي تعلمناها من معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن منظمة هيئة الأمم ومجلس الأمن كفيلة بأن تلهمنا رشدنا » .

نقول : الواقع أن أحداً في بلادنا لا يرغب في عقد معاهدات مع أية دولة من الدول ، ولسكننا نرغم على عقدها ارغاماً . فانجلترا لم تنجل عن القاهرة والاسكندرية إلا بعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ولو كنا أئينا عقدها لما انجلت عنهما . ونحن الآن نريد أن تجلو عن قناة السويس فتأبى إلا بعد أن نعقد معها معاهدة تسمح لها باحتلالها إذا شئت حرب أوروبية . فنحن كما ترى لا نتطلع للمعاهدات ، ولا نصبو اليها ، ولسكننا نتوسل بها لنكتسب خطوة جديدة نحو استقلالنا التام .

يريد المؤلف أن يثبت لثرائه أن وقوع طائفة من الأمة في الفاقة المدقعة ، وتمتع أخرى بالرغد والسعة ، هو سبب كل بلاء يصيب الاجتماع ، ويدفع إلى الحروب . ونحن نواقفه على خطر هذا الوضع في حدوده المعقولة ؛ ولسكن خطر الإدقاع في الفتر قد زال بسبب ما جد من نظم العمل ، وتحديد الأجور ، وقيام النقابات ، ومعونة الحكومات للعمال ، وبقى أشد عوامل الحروب خطراً ، وهي تسابق الدول على التحكم في بعض الطرق البحرية ، أو احتلال بعض البقاع الأرضية لضمان تصريف محصولاتها ومصنوعاتها .

أما التول بأن الحروب تزول إذا وجد الناس الخبز والزبد ، فهو بعيد عن التحقيق ، لأن العوامل التي تدفع إلى الحروب من تراحم الأمم على الاستعمار ، وعلى بسط السلطان الأدبي على الجماعات المستضعفة ، لا تزال موجودة ، بل أخذت شكلاً مهدداً لحق البشرية ، وخاصة بعد اكتشاف صنع التناوب الذرية ، وهل يفوت الأستاذ انقسام الأمم إلى معسكرين : أحدهما يؤيد الرأسمالية الفردية ، والآخر يعتبرها شر الشرور البشرية ، وما يبدو من كليهما من التحفز ، والتأهب لمجزرة عالمية ؟ فهلا حسب الأستاذ حساباً لهذا التطور الجهنمي الفظيع للعوامل المولدة للحروب ، فاكتفى بذكر أسبابها البدائية التي لم يبق لها وجود في أية أمة متمدنة . إن مشكلة أجور العمال قد حلت نهائياً في أعظم الأمم الصناعية ، وهي أمريكا وانجلترا وفرنسا وجميع الممالك الأوروبية ما عدا إيطاليا ، وهي هنالك أيضاً في طريق الحل ، فلم نعد نسمع عن تلك الاعتصابات الدموية ، ولذلك لم تجد للاشتركية صوتاً يسمع فيها ، ويمكن أن يكون هذا الهدوء بدء حياة طيبة يجد فيها كل عامل حقه موفوراً ، والعناية به وبأسرته بعد وفاته أصلاً مرعياً .

أما ما نقله عن بعض الكتاب وأدعى أنه يحرض على الشيوعية من أن مجموع الضرائب المقررة على الأراضي الزراعية تبلغ ٤٧٠٠٠٠٠٠ جنيه في حين أن مصلحة الري التي تقوم على خدمة هذه الأراضي وتنظيم ريها تبلغ ٦٢٠٠٠٠٠٠ ، أى أن مصر تبترع سنويا للسادة أصحاب الأملاك بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه ، فهو ليس بشيء لأن الحكومة بإقامتها مصلحة للري لا ترمى الى مصلحة طائفة من الطوائف ، ولكنها ترمى لإيجاد نظام للري في أمة لا تقوم بدونه .

ثم قال : « ونظرة أخرى الى الميزانية ترىنا أن قيمة عوائد الأملاك المبنية تبلغ ٩١٢٠٠٠ جنيه في حين أن نفقات مصلحة التنظيم تبلغ ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . فكل رقم تقع عينك عليه يصرخ في وجهك بأن الثورة على النظام الإقتصادي حق ويؤكد لك أننا نعيش في بلد يصرف فيه الفقير على الغنى ، وتبنى فيه الثروات بالظلم الرسمي والجهل الحكومي . »

أما نحن فنقول ، وقبل أن نقول نسأل : ما هو ذلك النظام الاقتصادي الذي يلعبونه ؟ هل من مقرراته أنه يسمح لبعض طوائف الأمة أن تجدد وتعمل وتكسب المال وتدخر ما يزيد عن حاجتها منه وتشترى به ضياعا ودورا ، وتحرم طوائف أخرى من ذلك وتحد أمامها مجال الإرتزاق ، وتحصره في وجوه محدودة ؟

إن كانت على هذه الشاكلة فهي مقررات جائرة ، ويجب ليس لعننا فحسب بل والعمل على محققها ، والتسوية بين جميع طوائف الأمة في الانتفاع بمواهبهم وجهودهم في رفع مستوى حالتهم الاقتصادية . فإذا كانت الأرض تضيق عن سدد مطاعمهم فمجال التجارة يسعهم ، فإن ضاق عنهم ففي الصناعات ميادين لا تحد ، ووراء كل ذلك العلم الذي ليس له حد يقف عنده ، ولا لإمكاناته نهاية يتعذر تجاوزها .

ولكن يظهر أن أصحابنا يريدون أن يخولوا الحكومة فوق ما لها من حق حفظ النظام ، والسهر على الأمن العام ، والفصل في الأحكام ، حقوقا جديدة تبلغ بها إلى حد التحكم في توزيع الثروة العمومية للأمة ؛ فلا تدعها تدور مع الأمة حرة في أدوار رقيها والمدنى والتعامل ، بل أن تقيد وتوكل إلى إرادة الحكومة تتصرف فيها كما تريد . والحكومة كما تعرف أفراد من الناس لا من الملائكة .

وهذا نظام ينافي ما عليه الأمم المتقدمة من جهة ، ويعطل حركة التجارة من جهة أخرى .

نعم الغرض منه أن لا يحرم الفقراء وهم السواد الأعظم في الأمم من مقومات الحياة ، ولا يتعرضون معه للفاقة والإعواز ، وأن لا تتضخم ثروة الأغنياء فتبتلع ثروة الأمة وتحتكرها لعدد محصور من الأفراد . ولكن أطباء الاجتماع قبل أن يعمدوا في علاج هذا المرض إلى البتر، عمدوا إلى الحد من تضخم الثروات بفرض الضرائب ، وهذا مجال يمكن التوسع فيه إلى حد بعيد يصل إلى أقصى ما تستدعيه الحال . وهو أفضل من الحل الأول ، لأنه يتماشى مع النظم الدستورية ، ولا يعتبر شذوذاً عن المألوف في الجماعات ، ولا يفرض إلى تحكيم عدد يعد على الأصابع من الرجال في أمة يبلغ عدد أفرادها عشرات الملايين .

يعطى الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) عن المجتمعات العربية صورة مزججة قائمة ، وهو لم يبالغ فيما كتبه عنها ، ولكنه عزا ما هي فيه إلى النظام المالي الذي هي عليه ، وفاته أنها مصابة بضروب من الأمراض الاجتماعية والأدبية تحول دون تطورها في أدوار التقدم والارتقاء ، بحيث أنه لو طبق عليها أرقى نظام مالي لما غير من سوء حالتها التي هي عليها فيد أتملة ، بل ربما أسرع بها إلى الهاوية .

وإذا كان هذا النظام المالي أو كما يسميه بالرأسمالية الفردية ، وبالرجعية الاقتصادية ، هو علة كل بلاء يصيب الجماعات ، فما بال الدول الأوروبية الكبرى لا تزال مبقية عليه ، ومحتفظة به ؟ نعم إن لدى كل منها حزبا يدعو إلى الاشتراكية ولكنه لا يبلغ عند واحدة منهن أكثر من خمس أعضاء مجالسها النيابية ، وهي قلة لا تؤثر في وجهة سياستها العامة ، فكيف يسمح كاتب لنفسه أن يزعم أن الأمم لا يستقيم لها حال إلا إذا أخذت بالاشتراكية . وبأى سلطان يستسيغ كاتب أن يكتب مثل العبارة الآتية فيقول :

« هذه الرجعية هي التي توقد نار الحرب بين الأمة الواحدة لتمزقها وتحرقها .. »

ويقول :

« هل نحن حريصون على سلام بلادنا وسلامتها ؟ وهل نرغب في تجنبها

ويلات الفن والاضطرابات ؟ إذن فلنكافح (الجريمة) . وأفضل من ذلك أن نقضى على العوامل التى تيسر نشوء (الجريمة) . فالوقاية كما يقولون خير من العلاج . وإننا حين نتبع سير الانتفاضات العنيفة التى وقعت فى التاريخ لا نكاد نجد لها سوى سبب واحد هو : أمة تريد وحكومة تأبى » الخ .

نقرأ هذه العبارات ونعجب ولا ندرى كيف تكتب ، ولمن تكتب ؟ فاما لدينا فالأمة إن طلبت من حكومتها شيئاً فلا تستطيع أية سلطة أن تأباه عليها ، لأنها أمة ذات نظام دستورى تستطيع أن توجد لنفسها كل ما ترجوه من النظم والتمايد .

وأوروبا على أرقى مما نحن عليه من النظام الدستورى ، وهى أعرق منا فيه ، فلا يوجد فيها حكومة واحدة تحدث نفسها أن تأبى على شعبها شيئاً يريده ، وكيف تتجارأ على شئ من ذلك ، أو تحدث نفسها به ، وهى وليدة إرادة الشعب ؟ فإن طلب الشعب إليها شيئاً فما أن تنفذه وإما أن تستقيل ؛ فإن استعالت قامت غيرها مكانها ونفذت رغبة الشعب ، لأنه المسئول وحده عن شئونه كلها .

وقد خولت الشعوب حكوماتها بعض السلطات حين ترى أن الحالة تستدعى استفتاء الجماعة فى مبلغ ثقتها بنوابها الحاليين أمام ما هى بصده من الشئون ، ونقولتها الحق فى أن تطلب من الملك أو من رئيس الجمهورية أن يستفتى الشعب فى الأمر الذى يثير الخلاف بين نوابها والحكومة ، فيحل المجلس ويدعو الشعب لانتخاب غيره . فإذا انتخب الشعب نوابه الجدد ، وأخذ رأيهم وجاء مؤيد لرغبة نوابه السابقين ، قامت الوزارة بتنفيذ ما يرغبون ، لا تجرؤ سلطة فى الأرض أن تردها أو تعطل من سيرها .

هذا مؤدى النظام الدستورى الذى تقوم عليه جميع حكومات العالم المتمدن فهل يمكن لمن يلم به أن يفهم المراد من قول الأستاذ المؤلف : (أمة تريد وحكومة تأبى) ؟ فهذه الحكومة لا توجد فى عهدنا الذى نعيش فيه إلا لدى الشعوب التى لا تزال فى عهد السذاجة الاجتماعية ، ولسنا وليست أمم أوروبا قاطبة منهم .

فإذا بدا لأهل رأى من علماء الاجتماع أن تأخذ الأمة بمبدأ جديد ثبت نفعه ، فالطريقة الوحيدة للدعوة إليه أن يفضوا به إليها على صفحات الجرائد والمجلات ،

وأن يصدروا به كتباً ونشرات رجاء أن يذيع العلم به بين الناس ، فيصل من هذا الطريق إلى نواب الأمة ، فإذا اقتنع به عدد كاف منهم أسرعوا إلى جعله موضوع مناقشة برلمانية ، فيشتد النتماش فيه ، وتتجلى جميع خوافيه . فإذا كان موضوعه مالياً تصدى له أعضاء مجلس الشيوخ وهم أقوى أنصار الرأسماليين ، فيشتدوا في نقده ، وإظهار جهات ضعفه ، ونواحي خطره ، وقد يعملون على رفضه . فإن اقتنع أعضاء مجلس النواب بأدلتهم وافقوهم على دفعه ، وإلا أصروا على تأييده ، وتأخذ الإجراءات النيابية طريقها في تقرير مصيره .

هذا هو الطريق الدستوري في بث التعاليم والمذاهب في الجماعات الدستورية ، لا أن تطالب من الحكومة مباشرة .

وقد قصد واضعو الدساتير هذا النظام في بحث المطلوبات الجديدة لتتمكن الأمة من دراستها دراسة عميقة ، بتقليبها على كل وجه ، وإطلاق الحرية لكل مماليء لها أو معترض عليها رجاء أن يجدوا الوقت الكافي والحرية المطلقة للاحتفاء في دراستها ، وإبداء آرائهم فيه غير متأثرين بشيء غير المصلحة العامة .

محمد فريد وجري

إيمان

قال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت في بذل المال . فأجابهما : بأبي وأمي أنتما إن الله قد عودتي أن يتفضل عليّ وعودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني .

وقال المأمون لمحمد بن عبادة المهلبى : أنت متلاف ، فأجابه : منع الجود سوء الظن بالمعبود . يقول الله عز وجل وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقا . وقال صلى الله عليه وسلم : الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إلى الله أنفعمهم لعياله

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْأَزْهَرِ

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد بوف موسى

أما بعد :

فتمت أردت نفسي جاهداً على أن تكون كلمة هذا العدد في باب من الأبواب التي أكتب فيها المتصلة بالفلسفة والفكر عامة ، فابت إباء شديداً ، وحتمت على أن تكون هذه الكلمة عن الأزهر خاصة ، ولا عجب ! فلئن كان الأزهر في كل أدوار تاريخه الطويل الحافل ملء الزمان ، فهو هذه الأيام ملء الزمان والاسماع ، حتى استرعى انتباه البلد كله ، وأفردت له الصحافة الكريمة مكاناً كبيراً ، فنحن لا نعيش هذه الأيام إلا له ولا نفكر إلا فيه .

يتساءل كثير من الناس ممن لم يتبطنوا الأمر ، ولم ينفقوا ما يراد بالأزهر ، عن السر في ثورة الأزهرين جميعاً ، طلاباً ومدرسين وأساتذة ، هذه الثورة الهادئة الجادة الحازمة ، وكيف أصبحوا يطلبون مطالب مادية كما يطلب الغير ، وقد عهدوهم زهاداً في الدنيا حين يتكالب غيرهم عليها ؟ وهؤلاء المتسائلين على هذا النحو أتوجه بهذه الكلمة :

ما كان الأزهر في يوم ما طالب دنيا ، ولكن له صاحب رسالة يحرص على أدائها ، ويرجو أن يعان عليها ، بل ألا يُحال بينه وبينها . وهذه الرسالة هي حفظ كتاب الله وحراسة شريعته ، وإذاعة التعاليم الإسلامية في مصر وغير مصر من أقطار الأمة الإسلامية ، والعمل على أن يكون هذا الكتاب الكريم ، وتلك الشريعة السمحاء هما الفيصل في البلاد الإسلامية في نواحي التشريع والأخلاق والتقاليد .

وهذه الرسالة ، على خطرها وجلالها وثقل ما تقتضيه من تبعات ، قام بها الأزهر فيما مضى من تاريخه الطويل ، وعرفت له الأمة الإسلامية عظم الدور الذي يقوم به ، فأحلت له المحل اللائق ، ورفعته مكاناً علياً . أما اليوم فقد وضح ، حتى لمن كان أعمى أو لمن لا يحب أن يتعمق الأمور ويرد النتائج إلى مقدماتها وأسبابها الأولى ، أن القائمين على شؤون مصر في هذه السنوات لا يريدون أن يقوم الأزهر برسالته من حراسة الدين وأخذ الأمة به ، حتى يتم لهم ما عملوا له زمناً طويلاً من فصل الدين عن الدولة فصلاً تاماً ، ومن أن يكون مجتمعنا مجتمعاً لا يمت في مجموع مظاهره وتمايلده للشيعة بسبب قوى أو صلة متينة . ومن ثم راحوا يتحيفون حقوق الأزهر وأهله في عنت ، ويتحدونه وأبناءه في جبروت ، ويحاولون صرف الناس عنه بطرق وأساليب شتى ، ويجحدون مما بين أيديهم من الحكم وأسبابه العون في كل ما يريدون ، بل ويجحدون لهم أنصاراً ممن لا يريدون — فيما يزعمون — أن تتخلف مصر عن ركب الحضارة ، كأن الإسلام الذي أوجد أكبر حضارة عرفها الإنسان ، أصبح حجر عثرة في سبيلها هذه الأيام !

هذا ، وإنا نعتقد أن الحالة أو المحنة التي يمر بها الأزهر الآن ، وسيخرج منها بفضل الله ، وقد نفي عن نفسه الخبث ، وذاد عن عيذه النوم التثميل البغيض ، هي نتيجة لسياسة ، وضع أسسها المستعمر منذ قرابة قرن من الزمان ، ولا تحمل الحكومة الحاضرة وحدها تبعاتها .

إن الاستعمار على ضروب مختلفة لكل منها وسائله ، ولكن مهما يختلف المستعمرون في طريقتهم وأساليبهم ، فإنهم يتفقون على وجوب القضاء على قومية البلد المستعمر ، وهذه القومية تقوم على الدين واللغة والتقاليد . وهذه الغاية قد يسير إليها المستعمر في عجلة وعنفوان ، كما فعلت فرنسا في الجزائر ، أو في هون وتؤدة ، كما حاولت انجلترا في مصر ونجحت فيه نجاحاً غير قليل .

لقد بدأ الأمر عندنا منذ طويل بالتوين من شأن الدين واللغة ، أو تحيف حقوق التأمنين بهما ، وجعلهم لدى الأمة في منزلة أدنى من نظرائهم في الثقافة ، والعمل والخدمات العامة للأمة . ومن ثم ، كان خريجو دار العلوم دون خريجي

مدرسة المعلمين العليا منزلة وراتباً ، مع اشتراكهما في العمل في المدرسة الواحدة ؛ وكان القضاء الشرعيون - ولا يزالون - دون القضاء الأهليين في المرتبة المادية والأدبية ، مع الاستواء في الحكم بين الناس ، وما لذلك من تبعات جسام ؛ وكان خريجو الأزهر في منزلة أدنى من هؤلاء جميعاً .

ثم انقضى الاستعمار بحمد الله ، ولكن بقي - لا أقول أذنباً وصنائع - من يخدمون بعض ما كان له من غايات ، من حيث يدرون أو لا يدرون ، فاحتطبوا في جعله زمناً طويلاً ، حتى انتهى بنا الأمر إلى كثير مما كان يريد .

ها هو ذا أحد المسلمين ، وله مكانة ملحوظة في البلد ، يقول في كلمة نشرتها له أوائل عام ١٩٤٩ صحيفة إسلامية واسعة الانتشار : ولا يخفى أننا في مصر نجري ، في حكمة واعتدال ، على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة .

وها هو ذا آخر درس القانون ، وصار من المحامين ، يقول في عريضة دعوى الأنسة المحامية أمينة مصطفى خليل التي دفعها أمام محكمة القضاء الإداري تشكو وزير العدل إن لم يعينها وكيله نيابة أو محامية بقلم قضايا الحكومة بعد أن استشار في الأمر رجال الدين ، يقول كما جاء بمجلة أخبار اليوم بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ :

« وقد أخطأت وزارة العدل السبيل حين توجهت إلى رجال الدين تستفتيهم في مسألة اجتماعية لا تتعلق بالدين - كما لو كانت مسألة ولاية المرأة القضاء أو شيئاً منه أمراً لا يتعلق بالدين والشريعة الإسلامية - في كثير أو قليل . فكان حتماً عليها ، حتى لا تتخلف عن السير في ركب الحضارة ، أن تسائل نفسها : هل تقوم في مصر حكومة دينية ؟ وهل الحكومة التامة تطبق المبادئ الشرعية حتماً وصدقاً ؟ أو هل يعيش المصريون في مجتمع شرعي تطبق فيه أحكام الدين الخفيف ؟ فإذا كانت الإجابة عن هذه الأسئلة بالسلب ، حق على وزارة العدل أن تتورع عن الزج بالدين في الأمور الاجتماعية البحتة » ، إلى آخر ما قال ! ونحن نعتقد مع محامي المدعية أن الإجابة عن هذه الأسئلة كلها هي بالسلب ، وهذا ما يكشف لنا عما وصل إليه من النجاح أنصار إقصاء الدين عن الدولة والمجتمع نفسه . وهم مع هذا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، متجاهلين قوله تعالى في سورة المائدة : « أحكم الجاهلية يبعون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ! مع أن الحافظ بن كثير

وهو من أجل علما والإسلام ، يقول في أثناء تفسيره لهذه الآية : « فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله » .

وأخيراً ، من باب التمثيل ، لا من باب الاستقصاء ، نرى الأزهر يذاد عن القوامة على الشريعة فيما يفرض على البلد من قوانين ترجع إلى كثير من المصادر ما عدا شريعة الله ورسوله ! كما لا يسمع له فيما يجري في مصر من منكرات ومظالم وآثام ، وفيما يشيع فيه من تقاليد تبعد عن أمر الله والخلق الطيب بعد المشرق عن المغرب ! .

أرأينا إذ أن التهوين من الأزهر وأبنائه وعلمائه ورجاله عامة ، وانتقاص حقوقهم جميعاً في غير ورع أو حياء ، أمر يجري على سنن مرسوم وسياسة وضع المستعمر أسسها ووسائلها منذ زمن طويل ! وأنه من عدم فهم الأمر على حقيقته ، ومن تجاهل العلل الأولى لهذه المحنة التي نمرّ بها ، أن يقال إن الأزهريين يشيرون طلباً للبادة كما يفعل الأغيار ! .

ألا إن الأمر أخطر من هذا كله كما رأينا ؛ ألا وإن من يؤمن بالله ودينه ، والرسول وشريعته ، والأزهر ورسائله ، طلاباً وأساتذة ورؤساء ، ليس له أن يتزحزح خطوة واحدة عن هذا الموقف الذي نتفقه الآن جميعاً في سبيل الله والأزهر ، وإلا كان فاراً من الزحف ، وباء بسخط من الله ورسوله والمسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها .

إن الأمر أيها الناس ، لا يعدو إحدى اثنتين : إما ألا تكون مصر والعالم الإسلامي كله في غير حاجة للأزهر ، أو أن تكون في حاجة ماسة له .

فإن كانت الأولى فليخلق الأزهر ، ولينفق ما يرصد له في الميزانية على غيره من مرافق البلد ، وليريحونا من هذه الحياة التي لا يرضاها حرّ أبي كريم .

وإن كانت الأخرى ، وهذا ما نعتقده صحيحاً ، فعلى الدولة أن تعرف للأزهر وأبنائه منزلتهم ، وأن توفر لهم الحياة الكريمة كفاء ما يتممون به من رسالة وما عليهم من تبعات ، وعلى الأمة الإسلامية كلها أن تطالب الدولة بذلك كله في جدّ وإلحاح من يعرف أنه يطالب بحقه . وأقول : « على الأمة الإسلامية » ، لأن الأزهر وإن كان في مصر ، ليس لمصر وحدها ، ولكنه لأمة الإسلام جميعاً ،

والأمر في هذا ثابت واضح لا يحتاج إلى دليل أو توضيح . وليس لأحد من بيدهم الأمر أن يتعلل لمحدثيه بإمكان الميزانية العامة للدولة أو عدم إمكانها ؛ وإلا فكيف تتسع هذه الميزانية للإغراق على جميع الطوائف ، بل وللإغراق على فرق التمثيل والرقص نستقدمها من أوربة للترفيه عن الأغنياء المترفين !

هذا ، ونقول أخيراً ما قاله فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسين مخلوف عضو « جماعة كبار العلماء » ، لدى فضيلة أستاذنا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، إن المسألة ليست اليوم مسألة مطالب عادلة فحسب ، وإنما هي مع ذلك مسألة كرامة وعزة . ويجب أن يكون للأزهر قيمته ومنزلته التي عرفها التاريخ وعرفها العالم الإسلامي ، فيعترف له بحقوقه ، ويقدّر أهله وما يؤدون للبلاد من خدمات التقدير اللائق وإننا ، ثقة بلفتات جلالة المليك التي شملت الأزهر في كل شئونه بمزيد من العطف والرعاية ، لنترجو أن يكشف الله بها هذه الغمة ، ويزيل بها هذه المحنة .

ونقول أيضاً : أحجب بهذه محنة جعلت الأزهريين ، طلاباً ورؤساء ومرؤوسين ، جسماً واحداً ورجلاً واحداً في سبيل الله ودينه ، ورسوله وشريعته ، والأزهر ورسالته ، والله المستعان ؟

عتاب

دخل أبو دُلَيف أحد قواد جيوش الدولة العباسية على أمير المؤمنين المأمون ، وقد كان عتب عليه ثم أقال له ، فقال له وقد خلا مجلسه : قل أبا دلف وما عسيت أن تتمول وقد رضى عنك أمير المؤمنين وغفر لك ما فعلت ؟ فقال أبو دلف : يا أمير المؤمنين :

ليالى تدنى منك بالبشر مجلسى ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التي كنت مرة إلى بها فى سالف الدهر تنظر
فقال المأمون : لك بها رجوعك إلى مناصحتك ، وإقبالك على طاعتك ، ثم عاد له إلى ما كان عليه .

شرك العقيدة وشرك العمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المرنى

لا أظن أنه بقى على ظهر البسيطة من يعتقد أن هناك إلهاً مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، ولكن هناك نوعاً من الشرك ما يزال باقياً ، وهو أشد خطورة من الناحية العلمية وأكبر ضرراً على المجتمع من شرك الأوثان والكواكب والأحجار .

بيان ذلك أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان :

شرك فى العقيدة ، وشرك فى العمل .

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار وغير ذلك من التماثيل ، التى كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتهما ولعناتهما ، فترعد فرائصهم منها خوفاً وفزعاً ، ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان فى التخبط والعناية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحداً فى التاريخ يعتقدونها إلا ذوو الأحلام الضعيفة والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم دائماً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

وهذه العقيدة مودية بصاحبها فى الدنيا قبل أن تودى به فى الآخرة ، وحسبنا أن تصور رجلا يعيش فى مجتمع مفكر — ولا سيما فى عصرنا الحاضر —

وهو يؤمن في قرارة نفسه بأن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون في سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هذا لا يرجى منه أى خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال الشرك به تصويراً رائعاً يمثل جميع معاني الخيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال فيقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع كل اضطراب وكل شر وكل فساد في هذه الحياة .

أما كونه أول انحراف عن سواء السبيل ، فذلك أن الفطر السليمة والعقول المستقيمة توحى بالإيمان بالله إيماناً صحيحاً لا يخالجه شك ، ولا يفسده شرك ، فإن الإنسان مفكر ، وتفكيره يهديه إلى أنه لم يوجد إلا بمؤثر ، ولا يجد شيئاً أمامه يمكن أن يسند إليه هذا التأثير ، بل يجد كل ما حوله من الأشياء موجداً بعد عدم مثله تماماً ، فيدعن في قرارة نفسه لهذه القوة الغيبية التي تأتي الرسل وتنزل الأديان قسميها الإله الذي خلق الخلق ، وتفكيره يهديه أيضاً إلى قضية أخرى هي قضية الوجدانية ، فيؤمن بها إيماناً عقلياً عن طريق النظر في أدلتها المعروفة ، فإذا انحرف الإنسان عن حكم فطرته ، وعن حكم عقله وتفكيره في هذا الشأن الذي يتصل بالعلاقة بينه وبين خالقه وموجدده ، كان ذلك أول انحراف عن سواء السبيل .

وأما كون هذا الانحراف سبب كل اضطراب ، فإنه كما ذكرنا دليل على التياث العقل ، واعوجاج الفكر ، وباعث على سوء التصرف ، ولا يمكن أن يعيش امرؤ فاقد العقل سيء التصرف عيشة سعيدة صالحة بين قوم عملاء يعرفون ما يفعلون وما يتركون .

أما شرك العمل فهو إيثار ما سوى الله على الله ، وإن اعتقدت أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فانه لا يكتفى أن تؤمن النفس إيماناً سليماً بأن الله هو مالك النواصي والأقدام ، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر في التصرف والعمل ، بل يظهر في الأعمال والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبي الخفي الذي لا روح له ، ولا حياة به ، إنما الإيمان الحق هو الذي يحول بين صاحبه وبين إثبات المنكرات وإقرار الآثام .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يقتل القتاتل حين يقتل وهو مؤمن ، ويقول في حديث آخر : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قالوا من هو يا رسول الله ؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تربط الإيمان الحق الذي يعبد الله به بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، وقد وصف القرآن الكريم المسائلين إلى الأهواء ، المتبعين للشهوات بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلهاً . إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » « رأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدي من أضل الله » .

ووصفت السنة أيضاً هؤلاء بمثل ذلك فقد جاء في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة « تعس عبد الدينار والدرهم ، تعس عبد الخبيصة » .

فهؤلاء مشركون ، وإشراكهم أضر على المجتمع من إشراك عابد الوثن ، والمعتقد في الحجر ، لأن عابد الوثن يضر نفسه ، ويفسد حياته ، أما هؤلاء فانهم يبتئون الفساد والوهن في صفوف المجتمع ، ويشيعون فيه الضعف والمنكر وسائر أصناف الرذيلة .

أقول هذا بمناسبة ما سرى في مجتمعنا المصرى من فساد وأخلاق سيئة ، عمت الصغير والكبير ، وأصبح أمرها من التسليم والقبول في المجتمع كأمر العقائد الثابتة ، ومن حاول التنفير عنها ، أو النصح بالتخلص منها ، عدّ في قومه كالنافخ في الرماد ، أو الضارب في الحديد البارد ، ووجد من الناس من يلومه ، ويهجن فعله ، ويرميه بالتجاوز والاعتزاز .

وقد أصبحت مهمة العلماء ورجال الدين والإصلاح بذلك من المشقة والعسر بمكان ، وإلا فمن ذا الذى يستطيع أن يحول الناس عما ألفوه ، ودرجوا عليه من التعامل بغير ما شرع الله ، أو عن إباحة ما استباحوا من الحرمات باسم المدنية والحرية ، أو عن أخلاق الفجور التى منى بها الشباب ، وغض عنها الآباء والأمهات ، أو عن الفساد المتصل بالحاكمين فى الرشوة والمحسوبية ، والإهمال والتضييع ؟

إن الذى يريد أن يصلح شيئاً من ذلك ، أو يحاول خلع الناس منه ؛ يُنظر إليه نظرة تعجب ، ويتهم بأنه يعيش فى زمان غير زمانه ، ويفسّر بعقل غير عقول أهله ، وهكذا انقلب المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، واتبع الناس أهواءهم فاتخذوها آلهة ، وآثروها بالتقديم والطاعة على الله ، فليس ينفعهم أن يقولوا إنهم مؤمنون بالله رباً واحداً ، كما أنهم مؤمنون به خالقاً وموجداً .

إنى لأخشى أن يكون مجتمعنا قد آثر ما يسمونه الحرية أو المدنية على أمر الله وأحكام الله ، وإلا فقل لى بربك أيها القارئ : ما الذى يدعونا إلى التمسك بهذه الألوان الباهتة من المدنية الزائفة ، وقد أفضى بنا الأمر إلى كارثة الفضيلة والخلق ، حين همّ بعض الفتيان فى حفلة أقامتها الدولة ببعض الفتيات المتجسّسات للرقص من أوربا ؟

أنغرنا المدنية والرق الكاذبان بأخلاقنا وآدابنا إلى هذا الحد ، ثم تملك بأخطائنا فى شأنهما تمسك المرء بعقيدته ، ونؤثرهما على الدين ؟ هذا هو الشرك بالله فى أخطر صوره ، فإياه فحاربوا أيها المؤمنون .

القرآن كما تتحدث عنه السنة :

العلم بأسباب نزول القرآن

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ فكري بسّ

أخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم ، فإنه من كذب على متعمداً فليتبوا مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم ، فليتبوا مقعده من النار » .

* * *

من القرآن ما نزل ابتداء للأغراض العامة التي جاء من أجلها ، كإلهادية إلى الدين الحق ، والعقيدة الصحيحة ، والإرشاد إلى المعاملات المشروعة ، والأخلاق الفاضلة ، وما إلى ذلك من القواعد الأساسية الكبرى التي يقوم عليها النظام الكلى العام .

ومنه ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة ، كنزوله عقب حادثة معينة أو سؤال معلوم ، وذلك كآيات التي نزلت عقب الخلاف الذي وقع بين جماعة من الأوس والخزرج بدسيسة من اليهود ، حتى تنادوا : السلاح السلاح ، فنزل قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » إلى آيات أخرى بعدها ، وكآيات التي نزلت عقب السؤال عن ذى القرنين ، وعن الروح ، وعن الساعة .

وهذا النوع الثانى هو ما يعرف عند العلماء بسبب النزول ، وهو عبارة عن نزول الآية أو الآيات مبينة لحكم الحادثة التي وقعت ، أو لجواب السؤال الذى

رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا طريق لمعرفة ذلك النوع إلا النقل الصحيح ، كما جاء في الحديث الذى معنا ، فالقول فى أسباب النزول لا يحل إلا من طريق الرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحوثها عنها ، ولا يصح التعويل على غير ذلك من الأحاديث المرسلة إلا إذا صحت واعتضدت بمرسل آخر ، وإلا إذا كان الراوى من المعروفين بالتبريز فى التفسير ، ومن المشهود لهم بالتفوق فيه ، ومن الآخذين عن الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد عنى العلماء بهذا المبحث عناية فائقة ، وأفردوه بالتأليف والتصنيف ، لأنه خير طريق لفهم معانى القرآن ، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، وتخصيص عامه ، وتقييد مطلقه ، وإزالة الإشكالات عنه ، وغير ذلك من الفوائد الكثيرة التى لها أهمية فى تفسير القرآن ، والتى تعين على فهم المقصود من آياته .

وقد تناول الأصوليون كثيرا من مباحث هذا النوع ومسائله وجزئياته بالدرس والتحليل ، والشرح والتفصيل ، وأشبعوه قولاً وبحثاً ، وأطالوا فى ذلك إطالة ليس وراءها زيادة لمستزيد .

ومن أدق ما استدل به الأصوليون على ضرورة معرفة أسباب نزول القرآن ، ولزومها لمن أراد فهم القرآن أمران :

الأول : إن الذى يعرف به إعجاز القرآن ، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس المخاطب أو المخاطب ، أو الجميع ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام ، فهو لفظ واحد ، ويدخله معان آخر من تقرير وتوبيخ وغيرها ، وكالامر ، يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهاها ، ولا دليل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة ، وعمادها مقتضيات الأحوال ، وليس كل حال يتقل ، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة ، فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شئ منه ، ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكل من هذا النمط .

الأمر الثانى : إن الجهل بأسباب النزول موقع فى الشبه والإشكالات ، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال ، حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنة وجود النزاع ،

ويوضح ذلك ما روى أن عمر سأل ابن عباس : كيف تختلف هذه الأمة ، ونبيها واحد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا أنزل علينا القرآن ، فقرأناه ، وعلمنا فيم نزل ، وإنه سيكون بعسنا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأى ، فإذا كان لهم رأى اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا وروى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعاً : كيف كان رأى ابن عمر في الحرورية ؟ فقال : يراهم شرار خلق الله ، لأنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار ، فجعلوها على المؤمنين .

وقد وقع من الحوادث بين الصحابة أنفسهم ما يدل على أن عدم معرفة بعضهم لأسباب النزول ، كان له أثر كبير عند بعضهم في فهم الآيات على غير حقيقتها ، وتفسير القرآن على غير وجهه .

فن ذلك ما أخرجه الشيخان من أن مروان بن الحكم أشكل عليه قوله تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم » ، فقال لأن كان كل امرئ فرح بما أتى ، وأحب أن يحمده بما لم يفعل معذباً ، لنعذب أجمعون ، وظل على فهمه هذا حتى بين له ابن عباس سبب نزول هذه الآية ، وأنها نزلت في جماعة من أهل الكتاب سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن شئ فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا إليه بذلك ، فلما بين ذلك ابن عباس لمروان ، زال عنه الإشكال ، وفهم المراد من الآية فهما صحيحاً .

وروى أن عمر بن الخطاب استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، فقدم الجارود على عمر ، وأخبره أن الجارود شرب فسكر ، فطلب عمر البيئة فأقيمت ، فقال عمر لقدامة : إني جالدك ، فقال : والله ، لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدى ، فقال عمر : ولم ؟ فقال قدامة : لأن الله يقول : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا » ، فأنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ ، وأحدأ ، والحنديق ، والمشاهد : فقال عمر : ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس :

إن هذه الآيات أنزلن عذراً للباضين ، وحجة على الباقين ، فعذر الماضين أنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » الآيتين ، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، فإن الله قد نهى أن تشرب الخمر . قال عمر : صدقت ، ونزل قدامة على رأى القوم عندما تبين له سبب نزول الآية ، وعرف حقيقة المراد منها .

وجاء رجل إلى ابن مسعود ، وقال له : تركت رجلاً في المسجد ، يفسر القرآن برأيه ، إذ يفسر قوله تعالى : « فارتب يوم تأتى السماء بدخان مبين » ، بأن الناس يوم القيامة يأتهم دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : من علم علماً ، فليقل به ، ومن لا يعلم ، فليقل : الله أعلم ، ثم أخذ يشرح سبب نزول هذه الآية ، ويبين أصل معناها ، فقال : إنما كان ذلك ، لأن قريشاً ، استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم بستين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

وفي القرآن كثير من هذا النوع ، فليتبعه من أراد ، وفي هذا القدر كفاية .

تحاسد الأقارب

قالت العرب : أزهّد الناس في عالم أهله .

ووقف أمية بن أبي الأشكر على ابن عم له فقال :

نشدتك بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من لوى بن غالب

فإنك قد جربتني فوجدتني أعينك فى الجلى وأكفيك جانبي

وإن دب من قوم إليك عداوة عقاربهم دبّت إليهم عقاربى

قال نعم كذلك أنت ، فما بال مبرك لا يزال إلى دسيسا ؟ قال لا أعود . قال

قد رضيت وعفا الله عما سلف .

وقال يحيى بن سعيد : من أراد أن يبين عمله ويظهر عمله فليجلس فى غير مجلس رهطه .

كيف ندرس الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

بهذا العنوان ، نشرت مجلة الأزهر « عدد شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٠ » .
مقالاً لأحد طلاب كلية اللغة العربية ؛ قدمت له بقولها : « هذا رأى فى دراسة
الأدب للكاتب » . وأعقبته بقولها : « نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل ،
لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها ، والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه
آراء المشتغلين به ، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها ،
ولما كنت أتشرف بأنى من أقدم مدرسى الأدب فى الكلية التى منها حضرة
الكاتب الفاضل ، فإنه يحتم على الكلام ، واجب العمل الذى آكل به خبزي ،
وواجب الطالب ، الذى يعد شره فى مثالبنا ، وخيره فى مناقبنا .

✱ ✱ ✱

أما بعد ، فيأبها الطالب الكريم ، الذى لم أتشرف بمعرفته بعد ؛ والذى
أرجو له مستقبلاً يضاهى طاحه ، ويوائم ثقته بنفسه واعتداده برأيه ؛ وأخيراً ،
يشبع غروره ، إشباعاً يرده إلى تواضع العالم ، واتزان الناقد ، وهدوء الأديب ،
إن شاء الله تعالى — إن أول شرط فى « هجائية » النقد الأدبى الذى حُبِّرت فيه
مقالك ، سلامة الأسلوب وقوته ؛ ولا أكتمك أنه قد جرح شعورى « المعهدى » ،
ما يشيع فى أسلوبك من تخاذل وتفكك واضطراب ، كان ينبغى أن تعنى بإصلاحه
قبل أن تسمو إلى النقد الأدبى وتغرق نفسك فى آزيه المتلاطم ؛ والناس يقولون :
« الأساس ، فالبناء » .

فالناقد الأديب - يا بنى - لا يقول : مُساغا ، كما قلت ، وإنما يتهدى بالأسلوب
القرآنى : وما يستوى البحرين ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج .

والناقد الأدب لا يقول كما قلت : وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ؛ وإنما يقولها تاجر « التجزئة » .

والناقد الأدب لا يقول كما قلت : وأصبحت تطلق إطلاقاً فيها الخ ، وإنما يقول : إطلاقاً إصطلاحياً أو عرفياً وكذلك لا يصف الجنائية بالفنية كما وصفها ، إلا أن يكون ذلك تجديداً في « الجنائيات » ! .

والناقد الأدب ، لا يقول كما قلت : والسمو بالعواطف النبيلة ، فالعواطف النبيلة ليست في حاجة إلى ما يسمو بها .

والناقد الأدب ، لا يحيل « يفسد » كما أحلت ، إذ تقول : « ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط ، فيكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ، لأن جماله في تماسكه وتجانسه وفي جوهره ، أما أعراضه فليست حائلاً يمنع من تكلمة الصورة واستقلالها » ؛ فهذا كلام ييصق بعضه في وجه بعض ؛ واغفر لي هذا التعبير فإنه كلام ...

إلى غير ذلك مما يخرجنا استقصاؤه إلى الإملال ؛ ومما هو من عمل معلم الإنشاء ، لا من عمل مدرس الأدب .

* * *

ثم أما بعد ، فإن الأدب الذي يدرس في جميع المؤسسات الثقافية ، على اختلاف نظمها وطبقاتها ، نوعان :

١ — أدب وصفي ويسمى : النقد الأدبي ، كما يسمى : علم الأدب ؛ وموضوعه ، معرفة ما في النصوص الأدبية ثراً ونظماً ، من نواحي الجمال والقبح الفنيين . وفائدته ، فهم الأسرار البلاغية للقرآن الكريم للوصول إلى أصل من أصول الإعجاز ، لا ما قلت من أن : « القصد من هذه الدراسة ، تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الأدبي ، والسمو بالعواطف النبيلة ، بعد فهم هذه النصوص ، ليسهل الصب على قلبها والتوليد من معانيها والتشبث بجمال ألفاظها وتراكيبها ، فكل أولئك فوائد دنيا ، بالنسبة إلى الغاية العليا من النقد الأدبي ، يابني .

والأدب الوصفي هذا ، هو الذى استأثر بعناية العلماء والباحثين والنقاد قديماً وحديثاً ، واستبد بأفاق الدراسة الأدبية فى جميع العصور والمناهج ، مباشراً ، كما فى الوساطة والموازنة والعمدة ، وغيرها ، وغير مباشر كما فى كتب البلاغة . وما زال يدرس فى المعاهد العالية والعليا تحت عنوان النقد والنصوص ، وفى المدارس الثانوية تحت اسم : المحفوظات مرة ، والنصوص الأدبية مرة أخرى . وذلك أمر متعالم مشهور ؛ وليس كما قلت : « ان الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شيء فى دور التعليم » . ولا داعى أبداً أبداً ، لهذه العواطف التى يطفح بها قولك : « ولكن نفس الغيور على الأدب تتقطع حسرات عندما ينظر إلى طرق دراسة الأدب فى معاهدنا على اختلاف أنواعها . وان كل ذى حذب على تلك الآثار ليتلوى ألساً على مصير هذا الفن الرفيع ، حينما يتخيل الظلام الخيم « كذا كذا » على هذا الركن من التراث العربى » . وسَلِمَتْ نفسك للأدب — يا بنى — وصحتك بالدنيا !

* * *

٢ - تاريخ أدب : وموضوعه معرفة الأطوار التى تقلب فيها الأدب ، وخصائص كل طور ، منذ ظهور الأدب الفنى « الأدب الإنشائى الذى هو قسم الأدب الوصفى ، إلى اليوم . والتاريخ مقدمة له ووسيلة إليه لا شطر من موضوعه . ولقد ظلت الدراسات الأدبية منذ ظهورها ، مقصورة على النوع الأول « الأدب الوصفى » ، حتى سنة ١٨٩٢ ، حينما عاد المغفوه له المرحوم حسن توفيق العبدل ، من بعثة إلى ألمانيا ، يحمل - فيما يحمل - مبادئ علم « تاريخ الأدب » ، وأخذ يدرسه فى مدرسة « المعلمين العليا » وجعل ذلك العلم ، يدرج فى مدارج الاكتمال والنضج ، وتشيع دراسته فى المعاهد الشرقية ، حتى وصل إلى التأصل والمقام الكريم الذى يتبوؤه اليوم من دراسة علم الأدب .

وقد تجلى تجلياً يقطع كل جدال ، أثر تاريخ الأدب ، فى فهم النصوص الأدبية ، منشورها ومنظومها ، فهما يجلى جماها الفنى مسفراً وضاحاً ؛ فى أكمل مظهر ، وأجمل رواء ، لا يكاد يخفى ، إلا على أكمة لا يعرف القمر !
يقول الدكتور طه حسين فى « الأدب الجاهلى » :

« فهل تزعم أنك تستطيع أن تفهم همزية أبي نواس : دع عنك لومى فإن اللوم إغراء... دون أن تعرف النظام خاصة ، والمعتزلة عامة ، وما كان لهم من مذهب وقوة أيام أبي نواس ؟ وكيف تستطيع أن تفهم قوله :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً ، وغابت عنك أشياء
إذا لم تعرف أنه يريد النظام ؟ فإذا عرفت أنه يريد النظام ، فأنت في حاجة إلى أن تعرف : من النظام ، ولم تعرض به أبو نواس ؟ فسترى أن النظام كان من المعتزلة الذين يقولون إن صاحب الكبيرة مخلد في النار ؛ وإذا كان شرب الخمر كبيرة فصاحبها مخلد في النار ؛ وإذا كنت في فلسفة النظام ، وأنت متعمق في فلسفة المعتزلة ، وأنت مضطر إلى ذلك اضطراراً ، مضطر إلى أن تدرس التوحيد واختلاف أهل السنة والمعتزلة فيه ، لتفهم خمرة من خمرات أبي نواس . اهـ .
وهل كان النقاد والعلماء ، منذ قال ابن هانئ الأندلسي في أواسط القرن الرابع يمدح المعز الفاطمي :

ما شئت ، لا ما شاءت الأقدار فاحكم ، فأنت الواحد القهار
يرون في ذلك غير أنه غلو غير مقبول ؟

ولكنك إذا عرفت ، أن المعز من الشيعة الإسماعيليين ، وأن من عقائد هذه الفرقة : أن الإمام قائم مقام الأمر والكلمة في هذا العالم ، فجميع صفات الباري واقعة عليه ؛ وأن الباري تعالى عندهم ، منزّه عن جميع النعوت والصفات ، كالتقادر والصانع ، ولا يطلقون عليه شيئاً منها ؛ فإن إطلاقها عليه يوجب الكثرة في ذاته تعالى ؛ فالصانع مثلاً ، يتمتضى صنعة ومصنوعاً ، وهكذا حال جميع الصفات ، تجدد الواحد منها ثلاثاً .

أقول إذا عرفت ذلك ، عرفت أن إطلاق «الواحد القهار» على المعز لدين الله ، موافق لأصول عقائدهم . وليس في ذلك الإطلاق شيء من الإسراف ولا من الغلو ؛ وأن رأى النقاد غلطة مزمنة ، لم يصححها إلا تاريخ الأدب .

على أن من المقررات المتعالمية المشهورة . أن الأدب ظل الحياة الاجتماعية ؛ فكيف يفهم هذا الظل على وجهه ، مقطوعاً عن دراسة هذه الحياة ؟!

وكان تاريخ الأدب لأول عهده بالظهور ، يدرس رأسياً : الخطابة في جميع

العصور ؛ ثم الكتابة في جميع العصور ؛ ثم الشعر بأغراضه المختلفة في جميع العصور ؛ وعلى هذا الوجه ، ألف المغفور له محمد أفندي دياب ، كتابه « تاريخ الأدب » الذي كان يدرس في المعاهد العليا في عهد « نظارة المعارف » ويعتبر الكتاب الرسمي ؛ ثم جاء المتأخرون من أدباء العصر الحاضر ؛ فدرسوه وألفوا فيه أفقياً ؛ ولكل وجهة ؛ والخطب في ذلك — في مذهبي أنا — أيسر من أن يخرق خرقاً في الأدب ، أو يشرح شرحاً في صرحه ، أو يهدم طوبة من بنائه . وحاجة كلنا الدراستين إلى معرفة أطوار الأدب ، وخصائص كل طور ، لا تتغير ، وليس فيها — كما قلت : « خلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية راقية » لأنه منهج طبقته جميع الأمم الحية ، ذوات اللغات الحية ، وعملت به ، وعنها تعلمناه !

وأما بعد للمرة الثالثة ، فأني أشكر لمجلة الأزهر ، تلطفها في معاملتك ، وسخاها في مجاملتك ، واحترامها لرأيك ، « لما رأيت فيه من وجوه تقدر قدرها كما قالت » . وعرضها له لتشتجر حوله الأقلام ، ثم وقوفها بأزاء ذلك على الحياد . ثم أشكر لك أن أتحت لي فرصة مكنتني من أن أضع الأمور في نصابها ، وأن أقدم لك ولأمثالك من أبنائنا الأعزة ، وضحا من النور ، أرجو أن يصرفكم عن ضلال القصد إلى سواء السبيل .

بيد أني أعتب عليك — يا ولدي الأستاذ أحمد محمد صقر — عتباً رقيقاً أبوياً ، لأنك تخطيت أساتذتك مدرسي الأدب في كليتك الكريمة ؛ وإنما شفاؤك من البلبلة الفكرية التي جناها عليك ضعف دراساتك الأدبية ، على طريقتهم ؛ لا على طريق مجلة الأزهر ، التي يشرف كل أزهرى ألا ينشر فيها إلا كل نافع مشرف ، وإن كان يخفف من خطئك هذا شدة الرغبة ، في الشهرة وأن لك نظراء بين كتابها ؛ فكثير من مقالاتها يحسن أن يتوجه به إلى مجلات « الوعظ والإشاد » لا إلى مجلة علمية بحتة ينبغي أن تقتصد على البحوث المركزة ، في المشكلات العويصة وليس ذلك عيب المجلة ، ولكنه فضيحة للناشرين .

وفتح الله عليك — يا ولدي — وسامحك ، إكراما لطموحك وغرورك ؛ فلقد أصبحت لا أحسد إلا المغرورين !
والسلا عليكم ورحمة الله وبركاته
« أبوك وصديقك »

عَهْدِي

لحضرة صاحب السيادة « السيد »

حيّ أهلاً بالهدى أو حيّني
مَنْ لِعَهْدٍ يَتَلْظِي فِطْنَةً
تُفْخِئُونَا ثُمَّ قَالُوا ضَلَّةٌ
غَنٌّ بِالْجَهْلِ إِنَّ الْجَهْلَ أَزْدَاهِي
سُنَّةُ الْعِلْمِ طَالِحٌ وَهُوَ

عَصْرٌ يَا عَصْرُ الْجَحَالَا مَرْجَباً
حَلَنِي بِالْعِلْمِ رَفَافَ الْحُلَى
مُهْجَنَةُ الْعِلْمِ دَوَاهِي مُلْحَدٍ
رَأَيْدُ الْعِلْمِ تَكْتُمُ الْمَهْيِ
نَحْنُ لِلْفِتْنَةِ نَهْبٌ شَدَّ مَا
الْوَعْيَ وَالْحَسَنَ فَتَانُ الْهُوَى
الْحَيَاةُ الطَّعْنُ حَتَّى حُسْنُهَا

قِيلَ : حَرْبٌ وَجَلَادٌ وَالْهَدَى
إِنَّ فِي رَأْسِ التَّحْدِي فَتْكَةً
صَاحَ فِي الْأَفْلَاكِ مَلَقَى ذَرَّةً
قَاتِلِي فِي حَرْبِهِ أَوْ حُسْنِهِ

رُوِّعَتْ حُرِّيَةُ السَّرْبِ وَمَا
سَلَّ بِحُكْمٍ طَيْفٍ تَشْهَدُ سَيِّدًا
قَاتِلَ الشُّورَى دَهْتَهُ وَثَنَسَا
بُورِكَ الدُّسْتُورُ فِي أَنْصَارِهِ

قِيَمَةُ الْأَصْلَاحِ إِنَّ لَمْ يَأْمَنْ
يَقْتَنِي التَّمَانُونَ فِيمَا يَقْتَنِي
يُتَقَى أَوْ سَاجِدًا لِلْوَثَنِ
جُنَّةُ الْحَسَنِ وَجُنْدُ الْحَسَنِ

لغويات

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد علي النجار

كتبت إليك لا لألومك . حضرت إليك لا لألومك بل لأشكرك . ما قرأت
لا فقها ولا نحواً . هذه أساليب تجرى على ألسنة الناس ، وفي كتاباتهم ، وقد عن
لى أن أبحث أمرها من وجهة النحو والعربية .

١ — فالأسلوب الأول — كتبت إليك لا لألومك — يميزه النحاة
ويسوغونه ، ولا يضيقون بتخريجه ، ويجعلون هذا من حذف المعطوف عليه ،
والتقدير في هذا المثال : كتبت إليك لأشكرك لا لألومك ، فلا عاطفة كما ترى
والمعطوف عليه المحذوف هو المقابل للمذكور المضاد له ، ومن ثم جاءت
لا غير مكررة .

وأقدم من عرض لهذا الأسلوب وتخريجه من النحاة — فيما علمت — الإمام
أبو حيان المتوفى سنة ٧٤٥ ، فقد قال في الارتشاف في مبحث العطف بلا : « وقد
يجوز حذف المعطوف عليه بلا ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم ، أى لتعدل لا لتظلم » ،
وتبعه في هذا تلميذه الحسن بن قاسم المرادى المعروف بابن أم قاسم شرحه للألفية
فقال في مبحث العطف : « قد يحذف المعطوف عليه بلا ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم
أى لتعدل » ، وقد جرى على سنن المرادى — وكانت وفاته سنة ٧٤٩ — أبو الحسن
الأشمونى في شرحه للألفية ، وقد أثر عن الأشمونى أنه يتقيل المرادى في شرحه ،
حتى إن تنبيهاته ونظامها أخذها عن المرادى ، وتناقل الرواية عنه أنه قال : لولا
المرادى ما بلغت مرادى . أقول إن الأشمونى ذكر هذا الحكم الذى أورده المرادى
ومن عرض له بعد أبى حيان السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فقال في السهم^(١) : « وقد
يحذف متبوعها ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم أى لتعدل لا لتظلم » .

[١] الورقة ٣٠٨ ب من مخطوطة دار الكتب رقم ١١٠٦ نحو . [٢] ص ١٣٧ ج ٢ .

ولا أعلم سند أبي حيان في هذا الحكم . فهل له فية إمام متبوع نقله عنه ؟ وقد كان أبو حيان واسع الاطلاع جداً ، اجتمع لديه من آراء النحاة ما لم يجتمع لغيره أم وقف في هذا على شاهد اتخذه حجة وسلطاناً ! وأيا ما كان الأمر فأبو حيان ثقة في النحو وإمام ، وهو فيه الفحل لا يقرع أنفه ، وبحسبنا هذا في تصحيح الأسلوب الأول .

٢ - والأسلوب الثاني - كتبت إليك لا لآلومك بل لأشكرك - أشهر وأفشى في الاستعمال من الأول ، وتراه كثيراً في عبارات المؤلفين ، حتى من يتحرى منهم الصحة ، ومن يأخذ من الفصاحة بسبب وثيق . فهذا الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ - وهو من هو بلاغة وفصاحة دياجة - يقول في أسرار^(١) البلاغة : « وإذ قد عرفت هذا فالحمل في الآية من هذا التبيل أيضاً ؛ لأنه تضمن الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل بل لأمرين آخرين : أحدهما تعديده إلى الأسفار ... فقوله لا لأمر ... يتعلق بقوله ، « يتضمن الشبه من اليهود » وترى أنه من الأسلوب الذي نتحدث عنه .

والقارئ يرى أن هذا الأسلوب يزيد على الأسلوب الأول الذي قررت صحته الإضراب (بل لأشكرك) وقد يؤتى بدله بالاستدراك فيقال : ولكن لأشكرك فهل هذه الزيادة تضر به ، وتقلبه مردوداً . منكرآ ؟

وإذا تأمل المرء بعض تأمل رأى أن ما في حيز الإضراب أو الاستدراك كان هو المعطوف عليه في الأسلوب الأول ، وهنا يدرك لأول وهلة ما في هذا الأسلوب من حرج وعسر في التخريج .

فكيف تقدر المعطوف عليه في هذا الأسلوب وقد ذكرته في عجزه ! كان تقدير الكلام والنية به : جئتك لأشكرك لا لآلومك ، فهل تقول : جئتك لأشكرك لا لآلومك بل لأشكرك ولكن لأشكرك ، وهل هذا إلا هراء من القول ولغو أشبه بهزيان المحموم .

إن الذي يبدو بعد هذا نبذ الأسلوب وأطراحه وهجره هجراً طويلاً .

على أن الباحث قد يبدو له في تخريجه ما يجعل له نصيباً من الصحة وقسطاً من القبول .

فقد تستطيع أن تقدر المعطوف عليه أمراً عاماً غير مافي حيز الإضراب أو الاستدراك . فتقول مثلاً في قولك : كتبت إليك لآلؤمك بل لأشكرك : كتبت إليك لأمر تحمده لآلؤمك بل لأشكرك . وقوله : بل لأشكرك إبانة عن هذا الأمر المحمود وإيضاح له .

وتستطيع أن تقدر المتبوع هو « لأشكرك » الذي هو في حيز الإضراب ، على نسق ما قدر في الأسلوب الأول . وهذا المتبوع إنما ينوي في النفس ولا ينطق به ، حتى لا يكون في النظم ضعف وتهافت . وربّ شيء يقدر ولا يخرج في اللفظ ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » فكتاب معمول لمحذوف ، وتقدير الكلام : كتب الله . فهذا تقدير العامل ، ولو قلت : كتب الله كتاب الله لوقعت في سخيّف من الكلام ومهلل من النسج ، وإنما هذا تقدير توجه الصناعة النحوية ولا يتكلم به .

وبما أسلفت من تخريج هذا الأسلوب — على ما فيه من الإبعاد والتكلف — ترى أن لا بأس بهذا الأسلوب ، مع الوصية بأن يتجنب ويهجر .

وترأى التزمت في هذين التخريجين أن تكون لا عاطفة . وذلك أنها لو لم تكن عاطفة لوجب تكرارها . ولا يجوز مخالفة ذلك إلا في ضرورة الشعر كما في قول الشاعر :

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة ولكن بأنواع الخدائع والمسكر
وثم مانع آخر ، وهو أن لاغير العاطفة وغير العاملة لا تدخل إلا على نعت أو خبر أو حال أو معرفة . وسيأتى مزيد بحث لهذا في الحديث عن الأسلوب الثالث .
٣ — والأسلوب الثالث — ما قرأت فقها ولا نحواً . ومثله : فلان لا ينفع لا في حقير ولا في جليل — أسلوب غير مرضى ولا مستساغ . وإنما الفصحح أن يقال : ما قرأت فقها ولا نحواً ، وفلان لا ينفع في حقير ولا في جليل . وذلك أن لا هذه إنما هي لتأكيد التثني ، ولا حاجة للتأكيد لقرب العهد بما النافية . وإنما تدخل لا هذه المؤكدة للتثني على المعطوف إذ كان في حكم جملة ثانية ، على أن لا تتراد

في العطف لمعنى زائد على التوكيد، وهو النص على أن النني تناول كلا من المتعاطفين ولم ينصب على اجتماعهما ، فإذا قلت : ما أكلت لحما وسمكا جاز أن يكون قصدك الى أنك لم تجمع بين هذين وإن أكلت أحدهما ، فأما إذا قلت : ما أكلت لحما ولا سمكا فقد نفيت أن تكون عرضت بالأكل لواحد منهما .

ولا هذه لا يصلح أن تكون عاطفة ؛ فإن لا العاطفة لا تدخل في النني ، وتدخل في مواطن أخرى ذكرها ابن مالك في قوله :

... .. ولا نداء أو أمرا أو إثباتا تلا

وإذا ثبت لديك ووقر في صدرك ما ذكرته ، فإن لا هذه هي التي يجب تكرارها .

وينص النحويون على أنها تدخل في غير التعريف على ثلاثة : الخبر والنعته والحال . ويقول ابن مالك في الكافية :

ولازم في سعة تكرير لا إذا بذى التعريف محضا وصلا
كذا إذا يتلوه نعت أو خبر أو حال إلا في اضطرار من شَعَر

وقال في شرحها ^(١) : « ومثال لزوم التكرار لكون المتصل بلا خبراً ونعتاً وحالا : لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، ويوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، وجاء زيد لا خائفاً ولا أسفاً » .

وترى أنه حصر ما تدخل عليه ، لا غير العاطفة وغير العاملة في الخبر والنعته والحال والمعرفة . وقد يرد على هذا الحصر ما أنشده أبو زيد في نوادره ^(٢) من قول الراجز : فقام لأوان ولا رث القووى .

وقد يدفع هذا بأن ما في الرجز على تقدير حذف الموصوف ، أى فقام رجل لأوان ولا رث القوى ، فهو مما دخل فيه لا على النعت .

وروى الجهشيارى في كتاب ^(٣) الوزراء لابن المقفع :

إذا ما مات مثلى مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير

فكيف نمدّر الموصوف هنا ؟ هل يقال : ليس يدرى الإنسان ؟ إن المتبادر في مثل هذا أن يقال : لا يدرى أحد ، وحيث لا يكون « الصغير والكبير » ، وصفين له لاختلافهما بالتعريف والتكثير . والأقرب أن يحمل هذا على الخطأ ، وابن المقفع قد يقع في الخطأ ، وليس هو ممن يحتاج به .

وأعود إلى ما كنت بصده . وهو : ما قرأت لا فقهاً ولا نحواً ، فتمد رأيت أن لا التي يحب تسكريرها ، دخلت على ما لم يذكر النجاة دخولها عليه ، فليس منها المفعول والظرف . فالوجه الحكم فيه بالخطأ وإنكاره .

وقد وقع في هذا الأسلوب ابن الرومي إذ يقول ^(١) في معلم صبيان مغن :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جاب الطنبور محتفلاً ضرب بمصر وصوت في خراسان

فتراه أدخل لا غير العاطفة وغير العاملة على غير الأنواع الأربعة . وعندى أن ابن الرومي أخطأ في هذا ، وهو متأخّر عن عصر الاحتجاج الذي ينتهى بشار كما قيل . وإنى في هذا أخالف الأستاذ العقّاد في الحكم على ابن الرومي فهو يجعله بمفازة من الخطأ ، ويقول ^(٢) : « أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربيّة ولا سيّما في القرآن » . ويقول : « فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوى ؛ وإلا لظهر منه ذلك في مواضع شتى ، مع إطالته ولم كثاره وجراته على تذليل النحو لمن أراد » . ولا يعجبني في هذا المقام استدلال الأستاذ العقّاد على سلامة ابن الرومي من اللحن بأنه جرى على منع « أشياء » الصرف كما وردت في الكتاب الكريم ، ولم يتبع في ذلك التماسيين من النحاة الذين يرون أن وزنها أفعال فهي مصروفة عندهم . وذلك أن أشياء لا يتمول نحوى - فيما علمت - بصرفها ، وليسوا كلهم على أن وزنها أفعال : فجمهور البصريين أوزنها لفعاء . فجرى فيها القلب ، ومن يقول : إن وزنها أفعال يتمول إنها منعت الصرف على توهم أن أشياء كحمراء في الوزن ، والوهم يعمل كثيراً في اللسان كما قيل : تمندل وتمدرع ، وكما جمع مسيل على أمسلة على توهم إصالة الميم .

[١] أنظر كتاب « ابن الرومي » للأستاذ العقّاد ص ١٣٠ .

[٢] أنظر كتابه عن ابن الرومي ص ٣٢٢ وما بعدها .

أسباب العزة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ بالأزهر

قال الله تعالى في محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » .

في تعاليم هذا الكتاب العزيز ، وفي قوة بيانه ، وبالعجوة حجته ، وسلامة منطقته ، تبين آيات من الهدى ، وتفتح جنات من الخير ، وتُدَوَّى هوائفُ بالحق ، معلنةً إشرافه ، مُجَسِّمَةً آفاقه ، ناطمةً بالحكمة وفصل الخطاب .

ينادى هذا القرآن العزيز طلاب العزة ، فيصرهم بأسبابها ، ويسايرهم في نواحيها ، ويضع على منافذ عقولهم وقلوبهم مناور الهدى والرشاد .

من كان يريد العزة في الدنيا ، ومن كان يريد العزة في الآخرة ، ومن كان يريد العزة في الدنيا والآخرة جميعا ، فليطلبها عند الله ، فهو — وحده — صاحبها ، ومالكها ، وواهبها :

فأما عزة الدنيا ، من نباهة ذكر ، ووجاهة شأن ، ورجاحة رأى ، واجتماع الكلمة على حبه وحمده ، فمُشْأ كل ذلك ومرده ، جمال الصلة بالله ، وجلال الطاعة في تقواه .

فالعبادات كلها ، سرها وجهرها ، بدنية ، أو مالية ، أو بدنية ومالية ، أسباب تتوكد وتوثق ، لتتمكن للعابد ، وتمكن للطيع ، في عزة يتسع أفقها ، وتسمو غايتها .

فمقيم الصلاة عزيز : لأنه يطرح وراء ظهره عوامل الافتتان ومظاهر الاغراء ويستقبل بوجهه روحانية عالية ، يوجه إليها شعوره ووجدانه ، فما يكاد ينطق

لسانه : الله أكبر ، حتى يدخل في هذه الخطيرة القدسية إلى كنف هذا العلي الكبير ، ويحتفى في جلال هذا القوى العزيز ، وينعم بالتقرب من هذه العزة الغالبة التي تتغشا وتولاه ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا قام أحدكم إلى صلاته فإنما يناجى ربه فلينظر بهم يناجيه » ؟ ويقول : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، فما يكاد العبد يفرغ من صلاته حتى يكسب عزة من عزة الله ، وحتى يبلغ جلالة من جلال الله . أما المنفق في سبيل الله — زكاة أو صدقة — فإنه لسلك ذلك عزيز ، لأنه يقوم عن الله خليفة في طعمة المحروم ، ووصلة المقطوع ، وغوثه الملهوف ، والله عز شأنه يقول : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

وعزیز لأنه يقرض الله قرضاً حسناً . فهو يتعامل مع ربه ، ومعاملة العزيز عزة . وعزیز لأن يده العليا قد أعزها الله بالغنى ، ولأن اجماع الناس على حبه وحمده والدعاء له اعزاز له من أجل فضل الله الذي واثم به ، فهو عزيز في نفسه ، وعزیز في قومه ، وعزیز عند ربه .

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها ، كفور أم شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

والصائم عزيز في ترفعه عن الاستجابة لحاجة نفسه من طعام وشراب ، وعن الخضوع لمآثم الهوى ومآرب الشهوات ، فهو قد كف نفسه عن كل ما يفسد صومه ، وهو قد تسامى إلى مصاف الملائكة الذين لا يطعمون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

كذلك من يحج بيت الله ، ويغد ضيفاً على رسول الله ، ويبر حجه وزيارته بإخلاص التلبية ، وطهرة التزكية ، فيطوف بالبيت منياً تائباً ، ويشهد المناسك في غير تأثم ولا عصيان . . فهو العزيز بضيافة الله وتكريم الله ، روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وأما عزة الآخرة فهو ما ينتظر هؤلاء الأكرمين ، يوم يقوم الأشهاد :
فى إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ،

سمو ونفاز يديه به عملهم وأملهم : هاؤم اقرأوا كتابية ، إني ظننت أنى ملاق حسابية ، سبق^١ إلى متعة النعيم الخالد فى دار أعدھا الله لهم ، وتلقاھم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون . ثم تحييمهم أطيّب تحية بالأمان والسلام ، قال تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ثم ماذا لهؤلاء الأعزّة الأكرمين ؟ ثم نداء الله لهم يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أضط عليكم بعده أبداً . . . يا لله ؟ أى عزة أسمى ، وأى كرامة أوفى ، وأى جلال أعظم من هذه السعادات المتعاقبات المتناسكات ؟ ؟

ألا تكون العزة لمن يطلبها من الله بعزة النفس المترفعة عن الدنس والنقص ، وبعزة العمل الصالح الخالص مما يشبهه ويشينه ، ألا يكون طلب العزة هذا قريب الاستجابة كريم المنال ؟ ؟

أى والله ، إن العزة لله جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وأى كلم أطيّب من كلمة الإسلام ، وشهادة التوحيد ، تتعطر بها الألسنة ، وتصدقها القلوب ، وتذعن لها الجوارح ؟

وأى عمل أصلح من عبادة يسمو بها الناس ، وخلق يسعد به الناس .

يا معشر المسلمين . .

يهتف بكم كتاب الله : أن اطلبوا العزة من العزيز ، بصدق العقيدة ، وصالح العمل ، ويناديكم حديث رسول الله « إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز » .

وصدق الله العظيم من قائل « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

وبعد : فالمستعان هو الله ، أن يكتب للمسلمين العزة ، وأن يمكن لهم فى دينهم ، وفى ديارهم وأن يجمع كلمتهم على الخلق الكامل ، والعمل المبرور إنه أكرم مسئول

البناب وكيف نعده

لفضيد الأستاذ الشيخ أبو الوفا المرافي

مدير المكتبة الأزهرية

شباب اليوم رجال الغد وقادة الأمة وأولو الرأي فيها ويدهم مقاليد سياستها وبمقدار توفيق الأمة في اعداد شبابها يكون مستقبلها ودرجة النهوض فيها .

وقد مضى زمن كان من وسائل اعداد الشباب أنه يحسن القراءة والكتابة بل كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة ، أما في هذا العصر فقد تشعبت الوسائل تبعاً لتنوع فروع العلم والمعرفة وتقدمها ، وأصبحت مراحل التعليم بأنواعها والشهادات بأنواعها لا تفي بتكوين الشباب تكويناً يعده لحمل رسالته بل لا بد له مع ذلك من دراسات شخصية عميقة يعتمد فيها على نفسه لا على مدرسه ومدرسته ولا بد له من اختبارات عملية للحوادث وللأشخاص ليستطيع أن يزاحم في الحياة على بصيرة بأحوالها وخبرة بشؤونها :

حياة الورى حرب وأنت تريدها سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تطاحنا وكدحاً ولو أن البقاء يسير

ولا بد للشباب مع ذلك الاعداد العلى من تسليح ديني وخلقى يقيه السوء في عميدته ونفسه ويصونه من مصارع الهوى ومواطن الغواية ويجعله ذا شخصية متماسكة قادرة على تحمل الشدائد وتذليل الصعاب وعلى قول الحق والجهر به ووزن ما يعرض عليه من مذاهب وآراء ليعرف وجه الخير فيها لنفسه وأمة فيقبلها أو يرفضها عن معرفة واقتناع .

لا بد للشباب من ذلك كله ليكون ركناً قوياً في كيان أمة وقدوة يقتدى به لا إمعة يستجيب لكل ناعق وتتجاهبه التيارات هنا وهناك .

فمسئولية الشباب في هذا العصر ثقيلة مرهقة لا ينجح في حملها والاضطلاع بها إلا من وهب لها نفسه وجهده ووقته ، وأن من أهم العوامل في تكوين شخصية الشاب هو التدين ، فالدين وأساسه الإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره ، والاعتماد في الشدائد عليه ، يجعل منه رجلاً مطمئن القلب ساكن النفس ، يقبل على عمله في ثقة ويعتمد في نجاحه بعد إعداد الوسائل على معونة الله وتوفيقه ويرضى بنتيجته على أى حال ، والدين بعد ذلك يغرس فيه كثيراً من الفضائل الشخصية والاجتماعية التي تجعل منه مواطناً صالحاً يساهم في بناء أمته وانهاضها ويدفع بها إلى منازل العز بين الأمم ، ويغرس في نفسه فضيلة الشجاعة والصدق والإخلاص والبر بالضعيف وإغاثة اللهياف ، والإيمان بالفكرة الصحيحة والدفاع عنها بكل عزيز ، كما يغرس في نفسه احترام حقوق الغير وأموالهم وأعراضهم .

وعلى حكمة الشيوخ وجهود الشباب تنهض الأمم وتنبج الدعوات ، ولقد لعب الشباب الإسلامى فتياه وفتياه ، دوراً هاماً في نجاح الدعوة الإسلامية ، وقاد كثير منهم الجيوش ، وفتحوا المدائن وساسوها بالعدل والإحسان ، فاجتمعت عليهم القلوب ورضيت عنهم الشعوب ، والمتصفح للتاريخ الإسلامى يتقف على أمثلة رائعة لجهاد الشباب وإيمانهم بفكرتهم ، واستعدادهم للام في سبيل نجاحها .

وحسبنا أن نورد في هذا الصدد مثلين ليسكون فيهما لشبابنا ذكرى وقوة :

١ — لما عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة وعلمت قريش بعزمه انفتحت على قتله ليلة الهجرة فأمر علياً رضى الله عنه أنه ينام في فراشه بدلاً منه ليخادع قريشا عنه فتميل على وهو يعلم أن القتل قاب قوسين منه ، ولكنه قبل ذلك بنفس راضية مطمئنة فنجى النبي صلى الله عليه وسلم ونجحت الدعوة .

٢ — اسلمت فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام أخيها عمر رضى الله عنهما وهى دون العشرين ، وكانت تكتم إسلامها منه لشدة فلبا علم بذلك دخل عليها ، وقال : بلغنى عنك أنك صبات « خرجت عن دينك » ثم ضربها ووثب على زوجها فضرب به الأرض وجلس على صدره فجاءت تمنعه منه فشج وجهها وسال دمها فلما رأت الدم بكت وقالت له : أنضربنى يا عدو الله على أن أوحى الله لقد

أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلاً فافعل وفكر عمر فيما فعل
وندم عليه وما زال به تفكيره حتى قاده إلى الإسلام وكان إسلامه عزاً للإسلام
وكان عمر كما روى عنه التاريخ .

هذان مثالان مما رواه التاريخ في جهود الشباب ونضاله وهما حسبتا
في هذا السبيل .

تلك هي بعض العوامل في تكوين الشباب أوصيهم بها ولا يفوتني أن أتهمهم
إلى ضرورة الأخذ ببعض النشاط الرياضي فهو من خير الوسائل في إعدادهم عقلياً
وخلقياً وجسدياً كما أنه ذو أهمية كبرى في حياتهم لأنه يشغل فراغهم ويصرفهم
عن مواطن اللهو ومواقف الخلاعة التي تسبب لهم كثيراً من العلل النفسية
والجسمية وتضع لهم العقبات في سبيل الحياة الكريمة .

أخو السوء

قال أيوب بن سليمان عن ابن القاسم قال : بينما سليمان بن داود عليهما السلام
تحمله الريح إذ مر بنسر واقع على قصر ، فقال له كم لك منذ وقعت هنا ؟ قال
سبعائة سنة . قال فمن بنى هذا القصر ؟ قال النسر لا أدري هكذا وجدته . ثم نظر سليمان
فإذا فيه كتاب منثور بأبيات من الشعر وهي :

خرجنا من قرى اصطرخ	إلى القصر فقلناه
فمن يسأل عن القصر	فبئياً وجدناه
فلا تصحب أخا السوء	وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى	حكماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء	إذا ما المرء ماشاه
وفى الناس من الناس	مما ليس وأشباه
وفى العين غنى للعي	ن أن تنطق أفواه

خداع الحياة

لمضيفة الاستاذ الشيخ ابراهيم على ابراهيم الخشب

المدرس بكلية الشريعة

ليس في استطاعة البليغ الماهر، والمصور المبدع، والأديب الأملحى، والسكران الصنع، مهما أوتي من قدرة على الإجابة، ودقة في التعبير، أن يحيط بوصف الحياة في خداعها الكاذب، وغرورها الخلاب، وسراها البراق، ونفاقها المكشوف، وتلونها المفضوح، بأحسن من قول القرآن فيها «كأء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح».. ونحن قد قرأنا للشعراء في هذا المعنى روائع السكم وجوامعها، ومررنا بأمثالهم فيها، وتشبهاتهم لها، مرور الذي يسببه السحر، ويأخذ بهر، ويملك عليه حسنه الجمال الفاتن، ورددنا ذلك كله ترديد الإكبار والإعجاب، ولكنه لم يبلغ مبلغ الآية في طنطنتها ودويها، وجلجلتها وهول تصويرها، فإنها لا تكتفى بذكر الماء يخالط الأرض فيوقظ فيها النبت الى النماء والخضرة والازدهار والترعرع والإثمار والقطاف والحصاد دون أن تجعل ذلك رواية تمثيلية يقبل عليها المتفرجون بشغف وشوق ثم ينتهون الى إسدال الستار على نهاية لازمة، ومصير محتوم... وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم يتركنا لأحلام اليقظة تلعب بعقولنا، وتعبث بأفئدتنا، وتصرف خيالنا — الواهم — كما تشاء. بل أقام لنا من عالم الإدراك ألف دليل ودليل على أنها وشيكة الزوال، سريعة الانتهاء، مطلية بالغرور، محفوفة بالباطل، مملوءة بالحن، موسومة بالدنيا، لا نزال كلما أمكثتنا الفرصة من الترامى على اعتبارها، والتهافت على أبوابها، والتعلق بأذيالها، والتكالب عليها، والتفاني في حطامها الفاني ونرتسكب في سبيل الوصول الى أهدافنا أشنع الأساليب، حتى إذا ما أخلدنا

الى خلوتنا ، واطقطعنا الى رويتنا ، ونغمنا بيننا وبين خلجات نفوسنا « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا » لم يلبث ذلك الاتعاظ أن يتبخر في الهواء ثم يتصاعد من رؤوسنا الى طبقات أخرى من السماء .

ومن الغريب أن هذا المقدار من الإيمان يستوى فيه المؤمنون والجاحدون ، ويدعن بصدقه العالم والجاهل ، ولا يشك في حقيقته كبير ولا صغير ، وإذا كانت وسائل الإيمان تختلف ، فإننا جميعنا ننتهى إلى نهاية من المعرفة كان من شأنها أن تجعلنا لا ننظر إليها إلا بالمنظار « الأسود » فلا نطلبها إلا على قدر ما تمس إليه الحاجة القصوى ، وتمتضيه الضرورة الملحة .

وليس هنالك من ينكر أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا من الطباع والغرائز ما يحملنا على تنازع البقاء ، وحب التملك والسلطان ، والسيطرة والسيادة ، ولكن هذه كلها إنما تدفع إلى نشدان « المنزل الأعلى » بحيث لا يذل الفرد للفرد ، ولا يخضع الإنسان لأخيه الإنسان خضوع الاستكانة ، وينقاد له انقياد العبودية التي هي لله وحده لا شريك له .

وفي الكتاب الكريم ما يدل على أن الله سخر الكون لبني آدم يستخدمونه لمصلحتهم ، ويصرفونه في منافعهم ، ورسالة الواحد منا في هذا الصخب لا تتجاوز الإصلاح الذي يعود عليه وعلى الناس في حدود العمران والنهوض ، والتقدم والرقى ، ونرى الدين الإسلامى - ولعل الأديان الأخرى كانت هكذا - يكبح ما عساه أن يكون من طغيان الغرائز ، وطيش المطامع ، وثورة الشهوات ، فيأمرنا بالتقوى والورع ، والقناعة والزهد ، والإحسان والإيثار ، والتآلف والمحبة ، لتتطفىء فينا تلك الحدة التي تدفعنا إلى الاقتتان بهذا الزخرف الكاذب ، والمتاع الخادع ، والظلال السريعة الانتقال ، فنكف عن الشرور والآثام ، والتكالب والطمع ، بما تثيره الأفراد والجماعات ، من خصومات ظلمة ، وحروب غاشمة ، جعلت هذه « الحياة » مسرحاً من مسارح الجحيم ، تمثل عليه فصول العدوان ، ومناظر الدمار ، وأشباه الخراب والهلاك ، وصارهم القوى أن تتنافس في جعلها « جهنم الحراء » لا أكثر ولا أقل .

ولم تضق الحياة بنا ولكن زحام السوء ضيقها مجالا
ولم تقتل براحتها بنفها ولكن ساقوا الموت اقتالا

وربما قال قائل هذه سنة الله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » والدول في تصارعها ، ووقوفها على هذه الشاكلة ، لصد التيار ، وكبح الظلم ، ورد المطامع ، هو الذى يحفظ التوازن ، ونحن مع تسليمنا بأن الآلة تهدف إلى سنة من سنن الكون ، وأسلوب من أساليب العمران ، لا نعتقد أن الحال القائمة الآن يدفع إليها الرغبة فى الإصلاح ، والميل إلى العمران ، والحب فى الخير ، والجنوح للسلم ، بل هى حال أشبه بمصارعة النيران ، ومهارشة الديكة ، وسعار الكلاب ، وكنا نظن أن الأمم الكبرى مدفوعة إلى ذلك كله بياعث التوسع فى السلطان ، والاستزادة من السيادة ، والبحث عن أسواق عالمية لتصريف محصولاتها الصناعية أو الزراعية . ولو صدق ذلك لقلنا ما يقول المثل العربى : « حر انتصف لنفسه » والتسنا العذر لقوم تحملهم غرائز الأحياء أن يطلبوا حياة مثالية ، وينشدوا عيشاً رغيداً .

أما والدنيا تموج بتلك الشرور ، والعالم يعجُّ بهذا القلق ، كأن الميادين لا تزال تقذف بالنار ، يخر فيها ألوف الموتي ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقول إن الحلم قد طاشت ، والطباع قد فسدت ، والغرائز قد انتكست ، والنهاية قد آذنت بزوال وأن الرواية موشكة أن تتم فصولها . . . ونحن الذين ورثنا الكتاب والسنة ، ودرسنا الآيات والسور ، قد يبدو لنا فى بعض الأحايين أن نقول عن أصحاب هذا « الصراع » ، إنهم لم يجدوا من الوازع الدينى ما يستلهمونه الهداية ، ويرجون منه الصراط المستقيم ، وليس بعد الكفر إلا الضلال ، فما الذى نقوله لأنفسنا فى تفكك جماعتنا ، وتفرق كلمتنا ، وتوزع وحدتنا ، وهى قوتنا . . وفى الوقت الذى يأمرنا ديننا أن نعلو إرادتنا ، ويسود سلطاننا ، ويعز جانبنا ، وتكون المقادة بأيدينا ، تفرقنا أيادى سبأ ، ثم لم نكتف بأننا سوقة تَنَصَّف - كما يقول الشاعر - حتى أصبحنا لا يلوى الفرد منا على غير هواه يمتوده ، وطمعه يتولى زمامه ، وشهوته تدفعه ، ثم لا ينظر فى ذلك إلا لإشباع نهمه ، دون نظر إلى حلال وحرام ، وشرف وخسه ، وسمو وإسفاف . . وما كان هذا كله إلا لأنها فتنة العيش ،

وسراب الدنيا ، وخداع الحياة ، وزائف المجد ، وباطل الآمال ، وكاذب الأمانى . وفى كل يوم يسوق الموت لنا من الأنباء والنذر ما يصح معه أن نتعظ أو نفيق ، ونعتبر أو نصحو ، ويدهمنا القطار ، أو تصدمنا السيارة ، ولا يكون بيننا وبين أن نلفظ النفس الأخير ، إلا أن تدركنا رحمة اللطيف الخبير ، وهنالك وفى تلك اللحظات الخاطفة تتصور قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » ، غير أننا لا نلبث أن نعود أشبه بالمخمور الذى يقول « وداونى بالتي كانت هى الداء » وصدق الله العظيم : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى مسه » . . . فاللهم ألهمنا الرشد ، وارزقنا الإفاقة ، ولا تكلنا إلى سيئات أعمالنا ، وشرور أنفسنا ، واجعلنا لا ننظر إلى الحياة إلا لمنظارها .

الصديق

قال حكيم : الإخاء جوهرة رقيقة وهى ما لم ترقها وتحرسها معرضة للآفات ، فَرَضَ الأبى بالحُداء له حتى تصل إلى قربهِ ، وبالسكظم حتى يعتذر إليك من ظلمك ، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك بالفضل ، ولا من أخيك بالتقصير .

قال عبد الصمد بن المعدل :

من	لم يردك	ولم ترده	لم يستفدك	ولم تفده
قرب	صديقك	ما نأى	ورد	التقارب
وإذا	وهت	أركانهُ	ومن	أخى
				ثقة
				فسده

وقال أبى حازم :

إن ساءنى صاحبي	احتملت وإن	سر	فإنى أخوه	شاكره
أصغح عن ذنبه	وإن طلب العذ	ر	فإنى عليه	عاذره

مجدنا في ديننا

لفضيلة الشيخ محمود محمد

المدرس في كلية اللغة العربية

التدين فطرى في الإنسان ، والفطر السليمة تدعو العبد إلى الإخبات لمن تولى خلقه وتعهده بقاءه ، وما انحرفت تلك العقيدة عن وضعها إلا نتيجة صدام أصاب الفطر وعتامة رنت على القلوب فجعلت الأبصار قاصرة والبصائر حائرة وتغلب إلف المرء لحسه فاتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم ، وقد أقام الله الحجة على العباد فأرسل فيهم رسوله ليتم الإلزام ، وتمتطع الأعذار فلما نضجت الإنسانية بعد عمليات عنيفة في تطهيرها وتشذيبها ختم الله الرسالة بمحمد بن عبد الله ، وجعل دينه خالداً بما أودعه من تعاليم تكفل سعادة البشرية وتسمو بالحياة إلى ذروة ما يصبو له المصلحون .

لقد جاء الاسلام بمبادئ الإصلاح العام والأخوة الصادقة فدعا الناس جميعاً إلى الاجتماع بفنائه والانضواء تحت لوائه والوقوف عند حدوده والرمى بما وراء ذلك تحقيقاً لتوحيد الأمة في كيانه وتوحيدها في عقيدتها .

فإن ما جنته الإنسانية من صنوف العسف والغنى ألوانا كان نتيجة تفرق الكلمة ، وشق العصا وانقسام العرى وانقسام الجماعات .

وليس بدعاً أن نرى هذا الاختلاف بين الأمم المتباعدة في العقائد والمتباينة في الأهداف ، ولكن العجب العاجب أن تختلف أمة التوحيد بعد أن ربط الاسلام بين قلوبها ووجد بين شعوبها وأقام بها دولة الدنيا والآخرة في ظل كتاب « لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

لقد شع نور هذا الدين فاستقرت به النظم واستقامت عليه الطريقة ، ووضع به ميزان العدالة في الأرض ، وكان عجباً في كل نواحيه وهدياً في كل مراميه . فما من شاردة ولا واردة إلا ولها فيه حكم معلوم وطريق مرسوم .

تناول الأفراد والجماعات والأحرار والعبيد والرجال والنساء والأحر والأسود والعقيدة والسياسة والبيت والمدرسة والطريق والنادى فهو رابطة عامة بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان وخالقه ، وهو رابطة تهدف إلى السكّال في اسمي معانيه وأرفع مقاصده .

فما من غاية إصلاحية ولا فضيلة بشرية إلا ومصدرها منه ومرجعها إليه فهو رمز للوطن ورمز للعلم ورمز للسياسة ورمز للديمقراطية ورمز لغير ذلك من معان ابتكرها من فقهها وأشبت بها من سلبها ، وإذا كان من الأمم من أعوزته المبادئ السامية والنظم القويمة والأخلاق الفاضلة فأخذ يرنو ببصره إليها حتى أصاب منها ، وجعلها أساساً لحضارته ودعامة لمجده فإن من العجب أن تتخلي الأمة الإسلامية ذات المبادئ الرشيدة والأخلاق الفاضلة عن مقوماتها ومدعماتها حتى أصبحت مهدداً للغاصبين وغرضاً للبغرضين .

لم يبن الإسلام حضارته على مادة محضنة كما فعل الأوروبيون الحديثون ولا على روحانية محضنة كما فعل الأقدمون ، وإنما جعل أساس دولته يرتكز على الأمرين ، ويعتمد على السببين فكانت نهضته مادية روحية ، وكانت سيطرته إصلاحية دينية فهو دين ودولة وعلم وعمل ودنياً وآخره ، ولن يجد المسلم غناء في غيره مهما زينت له وساوسه وصورت له أو هامة .

وأمة اختصها الله بهذا الدين جدير بها أن تتخذ تعاليمه نبراساً تهتدى به في ظلمات الوجود وتسير عليه في شعاب الحياة ، فلا أضل ممن أطفأ مشعله في ليل بهم وهو يفتش عن ضالة مفشودة ورغبة مقصودة ، إن مروق كثير من الشبان ووقوعهم في غياهب الجهالة وظلمات الخيرة إنما هو نتيجة حتمية لهذا الانحلال الذي أصاب الدولة الإسلامية في صميمها وهو لا بد سائر بهم إلى التحلل من العقيدة الصحيحة وواصل بهم إلى الزيغ والإلحاد .

وليس هناك ما يدفع هذا البلاء ويرد هذا الطغيان إلا أن يتغلب سلطان الدين

على النفوس ولا سبيل إلى هذا التغلب إلا أن تتغلغل تعاليم الإسلام الصحيحة وتنتشر مبادئه بين الأفراد والجماعات فترى الفرد مسلماً والتاجر مسلماً والبيت مسلماً والمدرسة مسلمة والعامل مسلماً والأمة مسلمة والحكومة مسلمة .

عند ذلك يتبوأ الإسلام مكاتته ويأخذ وضعه ويعيش المسلم عيشة الأحياء الناطقة لا البهائم الهائمة .

إن كل نهضة إصلاحية لا تبنى على أساس من الدين والأخلاق لا يقر لها قرار ، ولا يستقيم لها وجود ، فيجب أن نعتمد في نهضتنا على ديننا وهو دين سلم وحرب وإيمان وعمل وصناعة وزراعة وحياة وموت وجنة ونار .

إن البيت المسلم يجب أن تظهر في جوانبه تعاليم الدين الحنيف فترى الأبناء صورة الإسلام ممثلة في آبائهم وأمهاتهم وذويهم وأن المدرسة الإسلامية يجب أن تدعم مناهجها بدراسة الدين فهو أجدر العلوم بالعتاية وأولاها بالرعاية ، فنه تكون الأخلاق ومن الأخلاق تكون الأمم .

ولنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن الفرد المسلم أيا كان طريقته في مسالك العيش ونظام الحياة يجب أن تظهر عليه دلائل الدين وعلامات الإيمان فترى من الزارع المسلم أن يكون مسلماً ومن الصانع المسلم أن يكون مسلماً ومن الخضم المسلم أن يكون مسلماً ومن القاضي أن يكون مسلماً فإن الإسلام جماع الفضائل وأساس العمران وهو وحده كفيل ببث الطمأنينة في النفوس وتهذيب القلوب ونشر ألوية السلام في ربوع الأرض فتمد عم التلق وشاع الفساد وكثرت المطامع واتسع الظلم وتبرم الحق .

وإن الحكومة الإسلامية يجب أن تبرهن للناس على صدق إيمانها فترى من نفسها مثلاً من أمثلة المسلمين الصادقين الذين ينشر الله بهم الدين ويرد بهم كيد الخائنين « وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ويرد بالسيف ما لا ترده العبرة .

وإن الأمل ليلاً جوانب ثقة بأن أمراء المسلمين وقادتهم قد اقتنعوا بضرورة رد الأمة إلى دينها حتى تملىء به القلوب ، فلا تفتتح لقبول الأفكار الهدامة ، والمبادئ الفتاة من كل ما عكر صفو الوجود وكدر الحياة في نظر العاملين .

ولقد خطت بعض الدول خطوات مباركة لتشجيع التعليم الديني وإحياء المدرسة الإسلامية من جديد ، وها هو ذا الأزهر العتيق ، ثمرة القرون ومعهد المسلمين ، ومعهد آمالهم ، يرسل بعوثة إلى مختلف البلاد الإسلامية ، ويفتح أبوابه لمن يفد إليه من أبناء المسلمين تحقيقاً لهذه الغاية النبيلة ، ورغبة في بث تعاليم الدين الخنيف مكن الله له حتى يؤدي رسالته ، ويبلغ دعوته ، فإن في عنقه الآن الدعوة إلى الله ونشر كتاب الله .

وإني أتمثل بالأثر الخالد متضرعاً متوجهاً لمن يملك النواصي فأقول :

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض .

وفق الله ولاية أمور المسلمين أن يشدوا أزره ، ويردوا عليه هيئته ويقوموا بنصره وتأيينه .

كرم

مدح ربعة الراقي يزيد بن حاتم الأزدي وهو والى مصر ، فاستبأه ربعة فرحل عن مصر وقال :

أراني ولا كفران لله راجعاً
بخفي حنين من نوال ابن حاتم
فبلغ قوله يزيد بن حاتم الأزدي ، فأرسل في طلبه فرد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنت التائل : (أراني ولا كفران لله راجعاً) ، قال نعم ، فقال له هل قلت غير هذا ؟ قال لا والله . قال لترجعن بخفي حنين مملوءة مالا . فأمر بخلع نعليه وملأه مالا . فقال فيه لما عزل عن مصر وولى بدله يزيد بن حاتم التميسي ، فقال ربعة من أبيات :

فشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
فهم الفتى الأزدي إنفاق ماله وهم الفتى التميسي جمع الدراهم

إعلام الأنبياء

الشيخ حسن قويدر الخليلي

المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ - ١٨٤٥ م

أفضيلة الأستاذ الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو « حسن » بن « علي قويدر » . كان مولده « بمصر » سنة ١٢٠٤ هـ ، وأصل أسرته من المغرب ، استوطن أحد أفرادها « الخليل » من بلاد فلسطين ، واشتهرت ذريته بالمغاربة ، ثم نزع منها إلى « مصر » والده « علي » في تجارة وأقام بها ووهب المترجم ، فلما بلغ أشده ألحقه بالأزهر لطلب العلم فيه ، فتلقى العلوم والآداب على كبار شيوخه وجملة أساتذته من أمثال الشاعر الناثر العالم « الشيخ حسن العطار » و « الشيخ إبراهيم الباجوري » ، فتخرج عليهم في اللغة وعلومها والآداب وفنونه ، ولا سيما الأول الذي كان من ابنه الأزهرين في الأدب شأنًا ، وأبعدهم في فنونه صيتًا ، وكان « لقويدر » رغبة فطرية في الأدب وهوى للغة وعلومها ، ومعرفة خفاياها ، واكتناه دقائقها ، فبرع في ذلك وجود ، وأنشأ الفصول ، ونظم الشعر وحرر الرسائل ، ودارت بينه وبين كتاب العصر محاورات ومراسلات ، وأمه الناشئون من عشاق الأدب والشعر فأفادوا منه ونشروا فضله .

ولم يعرف أن قويدرا شغل منصباً ، أو زاول عملاً حكومياً ، ويظهر أنه كان عزوفاً عن الوظائف وقيودها فلم يسع لها ، وربما وافته دون عناء لو انصرف لها ،

ولسكنه كان يتجر فيما أورثه والده من المال شركة مع بعض السوريين الذين كانوا يرسلون إليه بضاعة سورية ، ويرسل إليهم أخرى مصرية .

ولم تكن التجارة لتشغله عن العلم والأدب ، فنال منهما حظاً وافراً ، وأعطاهما فراغ وقته فصنف الكتب ، وشرح المؤلفات .

وكان رحمه الله جواداً سخياً يبذل كثيراً مما يفد إليه من ربح تجارته الوارفة الظلال ، كما كان عفيفاً أميناً يرعى الود ، ويصون لسانه عن الخوض فيما يؤذي الناس ، اللهم إلا إذا استفزه الدفاع عن نفسه ، فإن له إذ ذاك لشأناً كما فعل مع « عاقل أُنندي » في رسالة « الأغلال والسلاسل » .

وقد كانت وفاته في شهر رمضان سنة ١٢٦٢ هـ فرثاه الشعراء ، وبكاه الأدباء ومنهم تلميذه الشاعر المشهور « محمود صفوت الساعاتي » الذي زعموا أنه رأى « قويدر » في منامه قبل وفاته بثلاث ليال ميتاً فانتبه قائلاً : رحمة الله على حسن
١١٨ ١١٠ ٦٦ ٦٤٨

قويدر . فحسبُ جملها فكان تاريخاً لسنة وفاته ^(١) .

٣٢٠

والساعاتي هو الذي رثاه بقوله :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الأقلام باكية على القراطيس لما ناحت الخطب

ويقول فيه أيضاً :

قالوا قضى حسن المناقب فارثه فأجبتهم ومدامي تحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه أضحي لسانى فى فى يتعر

نثره :

نثر الشيخ حسن قويدر ، يجرى مجرى الصنعة ، ويبدو عليه أثر العمل والتكلف ويلتزم الجناس فلا يفلت منه ، وليس بعجيب أن يكون أدبه كذلك ، وأن يكون

طابعه الزخرف والطلاء ، وقد كان ذلك أدب العصر ، وطريقته الملتزمة ، على أنه تلميذ « للشيخ حسن العطار » ، وثمره من ثماره ، وكان « العطار » أستاذه ممن يلتزمون السجع في رسائلهم ، ويولعون بالصنعة في كتاباتهم ، وكتاب « إنشاء العطار » على ذلك شهيد .

ولكن « قويدر » رغم متابعتة للعصر ، ومسايرته لأستاذه ، غير معن في التعقيد ولا مفرط في الاستغلاق ، بل إن نثره أقرب — على قيوده وتكلفه — إلى الوضوح والرصانة .

نموذج من نثره :

ومن نثره ما قاله في خطبة شرحه لكتاب

« ومن شغنى بتلك العرائس الخواطر ، حملتى بواعث الخواطر ، على أن أكتب عليها شرحا وأبني على دعائها صرحا ، وأشد بنطاق البلاغة لها كشحا ، فوقفت على أقدامى ، متردداً في تأخرى وإقدامى ... وشددت نطاق العزم ، وتقلدت بصارم الحزم ، وقومت سنان يراعى ، وبسطت في حومة هذا الميدان باعى ، وانى لأرى التوفيق يتوم أمامى ، والعناية تقود زمامى » .

شعره :

شعر « قويدر » يميل إلى الزخرف والطلاء ، ولكنه يتفاوت قوة وضعفاً ، حسب إغراقه في التكلف ، أو لطفه في تناوله ، وكلما كان أكثر تعملاً كان أكثر تعقيداً ، وهو غير ملتزم طريقة واحدة ولا نهجا واحداً .

فمن شعره الذى يميل إلى السهولة ولا يفرق في المحسن والصنعة ما قاله ناصحا :

يا طالب النصح خذ منى محبرة	تلقى إليها على الرغم المقاليد
عروسة من نبات الفكر قد كسيت	ملاحة ولها فى الخد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة	طير له فى صميم القلب تغريد
احفظ لسانك من لغط ومن غلط	كل البلاء بهذا العضو مرصود

واحذر من الناس لا تركز إلى أحد فالخل في مثل هذا العصر مفقود
 واطن الناس في ذا الدهر قد فسدت فالشر طبع لهم والخير تمليد
 هذا زمان لقد سادت أراذله قلنا لهم هذه أيامكم (سودوا)
 ويقول في شرحه على منظومة «العتار» :

منظومة الفاضل العطار قد عبت منها التلويح برّيانكة عطره
 لو لم تكن روضة في النحو يانعة لما جنى الفكر منها هذه الثمرة
 في ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها والليل داج أرانا وجهه قره
 قالوا جواهر لفظ قلت لا عجب بحر البلاغة قد أهدى لنا درره
 فأنت ترى أن تخفيفه من المحسنات البديعية أكسبت شعره طلاوة ، ولم ينفر
 الذوق منه ، أو تنصرف النفس عنه .

ومما قاله وأسرف في الجناس فيه قوله :

فشمّر العنصر عن الساق وقد جرد سيفاً لرقابهم وقد
 وقال جمرى بكلامكم وقد أنا الذي أشبه أعطافاً وقد
 أحكمكم وتجهلون قدرى

(فقد) دارت كلمة (وقد) في هذه الأشرطة خمس مرات بالواو وبغيرها ،
 فكانت حرفاً مقروناً بالواو في الشطر الأول ، أما قوله « وقد » في الشطر الثاني
 فيحتمل أن يكون إسماً بمعنى النار واقعاً صفة « لسيفاً » أى سيفاً هو النار لرقابهم
 وأن يكون فعلاً بمعنى اتقد أى سيفاً اتقد ، وقوله بكلامكم « وقد » يحتمل أيضاً
 المعنيين أى جمرى نار ، أو اتقد وقوله في الشطر الرابع أشبه أعطافاً وقد ، جاءت
 فيه هذه الكلمة على معناها الحرفي مع الاقتران بالواو ، « وقد » الأخيرة ، جزء
 من قدر المضاف إلى ياء المتكلم .

فقد أرهق الشاعر نفسه وشعره بهذه الكلمة التي وضعها خمس مرات في خمسة
 أشرطة وضعاً مختلفاً فيه : تهافت عبث بالمعنى وعقده ، وتكلف ذهب بجمال
 الشعر وأفسده .

ولقويدر مزدوجات أفـتنَ في صياغتها ، وبرع في نظمها ، إلا أنها محتملة كثيراً من التكلف ، موسومة بالنزعة العلمية في غير موضع ومنها قوله :

رأيت بدراناً فوق غصن مائس يخطر في خضر من الملابس
ويسحر العقل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس
كأن ماء الحسن منه يجري

خاطرت لما أن رأيتَه خطر وحر فكري في بهاذك الحور
وقلت لا والله ما هذا بشر ومن بـشمس قاسه أو بقمر
فليس عندي بالقياس يدرى

وكلمة القياس هنا من مصطلح علم المنطق الذي تأثر الشاعر به :
فلفظه العذب لقلبي قوت كأنه الدر أو الياقوت
وسحره إلى النهى (مشبوت) يعجز عن مثاله هاروت
وهو الحلال من صنوف السحر

الحسن شيء ما له مثيل وكل وجه حازه جميل
والنفس دائماً له تميل وصاحب العز له ذليل
في قيد أسر نهيه والأمر

والنهي والأمر كلاهما من مصطلح علم النحو كما ترى ، وشعره متفرق لم يجمع في ديوان .

آثاره العلمية والأدبية :

للشيخ « حسن قويد » آثار لغوية قيمة ، ومؤلفات أدبية جلييلة ، غير أن كثيراً من هذه الثروة القيمة لا يزال مخطوطاً لم يطبع ، وكثيراً منها عبثت به الأيام فحرمت الانتفاع به الأفهام والأقلام .

ومن أهم هذه المؤلفات :

« نيل الأرب في مثلثات العرب »

وهو كتاب جليل جمع فيه المؤلف ما يثلث من الألفاظ العربية بالحركات ،
نظمه في أرجوزة حسنة السبك محكمة النظم ، يقول في مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن لكن له ظن بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من من بالعد لا تدخل تحت الحصر

وهي سهلة الحفظ واضحة غير معقدة ، وبها مشها فوائد قيمة ، فيها غنية لكل
أديب ، طبعت بمصر سنة ١٣٠٢ هـ وفي صدرها ترجمة للمؤلف بقلم الأستاذ محمد فني
(وترجمت هذه المثلثات إلى اللغة الإيطالية بقلم « فيتو » المستعرب وطبعت الترجمة
في بيروت ^(١)) ويقول في مقدمتها :

جمعت فيها الكلمات اللاتي تكون في الشكل مثلثات
أبدأ المفتوح ثم آتي بالضم لكن بعد ذكر الكسر
ثم يقول :

رتبتها كمعجم على الولا معتبراً للسباب حرفاً أولاً
بذا أنت غريبة في الوضع يعشقها كل رقيق الطبع
وعدد أبياتها ٢٢١ بيتاً .

ومن مؤلفاته شرح منظومة العطار : وهي منظومة نظمها في النحو أستاذه
الشيخ « حسن العطار » ، وشرحها هو شرحاً دقيقاً قيماً ، والمنظومة مشهورة
بتداولها أبناء الأزهري .

وله كتاب يسمى « زهر النبات في الإنشاء والمراسلات » غير مطبوع .

وشرح على مزدوجته البديعة غير مطبوع أيضاً ، ويقال إنه كان واقعاً في
مائة ونيف كراسة ذهبت به الأيام ^(٢) .

هذا عدا شعره المتفرق ، ومزدوجته المطبوعة المتداولة بين الأدباء .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية زيدان ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٢) أعيان البيان للسندوني ص ١٨٠ .

الفقه السياسي عند المسلمين

لنفضير الشيخ محمود فباض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

من المسلمات العامة. أن الإسلام جاء غير مماثل لما سبقه من الأديان السماوية التي فصلت بين أمور العقيدة والعبادة ، ومسائل الحكم وتدير المصالح الدنيوية لبنى الإنسان .

وإنما جاء الإسلام منظماً للسلوك العام للإنسانية في شتى نواحي نشاطها الحيوى ، فأصلحه للعقيدة في خالق الكون ، واختياره لنمط خاص في عبادة الله ، ورسمه لمنهج الخلق الحسن ، وتنظيمه للمعاملات الإنسانية العامة ، وسياسة الدنيا ، ومنهج الحكم ومبادئ العدل ، ومواجهة حاجات الاجتماع الإنسانى ، وغير ذلك مما عرض له الإسلام بالإنشاء أو التهذيب ، أخرونياً كان أو دنيوياً مادياً أو معنوياً ، كل هذه المقررات يتألف منها الإسلام ، وبعبارة أخرى . كل ما قرره الإسلام من مبادئ وتشريعات تتعلق بالعقيدة والعبادة . أو تتعلق بالخلق ومنهج التربية . أو تتعلق بالمعاملات العامة . أو تتعلق بالحكم وسياسة الدنيا ، أو تتعلق بما يلزم حياة المسلمين الاجتماعية أو (المدنية) . كل ما قرره الإسلام فى ذلك كله (من مبادئ وتشريعات) فهو دين لازم ، ليس للإنسان بضدده حق الاختيار فى الفعل أو الترك . لأنه دين يجب أن يؤدى كما أراده المشرع سبحانه .

ولا تستطيع أن تفرق — فى الإسلام — بين ما يمكن أن يسمى ديناً فقط أو سياسة فقط حتى يمكن الفصل بينهما ، ولهذا تجد علماء العقيدة (المتكلمين) يتحدثون عن الإله وصفاته ، كما يتحدثون على الخلافة والرياسة ، وقواعد الحكم ، وما يجب ، وما لا يجب ، أن يكون عليه الحكم . والحاكم ، والمحكوم ، وكذلك تجد

علماء الأصول يتحدثون عن مصادر الشريعة ، وأصول الأحكام ، ويتحدثون عن « الخلافة » والحكم ، وهل هى من الأصول أو من الفروع ، وإذا جئت إلى الفقهاء وجدتهم يتحدثون عن الطهارة والصلاة والحج ، أو البيوع والرهن والإجارة ، وإلى جانب ذلك تجد حديثهم أيضاً عن الحكم والقضاء والشهادة ، والسياسة الشرعية ومقتضياتها ، ثم يجرؤونك إلى الحديث عن تطبيق الأحكام على المسلمين وغيرهم ، ويفيضون الكلام عن العلاقات بين المسلمين أفراداً ودولة ، وغير ذلك من وهل الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، السلم أو الحرب ، وغير ذلك من مسائل العلاقات الدولية (مما يعرف اليوم بالقانون الدولى بقسمية) ، وإنك لواجد فى هذه البحوث القيمة من الجدة والطرافة والانسجام مع مقتضيات السلم والحرب ، ما لا تجده فى أبحاث المعاصرين من علماء السياسة والدستور .

وهكذا يستطيع كل راغب فى البحث التعرف إلى بحوث علماء المسلمين السياسية والدستورية فى غير كبير عسر ولا مشقة ، فسيجد آراء فقهاء الإسلام الدستوريين واضحة جلية ، إذا توجه إلى البحث عنها فى كتب الفقه أو الأصول ، أو الكلام ، وكثيراً جداً ما تجد كل هذه الآراء ملخصة عند مظانها فى كتب التفسير والحديث .

بعد هذا الذى قدمت ، قد يدهش القارىء الكريم إذا قلت له : إن كثيراً من المستشرقين المغرضين يقولون : إن الإسلام جاء خلواً من المبادئ السياسية والدستورية ، اللازمة لسعادة الناس وتنظيم حياتهم ، فى كل أمة متمدنة ، بدليل أن علماء الإسلام لم يشتغلوا بالبحث السياسى وليست لهم فيه مؤلفات سياسية ؛ ويجارى هؤلاء بعض المستغربين من أبناء المسلمين ، وهذه المقالة تطوى أمرين : الأول : أن علماء المسلمين لم يشتغلوا بالبحث الدستورى والسياسى . والثانى أن الإسلام ليست له مبادئ سياسية ودستورية ، وسنفرد هذه الكلمة للأمر الأول .

لو لم يكن لدينا — نحن المسلمين — سوى بحوث المتكلمين والفقهاء فى السياسة وهم شراح الإسلام ، لكان ذلك وحده كافياً فى الجزم بظلم هذه المتالة الظالم أهلها ، ولكن لدينا بحوث سياسية ودستورية كاملة مستقلة عن بحوث المتكلمين والأصوليين والفقهاء ، لدينا مؤلفات سياسية لها قيمتها وخطورتها فى توجيه

السياسة الداخلية للدولة ، والسياسة الدولية على وجه العموم ، وإلى التمارىء قائمة بهذه المؤلفات .

١ — مقدمة العلامة ابن خلدون . التى كتبها بين يدى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى التاريخ ، وهو باعتراف المنصفين من علماء الشرق والغرب أول باحث اجتماعى وضع أصول علم الاجتماع ، وأفاض فى بيان سياسة الإسلام العامة ، وقد أشار فيها إلى أن علماء المسابن فى العصر العباسى قد عرفوا كتاب « السياسة » لأفلاطون وأرسطو ، ومن النابت أن حنين بن اسحاق قد ترجم السياسة لأفلاطون إلى العربية ، ونقل من هذه الترجمة أحمد بن يوسف فصولا نشرها فى العصر الحديث رفيق بك العظم ، وسواء تأثر البحث السياسى لعلماء الإسلام ، أو لم يتأثر بهذه الترجمات ، فهذا دليل اشتغالهم بالبحث السياسى ، وقد تابعت مؤلفاتهم فيه بعد ذلك ، فظهر كتاب « السياسة » لمسطا بن لوقا بالعربية ، وقد تأثر فيه بفلسفة الإغريق ، وألف الصابى كتابا سماه « المتوج فى العدل والسياسة » .

٢ — ألف الفيلسوف الكبير « الكندى » اثنى عشر كتابا فى السياسة . منها : الرسالة الكبرى ، وسياسة العامة ، والكندى مغروف غير مجهول وآثاره معلومة للباحثين ، وإن كان بعضها قد ضاع .

٣ — ألف أحمد بن الطيب تليذ الكندى كتابين « السياسة الكبير » و « السياسة الصغير » .

٤ — ألف فيلسوف الإسلام الفارابى فى علم السياسة ثمانية كتب ، منها : كتاب « السياسة المدنية » وموضوعه أشبه بما يعرف اليوم بالاقتصاد السياسى ، وكتاب « المدنية الفاضلة » وهو مطبوع مشهور ، وقد نشر الأب شيخو فى مجلة المشرق سنة ١٩١١ م رسالة أخرى فى السياسة للفارابى غير هذين الأثرين .

٥ — ألف ابن أبى الربيع كتاباً سماه « سياسة المالك فى تدبير الممالك »

٦ — ألف أبو بكر الطرطوشى كتاباً سماه « سراج الملوك » .

- ٧ — ألف أبو المكارم أسعد بن الخطير كتابه « قوانين الدواوين فى نظام حكومة مصر وقوانينها » وينقل عنه كثير أ صبح الأعشى .
- ٨ — ألف الإمام الماوردى الشافعى كتابه « الأحكام السلطانية » وهو مطبوع متداول .
- ٩ — ألف الإمام أبو يعلى الفراء الحنبلى كتاباً سماه أيضاً « الأحكام السلطانية » وقد أخرجه الشيخ حامد الفقى من أعوام .
- ١٠ — ألف الإمام بدر الدين بن جماعة كتابه « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » ، وقد نشرته سنة ١٩٣٤ مجلة ألمانية ثم نشرته مجلة انجليزية « Islamica » فى نفس السنة .
- ١١ — ثلاثة كتب بالفارسية هى كتاب « سياسة نامه » لنظام الدين ، وكتاب « حكمة الإشراق » للسهروردى ويظهر أنه قد تأثر فيه بأفلاطون وكتاب « أخلاقى ناصرى » للطوسى .
- ١٢ — كتاب « الأخلاق الجلالية » لجلال الدين الدوانى .
- ١٣ — التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ، وقد نشرته من مدة دار الكنب الملكية المصرية .
- ١٤ — « السياسة الشرعية لإصلاح الراعى والرعية » اسم كتاب ألفه أستاذ النهضة الإسلامية الإمام المحدث الناقد ابن تيمية ، وهو من الذبوع والانتشار بحيث لا يمكن أن يجهل .
- ١٥ — « الطرق الحكيمية فى السياسة الشرعية » للإمام مجدد الشريعة ابن قيم الجوزية . وهو كتاب خطير مطبوع معروف لأهل العلم فى كل مكان كسابقه تماماً
- ١٦ — كتاب ألفه إمام الحرمين اسمه « غياث الأمم »
- ١٧ — وللصابى كتاب آخر غير المتوج اسمه « تحفة الأمراء » طبع فى بيروت سنة ١٩٠٤ .

١٨ - كتب الخراج التي ألفها أئمة أعلام ، وهي مطبوعة مشهورة عند العلماء ، وهي من أهم المراجع الدستورية الإسلامية . وهي :

كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة ، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم ، وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر .

١٩ - « كتاب الوزراء والسكرتار » لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى

٢٠ - « كتاب الولاية والقضاة » للسكندى وهي مشهورة يرجع إليه العلماء دائماً

٢١ - « كتاب الأموال » ألفه أبو عبيد التماسم بن سلام .

٢٢ - « كتاب الفخرى فى الأحكام السلطانية » لابن الطقطقى محمد بن على ابن طباطبا .

٢٣ - « مقالات الإسلاميين » للإمام أبى الحسن الأشعرى نشره ريتز الألمانية باسلامبول سنة ١٩٢٩ .

٢٤ - مراجع التاريخ الكبرى ، وهي تقص علينا عند المناسبات كثيراً من آراء الأولين عند اختلافهم على أمر من أمور الحكم وسياسة الدنيا ، وما يستند إليه كل رأى من حجج تقوم على توخى المصلحة .

٢٥ - هناك مخطوطات كثيرة اغتصبها المستعمرون عندما انتهوا بلاد المسلمين ، وهي مسجونة فى مكاتب برلين ، ولندن ، وباريس ، واسبانيا ، وليدن وفيينا وغيرها ، وطالما تحدث عنها أمير البيان المرحوم شكيب أرسلان ، ولم يتح لنا الاطلاع عليها .

فإذا نحن أضفنا هذا التراث القيم الذى قدمنا ، وهو خاص بالبحوث السياسية ، إلى ذلكم التراث السياسى الضخم فى كتب التوحيد ، والأصول والفقه فى جميع المذاهب الإسلامية السنية والشيعية ، وجدنا أنفسنا ملزمين بالحكم على مقالة هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم المستغربين ، بأنها مقالة خاطئة ظالمة .

بقى أن يقول قائل : إن بعض هذه الكتب التى قدمتها ، كانت تعالج السياسة الواقعية لاسياسة الإسلام نفسه ، لأنها كتبت مثلاً للخلفاء والسلاطين ، بتقصّد تبرير أوضاع خاصة قائمة ! ونحن نقول : هذا . وإن كان حقاً فإن أبحاثهم كانت تعتمد على مقررات الإسلام العامة ، وإن يكن بعضهم قد تعسف مثلاً فى تأويل بعض النصوص ، فإن هذا لا ينفي أن هذا الفريق قد اشتغل بالبحث السياسى ، والاشتغال بالبحث السياسى شىء ، وتقدير هذه البحوث - وبيان مدى عمقها ، ومبلغ قربها أو بعدها عن الإسلام ، ومقدار صلاحيتها للناس أو عدم صلاحيتها - شىء آخر سنجعله بإذن الله موضوع كلمتنا المقبلة ، والمهم الآن أن نعلن أن المسلمين القدامى ، لهم بحوث ومؤلفات كثيرة فى علم السياسة .

ولا يفوتنى فى ختام هذه الكلمة أن أشير إلى أعظم المبادئ السياسية التى عرض لها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا أثناء تفسيرهما للقرآن الكريم ، كما أن السيد رشيد له كتاب عن « الخلافة » يعتبر ثمرة طيبة لغرس الإمام عبده ، ولا يقلل من قيمته تعسف السيد رشيد فى توجيه بعض النصوص ضد شرعية الخلافة العثمانية ، كما أن لأستاذنا الشيخ محمود شلتوت رسائل كثيرة لو جمعت كونت كتاباً قيماً عن « السياسة فى الإسلام » ، أذكر من هذه الرسائل القيمة : ١ - أسس الدولة فى نظر الإسلام ٢ - الإسلام والسلام ٣ - المعاهدات فى الإسلام ٤ - تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام ٥ - القرآن والقتال ، وله غير هذه الرسائل بحث دستورى تمتع عنوانه « المسؤولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية » ، وما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء الأعلام قد اعتمدوا على سلفهم الصالح وما أتجه السلف فى البحث السياسى ، فهذه سلسلة متصلة الحلقات ، والله نسأل أن يوفقنا إلى متابعة الكلام عن مبادئ الإسلام السياسية ، والله يهتدى لنوره من يشاء ، وعليه قصد السبيل .

إلى أي طريق نحن مسوقون

لقضيد الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

لقد اضطرب نظام الخلق فعمت الفوضى وشكا الجميع من تحلل خلق أصاب الأمة ، وانهيار نفسى أدركها حتى فسدت معايير الرجال ، وأصبح الوعظ ثقيلًا على النفوس لجوحها ، ومرد ذلك كله ذلك التيار المادى الذى ملك زمام الأمة كلها ، وصار الفرد يعمل على أن يكون مالياً ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بكل خلق كريم ، ونفس أبية ، ونسى الجميع أن الدين الإسلامى لم يقتصر تعاليمه على الروحانيات البهتة ، بل دعا إلى كل ما يعود على الفرد والمجتمع بالخير والسعادة ، والعزة والكرامة ، فى الدين والدنيا فى قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ولقد كان سيدنا عثمان وعبد الرحمن بن عوف من خيرة الصحابة ومن المبشرين بالجنة فضلا عن أنهم كانوا من ثروة الأمة الإسلامية ، بل لقد بلغت ثروة عبد الرحمن بن عوف قرابة الأربعة ملايين ديناراً ومع ذلك حين رغب إليه مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينزل عن كل ماله للمسلمين لم يتوان عن التنفيذ حتى أرجعه المصطفى .

ونظرة واحدة إلى ما نحن عليه الآن تعطينا صورة صادقة على فساد تفكيرنا ، وعدم تفهمنا لحقيقة الدين ، وما يرمى إليه من مكارم لو اتبعناها لسدنا الأم غنى وخلقاً ، وجاهاً وسياسة .

ولسكننا شغلنا عن ذلك بالتقليد ، وباليته تقليد يعود على الأمة بالنفع والخير ،

بل تتلمذ مؤذ للخلق ، مذهب للكرامة مضيع للعزة ، ونظرة واحدة إلى عواقب حادث الجامعة تكفى لأن نترر أننا نسبح فى عماية من تقليد مغبته وخيمه وعواقبه مشينة .

فالدين الإسلامى يأمر النساء بعدم التبذل والخروج إلى الطرقات ، بل تلك الملابس التى تكشف عن كل المفاتن الجسمية فى وسط شباب قد ملأ الغرور نفسه ، أنه وصل إلى حد عدم المؤاخذه على تصرفاته ، لأن الحرية المزعومة تكفل عدم توجيه أى نمد أو لوم عليه .

فما بال قائمين على شئون الجامعة ، وقد لمسوا بأنفسهم ورأوا بأعينهم ، أن شبابنا لم يعن بالخلق قدر عنايته بالمظهر الخارجى ، ولم يفكر فى الروح الجامعية قدر تفكيره بالعبث الصيدانى فى داخل الجامعة وخارجها ، يفكرون فى استحضار فرقة راقصات البالية ، لتحية علماء الغرب ، ومفكره ليروا منظراً رغم إنكاره يذيب النفس خجلاً ، ويملاً القلب حسرة ولوعة ، ولو فكر هؤلاء فى تعاليم الإسلام الصحيحة ، ونفذوا تعاليمه على الوجه الاكمل لرفع من شأن الأمة ، وأعلى من قدرها ، ولعلم الغربيون علماء وغيرهم أن حضارة الإسلام هى الحضارة الحقبة التى يجب على العالم إذا أراد أن يستقر السلام فى ربوعه ، وأن ينتشر الأمن والاستقرار ، وأن تزول حالة التوتر التى عليها الأمم الآن ، وخوفهم من الحرب والاستعداد له ، وأن تعاليمه هى التعاليم الصحيحة . فإلى المسؤولين أتوجه بقلب مخلص أن يعمل كل من ناحيته على أن يبرز محاسن الإسلام لنفسه وأهله وعشيرته ، وبين أفراد أسرته ، وأن يعتنقها عن يقين حتى يعود للأمة مجدها وعزها ، فلا عز لغير الإسلام ، ولا نصرة حقيقية لغير المسلمين ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكفانا جوحاً وإسفافاً ، فالحالة تتطلب علاجاً حاسماً وسريعاً ، ولا علاج بغير تعاليم الإسلام ، وإن الله القوى القاهر ، ينصر من انتصر لدينه ، ويعزه بإعزازه .

دراسات في التصوف

فلسفة التصوف

لحضرة الاستاذ عمر طلعت زهران

استاذ في الأدب

[الزاهدين المتصوفة والفلاسفة ، الكرامات
وتفسيرها الفلسفي ، العلم بين المتصوفة والفلاسفة ،
المعرفة — الله]

صلة التصوف بالفلسفة ، إنما تروى قصة من أروع القصص ، وتبين عن نضال
من أعنف ما عرف العقل البشري . فالصوفية — كما نعرف — إنما يتبعون منهاجا
خاصا فريدا ، هو منهاج الروح والإلهام ، إن أتاها العلم فإنما يأتيهم عن طريق الله ،
والله وحده . ليسوا بمستبدلين عن طريق العقل ، أو آخذين عن الكتب ، إنما
العلم في صدورهم ، جاءهم بنور من الله ، أفاضه عليهم من كرمه ، وأشرق به على
قلوبهم من فيضه . أما الفلسفة فأداتها العقل ، والعقل وحده ، به يعرفون كل أمر ،
وبه يحيطون بكل شيء ، يدلهم — فيما يرون — على وجود أنفسهم ، وعلى وجود الله ،
وعلى وجود العالم .

* * *

وأروع صورة لهذا النضال — بين العقل والذوق — نجدها عند الغزالي ، ذلك
الذي أحاط بعلم الفلاسفة ، ونهج سبيلهم حيناً من الدهر ، حتى إذا ما عرف ذلك
الذي يدعون ، قلب لهم ظهر المجن ، ولبت بنأجزهم ، ويتقض أدلتهم ، ويثبت :

ضعف العمل ، وقوة الروح . فإذا به في « إحياء علوم الدين » يوقفنا على أروع صراع بين العقل والذوق .

وسنعرض في هذه الكلمة لأهم المسائل التي احتدم فيها القول بين الفريقين ، فتكلم عن الزهد لديهما ، ثم السكرامات وتفسيرها لدى الفريقين ، ثم تناول نظرية المعرفة عندهما ، وأخيرا نتكلم عن « الله » جل جلاله ، كما يراه الصوفي ، وكما يراه الفيلسوف .



أما الزهد ، فتمد أخذ الصوفية أنفسهم به ، وراضوها عليه ، وهم إنما فعلوا ذلك حتى تخلص أرواحهم من شوائب المادة ، وأدران البدن ؛ اتخذ الصوفية الزهد وسيلة للوصول لجنان الحق ، وطريقا لكشف الحجب عن أنفسهم ، حتى يجتولوا بطلعة الله ، ويصلوا الى حضرة الربوبية ، أما الفلاسفة فنراهم في هذا فريقين : إما آخذين بالزهد كمبدأ وغاية ، لا كوسيلة أو طريق ، وإما تاركين الزهد ، عازفين عنه ، آخذين باللذة المادية الغيزيائية ، مبالغين فيها مسرفين . وقد نجد بينهم فريقا ثالثا وسطا بين الإثنين فما راض نفسه على الزهد ، ولا أخذها بالإسراف في اللذة ، وإنما اعتدل بين هذا وذاك ، وسار على طريق مستقيم ، لا إفراط فيه ولا تفريط . ومن هنا نعرف الفرق بين الصوفية والفلاسفة : فبينما الأولون يرون في الزهد وسيلة وطريقا ، إذا بالفلاسفة يرون فيه غاية ومتمصدا . ولعلنا نرى في الأبيقورية والرواقية خير مثلين على ما ذهبنا إليه .



ولما كان السبيل إلى الله هو رياضة ومجاهدة ، يصل بعدها السالك هذا الطريق ، إلى منزلة العرفان ، وهو مقام سام ، بل وقد يصل فيه السالك إلى أن يتحد بالله أو أن يحل فيه الله — حسبما تقول بعض المذاهب الصوفية ، وفيه تسامح كبير ، فإن كان ذلك كذلك ، رأينا له كرامات : كأن يظهر في أماكن متعددة ، في وقت واحد ، أو أن يأتي بقاكة في غير أوانها ، أو أن يطعن نفسه بمدة ،

أو أن يقبض على الحديد المحمى دون أن يصديه مكروه ، وبالجملة أن يأتي بخوارق الأمور مما هو فوق طاقة البشر ، وبما لا قدرة للرجل العادى على فعل مثله .

يوضح الصوفية ذلك بقولهم إن الروح فى حال « السكر والغيبة » تصعد فتفارق الجسم وتتحد بالله : أو إن الله نفسه يحل بالبدن ، فإن فعل العبد شيئاً ، لم يكن هو الذى فعل ، وإنما الله هو الفاعل ، وفى كلتا الحالتين يستطيع الإنسان أن يقوم بالخوارق ، وأن يأتي بالكرامات .

أما الفلاسفة فيفسرون ذلك تفسيراً آخر : فالمعجزات عندهم تثبت فى ثلاثة أمور : أولها القوة المتخيلة ، فإنهم زعموا أنها إذا استولت وقويت ، ولم يستغرقها الحس والاشتغال ، اطلعت على اللوح المحفوظ وانطبعت فيها صور الكائنات الكائنة فى المستقبل ، وذلك فى اليقظة للأنبياء ، ولسائر الناس فى النوم .

وثانيها هى القوة العقلية النظرية ، ترجع إلى قوة الحدس ، وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم ، والناس فى هذا منقسمون : فمنهم من يتنبه لنفسه أو بأذى تنبيهه ، ومنهم من يتنبه مع التعب الكثير ، ورب نفس مقدسة صافية ، يستمر حدسها فى جميع المعقولات وفى أسرع الأوقات ، والمثال على ذلك الأنبياء .

ثالثها القوة النفسية العملية ، وقد تذهبى إلى حد تتأثر بها الطبيعيات وتتسخر ، ومثله أن النفس إذا توهمت شيئاً خدمته الأعضاء والقوى التى فيها ، فحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة . ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه لم يتمتع أن يطيعه غيره ، فتطلع نفسه إلى هبوب الريح أو نزول المطر أو هبوب عاصفة ، أو نزول صاعقة أو زلزال الأرض لتخسف بقوم .

من هذا نرى مبلغ الفرق بين تفسير الفلاسفة للسكرامات والمعجزات ، وبين تفسير المتصوفة لها ، الذين يرجعون السكرامة إلى الاتحاد بالله ، فإذا استولت لاهوتيته على الناسوت ، أصبح هذا قادراً على فعل أى شئ .



والعلم لدى الصوفية — كما أننا — إما استبصار وطريقه العقل والكتب والتعلم وإما إلهام وله طريقان : الإشراف وباعثه الله ، وأهله هم أصحاب النفوس الصافية والقلوب العامرة بالإيمان وحب الله ، والوحي عن طريق الملك من لدن الله ، وأصحابه هم الأنبياء . أما لدى الفلاسفة فالأمر جد مختلف ، فسيل العلم هو العقل ، والعقل وحده ، هو الذى يدلنا على النفس وعلى الله ، وهو الذى يتمودنا إلى الحقيقة فى كل شئ . وينظر الصوفية إلى هذا العلم — العلم عن طريق العقل — على أنه أدنى درجة من علمهم ، وأنه قريب من علم العوام .

ولكن الصوفية والفلاسفة يختلفون فى فهمهم لـ «العقل» وفيما يعنون بهذا اللفظ . فهو عند الفلاسفة ما نعرف من أنه أداة للاستدلال والنظر والفهم والمعرفة بينا هو عند الصوفية . النفس الناطقة ، أو هو محل المعقولات . فالعلم لدى الصوفية إذن هو كما يقول عليه السلام : « نور يقذفه الله تعالى فى القلب فيشرح به الصدر ، أما علامته فهي « التجافى عن دار الغرور ، والإتابة إلى دار الخلود » .

والنفس ، إما نفس مطمئنة ، إذا سكنت للأمر ، وحفظت التوازن بين شهوات الجسم ؛ وإما نفس لوامة ، إذا لم يتحقق سكونها فاضطربت مع شهوات البدن ؛ وإما النفس الامارة بالسوء إذا استسلمت للشهوات ، واسلست لها التباد ، وأفسحت المجال للشيطان . وما أشبه « الغزالي » فى تقسيمه هذا بـ « أفلاطون » الذى يقسم النفس إلى عاقلة وغضبية وشهوية . فالأولى تقابل النفس المطمئنة ، والثانية تقابل اللوامة ، والثالثة تقابل الامارة بالسوء ، وذلك على الرغم من اختلاف أساس التقسيم عندهما .



وأهم من هذا وذاك هو الله ، و فرق شاسع بين معرفة الله عند الصوفية ، ومعرفته عند الفلاسفة . سئل « ذو النون المصري » : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب : « عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى » ، فطريق معرفة الله هو الله نفسه « وسئل « النورى » : ما الدليل على الله ؟ فأجاب : « هو الله » ، قيل له : وما العقل ؟ قال : « العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » فلا العقل يؤدي بنا إلى الله ومعرفته ، ولا الاستدلال العلى بكاف لكى نعرف الله ولكن « الله » ، إن كان ثمت طريق لمعرفته ، فهو عن طريقه « هو » . الله يشرق بنوره على قلب عبده ، ويحتلى بذاته ، ويظهر بجلاله . لا شك إذن فى تلك المعرفة عن الله ، التى تأتينا عن طريق الله نفسه . أما أن نعرف الله عن طريق العقل فذلك أمر كله شك وكله ريب ، وما أدل على ذلك من أنه إذا اصطنع فيلسوف براهين على وجود الله ، إذا بفيلسوف آخر يهدم له براهينه ، ويقول بأخرى ^(١) ، إذن فهذه وتلك محل شك ، وما دام فيها ظل من الشك ، فهى غير يقينية ، أى أنها لا تؤدي إلى يقين ، وهذا « الله » الذى لا يقين فيه ، ليس إلهًا ، ولسنا إذن نعرفه كما ينبغى أن نعرف الله .

فنحن إذا عرفنا النفس ، ثم أثبتنا عن طريق النفس معرفة الله ، ونحن إن دالنا على الله بمختلف الأدلة : سواء فى أنفسنا أو فى غيرها ، فإن هذه المعرفة لا تبلغ أبداً يقين المعرفة التى يتمتد الله بها فى قلوب عباده المصطفين . ويدلنا الأثر التامل : « من عرف نفسه ، فقد عرف ربه » يدلنا على أننا لا نعرف الله إلا إذا عرفنا أنفسنا ، ولن نعرف أنفسنا إلا إذا تجردت عما يشوبها من مادة ، وما يتعلق بها من أوشاب .

وبعبارة أخرى ، لن يعرف الله ، إلا من عرف نفسه ، ومن سلك طريق المعرفة الصحيح ، طريق الذوق والوجد .

(١) يلاحظ أن الفلاسفة رغم اختلافهم يتفقون جميعاً على براهين معينة ، ومن هنا كان فى هذا الدليل مغالطة منطقية .

أسباب الفتنة في عهد عثمان

لحضرة الأستاذ عبد المصم السبح

مارس أول الآداب بالمعاهد الدينية

للفتنة في عهد عثمان أسبابها المباشرة وغير المباشرة ، وهي من هذه الوجهة أشبه الثورة الفرنسية ، كما تتشابهان كذلك في أن حدوث كل منهما في صفحة التاريخ كان أمراً لا مفر منه ، وهذا لأنهما يرجعان لعوامل غير مباشرة ، لم تكن من خلق الزمن الذي حدثنا فيه . غير أننا نستطيع أن نقرر أنه كان من الممكن أن تحدثا في تاريخ آخر لاحق ، لو لم توجد العوامل المباشرة التي أدت بهما إلى الحدوث زمن عثمان رضى الله عنه وزمن لويس السادس عشر .

ويمكن حصر الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة في التطور الاجتماعى الجديد الذى طرأ على حياة المجتمع الإسلامى نتيجة الفتوحات الواسعة التى تمت زمنى أبى بكر وعمر ، كما يدحل فى ذلك أيضاً ، العصية التى تميز بها العربى ، وتلك الروح العربية الثورية الجالحة أو ما يطلق عليه علماء الاجتماع اسم « روح الجنس » .

هذا عن الأسباب غير المباشرة للفتنة ، أما أسبابها المباشرة فيمكن ربطها بضعف سياسة الخليفة ، وسنعرض فى شىء من البسط والتحليل لسكلا النوعين من أسباب هذه الفتنة الشنيعة . التى ذهب ضحيتها خليفة المسلمين الثالث عثمان رضى الله عنه .

يقول علماء الاجتماع إن الثورة دائماً حليفة التطور ، سواء أكان هذا التطور دينياً ، أم فكرياً ، أم مادياً ، أم سياسياً . ثورة تطيح بالقديم التائم من نظم الحكم أو الديانة المرعية أو الافكار والمعتقدات السائدة أو نظم التجارة المتبعة أو أصول الفن المعروفة ، ثورة تطيح بكل ذلك ، وتفسح المجال لنظم جديدة ومعتقدات جديدة وقيم جديدة . فكلنا يعرف مدى فزع دولة الأوثان عند ما انبثق نور

الهداية الإسلامية يكتسح ظلمة شبه الجزيرة العربية ، فجعلت دولة الباطل بمويقاتها وعلا صرح الحق كالطود لا يريم ، وكلنا يعرف كذلك مدى ما أزكت به آراء « فولتير » و « جان جاك روسو » و « منتسكيو » نيران الثورة الفرنسية ، التي راحت تلتهم القديم الجائر ، وتمهد لحياة أخرى أكرم بنى الإنسان ، وما فزع أباطرة روما ، ذات التاريخ الوثني العتيـد ، يوم طرقت المسيحية أسوارها ، وجنوحهم إلى « بينظله » ، إلا دليل على هذا التطور الجديد .

ونحن لا يخفى علينا ، أن المجتمع الإسلامى ، أواخر عهد عمر ، كان قد تهيأ لاستقبال طور جديد ، من أطوار حياته ، وأنه بما تم له من الانتصار المؤزر على أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، وبما غمره من الغنائم والأموال والسبي ، وقد بدأ يودع طور البداوة وعيشها الناضب ، ويستقبل حياة التحضر ، وعيشها الخصب ، غير أن العبقريّة العمرية ، لم تفتها هذه الظاهرة الجديدة فى حياة المسلمين ومدى ما قد تحدّثه من نكسات لو أرخى لها العنان ، فراح يضرب للناس من سيرته العادلة الزاهدة المقتصدة أروع الأمثال ، فبهـرهم بذلك ، وحملهم على الطريق السوى ، كما دفعهم إلى الاقتداء والتشبه بسيرته .

وأهم مظاهر التطور الاجتماعى لذلك العهد ، تضخم الثروات ، بما آل إلى المسلمين ، من خيرات الأمم المغلوبة . ولتـمد عددت المصادر الشئ الكثير من هذا الثراء العريض الذى استجد على الصحابة والمسلمين ، ومن هذه المصادر ، تاريخ الطبرى ، وطبقات ابن سعد ، ومروج الذهب للسعودى ، وتاريخ ابن عسـاكر ، والكامل لابن الأثير . ومن هؤلاء الذين أفاضت المصادر فى عد ثروتهم ، سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام ، وطلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان يقال له ، طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، وطلحة الطالمحات ، ومن الأغنياء الذين ورد ذكرهم أيضاً ، خبّاب بن الأرت ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود وغيرهم . والشئ الذى يسترعى الانتباه ، أنه قد وجدت طبقة جديدة أصابت من الثراء ما تشرد عند وصفه الألباب ، وقد جر هذا طبعاً ، إلى حياة البذخ والترف فى عهد عثمان ، الذى ترك لقريش وسواهم الحبل على الغارب ، يتأثلون القرى والضيايع ، ويشيدون الدور والأبنية الفخمة ، وبذا بدا التطور

واضحاً جلياً ، حيث طرحت حياة البداوة الساذجة جانباً ، ومال الناس إلى التكاثر بالأموال ، وبجانب هؤلاء ، وجدت طائفة أخرى ، خاب مسعاها في الحياة ، فنظروا إلى طبقة الأغنياء ، نظرة حقد وحسد ، ودب في نفوسهم ديب اليأس والتمرد ، ومثل هؤلاء ، هم الذين يمدون للثورات ، وينفخون في أبواقها . ولقد أدرك عمر ذلك قبل موته ، وقال مشفقاً على المسلمين ، لما رأى أسلاب فارس وما فيها من ياقوت وزبرجد وجوهر ، « بالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا — إلا التي الله بأسهم بينهم » . ولقد كان عهد عثمان ، كما سلف ، دور انتقال من حياة العداوة الجافة إلى حياة التحضر المترفة ، فكثر لديه الأموال كثرة هائلة ، اتخذ لها الخزائن ، فانتشر القيل والقال ، وأصبح الأغنياء ، بل والخليفة نفسه ، محل طعن ومؤاخذه ، لما كان يخص به أقاربه من جاه ومال ، فدبت في البلاد روح السخط والتذمر ، وحب الشغب ، وكرهية قريش ، ولعل ذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولقد صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك من الأسباب الممهدة للفتنة « ونبلوكم بالخير والشر فتنة والينا ترجعون » .

وليس من شك في أن اندلاع لهيب الفتنة في عهد عثمان ، مرده إلى مجارة الخليفة نفسه للتطور الاجتماعى ، وهو ما لم يفعله عمر ، فقد أصبح لعثمان من الثروة ما لم يكن لأحد من سلفيه ، وإلى جانب ذلك ، مد الخليفة للصحابة والتابعين والأقربين في هذا المضمار مداً ، وتلك حالة جديدة لم يشهدها عهد السلفين الكبيرين أبى بكر وعمر ، فحز ذلك في نفوس الناس ، ووجدوا من ضعف الخليفة ولينه ، ما شجعهم على القيام بفتنتهم المشؤمة .

وإلى جانب تضخم الثروات كظهر من مظاهر التطور الاجتماعى في ذلك الحين برز مظهر آخر من مظاهر هذا التطور ، وهو اختلاط الأجناس والعناصر المختلفة فقد أصبح المجتمع الإسلامى ، بعد حوادث الفتوح ، محيطاً زاهر العباب ، يموج بكثير من مختلف الأجناس والأديان ، وكان منهم الموتورون بسيوف المسلمين ، دخلوا الإسلام غير مخلصين ، يتحينون الفرص للإضرار بالمسلمين ، ومن هؤلاء « الهرمزان » و « جفينة » و « كعب الأحبار » و « عبد الله سبأ اليهودى » ، عماد

الفتنة الأكبر، وداعيتها الأول . وفوق ذلك كان للسبي والاسترقاق والخلط بين العناصر، أثر بعيد الفور، في إعداد المجتمع الإسلامى، لهذه الفتنة، وقد كان أبناء السبايا من شر ما منى به المجتمع العربى، وقد قال عثمان رضى الله عنه: « إن أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن » .

وهناك مظهر ثالث من مظاهر التطور الاجتماعى، وهو التماقة العامة لهذا العهد، فتمتد كانت الثقافة زمن النبى الكريم، ثقافة بسيطة موحدة، إذ كانوا يتفنون عند ما جاء به الله، وما عليهم رسوله الأمين، لا تكلف ولا ابتداع ولا أمت ولا عوج، وكانوا لا يعرفون التأويل بما يوافق أهواءهم، ولا اللعب بالنصوص لحساب منافعهم، فلما كانت الفتوح وكثر اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى، راح أهل الأقطار المختلفة يقرأون التران، كل بالطريقة التى يراها، وبالنعمة التى تعنيه، ففرع لذلك « حذيفة بن اليمان » ووحد المصحف . وبالإضافة الى ذلك، راح القوم، وقد استنارت عتمولهم فى المجتمعات والأندية والمؤتمرات، ينظرون الى سياسية الخليفة، نظرة الناقد، ويتطلعون الى أعماله تطلع المدقق المحاسب وأحياناً كانوا ينظرون الى هذه السياسة نظرة السخرية والإزدراء، ومن ثم كان هذا المظهر الثقافى الجديد ذا أثر فى التمهيد للفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة الشنعاء، ما تميز به العربى من روح التعصب، فلما جاء الإسلام، حارب هذه النزعة « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبذا اختفت هذه النزعة زمن النبى، ثم برزت أيام الردة، ثم اختفت بفضل أبى بكر، إذ شغل المسلمين بأمر الفتوح، وكان عمر يسعى جهده للقضاء على هذه النزعة، وكانت قريش محل حسد وحتمد القبائل العربية الأخرى، لما لها من المسكانة والصدارة، ثم كان هناك التعصب أيضاً بين بيوت قريش وبطونها، وأمر ذلك واضح فى الخلاف الذى شجر بينهم عندبيعة عثمان، وقد كان لروح التعصب هذه، أثرها البعيد المدى فى تعكير الجو حول الخليفة، وفى إشعال نيران الفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة أيضاً، الطبيعة العربية، أو ما يطلق

عليه علماء الاجتماع «روح الجنس» ، وقد تميزت الروح العربية بالجموح والعناد ، ولقد قال عمر في أول خطبة له بعد توليه الخلافة «إنما العرب مثل جبل أنف ، اتبع قائده ، فليُنظر قائده أين يقوده ، أما أنا ، فارب الكعبة لأحملنكم على الطريق» ولقد استطاع عمر أن يحملهم على الطريق حقاً ، فلما آل الأمر لعثمان ، ولم تكن له عبقرية عمر ولا حزمه ، انفلتت من يده ، مقادة هذه الأمة الجموح الأنوف ، وانفجر بركان الفتنة ليودى بالخليفة الطيب الورع عثمان .

بق من أمر هذه الفتنة أن نورد أسبابها المباشرة ، وتلخص فيما أجمع عليه المؤرخون ، من ضعف سياسة الخليفة ، ولو وضعت الخلافة آئذ في يد قوية ، كيد على بن أبي طالب ، لكان من المرجح أن تتأخر هذه الفتنة إلى وقت لاحق ، وقد كان عثمان أقل من أن يقود أمر أمة كالأمة العربية ، وخاصة في هذا الطور الذي بلغت فيه درجة الغليان . وأول مظاهر هذا الضعف ، حيأؤه ولينه ، وليس أدل على ذلك من رفضه تفتيش «كميل بن زياد» ، وخضوعه للمفتونين الثائرين من أهل الكوفة والبصرة ، والسير وفق أهوائهم الجاحمة ، فكلما طلبوا منه عزل عامل وتولية آخر ، إستجاب لهم ، راجياً بذلك ، أن تسلس مقادتهم له ، ولكنه بتلك السياسة ، هون من شأن ولاته ، وأطمع أولئك الطغام الحاقدين فيهم .

ثم كان كبر سن الخليفة ، من العوامل المهمة لهذه الفتنة ، إذ من طبائع النفس البشرية ، هيبة القوى ، والطمع في الضعيف ، وعلى قدر ما كانت قوة عمر ونشاطه وتوثبه ، كان ضعف عثمان وانكساره وعجزه وتردده ، فسهل على بطائنه قطع الأمور دونه ، والعمل وفق مآربهم ، وبذلك تهيأت الأقطار الأخرى للثورة ورفع راية العصيان .

روى الطبري أنه لما حوصر عثمان قال : «ومن كانت لى عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدنى القوم ، وسيندمون على قتلى ، والله لو تركونى ، لظننت أنى لا أحب الحياة ، ولقد تغيرت حالى ، وسقطت أسناني ، ورق عظمى» ، ومن ذلك يتضح مدى فعل السنون بالخليفة عثمان ، حتى صيرته شيخاً فانياً عاجزاً ليس له من رهبة عمر شيئاً .

ومن تلمظ الضعف فى سياسة عثمان : إشاره الأقارب ، فى مجتمع عنيد أنوف ، بموج بالفتنة ، ويتطايير منه شرر الحقد والحسد ، فكم من لوم ، وكم من عتاب ،

وكم من شكوى وجهت إلى عثمان وعماله ، وكان قد اصطفاهم من ذوى قرباه . والمؤرخون ينقسمون تجاه هذه السياسة قسمين : قسم يحذو ما ذهب إليه الخليفة من اصطفاء الأقارب ، بحجة أنهم كانوا أكفاء ، برهنوا على أنهم أهل للفتنة التى وضعت فيهم ، ومن هؤلاء : معاوية بن أبى سفيان ، ونضيف فى هذا الصدد أن روح التمرد ، التى طبعت هذا العهد ، أخافت الخليفة ، فلم يعد يثق بغير أقاربه ، وقسم آخر ، يخطئ الخليفة فى هذه السياسة ، ويقول بأنه كان الأجدر به أن يضرب التمرد من نفسه ، وأن يحذوا حذو عمر فيما اتخذه من سياسة تجاه أقاربه .

ومما تقدم ترى أن سياسة عثمان هذه ، وقد مهدت لإشعال نيران الفتنة ، وقد كان عثمان فى حاجة إلى مثل عبقرية عمر ، إذ كان حاكماً مالياً ؛ بأدق معانى هذه الكلمة ، فما كان يمنعه أن يربط على كتف بدافع العطف من أن يتناولها بالدرة بدافع العدل ، قبل أن يهزم صاحبها من مجلسه ، أما عثمان فقد كان ينبوع رحمة ، ونسيم رقة ، له صفات من يعطى ولا يأخذ ، بسط للناس صدر خلافته ، حتى استطابوا المرعى ، فلبسهم بزجرهم حزنوا وتمردوا ، ولم يستطع للفتنة قعاً ، فأكلته نيرانها .

ويجب أن نقرر فى ختام هذا البحث ، أن نظام الحكم ، ذلك النظام الذى لم يحدد سلطة الخليفة ، وموقفه من الأمة ، وموقف الأمة منه ، ولم ينص على طريق محددة للحكم ، كان من العوامل التى أفسحت مجال الفتنة ، فإن روح الشورى ، التى تشبع بها المسلمون زمن عمر وأبى بكر ، جعلتهم يتطلعون إلى التدخل فى كل شئ ، وكان مظهر الخلافة مظهر رعاية أبوية بعيدة عن العنف والقهر ، غير أن هذا التسامح قد جر الفوضى ، والافتيات على الحقوق ، والاختلاف على ما كان يقع من الأحداث ويجد من الوقائع ، فلم يكن القول لهيئة خاصة ، ولا لطائفة معينة ، وقد كان عمر يرمى من وراء ذلك إلى تدريب كل مسلم على معرفة نصيبه من الواجب العام والمصلحة المشتركة ، غير أن ذلك انتلب فى عهد عثمان إلى جرأة وتناول عليه ، مما مهد الأمور للفتنة .

هذه هى الأسباب المباشرة وغير المباشرة التى انتهت بالفتنة الشنعاء حيث كان ضحيتها خليفة المسلمين الثالث « عثمان رضى الله عنه » .

إمام المفسرين ابن جرير الطبري

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المفتش بالأزهر

لعل في ترداد النظر في تاريخ هذا الإمام العظيم وأمثاله . ما يحفز نفوسا كريمة أو يرفع همما وخيمة . وإنما الناس من جهة التمثال أ كفاء . ولا فضل للإنسان إلا بحياة يعمرها بعلوم يحصلها . أو آثار نافعة يخلدها فيخلد بها ، لهذا يعجبني دائما أن أطلع القراء الكرام ، بسير هؤلاء الأئمة الأعلام .

* * *

نشأ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير المشهور والتاريخ المعروف ، في القرن الثالث الهجري ، وهو عهد نهضة علمية ، وبخاصة في التأليف والتدوين وهي نهضة ترجع إلى عهد المنصور العباسي وتبتدىء به . وكان المنصور العباسي قد شجع العلماء ، وأغرى بالتأليف الأئمة والفقهاء وأمره في موطأ الإمام مالك وغيره مشهور بين الناس ، وناهيك بعصر المأمون الذهبي للغة العربية وآدابها ومعارف الدين والدنيا .

* * *

ولد الطبري سنة ٢٢٥ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ ، فلهي خمس وثمانون سنة تقريبا قضاهما في جمع العلم والتصرف فيه . وقد عبت سبله . وعذبت مناهله . مع ذكاء نادر وحفظ عجيب . وتفرغ وزهاده . وتوفر على العبادة . فطوف بالأفاق يرتاد المعارف ما بين الرى . وبغداد . ومصر ، والشام ، والبصرة ، والسكوفة . وقد طال مقامه ببغداد بدءا وعودا . حتى كانت وفاته بها .

وكانت بغداد كعبة القصاد ، وموئل الرواد ، ونجعة العالم والأديب وجمع كل حسن وطيب - وهي التي يقول فيها ابن هاني :

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهين

بدأ يطلب الحديث بالرى وما جاورها، فأكثر عن الشيوخ ولا سيما محمد بن حميد الرازى والمثنى بن ابراهيم الأبلى. وغيرهما. وحدث عن نفسه فى قصة يذكرها بعض المتصلين به. أنه دخل عليه هو وابنه فقال له فى حديث جرى. كم لهذا سنة؟ قال تسع سنين. قال لمَ لمَ تسمعه منى، قال كرهت صغره وقلة أدبه فقال لى: حفظت القرآن ولى سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين^(١) وكتبت الحديث، وأنا ابن تسع سنين، ورأى لى أبى فى النوم أنى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم، وكان معى مخللة مملوءة حجارة، وأنا أرمى بين يديه، فتمال له المعبر إنه إن كبر نصح فى دينه، وذبح عن شريعته. فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير.

وانتقل من الرى وما جاورها إلى مدينة السلام، فأقام بها وكتب عن شيوخها فأكثر. ثم صار إلى الكوفة فسكتب فيها عن محمد بن العلاء الهمداني وإسماعيل ابن موسى وغيرهما. ثم عاد إلى مدينة السلام، ولزم المقام بها مدة. ونفقه بها وأخذ فى علوم القرآن، ثم غرب فخرج إلى مصر، وكتب فى طريقه بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها، ثم صار إلى القسطنطين سنة ٢٥٣. وكان بها بقية من أهل العلم فأكثر عنهم الكتبة من علوم مالك والشافعى وابن وهب وغيرهم. وهكذا ظل ينتقل ويأخذ كل علم من أهله وأئمة، حتى انتهى به المطاف إلى مدينة بغداد، وأفاض على الناس من علمه فى شتى الفنون، وكتب مؤلفاته، وما زال بها سراجاً منيراً، وشمساً مشرقة، حتى قضى سنة ٣١٠ هـ. هذه هى حياته الحافلة بالتماس العلم والنهم فى جمعه من جميع منتجاتها، والاستنتاج والإنتاج، وإذا فتنلة ابن جرير جديرة بما وصف الخطيب البغدادى إذ يقول:

« وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره.

وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقرآيات، بصيراً بالمعانى، فقيهاً فى أحكام

[١] من مذهبنا « الحنفى، أن البلوغ شرط فى صحة الإمامة.

القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام وسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم .

واتمد أعجب به العلماء والمؤرخون . وجميع أصحاب الفنون في فنونهم ، وذكر الرواة عنه كثيراً من العجائب ، فتمالوا إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة . وقالوا إن قوماً من تلامذته حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار منها كل يوم أربع عشرة ورقة . وهم يذكرون لذلك نظائر حين يتكلمون عن أكثرها التصنيف ، كأبي الفرج الجوزي ، وجلال الدين السيوطي . ولعل في أحوال بعض المعاصرين . من أمثال الدكتور طه حسين باشا ، والأستاذ العقاد وغيرهما ما يترب هذه الروايات ، فقد كان السابقون أفرغ بالاً ، وأبعد عن شواغل المدنية . وأقل منا أخذاً في حظوظ الدنيا ومتعتها .

ولعل ميزة للطبري لم يشارك فيها هي أنه يزاحم رجال الاختصاص في اختصاصاتهم فلا يتخلف عنهم . بل لتمد سبق كثيراً منهم ولا سيما في تفسيره الوحيد الذي جمع بين مسالك السلف في الرواية . والخلف في دقة الفهم والدراية .

فأبو جعفر مفسر بلغ مرتبة الإمامة في التفسير ، وفتن الناس بكتابته الذي انتشر منذ عهد ، وأكب الناس على قراءته ، يسرحون الطرف في فسيح رياضته ، ويملاؤن العمول غذاء وكرعاً من حياضه ، وهو تفسير خالد يتحدى كل عالم ومفسر حتى اليوم . وقد ذكره الإمام المجتهد أبو حامد الاسفرائيني فتمال في شأنه « لو سافر أحد إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً » .

ونقل الخطيب بسنده إلى عبيد الله بن أحمد السمسار قال .

« إن أبا جعفر قال لأصحابه : أنشطون للتفسير ، قالوا كم يكون قدره ، قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ، قالوا كم يكون قدره فذكر نحواً مما قال في تفسيره ، ثم قال : إنا لله ، ماتت الهمم .

وهذا إن صح أكبر دلالة على همة ونشاط تفضل الأذهان في إدراكهما ، وقد

قالوا إنه أملاه من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٢٩٠ .

ولعل لنا نظرة في تفسيره بعد .

ثم ابن جرير محدث عالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها كما وصفه الخطيب . وقد ذكروا في تاريخه أنه كتب عن أبي كريب وحده أكثر من مائة ألف حديث . وهو عارف بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقد رأيت ما كتب بمصر من علوم مالك وابن وهب والشافعي .

ولهذا فهو فقيه مستقل ، وإمام مجتهد يذكر في طبقات المجتهدين . وهو لم يقلد إلا في صباه يوم ابتدأ الفقه بمدينة السلام على مذهب الشافعي ، على أن له أتباعا يقلدونه من العلماء . منهم أبو بكر المعافى المعروف بابن طراز .

وأبو جعفر المؤرخ المشهور الذي جمع تاريخ الدين في كتابه مع تحرر في الرواية وقوة في الأسلوب .

ثم هو في علوم العربية إمام جليل ، دلت على ذلك كتابته في التفسير وشهد له به أئمة العربية : كآبي العباس ثعلب الذي يقول فيه إنه من حذاق الكوفيين ، وكان قليل الشهادة لاحد بالحدق .

وسأحييك على نبذة مما كتب عنه أبو محمد عبد العزيز بن محمد إذ يقول : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يحمله أحد عرفه لجمعه من علوم الإسلام ما لم يجتمع لاحد من هذه الأمانة ولا ظهر من كتب المصنفين واشتهر من كتب المؤلفين ما ظهر له . كان عازفا عن الدنيا تاركا لها يرفع نفسه عن التماسها . وكان كالقارئ الذي لا يعرف غير القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكان نحوى الذي لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم وإذا جمعت بين كتيه وغيرها وجدت لكتبه فضلا على غيرها . . . إنتهى .

وقبل أن أختم هذه الكلمة ، أشير الى أنه روى عنه بعض منظومات تدل على ذوق في الأدب . وبصر فاحص بأساليب العرب ، ومن ذلك قوله :

خلقنا لا أرضي طريقتيها بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا وإذا افتقرت فته على الدهر

رحمك الله يا ابن جرير . وجعل منك في أمتنا أسوة صالحة كريمة ؟

وسائل النصر

لفهضيد الشبخ المنساوى عبود الخولى

المدرس بمعهد القاهرة

من مظاهر حكمته تعالى أن أبدع خلق الإنسان وسوى نفسه وجعلها زاخرة بالآمانى العذبة حافلة بالآمال الباسمة توافقة إلى أن ترى تلك الآمال حقيقة سافرة . وواقعا مشرقا ، وهى لذلك قد تسلك من الأسباب والوسائل ما تتخلف عنه النتائج فتفجع بالخيبة والحرمان ، والهزيمة والاندحار وهى أشد ما تكون حاجة إلى النصر وشوقا إليه ولهفة عليه فكان من مزيد عنايته تعالى بعباده أن بين لهم أن النصر تابع لقانون محكم دقيق وسنة كوزية خالدة فمن تنكب عنها تردى فى هاوية الذل والهوان ومن استوى على صراطها حالفه العون والإمداد والعز والإسعاد فقال جل شأنه (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ومن أوفى بعهده من الله ؟ ومن أقدر منه على تنفيذ مراده فهو قيوم الأرض والسموات والميمن على شئون عباده ، والقابض على ناصيتهم . فما من مخلوق إلا واقع فى قبضته وجل من سطوته . شملته إرادته ونفذت فيه قدرته وأحاط به قهره وسلطانه ، ولا يتم من أموره إلا ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته . بيده ملكوت كل شئ لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير) .

والنصر الذى طلبه تعالى من عباده يكون برعاية دينه ولذلك دعائم ثلاث — الأولى عميدة قويمه — الثانية عبادة خالصة لله وحده — الثالثة إحسان فى معاملة خلقه : فسلامة العقيدة أن تحالط القلوب بشاشة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وأنه سبحانه صاحب العلم المحيط والسلطان القاهر ، فلا يعلم الغيب سواه ولا

شركة معه لنبي ولا لولي ، ولا ينازعه منازع في السيطرة على شئون خلقه فهو العظيم مجده ، الغالب جنده ، النافذ قضاؤه . السابغ عطاؤه (له متاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويتمدر إنه بكل شيء عليم) فليس من الإيمان في شيء أن يتوكل الشخص على غير ربه ، أو يلتزم النذر لسواه ، أو يعتقد الضر والنفع في مخلوق من مخلوقاته (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) : ومن الكفر الصريح ما يفعله ضعاف العقول والسفهاء من اللجوء إلى هؤلاء الدجالين الفجار الذين يدعون علم الغيب وكشف المستقبل ، ويزعمون أن لهم قدرة على جمع القلوب وتفريقها وتيسير الزواج وإنجاز الحمل ، وإطالة أعمار الأولاد ، وأن لكتبهم وأحجبتهم تأثيراً في الحفظ والإسعاد (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) . وما تلك الأساليب إلا شباك يصطادون بها الأموال من البله والمغفلين . ولو صح أن لهم طاقة على تحقيق ما يدعون ، لكان الأولى أن يسعدوا أنفسهم ولا يكذبوا في جلب درهمات يسيرة يمتثلون لسلبها ممن وقع في شركهم . ولا ريب أن المسلم الذي يثق بهؤلاء قد انطفأ مصباح الإيمان في قلبه وأحاطت به ظلمات من الكفر بعضها فوق بعض (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وإذا أراد هذا المسلم أن يدرك حكم الرسول الكريم عليه فليستمع إلى ذلك بعد أن يزيل أكنة قلبه ووقر أذنه ، فقد قضى صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا الشخص قضاء مبرماً ، فقال (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فإن ما أنزل عليه هو قوله تعالى (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) فإذا كان الرسول وهو أكرم الخلق على الله لا يملك النفع والضر لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره وتبرأ من علم الغيب ، أفيملك الدفع والضر ويعلم الغيب هؤلاء الأرجاس الملوثون ؟ ولكن صدق الله حيث يقول (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الأمر الثاني : إخلاص العبادة له وحده بأن تملأ قلبك بجلاله وعظمته . عابداً له كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ملتزماً بالمنهاج الذي ارتضاه لتقديسه وتمجيده مسارعاً إلى إقامة العبادات مستوفية لشروطها وأركانها قريرة

بها عينك مبهجة بها نفسك ، حريصاً على أن يظهر أثرها في السلوك والحياة العملية معتقداً أن ثمرة ذلك ترجع إليك وحدك ، فهي تزكية لروحك ، وتطهير لقلبك ، وتسكريم لشخصك وسمو بإنسانيتك ، وتشريف لها بمناجاة الله تعالى والاتصال به والحصول على عظيم امداده ووافر جزائه (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين) فاعبد الله من حج رياء وسمعة ، أوقام إلى الصلاة مثاقلاً متباطئاً غافل القلب في أدائها ، حتى أضحت صوراً وأشكالاً لاحقيقة لها ، وجسماً ميتاً لاحياة فيه . وحقيق بمثل هذا ألا يكون عابداً لله ، وألا يصح انتسابه لرسول الله فقد روى أن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه رأى رجلاً يسرع في صلاته فقال له : ما صليت ولو مت على ما أنت عليه مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمداً .

الأمر الثالث : الإحسان في المعاملة بمراقبة الله تعالى في عباده بأن يشعر كل إنسان أنه لبنة في بناء المجتمع فعليه أن يركز جهوده في إسعاد بني جنسه وتوفير هناءهم ويتبادل معهم المودة والإخاء والأنس والصفاء وذلك قوام كل مجتمع صالح يتوثب أفراداً للنهوض وبلوغ أوج العزة والكمال . وإلا فما قيمة مجتمع لا يرحم فيه الضعفاء ولا تسمح عبرات الاشتيماء ولا يعطى السائل والمحروم حتمه في مال الأغنياء ولا يؤخذ على يد الظالم ولا يذتصف للظلم . وتهدر السكرامات . وتنتهك الحرمات عندئذ تكون الحياة جحيماً مستعراً وعذاباً وبليلاً .

ومن الإحسان في المعاملة إصلاح ذات البين وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف لمحاربة العدو الغاشم والتسلح له بالسلاح الذي يخافه ليظل جانبنا عنده مهيأ وسلطاننا مرهوباً . ولنتنظر نظرة عابرة إلى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) فإنه سميت حكمته لم يحدد نوع القوة التي نعدّها لتفترس في كل زمام بما يرهب أعداء الإسلام : - والاستعداد على هذا النحو هو السلم المسلح الذي يمنع عدوان القوى على الضعيف ويفيض الأمن في ربوع البلاد فيعيش العالم في سلام دائم وصفاء شامل :

هذا هو هدى الله في نشر الأمن بين الناس لا ما تزعمه تلك الدول العاتية من حماية السلام وأقامت لذلك مجلساً يسمى مجلس الأمن . وأحاطته بسياج براق من الدعاية الزائفة . وما هي إلا أساليب ماكرة خادعة تضمّر وراءها خبيل النعالب وروغاتها وشراسة الذئاب وغدرها واغتيال الأمم المستضعفة والتهام الشعوب المغلوب على أمرها . نخذوا حذرکم منه أيها المسلمون فمثل هذا الصنيع

الأثم صدر عن شخص تراحت عناصر الشر في نفسه ولم يعدم طلاء خداعاً فنزل فيه قول العليم الحكيم (أسس بذيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) .

أما : إذا أردتم أن يكون النصر حليفكم في قضاياكم العامة والخاصة ، فلا يكفي لذلك وضوح القضية ، بحيث لا يرتاب أحد في عدالتها ، أو إقامة الحجج التي ترفع شأن حكمكم ، وتدفع باطل عدوكم . بل لا بد مع هذا كله من سلوك الأسباب التي هداكم الله إليها ، وأن تصلحوا ما بينكم وبينه ، وتستمسكوا بهديه ، وتجمعوا على طاعته . والاعتصام بحبل مودته ، فتمد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حاول أمراً بطاعة الله كان أقرب مما رجا وأبعد مما اتقى ، ومن حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى » . وفي هذه المدرسة القدسية تلقى تلك التعاليم الحكيمة أبطال الإسلام الذين نصرُوا بالرَّعب ودانت لهم أعناق الجبابرة ، وكانوا رحمة مهداة إلى الإنسانية ، رفعوا عنها إصرها ، وأقالوها من عثرتها ، وأسودوا إليها الحياة المساجدة ، والمدنية الفاضلة . وما ظفروا بهذا التوفيق البارِع ، إلا لأنهم اتخذوا طاعة ربهم معراجاً لكسب ولايته ، وجميل رعايته « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد ابن أبي وقاص وقد أمّره على حرب العراق .

(أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المسكينة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا تنصر عليهم بفضلنا لم نفلهم بقوتنا)

أيها المسلمون : هذا شعار أسلافكم فترسموا خطاهم واحملوا مشعل هدايتهم وجدوا السير في طريقهم وعندئذ لا تكون يد عليكم إلا يد الله وهي معكم بالعون والإمداد أينما تتجهون . ولا تهولنكم قوة عدوكم فهي منهارة أمام تأييد الله لكم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ؟

حرف بمانند الف

افضل الاستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

لله در أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ^(١) حين قال في فاتحة كتابه « فقه اللغة » :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، التي نزل بها أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هي أداة للعلم ، ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ، ثم هي لإحراز الفضائل ، والاحتواء على المروءة ، وسائر أنواع المناقب ، كالنبوع للباء ، والزند للنار ، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفها ، والتبحر في جلائلها ودقائقها ، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة ، التي هي عمدة الإيمان ، لكفي بهما فضلا يحسن فيهما أثره ، ويطيب في الدارين ثمره ؛ فكيف وأيسر

[١] ولد في نيسابور سنة خمسين وثلاثمائة ، وتوفي سنة تسع وعشرين أو ثلاثين وأربعمائة ، وكتبه كثيرة ، وتاريخه مبسوط .

ما خصها الله عز وجل به من ضروب المادح ، يُكل أعلام الكتبة ، ويتعب أنامل الحسبة ؟ ^(١) .

نعم فالعربية لغة آرها الحق منذ القدم بتمجيده ، وهياها لتكون لسان وحيه ، وصوت عبادته ومناجاة ، فكان من صنعه سبحانه لها أن برع أهلوها في طرائقها وفنونها ، ومهروا في تشقيتها وتصريفها ، وأبدعوا في تضمينها الكثير من أسرارها ورموزها . ثم جاء قوم منهم في ركاب الإسلام الساطع فتعبوا في ضبط شواردها ووضع قواعدها وتنظيم أبوابها ، وحرصوا على تعلمها وتعليمها ؛ وانفقت كلمة هؤلاء وأولئك على وسم المهمل لها المخالف لأحكامها الجاهل لقواعدها بسمه الشين والعيب ، حتى كانت سبة « اللحن » من أقوى العوامل في إسقاط مكانة الرجل والإضرار عليه !

ومن عجيب أمر هذه اللغة الشريفة العريضة أن لها من الدقائق والخفايا ما يستثير شغف اللبيب ، ويستحوذ على جهد القادر ، ولا تزال هذه الدقائق تبدى من أضوائها وتطوى حتى تبعث العجب والإعجاب ، وكمن دقائن وكنوز اشملت عليها كتب العربية من قديم !

ومن بين أسرارها أن الكلمة الواحدة من كلماتها تدخل عليها الحركة الواحدة فتتال حرفاً واحداً من حروفها فتكسب الكلمة بهذه الحركة معنى خاصاً فإذا ارتفعت هذه الحركة عن هذا الحرف من تلك الكلمة وجاءته حركة أخرى زال المعنى الأول ، وجد للكلمة معنى آخر ، وهكذا لا تزال المعاني تتكاثر وتختلف بتتابع هذه الحركات واختلافها ، وكل هذا مما يحتاج أشد الاحتياج إلى الألباء من الرقباء الدارسين يعكفون باحثين وملاحظين ، ثم مقيدون وحافظين ، ثم ناشرين ومعلمين ، وبهمم هؤلاء تظل العربية مرفوعة اللواء زاهية الرواء .

خذ على سبيل المثال كلمة « السداد » . . . وهي كلمة واحدة من جملة كلمات تشملها مادة السين والبدال المشددة . . . إن هذه « السين » من كلمة « السداد » تلك تكون مفتوحة تارة فيكون معناها التمسد والتقويم والتوفيق والصواب ؛ جاء

في النهاية لابن الأثير ما ملخصه : « قاربوا وسددوا : أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد فى الأمر والعدل فيه ؛ وقال الرسول العلى : سل الله السداد واذكر بالسداد تسديدك السهم ، أى إصابة القصد ، وسئل عن الإزار فقال : سدد وقارب ، أى اعمل شيئاً لا تعاب على فعله ، فلا تفرط فى إرساله ولا تشميره ، وفى صفة متعلم القرآن : يغفر لأبويه إذا كانا مسدين (بكسر الدال وفتحها) أى لازمى الطريقة المستقيمة . . . وكان له قوس تسمى السداد ، سميت به تفاؤلاً بما يرمى عنها . »

وفى أساس البلاغة للزمخشري : « وهو على سداد من أمره وسدد ، وقلت له سداداً من القول وسدداً ، واللهم سددنى : وفتنى . . . وأتينا الريح من سداد أرضهم : من قصدها . قال :

إذا الريح جاءت من سداد بلادها أتاناً بها مسك ذكى وعذب

وفى القاموس المحيط : « سده تسديداً قومه ووقفه للسداد ، أى الصواب من القول والعمل ، وسد يسد صار سديداً ؛ وأسد أصاب السداد . »

وتارة تكون السين مكسورة ، فيتغير معنى الكلمة دون تغيير أو تبديل ، أو زيادة أو نقص فى حروفها أو بقية حركاتها . . . إن معناها حين الكسر يكون شيئاً آخر غير معناها عند الفتح :

فى النهاية لابن الأثير : « حتى يصيب سداداً من عيش أى يكفى حاجته . والسداد بالكسر ، كل شيء سددت به خلا ، وسمى به سداد الثغر والقارورة والحاجة . . وفى الأساس : « سد الثلمة فانسدت واستدت وهذا سدادها . . ومن المجاز : فيه سداد من عوز بكسر السين . يقال : ما به سداد أى عيب يسد فاه فلا يتكلم . . وفى القاموس : « وأما سداد القارورة والثغر فبالكسر فقط ، وسداد من عوز وعيش ما يسد به الخلة ^(١) ، ويفتح ، أو لحن . . . » وفى فقه اللغة للثعالى : « كل شيء سددت به شيئاً فهو سداد ، وذلك مثل سداد القارورة وسداد الثغر وسداد الخلة ^(٢) . »

فإذا ضمت هذه السين كان للكلمة معنى ثالث بعيد عن المعنيين السابقين ،
لأنه يصبح داءً غير مستطاب ، جاء في القاموس المحيط : « والسَّدَاد (بضم السين)
داء في الأنف » ^(١) . ولمثل كلمة « السداد » في ألفاظ اللغة مئات ومئات من
المثيلات والشبهات . . .

ومن لطيف ما يروى عن كلمة « السداد » تلك كشاهد من شواهد عناية
السابقين بالعربية ، وحرصهم على حفظها وتنقيتها ، وكلف القادرين من رجالاتها
بإثابة حراسها وإجزال العطاء لهم ، وعيهم من لحن فيها أو أخطأ ؛ ما ذكره
التاريخ عن النضر بن شميل ^(٢) الإمام الثقة في العربية والحديث ، فقد كان من عادته
أن يدخل على الخليفة المأمون في سمره ^(٣) ، فدخل عليه ليلة وقد لبس قميصا
مرقوعا ، فعجب منه المأمون وقال له : يا نضر ، ما هذا التقشف حتى تدخل على
أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب ؟ فأجاب النضر : يا أمير المؤمنين أنا شيخ ضعيف
وحر « مرو » ^(٤) شديد ، فأبرد بهذه الخلقان ^(٥) . قال المأمون : لا ولكنك
متقشف . . ثم جرى الحديث بين الجمع ، والحديث ذو شجون ، فأجرى المأمون
ذكر النساء فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه
سداد من عوز » ونطق كلمة « سداد » بفتح السين منها . فقال النضر :

[١] نحن نتكلم عن اختلاف المعنى باختلاف الحركة دون تعرض لتفصيل العلاقات المجازية التي
قد تكون هناك بين أحد المعاني وبقيتها .

(٢) ولد سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وتوفي سنة أربع ومائتين . [٢] قال أبو سليمان الخطابي
في حديثه عن إنجاز القرآن مشيرا الى دخول النضر على المأمون : « وأما قول القائل لصاحبه : اقعد
واجلس ، فقد حكى لنا النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فثل بين يديه وسلم ،
فقال له المأمون : اجلس . فقال : يا أمير المؤمنين است بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف تقول ؟ .
قال : قل اقعد . فأمر له بجائزة . قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت إحدى
الصفتين بالآخرى عند المقابلة ، فتقول القيام والعود ، كما تقول الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون
القيام والجوس ، وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام وجلس عن ضجعة أو استلقاء ، ه .

[٤] مرو : بلد بفارس [القاموس] - [٥] الخلقان : بضم فمكون الثياب التي لبست حتى
[لبست عن الأساس] .

« صدق (!) يا أمير المؤمنين هشيم ، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوج الرجل المرأة لديها وجمالها كان فيها سداد من عوز » . ونطق كلمة « سداد » بكسر السين كما يجب .

وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال : يا نضر ، كيف قلت سداد ؟ . قال : لأن السداد هنا لحن . فقال : وتلحنى ؟ . فأجاب النضر : إنما لحن هشيم وكان لحانة ، فتبع أمير المؤمنين لفظه . قال المأمون : فما الفرق بينهما ؟ . أجاب النضر : السداد بالفتح القصد فى الدين والسييل ، والسداد بالكسر البلغة ^(١) وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال المأمون : وتعرف العرب ذلك ؟ . قال : نعم ، هذا العرجى يقول :

أضاعونى ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فأطرق المأمون ملياً ، ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، ثم أخذ يسأل النضر عن أخلب بيت للعرب وأنصفه وأفنعه ، فأنشده أبياتا جزلة فيما سأل ، فتمال له : أحسنت يا نضر . وسأله عن ماله وحاجته ، ثم كتب المأمون إلى الفضل بن سهل ليعطى النضر خمسين ألف درهم ، فضى النضر إلى الفضل ، فلما قرأ الفضل التوقيع وفيه تلخيص القصة ضحك وقال : يا نضر ، أنت الملحن لأمير المؤمنين ؟ . قال : لا بل لهشيم . قال الفضل : فذاك إذاً . وأعطى النضر الخمسين ألفاً التى أمر بها المأمون ، ثم أعطاه فوقها ثلاثين ألف درهم من عنده ، فتمت للنضر ثمانون ألف درهم ثواباً لتصحيح حركة حرف فى كلمة ^(٢) !! .

* * *

وهذا البيت الأخير الذى استشهد به النضر ، وجاءت فيه كلمة « سداد » كان إنشاده سبباً فى رد الحرية على مفشده السجين ، فعن عبد الله بن رجاء الغداني قال :

[١] البلغة بعزم فسكون : كل ما يتبلغ به من العيش . [٢] ذكرت القصة فى تهذيب الاسماء واللغات ، للنووى فى ترجمة النضر بن شميل ، كما ذكرت فى الاغانى ، وهنه نقلها صاحب كتاب « من أخلاق العلماء » .

كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف^(١) يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنة^(٢) الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه ، أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب^(٣) الشراب فيه غنى بصوت ، وهو يقول :

أضاعوني ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلسته ، وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه فقيل : أخذه العسس منذ ليل وهو محبوس . فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير ، قال الأمير : إيدنوا له وأقبلوا به راكباً ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط . ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه ؛ وقال : ما حاجتك ؟ قال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليل ، يأمر الأمير بتخليته فقال : نعم ، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا . فأمر بتخليتهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراءه ، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه . فقال : يافتى ، أضعنأك ؟ قال : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق . وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان !^(٤)

وهكذا شهدت العربية فى عصورها الزاهرة ميادين بحث يستفيض حولها فيجدد إهابها ويحفظ شبابها ، وكانت هذه الميادين عامرة بالفرسان الذين يذودون عنها ويحمون ذمارها ، وبالتفاد الذين يمجدون أولئك الذاتيين ويجزونهم خير الجزاء ؛ والمأمول أن يقيض الله لهذه العربية المجيدة التليدة من أشبالها ورجالها من يصل سلسلة العكوف عليها والهيام بها والذب عنها ، حتى تظل لغة الكتاب والخطاب !!

اللهم لا تجعل فى طرقنا إلى الخير « سدادا » ؛ وهب لنا من لدنك فى ديننا ودينانا « سدادا » ! ...

[١] فى فقه اللغة : كل صانع عند العرب فهو إسكاف . [٢] جنة : ستره ، واستجن

بجنته استتر بها : وجن عليه الليل ، وواراه جنان الليل أى ظلمته . « الأساس » ،

[٣] دب الشراب فى العروق : أى أثر وثار .

[٤] انظر كتاب « من أخلاق العلماء » ، ص ١٨٥ وقد نقل القصة عن تاريخ بغداد .

الشعر المسرحي

للمؤلف: محمد حمزة الشبوح

ليسانسه في الآداب

يتردد في الميدان المسرحي بين آن وآخر سؤال ، لا يكاد يحظى بجواب شاف ، من التأمين على المسرح وشئونه ، أو من الأدباء الذين يحفلون بالنقد المسرحي ، ويعالجونه بأقلامهم بين الحين والحين ...

والسؤال الحائر يريد أن يستكشف المحور الذي يدور حوله الشعر في المسرحيات ، والأفق الذي يمتد إليه بالبحث والدرس ، والدور الذي يقوم به في التمثيلات . وهو سؤال ، وإن بدا للناظر العابر ، ذا صبغة فنية خالصة ، إلا أن ذلك لا يمثل في الواقع ، غير جانب واحد من السؤال الذي نستطيع أن نصوغه صياغة أشمل وأعم لمعناه ومرماه ، فتمول : ما هي علاقة الفن بالظواهر التي تبدو لأعيننا ، أو بتجاربنا الحسية والعقلية والخيالية ؟

وفي الحق إن الرواية النثرية ، نظراً لبساطتها ، استطاعت اليوم أن تنتزع الغلبة من الرواية المنظومة ، حتى لقد أصبح النظم وسيلة تعبيرية شاقة ، لا يستجيب لها غير النذر اليسير من الأدباء ، الذين يدركون أن التمثيلات النثرية ، في جوهرها ، لا تخلو من الغرابة والشذوذ ، عما ألفه المسرح التمثيلي في أزهر أيامه ، وأحفلها بالتاج الفنى الرفيع ؛ بل إنهم ليرون المسرحيات النثرية جهداً ضائعاً ، وكفاحاً لا يثمر ، في سبيل ابتناء قصور فوق الرمال .

ونحن إذا نظرنا إلى شخصيات المسرحيات المنظومة ، وجدنا الشعر هو البوق الوحيد الذي لا تستطيع أن تنطق إلا من خلاله ، لأن الشعر يعتبر قوامها ، الذي لا فكاك لها عنه ، ونسيجها الذي لا يمكنها الظهور إلا من بين ثيابه ؛ بل إننا لنحكم على تلك الشخصيات حكماً جائراً كل الجور إذا أردنا لها غير الشعر وسيلة من وسائل التعبير . فمثل هذه الشخصيات تفترق عن تلك التي تصادفنا في حياتنا

اليومية ، لأنها قد انصهرت في بوتقة التشذيب والتبسيط Simplification . ثم تعرضت بعد ذلك لتركيز ألوانها ، والمبالغة في أصباغها ، حتى غدت الدوافع الأولية ، التي تحملها على أقوالها وأعمالها ، أكثر وضوحاً وجلاء ، عنها في الحياة الواقعية التي اضطرب في موكبها ، وتختلط علينا ظواهرها ، وتتشابك أوضاعها ، وتتداخل ظلالها . وهذه العملية التي تنهض على التشذيب ، وتقوم على التبسيط للقوى التي تتألف منها دوافع الحياة اليومية ، لا بد أن تسير في ركابها عملية أخرى ، يستحيل بها ما تواضعنا عليه في الحياة اليومية من أدوات تعبيرية سقيمة ، إلى صور بيانية رائعة كالاستعارة Metaphor والتشبيه Simile وغيرهما .

وإلى جانب ذلك فالشخصيات التي نستعرضها فوق المسرح ، تكون أقوى سحراً ، وأشد تأثيراً من الشخصيات التي تقابلها في الحياة اليومية . . . ويعزى ذلك لما تمتاز به الشخصيات المسرحية من طابع منتظم ، ومظهر رتيب exaggerates shapeliness ، يعوز ما تموج به الحياة الواقعية من شخصيات يسودها اختلاط الطبع ، وغموض الطابع ، ومثل هذه الشخصيات ، بما تمتاز به من نظام وانتظام ، لا بد أن تفرغ حديثها في أسلوب تمتاز به هو الآخر ، ويسير جنباً إلى جنب مع مظهرها وطابعها . ومن ثم تتطابق في حديثها ، فإذا هو حديث يجري طبعياً ، كما تجري الدماء في الشرايين ، فيتوالى في أوزان مضبوطة ، كما تتوالى الدماء في ضربات منتظمة ، ولسكنا نجد للنظم ، فوق ذلك كله ، وظائف أخرى في التمثيليات الشعرية . وسواء اتفق النقاد الأدبيون أم لم يتفقوا على أن انتظام الطابع في الشخصيات المسرحية ، وتركيز ظلالها ، يستتبعان استنطاقها شعراً ، فإننا على أي حال ، لن نجد بينهم من ينكر إمكان صياغة الرواية الناجمة بأسرها ، في قالب شعري خالص ، يخلو من الصنعة ، التي تجافي الذوق الأدبي السليم ، وتتفق مع تيار الحياة نفسها ، ومن ثم تزداد مقاومة الشخصيات لذلك التيار ، كما يزداد توهجها ، وتزدهي ألوانها ولذلك فإن كل لفظة في التمثيلية المنظومة ، لا بد أن يحقق غرضين إثنين فيزيد الشخصية إيضاحاً ، وينقل الأحداث خطوات إلى الأمام .

أما الهدف الذي ترمى إليه التمثيلية ، فهو وصف أدواء الحياة ، والبحث في وسائل علاجها . . . وهي تجسم هذه المشاكل ، وترسمها في قالب واضح ، عميق الأثر . وهكذا تصبح التمثيلية وسيلة عميقة النفع في تصوير الحياة ونقدها .

وليس التعبير الشعرى فى التمثيلية ، بالنسبة للتجارب التى تصورها ، إلا كالخمر بالنسبة للسكرم . ولذا نستطيع أن ننظر الى استخدام الشعر فى التمثيلات كطريقة لتحقيق طبيعتها الأصلية التى تكمن وراء الفكرة Conception ، والتعبير expression .

والتعبير الشعرى ، لا يهوى للفكرة الشعرية مجالا فسيحا فحسب ، بل إنه يتيح لها ، الى جانب ذلك ، أن تصل من نفوسنا الى أغوار لا يصل إليها النثر ، مهما كان حظه من البلاغة موفورا .

ولعل السر الغامض الدقيق فى ذلك ، هو بعد ما بين الشعر والمظهر الخارجى للحياة ، وقرب ما بينه وبين الرغبات الروحية التى تعتمل بين جوانحنا ، والتى لا نستطيع أن نجد لها صدق حقيقيا فى الحياة الواقعية .

ونحن نستطيع بعد ما تقدم ، أن نجمل الهدف الذى يتجه الشعر التمثيلى نحو تحقيقه . . ذلك الشعر الذى يسرى فى أجسادنا ، وأرواحنا ، وعمولنا ، فيوقظ منا الحواس ، والعواطف ، والقوى المفكرة ، ويربط بينها جميعا فى انسجام عجيب ، قوامه الشعور بالذات الذى يستحيل معه ذلك المصير الغامض ، الذى ينساق إليه الإنسان فى حياته ، إلى ضوء شامل غامر ، يستمد بريقه وبهاؤه من ذواتنا ، بل من رغباتنا العميقة التى تستقر فى أغوار نفوسنا .

فالتمثيلية الشعرية ، إنما ترمى إلى الكشف لسامعيها ، عن مواطن السرور فى الحياة ، وعن التوى الكامنة فى النفوس البشرية ، التى تيسر لها الحياة الرغيدة الصافية ، بل إنها لتجعل تلك القوى حقيقة واقعة ، ماثلة أمام أبصارنا ، يتردد صداها فى آذاننا كلما خلونا إلى أنفسنا بين الحين والحين . . وجماع ذلك كله أن الشخصيات التى نشاهدها فوق المسرح ، وهى تفرغ حديثها فى أشعار طبيعية ، لا صنعة فيها ولا اصطناع ، إنما هى شخصيات تحفل شتى جنباتها بالحياة العميقة المفعمة بالقوة والصدق فى أوجهها ، ومن ثم فإننا لا نعجب حين نراها تواجه المصير ، الذى يختاره لها الشاعر ، فى عزة وشم وإباء نمجدها جميعا ، وتتمنى أن يكون لنا منها قدر يسير حتى نحيا كها حين تتلاطم أماننا أمواج الحياة ، حتى لنكاد نضل فى مسارها المتشابكة ، وشعابها الفسيحة المتفرقة .

عجالات في الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمي

مدرس : معهد القاهرة

كلما خلوت إلى كتاب من تراثنا الخالد وأدبنا الذي تعمق في القدم وجرى على أسلة الأفلام الفذة ، وتمخضت عنه الترائخ التي يعتز بها تاريخ الأدب العربي والتأج الإسلامى . أجدنى أمام مخلفات حية ولغات مشرقة تزيد على مر الأجيال صدقا ، وكأنما ألهم صاحبها أو كأن الغيب طوى له . فعبر فى أسلوب أو شرح خالجة أو صرف فكرة ، أو ألقى تجربة ، أو رسم معلما فيه هداية اليراعات التى تزيد النسيج فى معترك المجتمعات السادرة ، والسارية فى مهاب الحياة والأحياء وفى بيئات مترامية كما شاءت الأزمنة والامكنة .

والأفلام القديمة المفتنة كان فى أكثرها ظلال الاستطراد وشاهدنا قلم الجاحظ ، وصناعته فى (كتاب الحيوان) أكبر دليل ... وحتى الأوائل من مؤرخى الحياة الإسلامية والعربية نجد عند كثير منهم مزج الطرفة بالفكرة بالحظ الذى يهدف إليه المؤرخ ، وعندما تطالع صفحات من (مروج الذهب) يداخلك العجب والدهش ما دمت فى صحبة (المسعودى) .

ولن أطيل ولن أرهق القارئ بنقل نصوص يضيق بها فراغ (الصحيفة) . غير أنى بصدد التحدث عن (حوار) يلقانى وألقاه فى كتب الأدب القديم ويعجبني ويحلولى أن ينتفع كل مصاحب للقداى من كتابنا به فإذا تدبرنا فن الحوار ووقفنا عنده طويلا وقارنا بينه وبين آثار من (يعاصرنا) من ضياع الحوار الذين نعدهم فى الطليعة المحدثه المجددة نجد ، بل نشهد ، بل نصفق إعجابا للسبق الموفق والاستعداد القوى والموهبة عند (صاحب الأغاني) مثلا .

فأنت أيها القارئ الكريم إذا صحبتته حين يتص أخبار عمر بن أبى ربيعة فى الجزء الأول ، وإذا خضت فى مؤلفه وما جمعه عن امرئ القيس أو الفرزدق

ثم طويت الكتاب وعدت ثانية إلى قطع متجاورة أو متباعدة من (الصياغة) القلمية وجدت أبا الفرج الاصفهاني يكاد يبلغ القمة في علاج الحادثة وإن صغرت والفكرة وإن بلغت من القصر والايجاز مبلغا قد يلفت بعض القراء ، فتد يبلغ بها مبلغ السحر والإعجاز من فرط اليسر والاتقان والامعان في التصوير الفني البياني وهو الذي لا يبارى في سبك الحوار وإلباس الفكرة ما يمتلك في خفه ويزفك في إطراب ويحملك على جناح النشوة ، وهو نسيح وحده حين يتص موقف أمير الشعر الجاهلي مع الفتيات اللاهيات في « دارة جلجل » .

ولا يعنيني هنا مبلغ ما فيها من مطابقة ما وقع لامرئ التمس ، ولكن الذي لا مرية فيه ، أن صاحب الأغاني ابتكر علاجاً جذاباً وإخراجاً محاوراً صادقا للحياة اللاهية اللالعة حين ينبغي أو تبغى الفتيان والفتيات الإقبال على الاستمتاع باللهو في مفاتن الماء بصحراء العرب .

حتى إذا جددت الحياة الإسلامية ولعب الفرزدق وأمثاله أدوارهم في حمل راية الشعر في عواصم النهضة الإسلامية ، ووجدوا سابقات لامرئ التمس وأضرابه فسولت لهم حياة الشعر والشعراء أن يظفروا بما لأمثالهم من السابقين فقلدوا أو كانوا على إصالة من وحي حياتهم .

ورأينا الفرزدق أو رأينا التاريخ يروى له كما روى لامرئ التمس .
ووجدنا صاحب الأغاني يتص قصته ويتص ما تعرض له الفرزدق من قسوة الحسان .

ولكن الذي أريد الإشارة إليه هو التحايل والتحاوير في إخراج القصة إخراجاً جميلاً موفقاً ممتعا حتماً وخالداً حتماً .

* * *

وكأنني بصاحب الأغاني قد راعى التناسق حين أراد أن يكتب (أخبار) فتى قریش وشاعرها (عمر بن أبي ربيعة) الذي طعم شعره بالحوار الشعري .
كأنني به راعى التناسب فطعم أغلب ما كتبه عن ذلك الشاعر بتعابير حوارية كلما قص أقصوه أو روى خبراً عن خروج الشاعر إلى الطائف أو قفوله إلى مكة في مصيفه أو مشتهه في ملاعبه بين جواريه أو غادات السراة من قریش وأعتقد أن نقلي (الشواهد هنا) لا مكان له لأن كتاب الأغاني في متناول كل قارئ أدب أو دارس فن يؤرخ حياة الشعراء والأدباء .

وقد لا يروق القارئ الملم بالمسكبة العربية ، أن أعتمد عجالتى السارية الخفة التى أجعلها كنغمة الطائر العجلان .

قد لا يروقه أن أقف عند صاحب الأغاني ، ولذلك أبادر فأشير إلى قصص الأيام - وإن كان حوار من عاجلها إذ بعض ما جاء فيها من حوار لا يرتفع إلى صناعة « الأغاني » -

أشير إلى ملاحم العرب وإلى القصص الذى جاء فى تلمس منبت المثل وما نسميه مضربه ثم مورده وشاهدى كتاب الأمثال للميداني وغيره من مجاميع الأمثال للمؤلفين التدمامى .

والذى لا خلاف عليه أن القرار أعلن بالقاص وأقرب إلى راوى الحادثة ، وإن كان لا يلزم فى السرد .

والذى شاع وذاع أن الأدب العربى القديم يخلو من القصة ولكن هنا أشير إلى أن أدبنا سبق بل هو سباق إلى وسيلة من وسائل التعبير الفنى .

وفى ذلك دفاع تلقى به فى وجه من يرمى أقلامنا القديمة بالعقم . ولو انفتح باب القصة عند التدمامى الأوائل لوجدنا الإجادة الكاملة عندهم غير متنازع عليها .

ولا نريد هنا أن نستدل بما جد فى أواخر الدولة العباسية أو بما زاوله الأندلسيون أخيراً من قصص ، فذلك ليس من همنا فى هذه العجالة .

وفن المقامة رغب الناس عنه لأنه خرج فى ثوب « لغوى » لا يروق إلا من تريد حصيلة من الألفاظ اللغوية .

وليس ذلك فحسب ، وإنما أغفل وفرة حظ المرأة فى صميم الحياة هنالك . ولهذا فإنى أعذر من يشيخ عن المقامة ، إذا أراد أن يجد فيها صدق ما يجده عند صاحب الأغاني وأمثاله من كل مؤرخ أو راصد لأحداث جدد فى معترك الحياة السياسية أو الأدبية أو الاجتماعية .

وهناك فى المسكبة العربية كتب طريفة تعرضت لحياة الظرف والظرفاء ، وإلى مفارقات لازمت « الحلقى والمغفلين » ، ومضحكات من (البخلاء) و (المتماجنين) وغير ذلك من مضطربات الجوازي وكبار المفتنين من المغنين ، ولعلى أجد فسحة من الوقت فأعود إلى تفصيل واستشهاد فى عجالتى التالية .

القتال عند المسلمين

للمستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

كانت أسلحة القتال عند المسلمين على نوعين : السلاح البرى والسلاح البحرى وكانت العناية موجهة الى النوع الأول بصفة خاصة وإن لم يحرم النوع الثانى خلال معظم العهود من العناية الكاملة وكان السلاحان يسيران سنة التقدم والتطور ويخضعان لتقدم العلم والحضارة .

كان الخلفاء يسخون فى إمداد الجند وإعدادهم بالعتاد الحربى والمؤن الوفيرة - وكان الجيش البرى يتألف من الفرسان والمشاة وكان الفرسان يتسلحون بالسيف والرمح والدروع - أما المشاة فكان عتادهم الحراب والأقواس والسهام والدروع . وكانت هذه الأسلحة هى المستعملة عند العرب قبل الإسلام وعند غيرهم أيضاً من معظم شعوب العالم .

وقد استعمل المسلمون المنجنقيات وكان أول من رمى بها فى الإسلام الرسول عليه السلام عندما طارد فلول ثقيف إلى الطائف حيث اعتصموا بالحصون ، ورموا المسلمين بالنبال من فوقها (والمنجنيق : أداة ترمى بها الحجارة إلى مسافات بعيدة وارتفاع كبير) .

كذلك سير الرسول إليهم الدبابات وهى من آلات الحرب ، وكان المحاربون يدخلون فى جوفها ويدفعونها إلى الحصن ، فيثقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من أسلحة العدو - كذلك استعمل الرسول الضَّبَّور وهى مثل الدبابة تقريباً ، تصنع من الخشب المغطى بالجلد ، ويكون فيها المهاجمون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها وهى تشبه إلى حد كبير السيارات المدرعة اليوم .

وقد لعبت هذه الآلات دوراً عظيماً فى الفتوحات الإسلامية ، وكان الرماة أهم فرق الجيش البرى - فتمد كانوا فى المقدمة لصدهم هجمات الفرسان بالرمح ،

وكانوا يرتدون أقبية قصيرة متدلّية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالاً ومن خلفهم يقف المشاة في صفوف مترابطة ، وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والحلّة بربيش النسر .

وقد أثر اختلاط العرب بالفرس والروم وغيرهم في تحسين نوع الأسلحة وفي تنظيم الجيوش الإسلامية ، ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم إلى الأسلحة التي استعملوها فحسب بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والصبر على تحمل الشدائد والحماس الديني وبذل النفس .

وقد أورد المسعودي في كتابه مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ بعضاً من الأسلحة الحربية التي استعملها جند المأمون العباسي عند حصارهم بغداد ، ومن هذا الوصف نتبين أن الجند كانوا يحاربون وفي أوساطهم التباين (والتبّان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلطة) والمناظر (الإزار : كل ما يستر الجسم) ويغطون رؤوسهم بالخوذ ، واتخذوا الدرق من الخوص (الدرق : هي ترس من الجلد ليس به خشب) واتخذوا البوارى (البورى أو البورية : الحصار المنسوج من القصب وهو فارسي معرب) وقد طليت بالقار وحشيت بالرمل والحصى .. على كل عشرة من المقاتلين عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقيب قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل مرتبته .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية بخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذي اهتم بالجيش اهتماماً كبيراً وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ، ولما ولى المتوكل الخلافة العباسية أمر الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعونها في مناطق حول وسطهم .

واتمد أنشأ العباسيون الحصون على تخوم الدولة الإسلامية وهي الثغور وهذا نوع من أنواع الشؤون الحربية التي تدل على نشاط المسلمين ، وقد كانت حدود سوريا المتاخمة لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة للعباسيين من جيرانهم الروم لذلك أقيمت هذه الثغور وهي طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الثغور يتناولها العباسيون أحياناً والروم أحياناً أخرى أثناء الحرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هَبْنَانِ بَدَلٌ

نعود إلى نقد ما تصدينا له من كتاب الأستاذ خالد محمد (ليس من هنا نبدأ) فنقول بعد الاطلاع على ما كتبه في الاشتراكية وفي تفصيل ما يجنيه الأجانب من ثرواتنا .

اطلع الأستاذ كما اطلع غيره على أعمال الأوربيين وتفانيهم في الذهاب بعلومهم ومدنيتهم إلى الغايات البعيدة ، وإلى ما يحملهم ذلك على الاحتكاك بالشرق للاستفادة من ثرواته التي أهملها أهلها ، بل التي يجهلونها ، ودرس بعض أساليبهم في الاستيلاء عليها ، رأى ذلك كله فأثر في صميم قلبه ، كما يؤثر في صميم قلب كل وطني محب لبلده ، وفي لقومه ؛ فشرع يهيب بهم إلى الاستفادة من خيرات بلادهم ، وكف يد الأجانب عنها ، ولم يدع وجها من وجوه التأثير في إيقاظ العزمات إلا أتى عليه في عبارات بليغة ، وصراحة جريئة .

ونحن نحیی في هذه النزعة الشرقية ، ولكننا نرى أن ما كتبه يضر أكثر مما ينفع ، فإن الأمم لا تنهض من سباتها بالكتابة ، ولكن بالعمل ، ولا تسير إلى أغراضها طفوراً ، ولكن تدرجا ، وفي أزمان مناسبة ، لا في عشية وضحاها ؛ فهل يشب الطفل إن ذكرت له مزايا الشيبية ، أو يُيسل العليل إن سردت عليه مُتَعِ الصحة ؟ .

ان الأوربيين وصلوا من العلم إلى آفاق بعيدة ، واستحدثوا من الآلات ما يمدح أمامهم كل العقبات التي تصادفهم ، فيستطيعون أن يحفروا منجماً يسع عشرات العمال لاستخراج معادنه الثمينة بواسطة آلاتهم الحديدية القوية ، قبل أن يستطيع غيرهم أن يحفروا ساقية صغيرة . أضف إلى ذلك أنهم درسوا أنواع المعادن الممكنة

في باطن الأرض ، وعرفوا كيفية استخراجها واستخلاصها مما علق بها ، وعلموا مزاياها وفوائدها ، وطرق استخدامها ، واشتدت حاجتهم إليها ، وتحققوا أنها توجد في بلاد غير بلادهم . فأى طريق يسلكونها غير استئذان الأمم التي تملك الأراضي التي توجد في باطنها ، في أن يتولوا استخراجها والانتفاع بها إزاء دفع قدر من المال يتفقون عليه بينهما ؟

في هذه الحالة لا يسع الشعوب المستضعفة إلا قبول ما يعرض عليهم لشعورهم بعجزهم عن القيام بالاستفادة منها ، فيرون أن الانتفاع بمقابل استغلالها خير من تعطيلها . فإذا كان من حق أهل العلم من أبنائها التأثير من انتفاع الغير بها دون قومهم ، فمن واجبهم أيضاً أن يعرفوا أن الضن بها يعرض استقلالهم للخطر ، فإن الأمم القوية لا تعدم وسيلة لإخضاعهم لإرادتها ، وفي هذا ما فيه من العدوان على وجودها . فينحصر الواجب والحالة هذه على هؤلاء الغيورين أن ينصحوا أقوامهم بإنفاق ما يستفيدونه من إيجارها في إنهاض أمهم من كبواتها بنشر التعليم في جميع طبقاتها ، وإرسال النباه منهم إلى البلاد الأوربية لتلقى العلم والتمهر في الصناعات المختلفة ، حتى إذا آبوا إلى بلادهم نزعوا لتطبيق علومهم وصناعاتهم على العمل ، وعاونوا حكومتهم على الانتفاع بخيرات بلادهم ، واستغلال ثرواتهم الطبيعية .

ولكن مؤلفنا الأستاذ خالد محمد لم يسلك هذه الطريقة ، وعمد إلى النعي على تلك الأمم الى تسمح للأجانب باستثمار خيرات بلادها ، وتقف هي مكتوفة الأيدي إزاءها . فهل كان يمكنها أن تقف هذا الموقف وهي تعرف الوسيلة لاستغلالها ؟ إن الأستاذ خالد أكثر في كتابه من مثل قوله :

« نحن نعيش في عصر ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب ، وإزاحة كل العوائق التي تعترضها ، وتصدها عن غايتها المقدسة .

« أما عندنا فمن الخير أن نعتزف بأن جماعة من أصحاب المصالح الكبيرة . وكثيراً ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ، يتربصون بكل وعى حر ، وكل محاولة عادلة ! ولعلنا لم نفس بعد ، الصراع الشاق الذي دار بين حكومة النقراشي باشا والجماعة المذكورة بشأن الضريبة التصاعدية .

« هؤلاء المواطنون ، وإنا لندرجو أن يقدرُوا جلال هذا القلب ، ويحتمقوا لأنفسهم معناه - يلعبون بالنار ، ويتحملون مسؤولية مباشرة في كل جريمة ترتكب ضد سلام المجتمع وسلامته ، وأن الشريعة الإسلامية التي يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم لتعتبرهم شركاء أصليين في الجريمة » ونحن نقول :

ماذا نفيد هذه العبارات في إصلاح عوج قائم على أسباب قوية ، وهي الجهالة المنتشرة ، والوطنية الضعيفة ، والعلل الاجتماعية التي لا تصادف علاجاً شافياً ؟

الأولى من كل هذا أن يتولى الأستاذ الناس بالعطف ، وأن يدلهم على طريق الخير ، وأن يثبت لهم أن الطفرة محال ، وأن التدرج في سبيل العمل لا بد منه . ذلك لأنه حيال جماهير ولدت في بيئات خالية من جميع عوامل التربية الشعبية . نعم ، كغيرهم من الأمم التي تزامهم ، ولكن هؤلاء لم يبلوا بما يلي الشرقيون من الجماعات المستعمرة ذات الوسائل السحرية في تدويخ الشعوب ، وتعريتها من جميع مرافق الحياة .

فالوسيلة الوحيدة لحفظ حياة هذه الشعوب هي أن تعتمد إلى تثقيف أبنائها ، وتحليلتهم بجميع ضروب المعارف لتكوين روح شعبية قوية . ومتى وجدت هذه الروح اندفعت للعمل على إيجاد مطالبها ، فتدخل والمطامع الاستعمارية الخارجية في تطاحن مستمر بجميع وسائله المعروفة . ويكون لها الفوز في النهاية ، إن لم يكن بكل ما تريد ، فبأكثره ، ثم تكرر كرة أخيرة فتحصل على الباقي منه خالصاً غير مشوب . هذه هي الطريقة العملية لاسترداد الشعوب الضعيفة لاستقلالها ، ولإقصاء الشهوات الاستعمارية التي تزامها في وجودها عنها .

فاذا ألقينا الآن نظرة فاحصة على الشعوب الضعيفة التي يستغل المستعمرون أراضيها ومعادنها ، وجدناها تنفق ما تحصله من إيراداتها - وقد تكون ضخمة - على شهوات قادتها ورؤسائها ، مهملات في سبيل ذلك كل ما يتعلق بتثقيف أبنائها تثقيفاً عالياً يدفعهم للعمل بعلومهم ، فإن لم يوجد ، فإن ثقافتهم تدفعهم للعمل على إيجادها ، ولا تستطيع أن تقف في وجوههم قوة . نعم إنهم قد يصادفون عقبات جمة ، ولكنهم لا يزالون بها حتى يجتازوها ، ويحصلوا على خيرات بلادهم كاملة غير منقوصة .

الاشتراكية : أرى أن مؤلفنا خالد أفندى محمد قد أولع بالاشتراكية ، فروى عن أبي ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : عجبت لمن لا يجد القوت في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه . ونحن نستبعد أن يكون أبو ذر الغفاري هو قائل هذا البيت ، لأنه من أبعد الأقوال عن التعاليم الإسلامية ، ومن أقربها إلى صميم الجاهلية ، وقد عقب خالد أفندى على هذا القول بقوله :

« إننى رغم إعجابى الشديد بأبي ذر العظيم ، لا أتمنى ذلك الذى تمناه ، وهو أن يخرج الجياع شاهرين سيوفهم . وإنما أتمنى شيئاً آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجهرة بالإرادة والعزم ، وهو أن لا يوجد بيننا جوع ولا جيع ، وإنما على ذلك لقادرون إذا انتهجنا منهجاً اشتراكياً صحيحاً شاملاً .
قرأنا هذا وعجبنا كيف يطالب قوما بأن يتمذهبوا فى شؤونهم المالية بمذهب لم تتأد إليه معضلاتهم التعاملية ، ولم تقتضه مشكلاتهم التعاوضية ، وهل هو يرى أن تقوم الحكومة بفرض الاشتراكية على الناس كما تفرض عليهم القوانين وتحملهم على العمل بها وتجازى من يشذ عنها منهم ؟

إن النظم الاشتراكية لم يفكر فيها التأمنون بها إلا بعد أن اصطدمت أعمالهم المالية فى عقبات كأداء ، لا تحل إلا باحداث انقلابات أساسية فى موضوع توزيع الثروة العامة ، وهذا عرض لا يحدث إلا بعد أن تكون الشؤون المالية قد تعقدت بحيث لا يحلها إلا أن تدخل فى نظام جديد مبتكر ، فهى علاج لاشكالات طرأت لا ترقية لأساليب قدمت ووهنت .

ومن الغريب أن الأستاذ يقول بذلك فى بلد لم يرد على بال المشتغلين فيه بالأمور المالية أنه سيأتى يوم يكون فيه التبادل من أعقد المسائل ، ويحتاج إلى حلول من أعقد ما فكر فيه المفكرون فى الشؤون الاجتماعية .

وهل يرى الأستاذ أن من الحكمة أن يحول نظامنا التعاملى إلى اشتراكى دون أن نشعرنا بالأحوال الطارئة بوجوب التفكير فى إصلاحه ؟ وهل يصح أن نتوسل بالإهابة بالناس إليه ، ووجوب تعويلهم عليه ، وسوادهم الأعظم لا يعرف عنه شيئاً ؟

هذا ومن العجيب أن الأستاذ المؤلف يقول :

« والآن ، وقد استبان لنا أن الحزب هو السلام ، وأن مرد كل تأخر وانحيار

وتذمر إلى الفقر وما يعاينه الشعب من خصاصة وحرمان ، فقد آن لنا أن نضع أقدامنا على الطريق الذى يفضى بنا إلى الغاية النبيلة التى يتحقق ببلوغها معنى وجودنا وحياتنا ، فأين هذا الطريق . . ؟

« لا شئ سوى الاشتراكية » .

ثم يقول :

« لقد انعقد إجماع العالم المتحضر كله ، على أن النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى فى الوقت الحاضر هو الاشتراكية - ويتجلى هذا الإجماع العالمى الرشيد فى أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله ، ولكنّه فى شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة ، وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قمم الاشتراكية العليا دون أن تنهم نفسها ، أو يهتم بعضها بعضاً بتلك التهم المعروفة التى تملك منها رصيداً ضخماً » .

نعم من العجيب أن يقول كاتب مسئول مثل هذا القول ، وكل الناس يعلمون أن أساس الاشتراكية أبطال الملكية الفردية والوراثة ، ولا يوجد شئ من ذلك فى أية أمة من الأمم الأوروبية غير التى وقعت بعد الحرب داخل السور الحديدي وهى بولونيا ونحو نصف المانيا وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا والباينا ، وهذه الأمم اضطرت الى ذلك بما جرت إليه الحرب العامة الأخيرة من أحداث . أما الدول الكبرى الأخرى فليس بينها وبين الاشتراكية أية صلة ، وكل ما حدث فيها من أحداث فهو اعتمادها على طريقة الضمان الاجتماعى فى ضرب الضرائب الكبيرة على ثروات المثرين ، وتدارك حاجات العمال والمحتاجين مما تحصله منها . فنجحت هذه الوسيلة نجاحاً عظيماً ولم تلق الدعوة إلى الاشتراكية فيها نجاحاً يذكر ، إذ لم تصل نسبة عدد نوابهم فى المجالس النيابية إلى أكثر من الخمس ، وهى نسبة لا تقربهم من الحكم ولا تطمعهم فيه . وإذا كان الأمر كذلك ، وهو ظاهر مكشوف ، فلا يصح أن يبالغ مؤلفنا فى نجاح الاشتراكية إلى الحد الذى وصل إليه فى كتابه الذى بين أيدينا ؟

محمد فريد ومبرى

النفسية

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المنعم أحمد النمر

المدرس بالأزهر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » .
« ١٠٥ » سورة النساء

أستعين بالله الذى أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وأستمد منه التوفيق فيما عزمت عليه من موافاة هذه المجلة بما يتيسر لى من الكشف عن بعض معانى وأغراض القرآن الكريم ، منتقلا بين آياته مختاراً منها ما يكون أوفر اتصالاً بحياتنا وأكثر مساساً بمشاكلنا ، معنياً بالمعنى والغرض العام للآية ، أكثر من عنايتى بمباحثها اللفظية ، ومكتفياً فى ذلك بما يفتح لنا الطريق إلى المعنى ، تاركا التفصيلات والأوجه البلاغية والنحوية وغيرها إلى كتب التفسير التى وجهت إليها جل عنايتها ، والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

المفردات :

« بالحق » متلبساً بالحق مشتملاً عليه ، فهو نازل من عند الله حقيقة وليس سحراً ولا كهانة ولا من أساطير الأولين ، كما أنه مشتمل على الحق من حيث المبادئ والأحكام والقصص ، فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير « متشابهاً مثنى » لم تزد الأيام ومكتشفات العقول إلا عظمة وروعة ، ولعل مما

يكشف لنا عن هاتين الناحيتين في تفسيرنا « بالحق » قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

« بما أراك الله » بما عرفك الله إياه مما أوحى به إليك ووجهك إليه من نظر جار على سنن الوحي ، وليس منه الميل مع الهوى والعصية .

« ولا تسكن للنخائين خصيما » مخاصما ومجادلا ومدافعا عنهم .

نتناول هذه الآيات من النواحي الآتية :

(١) صلتها بما قبلها . (٢) سبب نزولها . (٣) القرآن والحكم . (٤) الرسول والعمل بالرأى ، وهل يجوز عليه أن يخطئ . (٥) الدفاع عن الجنة وموقف القرآن منه .

(١) ساق الله قبل هذه الآية ، آيات كثيرة تحض المؤمنين على قتال الكفار وترسم لهم الطريق إلى المحافظة على العقيدة بقوة الاستعداد ، وتوضح لهم ما ينتظر المؤمن المجاهد من ثواب الدنيا والآخرة ، ولقد كثر الحديث عن هذا كثرة ربما تدفع المؤمنين إلى الاستهانة بالحق إن كان في جانب المخالفين ، وتجعلهم يفرطون في إقامة العدل إن خرج نطاقه عن المسلمين ، وجاءت حادثة كشفت عن نفوس تدعو إلى عصية إسلامية تلمس الحق وتجرف العدل وتظن أن اتفاقها في الدين مع الحاكم - وهو الرسول - يخليها من إثمها ويحمل الرسول على التعصب لها ضد الآخرين الذين ليسوا على دينهم ، ولو كان في جانبهم الحق ، فكان من المناسب إذن - بعد آيات الجهاد والقتال والضرب على يد الأعداء المخالفين - أن يذكر الله هذه الآية التي تجعل الحق والعدل هو الأساس الذي يبنى عليه كل حاكم وحكمه وملكه ، حتى يضرب صفحا عن باقي الاعتبارات ، نعم ! ليس الحق هو المعبود الذي تتجه إليه القلوب ! وهل يمكن أن تقوم الدولة إلا على قوة السواعد وقوة النفوس ؟ !

وأما الحادثة التي كانت السبب في نزول هذه الآية ، فقد ذكر المفسرون روايات

إن اختلفت في بعض أشخاصها ، فإنها لم تخرج كلها عن موضوع متقارب : رجل من المسلمين سرق درعا من مسلم آخر ، ولما وجد أن أمره سيفتضح ، عمل على التخلص من جنائته ، وحاول أن يلصقها بغيره ، وهذا الغير على أكثر الروايات يهودى ، وتجمع المسلمون من أسرة السارق يحاولون نفي التهمة عنه عند رسول الله ، وإلصاقها بهذا اليهودى ، مستغلين في ذلك العصبية الدينية ، فهم مسلمون يشهدون ببراءة صاحبهم وإدانة اليهودى الذى لا يدين بطاعة الله ولا لرسوله ! بل إن بعض الروايات تقرر أنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا ، وأنهم صارحوا الرسول بفتيهم ، وكشفوا له عن عصبيتهم مع شهادتهم ، أى أنهم استعانوا على إخفاء الجاني بشهادتهم له ، وإثارة العصبية الدينية ضد اليهودى الذى ألصقوا به التهمة ، ولا ننسى أن الرسول بشر له الظاهر ، وأنه يميل بطبعه للمسلمين أتباعه وأنصاره ، ويفترض فيهم الصدق ، ويجب أن يكونوا بعيدين عن هذه الخيانة ، فربما تجمع ذلك كله أمامه ، ومال به إلى إصدار الحكم على اليهودى ، فأنزل الله هذه الآية الحكيمة التى تقرر مبدأ من أسس المبادئ التى يقوم عليها صلاح الحاكم والمحكوم ، وهيبة الحكم وسلامة الدولة : العدل والحق يجب ألا يحجبهما غبار الأرض ، ولا يشوه من جمالها شهوة أو عصبية « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ما أسعد المجتمع حين يأخذ بهذا المبدأ ، ويرجع الحاكم إلى الكتاب ليحكم به بين الناس !! .



نعم ، فالقرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعبد هو والمسلمون بتلاوته فقط ، ولم ينزل ليثبت في نفوسهم الصبر والسكينة والموعظة فقط حين يتقص أخبار الماضين ، ولم ينزل ليأخذ المسلمين ببعض العبادات والفضائل فقط ، بل نزل بهذا كله ، وتنظيم الحياة ووضعها على أسس فاضلة لخلق مجتمع سعيد ، ورسم خطوطاً عامة ، بل وخاصة لهذا المجتمع ، وجابه طبائع النفوس بما يصلحها ويقوّمها ، ووجه الرسول صلوات الله عليه والمسلمين توجيهات مفصلة ، استطاعوا على ضوئها أن يقيموا دولة الإسلام العادلة فوق أنقاض امبراطوريات شاخت ، وسرى فيها الفساد .

وهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً؟ سؤال تردد كثيراً وزاد ترداده في هذه الأيام التي اشرأبت إليها أعناق كرام المسلمين يوجهون قافلتهم إلى النور الذي يشع من كتابهم ليعيشوا تحت ضوئه وفي رحابه .

لقد رأينا بعض العلماء يتمولون - لهوى في نفوسهم نعرفه - : ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً ، ولئن باشر الحكم ، لقد كان ذلك من ضرورات المجتمع الذي وجد فيه . أى كما تحكم الضرورة على شيخ القبيلة أن يحكم بين أفراد قبيلته ، ولقد نسى هؤلاء أو تناسوا كثيراً من آيات القرآن الصريحة التي تلزم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم بما أنزله الله عليه ، وتنبه المسلمين في شدة إلى النزول عند حكمه والتسليم لأمره ، ولا أدري كيف غفلوا أو جاز لهم أن يتغافلوا عن هذه الآية التي معنا ، وعن آيات كثيرة نذكر بعضها هنا :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم » ^(١) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ^(٢) وهذه الآيات التي نزلت تبين حكم السارق والزاني والقاتل وقاطع الطريق ، وتعرض لشئون القتال من إعلان الحرب وتنظيمها ، والاستعداد لها ، وإعلان الهدنة ، ونقضها ، والتصرف في المال ، وغير ذلك من شئون الحياة التفصيلية . هل تعرض لها القرآن وشغل بها الوحي والرسول صلى الله عليه وسلم عبثاً ، ولتلوها وتغنى بها ؟ ! أو أنه أتى بها للتنفيذ والتطبيق ، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم فعلاً بتنفيذها وتطبيقها ؟ !!

لقد باشر عليه الصلاة والسلام شئون الحكم في الحرب والسلم ، في الداخل وفي الخارج حينما راسل الملوك ، وكل هذا كان بتكليف من الله سبحانه وتعالى لاختضوعاً للضرورة ، كما يقول بعض الأدعياء !!

إن أية حكومة تحترم نفسها لا ترضى أن تسن قانوناً وتضع نظاماً ولا تنفذه

ولا تطلب من الناس تنفيذه ، وهل يعقل أن تصدر حكومة رشيدة أو مستبدة أوامر لا تحب تنفيذها وطاعتها ؟ وهل يمكن أن تقوم هذه الأوامر وهذه النظم إلا على يد حكام يرعونها ؛ وهل يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ؟ إن من العبث بل والعتة ، أن نقرأ هذه الأوامر القرآنية ننظم شؤون الحياة العملية في كل ناحية ثم نقول : ما للقرآن والحياة ، والتحكم في توجيهها ، وما للدين والسياسة ؟ ! فكرة خلقتها ورعاها حكام سفهاء ظالمون ، كرهوا أن يعيشوا بمقاييس الإسلام الفاضلة ، وأن يأخذوا أنفسهم بها أمام رعيّتهم ، وأحبوا أن يحبوا كما يريدون ، وكما تملى عليهم شهواتهم ، فعملوا على أن يقتلوا في رعيّتهم روح المراقبة الإسلامية الفاضلة التي تضع الحاكم والمحكوم تحت سلطانها ، فشطروا الدين شطرين : جعلوا لأنفسهم شطراً هو السياسة ، وللناس شطراً سموه الدين ، فللناس « دينهم » من عبادات وتهجدات في المحاريب ، وللحكام شطرهم الذي لا يتدخل فيه أحد غيرهم ، ولا يخضع طبعاً - حسب منطقهم - لمراقبة الإسلام ! وما للإسلام والسياسة ؟ ! ولقد استطاع أرباب الهوى والسلطان أن يركزوا هذه الفكرة في نفوس الناس على مر الأزمان ، حتى أصبح رجل الشارع المؤمن بكتاب الله إيمان العوام يقول ما للدين والسياسة ؟ ولقد قوى هذه الفكرة في البلاد الإسلامية أخيراً أن المباشرين لأمورها ، والمسئرين لأعمالها تربوا تربية غربية ، وتثقفوا ثقافة أوربية تقوم هناك على فصل الدين عن الدولة ، وهم بالطبع متشبعون بهذه الفكرة ، كما تشبعوا بغيرها من الأفكار الغربية الاستعمارية ، وساعدهم على هذا بعدهم عن الثقافة الإسلامية الصحيحة .

إن شعوب المسلمين وحكامهم في حاجة إلى أن يفهموا أن السياسة التي رسمها القرآن للحياة هي أفضل وأسمى سياسة ، وأن نهضتهم مرهونة بإحياء روح المراقبة الإسلامية في نفوسهم التي جعلت واحداً من رعية عمر رضى الله عنه يقول له في ملا من المسلمين : لو أخطأت يا عمر لقوتنك بحد سيفونا .

ولم يغضب عمر ، بل حمد الله على هذه الروح الإسلامية العالية التي جعلت في رعيته من يقول له هذا الكلام .

فهل ترانا فاعلين ؟ !!

فهم في آية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

يذكر المفسرون في معنى قوله تعالى في سورة الفرقان : « قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » عدة آراء ، بعضها فى معنى « ما » وهل هى استفهامية على معنى أى اعتداد يعتد بكم لولا دعاؤكم ، أو نافية على معنى لا يعبا الله بكم لولا دعاؤكم ، وبعضها فى معنى « دعاؤكم » وهل المراد به العبادة أو الالتجاء إلى الله والطلب منه ، أو الشكر له ، أو الدعوة إلى الدين الحق ، وهو الإسلام ، وبعضها فى المراد بقوله « فسوف يكون لزاما » ؟ .

وأحسن ما تحمل عليه الآية فى رأى أن « ما » نافية ، و « دعاؤكم » بمعنى دعوتكم إلى دين الحق ، والمعنى : أن الله لا يعبا بكم وليس لكم أى شأن معه ، ولا أى تدبير فى ملكه ، ولكنه إنما يضرب لكم الأمثال ، ويبين لكم الآيات والبراهين من أجل دعائكم إلى الحق ، ويبانه لكم ، لتم عليكم الحجة ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، وهاتم أولاء قد كذبتم فسوف يكون أثر تكذيبكم لزاماً عليكم يوم القيامة ، فلا تستطيعون منه تخلصاً ، ولا تزعمون أنكم كنتم عما أنذرتهم به غافلين .

* * *

إن من يشغل بالقرآن الكريم ، ويتدبر معانيه الشريفة ، وأساليبه الحكيمة وأهدافه التى يرمى إليها ، يرى أنه شديد العناية ببيان الحق ، واجتذاب القلوب والعقول إليه ، وأنه يسلك إلى ذلك كل سبيل من شأنه أن يلفت الأنظار ، وينبه الغافلين ، فتارة يضرب الأمثال بما خلق الله من الكائنات ، وبما أودعها من قوى وبما سخرها للإنسان ، وتارة يذكر ما أمد الله به الناس من نعم ، وما أفاضه عليهم من فيوض الرحمة والإمداد ، وتارة يخوفهم من عذابه ، ويحذرهم من شديد حسابه وتارة يرغبهم فيما عنده من متاع دائم لا يزول ولا يحول ، إلى غير ذلك

من المعاني التي ينتقل القرآن بين معانيها ، ويفتن في تصويرها ، واجتذاب الناس إليها .

قد يفهم من ذلك بعض ذوى العقول الضعيفة من أهل الكفران والعصيان ، أن الإنسان شيء له قيمة بجانب الألوهية ، وأن الله - جل وعلا - ما حفل به إلى هذا الحد ، فأفاض في الحديث إليه ، وضرب الأمثال له ، إلا لأنه مفتقر إلى عبادته ، حريص على أن يطوِّعه له لغرض يعود إليه ، فالله سبحانه وتعالى يبين لهؤلاء الذين لا تخلو البشرية من نظرتهم الخاطئة ، التي توسوس بها إليهم شياطينهم ، أنه إنما يحفل بهم ، ويعتد بشأنهم ، لمنفعتهم هم لا لمنفعته ، فإن حاجة الإنسان إلى هدى الله وبيانه وأخذه بيده إلى الصراط السوى في المعرفة والعمل ؛ ليست أقل من حاجته إلى الطعام الذى يقيمه ، والشراب الذى يحييه ، والهواء الذى يتنفسه ، ولو أن الله سبحانه وتعالى ترك الإنسان ونفسه ، فلم يرسل إليه الرسل ، ولم ينزل له الكتب لاضطرب في هذه الحياة أمره ، واختل ميزانه ، حتى ينتهى به هذا الاختلال وذلك الاضطراب إلى الفناء العاجل .

إن العقول تتفاوت ، والآراء تختلف ، وما يراه قوم من الناس حسناً قد يراه آخرون قبيحاً ، لا اختلاف البيئات وما يحيط بالناس من أسباب ظاهرة أو خفية تؤثر في آرائهم ، وتلعب بعقولهم ، بل إن الرجل الواحد قد يرى في وقت ما رأياً ثم يرى في وقت آخر خلافاً ، فتتغير نظرتة ، تبعاً لتغير الأسباب التى يعلمها أو لا يعلمها ، فإذا لم يكن للناس موازين وضوابط ينتهون إليها ، وينزلون على أحكامها فإن الخلاف بينهم يشتد ، والآراء تكثر ، وتكثر تبعاً لها عوامل النفرة والقطيعة .

ولو أردنا أن نتصور حال البشر دون أن تنزل عليهم هداية الله ، فانتا نمثل ذلك بحال قوم نشأوا في بادية منقطعة عن العالم لا يتصلون بأحد ولا يتصل بهم أحد ، وليس لديهم من أسباب العلم والحضارة شيء ، أليس هؤلاء يعيشون ما عاشوا هم لا يفقهون شيئاً ، ولا يدركون إلا ما يلمسونه بأيديهم ، ويرونه بأعينهم ، فإذا فرضنا أن الأمد طال بهم على هذا النحو فانهم لا ينتقلون في أطوار المعرفة والادراك الصحيح إلا انتقالاً بطيئاً لا يكاد يدرك ، فالبشرية - لولا الهداية

الربانية - مثلها كمثل هؤلاء القوم ، تمر عليها الدهور والأزمان دون أن تتقدم في مدارج الرقي والكمال ، ولو تقدمت لكان تقدمها بطيئاً بطيئاً ، ولعلنا نلح هذا المعنى في قوله تعالى « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبئليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى الأطوار التي مر بها الإنسان ، فالطور الأول هو الدهر الطويل الذي عاشت فيه الإنسانية عيشة الحيوان في الغاب ، لا تعلم من أمرها شيئاً في حاضرها أو ماضيها أو مستقبلها ، وذلك قبل انفتاح العقل البشري بسبب الهداية الإلهية عن الحقائق واستضاءته بنور المعارف ، والطور الأخير هو طور المعرفة والعلم الذي يصل ببعض الناس إلى الإيمان والشكر ، وبعضهم إلى الجحود والكفر ، ذلك بأنه لا يتصور شكر الشاكر ولا كفر الكافر إلا إذا صدر أحدهما عن عالم ذي تفكير ، فالحالة التي وصل فيها الإنسان إلى أن يكون منه شاكر ومنه كافر ، هي أحسن حالاته من الناحية العقلية التفكيرية ، ومن قبل كان الإنسان ساذجاً لا يعقل أن يشكر أو يكفر ، ويدل على هذا المعنى التعبير في هذه الآية بقوله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » حيث كان التفصيل بالشكران والكفران بياناً لإجمال يجمعهما في المعنى وهو هداية السبيل ، التي يراد بها دخول الفكر الإنساني - بالهداية الربانية - في مرحلة النظر والتفكير .

وقد ذكر الله بين هذين الطورين الأول والأخير أمر الخلق والتكليف وإعداد الإنسان بالسمع والبصر ليكون عالماً مفكراً ، وذلك هو قوله عز وجل « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبئليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .

ولهذا الأسلوب دلالة ، فإن الله سبحانه وتعالى يشير به إلى أن نعمة الخالق على الإنسان بالخلق والإيجاد ، ونعمة الهادي بالتعليم والإرشاد ، كلتاها نعمة كبرى بها يكون قوام الإنسان في حياته ، وصلاحيته لعارة هذا الكون ، والخلافة عن الله فيه .

ولعلنا نجد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

فإن هذه الآيات - وهى أول ما نزل من القرآن الكريم - تجمع بين الحديث عن الخلق ، والحديث عن العلم ، وفى ذلك إشارة وانحطة إلى أن نعمة الله على الإنسان بتعليمه وإخراجه من الظلمات إلى النور ، لا تقل خطراً عن نعمته عليه بخلقه وإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود ، بل الآيات السكرية تشعر بأن نعمة العلم أعظم ، حيث جاء ذكره بعد قوله : « اقرأ وربك الأكرم » والله أعلم ؟

سحر الحكيم

كان عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر عالماً جليلاً ، وخطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، كتب إلى بعض إخوانه :

أما بعد ؛ فقد عاقبى الشك فى أمرك ، عن عزيمة الرأى فيك ؛ وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبته جفاء من غير جريرة ، فأطمعنى أولئك فى أخائك ، وأياسنى آخرك عن وفائك ، فلا أنا فى غير الرجاء بجمع لك اطراحاً ولا أنا فى عدم انتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء لاجتمعنا على اتلاف أو افترقنا على اختلاف .

السيرة

بركة المسلم حياً وميتاً

أفضلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وهى مثل المسلم ، حدثونى ما هى ؟ فوقع
الناس فى شجر البادية ، ووقع فى نفسى أنها النخلة — قال عبد الله فاستحييت —
فقالوا يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة .
قال عبد الله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال لأن تكون قلتها أحب إلى من
أن يكون لى كذا وكذا . رواه الشيخان .

فى مجلس من مجالس النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد حفل بصفوة من أصحابه ،
أراد أن يحدثهم عن المسلم الحق الذى يصلح أن يكون عضواً حياً فى الجامعة
الإسلامية ، ولبنة قوية فى بنائها ، ومن أحق من النبى صلى الله عليه وسلم بهذا
الحديث ، وهو أول المسلمين بشهادة الله سبحانه ؟ « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

والذى أثار الحديث عن المسلم مناسبة لطيفة . اتخذ منها إمام المربين صلوات
الله وسلامه عليه سبيلاً إلى امتحان أصحابه فى أسلوب مشوق لما يلقى عليهم من
العلم والحكمة ، والتشويق فن من فنون التربية ، غنى به المربون وعلماء النفس
كثيراً ، وأوسعوه بحثاً ودرساً لما له من عظيم الأثر فى تنبيه الفكر وجمع القوى .
أهدى إليه صلى الله عليه وسلم جمّار فأكل منه ، ثم سأل أصحابه أن يخبروه عن
الشجرة التى لا يتساقط ورقها على غير المعهود فى الشجر ، والتى مثلها كمثل المسلم
فى النفع والخير والبركة . . . فأخذ الحاضرون يذكرون من شجر البوادي ذاهلين

عن الشجرة التي أكلوا من جسارها ، وكان في الجمار تنبيه على الإجابة ، بيد أنهم لم يعرفوا النخلة باسم الشجرة من قبل هذا المجلس ، لكن عبد الله رضى الله عنه تنبه وألقى الله في رُوعه أنها النخلة ، وللجمار الأثر الأول في هذا التنبه ، ولقد هم عبد الله أن يجيب ، ولكنه نظر فإذا هو أصغر القوم ، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم ، ورأى الشيخين : أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فسكت عن الإجابة حياءً وأدبا . فلما عجز القوم وأعيوا ، سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأجابهم بأنها النخلة . ولما انصرف المجلس حدث عبد الله أباه بما وقع في نفسه ، فقال له لو قلتها يا بني لكان ذلك أحب إلى من حمر النعم ، كما ثبت عند ابن حبان في صحيحه ، والأحاديث يفسر بعضها بعضاً ، ومن ذلك حديث الصحيحين : لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم ، والإبل الحمراء أعز أموال العرب وأنفسها .

* * *

ما أجمل تشبيه المسلم بالنخلة ، أو النخلة بالمسلم ، كما فعل صلى الله عليه وسلم . إنها خفيفة المؤنة ، قليلة الكلفة : تنفع ولا تضر ، وتحسن ولا تسيء ، وتعطى كثيراً ولا تأخذ - إن أخذت - إلا قليلاً ، وكذلك المسلم الحق ، يتعفف ولا يلحف ويتلطف ولا يتكلف ، مأمول نفعه وخيره ، مأمون شره وضره ؛ يحسن إلى الناس ويعفو عن إساءتهم ، ويعطيهم مخلصاً ، ولا يريد منهم جزاء ولا شكوراً .

وفي النخلة صلابة واستقامة ، وقوة ومثانة ، لا تحركها الرياح ولا تتألم منها العواصف ، وكذلك المسلم الحق : قوى في دينه ، ثابت في يقينه ، في الزلازل وقور ، وفي المسكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، مهتد وهاد إلى الصراط المستقيم .

* * *

النخيل وارفة الظلال ، طيبة التمار ، ممدودة الخير ، موصولة النفع منذ أن تغرس ، إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعاً وترسل في مصالح الناس ومرافقهم . وإن ترى شيئاً من أصولها وفروعها وثمارها مهملاً أبداً . ويدرك بركة النخيل وخبرها في حياتها وبعد مماتها ، من يعلم أن كثيراً من الناس كانوا - ولا يزالون - يقيمون في بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون

على التمر عمراً ، كما تعيش إبلهم على النوى دهرآ . وفي السيرة النبوية عن عائشة رضى الله عنها : إن كنا آل محمد لنمكث شهرين ما نوقد نارآ إن هما إلا الأسودان : التمر والماء . وكذلك المسلم الحق ، كله خير وبركة ، حياً وميتاً ، لنفسه وعشيرته ، وأمه ووطنه ، والعالم أجمع :

أما في حياته : فيما يعلمهم ويرشدهم ، ويؤدى حقوقهم ، ويسعى جاهداً فى مصالحهم ويعينهم على البر والتقوى .

وأما بعد مماته فيما يترك فيهم من علم نافع ، أو هدى صالح ، أو أثر مبارك أو سنة حسنة له أجزاها وأجر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء . وكل هذه الشعب الخيرة المتنوعة تدخل فيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

هذا هو المسلم الحق ، الذى تتألف منه ومن أمثاله أمة رشيدة قوية ، متماسكة متآزرة ، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، أمة صالحة لوراثة الأرض وعمارتها ، جديرة بما وعد الله عباده : من النصر فى قوله تعالى : « وكان حتماً علينا نصر المؤمنين » والعز فى قوله سبحانه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » والتمسكين فى الأرض من بعد الاستخلاف فيها كما قال جل سلطانه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا » . فأين المسلم أو المسلمون اليوم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤقى أكلها كل حين بإذن ربها !!

إنهم حفالة كحفالة الشعير أو التمر : أو غناء كغناء السيل ! لا تستطيع أن تحصيهم عدداً ، ولكن قلباً ترى مع الأسى والأسف أحداً !

إنه لن يعود للمسلمين مجدهم الأول إلا إذا تخلقوا بأخلاق الرعيل الأول « أشداء على الكفار رحاء بينهم » تراهم فى توادهم وتعاطفهم وتراحيمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو تراهم كالبيضان يشد بعضه بعضاً .

وَأَجِبْ مُصْرَنَحُو الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

المفضيذ الأسناد الشبخ برر المتولى عبر الباسط

المدرس بكلية الشريعة

قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار . ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار » وروى البخارى بسنده إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

منذ أسلمت مصر ، وملاً الإيمان قلوب بنهيا أقبلت على كتاب الله تعالى تستظهر آياته ، وتستنبط معانيه وتطبق تعاليمه على ما يجد لها من أحداث ، فانتشر فى ربوعها ، حواضرها وقرائها ، مكاتب جعلت تحفيظ القرآن الكريم غايتها ، وفى كل مدينة من مدنها مدارس ، جعلت من علوم القرآن مواد دراستها ، فكان التعليم فى مصر يدور كله حول كتاب الله وفهم أسرارها ، وتذوق مافيه من بلاغة وأدب ، وفقه ما بين دفتيه من علوم كونية ، والتخلق بما فيه من أخلاق كريمة .

ولقد كانت مصر تتسابق مع البلدان الإسلامية الأخرى فى هذا المضمار الشريف ؛ ونالت قصب السبق فى أكثر الأحيان ، وأخرجت إلى العالم الإسلامى علماء رفعوا شأنها بمنافحتهم عن دين الله . ولقد ساهم فى هذا الميدان جميع طبقاتها : فأمراؤها ساهموا بجاههم وبما أفاء الله عليهم من نعم المال ، وأغنياؤها رصدوا العتار فى سبيل حفظ كتاب الله ، وفقراءها أقبلوا على كتاب الله يحفظونه ويتدارسونه ، وكان لهم به جاه أى جاه ومكانة أى مكانة . وهانحن لا نزال نرى آثار هذه المكاتب التى أنشأها الأمراء والأثرياء .

ولما ركدت ربح العلم فى البلاد الإسلامية ، كانت مصر وفية لكتاب الله حريصة على أن يكون من أبنائها من يحسن تلاوته ويستظهره عن ظهر قلب ،

وأن يتلقاه الخلف عن السلف ، وأن يورثه الآباء للأبناء . حرص على ذلك حكماء ، وتنافس في هذا المضمار جميع طبقاتها كما كانت الحال أيام نهضة العلوم الإسلامية ، وقوة الدولة المحمدية ، لم تقصر مصر في هذا الواجب فترة من تاريخها الإسلامي ، بل سارت في هذا الطريق قدماً لا يثنى عنها معوق مهما كان شديداً .

ولما هبت مصر تأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ، غنى البيت العلوى الكريم بكتاب الله تعالى ، فحرص حكماء من هذه الدوحة المباركة على أن يكون تعليم القرآن الكريم في الصدارة من برامج الثقافة ، فكثرت السكتات التي تحفظ الأطفال كتاب الله ، وزاد عدد الحفاظ وحظوا بامتيازات شتى جعلت كثيراً من الطبقات تقبل على أن تعلم أبناءها كتاب الله ؛ وتثقفهم بثقافته ؛ حتى حق لكل مصرى أن يعتز بأن بلاده هي أحفظ بلاد الله لكتاب الله ؛ وأن مصر قد اصطفاه الله فأورثها هذا التراث العظيم ، وإذا كانت تفتخر الآن بأزهرها وجامعاتها ، فهي كذلك تفتخر بحملة كتاب الله من أبنائها ، ولها أن تباهى بأن تيار العلوم الدينية يسير جنباً إلى جنب مع تيار العلوم الدنيوية ، وما ذلك إلا لحرصها على تعاليم القرآن وتعليمه .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، كان أعظم أثر تركه - وما أكثر ما أثره - أن أعاد طبع المصحف الشريف بشكل جميل وضبط دقيق .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، رعى جمعيات المحافظة على القرآن الكريم التي انتشرت في عهده في المدن والقرى وأظلمها بجناح رعايته وعطفه حتى أثمرت أطيب الثمار .

ولا ينسى هذا الجيل أن شبله فاروق الأول - حفظه الله - استن سنة أبيه ونهج نهجه وسار على منواله في رعاية كتاب الله والعمل على نشر حفظه ونشر تعاليمه .

واليوم ، وقد تقرر مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وتيسرت سبل العلم في الجامعات المدنية ، رأينا بعض الغيورين على الكتاب المجيد يتوجسون خيفة من انصراف الأمة عن تعليم القرآن الكريم وتعليمه بعد أن زالت أكبر ميزة كان يتمتع بها حملة كتاب الله أو الراغبين في حفظه ؛ ولا سيما أن المستقبل

أمام المتعلمين تعليماً مدنياً أكثر ابتسماً منه أمام الذين يسلكون طريق التعليم الدينى الذى أساسه حفظ القرآن الكريم ، والتاريخ قديمه وحديثه شاهد على أن العلم يعيش ويتزعرع فى ظلال رعاية أولى الأمر ، لا فرق فى ذلك بين العلوم الدينية والديوية .

يخشى الغيورون أن ينصرف الناس عن حفظ القرآن الكريم تحت عوامل الاغراء الكثيرة التى يتمتع بها طلاب التعليم المدنى بعد أن كانت إلى جانب التعليم الدينى أكثر وأعظم .

يخشى الغيورون أن تصبح مصر ولا يحسن فيها أحد تلاوة كتاب الله إلا من المصاحف كما وقع - مع الأسف الممض - لكثير البلاد الإسلامية ، والقرآن ما بقى سليماً من التحريف والتبديل إلا لأنه محفوظ فى الصدور لا فى السطور وفى القلوب لا فى الألواح والصحف ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول « إن الله لا يتمبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

فاذا قال قائل لهؤلاء الغيورين لا تجزعوا ولا تيأسوا فإن الله وعد - ووعدته الحق - أن يحفظ هذا الكتاب حتى يأتى أمر الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » إذا قال لهم قائل ذلك أجابوه نعم ، ولكن نخشى أن يتقل هذا الفضل والسبق من مصر إلى غيرها من بلاد الإسلام ؛ إنا نريد أن ينتشر حفظ القرآن الكريم فى جميع الأقطار الإسلامية على أن يبقى لمصر فضل السبق والحرص على هذا التراث الجليل الذى اصطفاها الله لحفظه وورثها إياه ، وأقر لها بهذا الفضل جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبإيعوها بهذه الزعامة راضين مطمئنين .

يتألم الغيرون من أن يروا العناية الفائقة بعلوم وفنون ليست الأمانة فى حاجة إليها إصلاح دينها أو دنياها ، كالموسيقى والرقص ، والرسم للأجسام الحية العارية إلى آخر ما هنالك مما يسمونه بالفنون الجميلة ، ويقولون آسفين : لو رصد فى ميزانية وزارة المعارف لحفظ كتاب الله ما رصد لهذه الفنون التى لا تحتاج إليها الأمانة

لرفع شأنها أو تثقيف عقولها لآمنّا على هذا التراث الضخم من الضياع ولاطمأنت قلوبنا على زعامة مصر في هذا المضمار .

ونحن نقول لهؤلاء الغيورين شكر الله لكم غيرتكم وأثابكم على حسن نيتكم ولكن لا تنسوا أن على رأس مصر ملكاً يحرص على دينه حرصه على أعز شيء عنده ، وأنه لا يرى أقدم من كتاب الله وأولى برعايته السامية من المحافظة عليه . والأمل في الله كبير أن يكون عهده كعهد أبيه ، فينتشر حفظ القرآن الكريم في ربوع البلاد مدنها وقراها .

ونقول لهؤلاء الغيورين إن على رأس حكومة جلالته رجلاً رأس ماله دينه ، وملاك أمره عقيدته ،

وعلى رأس الأزهر رجلاً لا يجانب أحدًا في دين الله ، ولا يتساهل في حق الله . وعلى رأس وزارة المعارف رجلاً عرف القرآن ومكاته من الثقافة ومنزله من التربية العلمية والحلقية ، وإذا وكلت أمانة القرآن في أعناق هؤلاء ، فلا تخشوا بأساً ولا تظنوا سوءاً ، بل ادعوا الله مخلصين أن يرزقهم التوفيق إلى خير الوجوه ، وأنجع السبل لتحقيق هذا الأمل المنشود ؟

من محاسن الحكم

قال شاعر حكيم :

ما استقامت قناةٌ رأيَ إلا بعد أن عوّج المشيبُ قناتي

وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه :

« إنما أنا رجل منكم ، ليس لي فضل عليكم ، لكنني أبسط لكم وجهي ، وأبذل لكم مالي ، وأقضي حوائجكم ، وأحوط حريمكم ، فمن فعل مثل فعلي ، فهو مثلي ، ومن زاد عليّ فهو خير مني » .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

— ١ —

لكل زمن مشاكله التي تتنوع وتتعدد بحسب البلدان والأمم المختلفة ، وبحسب الأزمان أيضاً ، وهذه المشاكل أصناف وضروب ؛ فمنها ما يتعلق بالناحية السياسية لبيان أى النظم أصلح للحكم ؛ ومنها ما يتعلق بالناحية الاجتماعية وما تثيره من مسائل الضمير والمقاييس الخلقية والعادات والتقاليد ونحوها ؛ ومنها ما يرجع إلى غير هذه أو تلك من النواحي ، ولكل دولة أو أمة من الناس طرائقها في حل مشاكلها الخاصة بها ، وقد تستوحى في الحلول التي تراها غيرها من الأمم ، إذ لا تستغنى أمة عن الاستفادة من تجارب غيرها ؛ سواء في مسائل العلم والفكر ، أو المسائل الأخرى التي تزخر بها الحياة .

إلا أنه ، هناك طائفة أخرى من المشاكل لها طابع خاص يجعلها تعلو على الزمان والمكان ، فهي مشاكل لا تخص أمة دون أخرى ، ولا عصرًا دون عصر ؛ هي مشاكل أحسها الناس جميعاً في كل زمن على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ودياناتهم ؛ ومن ثم ، نجد التاريخ قد عنى عناية خاصة بتدوين ما كان من حلول لهذا الضرب من المشاكل المختلفة ، وذلك عسى أن يفيد الحاضر من جهود الغابر ، ومفكرو اليوم من تفكير رجال الأمس ، ومن هذه المشاكل التي لها هذا الطابع ، أى المشاكل العالمية ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل وما لها من حقوق وواجبات .

لهذا لم يكن عجباً أن يتناول المفكرون ، وبخاصة رجال الفلسفة والاجتماع ، في كل زمن وفي كل أمة ، هذه النواحي وما تثيره من مسائل ومشاكل تتطلب الحل الذي يكون أدنى للحق وإلى طبائع الأشياء وحتمات الأمور ؛ الحل الذي يقوم به العالم وتصلح الحياة إن كان إلى ذلك من سبيل .

وابن سينا فيلسوف خالد من فلاسفة المسلمين، ولم تمنعه الفلسفة من أن يكون رجل سياسة ورجل دولة؛ فكان له من هذا ما يكون لأمثاله من حظوة وامتعة ونعيم أحيانا، كما كان له حظه أحيانا أخرى من المتاعب والاضطهاد. ذلك بأنه لم ير نفسه أن يعيش في عزلة عن الحياة العامة كما فعل سلفه العظيم الفارابي، بل كان رجلا واقعيا يأخذ من الحياة ويعطى، ولهذا نجده أسهم في الحياة العامة بنصيب كبير.

وهذه النزعة العملية جعلته لا يتقيد في تفكيره بمذهب خاص من مذاهب من سبقوه في القديم والحديث، بل - بعد أن وعى واستوعب ماسبقه من فلسفات - فسكر لنفسه، وأخذ يختار من آراء سابقيه ما يوافق ميوله وتفكيره، لا يبالى أين يجد ذلك أو رأى الناس فيه. ومن أجل هذا، نجد في تأليفه سمات وخصائص من المذاهب المختلفة التي عرفها تاريخ الفكر والفلسفة، وإن كانت عبقريته وقوة فكره قد غطيا هذه السمات حتى لا يكاد القارئ غير المتخصص يحس بها، ومن ثم يعتمد بأن كل تفكير فيلسوفنا طريف لم يلتبس منه شيئا لدى غيره من أسلافه المسلمين وغير المسلمين في الشرق أو الغرب.

وقد ساعد على هذا، ما يلبسه القارئ في كتابات الشيخ الرئيس من قوة الشخصية والنزعة إلى الاستقلال في الرأي والتفكير، حتى لقد أثر عنه أنه كان يقول: حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء، فقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا.

وابن سينا، بعد هذا، شغل الباحثين من بعده؛ هؤلاء الباحثون الذين عكفوا على كتاباته يمحسونها، وعلى آرائه يدرسونها ويصدرون الأحكام لها أو عليها، بعد مقارنتها بآراء غيره من سابقيه ومعاصريه واللاحقين به، وكانوا في هذا التقدير والوزن لآرائه، والحكم لها أو عليها، بين المتنصر في حقه والغالى في تقديره.

على أن هذه الدراسات، أو على الأقل الجانب الأكبر منها، توجهت إليه وإلى تراثه الفكري كطبيب خلا ذكره في عالم الطب بتمانونه، وكفيلسوف منطقي وطبيعي وإلهي له في كل هذه النواحي آراء لها قدرها وخطرها. ومن الذين درسوه في عمق وإطالة في هذه النواحي الأخيرة، ولسكن في تجن أحيانا، حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي. وليس من هممنا الآن الحديث عن هذه الدراسة التموية

التي نجدها في كتاب [تهافت الفلاسفة] ، والتي نجد التعقيب القادر عليها في كتاب [تهافت التهافت] لفيلسوف الأندلس الأشهر أبو الوليد بن راشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ .
والذي نريد أن نشير إليه الآن هنا ، هو أن جمهرة الباحثين أغفلوا تماماً
أو كادوا ، دراسة الشيخ الرئيس كفيلسوف اجتماعي له في هذه الناحية آراء لم تخلق
جدها مع تتابع القرون ، ومن ثم تضعه بحق في مصاف المفكرين الاجتماعيين
الحديثين في أكثر من ناحية من النواحي الاجتماعية ، هذه النواحي التي تجعل
موضوع دراساتها الفرد والمجتمع من مختلف الزوايا .

هذه الآراء رأيتها جديدة بالحديث عنها ونشرها ، لعل بعض الذين يعنون
بالمشاكل الاجتماعية يفيدون منها ، ولعلها تلفتت إلى وجوب دراسة مفكرينا
والاعتراز بهم والإفادة منهم ، بدلا من إهمال ماضينا وتراثنا الفكري والتهافت
على أوربا وما عند أوربا تهافتاً ينال من كرامتنا ، ويظهرنا عالة على غيرنا ؛ كأننا
أمة لا ماضى لها تعتر به ، ولا تماليد تفخر بها ! إنه يجب أن نفتتح بهذا التراث
المجيد في بناء حاضرنا ومستقبلنا ؛ فلنعد كئنا نألم أشد الألم عند ما كان إخواننا
الطلاب الفرنسيون يباريس يلاحظون علينا ، معشر الشرقيين ، أننا نصطنع الحياة
الغربية في جميع مناحي الحياة العامة تترياً ثم تضيق صدورنا بأن يكون لصانعي
هذه الحضارة وسدنتها سيادة أو نفوذ في الشرق !

لماذا لا نستلهم هذا التراث الإسلامي المجيد ، الذي أفاد الغربيون أنفسهم
كثيراً منه ، في التشريع المدني والجنائي والتجاري ؟ ولماذا لا نستلهمه أيضاً
في السياسة الاقتصادية ؟ ولماذا لا يكون الأمر كذلك في ناحية سياسة الحكم
ونظمه ؟ وهذا مع الإفادة من الحضارة الغربية والتفكير الغربي فيما نجد من الخير
أخذه عنهما . لعل بعض السبب في هذا يرجع إلى « ثنوية التعليم » عندنا والنظم
التي يقوم عليها ، والتي كان منها أن صيغت عقول أبناء الأمة على طرائق مختلفة .
وكان من ذلك أن النائمين على هذا التراث الإسلامي ليس إليهم من أمور الحكم
شيء ، وأن الذين إليهم الحكم لا يعرفون شيئاً ذا غناء من هذا التراث ! ولعل الله
يرزق مصر بمصلح قوى قادر ، لا تنقصه الإرادة الطيبة الحازمة ولا الكفاية
والشجاعة ، فيغير من هذا الحال ؛ وبذلك نصل جميعاً إلى معرفة هذا التراث التيم

وتقديره حق قدره والإفادة منه ؛ وتكون النتيجة الطبيعية أن تنهض مصر ومعها سائر البلاد الإسلامية على أسس من روح الإسلام وعبقريته ومبادئه وأصوله .

هذا وأرجو ألا يثقل هذا الحديث الذي نحن بصدد التقديم له ، وألا يظن أنه حديث فلسفي ممل ، ما دام محوره أحد الفلاسفة الكبار ! فقد تعودنا في هذا الشرق أن نعد الفلسفة أمراً ثقيلاً ، وأن نرى فيها تفكيراً يجافى الدين ، وكان ذلك ميراثاً تميلاً عن الماضي : على أن الحال الآن ، بحمد الله ، غير الحال في ذلك الزمن ، فقد أصبحنا نحاول أن نجد في الفلسفة عوناً على حل ما يعترينا من مشاكل ومعضلات ، ولا عجب في هذا ، وكلا الفلسفة والدين يعملان على فهم العالم وهدئته ومصيره ، ويعنيان بتبصر الفرد والمجتمع بما فيه خير وسعادته ، في حاضره ومستقبله في دنياه وآخرته ، وإن كان لكل من الفلسفة والدين طرقه الخاصة التي قد تتقارب حيناً ، وتتباعد حيناً آخر .

على أن للقارئ أن يطمئن من ناحية أخرى ، فإنني لن أعرض من آراء الشيخ الرئيس إلا للقليل الذي يتعرض بصفة خاصة لبعض مشكلات العصر الحاضر ؛ وأعني بذلك مشكلة العمل والبطالة ، أو بعبارة أخرى مشكلة الضمان الاجتماعي ؛ ثم مشكلة المرأة من ناحية مساواتها أو عدم مساواتها للرجل في الطبيعة والحقوق والواجبات ، وناحية الزواج والطلاق وكيف يكون ولأن يكون .



يمهد ابن سينا لحديثه عن هاتين المشكلتين ، ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات ، بأنه لا يمكن أن يحيا حياة طيبة لو انفرد وحده بالمعيشة . ذلك ، بأنه لا بد من أن يكون المرء مكفياً بآخر من نوعه الإنساني ، كل منهم يساعد الآخر ويخدمه في ناحية من نواحي الحياة . ومن أجل هذا كان الإنسان مضطراً إلى بناء المدن وإنشاء المجتمعات ، حتى يكون البعض لبعض وإن لم يشعروا خدماً ، ويشارك ابن سينا في هذه الملاحظة كل الباحثين الاجتماعيين في قديم الزمن وحديثه .

ويخلص من هذا ، بأن يستنتج أنه لا بد إذناً في وجود الإنسان وبتمائه وحياته حياة طيبة من مشاركة في الحياة ، ومعاملة الناس بعضهم مع بعض ، والمعاملة تقتضي أساساً قويا من شريعة صحيحة وعدالة حتمية ، وهذه الشريعة لا بد لها من شارع يحىء

بها ، كما لا بد للعدالة من عادل يقوم بها ويجريها كما يجب . وهذا كله يستلزم أن يرسل الله لخلاته رسلا منهم يبلغون عنه شريعته ، ويتمون بين الناس بالعدالة .

وهذا النبي والرسول عليه أن يبدل غاية وسعه لتأكيد سعادة الناس دنيا وأخرى ، وذلك بإرشادهم الى ما من شأنه تنزيه النفس عن الخيث من الطباع والسيء من القول ، والردىء من العمل ، وهذا كله لا يحصل إلا بأخلاق تحصل ، وملكات تسكتسب بأفعال طيبة من شأنها أن تصرف النفس عن البدن والحس ونزواته وهواه ، وتديم تذكرها للمعدن الطيب الشريف الذى لها ، ويجب أن تحن له دائما .

وبعد هذا التمهيد العام ، يأخذ شيخ الفلاسفة فى الكلام على أولى المشاكل التى أراد الكلام عليها ؟
« الحديث موصول »

من كلام ابن عباس رضى الله عنه

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : —

كتب إلى علي بن أبي طالب كرم وجهه : —

أما بعد - فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلت من أمر دينك فلا تسكن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا ، وليكن همك ما بعد الموت .

أبو حامد بهاء الدين السبكي

لفه فقيده الأستاذ الشيخ عبد الله المراغي

مدير المساجد بوزارة الأوقاف

بعد أن ترجمنا في المقالين السابقين للإمام تقي الدين السبكي ، ثم لابنه الشيخ الجليل تاج الدين ، وتحديثاً بما كان لها من فضل وما حلتها في أيدي العلماء والدارسين من مؤلفات لم تزل منهل الواردين ، ومقصد المحصلين ، مما كتب لها على وجه الأيام الخلود ، وسجل باقي ذكرهما في العالمين ، وجعل لها لسان صدق في الآخرين ، اليوم نترجم لثالث الأعلام المبرزين ممن نبغ من هذه الدوحة المباركة ، وتألق نجمه من أسرة السبكيين ، وهو أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي ، المسكن بأبي حامد الملقب بهاء الدين ، فهو ابن تقي الدين السبكي وأخو تاج الدين .

يختلف أصحاب التراجم في سنة مولده اختلافاً يسيراً ، فمنهم من يؤرخ مولده بسنة تسع عشرة وسبعائة هجرية ، ومنهم من يجعل تاريخ مولده سنة سبع عشرة وسبعائة هجرية ، وهم متفقون على تاريخ وفاته بسنة ثلاث وسبعين وسبعائة هجرية ، ويفرد كتاب شذرات الذهب بالنص على أن سنه حين وفاته كانت ست وخمسين سنة ، ففعل هذا النص يديح لنا أن نرجح ، مع ملاحظة الاتفاق على تاريخ وفاته ، أن ميلاده كان سنة سبع عشرة وسبعائة هجرية ، وتموه كتب التراجم بذبوغة وتبريزه في العلم وهو صغير ، ونحن نرى ذلك معقولا وسائغاً مقبولا ، إذ هو قد نشأ في كنف أبيه العالم الجليل ، فلا شك أنه قد وجد في بيئته البيئة العلمية الساهرة على ترويض صباه وتسديد خطاه في سبيل التربية والتثقيف ، وكان له في أبيه الأستاذ الأول وحسبك به مربياً حانياً وأستاذاً عالماً ، فلما اشتد ساعد أبي حامد وغشى حلقات الدرس أضاف إلى ما تلقاه عن أبيه ما يتتبعه من علماء عصره ، ويتأمله عن أئمة زمانه فأخذ عن الأصهباني وابن التماح وأبي حيان ، ويظهر أن صحبته لشيخه أبي حيان قد طالت وحسنت ، ويدل ذلك على ذلك ما نظم في مدح شيخه من شعر ، منه هذان البيتان :

فداكم فؤاد حان للبعد فتمده وصب قضي وجدا وما حال عهده

وقلب جريح بالغمرام متميم وطرف قريح طال في الليل سهده
وقد كان شيخه يبادلُه المودة والتقدير لسكريم خلاله والرضا عن سعيه في
الطلب ودأبه على تحصيل العلم . ومن أبيات قالها فيه شيخه تدبين أنه كان يراه فذا
في أقرانه نابغة بين إخوانه ، وهي :

أبو حامد حتم على الناس حمده لما حاز من علم به بان رشده
غنى علوما لم يزل منذ نشئه يلوح على أفق المعارف سعده
ذكي كيان قد جاحم النار ذهنه ذكاء ومن شمس الظهيرة وقده
ومن حاز في سن البلوغ فضائلا زمان اغتنى بالعى والجهل ضده
وأنت ترى أن شيخه يسجل هنا ما قد بلغ تلميذه من فضل وتقدم وما جاوز
سن البلوغ . وكما أخذ اللسان العربي عن أبي حيان كذلك قرأ القرآن على الشيخ
التقى الصايغ ، وبذلك توفرت له الأسباب التي مكنته من إتقان علومه وإحكام
ثقافته ، فلم يبلغ العشرين إلا وهو عالم يشار إليه بالبنان ، وأستاذ معدود في المحققين
حتى ذكر في ترجمته أنه أفق ودّرس وله عشرون سنة وولى وظائف أبيه بالقاهرة
وله إحدى وعشرون سنة لما تحول والده إلى قضاء الشام . وفي نبوغه وفضله
يقول ابن حبيب : إمام علم زاخر اليم مقرون بالوفاء الجم ، وفضله مبذول لمن قصد
وأم . وقلم كم باب عدل فتح ، وكم شمل معروف منح . ولا يحدثك مثل أبيه عن
تفوقه وسعة علمه وهو في شهادته له شاهد عدل وحكم فصل ، لأنه يفضل على نفسه ،
فالحاجة إذاً مستبعدة والحيف مأمون . ذكروا أن أباه قد حضر درسه خمده وقال فيه :
دروس أحمد خير من دروس علي وذلك عند علي غاية الأمل
وعلى هو أبوه شيخ الإسلام الجليل .

وقد شهد له أبوه بالبراعة والسبق كرة أخرى لعلها أثبت وأقوى : ذكروا أنه
أرسل من مصر بحثاً يتعلق بالعربية إلى والده حين كان بالشام فأجابه عنه ، فرد
جواب أبيه بكراسة ، فلما وقف أبوه عليها كتب إليه كتاباً صدره بقوله : وقفت
على جوابك أيها الولد الذي هو أعظم من الوالد ، وما يؤيد ثناء أبيه عليه وتقرظه
له كثرة المناصب العلمية العالية التي تولاها وتقلب فيها ، فقد نهض فوق ولايته
لوظائف أبيه المذكورة آنفاً بتدريس مذهب الشافعي بالمشهد الشافعي وبجامع
الحاكم والشيخونية أول ما بنيت ، كما ولى قضاء الشام سنة نيابة عن أخيه ليحفظها له

ثم عهد إليه بقضاء مدينة العسكر والإفتاء بدار العدل والخطابة بالجامع الطولوني . وقد عرف شيخنا أبو حامد أن العلم أحد شئتين يتألف منهما السلوك الكامل ، وأنه لا بد للعلم أن يستتم وجوده ويستكمل جماله بالخلق الفاضل ، لذلك جمل هذا الإمام الكريم عليه بالتقوى والورع والدين . قال مترجموه : كان كثير التراءة والعبادة ، معروفاً ، بالتقوى وزان نبوغه بالورع والوفاء الجم ، كثير الحج والمجاورة لبیت الله . ومما يشهد بقوة خلقه مارووا عنه حين ولى الخطابة بالجامع الطولوني ، أنه كان شديداً في وعظه حتى غضب من شدته بعض الأمراء ، فأمر أن يستنيب عنه من يخطب بحضوره ، فكان لا يخطب إلا إذا غاب ذلك الأمير .

أما ما بقى لنا من غزير علمه وبارع أدبه وفائق تأليفه فيتمثل في كتابين قيمين أحدهما شرح مطول على مختصر ابن الحاجب يعني به الأصوليون ويتدارسه العالمون ، والآخر «عروس الأفراح» كتاب البلاغة النفيس الذي ما برح علماء البلاغة منذ تأليفه إليه يرجعون وعليه يعاقلون ومنه يتنبسون . ولعلك تذكر هنا ما أسلفنا عليك في صدر هذه الترجمة من صحة أبي حامد لشيخه أبي حيان وتوثق العلاقة بينهما حتى نظم الشعر في مدح أستاذه ونظم شيخه الشعر في الثناء عليه والاعجاب به فقد كان لهذه الصحبة أثرها القوي المثمر في إيمان شيخنا أبي حامد للغة العربية وعلومها ونبوغه في ذلك .

وقد تحدث المترجمون فذكروا أنه كان فائق النظم في الشعر رائق العبارة في التأليف والمحاضرة ، وقد عرفت أن أباه حين قرأ بحثه المتعلق بالعربية كتب إليه معترفاً بتفوقه عليه وسبقه له في ذلك ، فمن حتمنا إذاً أن نقرر أن العلوم التي كان أبو حامد أشد تبريزاً فيها وأبعد صيتاً هي اللغة العربية وعلومها ، وبذلك يشهد عروس الأفراح وهو شرح تمتع للتليخيص المفتاح دل به على سعة اطلاعه وغوصه في العلوم العربية ، ولولا ما فيه من استطراد مل وحشوه بمسائل خارجة من الفن لكان خير شروح التليخيص لنصاعة عبارته وسهولة أساليبه وذوقه الأدبي . وحسبه هذا الكتاب أثراً باقياً ونفعاً جارياً يضاعف حسناته ويستمطر على مثواه رضوان الله ورحماته ويذكر الدارسين بفضله ويدعوهم إلى اقتفاء أثره في نفع المسلمين وخدمة العلم والمعلمين .

الفقه السياسي عند المسلمين

لقضيد الأستاذ الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

— ٢ —

تحدثت في الكلمة السالفة عن بعض إنتاج المسلمين في الفقه السياسي ، ورأينا التراث الضخم الذي خلفوه في البحوث السياسية المستقلة عن علوم الفقه والأصول والكلام ، والآن نتحدث عن اتجاه هذه البحوث على وجه عام .

في عصر العباسيين قامت حركة التأليف والترجمة والتدوين على قدم وساق ، وجميع ما خلفه المسلمون الأول ، يرجع تقريباً إلى هذا العصر ، أو إلى أصول وضعت في هذا العصر ، وكان العباسيون يهتمون قبل كل شيء بتركيز دعائم ملكهم ، لهذا كانت حرية الرأي - على مبلغ احترامها وعظم مكانتها في الإسلام - مستظلة إلى حد ما بلواء العباسيين ، وقد كان للعباسيين خصوم من العرب يمثلهم بنو أمية الذين استطاعوا ابتناء ملك واسع ومجد عريض في الأندلس ، يمثلهم - إن لم يبق - ملك بنو عباس ومجدهم في الشرق ، وخصوم من غير العرب يتزعمهم ويثيرهم أبناء عمومتهم العلويون ، وفي ظلال الحكم العباسي تذهبت القوميات الغافية ، وتحركت الأاطاع في نفوس كثيرين من أبناء الأجداد الأول التي غلبها الإسلام ، ولهذا رأى العباسيون من حتمهم أن يشرفوا على توجيه البحوث ومراقبة « الإنتاج » الفكري في ملكهم ، ولعل هذا هو السر في اتجاه البحوث السياسية في كتب الأحكام السلطانية الاتجاه الواقعي ، بدليل أنها كانت استجابة لرغبة حاكم أو هدية إلى حاكم ، وبعبارة أخرى : إن كتب الأحكام السلطانية ، قصد بها تقرير الأوضاع التي تعورفت سياسياً بين المسلمين وتنزيلها على مبادئ الإسلام ، أو تنزيل مبادئ الإسلام عليها بتأويلها أو تلوينها بحيث لا تختلف مع العرف السياسي - تقريراً يتمشى مع وجهة نظر العباسيين وظروفهم الخاصة ، قد يكون هذا وقد يكون غيره أيضاً .

فعلماء الإسلام الأول وجدوا أنفسهم في أمة حية تعيش في دولة قائمة لها

دستورها وأحكامها وتعاليمها ، فى شتى نواحي الحياة : فى الدين ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأمور الحكم والقيادة ، فى كل شىء ، فلم يشغلوا أنفسهم ببحوث فرضية سياسية ، عن أصل الدولة ، وكيفية قيامها ، ومدى الارتباط بين سيادة الحاكم وحقوق المحكومين ، لأنهم وجدوا دولتهم قائمة بالفعل على أساس من القرآن والدعوة إلى مبادئه ، التى تجعل من الحاكم خادماً لا سيداً - وإن كانت له سيادة فعلية معترف بها - وعلى هذا لم يتحدث علماء الإسلام الأولون عن أصل الدولة ، وهل هو « زعامة العائلة » اعتماداً على طبيعة الإنسان الاجتماعية ، أو هو « الزعامة الدينية » التى قام عليها ملك بنى إسرائيل القديم ، لأن ملوكهم فى نظرهم خلفاء لأنبيائهم ، أو هو « حق ملكى مقدس » بمعنى أن الله اختار شخصاً وملكه على بقعة من أرضه ، وسلمه السلطة مباشرة فهو مسئول أمام الله وحده مباشرة لا أمام الشعب ، أو هو حق الفتح والغلبة ، يرتفع عن طريقه شخص أو عائلة إلى السيادة فى بقعة ما من الأرض ، أو هو نتيجة الخطيئة آدم الكبرى أوجدها الله لتكبيح جماح الأفراد ، وتحد من حرياتهم عقاباً لهم على هذه الخطيئة ، كما يرى ذلك آباء المسيحية الأول ؛ أم أن الأصل فيها هو قيام تعاقد بين الأفراد وحكامهم نتيجة لتصادم حريات الأفراد الأحرار المتساويين من كل وجه ؟ واتفاقهم على الخروج من حالة الطبيعة إلى حالة جديدة يتنازل فيها كل منهم عن شىء من حقوقه وحرياته فكانت الدولة ، وهل هذا التعاقد يقيم ملكية مطلقة مستبدة ، أو ملكية دستورية مقيدة ، أو يعطى للشعب السيادة المطلقة على حكامه ؟ كل هذا لم يشغل المسلمون أنفسهم به فى العصر الأول لتدوين الفكر الإسلامى ، لأن البحث عن حالة ما قبل الدولة يقوم على أسس خيالية يفترضها الباحثون لتبرير نظرية خاصة ، وليس بحثاً يقوم على حقائق علمية معترف بها عند العلماء ، وهذا النوع من البحث الفرضى ، إن جاز فى بيئة علمية لا يحكمها دستور قائم ، فإنه لا محل له ، أو هو مضیعة للوقت فى بيئة علمية يحكمها دستور قائم « القرآن والسنة » تناول كل شؤون الحياة الإنسانية ، وحدد للأفراد وللحكام الحقوق والواجبات ، بما لا يدع مجالاً لطغيان هؤلاء أو أولئك - عند العقلاء - وما كان لهم أن يفترضوا فروضاً ، وعندهم حقائق مقررة تصرفهم عن مثل هذه الفروض ، ومن هذه الحقائق الثابتة عندهم : الملك لله الواحد القهار ، الحكم لله أحكم الحاكمين ،

والأرض لله خالقها وخالق الكون ، والله هو المشرع وعلى هدى تشريعه قامت دولة المسلمين . وإذن فليتجه البحث إلى التشريع الذى أقام الدولة ، لا إلى حالة فطرية سبقت تحضّر الإنسان ، وهو لا يعلم بالضبط متى تحضّر !!

ولكن لا بد لنا من الحديث عن أصل الدولة فى نظر الإسلام ، ولدينا من النصوص الصحيحة ما يساعدنا على تجلية وجهة نظر الإسلام فى أصل الدولة ، ونحن نحاول قدر طاقتنا بيان ذلك فيما يلى :

أولاً — الإسلام (القرآن) دستور عام خالد لا يتبدل ولا يتغير ، وهو هداية ربانية إلى أمثل منهج يحقق للإنسان السعادة فى الدنيا والآخرة ، فى شئون الدين والعبادة ، وفى تدبير مصالحه الدنيوية « ان هذا القرآن يهدى للى هو أقوم » فهو يهذى الإنسان إلى المنهج الذى اختاره الخالق سبحانه لعبادته ، ويهذى إلى خير الوسائل التى تضمن له الحصول على ما قرره الله له من حقوق ، والقيام بما ألزمه به من تكاليف ، ومقررات القرآن الكريم ، وتوضيحات السنة الصحيحة لمبادئه ، مقررات ثابتة لا يجوز العدول عنها لهوى النفس ، وتبدل الأوضاع .

ثانياً — حرص الإسلام العقل على التحرر من قيود الجلود التى فرضتها الوراثة عن الجدود ، وكان تحريضه بالغاً عند ما فرض له تعدد الآلهة ، ورتب ما رتب على التعدد من فساد ، فتحرر العقل وتوصل مقتعاً إلى ما دعا الإسلام إليه من وحدانية الخالق وتفرد وحده بالخلق والإيجاد ، فاستبان للناس — أن الخالق واحد وهو المسالك لكل ما خلق ، فالكون ملك لله ، والناس عبيد لله ، سواء فى ذلك آحاد الآدميين وخاصة الرسل والأنبياء ، وبهذا المبدأ السامى ألغى الشرك فى العبادة (الشرك الدينى) وألغيت الفروق بين الناس (الشرك الاجتماعى) ، فكما أنه ليس من العمل عبادة غير الله مما خلق ، فليس كذلك من العقل التفرقة بين الناس الأحرار المتساويين فى الخلق والعبودية للخالق ، بدافع من جنس أولون ، أو بدافع من حسب ونسب ، أو غنى وفقير ، فكل هذه الفروق لا اعتبار لها عند وزن التميم ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ويقول الرسول الكريم (الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، الناس لآدم وآدم من تراب)

وقد جعل الإسلام متميـاس الفضل والكرامة ، هو حسن العمل ومقدار النفع الذى يقدمه الشخص للإسلام والمسلمين « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فأفضل الناس أبعدهم عن الشرك وأنفعهم للناس ، وأشتى الناس من شتى به الناس ، « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة » حرية تامة ، ومساواة مطلقة ، لا يقيدهما إلا صالح الإسلام والمسلمين ، والناس فى ذلك سواء ، ليس لأحد أن يبتغى عزة أو سيادة على أخيه ، فإنه من كان يريد العزة ، فله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ومن ابتغى وراء ذلك فهم العادون . فالله سبحانه هو السيد وخلته هم عبيده ونسبتهم إليه واحدة ، يعيشون فى ملكه الذى خلته لهم ، وسخر لهم ما فيه .

ثالثاً — المجتمع المسلم . هو مجتمع يقوم على مبادئ الإسلام ، ويرتبط أفراداه بجملة روابط قوية ، تتحكم فى قوته ، وتوجهه إلى الهدف المنشود . يرتبط بين أفراداه اعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين ، لأنه الصانع الذى يملك ما صنع ، وترتبط بينهم أخوة إنسانية عامة : لأنهم بنو أب واحد وأم واحدة ، وترتبط بينهم أخوة فى الإيمان بالإسلام ، عقدها الله بينهم لتكون منهاجاً لتحقيق الأخوة الإنسانية العامة فى محيطها الواسع ، إذا رغبت الإنسانية فى سعادتها بالإسلام ، وترتبط بينهم وحدة الهدف ، وهو نشر الإسلام ، للبلوغ بالإنسانية كلها ، إلى الكمال والسعادة والسلام ، وترتبط بينهم وحدة التكاليف لبلوغ الهدف ، فلا اختيار ولا امتياز لأحد فى التكاليف الربانية ، يستوى فى ذلك المسلم الأول صلوات الله وسلامه عليه وأصغر المسلمين شأنًا ، ويرتبط بينهم . مسئولية عامة مشتركة عن سلامة الدين وسلامة الفرد والجماعة ، وتوفير كل مستطاع من وسائل الحياة الحرة الكريمة للفرد والجماعة .

رابعاً — هذا المجتمع الذى يقوم نديجة لمبادئ الإسلام ، ويرتبط أفراداه بهذه الروابط ، هو مجتمع يقوم فى أرض الله ، وبمجموعة أفراداه (الأمة) مخاطبة رأساً بتكاليف الله (يا أيها الناس) ، (يا أيها الذين آمنوا) ، (افعلوا الخير) ، (واعبدوا الله ولا تشركوا) ، وخطاب الله للأمة شمل جميع التكاليف الفردية كالصلاة والزكاة والصوم ، والجماعية كالحكم ولوازمه من إقامة العدل وتنفيذ الحدود « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة .. الخ . وهذه المجموعة قد استخلفها الله فى أرضه لعمارتها وإقامة أحكامه المكلفة بها ، فكل

ما تملكه فهو ملك لله ، « وأنفقوا مما جعناكم مستخلفين فيه » ، « وكلوا من رزقه » ، وهذه الأمة المخاطبة المكلفة المسؤولة ، هي الأمة الإسلامية ، فإن عاشت كلها تحت لواء واحد ، وحكم واحد ، وخضعت لمقدرات واحدة ، في الأرض المحدودة التي تعيش فيها شعوبها ، والتي لا يسيطر عليها غير أبنائها ، ولا تخضع سيادتها لسيادة غيرها - كما كان الحال في عصور الخلافة الإسلامية مثلاً - إن كانت كذلك قامت الدولة الإسلامية . التي تظل الأمة الإسلامية ، وإن عاشت شعوبها مستقلة كل شعب في أرضه ، يحكمه حاكم خاص ، غير حكام بقية شعوبها ، قامت في أرض كل شعب دولة مسلمة - كما هو الحال اليوم - تتميز بكل مميزات الدولة ، ولكن هذا الاستقلال والامتياز يجب ألا يخرجها عن أن تكون حلقة قوية في سلسلة الدولة الإسلامية الكبرى « كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

خامساً - كل دولة لها سيادة عامة على بنيتها وأرضها وكل مقدراتها لا تخضع لسيادة دولة أخرى في شيء من ذلك . والدولة الإسلامية ، لها شخصية معنوية ، هي مناط التكليف والمسئولية . وهي التي رد الله إليها العزة والسيادة في أرضه التي تعيش فيها ، بعد الله ، والرسول الذي أبلغ إليها شرع الله ، ووكل الله إليه تنفيذ أوامره والإشراف على مقتضيات سيادته ، إماماً ، وقاضياً ، وقائداً ، وحاكماً عاماً للمؤمنين ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً » . فالأمة لها على نفسها - بعد الله والرسول - السيادة المطلقة نيابة عن الله ، لا ينافيها فيها منازع . لها كلها كجموعة - لا لفرد من أفرادها ، ومن حق هذه الأمة المكلفة المسؤولة ، أن تختار من يباشر سلطتها نيابة عنها - فرداً أو جماعة - لأنها مجتمعة لا تستطيع مباشرة تكاليفها ، وهذا الاختيار من الأمة يقوم على الرضا ، وتوخي المصلحة العامة ، لا بقهر ولا جبر ، ولا خديعة ، ومن تختاره الأمة لقيادتها يخضع لرقابتها ، وليس له شيء من السيادة عليها ، لأنه وكيل يخضع لما يخضع له الوكيل في سائر العقود ، من رقابة الأصل الذي يحدد له تصرفاته ، ومن هنا جاء الشبه بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، فهناك حقيقة تعاقد بين الأمة ، ومن تختاره لقيادتها يتمثل في البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وصالح المؤمنين ، وتعهده هو بالعمل على ذلك ، ولكن شتان بين التعاقد في نظريات غير المسلمين ، والتعاقد عند

المسلمين ، فالأول تعاقد يقوم على تنازل الأفراد عن شيء من حقوقهم لمن يختارونه وسلطانهم عليه بعد ذلك منعدم أو محدود ، أما تعاقد المسلمين ، فهو مجرد توكيل للحاكم يباشر بمقتضاه . وفق شروط خاصة ، سلطات الأمة . ويخضع فى جميع أموره لسلطان الأمة ورقابتها ، وليس له عليها سوى حق الطاعة إذا التزم الشروط التى تعاقدوا عليها معه ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد بشئ من التفصيل .

سادساً : الدولة التى تقوم وفق ما ذكرنا من القواعد السابقة هى : دولة الله !! بمعنى أن الله هو خالقها ومالكها والمشرع لها ، وصاحب السيادة المطلقة عليها ، لا ينازعه فى ذلك منازع مما خلق ، وأن الأصل فيها ، هو تكليف الله للأمة ، ومسئوليتها عن صالح الدين والأفراد أمامه سبحانه ، وإجابة الله للأمة عنه سبحانه ، فى مباشرة السيادة عليها ومقتضيات هذه السيادة ؛ ونحب أن نشير هنا إلى أن النبي محمدأ صلى الله عليه وسلم ، قد حرص تمام الحرص على أن يحل هذا المعنى لاتباعه وخصومه على السواء ، حتى فى أيام المحنة الكبرى ، عند ما ثار كثير من القبائل على سلطانه ودينه ، وتنبأ كثير من الناس بدافع العصية والحسد للرسول ولقريش فقد كتب مسيلة الكذاب إلى الرسول الصادق عليه السلام - يقول : إن الله قد أشركنى معك ، فلنا نصف الأرض ولقريش نصفها . ولكن قريشاً قوم لا يعدلون يريد مسيلة - وقد ظن الرسالة ملكاً أو تهدى إلى الملك - أن يقتسم الملك والسلطان مع الرسول القرشى فى وقت تألبت عليه فيه قبائل كثيرة فى اليمن وفى نجد وفى اليمامة وفى بنى حنيفة وغيرهم ، وقد ر أن الرسول فى محنته هذه ، لابد أن يجيبه ، ولو أن شيئاً من ذلك كان جائزاً فى نظر الرسول عليه السلام لأجابه وحل الأزمة ، وأراح الإسلام والمسلمين من شرور كثيرة متوقعة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام رد عليه يقول : بعد الحمد لله والثناء عليه وإظهار كذب مسيلة : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للبتقين » وقد قال عليه السلام لواحد من أتباعه قد تلجلج أمامه فى الكلام « هون عليك فلست بملك فأستعبدكم ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى للرسول : « لست عليهم بمسيطر » .

وفى الكلمة التالية إن شاء الله نناقش نظرية الإسلام معارضة بنظريات غير المسلمين ، والله يوفقنا إلى الحق ويهدينا سواء السبيل .

على هامس المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس بكلية اللغة العربية

دخل المدينة أول نفر قبلوا الدعوة ، وأذنعوا للحق ، وبايعوا على النصرة والحماية والمتابعة ، وكانوا ستة من الخزرج هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف ابن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعتمبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله « رضى الله عنهم أجمعين » بعد أن سبقتهم إليها أخبار تطايرت من مكة ، وأوصاف تناقلها الوافدون ، وحكاها المعجبون ، أمثال « إياس بن معاذ » وأضراجه بمن صدوا عن قبولها وانتهروا في سبيلها .

واستقبل السابقون الأولون من الأنصار بالفرح والقبول ، واتسع لهم من نفوس التقوم ما جعلهم يجهرون بالدعوة وينادون بالإيمان ، ففشا الإسلام في ربوع المدينة ، ودخل الإيمان إلى بيوتها ، حتى لم تبق دار إلا عمرت بالتوحيد ، وآمنت برسول الله .

واتجهت الأنظار نحو مكة ، واشتاق كثرة من الأنصار لمشاهدة الداعي ، ومبايعة التائم على أمر الله ، وطلبوا لقاءه ليروا بأبصارهم ما أعجبهم الحديث فيه ، والسماع عنه .

وترقبوا الموسم القابل إلى أن حان حينه ، وحل أوانه فتنبأ للرحلة منهم عدد شاركت النساء فيه الرجال ، وشدوا الرحال إلى مكة ، يطلبون الهدى والإيمان ، وما إن وصلوا حتى تلتفتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعوزهم طلبه ، ولم يُشقه نشيده ، وبعثوا عرفاءهم يتوسمون وجهه الكريم ، ويتعرفون عليه ، فالتقوا به جالساً بجوار عمه العباس في بيت الله المحجوج ينظر إلى الكعبة رمز التوحيد ، وقبلة الموحدين ، فلما وقعت أبصارهم عليه ، سارعوا إليه ، فأخبروه خبرهم ، وأعلموه أن وراءهم من جاء راغباً في دينه ، محباً في لثائه ، فوعدهم العتبة ليلا .

وفرّح الرسول صلوات الله عليه بهم فرحاً شديداً ، فقد أصاب قوماً يبحثون عن الحق ، ويرحلون في طلب الهدى ، بعد أن أعياه التعب ، وأكده النصب في عرض الحق على من تنكروا له ، ورفضوا الاعتراف به ،

* * *

ويروى أبو الزبير عن جابر وهو يصور صنيع الناس مع الرسول ، وصنيع الأنصار خاصة معه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم وبجئة وعكاظ يقول : « من يؤمنني ، ومن يؤويني ، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربّي فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يأويه ، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن إلى ذى رحمة فيأتيه قومه فيقولون له « احذر غلام قریش لا يفتك » ويمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع . حتى بعثنا الله من يثرب ، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرؤه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، وبعثنا الله إليه فائتمروا واجتمعوا ، وقلنا « حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف ، فرحلتنا حتى قدمنا عليه وواعدنا العقبة » .

* * *

والنفث العباس إلى النبي وقال له يا ابن أخي : ما هؤلاء التوم الذين جاءوك إني ذو معرفة بأهل يثرب ، وهؤلاء أحداث لا أعرفهم ؟ فأعلمه خبرهم . وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العقبة ، وتسلسل إليه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان خفية من قومهم ومن كفار مكة ، واجتمعوا عليه من رجل ورجلين وصحب الرسول إذ ذاك عمه العباس وابن عمه علي بن أبي طالب - على ما يقوله بعض الرواة - وتقدم إليه الوافدون . وقالوا يا رسول الله « علام نبايعك » ؟ قال : « على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة » . فقام القوم يبأيعون ، وأخذ بيده أصغر السبعين

« أسعد بن زرارة » فقال : « رويداً يا أهل يثرب ، إننا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإذا أتمت تصبرون على ذلك نخذوه وأجرمكم على الله ، وإما أتمت تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله » فقاتلوا يا سعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ، فقمنا إليه رجلاً رجلاً مبايعين ، وقامت المرأتان وهما « نسيبة بنت كعب بن عمرو » و « أسماء بنت عمرو بن عدى » فبايعهما الرسول صلى الله عليه وسلم من غير مصافحة - جرياً على عادته من التجافى عن مصافحة النساء .

وصرخ الشيطان على العقبة ، وانفض القوم إلى رحالهم ، وتطايير الخبر إلى قريش . فقدمت جلّة من أشرفهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقاتلوا : « يا معشر الخزرج إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة ، وواعدتموه أن تباعوه على حربنا ، وأيم الله ما حى من العرب أبغض إلينا من أن ينشب بيننا وبينه الحرب منكم ، فانبعث إليهم من المشركين ما نفي الخبر وكبر الخطب ، وعظم على نفسه أن يكون من الأنصار ذلك دون أن يأمره أو يشاوروه ، وعد ذلك افتياتاً من قومه لو أنهم فعلوه .

* * *

ورجعت قريش وهى تعلم أن إيمان الأنصار حقيقة واقعة ، وأنه لا بد من تعويبتهم وصدّهم حتى لا يكون لرسول الله فى الجزيرة أرض تعدّ زه ولا نفوس تؤمن به يشع منها نور الله على أرجاء الأرض .

وتلاحق المسلمون ، وجدوا فى الرحيل عن مكة وتبعهم قريش ، وأدركوا منهم سعد بن عباد فربطوا يديه إلى عنقه وضربوه وجروه إلى مكة ولولا « المطعم ابن عدى » و « الحارث بن حرب » - وهما أهل النجدة والإنقاذ - ما برح مكة ولا لحق بأصحابه ، وأرسل الرسول معهم « ابن أم مكتوم » و « مصعب بن عمير » ليعلمان من أسلم القرآن ، وجمع بهم مصعب أول جمعة فى الإسلام .

عند ذلك شعر صلى الله عليه وسلم أن الدعوة الإسلامية التى ظلت طويلاً تبحث عن وطن تأمنه وشعب تركز إليه قد أصابت طلبتها ووقعت على غرضها ، وأن المدينة أصبحت أولى بلاد العرب باحتضان الدعوة ، وحماية الدين .

وإذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه المضطهدين أن يخرجوا إليها بدينهم ويفروا لها بإيمانهم فجهزوا وحملوا الزراري والأطفال والأموال إلى المدينة ، وأزعج ذلك قريشاً ، فإن الأوس والخزرج أهل شوكة وبأس ، ودارهم دار منعة وقوة .

وضجت قريش لهذا النبأ الجديد فظالما قدروا فيما بينهم أن أمر محمد هين ، وأن استخفافهم به كاف في رده عن قصده ، ودفعه عن غايته .

وها لم أن يجد بجانبه من ينصر دعوته ، وينشر دينه ، ويأوى إليه ويؤازره . ثم هو قد أزمع على الرحيل ، وبدأ بترحيل أصحابه ، وهو إن لحق بهم قامت دولته وانتشر دينه ، وفوت على أصحاب الرياسات السكاذبة أغراضهم وآمالهم . واجتمعوا في ناديتهم اجتماعاً حضره أهل الرأي والحجاء ، وعرضوا قضية محمد عرضاً جديداً . وبحشوا أمره على ضوء ما جد من حوادث ، وأدلى كل برأيه ، وصرفهم الشيطان عن كل رأى يبقى أنفاس محمد على الأرض . لذلك أعجبهم وأعجب شيطانهم رأى أبي جهل بقتله ، واشتراك القبائل في ذلك اشتراكاً يوزع دمه حتى تنوء عبد مناف بئاره وترضى بدينه ، وخرجوا من ناديتهم ، وقد أحكموا المؤامرة وعقدوا النية على التنفيذ .

وأعلم الله رسوله بما بيت القوم ، كما أعلمه بما يتخذة حيال صنيعهم ، فأمره أن يفر بدينه إلى المدينة . فإن مكة لم تنهياً بعد لتقبل الدعوة ، وقد أعذر محمد لقومه وعشيرته ، فقد لبث فيهم ثلاث عشرة سنة من عمر نبوته يدعوهم فيها إلى الحق والنور والسيادة والعزة والدنيا والآخرة ، ولكن صادفته قلوب عليها أقفالها ، ونفوس أوصدت عن قبول الحق ، وانصرفت عن الهدى إلى متابعة الشيطان ، وأى شيء يلزمه بالبقاء فيهم ، وفي الأرض سعة لتقبل الهدى ونشر الدين .

وما كان محمد صلوات الله عليه ليفر من مكة ناجياً بنفسه مما أصابه ولا متخلصاً من آلام جسمية أو معنوية تعرض لها ، فكل ذلك هين أمام عزيمة أولى العزم ، ولكن الباعث الذى دفعه إلى ترك أحب البلاد إليه هو حرصه على تبليغ رسالة ربه ، بعد أن ضاقت مكة ذرعاً بالحق ، وأوشكت الدعوى أن يتضى عليها في مهدها ، ولم يبق من عمر الرسالة سوى مدة قصيرة لا تكفى لنشر دين الله وبث تعاليمه وإصلاحاته . فكان لابد من الالتجاء إلى مكان تدوى فيه كلمة الحق ، وتعر فيه الدعوة ، وقد كانت « طيبة » أرجى أرض الله لنشر كلمة الله ونصرة دينه .

أبو العيْناء الضَرير

أفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النوازي

المفتش بالأزهر

هذه شخصية طريفة عظيمة ، قد أوتيت من سعة الذرع في الثقافة والأخذ بأطراف العلوم والمعارف الشيء الكثير ، فأبو العيْناء يشبه من هذه الناحية ابن جرير الطبري ، إلا أنه قد غلبت عليه نواحي الأدب ورواية أخبار العرب ، وهو غير متحفظ من الهزل ولا المجون ، ولا متعبد بقيود التزمّت الديني ، كابن جرير الطبري .

ولا بد للقارئ أن يقتل بين الجد والهزل ، وأن يستجم نفسه بشيء من اللهو ليستعين به على الحق ، وأن يسوسها بطرائف الأدب ، لينأى بها عن العطب :

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

وأبو العيْناء من هاته النواحي أقرب شهماً لصديقه الجاحظ ، فكل منهما من ظرفاء العالم وأحدهم ذكاء ، وأبرعهم نكتة ، وأغزرهم ثقافة ، وأجولهم في شعاب الأدب العربي ، وأكثرهم رواية للأخبار ، وأبلغهم أسلوباً ، إلا أن الجاحظ كان من المؤلفين ، وكان له في التأليف آثاره الطيبة الخالدة في شتى العلوم والمعارف على اختلاف ضروبها .

ولعل هذا الضرير لو استدّام له بصره ، لاستطاع أن يتنافس الجاحظ في ناحية التأليف أيضاً ، ولسكنه عي في سن الأربعين تقريباً ، على أنه كتب قبل نك السن ، وجمع كثيراً من الأخبار والآثار ، ثم لم يطرد له ذلك ، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن زمن كل من الجاحظ وهذا الأديب يسبق زمن الطبري بقليل ، والجاحظ أسبق الثلاثة في الولادة وفي الوفاة ^(١) .

[١] ولد الجاحظ سنة ١٦٠ وتوفي سنة ٢٥٥ هـ . وولد أبو العيْناء سنة ١٧١ وتوفي سنة ٢٨٢ هـ ، وولد الطبري سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠ هـ كما في تاريخ ابن خلكان ،

كانت ولادة أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر ، الذي نريد الحديث عنه ، في سنة ١٧١ هـ ووفاته في سنة ٢٨٣ هـ بالأهواز ، وتذكر بعض الروايات أن ولادته كانت سنة ١٩١ هـ ، مع الاتفاق على سنة وفاته ، فقد شهد العهد الذهبي العباسي ، وعاصر ثلاثة عشر من الخلفاء العباسيين ، أولهم هرون الرشيد ، وآخرهم المكتفي بالله ، واتصل بالخليفة المتوكل اتصالاً ظاهراً ذا أثر بين في حياته ، وله معه أخبار يمر بك بعضها إن شاء الله .

كان إذناً في عصر يشجع العلم ، ويرفع شأن رجاله ، وهو من الذكاء على ما أشرت لك سابقاً . ونشأ في البصرة وهي لا تزال بمجمع الفقهاء والرواة والمحدثين وأئمة اللغة والأدب ، فسكرع من حياض العلم بها ، وكتب عن خيرة رجالها من أئمة الحديث والأدب ، وله روايات لبعض أحاديث يذكرها الرواة ، على أنه لم يكن بالحجة ولا الموثق ، ومن سمع منهم وأخذ عنهم الأصمعي ، وأبو زيد ، وأبو عاصم النبيل وغيرهم من عمد الأدب وأخبار العرب ومن ملأوا الدنيا معرفة ، وسطرت أخبارهم في كتب الأدب واللغة ، خالدة مشمرة فياضة ، فما ظنك بمن يأخذ عنهم شفاهها ويروي عن عدد منهم ، وهو في مثل ذكاء أبي العيناء وحرصه ، وقد ارتحل من بلده لذلك الغرض ، وقد كف بصره كما قلت لك بعد أن بلغ الأربعين . ثم ارتحل إلى بغداد معلماً يزكي ما أخذ ، ويلقن ما جمع ، ويملي على الناس الأخبار ، والأدب والشعر ، وعاد إلى البصرة في آخر حياته فتوفي بها .

* * *

أما أصله فمن بني حنيفة ، من سبي اليمامة في أيام الخليفة المنصور ، فلما صار ياسر في قيد المنصور أعتقه . وأما ما أصابه من العمى فيذكر الناس له حديثاً طريفاً يفيد أنه وراثي ، ويقول صاحب معجم الأدباء ، وصاحب زهر الآداب : إن ذلك كان بدعوة من علي بن أبي طالب علي جده الأكبر الذي كان يلقى علياً ، فأساء مخاطبته ، فدعا عليه بالعمى ، فهم يتوارثونه فنكل أعشى فيهم صحيح النسب ، ويقول الخطيب : إن الدعوة كانت من عبد الله بن حسن العلوي على جده الأدنى (خلاد) . ويروي ذلك عن أبي العيناء نفسه ، فخلاد كان جاسوساً من قبل المنصور على مناوئة عبد الله بن حسن ، في صورة المشايخ له ، وقد زوده المنصور بالأموال

يبدلها لعبد الله بن حسن ويتعاون معه في الظاهر ، ولكنه يكتب إلى المنصور بأنفسه ، وأحوال أبنائه وشيعته ، وكان عبد الله بن حسن راضياً عنه معجباً به ، فلما اتصلت به حتمية خبره ، دعا بالعمى عليه وعلى نسله ، فهم يتوارثون ذلك . أما نحن فسواء عندنا أصبح الخبر الأول أم الثاني ، أم لم يصح واحد منهما ، مادامنا قد علمنا أنه عمى بعد الأربعين . وأن ذلك العمى كان له أثره في بعض ما كان له من صفات تبدو في أخباره ، وتتمثل في آثاره الحسن منها والسيئ . فقد أفاد منها كثيراً في إلهاب جذوة النشاط الفكري ، وقوة الحافظة والذاكرة ، وصرفته عن بعض نواحي اللهو التي لا مآرب فيها لأمثاله إذ ذاك ؛ على أنه قد أساء إليه فيما كان يلم به من بعض الضغن والحسد على خلق الله ، مما يتجلى في السب والطعن الذي ترامت أخباره إلى الخليفة المتوكل ، وقد حاول أن يحوله عنه فكان يحتاج له ويدافع عنه فيقول في بعض دفاعه :

« يا أمير المؤمنين قد مدح الله وذم ، فتمال (نعم العبد إنه أواب) ، وقال (هماز مشاء بنميم)
وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقاً ولم أشتم النكس اللئيم المذمماً
فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامع والفهام
وقد رفع عنه شيئاً من برقع الحياء ، فكان يواجه بالمسكروه ما يبالي شيئاً .

روى صاحب زهر الآداب عنه قال : « كان عيسى بن فرخان يتيه على في ولايته الوزارة ، فلما صرف عنها رهبنى ، فلقينى فسلم على فأحبنى فقلت لغلامى : من هذا ؟ قال : أبو موسى ، فدنوت منه وقلت :

« أعزك الله ، والله لتمد كنت أقنع بإيمانك دون بيانك . وبلحظك دون لفظك ، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، لقد أصابت فيك النقمة . ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، لتمد أبدت محاسنها بالإدبار عنك ، والله المنة إذ أغنانا عن السكذب عليك ، ونزهننا عن قول الزور فيك ، فتمد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم » .

فهذه مواجهة من أسوأ المواجهات ، ومهاجمة من أنزل المهاجمات ، لا ينتصب لها إلا مثله وكفى بها دلالة على مقدار ما صنعت به علته ، على أن لها دلالتها على بلاغة الرجل وطول نفسه في البيان .

وقد سأله القاضي العظيم ابن أبي دؤاد : ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ فقال له : أمران ، يبدوّني قوم بالسلام وكنت أحب أن أبدأهم ، وأنى ربما حدثت المعرض عني وكنت أحب أن أعرف ذلك فأقطع عنه حديثي . فآسأه القاضي بقوله : أما من ابتدأك بالسلام فقد كافأته بحسن النية ، وأما من أعرض عنك فما أكسب نفسه من سوء الأدب أكثر مما وصل إليك من سوء اجتماعه .

وفي أخباره ما يدل على أنه كان قبل العمى أحول . روى الخطيب بسنده إليه ، قال مدحني أبو العالیه بقوله :

كتبت لابن قاسم مآثرات فهو للمجد صاحب وقرين
أحول العين والمودة زين لا أحوال بها ولا تلوين
ليس للمرء شائناً حول العي ن ، إذا كان فعله لا يشين

فلما سمع محمد بن المرباني الآيات قال : يا أبا عبد الله وكنت قبل أن يذهب بصرك أحول ! من حول إلى عمى ، من سقم إلى بلا وانظر ما أجابه به أبو العيناء لتعلم ما أوتيته من السلاطة وما منى به من قلة التحفظ ، وما أكسبته تلك العاهة من غيظ . قال أبو العيناء لابن المرباني : هذا أظرف خبر تصعد به الملائكة إلى السماء اليوم . أيما أصلح ؟ من السقم إلى البلاء ، أم حال العجزو أصلحها الله من الزنا إلى التميادة . لقد رمى أم صاحبه بأفحش ما ترمى به النساء . وسترى أن ذلك العمى قد فوت عليه فرصة منادمة المتوكل ، وأوجب له عقدة نفسية واضطراباً .

فأما كنيته (أبو العيناء) ، فإنها ترجع إلى عهد اتصاله بأستاذه في العربية أبي زيد بن أوس الأنصاري قبل أن يكف بصره وهو يطلب العلم بالبصرة ، ولعله كان أعين واسع العين إذ ذاك . فقد عاد إلى البصرة من بغداد في آخر حياته ، وكان محبو العلم والأدب يصيرون إليه في داره يسمعون كلامه ، ويكتبون عنه ، فسأله

سائل : يا أبا عبد الله كيف كنيت أبا العيناء : قال : قلت لأبي زيد كيف تصغر عينا ، قال عينا ، يا أبا العيناء .

كانت البصرة كما رأيت مستراد أبي عبد الله ومذهبه ، ومسعا في جمع العلم وتحصيله ، وأنا أستظهر أنه تعلم ببلدته الأولى (الأهواز) ، شيئاً من مبادئ العلم كما هو الشأن في بدء تعليم العلماء حين يقوم آباؤهم بشئونهم . وإن ما يذكر الأدباء والأخباريون حوله ، يدل على أنه التمس بالبصرة الحديث والأخبار ، وكان همه أن يجمع الشعر والأدب والرواية ، ويقول الخطيب في بعض أخباره : أنه أتى أبا عبد الله الخريبي من علماء السنة بالبصرة فجرى بينهما ذلك الحديث :

الخريبي — ما جاء بك ؟ أبو العيناء — الحديث .

الخريبي — اذهب فاحفظ القرآن . أبو العيناء — قد حفظت القرآن .

الخريبي — اقرأ وأتل عليهم نبأ نوح . قال أبو العيناء : فقرأ العشر حتى أنفدته .

الخريبي — اذهب الآن فتعلم الفرائض . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخريبي — أيما أقرب إليك ابن أخيك أو ابن عمك ؟

أبو العيناء — ابن أخي الخريبي — ولم ؟

أبو العيناء — لأن أخي من أبي وعمي من جدي .

الخريبي — اذهب الآن فتعلم العربية . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخريبي — لم قال عمر بن الخطاب يال الله يال المسلمين ، لم فتح تلك وكسر هذه ؟

أبو العيناء — فتح تلك اللام على الدعاء ، وكسر هذه على الاستغاثة والاستنصار .

الخريبي — لو حدثت أحداً حدثك .

وأقام أبو عبد الله بالبصرة حتى عظم شأنه ، فأفاد العلم والمال والجاه والمنزلة . وفي كلام بعض الشعراء ما يدل على أنه أفاد بالعمى بعض المادة والثراء قال أبو علي البصير :

قد كنت خفت يد الزمان عليك إذ عمى البصر
لم أدر أنك بالعمى تغنى ، ويفتقر البشر

وفي البصرة جرى عليه ما وصله بالتفاضل ابن أبي دؤاد رحمه الله ، فزاد رفعة ونباهة ، بعد محنة كادت تعصف به ولكن الفضل يعرفه ذووه .

روى الخطيب بسنده إلى أبي العيناء قال : كنت في أيام الواثق مقبياً بالبصرة ، فسكنت يوماً في سوق الوراقين بها ، إذ رأيت منادياً ينادى على مصحف مخلق الأداة ، فقلت له : ناد عليه بالبراءة مما فيه ، وأنا أعنى به أداته ، فأقبل المنادى ينادى بالبراءة مما في المصحف ، فاجتمع أهل السوق والمارة على المنادى ، وقالوا يا عدو الله تنادى على المصحف بالبراءة مما فيه وأوقعوا به . فقال لهم ذلك الرجل أمرني فتركوه وأقبلوا إلى ، وتجمعوا عليّ ، ورفعوني إلى الوالي ، وعملوا لي محضراً ، وكتبوا إلى السلطان ، فحول أمرى إلى التماضي ابن أبي دؤاد فتكفل بالفحص عنه .

وتابعت الكتابة في شأني فقلت لابن أبي دؤاد : قد كثر تجمع هؤلاء الهمج على وهم كثير ، فقال - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

فقلت : قد بالغوا في التشنيع عليّ ، فقال : لا يحق المسكر السيئ إلا بأهله .

فقلت : إني على غاية الخوف من شرهم ، ولن يخرج أمرى من يدك .

فقال : لا تحزن إن الله معنا - فقلت : التماضي أعزه الله كما قال الصموت الكلاني .

لله درك أي جنة خائف ومتاع دنيا أنت للحدثان

متخبط يظأ الرجال بنعله وطء العتيق دوارج الفردان (١)

ويكبهم حتى كأن رؤوسهم مأمومة تنحط للغربان

ويفرج الباب الشديد رتاجه حتى يصير كأنه بابان

فقال القاضي - يا غلام : الدواة والتمراطاس - أ كتب الآيات .

ولم يزل يتلطف في أمره حتى أخرجه . . . وقد طال بنا القول فحال دون أن نمتع القارئ بمصته الطريفة مع الغلام الذي أخرجه من البصرة ، ولا أن نتحفه بشيء من أدبه في النثر والشعر ، غير ما مضت مناسبتة ولا بشيء من نكته وملحه . وأجوبته المسكتة ، فإلى العدد التامد إن شاء الله .

(١) البيت كناية عن سطوته حتى إنه لا يبالي بالرجال كما لا يبالي الفحل إذ وطئ الفردان

الإيمان بالله

مفتي دار العلوم
مفتي دار العلوم
مفتي دار العلوم

المدرس بكلية الشريعة

القرآن الكريم ، حينما يلفت أنظارنا إلى ملكوت السماوات والأرض ، ويدعونا إلى النظر فيه ، والتأمل في صنع ، الله الذي خلق كل شيء ، لا يقصد بذلك كله أن نمتنع الخاطر بدقة نظامه ، وبديع هندسته ، ورائع تصديفه ، وغريب تسخير ، الذي أذهل العقول ، وأدهش الأفكار ، وحير الأفئدة ، وهال البصائر ، فإن ذلك أبعد ما يكون عن قصده سبحانه ، لأنه غنى عن العالمين .

ولكنه لما خلق الإنسان في أحسن تقويم ، كرّمه عن الذلة ، ورفعته عن المهانة ، وسما به عن الصنعة ، وباعد بينه وبين الإسفاف ، فجعل له العزة دون الخلوقات ، ولا يتم له ذلك على وجهه الصحيح ، ما لم يعمر قلبه بالإيمان بالله الذي خلق الماء والهواء ، وتحكم في الوجود والفناء ، وقضى بالصحة والمرض ، والغنى والفقر ، ووزع الحظوظ والأرزاق ، ومن الغريب أن العبد إذا ما خضع للعبد ، ذهب ماء وجهه ، وضاع الكثير من آدميته ، وفقد مهابته واحترامه ، وصار أشبه بالدابة الذلول ، التي يستخدمها المستخدمون في قطع المسافات ، ونقل المتاع ، وجرّ العربّة ، وشق الأرض ، وسقى الزرع .

وعلى العكس من ذلك ، إذا ما تراءى على عتبات سيد الوجود ، وتفاق في ذات المعبود ، وبالغ في الزلفى من رب الأرباب ، ومسبّب الأسباب . والسّر في ذلك أنه جل جلاله لا يُعبّث عبده بهذا الخضوع ، ولا يزيده ذلك جبروتا ولا عظمة ، فقد تنهى مجده ، وامتد سلطانه ، وانبسط في الملكوت كله جاهه ، فلم يعد بحاجة إلى طاعة الطائعين ؛ على أن ذلة المكلفين له ، أو نزولهم على إرادته ، وانقيادهم لأمره ، هو أصل الفطرة ، واستجابة الغريزة ، وتجارب الطبع ، وحكم العادة . ولذلك يستشعر المسلم منه الكرامة والإباء ، والترفع والتعالى ، والتطاؤل والكبرياء والزهو والخيلاء . وكلما أحس بدنوه من الله ، كلما أحس بأنه يخلق في الدنيا ، ويشرف على البسيطة من علياء لا يتطلع إليها النظر ، ولا يصل إلى آفاقها الوهم ؛ وربما كان هذا هو السبب في أن المرء حينما يدرك هذا الشأ ، وينتهى إلى تلك الغاية ، يحتقر الحياة والأحياء ،

ويزهد فيما يحتويه ذلك الكون الخادع الخلاب . وهذا هو العسلة في أن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، لأن الإشراك يتنافى مع الإيمان بالإله الحق ، والخالق المبدع ، والفرد الصمد . وإلى هنا نستطيع أن نفهم ثورة أسلافنا العلماء على المسّطين من أرباب الحكم والجاء ، والبطش والظلم ، والعسف والطغيان ، ونعلم تأويل قول « الجبائي » : ما في الجبة إلا الله . . .

واتقد كان هذا هو الهدف الذي وقف النبي صلى الله عليه وسلم له سبحة في بادئ الأمر بمكة زهاء عشر سنوات ، يحتمل من قومه من الأذى ، ويلاقي من الهوان ، ويتكبد من الشدائد ، ما لا يصبر عليه إلا الصناديد ، ولا يصمد له إلا الأبطال . وجاء في الكتاب العزيز الأمر به في مواضع متنوعة ، ومواطن متعددة ، وأجمع العلماء على أنه الدعامة التي عليها تستند العميدة ، أو يتركز الإسلام . وعلى الرغم من أن الدين المعاملة - كما يقولون - وإن الناس إنما يهتمون بما يتبادلونه من منافع ، وما يتناوبونه من معونة ، وما يبذلونه من بر ومعروف ، فإن الله لا يقيم لذلك وزناً ، إلا إذا كان قائماً على الإيمان به « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » ؛ والكفار مهما كان سلوكهم الطيب ، وخلقهم الحميد ، ويدهم على الإنسانية ، وأثرهم على الإصلاح والعمران ، لا يتقبل منهم صنعا ، ولا يجزيهم على المعروف معروفاً ، ولا يخفف عنهم شيئاً من عذاب جهنم : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار » . ولأن هذا الإيمان محل القلب ، فقد طلب منا أن نطهره بالصوم ، ونقويه بالصبر ، وكانت من سفنه تعالى المحن يبتلى بها الأخيار من عباده ، لا ليعلم منهم ما لم يكن يعلم من الجلد للنوازل ، والرضا بما يقضى عليهم ، ولكن ليراقبوا ضمائرهم ، ويهيمنوا على هواجسهم ، ويتحكموا في دخائل نفوسهم ، ويتصرفوا في شئوونهم بالعمق لا بالهدى ، وبالتفكير والرأى ، لا بالنزق والطيش ، ونحن معرضون دائماً أبداً للسهو والغفلة والترك والفسيان .

وجاء الحديث الشريف في أكثر من مناسبة ينوّه بشأن القلب ومكانته بين الجوارح : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهي القلب » . « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وكان من السنة وضع اليدين على القلب في الصلاة إيقاظاً له فلا يغفل ،

وحرصاً عليه من أن ينصرف عن هذا الاتجاه الذى يتجه إليه المصلى بهذا الموقف الذى يتفه !! ويرى بعض الباحثين أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأنه من الاعتباريات التى لا وجود لها حتى يتوجه إليها النقصان والزيادة ، وليس يدخل فى مفهومه ، الذى هو إذعان القلب وانقياده ، زيادة أو نقص .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى أبى بكر رضى الله عنه : إنه لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح ، فإنه يؤول بما يصرف اللفظ عن الظاهر ، على أن الزيادة والنقصان من الأمور المعنوية التى يدركها الإنسان بآثارها ، ويعرفها بمقدار بواعثها « فإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » .

والإيمان بالله هو الذى حمل الصدر الأول أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، وأن يبذلوا نفوسهم وأموالهم فى سبيله ، عن طيب خاطر ، وهودء بال ، واطمئنان ضمير ، وكانت لهم العزة والمهابة ، والمجد والجاه ، والبأس والسلطان .

والإيمان بالله - إلى جانب كونه يربط المرء بربه - يباعد بين صاحبه وبين بعض الصفات الخلتية المرذولة ، كالنفاق والملق ، والتواضع الممقوت ، والكذب البغيض ، ومن هذه يدب الفساد ، وتشيع الفوضى ، وتتأصل فى المجتمع جرائم من الشرور لا عداد لها ، ولا تخلص منها ، اللهم إلا الإقلاع عن هذا الصغار من السلوك ، وهذا التدلى فى الأدب ، وهذا الخلط فى المعاملة .

والذى يدرس البيئات المنحطة فى طباعها ، الواهية فى عاداتها ، المريضة فى أخلاقها ، لا يجد إلا أنها متحللة من صفة « الإيمان بالله » ، متفككة من هذا الرباط المقدس ، وعلى قدر ما تكون الأفراد أو الجماعات آخذة به ، عامرة قلوبها منه ، تكون قوتها المادية والمعنوية ، وقصة الرجل صاحب الدين على بعض العرب من قریش ، الذى حضر من البادية ليتماضاه ، وكان يتلصص إنساناً ذا جاه يستعين بجاهه على قضائه من المدين ، وقد دلوه على النبي صلى الله عليه وسلم - استهزاء به ، وسخرية منه - فلم يسعه إلا أن يذهب معه إلى المدين يطالبه ، صورة من هذا الإيمان فإن الرجل الماثل لم يكدرى وجهه المشرق ، وجينته المضىء ، وطلعتة الراهبة ، حتى اضطرب ، وأخذته رعدة من الخوف ، وبادر إلى المال يسلبه لصاحبه شاكرآ له الصنيع الطيب ، والفعال الكريم .

فاللهم ارزقنا هذا الخلق فلا تؤمن إلا بك ، ولا نذل إلا لك ، ولا نرجو سواك ، ولا نخاف غيرك ، إنك أنت الخالق الرازق ، الضار النافع ، وأناس كلهم عيال عليك !

سَهْ أَهْدَانِي السُّغْفَارَ فِي الْإِسْلَامِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

هناك جانب من تعاليم الدين الحنيف لا يسهل على الفرد العادي أن يعرف حكمته بالنظر العاجل أو الهوى المسائل ، بل لابد من التأني والتجري ، ومعرفة مداخل العلل والأسباب ، ودراسة منابع الحكم والثرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكماً صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه هذه التعاليم من أسرار وثمرات ؛ « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ، « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

يمر بالخاطر مثلاً موضوع الاستغفار في الإسلام ، فنرى عجباً ، ويبدو ما يستوجب النظر ويشير الفكر ، إن آيات الاستغفار ، وأحاديث الحز على التوبة ، كثيرة كثرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم ، وهو هدى العلى الحكيم ، لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به ويحرض عليه فيقول : « واستغفروا لله إن الله غفور رحيم » ، ويأتى بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، فيستفيض فى توسيع الباب قائلاً : لو لم تذبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم ! .. ويعود القرآن المجيد فيذكر العباد : بأن الله هو البر الرحيم ، والرؤوف الكريم ، الذى يجب أن تقصده لغفران الذنوب مهما كانت كبائر ، وأن تلجأ إليه فى الأزمات مهما كانت شدائد ، فيقول : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » ؟ .. ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة فيقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ثم يعمم المغفرة والتببول لكل من تاب وأتاب ، مهما سلف منه ، فيقول : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .. ويفسر هذا رسول الله عليه صلوات الله فيقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم ، حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم لغفر الله لكم » .. إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التى تشرق بأضواء الأمل فى التوبة والغفران !

قد يضل ضال في فهم هذه النصوص المقدسة ، فيخيل إليه أن الباب مفتوح له بترحيب وبلا نظام ، مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ، ليس الأمر كما حسبت ، وليست المسألة مسألة كلمات ترددها الشفاه ، بلا ندم على ماسبق وبلا ارتداع عما يسوء ، وبلا عزم أكيد على الاستقامة ، وبلا إصلاح لما يمكن إصلاحه من فتوق ، فإن رب المغفرة والمتاب ، هو أيضاً رب المعاقبة والحساب ، والذى وسعت رحمته كل شيء هو نفسه الذى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ويقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » : والله الذى قال لنبيه : « نبي عبادى ، أنى أنا الغفور الرحيم » هو نفسه الذى قال عقيب ذلك مباشرة : « وأن عذابى هو العذاب الأليم » .

لعل اللاهى الضال سيعود إلى الاعتراض قائلاً : إذن فهناك تناقض وتعارض بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع . فيقال لذلك الغافل : إن التناقض ليس موجوداً إلا فى ذهنك الضيق وتفكيرك المحدود ، لأنك تحكم شخصك فى أمر جامع عام ، وضعه رب العالمين للعالم وفيهم أصناف وأشكال وألوان ، وما هذا الحديث الطويل فى القرآن عن الاستغفار والحض عليه ، إلا أسلوب الحكيم العليم فى تربية الخلق ، وإحياء الضمير ، وإماتة السيرة ، والاستكثار من الحسنة ، فهو ينهض على كثير من الأسس القويمة العالية . إن الإسلام الخفيف بأسلوبه هذا فى التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان خطاء ، قد كتب عليه حظه من النقص والعيب ، لإظهار الفرق بين المخلوق والخالق ، ولإيجاد ميدان المجاهدة والتنافس فى القربى ، فلو سد الإسلام فى وجهه باب الندم والتوبة والتخفف من أوزار الماضى للنهوض بطيبات الحاضر وحسنات المستقبل ، لأخلد إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق ؛ وإذن فليلتصم الإسلام للخطأ عذرا ، وليسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتمل على قوى التذكير والاستحضار المؤدى إلى لون من المحاسبة والمراقبة التى تحيى موات الضمير فى الإنسان ، وينقله من بيداء الضلال إلى جادة الإيمان ، ويعده عند الإخلاص والصدق مغفرة ورضوانا ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ، حينما كان

يحرص صحابته على الاستغفار ، ويخبرهم أنه يستغفر في اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليه ، فهو المعصوم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكنّه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيئون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب ، فهو بالمؤمنين ردوف رحيم ! .

ومن أهداف الاستغفار والمتاب في الإسلام أيضاً ، إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الحيارى الضعفاء ، فهو الذي برأهم ، وهو الذي أنعم عليهم ، وهو الذي حلم معهم ، وهو أيضاً الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، فيألفها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم الذي يفتح أمام الخطائين عن سهو أو نسيان أو زلزلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلاً ، فإنه كما يقول القرآن : « لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، ويهيء لهم دائماً فرصة للارتداد والاسترجاع ، والله أفرح بعبده التائب من الذي فقد شيئاً نفيساً لديه ثم عثر عليه ، فيكون ذلك إشعاراً بعد إشعار بفضل الله الواسع ، ومنته الكبرى وآلائه العظمى ، فإن لم يخضع العبد عن طريق الرهبة والتخويف ، استجاب عن طريق التكريم والإنعام ؛ وما هو ذا سبحانه يضاعف أطافه فيجعل فرصة التطهر والتخلص ممزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر ، فيجعل عمل الخير تكفيراً لسالف الإثم ، وإتيان الحسنه محواً للسيئة ، وفي ذلك ما فيه من الإغراء والتحرير على الدنو من حمى الخيرات ؛ فيقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » . ويقول عن فريق من عباده الناجين بمشيئته : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » . ويقول رسوله عليه الصلاة والسلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن أهداف الاستغفار الذي جعله الإسلام متكرراً كلما تكرر الذنب والخطأ ، تربية الحياء والخجل في نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فُغفر له ، ثم عاد فأخطأ فاستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، حدثته نفسه - إن لم تكن قد ماتت - بأن هذا لا يليق به كإنسان ، ولا يجدر به كرجل حر ذى ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحي من تكرار خطئه ، فيستشعر في صدره قوة عزم على المقاومة للهوى والمغالبة للشيطان حتى يقره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذي أراده على رضى الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلاً : رجل أذنب

فإذا يفعل ؟ قال علي : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد . قال علي : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! قال علي : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزي الشيطان ! .

ولو فرضنا هنا ما لا يليق بالمرء ، وهو أن يستمر في غيه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب المتاب أمامه ، لحقق الإسلام شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا الميت الخبيث كيلا يكون له على الله حجة ، بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم .

ولعل الإكثار من الحديث عن الاستغفار في الإسلام ، فيه إشعار للهداة وتذكير للمصلحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تتسع صدورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يحمل صبرهم ، فلا يتضايقوا ولا يياسوا لرؤية الفشل أو تكرر الزلل ، بل يحتملون الصدمات ويعاودون السكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاماً وطبيعة في الناس ، لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ويقول : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » .

ولا ننسى أيضاً ما في الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية ، وتباعد عن صخب الحياة إلى رحاب المناجاة ، وانقطاع عن هواتف التراب واتصال بالملأ الأعلى ، وفي ذلك استعداد قوى وتميؤ فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوي الشريف : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم مخرجاً ، ومن كل ضيق فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ! .

أما بعد ، فإن الكمال المطلق للبشر محال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين ، والخضوع للهوى الأثيم ضلال أى ضلال ، فلم يبق إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، وأن نتجنب السوء ما قدرنا ، ولا يضيرنا أن نعرث مرة ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحلين ، فلنرفع رؤوسنا من جديد ، ولنطو صفحات الماضي بما فيه ، ولنستغفر الله منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! .

شعاع من فجر الإسلام

أفضى الأستاذ الشيخ محمد خليفة

المدرس بمعهد القاهرة

إنه شعاع الإيمان المتلألئ ، انبثق في ظلمات الحياة ، فتمشع دياجيرها ، ومحا جاهليتها ، وشتت حقها وضلالها .

شعاع الإيمان الذي سكب الله في قلب محمد عليه السلام ، فغمر جانبيه هدى ونورا ، وجعل من نفسه البشرية ، نفساً ملائكية تفسر على ضوء إيمانها أسرار هذا الوجود . الإيمان الذي شيد من نفس محمد عليه السلام أمة ، وبني من أمة محمد عليه السلام قوة لا تثبت أمامها قوة .

الإيمان الذي خلق من حفاة الصحراء قادة ، ملكهم إيمانهم نواصي الحياة ، وأذرى بالشدائد .

الإيمان الذي انبعث من ذلك القلب فزعزع بطش الجبارين ، وزلزل صلف المتألهين ، وحطم غدر المتذنبين .

الإيمان الذي خلق من القلوب الصحراوية رحمة ، ومن جشعها قناعة ، ومن غلظتها وداعة ، حيث تحمد الوداعة ، وعفواً حيث تسكون القدرة .

الإيمان الذي جعل من المرأة قوة تفتك بعنت العتاة ، وخلق من فاطمة بنت الخطاب سلاحاً يخضع جبروت عمر حين تصيح فيه : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلا ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الاسماء الحسنى » ، فيستسلم عمر الجبار إلى ذلك الإيمان الدافق تتفجر ينباعه من قلب المرأة الضعيفة . ذلك الإيمان الذى جعل من المسلم الأول أمة يعيش للأمة ، ويعنى بالمجتمع ، لا فرداً تسيطر عليه الفردية ، وتتحكم فيه النفعية الشخصية ، ويعنى بالأسرة الصغيرة ، فيشيد لها ويدخر .

فأبو بكر، رضوان الله عليه، يدفعه إيمانه إلى الجود بكل ماله لله ولرسول الله، ولنصرة دين الله، ثم هو لا يترك لأولاده قوتاً ثقة منه بالله، أنه بهذا البذل يبني الأمة قبل الأسرة، ويؤسس للدولة قبل الولد، بهذا الإيمان من أبي بكر، وبمثله من غير أبي بكر، ساد العرب وعز الإسلام.

ذلك الإيمان هو الذى جعل للعرب الغلبة والسيادة، فانطلقوا تحت رايته يدعون إلى المبادئ السامية، مبادئ الإخاء والمساواة، مبادئ الإنسانية، فتفتحت الدول أمام دعوتهم قبل أن تفتح بسيوفهم، وتطلعت الشعوب المظلومة إلى تلك المبادئ التى جاء بها الإسلام لتتقدها من ظلم القيصرية وجور الاستعمارية، ذلك هو الإيمان الذى جعل بلالا وأمثال بلال يستمرئون مر العذاب فى سبيل إيمانهم، فخر الرمضاء الذى يشوى الجسوم لم ينهته إيمان الأرواح، ولم يزعزع ثقة النفوس، لأن إيمانها أعظم من أن يخضعه جبروت أو يذله غت، والإيمان وحده هو الذى نصر ثلاثمائة من المسلمين على ألف من المشركين فى بدر، سلاح المؤمنين الإيمان وحده، وللمشركين سلاح من عددهم، وسلاح من مالههم، وسلاح من خيلهم، ولكن كل هذه الأسلحة لم تغن أمام الإيمان شيئاً.

لقد حمل المسلم الأول إيمانه بين جنبيه، وألقى عزمه بين عينيه، واندفع عاصفاً يقطع أعناق الجبال الآسيوية، ويمرق فى وديانها، حتى انتهى إلى إفريقيا، فأثار رمالها، ومر على خصبها وجدبها، ثم قطع البحر إلى أوروبا، وهو يجلجل حيث سار، ويؤذن حيث أقام:

الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله؛ هتف الأذان، ونادى الإيمان، فصمتت الصوامع والبيع، وأخرست النواقيس وراح الحق ينادى فى الناس: حى على الصلاة، حى على الفلاح. فتجاوبت الأرواح فى أوروبا وإفريقيا وآسيا: لييك لييك.

وهكذا جرى الإيمان نوراً يهفو إلى القلوب فتفتح له كما يتفتح الزهر لبسات الصباح، وتنتعش به النفوس كما تنتعش الورود ببسات الربيع.

لنمد آخى الإيمان بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها منذ بدا فجره، فلا يئن مسلم فى اليمن، حتى تسمع صدى أناته فى المدينة ودمشق وبغداد ومصر

وقرطبة ، ولا يستغيث عربي في خيامه الضاربة في حضن الجزيرة العربية ، حتى تجاوبه الأصوات في مصر وقرطبة وبغداد ودمشق : لبيك لبيك ، وهكذا كانت أخوة الإيمان ، يجمع المسلمين إحساس واحد وإن اختلفت أقطارهم وتناوت بلدانهم .

فأين نحن الآن من هذا الإيمان ؟

الأمة العربية مضطربة ، والشعوب الإسلامية مفككة ، بل الأسرة الصغيرة متافرة متناحرة .

يا رحمة السماء ، عودى فابعثي على هذا العالم الحائر شعاع الإيمان ، لعله يمحو ظلام المادية من النفوس ويوقظ سمو المبادئ التي جاء بها الإسلام .

يا رحمة السماء ، مدى إلى قلوبنا من فجر الإسلام ذلك الشعاع الذي بنى مدينة الإسلام ، فالإيمان وحده هو الذي يعيد للمسلمين مجدهم .

يا سلاح الإيمان ، في مصنعك أنت وجدت المعجزة الأولى التي فتحت بها العرب العالم ، فهلا فزعت الأمة العربية إلى مصنعك تأخذ منه قوتها فتعود إليها المعجزة .

إن كتاب الله هو مصنع الإيمان الذي تستمد منه القوى وتوجد المعجزات ، فمتى يهرع المسلمون إليه ليفتتحوا عهداً جديداً وليعبثوا جيلاً جديداً وليخلقوا العالم خلقاً جديداً ينادى في الوجود :

إلى كتاب الله ، إلى كتاب الله ، فهو سلاح من لا سلاح له .

ذم التنافس فيما يفنى

قال الفارابي :

ينافسُ هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
يحيط السموات أولى بنا فإذا التزاحمُ في المركز

أى مجتمع نعيش فيه

لفضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يهدف المجتمع فى هذه الحقبة من الزمن إلى الجرى وراء المادة، لا يثنيه عنها ثان من تعاليم دينية أو مقاييس خلقية أو اعتبارات اجتماعية، وكل ما وقف فى طريقه فى نظره إنما هى رجعية بغىضة إلى نفسه، وقوانين جائرة ليس لها من مبرر، حتى التوى الطريق على الكل وضاعت معايير الأشياء، وانتهدت تعاليم الدين وابتذلت السكرامة وتحللت الأخلاق، وصار المجتمع يجرى وراء هذه المادية العاتية التى ستودى به إلى كوارث لا قبل له باحتمال عواقبها.

ولو رجعنا إلى الوراء قليلا، ونظرنا إلى ما كان عليه المجتمع قبل عصر النبوة لتساوى العهدان. فالتقوى اليوم هو الأمثل لدى الناس جميعاً، يرهبون جانبه، ويقضون حوائجه، ويحسبون له ألف حساب وحساب، من تقدير وتقديس، لأن بيده عصب الحياة، وإكسير الوجود، والجالب للسعادة وهو المال.

أما الأخلاق، أما السكرامة. فهى ألفاظ وضعها اللغويون لغير هذا العصر، وهى من التراث العتيق البالى، والذى يعد المتمسك به من الجامدين. فالإباحية المطلقة هى حضارة العصر وقوام الوجود، وهى المدنية الحقة التى يسعى لها الكل ويهدف إليها الجميع، ونظرة واحدة إلى حفلات السادة السكبار ترينا مبلغ ما وصل إليه المجتمع فى زيه ولبسه وتصرفه وابتكاراته، فعقود الزهر يفخر بلبسها السيد السند وفى فمه زمارة وعلى رأسه طرطور وبجواره حواء تكشف عن مفاتها يتقارعان كئوس الطلاب، ثم يقومون إلى حلق الرقص، كأن بهم مس من الجن من بكور الليل إلى انبثاق الصبح، يهيمون فى خيالهم ويسبحون فى مجونهم، وهذا هو مجتمعهم عليه يلتقون وعنه ينصرفون، لا وازغ من ضمير ولا دافع من خلق، والويل كل الويل لمن ينقد أعمالهم أو يبدى ملاحظة على سيرهم وسلوكهم، والأدهى من ذلك

أن تنشر صورهم وهم على هذا الوضع المزرى بالأخلاق ، فأى مجتمع هذا الذى نعيش فيه ، وأى خلق يكون مقياساً لهذا العصر ؟

والله إنها للفوضى التى تدرك الأمم فى أخريات وجودها ، وعصر تحللها ، وانقراضها كما يحدثنا التاريخ .

وبدهى أن تلك الحروب الطاحنة التى تشنها الدول على بعضها ، وتلك الاعتمادات الضخمة التى ترصدها ، لها أثر من آثار هذه الأناية المادية ، ومن الغريب أن هذه كلها لو وجهت إلى التعمير والإصلاح لنال العالم كله منها الخير العميم .

ولسكن أين التفكير السليم ، بل أين المجتمع المستقيم حتى يعمل الكل لما فيه إسعاد البشرية .

أيها المصلحون : إن الطريق السوى هو التدين الصحيح ، ولن يصلح هذا المجتمع إلا بما صلح به أوله .

تقوى واستقامة يعمل لها الجميع ، ويسعى لها الناس عن يقين ثابت وإيمان قوى وفكر متين . إن هذه الحياة التى نحياها مجون ما وراءه مجون ، نهايتها الجنون ، وغضب يصيب الأفراد ، وينصب على المجموع « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

فإلى القادة والزعماء ، إلى السادة والرؤساء : أوجه حديثي : عليكم وزر ما وصلت إليه الحالة العامة من انهيار ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأفيقوا من سباتكم واصحوا من غفلتكم واتقوا الله فى دينكم وفى قدسيته ، فقد طمت البلوى وعمت الفوضى ، وهذا التحلل الخلقى ستكونون فى النهاية أول ضحاياه .

واعلموا أنه لا عز لكم فى سيادة مشبوبة بدم الأبرياء ، ولا غنى لكم عن تعاليم الساء لسكبج جماع المبادئ الهدامة التى نخشى أن تحتاج كل الحصون الخلقية ، والتعاليم السماوية .

أما المال : فهو ظل زائل لا يغنى إذا حزب الأمر واشتد الهول ، فخصنوا أنفسكم بالأخلاق ، وحاربوها بالبذل والإنفاق « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . والله أكرم مسئول أن يوفق الجميع لما يعود على المجتمع بالنفع العميم والخير الكثير إنه ولى الهداية والتوفيق .

سهنوار المنى ظروفات

شرح ابن بطال على البخارى

لمحضره صاهب الفضيلة الاستاذ الشيخ أبر الوفا المرافى

مدير المكتبة الأزهرية

من كتب الشريعة الإسلامية التي حظيت بالقبول ، ونالت من عناية العلماء واهتمامهم ، كتاب « الجامع الصحيح » للإمام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، فقد أقبل العلماء عليه بالدراسة والبحث ، والاستفادة والشرح والتعليق ، حتى بلغت المؤلفات فيه من نواحيه المختلفة بضع عشرات ، وشرح شروحاً موجزة ومطولة يبلغ بعضها نيفاً وعشرين مجلداً ، ومن أطول شروحه شرح العلامة العيني .

ولم يحظ « الجامع الصحيح » للبخارى بذلك لجلال موضوعه « وهو الأحاديث النبوية الصحيحة » فحسب ، ولكنه نال ذلك لثقة جامعه وأمانته ، وحسن ضبطه ، وشدة تحريره ، وتخرجه ، حتى أصبح في مكان التقداسة من نفوس المسلمين ، بعد كتاب الله تعالى . وقد شرح جامع البخارى شروحاً كثيرة ، بعضها مشهور متداول ، وبعضها عفى عليه الزمن فيما عفى ، ومن أشهر شروحه وأقدمها ، شرح ابن بطال عليه ، وربما كان هذا الشرح أساس شروحه ، فكثيراً ما يعتمد عليه الشارحون ويتقنون عنه . وكان علماء الحديث مشوقين إلى معرفته والاطلاع عليه ، والوقوف على طريقة تأليفه ، ومنهاج البحث فيه ، وكان الظن أنه ضاع فيما ضاع من التراث الاسلامى ، ولكن الحظ السعيد قد أظفر به المكتبة الأزهرية ، فأهدى إليها أخيراً ضمن مكتبة المغفور له الشيخ محمد الأمير غفر الله له وأجزل مثوبته ، إلا أن سرورنا به لم يتم ، فقد تبين أنه ينقصه أواخر الجزء الأول والجزء الثانى .

وابن بطال هذا هو أبو الحسن على بن خلف بن عبد الملك بن بطال القرطبي يعرف بالليثام ، الامام العالم الحافظ المحدث الراوية الفقيه ، روى عن ابن أبى صفرة والشفناذى والقاضى يونس وغيرهم ، وأخذ عنه جماعة ، ألف شرحه المعروف على البخارى والاعتصام فى الحديث وتوفى سنة ٤٤٤ هـ أو سنة ٤٤٩ هـ .

وشرحه هذا يقع في أربعة مجلدات بالمسكبة ، منها ثلاثة فقط ، الأول وبآخره نقص ، والمجلدان الثالث والرابع وهما يتلم معتاد وبخط واحد ، هو خط على ابن عمر عبد الله الامام ، فرغ منهما سنة ٧٨٠ هـ لجامع الخطبة .

وعدد أوراق المجلد الأول ٣٥٣ ورقة ، والثالث ٣٨٧ ، والرابع ٣٧٨ ، ومسطرتها كلها ٢٥ سطراً ، وعدد كلمات كل سطر تتراوح بين ١٥ ، ١٨ كلمة ، ومقاسها ٢٧ × ٢٠ ، وعنوان كل جزء بأوله بالمداد الأزرق في حلية ذهبية أنيقة ، وعناوين الكتب والأبواب في الكتاب جميعه بالمداد الأحمر ، والكتاب بحالة حسنة تمكن من الانتفاع به ، وما به من هنات لا تمس موضوعه .

ويتبدى الجزء الأول بأول الشرح وينتهى في أنشاء باب زيارة القبور ويتبدى الثالث بكتاب الأضاحى ، وينتهى بباب الطلاق ، ويتبدى الرابع بباب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون وينتهى بآخر الشرح .

وشرح ابن بطل هذا هو شرح موجز عني فيه صاحبه بالتفنيه أولاً على الصحابي راوى الحديث ، وباستنباط الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، قال صاحب كشف الظنون : « وشرحه البخارى » الإمام أبو الحسن ... وغالبه في فقه الإمام مالك من غير تعرض لموضوع الكتاب .

وأول الشرح : « باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله عز وجل « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » فيه عمر بن الخطاب قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يشكها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) قال المؤلف قال لى أبو القاسم المهلب بن أبي صفرة رحمه الله معنى هذه الآية : « إن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى سائر الأنبياء عليهم السلام وحي رسالة لا وحي إلهام الخ .

وآخر الشرح : « وقول البخارى ويقال القسط مصدر المقسط فأنما أراد المصدر المحذوف الزوائد كالتقدير مصدر قدرت إذا حذفت زوائده ، قال الشاعر :
وإن يهلك فذل لك كان قدرى

بمعنى تقديرى محذوف زوائده وردة إلى الأصل ، ومثله كثير ، وإنما نحذف العرب زوائد المصدر لترد الكلام إلى أصله ويدل عليه ، ومصدر القسط الجارى على فعله الأقساط اه .

عجالات في الأدب العربي

لفضيلة الأستاذ الشيخ طاهر محمد عجمان

المدرس بالأزهر

جرى القلم في عجالاتي السابقة عن ملاح الحوار في صناعة الأقلام العربية الخالدة .
والحوار في الأدب الحديث ، عدة لها خطرهما لمن يجيدونها ، إذا قدموا الزاد
الفنى ، وراحوا من ورائه يرقبون مدى خطواته نحو أعتاب الخلود .

والتمدأى من العرب نسجوا حوارهم عفو الخاطر ، وجرياً وراء فطهرهم ،
ولم تسكن وراءهم ممتايس الصناعة ، ولا دوافع من (مسرح) ولا مقتضيات
(الزمان والمكان) .

وإذا تركنا (الحوار) ، وتلمسنا بذور القصة وقتشنا في طوايا المؤلفات ، وخبايا
المراجع القديمة ، وجدنا العجب العجيب ، ووجدناه عند الأقلام المؤرخة أو الدارسة
أو المستعرضة المتعرضة لحيوات الناس ، سواء منهم الشاعر والأديب ، والحاكم
من خليفة أو سلطان أو وال ، لا فرق بين الرجل والمرأة .

ووجدنا كتب السيرة ، وكتب التراجم ، وكتب الأدب ، وكتب الأخبار ،
تحفل بعلاج البوادر القصصية ، وتجنح إلى جانب الأقصوصة ، يقارب الكاتب
من التوفيق ، إذا زحمته الوقائع والحقائق .

وفى أكثر الكتب إصابة عين التوفيق والاجادة بما ينال رضا من يلتمسون
تطبيق منطق القاص المحدث ، وقواعد واضع الأقصوصة في عصرنا الحاضر .

وظاهرة لا يفوتنى أن أقف عندها ، وهى الإمعان وراء المصارحة الخالصة
والصدق الواقع ، والتحليل النفسى للأشخاص والجماعات ، وحتى التعابير الموجزة
والتشابهية المسكتزة ، تطوف كالتقوارير المحشودة العامرة بالنفحات النفسية ، والعواطف
النابضة بالحيوية المعبرة دون أن تنقص شيئاً ، إذا تأمل القارىء وأنعم التأمل .

وكثير من الناس يعيرون على بعض التقديم كثرة استطرادهم ، وعندى أن الاستطراد يعد ذخراً أدبياً ، لأن المؤرخ حين يتعرض لحياة خليفة مثلاً ، ثم يتوقف فجأة عن السرد التاريخي ، ويبدأ في طرفة أو رواية حديث أدبي ، ثم يتنقل نصاً أدبياً منظوماً أو منشوراً ، وبعد ذلك يعود إلى مزجه التاريخي أو العلي - حين يصنع هذا لا يبعد بالمؤرخ إلا بمقدار ما يتمتع الأديب ، ولا يتمتع الأديب إلا على أساس رسم المناثر الموضحة ، والمعالج الشارحة مما يُستخلصُ منه روائع الأحداث السارة أو الضارة ، والمنايع التي روت الترائخ ، وهزت العواطف فأثمرت العصارات التي حملت الينا في بوتقات صهرت موادها ، فتماسكت سبائكها ، وراقت قلائدها ، وازَّين بها جيد الأدب .

ومهما قيل في استطراد المؤلف القديم ، فإن الذين تخصصوا وخلصوا فنون الأدب إلى مناهج متآخذة ، ووشائج متآخية ، لم يجدوا من المراجع . أوفى من الأقالام المستطردة ، وأخيراً أشهد أن في بعض الإطنابات من التعميم التي تعد مستقلة في النصة أو الأقصوصة .

والضائقون بالسكتب (المستطردة) لا أجدهم الآن على صواب ، لأن لذة التثقل لا تعوض عند من يريد أن يلون زاده وغذاء عقله وعاطفته .

ولعل الدليل الممنوع : كتاب (الأغاني) إذا وضعناه بجانب مذهب الأغاني .

نعم ونعم ، إذا قضيت ساعة مع أبي الفرج ، ورحلت تتلمب عينيك بين أفاصيده وطرفه ودعاباته ومقطوعاته ، ثم أخذ بيدك إلى مجلس شاعر أو مجلس خليفة ، ثم عدا بك إلى قصيد أو مقطوعة ، وكشف لك عن صوت يتعلق بأصدائه ، ويخلق مع شاعر آخر أو جارية أدبية أخرى ، رأيت معه نفسك وقد هزتها النشوة . فإن أردت أن توجز الوقت واتمتت مذهب الأغاني ، طالعتك الجهامة ، وبدهك الجفاف ، وفقدت الطرافة ، وعدت تقلب ناظريك بين عصف مجموع ، لا تلبث إلا ريثما تعود إلى متاع الأغاني ، كما صنع الأصفهاني .



ولا يشك قارئ في أنني أعني الاستطراد عند الترائخ الخالدة قبل القرن الرابع الهجري ، وسيدهم غير مدافع (الجاحظ) .

وبعد أن ظفرت المكتبة العربية (بألف ليلة) ، ثم بالقصص الشعبي في العصور المتأخرة ، أجدني أمام فن قصصي مستقل له خصائصه المتفرده ، وله ظلاله وآثاره في الأقالام والقراء .

وحظي في هذه العجالة ، أن أعود بالقارئ إلى أن مكتبتنا العربية بدأت تجمع على عواتقها مصنفات لأقلام زاولت وعالجت الأقصوصة ، ومنها من شقت بأسلاتها طريق القصة ، بل وضعت مستقلة أسسها على هدى من الفطرة والطبيعة العربية الخالصة .

وسوف أعود في عجالة أخرى ، إلى المعالم الأولى ، والمدارج التي اهتزت فيها الباسقات ، وربت في ربوعها وارقات الأقصوصة ثم القصة .

النحو يرثي

كان ابن مالك إمام النحو في عصره ، وألفيته تعتبر صندوق النحو إلى اليوم . ولد سنة (٦٠٠) وتوفي سنة (٦٧٢) هـ فرثاه شرف الدين أحمد المستفيدين منه بقصيدة طريفة ألفاظها مستمدة من قواعد النحو ، وهي :

يا شتات الأسماء والأفعال	بعد موت ابن مالك المفضل
وانحراف الحروف من بعد ضبط	منه في الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم بإذن الله	من غير شبهة أو محال
عدم النعت والتعطف والتو	كيد مستبدلاً من الأبدال
ألم اعتراه أسكن منه	حركات كانت بغير اعتلال
يا لها سكنة لهمن قضاء	ورثت طول مدة الانفعال
رفعوه في نعشه وانتصبنا	نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه بأعظم ما فعلوه	وهو عدل معرف بالجمال

إلى آخرها ، وكلها على هذا النمط من استخدام ألفاظ علم النحو ، في رثاء إمام النحو .

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ محمد عبد المنعم ففاجي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

في هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : في القرآن الكريم وإعجازه ؛ ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارئ كل ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز ؛ معرفة تامة لا لبس فيها ولا خفاء .

رأى الوليد بن المغيرة :

١ — روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمراً عليه القرآن ؛ فكأنه رقى له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ؛ لئلا تأتى محمداً ، لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قریش أنى من أكثرها مالا ؛ قال : فتمل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له ؛ قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى تقول شيئاً من هذا ؛ والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليعظم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ؛ قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يآثره عن غيره ^(١) .

٢ — وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم :

[١] ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للقاضى عياض ، و ١١٧ / ٢ الاتقان للسيوطى ، ٣٥٧ إعجاز القرآن للرافعى

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ؛ ما يقول هذا بشر ^(١) .

٣ — وجاء في رواية أخرى أن الوليد قال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آتفا كلاماً ، ما هو من كلام الأنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ؛ فقالت قريش : صباً والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ؛ فتمعد إليه حزينا ، وكلبه بما أحماه ، فتمام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتسكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؛ وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ^(٢) .

٤ — ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه - يعنى النبي صلى الله عليه وسلم - رأياً لا يكذب بعضهم بعضاً ؛ فقالوا : نقول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعته ؛ قالوا : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ولا بخنثته ولا وسوسته ؛ قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومتمبوضه ، ما هو بشعر ؛ قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عتمده ؛ قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ؛ وإن أقرب التمول إنه ساحر ، وإنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته . فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس ^(٣) فأنزل الله تعالى فيه : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، الآيات ^(٤) .

٥ — وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة في القرآن ما قال ، حين جاء إلى

[١] ص ٢٢٠ / ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ . [٢] ص ١٥٨ / ٤ الكشف للزحشرى .

[٣] ١/٢٢٣ الشفاء ، ٣٥٧ و ٣٥٨ إيجاز القرآن للرافعي [٤] آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر

الرسول ، وقال له : اتل عليّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا في الانتقياد ، فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ، حُسم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته » إلى آخر السورة ؛ فقال : إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة^(١) رأى عتبة بن ربيعة :

١ — وروى أن أبا جهل قال في ملاء من قریش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمسنا تم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، فكلّمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى عليّ ؛ فأثابه ، فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت ، فلما بلغ قوله : « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قریش . فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؛ فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم . وقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، نخفت أن ينزل بكم العذاب^(٢) .

٢ — وقال عتبة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمت أني لم أترك شيئا إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولها ، والله ما سمعت مثله قط ؛ ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة^(٣) . . . وروى ذلك عن النضر بن الحارث .

الجن تشهد ببلاغة القرآن :

وفي القرآن الكريم : « قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » إلى آخر سورة الجن . وقولهم « عجبا » يفسرها المفسرون بيلغي بديع معجز .

كلام لم ينزل إلا من السماء :

وروى أن أبا بكر سأل أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن كلام مسيلة وما كان يدعيه قرآنا ؛ فقصّوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أي عن ربوبية - فأين كان يذهب بكم^(٤)

[١] ٣/٢١٨ الطراز في علوم البلاغة [٢] ٣/٣٨٧ الكشف ، ٢٣١ ٢/٢٣٢ الشفاء .
[٣] ٥/٢٢٣ الشفاء [٤] البافلاني وهامش ٢٦٩ و٢٧٠ الرافعي . وكلام مسيلة تجده في
إيجاز القرآن للبافلاني ، ويقول حين يحدث عنه صاحب الطراز : خرافات مسيلة (٣/١٧٣)

زعم وافتراء :

ويقول السيوطي في الاتقان : وكانوا مرة بجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتتبتها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن أصحابهم أمي ، وليس بحضرته من يملئ أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز ^(١) حسان يتحدث في شعره عن القرآن :

ويقول حسان بن ثابت في شعره فيما قال عن القرآن الكريم :
 الله أكرمنا بنصر نبيه وبنّا أقام دعائم الإسلام
 وبنّا أعزّ نبّيه وكتابه وأعزّنا بالضرب والإقدام
 يفتننا جبريل في أبياتنا بفرائض الإسلام والأحكام
 يتلو علينا النور فيها محكما قسّماً لعمرك ليس كالأقسام
 فنكون أول مستحل حلاله ومحرم لله كل حرام ^(٢)
 العرب تجل بلاغة القرآن عن الشعر :

١ — ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن ، إلا معلقة امرئ القيس ؛ فإن أخته أبت ذلك عنادا : فلما نزلت آية : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » قامت إلى الكعبة فأنزلت معلقة أخيها ^(٣) ، وإن كانت هذه الرواية مما لم يسلمها العلماء .

٢ — وفي حديث إسلام أبي ذر وصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم ، وأنه انطلق إلى مكة ، وجاءني بخبر النبي ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، ساحر ؛ كاهن ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ؛ وإنه لصادق . وإنهم لكاذبون ^(٤) .

يسلمون حين سمعوا القرآن :

ويقول السيوطي في كتاب الاتقان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن ؛

[١] ٢/١٢١ الاتقان طبعة ١٩٣٥ [٢] ٣١٨ الديوان [٣] هامش ٢٣٧ و ٢٣٨ الرافعي .

[٤] ١/٢٠٤ الشفاء .

كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يترأ في المغرب بالطور ، قال : فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » ، إلى قوله « المصيطرون » ^(١) ، كاد قلبي أن يطير ، قال : وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي ^(٢) .

أعرابي يسجد لفصاحة القرآن :

وروى أن أعرابا سمع رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ^(٣) .

ومما يتصل بهذا ما يروى أن أعرابياً سمع آخر يقرأ : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

أهل الكتاب يشهدون للقرآن :

١ — وروى أن عمر كان نائماً في المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية ؛ فأسلم وقال : سمعت رجلاً من أسرى المسلمين يترأ آية من القرآن فتأملتها فإذا هي قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه » الآية ^(٤) .

٢ — وروى عن نصراني أنه مر بقاريء ، فوقف يبكي ، فقيل له مم بكيت ؟ قال : للشجا والنظم ^(٥) .

٣ — وعن كعب ، وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فإنه فهم العقول ونور الحكمة ^(٦) .

أعرابية تسحرها فصاحة القرآن :

وهي وإن كانت لم تشاهد عصر النبوة إلا أن ذوقها هو الذوق العربي المفطور وكنتي ؛ روى عن الأصمعي أنه سمع كلام جارية ، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أو يُعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، الآية ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ^(٧) ؟ يتبع

[١] آية ٣٢ - ٣٧ سورة الطور . [٢] ٢/١٢٣ الاتقان ، وراجعته في ٢٣١ / ١ الشفاء .

[٣] ١/٢١٠ الشفاء . [٤] ١/٢٢١ الشفاء . [٥] ١/٢٣١ المرجع .

[٦] ١/٢٢٥ المجع . [٧] ١/٢٢١ المرجع .

أَيُّهَا الْبُرْدَةُ

قصيدة كعب بن زهير أم « قصيدة البوصيري »

لفضيلة الأستاذ منصور على رجب

أستاذ في كلية أصول الدين

كعب بن زهير والبوصيري هما اثنان ، قد بلغا بقصيدتيهما الخالدين في مدح الرسول صلوات الله عليه من الحال والمنزلة في الأدب العربي غاية ليس وراءها متجاوز لأمل ، ولو كان على الجهد مزيد لبلغاه .

ولكل منهما في قصيدته قصة مستفيضة ، تجعل له ما هو أجمل في الأحداث وأطيب في النشر . أما كعب فما إن بلغ صوت النصر أذنيه يوم أن فتحت مكة حتى خرج هو وأخوه بجير هارباً مع من هرب من العرب ، خرج خائفاً يترقب جزاءه من أشياخ الحق وأنصار دين الله ، لما فرط منه من هجاء لهذا النبي العربي المنتصر ، فأخذوا يعلوان أطمأ وهضاباً ، ويقطعان فيافي وقفاراً ، حتى ركبنا إلى رملة لبني سعد بالحجاز ، أو إلى ماء لبني أسد بين مكة والمدينة ، فأويا إلى ظله ، وألقى كل منهما مراسيه ، وبجير يقول لأخيه كعب : اثبت في الغنم حتى آتي هذا الرجل فأسمع كلامه ، واعرف ما عنده ، هل هو مما يستملح ، ويلوح صدقه فأتبعه ، أم لا فأتركه ؟ فيقيم كعب ، ويمضي بجير ، ثم يتساقط الخبر إلى كعب بإسلام بجير ، فيشق الأمر على كعب فيكتب إليه هذه الأبيات :

ألا بلغا عني بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لك^(١)
سقاك بها المأمون^(٢) كأساً روية فأنتلك المأمون منها وعلك
ففارقت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء ويب^(٣) غيرك دلك

[١] أي هل لك إرادة فيما قلته من كلمة الشهادة .

[٢] المراد بالمأمون النبي فقد كانت قريش تسميه المأمون والأمين فهو كما قيل :

ومليحة شهدت لها ضرانها والفضل ما شهدت به الأعداء

[٣] ويب غيرك أي هلك غيرك فالويب الهلاك وهو بالنصب على أضماء الفعل .

على مذهب لم تلف أما ولا أباً عليه ولم تعرف عليه أخاً لك
فإن أنت لم تفعل فلست بأسف ولا قائل إما عثرت لعا لك^(١)

يتقف بحجر على هذه الآيات ، وفي استطاعته أن يخفيها عن النبي حتى لا يوقع
كعباً في حرج فوق ما فيه من حرج ، ولكن الرجل بعد أن أسلم أصبح لا يعرف
إلا الحق ، أما عاطفته نحو أخيه فبات لا يعرفها أمام الحق وفي سبيل الحق ،
فيذهب بحجر بها إلى النبي ، فلما سمع قوله : سقاك بها المأمون : قال : مأمون والله
ثم قال : من لقي كعباً فليقتله ، ولكن على بحجر أن ينصح أخاه « والدين النصيحة » ،
فيكتب إليه : إن النبي قد أهدر دمك ، وأنه قتل رجلاً ممن كانوا يهجونه ويؤذونه
فإن كان لك في نفسك حاجة فطر إليه ، فإنه لا يرد أحداً جاءه تائباً ، ولا يطالب
بما تقدم قبل الإسلام ، ثم يكتب إليه هذه الآيات :

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلا فهو أحزم
إلى الله لا العزى^(٢) ولا اللات^(٣) وحده فتنجو إذا كانت النجاة فتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا دين دينه ودين أبي سلى على محرم

[١] لعا لك أى لا أدعو لك بالسلامة من العثرة لغضبي عليك ، فإن لعا لك كلمة دعاء للعائر
بالسلامة من عثرته .

[٢] كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون عندها
بالذبايح ، وكانت العرب وقريش تسمى بها فتقول : « عبد العزى » ، وكانت قريش تطوف بالكعبة ،
وتقول : « واللات والعزى » . ومائة الثالثة الأخرى . فأثنى القرانيق للعلا
وإن شفاعتهن لترجي

وكان الذي اتخذها ظالم بن أسعد ، ومكانها بواد يقال له : حراض ، بأزاء الغمير عن يمن
المصعد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال فبنى عليها بيتاً ، وسداتها
كانت بنى مره ، فلما كان عام الفتح دعا النبي صلوات الله عليه خالدين الوليد ، فقال له : « انطلق
إلى شجرة بيتان تحلة فاعضدها . فأناها فعضدها .

[٣] كانت صخرة مربعة ، كان سدها من ثنيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، وكانت
قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمى « زيد اللات » ، وتيم اللات ، ويقول ابن الكلبي
في كتاب الأصنام : « كانت في موضع منارة مسجد الطائف اليمرى اليوم » .

ويبلغه الكتاب، فيأتي إلى قبيلة مزينة لتجيره من رسول الله فتأبى عليه ذلك، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويشفق على نفسه، فيقول قصيدة يمدح بها رسول الله صلوات الله عليه، ثم يخرج حتى يصل المدينة فينزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة، فيأتي به إلى المسجد، ثم يشير إلى رسول الله، فيقول له ها هو ذا المؤمن فقم إليه واستأمنه، ورسول الله بين أصحابه مكان المائدة من القوم حلقة دون حلقة، يقبل إلى هؤلاء مرة فيحدثهم، وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم، فيتخطى كعب هذه الحلقات حتى يجلس بين يدي رسول الله، ورسول الله لا يعرفه، وأما هو فيعرفه بالصفة التي وصفه له بها صاحبه، فيضع يده في يده قائلاً: يا رسول الله. إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً. فهل أنت قابل منه إن أنا جئتُك به؟ فيقول الأمين: نعم. فيقول أنا كعب بن زهير. فيثب عليه رجل من الأنصار وهو يقول: دعني يا رسول الله وعدو الله أضرب عنقه، فيمنعه الرسول قائلاً: دعه عنك، فتمد جاءنا تائباً نازعاً. ثم يأخذ كعب يفتش قصيدته بين يدي رسول الله وهو يسمع فيقول:

بانت سعاد فتلبى اليوم متبول متمم إثرها لم يفسد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
وما إن وصل كعب إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

حتى قال رسول الله: من سيوف الله، وألقى عليه برده الشريفة التي كانت عليه، ويقول الباجوري في حاشيته على هذه القصيدة: قال أهل العلم: هذه القصيدة هي التي حتمها أن تسمى بالبردة، لأن المصطفى صلوات الله عليه أعطى كعباً برده الشريفة، وأما قصيدة البوصيري فحقها أن تسمى بالبردة، لأنه قد أصابه داء الفالج فأبطل نصفه وأعي الأطباء، فلما نظمها رأى المصطفى فسح بيده عليه فبرئ لوقته. وهذا من باب التصحيف، والتصحيف في لغة العرب كثير. قال المعري: أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب. وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: ومن يعرى من الخطأ والتصحيف!!!

قال ابن دريد : صحف الخليل بن أحمد فتال : يوم بغاث بالغين المعجمة وإنما هو بالمهملة .

وإذا كانت قصيدة البوصيرى قد اشتهرت بالبردة واسمها البردة ، فإن البوصيرى نفسه قد اشتهر بغير نسبه ، ففسبته « الدلاصيرى » ذلك أن أباه من دلاص ، وأمه من بوصيرى قرية بقرب دلاص بمديرية بنى سويف فركبت له نسبة منهما وقيل : الدلاصيرى . ولكنه اشتهر بالبوصيرى . والبوصيرى هذا كان مديراً للشرقية يوم كانت قصبته بلبس ، وله قصيدة طويلة مشهورة فى مباشرة الشرقية منها :

تمتد طوائف المستخدمينا فلم أر فيكم رجلا أمينا
فتمد عاشرتهم ولبث فيهم مع التجريب من عمرى سنينا
فسكرتاب الشمال هم جميعا فلا صحبت شمالهم اليمين
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ولا شربوا خمور الاندرينا
إلى أن قال :

وقد طلعت لبعضهم ذقون ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
وللبوصيرى فى مدائح النبى قصائد طنانة ، منها الهمزية وأولها :
« كيف ترقى رقيق الأنبياء » . وقصيدة على وزن « بانت سعاد » وأولها :
إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول
وهذا عدا البرة التى أولها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
ويطيب لى أن أختم هذه الكلمة بقوله فى هذه القصيدة :
يا أكرم الخلق مالى من ألؤذبه سواك عند حلول الحادث العمم

مراجع البحث :

- | | |
|---|--------------------------------------|
| ١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير | ٤ - فوات الوفيات لابن شاكر |
| ٢ - الأصنام لابن الكلبي | ٥ - حاشية الباجورى على متن بانت سعاد |
| ٣ - الخطاط التوفيقية لعل مبارك باشا | ٦ - المزهرة للسبوطى |

في ميدان علم النفس

تعريف الحكم

لمحاضرة الأستاذ الدكتور سعيد زابر

ويُلخص العلامة « بينه » الحكم في ثلاث صور تتبع كل واحدة منها الأخرى ، تنبه أولاً النانية بالتشابه وتوحي ثانیها إلى النانة بالتجاور ، فالصورة عنده تقابل الحادثة ، أو هي الحادثة ذاتها في تعريف العلامة « مارب » ، وعلى ذلك فالحادثة الأولى هي الباعث ، والنانية هي التجارب الماضية ، والثالثة هي الحلقة النهائية . وهذا يقابل في رأى « هو لنجورث » ، الدالة على ، والمدلول عليه ، والدلالة .

وعلى هذا النمط ، راح المؤلف يوفق بين النظرية الصحيحة - في رأيه - وبين نظريات كل من « وارن وهوفدنج وتنشتر وكالكنز » .

وثمة شيء مهم في هذا المضمار هو بيان الصلة بين الإدراك الحسى والحكم ، والاستدلال والاعتماد ... ينبغي التمييز بين ملكة الإدراك الحسى والحكم ، فهما يمتان بصلة إلى عملية أخرى هي الاستدلال ، ويتلخص التمييز في عمدة مقارنة بينهما ، فالحكم كما رأينا قد عُرف بأنه إثبات علاقة ، ولكن هذا التعريف ليس نوعياً بل عام ، والعمومية في علم النفس ليس لها مقام كبير كالنوعية ، فتموانين التداعي والتشابه والتجاور والتضاد مثلاً ليس لها مجال في علم النفس ، بل ينبغي النزول إلى اختبار الأفراد .

ويجب أن نعرف أن العلاقات موجودة فعلاً في العالم ، وليست من صنع إدراكنا الحسى ، فللعلاقات وجود موضوعي ، ويمكن اكتشافها بأكثر من طريقة واحدة ، وأبسط الطرق تلك التي تمتضى منا أن نقابل بينها مباشرة لنعرف وظيفتها . وأول ما يجب أن نفهم هو العلاقة بين الأشياء التي تنظر إليها ، فإننا نستطيع أن نصل إلى العلاقة بمقابلة شيئين ، فأحد الطرفين يبدو كأن تغيراً حدث فيه ، وإن لم نستطع تمييز موضوعات العلاقة . وب نفس الطريقة نعرف لأول وهلة أن هناك تشابهاً في اللون أو تساوياً في الكمية أو تناسباً في الجمال بين موضوع ما

وموضوع آخر . ففي كل هذه الحالات توضح العلاقة وتتميز وتؤكد إلى حد كبير ويمكن التعبير عنها بوضوح .

وهناك عملية ثانية لإدراك العلاقات وتقريرها ، وهي عملية لها خصائص تمتاز بها ، وهذه العملية تسمى بالإدراك الحسى الوسيط ، فإنه من الممكن بمقارنة حركتين ، أن نعرف إذا كانت إحداها أطول من الأخرى أم لا ، ولا يتأتى ذلك بإدراكنا مباشرة علاقات المكانية ، بل بملاحظتنا الوقت الذى استغرقته كل منهما ، كما يمكننا أن نعرف هل سماء اليوم أصفى من سماء الأمس من مشاهدتنا للظل الذى يقع على الأرض ، ومقدار وضوحه وجلائه ، ويمكننا كذلك أن نقدر قيمة ثوب ما ونوع القماش الذى صنع منه وما إذا كان أجود من غيره ، لا بمقارنة النسيج مباشرة ، ولكن بمقارنة سعريهما أو اسمى منتجهما . هذه العلاقات التى نستطيع أن نؤكددها بطريق غير مباشر فروق فى الدرجة ، كلاهما ثابت وكلاهما مضمون ، ولكن قيمتهما تختلف فى الدرجة .

وكذلك العلاقة المسكانية يمكننا أن نتأكد منها عن طريق العلاقة الزمنية ، فبالنسبة لمسافتين مثلاً يمكن التأكد من إدراكها بالزمن الذى تستغرقه فيهما سيارة ما تسير بسرعة ثابتة ، هذا النوع غير المباشر من إدراك العلاقات يمكن أن نسميه حكماً ، وحياتنا اليومية مملأ بما يحقق هذه النظرية ، فالشاهد الذى أدرك جريمة ما إدراكاً مباشراً ، لا تعتمد المحكمة — رغم ذلك — على شهادته كل الاعتماد ، بل تقوم بدراسة مقارنة لعدة شهادات أخرى لتعرف الحقيقة .

وفى كل حالات الحكم تحدث مقارنة حقيقية بين الأشياء — وإن لم يحدث حكم على هذه الأشياء فى ذاتها — يتميز — باختلافها — الحكم عن الإدراك الحسى . وقيام المقارنة هو الذى يميز الحكم عن عملية أخرى يمكن تسميتها بالاستدلال ، وفى الاستدلال تدرك العلاقة كذلك بعمليات غير مباشرة ، لاخلال مقارنة ، فنحن نؤكد مثلاً أن وزناً ما أثقل من الآخر لأننا عند رفعنا إياه شعرنا بخفته ، أو لأن إحدى كفتى الميزان رجحت عن الأخرى ، ونستدل أيضاً أن وقتاً ما أطول من الآخر لأن كنت فيه أكثر تضائماً ، وتستنتج كذلك أن الشتاء الماضى كان أشد برداً لأن حركة المرور تعطلت فيه عدة أسابيع ، والمقارنات هنا غير مباشرة ، وتقوم على معرفة إضافية يمكن أن تؤخذ بكل بساطة ، كرمز لحالة علاقية معينة ، لأشياء أولية فى الفكر .

وتمت طريقة رابعة لتقرير العلاقات وإدراكها تضاف إلى الطرق الثلاث السابقة

تلك هي العملية التي نأخذ بها العلاقات عن آخرين ، فإذا أخبرني مدرس مثلاً ، بأن المطبوعات تقرأ بوضوح أكثر في اللون الأحمر منه في اللون الأزرق ، أو بأن من يحكم نفسه أعظم من يحكم مدينة ، أو أن الاستجابات السمعية أقصر من البصرية ، فإنني أو من بهذه العلاقات جميعها لثقتي في المدرس .

وربما يقال إن الإيمان ليس إدراكاً بالضبط ، ولكن هذه العمليات الأربعة تكون ، بشكل ما ، صيغ إدراكنا في حالة غياب الأفكار الفطرية والحقائق الموحى بها . وتعريف الاستدلال والحكم والإدراك الحسى ، توازى الفروق التي عتدناها سابقاً بين الإدراك الحسى والحكم والإيمان ، فالاستدلال عادة أقل ثقة من الحكم ، والحكم أقل تأكداً من الإدراك الحسى . وبمعنى آخر يكون الإدراك الحسى أكثرها ثقة ، ويليه الحكم ثم الإيمان .

والخلاصة أن الإدراك الحسى يقوم على تأثير الأشياء نفسها فينا ، فاستجيب نحن بالإحسان ، في حين أن الحكم يقوم على إدراك علاقة بين الأشياء نفسها ، وليس لهذه الأشياء دخل فيه ، أما الاستدلال فإنه يقوم على إدراك العلاقة ، ولكن للأشياء دخل في إدراك العلاقة ، بمعنى أننا نلاحظ الجزئيات ثم نرقق منها إلى معرفة العلاقة ، فسكان الحكم دائماً يعتمد على ناحية غير مباشرة .

ولكن ، كيف نستطيع أن نعرف ، بالنسبة لأي حالة من الحالات ، ما إذا كان تقرير العلاقة مباشراً (إدراكاً حسياً) أو غير مباشر (حكماً) أو مشتقاً (استدلالياً) . يبدو أن هناك - على الأقل - طريقتان للمعرفة :

إحدهما تكون خلال الملاحظة المباشرة لأنفسنا أو خلال شهادة غير المتعلقة بملاحظة أنفسهم .

والأخرى تكون بالاستدلال بناء على قاعدة مفروضة للعملية التي نحاول التعرف بها ما إذا كان الاستدلال سيتخطى عملية المعرفة ، أم هو عبارة عن القضية في حالة صحتها وبقائها .

وثمة طريقة ثالثة ، هي معرفة ما إذا كانت الفتاوى أو القضايا تصبح أكثر اتفاقاً بالعلاقات الصادقة بين الأشياء المحكوم عليها ، أو أكثر اتفاقاً بعلاقات العمليات التي تثق فيها بطريق غير مباشر .

والخلاصة ، أنه يمكن التبول بأن كل طريقة من هذه الطرق خاصة بنوع معين من اليقين ، وربما اقتضى يقين ما أن نجتمع بينها جميعاً .

الإسلام في مدغشقر

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

[رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يوفد بعوثا لبحث حال المسلمين في مختلف البلدان الإسلامية . ونحن نهدي هذا المقال إلى البعثة التي ستطوف في هذه الأرجاء]

مدغشقر جزيرة كبيرة تبعد عن ساحل أفريقيا الشرقى بنحو ١٤٠ ميلا ، وتبلغ نحو ٩٨٠ ميلا طولا ، ٣٥٠ ميلا عرضا ، دخلت هي وجزائر كومورو (وتقع شمالها) تحت الحكم الفرنسى الاستعماري سنة ١٨٩٦ م ، أما سكانها فيزيدون عن الأربعة ملايين من الأنفس .

وسكانها الأصليون ، ينتمون إلى عدة قبائل ، تختلف عاداتها وتباين ، جاء معظمهم من أندونيسيا والملايو ، في سفن ساقطها إلى شواطئ الجزيرة التيارات والرياح الاستوائية . وفي القرن التاسع الميلادي دخل فيهم العنصر العربى ، وتولوا أمور الجزيرة ، وغدوا حكامها ، وإن كان هذا العنصر الجديد قد انصهر في بوتقة الشعب ، فحرت في عروقهم جميعا دماء واحدة .

عرف العرب هذه الأنحاء باسمين : أما الأول فهو بلاد « واق الواق » وهو اسم تقرأه كثيراً في كتب الرحلات الإسلامية والمؤرخين وألف ليلة . فيذكر القزويني وابن الوردي أن جزائر واق الواق تحكمها امرأة تجلس على عرشها عارية وعلى رأسها تاج من الذهب ، تحف بها أربعة آلاف جارية . ولكن الإدريسي يرى هذه الملكة تلبس ثوبا غزل من خيوط الذهب ، وفي قدمها نعلان صنعا من الذهب أيضا . ويروى الدمشقي أن أهل واق الواق مخلوقات تشبه

الكائنات الإنسانية ، ولكنهم ثمار أشجار عظيمة يتدلون منها من شعورهم ، وهم دائمو الصياح : واق واق ^(١) .

ونحن ان تركنا هذه الخرافات جانبا ، رأينا أن الاسم الثاني الذي عرّف به العرب هذه البلاد وهو « جزائر النمر » لا يزال باقيا يطلق على عدة جزائر تقع شمال مدغشقر هي « جزائر كومورو » والتجريف عن لفظنا العربي واضح . وقد أشار الجغرافيون العرب إلى هذه البلاد ومنهم الخوارزمي المتوفى سنة ٨٣٥ م ، كما أشار إليها غيره من الرحالة الأجانب ، فذكر ماركو بولو مثلا : أنها بلاد يعيش فيها المسلمون الذين « يعبدون » محمداً .

وينقسم سكان الجزيرة إلى أقسام ثلاثة ، وهم جميعا من المسلمين :-
يشمل التسم الأول جزائر القمر [كومورو] وسكان الساحل الشمالى الغربى من مدغشقر وهم « التاناكارانيون » و « التسميتيون » . أما القسم الثانى فهم « الصقالافيون » فى وسط الجزيرة وغربها . ويقيم التسم الثالث فى الجنوب الشرقى وهم « التايوريون » و « الطامباهوكا » و « الطيسكيون »



جاء العرب - فيما يروى « جبريل فيرّان » ^(٢) - على أربع موجات ، كانت الأولى بين القرنين السادس والتاسع الميلادى ، وحولوا بعض السكان - الوثنيين - إلى الإسلام . ويرجح أنهم قدموا من خليج فارس ، وأنهم كانوا من أهل السنة . أما الموجة الإسلامية الثانية ، فقد جاءت من جزيرة سومطرة فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وهم الذين أطلقوا على الجزيرة اسم واق الواق . وجاءت الموجة الثالثة من فارس ، أما الرابعة فكانت فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

(١) « معنى كلمة واق واق باللغة الوطنية للجزيرة : الشعب أو الرعايا أو الوطن أو القبيلة ، ومن هنا يمكن القول إن مدغشقر هي واق الواق التى ذكرها اليعاقبة . أما فيما يختص بالثمار المتدلية من شجورها ، فانه توجد فى الجزيرة أشجار ضخمة ، لها ثمار تمت بسبب إلى ما ذكره الدهشقي ، [عن دائرة المعارف الإسلامية] ويمكننا أن نذكر أن الرخ ، قد يكون أحد طيور هذه الجزيرة ، وقد انقرض الآن ، وإن كان يذكر أن يبيض فى حجم كرة القدم .

(٢) Gabriel Ferrand كان الحاكم الفرنسى لجزيرة مدغشقر لسنتين طويلة ، وكان عالما ترك عدة مقالات وكتب عن الجزيرة أهمها : Les Musulmans à Madagascar - Paris 1891 ومقالا فى دائرة المعارف الإسلامية بعنوان Madagascar and Wak - Wak .

والدليل على هذه المهجرات الإسلامية إلى الجزيرة يوجد في مجموعة من المخطوطات وجدت بالجزيرة ، ومحفوطة الآن في مكتبة باريس الأهلية .

وترك العرب والإسلام آثاراً واضحة في حياة القوم ولغتهم وتمايلهم ، وأول هذه الآثار هو الدين الحنيف الذي يعتنقه السكان ، ونجد بجانب استعمال الحروف الأبجدية العربية ، أو العربية السواحلية ، وعدداً من الكلمات خاصة فيما يدل على أسماء الأيام والشهور ، واصطلاحات علم الفلك ، وألفاظ التحية وأسماء الملابس والنقود والآلات الموسيقية والكتابة ، وغيرها كثير . كما أنه - وإلى وقت قريب - كانت تصدر صحيفة إسلامية باللغتين العربية والملمقية [اللغة الوطنية] في تاناناريف عاصمة الجزيرة ، تلکم هي صحيفة « قر الدين » . ولا يزال المسلمون يحتفظون بنسخ من القرآن الكريم ، ومن الكتب العربية الدينية ، وهي كتب يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ويعيدونها - كما يجب أن تكون - كتباً مقدسة لا يفرطون فيها ^(١) .

ومما يؤسف له أن الجهل والبدع يتفشيان بين أهل هذه البلاد فنجدهم شديدي الإيمان بالزار ، والسحر ، وعلم الرمل ، ومعرفة الطالع عن طريق يوم الميلاد وبروج الشمس والكواكب . كما تسود بين السكان خرافة هي عدم إكمال أي عمل يقوم به الإنسان ، ويقوم اعتقادهم هذا على سوء فهم معنى أن الله وحده هو « الكامل » ^(٢) .



وينتمى المسلمون في مدغشقر إلى المذهب الشافعي ، ولغتهم الرئيسية هي اللغة السواحلية . وتتكون الجزيرة من أربعة سلطنات تحت الإشراف الفرنسي ، وأولها هي سلطنة « أنجازيشا » ومقرها مدينة « موروئي » وبها جماعة شاذلية . والسلطنة الثانية هي سلطنة « أنجوان » وترجع إلى مدينة شيراز في فارس ، جاء أهلها مدغشقر حوالي عام ١٥٠٦م ، ولهم مسجد كبير في متمرهم « موسامودو » ، وانشقت عنهم السلطنة الثالثة ،

[١] لزيادة الإيضاح انظر : Henri Rusillon : un Petit Continent -

Paris 1933.

وكذلك كتب فيران السابقة

[٢] انظر : Robert Griffith : Madagascar - London 1919.

Andrew Burgess : Zanahary in South Madagascar - 1932.

والمصادر السابقة .

فيرجع ملوكها إلى أحد أبناء سلاطنة « أنجوان » . أما السلطنة الرابعة والأخيرة فهي سلطنة « موهلى » وهم شيرازيون أيضا ويرجع تاريخهم إلى عام ٨٣٠ م . ويعتبر المسلمون الصقلافيون ، أقل مسلمى الجزيرة تمسكا بشعائر دينهم فهم مثلا يحتفلون برمضان ، وإن كانوا لا يصومونه ، كما أنهم يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير .

أما مسلمو الجنوب ، فهم حسب أساطيرهم قد قدموا من مكة المكرمة ، وما زالوا يحتفظون بالحروف الأبجدية العربية ، والعربية لغتهم المقدسة ، ولديهم مصاحفهم ، وكتبهم العربية فى الطب والفلك يتوارثونها جيلا عن جيل .

وحوالى سنة ١٩٢٤ رأى بعض الهنود ، وعلى الأخص « الأحمدية » منهم ، فى هذه البلاد أرضاً بكرأ ، فأخذوا ينشرون تعاليمهم فيها بنجاح كبير ، وأخذ المسلمون من زنجبار وبلاد العرب يجوبون أنحاء الجزيرة يفقهون المسلمين أمور دينهم ، فإذا بالقوم يفقهون من سبات طويل ، وإذا بالإسلام يبدأ من جديد يدخل القلوب الغافلة عن ذكر الله ، وأهم مركز إسلامى فى الجزيرة يوجد الآن فى مدينة ماجمجا Majemga .



هذه خطوط رسمناها بها حال الإسلام والمسلمين بالجزيرة ، وبقي أن نبين أن هذه الأرض ، التى سكنها المسلمون ، وآمنوا فيها بالدين الحنيف ، كانت أبدا هدفا لحملات المبشرين المسيحيين ، يحاولون ثنى الناس عن دينهم ودين آبائهم القويم ، ويغرونهم بشتى الطرق والوسائل لترك الإسلام واعتناق النصرانية . وإن أمام البعثة الأزهرية التى ستجوب هذه البلاد ، لمشاكل جمّة شائكة ، وإنى لأشفق عليها من الآن .

كتب « روبرت جريفيث » فى كتابه « مدغشقر » ^(١) . يقول : « علينا أن نعلم أن الإسلام ليس خطوة نحو المسيحية ، وإنما هو منافسها الأكبر والعقبة الكؤود فى سبيل انتشارها ، ولكنى أضيف أن الإسلام فى هذه الأنحاء دين شكلى فهو خليط من « المحمدية » والخرافات الوثنية » .

[١] انظر Robert Griffith : Madagadar - London 1919.

Andrew Burgess : Zanhary in South Madagascar- 1932

وجاء في تقرير إحدى البعثات المسيحية سنة ١٩١٣ . « إننا نجد أن معظم القرى يتكون نصفها من مسلمين والنصف الآخر من مسيحيين ، وإن نحن تذكرنا تجاربنا السابقة . لعرفنا أنه من الصعب أن ندخل المسيح في قلوب هؤلاء القوم بعد أن سيطر عليهم الإسلام ، ولكن كان من حسن طالعنا ، أن قوات مسيحية تحتل هذه البلاد » ^(١) .

وتبدل هذه البعثات التبشيرية ما يسعها وبشي الطرق لنشر النصرانية وإطفاء نور الله ، ولكن المسلمين هنالك « يغلقون مساجدهم عليهم ، ويحافظون على لغتهم ولهم مدارسهم الخاصة ، ويعملون ما في استطاعتهم ليتجنبوا الاتصال بالمسيحيين » . وهذا القول يكتبه هنري روسيون سنة ١٩٢٢ ^(٢) . في حيرة ومرارة ، ولكن هذه الحيرة وهذه المرارة ، بل لنقول هذه الخيبة التي مني بها المبشرون المسيحيون هي التي يجب أن تدفعنا إلى الإسراع لإنقاذ هذا الشعب الإسلامي ، فإنهم لن يستطيعوا الصمود طويلا ، فالمستعمر يعمل على وأد لغتهم ونشر لغته ، وعلى غلق مدارسهم وفتح مدارسهم ، وعلى هدم مساجدهم وإنشاء كنائسه ، ويتبع معهم كل سبيل لينسيهم ماضيهم المجيد ، ويحيلهم إلى أمة من العبيد لا ترى إلا بعين المستعمر ولا تسمع إلا بأذنه ، ولا تتصرف إلا بتفكيره .

* * *

والكلمة الأخيرة نقولها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، فهو المسئول عن رسالة الأزهر ، وليست رسالته معهدا في مصر يفتح ، ولا إشرافا على الدين في مصر ، لا ، إنما رسالة الأزهر الحقيقية هي رعاية المسلمين في خارج البلدان الإسلامية في غرب أفريقيا وشرقها وجنوبها ، وفي جميع البلاد التي لا تتكلم العربية ، فإن الجهل بلغة القرآن مكن للمستعمر — المتعصب لدينه دائما — أن يحول القوم عن عقيدتهم ، وأن يشر فيهم الانحلال الخلق والديني ، حتى إذا تم له ما أراد ، سهل عليه نقلهم من دين إلى دين ، وأن يقيمهم تحت سلطانه إلى ما شاء الله .

وَأَقْعَرُ الْجَمَلُ

لحضرة الأستاذ عبد المنعم محمد السبغ

مدرس أول الآداب بالمواد الدينية

تعتبر هذه الواقعة ، استمراراً للثوران البركاني ، الذي أودى بحياة عثمان رضى الله عنه ، والذي يعتبر شيئاً جديداً فى صفحة التاريخ الإسلامى ، من حيث اضطراع التوم ، حول الخلافة والمناصب . فهذه الواقعة ثمرة فجأة من ثمار هذه الفتنة الطائشة ، وهى بدورها ، ذات أثر بعيد فيما تمثل من الأحداث بعد ذلك ، على مسرح التاريخ الإسلامى .

برمت السيدة عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، ساعة أن اشتد الحصار على الخليفة عثمان ، فتركها تغلى مراجلها ، لتكون بمنأى عن أحداث الفتنة ومحتملاتها البغيضة وقصدت إلى مكة ، وبينما هى راجعة بعد ذلك إلى المدينة ، إذ بعبيد الله بن أبى سلمة ، وهو من أخوالها ، يخبرها بأن عثمان قد قتل ، وأن الناس قد بايعوا علياً ، فهاها الخبر ، وقالت : « ما أظن ذلك تاماً ، ردونى » ، وانصرفت عائدة إلى مكة وهى تقول « قتل عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه » فقال لها « عبيد الله » ولم ؟ إن أول من أمال حرفه لانت ، ولقد كنت تقولين ، اقتلوا نعلنا فتمد كفر ، قالت « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول ، فقال لها ابن أبى سلمة :

منك البداء ، ومنك الغير منك الرياح ، ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا : أنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر الخ

دخلت السيدة عائشة رضى الله عنها مكة ، وهناك أخذت تستنفر الهمم للأخذ بئار عثمان ، واجتمع حولها خلق كثير ، منهم « عبد الله بن عامر الحضرمى » أمير مكة من قبل عثمان و « سعيد بن العاص » و « الوليد بن عتبة » و « عبد الله بن عامر » و « يعلى بن أمية » و « طلحة » و « الزبير » . استقر رأى هذه الجماعة على المسير

إلى البصرة ، وأعدوا عدتهم لملاقاة جند علي ، وأرادت حفصة متابعة عائشة ، فنهاها عن ذلك أخوها « عبد الله بن عمر » .

ويجمل بنا في هذا المقام ، أن نورد رسالة من « أم سلمة » زوجة النبي عليه السلام ، إلى السيدة عائشة تثنيها عن عزمها ، وذلك لقيمة هذه الرسالة من الناحية البلاغية ، قالت أم سلمة « من أم سلمة زوج النبي إلى عائشة أم المؤمنين ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد هتكت سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته حجاب مضروب على حرمة ، قد جمع القرآن ذبولك فلا تسحبها ، وسكر خفارتك فلا تبذلها ، والله من وراء هذه الأمة ، لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراط في الدين ، فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن صدع ، جهاد النساء غض الأطراف ، وضم الذبول ، وقصر المواده ، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّة قعوداً من منهل إلى منهل ، وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم لو قيل لي : يا أم سلمة أدخلي الجنة ، لاستحييت أن ألتقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هاتكة حجاباً ضربه على ، فاجعلته سترك ، وقاعة البيت حصنك فانك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصيحهم ، ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنهشت نهش الرقشاء المطرقة والسلام . مضت السيدة عائشة إلى غايتها ، ولم تثنها هذه الرسالة عن عزمها ، وأعطى « يعلى بن أمية » عائشة الجمل المسمى « عسكر » ومضى القوم من ورائها قاصدين البصرة ، ومروا في طريقهم بمكان يسمى « الحوآب » فبجهم كلابه ، فقالت عائشة : أي ماء ؟ فقيل : هذا الماء الحوآب ، فصرخت عائشة وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعنده نسأوه « ليت شعري ينبحكن كلاب الحوآب » ، ثم ضربت عضد بغيرها فأناخته وقالت : ردوني ، أنا والله صاحبة ماء الحوآب ، غير أن القوم ما زالوا بها حتى مضت معهم إلى الغاية المقدورة ، ولما أشرف القوم على البصرة ، أرسلت رضى الله عنها تستميل بعض وجوها ، ولما علم « عثمان بن حنيف » عامل البصرة من قبل على بمقدم القوم ، أرسل إليهم « أبا الأسود الدؤلى » و « عمران بن حصين » يسألانهم

فيما قدموا؟ فسألا عائشة رضى الله عنها فأجابت أنها قادمة في الطلب بدم عثمان ،
والثأر من قاتليه ، الذين استحلوا حرمة البلد الحرام ، والشهر الحرام ، فسفكوا
الدم الحرام ، واستباحوا المال الحرام . وكذلك سألا طلحة : ألم تبائع علياً ؟
فقال : بايعت والهج على عني ، وسألا الزبير فقال كما قال طلحة ، ورجع الرسولان
إلى « عثمان بن حنيف » وابتدره « أبو الأسود الدؤلى » قائلاً :

يا ابن حنيف قد أتيت فأنفـر وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلماً ، وشمـر

ودار قتال مبدئى بين الطرفين ، راح ضحيته « عثمان بن حنيف » و « حكيم بن
جبله » . ونزل « على » « بنى قار » في طريقه إلى البصرة ، وأرسل من يتدب له أهل
الكوفة ، فكانت الجنود توافيه بنى قار ، على أهبة الاستعداد للسير إلى البصرة ،
وبلغ ما اجتمع له من الجند ١٢٠٠٠ ، فجعلهم أسباعاً ، على كل سبع رئيس .

وأشفق على من هول ما قد يتمخض عنه لقاء الفريقين من مصائب وأهوال ،
فأحب أن يبتدىء الأمر بالتفاهم مع الفريق الآخر ، لعل ذلك يحسم الخلاف ويحتمن الدماء ،
فلما انتظم عقد رجاله بنى قار ، دعا على إليه « القعقاع بن عمرو » وكلفه بالذهاب إلى
البصرة في هذه المهمة ، فسار إليها ، وحذر القوم عاقبة الخلاف ، وأنه مطوح بالامة
إلى المهالك ، وقال لهم فيما قال : لقد قتلتم بئراً عثمان ستمائة رجل إلا رجلاً ، فغضب
لهم ستة آلاف من قومهم ، فاذا أنتم صانعون غداً إذا ناجزوكم وانتصروا عليكم؟
إن الخير كل الخير فى أن تفتحوا بما أخذتم من ثأر عثمان ، وترجعوا إلى الجماعة ،
وتبائعوا علياً ، فانه أصلح للأمر . رضى القوم بالصلح وكاد الخلاف أن ينحسم ، وكان
أشباع طلحة والزبير بالفرضة من البصرة ، وكان أشباع على بالزاوية منها ، بعد أن
رحلوا عن ذى قار ، أى أن الفريقين أصبحا قاب قوسين أو أدنى من الالتحام ؛ وخرج
على ، كما خرج الزبير وطلحة ، كل يبغى لقاء صاحبه ، والتقوا عند مكان يقال له
« الخريبة » ، ولما قيل لعل أن ذاك هو الزبير قال : أما أنه أحرى الرجلين أن ذكر
بالله أن يذكر ، وسألها على بأى حق يستحلان دمه وقتاله وهم جميعاً أخوة فى الإسلام ،
فاتهمه طلحة بالتأليب على عثمان فقال على : لعن الله قتلة عثمان ، ثم قال للزبير ،
أتذكر يا زبير يوم مررت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى غانم فقال لك :

« ولتقاتلنه وأنت له ظالم » فقال الزبير : اللهم نعم ، لو ذكرته ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً . غير أن « عبد الله بن الزبير » استطاع أن يحمل أباه على مقاتلة على .

ولما كان على رضى الله عنه حريصاً كل الحرص ، على بذل أكبر جهوده لتجنب القتال ، وانهاء الأمر بالحسنى ، فقد انتدب من لدنه « عبد الله بن عباس » كما انتدب طلحة والزبير من لدهما « محمد بن طلحة » . وأخيراً قرر المندوبين على حسم الخلاف ، وانهاء الأمر بين الفريقين بالحسنى ، وطرب لذلك كل حريص على خير المسلمين ، ما عدا أولئك الذين سعوا في قتل عثمان رضى الله عنه ، فتمدخفوا مما عساه يحل بهم إذا ما هدأت الفتنة ، ولقد استطاع هؤلاء أن يوغروا صدر الفريقين على السواء ، فبات كل فريق يتربص بصاحبه ، ويتحفز للقائه .

توافق الجمعان للقتال ، وخرجت عائشة رضى الله عنها ، فى هودج جمل بالحديد ، وثار المعسكران يمتتلان ، وحى وطيس القتال ، ورحى الحرب تدور مرة على الكوفيين وأخرى على البصريين ، ولقد قيل إنه قد قتل يوم الجمل سبعون قرشياً ممن أخذوا بالخطام ، كما يروى أن « مروان بن الحكم » قد قطع فى دفاعه عن الجمل أكثر من عشرين يداً من أهل الكوفة ، وكان من بين ضحايا الجمل « محمد بن طلحة » من خير أبناء الصحابة ورعاً وتقوى وزهداً وعبادة ، كما كان « أبو طلحة بن عبيد الله » رضى الله عنه أحد ضحايا الخطام . ولما تزايد عدد الضحايا من الفريقين ، أشار على بعقر الجمل فتقدم إليه « بجير بن دلجة الضبي » واجتث ساقه ، فهوى ، وحمل أتباع على هودج عائشة ، إلى إحدى دور البصرة ، تحت رعاية على وأصحابه ، وانتهت المعركة بهزيمة أهل البصرة . ولقد عاجل « عمرو بن جرموز » الزبير بن العوام فقتله بوادى السباع وهو عائد بعد انتهاء القتال ، ولقد بشر على عمراً بالنار ساعة علم بمقتل الزبير على يديه .

ولقد نكب الإسلام ، فى هذه الواقعة ، نكبة كبرى إذ قتل فيها عدد كبير من أفاضل الصحابة والتابعين . وغداة الواقعة جاء على إلى عائشة وقال لها « غفر الله لك » فقالت « ولك ، ما أردت إلا الإصلاح » وظلت عائشة بالبصرة حتى موسم الحج ، فجهزها على إلى المدينة فى ٢٠ أو ٤٠ امرأة من ذوات الشرف ، وجهز معها أخاها محمداً ، وشيعها هو وأولاده رضى الله عنهم أجمعين .

بقى من أمر هذه الواقعة ، أن نعلق عليها تعليقاً تاريخياً : فالمطالبة بدم عثمان تكون من حق الإمام لا من حق الأفراد ، فكان الأحرى بفريق عائشة أن يترث حتى يرتضى المسلمون خليفة عليهم ، يقيم الحدود ويأخذ برقاب المجرمين ، وكان لوجود نفر من اشتركو في دم عثمان كابن سبأ في جيش على ، أبلغ أثر في استطارة الشر ، وعدم الانصياع لصوت الضمير والعقل ، وتعتبر هذه الواقعة فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب السياسية ، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاضم الداء ، إذ انقسم المسلمون فيها على أنفسهم : عرب البادية والكوفة ينصرون علياً ، وعرب الحجاز والبصرة ينصرون عائشة ، ولذا تعتبر الواقعة انتصاراً للفريق الأول على الفريق الثانى .

وإذا كانت نهاية الموقعة إنتصاراً حريباً لعلى ، فهى من الوجهة السياسية ليست كذلك ، فقد شغلته هذه الواقعة عن خصمه الأكبر « معاوية بن أبى سفيان » الذى انفرد بالشام وراح يحكمه بأمره ، ويدبره على أحكم وجه ، استعداداً للصراع المقبل بينه وبين على . ثم كان من نتائج هذه الواقعة أن سخط كثير من العرب على قريش ورجالها لأنهم أوردوا أبناءهم موارد التهلكة . هذا وإنى أعتقد أن التبعة الكبرى فى هذه المعركة الدامية ، التى ذهب ضحيتها نفر من جلة الصحابة والتابعين . تقع على عاتق عائشة ، فانى أقطع بأنه لولا وجود عائشة فى موقعة الجمل ، ما اجتمع لأعداء على شمل ولا قامت لهم قائمة ، إذ ألهبت النفوس بخطبها ، وحركت المشاعر بوجودها ، حتى بلغ القتال أشده ، وأنتج ما أنتج من المصائب والأهوال ، وكان الأولى بأى المؤمنين أن تتقف من الفريقين موقف الناصح المرشد ، حتى تزيل ما فى النفوس من تحفز وتحمس للقتال ، وتسعى جهدها لتأليف القلوب حول الوحدة الإسلامية بالطرق السلمية ، لآبارقة الدماء ، والوقوف موقف المناصر لحزب والمناهض لآخر . والناظر لتطور الحوادث يرى أن هذه الواقعة قد قوت من حجة القائلين بالأخذ بآر عثمان ، لأن علياً قد آوى قتلته فى جنده ، فأضعف بذلك مركزه ، وقوى بالتالى مركز معاوية ، ثم أن عاصمة الاسلام قد جافت من بعد هذه الواقعة « المدينة » مطالماً إلى غيرها من المدن ، وبالإضافة إلى كل ما سبق ، قد أتاحت هذه الواقعة للمنافقين جواً مناسباً لبذر بذور الخلاف بين المسلمين .

القتال عند المسلمين

لمحاضرة الأستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

— ٢ —

تكلمنا فى العدد الماضى عن بعض أسلحة المسلمين البرية المباشرة وسنحاول هنا الإشارة إلى بعض أسلحة أخرى غير مباشرة لا تقل فتكا وتدميراً عن الأسلحة الأخرى ، بل تمتاز عنها بسهولة الاستعمال وقلة ضخاما الجنود التى تستعملها ، ولو أن بعض هذه الأسلحة كان معروفاً ، إلا أن المسلمين أدخلوا عليها من التحسينات ما جعل لها قيمة فى حروب العصور الوسطى لا يستهان بها :

فمثلا استعمل المسلمون القذائف الملتببة التى كانت تسمى النار الاغريقية وهى عبارة عن مخلوط كيمائى به ملح البارود الذى يشتعل عند اصطدام القذيفة بأجسام صلبة ، وقد اخترع هذا السلاح مهندس سوري ، ثم باعه للدولة البيزنطية التى كافأته بسخاء ، وعندما هاجمت البحرية الإسلامية فى عهد معاوية بن أبى سفيان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لم ينقذها من السقوط فى يد العرب إلا النار الاغريقية التى مزقت الأساطيل الإسلامية ، فكان ذلك درساً قاسياً وسلاحاً نافعا أخذته العرب عن البيزنطيين ضمن أسلحة أخرى .

ومن الطريف أن نصف بعض الأسلحة الغير المباشرة التى ابتدعها المماليك بمصر خاصة أيام الظاهر بيبرس فى حربه مع المغول والصليبيين ، وقد كانت هذه الأسلحة الحربية الاقتصادية فتاكة ولا تحتاج إلى تضحيات جنود كثيرين ، وكان الغرض منها هو إحداث كل ما يمكن من تخريب ، وإشعال الحرائق فى أطراف بلاد الأعداء ، والثابت فى تاريخ دولة المماليك أنه كان بالجيش فئة من فئات المماليك تسمى بالمرحقات ، ويظهر أنها كانت هيئة منظمة كتنظيم البريد ، وربما كانت فرعا من البريد ، وكانت طريقة هذه الفئة أن تربط بذبول الثعالب خرقا مبللة بمواد ملتببة ثم يشعلون تلك الخرق ويتركون الثعالب تتطلق نحو بلاد العدو ، ولدولة

الممالك أيضاً اختراعات أخرى كثيرة منها مثلاً : اختراع خنق القلاع المحصورة بأنواع من الغازات ، وفكرة إحداث ثقوب بجوائط المدن الحصينة المستعصية الفتح ثم حشو هذه الثقوب بمواد ملتهبة ، وبهذه الوسائل وغيرها انتصر المسلمون على المغول كما انتصروا على الصليبيين في عدة مواقع حاسمة ، وقد استخدم السلطان بيبرس وغيره من سلاطين الممالك في حروبه الدبابات ذات العجل والزحافات والأبراج المتحركة والتمطاطيع التي كانت تهدم بها أسوار القلاع .

أما أسلحة القتال البحرية عند المسلمين : قبل الإسلام وفي صدره ، فلم تكن موضع عناية . وقد علل ابن خلدون في مقدمته [ص ٢٢٠] سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر « أنهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والأفرنجة لمارسهم أحواله ... ، مرّوا عليه فأحكوا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم أنشأوا السفن والشوانى وشحنوا الأساطيل بالرجال . . »

ويرجع الفضل في إنشاء الأسطول الإسلامى الأول إلى عثمان بن عفان ، عندما ألح عليه معاوية ، واليه بالشام ، بضرورة غزو بلاد الروم بحراً ، فجهز أول أسطول للمسلمين ، وقاده عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وإلى مصر من قبل عثمان ، وحارب به أمبراطور الروم قسطنطين في عرض البحر الأبيض وانتصر عليه في واقعة « ذات السوارى » ، مع أن عدد سفن المسلمين كان يترب من المائتى سفينة وقفت أمام ألف سفينة للعدو .

وعنى معاوية مؤسس الدولة الأموية بإنشاء السفن الحربية ، فأعد لغزو الدولة البيزنطية - التى كثيراً ما أغارت على البلاد الإسلامية - ما يسمى بالشوانى والصوائف ، وقد بلغ عدد سفنه ألفاً وسبعمائى سفينة .

ولما كانت مصر من البلاد التى تعرضت للغزو البيزنطى ، فقد اهتم أمراؤها ببناء السفن ، وأنشئت دار لبنائها في جزيرة الروضة (الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٩٠) واستمرت البحرية الإسلامية في عظمتها طوال العصر الأموى وبداية العصر العباسى ، وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى الأسطول البحرى لصدد غارات

البيزنطيين على الشام ، ومن ثم أنشأ المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب ، وكان على رأس الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى عشرة قواد على رأسهم رئيس يسمى أمير الجيوش ، واشتهرت الروضة والإسكندرية بصناعة السفن الحربية .

ولما انتقل الحكم فى مصر إلى صلاح الدين الأيوبي ، اهتم بالأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدّهم عن الموانى الإسلامية ، وقد أنشأ ديواناً خاصاً عرف باسم « ديوان الأسطول » ، وكان القائد يسمى أمير الماء أو أمير البحر . وازدادت العناية بالأساطيل البحرية أيام المماليك ، خاصة فى عهد السلطان بيبرس ، فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولاً قوياً مكوناً من ستين مركباً جهزها بالآلات الحربية والرجال ، وكانت هذه السفن متمسكة إلى أنواع منها الشوانى وهى المراكب المعدة للجهاد فى البحر ، والحراريق وهى سفن فيها قاذفات نيران يرمى بها العدو فى البحر ، والطرائد وهى سفن صغيرة سريعة ، وهى الألفاظ المستعملة اليوم للدمرات والطرادات والبوارج .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولسكن العرب نبغوا وأصبحوا سادة البحار بفضل شجاعتهم ، وقوة احتمالهم للشدائد والأهوال ، فأصبحوا أساتذة أوربا ، والدليل على ذلك أن بعض الألفاظ البحرية العربية لا تزال مستعملة فى الاصطلاحات البحرية الأوروبية فمثلاً :

كلمة Arsenal [وبالإيطالية Darsonal] أخذت عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية .

وكلمة Admiral أخذت عن لفظ « أمير البحر » بالعربية ، وكلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » .

ويجب أن لا ننسى أن العرب اهتموا بنظام الجاسوسية فى الحروب ، خاصة أيام الدولة العباسية ، فقد استخدمت النساء والرجال على السواء ، لمعرفة أحوال الأعداء وقواتهم وأسلحتهم ، وكان هؤلاء يرحلون إلى البلاد المعادية ، متنكرين فى أزياء الأطباء والتجار وغيرهم لجمع الأخبار ، وكانت الجاسوسية العباسية على الأخص نشطة إلى حد كبير فى الدولة البيزنطية التى نافست الدولة العربية ، والتى كان الفن الحربى يخرج منها فى الماضى .

كَيْفَ نَقْرَأُ الشَّعْرَ

بقلم الأستاذ حمزة محمد السبيح

لبنانية في الأدب الانجليزي

ما زال تعريف الشعر بأنه « حديث الذكريات » - لما فيه من إمعان في البساطة ، وإغراق في الوضوح - أبرز التعريفات جميعاً ، رغم تعددها وكثرتها . ويرمى ذلك التعريف إلى جعل العاطفة واستثارتها ، والفكر وشحنه ، مدار الشعر ، ومجال الشعراء ؛ إذ أن الإنسان قلما يذكر شيئاً لم يستثر شعوره ، أو ينبه خياله ، أو يستنهض عقله . والكلمة الشعرية لا بد أن تصل إلى أغوار الشعور ، لما لها من جرس وتفاعيل Cadence ، ولما يحيط بها دائماً ، من قدرة إيحائية واسعة ، تفتح أمام الفكر آفاقاً فسيحة من المعاني ، ولما تتسم به من جمال فريد وسحر أخاذ .

وفي الحق إن الجهد الفكري ، الذي نحتاج إليه عند قراءة الشعر ، يناقض تماماً الجهد ، الذي يلزمنا لكي نصل إلى معاني التعبيرات الصوتية الأخرى ، التي لا يتسع مجالها الإيحائي Aura of Suggestion إلا لمعنى واحد ، من بين معاني القاموس اللغوي ، بينما تشغل اللفظة الشعرية مجالا أوسع وأرحب ، تشع فيه معانيها الإيحائية العديدة ، كما تشع الذرة خطوط القوى ، فتحتل الزمان والمكان حولها . ولعلنا بذلك نستطيع أن نجلو السر الغامض ، الذي يجعل الأسلوب العلي ، أقرب إلى الفهم والإدراك ، عند القراءة ، أكثر منه عند السماع ، كما يصبح الشعر هو الآخر - حين يسلس قياده ، وتواتى قوافيه - لغة الإنشاد ، التي تعتمد على الأذن إلى حد بعيد . وفي خلال ذلك يحتاج الشاعر في تعبيره - كما يحتاج الناثر - إلى التمرجات الموسيقية التي لا مفر من تعاقبها ، كلما تعاقبت مراحل الجهد والراحة ، واحدة إثر أخرى ، أو كلما دفعت المناسبة الشاعر إلى زيادة التأكيد لبعض المعاني ، التي تروقه وتهمه أكثر من سواها . ونحن نجد ، في أنواع الشعر جميعاً ، رابطة قوية ، بين التوقيع الموسيقي ، الذي يخضع لهوى الشاعر في تقدير

الأشياء ، وبين الأوزان الشعرية ، بتفاعيلها المختلفة ، التي استمدت أصولها من تقاليد لغوية قديمة ، خضع لها النظم خلال أزمان طويلة ، ونهج الشعراء على منوالها في أشعارهم .

أما العلاقة بين الشعر والنثر مهما تغيرت ألوانه ، فهي تشبه ، إلى حد كبير ، العلاقة بين علمي الجبر والحساب ... فالشاعر إنما يعبر عن تجاربه الشخصية أو الخيالية ، بيد أن هذه التجارب لا تستكمل قيمتها وأهميتها ، ما لم تتمثل في مخيلة القارئ صوراً مفعمة بالحركة والنشاط ، وما لم تلق بأضوائها فوق تجارب القارئ نفسه ، ومعنى ذلك كله ، أن نجاح الشاعر أو فشله إنما يقاس بكثرة المناسبات التي نذكره ونذكر شعره فيها .

وما دمنّا قد اصطالحنا على أن الشعر إنما هو « حديث الذكريات » فن الطبيعي أن نجد سائلاً يسأل : وعلام تدور تلك الذكريات ؟ أعلى الحياة تدور ، أم على الموت ؟ أم تعتمد على التعبير عن أغوار الكراهية والخوف ؟ أم تمتد بالوصف لتلك الرغبات العميقة ، التي تراود الناس في يقظتهم ، وتهفو إليها نفوسهم في أحلامهم فيتحقق بعضها طوراً ، ويصبح مصدر ابتهاج وإيناس ، ويفشل بعضها طوراً آخر ، فيظل ماثلاً للعين ، رمزاً للبؤس والحُرمان ؟ أم تصور الحق ، وقد استطال بعبقه في يأس حارق ، وفي حرقة يائسة ؟ أم تصف الباطل ، وقد عم البسيطة في جرأة طاغية ، وفي طغيان جارف ؟ أم تنتزع حديثها من الأطوار التي تعرض لنا جميعاً ، فتكشف عن الطفولة وبساطتها ، وعن الشباب وثورته ، وعن الكهولة واتزانها ؟

أجل إن « حديث الذكريات » يتناول ذلك كله ، بيد أنه لا يقتصر عليه ، وإنما يتعداه إلى غيره مما نذكره من الأشياء ، بين الفينة والفينة ، مهما كان تافهاً بسيطاً . . وفي الحق أننا ننسى إلى الشعر كثيراً ، ونعوقه عن السريان في جداوله الأصلية ، إذا نحن أردنا أن نحبس على تجاربنا العميقة وحدها ، بحيث لا يتناول غيرها بالوصف والتصوير . . بل إن من أرادوا بالشعر ، من هذه السبيل ، أن يمجّدوه ، ويحفظوا له مكانته السامية ، لم ينجحوا إلا في صد الناس عن الشعر والشعراء ، الذين ملتهم آذانهم ، ومجّتهم أسماعهم . . إذ ليس الشعر سوى صورة

ناطقة للطبيعة البشرية ، تعكسها بشرها وخيرها ، وتنقلها إلينا بعمقها وضخالتها ،
وتعبر لنا عما فيها من ألوان البساطة الخالصة ، والصنعة الجارفة ، وعما يعرض أمام
أعيننا من ضروب الذكاء والغباء ، وعما نشهد من صفوف الدنس والعفاف .

وثمة أمر آخر يجعل الشعر ذا مجال فسيح في أغراضه ومراميه ، وينأى به عن
الضيق والتضييق ، الذى يريده له بعض النقاد . . ذلك أنه بالرغم من انتشار التعليم
اليوم ، وازدهار الطباعة وذيوعها ، وظهور وسائل التثقيف الجماعية الأخرى ،
كالإذاعة اللاسلكية ، والشاشة البيضاء ، والمسرح ، إلا أن الهوة بين الذوق الأدبي
الرفيع النابذ Highbrow taste ، والذوق الأدبي الخفيض المنقاد Lowbrow taste
ما زالت بعيدة ، بل أبعد مما كانت حتى اليوم .

ثم جاء بعد ذلك دور الانقلاب الصناعى ، الذى كان لسائر بلاد العالم فى العصر
الحاضر منه نصيب ، ففضى على كثير من الجماعات الزراعية ، بما لها من ثقافات
حلية تمليدية ، وأغنى الناس قسمين : فهناك العامل وصاحب العمل من ناحية ،
وهناك المساهمون من ناحية أخرى . ولم يجد الأولون فسحة من الوقت ، أو متسعاً
من الفراغ ، بعد أن وسعهم العمل ، وشغلهم السعى ، أما الفئة القليلة الأخرى ،
فقد اتسع أمامها الفراغ تزجيه أنى شاءت . وجرى الأدب بطبعه كذلك فى شعبتين
اثنتين ، تمد إحداهما الفئة الأولى بوسيلة تهرب بها من صخب الحياة ، وضجيج
المصنع ، وتمد الأخرى الفئة الثانية ، بوسيلة تملأ بها فجاج الروح ، أو تنسى بها عالمها ،
لتعيش فى عالم من نسج خيالها ، تعمده أشباح هائمة ، وتسوده أجواء مفعمة بجمال
الخرافة وسحر الأسطورة .

والنتاج الفنى الرائع قد يكون من صنع أفراد ، وقلة الإقبال عليه لا يعنى
بالضرورة أن ذلك النتاج تنقصه الروعة ، ويعوزة الإتقان . . أما النتاج الفنى العام
universal art فلن يتحقق إلا فى المجتمع الذى تتحد مشاعره ، وتتفق معايير
الأشياء عنده ، وتنسجم آماله وأهدافه . . وبعد كل البعد أن يستطيع الأديب صوغ
خير نتاجه وآنته إلا فى مثل ذلك المجتمع .

في النقد الأدبي

للدكتور الشيخ أحمد محمد صقر

كلية اللغة العربية

يفهمون النقد في عصرنا على أنه تناول الأمر بالعيب والبحث عن النقص فقط ... ولكن الحقيقة أن النقد يشمل الكشف عن المساوى وتجلية المحاسن ... والنقد الأدبي - بهذا المعنى - هو الفهم الصحيح والتحليل الدقيق للآثار الأدبية ... وإظهار القيمة الفنية للأثر الأدبي . ارتفعت هذه القيمة أم انحطت ... فإذا تناول الكاتب موضوعاً بالنقد فإنما يريد أن يوضحه ويكشف عن حقيقة كما ينقد « الصيرفي » الدراهم ليميز جيدها من زائفها !

فما عدة هذا النقد ... وما وسائله ؟

أهى القواعد أم السليقة ؟

أهى المعايير والقوانين البلاغية أم الذوق السليم والحس المرهف ؟ وبعبارة أوضح : أهى الصناعة بقواعدها المعقدة ... أم الطبيعة بأسلوبها السهل اليسير ؟

أسئلة تندفق على أذهان المشتغلين بالأدب العربى فى هذا العصر ... وتحتل حيزاً كبيراً من أفكارهم ... ويختلفون فى الجواب فقريق يقول : إن الأدب فن ... والفن يرجع إلى الذوق ... فالحكم فى القضايا الأدبية مستمد من السليقة معتمد على الفطرة ... وكذلك كان العرب القدماء ينقدون الأدب ... يتذوقون معناه ... ويهتزون لموسيقا الألفاظ هزة الشعور بالجمال والإحساس بالحسن . حتى إن الخنساء من النقد زيفوا قصة النابغة الذبياني مع حسان بن ثابت والخنساء فى سوق عكاظ لأنهم وجدوا عليها مسحة الصنعة ، وهى قصة معروفة تتلخص فى أن الخنساء أنشدت النابغة - وهو قاضى الشعر فى عكاظ - قولها فى رثاء صخر أخيها .

قذى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

فلما قالت :

وإن صخرًا لمولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشئوا لنحار
وإن صخرًا لتأتهم الهداة به كأنه علم في رأسه نار . . .

قال لها : لولا أن أبا بصير - يريد الأعشى سبقك لقلت : إنك أشعر من
في السوق . . ؟ فغضب حسان لذلك وقال : بل أنا أشعر منها ومنك ، قال النابغة :
حين تقول ماذا ؟ قال : حين أقول :

لنا الجففات الغر يلعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

فقال النابغة : قلت جفانك . . . وقلت « يلعن » ولو قلت « يبرقن » لكان
أجود . . . وقلت في الضحى « ولو قلت « في الدجى » لكان أقرب لأن الدجى منزل
الضيغان وقلت « يقطرن » وكان « يجرين » أبلغ . . . وافتخرت بمن ولدت ولم
تفخر بمن ولدك !!

وقد زيف النقاد هذه القصة وشكوا في ثبوتها على هذه الصورة لأنهم وجدوا
النابغة يعلل لثقله بما يشبه كلام النحاة وأرباب الصناعة مع أنه العربي الصريح
الذى كان يذوق الكلام ولا يعرف شيئاً من الاصطلاحات التى وجدت بعد
ذلك ، وكان الناقد العربي قديماً يستحسن الكلام أو يستقبحه دون أن يقول لماذا
حسنه . . . أو هجنه ؟

ويرى فريق آخر أن الذوق لا يقوم بالنقد ولا يكفي في احتمال اعبائه ولا بد
من الاستئناس بالقواعد العامة في الكشف عن مزايا الأدب أو نقائصه . . . إذ
لا يصح أن يترك موضوع خطير كالنقد تتلاعب به الأذواق وتباين فيه المشاعر
فيدمغ أثر جليل بحكم هزيل ورأى خطير !!

كما كان يحدث في الجاهلية وصدر الإسلام إذ يسمع الرجل بيتاً من الشعر
فيقسم على الفور بأن قائله أشعر الناس . . . وحين يسأل الرجل عن أشعر الناس
يقول : أشعر الناس من يقول كذا . . . ويروى بيتاً أو بيتين فإذا سئل بعد ذلك
ذكر شاعراً آخر . . وهكذا لو اتقصيت مئة الاتهم لخرجت ، وليس في الناس شاعر
« ليس أشعر الناس ؟ !! »

ونحن إذا نظرنا حولنا اليوم لنقرر « أى الرايين السابقين أصلح ؟ » لوجدنا قومنا قدمدوا السليقة فلم يعودوا يفهمون الكلام إلا بواسطة المعاجم ولا يقيمون الالفاظ إلا بعد طول النظر فى كتب النحو . . . ولا يعرفون قيمة التعبيرات إلا بعد أن يستشيروا « السكاكى » وحواشيه فى فوائد « التقديم والتأخير » ، وتعريف « المجاز والحقيقة » . والتشبيه والاستعارة . !! فنأين تأتينا السليقة والصناعة تكستفنا من الجهات الأربع كما يقولون . . . وتحيط بنا فى كل مكان .

وحسبك أن « البلاغة » وهى المادة التى صار إليها النقد الأدبى فى شكله الممسوخ — تتنافر كتبها مع اسمها ويناقض أسلوبها وطرق البحث فيها المقصود من تأليفها . ومع ذلك يلقى حبل المتأدين على الغارب يجوسون خلال كتب البلاغة الجافة الملتوية ليخرجوا منها بعشرات القواعد يحكمونها فى الآثار الأدبية ويدورون معها فى المجال الذى رسمه السابقون . فيكروهون الأثر الأدبى الرائع على الانحناء لقواعدهم الملتوية ، وهيمات أن يخضع الوجدان للقاعدة وأن يلبس الشعور ثوب النيماس ، فإذا ضاقت الحيلة واستعصى الكلام على الدخول فى حظيرة القوانين المرسومة ارتكبوا فيه التاويلات البعيدة ليصححوا أخطاء مسالكهم وليحافظوا على قدسية « بلاغتهم » كأنها نظريات فلسفية تحتاج الى التخصيص والتحليل وليتهم يعلمون أن الأدب لا يتحمل كل هذا التقلب . !!

هذه حال المثقفين فى عصرنا عامة . . . وهذه طريقة كتب النقد الأدبى أو « البلاغة » كما يسمونها ! طريقة علمية تتخذ الحصر والتعداد وسيلتها وهى طريقة لا تتفق مع المقصود منها لأنها بهذا الوضع لا تخرج نقادا . .

لذلك لم يكن غريبا أن نرى المقصورين على هذه الكتب وحدها قصار المرمى فى ميدان النقد الأدبى فهى تخرج علماء . لا أدباء ، فالذوق الأدبى الصالح غير موجود اليوم . والكتب « التمدية » الملائمة مفقودة فى المحيط المدرسى . فهل نقتنع من الغنيمة بالإياب ، ونكتفى بهذا القدر الذى يبلغه قراء الكتب الحالية ، ونترك البحث عن سلائق طال على فقدائها الأمد ، واختلطت بها العجمة ، وغطتها رمال الزمن وتسلسها التاريخ فأصبحت من ودائعها . . ؟ لا هذا . ولا ذاك لأن كتب النقد الأدبى التى ألقت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين تتفوق على الكتب المتأخرة فى جمال

الأسلوب وتنمية الذوق وتبتعد عن التعقيد الفلسفي الذي منيت به كتب البلاغة المتأخرة ، فلو استطعنا أن نختار أصلحها وأجمعها لموضوعات النقد لسددنا ثغرة في بناء الفكر الحديث .

ويا حبذا لو جمعنا أجوبة الأحرار من النقاد الأقدمين وتعليقهم على بعض الآثار الأدبية في كتب يقرأها المتأدبون خالية من القواعد مليئة بالفوائد . وأما ما يتعلق بتربية الأذواق الأدبية والاتجاه نحو خلق جيل تتنبه عنده السليقة فذلك أمر ميسور ممكن ، وبانتشار الثقافة بين طبقات الشعوب تنقرض العامية وتدنو الأمة من السليقة ، ويساعد على ذلك تعهد الذين ينبغون في الميدان الأدبي بما ينمي ذلك الروح في نفوسهم ، وإحاطتهم بما يسهل عليهم طول الطريق وبعد الغاية... ولا شك أن التوجيه مع الاستعداد أنجح من حشو الأذهان دون رغبة أو نتيجة مرضية . فإذا سار التوجيه مع الميل الفطري كان ذلك خيرا للنقد الأدبي ، أما إذا كان كل همتا أن ندير رءوس الشباب في الخلافات السكائية فما أضيع الوقت وأقرب الهدف . بقيت كلمة صغيرة لأدبائنا الكبار الذين لا يريدون أن يتركوا وراءهم سوى كتبهم ، ونحن نريد منهم أن يتركوا توجيهاتهم وتجربتهم في حياتهم الأدبية فإن من حق الأدب عليهم أن يساهموا في خلق نهضة أدبية مبزية على أفسار ناضجة حتى لا يخلو الميدان مرة واحدة بعدهم . وبذلك يقضون واجبا نحو بلادهم ولغتهم ؟

تصحيح أخطاء

عمر المرمية

وقع تحريف طباعي في بيتين من القصيدة المنشورة في العدد السابق ، صحته فيما يأتي :

البيت الأول :

رائدُ العلم تختال المَهْـمَى يشتكى فَقْدَ المُنَى في الثن

البيت الثاني :

سَلْ بِحَكْمِ الحَيْفِ تشهد سَيِّدَا يَقْنَى القانونَ فيما يَقْنَى

وفاة عالم

توفى الى رحمة الله فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فسكرى يس أحد علماء الأزهر الأجلاء ، والمدرس بكلية الشريعة ، وصاحب المقالات الممتعة في مجلة الأزهر .

كان رحمه الله هينا لنا مهذب النفس ، بعيدا عن اللغو واللغو ، وكانت همته مصروفة الى زيادة مادته العلمية ، بمعالجة المسائل الاجتماعية الكبرى بالتحليل الدقيق تحت ضوء الدين والعلم ، فسكان في كل ما يكتبه مفيدا لقارئه بشيء جديد . وهذه ميزة علمية نادرة الوجود .

فنعزى الأزهر والأزهريين بوفاة هذا الأملعى الجليل ، ونعزى أيضا أنفسنا راجين له الدرجات العلا في حياته الروحية التي آل إليها بعد طول جهاد في هذا العالم المسمى ، ونرجو الله أن يثيبه على ما قدم ثواب الصالحين ، ويجزيه بما جاهد وناضل عن الدين جزاء المجاهدين الصادقين .

ديوان الأسمر

في نحو منتصف شهر فبراير ، وافتنى منه نسخة مهداة إلى من فضيلة الأستاذ الأملعى ، والشاعر المشهور ، الشيخ محمد الأسمر . فتناولته باهتمام ، واستقلت به في وسط أعمالي فترة من الزمن ، ولم أدعه إلا لتراحمها على . ولا عجب في ذلك ، فإن لشعر الأسمر في قلوبنا مكانا ممتازا ، ووقعا عظيما ، وكنت أعود إليه كلما سنحت لي فرصة ، فعدت إليه وعدت إليه ، وكلما عدت ازدادت به كلفا ، وتملأت به إعجابا .

إن ديوان الأسمر ذخيرة أدبية تعطيك إلى جانب سمو الخيال وجمال الأداء ، إبداعا في التفكير ، وتنويعا في التصوير ، يرتقى بك إلى درجة نشوة أدبية ، تحس معها كأنك في بستان تحف بك فيه الأزاهير البديعة الأشكال ، المنسقة الطاقات ، ومن التوفيق أن هذا الإبداع الموضوعي يتماثل به إبداع شكلي من جمال الطبع وحسن

التنسيق ، وجودة التسميم ، فأنت معه من إبداع الى إبداع ، حتى تقنع طلبا للاستجمام مع نزوع الى العودة في أقرب فرصة . ولقد صدق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، حيث كتب لشاعرنا ، وقد نشره في أول صفحة من ديوانه :

« لشعرك تأثير في نفسى ، أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبها . وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا فى أسلوب سهل ، فيسرى فى الأرواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجييرا » .

أول ما يطالعك فى ديوان الأستاذ الأسمر ، قصيدة عصماء له فى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء منها :

شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا
من بعده شبا لمسكة مطالعا
لألاؤه فوق البسيطة موضعا
إلا الربيع نضارة وتضوعا
يوم كأن الدهر فيه تجمعا
يثنى إليه جيده متطلعا
وثبا على هام السنين ليرجعا
ينسل من خلف الزمان ليسرعا
وانساب يخترق السنين وأتلعا
ملا الوجود فلم يغادر أصبعا
أنى جرى ترك الجنب الممرعا
من بعد ما كانت خرابا بلقعا
فانجذب عن جنباتها وتتشعا
واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
مستلثا لاقى الطغاة فروعا
وتراه أوضح ما يكون مدرعا
عرف الطريق ولم يضل المهيعة
عن غيه حتى يخاف ويفزعا

فجر أطل على الوجود فأطلعا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى
قبس من الرحمن لاح فلم يدع
ما كان ميلاد الرسول المصطفى
يوم أغر كفالك منه أنه
ويكاد غابر كل يوم قبله
فلو استطاع لسكر من أحقابه
ويكاد مقبل كل يوم بعده
فلو استطاع لجاء قبل أوانه
تتنافس الأيام فى الشرف الذى
خير أفاض الله منه على الورى
وسنا جللاه لتعمر الدنيا به
وافى ولسل الجاهلية مطبق
نادى الى الحسنى فلما أعرضوا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا
والحق أخفى ما يكون مجردا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى
ومن البرية معشر لا يثنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ هَبْنَانِبَلًا

اعتاد كتاب العربية الذين يعالجون إصلاح الشؤون الاجتماعية ، أن يعظموا من مظاهر الحياة الأوربية ، ويذهبوا في تفخيم شأنها كل مذهب ، حتى التي يشكو منها أهلها أنفسهم مر الشكوى ؛ وإنا لمشاهد ذلك ونعجب منه ، ولكن لا سبيل لنا ولا لغيرنا إلى وقف تياره . كل هذا لأنهم يشاهدون تبريزهم في كل مجال ، ونجاحهم فيما يحاولونه من الأعمال ، فيتخيّلون أن الذين يكونون على هذه الشاكلة تكون جميع مدرّكاتهم قد قامت على أحكم النظم العلمية ، لا يأتيها الخلل من أية ناحية من نواحيها ؛ والباعث الذي يضطرهم إلى كثرة التنويه بالأوروبيين أن يأخذ إخوانهم إخذهم في شؤونهم فينهضون مثل نهضتهم ، ويصلون إلى مثل ما وصلوا إليه من مدنيّتهم .

هذه النظرية تقوم على خطأ كبير ، لأنها تخفي الحوافز الحقيقية للنهوض ، وتظهر آثارها بمظهر علمها الأوليّة ، وهي ليست بها ، فتزداد خفاء على العقول ، ويزداد الجمل بها تغلغلا في النفوس ، فتحق على الأمم الواقعة تحت آثارها صفة العجز فتبقى فيما هي فيه .

ولست أستطيع أن أفهم القارئ كنهه الأسلوب الذي استخدمه الأستاذ خالد في التأثير في عقول قرائه ، إلا بنقل شيء منه على سبيل المثال ، مع الإشارة إلى ما ارتكبه فيه من الشطط والمبالغة ، ومن الخطأ أن يستخدم ذلك أحيانا في سبيل بث حجة الاشتراكية في النفوس ، وهي وسيلة ، إن أفادت مرتكبيها لأول وهلة ، فقد عادت بأشد المضار عليهم وعلى مبادئهم بعد هدوء العاصفة ، والرجوع الى التثبت والتحقيق فلننقل قطعة من ذلك الكتاب ليرى القارئ ما نقوله له بعينه ، بل ويلبسه بيديه إن شاء ذلك . قال تحت عنوان : (هذه عوائقنا) : التفاوت البعيد :

« في طليعة العوامل التي تحرم مجتمعنا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذا التمايز البعيد الذي يشطره شطرين غير متكافئين .

« ولقد أصبحت هذه الفروق بين شطري المجتمع من الموضوعات التي يكثر فيها اللغط ، ويقل الفهم الصحيح ، والادراك السليم

« واتخذها الساخطون وقوداً يسعون به سخطهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أو مفيد ونريد الآن قبل تنفيذ مضار هذا التفاوت ؛ أن نفهمه على وجهه الصحيح فليس معنى نقدنا له ، أننا ندعو لزالة كل حاجز وفارق بين الناس ، فذلك أمر مستحيل وإنما لنجد في أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيдаً ضئلاً من المال ، ومن لا يملك شيئاً بيد أنهم لا يضارون بهذا التفاوت كما يضاربه ، وكما نرزح تحت كاهله .. وضراوته .. ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضرورتها ، وفي منتصف المسافة أو أكثر ، إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية ... والمجتمع هناك غير قلق على مستقبله ، ولا ضائق بحاضره ، وهو لهذا راض عن نفسه ، سعيد بنظمه ، لا يثير التفاوت بغضائه ، لأنه مكفول الرغد ، مطرد التقدم والاقتراب من السعادة الغامرة ، ولكل فرد من أفراد الحق في كافة الفرص التي يمكن أن تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً . فهو لذلك لا يجد من الوقت ما ينفقه في الحقد والبغضاء ، لأنه متجه نحو الفرص المترعة ، بكل مقدرات النجاح والفوز يهتلبها وينتهزها .

« ثم ان التفاوت هناك نتيجة عوامل طبيعية شريفة ، وليس نتيجة استغلال جشع كالذي عندنا ! من أجل هذا نراهم مؤمنين ببلادهم وبأنفسهم إيماناً يخلق بهم فوق العواصف والأخطار . فهذه السيدة الأمريكية التي وقفت تودع أبناءها الخمسة إلى ميدان القتال وتقول لهم : « إذا خامركم خوف أو تردد ، فاذكروا أن الموت رحلة جميلة سوف تلقون في نهايتها أباً كم ! ، وكان أبوهم قد قتل في إحدى المعارك .

« والمرأة الروسية التي صمدت أمام جنود الألمان ، وقاتلتهم في مطبخ دارها بسكين الثوم والبصل حتى فاض أخيراً روحها الباسل وهي تقول : « لا بأس أن أموت ! أما روسيا فلن تموت أبداً .

« وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانوا يسارعون إلى حومة الوغى كأنهم ذاهبون إلى مواعيد حب جميل ! أى سحر ذلك الذى أنساهم رهبة الموت وقسوة المصير ؟

« إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذى يعيشون فيه إخوانا وسواسية - ليس فيهم قطعان وذئاب ، ولا عبيد وأرباب ، المجتمع الذى منحهم كل إمكانياته وفرصه ، فنحوه كل ولائهم وقلوبهم ، وبادلوه وفاء بوفاء ، وتقديرآ بتقدير .

« ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أدناهما الآخر ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمراً له كل كراهية وسوء . . . ومهما نحاول لإرضاء هذا الفريق الأدنى برفع مرتبه وتحسين دخله ، فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فياً كونه أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسوا أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ، ويرغدوا أكثر مما ينبغى أن يرغدوا ، ويجلسوا فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقعات من آلامها وحرمانها ولغوبها . . . !!

« ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكنه الأعلون لأمتهم ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم . . . ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى أتخمتهم نعمه وطيباته فعند ما قررت مجانية التعليم الابتدائى منذ سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من مدارس الحكومة حتى لا يخالطوا فيها أبناء الفقراء والرعاع ، ثم أدخلوهم مدارس أجنبية تليق بمجدهم ومجد آبائهم ، وإن وراء هذا التصرف النخبيل لإيماننا عريقاً بالارسطوقراطية ، وحرصاً شديداً على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نائية لا تقرها أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا .

توهم هذه القطعة التى آثرنا نشرها من كتاب الأستاذ خالد ، أنه أحاط بكل ما أشار اليه فيها من الموضوعات علماً ، وأنه يقررها عن معرفة بتفصيلاتها ودقائقها ، وعن فقه عميق بآثارها ونتائجها ، ويسوئنا أن ندلل على أن مناقشة سطحية لها ترى قارئها أنها تقارير ألفت من غير تمحيص ، وكثير منها يخالف الواقع مخالفة صارخة .

فهو يقول فيها: إن الفروق أصبحت شاسعة لدينا بين طبقتي المجتمع ، وأن الساخطين جعلوها وقوداً يزيدون بها سخطهم تأججاً ، إلى آخر ما قاله . والحقيقة أن هذا التفاوت طبعى وموجود فى كل أمة ، وما دام فى الأمة فريق يرتبى ويعلم حتى يبلغ آخر مراحل العلم ، وفريق يهمل أمره ويستبقى فى أمة القرون الأولى ، فلا بد من وجود هذه الفروق الهائلة فى الأمة ، وليس فى هذا الأمر ما يوجب الحيرة ، فهو أمر طبعى وعلاجه تعميم التعليم ، ولا علاقة له بأرصدة فى البنوك ، ولا بعلم اجتماعية تجب معالجتها .

ويقول : وأنا لنجد فى أمريكا وروسيا وإنجلترا من يملك رصيذاً ضخماً من المال ومن لا يملك شيئاً ، والواقع أنه لا يوجد روسى واحد يملك رصيذاً فى بنك بعد أخذهم بما هم عليه من البلشفية .

وبعد هذه المقدمة الخاطئة التى أثبت فيها وجود حزازات نفسية بين طبقتان الاجتماعيتين ، عاد للتوسع فى استغلال هذا التحاقد الشنيع بين طبقتان ، فقال : « ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين ، يحقر أعلاهما الأدنى ، ويمقت أدناهما الأعلى - إلى أن قال - : لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فىأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ... ويجلسون فوق أهرام من الذهب ، بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها ولغوها . الخ الخ » .

نقول إن الأمة المصرية ، وأية أمة إسلامية فى العالم كله لم تنقسم على نفسها إلى معسكرين متباغضين بسبب الشؤون المالية ، فإن روح الوحدة سائدة فيها ، وكل ما تقتضيه هذه الوحدة من تحاب وتواصل موجود بينها إلى درجة محسوسة ، فقد يتفق وجود أسرة سرية تسكن داراً واسعة الرحاب تحيط بها حديقة غناء ، ولسكنها فى بيئة متواضعة تسكنها أسر فقيرة ؛ فشاهد عطفاً عظيماً واحتراماً كبيراً من هذه الأسر لأهل تلك الدار الشماء ، فتحيطها بحبها ورعايتها ، ويتسابق آحادها رجالاً ونساء إلى خدمتها غير منتظرين من أهلها غير شرف التعارف وكرامة الجوار . جرى الحال فى جميع أدوار تاريخنا على هذه الحال ، ولا يزال يجرى عليه ، حتى إننا لنرى إن اتفق لبعض تلك الأسر أن تنتقل إلى المواطن الراقية التى أعدت لأمثالها ببعض الضواحي ،

أن الأفراد الذين كانوا يبادلونها الود من سكان تلك الحارات الضيقة ، لا يزالون يوالونها ذلك الود ، لا يمنعهم منه مانع من بعد الديار . فالتعاضد الذي يذكره الأستاذ لا يوجد له أثر بين الطبقات في بلاد المسلمين . وحاشانا أن نتهم الأستاذ بأنه يذكره لينبه إليه النفوس ، ولسكنا نقول إنه يذكره ليهده الطريق للدعوة إلى الاشتراكية . ونحن نؤكد للأستاذ أن الاشتراكية ما دام من مقوماتها حذف الملكية ، وإبطال حقوق الوراثة ، فإنها يبعد أن تسود العالم عن طوعية ، وهو في عقلية وعواطفه التي هو عليها إلى هذا العهد .

نعم يجوز أن يحدث له تطور اجتماعي يرى معه أن حق التملك يجب أن يلغى وأن عادة توريث الأبناء والأقارب أملاك الشخص بعد موته يتحتم أن تبطل ، بسبب ما يكون قد جد من عادات وتقاليده تضمن حياة الناس دون الالتجاء إلى الوسائل المعهودة ، ولكن هذا الوقت لم يحن بعد ، وقد لا يكون قط ، فلا اشتراكية والحالة هذه إن لم تكن سابقة وقتها بضعة قرون أو بضعة آلاف من السنين ، فهي من المطالب التي لا تقرها الطبيعة البشرية لأول وهلة . والدليل المحسوس على ما نقول عدم إجماع العمال على الأخذ بها ، بل ليس يقول بها منهم إلا قلة قد تبلغ الخمس ؛ ولكن الأستاذ خالد يكتب عنهم كأنهم مجتمعون عليها ، وفي بعض تعبيرات له كأن العالم كله قد آل إليها . كل هذه المحاولات منه تمهيد السبيل لنشرها ، ولا ندرى أي شيء يحفزها إليها وليس هو من طائفة العمال ، ولا هو بمن عاش في عالم اشتراكي فذاق من حلاوته ما يدفعه لأن يكون داعية إليه . هذه مسألة لا يعيننا حلها ، ولسكنا أراء نظرية اقتصادية اجتماعية من أشد المسائل العالمية تعقداً ، وأعصاها قياداً ، فإذا كنا نضطر لخوض غمراتها حيناً بعد حين فلأن مهمتنا تقتضيها ذلك . أما هي في ذاتها فليست من المسائل الوشيكه الحل ، ولو قلت إن بينها وبين الفصل فيها قروناً طويلة فلا تكون مبعداً فيما تقول .

والمسلمون فوق هذا لا يهمهم حل المسألة الاشتراكية ، لأن دينهم قد أدمج مسألة الثروة في أمور الدين من ناحية الزكاة التي هي إحدى أصول الإسلام الخمس فأصبحت الناحية الاقتصادية متصلة بأمور الدين الأولى .

نعم إن المسلمين لا يعملون بدينهم الآن ، وقد أهملوا أمر الزكاة إهمالاً يؤخذون عليه ، لأن في إهماله إهمالاً لحقوق السواد الأعظم من الأمة وهم الفقراء ،

ولا بد من أن تثار هذه المسئلة في يوم من الايام وتحاسب الامة نفسها على إغفالها حسابا عسيرا ، واذ ذاك يفصل في أمرها بنسبة ما تكون عليه حيال دينها . فإن كانت مستهدية بهديه أو عاملة على ذلك جهد طاقتها ، فإن مسالة الزكاة تحل حلا يحفظ حقوق الطبقة الفقيرة من الضياع ؛ وإن كانت منتسبة إلى الدين دون العمل به كما هو شأنها اليوم ، فإنها قد تخضع للظروف وتحل المسالة الاقتصادية على الوجه الذى حلها به الامم الغربية .

أما قوله إن التفاوت بين الأغنياء والفقراء جعل منهما معسكرين متباغضين يترصد كل منهما بالآخر السوء ، لأن المشكلة لا تتمثل فقط في حرمان الفقراء من متع الأغنياء في أكلمهم ومقداره ونوعه ، وفي لبسهم ورغدهم وراثتهم ، بل وفي هذا الترف المسعور الذى يعيشون فيه ، الخ ، فهو استنتاج خاطئ ، لأن الإسلام نفسه قرر أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق ، فتمضى بالغنى لطائفة وبالفقر على أخرى لمصلحة كل منهما ، وجعل مجال التسابق مباحا للكافة في كل زمان . لذلك لم تنقسم الامة الإسلامية في أى عهد من عهودها إلى شطرين : شطر الموسع له ، وشرط المضيق عليه لحكمة تقتضيها حاجة الاجتماع ، ولم يسد طريق الوصول إلى الثروة بالاسباب المشروعة في وجه أى طالب من أية طبقة من الامة .

هذه الحكمة الجليلة حمت المسلمين في جميع عهودهم من تألب الطوائف بعضها على بعض كما حدث في الغرب ، فجعلت ممالكه مسرحا للفتن والمؤامرات في القرون الأخيرة ، ولا تزال على أشد ما يكون في عهدنا هذا ، وقد تولدت منها مذاهب مختلفة تستخدم جميع ضروب التخريب للوصول إلى أغراضها ، ومنها الاشتراكية التى يدعو إليها الأستاذ ؛ فهل يريد حضرته الانتهاء بنا إلى هذه المآزق ؟

وعلى أية حال فنحن سائرون إلى الغاية التى انتهى إليها الغرب وهى ضرب الضرائب على أموال الموسرين وإسعاف المقلين بحاجاتهم منها ، وهو على أى حال شئ من الزكاة المفروضة على المسلمين وإن لم يكن بها من كل وجه . فليس علينا معشر المسلمين إلا الانتظار مع التنويه بالنظام الاقتصادى الإسلامى حتى لا يدثر في الأذهان ، فهو أكمل وأوفى من النظام الأوروبى كما سنبينه هنا في فرصة قد تهيأ له في بعض البحوث .

النفسية

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » [سورة النساء : ١٠٥]

شرحنا في العدد الماضي مفردات هذه الآية الكريمة وبيننا مناسبتها لما قبلها وسبب نزولها ، كما بينا موقف القرآن والإسلام من قضايا المسلمين وأحوالهم ووجوب الاحتكام إليه في كل أمورهم ، واتخاذهم أساساً لحياتهم في جميع صورها ، وبقي في هذه الآية بحثان : أحدهما يتعلق بقوله تعالى « بما أراك الله » وثانيهما بقوله « ولا تكن للخائنين خصيما » .

والحق أن البحث الذي يشار حول النقطة الأولى بحث أثاره المفسرون الأصوليون ، وإن كان الفهم للآية قد يستغنى عنه ، ولكن لم يعد لنا بد من التعرض لهذا البحث ، لا سيما والآية التي تلي هذه الآية وهي قوله تعالى « واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما » تستدعي البحث عن دواعي الاستغفار : هل يستغفر الرسول من صغيرة ، أو من خلاف الأولى ، أو يستغفر لأمته ؟

إن الله سبحانه وجد أن رسوله صلى الله عليه وسلم قد هم - حسب طبعه البشرى وعلمه الظاهري ووجه المسلمين واعتقاده الصدق فيهم - بالحكم على اليهودى البرىء ، فأرسل الله له الوحى بهذه الآية الكريمة ليوجهه إلى غير ما هم به ، ويبين له أن الله أنزل عليه القرآن ليحمى الحق ، ويصونه من الأهواء والعصيات ، ويحكم به بين الناس ، ويترسم طريقه فيما يقول ويفعل ، وليس مما أنزل الله من قواعد الحق أنه يتبع الهوى والعصية ، ويميل مع الغرض ، فإن الله سبحانه قد أحاط الحق والعدل في قرآنه بسياج قوى من الوصايا والأوامر تحميه من الاعتداء عليه أو المساس به ولو من بعيد لحب نفس أو قريب أو مال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا
وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً^(١) .

« ولا يجر منكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا^(٢) »
وكرر الله الأوامر في القرآن للحكم بالحق وعدم اتباع الهوى . وهنا في هذه الآية
يوجه الله نظر الرسول إلى هذه التواعد والأوامر ، ليحول بينه وبين الميل الطبعي
والنفسى مع قوم أظهروا إسلامهم وتواطؤوا على الشهادة لمصلحة قريتهم المسلم ،
فالآية لا تزيد عن توجيه الرسول إلى الحق والحكم به « ولو على أنفسكم
أو الوالدين والأقربين » .

ومع هذا ، فإن الباحثين اختلفوا حول قوله تعالى : « بما أراك الله » هل هو
بمعنى أعلمك علماً يقنيا كالرؤية في القوة ، ولا يكون ذلك إلا بالوحى الذى يحدد
المراد على وجه قطعى . وعلى هذا فتوجه الرسول هنا إلى الحكم بالوحى فقط
ولا يتعداه إلا إلى قياس يرجع إلى الحكم بالنص . وحينئذ لا يكون فى الآية دليل
على جواز اجتهاد الرسول ، ولكنها مع ذلك لا تدل على منع الاجتهاد ، لأن الآية
نزلت فى موضوع خاص .

ويحتمل أن يكون معنى « بما أراك الله » مما نزل به الوحى ، أو بما أدركته
بواسطة نظرك واجتهادك فى أحكام الكتاب وأدلته ، فاتباع النص حين وجوده ،
والاجتهاد حين لا يوجد النص ، والمراد على كل حال منع الرسول من
الخضوع لأقوال الشاهدين وعصبتهم ، ومن الميل للمسلمين على اليهودى وحججه
عن الوقوع فى خطأ ينتج عن ذلك .

جاء فى تفسير المنار للأستاذ الإمام « ومن مباحث الأصول فى هذه الآية
مسألة حكمه صلى الله عليه وسلم بالوحى فقط ، أو بالوحى تارة وبالاكتفاء أخرى ،
ثم نقل فى موضع آخر عن كتاب « الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية »
للإمام سليمان بن عبد القوى الطوفى الحنبلى قوله : « لتحكم بين الناس بما أراك الله »
يحتمل أن المراد بما نصه لك فى الكتاب ، ويحتمل أن المراد بما أراكه بواسطة
نظرك واجتهادك فى أحكام الكتاب وأدلته . وفيه على هذا دليل على أنه

عليه الصلاة والسلام كان يجتهد فيما لا نص عنده فيه من الحوادث ، وهي مسألة خلاف في أصول الفقه . وفي موضع آخر قال : « ثم على القول الأول - وهو أن الاجتهاد جائز له - هل يقع منه الخطأ فيه أم لا ؟ قولان للأصوليين أحدهما : لا ؛ لعصمته ، والثاني : نعم ، بشرط ألا يقر عليه استدلالاً بنحو « عفا الله عنك لم أذنت لهم - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » ونحو ذلك . اهـ ^(١) .

فترى من هذا أن الأصوليين مختلفون في الموضوع الذي أثاروه : فمنهم من أجاز للرسول أن يجتهد لأنه منصب كمال ، ولا ينبغي أن يفوته عليه السلام . وأن فيأروى عنه ما يدل على وقوعه منه ، ومن ذلك قوله عليه السلام : « لو قلت نعم لوجب » وقوله : « لو سمعت شعره قبل قتله لم أقتله » وقوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى » وأيضاً عتاب الله لرسوله في الآيتين المتقدمتين يدل على أن الرأي الذي ذهب إليه كان باجتهاد منه لا بتوجيه الوحي له ، وإلا لما كان هناك محل للعتاب مطلقاً .

أما الذين ذهبوا إلى عدم جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فقد احتجوا بقوله تعالى : « ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ، وبأنه قادر على يقين الوحي ، والاجتهاد لا يفيد اليقين .

وقد جاء في تفسير المنار أن قوله تعالى « ما ينطق عن الهوى » لا يدل على منع الاجتهاد « لأن هذا في القرآن خاصة ، وإلا كان كل كلامه عليه الصلاة والسلام وحياً ، وقد ورد أن الوحي كان ينقطع أياماً متعددة ، وأنه كان يسأل عن الشيء فينتظر الوحي ، كما كان يسأل أحياناً فيجيب من غير انتظار للوحي ، وليس بمعقول أن كل ما كان ينطق به عليه السلام في كل الأمور كان بوحي . وأما قولهم : إنه كان قادراً على يقين الوحي فغير مسلم لهم على إطلاقه ، فشأن ذلك لله سبحانه .

والذي أميل إليه من خلال هذه الأدلة أنه كان للرسول صلى الله عليه وسلم مجال له أن يجتهد فيه ، وكان هذا المجال بعيداً عما كلفه الوحي بتبليغه ، إذ أن ذلك لا محل فيه للرأي مطلقاً ، وكان الله سبحانه يوجه الرسول في بعض الحالات إلى

غير ما أداه إليه اجتهاده ورأيه ويعاتبه ، والقرآن شاهد بذلك في غير موضع .. وسواء كان العتاب على ترك الأولى أو على خطأ في الرأي ، فإنه كان على كل حال دليل على أن الرسول ذهب إلى هذا الرأي باجتهاده لا بتوجيه الوحي ، ولا يغض هذا من مكانة الرسول . إذ أن ذلك من مقتضيات البشرية ، فليس معنى اختيار الله له لتبليغ رسالته أنه ارتفع فوق الطبيعة البشرية ، أو أنه صار مسيراً بالوحي في كل ما يأتي وما يدع من أمور الدين والدنيا ، على أنه « لا يبعد أن يقال : أن في جواز الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فسر البشر وإن كان في أعلى الدرجات يحتمل الخطأ بخلاف الوحي^(١) » . ثم إن الحادثة التي نزلت الآية من أجلها تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كاد يحكم على البريء برأيه طبعاً ، ولكن الله حرسه بالوحي « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لممت طائفة منهم أن يضلوك » . « وكان فضل الله عليكم عظيماً » . ولو أن رأى الرسول وافق الصواب في اتجاهه لما كان هناك حاجة لوحي .. ولكن - علم الله وله الأمر والتدبير - ما كنا نظفر في القرآن بهذه الآيات البينات ذات المبادئ العظمى ، وأعتقد أن البحث حول هذه النقطة ، قد استوفى حقه . فلننتقل إلى النقطة الأخيرة وهي قوله تعالى « ولا تكن للخائنين خصيماً » .

ذكر الله هذا النهي في آخر الآية بعد توجيهها للرسول في أولها ، ونلاحظ أن الله لشدة غيظه على الحق كرر تحذير الرسول من البعد عنه ، واحتضان الباطل والمبطلين « ولا تكن للخائنين خصيماً » ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » والخائنون هم الذين سرقوا وأرادوا أن يبرئوا أنفسهم ويلصقوا التهمة بغيرهم ، وتجمعوا متعصبين لقريبهم السارق ، شاهدين ببراءته وإدانة اليهودي أمام الرسول حتى كاد يتأثر بالظاهر من أمرهم ، مع ميله الطبعي وحبه النفس لاتباعه المسلمين ، - ولو أن هذه المؤامرة دلت على بعدهم عن الإسلام - فاتجه الرسول إلى الأخذ بالظاهر والحكم على اليهودي البريء ، فقال له الله « ولا تكن للخائنين خصيماً » وبذلك عرف الرسول أمر هؤلاء المتآمرين ، وعرف أنهم الجناة الخائنون الذين ارتكبوا وزرين : وزر السرقة ، ووزر اتهام البريء . وحينما انكشف للرسول أمرهم تنحى عن الدفاع عنهم والاتصار لهم ، ولم يستطع الجاني إلا الهروب خوف الحكم عليه .

ما أعظم الحق !؛ يحرسه ذو الجلال ويغار عليه ، ويكره أن يضام رجل برىء - ولو كان يهودياً مخالفاً لله ورسوله - ويؤخذ بجريرة غيره ، وينزل في ذلك قرآنا يتلى إلى أن تقوم الساعة يحمى الحق من المتآمرين عليه ، وينير طريقه للرسول حتى لا يتأثر بدسائسهم ، قد يحدث مثل هذا في كل يوم وفي كل بلد ، وينتصر الباطل على الحق ، ويقع البريء تحت سياط العذاب ويفلت الجاني الأثيم ، ولكن ذلك لا يكون ، والوحى ينزل على الرسول ينبئه بالحقيقة التي يحيط بها علام الغيوب ، فكانت هذه الآيات التي تقرر مبدأ من أهم المبادئ وأسماها ، وهو عدم الانتصار للجناة والدفاع عنهم ، هو الانجاء إلى الحق والعدل أينما كانا ، لا يفرق في ذلك بين الناس لجنسهم أو دينهم أو جاههم وسلطانهم ، فالكل أمام الحق سواء « ولا يحرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ^(١) .

ما أحرانا بتدبر هذا والعمل به !! ؛ فكثيراً ما نرى أناساً منا يحتضنون المجرمين ويحمونهم بجاههم وسلطانهم ، وهم يعلمون مقدار جرمهم ، وكثيراً ما رأينا الحق تيمد جوانبه تحت ضربات العصبية ، وتطمس معالمه بغبار الأهواء الشخصية كم رأينا عظيماً يفلت من سلطان الحق والقانون ؛ لأنه عظيم ، ولو كان عظيماً في جرمه ! وكم رأينا صحفاً تسخر قواها للدفاع عن المجرمين وإخفاء معالم الحقيقة ساخرة من الحق ومن عقول قرائها الحاجة في نفسها !! وكم رأينا هيآت تتألب على الحق وتهوى عليه بقوة سلطانها !!

وكم رأينا محامين يدافعون عن الجناة الأثمين في حق الله والوطن ، وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يقبلون الحقائق ويسخرون ما آتاهم الله من مواهب لينتصروا بباطلهم على الحق ، وينزعوا المجرم من يد المصالح ؛ ابتغاء المال الكثير والجاه الوفير ! ونسى هؤلاء وأولئك مقدار الجرم الذي يرتكبونه في حق الله والوطن ، نسوا جميعاً قول الحق الأعلى سبحانه « ولا تتركوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » ^(٢) ، نعم « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » ^(٣) .

فاللهم : لطفاً لعبادك وهداية !! .

الْفَرَانُ وَعَقِيدَةُ الْبَعْثِ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

يهتم القرآن الكريم بشأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، فقلها نجد سورة من سوره - إذا استثنينا بعض قصار المفصل - ألا تذكر البعث وتقرر أمره على نحو ما ، وكثيراً ما نجد فيه سوراً تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه ، ما بين تذكير وبيان وضرب للأمثال ونفي للشبه وغير ذلك .

وإنما عني القرآن الكريم بهذه العقيدة لأنها أصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح في العالم ، فإن البشر مهما اختلفت ميولهم وأعمالهم لا يخرجون عن صنفين :

(١) صنف يعمل الخير ويركن إلى الصلاح حباً في الخير والصلاح ، كما يترك الشر والفساد كراهية في الشر والفساد ، فهو لا يلتبس جزاء ولا شكوراً حين يفعل الخير ويركن إلى الصلاح ، ولا يخاف حساباً ولا عقاباً حين يترك الشر ويعزف عن الفساد ، وإنما يترك هذا ويفعل ذاك بحجارة لعاطفة فيه ونزعة تدفعه إلى الفعل والترك ليس إلا .

(٢) وصنف يعمل الخير ، ويترك الشر ، ناظراً إلى الجزاء مقدراً أن وراء الفعل أو الترك مصلحة له أو مضرة عليه ، فهو يقدر الأمر بمقدار ما يناله هو ، وينظر إلى العواقب التي تترتب على تصرفه من حيث ما يناله أو يصيبه .

والصنف الأول قليل لا يكاد يوجد ، أما الصنف الثاني فإنه الكثرة الغالبة والشأن في الناس ، ذلك بأن طبيعة البشر طبيعة انتفاعية تبادلية ، كل منهم يريد أن يكون متمتعاً بالخيرات والحسنات ، بعيداً عن الشرور والمصائب ، وأمثلهم هو الذي يرجو من وراء الاستقامة رضا الله ، أو رضا الناس ، دون نظر إلى نفع مادي اكتفاء بحسن الأحداث ، وطيب الذكر .

لهذا قضت حكمة الحكيم أن يجعل وراء هذه الدار داراً ، يرى فيها المرء جزاء

عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وجاء القرآن الكريم بإقناع الناس بأن هذه الدار حق ، لينظروا إليها ، ويقصدوا بما يأتون أو يدعون وجه الله وثوابه فيها . فلو أن الناس جميعاً قد استقرت فيهم هذه العقيدة ، وآمنوا بها إيماناً لا يخالجه شك ، لاستقامت أمورهم ، وكثر فيهم الخير والاحسان ، وقل بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر في كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا ، وتحلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريه الشك في البعث ودار الجزاء ، ويستقيم إلى الحاضر والواقع الذي يعيش فيه ، ولا يلبس سواه ، فلا يصدق أنه سيعث بعد الموت ، وأنه سيعرض للحساب .

* * *

ولإنكار البعث أو الشك في أمره يرجع في ذهن المنكر أو الشاك إلى أحد أمور .

(١) إما مخالفته لما ألف من السنن ، حيث لم يعهد الأحياء أن ميتاً بعث من رمسه ، وعادت إليه الحياة كرة أخرى ، حتى يمكن قياس ما لم يشهدوا على ما شهدوا .

(٢) ولما استبعداه واستعظام أمره ، فإن الأحياء قد ألفوا أن يروا أجساد الأموات تتفرق وتحلل وتفسد وتفنئ في الأرض وتختلط بالتراب ، فلا تكاد عموهم تسلم في سهولة ويسر أمر عودتها وتركها وصيرورتها جسماً حياً يسعى ويدرك .

(٣) ولما كونه أمراً لا تدعو إليه حاجة الناس ، وليس وراءه مصلحة ترجى .

(٤) ولما العناد في أمره ، والمكابرة والإصرار على تكذيب الدعوى فيه بعد تبين الحجة وظهور البرهان .

وقد عالج القرآن الكريم ذلك كله ، ورد على كل فريق من هؤلاء بما يناسبهم .

(١) فقال للذين حسبه مخالفاً للسنن المألوفة : إنكم قد غفلتم عن كثير من آيات الله تشاهدونها بأعينكم ، وقد صارت لديكم أموراً مألوفة لكثرة حدوثها وتكرر رؤيتها .

فهذه الأرض تكون ميتة هامة ، فينزل الله عليها الماء ، فتصبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات « وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور » .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » .

وهؤلاء الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون ، وذلك هو المعنى الذى صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى به قومه أول مبعثه إذ يقول « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما يستيقظون » وقد جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهذه هى الحبة الجافة يحولها الله بالإنبات إلى زرع نضير ، والنواة المتحجرة يصيرها نخلة فارعة مثمرة ، « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون » .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تلفت إلى نظائر البعث والنشأة فى ألف الناس . (٢) وقال للذين يستبعدون ذلك ، ويستعظمون أمره : إن الله لا يعجزه شئ ، وليس شئ عليه بمستبعد ، فهو القوى القادر الذى خلق الخلق ، وأنشأه من العدم : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، « كما بدأنا أول خلق نعيده » ، « وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » ، « وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون » ، « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » ، « يأياها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر قدرة الله ، وتذكر بنشأة الخلق ، وترد عليهم فى استبعادهم الأمر ، واستعظامهم إياه فى مثل قولهم « أيعدكم أنكم إذا مت

وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

(٣) ويقول للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو إليه حاجة ، ولا تنمضي به حكمة « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . « وقل أعمالوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » « أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

إلى غير ذلك من الآيات التي تذكر حكمة البعث ، ورجوع الناس إلى الله ، في يوم مشهود ليحاسبهم ويجزيهم بالسوء سوءاً وبالإحسان إحساناً .

(٤) أما المعاندون المكابرون فيجابههم بالدعوى ويكررها عليهم ، ويقسم عليها في مقابلة قسمهم ، ويصور لهم يوم القيامة وأحواله ، كما لو كانوا يشاهدونه إشعاراً لهم بأنهم يكابرون فيما يعلمون ، وأن الله لا يعول على مكابرتهم ، بل يسوق لهم الكلام في هذا الشأن حسب الواقع الذي يعلمه ويعلم أنهم يعلمونه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بل وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل وربي تبعثن ثم لتنبئن بما عملتم » ، « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق . قالوا بلى وربنا . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ، « وقالوا أأنذا ضللنا في الأرض أأننا لفي خلق جديد ، بل هم بلبقاء ربهم كافرون ، قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ، ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » . إلى غير ذلك من الآيات التي تصور أحوال القيامة ، وحيرة الكافرين ، واعترافهم بعد رؤية العذاب .

* * *

هكذا يهتم القرآن الكريم بأمر البعث والدار الآخرة ، ويقرر على كل مؤمن عقيدة من عقائد الحق التي لا تقبل الشك ، ولا يقبل الله فيها تأويلاً ولا شقاقاً ، ويستقصي كل ما يدل عليه ، ويثبت في القلوب ، ويزيل عنه الشبهات .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

بعد الكلمة الأولى التي رأينا التمهيد بها للحديث عن رأى الشيخ الرئيس فى بعض مشاكل العصر الحاضر الذى نعيش فيه ؛ هذه المشاكل التى يأخذ بعضها مِنّا بالحناق ، ونذهب نتلمس لها حلولا من هنا أو هناك ، متناسين ما للإسلام من فكر وفقه فهما غناء أى غناء فى كثير من مشاكلنا وأمورنا العامة ! نقول بعد هذه الكلمة ، نتكلم اليوم عن رأيه فى مشكلة العمل والبطالة ، أو مشكلة الضمان الاجتماعى . وسنرى هنا أنه أتى ، وهو بسبيل علاج هذه المشكلة ، بأراء لم تكد تُعرف إلا فى هذا العصر الحديث ، ومع هذا يحسبها العامة وأشباه العامة فى تاريخ الفكر من مخترعات فلاسفة أوروبا ومفكرىها .

وهو يبدأ الحديث فى هذه الناحية ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يمكن أن يعيش عيشة طيبة لو انفرد وحده ولم يشارك غيره من بنى جنسه فى حياتهم ومجتمعاتهم . ذلك بأنه لا بد من أن يكون الإنسان مكفيا فى كثير من حاجاته وأموره بآخرين من نوعه ، كل منهم يخدم الآخر فى ناحية من نواحي الحياة المادية أو المعنوية . ومن أجل هذا ، كان الإنسان - من قديم الزمن حتى الآن - مضطرا إلى عقد المدن وتأسيس المجتمعات ، حتى يكون البعض للبعض وإن لم يشعروا خدم^(١) .

[١] هذه الفكرة نجدها قبل ابن سينا لدى الفلاسفة والمفكرين الذين نظروا فى الاجتماع . فأفلاطون ، فى المقالة الثانية من الجمهورية ، يرى أن الاجتماع ظاهرة طبيعية سببها عجز الفرد عن القيام وحده بكل ما يحتاجه . وأرسطو ، فى المقالة الأولى من كتاب السياسة ، يقرر أن الذى لا يحتاج لغيره إما بهيمة أو إله . ويرى مسكويه فى كتابه الفوز الأصغر أن الانسان لم يخلق خلقا من يعيش وحده ، ويتم له البقاء بنفسه . والفارابى يؤكد هذه الفكرة فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة على ما هو معروف .

ويخلص من ذلك بتقرير أنه لا بد إذأ في وجود الإنسان وبقائه من مشاركة ، وأنه لا تتم هذه المشاركة إلا بمعاملة الناس بعضهم لبعض ، ولا بد في المعاملة من أن تسكون على أساس من سنة وعدل ، ولا بد للسنة من شارع يجيء بها من لدن الله جل وعلا ، وهذا لا بد أن يكون إنساناً ؛ والنتيجة لهذا كله بيان أنه من الضروري أن يوجد نبي يرسله الله للناس بهذه السنة والشرعة ، وأن يكون هذا النبي إنساناً من الناس لا ملسكاً من الملائكة .

وعلى هذا النبي ، بعد ما يأتي به من شرائع للناس في العقائد والعبادات والمعاملات ، أن ينظر في ترتيب المدينة (يريد بها الدولة) فيقيمها على دعائم ثلاث : المدبرون والحفظة والصناع ومن إليهم ، وهنا نلح في وضوح رأى أفلاطون في هذه الناحية ^(١) ثم يذكر أن كل طبقة من هذه الطبقات يكون عليها رئيس ، وهذا الرئيس يكون تحت أمره رؤساء دونه مرتبة ، وهكذا حتى نصل إلى إلقاء الناس ، وحينئذ يكون لكل فرد عمل معروف ومقام محدود ، وإذأ فالبطالة والتعطل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل .

على أن الشيخ الرئيس لم يكن بالفيلسوف النظري الذي يضع القواعد ولا يفكر في الوسائل والتطبيق لما رأى ، نعم ، لم يكن بالمفكر الذي يتعمى عما حوله ، ويتجاهل واقع الحياة وأحداثها ، إنه برغم ما جعله لكل فرد من أبناء الأمة من عمل محدود معروف حتى لا يتعطل أحد عن العمل الذي به يكسب عيشه ، رأى أن هناك متعطلين بالفعل لهذا السبب أو ذاك من الأسباب التي تختلف من آن لآن .

[١] حقيقة لقد استلهم ابن سينا أفلاطون في هذه الفكرة في كتابه الجمهورية المقالة الثانية . وظاهر ان كليهما نظر في هذا إلى الانسان وقواه الثلاث ، وإلى الترتيب الطبيعي الواقع في أى مدينة من المدن .

إلأن الشيخ الرئيس خالف أفلاطون فيما رآه من الشيوعية في المال والنساء بالنسبة للحكام والجند ، ونعتقد أن ابن سينا وقد اتبع في رأيه الشريعة الاسلامية ، تأثر بأفلاطون نفسه حين رجع عن هذه الشيوعية في كتاب القوانين المقالة الخامسة ، وبأرسطو حين نقد رأى أستاذه مبنياً ما يكون من ضرر شديد في التضحية بالملكية الخاصة والأسرة في سبيل الدولة ، انظر في هذا كله كتاب السياسة المقالة الثانية . إن المعلم الأول يرى بحق أن الشيوعية في النساء وما ستنتبعه من الشيوعية في الأولاد تضر ضرراً كبيراً بهؤلاء وأولئك ، وكذلك الشيوعية في المال تجلب هذا الضرر العام .

ولهذه نجده يقول إنه إن وجد فعلاً جماعة متعطلون عن العمل ، وتمادى بهم الزمن ولو بعض الوقت على هذا الحال ، يجب أن ننظر في أمرهم ، فإن كانوا قادرين على العمل ، وكان العمل موفوراً لمن يريد ، وكان الطريق إليه ميسوراً ، وإنما الامتناع عن العمل يرجع إلى الكسل ، كان من الضروري على الدولة ردع هؤلاء الكسالى وتأديبهم وسجنهم إن لم ينفع فيهم الردع والتأديب ؛ ومن هنا ، نرى في وضوح أن صاحب كتاب الشفاء كان يحرم التسول تحريماً باتاً ؛ التسول الذى صار داء من أدوائنا الاجتماعية ، بل صار مهنة تدر على من يمارسها أضعاف ما يدره العمل الشريف ، وبخاصة وجمهرة المتسولين قادرين على العمل ، ولكنهم لا يريدون ما دامت الحكومة غير جادة فى أخذهم بالحزم .

وإن كان السبب فى البطالة لا يرجع إلى الكسل ، بأن كان العمل غير ميسر لكل من يريد ، أو كان السبب فى البطالة المرض أو الشيخوخة أو ما إلى ذلك بسبيل ، كان الخالى من العمل معذوراً ، وكانت الدولة ملزمة بتوفير الحياة المناسبة له ؛ وسبيل هذا كما يرى الفيلسوف العملى ، أن يجمع هؤلاء الذى لا يستطيعون العمل فى مكان خاص ، وهو الملجأ بلغة العصر ، وأن يجعل عليهم قيم ينظر فى أمورهم ويدبر أحوالهم .

ولا بد فى هذه الحالة من مال ينفق عليهم منه ، وبه تصلح أمورهم ؛ هذا المال يجب ، فى رأى ابن سينا ، أن يجمع من ضرائب تفرض على الأرباح الطبيعية والمكتسبة ، يدفعها الأغنياء والقادرون على العمل ، والذين يرغبون بما يعملون شكراً لله على ما حباهم به من نعمة وفضل ، كما يجمع هذا المال من عقوبات تفرض على الذين يخالفون أمر الله وشريعته ، ومن شئ من بيت المال العام . وهنا أذكر أننى لست بالذى يسرف فى تمجيد الماضى ، لأن الزمن قد أكسبه جلاله وقداسته ، ولا بالذى يبخس التفكير الحاضر لأنه لم ينل بعد من الزمن بعض الجلال ، ولكنى اعتدت أن أنظر للقول لا للقائل ، ثم يكون بعد هذا الحكم والتقدير .

وعلى هذا الأساس نجد تفكير ابن سينا منذ أكثر من ألف عام أو يزيد لا يكاد ينقصه شئ مما وصل إليه المفكرون المحدثون المعاصرون فى هذه الناحية . فقد لاحظ أن الله - جلت حكمته - لم يُسوّ بين الناس فى حظوظ المال والثروة ،

كما لم يسو بينهم في حظوظ العقل والملكات والقدرة على العمل ؛ ومن ذلك كان لا بد أن يكون كل مجتمع على طبقات مختلفة . وهذا ليحس كل فرد من أفراد المجتمع الحاجة لأخيه ، ويعين بعضهم بعضا ، فيقوم المجتمع وتصلح الحياة . ومن ثم ، نرى فيلسوفنا يقرر أن لكل من أفراد المدينة عملا يناف به أداؤه ، ومنزلة يضع نفسه فيها ، وتكون النتيجة أن يعمل الجميع ويحمي الجميع حياة طيبة .

ولكن ، وهنا الناحية الواقعية في هذا الجانب من فلسفة ابن سينا ، نراه يلاحظ أن أى مجتمع قد لا يخلو من أناس يضطرون للبطالة ، وأن هؤلاء الناس إخواننا في الوطن والإنسانية ، وإذا يجب عونهم وتوفير الحياة المناسبة الشريفة لهم في مكان يعيشون فيه ، وتتولى الدولة الإنفاق عليهم على ما عرفنا .

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن فيلسوفنا كان رجلا عمليا حقا ، بجانب كونه فيلسوفا نظريا ممتازا ؛ إذ فكر في المشكلة وفي حلها أيضاً . وفي سبيل هذا الحل الموفق غاية التوفيق ، نراه يتحرر من بعض ما كان يسود أيامه من آراء بعض الفقهاء . إنه لم يقل معهم بأن المرء متى دفع ما عليه من زكاة خلص من جميع ما عليه من حقوق مالية لوطنه وإخوانه ؛ بل إن عليه بعد هذه الزكاة المفروضة أن يسهم بنصيب من أرباحه للمعوزين ، ليقوم التضامن الاجتماعي بين أبناء الوطن الواحد . ولم يقل أيضا مع هؤلاء الفقهاء بأن معصية الله لها عقابها في الدار الآخرة فقط ^(١) ؛ بل رأى ، بجانب ما سيكون من هذا العقاب الأخرى ، فرض نوع من العقوبات المالية للإنفاق منها على من تقطعت بينهم وبين العمل الأسباب وكانوا معوزين .

ذلك بأن هذا الفيلسوف كان يعرف من الواقع والتجربة أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن هناك من لا يتذوقون أول الأمر حلاوة الطاعة لأمر الله ونهيه ، ومن ثم يكون الخير أحيانا في فرض عقوبات — بعضها مالى — على من لا يقف عندما أمر الله ونهى ، فليس — كما يتوهم — كل إنسان بنزجر لما يخشاه في الآخرة ؟
(الحديث موصول)

(١) من المعروف أن بعض المامضى لها جزاؤها الدنيوى المعروف في كتب الفقه بجانب الجزاء الأخرى . ولكن هنا أريد الإشارة لطرافة رأى ابن سينا في فرض عقوبات مالية مع هذا كله .

القرآن الكريم واللغة

وأيهما يؤيد الآخر

المفتي الدكتور الشيخ عبد الجواد رمضان

يلتقى الباحثون في القرآن الكريم ، بمن يؤمنون به ، ومن غيرهم ، في أنه نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر الذي يقطع كل ريبه في اتصال سنده ، وصحة متنه ، حتى ما كان من قبيل الأداء ، كالمسند وغيره من مقومات ترتيله وتلاوته .

ويفترون ، في أن الأولين ، يؤمنون - مع ذلك - بأنه كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي ، للتعبد بتلاوته ، وللتحدى بأقصر سورة منه ؛ وأنه نزل بلغة قريش ولغات بعض القبائل الأخرى من مضر ، وهي : كنانة ، وأسد وهذيل ، وضبة ، وبنو سعد ، وثقيف ؛ ولاختلاف لهجات هذه القبائل ، اختلفت صور أداء القرآن الكريم ، ونشأت القراءات ، التي هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كيفيتها ، من تخفيف وتشديد ، وترقيق وتفخيم ، وإبدال ، وإمالة ، وغير ذلك ، ولما أمر عثمان رضي الله عنه : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ بكتابة المصحف الامام ، قال للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم .

ويرى الآخرون ، وهم المستشرقون ، ومن أولع بمذاهبهم في البحوث والدراسات : أن القرآن الكريم كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ وأن تواتره الممتدوع به ، يجعله أصدق نص عربي يمثل اللغة العربية الفصحى ، في العصر الذي تلى فيه ؛ ولما كانت ألفاظ اللغة ، التي دونت في معاجمها المختلفة في العصر العباسي وما بعده ، إنما رويت آحادا ، وفي نصوص قوى الشك في أنها منجولة ؛ فأن النص القرآني يجب أن يكون « الحكم » في متن اللغة ، لا أن تكون اللغة « حكما » في نصوص القرآن .

ونحن - وان كنا لا نزعم أن الفاظ اللغة قد رويت بالتواتر - نعلم أن حرص المسلمين في العصر الأول ، على فهم القرآن الكريم ، كان أقوى من حرصهم على الحياة ، وأن سبيلهم إلى هذا الفهم ، ملكاتهم وتبعهم للألفاظ الواردة في كلام القبائل التي نزل القرآن بلغاتها ؛ ومضى الأمر على ذلك ، عصر بني أمية ، وصدرا من عصر بني العباس ؛ حتى إذا اشتد الاختلاط ، وفشا اضطراب الملكات ؛ وأراد علماء البصرة والكوفة - رثا الاسلام ، ومبائة - تدوين اللغة ؛ عمدوا إلى أخلص العرب لسانا ، وأنأهم عن العجمة دارا ، فأخذوا عنهم : أخذوا أكثر اللغة من قيس وتميم وأسد ، وانكسروا عليهم في الغريب والإعراب والتصريف ؛ ثم من هذيل وبعض كنانة ، وبعض طي* ؛ ولم يأخذوا من لخم وجذام ، لمجاورتهم أهل مصر القبط ؛ ولا من قضاة وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام وأكثرتهم نصارى يقرءون بالعبرية ؛ ولا من تغلب والنمر ، لأنهم كانوا بجزيرة - قور - بين دجلة والفرات ، مجاورين لليونان ؛ ولا من بكر ، لمجاورتهم النبط والفرس ^(١) ؛ ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ؛ ولا عن أهل اليمن ، لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة ، صادفهم قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .

وكان الرواة وعلماء اللغة ، يرحلون في طلبها إلى البادية ، ليأخذوها عن مصادرها مشافهة وسماعا ؛ وأقدم من فعل ذلك ، يونس بن حبيب الضبي ، المتوفى سنة ١٨٣ ، وخلف الأحمر ، المتوفى سنة ١٨٠ ، والخليل بن أحمد ، المتوفى سنة ١٧٤ ، وأبو زيد الأنصاري ، المتوفى سنة ٢١٥ . وكانوا يطلبون جفاة الأعراب ، وأهل الطبائع المتوقعة ، ويأخذون عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة ، وبقيت في سرتها وكان الأعراب كذلك ، يطرءون على الحضر من البادية ، فيتلقى الرواة ، وعلماء اللغة عنهم نوادر اللغة وغريبها ، ويحكمونهم فيما اختلفوا فيه ؛ وينزلون على أحكامهم ؛

[١] نبط ، بفتحين — جيل ينزلون البطائح بين العرافين ، والواحد نبطى ، سموا نبطا ، لأنهم استقبطوا ما يخرج من الأرض ، ولغتهم السريانية .

ذلك لأن الأعرابي الفصح ، لا ينطق بغير لحن قومه ، وإن كان أفصح منه ، إلا إذا داخله الضعف ؛ والروايات في ذلك متعاطلة مشهورة .

وكانت الحرب الجدلية اللغوية بين الكوفة والبصرة دائمة الاستمرار ، يزيد بها اشتعالا ، أن أهل الكوفة شيعة ، وأهل البصرة نواصب ؛ وأجمع العلماء على أنه لا معول في رواية اللغة على أهل الكوفة ، لتعلمتهم بالشواذ ، ولوضعهم الأشعار ، من صنع حماد الراوية ، ومعه أبو البلاد ؛ أما أهل البصرة ، فقالوا : إن منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة ، وهم : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والأصمعي ؛ وذكروا أئمة اللغة الذين امتازوا بحفظها ، فقالوا : إن الأصمعي يحفظ ثلث اللغة ، والخليل بن أحمد يحفظ نصف اللغة ، وأبو قيس السدوسي ، تلميذ الخليل ، يحفظ الثلثين ، وأبو مالك بن كركرة الأعرابي يحفظ اللغة كلها ، وكان يحفظ الغريب والنوادر ، وهو المراد من اللغة .

أقول : إن هذا التحرى البالغ في تدوين اللغة ، والتدقيق في تحملها ونقلها ؛ وهذه اليقظة التي لا تنام ولا تغفل عن حياطتها وتنقيتها من الدخيل والمدسوس ، والموضوع إلى المملكات الطبيعية ، أو القرينة من الطبيعة ، التي كان يمتاز بها رواتها ؛ تعطى اللغة من القوة والصحة ، ما يقرب مما يعطيه التواتر ؛ والقرآن هو الذي طرأ على اللغة ، فكانت الحاجة إلى التواتر في نقله ألزم ؛ ثم هو مع ذلك دين أو معجزة مقررة للدين ، بخلاف اللغة ، فإنها - وإن كانت وسيلة له ، واجبة بوجوبه - ثابتة مقررة ، لأنها لسان المتحدث والمتحدى ؛ على أن في تواتر القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين ، تواترا ضمينا للغة ، يقطع كل جدل ، وكل شك في صحتها ، ونهوض حجيتها .

فليشك المستشرقون وغير المستشرقين في بعض الأشعار أو في أكثر الأشعار وليتهموا بعض الرواة أو أكثر الرواة ؛ فإنهم جميعاً إن يأتونا بجديد لم يتنبه له رجال اللغة وعلمائها ، وينهبوا غيرهم عليه ، ويقرروا بإزائه من ضروب الوقاية ، ما يصده وينفيه .

— ونحن معاصر الأزهرين — قد تواردنا على تقديم القرآن الكريم على

كل نص سواه تشريفاً وتكريماً ؛ ومن هذا الذى يقدم كلام المخلوق على كلام الخالق ؟ ! بيد أنى لا أتكلم الآن فى الكرامة والشرف ، وإنما أعرض للقرآن واللغة من ناحية دلالتهما على المنهج العربى ؛ أو بعبارة مشهورة : من ناحية الاستشهاد على قواعد النحو ، وهل النصوص العريضة أقوى فى تأييدها ، أو النصوص القرآنية ؟ !

يقول المستشرقون : النصوص القرآنية أقوى ، لروايتها بالتواتر ، ورواية اللغة آحاداً ، ولأن المسلمين فى العصر الإسلامى وما بعده ، قد منعوا رواية كل ما ناهض الدين من معارضة وغير معارضة ، وأنا أرد الجزء الأخير بأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت فى رثاء قتلى بدر .

هـ لا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى المهادح

ونهى عن رواية قصيدة الأعشى فى مدح عامر بن الطفيل :

علقم ، ما أنت إلى عامر الناقض الاوتار والواتر ؟

ومع ذلك رويت القصيدتان على وجهيهما .

بل لقد روى فى صحيح البخارى بيتاً عبد الله بن الزبعرى فى قتلى بدر .

وماذا بالقلب ، قلب بدر من الخيرات ، والنعم الجسام ؟ !

وماذا بالقلب ، قلب بدر من الشيزى تكلل بالسنام ؟ !

ويقول الأزهريون : النصوص القرآنية أقوى ، لشرف القرآن وجلاله ؛ ثم لوروده على أفصح اللغات العربية ؛ فهم يوافقون المستشرقين فى الحكم ، ويستخرون من مقدماته عندهم ، لما أسلفنا قريباً ، من أن النصوص العربية ليست مدخولة كها ، وأشعارهم ليست منجولة كها ؛ لأن تحرى الرواة ودقتهم ، وضعت لكل عقرب حجرها ، ورفعت لكل آية عليها ، ونصبت لكل درب صواه ، مما أقام منار الحق ، وهدى إلى قصد السبيل .

فأما الضعيف الذى هو أنا ، فإنى - مع استعدادى للرجوع إلى الحق - أرى أن النصوص اللغوية الصحيحة ، أقوى فى الاستشهاد على قواعد النحو ؛ والدليل على ذلك واضح ميسور ؛ فإن القرآن الكريم ، معجزة الرسول الكريم ، رسول

الإسلام : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبرهانه الذي قام ويقوم على صدق رسالته ، بتحديه للعرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، مما قالوه ، ومما تزهلهم نحائزهم ، لأن يقولوه ، من منشور ومنظوم ؛ وهذا يوجب طبعاً ، أن يكون لهم كلام عرف وعرفت أسرارهِ وخصائصه البلاغية ، وأساليبه في الإفصاح والبيان ؛ حتى تكون الحجة أقوى ، والعجز أمامها أبلغ ؛ ولا يضيرنا فتمدان بعض ذلك الكلام ، قل أو كثر ؛ ما دام الخصم لا يستطيع أن يدعى أن جميع كلام العرب قد فُتد ، ولم يبق إلا التمرآن ؛ هذا القليل أو الكثير الذي بقي من كلام العرب ، لا نزاع في أنه الأصل الذي يقاس به القرآن ، حتى تصح الموازنة التي أوجبهما التحدى ؛ وما كان أصلاً ، يجب أن يكون الدليل المقدم .

ومما أستأنس به لذلك ، أن العلماء قد انفقوا على أن القرآن في أعلا درجات البلاغة ؛ ثم اختلفوا : أتنفاوت مراتبه في البلاغة ، أم لا تنفاوت ؟

قال التماضي عياض : لا تنفاوت ، وكل كلمة فيه موصوفة بأنها في الذروة العليا ، وإن كان بعض الناس أحس إحساساً من بعض .

وقال القشيري وغيره : تنفاوت ، ولا ندعى أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة .

وقال الجزري : لو جاء التمرآن كله بالأفصح . لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب ، من الجمع بين الأفصح والفصيح ؛ فلا تتم الحجة في الإعجاز ، إذ يقال - مثلاً - إنه قد جاء بما لا قدرة للعرب على جنسه ؛ كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى : قد غلبتك بنظري ، لأن الأعمى يقول له : إنما تتم لك الغلبة ، لو كنت قادراً على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظري ، أما إذا فُتد أصل النظر ، فكيف تصح مني المعارضة ؟



وإن المستشرقين ومن شايعهم - وإن طعنوا في صحة ما روى عن العرب من الخطب ؛ ومن أشعار الين وربيعه - يتقبلون شعر مضر ، ويعرفونه بخصائص ومميزات لا تشبهه ، ولا تخفى على تمام الأدب ورواته في الجاهلية والإسلام ؛

الخبر باق في الناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ العام بالأزهر

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من أكل طيباً ، وعمل في سنة وأمن الناس بوائقه ، دخل الجنة ، قالوا :
يا رسول الله ، إن هذا في أمتك اليوم كثير ، قال : وسيكون في قوم بعدى » .
رواه الحاكم .

ولا يضيره أن تأخر تدوينه ؛ فإن النقل بطريق الرواية أصح وأفضل عند علماء
الإخباريات ، من النقل بطريق الكتابة ، لضعفها وإشكالها ، بخلوها من الأعيان
والشكل ، وغلبة الأمية على أهل البداوة بوجه أخص ؛ بل إن علماء اللغة كانوا
إذا ارتابوا بفصاحة أعرابي ، ممن يطرءون على الحضر ، وظنوا أن جلده قد لان ،
وذهب جفاؤه الذي يعدونه مادة الفصاحة ، وضعوا له قياساً غير صحيح ، فإن نطق به
طرحوه ، وإذا وجدوا من أولئك الأعراب من يفهم اللحن وعلل الإعراب ،
بهرجوه وزيفوا طبعه ، وطرحوا لغته ، كما يفعلون بمن لم يخلص منطقة . ذكروا
أن أبا عمرو بن العلاء ، استضعف يوماً فصاحة أبي خيرة العَدَوى الأعرابي ،
فسأله : كيف تقول : حفرت الإران ؟ فقال حفرت إراناً . فقال له أبو عمرو :
ألان جلدك - يا أبا خيرة - حين تحضرت ؟ !^(١)

وأخيراً ، رحم الله أبا حفص الفاروق المحدث . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين
ورضى الله عنه ، إذ يقول ما معناه :

عليكم بأشعار العرب ، ففيها تفسير كتابكم ، لأنه إنما نزل بلسانهم .

[١] أخطأ أبو خيرة ، لأن الحفرة التي يخزن فيها ، يقال لها : إرة وتجمع على إرين « كهرة
وعرين » . وأما الأران فغضب النعش . وانظر الجزء الأول من الخصائص ، لأبي الفتح بن جنى .

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا بشيراً بالخير ، ويا دليلاً على الهدى ، ويا داعياً إلى اعتناق الفضائل والمكرمات .

صغت سعادة الدنيا والآخرة فى كلمات ، وجمعت جمال النفس ، وجلال البر ، وخالص العمل ، وحسن الاحدثة ، فى حديثك العذب المذاق ، فوجهت أمتك إلى شمائل الفضل ، محكمات ، منسقات ، تزدان متماسكة متجاذبة ، وتزدان متناثرة متألفة ، فهى كعقود السكواكب المزدهرة فى زرقاء السماء الصافية ، فى تجمعها جمال ، وفى تألقها جلال ، وفى نثارها بريق يزهو به المشرق ، ويعتز به المغرب ، ويتجاوب لمعانه ودورانه بين الجنوب والشمال .

تلكم هى الحكمة فى أسلوبها ، وهى العظمة من ينبوعها ، وذلكم هو المجد فى توجيه الرسول الحكيم .

من أكل طيباً حلالاً ، من عمل يده ، أو مما ورثه ، فى غير حد يتجاوزه ، أو غش يخدع به ، أو غبن يدفع إليه ، فهو الابن المترفع ، وهو الرحيم المتعفف يأبى أن يطعم مما لا يحل له ، ويرفع عن أن يسف إلى دنية يتبلغ بها ، ويشفق أن يتزعزع اللقمة من فم المجهود حتى لا يبيت طاوياً ، ويعف عن كل شبهة تشوب الرزق الحلال حتى يصفو من كل كدورة تتغشاها ، فهو يقنع بالقليل : متمثلاً بقول الشاعر :

إن القناعة والعفا ف ليغنيان من الغنى
فإذا صبرت عن المني فاصبر فتمسد نلت المني

فأما الآثم الظالم ، وأما الشره الطامع ، وأما المتكالب المغرور ، فذلك إلى قسوة عنته ، له سعي من بغض من حوله ، وعليه وزر ييؤ به من سوقه ، وبين يديه غضبة من الله تزلزل من ذات نفسه ، وتذك من حائق جبروته ، وتطوى ما جمع من مال ، فتضيعه عليه فى حسرة ، وفى نكال .

أيها الغاشون : الله ورسوله يبرآن منكم ، والظالمون : ويد الله فوق أيديكم ، ويا أيها الواغون فى دماء الفقراء تمتصونها وتعتصرونها . أيها الراجحون فى السوق السوداء ، المتجرون فيما احتكرتم ، لتأملوا خزائنكم ، وتذهبوا بالكثير

والقليل ، رويداً ، فما أتم بأشد قوة ، ولا أكثر جمعاً ، ممن نكس الله عتوهم ، وخسف بهم ، فاعتبروا ، وازدجروا ، وإلا حلت عليكم كلمة العذاب . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة لحم ودم نبتاً على سحت ، النار أولى به » رواه الترمذى وابن حبان في صحيحه ، وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب . ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له ؟؟ »

* * *

أما من عمل في سنة ، فهو ذلك المهتدى بهدى رسول الله ، الآخذ عنه سمته وتقاواه .

من شأنه : مراقبة في العبادة ، وإحسان في المعاملة ، وزهد عما في أيدي الناس وثقة بالله ، واصطبار على الأحداث والنazلات ، وقناعة تسلم النفس إلى الطمأنينة والأمان ، وترفع عن الدنيا ، وبعد عن الريب ، وحلم لا يضيع حقاً ولا يغرى بمفسدة ، وحزم يضع الأمور في موازينها ، ليقضى لها أو عليها ، وعزيمة لا تقتر ولا تهن حتى تبلغ هدفها ؛ كل ذلك في حسن القدوة ، وجمال الأسوة ، « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » ، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

* * *

وأما من أمن الناس بوائقه « شره » فهو الأمين في الغيب والشهادة ، الكريم صجة ، والسليم طوية ، والكاف عن الأذى لسانه ويده ، وغمزته ولمزته ، الذي لا يقع في عرض ، ولا يتمرغ في كذب ، ولا يستمرىء الطعن والكيد في خفاء ، وفي ندالة ، وفي تبذل ... شأن اللص الجبان الرعيد ، لا يكاد يواجه النور ، ولا يسرق إلا من وراء ستار .

من أمن الناس بوائقه فاز بحبهم ، وزكا بحمدهم ، وظفر بتأييدهم ، وحب الناس آية حب الله ، وحب الله غاية كل مؤمن .

من أمن الناس بوائقه أمن هو في سربه ، وأفسح لنفسه في مكان العزة عند الله - الذى يعز المؤمنين - وبين الأعزة الأكرمين .

فن تحلى بالخير ، وتجمل بالمكرمات ، وصبر ، وصابر ، كان من نفسه فى سمو وقوة ، وفى جمال وجلال .

قال الشاعر :

هى النفس ما حملتها تتحمل	وللدهر أيام تجور وتعذل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة	وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة	ولسكن عارا أن يزول التجمل

وبعد :

فهذه أوصاف ثلاثة ، من تحلى بها دخل الجنة ، مصداقا لهذا الحديث النبوى الكريم الذى لا ينطق عن الهوى .

طيب الطعمة ، وعمل بالسنة ، وكف عن الأذى .

واتمد كانت بشارة هذا الحديث على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام ، أن مد الخير فى الناس ، فلم يقصر الاتصاف بتلك السمائل على من كان فى عهده وبين صحابته - رضوان الله عليهم - حين قالوا : يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير ، قال : « وسيكون فى قوم بعدى » .

سيكون الخير فى الناس ، ويكون البر ، وتكون القناعة ، ويكون الاعتصام بالكتاب والسنة ، فتكون الطعمة حلالا ، والسكسب حلالا ، والقناعة موفورة ، والذمة مكفولة ، والناس فى أمن وأمان .

وليك يا رسول الله ، ثم ليك ؟

المسلمون والتصوير

لحضرة الاستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في الآداب — دبلوم في الآثار

وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

مقدمة :

إن موضوع التصوير في المراجع العربية ، وأقصد بالذات كتب الفقه الإسلامي من الموضوعات غير الوافية . والمستعرض لتلك المراجع يتنقل من كتاب الى آخر دون أن يجد فرقا محسوسا أو تباينا ملحوسا بين كتاب وكتاب . فالمتقدم أخذ عنه المتأخر وهذا الأخير لم يزد على ما نقل شيئا حتمته ظروف الحال ، ولا تغير الزمان والمكان . والمسألة تنحصر في بعض تفسيرات بسيطة سطحية ، أو تأويلات نقلها الخلف عن السلف ، لذلك لا يجد الباحث في موضوع التصوير شيئا له قيمته في تلك الكتب القديمة ، كما لا يجد رأيا يمكن اعتباره فيصلا في المشكلة .

على أنى لا أنشد استكمال هذا البحث في تلك الكتب من الناحية الفنية وإنما أقصد الوصول الى رأى الفقهاء في مسألة التصوير من ناحية تحليله أو تحريره . وأقول رأى الفقهاء لأنى أعتقد أن الإسلام ترك هذا الموضوع لعدم أهميته ، وكل ما هنالك بعض أحاديث تناولها فقهاء المسلمين بالشرح والتعليق فحرموا أو كرهوا أو أجازوا عمل التصوير أو اقتناءها أو النظر إليها .

لذلك أعتقد أنى أقرب الى الصواب إذا قلت : رأى الفقهاء في التصوير ، أكثر من قولى : رأى الإسلام في التصوير ، لأنى لا أجد في القرآن ولا في الحديث نصاً صريحاً يحرم التصوير ولا تفسيراً صحيحاً يشرح الفرق بين التصوير والتماثيل (عمل التماثيل) ولا علة مقبولة لتحريم ما اتفق المسلمون على تسميته بالصور أو التصوير .

القرآن والتصوير :

يهم الباحث في موضوع التصوير أن يعرف ما ورد في القرآن الكريم من

آيات تحرمه أو تحلله ، وسأعرض لتلك الآيات لأصل في النهاية الى مشكلة التحريم أو الإباحة وهل وردت في القرآن أم لم ترد .

لعل أغلب القائلين بتحريم التصوير من المستشرقين يجمعون على أن القرآن قد نص على ذلك في سورة المائدة عند قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلمكم تغفلون » . وقد فسر هؤلاء كلمة « الأنصاب » بالتصاوير ووصفوها بأنها رجس . وقال النسفي : « إن الأنصاب هي الأصنام ، وكونها رجس لأنها تنصب فتعبد » . وإذن يمكن أن نقول إن وصفها بأنها رجس وأمر المؤمنين باجتنابها راجع الى كونها تعبد من دون الله ، فإذا لم تعبد فإنها كما اعتقد لا تكون رجسا ويجوز للمسلمين أن يزاولوها . وقال النسفي أيضا في تفسير قوله تعالى : « وما ذبح على النصب » . أن كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون إليها » . ولعل في ذلك ما يشير الى أن هذه الأنصاب كانت أحجارا ولم تكن صورا ولا تماثيل ، ويؤيد ذلك قول الزمخشري في أساس البلاغة مادة « نصب » : (ونصب حول الحوض نصائب وهي حجارة تجعل عضائد له . وكانوا يعبدون الأنصاب وهي حجارة تصب عليها دماء الذبائح فتعبد) .

وجاء في تفسير القرطبي لتلك الآية ما يأتي : (وقيل « على » بمعنى اللام ، أي لأجلها . قال قطرب قال ابن زيد : ما ذبح على النصب وما أهل به لغير الله شيء واحد) . من هذا يمكن أن نقول إن الآية لا تتعرض للنصب بتحريم أو تحليل وإنما تعني بالذات ما ذبح على تلك النصب وتحرمه لأنه قد أهل به لغير الله سبحانه وتعالى . وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر .. الآية .. إن المقصود بالأنصاب : الأصنام . وقيل هي الزرد والشطرنج . على أن القرطبي مع شهرته بالعناية بتفسير آيات الأحكام ، لم يتعرض لموضوع الأنصاب في هذه الآية وإنما أخذ بالرأى الذى يفسرها بأنها الزرد والشطرنج ، وأوضح ذلك في تفسير قوله تعالى : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » [سورة يونس] .

وتتصل سورة سبأ بهذا الموضوع من ناحية أن التماثيل كانت في شريعة سليمان عليه السلام ، مباحة لا حرمة فيها . قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » .

قال النيسابورى فى شرح كلمة « تماثيل » : والتماثيل صور الملائكة والنبين ، كان يأمر بأن تعمل فى المساجد من نحاس وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم . وقال الألوسى : « وقيل كانت التماثيل صور شجر أو حيوانات محذوفة الرؤوس مما جوز فى شرعنا ، ولا يحتاج إلى التزام هذا لأن حرمة تصوير الحيوان كاملاً لم تكن فى ذلك الشرع . ثم قال : وحكى مكى فى الهداية أن قوماً أجازوا التصوير واحتجوا بهذه الآية » .

هذه خلاصة آراء المفسرين للآيات التى تمس عن قرب أو عن بعد موضوع التصوير ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن القرآن قد نص صراحة أو ضمناً على تحريم التصوير . ولا يمكننا أن نقبل فى تساهل تأويلات المفسرين ، لأن التأويل « وجهة نظر » ووجهة النظر تختلف باختلاف الأفراد والأحوال . ولو أن لمشكلة التصوير ما لغيرها من الأهمية كمشكلة الخمر ومشاكل الزواج أو الطلاق أو الميراث ، لنص عليها القرآن صراحة كما نص على غيرها من مشاكل المعاملات والعبادات .

الحديث والتصوير :

أما فى كتب الحديث فإننا نجد بعض الأحاديث التى قد يشتم منها للنظرة الأولى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم التصوير ونهى عنه . على أن فى هذه الأحاديث تعارضاً وفى بعضها ما يفيد أن النبى قد أقر التصوير ولم ينكره .

والذى يمكن أن يخرج به من يعنى النظر فى هذه الأحاديث - على فرض صحتها - أن النبى كان يخشى أن يرجع الناس إلى الوثنية الأولى لو صرح أمامهم بإباحة الصور والتماثيل . بيد أنه حين وثق من ثبات العقيدة فى نفوسهم لم يأبه لتلك الصور بل أقرها . غير أن الشراح قد أخذوا بفكرة التحريم وبالغوا فيها وتناقلوها بعضهم عن بعض . وسأعرض فى اختصار هذه الأحاديث وتعليق الشراح عليها وما يمكن أن يرد به على هؤلاء الشراح .

الحديث الأول : . . . عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه . وفى رواية إلا قضبه .

قال الشوكانى فى شرح كلمة « تصاليب » أى صورة صليب من نقش ثوب أو غيره ، ثم قال : « والحديث يدل على عدم جواز اتخاذ الثياب والستور والبسط

وغيرها التي فيها تصاوير ، وعلى جواز تغيير المنكر باليد من غير إذن مالكة ، زوجة كانت أو غيرها . وهذا التفسير الذي ذهب إليه الشوكاني بعيد عن روح الحديث ونصه ، فالتصاليب ليس المقصود منها التصاوير وإنما ما كان على شكل صليب لأن ذلك قد يؤكد ، عند ضعاف العقول ، الرأي القائل بصلب عيسى عليه السلام ، فنقض التصاليب لا لسكونه صورة وإنما للفكرة التي يحملها الصليب .

ثم ذهب الشوكاني إلى جواز تغيير هذا المنكر عملاً بالحديث مع أن الحديث لا ينص على هذا ولا يشير إليه . وعلى فرض أن الحديث فيه لفت نظر إلى إزالة المنكر فإنه لا يدل على ما قاله الشوكاني من جواز تغيير المنكر باليد ولو بغير إذن مالكة : زوجة كانت أو غيرها .

والذي أراه أن الشوكاني قد تشدد في شرح الحديث وأغرب في فهمه فحمله أكثر مما يحتمل .

الحديث الثاني : ... عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب .

قال النووي في شرح هذا الحديث (وهو شافعي المذهب) « قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث . وسواء صنعه لما يمتن أو لغيره فصنعتة حرام بكل حال لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار وفلس وإناء وحائط وغيرها . أما تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام . هذا حكم نقض التصوير . وأما اتخاذ ما فيه صورة حيوان ، فإن كان معلماً على حائط أو ثوب أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتناً فهو حرام ، وإن كان في بساط يداس ووسادة ونحوها مما يمتن فليس بحرام . ولا فرق في ذلك كله بين ما له ظل وما لا ظل له . هذا تلخيص مذهبنا في المسألة ، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم . وقال بعض السلف : إنما ينهى عما كان له ظل ، ولا بأس

بالصور التي ليس لها ظل . وهذا مذهب باطل ، فإن السر الذي أنكر النبي صلى الله عليه وسلم الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل .
ويظهر في جلاء ان النووي تشدد إلى أبعد حد وانه ذهب مذهب الشوكاني في الإغراب في شرح تلك الأحاديث وفهما . ويمكن في اختصار أن نرد على مقالة النووي بما يأتي :

لقد حرم النووي تصوير صورة الحيوان على الإطلاق لأن في ذلك مضاهاة لخلق الله تعالى ، وإباح تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وهو يعلم أن هذا أيضاً من خلق الله ، بل ان الله سبحانه وتعالى حينما تحدى الضالين من عباده ، طلب اليهم أن يخلقوا حبة أو ذرة أو شعيرة . فلو أن علة التحريم هي مضاهاة خلق الله تعالى لوجب على النووي أن يقول بتحريم كل ما كان من خلق الله تعالى حتى الشجر وجبال الأرض لأن ذلك صورة مما خلق الله . ولأن العيني يقول في شرح « ومن أظلم ممن ذهب يخلق تكلفي » قالها النبي حكاية عن الله سبحانه وتعالى) ، ان التشبيه في كلمة « تكلفي » لا عموم له ، يعني تكلفي في فعل الصورة لا من كل الوجوه . .

وإذن فالنوي بين أحد أمرين : اما أنه لم يصل تماماً إلى معرفة علة تحريم التصوير (لو أن ذلك التحريم كان موجوداً) حين قال إنها مضاهاة خلق الله تعالى ، وإما أنه تساهل وتهاون حين أباح تصوير الشجر وغيره من النبات وجبال الأرض والظاهر ان علة التحريم هي ما لم يذهب اليه النووي أصلاً إذ ليس في مضاهاة الخالق سبحانه وتعالى والتشبه به في محاولة الاتقان والرغبة في الكمال ما يوجب الكفر أو الحرمان ...

وظاهر أيضاً أن النووي لم يفرط ولم يتهاون حين رأى إباحة تصوير صورة الشجر وغيره لأن ذلك مما لا يعقل تحريمه وإنما التحريم منصب على ما يعبد من دون الله . [يتبع]

(مجلة الأزهر) في هذا المقال دراسة أصولية للبحث عن حل أو حرمة التصوير في الإسلام . ولكننا مع قوتها تحمل التحيص ، فنرجو من عنى من علمائنا المبرزين بمسألة التصوير ، أن يوافقنا برأيه في هذه المسألة .

النفاق الاجتماعي

لفضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم علي أبو الحسب

المدرس بكلية الشريعة

النفاق في اللغة الموت ، والنفاق هو الرجل يظهر خلاف ما يبطن ، وقد اشتهر على السنة المحققين من العلماء أن نفاق المنافق ملاحظ في اشتقاقه « نافقاء اليربوع » وهو جحر تحفره في داخل جحرها المعتاد تختفي فيه حين يراد طلبها ، أو السطو عليها ، وله باب سرى تغشيه طبقة رقيقة من التراب أو الحجارة تضربه برأسها لتخرج منه . والجحر العادي يسمى « القاصعاء » وعلى ذلك يقولون في تحديد معنى المنافق ، يظهر غير الذي يبطن . . ونراهم تركوا في ملاحظتهم - الأخذ أو الاشتقاق - المعنى الأول « الموت » مع أنه أولى بالملاحظة ، وأجدر بالرعاية ، لأن المنافق ميت وإن كان حيا ، وحقير وإن حاول نباهة الشأن ، وسمو المنزلة ، ولا ينسکر ذلك جاحد ، ولا يكذبه مكابر ، وقديما قالوا « مهما تبطن تظهره الأيام » والتاريخ يحدثنا أن المنافقين لم تنطل على الناس حيلهم ، ولم ترج مفترياتهم ، بل كشف الله سترهم ، وأعمى بصائرهم ، وأحبط مكرهم ، وفضح ألعينهم ، وفي القرآن الكريم تعرض لشؤونهم ، وتفصيل لأخبارهم ، وسرد لما كان يبدر منهم من خزي ظاهر ، ونقص مزر ، وتخبط واضح ، وفشل ذريع « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . والتلون شيء آخر يخالف النفاق لأن صاحبه أشبه بالمثل أو « البهلوان » الذي يحقق لعب الأدوار ، وعرض الروايات ، فلا يعدم

أن يلاقى كل إنسان بوجه ، وأن يحدثه بنغم ، وأن يضرب له على الوتر الذى يرضيه صوته ، ويشجيه إيقاعه ، وهو ضرب من الملق ، ونوع من الرياء ، قلبا يكون فى غير المنافقين . وواضح جد الوضوح جعل الله سبحانه المنافقين « فى الدرك الأسفل من النار » وتشديد العقوبة عليهم الى هذا الحد ، لأنهم غامضون فى سيرهم ملتوون فى سلوكهم ، لا تعلن وجوههم عن دخالهم ، ولا تكشف ظواهرهم عن سرائرهم ، بخلاف الكافر فإنه واضح القصد ، بين الغاية ، معروف الاتجاه ، يقول بلسان حاله ، ما يقوله بلسان مقاله . . .

وإذا كان الدين الإسلامى ينعى على الفرد أن يكون منافقا ، ويرى أن وجوده أشبه بوجود الجرائم التى تضر بالجسم السليم ، وتفتك بالعضو الصالح ، وتودى بما يعتز به من صحة ، أو يباهى به من قوة ، فإنه ينعى على الجماعة أكثر وأكثر ، ويرى أن الوزر الذى تحمله متضامة متضامة أشد وأنكى مما يحمله الواحد الدائر ، والإنسان المتكرر ، وكان من السنن الكونية القديمة ، إحلال السخط ، ونزول الصواعق . وقلب المدن ، ومسح الأجيال ، وإشاعة الجذب ، واحتباس المطر ، « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبأس ما كانوا يفعلون » ثم قطع عنا ذلك كله تكريماً لثبينا صلى الله عليه وسلم ، واكتفى بتشديد النكير ، والتوعد بالعذاب يوم القيامة ، إذ يقول « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وذلك لأن الجماعة متى تسرب إليها هذا الوهن ، ودب فيها هذا التخاذل أصبحت غير مرجوة الصلاح ، أو مأمولة النفع ، أو ميمونة النهوض ، وكيف يكون فيها شيء من ذلك والمرضى قد استفحل فى أوصالها ، وتمشى فى مفاصلها . . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يبتلى الأفراد بالشر والخير فتنة ، فإن أشد ما يبتلى به الرجل فى خلقه أن يكون منافقا ، له ظاهر طلى ، وباطن غير رضى ، يعيش بينهما مذبذبا ، ويقضى عمره فيهما مضطربا ، لا يثق أحد به ، ولا يأمن جانبه ، ولا يطمئن إلى معاشرته ، ولا يستريح لقربه منه ، ولسكنه يطارده مطاردة الحشرات ، ويقاومه مقاومة الحيات . . . ولو صح ما يقول علماء الأخلاق من أن كل انحدار

ينحدره الإنسان مظهر لمرض يكمن فيه ، وعلة تعثره ، وضعف يسيطر على نفسه ، وخلل يتحكم في حسه ، هيات أن ينفع فيه علاج ، أو يجدى معه طب ، فإن هذا المرض من الأمراض الخبيثة الملعونة ، لأنها لا تقف بصاحبها إلى حد أن تجلب له مصلحة ، وتدفع عنه مفسدة ، بل يسترسل بها « الميكروب » إلى درجة أوسع ، ومدى أبعد ، وتظل تعمل عملها ، وتؤدى رسالتها في محيط لا نهاية له من الضرر والهلاك .

وقد يكون من الممكن أن يتلافى المجتمع ذلك الإيذاء الذى يناله من فرد شاذ أو أفراد شاذين ، كما نطالع فى المجلات والصحف عن بعض الشعوب المتمدية ، والأمم الراقية من عزلهم المصابين وحرمانهم من الزواج والنسل ، وبهذا تتخلص من كيدهم وتنجو من خطرهم . أما الجماعات نفسها فلا يمكن حين يعثرها هذا الفساد التخلص منها ، والقضاء عليها ، اللهم إلا إذا تداركتها عناية الله بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وما أظن أن يكون شئ من ذلك . . لهذا فإن ما تعانيه البشرية الآن من جهل ومرض ، وفقر وخلاف لا ينتهى ، ونزاع لا ينقطع ، واضطراب شامل ، وقلق دائب ، وعدوان متكرر ، ليس إلا بعض سيئات النفاق الاجتماعى . ومع أن هذا النوع من النفاق مئوس من علاجه ، فى نظر علماء التربية ، فإن الدين يرى أن الولد باعتباره أمانة فى يديه مطلوب منه أن يحفظها ويرعاها ، ويتعهدا بالتهذيب والأدب ، كما يتعهد الفلاح حقلة بالرى والتسميد ، إذا صان خلقه من الانحدار ، ورعى طباعه من الفساد ، وأحاط سلوكه من الالتواء ، خلق منه رجلا كاملا ، وإنساناً فاضلا ، وبهذا يصبح فى البيئات المختلفة جماعات مثالية مرموقة ، يعتمد عليها الوطن ، ويحملها المسؤولية ، ويلقى إليها بالزام . . وفى الحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ولكن الوصولية حين طغت على الناس ، والعيش حين ألحّت مطالبه على الأفراد ، جعلتهم يتذبذبون بين الواجب والمصلحة ، والهوى والضمير ، والعقل والطيش ، ورضى الخالق وسخط المخلوق ، وداعى الإيمان ، وهواتف الشيطان ، فاللهم حقر الدنيا فى أعيننا ، وبغضها إلى نفوسنا ، ولا تجعلنا عبيدها ، ولا تفتننا بها ، وارزقنا فيها التسعة والزهد ، واجعلها تطلبنا دون أن نطلبها وترغبنا دون أن نرغبها . . فإننا شهدنا لها ضحايا منكورة مرذولة ، واستعذنا بك وحدك ، إنك أنت المولى وأنت النصير .

على هامس المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميدة

المدرس بكلية اللغة العربية

نزل أمين الوحي ، وبلغ الصادق الأمين ما بيته التوم له ، وأمره أن لا ينأى في مضجعه ، وأن ينقل مركز قيادته إلى طيبة التي قرر لها أن تكون رداء الدعوة وسند الحق وقصبة الدولة الجديدة ، ومبعث الهدى والعرفان ، ومصدر النصر والعزة ومدينة النور والإسلام .

بعد أن فرطت مكة في مكائنها وتهاونت في مجدها وشرفها وضمت بسيادتها ، وباعت مستقبلها بالاسم المنير بماضيها الخلب الخادع ، وأسرفت وأفرطت وحضنت الضلال ووكرت الحق واستحبت العمى على الهدى ، حتى نفر منها المخلصون وفر عنها المصلحون وقصد إلى غيرها أحباب الله وأعداء الشيطان ، ولم يتم منهم بها سوى من ضيق عليه الخناق طلباً لفتنته ، وطمعاً في صرفه عن عقيدته ، أو من بقى مع محمد صلى الله عليه وسلم رجاء الصبغة أو انتظاراً لأمر الله ، وبقي أبو بكر رضى الله عنه مع الباقيين وكم ألح في الهجرة وألح عليه الرسول في البقاء ، على أن يحظى بالمرافقة ويفوز بالمصاحبة ، فلما جاء الإذن وقيل للرسول : « وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » قال الجبريل : من يهاجر معى ؟ قال : أبو بكر الصديق . فذهب إليه متقنعاً في منتصف النهار في ساعة لم يعتد الذهاب فيها ، وأخبره أنه قد أذن له في الخروج ، فسأله أبو بكر الصبغة ، فأجابه بأنها قد وجبت . فقال أبو بكر : بأبى أنت وأمى خذ إحدى راحلتى هاتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على أن تأخذ ثمنها . وهكذا نلح جدية المعاملة ، وصدق الصبغة ، وإخلاص القلوب ، فلا تضليل ولا طمع ولا خدعة ولا رياء ، ولا ظلم ولا تورط .

وحقق الله أمنية أبى بكر وأمنية الرسول له ، ثم رجع الرسول إلى منزله

واصطحب معه من هو أولى بنصره ، وأحق بالدفاع عنه ، اصطحب علياً بن أبي طالب الرضى الوفى ، أخاه وابن عمه ودخل الحجرة الشريفة .
وما كانت حجرته عليه الصلاة والسلام حصناً يرد طالباً ، ولا قلعة محكمة البنيان ثابتة الأركان ، ولكنها حجرة متواضعة لا تعز على مقتحمها ولا تعجز متسلقيها .

* * *

لقد انبعث أشقياء قريش فى عتمة من الليل إلى بيت الرسول ليقتلوه ، وكان فيهم أبو جهل ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وطعمة بن عدى ، وأبو لهب ، إلى غير هؤلاء ممن رأى بعض الرواة أنهم كانوا مائة عدا . يا عجبا كل العجب ! كثرة من فتيان قريش تكون كتيبة حربية تقف على أبواب الرسول وتحيط بمنزله مدججة بالسلاح ، مؤيدة من قريش ؟ ماذا وقع فى خلدها ، وبماذا صورت محمداً فى هذا الوقت ، وبماذا تصورت حجرته ؟ أظنها قد تصورت له ليثا هصورا أو عدوا غفيرا ، وتصورت حجرته مدينة محصنة ، لذا واجهته بهذه الجموع بعد مشاور وتحالف ، وهكذا كان رسول الله مرهوب الجانب عظيم القدر معجزة فى كل شيء .

* * *

وتطلع أشقى العصابة من ثقب الباب ليرصده ويكشف أمره ، وأمر الرسول علياً أن يرقد فى فراشه ، ويتشح بردائه الحضرمى ، وهم بالخروج على القوم الذين انطفأت أبصارهم كما انطفأت بصائرهم حينما طلعت عليهم شمس الوجود ، ونور الحق وخرج محمد وهو يحثو التراب على رؤوسهم يقرأ قرآنه : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وبقى القوم يترقبون النبى مطمئنين بأنهم سيفصلون فى قضيتهم فصلا يؤمنهم على ماضيهم ويبقى على آلهتهم وضلالهم .

وكم كانت دهشتهم عند ما نفى على من فراشه وعلما أنهم أقاموا الليلة حراساً لعل لا متربصين بمحمد ، وفستد المؤامرة وسقط التدبير ، وعلما أن الزمام

قد أفلت من أيديهم ، وأنه لا أمل لهم بعد إلا إذا أدركوه فحبسوه أو قتلوه .
وإذا ؟!! لا بد من عيون تنشر ، وقصاص يتعمنون الأثر ، وجعل يبذل بسخاء
لمن يرشد إليه ويدل عليه ، وحي الله رسوله ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم قریشاً
وحده ، وأذل المشركين وأخزاهم بخروجه من بينهم وهم لا يشعرون .

وهنا أقف وقفة قصيرة أمام رجلين آخى الله بينهما في الأرض كما آخى بين
ملائكته في السماء ؛ محمد وعلى علما بمؤامرة قریش وما يبتوه من شر بأعلام الله
« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله
والله خير الماكرين » .

ثم هذا على يصحب محمداً ويلزمه إلى بيته وهو يعلم أن الغدر محقق وأن محمداً
مرمى السهام ، وهدف السيوف ، ثم يأتي على إلا أن يقدم نفسه فداء لأخيه ، وهذا
وفاء تتمضيته الأخوة ، ويفعله المخلصون ، ولكن محمداً صلوات الله عليه يأمره أن
يرقد في مكانه وهو الهدف للرامين ، ثم يتلطف ويخرج ليبدأ رحلته إلى دار نصرته
وعزته ، فيا ترى ماذا دار بخلد الرسول في ذلك الوقت بالنسبة لأخيه ؟ لقد قال
لعل قبل : لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، والحق أن محمداً كان مؤمناً بنصر
حقه ، وأن سهام المبطلين لا تصل إلى صميمه ولما تحمله قدماءه ، وعلى رضى الله
عنه جنة الحق . وخيف الباطل ، ومذل الشرك ، ومواقفه في الله لا زالت تنتظره
والله لا يخزي النبي ولا يخذله ، فقد وعده نصره وتأييده ، ثم إن رسول الله صلى
الله عليه وسلم يعلم أنه المقصود المتبوع دون على ، وأن القوم يريدون قتله على
مشهد من بنى هاشم ، لتعلم أن قبائل قریش جميعها قد اشتركت في دمه ، إذن لن
يقتلوه غيلة ، لأن ذلك مفوت لقصدهم مبعد عن غرضهم ، فلا بد من انتظار
يقظته ، وعند ذلك يتبينوه ، ومتى تبينوه عرفوه ، ومتى عرفوه تركوه .

وما أشبه طاعة على والسيوف مصلته ، بطاعة اسماعيل والمدينة معدة ، ففي
كل وفاء وابتلاء ، وفي على تضحية وفداء ؛ ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى بيت أبي بكر ، فخرجا من داره بعد أن جهزا أخف الجهاز ، قالت عائشة رضى الله عنها : « وجهزناهما أحث الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب فمقطعت أسماء بنت أبي قطعة من نطاقها فأوكت به الجراب وقطعت الأخرى قصيرتها عصاما لفم التربة » . ولقبت لذلك بذات النطافين ، وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي هاديا للطريق ومرشدا في السفر ، وهو على دين قومه وأمناء على ذلك وسلمنا إليه راحتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

واتجه الرسول إلى غار ثور ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له الرسول فسأله ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال : يا أبا بكر ، لو شيء أحببت أن يكون بك دوني ، قال نعم . والذي بعثك بالحق ، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر لرسول الله مكانك حتى استبرئ لك ، ويستبرئ ويرجع فيذكر أنه لم يستبرئ الحجرة فيسرع لاستبرأئها ، ثم يدعو رسول الله للدخول فدخلا ، وجدت قريش في طلبه ومعها القافة ووقفوا على الغار حتى قال أبو بكر لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا ، فقال الرسول « ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا » .

ويجتمع القوم ويتفرقون ويتناقشون ويتجادلون ، ومحمد وصاحبه يسمعان حديثهم ، ويدركان نعمة الله عليهما في أن عمَّ أمرهما على المشركين وصرف عن صفيه وصفى صفيه كيد الخائنين ، وكان عامر بن فهير يرضى عليهما غنا لأبي بكر ويستمتع ما يدور بمكة بشأنهما ، ثم يأتيهما بالخبر ، فإذا كان السحر سرح مع الناس ، ومكثا في الغار ثلاث ليال حتى خمدت نار الطلب ، وجاءهما ابن أريقط على ميغاده فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهير ، وسار الدليل أمامهما ، وعين الله تكلأهما وتأييده يصحبهما وأسعاده يرسلهما ويسعدهما ؟

(يتبع)

دَعَائِمُ الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ

ألفه الأستاذ الشيخ هاشم عوني

المدرس في كلية اللغة العربية

لا يزال الناس بخير ما ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر : ذلك أن الأمر بالمعروف والنساء بالحق هما قطب الرحى للسعادة البشرية ، بل هما النخاع الشوكى لحياة الأمم ، ورائد الفلاح لكل شعب ، وإن المنكر داء وييل في البشر ، وسد منيع دون السعادة ، ما باض طائرته في أمة إلا أفرخ شرا ، ولا امتدت جذوره في أرض إلا تفرعت بلاء وضرا .

وقديما علمنا أن الهداة الى الخير في كل أمة هم قلبها النابض ، وروحها الخافق ما أقيم عليهما حارس من العظة والاعتبار ، حتى إذا ما أخذتهم سنة ، أو قعد بهم العجز عن أداء ما حملوا من أمانة لم تلبث الأمة أن تصاب بسكتة القلب ، وتفقد عنصر الحياة ، وبذلك نستطيع أن ندرك ما لأولئك الهداة من خطورة الموقف ، وفداحة العبء ، وما لهديهم - إن صدق - من عظيم الأثر في حياة الأمم والأفراد . وأخلق بالهداية أن تنفذ الى حبات القلوب نفاذ السهم في الرمية ، وأن تقع من النفوس موقع الرحيق الحلال من ذى الغلة الصادى ، لو أنها وليدة أبى عذرها ، وناسج بردها ، فما كل فرس جواد ، ولا كل عارض ماطر .

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل ؟

وخليق بمن يؤمل لغراس هديه أطيب الثمر ، أن يكون هاديا بزيه وهندامه قبل أن يكون هاديا بجواهر لفظه وسحر بيانه ، ولست أريد أن يكون رث الهيئة زرى الطلعة يرتدى الأسمال البالية ، فتصدف عنه القلوب جهوحا من حيث يريد اقتيادها ، بل أن يتخذ طريقا قصدا ، فلا هو خليع البزة يعثر في فضل رياشه ، ولا هو بذ الهيئة يتعثر في أسماله . . . « كلا طرفى قصد الأمور ذميم » .

ولا يعزب عن أذهاننا أن الداعى الى الحق بعرض أن يصطدم بقلوب غلف وآذان موقورة ، فإن لم يكن ذا لسان مشحوذ الغرار ثلثت مضاربه دون نفاذ ، فما أشد حاجته إذأ بمقول سخبان وبديهة عمرو ليكتسح ما عسى أن يستهدف له من حوائل ، قرب لسان أقطع من حسام ، وكلمة أنفذ من سهام .

ولن يكون المرء فى هديه كاملا حتى يكون بمختلف العلوم حافلا ، وبخاصة ذلك التنزيل المحكم ، وسنة من خص بجوامع الكلم ، وروائع الحكم ، فهما لعمري البحر الخضم منه الصدر وإليه الورود ، وحتى يكون له سهم معرفة فى كل ماله مساس بالخلق والدين من مستحدثات الحضارة ، ولولائد الترف ، فيكون أقدر على ضرب الأمثال ، وأعرف بإيراد الشواهد ، فيقع المعنى من النفس موقعه ممن لمس بيده وأبصر بعينه ، وإلا فماذا تجدى من اللسان ذرابته ، ومن الذهن تفتقه إذا تفه الغداء وقلت البضاعة ؟

وإن يك أساة الأجسام قد تعوزهم الدربة والفراهة أن يأسوا قرحة هى بمرأى العين وفى متناول اللبس ، فما ظنك بأساة قوم هم بصدد أن يجتثوا أصول أدواء قد امتزجت بنفوس سقيمة ، فاستحالت فيها الى سلائق ، وتحولت الى طباع ، أنهم لعمري أشد ما يكون حاجة الى حذق ومهارة يتلاءمان مع خطورة الداء ، وتعهده بناجع الدواء ولكن أنى لآسى النفوس أن يضع الهناء مواضع النقب إذا لم يك دارسا عناصر الداء ، مطلعا على خبيثة أمره ، ومداخل طبعه ، وهل يعرف بواطن الأدواء غير أساة الحى ، ويحسن نزع السهام غير براة النفسى ؟ ؟ أجل :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانها

لهذا كان واجبا أن يكون ناصح القوم من سلالة البيئة التى نشأ منها وبعث فيها ، هنالك يقوى على اجتثاث جرائم الفساد من مغارسها ، وعلى نزع بذور الشر من منابتها ، ومن هنا تتجلى حكمته جل شأنه فى جعل رسالته إلى الأمم على لسان رسل منهم ، ذلك أن وسائل الهداية ، ومناهج الرشاد أبقي ما تكون أثرأ فى نفسك إذا جاءتك عن طريق إنسك وابن إنسك ، فإن النفس بابن بيئتها آنس ، وإلى نشء قبيلتها أميل ، وهذا هو سر توفيق الرسل عليهم السلام فى مهمتهم على خطورتها ، ونهوضهم بالعبء على فداحته ، وهاك ترجمة زياد ابن أبيه ، تنبئنا كيف كانت البصرة

جمرة مشتعلة وجذوة متقدة ، تعاقب عليها دهاة الولاة فما كانت تهدأ لها ثائرة إلا ريثما تعجم عود واليها . ثم لا تلبث أن تتوهج نارها ، ويندلع لهيبها رغم ما كان عليه الولاة من دهاء ، ذلك أنهم لم يهتدوا إلى بيت الداء ، ومضوا يعالجون عن غير خبرة :

وإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد
حتى قدمها داهية دهاة العرب ، وباقعة بواقعهم ، زياد ابن أبيه فسل أحقادها ،
وداوى أدواءها ، وألان قناة طغاتها ، وقع نوازي أهوائهم حتى هدأت ثائرتها ،
واستقامت الجماعات على لاحب السن .

فهل تدري رعاك الله ما السر في توفيق زياد إلى ما لم يوفق إليه غيره ؟ إنه كان من قطان البصرة منذ الحداثة ، ومن السابقين الأولين إلى استيطانها ، فكان أهدى سبيلا إلى مواطن الداء ، وأصدق خبرة بناجع الدواء .

وإذا علمنا أن لسلطان الهوى هيمنة على النفوس من قديم ، وأنها بطبعها أسلس ما تكون قيادا لجناة الغواية وغواتها ، وأشد ما تكون نفورا من دعاة الفضيلة وحماها ، كان لابد لسكبح جماحها من خرط القتاد ، أو ازدراد الحسك ، وليس للداعي إلى الحق حصن ترتد دونه سهام غضب الطبيعة البشرية غير درعى الصبر والحلم ، فهما لعمرى القوة الكاسحة ، والحسام القاصم ، بهما تدرع الرسل عليهم السلام ، فكسحوا جيوش الجاهالة ، وقصموا ظهور الصعاب ، حتى أشرفوا على الغاية وبخاصة نبي هذه الأمة ، لقد ذاق في بث دعوته الأمرين ، واحتسى في نشرها عصير الغضا ، وما كان يزيد عنت القوم وعنادهم إلا صبرا وحلما ، كعود زاده الإحراق طيباً ، وما ظنك بمن كان يتعقبه قساة القلوب ، وجفأة الطباع من مشركى العرب بأنواع الأذى ، ويتعاورونه بضروب العذاب ، غير وائين ولا متهاونين فما كان يزيد على أن يدعوا لهم بالهداية والتوفيق قائلا : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ، ولم يثنه كل ذلك قيد أنملة عن المضاء في عزمه حتى تم له الأمر ، وأونس الرشد من الملة ، وهكذا من سار على الدرب وصل .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بمحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
وخليق بمن نصب نفسه لهداية الناس أن يكون سهل الخليفة لين العريكة رحب

الصدر ، لا تستفزه رعونة الجاهل ، ولا تستخفه عوراء البذئء ، يأخذ الناس باللين ، ويجادلهم بالحسنى ، فذلك أعون على إحقاق الحق ، والبلوغ به إلى أعماق النفوس ، وما عهدنا في عالم الجدل أن العنف طريق من طرق المحاجة ، ولا وسيلة من وسائل الإقناع ، كيف ولن أراك تستطيع كبح جماح دابتك حتى تحرك لها حوارها ، ولا أن تسلس قيادها حتى تنزع لها قرارها ، وعلى هذه السنة جرى النبي صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته ، فكان يتحرج جهده أن تأخذه سورة الغضب في محاجة خصومه ، فيتشعب الصدع من حيث يريد رأبه ، حتى في أخرج المواقف يوم زعموه ضالاً لم يأذن للغضب أن يفك له حبوة ، ولا أن تمس له أناة ، وأبى عليه حلمه إلا أن يخاطبهم بقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ، لم يشأ عليه السلام أن يعزوهم إلى الضلال فيثير حفاتظهم ، وهو أحرص ما يكون على استئثارهم وتأليفهم سيما وأن الإسلام كان في نشأته الأولى أحوج ما يكون إلى تكثير سواده ، وبهذه الملاينة وأخذ الأمور بالرفق استطاع هذا النبي الكريم أن يئد الخصومة في مهدها ، وأن يقيمهم على السنن القويم ، ويسلك بهم جادة الطريق ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله .

وهكذا ينال باللين والرفق ما لا ينال بالعنف والقسر ، فما كان زياد ليقمع فتنة البصرة ، ويضبط أمر العراق بحمد السيف ، وقوة الكتائب ولكن بأن فل لها ما بين الذروة والغارب ، وعلى هذا المنوال نسج معاوية رضى الله عنه ، فعد أحد دهاة العرب . وهاك سياسته : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت .

وها هي ذى الدولة البريطانية على جبروتها ، جل اعتمادها في بسط نفوذها على قوة اللين والهوادة ، ولهذا سمي ساستها دهاة العالم ، فأحر باللين من حسام هو في طراوته أمضى شباتا من تلك الصمصامة في يد الزبيدي ، أو القوس في كف باريها .

وما كان غراس الدعوة إلى الله ليثمر في تربة كائنة ما كانت ، حتى يكون في البذر خاصية الإثمار ، فعلى مسدى النصيحة أن يبدأ بنفسه ، فيقوم من أودها ، ويصقل ما صدأ من خلالها . هناك يثمر غرسه ، ويفيد درسه وإلا فمن العبث أن تنسج

لغيرك حلل النصح وأنت عارى السوء ، وتنظم له قلائد الوعظ وأنت عاطل الجيد
ومن البلية أن .

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانها عن غيرها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
لاته عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فلتطبع الاستماع بطوابع وعظك ما شئت ، ولتقرع الأسماع بجواهر لفظك
ما أردت ، ولتأت بالمعجزات من لفظك المختار ، وأساليك المصطفاة ، فلن تجد
إلا وقرأ فى الآذان ، وإلا قلوباً فى أكنة مما تدعو اليه ، ومن بينها وبينك حجاب
ما لم تكن بفعالك أو عظم منك بمقالك .

أرايتك لو انتظمتك حفل من الناس قام يخطبهم واعظ فخلبك سحر بيانه ،
وأثملتكم خمرة إحسانه ، ثم تبعته فاذا هو عبد شهوته ، يسخره أبو مرة أنى شاء ،
وحيثما أراد ، ثم رأيت أنه وقد عاد يصوغ الفرائد وعظاً ، وينظم القلائد نصحا ،
أكنت تعير للفظه أذناً ، وتقيم لموعظته وزناً ؟ إنهم لشر أداة شر على المجتمع ، أولئك
الذين يدعون إلى مكارم الأخلاق ولا خلاق لهم ، ويأمرون الناس بالمعروف
وينسون أنفسهم ، وقانا الله شر ذلك السم فى الدسم ، والطلاء على الورم .

وأحر بالداعى إلى الله ألا يكون هدفاً لسهام الأغراض . تكماً لعوامل
الاهواء ، فما دخل الغرض أمراً إلا أفسده ، ولا عبث الهوى بشئ إلا أفقده ،
وليكن له من العفاف ما يصون له عرض كرامته ، ويحفظ عليه حرمة نصحه وإرشاده
فما انتهك لكرامة عرض تولى العفاف حراسته ، وما هتك لنصيحة ستر تذود عنه
الكرامة ، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه فجنبها مصارع الفضول ، ونأى بها
عن مظان الصغار .

وعلى الجملة إن من أوتى لساناً قادراً ، وبياناً ساحراً ، وذليلاً نقياً ، وقلباً نقياً
لا يخاف فى الحق لومة لائم . ولا يخشى فى الله صولة ظالم ، لا تميله الرغبة عن الجادة
ولا تقصيه الرهبة عن سنن الحق ، وكان حليف حزم وعزم ، خدين حلم وعلم ، فقد وفق
أن يكون من الهداة المصلحين .

أبو العيْناء والضُرير

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

وأبو العيْناء هو ذلك الأديب الممتع الذى قدمت للقارئ الكريم صورة عن نشأته وبعض أخباره . والآن أسوق طرفاً من أخباره آخر فيه أدب وفيه فكاهة ، ثم أعرض لصورة من ملحه وأجوبته ومهاراته ، وصورة أخرى عن بلاغته وما كان له من يد طولى فى كل من النثر والنظم .

وأبدأ بذكر قصة خروجه من البصرة ، وهى قصة تستضحكك وتحملك على روايتها والتحدث بها - حدث جماعة من المؤرخين عن أبى العيْناء ، وحدث عن نفسه وسبب خروجه من البصرة بما ملخصه أن أبى العيْناء مر بسوق النخاسين (بائعى العبيد) يوماً ، فرأى غلاماً ينادى عليه بثلاثين ديناراً ، وهو يساوى ثلثمائة ، فاشتراه وكان يبنى داراً فدفع إليه عشرين ديناراً ليوزعها على الصناع فوزع عشرة منها واشترى بالباقي ثوباً ، فجرى بينهما ذلك الحديث :

أبو العيْناء — من أمرك بهذا ؟

الغلام — يا مولاي لا تعجل فان أهل المروءات والأقدار لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلاً يعود بالدين على موالهم .

قال أبو العيْناء فقلت فى نفسى قد اشتريت الأصمعى ، ولم أعلم قال وكانت فى نفسى امرأة أردت أن أتزوجها سرّاً من ابنة عمى فقلت له يوماً : أفيك خير ؟

فقال إى لعمرى ، فأطلعته على الخبر ، فقال أنا نعم العون لك فتزوجت المرأة ودفعت إليه ديناراً ليشتري أشياء فيها سمك هازبى ^(١) فاشترى سمكاً (مارماهى) فقلت أليس قد أمرتك بشراء الهازبى ؟ قال : بلى ولكنى رأيت بقرات يقول إن الهازبى يولد الصفراء والمارماهى أقل غائلة . فقلت له : يا ابن الفاعلة . أنا لم أعلم أنى

اشتريت جالينوس ، وضربته عشر مقارع ، فلما فرغت أخذني وضربني سبع مقارع وقال : يا مولاي . الأدب ثلاث والسبع فضل وذلك قصاص فضربتك هذه السبع خوفاً عليك من القصاص يوم القيامة . فغاضني جداً فرميته فشججته ففضي من وقته إلى ابنة عمي وقال لها : يا مولاتي . الدين النصيحة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا ، وأنا أعلمك يا مولاتي أن مولاي قد تزوج واستكتمني ، فلما قلت له لا بد من تعريف مولاتي ضربني بالمقارع وشجني . فنفعتني من دخول الدار والارتفاع بشيء مما فيها ووقعنا في تخليط ، حتى طلقت امرأتى الثانية وصلاح أمرى مع ابنة عمي وسمت الغلام الناصح . فلم يكن يتهيأ لى أن أكله ، فقلت أعتقه واستريح فلعله أن يمضى من عندى إلى النار . فلما أعتقه لزمى ، وقال الآن وجب حقلك على . ثم أراد الحج فجهزته وزودته فغاب عني عشرين يوماً ورجع فقلت : لم رجعت قال : قطع الطريق وفسكت فإذا الله يقول (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) فكنت غير مستطيع وفسكت فإذا حقلك أوجب فرجعت . ثم أراد الغزو فجهزته أيضاً لذلك وشخص ، فلما غاب عني بعث كل ما أملكه بالبصرة من عتار وغيره وخرجت منها خوفاً أن يرجع . حكاية طريفة تصور لك ما كان من أمر غلام يساوى ثلاثمائة فباعه أصحابه بثلاثين لأنه مختل التفكير ، كثير الخلاف على غزارة مادته وقوة حجته ، ولطف مأخذه ، وتصور لك ما يكون من أمر المرأة في مختلف الأزمان وتحكمها في أمر الرجال وسيطرتها إلى ذلك الحد الذي جعلها تخرج الرجل من بيتها فلا يملك إلا أن ينزل على طاعتها ، وتصور لك ضعف أبي العيناء أمام قوة ذلك الغلام الذي أخرجه من مستقره بعد أن أعيته الحيل في أمره .

وانتقل أبو العيناء إلى بغداد ، فأخذ ينمى معارفه ويوسع مجال ثقافته . ويجمع الناس من حوله فيحدثهم بما فتح الله عليه من رواية بعيدة المدى وأدب جم وفير وكان ذلك بعد بلوغه سن الأربعين ، وقد تم نضجه وبلغ أشده واستوى ، ويظهر أنه مكث بها مدة لا تقل عن مدته بالبصرة ، وخرج منها في آخر حياته ليوت بالبصرة ، وقد ذكر أنه كان في سفينة تحمل ثمانين نفساً وأنها غرقت فاسلم غيره على عمي بصره وقلة حيلته ، فلما صار إلى البصرة مات . فسبحان مصرف الكائنات .

ولعل القارئ الكريم في شوق أن يرى بعض ما اشتهر به ذلك الرجل

من ملح ونوادر وأجوبة مسكّنة ، وفي كتب الأدب من ذلك الشيء الكثير بعضه في معجم الأدباء وبعضه في زهر الآداب وبعضه في تاريخ بغداد وفي تاريخ ابن خلكان وغيرها .

وفي بعض ذلك الطريف المقبول وفي بعضه الماجن وفي بعضه الفاحش الممسوخ وسأحاول أن أصور للقارئ وضع هذا الرجل بما لا أخرج به عن حد الكمال . وتستطيع أن ترد هذا المعنى إلى جهات ثلاث : محادثاته مع المتوكل الخليفة ، الذي كان يحبه ويؤثره ، ومحادثاته مع الولاة والوزراء ، ومحادثاته مع غيرهم من الدهماء أو من أصحابه .

فأما محاوراته مع المتوكل فنذكر منها ما يأتي :

قال له المتوكل يوماً هل رأيت طاليباً (من آل علي) حسن الوجه قط فقال متخلصاً من الورطة يا أمير المؤمنين . رأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا .

المتوكل — لم تسكن ضريراً فيما تقدم وإنما سألتك فيما سلف .

أبو العيناء — نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه .

المتوكل — تجده كان مؤجراً وتجدك كنت قواداً عليه .

أبو العيناء — وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين أتراني أدع موالى على كثيرتهم وأقوم على الغرباء .

المتوكل — أسكت يا مأمون — أبو العيناء — مولى القوم منهم .

قال المتوكل : أردت أن أشتى منهم به فاشتى لهم منى .

وهذه محادثة تدل على مبلغ استهتار المتوكل وتنزله ، وعلى غلوه في التحامل على العترة الكريمة .

وقال له المتوكل يوماً : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فقال على البديهة « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

وقال له في حديث جرى : إن إبراهيم بن نوح النصراني واجد عليك فقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . وقال له إن جماعة من الكتاب يلومونك فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لئامها

وقال له أكان أبوك في البلاغة مثلك فقال: لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عبداً له لا يرضانى عبداً له .

وكان في عهده رجل اسمه نجاح بن سلمة ، وشرب نجاح هذا مع موسى بن عبد الملك فاغتاله موسى .

فلما اجتمع أبو العيناء بالمتوكل قال له المتوكل ما تتمول في نجاح بن سلمة ، قال ما قال الله تعالى : « فوكزه موسى فتعضى عليه » . فعاتب بعض الوزراء أبا العيناء على ذلك الإغراء .

فقال له أبو العيناء والله ما استعذبت الواقعة فيه حتى ذمت سريره لك فأمسك عنه خوف لسانه .

قال له المتوكل من أسخى من رأيت ؟ قال ابن أبي دؤاد فقال المتوكل : تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السكر ، فانظر كيف تدارك الموقف على نفسه . وكيف دافع عن قوله قال : يا أمير المؤمنين إن الصدق لا يكون في موضع من المواضع أنفق منه في مجلسك . وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد . وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون وجود ابن أبي دؤاد منسوب إلى المعتصم . فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله إلى السخاء فذلك سخاؤك . قال صدقت فن أبخل من رأيت . قال موسى بن عبد الملك قال : وما رأيت من أبخله قال : رأيت يخدم القريب كما يخدم البعيد . ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة ! قال قد وقعت فيه عندى مرتين ، فאלقه واعتذر إليه من غير أن يعلم أنى وجهتك . فصار إلى موسى واعتذر كل منهما إلى صاحبه ثم لقيه موسى فقال قد اصططحنا فإلك لا تأتينا . قال « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس » (يريد نجاحا السابق) فقال موسى ما أرانا إلا كما كنا .

ولما قيل له إن المتوكل قال لولا أنه ضير لنادماه . قال إن أعفانى من رؤية الألهة وقراءة نقش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة .

وأما أحاديثه وأجوبته مع الوزراء والكبراء فكثيرة ، نذكر منها أيضاً ما لم يشتد خروجه . قال له عبيد الله بن سليمان الوزير في مرة : أعذرنى فإنى مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتاج إليك . وأنشده :

فلا تعتذر بالشغل عنا فإنما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال : يا سيدى قد عذرتك فإنه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك .
 ودخل عليه يوماً فشكا إليه حاله . فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن
 المدبر . قال : كتبت إلى رجل قصّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة
 محن الدهر . قال : أنت أخذته . قال : وما علىّ أعز الله الوزير في ذلك قد اختار
 موسى قومه سبعين رجلاً فما كان منهم رشيد . واختار النبي صلى الله عليه وسلم
 ابن أبى سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً . واختار على بن أبى طالب أبا موسى
 حاكماً فحكم عليه .

ولما استوزر صاعد عتب إسلامه صار إليه أبو العيناء فتميل له يصلى فعاد
 فتميل يصلى فتمال معذور لكل جديد لذة .

ووعده ابن المدبر ببغلة ، ثم لقيه في الطريق وقال له كيف أصبحت ؟ قال :
 أصبحت بلا بغلة ، فضحك وبعث بها إليه - وسئل يوماً عن مالك بن طوق فقال :
 لو كان في زمن بنى إسرائيل ونزل ذبح البقرة ما ذبح غيره ، قيل فأخوه عمر فقال :
 كسر اب ببيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً - ومن ملحه مع سائر
 الناس أن رجلاً زحمة بالجرس على حمارة فضرب بيده على أذن الحمار وقال يا هذا
 قل للحمار الذى فوقك يتبول : الطريق .

ومر يوماً على دار عدو له فقال : ما حال أبى محمد ، قيل على ما تحب قال :
 فما لى لا أسمع الرنة والصياح . وقيل له : إلى متى تهجو الناس وتمدحهم فقال ما دام
 المحسن يحسن والمسيء يسيء وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تلسب النبي والامى .
 وقالت له قينة ، هب لى خاتمك وأذكرك به فقال أذكركى أنك طلبت منى ومنعتك
 وكان له صاحب يلتمس بابن مكرم وله معه مهاترات كثيرة يحسن بالتقارىء أن يرجع
 إليها فى كتب الأدب فقد كدت أخرج إلى حد الإملال على أن فيها ما لا يليق .

وأما بلاغته فتتجلى لك فى بعض ما مر بك من محادثاته وله كتب طريفة
 أدبية تزيدك إيماناً ببلغة فضلته فى هاته الناحية ، قال صاحبه محمد بن مكرم الكاتب :
 من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع
 فقد ظلم . كتب إلى عبد الله بن سليمان يطلب غلاماً اسمه كافور . قد علمت
 أصلحك الله أن الكريم المنكوب أجرى على الأحرار من اللئيم الموفور ، لأن

اللهم يزيد مع النعمة لؤماً ، والكريم لا يزيد مع المحنة إلا كرمًا . هذا متكل على رازقه ، وهذا يسيء الظن بخالقه ، وعبدك إلى ملك كافور فقير ، وثمنه على ما اتصل بي يسير ، لأنه بخدمته السلطان يعرفني الرؤساء والإخوان فإن سمحت به فتلك عادتك ، وإن أمرت بأخذ ثمنه فما لك مادق أدام الله دولتك ، واستقبل بالنعمة نكبتك . فأمر له به .

وجدير لعمرى بمثل هذا الأسلوب أن يعطف النفوس الكريمة . وبين يدي الآن عدة من رسائله أخفها وأمتعها ، وأعذبها وأظرفها ، وأدلها على ما كان فيه من عبث ورقة ما كتب به إلى صديق له ولي ولاية يقول فيه : أما بعد ، فإنني لا أعظك بموعظة الله ، لأنك عنها غنى ، ولا أخوفك إياه لأنك أعلم به مني ولكني أقول كما قال الأول :

أحار بن عمرو قد وليت ولاية فسكن حذرا فيها تخون وتسرق
وكاثر تيمنا بالغنى إن للغنى لسانا به المرء الهيوبة ينطق

واعلم أن الخيانة فطنة والأمانة حرفة ، واجمع كيس . والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية . فاذا ذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً . فإن من الدور إلى الدور وأيام الولاية رقه ، فتنبه قبل أن تنبه ، وأخو السلطان أعنى . عن قليل سوف يبصر ، وما هذه الوصية التي وصى بها يعقوب بنويه ، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل وترك الآجل .

وأما شعره فقد ذكر صاحب زهر الآداب (ج ١٨ ص ٣٠٢ فما بعدها) طائفة صالحة دلت على أدب جم ، وذوق لطيف في أسلوب مكتنز ليس فيه فضل عن معناه ، متماسك قوى ولا سبيل إلى الاستيعاب ، فقد ضاق المجال ، ولكني أتعجل للتماريء الكريم بعض ما اختار منه . قال يهجو أسد به جوهر .

تعس الزمان فقد أتى بعجائب ومحار سوم الفضل والآداب
وافى بكتاب لو انطلقت يدي فيهم رددتهم إلى السكتاب
جيل من الانعام إلا أنهم من بينها خلطوا بلا أذئاب
إلى أن قال :

ثكلتك أمك هبك من بهر الفلا ما كنت تلفظ مرة بصواب

بَابُ الْأَسْبَاطِ وَالْفَتَاوَى

حكم الله في المسلم يقاتل المسلم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية سابقاً وعضو جماعة كبار العلماء

تضافر الكتاب والسنة وإجماع الأمة على حرمة دماء المسلمين . وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم (جمع بشرة ؛ وهي ظاهر جلد الإنسان) عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ » .

وروى البخارى في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حمل علينا السلاح فليس منا » ، وفي رواية مسلم « من سل علينا السلاح فليس منا » . وفي رواية أحمد « من رمانا بالنبل فليس منا » . والمقصود من ذلك أن من حمل من المسلمين سلاحاً أو نبلاً أو أى أداة للقتال يريد به قتال أخيه المسلم بغير حق مشروع فليس من الإسلام ولا من أهله فى شىء . ففيه دلالة - كما قال الحافظ ابن حجر فى الفتح وغيره - على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه ، لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاقل دونه لا أن يربعه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله ، فضلاً عن قتله . وهذه الحرمة وهذا الإثم العظيم والوعيد الشديد فيمن لا يستحل ذلك ، فأما من يستحله مكابراً للشارع فإنه يكفر باستحلال الحرام وفى البخارى من رواية أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يُشر أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده (يغريه حتى يحمله على قتل أخيه) فيقع فى حفرة من النار ، فقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن مجرد الإشارة بالسلاح إلى الأخ المسلم خشية أن يضله الشيطان فيصيب أخاه فيقع فى النار وفى رواية عنه « الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى الآخر بحديدة » .

وقال أبو بكر بن العربى : إذا استحق الذى يشير بالحديدة هذا اللعن

فكيف بالذى يصيب بها ؟ وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديداً ، سواء أ كان جاداً أم هازلاً .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . ولا يخفى ما فيه من المبالغة في الزجر . والتحذير من الإقدام على قتال المسلم .

وفي حديث ابن عمر « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض » ، فسمى الرسول من يفعل ذلك كافراً مبالغة في التحريم والتحذير .

وأعظم من هذا إثماً وأشد تحريماً في دين الله وشرعة الإسلام من يقدم على قتال أخيه المسلم في صفوف أعداء الإسلام الذين يحاربون الشعوب الإسلامية لاستلاب حرياتهما ، والاستيلاء على أوطانها ، ويتشتمون بالحديد والنار منازل الأهلين الآمنين لاستعمار البلاد واستعباد العباد ، ويكيدون للإسلام وأهله بمختلف الوسائل الشريرة ، فإن موالاتهم ، وإسداء المعونة لهم في هذه الحروب - ولو مع غير المسلمين - بأية صورة من الصور ، فضلاً عن القتال في صفوفهم من أشد المحرمات وأكبر الكبائر ، وقد يكون كفراً بواحاً إذا اعتقد المسلم حله . وذلك لما فيه من القوة لهم ، ومن تمكينهم من أعناق المسلمين ، ورقاب الأرضين ، وإذلال الموحدين ، والتقضاء على دين رب العالمين .

هؤلاء الأعداء ، حرب على الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان ، فتحرم موالاتهم والثقة بهم ، وتحرم إعانتهم ونصرتهم في السلم والحرب ، وخاصة إذا أرادوا المسلم على أن يقاتل أخاه المسلم ، أو يكيد له أو يضعف من شأنه ويخرب في دياره ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقال تعالى : (إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا) . وقال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،

ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير) .

أما غير المسلمين الذين ليسوا حرباً علينا فيجوز مخالفتهم وعقد المعاهدات معهم ما دام في ذلك خير لنا ، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ، فإذا انقلب حرباً بعد ذلك فلا عهد ولا مخالفة بل حرب ومناجزة .

واعلموا أن مع الصبر الظفر ، ومع الحذر السلامة ، وبالجهد في سبيل الله تنالون إحدى الحسنيين لا محالة .

وإن الذين يؤيدونكم وينصرونكم في جهادكم من القبائل هم المؤمنون حقاً ، الصادقون قولاً وفعلًا ، الذين صلحت قلوبهم وسلمت ضمائرهم من فتنة الخيانة وموالات الأعداء والخائنين .

أما أولئك الذين آزروا العدو وأيدوه وشهروا السلاح في وجوه إخوانهم المسلمين فإن استحلوا ذلك كانوا مرتدين عن الإسلام ، خارجين عن حظيرته ، وأدنى حالهم الإثم العظيم ، والعذاب الشديد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

على المسلم أن يحمل السلاح للدفاع عن دينه وماله وعرضه ووطنه ، فإن مات دون ذلك فهو شهيد ، سواء أكان المعتدى عليه مسلماً أم غير مسلم ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

أعلام الأهرس

السيد على أبو النصر المنفلوطي

المتوفى سنة (١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ م)

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

ولد بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وقدم إلى القاهرة صبياً ، ثم التحق بالأزهر لطلب العلم فيه . وقد شب مفطوراً على حب الأدب ، والتزود من فنونه ، فبرع في قرص الشعر يافعاً ، ونظم الأزجال حدثاً ، ولم يلبث أن ذاع صيته وتسامع الناس به ، وكان طيب المفاكهة والمجالسة ، لطيف المسامرة والمؤانسة . حاضر الذهن قوى الجدل ، لا يغلب في حوار ، ولا ينهزم في مناظرة ، وكانت له مطايبات حافلة بالنسكت الأدبية مع الحشمة ، والحذر مما تأباه النفوس الآلية ^(١) . فكانت له مكانة عند أولى الأمر وذوى الجاه ، يحلون قدره ، ويلبون شفاعته ، اتصل بالبيت العلوي من عهد محمد علي باشا إلى توفيق ، ورحل إلى القسطنطينية رحلتين أولاهما في عهد محمد علي باشا سنة ١٢٦٢ هـ حيث احتفل السلطان عبد المجيد بإعذار ^(٢) أنجاله ، وطلب من محمد علي باشا أن يوفد للحفل وفداً من العلماء والأمراء ، فكان الشاعر في طليعة الذين أوفدهم محمد علي باشا إلى القسطنطينية ، وقد مدح شيخ الإسلام بقصيدة استجادهما إذ قدمها إليه ، وبكى متأثراً ببعض أبياتها ، ثم سأله هل قلت في القسطنطينية شيئاً؟ فأجابته بأن له بيتين يستحي أن يعرضهما (لكونهما من زيف الكلام) فقال تسمعهما إن شئت ، فقال :

وكنا نرى مصر السعيدة جنة ونحسبها دون البلاد هي العليا
فلما رأت دار الخلافة عيننا علمنا يقيناً أنها هوى الدنيا

[١] مقدمة الديوان للرحوم أحمد باشا خيرى

[٢] أعذر الغلام ختنه كمدره يمدره . وللقوم عمل طعام الختاق .

فتبسم شيخ الإسلام وقال له : إن البيتين جيدان من جهة الأدب ، ولكنك في مدحك القسطنطينية فضلت مصر عليها ، لأنك جعلت مصر هي العليا ، والقسطنطينية هي الدنيا ، وفي عليك أن الدنيا تأنيث الأدون ، فيفيد النظم أن القسطنطينية دون مرتبة مصر ، فتمال الشاعر مجيئاً « حب الوطن من الإيمان » .

وأما رحلته الثانية إليها ، فكانت في عهد الخديوى إسماعيل سنة ١٢٨٩ هـ حيث استصحبه إليها في خلافة السلطان عبد العزيز ، وكان مقدمهما إلى القسطنطينية متفقاً مع الاحتفال بعيد الجلوس ، فأنشأ الشاعر قصيدة بليغة مطلعها :

تبسمت الآمال عن لؤلؤ التطر ففاح شذاها في الحقائق كالعطر
وكان مصراع تاريخها (جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر) .

ومما اتم به أنه كان راجح العقل ، نافذ الرأي ، عالماً بالأحوال السياسية ، خبيراً بشئون الأمم ، محباً لتربية الأمة ، داعياً لتثقيفها ونهضتها .

وكان شعره شتياً غير مجموع ، حتى قيس له المغفور لهما محمد باشا سلطان وحسين بك حسنى ناظر المطبعة الأميرية إذ ذاك ، فجمعا أشتاته ، وضما متفرقه ، وعهد إلى المرحوم محمد افندى الحسينى رئيس مصححى المطبعة بجمعه فى ديوان صدر بخطبة الأخير ، وبترجمة للشاعر بقلم المرحوم أحمد باشا خيرى ناظر المعارف العمومية فى ذلك الحين .

هذا عدا ما كان له من الطرف والملح والموايل والأزجال وغير ذلك ، مما عبث به يد التفريط والإهمال .

شعره :

أقيس شعره بشعر عصره ، فأراه شبيهاً به ، موافقاً له ، يتجه متجهه ، وينزع نزعه ، وهو يميل إلى الجناس لکن فى غير استكراه ، ويطلبه لکن فى غير تكلف شديد ، ويورى غير أنه لا يلحف فى رجاء التورية ، ولا يرتصد لطلبها ، وتدور الصنعة فى شعره غير مفتون بها ، وإن تهيأت له فغير إفراط ولا إسراف ، أما التاريخ الشعرى ، فهو مغرى به متهافت عليه ، ملتزم له فى الجمرة العظمى من شعره ، فمن تجنيسه قوله :

فى الحان قد جس معسول اللهى وترا فانفض لتسمع ألحان الصبا وترى

فقد أوقع الجناس بين (الحان) وهو محل بيع الخمر، و (أحان) الصبا جمع لحن، كما أوقعه بين الوتر الذي هو شرعة القوس ومعلقها الواقع مفعولا، والفعل المضارع (ترى) مقرونا بواو العطف، ويبدو لك تكلفه الجناسين، إلا أنهما أقرب إلى القبول، ومن نجنيسه أيضاً قوله :

أبدا تقلب فكرتي أيدى الآسى طوعا لأمر الدهر أحسن أو أسا

فقد أوقع الجناس بين لفظ الآسى بمعنى الحزن، والفعل الماضي (أساء) محذوف الهمزة ليتم الجناس بحذفها، والجناس هنا مقصود للشاعر، إلا أنه لم يبلغ من الثقل مداه. ومن تجنيسه أيضاً قوله :

كم ذا أحاول نصحا بالعظاات وفي ظني وجود سميع بالعهود وفي

فالجناس بين حرف الجر (في) مقرونا بالواو ولفظ (وفي) الصفة المحذوف إحدى يائي، وهو أقل ثقلا من صاحبه الماضي، ومن جناسه المقبول قوله :

رياض المجد أهدت نفح طيب فقلت مهنئا يا نفس طيبي

ويغلب أن يلتزم الجناس في مطالع قصائده، وهو في هذا الموضع أكثر طلبا له، واستشرافا إليه.

ومن التورية التي يستعملها في شعره قوله :

على مضض صبرت وكم أدارى بتاريخ الغرام وأنت دارى

يجاذبني الهوى فأذوب وجدا ويسلبنى النوى ثوب اصطبارى

وعذالى دروا ما بي فلاموا كأن هوى الأحبة باختيارى

وإن سألو عن اللامى ودمعى أقول كلاهما لا شك جارى

فقد ورى بقوله (جارى) عن اسم الفاعل من جرى بمعنى سال، والاسم الذى هو بمعنى مجاور مضافا لياء المتكلم.

ويقول في رجل يدعى العلم يسمى (النخلى) :

بروض الفضل أغصان خلت عن حلية الفضل

سألناها أجابتنا دهتنا غلطة (النخلى)

فيحتمل أن يراد « الشجر » ، أو اسم الرجل ، ومما يورى به قوله :

حروف دمعى وسائل والدمع جار وسائل

أى أن قطرات دمه الشبيهة بالحروف وسائل تترضى الحبيب ، فقد جانس بين (وسائل) الأولى جمع وسيلة و (وسائل) الثانية التى هى اسم فاعل من سال بمعنى جرى مقرونا بالواو ، ثم فى وسائل الثانية تورية إذ يحتمل أن تكون اسم فاعل بمعنى جار أو اسم فاعل من سأل بمعنى طلب .

ومن شعره التاريخى قوله :

يا من بطالعه الاسمى حوى شرفا يزىن بدر علاه قبة الفلك
أنت الذى بحلى الأخلاق زدت علا لا زلت ترقى بفضل المنعم الملك
إسعاد نجمك إذ لاحت بشائره أرخت أوليت بكباشى وأنت زكى
ولا شك أن هذا التاريخ أضعف الشعر وحال دون روعته وجماله ، ولكنها سنة العصر الذى أغرق فيه وغالى ، وله فى تاريخ لحية :

لما اذهى روض المحاسن والبها وبدا به الريحان وهو شريف
خط العذار كما تحب صحيفة تاريخها صان الجمال نظيف

وهو شعر ضعيف متهافت كما ترى ، ومما لا أسيغه ، وصف الريحان بالشرف ولست أدري متى يكون الريحان شريفاً أو غير شريف ، فلعله يقصد أن الريحان وهو أخضر الأغصان يبدو كالعمائم الخضراء التى هى سمة الأشراف .

وقد يولع بالتاريخ ، فيجعل فى كل شطر تاريخاً كما قال :

بشير الهنا لاحت يمين قدومه بدور بها نور البشائر قد صفا
وشعره أنذاك لا روعة فيه ، ولا تنفس منه روح الشعر بحال .

غير أنه يتناول كثيراً من الأغراض فى شعره ، ويتسع أفقه لألوان مختلفة من الشعر فيمدح ويهنيء ، ويرثى ويعتب ، ويشكو ويشكر ، ويتغزل ويصف وينصح ، وتجد فى شعره الحكم والمدائح النبوية ، والقصائد الوطنية ، والخريات بغير اغراق ، كما تجد فيه الوداعة والحماسة ، ويتناول الإلغاز بل يكثر منها فيجىء شعره بها معمى مستغلقا ، ويطول نفسه فى بعض القصائد حتى لتبلغ مائة بيت

إلا أن شعره أقرب إلى شعر العلماء منه إلى شعر الفحول من الشعراء ، وشعره وسط بين الإجادة والغثاء ، والضعف والقوة .

فما قاله متغزلا :

إلى الأوطان يجذبني الهمام	ولى قلب يقلبه الغرام
وفى دمعى غرقت ونار وجدى	بتذكار الديار لها ضرام
ولى فى كل منزله حديث	إذا كررته ناح الحمام
وما عندى من الأشواق خاف	ولو أبديته لبهكى الغمام
ويوم وداعهم كانت حياتى	مكابرة وللمدح انسجام
أراهم أينما كانوا بقلبي	وفى نومي وهل يغنى المنام
وقائلة إلام تحن شوقا	وتعلو جسمك المضنى السقام
أتحسب أن من تهواه باك	عليك ولو أضربك الهيام ؟
فتملت لها فديتك إن نومي	على لبعدهم أبدا حرام
وهل يجدى أخوا الوجد المعنى	إذا ضنوا بزورته اعتصام ؟
دعنى فالنصيحة لو أفادت	لضاع الحب وانقطع الملام
كلفت بحبهم فألفت سهدى	ولم يخاطر على جفنى المنام
أهيم بهم ولى فيهم شجون	إذا ظعنوا بقلبي أو أقاموا
أخلأى احفظوا عنى حديثاً	يسر به المقلد والإمام
قتيل الشوق يحيه التمدانى	وينعشه التواصل لا المدام
فان مر النسيم بكم سلوه	فأخبار الهوى منه ترام
وساعات الوصال كلح طرف	لدى المضنى ويوم البعد عام

هذه أبيات ساقها الشاعر متغزلا ، فجاءت من أجود ما قال رقة معنى ، وخفة روح ، ووضوح أسلوب لم يسع الشاعر فيها وراء صنعة لفظية أو محسن من المحسنات البديعية ، ولم يمس طرفا من ذلك إلا الجناس الذى شكك شكاً وتناول به برفق فى عجز البيت الأول بين قلب ويقلبه .

ومما قاله فى شكوى الزمان :

بشكوى الليالى كيف لا أتعلم وديمة دمعى دائماً تنهل

رمانى زمانى فى مكاييد مكره وفى وهمه أنى له أنذل
أكابد ما لا يستطاع من الأسى وأحمل منه فوق ما يتحمل
وجربت أبناء الزمان بأسرهم فلم أر منهم من عليه يعول
وسالمت إخوانا بدالى أنهم على نقض بنيان الصداقة عولوا
فيادهر ماذا تبتغى من مجرب وقد شاع فى الآفاق أنك تجهل
تقدم من لا يستحق وتزدرى بمن هو أولى بالجميل وتعجل
تبرأت من أهل المعارف والتقى وهم دولة الإسعاد إن كنت تعقل
وقربت أرباب الجهالة للعلا كأنك لاستظهارهم تتجمل

فهذه الأبيات من أجود ما قيل فى شكوى الزمان صدرت من الشاعر مصورة عبث الزمان به وتجهمه له ، وما يكابده من أساء الذى لا استطاع ، وما يحمله مما يشق حمله ، وما لقيه من إخوان جربهم فلم يرفيهم من عليه المعول ، وإخوان سالمهم لما بداله من تعويلهم على نقض الصداقة ونسكت العهد ، وكان جميلا من الشاعر ما بينه من جهل الزمان من تقديم من لا يستحق والزراية بمن هو أولى بالجميل ، وبراءة الزمان من أهل المعارف والتقى ، الذين هم دولة الإسعاد لو كان يعقل ذلك ، وتقريب أرباب الجهالة وإيثارهم بالعلا كأنه يتجمل لاستظهارهم ، فهى أبيات صادقة فى شكوى اللىالى وصدق التجربة ، وغدر الإخوان ، وعبث الزمان ، كل ذلك مسوق بأسلوب غير نازل ، ورصف رصين لم يتهالك على محسن ولا زخرف .

ومما قاله يمدح به النبى صلى الله عليه وسلم :

إذا هتفت بمدحتك الموالى وأنشد شعره فيك البديع
وحدث عنك من يروى حديثاً وصاغ من الثنا ما يستطيع
فما بلغوا اليسير ولو أطالوا وكيف وأنت فى الأخرى شفيع ؟
إليك شكائى من كل ذنب وحصن حماك لى حرز منيع
ومن يرجوك يسعف بالأمانى ومن قصد المشفع لا يضيع
ملأت سرادقات الكون فضلا وجاهك سيدى جاه رفيع
فن للذنبين سواك يرجى إذا ما استعظم الهول القطيع ؟

وهو شعر سهل رصين تتمثل فيه روح الشاعر المؤمن الذي يلتمس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون له حرزاً منيعاً ، وشفيعاً يغفر به كل ذنب ، وإن كان في نفسى شيء من اللفظ الأخير (الفطيع) . وقال يعاتب بعض أصحابه :

لعمرك ما البواتر كالعصى ولا السطرف المذل كالعصى^(١)
ولا فلق الصباح إذا تبدى لذى بصر يتقابل بالعشى
أراك رفعت أدنى الناس قدراً وآثرت الذنى على على
شقق عصا الوفاق وبعثت غبنا صواب الرأى بالخطأ الجلى
وبدلت الأعزة من قریش وأبناء الأماجد بالذنى^(٢)
ستعرف ما جهلت إذا التمتينا وبان لك الجبان من الكمى^(٣)

ولعل هذه الأبيات من أحسن شعره وأبلغه ، وأحفلها بالتشبهات المحكمة ، وفيها جباس مقبول بين حرف الجر (على) و (على) وتورية لطيفة في لفظ « على » الذى يحتمل أن يكون وصفا مقابلا (للذنى) وأن يكون مشيرا الى اسم الشاعر (السيد على) . ومن رثائه قوله :

أنظرى أعينى الدوامى دواما إن غيث الكرام يأتى ركاما^(٤)
واستمدى من حبة القلب دمعا فلعل الدموع تروى أواما^(٥)
ومن السهد للجفون اكتحالا ودعى عنك فى الدياجى المناما
واسكبي الدمع خفية وجهارا واستحلى من البكاء الحراما
واقربى فى صحيفة الدهر سطرا نمقته يد القضاء فاستقما
واكتبى ما جتته أيدي المنايا حيث لم تبق للأنام إماما

فهذه من أصدق المراثيات وأرقها ، وأخصبها معنى ، وأحفلها تصويرا للجزع والأسى ، ولم يكن الشاعر منصرفا فيها الى الطلاء اللفظى اللهم إلا ما يكلف به من الجناس فى مطالع قصائده ، فإنه أوقع الجناس المتكلف بين (الدوامى) و (دواما) و (الكرام) و (ركاما) ، ولكنه لم يستنفد جمال الأبيات ، ولم يذهب بروعتها ؟

(١) البواتر السيوف القاطعة ، الطرف الكريم من الخيل - المذل السهل المنقاد .

(٢) الذنى : كرضى الرجل الفاحش . (٣) الكمى : كغنى الشجاع أو لابس السلاح .

(٤) الركام السحاب المترام . (٥) الأوام كغراب ، العطش أو حره .

تسمية الأسماء بغير أسمائها

لفضيلة الأستاذ الشيخ برر المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبي حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدي رضى الله عنهما قال : « استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللثبية على الصدقة ، فلما قدم ، قال هذا لكم وهذا أهدي لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد : فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله ، فيأتى فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت إلى ؛ أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتیه هدية إن كان صادقا ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه ، إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بغير آله رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبحر ، ثم رفع يديه حتى رأتى بياض ابطنيه ، فقال اللهم هل بلغت . »

شرح المفردات : الرغاء . صوت الإبل . الخوار صوت البقر . تبحر تصيح والعيار صوت الغنم .

هناك جم غفير من الناس يطيب لهم أن يضحكوا على الناس أو يضحكوا على أنفسهم ، فتراهم يسمون كثيراً من الأشياء بغير أسمائها ، فهم يسمون الذل تواضعا والكبر ترفعا ، والإسراف جوداً ، والبخل اقتصاداً ، والكذب سياسة ، والغش حصافه وهؤلاء ، إن كانوا يؤمنون بما يقولون ، فقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ، ولبس عليهم أمرهم من حيث لا يشعرون ، وأما إن كانوا لا يؤمنون بما يقولون ، ولكنهم يموهون على الناس فهؤلاء قوم منافقون ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، وهؤلاء جراء على الله ، وهذا الضرب من الناس بصنفيه عرفهم الإنسان قديماً وحديثاً ، ومن هؤلاء رجل ولده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية الصدقة ، فاستغل نفوذ ، ومكاته ، وتقبل الرشوة عن ولى أمرهم . وسأها للرسول

الله صلى الله عليه وسلم هدية، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفرق بين الهدية التي لا تصدر إلا عن حب خالص وود قديم، ولا يراد بها إلا توثيق العلاقات بين المهتادين، وبين الرشوة التي هي أكل لأموال الناس بالباطل، ولا دفاع لها إلا الرغبة في جاه المرتشى أو الرهبة من بطشه وجبروته، وجعل الفرق بين الرشوة والهدية فرقاً واضحاً جلياً، فكل ما يقدم إلى من يتولى عملاً عاماً إن كان يقدم إليه قبل أن يتولى هذا العمل، فهو هدية حتماً، لم يرد بها صاحبها جلب مغنم أو دفع مغرم، وأما أولئك الذين لا تساق إليهم الهدايا إلا إذا أسندت إليهم الوظائف العامة فإنما تساق إليهم الرشوى مسماة باسم الهدية، وإن استطاعوا في الحياة أن يفلتوا من قبضة القانون، فلن يستطيعوا النجاة من الله سبحانه يوم القيامة، فسيعرضهم الله على ملائكة من الأولين والآخرين، وقد صور النبي صلوات الله عليه فضيحتهم بقوله « فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله تعالى يحمل بعيراً له رغاء، أو بتمرة لها خوار، أو شاة تبعر » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الرشوة بأسلوب النفي (لا أعرفن) مع التأكيد وفيه من المبالغة ما فيه. كأن هذا الأمر لا ينبغي أن يقع، لمنافاته لما يجب أن يكون عليه المسلم الصادق، وتصوير النبي الأكرم لهذه الفضيحة الشذجة هذا التصوير البالغ مما يبعث الحشية في قلوب هؤلاء المتساهلين وليس هناك ما يمنع عملاً أو نقلاً من أن هذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بحقيقة ما يلتمه هؤلاء المرتشون يوم القيامة. ولما كانت الرشوة من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تصيب المجتمع، فتقوض أركانه، رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء، ثم قال تلك التملوة المشهورة التي لا يتو لها - كما يعلم المتابعون للسنة - إلا في الأمور الهامة: « اللهم هل بلغت ».

وكيف لا تكون الرشوة من أخطر الأدواء التي تهدد كيان المجتمع، وهي متى انتشرت في أمة فقد استحقت سخط الله ومقته، وكتبت بيدها كتاب شقائها، فهي تجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وترفع قوماً حقهم أن يخفضوا، وتخفض قوماً حقهم أن يرتفعوا، وعندئذ يوسد الأمر إلى غير أهله، ومتى وسد الأمر إلى غير أهله في أمة فقد حانت ساعتها وذهبت ريحها، ولما كانت الرشوة في أية صورة من صورها وبأى اسم من أسمائها، خطراً على المجتمع الإسلامي ووبالاً على الأمة المحمدية جميعها فقد لعن الله الراشي والمرتشى، وطردهما من رحمته، ووكلهما إلى نفسهما، فقد روى

أبو داود والترمذى بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشئ والمرتشى » .

أما الراشئ ، فإن لم يكن صاحب حق فقد جمع الى جريمة الظلم جريمة التعاون على الإثم والعدوان ، وإن كان صاحب حق ولا يصل الى حقه إلا بالرشوة فقد أعان هذا الظالم وهو المرتشئ ، وأفسد خلقه وجعله يستمرى الرشوة من كل من له عليهم نفوذ أو سلطان ، وفى هذا من الفساد ما فيه . وأما المرتشئ فإنه يأكل أموال الناس سحتاً وينشر بين المجتمع فساداً ويعطل مصالح العامة ، هذا ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لسكل موظف من موظفى الدولة ، وما لا يحل من الأموال فى كعبة جامعة ، فتمال فيما رواه عنه عبد الله بن برمدة عن أبيه رضى الله عنهما : « من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » والغلول الخيانة فى الأموال العامة ، وقد شدد الله فى أمر الغلول كثيراً ، فتمال تعالى « وما كان لنبى ن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وقى الله هذه الأمة داء الرشوة وزكى نفوس بنينا وطهر أخلاقهم حتى يكونوا أهلاً لما هياهم الله له من خلافة فى الأرض .

خفى حنين

كان يزيد بن حاتم الأزدي والى مصر مدحه ربيعة بن الرائق ، واستبطأ عطائه فقال : أرانى ولا كفران لله راجعاً بخفى حنين من نوال بن حاتم فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأمر بإحضاره اليه ، فلما دخل على الأمير سأل هل قال غير هذا البيت ؟ فأقسم له بأنه لم يزد عليه شيئاً . فقال له الأمير : لترجع بخفى حنين ملثماً مالا ، وعمل بما وعد . فقال فيه ربيعة الرائق :
بكى أهل مصر بالدموع السواحيم غداة غدا منها الأغر بن حاتم
ومنها :

وشتان ما بين يزيد بن حاتم فى الندى
فهم الفتى الأزدي لإنفاق ماله
يزيد سليم والأغر بن حاتم
وهم الفتى القيسى جمع الدراهم
ولسكنى فضلت أهل المكارم
فلا يحسب التتنام أنى هجوته

كيف ينهض المسلمون

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي رفاعي

مفتش الوعظ والارشاد

النهضة كلمة رائعة تحمل كل عناصر الحياة . والنور . والخلود . ومن عناصرها الحية الخالدة يكتب تاريخ الأمم التي تنظم نفسها في أمم التاريخ ! . فما هو إذن زعيب المسلمين من النهضة ، ولما أى مدى بلغت بهم همهم فيها ، وما هو حكم التاريخ العادل إذا أراد أن يقول فيهم كلمته .

أعتقد أن الإسلام إنما جاء ليحكم ويسود لأنه دين مشحون ببارود القوة الحافزة الملتهبة ، والتي تدفع أتباعه - دائماً - إلى الأمام . هذه هي الحقيقة الكبرى التي ضلت بين ركام الأحداث الجسام في عصور المسلمين المظلمة ، وكادت تغيب في جماجم الموتى الأولين ! . وإذا كان التاريخ شاهد عدل لا يزيغ رأيه ، ولا يضل حكمه ، فلنسأل التاريخ إذن كيف نهض المسلمون ليجيبنا التاريخ في غير حذر ولا مواربة ولا مداجاة ، وليفتح أعيننا على القوة الكامنة في طبيعة الإسلام حتى نعرف في بساطة ويسر كيف ينهض المسلمون .

يقول التاريخ : أن أول باب يدخل منه الداخل إلى ساحات الإسلام الفساح هو التوحيد .. مبدأ ، وعمقيدة ، وخلق . أما أنه مبدأ فذلك ما يشهد به واقع حياة المسلمين الأولين ، ويشهد له القرآن الكريم « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » وهو سر النواة التي أخرجت هذه الدوحة الكريمة المتشابكة لتتفأ الدنيا ظللالها الوارفة ، وتتنفس في جوها المعطر الشميم ، وناهيك بدين يقدر معنى وحدة المبدأ بين أتباعه ، فيعلن في سمو بالغ أن الوحدة إيمان ، والفرقة كفر « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، أى بعد جماعتكم ووحدتكم متفرقين . » لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض . »

نعم إنه مبدأ كريم أشرته قلوب المؤمنين بهذا الدين ، حتى صرخ في عروقهم النابضة بالقوة والحياة أن حطموا هذه الفرقة الطاغية المبددة . ثم انفذوا باسم الله إلى أقطار هذه الأرض الباغية ، لتصفوا أقدام الناس على الطريق المستقيم ، فإذا الكلمة واحدة ، والسبيل قاصدة ، والشمل جميع .

وأما أنه عقيدة فهذا هو السمو الذى ساد به المسلمون ، ليس فى الأرض آلهة ولا جبابرة ، وليس فى الناس سادة وعبيد .. وإنما هو إله واحد تعنوا له الجباه وتختب له القلوب ، وتخضع له الرقاب « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » والناس - بعد - فى عبوديتهم له سواء . فأى دين يغرس فى عقول أتباعه ، وقلوبهم هذه البذرة المباركة النامية ويوجههم إلى (توحيد) عقيدتهم هذا التوجيه السديد ، إنه الإسلام الذى يضع لأتباعه أعظم ما عرفت الأرض من قواعد النهضات . وأما أنه خلق فذلك لأنه يرسم للسلوك الإنسانى طريقه المعبد بين عقبات المجد الكاذب ، وشعابه الماتوية ، ليرسم المسلمون وحدهم مناهج العزة والكرامة والرجولة التى لا يستعبد بها بشر لبشر مثله (الناس سواسية كأسنان المشط) ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

فلا تسأل كيف نهض المسلمون . ولكن سل عن سر هذا النهوض .

يجب أن نواجه الحقائق لنكون - على الأقل - منطقيين مع أنفسنا ! إن هذه الغشاوات المعتمة التى تحجب عن العيون ضوء الإسلام الحنيف ، هى التى هوت بالمسلمين إلى الحضيض ، وكادت تعفى على آثار نهضاتهم التى وقف التاريخ فى محرابها خاشعاً يرتل ألحان العظمة والجلال . وأن هذه الحفائر العميقة التى ملئت بالقدر العفن من واردات الغرب ، ثم غطيت بالقش الرخيص لتسكبوا فيها الأقدام ، هى علة ما يشكو منه المسلمون .

والإسلام دين يؤمن بالقوة ، ويحشد أجناده - دائماً - على الثغور « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

ويقدس أسبابها ووسائلها ، ويصورها فى معارضها الحافلة ، الحاشدة ، ويضفى عليها من المهابة ثوباً فضفاضاً نفخ الحواشى « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا فالمعنيرات صبحا ، فأثرن به نفعاً فوسطن به جمعا » .

والإسلام يدعو إلى الحرية ، ويحطم في عنف وقسوة قيود الذلة والعبودية والاستخذاء ، ويوجه نظر المسلمين دائماً جهة السماء « والله العزة والرسول والمؤمنين » .

والإسلام يهتف بالحق أبداً ، ويصوغ أغنيته العذبة من لحنه الأخاذ « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » . « ذلك بأن الله هو الحق وإنما يدعون من دونه الباطل » .

الحق ، القوة ، الحرية . هي تغاريد الحناجر المؤمنة بالعشى والأبكار .
وهي أنشودة الكتائب المجاهدة التي غيرت مجرى التاريخ .
وهي ألحان الفطرة النقية التي لم تعبث بها أيدي الشياطين .
وهي دعائم النهضة الزاكية التي لفتت أنظار الدنيا ، وهزت أرجاء العالم الكبير .
لقد كانت تعاليم الإسلام الخالد هي مبعث نهضة المسلمين بالأمس ، ولن يكون غيرها أبداً مبعث نهضتهم اليوم .. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

رسالة

قدم جرير على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : مالى وللشعر يا جرير إني لفي شغل عنه . فأجابه : يا أمير المؤمنين إنها رسالة من أهل الحجاز . قال : فهاهما إذن ، فقال :

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى	أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابته السنة الشبهاء ما ملكت	يمينه فحناه الجهد والكبر
ومن قطع الحشا عاشت مخبأة	ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة	قامت تنادى بأعلى الصوت يا عمر

الفقه السياسي عند المسلمين

لفضيل الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

يرى الإسلام أن الأرض لله ، والخلق لله ، فالدولة لذلك هي دولة الله ! فهو وحده سبحانه السيد المالك ، وليس لغيره أن يستعبد الناس ، أو يتعبد لهم بشيء ما ، وقد جعل الله لنفسه العزة والسيادة على كل شعب في أى بقعة من أرضه ثم جعل هذه السيادة للشعب نفسه بعد الله ورسوله ، فالشعب في كل دولة هو خليفة الله ونائبه في عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، وهو المسئول عن تصريف أمور الدولة نيابة عن مالكها سبحانه وتعالى ، ولما كان الشعب مجتمعاً لا يمكنه أن يقوم بالتكاليف المنوطة به ، فقد أيسح له أن يختار من يحمل عنه التبعة والمسئولية ، في التيام بالتكاليف ، وتدير أمر الجماعة ، وهذا المختار من الشعب هو حاكم الشعب ، ويراد منه ، قيادة المجموعة قيادة خيرة رشيدة تحقق الخير للجميع ، وتكفل لكل فرد أكبر قسط ممكن من حياة حرة كريمة سعيدة .

والحاكم الذى يختاره الشعب لهذه القيادة الرشيدة ، وكيل عن الأمة التى اختارته ، وتختاره الأمة بالبيعة ، وهى تعاقد بين طرفين هما : الأمة والحاكم ، أو بعبارة أدق بين كل فرد مبايع وبين الحاكم . وهذا التعاقد يلزم الحاكم والمبايع بالتزامات محددة ، معروفة ، مفهومة من الطرفين ، يتعهد الحاكم بمقتضاه بالسير فى حكمه على القواعد التى رسمها (القرآن والسنة) وهما دستور المتعاقدين المتفق على احترامه والتزام العمل به ، وهو دستور عام خالد ، ثابت دائم ، ليس لأحد المتعاقدين تصرف فيه بزيادة أو انتقص ، لأن مشرعه هو السيد المالك العليم الخبير ، بما يصلح دولته ، وما لا يصلح لها ، وتتعهد الأمة (أو المبايع) للحاكم بالطاعة فى كل ما يصدره وفقاً لمبادئ هذا الدستور المحترم من الطرفين ، غير مستبد برأيه . بل عن ملاء وشورى بين المسلمين ، ولما كان كل فرد فى الأمة مسؤولاً عن الأمة وحكمها ، فإنه يتقدم للبايعة ويقول : « أبايحك على كتاب الله وسنة

رسوله وصالح المؤمنين ، وليس لذلك معنى غير أنه يوكله عن نفسه فى القيام بتدبير أمر الدولة الذى هو حق لكل فرد مسئول فيها ، وليس على الموكل « المبايع » سوى الطاعة فى حدود الدستور المتفق عليه ، وإذن فالبيعة هى عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب ، من أفرادها المسئولين عنها ، وظاهر جدا أن عقد الوكالة ليس عقد تمليك للوكيل ، ولا يقتضى تمليكا ، وإنما هو عقد إذن بالتصرف باسم الموكل فى حدود ما رسمه للوكيل ، وأذنه بالتصرف فيه ، ثم هو عقد مؤقت مشروط . فهو خاضع لرقابة الأصيل ، فإن رأى الوكيل ملتزماً للشروط المحددة ورأى أن استمرار العقد فى صالحه ، أبقى الوكيل إن شاء ، فإن رأى الوكيل قد جانب الشرط وخرج من العهدة ، عزله إن شاء إذا لم يعزل من نفسه ، كذلك لا ينطوى عقد الوكالة على تنازل من الأصيل عن شىء من حرياته أو سلطانه أو حقوقه كلها أو بعضها ، وإلا كان العقد عقد تمليك ، ولهذا اتفق فقهاء الإسلام على أن الحاكم وكيل عن الأمة خاضع لرقابتها ، ولها عليه سلطان التولية والعزل والتوجيه ، ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وهى السلطة الكبرى التى جعلها الله لأذى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده (١) .

وفى هذا يقول الإمام الكاسانى رحمه الله : « وكل ما يخرج به الوكيل عن الوكالة يخرج به القاضى عن القضاء ، لا يختلفان إلا فى شىء واحد ، وهو أن الموكل إذا مات ، أو خلع ، يعزل الوكيل ، والخليفة إذا مات أو خلع ، لا تعزل قضاته وولاته ، ووجه الفرق أن الوكيل يعمل بولاية الموكل ، وفى خالص حقه ، وقد بطلت أهلية الولاية (يعنى بموت الموكل أو خلفه) فيعزل الوكيل ، والقاضى لا يعمل بولاية الخليفة وفى « خالص ! » حقه ، بل بولاية المسلمين ، وفى حقوقهم وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ، لهذا لم تلحقه العهدة كالرسول فى سائر العقود والوكيل فى النكاح ، وإذا كان رسولا كان فعله (أى فعل الخليفة) بمنزلة فعل عامة المسلمين ، وولاتهم بعد موت الخليفة باقية فيبقى القاضى على ولايته ، وهذا

بخلاف العزل . فإن الخليفة إذا عزل القاضى أو الوالى ينعزل بعزله ، ولا ينعزل بموته ، لأنه لا ينعزل بعزل الخليفة أيضاً فى الحقيقة بل بعزل العامة ، لما ذكرنا من أن توليته بتولية العامة ، والعامة ولوه الاستبدال دلالة لتعلق مصالحهم بذلك فكانت ولايته منهم معنى فى العزل أيضاً ^(١) .

ومما يمتنع بصحة فكرة وكالة الحاكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها ، أن جميع الفقهاء ، اعتبروه واحداً من أفراد الأمة فى كل تصرفاته ، وألزموه بمثاله وجنایاته ، فهو يؤخذ بالتقصص إذا قتل عامداً ظالماً ، ويلزم بالأموال التى يتلفها ، وتقطع يده إذا سرق ، ويجلد أو يرحم إذا زنى ، والأمة هى التى تحاسبه وتعاقبه ، يقول الإمام القفال من الشافعية : « إن الخليفة إذا زنى يقيم عليه الحد ، من ولى الحكم عنه . وهو الأمة » ^(٢) .

ولدينا نصوص كثيرة فى هذا المعنى الجليل ، الذى جاء به الإسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية والتى تشير إليه عبارة « الأمة مصدر السلطات » التى يجب أن تعدل هكذا « الأمة قيمة على الحكم ، ومصدر سلطات الحاكم » .

مما تقدم يرى القارىء أن عبارة « السلطان ظل الله فى أرضه » عبارة لا تستقيم فى ظاهرها مع روح الإسلام ونصوص العلماء ، كما فهم ذلك بعض الناس ، وجعلوا بمقتضاها للحاكم - فى نظر الإسلام ظلياً - حقاً مقدساً . وقالوا لهذا : إن نظرية الحكم فى الإسلام تشبه نظريات الحق الملكى المقدس عند الفرائعة والفرس والروم ، مع تعديل يسير اقتضاه تقدم البشرية ، وتطور الزمن .

وفى اعتقادى أن هذه العبارة التى جاءت لأول مرة فى بعض كتب المنصور العباسى ، قد انتقلت إلى العباسيين عن التفكير الفارسى الذى كان يقدر الأكرسة قديماً ، أو عن الحكام الرومانيين فى العصر المسيحى الميروفنجى ، وهى فى الحقيقة تشير إلى النظرية الكهنسية التى تزعم أن الله قال للقديس بطرس « إن ما حللته فى الأرض فأنا أحله فى السماء ، وما ربطته فى الأرض فأنا أربطه فى السماء » بمعنى

[١] البدائع لأبى بكر السكاسانى الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ - ٧ ص ١٦ .

[٢] معنى المحتاج على المنهاج للخطيب - ٤ ص ١٤٠ وتحفة المحتاج للبهيمى - ٩ ص ١١٥ .

أن البابا هو ظل الله فى أرضه ، وكل أوامره مقدسة لأنها وحى السماء ، وقد قامت الكنيسة بمساعدة شارلمان على إعلان الدولة الرومانية المقدسة ، بتوجيه ملكا للرومانيين سنة ٨٠٠م ، وأرادت من هذا التتويج أن يكون لها سلطان على الامبراطور المقدس الذى توجه البابا المقدس الذى له سلطة الحل والربط فى الأرض وفى السماء ، ولا نظن المنصور العباسى على كبر عقله ، وسعة علمه ، وقربه من مصدر النور الهادى . كان يقصد شيئا مما تعنيه نظريات الحق المقدس ، لأن ذلك يناقض مبادئ الإسلام ويجافى النصوص الصحيحة ، فالرسول عليه السلام يعلن أنه : « ليس ملكا ولا جباراً فى الأرض » وإنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ، وعمر بن الخطاب يخطب فى الناس قائلا : أيها الناس لست ملكا فأستعبدكم بملك أو جبرية ، إنما أنا واحد من الناس ، وإنما مثلى منكم ومن أموالكم كمثل ولى اليتيم منه ومن ماله « يعنى حسن الرعاية والارشاد إلى الخير ، لا سيادة له عليهم كما أن ولى اليتيم لا سيادة له عليه ولا يملك شيئا من ماله ، فان احتاج أكل بالمعروف من مال اليتيم وكان ذلك كأجر على حسن الرعاية ، وغاية ما هنالك أن الحاكم وكيل عن الأمة النائية عن الله فى عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، فهو يأمر وينهى بسطان الأمة الذى هو سلطان الله . وهو مع ذلك خاضع لرقابة الأمة فى كل تصرفاته ، وعلى هذا فلا صلة إطلاقا - بين نظرية الإسلام فى الحكم ، ونظريات الحق المقدس القديمة ولا نظريات الكنيسة المسيحية ، وإذا ثبت أن المنصور العباسى كان يعنى ما يشير إليه ظاهر العبارة ، فالمنصور فرد مسلم غير معصوم ، وليس حجة على الإسلام .

بقى أن نتحدث عما اعتبره الكتاب المحدثون شها بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، هذه النظريات سواء منها الأغريقى القديم ، أو المسيحي الحديث تقوم على أساس تنازل من الأفراد الذين يؤلفون دولة فى أى مكان . عن بعض سلطاتهم وحررياتهم للحاكم . ليكون له من مجموع هذه « التنازلات » سلطة ممتازة تأمر فتطاع ، وقد رأى الفيلسوف الانجليزى « هوبز » أن هذا التنازل من الأفراد ، تنازل نهائى فى غير مقابل ، وليس لهم حق الرجعة فيه ، فالشخص الذى يملكونه هذه السلطة الممتازة ، هو حاكم دائم مالك لهذه السلطة ، وليس للشعب أن يسأله

عن تصرفاته ، وقد استخدم هوبز هذه النظرية لتأييد الملكية المطلقة المستبدة السائدة في عصره ، وجاء بعده الفيلسوف الانجليزي « لوك » فقال : ان تنازل الأفراد عن بعض حرياتهم وسلطاتهم تنازل حقيقى ، يقتضى أن يكون الحاكم مالكا للسلطة الممتازة ، ولكنهم إنما تنازلوا في مقابل رعاية الحاكم لمصالحهم ، ومنع تصادم حريات الأفراد ، واستخدم هذه النظرية لتأييد فكرة الملكية الدستورية المستتيرة السائدة في إنجلترا إذ ذاك .

وفي القرن التاسع عشر الميلادى جاء الفيلسوف الفرنسى « روسو » فنفى بهذه النظرية نحواً جديداً ، فقال : إن تنازل الأفراد ليس تنازلاً نهائياً ، وإنما هو تنازل مشروط بأن يكون الحكم لصالحهم ، ولهذا لهم حق الرجعة في هذا التنازل ، إذا لم يحقق الحكم مصلحة الجماعة ، ومعنى هذا أن الحاكم خاضع لرقابتهم ، فاذا انحرف بالحكم عن صالح المحكومين ، فمن حقهم أن يخلعوه .

وقد استخدم روسو . هذه النظرية لتأييد سيطرة الشعوب على الحكومات ، في الوقت الذى كان الشعب الفرنسى يتهاى فيه للثورة على الملكية المطلقة ، على أن فكرة حق الأمة في عزل الحاكم المعوج لم تأت صريحة في نظريات التعاقد كما جاء بها الإسلام . هذا وأنت ترى أن فلاسفة التعاقد قد اتفقوا على أن الأفراد قد تنازلوا عن بعض حرياتهم وسلطاتهم ، في مقابل أو في غير مقابل ، تنازلاً نهائياً أو غير نهائى ، والذين جنحوا منهم إلى تأييد سلطة الشعب على حكامه اضطروا إلى النص على توقيت مدة الرئيس المنتخب للجمهورية . حتى لا يرى نفسه ملكاً ، أو يراه الناس ملكاً ، فقرروا انتخاب الرئيس كلما انتهت مدة الرئاسة ، وفي هذا ما فيه من إشاعة الاضطراب والقلق ، كلما تجدد انتخاب الرئيس . وكثيراً ما تسود الاحن والضغائن وتنقسم الأمة إلى شيع متحاربة . من جراء تنافس المرشحين للرئاسة .

وأما نظرية الإسلام ، فليس فيها أفراد تنازلوا عن شئ من حرياتهم وسلطاتهم وإنما لدنيا أمة مكلفة وكلت عنها بعض أفرادها لرعاية صوالحها ، وليس في الوكالة تمليك ولا مظنة تمليك ، والبيعة عتد بقتيد الحاكم بدستور خاص ، ويحدد له حدود مهمته ، فإذا التزم شروط العتد فله حق الطاعة على المحكومين ، فإذا جاوز ما عين

له وخرج على الشرط ، انعزل من الوكالة وخرج ، من العهدة بنفسه أو بعزل الشعب الذى ولاه ، وفى هذا يقول الصديق رضى الله عنه للناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عايكم » وأساس هذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولا شك أن عدم رعاية مصالح الدين وصوالح الدولة ، أكبر معصية لرب الدولة سبحانه وتعالى ، وبهذه النظرية يتحقق الاستقرار فى الدولة ، ويمكن الحاكم الصالح المصلح من خدمة شعبه ، وتحقيق منهج إصلاحه ، ويضع الحاكم فى مكان الخادم للأمة ، والأمة له بالمرصاد ، تراقبه وتحاسبه ، وتسكب جموحه إن جمح ، وترشده إلى الحق إن مال أو التبس عليه أمره وتعزله إن ظهر غشمه وظلم وفجر ولم يرعو لناصح أو زاجر .

بعد هذا يا أخى التارىء لا أظنك تقول : إن الحكم فى نظر الإسلام كالحكم فى نظريات التعاقد !! فإن كان لنا فى « التعاقد » هوى ، فالتعاقد فى الإسلام تعاقد خاص بالإسلام ، وهو أسمى وأجل من نظريات التعاقد التى عرفتها .

وإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الإسلام هو أول من احترم الأمة ، وجعل لها « شخصية معنوية » وألزمها بالتكاليف العامة ، ووكل إليها القوامة على أمورها ، واعلم أيضاً أن المسلمين هم أول من عرف أن الأمة هى مصدر جميع السلطات ، وأن الحاكم خادم وقائد ورائد ، لا سيد مستبد والناس عبيده ، ولعلك يا قارئ تطلب منى البيان ! وأعدك به فى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

(يتبع)

الحكمة

مر عيسى عليه السلام يقوم فقالوا له شراً ، فقال هو خيراً . فقيل له : إنهم يقولون شراً وتقول لهم خيراً ؟ فقال : كل واحد ينفق بما عنده . وقال الشاعر :

وذى رحم قلبت أظفار جهله	بحلى عنه حين ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى	قطيعتها تلك السفاهة والإثم
فداويته بالحلم والمرء قادر	على سهمه ما كان فى كفه السهم

الحياة الأخرى

عن سيد أمير علي *

لهستانه عمر طلعت زهرا

أستاذ في الآداب

[يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية]

[مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي]

نظرية الحياة الأخرى — بعد افتراق عنصر الحياة عن الجزء الفاني — نظرية تقاسمها جماعات الناس عموماً ، وإن كانت تتميز عندهم الواحدة عن الأخرى ، حتى إنها لتنتهي بنا إلى الاعتقاد بأنها يجب أن تكون من الأوليات في مقومات وجودنا . ولو بحثنا الحقائق التي تتصل بطفولة الأجناس والقبائل بحثاً وافياً ، لعرفنا أن فكرة « الحياة الأخرى » هي نتيجة طبيعية لتقدم العقل البشري .

وليس للإنسان البدائي أية فكرة عن حياة منفصلة ، ومختلفة عن حياته تلك التي يحياها على الأرض ؛ فالموت عنده نهاية الوجود . ثم يجتاز الإنسان هذه المرحلة ، إلى مرحلة ثانية تكون له فيها آمال ورغبات ، لم تعد تنبئ بعد على الموت الأرضي ، بل إنه ليتوقع « وجوداً آخر » بعد أن ينتهي وجوده الحاضر . ولكنه في هذه المرحلة لا يتعدى فهمه الخلود ، يجري الحياة اليومية . فالحياة بعد الموت ، إنما هي مجرد استمرار للحياة على الأرض . ويبدو أن هذه الفكرة عن استمرار الحياة فيما وراء القبر ، قد نتجت عن شوق لا شعوري للروح الإنساني ، يرغب في أن ينتهي الفراق بين الأصدقاء - وهو فراق مر للإنسان البدائي والمتمدن على السواء - إلى لقاء .

وينتقل الإنسان - بسرعة - إلى مرحلة ثالثة ، فيعتقد أن السعادة الحالية

والشقاء الموجود ، ليساً ، ولا يمكن أن يكونا هما كل الوجود ، أو كل النهاية لوجوده ، بل إنه ستوجد حياة أخرى ، أو أنه توجد حياة أخرى بعد الموت ، يكون فيها سعيداً أو شقيماً ، بالنظر إلى ما يستحقه .

ونجد أنفسنا ههنا أمام : مبدأ وقانون

ولم يتقدم العقل الإنسانى فى بحثه فى نظرية الحياة الأخرى ، ولم يستكشف فيلسوف الشك المطلق شيئاً ، أو يحقق وضعاً جديداً ، بل إنه سار الهوينا متأثراً خطى سلفه البدائى ، الذى كان مجال تفكيره متأثراً بحجياته فحسب .

ومن الحقائق الثابتة أنا إذا نظرنا إلى كل هذه النظريات التى تمثل المراحل المختلفة من وجهة نظر موضوعية ، لرأيانها قد وجدت متعاصرة ، لا عند الأمم المختلفة فقط ، وإنما عند الأمة الواحدة ، على صور مختلفة ، تبعاً للتقدم الفردى .

* * *

ويقال : إن المصريين كانوا أول من عرف نظرية الحياة الثانية ، أو أنهم هم - على الأقل - أول من بنى مبادئ السلوك الإنسانى على مثل هذه النظرية . فقد ربطوا نظرية التناسخ بفكرة الثواب والعقاب المستقبلية : ينزل الإنسان إلى القبر ليقوم ثانية ، وبعد بعثه يدخل حياة جديدة ، فى صحبة الشمس ، عنصر الوجود ، العلة الموجودة بذاتها لكل شيء . واعتبر روح الإنسان خالداً مثل الشمس يقوم بنفس انتقالاتها Pilgrimimages . نزلت كل الأرواح إلى العالم الأدنى ، ولسكنها ليست جميعاً مؤكدة البعث . وكان « أوزيريس » ومستشاروه الإثنان والأربعون يحاكمون الموتى ، والحرمان [من البعث] نصيب من يدان . أما من خفت موازينه فكان ينق من آثام الحياة ، ويدخل « السعادة الكاملة » ، ويطعم - كرفاق « أوزيريس » - بأشهى طعام .

ومن الطبيعى أن نتوقع أن إقامة الإسرائيليين الطويلة فى مصر قد أوجدت بينهم فهماً لفكرة الحياة الثانية وما يتبعها من ثواب أو عقاب . ولكن « الموسوية » الخالصة [أو التعاليم التى تحمل هذا الاسم] لا تعترف بحالة وجود تختلف عن حالة الوجود الحاضرة . والمحور الذى يدور حوله كل نظام التشريع الموسوى يقوم على أساس ثواب وعقاب أرضى محسوس . أما نظرية البعث ، وما ينبع عنها

من أفكار ظهرت فيما بعد في اليهودية - خاصة في كتابات «دانيال وحزقيال»^(١) - فقد كانت ثمرة لغرس أجنبي مستمد من أصول «زردشتية» حتى إن وصف الإقامة العامة للكائنات الراحلة ، سواء العادلة منها والظالمة ، التي تظهر في الكتابات المتقدمة بعض الشيء ، لا يبدو أنها من أصل عبري صحيح . فلا يستطيع الإنسان فيها أن يحمده ربه أو أن يذكر حبه ورحمته . إنها مملكة ظلال ، محاولة يهودية لمعارضة العالم الوثني غير المرئي ؛ والموتى [في هذه المملكة] لا يعلمون شيئاً عن كانوا أحبابهم على الأرض ، فلا ينوحدون إلا على أحوالهم .

ولم تلبث اليهودية ، حتى ملئت - فيما بعد - بإيمان قوى بالحياة الأخرى ، فقد غنيت آثارها بوصف منازل المؤمنين ، أو ما يلتمه المشركون من عذاب . وأثرت الزردشتية على الجنس العبري تأثيراً مزدوجاً ، فلم تكن تزيد عنها فهماً أكثر نقاء وروحانية فحسب ، ولسكننا نجد أن المجوسية الزردشتية فيما بعد ، - وهي ثمرة كالدانية - قد صبغت العتائد الربانية^(٢) بآراء مادية عن الثواب والعقاب في الحياة الأخرى . وعلى أية حال فإن شعوب الشرق الآرية هي التي عرفت نظرية الحياة الأخرى بعد الموت . ففي الفرع الأول من العائلة الآرية اتخذت النظرية إما شكل التناسخ الأبدي ، دائرة لا تنتهي من الميلاد والموت ، أو شكل فناء كلي بعد فترة اختبار طويلة في اللانهاية المطلقة ، أو شكل لانهاية في زمن لا قياس له ، أو لا شيء^(٣) واتخذت النظرية عند الفرع الآخر من العائلة الآرية شكل سلم متدرج للثواب والعقاب ، بالمعنى الذي يفهم به الآن المسلم أو المسيحي قيمة الإنسانية . هل كان المجوس الزردشتيون يعتقدون من البدء في البعث الجسماني ؟ هذه مسألة اختلف فيها العلماء ، فيرى دولنجر Dollinger وبيرنوف Burnouf أن هذه النظرية لم تكن زردشتية حقيقة ، وأنها ظهرت متأخرة ، إن لم تكن مستمدة من العبريين^(٤) ومهما كان الأمر في هذه المسألة ، فإن الفرس ، في زمن النبي

[١] نبيان من أنبياء بني إسرائيل الأربعة العظام ، عاشا في القرنين السابع والسادس ق . م .

[٢] الربانيون هم كهنة اليهود وعلمائهم .

[٣] صاغ البراهمة عذاب النار ومسرات النعيم صبغة خيالية حية . وعلى الباحث العربي أن يرجع إلى النظريات البوذية عند الشهرستاني .

[٤] يرى آلجر Alger أن الزردشتيين الأولين كانوا يؤمنون بالبعث الجسماني .

العربي صلى الله عليه وسلم كانت لديهم نظرية قوية متقدمة عن الحياة الأخرى .
وتبين بقايا الزند أفسا التي وصلت إلينا ، بوضوح ، الاعتقاد بثواب وعقاب
مستقبلين . وترى زردشتية فنديداد وبوندهيش Vendidad & Bundeshish
- زيادة على اعتقادات الأفسا - أنه بعد موت الإنسان تملك الشياطين جسده ،
ولسكنه في اليوم الثالث ، يرجع إليه الشعور . ولا تستطيع الأرواح التي استسلمت
- في الحياة - لاغراء الشيطان ، أن تمر على قنطرة شينفاد Chinevad المخيفة ،
وهي القنطرة التي يجب أن تمر عليها في اليوم التالي لليلة الوفاة الثالثة . أما الأرواح
الطيبة فتتجح في المرور ، يسدد خطاها « يا زاتاس Yazatas » [وهو في الفارسية
الحديثة « إزاد Izad »] ، ثم تدخل جنات النعيم حيث تصحب « أورمزد »
وصحبه من « الأمشاسباند Amshaspand » في مقرهم حيث يجلسون على عروش
من ذهب ، ينعمون برفقة جنيات حسان Hoorân-i-Behisht ، وبجميع أنواع
المسرات . وتسقط الأرواح الشريرة من فوق القنطرة ، أو تجر إلى خليج « دوزاخ »
حيث يعذبها « دايفاس Daevasa » ويحدد « أورمزد » مدة العقوبة ، كما أن بعض
الأرواح قد يخلصها صلاة ودعاء أصدقائها . ويظهر قبيل نهاية العالم ، نبي يخلص
العالم من الجور والشر ، ويستمر حكمه السعيد ألف عام وهي مملكة « أورمزد »
السموية ^(١) . وبعد هذا يبعث العالم أجمع ، ويتقابل الأهل والأصدقاء ، وبعد
أن ينتهي سرور التعارف ، ينفصل الطيبون عن الأشرار ، ويكون عذاب غير
الطيبين عظيما . ويذرع « أهريمان » قنطرة « شينفاد » جيئة وذهابا ، وهو يقاسى
العذاب الأكبر ، ثم يهوى على الأرض مذنب ملتهب يحرقها ، فتتصهر الجبال
وتنساب كالمعادن الذائبة فتغمر الجنس البشري كله - طيبه وخبيثه - ليخرج الناس
بعدئذ جميعا من هذا الطوفان مطهرين . وبهذا يمحي الشر ، ويعيش الناس جميعا
في سرور ولذة لا يعادلها سرور ولذة .

هذه هي خلاصة دين قد أثر على المعتقدات السامية إلى درجة كبيرة .



وكان اليهود قد قدموا استقلالهم إلى الأبد ، واحتل عرش داود مدع بائس ،

[١] يسمى الشهرستاني هذا النبي « أوشيزريكا » [ط كيورتن ص ١٨٨] ونرى علماء الغرب
أن اسمه « سوميوش Sosiesch » يسبقه بيان آخران هما ، « أوشيدر بامي Oscheder Bami » ،
« أوشيدر ماه » ، ويسمى « دوساس » ، هذا النبي « باشوتان Pashoutan » .

وتمكنت قوة أعظم من قوة السلوقيين ^(١) أن تذكى فيهم روح الإذعان ، ومن هنا نشأ بين اليهود - مثلهم مثل أى أمة يتمسكها حب عنيف للوطن والعقيدة والفردية - أمل قوى بأن يسترد « مبعوث سماوى » - مثل جيدون أو مكابوس ^(٢) - مجدهم الأول ، ويمكنهم من وضع أقدامهم فوق أعناق مضطهدهم الكثيرين ^(٣) ، واتخذ ظهور « المسيح » عند الوطنيين منهم صورة حية ، وتركزت أناشيد اليهود وأغانيمهم حول أمل واحد عظيم ، هو : استرجاع مملكة اسرائيل ، ولكن الإيمان بظهور « المسيح » كان إيماناً خافتاً غير متميز ، أو كان مجرد صدى لإيمان العوام بينهم ، وذلك بسبب الآثار المجوسية الزردشتية والكلدانية فى الشرق ، ومدارس الفلسفة الإغريقية فى الغرب .

أما يهود فلسطين ، فقد استخلصوا من عدة عناصر صورة ضخمة ، وإن كانت مضطربة ، لظهور المسيح ، فتعود الأشياء جميعاً ، ويعتد الموتى ، ويحكم المسيح الأرض ، وهذه جميعاً حوادث إما أن تحدث معاً ، أو تترادف بسرعة ، الواحدة إثر الأخرى ، ويأتى المسيح من نسل داود ، فيجمع شمل القبائل المتفرقة شعباً ، ويطردهم ويهلك أعداءهم ، ثم يبعث الموتى ، ولكن هذا كله يحدث لمصلحة الجنس اليهودى بحسب ^(٤) .

ووسط كل هذا الحماس ، وهذه « الرؤى » الغامضة ، كانت الآمال فى الحياة الباقية ، واللجنة المقبلة مختلطة متداخلة ، وكان اليأس والانتظار ، وهما حدان متطرفان ، يعملان دائماً على تهيئة عقول الشعب ، فأخذ قسم منه ينتظر مملكة غير أرضية ، يسود فيها الأمن والقانون تحت سلطان من لدن الله ، وهى محاولة للهروب من قسوة حكم الأعداء ؛ أما القسم الآخر فأخذ يتمنى نفس المملكة الإلهية ، وإنما على دماء الأعداء والكفرة !

هذه فكرة الحياة الأخرى عند طائفة من الشعوب ، وبقي أن نتحدث عنها عند المسيحيين ثم المسلمين ، فإلى العدد القادم . [يتبع]

[١] أسرة حاكمة ، أسسها سلوقس الأول فى سوريا ، حكمت بين ٣١٢ و ٦٤ ق . م .

[٢] مكابوس : اسم لسبعة إخوة استشهدوا وأهم تحت حكم أنتيوكوش أبيغان سنة ١٦٨ ق . م .

[٣] يرى أجزر أنه ليس ضرورياً أن يعتقد اليهود بالتناسخ لأنهم يفرطون فى ظهور « أليشع » أو غيره من أنبيائهم ، وأن ذلك لا يتعدى الأمانى الوطنية .

[٤] الشبه قوى بين اعتقاد اليهود والزردشتيين فى ظهور مخلص ، وبنى أن ذلك جاء نتيجة للاضطهاد الذى صادفه كل من الشعبين تحت حكم أجنى .

فِي مَجْلِسِ الْقُرْآنِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

تعود كثير من المستمعين إلى آى الذكر الحكيم فى حفلات المآتم والذكرى وبعض المناسبات - أن يجلس كل منهم إلى زميله يتحدث معه جهرة ، أو بين السر والجهر ، فى شئون متنوعة ، وقد يتطرق بهما الحديث إلى تناول آخرين بالقدح وتعداد المثالب ، وقد يبلغ بهما التعمق فيه إلى أمور أقل ما يقال فى الحديث عنها إن إثارتها عمل يحافى الذوق ، ولا يساقو الطبع ، ولا يتفق وما لمجلس القرآن من مهابة وكرامة ، وتوقير وتبجيل ، ورفعة وسمو .

وقد انتقلت هذه العدوى إلى المساجد ، إذ نرى فريقا كبيرا من المصلين ، إذا ما سمعوا قارئاً ، يحزمون أمرهم باتفاق ، أو على سبيل المصادفة على أن يوجهوا إليه تحية ، ليست طيبة ولا مباركة عند كل وقف أو قبله بأصوات صاخبة مدوية ، مدفوعين إلى ذلك بدافع التشجيع له ، أو التعصب لفنّه ، لما بينهم من روابط وصلات ، على أن من القراء من يتخذ له بطانة تلازمه فى حله وترحاله ، تشيد بذكره ، وتنزع الإعجاب والاستحسان من سامعيه ، حتى يعلو ذكره ، ويطير صيته ، وينبه شأنه .

وتلك حالة ، كيفما كان الباعث عليها - تدعو إلى الأسى والالام ، ولا تتفق مع ما يجب لهذه المجالس من قدسية وجلال ، ليتوفر للجالس فيها ما يطلب منه ، من تفكير واعتبار ، وتدبر وإمعان فى أسلوب القرآن ، للوقوف على ما فيه من روعة وجزالة وقوة ورصانة ، وما يفصح عنه ، من حكمة وعظمة ، وترغيب وترهيب ، ووعد ووعد ، ودعوة حازمة إلى الطريق القويم ، وتوجيه حكيم إلى الصراط المستقيم .

وإن ما تقع عليه نواظرنا الآن فى المساجد وغيرها ، وتنقله إلينا الاذاعة ، ويسمعه العالم الإسلامى والعربى أيام الجمع من تهويش ينقل على السمع ، وتبرم

به الذاكرة التي تود أن تعي ، وتضيق له النفس التي تبغى التدبر والتأمل ، هو حرام يأثم مقترفه ، والداعى إليه ، والمجذله ، لأنه فضلا عما فيه من مجافاة للذوق ، فيه مخالفة للنص الصريح ، في قوله تعالى « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » وللعلماء في المراد من هذه الآية الكريمة أقوال أحسنها قول الحسن وأهل الظاهر .

أن خوى هذه الآية على العموم في أى وقت وفي أى موضع ومن أى قارىء قرئ القرآن ، يجب على كل أحد الاستماع والسكوت ، لأن قوله فاستمعوا وأنصتوا أمر ، وظاهر الأمر الوجوب ، ففقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين ، والمراد من الاستماع الإصغاء ، والمقصود من الإنصات السكوت للاستماع ، بحيث يحيط السامع بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل ، كما قال تعالى لموسى عليه السلام « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .

وفد ذهب بعض العلماء إلى عدم الاكتفاء من سماع القرآن بالسكوت والإصغاء ، بل طلب منه الإجابة والقبول كما قال الزجاج ، ورأى أن هذا أوفق لتأليف النظم الكريم سابقا ولاحقا ، وأجمع للمعانى والأقوال ، فإنه تعالى لما ذكر قوله « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » تعريضا بأن المشركين إنما استهزءوا بالقرآن وبذوه وراءهم ظهريا ، لأنهم فقدوا البصائر وعدموا الهداية والرحمة وأن حالهم على خلاف المؤمنين ، لهذا ، أمر المؤمنين بما هو أزيد من مجرد السماع ، وهو قبوله ، والعمل بما فيه والتمسك به بالألا يجاوزوه ، فيما يأتون وما يدعون ، وفي ذلك يقول تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال « أفلا يتدبرون القرآن » ، وصفة ذلك أن يشغل المؤمن قلبه بالتفكير والنظر إلى الأوامر والنواهي ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى ، اعتذر واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة ، استبشر وسأل ، أو عذاب أشق وتعوذ ، أو دعاء تضرع وطلب .

على أن رفع الصوت في المساجد بالعلم والذكر وفي غير حضرة القرآن كرهه مالك وجماعة من العلماء فكيف بهذه الأصوات ترتفع قوية مججلة بغير العلم

والذكر وفى حضرة القرآن . إنه - لا شك - ذنب عظيم وإثم كبير . يعيد الى الذاكرة ما كان يقترفه أولئك الذين استهانوا بجرمة البيت حينما تقربوا إليه بالمسكاء والتصدية . وفى ذلك يقول تعالى « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، أى صفيرا وتصفيقا .

وفى كنف هذه الآداب حجب الدين الحنيف للسامع أن يطلب ذا الصوت الندى الجميل . الذى يرسل الى الآذان لحنا عذبا جميلا . يلبس الإحساس فيملا النفس نشوة وارتياحا ، والقلب إيمانا ويقينا ، وقد أخرج البزار وغيره « حسن الصوت زينة القرآن » وأيضا حمد من القارئ إن لم يكن حسن الصوت أن يحسنه ما استطاع الى ذلك سبيلا بحيث لا يخرج الى حد التمطيط الذى يتولد منه عن الفتحة ألف والضممة واو . والكسرة ياء . أو يدغم فى غير مواضع الإدغام . فإن وصل به التحسين الى هذا الحد ، كانت القراءة حراما ، يفسق بها القارئ ، ويأثم المستمع لأنه عدل بالقرآن عن نهجه القويم — كما رغب إليه أن يضع نصب عينيه ، الحفاظ الشديد ، والعناية التامة بالكتاب العزيز ، فيحافظ على سلامة لفظه ويرعى ترتيب آيه ، وأن يجلس إليه خاشعا ، يزينه الوقار ، ويحوطه الحياء ، متطهرا متجملا ، وأن يحذر قطع القراءة بمكاملة أحد ، لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره ، وقد كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه ، وأن يأخذ نفسه على ترك الضحك والعبث والنظر الى ما يلهى .

هذه بعض الآداب التى يجب أن تتوفر لمجالس القرآن ، دستور الله القويم ، ومعجزة رسوله الخالدة ، ونهجه المشرق الواضح ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وفق الله المسلمين الى رعاية قدره ، وهداهم الى الخير ، وجنبهم مواطن الزلل .

إنه سميع مجيب ؟

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم صفاهي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

قدمنا طرفاً من آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول الأعظم ، في القرآن الكريم ، وبلاغته ، وقضية إعجازه ، وعجزهم عن الوقوف أمام تحديه ، وإقرارهم بالعجز على أنفسهم .

وتتابع اليوم بقية هذا البحث الموجز الدقيق :

كان مسيئة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفاً منها الباقلائي في كتابه « إعجاز القرآن » . وهي معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن في سموه وجلال إعجازه بأي حال ؛ وقد أصيب مسيئة بالخزي والذل والهوان أمام نفسه وعند الناس .

ويقول صاحب الشفاء : وروى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه . فمر بصبي يقرأ : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » ، فرجع ، فمحي ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ؛ وكان من أفصح أهل وقته ... وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس في زمنه ، فمحي أنه رام شيئاً من هذا ، فنظر في سورة الإخلاص ، ليحذو على مثالها ، وينسج بزعمه على منوالها . قال : فاعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة ^(١) .

ويتهمون المتنبي والمعري وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

وما روى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق على وضعه في كفة واحدة مع القرآن الكريم .

ويقول الدكتور طه حسين باشا : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلدا ، ولم يجد له تلميذا . هو واحد في باب ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه ^(١) .
وسنعود إلى حديث المعارضة في بحث مستقل إن شاء الله .

أمية بن أبي الصلت يعارض القرآن :

ويقولون إن أمية قد وقعت منه في شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاشا لله أن يوزن شعر أمية الديني الذي نظم به بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم .

ولقد نظم أمية قصصا دينية كثيرة ، كقصص مريم ، وقصة موسى ، وقصة إبراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز ، وذلك السحر القرآن العظيم ؟ والكونيات في شعر أمية ، والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يتقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟ .

وفي شعر أمية يبدو تأثيره الواضح أحيانا ببلاغة القرآن ومعانيه وأساليبه ، كما تجده في هذه الأبيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه	يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم	إنه كان وعده مأثيا
يوم نأتيه مثل ما قال فرداً	لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو	أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد لنا	ر كتابا حتمته مقضيا

الشعراء تبههم بلاغة القرآن فلا ينطقون :

وأنتم تعلمون أن الشعراء في أول عهد النبوة كانوا طوائف ثلاثا :

فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبد الله بن

[١] ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه .

الزبيري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمر بن العاص ، وضرار بن الخطاب ، وهؤلاء جميعاً أسلبوا بعد حين وبعد أن بهرتهم بلاغة التمرآن .

وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ، تدافع عن الدعوة والرسالة : كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش في نجد بعيداً عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحي . ومن هؤلاء : الخطيئة ، وكعب بن زهير وغيرهما . وقد ظل شعرهم جاهلياً حتى أسلبوا وسمعوا التمرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأتم تعلمون قوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام ، انهارا بجلال القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبي الصلت في الجاهلية واستخذه في الإسلام ، عجزاً أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإعجاز العجيب ويروون أن لييدا لم يقل شعراً في الإسلام إلا بيتاً واحداً :

ما عاتب المرء الكريم كنفه
والمرء يصلحه الجليس الصالح
وقيل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى
حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
وقال له عمر : أنشدني من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علني الله سورة البقرة ، فزاد عمر في عطائه^(١) .
ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لييدا والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا ؟
فقد سألت هيناً موجودا
وقال لييد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه^(٢) .
بلغاء العرب يتأثرون ببلاغة القرآن :

[١] ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

[٢] طبقات الشعراء لابن سلام .

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلغاء في عصر الرسول وبعده ؛ ويقول ابن خلدون في مقدمته في بيان السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية ، ومتشورهم ومنظومهم : السبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث ، والذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها ، لكونها ولجت في قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ؛ فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصنى رونقا ، من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفاً ؛ بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة ^(١).

وقد ظل تأثر الأدب العربي واللغة بالقرآن الكريم واضحاً جلياً في كل عصر ؛ من عهد النبوة حتى اليوم .

فهل بعد ذلك كله نحتاج إلى دليل على الإعجاز ، وإقرار العرب بعجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا .

وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إن الله أنزل هذا القرآن أمراً وزاجراً ، وسنة خالصة ، ومثلاً مضروباً . فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . ولا يخلقه طول الرد ، ولا تنقض عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين » .

وفي الحديث : قال الله تعالى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه : إني منزل عليك توراةً حديثة ؛ تفتح بها أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً . فيها يتابع العلم ، وفهم الحكمة ، وربيع القلوب ؟

الإسلام الحق

بقلم الأستاذ الشيخ عبد الحليم محمود عبد الرازق

من علماء الأزهر

الإسلام دين يسمو بالروح المتسكة به إلى مدارج السمو والارتقاء . ثم هو يعالج كل مشكلات الحياة أنجع العلاج ، فإن لم تكن هناك مشكلات فهو يرسم للإنسانية أسلم خطة تسعدها في الدنيا والآخرة ، بل وينتظم كل سبب ينعطف بالناس نحو حياتهم أو مماتهم ... هكذا جاء محمد صلوات الله عليه بالإسلام من عند ربه .

فماذا يا ترى كان شأن الإسلام بين أهله بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ذلك ما نرى إليه من كلتنا هذه .

سوف نتحدث عن إسلام جديد إذن ، ولا نغنى به إسلاما غير ما جاء به محمد صلوات الله عليه ، ولكن نغنى أن كثيراً من المسلمين في مختلف العصور قد خلعوا على الإسلام نعوتا وأوصافا من عند أنفسهم ، وزادوا عليه أو انتقصوا منه بالقدر الذي يرضى أهواءهم . فمن ثم بدا لهم أن حدود الإسلام كما رسموا ، وأن حقائقه كما فهموا . ساعدتهم على ذلك مرونة الإسلام وسعته ، ومجاراته لحاجات الحياة جميعها - على أنه للحكمة السامية كان في الإسلام ذلك - لا للشطط والتأويل .

ولهذا اختلف المسلمون في معنى الإسلام أكبر اختلاف ، وانطبعت في نفوس الناس للإسلام صور غاية في التباين والتمايز ، كلها إما قريب من تعاليمه أو بعيد عنها . وبعضها منطبق على الإسلام الحق الذي جاء به محمد صلوات الله عليه وذلك فيما نرى أقل من القليل .

رأت جماعة من المسلمين أن الإسلام ليس شيئاً إلا أن يكون عبادة ظاهرة ، لا هم لهذه الجماعة إلا أن ترى هذه العبادة مؤداة ليكون المسلم قد قام بواجبه نحو الناس ، ويكون الناس بهذا قد وصلوا إلى لب الإسلام وحبه فؤاده . ولعل هذا رأى عامة المسلمين اليوم .

وجماعة أخرى رأت أن الإسلام ما هو إلا خلق فاضل ، وفيضان من الروحانية

وغذاء دسم من الفلسفة للعقل ، ومانع قاهر جبار ينأى بالروح عن طغيان المادة وظلمها وجبروتها ومجافاتها لحقائق الأشياء .

وجماعة ثالثة ترى الإسلام ديناً ينبغي أن نعجب به ونشيد بذكره ونسبح بحمده كلما ذكر شيء عن الإصلاح وطرقه لأن الإسلام فيه عند هذه الجماعة من المعاني الحيوية العملية ما يسعد المجتمع ويسمو به حتى لا مطمع في مزيد وأكثر هذه الجماعة يقف عند ذلك فقط لا يتجاوزه إلى ما طلب الإسلام وأكد في طلبه من مراعاة حقوق الله وحقوق العباد .

وجماعة ترى الإسلام نوعاً من الديانات التي خلفها الآباء للأبناء فكانت في عداد ما ورثوا وضمن ما يجب عليهم أن يقلدوا فيه آباءهم وأجدادهم ، فلا غناء في الإسلام عند هؤلاء ، ولا نهضة للمجتمع عن طريقته . فهذه الجماعة متبرمة بالإسلام أشد ما يكون التبرم ، ترى في التمسك به حباً لا متينة تربطها بالرجعية والجمود . وهذه الطائفة جلها ممن تثقفوا ثقافة أجنبية بعدت بهم عن الفهم الصحيح للإسلام فكأنهم لم يعرفوا عنه شيئاً أصلاً أو عرفوا عنه ما غمره المسخ والتشويه والبهتان . تلك صور متعددة لشيء واحد ، وأفهام مختلفة لمفهوم واحد . أما السبب في ذلك الاختلاف والتباين ، فهو ما ألعنا إليه من جرى الناس وراء شهواتهم ومن سوء استغلالهم لمرونة الإسلام الخفيف . بل من عدم إمعانهم في تعرف أسرارهم والبحث عن كوامنه .

وبعد : فإسلام اليوم الجديد الذي يجب أن نتمسك به حتى النهاية هو ما جاء به محمد صلوات الله عليه من عند ربه ولم يحرفه المحرفون ولم يتأول فيه المتأولون هو الكتاب الكريم : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » والسنة المطهرة : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » .

فالإسلام إذن في حقيقته التي تؤلم الكثيرين من عباد الشهوات هو عقيدة وعبادة وقومية ووطن ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، حتى إن القرآن الكريم ليعتبر هذا من لب الإسلام وصميمه حين يوصي بالإحسان فيه فيقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيحتك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » ، والأدلة بعد ذلك والبراهين لا تدع مجالاً لحرف أو تعطى سائحة لتأول فالآيات الآتية ناطقة أفصح ما يكون النطق ودالة أصدق ما يكون التدليل على حقيقة الإسلام التي قدمنا : ففي العبادة والعقيدة يقول تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ، وفي السياسة والقضاء والحكم بين الناس يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ، وفي المعاملات يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحسنت عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم .

وفي الحرب يقول : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهيناً .

إلى كثير من الآيات التي تتناول كل مقومات الحياة قاصيها ودانيها .

هكذا يجب أن نفهم أن الإسلام دين ينتظم شئون الحياة جميعها لكل عصر ولكل جنس ، وإن لم نفهم فإن العاقبة جد وخيمة ، وإنها لتسير بنا إلى حيث نهلك ونذل ونخزي أكثر مما نحن فيه ، ونكون حينئذ والعياذ بالله كما قال تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » ونعوذ بالله من أن يحل بنا عذابه أو خزيه ونعوذ به من أن نظل هكذا نتخبط لا ندرى من أمرنا أين رشفه .

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الأستاذ سعيد زبير

مقدمة :

الاشتراكية مذهب اقتصادي حديث ينبغي المساواة بين الناس في الناحيتين المادية والأدبية ، وكأى مذهب حديث يظهر في الغرب انبرى له المسلمون بالدراسة والتحليل ، لمعرفة مدى اتفاهه مع دينهم أو اختلافه معه ، ولقد ظهر — مع الفخر — أن الإسلام قد طبق نظماً لا يصح لنا أن نسميها اشتراكية إلا بالتجاوز ، فهي تفوق الاشتراكية في عدلها ومساواتها ومراعاتها للناحية الإسلامية .

ولقد عثرنا يوم أن كنا مهتمين بدراسة هذا الموضوع على كتاب وضعه أستاذ هندي ^(١) باللغة الإنجليزية بعنوان « الإسلام والاشتراكية » ، قدم له بمقدمة طويلة ، فصل فيها منهج الإسلام في السياسة والدولة . ولقد رأينا أن ننقل لقراء العربية تلك المقدمة الى لغة الضاد ، عليها تلفت الأنظار الى ما في الإسلام من إحاطة بدقائق النفس البشرية ومعاملة أفراد البشر معاملة كريمة تليق بأدبيتهم .

قال الأستاذ مشير : اعتذر الى قرأني عن عرض هذا الموضوع الذي يبرز كل يوم عرضاً سريعاً ، وبالرغم من أن التأليف الأوروبي في موضوع الاشتراكية ليس قليلاً بأي حال ، فإن القارئ العادي لا يألفه ، ولا أعلم بوجود كتاب قد بحث هذا الموضوع في لغة شرقية ^(٢) كما أني لا أعتد كثيراً على التأليف الغربي القيم في هذا الصدد نظراً لأن آرائي حول الاشتراكية تختلف الى حد كبير عن آراء الكتاب الأوروبيين . ولسوء الحظ ليس من اليسير القيام ببحث علمي في الهند نظراً لقلّة المكتبات القيمة وندرتها ، اللهم إلا كتب قليلة مثل التي أعارني إياها صديقي

(١) الأستاذ مشير حسين كيدوي

S. Mushir Hosein Kidwai : Islam and Socialism.

(٢) يجب أن نلاحظ أن المؤلف وضع كتابه سنة ١٩١٢ م

مولوى نظام الدين صاحب ، والمستر ر. س . هوبرت وتلك المساعدة التى أسداها الى صديقى الحميم قوار مهرابا ، وأخى الفاضل الشيخ مقبول حسين صاحب ، وإذن فكان على أن أعود الى المصادر الضئيلة التى بين يدى ، ذلك هو السبب الرئيسى فى أن هذا الكتاب الصغير ليس كاملا على النحو الذى أردت .

وبعد أن بين المؤلف الصعوبات التى اعترضته فى تأليف الكتاب ونشره ، أشار إلى المصادر الإسلامية التى استمد منها البحث ، وأولها القرآن الكريم نفسه ، قال : لأننى على يقين من مدى جهل أوربا بفضائل الإسلام ، ورأيت أنى باستعراض أصول الإسلام ربما أنجح فى إقناع قرائى بأن فكرة الاشتراكية فى الإسلام ليس عمرها أقل من ثلاثة عشر قرناً ، وأنها لا يمكن أن تعزى إلى التأثير الأوروبى ، فلست أقصد بهذا إلى القول بأن الدعاية الاشتراكية المنظمة كما تعرف اليوم ، كانت توجد حينئذ بل أريد أن أؤكد أن مبادئ الاشتراكية لم تكن مجهولة فى المجتمع الإسلامى فى عهد محمد نفسه . وأن هذه المبادئ طبقت فى كثير من الأحيان أكثر مما طبقت بأوربا فى أى وقت مضى بعد ذلك التاريخ . ولعل هناك بعض القراء الذين لا يودون أن يتأملوا كثيراً من النصوص التى كثيراً ما يبدو أنها تقطع سلسلة الأفكار ، ولهذا فلن أعرض فى هذا الكتاب إلا للنقط الأساسية .

للاشتراكية من وجهة النظر الحديثة مظهران :

الأول : اشتراكية الدولة وهى إما أن تكون مركزية أو ممثلة فى المجالس البلدية .
الثانى : الاشتراكية الصناعية .

والنوع الأول هو المظهر الأهم ، ذلك لأنه إن كانت الدولة اشتراكية فستصطبغ الصناعة بالاشتراكية إلى حد كبير ، والأرض نفسها هى منبع الإنتاج ومجال للصناعة العظمى ، وإذن فينبغى أن نغير اشتراكية الأراضى واشتراكية الدولة أعظم اهتمام ثم إن الإسلام قد قصر نفسه على هذا النوع من الاشتراكية فبمجرد أن أصبحت الدولة فى يدى الرسول صلى الله عليه وسلم اصطبغ دستورهما بالصيغة الاشتراكية وأصبحت الأراضى ملكا للدولة ، وقد طبقت هذه السياسة عند ما بسط الإسلام رواقه على البلاد الأجنبية وحتى المغول فى الهند نهجوا هذه السياسة الاشتراكية فيما يختص بالأراضى ، كما أن خلفاءهم ظلوا ينسجون على منوالهم إلى يومنا هذا

على نحو مسرف لدرجة أنه لا ترد جميع المناجم إلى الدولة فحسب ، بل إذا اكتشف شخص منجماً فعليه أن يرده إلى الدولة التي تعد المالك الحقيقي للأراضي ، وكل ما يوجد تحتها ، وقد كانت الأراضي إبان الحكم الإسلامي تؤجرها الدولة للشعب ، وبذلك كانت تعتمد مالياً على الدخل الذي يأتيها من الأرض التي لا تزال حتى الآن المصدر الرئيسي لموارد الدولة ، ويقضى قانون الميراث في الشريعة الإسلامية بأن تقسم ثروة المورث إلى حصص ضئيلة ، وبذلك تتناول ملكية الدولة عدداً كبيراً من الأفراد جيلاً بعد جيل ، ولا شك أن هذا القانون يسدد ضربة قاضية إلى الدوقيات الواسعة ، فالمالك الحقيقي للأرض هو الدولة ، ونظراً إلى أن الدولة اشتراكية فإن أهم وسائل الإنتاج ستكون خاضعة للملكية للشعب .

على أن هذا النوع من اشتراكية الدولة ليس هو النظام الوحيد الذي سجل محمد فيه نظاماً تقدماً ، لأن نظام الدولة نفسها كان قائماً على أسس اشتراكية صرفة . وما يجدر ذكره أن الاشتراكيين في هذا العصر ينادون بالاشتراكية الديمقراطية فهم يريدون أن تقوم الحكومة على أساس تطبيق نظام إيفاد مندوبين إلى المجالس أو الهيئات التمثيلية ، بيد أن الحكومة القائمة على النظام النيابي أو التمثيلي ديمقراطية وليست اشتراكية بالمعنى الحقيقي ، فالنظام الاشتراكي يقضى بأن يكون للشعب نفسه صوت مباشر في الدولة ، وقد بلغت الدولة على عهد الإسلام ذروة الاشتراكية في هذا الصدد . فقد كان الناس يعلمون أن التشريع ليس في يد وزارة أو برلمان ، وأنه لا يخضع قط لمصالح أية طبقة أو جنس أو دائرة انتخابية . لجميع قوانين الإسلام مقدسة ، صدرت عن مشرع لا يحابي أحداً ، فهي ليست من صنع الإنسان وليست من صنع أية هيئة تمثل فريقاً من أصحاب الامتيازات ؛ بل إن للإنسانية - كوحدة - امتيازاً مشتركاً ، وليس في وسع شخص أو جماعة متجنين أو مختارين تغيير تلك القوانين من أجل طائفة خاصة أو حزب أو طبقة . والجمعيات التشريعية اليوم كلها تعد هيئات نيابية ، والحكومات التي تقوم على أساس هذا النظام تتيح الفرصة لقيام الأحزاب ، ومن شأن الأحزاب أن تخلق روحاً غير اجتماعية ، والتشريع الذي يرجع فيه إلى الشعب أقرب إلى الاشتراكية من التشريع القائم على النظام النيابي ، ولكن يجب أن يكون

المرجع هو الشعب كله دون إقصاء طائفة أو حزب ، ومن ناحية تفسير القانون المقدس (القرآن) للمسلمين فقد أعطى الإسلام امتياز هذا التفسير للرجل والمرأة على السواء وقد يكون التفسير الذى تذهب إليه امرأة عجوز فقيرة خيراً من تفسير الخليفة الذى يجب عليه فى هذه الحال أن يتبع رأى الصائب .

ويقضى هذا التمانون بأن تكون الحكومة فى أيدي الأفراد بحسب مقدرتهم واستحقاقهم عن طريق المندوبين . وكأن رؤساء الحكومة أدوات يقومون بحاجات ورغبات الشعب حتى يسود التمانون الإلهى وفقاً للتفسير الذى يذهب إليه الشعب .

هذا وتعد البيروقراطية فى الحكومة من أخطر النظم ، ولهذا فإن المسلمين كانوا يأخذون حذرهم منها ، ولم تكن حكومتهم بيروقراطية بأى معنى ، ولم تكن هناك أقسام حكومية أو وزارات ، إذ لم يكن رؤساء الحكومة مستقلين عن رأى العام كما هو الشأن فى الوزارات القائمة فى حكومات العصر الحاضر الديموقراطية ، وكان على زعماء المسلمين أن يحترموا إرادة الشعب فى كل شأن من شؤون الحياة ، اجتماعية كانت أو سياسية ، ولم يكن فى وسعهم أن يغفلوا مطالب الشعب فى شأن ، ويحتموا وراء الأغلبية البرلمانية فى شأن آخر كما يفعل اليوم الوزراء الديموقراطيون .

وتعرض الكاتب بعد هذا للصحافة الأوربية حين نددت بتصرف الطليان فى طرابلس ، قائلاً إن هذا التنديد إنما يقع على الشعب نفسه ، بيد أن الوزراء الأوربيين أجمعوا على إهمال رأى العام ، وأصموا آذانهم عن كتابات الصحف . وحتى أول البرلمانات ^(١) (الترجمة الحرفية أم البرلمانات The mother of Parliments) ليس ديموقراطياً ، إذ ظل إلى العام الماضى خاضعاً للصوت الجائر الذى ينطلق من هيئة ليست ديموقراطية ولا ممثلة . أما الديموقراطية الصحيحة فيجب أن تضع الإدارة والتشريع فى يد الشعب ، وبصرف النظر عن النظام الاشتراكى فإن الغربيين لم يستطيعوا إنتاج نظام ديموقراطى كامل لدولهم ، فلا يزال الجيش فى كثير من دول أوروبا أجيراً فى حين أن الإدارة المدنية فضلاً عن الجيش كانت خاضعة للنظام

الإسلامى القديم الذى يقتضى بأن يكون القائمون عليها أبناء الأمة ، هذا وقد كان يوجد بحكم النظام الإسلامى جيش من المواطنين يخوض غمرات القتال دفاعاً عن شرفه وبلاده كما هو الشأن مع أبطال الجيش الذى دافع عن طرابلس ، ولم يكن الجنود المسلمون ، والمدنيون المسلمون يقبضون رواتب على شكل أجور ، وكانت الدولة تتكفل بأبنائهم وأسره ، كما هو الشأن مع طلاب الكليات أو مع المسنين والأطفال الذين ليس فى وسعهم أن يستقلوا بالعمل لكسب قوتهم ، وكان الشجعان من الجنود والتمواد يقبضون مكافأة جزاء لخدماتهم الوطنية ، وكانوا إذا تركوا أرامل أو يتامى تكفلت الدولة بمن تركوا ، وأما الذين يستطيعون أن يقوموا بنفقات طعامهم وحاجاتهم فلا تصرف لهم أية مساعدة مادية فى وقت الحرب ، بل عليهم أن يتولوا أمر أنفسهم كسائر الرعايا . ومن الأمثلة الحية لهذا الصنف ، المجاهدون العرب من أهل طرابلس .

وبجمل القول : أن التنظيم العسكرى والمدنى للدول الإسلامية كان اشتراكياً يكاد يبلغ حد التمام ، ولكن لا يمكن القول بأن هذا النظام كان مطبقاً على الناحية الأخرى من الاشتراكية ، وهى الاشتراكية الصناعية . إذ لم يكن من الميسور إحداث تطور عظيم فى الاشتراكية الصناعية نظراً إلى أن الصناعة كانت حينئذ لا تزال فى طفولتها . (يتبع)

الأجواد

أجواد الإسلام ثلاثة كانوا فى عصر واحد : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حيا على طعامه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وأنت ربيع لليتامى وعصمة إذا المحل من جو السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا

سِنِّيَّاتُ الْحَيَاةِ

لحضرة الأستاذ ابراهيم عماد

مرافق بالأزهر

نشأت في مصر . لا تعرف عن أهلها ولا بلدها شيئاً . فقد غادرت الريف في سن مبكرة . لتخدم عند أسرة تقيم في المدن .

وكان أبوها قد مات ، ولم يترك شيئاً يورث ، فالتوت سبل الحياة بأمرها المعذبة ، واعتاصت عليها طرائق العيش الشريف ، ولم تجد في حياة الناس متسعاً لها ، ولا في مالهم باباً تستجديه .

فلجأت إلى الزوج ، ورماها الزمن بزوج فقير لا يكاد يجد ما يقوته ، ورضيت هي به لمتقى السنة الناس ، وتدفع غائلة العوز الشديد ولكن حاجته الملحة ، وحالته الضيقة ضاقتا بابنتها ، فاحتال للتخلص منها . فأخذ يزين لها حياة المدن ، ويحببها في عيشها الرغيد ، ويرغبها في دفع بنتها إليه وما زال بها يلاطفها حيناً ، ويقسو عليها حيناً ، حتى لانت آخر الأمر وكان هذا آخر عهدا بابنتها ما بقي لها من حياة .

* * *

سافرت إلى مصر ، وزاولت مهنتها التي ساقتها إليها المقادير ، كما اعتادت مشيقاتها من الخدمة في بيوت القمارين . فلقيت عنتاً ، وأصابها مكروه ، فهامت على وجهها تبحث عن بيت تجد فيه الرحمة والأمن ، وتصيب فيه الخير والدعة ، وتشعر بالهدوء والاطمئنان ، ولكن حظها العاثر قد آلى أن لا يهدأ لها بال ، أو يقر لها مضجع ، أو تسكن منها نفس . فرماها في بيت لم يكن خيراً من سابقه ، وبأناس لم يعرفوا الإحسان ولم يقروه .

فظلت تجرب حظها ، وصارت يلفظها بيت فيتلقفها آخر بالشر والسكر ، حتى ضاقت بالحياة ، وثبت في نفسها أن « السادة » كلهم سواء ، وأن قلوبهم جميعاً قد

تجردت من الخير ، فلم تدن منه ، وأن نفوسهم قد خلت من الإيمان فلم يراقبوا الله ، ولم يخشوه ، وكأنهم أمنوا مكر الله ، وغدر الزمن ، ومداولة الأيام ، فلم تهدم عظة ، ولم يهتد من سورتهم خوف من قانون ، أو جزاء من عقاب ، أو صوت — ولو خافت — من تقرير النفس وتأنيب الضمير .

وأى ضمير عند هؤلاء ، وقد أبطرتهم نعاء الحياة ولينها ، فأنسكروا مرارة العيش وقسوة الأيام ، ولم يبالوا بطبقة « الخدم » ونسوا أنهم مثلهم كلهم من آدم وآدم من تراب !!؟

* * *

ولما آدها الاحتمال ، وعيل الصبر ، أنكرت ماضيها وأقبلت على حياة جديدة فيها اللهو والإغراء ، وفيها الطهر والعفاف ، وتزوجت أخيراً من « عامل » فرضيت به ، وهدأت نفسها وقرت ، ووهبت بيتها وزوجها كل ما أوتيت من قوة وهمة ، فكانت تمضى نهارها فى إعداد البيت وتهيته ، وتسعى ليلها فى إسعاد زوجها والتخفيف عنه ، لا تبالى بما تبذل من وقت وجهد ، لا تمتنع من شئ ولا تضيق بشئ... سواء لديها أصابت طعاماً شهياً رغداً ، أم أصابته قديداً بغيضاً... وما زالت تلك خطتها حتى من الله عليها بمولود « ذكر » .

فرحت بوليدها كثيراً - واغفرت للزمن - من أجله إساءته ، وطوت صفحة الماضي ، وفتحت صفحة جديدة أخذت تملؤها بالتفانى فى تربيته وتفتيته ، بقدر ما يتسع لها عيشها المحدود .

ورفعت عن زوجها فساهمت - بنصيب محمود - فى جلب القوت وخفض الرزق : فكانت تباع أوراق « اليانصيب » حيناً ، وتتجر فى البضاعة التى تعرضها الفقيرات على أفواه الأزقة والحارات أكثر الأحيان ، ووضعت أملها كله فى وليدها ، وجعلت حياتها من حياته ، وسعادتها من سعادته . بل جعلت حياتها وسعادتها وقفاً عليه : لا تفكر إلا فيه ، ولا تعمل إلا له ، ولا تأتى أمراً أو تدع شيئاً إلا من أجله ، وفى ظل هذا الحذب ، وتحت تلك الرعاية والعناية ترعرع الولد ، وتدرج فى طفولته إلى أن اكتمل نموه فدفعته به إلى المدرسة .

وقد أوتي « محسن » ذكاء نادرا ، وعقلا حسيفاً ، وقوة وافرة ، وظهرت بوادر ذلك عند ما أتم تعليمه في المدرسة الأولية ، فالمدرسة الابتدائية ، إذ بذ أقرانه ، وكان الأول ، وظفر بمجانية التعليم الثانوى لتفوقه ، وظل محافظاً على « الأولية » حتى نال « التوجيهية » .

وعندئذ رغبت أمه في أن ترتاح من الكدح وراء العيش ، فطلبت إليه أن يسعى لدى الحكومة أو لدى شركة ، عله يجد وظيفة ، وفي مرتبتها الضئيل ما يسعها ويسعه . أليست قد نشأت على الحرمان ! أو ليس هو قد ربي على الكفاف ؟ لذلك كان كل هناءتها وسعادتها في أن يوظف لتباهى به لداتها وكثير عليهما الثمانية جنهيات . ولكن « محسناً » قد تذوق لذة الظفر على الأقران ، وعرف « فيما عرف » حلاوة العلم وكرامة العلماء . فأبى ألا أن يتم تعليمه في الجامعة ولو كلف أمه النصب والعناء .

وأخيرا رضخت أمه لرغبته ، ودخل كلية الطب ، وكان كعهدنا به مبرزاً ظافراً ، وانتهى من دراسته كأكرم ما يكون طالب انتهى من دراسته .

وفي فترة انتظار النتيجة كانت أمه تعد الساعات والثواني ، وتعلق عليها الآمال الطوال العراض .

وفي اليوم الذى ظهرت فيه نتيجة النجاح كان الموت قد اختطفه من يديها ، ففزعته وشدهت وفغرت فاها ولا زال فاغرا حتى الآن ؟ ...

هذا من أقسى ما يعانيه النوع البشرى في حياته الدنيا ، وهو ليس بالشاذ النادر ، فإن لم يكن المبتلى بمثله رده من دين كان الموت عنده أفضل من الحياة ، وكثيراً ما قضى على حياته بيده !

نعم إن في الدين لسوى ، سلوى تشفى الصدور وتملؤها نورا . فلا تضق ذرعا بمآسى الحياة ، ولكن اركن في شدائدك إلى الدين تجده ينجذك ، ويوصلك إلى مأمنك من حيث لا تحتسب ولا تتخيل ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

زواج حضرة صاحب الجلالة الملك

مهر بانات نفوس الوصف

تم في أسعد الأوقات وأبركها عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق الأول » ملك مصر والسودان ، وحضرة سليمة المجد والشرف العالى صاحبة الجلالة الملكة « ناريماه » في يوم الأحد الثلاثين من شهر رجب لسنة ١٣٧٠ هـ ، الموافق لليوم السادس من شهر مايو لسنة ١٩٥١ ، في سراى عابدين العاصمة ، في حفل جمع أصحاب السمو أمراء وأميرات البيت العلوى الكريم ، وكبار رجال الدولة من ملكيين وعسكريين ، وجمهوراً كبيراً من السراة والنزلاء المحترمين . فكان يوماً مشهوداً لم يسبق له مثيل ، إذ اتفق وعيد جلوس جلالة الملك حيث يؤم السراى الملكية الألوف من الوجهاء وكبار الموظفين وسفراء الدول وقناصلها وأعيانها المبجلين تهنئة جلالة « الفاروق » بعيد جلوسه السعيد ؛ كل هذا جعل ذلك اليوم من أحفل ما شهدته القاهرة من الأعياد الملكية .

وقد زاد في رونق هذا اليوم ، وعظم من شأنه ، أنه اجتمع فيه أمران عظيمان : زواج جلالة الملك ، وذكرى جلوسه السعيد ؛ وكلاهما يهتم له الشعب ويفرح به ، فلا غرو إذا بالغ في إظهاره شعور الغبطة فيه إلى الحد الذي رأيناه ، مما يسجل في تاريخ هذه البلاد ، ويبقى ذكره أبد الدهر .

ومجلة الأزهر : التي تمثل أرقى وأعرق جامعة في الشرق بأسره ، يسرها أن تنشر هذه الكلمة عنه في أولى صفحاتها ، وتذيعها في الخافقين ، راجية للأمة المصرية الكرامة والجلال ، و لجلالة مليكها المعظم العمر المديد ، والعز والتأييد ؟

محمد فريد ومبرى

خطبة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الأزهر

في إحياء ذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول

وتوزيع الجوائز على الناجحين

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك - حضرات السادة
نحتفل اليوم بذكرى ساكن الجنان المغفور له الملك فؤاد الأول ، أحسن الله
مثواه . وتمر السنون وتتعاقب الأيام وذكره يعمر القلوب ويملا الأفئدة ويلجج
اللسنة بالدعاء إلى الله أن يمطر جدته شآبيب الرحمة والرضوان ، جزاء ما أدى لأمته
من الخير وجليل الأعمال .

كرس الملك فؤاد حياته كلها في مصر وخارج مصر ، لخدمة بلاده التي فطر
على حبها منذ حداثة ، وكان هدفه في جميع أعماله خير الأمة وتحقيق النفع العام
لجميع أبنائها ، ولقد أثر عنه أحسن الله مثوبته قوله « ليس أمراً أن تكون أميراً
ولكن الأمر كل الأمر أن تكون نافعاً .

كان من أول ما اهتم به الملك فؤاد العناية بشيية البلاد وتنشئتهم تنشئة
صالحة ، لأنه كان يرى أنهم عماد الوطن وعدته في المستقبل ، وفي صلاحهم صلاح
الوطن ، ولهذا حرص على أن يهيء لهم تقدماً علمياً ، ويوفر لهم ثقافة ممتازة متعددة
النواحي ، تقوم على تمجيد ماضيهم العريق ، وتفتح أمامهم طريق البحوث العلمية
الحديثة التي سبق إليها العالم لتكون لمصر ثروة علمية نافعة تنبؤ بها مكانتها
المجيدة بين الأمم .

وكان أول مظهر لهذا الاهتمام إنشاء الجامعة المصرية بعد أن كانت أمنية وطنية
وفكرة قومية ، تظهر حيناً ثم تخبو ، لما تلاقى من الصعوبات ، فقد عمل رحمه الله

على أن تكون حقيقة واقعة ، ثم وجه عنايته إلى النهوض بها والتكئين لها لتكون أداة فعالة في إذكاء الروح العلمية بين الشباب ، وعاملا قويا في بعث حركة البحث والتأليف على أحدث نظم الجامعات العالمية العريقة .

وقد بذل لها في هذا المضمار من قوة نفسه ما قوى دعائمها ، ووسع مجالها وأعانها على النهوض حتى بلغت في عهده الميمون الذروة ، وحققت ما عتمد عليها من آمال - وها هي اليوم تحمل اسم فؤاد العظيم تياهة فخورة ، تسامى أعظم الجامعات جلالا ومجدآ .

لم يفت فؤاد العظيم ما للأزهر الشريف من أثر بارز في الحياة المصرية ، وتكوين الشباب وتنشئتهم على الفضائل الإسلامية والأخلاق القويمة ، ولا ماله من مكانة سامية في البلاد الإسلامية ، فحرص على أن يبلغ من التقدم ما يحى به أجداده السالفة ويهيء له في المجتمع الإسلامي مكانه المرموق ، فأحاطه بعين رعايته حيث أشار رحمه الله بتعديل قوانينه وإصلاح مناهجه ، ليساير حركة النهضة العلمية التي انبعثت في البلاد بفضل جهوده ، فكان أن صدرت عدة قوانين تدرج بها الأزهر في حر كته العلمية إلى أن توجت بقانون سنة ١٩٣٠ ، وهو الثانون الشامل للإصلاح ، حيث أنشئت به الكليات ونظم به الأزهر تنظيما جامعيا ، وأدخلت فيه اللغات الأجنبية والشرقية وهو تنظيم ساير فيه الأزهر روح العصر مع الاحتفاظ بالتراث الفسكرى الإسلامى والعناية بفهم ما فيه من كنوز وذخائر

وبتوجيهه الكريم ، أرسلت بعثة فؤاد الأول من أبناء الأزهر إلى الخارج ليتزودوا من العلم والمعرفة ، وليدرسوا أحسن النظم الجامعية في البحث والتأليف . وأرسلت بعثتان من رجاله إلى الصين والحبيشة لئشر الثقافة الإسلامية في أرجاء هذه البلاد . فكانت هذه البعثات نواة لحركة التوسع العلمى التى نمت واتسع نطاقها في عهد شبلة العظيم ، الملك فاروق الأول أعزه الله

وقد عمل أحسن الله مشواه ، على تشجيع الطلاب على النبوغ والتفقه في العلم فأرصد مكافآت سخية للنابعين والأوائل منهم في الكليات ، وما هذه الجوائز التى تقدم اليوم لأوائل الناجحين في امتحان الشهادات العالية للكليات إلا عارفة من عوارفه ، ويد من أياديه الغر الميامين على الأزهر وأبنائه .

وجملة القول أنه في عهد الملك فؤاد العظيم قد انبعثت في الأزهر كله نهضة علمية واسعة، فانتشرت معاهده في الأقاليم، ونشطت حركة البحث والتأليف بين رجاله وأخرج أبناء الأزهر مئات البحوث القيمة في شتى نواحي العلوم، وتبوأ الأزهر بفضل رعايته مكانة ملحوظة في الحياة العامة في مصر وخارجها، وهو في عهد الملك فاروق، أعزه الله، قد خطا في هذا السبيل خطوات موفقة، وهو يسير قدما في نشر الدين والثقافة الإسلامية في مصر وخارج مصر بما نرجو أن يحققه الله به الخير العام للإنسانية.

لم يقف فضل الملك فؤاد في النهوض بشيية البلاد عند حد العناية بالأزهر والجامعة، بل امتد إلى التعليم العام فشمّل جميع مراحل، من ابتدائية وثانوية وفنية حيث أشار بإصلاح نظم التعليم ومناهجه في المراحل المختلفة بما يتفق ومصلحة الأمة. وبحسن توجيهه انتشرت مدارس التعليم الإلزامي في القرى والبلاد، وأنشئت مدارس ليلية لتعليم العمال وغيرهم، وكان هدفه في كل ذلك النهوض بأبناء الأمة ومحو الأمية من صفوفهم؛ لتسامى مصر أمم العالم حضارة ومجداً.

كما وجه عنايته إلى رعاية البحوث العلمية التي تعود على الإنسانية بالخير، فشجع الجمعيات العلمية وأمدّها بروحه، وأظلمها برعايته، حتى استطاعت أن تؤدى رسالتها وأن ترفع اسم مصر ومكانتها، وفي مصر الآن كثير من الجمعيات ومعاهد العلم النافعة كلها من غرس يديه؛ كالجمعية الجغرافية ومعهد الأحياء المائية وجمعية الاقتصاد السياسى وجمعية فلاحية البساتين وجمعية الهلال الأحمر، وجمعية الإسعاف وغيرها. واهتم جلالته باشتراك مصر في المؤتمرات الدولية، لما في ذلك من عظيم الفائدة من ناحية الدعوة إلى مصر بين أمم الأرض، ومن ناحية الاستفادة من تبادل البحوث فيما يهم مصر الاطلاع عليه من التقدم في أساليب الزراعة والصناعة والاقتصاد وغير ذلك. وبفضله دعت مصر إلى عدة مؤتمرات كان لها أحسن الأثر في العناية لمصر الحديثة التي أنشأها هذا الملك العظيم.

وكان جلالته شديد العناية بالأدب والفن، حريصاً على أن يوفر للشباب ذخيرة قومية من الكتب التي تعد مراجع في الأدب واللغة، حيث أشار - أحسن الله ذكراه - بطبع أمهات الكتب الدينية والعربية التي تعد من ذخائر التراث الإسلامى.

وأمر فطبع المصحف الكريم طبعا متقنا تحت إشراف لجنة علمية ، ثم وزع على المعاهد والمدارس وكثير من البلاد الإسلامية ، وهو معد لكل من يطلبه من المسلمين في جميع أقطار الأرض .

هذه لمحة من جهود الراحل العظيم في النواحي الثقافية والعلمية ، أما جهوده في النواحي الاجتماعية والعمرانية والسياسية فهي أعظم من أن ألم بها في مثل هذه العجالة ، ويكفي أن أقول إن له في كل بقعة من الوادى أثرا من آثاره فضته يحس به كل مصرى . ونظامنا الدستورى الحديث وهيئاتنا النيابية والتمثيلية فى الخارج ، كلها لبنات قوية وضعها طيب الله ثراه ، وبنت عليها مصر الحديثة مجدها وعظمتها . ولقد أتم الله نعمته عليه فشهد بنفسه الغرس الذى تعده ، وأحس عظمة المجد الذى شاده .

وانتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ ودوى صوت القدر فى أرجاء الكون « مات فؤاد العظيم وليحى الملك فاروق » . رحم الله فؤاداً ، وجعله فى أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

السَّيِّح محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التي ألقاها

في احتفال جمعية المحافظة ، على القرآن الكريم

بتوزيع الجوائز على المتفوقين

بمحضور ، مندوب من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأسمى الكريم ، الذي أنزل عليه القرآن ، هدى ورحمة ، وذكرى للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه ، حفظوا كتاب الله واهتدوا بهدى الله ، ففازوا بالسعادة في الدارين ..

دعوة الحق

حضرة صاحب العزة مندوب جلالة الملك

حضرات السادة :

إذا كانت جماعات البر والخير جديرة بالتشجيع والتقدير ، فإن واحدة من هذه الجماعات ، لا يمكن أن تقارن بجمعية المحافظة على القرآن ، في سمو الغاية ، ونبل المسعى ، إذ ليست هناك غاية أسمى من حراسة القرآن ونشره ، لأنه الأساس الذي نحفظ به حياتنا ، ونصون به شرفنا ، ونحمي به في هذه الحياة الدنيا كرامتنا السياسية والاجتماعية .

القرآن الذى ينفر من الذلة وينفّر منها ، ويمكن للعزة فى نفوس أبنائه .

القرآن الذى أدرك بعض غلاة الاستعمار أنه سبب نهوض المسلمين فى الماضى ، وأنهم إذا عادوا إلى التمسك به عادوا من جديد إلى التماس المجد ، والتخلص من مظالم المستعمرين واستبدادهم ، فصاح فى قومه قائلا : « إنه لا بقاء لنا فى الشرق إلا إذا انتزع هذا الكتاب من أيدي المسلمين » . ولقد صدق ، فإن عزة المؤمنين التى قررها القرآن لا يمكن أن تجتمع مع ذلة المستعبدين .. إن هذا الكتاب نبع فياض بأنبال المثل وأزكاها ، ولو أننا روينا ظمأنا الروحى والمادى منه ، لما شعرنا بهذه الذلة فى اتباع الغرب ، وارتقاب الغيث من سرا به الخادع .

مهرية الرأى والهداية والمساواة فى القرآن

يا حضرات السادة :

إن التجارب التى عانتها الإنسانية من حربين كبيرتين ، تنأهب بعدها لحرب أخرى ، أثبتت أن الأمم لا تنهض إلا على أسس الحرية والعدالة والمساواة فى الحقوق والفرص ، والمساواة فى الشدائد والمحن . والضمان الذى يرد عليها هذه المطالب إن عدا عليها جبار عنيد ، أو افتات عليها شعب مستكبر طامح ، وللأمم جميعاً أن تسعى إلى هذه الأهداف ، وأن تبدل فى سبيلها أحرّ دماؤها ، وأغلى أموالها ، فإن الحياة بدونها لا تساوى فتىلاً ، ولو فقه المسلمون القرآن العظيم ، وأبصروا ما رسم للعالم من غايات ، وخط له من مناهج واضحات ، لعلوا أن ما يطمحون إليه فى تناول أيديهم ، ليس عليه غبار من شهوة ، أو ظل من ارتياب .

إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، ويوم علّم المسلم أن لا يذل إلا لله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله ، وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تألّه كاذب للأدعياء ، الذين ظهروا فى تاريخ الإنسانية ، متألهين متجبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فردا . » . ولقد كان

صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أكبر معلم لحرية الفكر . يوم نادى في عاصمة الوثنية بتوحيد الله ، ويوم صبر على الأذى في سبيلها ، وتحمل العنت لإبلاغها ، وإزاحة العوائق من طريقها . وهل كانت هجرته إلا تقريراً لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التي صحبت دعوته إلا دفاعاً عن حق من حقوق الإنسانية العالية ؟ هو حق كل امرئ أن يعتقد ما يطمئن إليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، ويعيش في ظله ، من أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الكريم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . والفتنة معناها استخدام القوة في مصادرة الآراء الصحيحة ، واضطهاد المبادئ السليمة ، وكما أقام الإسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشرعية ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ويصل إلى حتمه في ظلها القسوى والضعيف ، ولقد شرحت في موقف سابق من هذا المنبر ، كيف كان عامة الناس يتماضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجلس القضاء ، ولا يترددون في تنفيذ ما يلزمون به من حقوق .

العدالة في القرآن ، تتضاءل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين مهما بعدت « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن وجعلت للعهود حرمة لا تضعفها وحدة الدين ، وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعاً في ساحة القضاء فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة ، ولو كان في ذلك خذلان للمسلم الحاكم وانتصار للكتابي الضعيف . . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين

الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله في الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ، ولا لون أكرم من لون .

وفي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » .

نعم . علم الإسلام أبنائه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على سواء ، وأن السوق والعظماء أمام تعاليم الدين ، وموازن الحساب ، وفي ميادين العمل ، لا يفضل أحد منهم أحدا إلا بالتقوى والخلق الكريم ، فأين ذلك مما يحدث في العالم اليوم تحت إشراف السياسة العالمية ، وبوحيا ، ورضاها من تقسيم خلق الله الى سادة وعبيد ، ومن تحويل المستعمرات الى حقول استغلال ، يمرح فيها البيض ، مفتاتين على جهود السكادحين ؟!

الحقوق التي قررّها القرآن للمعموزين في المال لا نظير لها في النظم الحمريّة

ومن أروع ما حفل به القرآن الكريم ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيداً للتضامن الاجتماعي الذي يشد بناء الأمة شداً محكماً ، فلا تتساقط منه لبنة ، أو تحدث فيه ثغرة .

فالغنى في نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق يجب أن يؤديها ، ويجب على الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها » . وهناك حقوق لا تقل في خطرها عن الزكاة ، أوجبها الإسلام كما أوجب الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن في المال حقاً سوى الزكاة ، وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبيناً حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان فقال « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى ،

والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب . وأردف هذا بقوله « وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة » فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين حق على من صادفهم في أزمته ، ولو كان قد أدى زكاة ماله ، وهذا من أنواع الماعون ، الذي جعل الله الويل لمناعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن إكرام الضعيف المتمتع عن أهله وماله ، حق على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل في المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرفهة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ، ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك ما لا نظير له في شرائع البشر — وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق في الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء . (إن الأشعرين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية ، فهم منى وأنا منهم) ، حدثني إذاً بعد هذا الذي سمعته ، ماهي الاشتراكية الحديثة التي ضمنت للناس ما ضمن الإسلام من سماحة ومرحمة ، وإنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التي قيدت بها الملكية ليست في نظر الإسلام نافلة هينة ، ولسكنها نظام مفروض ، يقاتل دونه الإسلام ، وعصمة الدماء والأموال ، مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قرره عليه الصلاة والسلام !

هذا أيها السادة هو القرآن الذي أخذت هذه الجمعية نفسها بتحفيظه للناشئة ، بعد أن حورب في بلاده بكافة الوسائل وشتى الدسائس والحيل التي أحكمها الماكرون فإذا يمكن أن نبليغ من القول في فضل هذه الجمعية ؟ إنا ندع شكرها لله الذي يجرى المحسنين .

وفقمنا الله وإياكم للاهتمام بهدى القرآن ، والتأدب بآدابه في ظل صاحب

الجلالة الملك العظيم ، ملك وادي النيل ، فاروق الأول حفظه الله ؟

كَلِمَةٌ

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

السيد محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التي ألقاها

في الاحتفال بذكرى المجاهد العربي

السيد عبد القادر الحسيني « بدار جمعية الشبان المسلمين ،

أيها السادة :

إن احتفالنا اليوم بتلك الذكرى المجيدة ، ذكرى أحد أبطال الجهاد المغفور له السيد عبد القادر الحسيني ، يبرز لنا أعظم ناحية من نواحي الجهاد لأشرف غاية من غاياته ، في هذا المثل الحى الخالد ، رمز التضحية (عبد القادر) الذى جاهد فبذل أعز ما يملكه المجاهد ، وهو نفسه ودمه ، وجاهد فى أنبل هدف يهدف اليه الأبطال ، وهو حماية الدين ، والعقيدة ، والوطن ، فاستشهد عبد القادر بعد أن ضرب أروع الأمثال ، ولا غرو ، فإنه نبت طيب نما فى أرض خصبة طيبة فلا بد أن يكون لذكره هذا الخلود .

إن جميع من عرفت من أسرة الحسيني ، كان له شرف اضطهاد الظالمين المعتدين بلون من ألوان الاضطهاد . وكبير هذه الأسرة مثل مضروب فى قوة الإيمان ، والثبات على العقيدة ، وتحمل جميع المسكاره ، فى حكمة ، وعقل ، وثبات نفس ، وقوة جنان ، ونشاط متمتع النظير ، واحتقار لأكاذيب الأعداء ، أو المأجورين ، أو بعض البسطاء المخدوعين .

لم يكن غريباً عندى إذاً أن يقوم عظيم من عظماء هذه الأسرة بذلك الجهاد المبرور ، الجهاد الحاسم ، القاهرة ، فيما أن يحسم بقهر الأعداء ، أو يحسم بالاستشهاد .

فالجهاد في نظر المؤمن طريق معبد إلى نصر محقق ، ان لم يكن في دار الفناء ، ففي دار الخلد والبقاء . (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون) .

ليست ذكريات الجهاد والاستشهاد كلاماً يردد ، أو خطباً تعاد ، فذلك من مواطن الضعف بين العرب والمسلمين في عهودهم الأخيرة ، حينما ألهبوا الأوكف بالتصفيق ، وأتعبوا الخناجر بالهتاف ، وراحوا يعددون مناقب السلف وتخاذل الخلف ، وكيف فاز الأولون بالغلب ، وقنع الآخرون بالبكاء .

لا . أيها السادة . ذكريات الشهداء اقتناع بالحق وشعور بوجوب التضحية في سبيله ، وتدافع إلى استعادته بالعمل لا بالتمول . . . ذكريات الشهداء قوة في النضال ، وعزيمة في الجلال ، وتسابق واعداد ، حتى يعلم الناس أن العرب والمسلمين أفاقوا من سباتهم ، وصمموا تصميمياً لا ينجل على استرداد مجدهم .

أعداؤنا أيها السادة هم أعداؤنا الأولون ، هم الصليبيون . هم الذين شنوا الغارة على المسلمين في مدى مائتي عام ، فعمدوا إلى إذلال العباد ، وإفساد البلاد ، وهم ليسوا في ثوبهم الجديد من الحضارة المسكونية ، والمدنية المدعاة والزعيم المردود بأن الحروب الآن سياسية لنصرة المظلوم ، والأخذ بيد الضعفاء ، وتوزيع العدالة في الأرض . ليسوا في هذه الحروب بالنسبة للمسلمين الأصليين يفرقون كلمتهم ويناهضون حتموقهم ، ويظمسون معالم حضارتهم وثقافتهم . . فإذا كان هؤلاء الأعداء لا يزالون صليبيين فليكن المسلمون جميعاً أيوبيين ، وليكن كل ملك من ملوكهم وكل أمير من أمراءهم وكل زعيم من زعمائهم ، ليسكن كل واحد من هؤلاء صلاح الدين الأيوبي في قوة إيمانه وشكيمته ، ورباطة جأشه ، وسلامة رأيه ، وبعد نظره ، وليكن جهادنا في أنفسنا بالرجوع إلى الدين ، واسترجاء نظمه ، والحفاظ على تعاليمه السامية ، التي ترسم للعالم كله طريق المجد والعظمة والإباء .

ثم يأتي بعد ذلك جهادنا في أعدائنا الذين لا ينمطعون عن الكيد لنا ، وتمزيق صفوفنا ، وتفريق وحدتنا .

هذا سجل التاريخ، شهادة ناطقة بما كان في عهد الأيوبيين في نفس الميدان الذي قضى فيه عبد القادر الحسيني، من مقاومة صادقة، وجهاد رائع، ابتداء من عهد مؤسسها صلاح الدين، إلى عهد توران شاه.

كللت حياة هذين البطلين بالانتصار الباهر في معارك معروفة، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما في رد غارات الأعداء، فكأن هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوروبا على المسلمين، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة.

ولولا وقوف هذه الدولة في وجه أوروبا المتعصبة لا نقرض الإسلام من الشام، والجزيرة، ومصر، وشمال أفريقيا، كما انتقض من الأندلس. والفضل في ذلك للواقعتين الحاسمتين واقعة (حطين) وبطلها صلاح الدين، وواقعة (المنصورة) وبطلها توران شاه.

ونحن الآن بصدد انتظار معركة جديدة يقودها بطل من طراز هذين الرجلين العظميين لطرد الأوربيين من بلاد الإسلام، وطردهم من فلسطين، قلب العالم الإسلامي.

وإني الآن أيها السادة أَسْجَلُ في طمأنينة وثقة، وقوة أمل، أن المرحلة التالية ستنتهي إن شاء الله بانتصار العرب والمسلمين متى قيض الله هذا البطل الذي يقود المؤمنين إلى النصر الموعود، والظفر المرجو، ذلك وعد الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم).

كما إني واثق من أن مصر ستظل كعادتها في مقدمة الصفوف، لدفع الأعداء وحمل اللواء، وفق الله مصر والعرب، وحفظ الله الملك.

لِسِرِّ هِبَانِجِلْ

الملكيات الزراعية الكبرى

لحضرة صاحب العزة مدير المجد

قال حضرة مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) تحت رقم ٢ من باب (هذه عوائقنا) بعنوان (الملكيات الزراعية الكبرى) :

« وثاني العوائق التي تحول بين المجتمع ونوره وسعادته - هذه الملكيات الزراعية الواسعة .. وإذا كانت مصر بلداً زراعياً ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكاً لمائة أسرة أو مائتين ؛ فإذا يبق للشعب من ثروة بلاده وأرضه ؟ ، هذه ظاهرة محزنة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد في مواجهتها مثل ما تنفقه في مكافحة الضائقتين بها ، لآفدنا كثيراً ، »

ثم أتى حضرة المؤلف بإحصاء يبين أن في مصر (١٦٨٩٤٠٨٣) من المواطنين لا يملكون شيئاً من أرض بلادهم ، أي إن الذين يملكون أجزاء منها لا يزيدون عن أربعة ملايين إلا قليلاً .

وعقب حضرة المؤلف على هذا الإحصاء بقوله :

« ترى : هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها على هذه المحنة الطاغية ؟ ! فإنك لتجد الحياة كلها ضرباً متمائلاً من الشذوذ والفوضى ... ومثل ذلك في سوريا ولبنان واليمن ... وفي الحجاز حيث تقطع أنفاس الحجازيين عدواً ووثباً وراء الحجاج وهم يصيحون : هله يا حج .. هله يا حاج !! بينما حفنة من المترفين تحصى على الأصابع ... تسبح في بحيرات من اللذة والشراب ... والذهب المذاب . »
« يا حسرة على العرب ... وعلى الشعوب التي أوهنها الحرمان الأليم ! »

نقول : هذه اللمحة المقذعة التي يستخدمها المؤلف في إيراد الموضوع الذي هو بصده ، يوم بأن عوامل من الاستبداد في تصريف الشؤون الاقتصادية تعمل على

لإيجاده واستمرار وجوده ، وكان الأولى معالجة الموضوع الخطير معالجة علمية لتعلم الشعوب الممنونة بهذا الضرب من الحرمان كنهه العوامل العاملة على وجوده وعلى استمراره ، وتتأدى من ذلك إلى طرق الخلاص من آثاره .

والحقيقة العلمية هي أن الشعوب كلها على عهد الحكومات المطلقة السابقة على العهد الدستوري ، كانت على هذه الشاكلة ، فلم يكن لأحد من الفرنسيين أو الإيطاليين أو الألمانين وغيرهم شبر من الأرض لأحد منهم حق التصرف فيها استغلالاً أو بيعاً وشراءً ، بل كان الحق كله على الأراضى ومن عليها للبلوك وبناتهم وكان الشرق كله على تلك الشاكلة .

فلما تولى مصر محمد على الكبير مؤسس الأسرة المصرية المالكة عمل على تنشيط الفلاحين على الزراعة واستصلاح الأراضين ، فكان يفرض عليهم استغلال قطع من الأراضى فرضاً ، وكانوا هم انقصور همهم ، وتقصير ذات يدهم يعجزون عن زراعتها ، ويلجأون إلى الهجرة إلى البلاد المجاورة . فكانوا يهربون إلى سورية ويسيرون فيها طول حياتهم هرباً من هذه التكاليف .

فى هذا العهد ، عهد كثير من كبار رجال الدولة إلى احتياز ألوف من الفدادين واستصلاحها والانفاق عليها ، واستخدام الفلاحين فيها بأقل الأجور ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا مساحات واسعة للزراعة الأصولية ، واعتبار ما يحتازونه على هذا الوجه ملكاً لهم . فلما هل عهد تحديد الملكيات الزراعية أقرت الحكومة ملكيتهم لتلك الأراضى ، وبقي معظم الفلاحين أجراء عندهم ، ليس لهم مما تعبوا فى استصلاحه غير حظ ضئيل .

على هذا الوجه أصبحت معظم الأراضى الزراعية لسكبار رجال الدولة ، ثم لمن دونهم من الموظفين .

وقد فطنت الحكومات السابقة إلى أن حرمان الفلاحين من ملكية الأراضى يجرى إلى مشكلات اقتصادية خطيرة ، فعملت على تسهيل حصولهم على ما يستطيعون الحصول عليه منها ببيع الأطنان البائرة إليهم بأثمان زهيدة ، وباعفاء بعض تلك الأطنان المملوكة من الضرائب . فأصبح لهم بهذه الوسائل بعض الأراضى ، وهى لا تزال تعمل على شاكلتها فى هذه الوجهة . وستضطر إلى تقوية هذه الوسائل حتى تبلغ حدها المعقول .

على هذه الشاكلة جرت الأمم الأوروبية في تملك الفلاحين الأراضي التي يعيشون عليها ، وقد كان نشاطها أشد من نشاطنا في هذه السبيل ، ولا نظن أنه يمر قرن حتى تصبح حصة الفلاحين من ملكية أراضيهم أكبر الحصص ، فتتزن الشؤون الاقتصادية من هذه الناحية ، وتبلغ الحاجة الاجتماعية حدها الطبيعي ، ولا نظن أن ذلك يكون إلا بعد تحديد ملكية الأراضي .

أما في أوروبا فقد بلغت أممها أقصى مرحلة من مراحل توزيع الأراضي على الفلاحين ، وحددت فيها الملكيات تحديداً دقيقاً ، فأصبح للذين يشتغلون بالزراعة حق ممتاز في هذا المجال الحيوى .

ونريد أن نقول إن إحكام وضع قواعد ثابتة لتوزيع الأراضي على المشتغلين بزراعتها أمر بعيد التحقق ، ولكن السير إلى تحقيقه على مر الأيام أمر منتظر بعد أمد ليس بطويل .

فكان المنتظر من الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) أن يلطف من شدته في معالجة هذه المسألة الاقتصادية وهي تسير سيرها الطبيعي ، وأن لا يجعلها موضوع انقلاب تقدمه النذر والصيحات ، وتلام عليه الجماعات والحكومات ، فهي ككل الأوضاع الاجتماعية لا تتولد إلا بتولد عواملها ومقتضياتها ، والدليل على ذلك أن أية حكومة لو أرادت إحداث مثل هذا التطور قبل استكمال مقتضياته ، وتوافر دواعيه ، لما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، لعدم استعداد الشؤون الاقتصادية لمواناته ولا الأيدي العاملة للقيام بحقه . والأستاذ المؤلف يعرف هذا جيداً ، ولكنه يرمى من وراء الدعوة إليه إلى الدعوة للاشتراكية المتطرفة في وسط شعوب لم يتمذهبوا بعد بالاشتراكية المعتدلة . فهي دعوة تذهب مع الريح ككل دعوة ليس لها بواعث من الهيئة الاجتماعية ، ولا من حزب قوى الجاه متغلغل في عدد وفير من المجتمع ، يرى أن لا حياة له إلا بإحداث ذلك الانقلاب الاقتصادى ، اعتقاداً راسخاً منه أنه أمثل المناهج لتحقيق اجتماع أفضل مما نحن عليه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن الاشتراكية المتطرفة التي يدعو إليها الأستاذ لما يمس عليها مدى من الزمان أثبتت فيه أنها أولى من جميع النظم الاقتصادية لحياة الشعوب حياة طيبة . فهي لا تزال وليدة جماعات مفكرة في بيئات

لم تستكمل وجودها الاقتصادي، دفعتها إليه عوامل سياسية واجتماعية ليس لسائر الشعوب مثلها، ولا احتوشتها من عوامل الانقلاب مثل التي احتوشتها. ومثل هذه الجماعات لا تندفع إلى تلك الانقلابات، ولو أعطيت الاختيار لقبولها. ودليلنا على ذلك، الشعوب الأوروبية، فإنها بما أوتيته من الحرية تستطيع بمحض إرادتها أن تستقيم على السبيل الاقتصادي الأصح لوجودها، ولكن أكثريتها تهجم عنه ولا تريده، وتمضى قدما فيما هي فيه، ليس لها من أهداف سوى استيفاء حقوقها بالوصول إليه من الطريق الدستوري المقرر، لا من طريق الثورة على النظام الاقتصادي القائم.

وبعد، فلا يجوز أن يفوتنا أن المبالغة في طلب التسوية في مجال الحياة الاقتصادية لا يجوز أن توجد، فليس ذلك في قدرة أى مصلح. ولا يمكن أن يؤدي إليه أى نظام في العالم. فإن الناس يتفاوتون في المقدرة العلمية والخلقية، وإذا أمكن أن يحصل رجل بجده واجتهاده على مقدار من الثروة في مدة محدودة، لا يمكن لغيره أن يصل إلى مثلها لوجود الموانع دون ذلك من ناحية قدرته العلمية والعملية، وأخلاقه وقوة احتماله، وسائر الصفات المؤهلة للإنتاج والاقتصاد، ولو أوتى الأفراد بحصصهم من الثروة العامة كاملة، فلا يستطيع الكثيرون منهم أن يحافظوا عليها، فالتفاوت بين الناس أمر طبيعي لا بد منه ما دامت النفوس متفاوتة، وما دامت الشهوات تدفع بأصحابها إلى تجاوز الحدود في المتاع، وإلى الانتهاء إلى الحرمان المطلق، وبناء على هذه الأصول المقررة لا يمكن أن تصدق أحلام الاشتراكية السكاملة إلا إذا ساد المجتمع نظام استبدادي يجبر الأفراد على توحيد مطالبهم، والاكتفاء بما لا يضر الحصول عليه بقية أفراد المجتمع. وهذا الاجبار يتنافى وأقدس عنصر يجب ترك المجال الاجتماعي مفتوحا أمامه، ألا وهو الحرية.

نعم يمكن بتقييد حرية الناس تأليف مجتمع تتساوى فيه الأنصبة من مقدمات الحياة، فيعيش الناس سواسية لا يزيد بعضهم على الآخرين ولا يقلون عنهم، ولكن مثل هذا يصبح جحima لكثير من النفوس يشورون عليها، ويفضلون الموت على العيش فيها؟

النفس

سور التسبيح في القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

— ١ —

أقصد بسور التسبيح تلك السور التي نزلت مبدوءة بلفظ «سَبِّحْ» أو «يَسْبِّحْ»، أو «سبح» أو «سبحان» وهي سور سبع، منها اثنتان مكيتان هما الإسراء والأعلى، وخمس مدنيات هن الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

وسننظر أولاً في هذه الخمس المدنيات.

* * *

تبدأ هذه السور كلها بتقرير الحقيقة الواقعة في شأن الإله جل جلاله وما خلق، فتبين أن جميع الكائنات من سماوية وأرضية هي دلائل ناطقات، وآيات بينات، تدل على عظمة خالقها ومكوّنها، وتنزهه عن كل صفة من صفات السوء والنقص، وقد عبر عن هذا تارة بلفظ الماضي: «سبح لله ما في السموات وما في الأرض»، وتارة بلفظ المضارع: «يسبح لله ما في السموات وما في الأرض» إشعاراً بأن هذه الحقيقة ثابتة من لدن وجدت الكائنات، باقية ما بقيت.

وتشترك هذه السور - بعد اتفاقها في هذا الافتتاح - في معنى واحد يبدو أنه غايتها ومقصدها وهدفها الذي ترمى إليه، كما تشترك كلها - بوجه إجمالي - في الوسيلة التي تتوصل بها إلى هذه الغاية.

فأما المعنى الذي تشترك في تقريره وإبرازه فهو غرس خلق التضحية في قلوب المؤمنين، وحثهم في قوة وصرامة على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله.

وأما الوسيلة التي اتخذتها لذلك فهي بيان أن كل شيء في هذا الوجود إنما هو لله تعالى ملكا وتصريفا وتدييرا ، فليس يسوغ للمملوكين أن يتمردوا على أمر مالكهم ومدبر شئونهم والمتصرف فيهم ، ولا أن يخلوا بشيء مما أفاضه عليهم سواء أكان هذا الشيء نفسا أم مالا أم متاعا .

على أن الأسلوب في بيان هذه الوسيلة قد اختلف ، فكان لكل سورة طابعها الخاص ، وروحها المتميز .

ونرجو أن تتمكن من إبراز ذلك عند ما نعرض للكلام عليه بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

* * *

١ - سورة الحديد :

بدأت أول سورة من سور التسيح المدينيات ، وهي سورة الحديد بقوله تعالى « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ثم أوردت بعد ذلك أوصافا لله جل جلاله ترجع إلى ذاته وأفعاله وتصريفه ، فبينت أن ملك السموات والأرض إنما هو الله ، وأنه تعالى يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأنه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، ثم ذكرت خلقه السموات والأرض في ستة أيام واستواءه تعالى على العرش وإحاطة علمه بكل شيء ، ورجوع كل شيء إليه ، فتم لها بذلك التمهيد المقصد ، وإعداد النفوس للبطوب ، ومن ذا الذي يسمع هذا الوصف الذي يصف به الإله المالك الخالق القادر المتصرف نفسه ثم لا يكون مهيباً بروحه وقلبه لتلقى أمر مولاه ومالك ناصيته ؟

هكذا تخلصت السورة إلى القلوب بهذا الوصف القوى الرهيب ، وهذا الحديث الجامع عن عظمة الله ، ثم جاءت بعد ذلك بالأمر المراد فقالت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » فجمعت بين طلب الإيمان بالله ورسوله - الذي هو الفريضة الأولى على الإنسان - وطلب الإنفاق ، وعبرت عن المال الذي أمرت بالبذل منه بعبارة تتفق وما مهدت به من أن كل ما في الوجود مملوك لله تعالى حيث قالت « مما جعلكم مستخلفين فيه » لتفيدهم أن مركزهم بالنسبة

للمال هو مركز الخليفة عن الله ، كما أنهم خلفاء عنه في الأرض ذاتها «لأنى جاعل في الأرض خليفة» .

ويفهم من التعبير بلفظ «الاستخلاف» أن الإنسان قد «خوّل المال» ، وفوض له أن يتصرف فيه تصرف المالك الذي يفعل في ملكه ما يشاء ، ولكن في دائرة ما استخلف فيه ، وهو قد استخلف على أن يكون ما جعله الله في يده قسماً له وقسماً في سبيل الله وفي سد حاجة المحتاجين ، فليس له أن يحتجز ما غيره فيبخل به عن مواضعه ، وإلا كان خارجاً على دستور خلافته ، منحرفاً عن شروط توليته وتحويله .

وفي التعبير بلفظ «الاستحلاف» أيضاً إشارة إلى معنى آخر ، وهو أن المال قد وصل إلى الحاضرين بعد أن كان في أيدي السابقين ، وأنه سيصل إلى الآتين بعد أن يخرج من أيدي الحاضرين ، فإن الخلافة معناها أن يتتابع على الأمر خلفٌ بعد خلف ، فإذا نظرنا إلى المال هذه النظرة علمنا أنه غير باق لنا كما لم يبق لمن قبلنا ، وحرصنا على أن نستوفي منه حظنا قبل أن يصير لغيرنا .

ثم ذكرت السورة بعد هذا الأمر الجازم بالإيمان والإنفاق أن جزاء الذين استجابوا لرهبهم فآمنوا وأنفقوا جزاء كريم ، وأجرهم أجر كبير ، ثم ناقشت معنى التباطؤ عن الإيمان ، والتباطؤ عن الإنفاق مناقشة منطقية ، فاستنكرت الأول بقولها : «وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول» يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ، هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم .

فهي تقول لهم : إن الرسول قائم بينكم يدعوكم دائماً إلى الإيمان بالله ، وقد أخذت عليكم الموائيق من قبل : لتؤمن بالله بربكم ، موائيق الفطرة والعقل والدلائل يوم «ألست بربكم» ، ووضح لكم أن الله هو الذي أرسل هذا الرسول وأنزل عليه الآيات البينات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والمعرفة رافعة بكم ، ورحمة لكم ، فما الذي يحول بينكم وبين الإيمان ؟

واستنكرت الثاني بقولها : «وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض» ، أى أن كل شيء في هذه الدنيا صائر إلى الله ، ولا مناص من خروج

الإنسان عما يملك ، إما بالموت وإما بالإنفاق ، فإذا خرج عنه بالموت مع حرصه على اكتنازه وبخله به وعصيان الله فيه ، فقد خرج عنه بطريقة مذمومة يلحقه فيها العيب ، ويدركه اللوم والعقاب ، وإذا خرج عنه بطريق البذل والإنفاق والنزول على أمر الله فيه ، ومعرفة حتمه ، كان في هذا الخروج كريماً نبيلاً ، ولا شك أن العاقل يختار الثانية على الأولى .

وهكذا عاجلت السورة أمر التباطؤ عن الإيمان والإنفاق بإثبات الدواعي ونفي الموانع كما يقول أهل البحث والمناظرة .

ثم وازنت السورة بين فريقين من الباذلين المضحين ، فريق الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا وقاتلوا قبل الفتح ، وقبل أن تبدو مظاهر النصر للدين ، وفريق الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح حين ظهر الإسلام ، وقويت شوكته ، وقد أثبت الله الحسنی لكل من الفريقين ولكنه جعل للأولين درجة على الآخرين .

وفي هذا عدل وإنصاف حيث لم يحرم أحداً جزاء فعله ، ولم يسوِّ بين من كان إحسانه مستوفياً عناصر الثقة بالله دون تلبث ولا تردد ، ومن كان إحسانه بعد لای وإن كان من الصادقين .

ثم جاءت السورة الكريمة بعد هذا بصورة رائعة من صور الحث على فعل الخير : صورة مقترض يناشد من يقرضه قرضاً حسناً ، ويعدده على هذا القرض وعداً صادقاً أن يضاعفه له ، وأن يزيده فوق هذه المضاعفة أجراً كريماً في يوم يكون للمؤمنين فيه شأن ، وللمنافقين شأن ، والمقترض الداعي في هذه الصورة هو الله جل جلاله ، والمدعون إلى هذا القرض هم المؤمنون والمؤمنات الذين وثقوا بربهم ، ولم يفتنوا ولم يتربصوا ولم يرتابوا ولم تغرهم الأمانی « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشرآكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم

فتنم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فالיום لا يقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير .

ثم تمضى السورة بعد هذه الدعوة التوقية إلى البذل والإنفاق ، فتأس منهم القلوب وعواطف الإيمان والرحمة ، وتحذره أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فتست قلوبهم ، كما تحذره أن يقتطوا ويأسوا من أنفسهم فإن الله يحيى الأرض بعد موتها ، وتعود مسرعة مرة أخرى إلى حديث الإنفاق والصدقات فتقول : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » ، وتمضى فى هذا الحديث مبينة شأن المؤمنين بالله ورسوله ، وأجرهم عند ربهم ، وشأن الكافرين المكذبين وجزاءهم فى نار الجحيم ، وتضرب مثلاً للحياة الدنيا فى لعبها وهوها وزينتها وتكاثر الناس فيها وتفاخرهم بالأموال والأولاد « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا لمتاع الغرور ، ثم تدعو المؤمنين إلى مسابقة جائزتها المغفرة من ربهم والجنة العريضة التى أعدها الله لمن آمن به ورسله ، « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ثم تنفى عن المؤمنين عاملاً من عوامل الضعف النفسى حين يشغلون أنفسهم بالندم على ما فاتهم ، والفرح بما أوتوا ، وتعلمهم أن كل شئ يصيبهم إنما هو فى كتاب قد قدره الله وسبق به علمه فلا مناص منه ، ولا مفر من حصوله ، وإذن فليس الحرص على المال بنافع إذا أراد الله بالمرء فقراً ، وليس البذل بمانع من الغنى إذا أراد الله بالعبد غنى ، وإن الله ليكره هؤلاء المختالين الفخورين ، الذين يظنون أنهم قد اطلعوا بحصافتهم أو علمهم أو فراستهم على الغيب ، فيبخلون خوفاً من الفقر : ويأمرون الناس بالبخل تخويفاً لهم منه ، ويتولون عن دعوة الله كأن لم يسمعوها ، والله هو الغنى الحميد .

ثم تتحدث عن شأن الله في إرسال الرسل بالبينات ، وإنزاله الكتب للهداية والتعليم ، وربطه السكون على سنن ثابتة وموازن متناسبة ليقوم الناس بالقسط ، وإنزاله الحديد ليكون زجرا لمن لا تنفع فيه الموعظة ، ولا تجدى معه أساليب الدعوة ، وتذكر رسالة نوح وإبراهيم ومن جاء بعدهما من ذريتهما ، وتذكر عيسى ابن مريم ومتبعيه ، ثم تتجه في ختامها إلى المؤمنين بهذا النداء القوي فتقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَتَّقُونِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

والكفلان اللذان وعدت بهما هذه الآية من آمن بحمد صلى الله عليه وسلم هما الجزاءان اللذان ادخرهما الله للذين جمعوا بين الإيمان بالرسل السابقين والإيمان بخاتمهم عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء ذلك أيضاً في قوله تعالى من سورة القصص « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا تِلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ، أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » .

* * *

من هذا العرض السريع لسورة الحديد يتبين ما قلناه من أن المقصود الأول أو الأوحد لها ، هو غرس خلق البذل والتضحية في نفوس المؤمنين ، وحثهم على محاربة الشح والظن بالمال ، وأنها التمسّت لهذا الغرض وسيلة معينة هي لفهام الناس أن الله جل جلاله هو مالك الملك ، وهو صاحب الخلق ، وكل شيء في هذه الحياة فهو منه وإليه ، وكل ما وقع أو سيقع فيأذنه وعلمه ، فليس لأحد أن ينكص عن أمره ، أو يتباطأ في تلبية دعوته .

وسنعرض في مقالنا المقبلة — إن شاء الله — لما جاءت به سور التيسيح الأخرى ، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي لهذه السور الكريمة ، والله المستعان .

التفسير

بقية التفسير الوارد في العدد الماضي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً » ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً »
سورة النساء

« واستغفر الله » الغفر : السّر والتغطية وغفر : غطى وستر . واستغفره لذنبه ومن ذنبه واستغفره إياه طلب منه غفره وستره بمعنى عدم ترتب العقوبة عليه . ولم يذكر المستغفر منه هنا وتركه عاماً كما تركه في قوله . فسبح بحمد ربك واستغفره » وذكره في آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين .. » . وهذا الأمر من الله لئلا يستدعى البحث عن الذي يستغفر منه الرسول هنا وفي الآيات الأخرى ... أما هنا فمفهوم من المقام ، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم مال بطبعه وحسب الأدلة التي تجمعت لديه إلى مناصرة المسلمين السارقين دون علم بحالهم طبعاً وهم أن يقضى على اليهودى البرى ، لولا أن الله نبهه إلى الحق الذي خفى عليه . فيكون الاستغفار بسبب هذا الهم وهذا الميل المعذور فيه . وهذا وإن كان لاشيء فيه بالنسبة لعامة الناس إلا أن مقام الرسول وعلو مرتبته وشدة قربه من الله ومراقبته يجعل ذلك مما يدعو إلى المبادرة بالتطهر منه . ولكل إنسان مقام وتصرف يتناسب مع مقامه فما يعد مقبولا من الجاهل أو الخادم قد يلام بسببه العالم أو السيد « وحسنات الأبرار سيئات المقربين » كما قال الجنيد . وهذا هو الذي يمكن فهمه سبباً للاستغفار هنا يعيننا عليه سبب نزول هذه الآيات ، وأيضاً هذه التواهي التي يشتم منها اتجاه الرسول إلى ما نهى عنه . فمجموع هذا يجعلنا نفهم أن المستغفر منه هنا إنما هو الميل والهم بالحكم فقط إذ لم يتعد الأمر غير هذا ولم تقع من الرسول في هذا المقام مخالفة عملية ،

وكذلك يمكن أن نفهم قوله : « فسيح بحمد ربك واستغفره » ، فسبب الاستغفار هنا كما يفهم من كلام الإمام الشيخ محمد عبده راجع إلى ما كان يساور الرسول من القلق والحزن لتأخر النصر والفتح . وهذه هواجس للنفس لا سبيل إلى التغلب عليها لا سيما في الشدائد ، فأمر الرسول بالاستغفار بما لا قدرة له على دفعه تطهيراً لتمام النبوة لأن ذلك هو المناسب لها .

أما آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » فقد صرح فيها بالمستغفر منه وهو الذنب . وهذا يستدعي منا أن نبحث هل وقع من الرسول ذنوب حتى يؤمر بالاستغفار منها وحتى يقول الله في آية الفتح له : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

هذه النقطة كانت مشار جدل قديم بين العلماء تفرعت عنه تأويلات شتى لهاتين الآيتين وما مائلهما في القرآن مثل : « فعصى آدم ربه فغوى » وقوله على لسان سيدنا إبراهيم ، « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » وقوله تعالى عن سيدنا داود « فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب .. فغفرنا له ذلك » ..

ولا أحب أن أثقل عليك كثيراً برد هذه الخلافات ، ولهذا سأذكر هنا الرأي الذي أميل إليه مطمئناً إلى دلائله وإلى من قال به من الأئمة الأعلام .

لا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يقصدون في أعمالهم إلى مخالفة الله في سرهم أو جهرهم ، وهم لا يسرون في كل أمورهم بوحى بل يتركون في كثير منها لفهمهم واجتهادهم في الوصول إلى الخير وتطبيق ما عرفوه عن الله على الحوادث الجارية أمامهم متوخين رضا الله سبحانه ، ولكنهم قد لا يوافقون في اجتهادهم وفهمهم مراد الله ، وهنا تحوطهم العناية الإلهية ويردهم الله إلى ما يريد من الصواب . وهذا هو الفرق بين الرسل وبين المجتهدين من العلماء .

قد يكون الرد إلى الصواب بعد تنفيذ الرأى وربما يصحبه عتاب كلامي كما حصل مع نبينا في قصة الأسارى ^(١) والمستأذنين ^(٢) وفي قصة زينب ^(٣) وابن

(١) ما كان لنبي أن يكون له أسرى . الآيات ٦٧ وما بعدها سورة الأنفال .

(٢) « عفا الله عنك لم أذنت لهم .. » آية ٤٣ من التوبة .

(٣) « إذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه .. » آية ٢٧ من الأحزاب .

أم مكتوم^(١) وقد يكون قبل التنفيذ كما معنا في هذه الآية إذ أن الرسول لم يحكم بالفعل بل هم ومال فنبه الله بالوحي إلى خلاف همه وميله وأمره بالاستغفار من أجله .

هذا الذى يحصل من الرسل من عدم موافقة فهمهم واجتهادهم لمراد الله مع إخلاصهم بالطبع في قصدهم للخير هو ما يمكن أن يتمال عنه إنه ذنوب كما عبر القرآن . وهى قطعاً ليست ذنوباً من جنس ذنوبنا بل إنها تشبه خطأنا - الذى نتاب عليه - فى الاجتهاد . على أن بعض العلماء يسميها أخطاء وبعضهم يسميها خلاف الأولى .

والذى يسميها ذنوباً أو أخطاء يجد سنده فى تسمية القرآن لها بهذه التسمية . والذى يطلق عليها خلاف الأولى يقول إن الله الذى أرسل الرسل هو الذى له أن يصف بعض أعمالهم بأنها خطأ وأنها ذنب . أما نحن الاتباع - وكلنا أقل مرتبة من الرسل - فلا يليق بنا أن نقول عن هذه الأعمال إلا أنها خلاف الأولى تأدياً مع مقامهم عليهم الصلاة والسلام .

والرسل فى هذه الحالات التى خالفوا فيها مراد الله معذورون . . ولكنهم ليسوا كالناس بل هم من المصطفين الأخيار لا يتناسب مع مقامهم إلا أن يتطهروا بالندم على عدم التوفيق فى فهم مراد الله - وإن كانوا معذورين - ولذلك وجههم ربهم - الذى أدبهم ورباهم إلى التطهر وطلب العفو والمغفرة فسكانت أوامر الاستغفار الصادرة من الله إلى الرسل التى معنا منها هذه الآية وكانت رغبة الرسل فى التطهر شديدة كذلك ، وكان إحساسهم بسمو مقامهم وشدة قربهم من الله يدفعهم إلى الاكثار من الاستغفار والدعاء والعبادة . . يدعون الله لهم أولاً لأنهم فى حاجة إلى عفو ورضاه ، ويدعون لأنهم ، ويعلمونها كيف تستغفر وتدعوا . .

وإذا وافقنى على هذا رأى الذى اخترته كنت معى فى أن هؤلاء الذين قالوا فى « واستغفر الله » أى لبعض أمتك الذين تواطؤوا مع السارق وشهدوا معه ،

وقالوا في « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » المراد ذنب أمته . كما قالوا في « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » أى من ذنب أمتك . كنت معى في أن هذا التأويل غلو لا معنى له ولا داعى إليه لا سيما وفهم الرسول والصحابة لآية « ليغفر لك الله ... » وما دار بينهم وبين الرسول حولها حين نزلت كان على أساس أن المغفرة للرسول لا لهم ؛ فقد قالوا له حينما نزلت وقد عبد الله حتى تورمت قدماه : « لم هذا وقد غفر لك ؟ » فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » وقالوا له هنيئاً مريئاً يابى الله .. بين الله ما يفعل بك ، فما يفعل بنا ؟ - وكان ذلك عقب نزول « ليغفر لك الله .. » فنزلت « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار الآية » .

« إن الله كان غفوراً رحيماً » كان تقتضى ثبوت الخبر بالخبر عنه في زمن مضى وانقطع . وهذا المعنى لا يستقيم في هذه الآية ولا فيما يشبهها ؛ إذ أن الله قديم وباق بذاته وصفاته فلا بد أن نحملها على الدوام في هذا التركيب وأمثاله ومعناه لم يزل ولا يزال موصوفاً بذلك الوصف .

وغفور ورحيم جاء على صيغتي المبالغة فعول وفعل ومعناها كثير الستر والتغطية للذنوب المستغفر منها ، بمعنى أنه كثير التجاوز عن العقاب عليها كما أنه كثير الرحمة لعباده والإلعام عليهم بنعمه التي لا تحصى ، والرحمة فيه من مقتضى ألوهيته وربوبيته .

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » هذا نهى للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل فرد من أمته عن الدقاع عن الخونة الآثمين . والجدل : اللدد في الخصومة والقدرة عليها ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ، والمجادلة المخاصمة . من جدله وجدله فأنجدل صرعه على الجدالة ، وهى الأرض كأن كلا من الخصمين يريد أن يفوز على خصمه ويلقيه على الأرض . والمعنى لا تقتصر لقوم خائنين ، وتدافع عنهم حتى تجعلهم يفوزون بباطلهم وينتصرون على غيرهم من الأبرياء .

« ويختانون أنفسهم » يخونونها إذ الاختيان والخيانة بمعنى . يقال خانه واختانه وإن كانت الأخيرة فيها معنى التكلف والتعمل كأنه يحمل نفسه ويقسرها قسراً

على الخروج عن الفطرة بالخيانة . والمراد بهم : السارق وقومه الذين آزره ونصروه بالباطل .

وخيانتهم أنفسهم : جاءت من أن ضرر خيانة الغير يعود على النفس ، ولا شك أن إضرار النفس خيانة لها ، إذ أنه بالمعصية عرضها للعقاب وحرمانها من الثواب . وقد اختار الله سبحانه هذا التركيب هنا وفي آيات كثيرة مثل قوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »^(١) « ولا تلهزوا أنفسكم »^(٢) « لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم »^(٣) . إشعاراً للنفوس بأن الاعتداء على الغير في أية صورة كانت اعتداء على النفس ، وتربية لها على الإحساس الجماعي حتى يحب المرء لآخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، وحتى يفهم معنى الترابط والتآخي العام ، ويحس بفداحة ما يقدم عليه من الاعتداء على الغير حتى ينفر منه .

« إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » ورد في القرآن ، « إن الله لا يحب المعتدين »^(٤) « لا يحب الله الجهر بالسوء »^(٥) « والله لا يحب كل مختال فخور »^(٦) وعدم المحبة في هذه الآيات كناية عن السخط والغضب من الله . إذ المحبة التي هي انفعال نفساني يترتب عليه آثاره مستحيلة على الله ، وكذلك عدم المحبة ، ثم إن نفى المحبة في حد ذاته لا يستدعي الغضب والكراهة والسخط ، لأنه يوجد معنى وسط بين المحبة وعدم المحبة ، فيقال أنا لا أحبه ولا أكرهه ، ولكن هذا لا يكون بحانب الله ، فهو سبحانه إما راض أو ساخط ، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، على أن محبة الله لما كانت منفية عن الخوان الإثم ، والمختال الفخور ، والجاهر بالسوء والمعتدى ، كان لا بد من تأويل ذلك بالسخط والغضب ، فعنى لا يحب أى يسخط ويعاقب .

« من كان خواناً أثيماً » جاء على صيغتي المبالغة فعال وفعل وانضم إلى ذلك ما تشعره كان في مثل هذا التركيب من معنى المداومة ، ومعنى ذلك كثير الإثم كثير الخيانة ، مداوم عليهما حتى صاراً ديدنه . ولكن هل معنى هذا أن غضب الله وسخطه لا يكون إلا على المتأصلين في الخيانة والإثم ؛ لا . إن الله لا يرضى أبداً

(١) ٢٩ سورة النساء (٢) ١٦ الحجرات (٣) ٨٤ البقرة (٤) ١٩٠ البقرة .

(٥) ٩٤٨ سورة النساء (٦) ٢٣ الحديد .

عن الخائن الآثم ، ولا عن الخوان الآثم ، فكلاهما مستحق للعقاب وإن تفاوتا . وإنما جاء هذا التركيب معبراً عن الواقع من أمر السارق وقومه ؛ فقد كان وغلا في الخيانة والإجرام ، وكانت نفسه بطبيعتها لا تنفك عن ارتكاب الجرائم ، حتى إنه لما فضحه الله بهذه الآيات كفر وهرب إلى مكة ، واستمر في جرمه حتى مات . هذا فوق أنه سارق ومتهم غيره ومحاول إضلال الرسول وانتزاع حكم منه لصالحه بغير الحق ، وقد اشترك قومه معه وعاونوه وآزروه ، فاستحقوا جميعاً هذا الوصف : الخوان الآثم .

وهذا الواقع الذي سجلته الآية في صيغتي المبالغة هو الذي روعى أيضاً في الجمع بين الخوان والآثم . فقد خان حين سرق ، وآثم في اتهام البريء . ويمكن أن يقال إن الخيانة حالة نفسية خبيثة ، تترتب عليها آثام عملية ، فجمع الله بين الطبيعة الشريرة ، والآثم الصادر عنها مما وافق حالة السارق وقومه . بخلاف ما يصدر من الإثم بحسن نية .

وبعد . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أمامه حادثة من الحوادث وتتكون الأدلة لديه لاتخاذ رأى معين فيها ، ولكن لم يحكم به لأن الله حرسه من الأعياب المنافعين ودسائسهم ، ونبهه إلى ما يجدر عمله حتى يوضع الحق في نصابه ، ولم يكن في هذا الميل الذي أداه إليه اجتهداه من شيء عليه ، وإنما يحكم بالظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يرض لرسوله حتى هذا الميل وهذا الهم بالحكم ، ووجد أن ذلك شيء لا يتفق مع صفاء النبوة ولا سمو الرسالة ، فوجهه إلى استرضائه وطلب المغفرة منه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كثير الاستغفار والدعاء وهو الذي يقول عليه السلام « ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة ^(١) » ويقول ابن عمر رضى الله عنهما : « إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة ، ولا غرابة في هذا ورسول الله أقرب المقربين إلى الله ، فانتا نعرف أن حرص

[١] أخرجه النسائي وابن ماجه عن أبى موسى .

المحب على رضا حبيبه يجعله دائماً يحاسب نفسه على هواجسها ويؤاخذها ويجتهد في بذل كل ما يترقبه أو يزيده قرباً . والذين يعاشرون الملوك يخشون هفوات نفوسهم ، وتعد عليهم أنفاسهم ونظراتهم ويبادرون دائماً بتصحيح كل ما يمكن أن يؤخذ عليهم وإزالته حتى لا يطردوا من ساحة مليكهم ، أو يوصفوا بعدم الارتياح إليهم ، ويجتهدون أن يكونوا عند مليكهم تماثيل من الاخلاص تشع وفاء وولاء ، فما بالك بهؤلاء المصطفين الأخيار ، الذين اختارهم ملك الملوك واجتباهم وهذبهم وهدهم ، أفلا يكونون أحرص خلق الله على رضا ، وأشدهم إحساساً وتقديراً لفضله ، وأسرعهم إلى إزالة كل ما يشتم منه رائحة مخالفة ولوصورية لربهم ! ثم ألسنا نحن أتباع الرسل نلوم أنفسنا كثيراً على هواجسها السيئة أو نستغفر الله ونندم من سيطرتها علينا فترة من الوقت ؟!

فهل يمكن لإنسان بعد هذا أن يقول : إن هؤلاء المقربين أصبحوا في غنى عن فضل الله وعفوه ورضاه ، أو أن مقامهم يحل عن ذلك حتى يجعل كل استغفار لهم استغفاراً لآمتهم لا لهم ، بحجة أنهم ليسوا في حاجة إلى استغفار ؟! لقد استغفروا لأنفسهم لأنهم في حاجة إلى العفو والمغفرة ، واستغفروا لآمتهم لأنها في حاجة إلى دعائهم واستغفارهم وشفاعتهم عند ربهم ، وعلّموا الناس بذلك كيف يستغفرون ويتطهرون وهم أشد حاجة إلى الاستغفار والتطهر ، و« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »

ما أجددنا أن تتأمل قليلاً في توجيه الله لرسوله أن يسترضيه ويستغفره !! إنه العطف الكامل والرعاية الشاملة التي تؤذن بقبول الاستغفار وشمول العفو والمغفرة . ثم ما أجددنا بعد هذا أن تتأمل موقفنا من احتضان الباطل والمبطلين ومناصرة الظلم والظالمين بالتمسك إلى موقف الرسول الذي كان يقصد الحق حين اجتهد فأمره الله أن يستغفر مما وقع فيه من الهم والميل . كم نحن في حاجة إذن إلى الاستغفار !!

إن في هذا لفتاً شديداً لأنظارنا حتى نحفظ للحق كرامته ونصون أنفسنا من الخوض في الباطل أو مناصرة الظالم ، كما أن فيه تحريضاً قويا على السعي إلى التطهر مما يتدنس به الإنسان من عمل لا يتفق والحق . والاستغفار ليس

إلا توبة خالصة ، فيها ندم ورجوع إلى الحق وعزم على الإخلاص . والله سبحانه كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن كمال ربوبيته رحمته التي وسعت كل شيء . « لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم » ^(١) . « والذي نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم » ^(٢) . فلا محل لإذن لليأس من رحمة الله . « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ^(٣) . فمن الواجب أن يبادر المؤمن بالتطهر وهو موقن أن الذى يرجوه يحب رجاءه ويفرح بتوسله . « أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى ، والله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل يمشى أقبلت إليه أهول » ^(٤) .

وبعد أن أمر الله رسوله بالتطهر عاد إلى مخاطبته حيث ينهاه للبرة الثانية عن الوقوف فى صف الباطل والمبطلين ، فقد سبق قبل هذا بآية أن قال له : « ولا تكن للخائنين خصيماً ، فعوده هذا يحق لنا أن نتمف عنده طويلاً فإن خطاب الرسول هنا خطاب لآمته معه ، ونحن أشد حاجة إلى أن يقرع سمعنا هذا النهى مرة بعد أخرى حتى يستقيم أمرنا ، ويقرر قرار الحق بيننا ، وحتى لا يجد المفسدون فى الأرض من يحميهم من سطوة القانون وإن ختام الآية ليحمل إنذاراً شديداً للخائنين الذين يعيشون فى الأرض الفساد ، وهل هناك ما هو أشد على الإنسان من الطرد من رحمة الله حيث ينزل عليه غضبه ، وتحل عليه نقمته ؟ !

إن صاحب الامر ومالك الملك يتوعد الخائنين وينذرهم غضبه فى يوم يجعل الولدان شيباً ، وبأس ربك شديد وعذابه أليم مهين ، وإن كان غفوراً رحيماً « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » .

ولقد جمعت الآيتان بين الترغيب والترهيب ، أطمعت الأولى عباد الله المقصرين فى عفوه ورحمته ليبادر إلى ساحتها كل تواب أو اب ، أما السادرون فى آثامهم وضلالهم فتد كشفت الثانية عن مصيرهم ومآلهم : غضب وطرده من رحمة الله « ومن يهن الله فما له من مكرم ؛ إن الله يفعل ما يشاء » . يتبع

السنة

عيد الدستور

لفضيلة الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر ، فقال يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرأونها ، لو علينا نزلت - معشرَ اليهود - لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأى آية ؟ قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه ، والمكان الذي نزلت فيه ؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم الجمعة . رواه الشيخان .

* * *

تحتفل الأمم والحكومات الدستورية باليوم الذي ظفرت فيه بدُستورها الوضعي ، ويفخرون بأن لهم عيداً دستورياً مقدساً هو رمز جهاد طويل ، وعنوان حياة سعيدة ! .

فأحببنا أن ندلهم على عيد أعظم وأجل ، وهو عيد الدستور السماوي الذي احتفل فيه الإسلام احتفالاً مدوياً جامعاً بإكمال الدين وإتمام النعمة وإعلان الإنسانية بأنه دين الله الذي لا يُبتغى غيره ولا يقبل من أحد سواه « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه في مدة رسالته ، وهي ثلاث وعشرون سنة ؛ قضى منها ثلاث عشرة بمكة ، وعشراً بالمدينة . وفي السنة العاشرة التي لحق فيها بالرفيق الأعلى حج حجة الوداع ، ولم يحج

بعد الهجرة غيرها ^(١) . ووقف معه بعرفة مائة ألف أو يزيدون ، وشهدوا جميعاً هذا الحفل الإسلامى الرائع الجامع الذى لا يشهد التاريخ مثله أبداً ، ووافق الوقوف يوم العيد الأسبوعى خير يوم طلعت عليه الشمس بشهادة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

وبعد عصر هذا اليوم الذى جمع الله فيه للمسلمين عيدين عظيمين : عيد الجمعة وعيد عرفة - وإن شئت فقل عيد الأضحى - نزلت هذه الآية الكريمة تبشر المسلمين ببشائر ثلاث ، هن جماع المجد والعز والخير كله : بلوغ دينهم مبلغ الكمال فى حدوده ومعامله ، وفرائضه وأحكامه ، وحلاله وحرامه ؛ وإتمام نعمة الله عليهم بالنصر والعزة والتسكين فى الأرض ، ودخولهم البلد الحرام آمنين مظفرين ؛ واختيار الإسلام من بين سائر الأديان ديناً لهم ، رضيه الله وأحبه وأظهره على الدين كله ، وجعل السعادة كل السعادة فى الاهتداء بهديه ، والشقاوة كل الشقاوة فى المخالفة عن أمره .

* * *

كان بين نزول هذه الآية وبين انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى أحد وثمانون يوماً نزل فيها عليه آية الكلالة ^(٢) آخر سورة النساء ؛ وسورة النصر ، وآيات الربا . وقد قيل فى كل من هذه الآية وما نزل بعدها إنه آخر ما نزل من القرآن ، وهذا على حسب علم القائل وفهمه . والحق أن آخر ما نزل باطلاق ولم ينزل بعده شيء من القرآن ألبتة ، قوله تعالى « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ، فقد توفى صلى الله عليه وسلم على إثر ليال بعدها ! .

وأياً ما كان الأمر ، فلن يعارض نزول هذه الآى من بشارة إكمال الدين شيئاً ؛ فإن ما قارب الشيء يعطى حكمه ، ولا سيما إذا كان التمام موثقاً به ، لا يحوم حوله شك ولا ريبه ، وذلك كما يقول الملك وهو على طرف التمام من الغلبة والنصر : تم لى ما أردت ، وكما يقول المعنى بالصلاة لأول وقتها ولمسايدخل : دخل الوقت .

* * *

[١] وأما قبل الهجرة فكان يبيع كل عام ، قبل الرسالة وبعدها .

[٢] الكلالة من مات ولم يترك أصلاً ولا فرعاً

بهت اليهود هذه البشائر ، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للإسلام والمسلمين فأرادوا أن يعتنقهم بما ظنوا أن لاجواب عنه ! ويغيظونهم بما حسبوا أن لا شفاء منه ! وغاب عنهم أن الله خاذلهم على يد الفاروق من أعز به الإسلام ، وجعل الحق على لسانه وقلبه ؛ قدموا أحدهم وهو كعب الأحبار ^(١) ولم يكن أسلم بعد ، فوجه لأمير المؤمنين مقاتله في لهجة المتعنت أو الفرح أو الشاخ ! فما كان من الفاروق إلا أن أحفمه بجواب لا يقال إنه مسكت فحسب ، بل يقال - ولا مبالغة - إنه قاصم الظهر ، يبهت منه الذي كفر ! .

أجابه أمير المؤمنين بأن منزل القرآن - وقد أحاط بكل شيء علماً - أنزل هذه الآية السكرية في عيدين عظيمين لا في عيد واحد ، وفي أكرم مكان وأعظم حفل شهده التاريخ . فنحن لا نتخذ يوم نزولها عيداً من تلقاء أنفسنا ، ولا نبتدع في دين الله ما ليس منه كما تصنعون ؛ ولكننا نتخذ يوم نزولها عيداً بشرع الحكيم العليم ، الذي هدانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

* * *

هذا هو عيد الدستور السماوى الذى ورثه الله المصطفين من عباده ، وكتب فيه سعادة الدارين لمن ينصفون أنفسهم ويستعملون عقولهم ولا يدنسون فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ولكن ما الحيلة فى أقوام ركبوا رءوسهم ، واتبعوا أهواءهم ، وعموا أو تعاموا عن هذا النور المبين والهدى الحكيم ، فراحوا يطلبون حقوقهم فى دستور أرضى لا يغنى من الحق والسعادة شيئاً !!؟ .

إن الدستور الوضعى - كما يقول واضعوه - هو مجموع القواعد والقوانين التى تبين سلطة الحاكم وحقوق المحكوم وعلاقة كل منهما بالآخر ، وطرق توزيع السلطة واستعمالها ، وكل هذا تسكفل به الدستور السماوى وبينه أتم بيان وأحسنه وقام بتطبيقه المسلمون الأولون ، رعاة ورعية على خير وجه وأكمله ، أيام كانوا

(١) لأنه أعلمهم بالشرائع وأدراهم بالتوراة ، ولما رضوا به نسب إليهم القول فيما جاء من الروايات . قالت اليهود لعمر ، الخ وأسلم كعب فى عهد عمر رضى الله عنه ، وفى إسلامه مقال نفوض فيه الأمر إلى الله عز وجل .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لمحاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

— ٣ —

تحدثنا في الكلمة الماضية عن رأى ابن سينا فى مشكلة العمل والبطالة ، أو - بلغة أيماننا هذه - مشكلة الضمان الاجتماعى . وكان فى النية أن نسوق الحديث بعد هذا الى رأيه فى مسألة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع بصفة عامة . إلا أننا

ملوك الدنيا وسادة العالم ، وأيام كانت شعوب أوربا خاضعة لملوك وأمراء يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر ، اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، فعليهم للملوك السمع والطاعة ، وليس على الملوك لهم حق ولا واجب ! .

وانتد ناضلت هذه الشعوب نضالاً عنيفاً جرت فيه الدماء وأزهمت فيه الأرواح ، حتى نالت حتومها المسلوبة ، وحربتها المغصوبة ، بعد ثورات عواصف عظمت فيها الشعوب معاقل الظلم والاستعباد ، ودكت صروح العسف والاضطهاد ! .. وكان آخر مغم لهذا الكفاح الطويل المتواصل تلك الدساتير الوضعية التى اصطلمحوا عليها . ثم قدسوها تقديساً لو ظفر منهم ببعضه الدستور السماوى لعاشوا فى رغد من العيش لن ينالوه فى ظل تلك الدساتير أبدا !!!

* * *

أما بعد ، فإذا كانت الأمم الغربية قد ناضلت وقاتلت فى سبيل دستورها الوضعى حتى كتبتة بدماء الثورة . فقد منحنا الله دستوراً أجلاً وأعظم نغم به مغام الخير والعز والظفر ، دون أن نخسر شيئاً . وإذا كانت الأمم الغربية تبتج بدستورها وتفرح ، فإن المسلم الحق بدستوره الحق أعظم ابتهاجا وأشد فرحاً .

« يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور . وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

رأينا من الخير أن نعتمد على البحث الماضى بوضع مقارنات وتعليقات فى كلمات محدودة موجزة .

١ — الشيخ الرئيس كان مسلما قبل أن يكون فيلسوفا ، وقد فهم الإسلام حق الفهم ، وعرف الغايات التى جاء من أجلها والوسائل التى رأى اتخاذها لبلوغ هذه الغايات ، فكان لا بد إذأ من أن يتأثر فى تفكيره وعلاجه للمشكلات الاجتماعية والسياسية والفلسفية بهذا الدين الذى نشأ عليه ، وهذا التأثير نجده واضحا فى كل كتاباته فى هذه النواحي وغيرها ؛ كما نجده قد تأثر فى ذلك بلا ريب بما درس من الفلسفات ، وكان له بعد هذا وذاك رأيه الخاص بعد التفكير والموازنة والتحصيل .

ولسنا نحاول أن ندخل فى الإسلام كل تفسير نراه طيبا ، وكل علاج نراه عادلا لبعض ما نحسه من مشكلات ، كأن نقول مع القائلين بأن الإسلام دين اشتراكي وديموقراطى وما الى ذلك ، إن الإسلام أسمى من ذلك كله ، إنه دين أصيل له أسسه الخاصة وطابعه الخاص ، وإن غايته إسعاد الفرد والمجتمع والإنسانية كلها فى كل زمان ومكان ، وذلك بتعميم العدل وإشاعة الرحمة والتعاطف بين الناس جميعا ، لا فرق بين دين ودين وجنس وجنس .

هذا عمر بن الخطاب يتردد فى بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام . لقد رأى ذات يوم يهوديا يستجدى ، وعلم أنه ألجئ الى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه ؛ وفى سفره الى دمشق أمر بمثل لهذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجزام فلم يجدوا الى العمل سبيلا . وكان من هذه السياسة العادلة ، التى شملت المسلمين واليهود والمسيحيين ، أنه لم يكن فى عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج . وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان يفرض عمر لهم أيضا من بيت المال ما يكفهم ، كما يفرض لولى كل طفل رزقا يعينه على تربيته وتربيته .

وكذلك كان الأمر في عهد الفاروق الثاني ، عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، حتى ليقول يحيى بن سعيد فيما يرويهِ الأستاذ سيد قطب في كتابه « العدالة الاجتماعية في الإسلام » : « بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز [أى بعد له] الناس ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم » .

هذه الروح النبيلة ، من العدل والرحمة والتعاطف العام ، التي هي من لباب الإسلام ، قد فهمها ابن سينا وأمثاله ، فتأثروا بها دون ريب في تفكيرهم الاجتماعي والسياسي ، وكان من الشيخ الرئيس رأيه الذي عرفنا فيما سبق عن مشكلة العمل والبطالة . ومن نافلة القول أن نلاحظ هنا أن أوروبا لم تفكر في شيء من هذا الضمان الاجتماعي إلا في هذا القرن ، أى بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً بعد ظهور الإسلام .

٢ — يقول ابن سينا : « ومن الناس من رأى قتل الميئوس من صلاحه منهم [أى من الذين حيل بينهم وبين الكسب بأمراض وزمانات] ، وذلك قبيح ، فإن قوتهم لا يحجف بالمدينة » . على أنه ، مع هذا ، يرى إلزام القادر من قرابات هؤلاء الذين لا يرجى صلاحهم ببعض نفقتهم في غير إجحاف ولا إلحاح .

هؤلاء الذين رأوا هذا الرأي القاسي العنيف ، نرى منهم بعض مفكرى « اسبارطة » ، كما نرى منهم أفلاطون وأرسطو ، إن أفلاطون يرى في المقالة الخامسة من الجمهورية ، قتل الطفل ناقص التركيب ، والضعيف عديم النفع ، والمريض لا يرجى له شفاء ؛ وكذلك يذهب إلى مثل هذا أرسطو في كتابه (السياسة) . لكن الشيخ الرئيس رأى - بحق - أن في ذلك انتهاكاً لحرمة النفس الإنسانية بلا ذنب جناه هذا المريض ، أو ناقص التركيب ونحوهما ، وبخاصة - كما يقول بحق أيضاً - وتكاليف حياتهم لا تعتبر عبئاً على الدولة بحال ما . ثم من يدري بأن هذا النحو من الناس ضعاف الأجسام ، لا يكون من أحدهم خير كثير من الناحية العقلية ! والتاريخ مصداق هذا الذي نقول في كثير من الحالات .

هذا فيما يتعلق بابن سينا وفلاسفة العصر القديم ؛ وفي هذا العصر الحديث نجد كذلك المجال واسعاً للمقارنات بين تفكير الشيخ الرئيس وتفكير بعض

فلاسفة أوربا في هذه المسألة ، نعنى مسألة العمل والعمال والعاجزين عن العمل وما يكون لهم على الدولة من حق توفير العيش الطيب لهم .

« عندنا مثلاً ، «آدم سميث» الفيلسوف الاسكتلندى المتوفى عام ١٧٩٠م إنه يعتبر العمل هو مصدر الثروة؛ وأن قيمة الشيء لا ترجع إلى صفات ذاتية فيه ، بل إلى العرض والطلب . كما كان يرى أن الإنسان ينجح في إفادة المجتمع وهو يعمل لصالح نفسه ، أكثر مما لو قصد تخصيص مجوده لصالح المجتمع ، وفي هذا يقول : « لم أعرف أن خيراً كثيراً تم على أيدي أولئك الذين يتخذون من الصالح العام تجارة لهم » ^(١) .

هذا الفيلسوف كان لا يرى فرض ضريبة على الأرباح ، لأنه من العسير تقدير قيمة رأس المال تقديراً حقاً صادقاً ، وذلك بعكس الأراضى ، كما أنه من السهل الفرار برأس المال إلى نواح أخرى عند ما يحس صاحبه ثقل عبء الضريبة عليه ^(٢) . ومن الواضح أن في هذا الرأى خسارة على الدولة ، وتضييع جانب كبير من الضرائب التي يجب جبايتها لتنفق في صالح الفقير والمحتاج من المواطنين ولهذا لا يذهب إلى هذا الرأى الاقتصاديون في الوقت الحاضر .

وعلى كل ، فإن سينا كان أبعد نظراً ، وأرفق بالفقراء والمحتاجين لعون الدولة حين رأى - كما قدمنا من قبل - فرض ضريبة على الأرباح الطبيعية والأرباح المكتسبة لتصرف في خير المعوزين . ولعل الضريبة على المال تدخل فيما يسميه الأرباح المكتسبة .

٤ — قدمنا في الكلمة الماضية أن ابن سينا كان يرى أنه يجب أن يكون لكل فرد من الأمة ، من أية طبقة اجتماعية يكون ، مقام محدود وعمل معروف وإذا فالبطالة والتعطل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل ، كما لا يصح ألا توفر الدولة لكل قادر على العمل عملاً يكسب منه عيشه في كرامة .

[١] ص ٧٧ من كتاب النظام الاشتراكي للدكتور أحمد نظمي عبد الحميد والدكتور راشد البراوى ، نشر مكتبة النهضة سنة ١٩٤٦ م

[٢] النظام الاشتراكي السابق ذكره ص ١٩٥

حق كل مواطن في أن يعمل ، هذا الحق أو الواجب الذي يقرره ابن سينا في هدوء ، ولا يجد حاجة في تقريره إلى الثورة على شيء من النظم القائمة ؛ وكذلك حق العاجز عن العمل ، لأنه لا يجده أو لأنه عاجز عن القيام به ، وواجب الدولة في ضمان العيش المقبول الكريم لكل فرد من المواطنين - نقول ، هذا الحق وذاكهما اللذان لم يجد ابن سينا أي عناء في تقريرهما ، نرى أنهما لم يتقررا في أوروبا إلا بعد ثورات اجتماعية ، ثورات أريقمت الدماء في بعضها ، على أنهما مع هذا من الحقوق الطبيعية للإنسان باعتباره إنسانا عضواً في مجتمع أو مواطناً في دولة .

ها هو ذا الفيلسوف الألماني نخته "Fichte" (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) ، يرى أنه على الدولة أن تكفل لكل فرد من أهلها عملاً ، وهذا ما يسمى بمبدأ حق العمل الذي نادى به هذا الفيلسوف ^(١) .

ومن بعد « نخته » ، نجد « كارل ماركس » المتوفى عام ١٨٨٣ م ، يذكر في البيان الذي ضمنه مطالب الحزب الشيوعي في ألمانيا « أنه يجب أن تضمن الدولة المعيشة لجميع العمال ، وأن تتولى أمر العاجزين عن العمل » ^(٢) . يذكر هذا المبدأ ويعمل على تقريره وتنفيذه فعلاً ، بعد أحداث وخطوب جسام ، ومع هذا لم يسعد برؤيته نافذاً في أوروبا كما كان يتمنى .

* * *

وبعد ، من هذه التعليقات والممارنات التي قدمنا ، نعلم كيف كان تفكير ابن سينا سليماً وأصيلاً في هذه المشكلة ، مشكلة العمل والبطالة ، وأن أوروبا بصفة عامة ، لم تفكر في أن تصل إلى مثل ما قرره الإسلام في هذه الناحية إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من ظهور الإسلام .

والآن ، إلى المشكلة الثانية ، نعى مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، في العدد الآتي إن شاء الله تعالى ؟
الحديث موصول

[١] النظام الاشتراكي ، ص ١٧

[٢] نفس المرجع ، ص ٦١ - ٦٢

شِعْرَاءُ الْأَزْهَرِ

٦ - الشيخ مصطفى عبد الرازق (باشا)

شيخ الأزهر الأسبق

لفضيد الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

ترجع معرفتي لآل عبد الرازق السكرام ، لتقريب من أول عهدي بالأزهر الشريف ؛ فتمدح حضرت القطر والشذور وابن عتميل والاشموني ، في جامع محمد بك أبي الذهب ، على المغفور له العلامة الثبت الحجة ، الشيخ محمد عليان ، طيب الله ثراه ! وكان أبرز الدرس - على كثرة البارزين فيه - شخصان نشيطان ، يلفتان النظر بخصائصهما المميزة ، وبمشاركتهما للشيخ في مشكلات المسائل ، مشاركة تنبئ عن تعمق في البحث ، وعن ذكاء يمتاز ؛ فأما أحدهما ، فهو أسن الطلاب ، وأجسمهم ، وأعلمهم ، المرحوم الشيخ حسين البيومي عضو جماعة كبار العلماء ؛ وقد نال شهادة العالمية ونحن في مقدمة الأشموني ، فكان انتقاله من صفوف الطلبة ، إلى صفوف العلماء سريعاً مبكراً سهلاً ، بقي موضع عجبنا وإعجابنا زمناً طويلاً . وأما الآخر ، فهو صاحب المعالي على عبد الرازق باشا وزير الأوقاف الأسبق ، ذو الطربوش الفريد في الأزهر يتسوج زياً عربياً ثميناً أنيقاً كل الأنيق ، كاملاً كل الكامل ؛ وهو « سكرتير » شيخنا العظيم ؛ يكلفه - أبداً - بالكشف عما يعرض من الالفاظ الغامضة في المعاجم اللغوية فيؤدى رسالته على خير الوجوه .

وصلتنا بالسادة القاياتية ، صلة ورثناها عن الآباء والأجداد ؛ لأنهم الشيوخ الروحانيون لمصر الوسطى ؛ وكان لشباب هؤلاء ، وشباب آل عبد الرازق ، وشباب آل أبي العيون ، مصاطب ، وإن شئت فقل : صالونات : يجتمعون فيها على شراب الشاي البديع ، يتنقلون عليه بالأدب الرفيع رواية وإنشاء ، في الأرياف لتقرب بلادهم بعضها من بعض ؛ وفي القاهرة ، لأن الأزهر يجمعهم ؛ ولتقاربهم في الأسنان وفي الدراسات .

وكان يختلف الى مجتمعاتهم كثيرون من الشباب المثقف من مختلف الأقاليم المصرية ، والأوطان العربية ؛ فيتباحثون ، ويتساجلون ، ويتناشدون . وعن طريق مشايخنا القايانية تصل إلينا طرائف مما يدور فى مجالسهم ، فتلقفها ، ونحرص على حفظها وروايتها ، كما نحرص على روائع النصوص الأدبية .

ومما بقى عالماً بذهنى من تلك الطرائف ، أن الشيخ مصطفى عبد الرازق - وكان يعتبر رئيس الشلة - طرح البيتين المنسوبين لولادة بنت المستكفي بالله الأُموى ، الخليفة بالأندلس :

أنا - والله - أصلح للمعالى وأمشى مشيتى ، وأتبه تبه
أجر على الورى ذيل التصابى وأعطى قبلتى من يشتهبها !

للتشيطير ، وجعل جائزة المتفوق ، بيتين من شعر الرئيس ؛ وكان المتفوق المغفور له الشيخ إبراهيم القايانى ؛ فتعال الشيخ مصطفى عبد الرازق :

لله إبراهيم من شاعر ذى فطنة فى الشعر وقاده
ولد فى التشيطير من لطفه مالم تضعه قبل ولاده !

والتورية فى : تضعه قبل ولاده غنية بروعتها وجمالها عن أن يشار إليها . والذنب فى إغفال ذلك التشيطير ، على خيانة الذاكرة ، لا على حساب الوفاء .

ومن تلك الطرائف فى « الشاى » وتروى للزعيم القايانى المغفور له الشيخ عبد العظيم ، طيب الله ثراه :

وعسجد الشاى يجلى فى قالب من لجين
هذا يروق لقلبى وذا يروق لعينى

وفى « شروط » حانة « الشاى » وفيه مجانة :

إذا ما جاوز الندمان خمساً مع السلطان والساقى الأديب
ف أم فتى دعانا و أم فتى مجيب
إلى غير ذلك ، مما ذهبت به - مع الشباب - الأيام .

والشيخ مصطفى عبد الرازق ، أحد ثلاثة صرفتهم السكتابة عن الشعر ، بعد

أن كان وكدهم في أول حياتهم : السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ عبدالعزيز البشرى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ؛ والمنفلوطى أشعرهم ، والبشرى أضعفهم ؛ وقد عاود هذا ، الحنين إلى الشعر ، في عهده الأخير ، ففشر قصيدة له ، في السياسة قدم لها بمقدمة قال فيها : إن له سبعة وعشرين عاما لم ينظم شعراً ؛ وكأنه يباهى بتقصيده ، التى كان الضعف والتكلف يشيعان في أطرافها ؛ فكتب إليه أحد عشاق كتابته - كما أسر بذلك إلى - « قصيدتك المفضولة في السياسة ، ردتك إلى الخلف سبعة وعشرين عاما ! » وفهم البشرى « النكتة » وهو سيد من يفهم . ! فلم يعد إلى الشعر أبداً ! .

وما زال المنفلوطى يقول الشعر في الفينة بعد الفينة - على حد تعبيره - حتى لقي الله .

فأما الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد انصرف عنه انصرافاً تاماً منذ عهد بعيد ، لعله بعد أن نال شهادة العالمية . يقول المغفور له الشيخ رشيد رضا في تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده : « ومن تخرج عليه في الكتابين « أسرار البلاغة » ودلائل الإعجاز » فكان كاتباً مجيداً ، وشاعراً بليغاً ، المرحوم السيد لطفى المنفلوطى ، وله قصائد في مدحه ؛ ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق وكل منهم كاتب بليغ ؛ وكان الشيخ مصطفى يجيد نظم الشعر ، وقد مدح الأستاذ الإمام بشعره ، والظاهر أنه تركه بعد ذلك ، اهـ بنصه (١) .

* * *

وانصراف هذا الثالث عن الشعر إلى الكتابة ، كان توفيقاً من الله عظيماً ؛ فإننا لم نخسر كثيراً إذ لم نظفر من شعرهم بالكثير ؛ وكنا نخسر الكثير الذى لا يعترض بمثله لو خسرناهم كتاباً ؛ فقد انفرد كل واحد منهم بمذهب كتابى لا يشتهه ، ولا يشارك فيه .

فأما البشرى ، فقد أعاد الطريقة « الجاحظية » جذعة : ألفاظ بكر ، جذلة نفمة ، تحمل مشابه البداوة ؛ وأسلوب خلل قوى يظاهر فيه الحسن المجلوب ، حسناً غير مجلوب ؛ ومعنى شريف فى منطق دامغ عميق ؛ وسخرية بارعة لاذعة ؛ واستقصاء لا يدع فيما يعرض له من المعانى غيره فضلاً . وعلى الجملة : طريقة البشرى ،

هي طريقة الجاحظ مجددة مجلوة في مطرف قشيب ؛ تحس ذلك في يسر ، إذا قرأت للبشرى ، ثم قرأت الجاحظ في غير « البيان والتبيين » فإن الجمع يغلب على هذا الكتاب ، وإنما يلتبس أسلوب الجاحظ في مثل « الحيوانات » وغيره من رسائله وكتبه .

وأما المنفلوطي ، فهو إمام « السهل الممتنع » في العصر الحديث غير مدافع ؛ والنقاد يعرفون السهل الممتنع ، بأنه الأسلوب الذي يقرؤه القارئ ، فيرى أنه يستطيع مثله ، ولو خدش أنفه بظفر كلب ما استطاعه . وكأنهم يريدون أن قلب الحقائق أيسر منه منالا ، فعاود قراءة المنفلوطي في أي كتبه شئت ؛ ثم قل لي : ماذا ترى ؟!

وأما أسلوب الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، فذلك الطراز المنمنم ، الذي تقطر الرقة من أعطافه ؛ ويترقق الحسن في أطرافه ؛ ويجمع لك بين نفحات الزهر ونشوات الخمر . ونفثات السحر ؛ وهل رأيت الشيخ مصطفى عبد الرزاق في ذوقه العام : في ستمته ، في لباسه ، في حديثه . في نقاشه ، في خطابه ؟ ذلك هو مصطفى عبد الرزاق في كتابته : خيوط عربية متخيرة سدى ولحمة ، نسجتها بغداد ، وفصلتها باريس تفصيلا هندسيا محكم الضبط ، رائع الانسجام ؛ تزين معانيه ألفاظه ، وألفاظه زائحات المعاني .

ليس فيها ما يقال له كملت لو أن ذاكملا

* * *

أولئك رجال ، أسأل الله شططا ، لو سألته تعالى أن يعوضنا فيهم خيرا ! فرحمة الله عليهم . !

وأختم هذا البحث ، بما أمكنني الوصول إليه من أشعار المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا . قال المغفور له الشيخ رشيد رضا في « تاريخ الإمام » : لما قدم الأستاذ الإمام من سياحته في هذا العام سنة ١٩٠١ في أوربة وتونس والجزائر هنأه بالقصائد الطنانة جماهير العلماء والأدباء في الأزهر . . . وذكر هذه الأبيات للشاب الذي زاحم في بدايته أهل النهاية ، تنشيطا له على العناية بالأدب وهو الشيخ مصطفى نجل حسن بك (باشا) عبد الرزاق . قال :

أقبل ، عليك تحية وسلام
تطوى البلاد ، وحيث جئت لأمة
كالسدر ، أنى سار يشرق نوره
إن يتدروا فى الغرب عليك قدره
يا ساهرا والمسلمون نيام
نشرت لفضلك بينهم أعلام
والحق ، أنى حل فهو إمام
فلبصر أولى منهم والشام
يلهى الصغار ، وجدت الأيام
والله يرضى عنك والإسلام
لا زلت غيظا للضلال وأهله

* * *

ورثاه بقوله :

رزى العلم فيك والإسلام
كنت طودا إذا الخطوب ادهمت
يا فقيد الهدى ، عليك السلام !
لم تنل همك الخطوب الجسام
رجل كان حين يسلك فجأ
يا دفين القلوب ، قد هابك الدهر
إن فى قبرك الساحة والفضـل ، وفيه الثبات والإقدام
كان مغناك للعفاة رحيبا
لم تكن تحمل الضغينة والحقـد وإن نال من أذاك اللئام
طيب القلب لم تهم بشر
كنت حى الفؤاد تصدع بالحق
فتسلوى عنانها الأوهام
ساهر العزم ، والقلوب نيام
لا تباريه فى السداد سهام
تتغنى بذكره الأعلام
وتوليت والزمان غلام
صدعته بموتك الآلام
فدفناه يوم مات الإمام
وقليل من النفوس الكرام
رحم الله منك نفس كريم

ولا ريب أن معانى هذا الشعر وقوافيه على قوتها الواضحة ، كانت فى حاجة إلى التركيز والتمكين ، وعذره أنه كان فى طور المراتنة ، لا فى إبان النضج .

رحمة الله عليه ؟

لغويات

مِية — مائة

لفظيد السبخ محمد علي النجار

مدرس بكلية اللغة العربية

هذان وجهان يجريان في استعمال اسم العدد « مائة » .

فلاستعمال الأول « مِية » يجري على ألسنة العامة . وهو — كما لا يخفى — انحراف عن الصواب في المنطق وتنكب للجمادة . وهمى هنا أن أخرج هذا الوجه من الاستعمال وأبين مأناه ومبعثه في ألسنة العامة . وسترى أنه ليس بعيدا عن النهج العربي .

فأصل ذلك تخفيف همزة « مئة » وإبدالها ياء ، وهو قانون تخفيف الهمزة المفتوحة المسكورة ما قبلها ؛ إذ كان السكسر قبلها يجتذب الياء . وتخفيف الهمز سنة الحجازيين ومن صاحبهم وجاورهم . وذلك أنهم يرونها ثقيلة في النطق فيفرون منها بتخفيفها وحذفها تارة ، وإبدالها حرفا آخر من حروف اللين تارة أخرى ، على منهج مدروس في كتب العربية . ويبقى التميميون على الهمزة فلا يخففونها ، ويسميه علماء العربية أهل التحقيق ، أي أنهم يحققون الهمز ، ولا يفعلون به كما يفعل الحجازيون ، ونرى العامة يجرون في ألسنتهم في الهمز على منهج الحجازيين في التخفيف ، فيقولون : الرأس في الرأس ، والبئر في البئر ، والمرة في المرأة .

وتخفيف همزة مئة بإبدالها ياء قرأ به القراء في القرآن الكريم ، وذلك قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة المتوفى سنة ١٣٠ . وفي النشر^(١) : « الهمزة المفتوحة قبلها كسرة ، يبدلها أبو جعفر ياء . ومن ذلك مئة وفئة ، وتنفيهما ، وجاء هذا أيضا في المأثور عن العرب ، وما ينسب إلى زرقاء اليمامة في قصة لها :

ليت الحمام لي به إلى حمامته
ونصفه قديه ثم الحمام ميه

فترى أن النطق بالياء في « مئة » بدل الهمزة عربي صحيح . وإنما زاد العامة تشديد الياء في هذا اللفظ فتمالوا : مية ، وهذا ما لم يعرف عن العرب . ولكنه مع ذلك منهج مألوف لهم جروا عليه في بعض ما حذف لاه ، تعويضاً عن المحذوف . فقد جاء عنهم الفم في الفم ؛ قال العجاج .

ياليها قد خرجت من فمه حتى يعود الملك في أسطمه^(١)

وحكى اللحياني أنه يقال فم وأفام ، قال ابن مالك في شرح التسهيل عقب سوق هذه الحكاية : « فعمل أن التشديد لغة صحيحة ؛ لثبوت الجمع على وفهما . فليس بمصيب من رعم أن التشديد لم يستعمل في غير ضرورة ، وما شددوه من هذا الضرب الدم ، قالوا فيه : الدم ؛ قال^(٢) أبو خراش الهذلي يرثي خالد بن زهير :

أرقت لهم ضافني بعد هجعة على خالد فالعين دائمة السجم
إذا ذكرته العين أغرقها البكي وتشرق من تهما لها العين بالدم

وأنشد ابن مالك في شرح التسهيل قول الشاعر :

أهان دُمك فَرُغا بعد عزته يا عمرو بغيك لإصرارا على الحسد
فقد شقيت شقاء لا انقضاء له وسعد مرديك موفور على الأبد

وقول آخر : والدم يجري بينهم كالجدول .

وأكرر الكسائي تشديد ميم الدم ، فهو^(٣) يقول : « لا أعرف أحدا يشمل الدم » ، وقد مر بك من الشواهد ما يدفع حكمه هذا . وجاء تشديد الآب والآخر ، حكى ذلك الأزهرى ، وأنه يتمال : استتب أبا أى اتخذ لك أبا ، وقد جعل التشديد في أب تعويضاً عن المحذوف كما قالوا قن للعبد المملوك وأصله قنى من القنينة . ويجرنا ذكر تشديد الآب إلى سوق قصة أوردها الشيخ يس في حاشيته^(٤) على التصريح ، وذلك أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصي : أنت عندنا مثل الآب ، وشدد الباء ، فقال الشهاب : لا جرم أنكم تأكلونني^(٥) ! يريد الشهاب

[١] أسطم الشيء : وسطه ومعظمه ، والضمير في « خرجت » كأنه يريد به كلمة يتكلم بها في

شأن من يتحدث عنه . [٢] أنظر ديوان الهذليين طبع دار الكتب ١٥١/٢ .

[٣] اللسان [دى] . [٤] في مبحث المعرب والمبني [انراب الأسماء الخمسة] .

[٥] في حاشية الشيخ يس : تأكلون ، والوجه ما أثبتته .

أن الأب مشددا متعارف في العشب الذي تأكله البهائم ، وكأن الشهاب يرمى بذلك إلى أن هذا الرئيس لا يعرف له حقه ويتهمه ، فهو يأكل كما يأق الذئب فريسته ، وبذلك ترى أن مادة الأكل هنا لها لطف وماء ، ويقول الشيخ يس : « ولو قال القوصى : لا جرم أنكم ترعوننى كان أطف كما لا يخفى على أهل الذوق ، وقد عرفت ما فى هذا . ويزعم الشيخ يس أن لا وجه لإنكار القوصى التشديد هنا ، والقوصى — فيما ييسدو — كان عاتبا على الرئيس فأظهر عتابه فى هذا الرد وقد بناه على المتعارف فى اللغة كما رأيت . ويقول الشيخ يس أيضا : « ولا وجه لقول بعضهم : من يشدد الباء من الأب الذى هو الوالد ما يكون إلا دابة » .

والاستعمال الآخر « مائة » نسمعه كثيرا من المثقفين . وسبب هذا الخطأ رسم مائة بالآلف ، وقد كان هذا الرسم مبعث دفع التباس « مائة » لو كتبت على وجهها « مئة » بعبارة « منه » مع ملاحظة أن الكتابة فى التقديم كانت تخلو فى الأكثر من النقط اعتمادا على الفهم من القرائن والسياق .

وقد استرعى نظرى أن وجدت هذا الخطأ فى النطق من دهر غير . فتمسد نبه عليه نحوى أندلسى زار مصر فى سنة ٨٢٥ من الهجرة . وأوطنها حتى مات بها سنة ٨٥٣ ، وصلى عليه بالأزهر . ذلك هو^(١) محمد بن محمد الراعى صاحب التصانيف الكثيرة فى النحو . فله شرح الآجرومية وإعراب الألفية . وله الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية . وهذا الكتاب الأخير هو الذى وقفت عليه من كتبه ، وقد عنيت به عناية خاصة ، لأنه يسجل بعض ما كان فاشيا فى عصره من الأخطاء اللغوية فى مصر . وسأنتقل عنه فى هذا المقام بعض ما أراه صالحا للنشر فى « لغويات » .

وكتاب « الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية » من مخطوطات دار الكتب المصرية (٣٣٥ نحو) . وإنى أؤثر أن أنقل لفظه من كتابه . قال : « سأل بعض الطلبة عن قراءة العامة للمتضمن إلى الخاصة — وهم أكثر القضاة وأتباعهم من الموقعين والشهود ونحوهم — لفظ مائة فى تاريخ المكاتب ونحوها بفتح الميم ومد الآلف ، على صورة كتابتها فى صناعة الرسم ، فيقولون : مائة .

« فأجبت أن ذاك خطأ فاحش ولحن قبيح . وكأنهم لم يقرءوا كتاب الله عز وجل . قال الله - عز وجل - ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين ، فأجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، فأماته الله مائة عام ، إلى غير ذلك من الآيات . والصواب أن يقرأ لفظ « مائة » بميم مكسورة بعدها همزة مفتوحة وتاء مربوطة هي محل الإعراب ولا يجوز مد الألف بوجه من الوجوه ، ويجوز تسهيلها بقلبها ياء ؛ قال ابن مالك : وياء اقلب ألفا كسرا تلا ، ومنه قول زرقاء اليمامة :

ليت الحمام إليه إلى حماميه
ونصفه قديه تم الحمام ميه

« فإن قلت : فإذا كانت ألفها لا تمد فلم كتبت في الخط بالألف بعد الكسرة ؛ وما الحاجة لكتبت هذه الألف ؟

قلت : قال أهل العلم : إنما كتبوها بالألف ليفرقوا بين « مائة » و « منه » ؛ لأنك إذا قلت في التاريخ مثلا :

وخمس مائة ، وكتبت « مئة » بغير ألف كانت تشبه لفظ « منه » فكان يلتبس في الخط قولك :

وخمس مئة بقولك : وخمس منه ؛ لأن صورة « مئة » و « منه » بغير الألف في الخط واحدة ، ففرقوا بينهما بالألف ؛ كما فرقوا بين عمرو وعمر بالواو .

وفي بعض كلام الراعي مجال للتعقب . فقد استدل على تسهيل الهمزة بقلبها ياء في نحو مئة بقول ابن مالك :

وياء اقلب ألفا كسرا تلا

وكلام ابن مالك في الألف اللينة التي يعبر عنها بالألف اليابسة . وابن مالك يتكلم في هذا على قاعدة إبدال الألف ياء في مثل مصاييح ، والإبدال في هذا واجب لا محيد عنه ، والإبدال في مئة وقمة استحسانى غير واجب كما لا يخفى ، وإنما يذهب إليه بعض العرب وهم الحجازيون كما سلف لك .

هذا أمر خاص بفلان . التبل خاص بذى الخلق الحسن

يكثر هذا التعبير . وقد جرى بحث في هذا إذ ورد في كلام الشيخ عبد القاهر

في أسرار البلاغة حيث يقول : « فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شيء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص » وقد كان من رأى من تحدث معي في هذا الأمر أن الصواب أن يقال : « حكم مخصوص به » . ذلك أنه يقال : خص أن عليا بالنبل ، فالتبل مخصوص به على ، ولا يسوغ ذلك أن يقال : النبل خاص بعلي ؛ فإن الخاص في هذا الأسلوب هو الفاعل ، وهو الله سبحانه في هذا المثال . وذكر لي محدثي أنه لا يقال - على حسب ما جاء في المعاجم اللغوية - خص الشيء بكذا ، أى إن المعاجم خلت من إيراد هذه المادة لازمة غير واقعة . ووجدت ما قاله صحيحاً في بادى الرأى . ففي القاموس : « خصه بالشيء ، خصاً ، وخصوصاً ، وخصوصية - ويفتح - وخصيصى - ويمد - وخصصه ، وتخصه : فضله ، وخصه بالود كذلك » . وفي اللسان : « خصه بالشيء ، يخصه ، خصاً ، وخصوصاً ، وخصوصية ، وخصوصية - والفتح أفصح - ، وخصيصى ؛ وخصصه واختصه : أفرد به دون غيره ، فترى أن ما يقع به التفضيل أو الإفراد سبيله في هذه المادة أن يوصل بباء الجر ، والوصف منه « مخصوص به ، فأما الخاص فهو المفضل والمُفْرَد ، وأن « خص » لا يأتى لازماً . وفي اللسان أن « اختص » يأتى لازماً كما يأتى متعدياً فيقال : اختص فلان بالأمر .

ولكنى رأيت في اللسان النص الآتى : « ويقال : فلان مُخص بفلان أى خاص به » وفيه أيضاً : « ويقال : خاص بين الخصوصية والاستشهاد بالنص الثانى ؛ إذ كان معزواً إلى العرب ومن قولهم ، فأما النص الأول فهو تفسير لغوى ، ففي الأخذ به مجال للقول والطعن . وأعود إلى هذا النص فأقول : إنه يفيد استعمال « خاص » لازماً ، فيقال : النبل خاص بفلان ، وهو ما في عبارة عبيد القاهر ، وبهذا يكون هذا الإمام بمنجاة من اللوم والتقريع .

وبقى بعد هذا مسألة تبدو للباحث هكذا : هل يأتى الفعل لازماً فيقال : خص النبل بفلان ؟ والجواب عن هذا أن من الأصول اللغوية أنه إذا ورد الوصف في العربية سوغ ذلك إيراد الفعل على وفق الوصف . ذلك أن ورود الوصف دليل على استعمال الوصف ، وإن لم تقف عليه ولم يبلغنا . ويقول ابن جنى :

الفقه السياسي عند المسلمين

التكاليف - المسؤولية - الحريات - سيادة الأمة

المؤلف: الأستاذ الدكتور محمود فياض

المدرس بكلية أصول الدين

رأينا فيما سلف أن الإسلام يقيم دولته على أساس التكليف الإلهي للأمة ، وأن الأمة بهذا التكليف هي صاحبة السلطان المطلق على جميع أمورها ، وأنه لهذا التكليف الجماعي أضحت الأمة مسئولة مسئولية حقيقية عن صالح الدين وصالح المسلمين ، أمام سيدها ومالكها سبحانه ، وإنك لتجد ذلك واضحاً في الخطاب العام الموجه إلى الأمة في القرآن الكريم ، في جميع الأمور . إيجابية وسلبية ، فمثلاً تجد الخالق سبحانه ينادي الأمة بـ « يا أيها الناس ... » و « يا أيها الذين آمنوا ... » كما تجد الأوامر والنواهي موجهة إلى الأمة أيضاً « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وافعلوا الخير ، » إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم

« (١) قال لي أبو علي بالشام : إذا صحت الصفة فالفعل في الكف ، وقال (٢) أيضاً : وحكى أبو زيد : رجل مدرهم ، قال : ولم يقولوا منه : درهم . إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل في الكف . »

وقد ظفرت بنص صريح في هذا يكفيننا مئونة القياس والاستنباط . فقد جاء في كتاب (٣) الأفعال لابن القوطية : « وخص الشيء ، خصوصاً : ضد عم . »

وأنبه هنا إلى عبرة نأخذها من هذا البحث . وهو أن المعاجم التي بأيدينا قد تخلو من بعض اللغة الواردة ، فعلينا أن نترتب في إنكار ما ليس فيها ، فقد يكون في غير ما هو مألوف لدينا . وعلينا بعد هذا أن نغني بإخراج الأصول اللغوية بقدر ما يتيسر لنا حتى تتسع ثروتنا اللغوية ، ويكون حكمنا في اللغة أقرب إلى السداد . والله الموفق للصواب .

بين الناس أن تحكموا بالعدل » والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما « الزانية والزاني فاجلدوا » وهكذا يتجه الخطاب إلى الأمة بالتكليف في شتى النواحي ، في أمور العبادة ، وفي المعاملات ، وفي الشؤون العامة كالحكم والقضاء أو تنفيذ أحكام الشرع ، وبذلك يقرر الإسلام أن للأمة الإسلامية كياناً خاصاً وشخصية معنوية جعلها مناط التكليف فأمرها ونهاها ، وألزمها تبعة التكليف ومقتضياتها ، وحملها المسؤولية عن صالح دينها ، وصالح أفرادها ، وصالحها في الجملة « صالح الدين والدولة » .

والتكاليف الجماعية أضمن تحققا ، وأشد إلزاما للفرد من التكليف الفردي ، لأن الفرد في الواقع في التكليف الجماعي يكون مكلفا باعتبارين ، باعتباره وحدة من وحدات الأمة المخاطبة بالتكليف . وباعتباره فرداً مخاطباً بشخصه ضمن الخطاب العام للأمة ، وبعبارة أخرى ، هو مخاطب بوصفه الجماعي باعتباره لبنة قوية في بناء المجموعة يطلب إليه العمل على خيرها ، وبوصفه الفردي باعتباره إنسانا يجب أن يقوم بالتزاماته نحو سيده ونحو إخوانه ، ومن هنا نشأ ما نسميه التضامن الجماعي الفرد والجماعة ، وتقررت بهذا التضامن مسؤولية الجماعة عن صالح الفرد الذي يعتبر مقوما من مقوماتها ، ومسؤولية الفرد عن صالحه ، وصالح كل فرد من إخوانه ، وصالح الجماعة بصفة عامة ، بوصف الفرد مطالبا بالعمل على سلامة البناء والحفاظ على قوته وكرامته ، ولهذا جعل الإسلام لكل مسلم حق الإشراف العام على شؤون الدولة ، ومراقبة تصرف الحكام ، ولفت نظرهم إلى الأخطاء التي يرتكبونها ، وتصحيح هذه الأخطاء ، بإرشادهم إلى الحق ، ونصحهم بالمعروف ومجابهتهم بما يجتريحون من مظالم ، وحمل الإسلام كل فرد يغضى أو (يتستر) على جرائم الحكام وظلمهم ، مثل ما يحتمله المجرم أو الحاكم الظالم ، وفي هذا يقول عليه السلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره ... » ويقول : « إذا كان في أمتي من يهاب أن يقول للظالم : يا ظالم ! فتمد تودع منهم » ويقول : « إذا وجدت من أمتي ظلماً وفيهم من يستطيعون أن يغيروا فلم يغيروا ليوشكن الله أن يعمهم بعذاب » والنصوص في ذلك كثيرة وهي تدور حول قوله سبحانه وتعالى : « ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ؛ وهذه هي الرقابة الشعبية بلغة هذا

العصر ، التى جعلها المشرع سبجانه سيفا مصلتا على رقاب المخالفين ، حكما كانوا أو محكومين ، وهذه الرقابة هى المعبر عنها فى لسان فقهاء الإسلام ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى سلطة كبيرة وضعها الله فى يد كل مسلم وطلب إليه أن يحسن استعمالها ، وعنها يقول الإمام محمد عبده فى كتابه (الإسلام والنصرانية) « وهى السلطة الوحيدة فى الإسلام ، التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلام » .

وهذا أسمى ما أعطى للأفراد - فى كل التشريعات - من ضمان لحرية الرأى ، والتعبير عنه ، والدعوة إليه ، ولم تستطع أحدث الدساتير ديموقراطية ، أن تضمن للفرد بعض ما يمنحه له الإسلام فى هذا الشأن .

وهذا النمط من التكليف الجماعية يتفرد به الإسلام عن غيره ، وإنك لن تجد هذه المعانى التى حدثتك عنها فى مثل هذا التكليف القائل : « من ضربك على خدك اليمين فأدر له الأيسر » و « اعط ما لله الله ، وما لقيصر لقيصر !! » فأى تضامن جماعى ، أو مسئولية مشتركة يوحى بها مثل هذا التكليف ؟ وزد على هذا أن قيصرنا هذا لم يعد له فى الإسلام شىء أكثر مما لغيره من أفراد المسلمين ، بل إن عليه تبعه أعظم من تبعاتهم ، لأنه خادم للأمة صاحبة السيادة عليه ، ويعبر عن هذا عمر بن الخطاب بقوله للأشعرى أمير الكوفة : « يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس غير أن الله جعلك أثقلهم حملا » ثم يقول : « إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده » .

ونظرا لعظم التكليف وثقل المسئولية عنها ، فقد قرر الإسلام : أن كل مكلف يجب أن يعطى من الوسائل كل ما يمكنه من القيام بتكاليفه ، وإلا كان هذا التكليف ظلما وتعسفا « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » و « لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها » فأنت إذا ألتقيت شخصا فى اليم وقلت له إياك أن تبتل بالماء ، وأنت لم تعطه وسائل الوقاية من الماء فأنت ظالم متعنت يجب أن تحالف ! ولهذا يقرر الإسلام فى كل نصوصه ، وفى كل مناسبة ، أن كل مكلف يجب أن يكون فى يده وسائل تنفيذ ما كلف به ، وأن التكليف يتوقف ويتعطل ، إذا فتمدت أو تعطلت وسائل تنفيذه فالمرضى الذى لا يستطيع القيام بعمل ما مما كلف به ؛ والأسير فى يد عدو الإسلام

الذى عطل حرياته ، وأصبح لا يملك وسائل تنفيذ تكليفه ، والمجنون الذى لا يعقل أمرا ولا نهيا ، وكل شخص - ذكرا كان أو أنثى - أصبح فى حالة تنعدم فيها لديه وسائل تنفيذ التكاليف . هؤلاء جميعا تتوقف تكاليفهم وتعطل ، ولا تلحقهم مسئولية حتى يسترد المريض صحته ، وحتى يسترد الأسير حريته ، وحتى يعقل المجنون ، وحتى تذهب الموانع كيفما كانت ، ويصبح الشخص فى حالة يمكنه فيها تأدية واجباته . وأهم هذه الوسائل التى يجب ضمانها للفرد ليقوم بتكاليفه . إقداره على التمتع بحقوقه الفطرية التى وهبها الله له ، وهى : الحرية الشخصية ، حرية العبادة ، حرية التفكير أو حرية الرأى والتعبير عنه والدعوة إليه ، وتحقيق مساواته بإخوانه الأحرار المتساوين من كل وجه ، فى كل المنح والفرص الاجتماعية ، وعلى الأمة (الدولة) أن تمكنه من كل ذلك حتى يقوم بتكاليفه - على الأقل نحوها - فإذا هى حرمته من التمتع بحقوقه كلها أو بعضها ، فقد أهدرت أهليته ، وأبطلت تكليفه ، وهو حينئذ يصبح غير ملزم بطاعتها وتنفيذ أوامرها ، ولا يحق لها مطالبتها بشئ ما دامت هى التى عطلت تكليفه ، ويتضح من ذلك أن تمكين الأمة (الدولة) الأفراد من التمتع بحرياتهم ، بعيدا عن الطغيان والعدوان . إنما هو أمر فى صالح الدولة نفسها قبل أن يكون من صالح الأفراد ؛ وما دام خالق الدولة هو رب الأفراد وهو واحد ، ثم هم بنو أب واحد وأم واحدة ، وتكاليفهم واحدة ، ونسبتهم إلى الله وإلى الدولة واحدة ، فهم أحرار متساوون من جميع الوجوه ، ليس بينهم فروق ولا امتيازات ، ومن الظلم أن تقيد الدولة حرياتهم ، أو تعطل تكاليفهم ، أو تمنعهم حقوقهم ، أو تقيم بينهم فروقا لم يأذن بها رب الدولة المشرع لها سبحانه . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وإذا كان الإسلام قد أطلق للإنسان جميع حرياته ، فإنه فى نفس الوقت ، وضع شروطا يجب على الفرد التزامها عند مباشرته لحرياته ، حتى لا تصطدم الحريات ، ولا يطغى بعض الأحرار على بعض ، وجعل مراعاة هذه الشروط تكليفاً من التكاليف الواجب تنفيذها دون هوادة ، فليستعمل الفرد حرياته غير باغ ولا عاد ، فى حدود العدل والإحسان « لا تظلمون ولا تظلمون » ، لا ضرر ولا ضرار « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » « ولا تعبدوا إلا الله لا يحب المعتدين » « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ..

وهكذا أعطاك الإسلام حق التمتع بحرياتك للقيام بتكليفك ، بشرط ألا تعتدى على حريات الآخرين ، وأباح لك الحصول على حقوقك بشرط ألا تعطل حقاً لأحد ، أو تغتصب حقاً لأحد ، وألزمك أن ترعى في جميع أعمالك الصالح العام للدين والدولة ، وهذا هو معنى « ابتغاء وجه ربك الأعلى » ، « وابتغاء مرضاة الله » ، ومصلحة الجماعة (مصلحة الدين والدولة) تأتي في المرتبة الأولى من الاعتبار في نظر الإسلام ، ويجب أن تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد عند التعارض ، وعلى الفرد أن يتوخى في عمله وتمتعه بحرياته مصلحة الجماعة ، وأن يقدمها - بنفسه - على مصلحته الخاصة ، فإذا تعنت وآثر نفسه على الجماعة ، وجب على الجماعة أن تكبح جموحه ، وتؤخر مصلحته عن مصلحتها ، لأنه من المسلم به أن كل صالح للجماعة صالح للفرد ، ومن هذا ترى أن حريات الأفراد لا يقيدوها إلا صالح الدين والدولة ، وهو أمر يتفق عليه المسلمون فيما بينهم ، ويتقدرونه بالتشاور مع ذوى رأى منهم ، أو بالشورى بين علمائهم وحكامهم ، والمسلمون عدول فيما بينهم . تأمل قوله عليه السلام : « إن قوما ركبوا في سفينة . فصار لكل منهم موضع لجماء رجل فنقر موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن هم أخذوا على يده نجوا ونجا . وإن هم تركوه هلكوا وهلك » .

وليس من شك في أن الأمة هي المكلفة برعاية ذلك وتنفيذه ، ولهذا يجب أن يكون سلطانها مطلتما وسيادتها على بنيتها عامة غير مفيدة ولا محدودة إلا بما قيدها الله به وحده لها .

كذلك نجد الإسلام يقرر قواعد الحكم الصالح ، ومبادئ العدالة المطلقة ، ويضع دستوراً يمشى على هديه الأحكام والقضاة والعلماء وأهل الرأى والنظر ، وهذا هو ألزم شئ لتحقيق العدل والسلام في أمة تنشدهما ، ثم هو مع هذا يترك شكل الحكم ونوع الحكومة لا يقرر فيما شيئاً ، فهل هي مثلاً حكومة ملكية أو جمهورية ؟ لم يعن الإسلام بهذا لأنه من المظاهر المتغيرة بتغير الفكر والبيئة ، في الأزمنة والأمكنة المختلفة ، فتركه للأمة تقدره هي حسب مصلحتها ، وتختار بنفسها شكل الحكم الذى يلائمها ويتفق مع صالحها ؛ غير أنه يوجب أن يكون الحكم

- كيفما كان شكله الذى اختارته الأمة - حكما شوريا بين الأمة بوساطة علمائها وذوى الخبرة والرأى فيها ، وبين حكمائها تحت رقابة الأمة كلها ؛ ولم يشأ أن يعين شكل الشورى . وهل هى مطلقة أم مقيدة بطبقة خاصة لأن شكل الشورى أيضاً متغير ، يتطور بتطور الناس وتغير ظروفهم وثقافتهم ، فتركه أيضاً للأمة ، تعينه حسب مصلحتها ، وبهذا كان التشريع السياسى للإسلام فى أسنى درجات الكمال ، لم يجبر الأمة على أمر يخضع للتغير بتطور الفكر ، ويختلف باختلاف الأزمنة والامكنة ، وكان نظام الإسلام لهذا صالحاً للتطبيق فى كل زمان ومكان ، والإسلام بهذا يقرر لأول مرة فى تاريخ الإنسانية أن الأمة هى صاحبة السلطان الأكبر ، وهى التى تختار شكل الحكم ونوع الحكومة ، وهى بالتالى صاحبة السلطة فى تعيين حكمائها ، ومدهم بما يحتاجونه من سلطان لضبط أمورها ، وتصريف أحوالها ، فإذا مال الحاكم أو اعوج قومته بالنصح والارشاد ، فإن ظلم ونجر ألزمته جادة الحق ، فإن استكبر وطفى عزله ، أو تخلصت من شره بما تراه فى مصلحتها ، وفى هذا يقول العضد فى كتابه المواقف : « وللأمة خلع الإمام ، وعزله بسبب يوجبها ، وإن أدى إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين » وعلق على ذلك شارحه السيد الجرجاني بقوله : « مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين ، وانتكاس أمور الدين ، كما كان لهم تعيينه وإقامته لانتظامها وإعلامها ^(١) » ويقول لإمام الحرمين : « إن الإمام إذا جار وظهر غشمه ولم يرعو لزاجر عن سوء صديعة فلاهل الحل والعقد التواطؤ على ردهه ولو بشهر السلاح ونصب الحروب ^(٢) » وهذا الذى قرره العلماء حق مسلم به للأمة فى الإسلام منذ أول أيامه ، وهو الذى سار عليه السلف الصالح حتى التوى بالمسلمين القصد وحكمهم غيرهم ، وحكموا هم بغير ما أنزل الله ، فهذا هو الصديق أبو بكر يقول للناس عندما وجد نفورا من على وبنى هاشم : « أيها الناس . إنى أستقيلكم بيعتكم .. إن رأيتم أن تقولوا بيعتكم فذلكم لكم ... » ثم يقول : « إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ،

(١) المواقف ج ٨ الأمانة الكبرى .

(٢) شرح المقاصد ج ٢ ص ٢٧٢ .

يشير بذلك إلى قوله عليه السلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وهذا هو عمر بن الخطاب يقول لطلحة بن عبيد الله عندما لاحظ عمر أن النعمة أبطرت كثيراً من الناس : « وددت أنى فى سفينة ، وأنتم فى سفينة ، تذهب هذه شرقاً وهذه غرباً ، ولن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه ، فقال طلحة : يا أمير المؤمنين . هلا قلت إن تعوج عزلوه ! قال عمر : لا ، أقتل أنكل لمن بعده ! » وجاء عمر بن عبد العزيز الأموى الذى ورث عرش الخلافة الأموية عن آبائه ، فقرر من جديد للأمة حقها بعد طول اغتصابه منها ، فخطب الناس أول جمعة تأمر على المسلمين فقال : « أيها الناس . إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين . وإني قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى . فاختاروا لأنفسكم ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين . قد اخترناك ، ورضيناك ، فل أمر المسلمين باليمن والبركة » وهكذا رد عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين إليهم ، بعد أن اغتصبه من الأمة سابقوه وورثوه أبناءهم ، وهو بذلك يقرر . أن الحكم هو حق الأمة وحدها لا حق أفراد منها ، وأن حق الأمة لا يورث . لأن الأمة حية قائمة عليه لا تموت حتى تقوم الساعة ، ولعله سأل نفسه . بأى حق ورثه الأمويون حكم الأمة ؟ ومتى تنازلت الأمة مختارة عن شخصيتها وحقوقها ، وجعلت نفسها متاعاً يورثه الأمويون أبناءهم ؟ فلما لم يجد جواباً . ولا وثيقة تؤيد ورائته هذه . رد إلى الأمة حقها المعتصب ، وعاد الأمر كما قال الصديق أبو بكر لرجل سأل ، ألم يترك الرسول نصاً ولا وصية لأحد ؟ فأجابه : إن النبى صلى الله عليه وسلم . خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم متفقين لا مختلفين ، ونخلص مما تقدم إلى أن الإسلام قرر لأول مرة المبادئ السامية الآتية :

١ — للأمة شخصية معنوية هى مناط التكليف والمسئولية .

٢ — الأمة توجه الحكم وتسيطر على الحاكمين الذين يستمدون منها سلطانهم وقوتهم .

٣ — الأمة سيدة نفسها ، وهى صاحبة السيادة على نفسها وأبنائها جميعاً ولا سيادة عليها لغير الله .

المسلمون والتصوير

لحضرة الأستاذ أ. محمد محمد عيسى

ليسانس في الآداب — دبلوم في الآثار

وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

انتهينا في المقال الأول من هذا الموضوع عند الكلام على الحديث والتصوير ، وناقشنا رأى الشراح في حديث : « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه » ، وحديث « إن الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب » . ونستمر في مناقشة رأى الشراح في الأحاديث الأخرى التي تناولت موضوع التصوير ، وهي :

الحديث الثالث : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

قال الطبري في شرح هذا الحديث : إن المراد هنا ما يعبد من دون الله ، وهو عارف بذلك ، فإنه يكفر . وقال الخطابي : إن عقوبة المصورين إنما عظمت لأن

٤ — على الأمة أن ترعى صالح الفرد وتقدره على أداء تكاليفه ، بتمكينه من التمتع بحرياته .

٥ — الحاكم خادم مطاع ، تعطيه الأمة من السلطان ما يتناسب مع التكاليف التي كلفته بها ، وطاعته مشروطة بمدى التزامه للشرع الذي كلف بتنفيذه ، ولا زالت الدساتير البشرية حتى يومنا هذا تتعثر في طريق الوصول إلى الدرجة الدنيا من سلم هذه المبادئ السامية التي حكمت قرونا طويلة فحققت الحرية والاخوة ، والمساواة ، كما حققت الأمن والعدالة ، والرءاء والسلام .

وإلى العدد التامد نحدثكم عن مركز الحاكم ونسبته إلى الأمة ، والله ولي التوفيق

الصور كانت تعبد من دون الله تعالى ، ولأن النظر إليها يفتن ، وبعض النفوس إليها تميل .

وإذن فلا سبيل إلى القول بأن علة التحريم هي مضاهاة خلق الله تعالى ، وإنما هي الخوف فقط من الرجوع إلى الوثنية التي كان العرب قريبي عهد بها .

الحديث الرابع : عن أبي طلحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة » ، قال : ثم اشتكى زيد فعدناه (وزيد هو الذي روى عنه طلحة هذا الحديث) ، فإذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعبد الله ربيب ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يخبرنا زيد عن الصورة يوم الأول ؟ فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال : إلا رقاً في ثوب ! .

وتعليق العيني على هذا الحديث وجيه ومقبول وهذا نصه : قال : « وإنما نهى الشارع أولاً عن الصور كلها ، وإن كانت رقاً في ثوب ، لأنهم كانوا حديثي عهد بعبادة الصور ، فنهى عن ذلك جملة ، ثم لما تقرر نهيه ، عندئذ أباح ما كان رقاً في ثوب » .

ونقول إنا إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أباح الرقم على الثوب حين أمن زيغ العميدة ونكسة الجاهلية والشرك بالله ، فلا ضرر - فيما يبدو - إذا اتخذنا الصور والتماثيل ، ما دمنا على بينة من ديننا ، وما دامت هذه الصور والتماثيل بعيدة عن فسكرة التقديس والعبادة . على أنى أعتقد أن القول بتحريم التصوير دائماً ، ولهذا السبب ، معناه الشك في إخلاص المعتنقين للدين ، وأنه لم يتمكن بعد من نفوسهم وهذا ما لا يرضاه المسلمون ولا يرضى عنه الفقهاء بالطبع .

وتكملة للرد على كلام النووي ، أورد ما ذكره العيني خاصاً بشرح حديث : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير » ، فقد قال إن المقصود بالملائكة ملائكة الوحي مثل جبريل وإسرافيل ، وهؤلاء لا صلة لهم بسائر الناس طبعاً . على أن العيني قد رد على امتناع دخول الملائكة البيت الذي فيه كلب لنجاسته ، أن ذلك غير مقبول لأن الخنزير وهو أشد نجاسة ، والسنور وهو أكثر أكلاً للنجاسات لم يرد بشأنهما امتناع دخول الملائكة لبيت وجدا فيه . ونقول إنه ليس

من المعقول أن تدخل الملائكة بيتاً فيه خنزير بينما لا تدخل بيتاً فيه صورة مع الفارق الكبير بين الصورة والخنزير .

ويعجبنى قول ابن حبان الذى أورده ابن حجر العسقلانى فى شرحه على صحيح البخارى وهو « إن هذا الحكم (أى امتناع دخول الملائكة لبيت فيه كلب أو صورة) إنما هو خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام » . ولا غرابة فى هذا ، فإن للنبي خصوصيات ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فى حاجة إلى كلب يحرس داره أو تمثال يزين جداره . وإذن فالمسألة هى كما قال العيني : خاصة بالنبي وبملائكة الوحي الذين يحملون إليه رسالات ربه .

وذهب بعض العلماء مذهب النووي فى تحريم ما له ظل وما لا ظل له ، معتمدين فى ذلك على حديث للنبي عليه الصلاة والسلام روته السيدة عائشة قالت : « قدم النبي من سفر وقد سترت بقرام لى على سهوة لى فيها تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وقال : أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فجعلناه وسادة أو وسادتين » . ثم يستشهد القائلون بالتحريم أيضاً بحديث : « وعد النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ، فراث عليه حتى اشتد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج النبي فلقميه فشكا إليه ما وجد ، فتال له جبريل إنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب » . وفى رواية أخرى أن جبريل خاطب النبي فتال : « أتيتك البارحة فلم يمنعنى أن أكون دخلت إلا أن كان على الباب تماثيل وكان بالبيت قرام ستر فيه تماثيل وكان فى البيت كلب . فمر برأس التمثال الذى فى البيت يقطع فيصير كهيئة الشجرة ، ومر بالكلب فليخرج ، ففعل النبي ذلك » .

وإذن فدليل التماثلين بتحريم ما لا ظل له ، أمر النبي بهتك الستر وتقطيعه وعمل وسادتين منه . ونحن فى حاجة إلى جواب من هؤلاء على سؤال هو : إن عمل وسادتين من الستر معناه أن الصورة لا زالت باقية فى بيت النبي كما صرحت بذلك رواية ابن حنبل ، فهل امتنع الملائكة بعد ذلك من دخول البيت ؟ وهل اشترط الملائكة ألا يدخلوا بيتاً فيه صورة إلا إذا كانت متمنة ؟ وهل وسادة ينام عليها النبي صلى الله عليه وسلم تعد متمنة فى نظر الملائكة ولا تمنعهم من دخول بيته ؟ .

تلك أسئلة أعتقد أن الاجابة عليها فى صالح إباحة التصوير ، ولعلها بالتالى تخفف من حدة الفقهاء وتشددهم عند الكلام عن هذا الموضوع .

على أن حديث « جبريل » بحاجة إلى إمعان نظر وإعمال فكر ، ذلك إلى أعتقد أن جبريل عليه السلام إنما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات الله وأصول التشريع والديانة ، ولم ينزل ليوحى إليه أن يقطع الستائر وأن يعمل من « الهلاهيل » وسائد ومرافق . ويمكن أن نرد على حديث « جبريل » بحديث آخر رواه البخارى عن أنس أنه قال : « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : أميطى عنى فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » .

ويفيدنا هذا الحديث من ناحيتين :

أولا : أنه يرد على حديث هتك الستر الذى تمسك به القائلون بالتحريم ، وعلى رأسهم النووى .

ثانيا : أن النبي قد أقر الستر ولم يقطعه ، وإنما نحاه فقط حتى لا يشغل به فى صلاته على الرغم من وجود تصاوير به .

من ذلك نرى أن شراح الأحاديث قد اختلفوا فى فهمها وشرحها ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى . ولسكننا وجدنا من بينهم أمثال ابن حبان الذى يقول : إن امتناع دخول الملائكة لبيت فيه صورة ، إنما هو خاص بالنبي لا بعامة المؤمنين . كذلك رأينا الطبرى يقول : إن المراد بالمصورين من يصورون ما يعبد من دون الله ...

بعد هذا ، يخيّل إلينا أنه قد امتنع الدليل المنقول أو المعقول على من يقول بتحريم التصوير ، له ظل أولا ظل له ، امتن أولم يمتن ، ثم سواء أكان حيوان أم غير حيوان .

سبب التول بالتحريم :

قد يرجع سبب قول الفقهاء بتحريم التصوير إلى تأثير الافكار اليهودية التى

اختلطت بالدين الإسلامى عن طريق اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولا سيما أن منهم من كان من رجال الحديث أمثال كعب الأحبار ، الذى أخذ عنه ابن عباس ، وكذا وهب بن منبه وغيرهما .

ولا يستطيع باحث أن ينكر تسرب كثير من الاسرائيليات إلى المعتقدات الإسلامية ، فإن القول مثلا بكَراهية المحفور (الغائر أو المجوف) قد يرجع إلى ما ورد فى التوراة خاصة بالمذبح حيث يقول الرب : « وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبنيه منها منحوتة » . كذلك قد يرجع القول بكَراهية المنبر فى أول الأمر إلى ما ورد فى التوراة فى نفس الإصحاح حيث يقول الرب :

« ولا تصعد بدرجة إلى مذبحى كيلا تنكشف عورتك عليه » .

ويخيل إلى بعد هذا ، أن القائلين بتحريم التصوير من فقهاء المسلمين قد تأثروا — إلى حد ما — بالآراء اليهودية . على أن بعض المستشرقين يهتمون بالأمم السامية عامة بخوف متأصل من الصور والتماثيل ، وأنهم ينسبون إليها قوى سحرية . وقال هؤلاء المستشرقون إن مظهر ذلك الخوف هو القول بتحريم التصوير . ومن طريف ما يروى فى باب الاستشهاد للتدليل على صحة ذلك الزعم الذى يذهب إليه المستشرقون ، أن أبا جعفر المنصور حين بنى قصره . وسط مدينته الجديدة « بغداد » ، جعل على قبة القصر فارسا ممسكا رحا لمعرفة اتجاه الرياح — كما يقول المستشرق توماس آرنولد — ولكن سادت بين الناس خرافة مؤداها أن الفارس إذا اتجه برمحه إلى جهة ما ، فإن شرا منتظرا سيحدث بتلك الجهة . ومن الواضح أن هذا النوع من التفكير الخرافى يجعل الناس يتقبلون فى سهولة قول القائلين بتحريم التصوير .

اليهودية والتصوير :

أما تحريم التصوير فى الديانة الموسوية فإنه يعتمد على ما ورد فى التوراة فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهذا نصه : « ثم تكلم الرب بهذه الكلمات قائلا : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من مصر ، من أرض العبودية . لا تكن لك

آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تماثلاً منحوتاً ولا صورة ما بما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدن ، . . ونقرأ فى موضع آخر من سفر الخروج قول الرب : « لا تصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب . »

وهذا التحريم الذى نصت عليه الديانة الموسوية فى سفر الخروج من التوراة له ما يبرره إذا حاولنا أن نفهمه فى ضوء الظروف والملابسات التى أحاطت بتلك الديانة وقت ظهورها . فمن المعلوم أن مصر التى عرفها بنو إسرائيل حق المعرفة — كما عرفوا غيرها من البلاد المجاورة التى تعبد الأوثان — كانت حينذاك زاخرة بأرباب تعبد من دون الله ، وكانت تماثيل آلهتها الآدمية والحيوانية العديدة تحتل كل مكان . . وما نكسة بنى إسرائيل ورجوعهم عن الوحداية السامية إلى عبادة العجل إلا لضعف إيمانهم بالدين الجديد ، وشدة تأثرهم بالأفكار القديمة التى وجدوا عليها آباءهم .

وأذن فمن الضرورى أن تلجأ الديانة الموسوية إلى النص على تحريم التصوير وعمل التماثيل ، حتى لا يفتن الناس بها فتفتنهم بالعجل ، وحتى لا تمهد لوسيلة تفسد عقول معتققيها فى وجود إله واحد لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

أما الإسلام الذى مهدت له الديانة اليهودية والديانة المسيحية بإعداد عقليّة الناس لقبول عقيدة سماوية واعتقاد فى وجود إله واحد منزه ، فليس هناك ما يدعو فتمها على الصحيح — إلى القول بتحريم التصوير خوفاً من الرجوع إلى الشرك بالله أو امتناعاً عن مضاهاة خلق الله سبحانه وتعالى .

وإذا سلمنا أن ذلك المنع كان له ما يبرره عند ظهور الإسلام لتقرب عهد الناس بعبادة الأوثان ، فلا ينبغى أن نسلم به اليوم ، ولا أن نظل على القول بالتحريم ، مع ما يرى من شدة الحاجة إلى التصاوير والتماثيل فى حياتنا اليومية وشؤوننا الاجتماعية ، والشرعية — كما نؤمن — صالحة لكل زمان ومكان .

سوق السعاة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل عجمي

المدرس بالأزهر

في مجتمعنا أسواق نافقة ، تعج بالتجار الكبار والصغار ، يمسون ويصبحون ولا هم لهم إلا السعي ، وبين أشداقهم طحن معسول ، وفنات بغيض ، وبين جوانحهم حسائك نماها الحسد ، ورواها الحقد ، وأرضعت عصارات مرة من صدى الوراثة أو إسفاف البيئة ، أو تدنى التربية وانحطاط التقليد .

يمرون بالآمنين بحر الأضالع ، ويندسون بين الأصدقاء ، ويطوفون على الجماعات ويتمسحون بالرؤساء ، ويتعلقون بالأذنان .

لا تكل أقدامهم ، ولا تراجع خطواتهم المشاة ، ولا تسجهم المنسل ، كأنما قد تقصصهم للعورات ، وتبعهم للزلات ، من جبل لا تنفذ أحجاره ، ولا تنتهي دفتات حمه ، ولا هبات عثيره .

وما رأيت كالسعاة ، يحملون أوزار أهوائهم ، ويمشون بها في الأسواق ، يصبون في كل مشرب صاف ما يكدره ، وفي كل منبت تام ما يصوحه وفي كل مجمع سار ما ينغص على آله ، حتى يفرق ما التأم ، ويشتت ما تماسك وترابط وتساند .

نعم ما رأيت كالسعاة ، يضربون بالمعول في غفلة ، ويغمزون بالإبرة في صحوة ويدفعون بالمهماز في ثورة ، فإذا النار موقدة ، وإذا البغضاء تقوم بالناس وتقع ، وإذا النمام قرير النفس ، يلبس حر النار فيكون برداً على كبده ، وماء ينزل فوق صخرة فؤاده الكليل ، وضميره البليد ، وطواياه المظلمة ، وحناة التي باض فيها النفاق . وتلك الأسواق المتفشية ، وتجارها المتكاثرون ، وسماستها الذين لا يهدأون وبضاعتها التي تنتقل على محفات الرواج ، لا نجد للخلاص منها طريقاً ، ولا نلوذ منها بعاصم حتى ليس لها من دون الله كاشفة . .

ولو أنصفنا مجتمعنا، وأردنا لأنفسنا الوقاية من شرها، لأقننا الأموال ورصدنا الجهود لمحاربتها ومطاردة المدمنين، والعاكفين على استثمارها، والجري وراء النفع الموقوت الذى لا يدوم، وإن دام لا يخرج إلا نكدأ من الغاية، وخبثاً فى النهاية من لى بمقاومة الأسواق التى تبث القطيعة، وتمحق الترابط، وتربى الشحنة، وتوهن أسباب الصداقة، وعرى الأصدقاء، فإذا المودة ضائعة، وإذا القطيعة سائدة، وإذا الحياة جهمة عليها القتام، لقد حذر القرآن، وخوفت السنة، وجاهد السلف، وضج الزثر، وصرخ الشعر بالويل والثبور على المشائين النمامين.

ومع هذا فالسوق هى هى، وقد تكاثرت، مروجوا هذه البضاعة هم هم، وقد نفشوا وأصبحوا أولى قوة تخطف أبصار الناس، وتخيل إليهم من سحر نفاقهم أنها على ركانة، وإن كانت أوهن من نسج العنكبوت، وخاط الهباء، وبني الريح، وأسس الهشيم المأكول، وما أزعم أننى على بينة من علاج تلك الأسواق، غير أنى أضع أمام التارىء زفرات صادقات، ورميات قاصمات، قابل بها العتلاء والادباء والكبراء من يحتطبون على موائد هذه الأسواق.

ولعلنا نجد فيما صرح به القدامى من المجربين، والمتحفظين والمتوقين علالات وصبايات، إذا تمزناها وتأملناها واعتبرنا بها، حالت بيننا وبين التسمم، وباعدت بيننا وبين العدوى، فإن السعاية داء دوى، وخطر لا يأتى على شيء إلا جعله جذاذاً ثم هشياً ثم هباءً.

* * *

وفى الاولين لنا بصائر ...

لما ولى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دمشق ولم يكن فى بنى أمية ألب منه مع حداثة سنه قال أهل دمشق: هذا غلام شاب ولا علم له بالأمر، وسيسمع منا، فقام إليه أحدهم فقال: أصلى الله الأمير، عندى نصيحة فقال له: ياليت شعرى. ما هذه النصيحة التى ابتدأتى بها من غير يد سبقت منى إليك؟ فقال: جاز لي عاص متخلف عن ثغره، فقال له: ما اتقيت الله ولا أكرمت أميرك، ولا حفظت جوارك، إن شئت نظرنا فيما تقول، فإن كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أفلناك.

قال : أقلنى .

قال : اذهب حيث شئت ، لا صحبك الله .

ثم قال : يا أهل دهشق: أما أعظمت ما جاء به الفاسق : إن السعاية أحسب منه سجية ، ولولا أنه لا ينبغي للوالى أن يعاقب قبل أن يعاتب ، كان لى فيه رأى ، فلا يأتى أحد منكم بسعاية على أحد ، فإن الصادق فيها فاسق والكاذب بهات .

ومن هذه المواجهات القاسية الرادة ما روى عن عمر بن عبد العزيز من أن رجلا سعى برجل عنده فقال : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من هذه الآية « إن جاءكم فاسق بنبأ . . » وإن كنت صادقا فأنت من هذه الآية « هماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك .

قال : العفو يا أمير المؤمنين .

قال : على ألا تعود .

ومن خلال العقلاء كره السعاة وما ينبغي لهم إلا أن يقولوا فى وجهه : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبتك ، وإن استقلتنا أقلناك .

ومن أمثلة الرجال قتيبة بن مسلم ، روى عنه أن رجلا اغتاب آخر عنده فقال له قتيبة : « أمسك عليك أيها الرجل ، والله لقد تلبظت بمضغة طالما لفظتها الكرام . وإنى لأنهى عجالتى هربا من كرائه هذه السوق التى حرمت على صاحبها روائح الجنة من كل سماع ونقال للكذب بما جاء فى كتب المحاضرات الأولى عن السلف من أن رجلا قال للآخر إن (فلانا) لم يزل يذكرك ويقول : الضال ، فقال السامع العاقل المتوقى : يا هذا . والله ما راعيت حق مجالسته حين نقلت إلينا حديثه ولا راعيت حتى حين أبلغتنى عن أخى ما أكرهه ، أعلم أن الموت يعمنا والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ؟

في حجب المكفوفين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر

هؤلاء قوم حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار، فحبل بينهم وبين نور الحياة وضياء الكون، وصاروا سجناء الظلام الدامس، وآثروا في الغالب زوايا البيوت، أو منعطفات المعازل، فأصبحوا رهناء محبس آخر.. ولو اقتصرت بليتهم على ذلك لاحتملوها راضين أو صابرين، ولكن أهل الحياة جهلوا رسالتهم، وهضموا حقوقهم، فأخروا أولئك المكفوفين ولو كانوا أهل تقديم، وأهملوا شؤونهم ولو كانوا جديرين بال العناية والاهتمام، وصدوهم عن احتلال أماكنهم العالية في المجتمع إذا ما توفرت فيهم مؤهلات ذلك الاحتلال المشروع؛ بل وتطاول السفهاء ولا يزالون يتطاولون - على المكفوفين، فسخروا منهم وتندروا بهم، واتخذوهم مسلاة وتلمية؛ ولعل هذا هو أهم الأسباب التي دفعتنا إلى تخصيص ذلك البحث عن المكفوفين، ولسنا نريد أن تقتصر ثمرته على الفائدة العلمية التي تأتي عن طريق البحث والعرض؛ بل نرجو أعمق الرجاء أن تكون صحبتنا هذه مع قرائنا للمكفوفين مدعاة إلى أن تتبدل الحال، فيأخذ المكفوف مكانته الطبيعية في الحياة، يتعلم ويتقوم، ويعمل فيحترم، ويجاهد فيصل، ويشارك غيره من المبصرين مشاركة الأنداد.

والكفيف هو الشخص الذي ذهب بصره، ويقال له أيضاً أعمى والعمى كما تحدثنا اللغة هو ذهاب البصر وعدم الرؤية، ويقال: عمى عليه الأمر أي التبس وتعمى الرجل تظاھر بأنه أعمى، ورجل عمى القلب أي جاهل، والأعميان الليل والجمال الهائج، وقيل: هما السيل والجمال الهائج؛ والعاء السحاب، وقيل هو الذي يشبه الدخان ويركب رهوس الجبال، وفي المثل: ربما أصاب الأعمى رشده.

ويقال للأعمى أيضاً ضير، ويقال له أكمه، وذلك إذا ولد أعمى. والعمش قريب من العمى، والفرق بينهما أن العمش هو ضعف رؤية العين مع سيلان الدمعة منها، كيأن المرئيات تستتر عنها بستور الدمع.

وبلادنا - مع أشد الأسف - أكثر بلاد الأرض عمياناً؛ وقد تعاونت على إيجاد هذه السكثرة في المكفوفين بيننا عدة عوامل، كل منها غول مخيف، وشيطان رجيم، فهناك الفقر الذي يمنع من النظافة ومن العلاج، فينشأ من وراء ذلك العمى وهناك الجهل الذي يدفع بالجاهل إلى ارتكاب السيئات الكبائر في صحته وفي عيذه على الأخص فيؤدى ذلك إلى العمى، وهناك المرض المتمثل في الرمد الشائع الذائع وهذا الرمد له ضحايا من المكفوفين أكثر من ضحايا سواه، وهناك القذارة التي ابتليت بها بلادنا، فلم يصدق في الحملة عليها فرد، ولم تتعاون في محاربتها جماعة، وهذه التذارة تتناول متجارية على البصر، فتصيبه ثم تمضى عليه؛ وهناك الغبار الذي يشور في أغلب الأوقات فيحمل جراثيم العمش والعمى في عجلة وإسراع؛ ومن السهل عليك أن تلاحظ عند مراجعة هذه الأسباب مجتمعة أن أغلبها - إن لم يكن جميعها - تتحمل إصره وتبعته الجماعة والدولة أكثر مما يتحملها الفرد الضعيف وذلك لأنها أسباب عامة طامة: ولا طاقة للفرد بالوقوف في وجهها، وإنما ينهض بذلك المجموع، ومن تلك الملاحظة نستطيع أن ندرك في سهولة عظم المسؤولية التي تتحملها الجماعة في كثرة المكفوفين ببلادنا العزيزة !

وعلى الرغم من أننا أكثر بلدان الأرض عمياناً، فإننا أشد الناس إهمالاً لشئون المكفوفين، وأكثر الناس تفريطاً في حقوقهم، مع أن الواجب أن يكون الأمر بالعكس، فإدما قد كثرت فينا المكفوفون كثرة لا مثيل لها في الأقطار الأخرى، فتمد كان لزاماً علينا أن نخصص جهوداً كبرى لنواجه هذه السكثرة بما ينبغي لها أو يجب من رعاية واهتمام، ولكن هكذا كان الوضع، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولا زلنا بلاد العجائب والغرائب وإن كثرت منا الدعاوات ..

ولو أنك ألقيت نظرة على صنيع الأمم في ميداننا هذا لوجدت المكفوفين في الأمم الناهضة الوائبة أناساً عاملين مؤثرين، متساوين مع الآخرين في الحقوق وأغلب الواجبات، فللمكفوفين هناك إنتاجهم ونشاطهم، ومدارسهم ومعاهدهم، وصحافتهم وكتبهم، وآثارهم الصناعية والفكرية؛ ولكنهم بيننا كالمنبوذين، يعيشون على هامش الحياة وفي أبعد زاوية من زوايا المجتمع، وبذلك تضيع عبقریات، وتختفي كنوز رائعة بإهمال أولئك الناس ! ..

وليت أمرنا اقتصر مع إخواننا المكفوفين على النبذ والإهمال ، إذن لحف الأمر وهان ؛ وفي الشر خيار كما يقولون ، ولكن شاعت فينا السخرية بالأعمى ، وألفنا اتخاذ المكفوف موطنا للاستهزاء ، وذلك استخفاف بذىء بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية ، وكأنما الساخر من صاحب العاهة ، أو الهازيء بمن نالته آفة ، يريد أن يبدو في صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، فيكون محطاً للنقمة العزيز الجبار ، مستحقاً للعنة وسوء القرار .

وطالما شاهدنا ذلك العتل الأثيم الذي يؤنب رجلاً مكفوف البصر على خطأ ارتكبه وسمعه يقول ثائراً وساخراً : « لا لوم عليك فإنك أعمى ، ... وكأنما جمع الرجل في كلمة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة فخطمته ، وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساخرين : « حتماً إن كل ذى عاهة جبار » إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء !

إن هذا أولاً سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله لجعل الساخر مكان المسخور منه ، فذلك إذن سابق القضاء وحكيم القدر ، والسخرية مما سبق في علم الله ، وجرى بحكمته وهدهد محاربة له ، ومن يفعل ذلك فتمدباً بسخط من الله وعذاب شديد ... وإن كان المكفوف قد فقد بصره في حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والاقتراب من نوره الذي أشرقت له الظلمات ^(١) ؛ ولقد روى عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه عن جبريل عن ربه قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمته (أى عيذه) إلا النظر إلى وجهى ، والجوار فى دارى ... قال أنس : فلتد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم : « وذلك اشتياقاً منهم إلى التمتع برؤية ربهم ، وهى نهاية النعيم فى جنات الخلود » . وفى رواية : إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة :

وحتى لو فقدت الكفيف بصره فى معصية لكان مستحقاً للرحمة والثناء ، بدل التطاول والاستهزاء ، قرب معصية أورثت ذلاً وافقاراً خير من طاعة أورثت

[١] ذكر ابن أبى الدنيا عن بعض السلف أن الأعمى يرى ملائكة ربه عند قبض روحه .

عزاً واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجر ويستقيم ،
وأما سخرتلك منه فتخريض له على العناد والإبعاد في مهاوى الفساد ؛ ولقد شرب
رجل الخمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فضربوه حداً وتأديباً ، فقال له
بعض الصحابة : أخزأك الله ! . فغضب من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ،
لا تعينوا عليه ! .

وكثيراً ما يكون الكفيف البصر المزدري في أعين الناس كريماً عند الله ،
رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لثفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ؛ فها هو ذا الصحابي الجليل
عمرو بن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد
من قریش^(٢) ؛ وهدايتهم إلى الله ، فلا يجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بهم هذا
الكفيف الساعى ، فيمهل قليلاً ، فينزل الله سورة في كتابه ، يعاتب فيها نبيه ،
ويقول عز من قائل معرضاً وموارياً : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك
لعله يزكى ، أو يذكر فتنتفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك
أن لا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؛
كلا إنها تذكرة » . . . !

ولا يصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » ، في هراحة
وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا الوصف الذى قوبل صاحبه بالإهمال
أو الإهمال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرحمة والاحتفال ؛ وصلوات الله
وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متماً لمكارم الأخلاق ؛ ولذلك
كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربي ،
هل لك حاجة ؟ . . . وجعله خليفة وراءه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف ،
لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول . . .

ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها
مدينة خربتها غارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان في وسط
القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضير » الخطأ ينقل في كل بيت قدم

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها ، فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظنا كريما جال بخاطري عن تصرفه ؛ فقال : لقد لمحت كلمة (ضرير) في البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن يجرح إحساس فلان فتخطيته ! ... فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق سرى بين الجميع !

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان الغيور ، وبقاءه في الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عيفيه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من الخمازي ، ومشاهدة عديد من المآسي ، فهذا زمان تترامى صورته وحوادثه أقداء في عيون الناظرين فتعشيها وتدميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التطلع إليه والاعتماد عليه . فيفت :
 ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلمهم الله يعلم أني لم أقل فندا
 إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

فليت شعري ، كيف لو تأخر الزمن بشاعرنا حتى أدرك زمانا نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن نتمنى أن نفقدها لنستريح من خزي ما نرى ونشاهد ؟ !
 ألا إن سخرية القوى بتمص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير بالعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع الرفيع النبيل ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه » . والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمانة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء والاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلاه — لحكمة يعلمها ولا نعلمها — بعللة مزمنة أو عاهة دائمة ؛ وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوما بالأجسام والأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال ...

على أننا حين تنبسط أمامنا صفحات البحث في صحبة المكفوفين سنرى أن كف البصر ليس عاهة تقبل الهزء والسخرية ، وليس تنمنا يعاب عليه صاحبه ، وليس حائلا يحول بينه وبين مراقب المجد وذرا الرفة ؛ وسنجد من شواهد التاريخ وسواند الحوادث ومنطق العمل والتفكير أن المكفوفين كانوا عباقرة في القديم ، وهم أهل لأن يكونوا عباقرة في الحديث ، لو استقام أمامهم الطريق ! ...

الاسلام أصل حضارة العالم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يقولون إن المدنية الحديثة أساسها الحرية والإخاء والمساواة، وإن هذه الأشياء لم تعرف أول ما عرفت إلا في عهد الثورة الفرنسية التي قامت في آخر التمرن الثامن عشر، وإن أعظم أسس تلك الثورة كتاب العقد الاجتماعي الذي نشره جان جاك روسو، والذي أوله (ولد الانسان حراً).

ولم يدر هؤلاء المغالون الجبهة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال من قبل ذلك بما يزيد عن اثني عشر قرناً (إن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى) وذكر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بأقوال تكاد تكون أقوال جان جاك روسو، حكاية لها، حيث نصح أحد عماله بتموله (كيف تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

وبعد، فلا أظن شمس الحرية أضاءت كما أشعلها الاسلام، إذ أضاءت العالم من مشرقه إلى مغربه كلها انتشرت تعاليمه — أما أوروبا صاحبة المدنية الحالية التي أثبتت الأيام أنها مدنية الحجارة والحديد والتشاحن على المادة والعرض وإزهاق النفوس لملء البطون وإشباع نهم الفجور والفسق والفتنة في السلم، هذه المدنية لم تعرف اسم الحرية إلا بعد أن احتسكت بمدنية الإسلام، وبعد أن أضاء قبس من نوره من العراق والاندلس ومصر والقسطنطينية.

حتى في بلاد العرب لم تسكن الحرية ذات معنى حتمى قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أظن خافياً على أحد ما الذي كان يفعله المنتفعون من قریش والمتزمتون فيها حين كانوا يؤذون رسول الله وأصحابه بأشد أنواع الأذى، ويذيتونهم أمر أصناف التنكيل مع أنهم لم يزاحمهم على عرض ولم ينافسوه على جاه ولم يطالبوا بسلطة ولا بحكم، وإنما كانوا يدعون لدينهم بالقول اللين والكلم الطيب وحده إلى نبذ عبادة الأصنام، والتفكير في مخلوقات ليعلموا أنها من صنع الله الواحد القهار.

ومع ذلك فقد أخذتهم حمية الجاهلية وطوحت برؤوسهم إلى العنت والسخف حتى اضطروا الرسول صلوات الله عليه للهجرة هو وأصحابه ، واضطروهم إلى أن يشقوا بأسيا فيهم الطريق إلى الحرية ، حتى أفاضت بنورها وحتى انكشفت أطباق الظلم ، وإذا بالمسلمين يحملون شعلتها المقدسة وفي أولها هذه الحرية ، يدعون إلى الله ويدعون إلى المساواة ، إلى أن تكسرت أمام أسيا فيهم وتحت أقدام خيولهم ما عهدته بمالك فارس والروم والمغرب وأوربا من نظام الطبقات ، ومن استعباد الناس بعضهم لبعض ، مما كانوا يسمونه نظام الإقطاع ، وحق السيد أو الشريف على عبده ، وحق الكهنة ورجال الكنائس على عموم الناس .

لم يعرف العالم إلغاء هذه النظم العجيبة قبل الإسلام ، ولو قام إنسان في أوربا في القرون الوسطى ، ودعا إلى المساواة بين الفلاح وصاحب الحقل ، أو دعا رجال الكنائس أو المعابد إلى التنازل عما كانوا يدعون من حقوق لما كان له من جزاء أقل من التعذيب والتقتيل والتخريب .

ولتند ضلت المدنية الأوروبية طريقها وحادت عن أصلها الأول في الإسلام وجسموها نظريات فاسدة واتخذوا لها طرقاً لا تمت إلى الحق بسبب ، فكانت النتيجة أن انتلبت الأعراض الزائفة ، والصور الباطلة ، نقمة عليهم وإذا هم يطغى بعضهم على بعض يتكالبون على ما يشبع النهم أو يطغى ظمأ الشهوة ، وما هم ببالغين من ذلك إلا دق الأعناق ، ولا تراجعين إلا عن طريق روح الإسلام - عند ذلك يتدقون المساواة الحققة والإخاء الصحيح .

جاء الوحي من عند الله العزيز العليم إلى محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية الأول ، وكان أول بدئته قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

أول الدعوة وأول الرسالة طالب المولى حبيبه بالعلم ، يا لها من حضارة تبه العقول وتستهي الألباب وتشرح الصدور . يطالب جل شأنه بالعلم ، فدين الإسلام إذاً أساسه العلم ووحية الحق وروحه الحضارة في أجلى صورها وأبهى معانيها ؟ العلم بأوسع صورته وأدق معانيه ، وإلا فيما نفس انتقال العرب بعد إسلامهم من عداد الأمم الجاهلة المشردة إلى مصاف الأمم الراقية السائدة ؟ استغفر الله

بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم . وقد اعترف لها الكافة بالزعامة في ذلك قروناً طويلة كانوا فيها يؤمنون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصناعات والفنون ، ولا يزال المؤرخون من جميع الملل والنحل يرددون هذه الحقيقة - أليس هذا لأن الإسلام يفرض الرقي فرضاً ولا يسمح به سماحاً .

تحدث القرآن عن ذلك بمنتهى القوة حيث يقول الله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ويقول : (وقل رب زدني علماً) ويقول : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ويقول المصطفى صفوة خلقه (خذ الحكمة ولا يضررك من أى وعاء خرجت) أى ولو خرجت من فم آثم أو كافر ، فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شيء

كل هذه الآيات وتلك الأحاديث فرضت على المسلمين العلم ودفعت بهم إلى مباحثه دفاعاً ، والعلم يؤدي إلى الترقى لا محالة بل هو طريقته الوحيد في كل أدوار البشر . وأى علم هو ؟ العلم على إطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه وبكل ما يؤدي إليه في الحياة . فإن الدين الذى يفرض على ذويه النظر في السموات والأرض والذى يقول إنه يضرب الأمثال للناس وما يعقلها إلا العالمون ، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم في حقه ، والذى يقول رسوله الأمين (فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد) ويقول (ففكر ساعة خير من عبادة ستين سنة) الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله قهراً إلى طلب العلم ، وطلبه يدفع بهم إلى أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها .

وإلا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور ، يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيراً ليعلل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر . يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك .

ومن ذلك الذى كان يتصور أن ذلك العربى الجاهل يصبح بعد تلك المدة النصيرة ويبدد ذلك القبس من العلم يعيش إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض يأخذون عنه ما جعله الله أمينا عليه دون خلقه - من ذا الذى يستطيع أن يتخيل

هذا لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الانتقاد لقاموس الترقى إيجاباً ، لا أنه قد أباحه لهم تخيراً .

لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى العلم فحسب ، ولكنه تغلغل في نظام الاجتماع ووضع من القواعد ما يعتبر المنار الوهاج لهداية الناس إلى ما يسمو بهم فرادى وجماعات ، وإلى ما يقر حالهم من حيث معاشهم ومعادهم ، فكان النظام الاقتصادي أبداع من النظم الاقتصادية التي عرفت من قبله والتي ولدت من بعده ، هذا النظام هو نظام توزيع الثروات توزيعاً عادلاً مشبعاً بروح المودة والرحمة والاحترام بين الطبقات ، وذلك النظام هو نظام الزكاة وحسبنا لو طبق هذا النظام على وجهه الشرعى الصحيح أن تهرب الأشباح الخيفة التي تطغى على العالم الآن باسم الشيوعية والنازية والفاشية والرأسمالية ، وما إلى ذلك مما يسير فيه العالم متخطباً بين ظمأ الجشع وواجب الرحمة .

ثم كان تنظيمه للأسرة وعلاقة الرجل مع زوجته وأولاده وأقاربه في حياته وبعد مماته نظام عجيب منشؤه التواصل والتراحل والتعاطف ، وإن برم به الغريون وغيرهم ممن في قلوبهم مرض ، وعابوا عليه بعض الشيء . فهم ولا بد راجعون إليه بطبيعتهم مندفعون إليه بغرائزهم ، هذا من ناحية وهناك ناحية أخرى اجتماعية لها دقتها ومكانتها وقد وقف منها الدين الإسلامى موقفاً عظيماً يدل على منتهى السمو والعظمة إلا وهو الطلاق وإباحته مع بغضه وتقييده بتلك القيود البالغة منتهى الدقة حيث يقول جل شأنه (فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سديلاً) ثم بعد ذلك يقول (الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان) .

أين حضارة الغرب هنا ؟ بل أين مدنيته ؟ ها نحن نراهم يرجعون إلى ديننا في هذه المسائل كلها ، وما ذلك إلا لصلاحيتها واستقامتها وتمشيها مع روح العصر وها هم يقتربون منا كل يوم .

ولو نظرنا قليلاً في تقاليد المجتمع وما يسميه الغريون بنظام (الإتيكيت) والآداب الاجتماعية ، ونظرنا إلى نظام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لنرى أيهما أقوى دعامة وأرقى مدنية وحضارة .

يقول الله تعالى في آداب دخول البيوت والاستئذان لرجال ربوا على البداوة وعاشوا في أحضان الطبيعة ، يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأسوا وتسلبوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذنى لكم ، ويقول في آداب الجلوس « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » وغير ذلك من الآيات :

بل نظم العلاقة بين الأفراد والعائلة بالنسبة لبعضهم البعض داخل بيوتهم حتى يلزمهم حسن الأدب محافظة على الكرامة فقال (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضهم على بعض)

تعليم إلهي وأدب سماوي وأخلاق قدسية تدل على الحضارة الحقة الكاملة ، حضارة لم تغير معالمها تلك الحضارة الزائفة التي وجدت في هذا القرن والتي كان منتهى هذا الدمار الذي نشاهده وتلك الحرب الضروس التي نراها اليوم والتي أطاحت بدول وأذهبت بممالك وثملت عروشاً كانت تفخر بأنها بلغت الذروة في الحضارة حتى إن رئيس إحدى هاتيك الدول قد اعترف والقلب منه دام ، بأن الخلاعة والمجون كانا السبب المباشر في انهيار دولته العظيمة والتي كانت تباهي الأمم كلها بحضارتها وتفخر عليهم بها

إن حضارة الإسلام مبناها النظام الروحي والإخاء الإنساني الحق ، لذلك بقيت تعاليمه صحيحة لم تغير معالمها الأيام ، ولم تقوض صروحها السنون ، بل إنها تزداد على مر الأيام قوة وتمسكاً

وها نحن ننظر أن يثوب العالم إلى رشده ويرجع إلى عقله فينشد الأمن والسلام في دين الإسلام ويفتش عن الحضارة في هذا الدين ليعتتمها الجميع وعند ذاك تنقطع الثورات وتهدأ الحروب ويتركز العالم على سياسة واحدة حقة ، وهي سياسة الله العلي التمدير . والله الموفق لأقوم طريق .

دعوة الاسلام الى المساواة

نفضيد الاستاذ الشيخ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله أياذ بيضاء على المجتمع ما أجلها . وفضائل
شما اختص بها العلي القدير ذلك الذي توافرت فيه أكرم الصفات . فجعلت منه
عبقريا فذا . وقائدا موقما . وداعيا إلى الله بإذنه يشوب إلى هديه الحائر ، ويستضيء
بنوره الضال ، ويؤمن بدعوته المنصف . ويخشى هيئته المتحدى . ويتضاءل لعظمته
المتكبر . حتى خلق من عرب الجزيرة على تنافرهم . وتباغضهم . وتأصل أسباب
الفرقة بينهم . أمة قوية الدعائم . شاحخة البناء . تربط بينها أواصر الدين . وتؤلف
بين قلوب أبنائها تعاليم الله . وتغرس في نفوسهم رفيع السجيا . وجميل الخلال
التي جعلت من العربي . الجاف الطبع . الغليظ اللفظ . الثائر المندفع . الشره الحاقد .
إنسانا مرهف الحس . لين العريكة . مهذب القول . يكفيه من متاع الحياة مايسد
رتمه . ويقيم أوده ويحفظ عليه حياته . بل تسامت به القناعة ونكران الذات إلى
أن يؤثر أخاه على نفسه . ويخرج له عن جل ماله . من طارف وتليد . وتلك
مساواة إسلامية . يعبر عنها المحدثون بما يشاءون . دان بها السلف وأخلصوا في
تنفيذها حتى أصبحت خلقا لهم . ودستورا نافذا بينهم . يحبه إليهم ما تملىء به
قلوبهم . من حب لله ورسوله . وإخلاص للدعوة الرشيدة . دعوة الإخاء والتراحم
والتواد والتعاطف . ونبد الفوارق التي تدعو إلى التخاصم والتناحر . والتفاخر
بالاحساب . والتباهي بالانساب . وتناسى ما وقر في أذهانهم من عصبية جاهلية .
جعلتهم ينكرون على الرسول الأمين في مبدأ الدعوة . مجالسة الفقراء وأحاطة لهم
بمزيد من رعايته وتسييره ، وقر رأيهم على أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بدين
يسوى بين الأشراف ذوى الجاه ، وبين الفقراء المنبوذين إذ ذاك ، حينما بصروا
عند رسول الله بصيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم ممن ليسوا من ذوى العصبية .

وأبناء الأسر ، رغبوا إليه أن يبعدهم عن مجلسه . فلما أبى ضنا بهم . وإثارا لهم ، وقال : (ما أنا بطارد المؤمنين) قالوا اجعل لنا مجلسا ليس لهم أن يحضروه . فإذا فرغنا بما قصدنا إليه هرعوا إليك كما أرادوا ، فقال نعم طمعا في إيمانهم . وكان ذلك بحضرة عمر رضى الله عنه . ولكن الله آثر القضاء على الفوارق داء المجتمع العياء . على إيمانهم . فنزل قوله جل شأنه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

ثم شدد سبحانه التذكير على دعاة التفرقة ، والتفريع لهم بأسلوب لا يدع مجالا للثقة فيهم ، والركون إليهم . والاطمئنان لهم ، ما داموا يتمسكون بهذه الطائفة المردولة التي تدفعهم إلى أن يقولوا نحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا تسلم الناس ، وإن وفود العرب تستجى أن ترانا قعودا مع هؤلاء الأعبد ، فقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) إلى أن يقول : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

وبذلك تقرر هذا المبدأ القويم : مبدأ المساواة بصورة عملية قاطعة . سدت كل المنافذ أمام أولئك النفر من عطاء قريش ، الذين أملوا أن يبقى لهم في ظل هذا الدين نظامهم الموروث عن آبائهم وأجدادهم . وكان من أجلى مظاهره . غطرسة وكبرياء . وعنجهية تدفعهم إلى حب الظلم . والتعلق بالاستبداد . فلما خاب ظنهم . وكذب حدسهم . حاربوا الدين . وخاصموا أتباعه . وأنزلوا بهم أنواعا من القسوة . وصنوا من الاضطهاد . وألوانا من العذاب . اضطر معه المؤمنون أن يفروا حرصا على دينهم . وصونا لعقيدتهم . وييمموا وجههم شطر المدينة . فلما بلغوها . وجدوا أن الدعوة الجديدة التي تهدف إلى أنه لا فرق بين أبيض . وأسود . وقرشى وغيره إلا بالتقوى وأن المسلمين مهما تباعدت ديارهم . واختلفت ألوانهم . وتباينت ألسنتهم . هم في الدين أخوة ويسعى بذمتهم أدناهم . وجدوها قد نمت . وأنيعت في مهجرهم . وليس أدل على ذلك مما قابلهم به الأنصار . من حفاوة بالغة . واستقبال عظيم . ورضى سابغ . عبروا عنه بقولهم للرسول صلى الله عليه وسلم

مدفوعين بأخوة صادقة للقادمين عليهم . وحب أكيد لهم (أموالنا بينهم قطائع) حينما قال لهم (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم) والقرآن الكريم يذكر هذه المعاملة الطيبة في قوله تعالى [والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] وقد سادت بينهم جميعا صلات قرينة على أسس من التعاون والمودة . في ظل سلم يصونه ما يتدفعون به من غنى نفس . وإيمان صادق . يحفزهم إلى القضاء على الفتنة في مهدها . قبل أن يبرز قرنهما . ويندلع لهيبها . وهم أعرف الناس بآثارها لأنهم قد طختهم حروب العصية . ولفحت جباههم نيران العداوة والبغضاء . أيام جاهليتهم . وقد حرص الرسول أشد الحرص على أن تكون الوحدة في كنف التسامح والمساواة حتمية واقعة . تنظم الانصار والمهاجرين . ومن يجاورهم من اليهود . سيما وقد وضحت لهم محاولة المنافقين الواقعة بين الأوس والخزرج من المسلمين . وبين الانصار والمهاجرين . يؤيد هذا ما روى عن جابر بن عبد الله أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الانصار . فانتزها ابن أبيّ فرصة مواتية . لأن ينفخ في بوق الفتنة ويثيرها حربا شعواء . تبعث العصية من جديد إذ قال في رهط من قومه . قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا وهذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتهم بلادكم . وقاسمتهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغه من غزوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله فقال رسول الله . فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه وإذا ترعد له أنف كثيرة ييثرب . وقال لمن تدفعه الغيرة إلى أن يدلى دلوه في الفتنة . دعوها فإنها منتنة .

لذلك كتب كتابا بين الانصار والمهاجرين وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم . واشترط عليهم . وهذا الكتاب يعتبر بحق وثيقة إسلامية . تفيض آساحاً لا يعرف العصية . الظالمة ومساواة باعدت بينهم وبين

القبيلة الغاشمة . وعدلا لا يصدر إلا عن نفس نقيّة طاهرة تجردت عن الغرض والهوى . ولم يتحكم فيها مأرب . أو تستخفها شهوة . تدعو إلى نكث العهود . ونقض المواثيق . بدافع من الأثرة وحب الذات . وابتغاء منفعة عاجلة . وانتهاز فرصة مواتية . كما نرى الآن ممن يتلقون بالألفاظ الجوفاء . والعبارات المعسولة التي تنادى بالحرية والنصفة . وإقامة نظام سلبى دائم . يحفظ للأمة الضعيفة كرامتها واستقلالها . ويهيب بالأمم القوية . أن تتبادل معها علاقات الحب والتعاون على قدم الإخلاص والوفاء . ومع ما يتصايحون به ويتسابقون فى سبيله من عقد المحالفات بأسمائها المتنوعة . تحس منهم الأمم خلاف ما يظهرون . إذ يشيع بينهم حقد تغلى مراجله . ونهم لا تخفى مظاهره . وإسفاف فى الخصومة بلغوا به الغاية . وإمعان فى العدوان بدّد الثقة فيهم . والركون إليهم . وتبلبلت الأفكار وتشعبت بينهم الآراء تتبع الأهواء .

أين هذا من قول الرسول فى عهده الذى لم يحده عنه قيد أنملة (إن من اتبعنا من يهود . فإن له النصر والأسوة . غير مظلومين . ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنون واحدة ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته . إلى أن يقول . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة . من حدث أو اشتجار يخاف فساده . فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس . مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع لبيب المحض من أهل هذه الصحيفة) وقد واصل الرسول بذل الجهد لمحاربة الفوارق والعنصرية أينما وجدت وكيفما كانت . ولذلك عنى أشد العناية بمحاربة هذه النغمة البغيضة يوم الفتح حين أذن بلال على الكعبة فغضب الحارث بن هشام . وعتاب ابن أسير وقالوا هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فنزل قوله تعالى يظهر الرسول . ويعينه على المضى فى دعوته . (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم رب اشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له - لو أقسم على الله لأبره .

بهذه الدعوة الإنسانية القويمة دعا الإسلام ، وقد استجاب لها المسلمون الأوائل ، وأخلصوا في تنفيذها حتى جمع البلد الواحد بين المسلم والنصراني واليهودي ، ينعمون فيه جميعاً بحياة مليئة بالهدوء والاستقرار في جو من الثقة وحسن التفاهم ، وقد سارت تقفو أثره . ولا تنفك عن متابعته في سرعة انتشاره . حتى أصبحت من متمات العقيدة . يدين بها المسلمون في الحواضر والأمصار . في الجزيرة وغيرها من بلدان المشرق والمغرب .

وحسب الباحث المنصف أن يرنو ببصره إلى بلاد الحضارة الآن التي قامت على أنقاض مجد الإسلام بعد أن حارب أهلها تعاليمه . وجعلوا معتنقيه شيعاً وأحزاباً . فهان أمرهم ، وضاعت هيبتهم . وأسلموا تراثهم . ورضوا بالمظاهر المصطنعة . مما تخجل له نفس الأبى الحر . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . حسبه أن يلتقي نظرة فاحصة ، ليتبين كيف غلبت المادة على الروح ، والحيوانية على الإنسانية ، والانانية التي دفعت بها العنصرية إلى أن تظهر شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت لها الغلبة والسلطان . طمست معالم التسامح والمساواة وغدا التفاضل بين الأجناس شرعة ومنهاجا . ليس من حرج على أحد أن يعمل له . ويبحر بالدعوة إليه ، وها هي ذى بلاد الدنيا الجديدة ، البيض فيها يفرون من الحر . فرار السليم من الأجرب . يظلمونهم . ويحقرونهم ، ويقيدون حريتهم ، ويضربون حولهم نطاقاً من المهانة والإذلال ، ولا يسمحون لهم بالسكنى في أحيائهم أو الدنو منها ، وويل لمن تسول له نفسه هذا العمل . سيلقى حتفه . ويهدر دمه . وليس لأحدهم أن يغشى لهم مجتمعاً . أو أن يلج لهم نادياً من نواديهم ، فضلاً عن أن تجمع بينهم وشائج المصاهرة . وقد قامت دنياهم وقعدت عند ما اقترنت بيضاء بزنجى . أليس ذلك وغيره أقوى دليل على أن الإسلام دين المساواة الحقة ، والحرية الوارفة ، وهو ملاذ الإنسانية . يتمها من العنت والتحكم ، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية التي هي دعوة الحاضر ، وهيئات أن يتحقق منها بين مختلف الأمم والشعوب ما تحقق في الماضي بفضل تعاليم الإسلام . وما سيتحقق في المستقبل لو رجعوا إلى دستور الله القويم .

صفحة من المجد

أفضيلة الأستاذ محمد خليفة

المدرس بمعهد القاهرة

من ذلك الأسود الداكن الذى منحه الليل جنحه ، ونسج هو من جبينه
لصفحات الليالى أجنحة ؟ ولدت الأحداث ، وارتضع من أهوال الليالى فتدفقت
الأهوال فى دمه فهو وليد الأحداث وهو رضيع الأهوال وهو الذى يعيش لها ،
يحسبه الرأى أنه ليس من طينة هذا البشر ولسكنه من طينة أخرى صهرتها عزيمة
أمضى من عزائم الجن فكانت ذلك المخلوق الفدائى الذى عرفه تاريخ الإسلام جلدأ
راستخاً كالطود والأجسام تتساقط حوالبه ، والرؤوس تنطير ، والقلوب تتمزق ،
والأشلاء تتناثر والدماء تنفجر ، وهو هو الساخر من الموت البسام لعواصف الردى .
لقد ركب البحر المائج وبين جنبيه قلب يموج ويهدر ، وفى رأسه أفكار تصطبغ
وترعد ، وخواطر ترغى وتزبد ، وفى نفسه آمال تجيش وتثب وليست الذهب
أو الغيد أو العيش بين الزهر والكأس : لا : إنها الآمال السكبار ، إنها الفتح
والنصر ، لقد عاش فى الصحراء يحمل قلبه من صخرها قوة وصلابة ، ويحمل
من اتساعها أملا كاتساعها ، ومن آسائها عزائم أسادها ، وقد انطبع صفاء الصحراء
فى نفسه فكانت أصنى من الصفاء فى مواطن الصفاء كما كان صورة لروعة الصحراء
وربهة الصحراء فى مواطن الدماء .

وجاءته شرعة الإسلام فرآها شريعة الحق فوهب نفسه ودمه للحق يناضل
له ويموت فى سبيله .

إنه طارق بن زياد ، إنه البطولة ، إنه أول فدائى مست أقدامه تراب أوروبا
واستهان بالموت فى سبيل تركيز راية الإسلام فوق صخور المضيق تخفق

فتنخلع في خفقاتها قلوب المالكين الذين استعبدوا الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

لقد مخرت السفن في ذلك البحر الزاخر وفي طليعتها طارق يزخر قلبه بشكول من الآمال وألوان من الأفكار .

تطلع طارق إلى ذلك الصخر الداكن الذي تبدى من بعيد ، فرأى فيه صورة لوجهه ، ورأى في أخاديه وأغواره صورة لأعماق نفسه .

ورأى في ثباته وتوطد جوانبه أمام ثورة البحر الطاغية ، وأمواجه العاتية ، صورة لموقفه الذي يجب أن يكون أمام المستقبل الذي يرتقبه ، وما يحمل بين أيامه ولياليه مما يشبه طغيان البحر وعتو الأمواج

وما كادت السفن تقارب الشاطئ حتى وثب إلى الشاطئ ، ليثبت للدنيا أن الحياة وثبات ، وأن الذي يتحسس موطئ قدميه خوفا من أشواك الحياة أو رهبة من أغوارها وأعماقها خليق به أن يتدثر بخمار غانية لا أن يلبس لامة الحرب ويدرع للأهوال وبين جنبيه قلب العذراء

لقد توائب في أثره الجند وكلهم كطارق في سخريته من الموت واستهائته بما تعبئه الأندلس من عدة أو عتاد

وهنا تطلع طارق إلى تلك السفن الرابضة إلى جانب الشاطئ فرأى فيها باب الحياة لأولئك الذين قد يطلبون الحياة إذا عجزوا عن لقاء الموت ، فأشعل النار فيها وهو يتنسم ، والجند في حيرة من هذا القائد يتساءلون عن السر ، فلا يجدون جوابا غير ألسنة النيران تصاعد إلى السماء ، حتى إذا صارت السفن حطاما تتقاذفه الأمواج ورأى أنه قد خلاص جنده من عبودية الجبن الذي قد يكون حين تبدو نواجز الموت وقف على الصخرة يصرخ في جنوده ، فتنسهم صيحاته كل شيء إلا الحق الذي يكافون له والمجد الذي يجب أن يستشهدوا في سبيله حتى تقوم صروحه من أشلائهم لقد وقف يقول :

أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد

استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت

ونظر طارق وراء الأفق البعيد فاذا الأندلس تلقى إليه بخيلها ورجلها أمواجا من البشرية تندفق وأعلاما تسد الأفق تخفق وتضطرب .

ما هذا ؟ أنه لذريق ملك الأندلس يزحف في جيشه الجرار ليقذف بأولئك الحفاة الى البحر طعاما شهيا للأسماك والحيتان

انه لذريق يسير في مائه ألف مقاتل يركب مركبه التي لم يحلم بها ملك من قبل ولا من بعد ، يحيط به من حرسه الخاص عشرة آلاف من الرجال الأشداء

انه لذريق أعجبه جنوده فانفجر ضاحكا يسخر من أولئك الجياع الذين جاءوا يطلبون عرشا عز على القياصر طلبه

وزحف طارق لا يريد الميمنة ولا يبغى الميسرة ، ولكنه يريد الخطر يريد القلب وحده فيما أن يناله فيكون النصر ولما أن يهلك قبله فتظل العاصفة جاثمة ويكون قد شق الطريق لها إلى القلب لتعصف به وتأتى عليه وفيه لذريق وعندئذ يكون النصر .

ان أسبانيا وما عبأت أسبانيا لن تثنى طارقا أو ترده ، أنه يريد أن يضع قدمه على قمة جبال البرانس ويؤذن في الوجود : الله أكبر الله أكبر .

ووثب طارق وثبته وانطلق كالرياح بل أسرع من نكب الرياح يزعزع الحراب والقنا ويحصد السيوف والرماح فزاغت أبصار الأسبان وبلغت قلوبهم الحناجر ولووا وجوههم يترقبون مخرجا من لقاء الموت فإذا العاصفة تزلزل الأرض

من تحتهم وإذا التكبير والتهليل يفجر رؤوسهم . لا . لا ليس هؤلاء المسلمون من طينة البشر وما من قوة في الأرض تتف أمام قوة السماء .

إن هؤلاء خلقوا في مصنع المعجزات السماوية فلا طاقة لأحد بهم .
وأدار الأسبان ظهورهم وأطلقوا للرياح سوقهم .

وأدار لذريق بصره فلم يجد حرسه الخاص الذي يبلغ عدده عدد جيش المسلمين .
ولم يسمع غير أصوات المنايا تقترب منه فقفز من مركبته وفر مع الفارين بل كان أسبق الفارين .

ولكنه ولى ولطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

فأين لذريق ؟ وأين ضحكات السخرية التي كان يملأ بها شذقيه ؟ وأين نظرات الاذراء التي سعدتها وحدرها في أولئك المسلمين الذين لفظتهم الصحراء على معقل لذريق الشاخ ؟ إن التاريخ أثر بعد تلك الموقعة في لذريق فغير أثوابه المملكية وتاجه العظيم على شاطئ النهر ولعل النهر أبي ألا أن يكون بين قاعه قبر الطاغية .

وسار طارق يمد جناحيه على شرق الأندلس وغربها حتى وافاه سيده موسى ابن نصير فتقدما وزحفا حتى بلغا جبال البرانس ووقف طارق على قممها الشاهقة يحقق حلما من أحلامه الجميلة . وأمنية من أمانيه العذاب .

أنه أطلق صوته فوق هذه الجبال يؤذن في الوجود : الله أكبر الله أكبر .

وخر ساجداً لله شكرا وحمل الصدى روعة الأذان يجلجل بها في أوروبا فوضع الفرنسيون أيديهم على صدورهم يتحسسون موضع قلوبهم يخشون أن تكون قد فرت من جنوبهم فلم يحسوا بفرارها .

امتد أذلهم الرعب عن كل شيء حين رأوا موسى بن نصير وقد وقف على قمة البرانس وأرسل طرفه إلى الشرق البعيد ثم صاح : سأخذ طريق إلى الشرق عن

طريق شمالى (بحر الروم) البحر الأبيض ولا بد أن أجعل منه بحيرة عربية ، حلم جميل ليته تحتمق وقد كان فى قدرة المسلمين الذين أخضعوا الأكاكسة وأذلوا القياصرة أن يجعلوا أوروبا كلها مسلمة ولكن لم يرد الله الخير لشعوبها :

يا شباب الشرق : إن طارقا بنى للإسلام دولة وشاد للمسلمين مجداً فى بلاد الأندلس فهل عجز الشرق أن ينجب مثل طارق

يا شباب الشرق إن مصنع المعجزات الذى صنع طارقاً هو كتاب الله وهو حى خالد فهل عجز الشرق أن يصنع فى مصنع المعجزات فى ألف طارق :

يا شباب الشرق لقد داس طارق وجند طارق بأرجلهم الذهب وما هو أغلى من الذهب فلم يشغلهم بريق المال ولم يذهل المال والجمال رجل الصحراء عن رسالته التى حملها وجاء من أجلها وهى الجهاد فى سبيل الله حتى يتم الله نوره .

يا شباب الشرق : إن المغاربة الذين فتحوا بالأمس الأندلس وروعوا فرنسا هيض جناح أحفادهم اليوم فتحكم فى الأحفاد عبيد الأجداد فهل يعيد التاريخ نفسه فيقوض حفات الصحراء بأيمانهم وأخلاقهم عروش الجبارين :

يا شباب مصر : أنظروا إلى أولئك الحفاة الجياع من جند طارق وقد عزت نفوسهم فى ميدان الجهاد فلم تعزم الدنيا ولا زخارف الدنيا وهى بين أيديهم وتحت أرجلهم ثم انظروا إلينا اليوم ونحن متخمون وتأنى نفوسنا الضعيفة إلا أن نقدم حياة جنودنا ثمناً رخيصاً لقصور نبثنها أو ضيعة نملكها فنهدم مجد أمة لنترك للأولاد والأحفاد ثروة ينعمون فى ظلها :

أيها الشباب :

لا تكونوا عالة على التاريخ ولا تعيشوا على موائد الماضى بين ألوان الذكرى بل شيدوا لكم حاضراً تذكركم به الأجيال المقبلة واطلبوا الموت توهب لكم الحياة :

الرهبانية والديرية والتصوف

لحضرة الأستاذ عبد المنعم الشبى

مدرس بالأزهر

تعشق النفس دواماً ، أن تحيا مع هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للخالق ، وحبسوها على طاعته ، ابتغاء مرضاته ، وتقرباً لذاته العلية ، وطمعاً فى فيض نوره الذى يهدى الأرواح الحائرة ، وسط حياة مفعمة بالظلمة والآثام . . . أحببت أن أحييا مع هؤلاء ساعات من زمان عمرى ، فى قراء هذه المجلة أهدى هذه الساعات ! سأعرض فى بحثى هذا ، للرهبانية والديرية والتصوف ، مع عقد المقارنة بينهما ، كلها لاح لى وجه ملائم لهذه المقارنة . اشتقت كلمة « الرهبانية أو الديرية monasticism » من كلمة يونانية ، معناها الوحدة والانفراد ، ومن هذه الكلمة ، تولدت جميع المشتقات ، التى تعطى هذا المعنى . فكلمة « monk » معناها الرجل الراهب ، أو الرجل الديرى ، وكلمة « monastery » معناها الدير ، وهو المكان الذى تنظم فيه جماعة العباد التى آثرت هذا النوع من الحياة . وهذه العزلة ، ليست فى عرف جميع قديسى هذه الحياة الانفرادية ، الانقطاع الكلى المطلق ، عن الحياة النابضة المتطورة فى الخارج ، وتجشيم النفس ما فوق طاقتها من المتاعب والمصاعب . وإلى هذا الانقطاع الكلى المطلق ، وإذلال النفس ، وحرمانها أنعم الله ، ومتع الحياة ، أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله « لا رهبانية فى الاسلام » ، ويحسن أن نثبت فى مستهل هذا البحث ، أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية ، ليستا من أنظمة المسيحية الخاصة ، فإنه لم يتح لهما من النماء والتطور قدر ما أتيح لهما فى ظل المسيحية . أما عن أصل اشتقاق « صوفى وصوفية ومتصوف ومتصوفة وتصوف » فقد ورد فى ذلك كلام كثير ، ويعيننا من كل ما قيل ، ما رسخ لدى العلماء اليوم ، وهو أن الاسم مشتق من الصوف ، وأن القوم اختصوا بلبسه ، تمييزاً لأنفسهم

عن الطبقات التي درجت على البذخ وانغمست في الترف . ونظرة لسكلا الاشتقاقيين في الرهبانية والديرية والتصوف ، ترينا أن القوم في كل ، نظروا الى الحياة نظرة زهد ، وعزفوا عن مباحيها وملاذها ، وذلك يتفق مع ما نعرف من أن هذه الأنظمة التعبدية ، قد نشأت كلها عن الزهد .

وسأتناول الآن ماهية كل من هذه الأنظمة ، لنقف على ما بينها من أوجه اشتراك وأوجه افتراق : عرفت الوثنية الرهبانية والديرية ، ولكن المسيحية لم تعرفها قبل الترن الثالث الميلادي ، ولم تعم هذه الحياة الشرق وتنتشر فيه قبل القرن الرابع ، كما أن القرن الخامس شهدا متناثرة في غربي أوروبا ، ولم تعم وتنتشر هناك إلا في الترن السادس . ولقد نبتت أولى بذور هذه الحياة في الشرق ، وفي ذلك برهان قوى على التأثير الشرقى في المسيحية . والأصل في الرهبانية والديرية ، هو الانفراد والابتعاد عن المجتمع الغارق في المنكرات ، السادر في الموبيتات والفرار بعيداً عن صليل المادة المسكر ، هذا مع التمشق في العيش ، والاكتفاء بما يقيم الأود ، بالقدر الذي يهيء للعبادة والتأمل فتمط . وهناك فرق بين الانعزالية الرهبانية والانعزالية الديرية ، فالأولى هي حياة فرد من الأفراد ، ضاق ذرعاً بالحياة المضلة من حوله ، فراح يلتمس سعادة نفسه وهدوءها في رحاب الله ، بالابتعاد عن الخلائق والتفرد للخالق .

أما الانعزالية الديرية ، فهي عيشة اجتماعية في دير من الأديرة ، خارج نطاق الحياة البشرية العامة ، وهي عيشة منظمة كإلية ، ليس فيها قسوة الرهبانية وشدها إذ هي حياة تعاونية ، في ظلال التعبد والتقرب من الله . هذه هي الرهبانية ، وتلك هي الديرية ، أما التصوف فتبدو ماهيته من التعاريف الآتية :

قال رويم بن أحمد البغدادي « التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار والتحقيق بالبذل وترك الغرض والاختيار ، وقال السكرخي : (التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق) وقال الجنيد : (أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة) وقال ابن خلدون في مقدمته : (الصوفية

من العلوم الشرعية الحادثة في الملة . وأصلها العكوف على العبادة ، والانتقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة . وقد كان ذلك فاشيا في الصحابة والسلف . ولما عم الإقبال على الدنيا في التمرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المتأملون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة) يتضح لنا من العرض السالف لماهية هذه النظم التعبدية ، أن بينها أوجه العلاقة الآتية:

١ — أنها جميعا تتفق في هجر المجتمع القائم المليء بالشور والآثام ، إلى مكان منعزل تمارس فيه طقوسها الدينية خالصة لوجه الله وحده ، وسرى فيما بعد أن قيام هذه النظم كان رداً على موجات الفساد التي اجتاحت المجتمعات حينذاك .

٢ — هذه النظم جميعا يطبعها التقشف والزهد في الحياة ، وهو طابع يضاد ما في حياة المجتمعات حينذاك من إغراق في البذخ والترف وإقبال على الدنيا ونسيان للخالق . ولذلك فكثير ممن انضوا تحت لواء هذه النظم آثروا لأنهم فشلوا في مواجهة أحداث الحياة .

٣ — أن الإسلام قد رفض الرهبانية كنظام تعبدى من أنظمتها ، وذلك لأن الإسلام دين اجتماعي يكره الانحلال الاجتماعي ، ويكرم النفس البشرية فلا يحملها فوق طاقتها ، ونحن إذا علمنا أن من بين جماعة الرهبان من يعيش في أعماق الصحراء ، ومنهم من يعيش في صومعات تتصل بالخارج بواسطة فتحات صغيرة ، ومنهم من يعيش فوق الأشجار ، ومنهم من يحمل نفسه السلاسل والأغلال ويترك لحيته وشعره يتبدل في غير نظام ، ومنهم من يقضى حياته تضوراً . إذا علمنا ذلك أدركنا حكمة الإسلام في قول النبي (لا رهبانية في الإسلام) ونحن نعرف المثل التام : (إن إنكار الجمال هو في الحقيقة نعمة ضدية لمن يتشددون بالقداسة) فنرى هؤلاء القوم وقد أعرضوا عن النظافة والراحة واللذة وفضلوا الفقر والذل الحيوى ، وكل هذا مما ياباه ديننا الحنيف ، وهناك وجه شبه بين الديرية والتصوف ، فللعباد في الأولى ديرهم ولهم في الثانية خلوتهم وتكيتهم .

وسأتناول الآن الظروف التي قامت فيها هذه الأنظمة ، وسنرى أنها جميعاً نشأت في ظروف تكاد تكون متشابهة : لقد ثارت النفوس ضد الامبراطورية الرومانية التي لاحت وئذيتها محتملة الوقوع في القرن الرابع الميلادي ، والواقع أن الخلاعة والفجور والإفراط في المجون ، قد أثر في الأرواح الحساسة الشاعرة . فراحت تلمس في العزلة منجاة لها من خداع الحياة البراق ، وتصل عن طريق هذه العزلة إلى راحة العتم والقلب ، فنبذ هؤلاء القوم أملاكهم وأحببتهم وأصدقاءهم ، وجنحوا إلى حياة العزلة ، ولذا كان هذا النوع من الحياة عنواناً للتضحية وشرف الفقر ، كما كان من أسباب قيام هذه الحياة أيضاً ، تلك العبارات التي حث بها المسيح أتباعه على الانقطاع للعبادة ، وترك مظاهر الحياة الخداعة ، وكان لما لجأ إليه أباطرة الدولة الرومانية من الاضطهادات أثر في نشوء هذه الحياة ، ويكفي للتدليل على ذلك ، تمشي حركة الرهبانية مع حوادث الاضطهاد المعروفة في مصر ، منذ عهد الامبراطور (ديسيوس Decius) إلى عهد الامبراطور (دقلديانوس) [٢٤٩ - ٣٠٥ م] واتمد وجدت بالاسكندرية في القرنين الثاني والثالث الميلاديين مدرسة ، كانت تعلم نوعاً من إنكار الذات والتضحية ، وكان لوجود هذه المدرسة أثر في نشوء الرهبانية .

هذا عن الرهبانية والديرية . أما عن التصوف ، فقد نشأ في ظروف تشابه هذه الظروف : نشأ التصوف عن الزهد كما أشرنا سلفاً ، ولقد نما هذا الزهد إثر الحروب الأهلية ، ومقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ، إذ أثر ذلك تأثيراً بالغاً في قلوب المتدينين ، كما كان للتطاحن الحزبي ، وفوضى الفرق في عهد بني أمية ، أثره في فزع القلوب الحساسة الشاعرة التي راحت تتربص الخلاص من هذه الحياة في ظهور (المهدي) وحملت فكرة ظهور المهدي كثيرين على اعتزال الحياة ريثما يعود إليها صفاءها وطهارتها ؛ أثرت هذه العوامل ، كما أثرت نظائرها في زهاد النصارى من قبل ، فاتجهوا إلى القوة الالهية ، وأيقنوا أن البذخ والترف بدعة ، وتحققوا أن الدائم الذي لا يفنى ، والحقيقة التي لا تبلى ، هي الاتصال بالله .

الواقعية الحديثة

والادب المصرى المعاصر

لدؤساند أحمدمعباسى صالح

المذهب الواقعى (Realism) عرف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وظل سائداً حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد جاء خلفاً للمذهب الطبيعى (Waturalism) الذى دعا له الكاتب الفرنسى « أميل زولا » ^(١) وأصحابه . وقد بشر بهذا المذهب (فلوير) ^(٢) ثم (موباسان) ^(٣) فى فرنسا ، ولم يلبث أن شاع فى جميع الأقطار وأصبح الطابع الغالب على الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

على أنه بعد الحرب العالمية الأولى ، وهى النتيجة الطبيعية لانتشار المصانع الضخمة وتعميم (الآلة) وسيطرتها على المجتمعات الغربية ، ظهر كتاب ما زالوا حتى الآن مسيطرين على الأدب الغربى ينفرون من (الآلة) ويرجعون إليها سبب التدهور الخلقى والاجتماعى الذى ساد القارة الأوروبية ، متوهمين أن الانتاج الجماعى وتقسيم العمل قتل روح الاستقلال لدى الإنسان وجعله تابعاً للآلة . وأنه نتيجة لهذا صار المجتمع مادياً آلياً تحتضر فيه القيم الروحية التى ظلت سائدة مذ كان العمل اليدوى والنظام الاقطاعى مسيطرين على العالم .

والواقع أن النظر السطحى إلى ما أدى إليه الانتاج بالجملة من نتائج يجعلنا

(١) أميل زولا - كاتب فرنسى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن الانسان مدفوع إلى تصرفاته بفرائذه الثابتة والمتأصلة فيه ولذلك قد سمي مذهبه الفنى (بالطبيعة) نسبة إلى الغرائز الطبيعية فى الانسان .

(٢) جوستاف فلوير - من أتباع أميل زولا وعاش بعده بقليل ، صاحب القصة الشهيرة « مدام بوفارى » ، وفيها أخذ عن الواقع مباشرة ويعتبر أول من بشر بالمدرسة الواقعية .

(٣) جردى موباسان - من أتباع أميل زولا وعاش بعده فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقد اجه إلى تثبيت أركان المذهب الواقعى .

ننجى باللوم على التقدم الآلى الذى وصلنا اليه ؛ فإن البطالة والمنافسة والاحتكار واختفاء المحلات التجارية الصغيرة والكوارث التى حدثت قبل وخلال أزمة سنة ١٩٣٠ زعزعت الفكر الأوروبى وأطلقت أقلام كتابهم تضرب خبط عشواء فى مهاجمة ما توهموه عدوهم الألد - وهو الانتاج الجماعى .

على أن الإنتاج الوفير لا يمكن أن يكون ضاراً بالمجتمع الإنسانى ، ذلك أن المحاولات التاريخية التى بذلها الإنسان لتوفير حاجياته منذ العصر الحجرى حتى الآن لم تتوقف ؛ كما أن حاجتنا الأولية لم تتحقق بعد . ولقد أرجع الاقتصاديون النابهون هذه الأخطاء إلى النظام الذى يرتب العلاقات بين المنتجين وبعضهم ثم بينهم وبين المستهلكين . ولكن هذه النظرة العلمية ، والحلول الاقتصادية التى قدمت حينذاك ، لم تصادف مستقراً فى نفوس الكتاب والفنانين الذين روعتهم تلك الكوارث التى حدثت من بداية القرن حتى الأزمة الكبرى فجعلوا يصبون جام غضبهم وثورتهم على ما يسمى بواقع الحياة إذ كان شائعاً أن واقع الحياة هو التجرد من كل العواطف والأخلاق النبيلة واعتناق فكرة البقاء للأصلح ، وكان رجل الأعمال شخصاً صلباً بارداً كالخزانة التى يضع فيها أمواله !

وتتقدم هذه الحملة من الكتاب ذوى الشهرة (د . ش . لورانس)^(١) و (ت . س . اليوت)^(٢) و (ألدوس هكسلى)^(٣) وغيرهم ، وقد أطلق النقاد عليهم اسم كتاب الأزمة والانحلال ، ذلك أنهم لم يحاولوا أن يبنوا الأمل فى النفوس أو أن يدعوا إلى بناء اجتماعى جديد ، بل كانوا كالغربان ينهبون على أطلال حضارة ميتة .

١، د . ش . لورانس - كاتب انجليزى توفى قبل الحرب العالمية الثانية يرجع اختلال المجتمع إلى عدم التوازن بين الرجل المتحضر والمرأة .

٢، ت . س . اليوت - شاعر وكاتب انجليزى معاصر يرجع اختلال المجتمع إلى سيطرة « الآلة » والانتاج بالآلة وينادى ببنائها .

٣، ألدوس هكسلى - كاتب انجليزى معاصر ينحدر من أسرة عريقة فى العلم يرى أن التقدم العلمى سيؤدى بمستقبل الإنسان وبجمله فى النهاية إلى شىء جامد متشابه كالسلع التى ينتجها .

هؤلاء الكتاب استحدثوا مذهباً جديداً في الفن بل مذاهب اتخذت جميعاً — هروباً من الواقع — منطقة اللاوعى في الإنسان وعكفت على الجانب النفسى فيه بعد أن انتشر مذهب « فرويد » واشتهر التحليل النفسى وعرف (اللاوعى) .

وفي الاستطاعة القول بأن معظم المدارس الفنية الحديثة تصدر عن هذا النبع ، ففي إنجلترا عرفت « فرجينيا وولف » و « جيمس جويس » وفي أمريكا « ميلر » و « جمنجداى » وغيرهما وأصبح من المسألوف ظهور أدب غير مفهوم بحجة أنه يبحث في أعماق النفس البشرية وبعث المذهب الرمضى الذى انتهجه « بو » ^(١) الأمريكى وورثة « بودلير » ^(٢) وآل إلى « بول فاليرى » ^(٣) الفرنسى .

وأصبح مألوفاً أن هذا الأدب يعيش فى عزلة عن معترك الحياة اليومية وتقلبات المجتمع وآلامه . ومن هنا ابتدأ النزاع القديم بين التزام الفنان واعتزاله يعود إلى الميدان . أيجب على الفنان أن يشارك فى نقد مجتمعه ؟ أيجب أن يشير إلى الاتجاهات السليمة ويحذرها ؟ أيجب أن ينقد الأوضاع الخاطئة ؟ أم يجب أن يعتزل ويعكف على فنه يحدده ويحسنه ؟ وأعيد من جديد النقاش حول مسألة الفن من أجل الفن أو الفن من أجل المجتمع ، وانقسم الفنانون - تبعاً لهذا - قسمين . الأول منهما يرى الاعتزال والآخر يرى الخوض فى المعارك السياسية والاجتماعية ومناقشة واقع الحياة .

ومهما يكن من أمر هذين الفريقين فمن المرجح أن عصرنا هذا عصر قلق يقف عند مفترق الطرق . وأصبح من المعتقد أن النظام القائم فى أوروبا لا يبنى

١، أوجار آن بو - كاتب أمريكى عاش فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر وكان ينحو منحى ومزياً فى كتاباته .

٢، شارل بودلير - شاعر فرنسى عاش فى القرن التاسع عشر وكان فاجراً تدور كتاباته حول العربة الحبشية ونحى فى كتاباته منحى ومزياً .

٣، بول فاليرى - كاتب فرنسى توفى أثناء الحرب العالمية الأخيرة بفرنسا وكان يعتمد فى تأدية الفكرة على الموسيقى اللفظية .

بأغراض الإنسان في الاستقرار والهدوء الروحي ، ولذلك فقد حاول كل من تصدى لثقافته أن يقدم حلاً . فنادى (لورانس) بالرجوع إلى الفطرة وحياة أشبه بحياة القبائل في أفريقيا وأستراليا ولكنّه لم يلبث أن تراجع عن هذه الدعوة في أخريات أيامه ولم يقدم جديداً ، أما (البيوت) فنادى بمذهب يوشك أن يكون كالتصوف حيث يطبع المجتمع كله بطابع كنسي مترهب . إذ أصبح في اعتقاده أن الاستقرار في ظل وسائل المعيشة العصرية خرافة .

على أن الاتجاه لدى بعض كتاب الغرب لم يكن قاصراً على إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا ، بل ظهر فلاسفة في العشرين سنة الماضية في ألمانيا (كشينجر) يبشرون أو يندرون بانهايار الحضارة الغربية ووشوك قيام حضارة عظيمة لدى الشرق لا لشيء إلا لأن القيم الروحية والأخلاقية والفطرية لم تزل باقية في بلدان هذا الشرق وفي نفس الوقت يقول إنه يجب على المجتمع (الأبيض) أن يهيء نفسه لفاضلة هذا المارد (الملون) الذي ينبعث من الشرق ، والخطوة الأولى في هذا السيل هي الكراهية . وعلى هذه الفلسفة المقيمة يقع جزء كبير من التبعة في سقوط ألمانيا وإيطاليا السقطنة المعروفة .

وفي ظل هذه الأفكار المتشائمة والمريضة قام فريق من الكتاب الجدد ينفضون عنهم آثار المتاعب والكوارث التي صبغت نصف القرن ليؤسسوا لأنفسهم مذهباً جديداً على المذهب القديم المعروف بالمذهب الواقعي ، هذا هو الواقعية الحديثة .

ولقد كانت — حقا — أشبه بإفافة الجريح بعد المعركة ؛ يجب أن يعاد النظر من جديد إلى الحياة بمنظار موضوعي سليم ، ما هي الأخطاء التي ارتكبت وأدت إلى هذه الحروب المدمرة وأشاعت القلق والخوف في النفوس ؟

وعلى ذلك فكان أول أساس تتخذه هذه المدرسة هو الإيمان بالإنسانية أو بوجود العنصر الصالح في الإنسان لمواصلة الحياة وبناء حضارة أعظم ، ومن هنا يظهر الجانب الإشراقي لهذا التفكير . وعكف أعلام هذه المدرسة — التي يمثلها

الآن « سيلوني »^(١) ، الإيطالى و « ريتشارد رايت »^(٢) ، الأمريكى وغيرهما — على دراسة الحياة كما هى وأصبح الفن لا يتخذ مداره حول الخرافة أو المبالغة بل الحقيقة البسيطة التى تحدث كل يوم فى النفوس والبيوت والمصانع ودراستها دراسة دقيقة.

وحيث أصبح مجتمعنا — فى جميع بقاع الأرض — يقوم على العلم وحده ، وحيث اتخذ العلم صفته المحتومة القاهرة وهى الحقيقة الموضوعية المبينة على أساس تجربى ، صار المذهب الواقعى أيضاً لا يعنى إلا بالتجربة . ومن هنا يفترق تماماً عن سائر المذاهب الفنية الأخرى حيث يكون المجال كبيراً للتخيل والتوليف ، ولم تعد للفن صفته الرخيصة وهى التسلية أو المتعة ، بل أصبح ركنا ضمنها للمشاركة فى بناء الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والروحية بعد أن شاع أنه لا يمكن التفرقة بين هذه العناصر الثلاثة .

وإذ كان مجال هذا الفن هو دراسة (المجتمع) كما هو فى الواقع فقد اتخذ مادته من التوم الذين يمثلون غالبية المجتمع وجعل يستكشف فيهم مواطن القوة والضعف . ولكن المذهب الواقعى أيضاً لا يقتصر فى تناوله الفنى على فئة دون أخرى فى المجتمع بل على كل الفئات باعتبارها جميعاً مكونة له .

وعلى ذلك فقد أعلن فى صراحة أنه لا يفهم معنى لهذا الفن الذى لا ينتسب إلى واقع الحياة بحجة أنه يؤدى لوجه الفن وحده . وتراجعت تلك الشذمة التى ظهرت من خلعاء فرنسا فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن واحتضنها أوسكار وايلد الإنجليزى وظلت ممتدة حتى وقتنا هذا ، وأصبح من المعترف به — على الرغم من صرخات واهنة تطلق هنا وهناك — أن الفن لا بد من اتصاله بواقع الحياة ومشاكلها .

ولكن هذا المذهب وجد من يحاربه فى أوروبا وأمريكا بل وفى كل مكان

[١] اينازيو سيلوني - كاتب إيطالى معاصر فر من إيطاليا أيام حكم مو-وليني وظل ينتقل بين فرنسا وسويسرا وغيرها من دول أوروبا إلى أن رجع أخيراً إلى إيطاليا .

[٢] ريتشارد رايت - كاتب أمريكى زنجى معاصر يأخذ من الواقع مباشرة ويعالج مشكلة الزوج فى أمريكا فى كتاباته .

الآن ، إذ ظهر في فرنسا اتجاه جديد يمثله (جان بول سارتر ^(١)) (وألبير كامو ^(٢)) وغيرهما يروجون للعودة إلى رومانتيكية جديدة تختلف عن الرومانتيكية القديمة بأنها بشعة سوداء متشائمة ، وهب سارتر يدافع عن الأسلوب الرومانتي حيث العاطفة العنيفة والمبالغة هما أساس العمل الفني . ومع أنه إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية كان الدفاع عن الرومانتيكية يبدو شيئاً مضحكاً باعثاً على السخرية فتمد وجد سارتر في ضجيج القلق النفسى الذى يحدث في فرنسا الآن بجالا كبيراً لصراخه الرومانتى.

وإذا نظرنا إلى أدبنا المصرى المعاصر على ضوء هذا الكلام لوجدنا أننا لم ننخرط فى سلك مدرسة أدبية بعينها من هذه المدارس وإن كان الطابع الغالب علينا هو رومانتيكية هادئة كما يبدو فى أدب توفيق الحكيم القديم وبعض أعمال طه حسين والمازنى . ولكن حجتنا فى ذلك هى أننا فى بداية تشكيل فنى جديد نقيم على تراثنا العربى الضخم ومتكئين على ما وصل إليه الغرب ، ونتيجة لهذا ظهر أدب القصة والمسرحية عندنا وأخذ الشعر العربى يتشكل أشكالا جديدة ولم يصبح التزام قافية واحدة فى القصيدة قدراً محتوماً على الشاعر .

وفى ظل هذه المدرسة الواقعية يستطيع الأدب المصرى المعاصر أن يكون وثيق الصلة بمجتمعة مبتعداً عن الرخاوة الشائعة فى مجلاتنا المصورة وغير المصورة وتلك المخازى التى توضع لجذب جمهور خال من الثقافة والتقدير السليم . وليس شك أن القصص التى تنشر فى هذه المجلات والصحف لا تمت إلى الفن الحقيقى بصلة . ولا يشك أحد أيضاً فى أن دراسة المذاهب الأدبية المختلفة من خلال النصوص ذاتها عمل ضرورى واجب تقوم عليه النهضة الأدبية الحالية سواء فى الجامعة الأزهرية أو الجامعات الأخرى .

[١] جان بول سارترى - كاتب فرنسى معاصر ومؤسس المذهب الوجودى الشائع فى فرنسا الآن

[٢] ألبير كامو - كاتب فرنسى معاصر من الجزائر ينحى منحى المذهب الوجودى فى آثاره الفنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكلمة التي ألقاها

مضرة صائب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن مرس
وكيل الجامع الأزهر وإمام شرف صاحب الجلالة الملك

في ليلة « نصف شعبان المبارك » من سنة ١٣٧٠ هجرية
في مسجد « محمد علي » بالقلعة

نحمدك اللهم حمداً يديم علينا شكرك ، ويفتح لنا أبواب رحمتك ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين ، وجار المستجيرين ، ومأمن الخائفين . ربنا آتانا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشداً . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . وصل اللهم على سيدنا محمد عبدك ورسولك الذى أرسلته للناس هدى ورحمة ومرشداً وداعياً إلى صراطك المستقيم . أما بعد : فهذه ليلة من الليالى المباركة ، التى يتجلى الله فيها على عباده المخلصين ، فيعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء بيده الخير ، والله ذو الفضل العظيم . وقد ورد فى السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أحيا هذه الليلة بالصلاة والدعاء والاستغفار للمؤمنين والشهداء ، وبأنها ليلة مباركة ، ينبغى للمؤمن أن يلتجئ فيها إلى الله تعالى عسى أن ينال من النفحات الإلهية ما لا يشقى بعده أبداً ، فقد روى البيهقي عن عائشة رضى الله عنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتجرك ، فرجعت فسمعتة يقول فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . ولما فرغ من صلاته قال لها : هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عز وجل يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم .

وقالت: إنه خرج في هذه الليلة - أى ليلة النصف من شعبان - إلى بقيع الغرقد ، فأدركته فوجده يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء .

وقد ورد في فضل هذه الليلة عدة أحاديث رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم خراجها من المحدثين الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والطبراني والبيهقي عن جمع من الصحابة منهم : عائشة وأبو بكر ومعاذ وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن عمرو وعثمان بن أبي العاص وأبو ثعلبة الخشني وهي في مجموعها تدل على أن الله سبحانه وتعالى يتجلى على عباده في هذه الليلة المباركة ، ويتولاهم بالمغفرة والرحمة وإجابة الدعاء ^(١) .

ولكن ناساً ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصافهم وبأنهم ليسوا أهلاً للمغفرة وأنهم مبعدون من رحمة الله في هذه الليلة إلا إذا طهروا نفوسهم من الآثام وكبائر الذنوب التي وصفهم بها .

فمن هؤلاء أهل الشحناء ، وقد ورد ذكرهم في رواية أبي بكر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل الله إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل شيء إلا لرجل مشرك أو رجل في قلبه شحنة ، والشحنة هي العداوة والخصومة ، والمشاكسة وهي وصف لو وجد بين أفراد الأسرة لانتحلت عصبيتها ، ولو سرى بين الجماعات في أمة لانتحل كيانه وتفريق شملها ، ولو وجد بين أمتين فقد ينتهى بينهما إلى الحرب ؛ فأهل الشحنة ليسوا أهلاً لأن يتولاهم برحمته ومغفرته . ومنهم الحاقدون وهم الذين انطوت نفوسهم على الغل والعداوة والبغضاء للفرء أو للجماعة ، وقد ورد ذكر الحاقدين في رواية عائشة - السابقة - رضى الله عنها أن الله يغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم .

[١] راجع فيما ذكر باب الترغيب في صوم شعبان ٨٠ ، ٨١ من الجزء الثاني من كتاب الترغيب

والترهيب للحافظ المنذرى والمجلد الثاني في نصف شعبان من كتاب لطائف المعارف لابن رجب

ص ١٤٢ والجزء السادس من كتاب زاد المسلم ص ٥٦٨ و ٥٧١ ورسالة هداية الرحمن .

والحاقد وإن لم يظهر بمظهر المشاكس إلا أن ما انطوت عليه نفسه يحمله على الكيد وخلق الخصومات للمحقود عليه والسعاية بينه وبين الناس بالعداوة والبغضاء ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » .

فالحقد صفة تحريمُ العبد مغفرة مولاه في مواسم الرحمة والاستغفار .

ومنهم قاتلوا النفس التي حرمها الله ، وقد ورد ذكرهم في رواية عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطلع الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين : مشاحن ، وقاتل نفس . ويكفي في وصف قاتل النفس بغير حق ما توعده الله في الكتاب العزيز من العذاب واللعة والغضب ، ففي سورة النساء : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ، وفي سورة الفرقان : والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأُولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

هذه بعض أمثلة مما جاء في أحاديث فضائل هذه الليلة ، وأنه مانع من المغفرة وقبول الدعاء .

والأحاديث لم تستوعب كل الذنوب التي تبعد بين العبد وبين الله تعالى في هذه الليلة ، وإنما أتت بأمثلة ألقصد منها التنبيه إلى أن كل من كان متلبساً بالمعصية وكبائر الذنوب ، فهو مبعود ومطرود من رحمة الله ومغفرته ، فقطاع الطرق الذين يهددون الأمن والنظام ، والذين يسعون في الأرض فساداً ، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، والغشاشون والخائنون وأرباب الأهواء والمنافقون وشاهدوا

الزور وأرباب الفتن ، كل أولئك وغيرهم من أصحاب الذنوب والمعاصي الذين ورد ذكرهم في الكتاب أو في السنة ليسوا أهلاً لأن يشملهم الله برحمته ومغفرته حتى يتوبوا ويقلعوا عن الذنوب ويطهروا أنفسهم من الآثام ، وإلا فلا فائدة في الدعاء والاستغفار ، وكما يقول ابن الجوزي : الثوب غير النظيف أولى به الصابون من البخور والتعطير .

فينبغي للمؤمنين أن يسارعوا بالتوبة وتطهير النفوس من الآثام والأوزار ، وأن يتفرغوا في هذه الليلة لذكر الله والالتجاء إليه لغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكروب ، فإن لله فيها نفحات عسى أن تصيبهم نفحة منها ، يسعدون بها في هذه الدنيا ويؤمنون بعدها شر العذاب في الآخرة ، فقد^(١) روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » . وعن^(٢) محمد بن مسلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها فلعن أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا » .

كان الناس ولا يزالون منذ عصر التابعين^(٣) يحيون هذه الليلة بالذكر والدعاء والاستغفار جماعة في المساجد ، وكان التابعون من علماء الشام كخالد بن معدان الحمصي ، ومكحول الدمشقي ، ونعمان بن عامر الحمصي ، وغيرهم من أعلام العلماء لا يرون مانعا من إحياء هذه الليلة وتعظيمها جماعة ، ولهذا كانوا يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم ويجهرون فيها

[١] أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما مرفوعا — لطائف المعارف ص ٦ .

[٢] أخرجه الطبراني ص ٧ لطائف .

[٣] عالج في جواز إحيائها أكثر علماء الحجاز ص ١٤٤ لطائف المعارف ، والصحيح ما ذكرناه .

بالدعاء والاستغفار ، ووافقهم على إحيائها إسحق بن إبراهيم الحنظلي ، المعروف بابن راهويه ، وهو من أشهر أئمة الحديث في القرن الثالث ، قال عنه الإمام أحمد : إنه من أئمة المسلمين عندنا ، ولا أعلم له نظيراً .

وقال الأوزاعي إمام أهل الشام : إنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، وإنما يصلي الإنسان مفرداً لخاصة نفسه .

وروى ^(١) عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامله بالبصرة : عليك بأربع ليال من السنة ، فإن الله يُفرغ فيهن الرحمة إفراغاً ؛ أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحي .

وقال الشافعي رضي الله عنه : بلغنا أن الدعاء يستجاب في خمس ليال : ليلة الجمعة ، والعيدين ، وأول رجب ، ونصف شعبان ، قال : واستحب كل ما حكيت في هذه الليالي .

والذي يترجح في هذه المسألة جواز اجتماع الناس للدعاء والاستغفار في هذه الليلة كما هو حاصل ، ولا كراهة في ذلك . ففي صحيح مسلم ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وظاهر أن الدعاء والاستغفار نوع من الذكر ، أما الصلاة فتكون بلا جماعة لأنها صلاة نافلة ^(٣) ولم يثبت في السنة أنها صليت بجماعة .

[١] يعضده في الجملة ما روى عن معاذ وعبادة بن الصامت ص ١٠٠ ، ١٠١ - جزء ٢ الترغيب والترهيب .

[٢] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار جزء ١٧ صحيح مسلم بشرح النووي .

[٣] صلاة النافلة جماعة جائز كما في كتاب الصلاة من صحيح مسلم ، ولكن في خصوص إحياء هذه الليلة كرهتها العلماء والنبي أحياها مفرداً ولم يثبت أنه صلاها جماعة .

أما ما ذكره الغزالي في الإحياء من أن السلف كانوا يجتمعون في هذه الليلة ويصلون جماعة أو فرادى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة الفاتحة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، ويسمونها صلاة الخير ، فلم يثبت في السنة ، وكل ما روى فيها من الأحاديث رده العلماء .

وبما جرى عليه العمل في مصر أن الناس عقب الصلاة يدعون بالدعاء المشهور وفيه : « إن كنت كتبتي عندك في أم الكتاب محروما مقترا على رزقي ، فاحرمانى ويسر رزقى وأثبتنى عندك سعيدا موفقا للخير فإنك قلت في كتابك الذى أنزلت : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

هذا الدعاء ^(١) مروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لا في خصوص هذه الليلة ، وقال : مادعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع الله له في معيشته ، وابن مسعود لا يقول هذا إلا إذا كان قد تلقاه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو دعاء مأثور يصح الدعاء به في هذه الليلة وفي غيرها .

وقد اشتمل هذا الدعاء على أمر كان موضع نقاش بين العلماء ، وهو أن ما كتب على الإنسان من الشقاوة أو السعادة والآجل والرزق وغير ذلك يبق بدون تغيير أو أن الله تعالى يحو منه ما يشاء فيطيل العمر ويسر الرزق ، ويحو الشقاوة ويثبت السعادة .

فريق يرى أن ما كتب على الإنسان لا يتغير ، وفريق آخر يرى أن الله يحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله يحو أمور عباده ويثبت ، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا يحو فيها .

[١] راجع زاد المسلم وهداية الرحمن من المحل السابق ذكره .

والذى يظهر من أحكام الشريعة فى مجموعها أن ما كتب على الإنسان من خير أو شر وأجل أو غير ذلك يبقى بدون تغيير ، إلا إذا غيره الله سبحانه وتعالى ، فى الكتاب العزيز « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بطول العمر وكثرة الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة .

أخرج ^(١) البخارى فى الأدب المفرد عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بكثرة المال والولد وطول العمر فاستجاب الله دعاءه ، وقال أنس : فوالله إن مالى لكثير وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة اليوم ، وقد أطال الله حياته ، فقد كان فى الهجرة ابن تسع سنين ومات سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ، وقد كان الصحابة والتابعون يدعون بالسعادة ومحو الشقاوة وتيسير الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة .

والأمم التى تعنى بالتربية الرياضية وتتقى الأمراض والأوبئة بالطرق العلمية السليمة ، وتعيش فى هناءة من العيش ، تطول حياتها وحياة أفرادها ، ويبارك الله لهم فى آجالهم . والأمم الجاهلة التى ترزح تحت أثقال المرض والأوبئة والجوع والفقر تموت بسرعة وتقصر آجال أفرادها .

هذه سنة الله فى خلقه ، والسعيد من وفقه الله .

هذا ولما نرجو الله سبحانه وتعالى العلى القدير أن يطيل فى حياة حضرة صاحب الجلالة الملك ، وأن يجعلها حياة طيبة مباركة يعمل فيها لخير مصر ولخير العروبة والإسلام ، وأن يحفه الله بعنايته وتوفيقه ورشده وهديه ، كما نرجوه تعالى أن يوفق حكومة جلالته إلى خير العمل ، وما يرجى لمصر من عز وسؤدد .

والسلام عليكم ورحمة الله

[١] أول باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر بـ ١١ من فتح البارى .

أثر الصيام

في تقويم الشخصية الانسانية

كان الناس إلى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشئون الخاصة بالأديان ، ولكن لم يكد يفتشر تاريخ الطب بين الناس حتى علموا أن الصيام اعتبر في كثير من الأمراض من مقومات الصحة الجثائية ، فقد علموا أنه «عد من عهد «ابقرط» ، عاملا قويا من العوامل المنقية للجسم من سموم الأغذية .

نعم سموم الأغذية ، فإن المواد الحيوانية التي تتناولها بشرها ، تحتوى على مواد دهنية ، ومواد رباعية العناصر ، لا تطبق البنية البشرية أن تحتزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها ، وهذه الحاجة الضئيلة منها يمكن الحصول عليها من النباتات أنقى وأصح مما يمكن الحصول عليها من المواد الحيوانية .

ولا يوجد من ينسکر أن البوذيين في الهند والصين ، وهم يعدون بمئات الملايين لا يأكلون لحوم الحيوانات تدينا ، وهم على أكمل حال من الصحة ، بل يوجد غيرهم في أوروبا ممن لا يؤمنون بالشرائع الدينية لا يأكلون المواد الحيوانية بتاتا .

لسنا هنا بصدد تفصيل الأغذية النباتية على الأغذية الحيوانية ، ولكننا بسبيل إثبات أن الصوم عمل ضرورى طبيًا ، لإيجاد الاتزان الطبيعى بين مواد الأغذية البشرية ، إذا حدث ما أخل بذلك الاتزان ، أو اقتضت الدورة الحيوية للإنسان إحداث عمل مباشر لإعادة نظام التغذية ، تفاديا مما يحدث بسبب اختلالها من اختلال الوظائف الهضمية ، واختلال هذه الوظائف في العالم الإنسانى آثار بعيدة الأثر على حياته المدنية .

هذا التأثير الغذائى خاص بالنوع البشرى ، لأنه الكائن الوحيد المطلق الحرية في شئون تغذيته دون سائر الكائنات ، فإن لكل منها نوعاً من الأغذية صيغت على موجه أعضاؤها الهضمية ، فكل نوع منها خست به أنواع خاصة من المواد

لا يتعداها في تغذيته ؛ وأطلقت الحرية للإنسان فهو يتناول منها كل ما يقع تحت يده ، وكثيراً ما يصاب بسبب هذه الحرية بآفات مرضية تكون في أول أمرها وبالأعلى عليه ، ثم يعتادها فتصير مألوفاً له مع بقاء أضرارها حادثة به من ضروب شتى ، حتى يتنبه إليها ويحاول التخلص منها ، وقد تمر الأجيال فلا يستطيع أن يتحول عنها . فهو من هذه الناحية معرض لانحرافات بعيدة . وقد كشف العلم هذه الانحرافات كلها ، وبحسبها بحثاً عميقاً حتى لم يبق محل للزبد .

كل ذلك لم يثن الإنسان عن المضى فيما هو عليه ، متجاهلاً أحكام العلم ، شأنه في جميع محاولاته المادية والأدبية ، حتى إنه ليجتمع الذين يعلمون والذين لا يعلمون على مائدة واحدة ، فلا تستطيع أن تفرق بين الفريقتين ، لتساويهما في عدم المبالاة بالصنوف التي يتناولونها ، وهذا شأن الإنسان ، وأشد أدوائه تأثيراً عليه .

نعم ، إن العلم في اقتباسه الصوم من الدين لم يتقيد بمواعيده ، ولا بمدته ، ولا بأسلوبه ، فلم يأخذ منه إلا المبدأ : وهو أنه لكل ما يلقي في المعدة من المواد تأثيراً على الجسم والعقل والشعور معا ، ومن هنا يصح أن يكون ذا تأثير بالغ في تخفيف الأعراض التي تفتاب الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وتحويل محمود في حالة المريض يتأذى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات .

وحصة الروح من هذا التحويل لا تقل قيمة عن حصة الجسم ، فإنه يخلى الطريق أمامها لإيصال النفس الانسانية إلى مستوى من الشعور أرفع من مستواها وهي متورطة فيما هي فيه من الشؤون الحيوية .

وقد استفاد الطب من هذه الناحية ما لم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير ، فجعل مناط علاجه للأمراض تخير المواد الغذائية التي يجب أن يعول عليها المريض في التغذية . وقد أنشئت في عواصم أوربا مصحات هي عبارة عن قصور فخمة في وسط حدائق غناء ، ومياه جارية ، يقصدها المرضى من أرجاء الأرض ، ويمكنون بها أياماً أو أسابيع يخرجون بعدها وقد تملأوا صحة وقوة ، لا يشكون شيئاً مما كان يلزمهم ويؤلمهم ، ولم يتعاطوا في مكافحته عماراً ، ولم يشعروا بأنهم تحت سلطان

نظام صحى دقيق ، فلا يمر عليهم أكثر من أسبوعين حتى يروا أنهم قد انتقلوا من حال إلى حال لم يكونوا يحملون بها من قبل . كل هذا ببركة اختيار الأطعمة ، والاقتصار على غير الضار منها .

وقد شرع الله الإسلام خاتماً للأديان ، لأنه جمع كل ما كان لخير الإنسانية منها وجعل الصيام ركناً من أركانه ، وجعل عدة أيامه ما يتفق أن يكون عليه رمضان بين ٢٩ و ٣٠ يوماً ، مختاراً له نظام الامتناع عن تناول شيء من الطعام أو الشراب ما بين أذان الفجر الى أذان المغرب ، وهى مدة تتراوح بين تسعة وعشرين وبين ثلاثين يوماً . وقد آثر الله أن يجعله انقطاعاً عن التغذية نصف ساعات اليوم دون أن يقصر ما يؤكل على صنوف من الأطعمة دون صنوف . وهذا فيما يظهر خير نوعيه ، لأن ما يحرم منه الصائم بالصوم يعوضه أضعافاً مضاعفة في شهور الإفطار فيضرب نفسه ضرراً بليغاً . لذلك تركه الإسلام يختار لنفسه القدر الذى يكفيه من الأطعمة مع النصح له بالتخفف من الأغذية هرباً من سوء مغبة الإفراط منها على الصحة .

ونزيد على ذلك ، أن لخلاء المعدة من العمل ساعات متوالية فى حالة راحة تامة ، تأثيراً فى إعادة قواها اليها لا يمكن الحصول عليه بأية وسيلة أخرى . مثلها فى ذلك مثل العامل المتعب الضعيف ، يستحيل أن تعود اليه قواه وهو مستمر فى العمل مهما كان ما يعمل هيناً ؛ ولكن بالانقطاع عن العمل بتاتا يعود اليه كل ما فقدته من قواه ، فإذا عاد للعمل عاد اليه وهو حاصل على قواه كاملة ؛ وفرق بعيد بين الحالتين فى حفظ هذا الجثمان بعيداً عن الوهن أطول مدة ممكنة .

فالصيام فى الإسلام إذن يكون له أثر بعيد جداً فى حفظ صحة أهله ، وسلامة جسمهم من العاهات ، ولكن أكثرهم لا يأبهون كثيراً بالمستقبل ، ولا يحسبون حساباً للشيخوخة ، ولا يعرفون للقوى حدوداً ، فيعيشون كما يحبىء لا كما يجب ؟

محمد فريد وهبى

النفس

سورة فاتحة الكتاب

لحضره صاحب الفقيه الاستاذ الجليل الشيخ همام مجيب

عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى :

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ولإنما سميت بذلك الاسم . لأنها قد افتتح بها كتاب الله المجيد ، وافتتحت الفاتحة بالحمد لله رب العالمين ، لأنه تعالى أول كل شيء وآخر كل شيء ، هو وحده الحقيق بالحمد ، ولقد كان مقتضى الواقع أن يجاء بصيغة الأمر فيقال : احمدا الله . إذ أن العباد هم المنعم عليهم فهم المطالبون بالحمد . وهو تعالى مفيض النعم ومسبغها فله تعالى الحمد . ولكن الآية قد سبقت بصيغة الخبر ، إذ أن الأمر مقتضاه تكليف ، وللنفوس عند مبادأة بالتكليف جمحة ونفرة ، وإن عاودها بعدها الانقياد والطاعة ، ولكنه تعالى - سمت حكمته - وهو يبادئهم بشرعة جديدة ، وتكاليف لم يعدها ، قد أراد أن يؤنس نفوسهم ، ويؤلف قلوبهم بالترفق في الخطاب ، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم ، وإنما بدأ كتابه العزيز بتلك الجملة ليكون في ذلك تعليم لنا أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه تعالى ، حتى نبدأ ونحن في صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيها ، وتجلو عن القلوب أصداءها ، مما يلعب به للفساد وجه الحق ، ويتبدى له وجه الصواب ، وهو من ناحية ثانية تنبيه لنا إلى ما يجب علينا لله تعالى ، وهو سبحانه المتعهد لنا في جميع تطوراتنا منذ تكويننا من الطين حتى استوينا عقلاء مفكرين ، تحفنا في كل تلك المراحل رحمته ، وتظلنا عنايته . وإلى ذلك فهو تصوير لتطورات الفطر السليمة ، إذ تتعرف ربها ، وإذ تفتقل من مرتبة

إلى مرتبة ، حتى تصل إلى مرتبة الإحسان فتدوم المراقبة ويقوى الاتصال ، وإن أول تلك المراحل هو حمد الله حين نلتفت إلى وافر نعمته ، ومحيط رحمته ، وملكه لأولى العبد وآخرته ، ثم تنتقل إلى مرحلة العبادة والتقديس ، تفرد به ، وتختصه دون سواه ، ثم تنتقل إلى أسمى العبادات وهو الدعاء وسؤاله تعالى ما أطمعها فيه قربها من ربها ، وأن ييسر لها سلوك سبيل المنعم عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين ، لتنال جزاءهم ونحظى بمرافقتهم .

ولما كان الشكر هو ثناء من المنعم عليه على المنعم ، يعلن به عن انفعال نفسه وتأثرها بالنعمة الواصلة إليه بالفعل . ولما كان المدح ثناء على الممدوح ، وتقديرا لما قام به من جميل خلقٍ أو خلقٍ مما لا يصل منه أثر للمادح ، كجبال في وجهه أو كشجاعة في قلبه ، أو مما يصل أثره إلى غير المادح ، كالمرودة والكرم . لما كان ذلك هو الشكر ، وذاك هو المدح ، وكان الحمد في مقابلهما هو ثناء يعلن به الحامد عن تقديره لذات المحمود ، لكونها مرد كل خير ، ومصدر كل نعمة ، من كبيرها وصغيرها ، من أصولها وفروعها ، من عامها وخاصها ، من واصل إلى الحامد بالفعل أو غير الواصل إليه ، لما كان هذا هو الحمد ، وذاك هو المدح ، وذلك هو الشكر ، فقد أصبح واضحا لك ما بينها في الاستعمال من فروق .

فالشكر لما كان في مقابل ما يصل إلى الشاكر من نعمة بالفعل . رأيهم يتجهون به إلى الخالق ، ويتجهون به إلى المخلوق ، فتقول لذى جميل عليك : أشكرك . وتقول أشكر ربى على ما أولانى من نعمة ، والمدح لما كان على ما يقوم بالممدوح نفسه من جمال خلقٍ ليس له أثر يتعدى ، أو خلقٍ يتعدى أثره أو لم يتعد ، رأيهم لا يتجهون به إلا إلى المخلوق ، وأما الحمد فلما كان إنما يكون لذات هي مصدر كل خير ، ومبدأ كل نعم ، ماجل منها وما دق ، ما ظهر منها وما بطن ، ما وقع وما لم يقع ، وما من ذات في الوجود ذلك هو شأنها إلا الذات الأقدس ذات الله جلّت ذاته ، وتقدس صفاته ، لما كان كذلك ، رأيهم لا يتجهون بالحمد إلا إلى الله تعالى .

وإذا كان ذلك هو معنى الحمد ، كان أنسب المعانى التى تحمل عليها (أل) فى قوله : الحمد لله ، هو كونها للحقيقة ، فيكون المعنى : إن حقيقة الحمد مستحقة لله وحده ، فليس هناك موجود مهما سما فى معنويته ، أو مهما علا فى ماديته ، أن يكون فيه من الصفات ما يستحق بها أن يتجه له أحد من الناس بالحمد فهو وحده المحمود كما أنه وحده المعبود .

ثم إنك ترى أنه قد أجرى على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين (الحمد لله رب العالمين) أى مربيهم ومعهدهم بالتنمية ، ومتولاهم بحفظه ورعايته ، منذ كانوا تراباً إلى أن بلغوا أشدهم فى أبدع صورة وأحسن تقويم ، وإنما أجرى ذلك الوصف على الذات بعد ما ناطها باستحقاق الحمد لحكم بالغة ومعان سامية .

أما أولاً — فلأن طلب الحمد الذى سبق فى صورة الخبر ترفقاً منه تعالى بعباده بإعفائهم من المبادأة بالامر التكليفى الذى قد ارتكز فى النفوس البشرية استثقاله كما أشرنا لذلك سابقاً أقول :

فلأن طلب الحمد ككل طلب متى كان موجهاً ، كانت القلوب به أشد اقتناعاً فتكون النفوس له أسرع استجابة وأدوم طاعة . فإجراء وصف الربوبية على لفظ الجلالة توجيه لما طلبه تعالى من عباده من أن يحمدوه .

وأما ثانياً — فلأن تذكيرهم بنعمه وبِعجيب التطور المحوط برعايته وحفظه إثارة لنفوسهم نحو المسارعة إلى الاستجابة والمبادرة فى قوة وإخلاص إلى الطاعة . وأما ثالثاً — فلأن إجراء الوصف على ذلك الوجه جعله كالاستدلال على استحقاقه تعالى وحده للحمد ، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم . إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم ، وحدّة فى استعبادهم ، وعلى العكس إذا كان الأمر موجهاً وكالمستدل عليه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم وفى تلك الرعاية تقدير وتكريم ، ولا شك أن هذه نعمة معنوية كبرى من شأنها أن تبعثهم فى قوة إلى الاستكثار من حمده تعالى .

ثم إنك تجد لفظ (رب) قد أضيف إلى صيغة الملقب بجمع المذكر السالم ، ذلك لأن صيغة جمع المذكر السالم من الصيغ الدالة على القلة وأقل الجمع ثلاثة . ذلك ليشير إلى أن المراد بالعالمين ، إنما هى الأجناس الثلاثة التى يفتنح بها الإنسان فى شؤون حياته ، والتى هى ذات مدخلية كبرى فى نمائه وتربيته ، كما أن لها مدخلية قوية فى تنبيهه إلى نعم ربه ، ولفت نظره إلى موجبات حمده ، تلك الأجناس الثلاثة هى عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد ، ألا ترى أن له من الحيوان لحومه وألبانه وله منه أصوافه وأوباره ، وله منه أن يحمله ومتاعه إلى بلد لا يستطيع بلوغه بدونه أو يستطيع بالمشقة المعنتة .

وله من النبات حبه وعصفه ، وخشب الأشجار وثمارها ، وله من الجماد أنهار وبحار وجبال ، ولكل نفع هو فى حاجة أو قل فى ضرورة إليه .

فمن الجبال يبنى بيوتاً وفي البحار يجري سفناً ، ويستخرج لحماً وحلياً ، ومن الأنهار يروى زرعهُ وحيوانهُ . وهكذا من كل ما هو من عوامل تربيته ووسائل نمائه ومعداته حياته (الحمد لله رب العالمين)

ثم تراه قد أتبع هذا الوصف وصفاً آخر وهو « الرحمن الرحيم » ، وإنما أتبع الوصف السابق (رب العالمين) هذا الوصف (الرحمن الرحيم) لحكمة سامية ذلك أن المربي قد يكون خشناً جباراً معتتاً ، وذلك مما يخذش من جميل التربية وينقص فضل التعهد ، ويغير إشراق النفوس الحاصل عن الشعور بفضل التعهد والتربية فأتبع كونه مريباً كونه الرحمن الرحيم لينقى بذلك هذا الاحتمال ، فتبقى للقلوب طمأننتها ، وللنفوس بهجتها ، ويبقى الشعور بفضل الله على عباده غير مخدوش ولا ممسوس وتقدير النعمة كاملاً غير منقوص ، مما يبعثهم في قوة إلى حمد الله .

وقد جمع بين الوصفين (الرحمن الرحيم) مع كونهما معاً من مادة الرحمة ذلك لاختلاف معنيهما ، إذ أن كل صيغة تفيد غير ما تفيده الأخرى ، ففاد صيغة (الرحمن) الإلزام بالفعل ، والإحسان الواقع المتكرر ، وأما صيغة (الرحيم) فإنها تفيد ثبوت الرحمة للوصوف ثبوتاً على سبيل اللزوم والدوام ، فلما كان الاختصار على الأولى قد ترمم معه في النفس خواطر انقطاع الإلزام ، وهو اجس منع الإحسان ، ضم إليه الوصف الثاني ليفيد أن إحسانه الفعلي وإنعامه الحاصل الواقع مصدرهما وصف ذاتي دائم الثبوت لذاته تعالى ، فمنع الإحسان الفعلي ومصدر الإلزام الواقع دائم الثبوت له تعالى ، فلن ينقطع عن عباده إنعام ، ولن يفترقه عنهم إحسان وفي ذلك دوام تعلق النفوس بربها ، واستمرار رجائها فيه مما هو باعثها على حمده ودافعها إلى تقديسه (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) .

ولما بين لهم موجبات حمده ، وأنه الحقيقي وحده بالحمد . بأنه المربي الرحيم والمنعم الكريم ، أتبع ذلك ببيان أن هيمنته فوقهم ، وولايته عليهم ، وسيطرته على شؤونهم ليست مما ينتهي بانتهاء تلك الدار ، وينقضي بانقضاء هذه الحياة ، بل هو إلى ذلك ملك اليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء العادل . يوم لا تظلم نفس فيه شيئاً (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وفي ذلك الإلتزام استئصال لذلك الخيال الضال ، واجتثاث لتلك القضية الباطلة التي كثيراً ما اتخذ منها الشيطان حبالاً لصيد الإنسان وصدّه عن سبيل الله ،

وكثيراً ما أثارَت بها النفوس غبار الشكوك والريب في أفق الحق والإيمان لتحديد عن سواء السبيل إلى مهاوى الغواية والضلال : تلك قولهم (أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون أو آباءنا الأولون) وإذن فله الأولى والآخر ولا مفر منه إلا إليه، وفي هذا دفع لوساوس الشيطان ، وطرده لأحاديث النفس وأمانها مما يحمل النفوس على الرجوع إلى الله وابتغاء مرضاته واثقاء عذابه بالإخلاص في حمده والمداومة على ذكره والمحافظة على طاعته فيما نهى وأمر .

الآية قد قرئت (ملك ليوم الدين - ومالك يوم الدين) وعلى القراءة الأولى يكون اليوم ملكاً لله بضم الميم وعلى الثانية يكون اليوم ملكاً لله بكسر الميم فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ، أن له تعالى على اليوم هيمنة الملوك فكل شأن يجري فيه برسمه ، وكل تصرف فيه ينفذ باسمه ، ليس لغيره أمر ولا نهى ، ولا لسواه منع ولا منح ، ولا تصرف في أى شأن صغر أو كبر ، بل كل ما فيه صاغر أمام عزته خاضع لجلال عظمته .

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى : أن كل ما فى اليوم ملك له تعالى ينتظم جزئياته علماً وتقديراً ، شأن المالك الفرد فى جزئيات ملكه المحدود الذى لا يغيب عنه منه شئ جملة ولا تفضيلاً ، حتى إن ما يجتمع فى ذلك اليوم من الأولين والآخرين ، من الإنس والجن ، من الملائكة وغيرهم ، مذبذبهم وطائعهم ، من الناطق والأعجم مما يعيى العادين ، ويعجز الحاصرين ، كل ذلك قد أحاط به علماً جزءاً جزءاً وفرداً فرداً ، وكل ذلك محصور وزنا وعداً (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فيعلم أن ما يحتويه اليوم وإن جل وعظم فهو إلى عظمة ملكه حقير ، وإلى جلاله قليل ، فكان سبحانه بإحاطة علمه بكل ما فى اليوم على وجه التفصيل مالكا ، وكان بشموله لما فى اليوم سيطرة واستيلاء ملكا ، وإذن فهو الملك وهو المالك : ولقد أضاف ملك ومالك على القراءتين إلى يوم الدين . لأنه ليس هناك عبارة تفيد إحاطة ملكه بما فى اليوم إلا أن يملك اليوم ، إذ أن اليوم ظرف فلا يعقل أن شيئاً له وجود وليس فيه بل كل ماله وجود فهو بالطبيعة حاصل فيه فإذا كان اليوم ملوكا لله كان كل ما فيه ملكا لله وذلك هو السر فى أن يسلك فى التعبير مسلك السكناية لا الحقيقة .

(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) يتبع .

النقد الفني

لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله

تقــرير

مرفوع إلى إدارة الجامع الأزهر

بقلم

فضيلة الاستاذ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم :

تلبية لأمر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل مدير الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، تصفحت الرسالة المعنونة : « رتبوا القرآن الكريم كما أنزله الله » بقلم (يوسف راشد بوزارة العدل) ، فوجدت الكاتب يدعو فيها المسلمين إلى ترتيب سور القرآن على حسب نزولها ، ابتداء بسورة العلق ، ثم القلم ، ثم المزل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة ، وهكذا حتى يختم بسورة النصر .

ويقول الكاتب في توجيه هذا الاقتراح : إن ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار ، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن ؛ لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي الذي روعي في النزول ، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة ؛ لأن القارئ إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة ، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه ، وصار كالذي ينتقل من درس نحو ، إلى درس في الحروف الأبجدية ، إلى درس في البلاغة . الخ . الخ .

أول ما نلاحظه أن هذه المقدمات لو صحت كان يجب أن تؤدي إلى نتيجة غير التي يدعو إليها الكاتب . ذلك أنه كان يلزم بمقتضى استدلاله ألا يعاد النظر في ترتيب السور فحسب ، بل أن تنشر نجوم القرآن كلها ، وترتب ترتيباً جديداً على وفق نزولها : المسكي منها قبل المدني ، والمتقدم في كل منهما على المتأخر منه ، حتى يصبح المصحف صورة تاريخية لمراحل نزول القرآن .

فهل عسى أن يكون الكاتب رأى في الدعوة إلى تعديل ترتيب الآي جراً خطيرة تثير عليه سخط العالم الإسلامي ، فأراد أن يمهدها بخطوة أقل خطراً في نظره ، فدعا مؤقتاً إلى إعادة تأليف السور على حسب تواريخها ، دون مساس بنظم الآي في سورها . . . حتى إذا تم له ما أراد أتبعه بالضربة الحاسمة التي تأتلف مع مقدماته ؟ .

إننا لا نريد أن نحاسب المؤلف على أهدافه ومراميه البعيدة ؛ فالله أعلم بما في نفسه . ولكن الذي يعيننا هو أن نسجل هاهنا السبب الذي بنى عليه تورعه عن تغيير نظام الآي ، فقد قال في بيان المانع من ذلك : إن الرسول كان ينزل عليه بعض الآيات فيأمر بإلحاقها بسورة مضت ، حتى إنه كان يلحق بعض آيات مدنية بسور مكية .

هذا تقرير صحيح ، وهو يتضمن اعترافين اثنين ، كل منهما يؤخذ حجة عليه .

الأول — اعترافه بأن ترتيب الآي قد روعي فيه وضع آخر غير منهج التسلسل التاريخي في النزول . فإذا كان حضرته قد استساع في السورة الواحدة أن تشتمل على أجزاء مكية وأجزاء مدنية ، فكيف لا يستسيغ أن تكون سورتان متجاورتان إحداهما مكية والأخرى مدنية ؛ مع أن الأمر في السور أهون ؛ لأن كل سورة وحدة مستقلة ، ولا شك أن تجاوز جسمين غريبين أخف من دخول أعضاء غريبة في جسم واحد ، على أن تجاوز المسكي والمدني لا مفر منه على اقتراحه هو أيضاً ؛ لأنه سيضطر آخر الأمر إلى الانتقال من سورة مكية إلى سورة مدنية ؛ فكيف يفسر الفجوة التي ستحدث بالانتقال من آخر السور المسكية إلى أول السور المدنية مع بعد ما بين اللونين في نظره ؟ .

الاعتراف الناني — في قوله ، إن المانع من تغيير نظام الآيات هو أن تأليفها في سورها كان بتوقيف نبوى (بل نقول بتوقيف آلهى) ولم يكن بمجرد اجتهاد من الصحابة ، وإنه لذلك يجب أن تراعى لهذا الترتيب قدسيته ، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل . ومقتضى هذا التعليل أن المؤلف لو علم أن ترتيب السور في مواضعها كما هى الآن ترتيب توقيفى أيضا لحافظ عليه ، ولم يجرؤ على طلب تغييره . ألا فليعلم حضرته - إن لم يكن يعلم - أن الأمر كذلك فى السور ، وأن الأمة لم تختلف فى شأنها اختلافا يعتدُّ به إلا فى موضع واحد ، وهو جعل سورة التوبة بعد سورة الأنفال بغير بسملة ، فتعال بعض العلماء إنه كان باجتهاد من عثمان رضى الله عنه ، حيث لم يصل إليه فى شأنه تعليم نبوى : أهما سورتان أم سورة واحدة ؟ فوضعهما متجاورتين من غير بسملة احتياطا . ولكن جمهور العلماء على أنه توقيفى كسائر السور ، هذا هو الموضع الوحيد الذى يمكن أن يكون للبحث فيه مجال . على أنه سواء أكان الترتيب فى هذا الموضع توقيفيا أم توفيقيا ، فإنه لم يخالف سنى ولا شيعى فى التزام هذا الوضع الذى كان عليه المصحف من أول يوم .

وخلاصة القول فى هذه الملاحظة الإجمالية أن احترام قدسية الوضع المأثور يقضى بالمحافظة على النسق القائم الآن فى الآيات والسور جميعا ؛ وأن فكرة ترتيب المصحف على حسب النزول كانت تقضى بتغيير الوضع فى السور والآيات جميعا ؛ بل هى فى الآيات كانت أشد اقتضاء ، ومع ذلك قد خولفت وخضع المؤلف لهذه المخالفة فى أقوى مظاهرها . وكان مقتضى المنطق أن يقبل هذه المخالفة فى الأخف والأهون .

* * *

ونجى الآن إلى فكرة ترتيب السور على وفق نزولها ، لنناقش الوجوه التى حاول المؤلف أن يبرر بها دعوته إلى هذا التعديل .

— ١ —

يتول حضرته : إن الانتقال من السورة المسكية إلى السورة المدنية يصدم القارئ صدمة عنيفة ، ويدخله طفرة فى جو غريب منقطع عن السياق .

نقول : إن كلمات « الصدمة العنيفة » و « الجو الغريب » ونحوها من العبارات المألوفة والقوالب الجارية على أقلام الكتاب لا تمنع طالب الحق ما دامت تحلق في سماء هذا العموم المطلق الذي لا يطبق على مثال معين ؛ لأنها ما دامت كذلك يخشى أن تكون مجرد ألفاظ لا مدلول لها في الخارج ولا في ذهن الكاتب .

ولقد شعر المؤلف بحاجة القارئ إلى هذا التطبيق ، فضرب لنا مثلاً بوضع سورة محمد بعد سور الحواميم ، وكنا ننتظر منه أن يضع يدنا على موضع المفارقة ويبين لنا وجه الانقطاع ، بين سورة محمد والسورة التي قبلها ؛ ولكنه لم يفعل ، واكتفى بإعادة هذه الألتاب العامة قائلاً : إن القائل يشعر بها ...

ونحن نقول : إن الذي يشعر به القارئ هو على عكس ذلك : كمال الانسجام ، وتماثل الالتحام ، بين هاتين السورتين . وهانحن أولاء نضع يد المؤلف على حقيقة ما نقول :

فليقرأ حضرته أول سورة محمد : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » وليقرأ صدر السورة التي قبلها إلى قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » وليقل لنا : أين المفارقة بين هذين الحديين ؟ - ثم ليتراً في ختام سورة الأحقاف قوله تعالى : « بلاغ ! فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » وفي ختام سورة محمد قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . ثم لينظر هل يرى أحسن من هذا تقابلاً بين البدايتين ، وتوازيًا بين النهايتين ؛ وهل يرى في إحكام هذا النسق إلا صورة أخرى من صنع الله الذي أتقن كل شيء ؟ لقد صدق الله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؛ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »

فإن ظن حضرته أن مجرد ذكر التماثل في سورة محمد وعدم ذكره في سورة الأحقاف يباعد بين السورتين قلنا له : ألم تتركب وضعت في آخر الأحقاف قنطرة لطيفة للعبور منها إلى هذا المعنى الجديد ؟ فلنمدك الإنذار بإهلاك الفاسقين في آخر السورة الأولى خير توطئة للأمر بنوع من أنواع هذا الإهلاك في السورة التي تليها .

أما إن كان لا يسوغ في ذوقه بوجه عام أن السور المسكية بما فيها من أصول العقائد ، وأصول مكارم الأخلاق ، والترغيب والترهيب ، توضع في ثنايا السور المدنية بما فيها من القوانين المدنية ، والقواعد الحربية ، وشعائر العبادة ، وسائر الشرائع التفصيلية ، فيقال له : كيف استسغنت إذاً أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من آيات التوحيد أو الجزاء أو الوعظ أو غيرها من المقاصد المسكية ؟ وإذا رضيت بهذا الإدراج في السورة الواحدة فلماذا لا ترضى به بين سورة وسورة ؟

فإن كان هذا الجواب الإلزامي لا يشفى غلته فإليه الجواب الشافي :

إن هذا المنهج القرآني في تلوين البيان وتنويع العلوم ليس فقط من أهم المقاصد البلاغية : تشويها إلى الحديث : وتطرية للنشاط ، وترويحاً للنفس من عناء العلائق البشرية ، وصعوداً بها بين الفينة والفينة إلى الملأ الأعلى وإلى الحياة الباقية ؛ بل هو كذلك من أحكم وسائل التربية العملية ؛ لأن رد الفروع إلى أصولها ، وبناء القواعد العملية على دعائمها الأولى العقلية والوجدانية ، من شأنه أن يمكن العقول والقلوب من هضم القوانين وتمثلها ، وأن يحول النفوس إلى قوى محركمة الإرادات بأقوى بواعثها .

وليس الانتقال من أحد النوعين إلى الآخر كما ظن المؤلف انتقالاً إلى مقصد جديد أو إلى جو غريب ؛ فإن مقاصد القرآن وأهدافه في السور المسكية والمدنية واحدة : ونضى إصلاح العقائد ، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات ؛ وإنما يفترق المسكى عن المدني بالإجمال والتفصيل ، وكما لا غنى للقواعد السككية عن رسم طرقها العملية ، كذلك لا غنى للفروع عن الاستناد إلى قواعدها السككية ، والاستمداد من ينابيعها النفسية العميقة . ولذلك بنى نظم القرآن في آياته وفي سوره على وجه من التداخل والتعاقب بين الاعتقادات والعمليات والبواعث والزواجر بحيث يظاهر بعضها بعضاً على تقرير كل واحدة منها وتثبيتها في النفوس ، ومن هنا كان القرآن « أحسن الحديث » كما وصفه الله « كتاباً متشابهاً مثاني ، تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .

- ٢ -

أما قول المؤلف إن الوضع الحالى للسور محل بحكمة التدرج فى التشريع : فهو انتقال نظر يدل على غفلة عظيمة و خلط بين مقامين مختلفين : مقام التنزيل والتعليم ، ومقام التدوين والترتيل . وهما مقامان قد وضعنا من أول يوم لتحقيق غرضين متفاوتين ، فكان أولها يعتمد حاجات التشريع ، وثانيها يرتبط بحاجات الوضع البيانى . وإن مراعاة إحدى الحاجتين فى موضع الأخرى ليس من الحكمة فى شيء بل هو وضع للأمر فى غير موضعها .

ولما كان حضرته يميل الى الأسلوب التصويرى ، ويجب ضرب الأمثال ، وقد ضرب لنا مثلاً بالابجدية والنحو والبلاغة ، حق علينا أن نضرب له المثل الحق الذى هو أحسن تفسيراً فى هذه القضية :

رجل يريد أن يبنى بيتاً لسكنائه ، فجعل يحتلب تباعاً كل ما هو بسبيل من تحقيق غايته ، غير مبال بأن يشتري أجزاء العرش والأشمة ف قبل الأسس والجدران ، أو يستورد أدوات الارتفاق قبل مواد البناء ؛ متبعاً فى كل ذلك فرصة توفر الثمن لديه ، ووجود المواد فى السوق ، وسهولة وسائل النقل ، الى غير ذلك من ظروف احتياجه . وضروب إمكانه ؛ فهل من الحكمة أن يضع البناء هذه الأجزاء فى البنيان على حسب تواريخ ورودها ؟ أم الواجب أن يضع كل جزء منها فى مكانه اللائق به ، وفقاً لرسم هندسى معلوم ، مهما خالف ترتيبه الزمانى ؟

كذلك كان نزول القرآن منجماً على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعليم ، وروعيت فى ذلك حكمة التدرج والترقى فى التشريع على أحسن الوجوه وأكملها . ولكن هذه النجوم فى الوقت نفسه لم تترك مبعثرة منعزلاً بعضها عن بعض ، بل أريد لها أن تكون فصولاً من أبواب أسماها السور ، وأن تكون هذه الأبواب أجزاء من ديوان اسمه القرآن ، فكان لا بد أن يراعى فى مواقعها من هذا البنيان معنى آخر غير ترتيبها الزمانى ، بحيث يأتلف من كل مجموعة منها باب ، ويأتلف من جملة الأبواب كتاب ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا ألفت على وجه هندسى منطقى بليغ ، تبرز به وحدتها البيانية فى مظهر لا يقل جمالاً وإحكاماً عنها فى وضعها الأفرادى التعليمى .

وكانت الآية الكبرى في أمر هذا التأليف القرآني أنه كان يتم في كل نجم فور نزوله ، فكان يوضع هذا النجم توأ في سورة ما ، وفي مكان ما من تلك السورة ؛ وكذلك كان يفعل بسائر النجوم فتفرق فور نزولها على السور ، مما يدل قطعاً على أنه كانت هناك خطة مرسومة ، ونظام سابق محدود ، لا لكل سورة وحدها ، بل لمجموعة السور كلها . وهذا وحده - لو تأملناه - من أعظم الأدلة البرهانية على أن القرآن ليس من صنع هذا البشر الذي لا يدرى ما يكون في الغد ، فضلاً عن أن يعلم ما ستأتي به الحوادث في مجرى حياته كلها ، فضلاً عن أن يعرف النظام الذي سيجيء عليه البيان في شأن هذه الحوادث ليهيئه له مكانه قبل مجيئه ، فضلاً عن أن يعلم أنه سيعيش حتى تأخذ كل سورة وضعها الكامل ، ويأخذ القرآن نظامه الشامل ، وحتى يكون انتقاله إلى الرفيق الأعلى عقب اعلانه بأن مهمته قد انتهت هكذا يدل كل شيء على أن عناية الله الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كانت هي التي تهيمن على تنزيل هذه النجوم القرآنية ، وعلى ترتيبها حتى بلغت تمامها ، وأن هذا الترتيب المكاني المستقل عن ترتيبها الزماني قد كان مقصوداً لحكمة أئبته ؛ عرف هذه الحكمة من عرفها ، وجهلها من جهلها .

ولقد اعترف المؤلف بأنه من أهل القسم الثاني ، حيث قال في صدر رسالته : « ما الحكمة في ترتيب السور على هذا النحو ؟ » ثم أجاب بقوله : « لست أدري ، فكان ذلك منه انصافاً محموداً ؛ وكان الوضع السليم الذي يقضى به منطق هذا الاعتراف أن يسلك إحدى خطتين : إما أن يتوقف عن البحث في حكمة هذا الترتيب ، ويقول كما يقول الراسخون في العلم : « آمنا به كل من عند ربنا » ، وإما أن يلتمس من أهل الذكر بيانا يكشف عنه بعض هذه الغمة ولكنه لم يصنع هذا ولا ذاك ، بل أسرع فاستنبط من الجهل علماً ، ومن الشك يقيناً ، ودعا إلى التغيير قبل أن يتثبت من صواب قصده ، فكان كالذين قال الله فيهم « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

وهنا لا يسعنا إلا أن نوجه لحضرته نصيحة رشيدة ، نهد لها بمقدمة صغيرة . أما المقدمة فهي : أن التفقه في القرآن ينبغي أن يكون على ثلاث مراحل

متصاعدة لا تستقدم واحدة منها عن موضعها ولا تستأخر . (المرحلة الأولى)
 فهم مسائل القرآن مسألة مسألة ، والتفقه في أمرها ونهيها ، وحلالها وحرامها ،
 ومواعظها وعبرها ، ثم التحلي بآدابها ، والوقوف عند حدودها . (المرحلة الثانية)
 النظر في جملة مسائل السورة على أنها أجزاء من وحدة مستقلة يرتبط بعضها ببعض
 في نظام واحد ، ويأخذ كل منها في هذه الوحدة وضعاً معيناً يناسبه . (المرحلة الثالثة)
 النظر في مجموع سور القرآن على أنها أبواب من ديوان واحد قد قصد إلى ترتيبها
 فيه على هذا النحو .

مثل ذلك مثل الناظر في علم التشريح : لا يبحث في العلاقة بين جهاز وجهاز
 حتى يعرف أعضاء كل جهاز على حدته ، ولا يبحث في الأربطة والوشائج التي بين
 هذه الأعضاء قبل أن يدرس تركيب العضو ويستبين أنسجته وخلياه .

فكما أن الذى يسأل عن حكمة وضع العينين في مقدم الوجه . ووضع الاذنين
 في جانبيه ، قبل أن يعرف تشرح العين والاذن ، يعد مشتغلاً بنوع من الترف
 العتملى قبل أن يحصل على جواهر العلم ولبابه ، كذلك الذى يسأل عن حكمة تقديم
 سورة وتأخير أخرى يقال له : اذهب فأتقن فهم الآية والسورة أولاً ، ثم تعال
 فانظر في حكمة ترتيب السور ؛ فهذا من زينة العلم وحليته ، وذلك من مبادئه
 وأوليياته . وإن مخالفة المنهج في هذه الدراسة يعد من عكس الوضع السليم ؛ كالجائع
 الذى لا يجد كسرة يسد بها رمقه ، يضع وقته في البحث عن الأزهار والرياحين ؛
 أو كالمدين المستغرق الذى ينفق ماله على الفقراء قبل أن يؤدي حق الغرماء .

إذا تمهد هذا فلينظر صاحب هذه الدعوة الجديدة في أى مرحلة هو من هذه
 المراحل ، وليضع نفسه حيث يحق له من مراتب أهل البحث والدرس .

فإن كان لا يزال بعد في إحدى المرحلتين الأوليين ، وجب عليه أن يترىث
 في السير إلى المرحلة الأخيرة ، وأن يكتفى فيها مؤقتاً بأن يعلم إجمالاً أن الرسول
 صلوات الله عليه كان يرتل القرآن في الصلوات ، وفي العرض في رمضان وغيره ،
 على هذا الترتيب ، وأنه جعل الحمد لله رب العالمين ، أول القرآن ، وسماها فاتحة
 الكتاب في الأحاديث الصحيحة الثابتة ، مع أنها ليست أول ما أنزل ، وأنه كان يبين

لأصحابه موضع السورة من الكتاب ، كما كان يبين لهم موضع الآية من السورة . فهو إذاً وضع مقصود لمغزى يعليه واضعه ، ولا يضر أحداً الجهل به . ومن بداله أن يجوز تبديل هذا الوضع لأنه لا يعرف حكمته كان كمن لم يفهم حكمة وضع العنين في مقدم الرأس ، فظن أنه كان الأنسب أن توضع إحداها في الوجه والأخرى في القفا ليرى الإنسان بهما من أمامه ومن خلفه على السواء . فإن هو حاول تحقيق هذه الفكرة عملياً عاكس الطباع ، وأفسد الأوضاع . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » . ألا وإن الشأن في التنزيل كالشأن في التسكين ، كلاهما من صنع الحكيم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً . فكما أنه لا تبديل لخلق الله ، كذلك لا تبديل لكلماته « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » .

— ٤ —

أما إن كان قد حذق مسائل القرآن مسألة مسألة ، ووقف على سر نظم الآيات في سورها آية آية ، واشتهى بعد ذلك أن يعرف الوجه في ترتيب السور ، فليعلم أن للناس في ذلك مسالك من النظر بعضها أعمق وأدق من بعض .

ولعل أدنى هذه المسالك وأيسرها قول بعض المستشرقين : إنه روعي في هذا الترتيب في الجملة البدء بأطول السور ، ثم بأوسطها . ثم بأقصرها . فهذا وجه من النظر لا يخلو من الصواب ؛ لأن شأن المبتدئ في التلاوة أن يكون أجمل نشاطاً ، وأوفر رغبة ، وأتم استعداداً لقراءة المقالات الضافية ، ثم تأخذ قوته في التناقص تدريجاً ، بسبب ما يعترى الطبع الإنساني من الفتور والتراخي ، فقدرت السور على حسب الطاقة والنشاط : من المثين ، إلى العشرات ، إلى الآحاد . ولكن هذا التوجيه - كما ترى - سطحي يقيس السور بعدد كلماتها وجملها ، لا بالقرابة بين معانيها وأساليبها .

ولو أننا جاوزنا هذه القشرة السطحية ونفذنا منها إلى المعاني والأساليب لوجدنا ضرباً أخرى من التسلسل التعليمي والبياني تلتحم فيه السورة مع ما قبلها وما بعدها في أحسن وضع وأحكمه .

ولقد رأينا أننا كيف أن سورتي الاحتماف ومحمد قد تجاوزت مطالعتهما ،
وتطابقت مقاطعتهما ، مع أنهما من فصيلتين مختلفتين في تواريخ النزول .

هذا ضرب من الاقتران على وجه التوازي والمحاذاة .

وضرب آخر من الانسجام يصح أن نسميه نظام السلايم ، أو أسلوب الحال
المرتل . وهو أن يكون المعنى الذى انتهت اليه سورة من السور هو نفسه المعنى
الذى يفتتح السورة التى تليها . انظر مثلاً إلى سورة الواقعة المسكية كيف ختمت بقوله
تعالى : « فسيح باسم ربك العظيم » وكيف حسن بحىء سورة الحديد المدنية بعدها
حيث تفتتح بقوله : « سبح لله ما فى السموات والأرض » . وهكذا كان قوله :
« وإدبار النجوم » جسراً إلى قوله : « والنجم إذا هوى » ؛ وقوله : « أزفت الآزفة »
سلباً إلى قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ؛ وقوله : « فى مقعد صدق عند
ملك مقتدر » سلباً ممدوداً إلى قوله : « الرحمن ... »

وهناك وجوه آخر من التسلسل أعمق وأدق يهتدى إليها من جعل همه تدبر
آيات الله .

وبحسبنا فى هذه العجالة أن نعالج الشبهة التى علقنا بصدر المؤلف حين لم يفهم
الحكمة فى وضع الفاتحة فى أول القرآن ووضع بعض السور القصار فى آخره ،
وأن نلفت نظره إلى أن كلا من البدء والختام قد وقع موقعه الرصين ، ووضع
فى قراره المسكين ، وأن المؤلفين حتى يومنا هذا ما زالوا يترسمون فى مطالع كتبهم
ومقاطعها هذا المنهج المثالى القرآنى .

فوقع سورة الفاتحة من القرآن كله موقع الفهرس الذى يعرض بإيجاز محتويات
الكتاب قبل الدخول فى تفاصيله ؛ فكل شئ فى القرآن من الإلهيات ، والنبوات ،
والمعاد ، والأعمال ، والأخلاق ، وعبر التاريخ ، قد وضعت مفاتيحه فى هذه
الكلمات القليلة بأسلوب لا يبدو عليه طابع العد والسرد ، وإنما هو ماء الحياة
ينساب فى جداوله غذاء للعقول والأرواح ، فلا يمل ولا يخلق على كثرة الترداد .
ثم إن لهذه السورة - وراء موقعها من جملة القرآن - موقعاً خاصاً من السورة التى
بعدها ، هو موقع الديباجة التى تبين وجه الحاجة إلى التعليم الذى يليها . ذلك أنها

صورت المؤمنين باسطة أيديهم ملتصقين الهداية من واهبها : « اهدنا الصراط المستقيم » ، فكان حتماً على المسؤول القريب الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، أن يتلقى هذا الدعاء بالقبول ؟ وهكذا جاءت سورة البقرة معلنة فى بدايتها أنها ستسد هذه الحاجة وستحقق هذا الملتمس : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

أرأيت لو أننا وضعنا الفاتحة على ترتيب نزولها كما يريد المؤلف بين سورتي المدثر وأبي لهب ، كيف كان ينبو بها موضعها ، وتقطع صلتها بما قبلها وما بعدها ؛ وكيف كانت تفوت هذه المجاورة الروحية بين الداعى والمدعو ؛ وكيف كان يصبح القرآن كتاباً بغير فهرس ، بل جسماً بلا رأس ؟

أما السور السبع القصار ، فإنها كلها تحمل طابع الختم والانتهاء ، وإن النفس الذى يجرى فيها لينادى بأنها كلها أشبه شيء بوصية المودع . فانظر إلى سورة (الكوثر) حين قضى الوحي مفصلاً كيف التفتت إليه فى نظرة جامعة لتعرف الرسول بمقدار ما انطوى عليه القرآن من النعمة الكبرى والخير العميم : « إنا أعطيناك الكوثر » ، فكان ذلك أحسن فذلكم يختم بها كتاب وينوء بشأنه . ولما كان تعريف الرسول بنفاسة ما وصل إلى يديه ليس امتناناً عليه فحسب ، بل هو تحريض خفى له على الحرص على تلك الهدية ، لاجرم جاءت السورة التى تليها متففية على هذا التقريظ بالأمر المؤكد بالاستمسك بهذا الدين ، وعدم التحول عنه مهما لج المعاندون : « قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ... » ؛ وكان طبعياً بعد هذا الأمر والنهى ، وبعد تقسيم الناس هكذا إلى معسكرين منفصلين فى شأن الدين ، أن تقرر عاقبة كل منهما ؛ فأشارت إحدى السورتين التاليتين إلى عاقبة المتقين المستمسكين بما جاءهم : « إذا جاء نصر الله والفتح » ، وأشارت الأخرى إلى عاقبة أعدائهم وشائنيهم : « تبث يدا أبى لهب وتب » ، ولم يكن هذا الأخير إلا تطبيقاً لقاعدة كاية مهدت له آنفاً فى قوله تعالى : « إن شئت لك هو الأبر » . ثم كان مسك الختام أن يورك هذا الكتاب وحصن التحصين السماوى المنيع ؛ وذلك بطلب الالتجاء إلى الإله الأحد الصمد فى أن يحفظ للعالم هذه الهداية العظمى ، برغم حسد الحاسدين ، ووسوسة الموسوسين ، الذين يلقون الشبهات فى صدور الناس ليصدوهم عن سبيل الله .

هذا نموذج من نسق السور كما رتبها الله : طاب بدءاً وختاماً ، وحسن مرتحلاً ومقاماً . ولا غرو فهو تنزيل الحكيم الحميد ، ومن أحسن من الله حديثاً .

- ٥ -

ونعود الآن فنفترض جدلاً أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف إلهى ، ولا بتوقيف نبوى ، وأنه كان من عمل الصحابة باجتهاد منهم ، ألا يكفيننا فى حرمة وقداسته أنه استقر عليه إجماعهم وإجماع المسلمين من بعدهم ؟

إن اليهود والنصارى - وقد أصاب كتبهم ما أصابها من تعدد النسخ واختلافها - يحسدون المسلمين على أن لهم كتاباً موحداً لا يختلف فيه حرف واحد عند سنى ولا شيعى منذ أربعة عشر قرناً ، ولا يختلف فيه وضع سورة فى نسخة عن وضعها فى أخرى ، بل إن علماءهم يغبطوننا على وجود بعض ألفات أو لامات زائدة فى رسم المصحف ، وعلى انفصال بعض كلمات شأنها أن توصل ، واتصال كلمات شأنها أن تفصل ، ونحو ذلك من الرسوم القرآنية المخالفة للرسم الإملائى المقرر فى كتب النحو والصرف ؛ ويستدلون ببقاء هذا كله فى المصاحف الإسلامية - برغم اختلاف العصور وتطور العلوم - على مبلغ القدسية التى أحاط المسلمون بها كتبهم من أول يوم ، وعلى أن النص الذى تلقوه من نبيهم بقى كما هو لم تنله يد قط بأدنى تغيير أو تبديل ، مع وجود الحاجة إلى بعض هذه التعديلات تسهيلاً على المبتدئين . أفنجدى نحن اليوم - بغير ضرورة ولا فائدة ، بل لإفساداً واتباعاً للهوى - فنضيع بأيدينا هذه الحجة القائمة ، ونفتح مجال الشبهة أمام العصور المقبلة ، فيقول قائل منهم : « إنه لم تبق لنا ثمة بأن هذا الكتاب بقى فى كل العصور بعيداً عن كل تبديل ؛ لأنه فى العصر الفلانى قد غيرت أوضاع السور فيه ، فلعله قد أصابته قبل ذلك تعديلات أخرى لم تصل إلينا أنباؤها ، ؟

وجملة القول أن الدعوة إلى تغيير ترتيب السور دعوة لا يقرها عقل ولا نقل ؛ لأنها قبل كل شئ دعوة إلى بدعة خارقة لإجماع المسلمين يحرف بها الكلم عن مواضعه التى وضعه الله فيها . ولأنها محاولة لن يكون من ورائها إلا إفساد النسق ، وتشويه جماله ، ونقض بنيانه المحكم الوثيق ، ثم لأنها فتح باب للشبهة فى حفظ الذكر الذى ضمن الله حفظه ، فهى إذأ دعوة لا يستجاب لها ، ولا يجوز أن يمكن أحد من تحقيقها .

- ٦ -

بقى أن نقول رأينا فيما ينبغي أن يتبع في شأن المؤلف وتأليفه .

إننا لسنا من أنصار سياسة السكبت وتكليم الأفواه والأقلام ، والتسرع بمصادرة الكتب والآراء المنحرفة في الدين ؛ لأنها سياسة قد أثبتت التجارب فشلها ، ولأنها بدل أن تطفىء نار الفتنة تشعل أوارها ، وتغرى أهل الفضول بتلبس هذه المؤلفات كما تتلبس المهربات ؛ ولأن ضعيف الحجة هو الذى يحاول إسكات خصمه بالقوة والعنف ، وليس الضعف من صفات الحقائق الإسلامية التى لا يأتىها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؛ وأخيراً لأن هذه السياسة ليست سياسة قرآنية ؛ فإن الله تعالى أمرنا أن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين بالتي هي أحسن ، ثم إنه سبحانه لم يترك شبهة ولا فكرة زائغة لأعداء الإسلام إلا سجلها وخلدها فى كتابه ، وقفى عليها بما يدحض باطلها . فكذاك ينبغي فيما نرى أن تترع كتب المبطلين بالحق الذى يدمغها ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

ونرى فى موضوعنا بوجه خاص أن ترسل صورة من هذا البيان إلى المؤلف ، وأن نترك له الفرصة الكافية لقراءته وتدبر ما فيه :

فأما إن كان من طلاب الإصلاح بنصفه وحسن نية ، فسيكون هو أول من يرجع إلى الحق متى تبين له ، وأول من يحافظ على ترتيب القرآن كما رتبته الله . وإن بقيت فى نفسه بعض شبهة فسيسعى إلى حلها باستفتاء أهل الذكر فيها .

وأما إن أصر على رأيه لحاجة وهوى فى نفسه ، فلنترك دعوته تموت بعدم الإصغاء إليها . فإن نشط لنشرها وترويجها ، وتضليل السذج بمغالطاتها ، بعثنا عليه جنوداً من حجج الحق تتعقب بها فلول باطله ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة .

ونحن على كل حال واقفون بالمرصاد لكل من أراد تبديل شيء فى كتاب الله ، والله غالب على أمره ، والسلام على من اتبع الهدى .

الربا داء البشرية الويل

لفضيلة الأستاذ الشيخ بدر المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

إن التشريع الجدير بالاحترام هو الذى يحارب الشر بين الأفراد والجماعات ، فيبيح كل ما رجع فيه جانب الخير على جانب الشر ، ويحرم كل ما رجع فيه جانب الشر على جانب الخير ، ولا يقيم وزناً للخير مرجوح إن كان يقابله شر راجح ، ولا وزناً لشر موهوم إن كان يقابله خير مؤكد ، وإن الإنسان لا ينظر إلى الأمور إلا من ناحية هواه ؛ وكثيراً ما ينقلب الهوى على العقل ، فيفسد تفكيره ، ويريه الحسن قبيحاً ، والقبیح حسناً وقديماً قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولا يعدم محب الزنا أن يجد له مندوحة فى زعمه ، ومحب الخمر يبرأ لها فى وهمه ؛ فقد قرأنا وسمعنا الكثير من هذه الترهات . لهذا كان التشريع الإنسانى - فى كل العصور - مجالا للخطأ المقصود وغير المقصود ؛ ولم يترك الله الناس إلى عقولهم وأهوائهم ، بل أرسل رسله مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ، وشرع لهم الشرائع ، وكان تشريعه أو فى الشرائع بحاجة البشر ، فإنه - سبحانه - أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، وليس حكمه عن هوى أو غرض تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولقد راعى الشارع الحكيم فى تشريع المعاملات بث روح التعاون بين الأفراد والجماعات ، وتنمية عاطفة الخير فى القلوب ؛ فأباح من أنواع المعاملات كل ما يحقق هذا المبدأ النبيل ؛ وحرم كل ما من شأنه أن يقطع أو اصر الالفة ؛ ويبذر بذور العداوة والبغضاء ، وبما حرمه الله ، سبحانه - الربا ، وشدد فى أمره ، وبالع فى التكسير على المتعاملين به ، وجعل المصممين على التعامل به من الخالدين فى النار ، وسلسكهم فى سلك واحد مع الكفار الآثمين ؛ ثم توعد المرايين بحرب منه إن لم يتوبوا

ويردوا الأموال إلى أربابها .

استمع إليه سبحانه إذ يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ؛ ومن عاد فأوئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » . ثم استمع إليه سبحانه إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وقد سد الشارع الحكيم هذا الباب لما فيه من شر مستطير وفساد كبير فجعل شبهة الربا محرمة كالربا فتمدح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل قرض جر نفعا فهو ربا » وهذه سنة من سنته تعالى إذا عظم شر أمر من الأمور حرمه وحرم مبادئه وكل ما يتصل به من قرب أو بعد كما حرم مبادئ الزنا من نظر وخلوة ومس ، وكما حرم قليل الخمر وكثيرها وحرم بيعها كما حرم تعاطيها . حتى يقطع النفوس عن أهوائها ؛ ويردها عما يهلكها .

والنفس كالطفل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينظم وتطبيقاً لهذا المبدأ القويم جعل الرسول الكريم المتعاملين به وشهوده وكتاب صكوكه شركاء فى الإثم ، ولعنهم فتمدح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه » .

وعده الرسول الأكرم من الموبقات المهلكات فى الدنيا والآخرة وجعله فى مرتبة تلى القتل فى الإثم فتمدح عنه صلى الله عليه وسلم أن قال « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يا رسول الله وما هن : قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وكيف لا يكون قرين القتل وقد خرب البيوت العامرة ، وشتت الأسر الكريمة وأورث القلوب غلا وحقدًا وحسدًا ، وماذا وراء ذلك إلا سفك الدماء وإزهاق الأرواح ؟

ومهما عدد الاقتصاديون للربا من مزايا ، ونسبوا إليه من فوائد فهل يستطيعون أن ينكروا أن الربا يجعل العلاقة بين أفراد المجتمع علاقة مادية بحتة : لا ظل فيها للتعاون ولا قيمة فيها للأخلاق السكرية ؟ والشرع قد نظم العلاقة بين الناس على أسس من التعاون على البر والتقوى ، وهل ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يجعل هناك طبقة من الناس تعيش على جهود الغير ، وتستنزف عرق جيدهم ، وتسعد بشقائهم ، وتشقى بسعادتهم شأن كل الطفيليات التي تمتص دماء الإنسان والحيوان ، ولا تقوى إلا في ظلال الجهل ، ولا تنشر إلا المرض والفقر ؟ ولا ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يغري أرباب الأموال أن لا يستغلوا أموالهم إلا في هذا الباب لأنه في زعمهم أضمن فائدة وأبعد عن مظان الخسارة وحينئذ تموت المشاريع العمرانية والصناعية التي يعود خيرها على جميع الطبقات . فإن الله جل شأنه ، لم يجعل التمدد سلعة مقصودة لذاتها في التجارة ؛ وإنما جعله الله وسيلة للبيع والشراء . والربا يصيره ممتصوداً لذاته فيحتكره أرباب الأموال فتتعطل مصالح العباد وتتولد الثورات وتتفشى النزعات الهدامة .

ولعل البشرية لم تصل في تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت إليه اليوم من علوم ومعارف - ولكنها - مع ذلك - لم تصل في تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت إليه اليوم من اضطراب الأحوال وتبليبل البال وسلب الطمأنينة عن النفوس لا فرق في ذلك بين الأفراد والجماعات والأمم ؛ فلا تكاد البشرية تقوم من هوة حتى تتردى في هوة أعمق منها ؛ ولا تحل مشكلة من المشاكل حتى تواجه بمشكلة أعتمد منها مع كبرة الخبراء في كل ناحية من نواحي الحياة .

أليست هذه نذر من الله - سبحانه - لعباده بتلك الحرب التي آذنتهم بها لانتهاء كهم حرماته وخروجهم على تعاليم دينه ، وجعلهم الربا أساساً من أسس معاملاتهم ؟ !! وويل للبشرية ، ثم ويل لها يوم أن تصبح في حالة حرب مع الله الواحد القهار . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، .

ربما كان من المحتمل أن يقع في جريمة الربا فرد أو أفراد فإن كل عصر من العصور لا يخلو من العصاة والمذنبين والخارجين على الشرائع والتوانين ولكنه ليس من المحتمل في مجتمع يدين بالإسلام أن يصبح الربا فيه أساساً

من أسس المعاملات ؛ تبيحه القوانين ، وتقع فيه الأفراد والحكومات ويشيع بين الناس حتى كأنه ليس جريمة من الجرائم . وكأن الله - سبحانه - لم ينزل فيه قرآنا ، ولم يبين فيه حكما ، وكأننا نؤمن بآراء من نسميهم اقتصاديين أكثر مما نؤمن بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل .

وكان هؤلاء المرابين لا يسكفهم زاجراً وواعظاً ما يرونه من عواقب من سلف من أشياعهم وكيف أصبحت ديارهم خراباً وأبنائهم فقراء مساكين يتكفون الناس « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله »

ثم إن هؤلاء المقرضين بالربا لا يشفع لهم عند الله تلك الأعذار الواهية التى يتعللون بها فجلبهم إن لم يكن كلهم لم يقرضوا بالربا ليسدوا جوعة أو يستروا عورة بل اقترضوا ليعيشوا عيشة المترفين أو ليزيدوا إلى ملكهم ملكاً جديداً ؛ ولو أنهم دبروا أمورهم فى حدود طاقتهم المالية ما فتحوا على أنفسهم وذريتهم باباً من الشر لن يستطيعوا له إغلاقاً ولما وضعوا فى أعناقهم وأعناق أبنائهم غلام الدين لن يستطيعوا منه فكاكاً .

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الموضوع وهى أن بعض من ينتقص أطراف الدين باسم الدين يتعللون بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » فيتمسكون بمفهوم هذا اللفظ ويقولون بحله إن لم يكن كذلك . ونحن نقول لهؤلاء : لقد فهمتم فى كتاب الله ما لم يفهمه محمد بن عبد الله وصحابته الأكرمون وما لم يفهمه أحد من الأئمة المجتهدين ؛ ولو كان ما تقولون مراداً لله لجاز أن يكون الربا ٩٩٪ أو دون ذلك ، لأن هذا ليس ضعفاً ولا ضعف الضعف ؛ إن هذا الوصف لا مفهوم له بل هو بيان للواقع ، فإن من شأن الربا أن يضاعف الدين حتى يتعذر على المدين السداد ؛ والواقع والمشاهد شاهد على هذا الفهم . فالحق الذى لا مرية فيه أن الربا قليله وكثيره ظاهره وخفيه محرم عند الله ورسوله والمسلمين أجمعين ؛ فمن أحل منه صورة من صورته فإنما إثمه على نفسه وعلى الذين يتولونه . فإن الحلال بين وإن الحرام بين . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقاً .

جعل الله للمسلمين من أمرهم رشداً ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، إنه على ما يشاء قدير .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

٤ - مشكلة المرأة

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

بعد أن تكلم الشيخ الرئيس عما يجب على الدولة من توفير عمل لكل فرد من أفراد الأمة ، ومن ضمان المعيشة المعقولة للعاجزين عن العمل أو المتعطلين الذين لا يجدون إليه سبيلاً ، أخذ في الحديث عن المرأة من ناحية الزواج والطلاق ومنزلتها من الرجل وما يناسب أن يكون لها من عمل . كل هذا ، قد تناوله بالبحث وإن كان موجزاً ، وأدلى فيه بالرأى الذى يرى حتى تقوم المدينة الفاضلة أو الدولة الصالحة على الأسس التى تجعل حظها وافرأ من الاستقرار والسلام والسعادة .

وسنعلم من رأى ابن سينا فى هذه المشكلة من نواحيها المختلفة ، أن المغالين من أنصار المرأة يظلمون الحق والطبيعة وأنفسهم والمرأة نفسها حين يذهبون إلى مساواتها التامة بالرجل ، وحين يصفون خصومهم بالاستبداد والجور على ما أورثهم الدين والتقاليد من أفكار . ذلك بأنهم سيرون فيما يلى أن الفلسفة ، لا الدين وحده ، بل وأن أرسطو المعلم الأول نفسه ، لا يريان ما يرون ، وأنهما يذهبان أحياناً إلى ضد ما يرون .

* * *

يشدد ابن سينا فى الزواج وضرورته ، لأن به كما يقول بقاء النوع الإنسانى الذى بقاءؤه دليل وجود الله تعالى . ثم يذكر أن الزواج يجب أن يقع ظاهراً ، حتى لا يقع خلل فى نسب الأولاد وانتقال الموارث التى هى أصول الأموال ، وهو فى هذا كله على اتفاق مع الشريعة الإسلامية وآراء المفكرين الاجتماعيين . ويرى بعد هذا ، على خلاف ما هو موجود فى المسيحية ، أنه يجب أن يكون هناك سبيل للفرقة بين الزوجين ، وألا يُسد هذا من كل وجه ، لأن فى منع الفرقة

أصلاً بين الزوجين وجوها مختلفة من الضرر الشديد . ومن الأسباب التي يتعين معها الفرقة بين الزوجين ، فيما يرى ، اختلاف الطبائع إلى حد عدم الألفة ، وسوء الخلق في العشرة ، مما يؤدي إلى شقاء الحياة بالمعيشة معا . ثم فيما يقول أيضاً : ربما الزوجان لا يتعاونان على النسل ، وهذا مطلوب حتماً من الزواج ، فإذا حصل الطلاق وبدلاً بزوجين آخرين رزقهما الله ما شاء من النسل الصالح والأولاد النجباء والذي يراه الشيخ الرئيس هنا من ضرورة إباحة الطلاق للأسباب المتقدمة ونحوها ، نراه في كتب الفقه الإسلامي . ففي هذه الكتب ترى أن من الأسباب التي يكون معها الطلاق خيراً للزوجين معاً تباين الأخلاق ، وحدث البغضاء بين الزوجين التي تجعل العشرة الطيبة بينهما متعذرة أو فيها عسر شديد ، وكذلك من هذه الأسباب ، حدوث الريبة والشكوك بين الزوجين ، أو أن تكون المرأة مؤذية للزوج أو غيره ، أو أن يكون في عدم الطلاق فوات ما يوجبه القرآن من الإمساك بمعروف .

وهذا الطلاق يجب في رأى فيلسوفنا ألا يكون بيد المرأة بحال ما ، مع أن الشريعة الإسلامية تجيز أن يكون الطلاق بيدها أحياناً . إن المرأة - في رأيه - في الحقيقة واهية العقل ، مبادرة إلى طاعة الهوى والغضب ، وهنا يمس الشيخ الرئيس مسألة هامة لها خطرهما في كل آن . وتثور من أجلها هذه الأيام المناقشات العنيفة من وقت لآخر ، بل قد بلغ الأمر أن الخلاف من أجلها وصل إلى أعلى هيئة قضائية في البلد وهي مجلس الدولة ؛ ونعني بهذه المسألة مشكلة مساواة المرأة للرجل أو أنها أدنى مرتبة منه لهذا السبب أو ذاك .

ولست هنا بالذي يتعرض لهذه المشكلة من الناحية الموضوعية ، ولسكني أحب فقط أن أشير إلى أن ابن سينا يتشدد في أمر الطلاق أكثر من الشريعة الإسلامية إن الشريعة - على ما هو معروف - أباحت أن يكون الطلاق بيد المرأة أيضاً إن شرط لها هذا الحق في عقد الزواج ، كما جعلت للقاضي أن يوقعه ويفرق بين الزوجين بشروط وفي حالات خاصة معروفة في كتب الفقه الإسلامي ، وإذا ، فليس البراءة وأنصارها أن يهتموا الشريعة بالقسوة أو تجاهل وجودها وحقوقها وبخاصة وقد أباحت أيضاً - على بعض المذاهب - أن تلي المرأة بعض الشؤون

العامة ، وإن كنت لا أقول بأن هذا هو الحق أو الرأى الراجح فى المسألة ، وحسبى فقط أن أشير كما قلت ، إلى سماحة الشريعة وعرفانها لكل من الرجل والمرأة منزلته وحقوقه وواجباته التى يصلح المجتمع برعايتها ، وأنها فى هذا كانت أشد سماحا من كثير من أساطين المفكرين والفلاسفة .

ها هو ذا أرسطو الفيلسوف الإغريقى الأشهر ، والمعلم الأول بحق ، يرى فى الكتاب الأول من كتابه « السياسة » أن المرأة أقل عقلا من الرجل ، وأقل لذلك بصراً بالأمور وإدراكا لطبيعة الأشياء ، ومن ثم يرى أن أمور المدينة - يريد الدولة - يجب أن تكون خالصة للرجل وحده ، وللبرأة أمور المنزل والأولاد تحت عناية الرجل وإشرافه ، إنه فى هذا يقول : « فالرجل ، ما عدا استثناءات مضادة للطبع ، هو الذى يأمر دون المرأة ، كما أن الكائن الأكبر هو الذى يتأمر على الأصغر والأنقص » ؛ كما يقول فى موضع آخر : « والمرأة لها إرادة لكن فى درجة أدنى » .

ومن هذا ترى أن مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، مشكلة عريقة فى القدم عراقة وجود الإنسان بنوعيه ، وأن للمفكرين فى كل العصور آراهم فيها وفى الحلول التى يرونها لها ، وأن للطبيعة أيضا فيها رأيها الخاص الذى يتفق وطبائع الأشياء ، وإن من الخطأ ، وعدم فهم الواقع ودراسة تاريخ الفكر ، الزعم بأن الشريعة الإسلامية تقف فى هذه المشكلة موقف العداء للمرأة . وإنه من الخير للرجل والمرأة على السواء أن يعرف كل منزلته التى أرادها له الله وطبيعة الأمور ثم أن يحسن القيام بالواجب الذى نيط به ، وبالدور الذى جعلت له الحياة القيام به ذلك أدنى إلى الحق بلا ريب ، وفيه تحقيق للصالح العام .



ذلك ، وكل حديث له خاتمته ونتيجته ، وأحب أن أشير فى هذه الخاتمة أو النتيجة إلى أنه قد وضح لنا أن هذه المشاكل التى نحس بها إحساسا شديدا هذه الأيام ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها فى المجتمع ، قد أحسها الناس جميعا منذ وجود العالم واشتد التنافس فى الحياة . وقد حاول

المفسكرون ، والمصلحون الاجتماعيون ، منذ زمن سحيق ، وضع حلول لهذه المشاكل حلول تقرب كثيراً أو قليلاً من عقليات الأزمان والبيئات التي كانوا يعيشون فيها ولم يكن المفسكرون المسلمون بدعاً في هذه الناحية ، فقد تناولها كثير منهم بالبحث والدرس ، محاولين حلها على نحو به يصلح المجتمع والحياة ، ومن هؤلاء ابن سينا الفيلسوف الإسلامي الأشهر الذي يستعد العالم الإسلامي هذه الأيام للاحتفال بعيده الالفي .

ولعل هذا مما يجعل البعض يحسن الظن بالفلسفة ، فيرى أنها لا تطلب إلا الحق والخير العام ، وقد تصيب من هذا كثيراً أو قليلاً .
كما نرجو أن يكون هذا من شأنه أيضاً أن يجعلنا نثق بحضارتنا وقوميتنا وتفكيرنا الإسلامي ، فلا نجري دائماً وراء الغرب نستجديه في كل شئونا ، تاركين وراءنا ثروة كبيرة كلها بدائع وكنوز ، وقد أفاد منها الغربيون أنفسهم كثيراً ؟

يسرع ليصل

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية ، فأذن للأحنف ، ثم أذن لابن الأشعث ، فأسرع الثاني في مشيته حتى تقدم الأحنف ، ودخل قبله ، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه . فالتفت إلى الأحنف وقال له :

« والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإنما كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم ، ولا يزيد متزيد في خطوه إلا النقص يجده من نفسه . »

وفي الأمثال من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له وقال :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ودمن القرع للأبواب أن يلجا ونظر رجل إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان ، فقال له : مثلك يرضى بهذا ؟ فقال :

أهين لهم نفسى لا كرمهم بها ومن يكرم النفس التى لا يهينها

الفقه السياسي عند المسلمين

الحج الدائم للمرأة ، أولياء الأمر ، مركز الحاكم

محاضرة الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

عرفت أيها القارئ الكريم ، أن أمتنا أمة مكلفة مسئولة ، وأن لها السيادة المطلقة على أرضها ، وأبنائها ، ومتمدراتها ، وليس لأمة غيرها ، ولا لفرد منها . أي سلطان عليها ، لأن تنفيذ التكليف منوط بها ، فهي المهيمنة على وسائل الحفاظ على الشرع وتنفيذ أحكامه ، ومراقبة تنفيذها ، فهي بذلك تملك سلطة التشريع فيما تركه التشريع لها من أمور تجب ، أو أمور تتغير وتختلف حسب الزمان والمكان والظروف والملايسات ، ثم هي تملك هذه السلطة بحكم نيابتها عن المشرع سبحانه ، وكل ما يعرفه علماء الأصول باسم التشريع الحاجي ، أو الضروري ، هو موضع السلطة التشريعية للأمة ، تقدر الظروف وتشرع لها بوساطة علمائها بما لا يختلف مع القواعد الكلية للإسلام ، وللأمة حق التوكيل والإنابة عنها من ترخصه لتنفيذ تكاليفها ، ولها حق الرقابة عليه : تعيين حاكمها ، وتمنحه الطاعة والسلطان ، وتنفيذ أوامره ، ما اعترف بحقها والتزم الحدود المرسومة له ، وتمنعه الطاعة ، وتحرمه السلطان ، وتسلب أوامره القوة ، إذا تنسك لها ، أو خرج عما عين له ، ولها أن تنصحه إذا مال مع الهوى ، وتقومه إذا اعوج ، وتعزله إذا لج في عتوه ونفوره من سلطاتها . وهي التي تقدر مصلحتها في التولية والعزل ؛ ثم هي أمة حية قائمة ، وحقوقها ثابتة لها دائمة ، ما بقي تشريعها وما بقي فرد من أفرادها ، لا يرث عنها حقوقها إلا سيدها ومالكها يوم يرث الأرض ومن عليها ، وليس من حقها أن تتنازل عن سيادتها وسلطانها وحقوقها ، لأن سيدها الذي استخلفها لم يأذنها بالتنازل عما يملكه هو وحده ، وليس لأحد أن يدعى وراثتها ، إلا مدل بباطل ، أو مقتصب لا يرعى حدود الله . هذا ، وتعلم أيها القارئ الكريم ، أن الإسلام هو دين الفطرة ، وهو نهاية الشوط في التشريع السماوي لصالح البشرية ، وأنه جاء وقد اكتمل العقل البشري ،

وارتقت الإنسانية إلى أرفع مما كانت عليه قبله في الإدراك والتعقل ، وأنه جاء مصلحاً منظماً . فعرض لشتى نواحي المجتمع البشرى ، وراعى كل احتياجاته ، واستعرض العادات والتقاليد ، وأشبه النظم التى وجدها ، فعدل منها ما عدله ، وهذب ما هذبه ، وألغى ما لا يتفق مع روحه وسمو مبادئه ، وابتكر ما ابتكره من نظم وتشريعات غير معهودة من قبله ، وكثيراً ما تكون الأمور التى هذبها ، أو ، شذبها ، الإسلام ، أو سلبها بحالها ، من الأمور الضرورية التى لا تستغنى عنها الإنسانية بحال من الأحوال فى أى زمان أو مكان .

ولقد وجد الإسلام قبائل العرب - كغيرها من شعوب الله - تخضع كل منها لزعيم من بينها له صفات خاصة ، تنفذ أمره ، وتتبع رأيه فى السلم والحرب ، وتعترف برياسته عليها وتعطيه حق تدبير أمرها مع جماعة من كبارها يشثرون معه ، ويتعاونون معه على ما فيه خير التمييلة ، وهذا تقليد إنسانى مرت به جميع الشعوب البشرية ، ولقد احترم الإسلام هذا التقليد الذى صاحب البشرية فى تطورها فى العصور المختلفة ، فجعل كبار القوم - وهم عادة أهل العلم والرأى والخبرة والشرف - جعلهم موضع احترام الجميع ، وجعل لهم حق الطاعة على الجميع ، كما وضعهم فى مقدمة الأمة فى تحمل المسئولية ، انظر معى إلى أى أسرة . أو جماعة أو أمة !! فانا لا نجد فى مكان صدارتها ، إلا بطل أو عالم أو خير بالحياة سديد الرأى ، أو ثرى قدّمه ماله وعصيته . هؤلاء هم كبار القوم الذين يسمع لهم ، ويعمل الناس بارشادهم ، وهم الذين ساهم القرآن الكريم أولياء الأمر فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم فى قوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وحول هاتين الآيتين الكريمتين ، اضطرب كلام الشراح سيما فى عصر الجود ، والعصر الحديث ، فى تفسير أولى الأمر ، تبعاً لشدة أو ضعف ضغط السياسة التى لم تدع شيئاً إلا أفسدته ، حتى تطاولت إلى أقدمس المقدسات وهو الدين ..! فتقال قوم : هم الحكام . وقال قوم آخرون : هم العلماء ، وقال غيرهم : هم أهل المكانة والصدارة من الزعماء والعلماء وأهل الرأى والخبرة ، ويخلصنا من هذا الاضطراب الذى أملتته ظروف خاصة . إذا نحن علمنا أن العنصر الأخلاقى عنصر أساسى فى الشريعة الإسلامية التى تأخذ

المسلمين بأفانين من التربية والتأديب لتخرج منهم أمة وسطا . وخير أمة أخرجت للناس ، ولتصنع منهم نمطا إنسانيا عاليا تعز به البشرية ، وهذا العنصر هو أهم ما تميزت به شريعة الإسلام عن مختلف الشرائع السماوية والوضعية ، والإسلام يسمح بتقبل التقاليد الإنسانية التي لا تتنافى مع مبادئه ، وقد علمت أن طاعة كبار القوم من أهل المكانة والعلم والرأى والتجربة تقليد إنسانى ، وهو لا ينافى مقررات الإسلام ، وهؤلاء هم أهل الذكر ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وهم أولياء أمر قومهم ، ورواد مصالح أهلهم ، والإسلام يريد أن يربى الأمة على طاعة كبارها المجربين في غير معصية الله ، وكل فرد إذا وجد في نفسه القوة والكفاية أن يكون من هؤلاء ، حاكما كان أو محكوما ، وإذا كانت الآية الأولى عامة قررت قاعدة كلية ، وحمل أولوا الأمر فيها على الحكم ، فان الآية الأخرى تتحدث عن « أولى أمر » إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم قدرة على الاستنباط ، واستتباع الناس ، ومعروف أنه لم يكن مع الرسول حاكم أو حكام يشاركونه في حكم المسلمين ! فواضح إذا أن هؤلاء لم يكونوا غير كبار المسلمين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وزعماء القبائل ، وأهل البصر والتجربة ، ممن يتبعهم الناس ، ويسمعون لهم ، ويتقادون لرأيهم عادة أو عصية .

وأولوا الأمر - هؤلاء - هم المعبر عنهم عند علماء الإسلام بـ (أهل الحل والعقد) وهم من ذكرنا صفاتهم .

وقد ذهب الى هذا الرأى جماعة من خيار السلف والخلف منهم الإمام الرازى ، والإمام التفتازانى (السعد) والإمام النووى والإمام الرملى والإمام الشيخ محمد عبده والأستاذ رشيد رضا والأستاذ شلتوت (١) .

ولما كان هؤلاء (أهل الحل والعقد) هم رؤوس قومهم ، وطلاب صلاحهم ، وأهل رأيهم وخبرتهم ، ووجودهم ضرورى في كل جماعة تبحث عن خيرها ، ولا غنى للجماعة عنهم وقد صقلهم الأيمان ، وحبب الإسلام إليهم النفاذ والرغبة

(١) راجع تفسير الرازى لسورة النساء في الآيتين ، ورأى السعد في المقاصد ٢٠ ص ٧٢ ، وشرح المنهاج للرملى ٧٠ ص ١٢٠ ، وتفسير المنار ٥٠ ص ١٨٠ — ٢٤٢ ، وفقه القرآن والسنة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

في صالح الإسلام والمسلمين ، وأصبح ذلك هدفهم الأول ، فإن الله قد أوجب طاعتهم على أفراد الأمة في كل ما لا يضر الدين والدولة ، وما داموا أهلاً لثقة المؤمنين .

وقد كانت هذه الطبقة من المسلمين في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تكون ما يشبه المجلس الشورى للرسول عليه السلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يستشيرهم فيما تستلزمه دنياهم ومصالحهم مما لا شرع فيه يلزمهم باتجاه معين ، وكثيراً ما رأينا القرآن الكريم يؤيد وجهة نظر بعض هؤلاء المستشارين في غير مسألة ، استشارهم عليه السلام يوم الحديبية ، ويوم بدر ، ويوم الأحزاب ، وفي الحجاب ، وأمور الحرب والمعاهدات ، وأوضح مثل تقدمه لذلك استشارة الرسول لهم فيما يجب عمله مع أسرى بدر من المشركين ، وما نزل في ذلك من قرآن كريم ، ونخلص مما قدمته الى أن كبار التوم من زعماء وعلماء وأهل خبرة في نواحي الحياة المختلفة . هم أولياء الأمر ، وأهل الحل والعقد ، وهم لسان الأمة الناطق برغباتها والمعلن لسنخها أو رضاها ، أو هم وكلاء الأمة الدائمون ، يتألف منهم شبه (مجلس أعلى للأمة) يسهر على مصالحها ، ويوجه سياستها في السلم والحرب . ويراقب حكماها ، ويرشح من يراه أهلاً لقيادة المسلمين ورياستهم ، ويقدمه للأمة لتوكله بالبيعة ليصرف شئونها ، وهؤلاء هم المعنيون بقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وهم الذين أوجب الله على رسوله الكريم مشاورتهم « وشاورهم في الأمر » وأول واجب عليهم هو ترشيح الحاكم وتزكيته ، وتقديمه للبيعة ، فإن رآته الأمة أهلاً لثقتها منحتة رضاها ، وبايعته ، وإذا ظهر في المرشح عيب خفي عن الكبار يطعن في أهليته ، فمن حق الأمة أن ترده إن شاءت ، والمسلمون جميعاً أهل للاختيار بشرط الكفاية والصلاح والقدرة على استتباع الناس ، لا يختص الحكم الإسلامي ببيت خاص ، أو قبيلة خاصة أو شعب خاص ، فالمسلمون سواسية كألسنان المشط ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ، ومن لم يتقدم به عمله ، لم يسرع به نسبه ، ولو جاءت الأعاجم بالعمل وجاء العرب بغير عمل . لسكان العجم أحق بمحمد يوم القيامة كما يقول عمر فكل من توفرت فيه الكفاية أهل للحكم إذا ارتضته الأمة لقيادتها ، وله عليها حق الطاعة ما دام ملتزماً لدستورها ، فإن تحلل منه ، فهي في حل من طاعته .

ومن الملاحظ دائماً أن الحاكم الذى تختاره الأمة يكون عادة واحداً من أهل الحل والعقد، وأيضاً فإن أهل الحل والعقد يرشحون دائماً فرداً منهم، وإذن فهناك احتمال الاتفاق بين هؤلاء الكبار على استغلال الأمة ! ولهذا يحتاط الإسلام لما عساه يحدث من تأمرهم مع الحاكم، وهو متهم على الأمة واستغلال نفوذهم ومكانتهم لمصالحهم الخاصة، هم بشر غير معصومين، وليس لدى الإسلام ما يضمن له أن يظل هؤلاء الكبار. كما كانوا فى عهد الرسالة. يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والقلوب تتقلب، والنفوس تتغير، ونظرتها إلى الحياة تتطور، وروح الدين قد يضعف أو يتلاشى. وعندئذ لا يزع الشخص قرآن ولا سلطان، فهل توضع الأمة فى مثل هذا الظرف تحت رحمة هؤلاء الكبار؟ لا. ما كان للإسلام أن يكبل الأمة بهذه القيود ويخضعها لفئة منها هم خدامها، لأن الإسلام قد أحترم الأمة، وخلق لها بالتكليف شخصية معنوية دائمة. ومنحها السيادة على نفسها ومقدراتها، ووكّل إليها اختيار خدام مصالحها، ولهذا يضع الإسلام الأمة فى أعلى القمة على رأس الحاكم ومجلس شوراه (أهل الحل والعقد) فهم جميعاً تحت رقابة الأمة، وكل فرد من الأمة مسلط عليهم، ومن حقه مراقبتهم، بسلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا تستعبد الأمة وتذل لفرد أو أفراد من أبنائها، وحتى لا يكون هناك مجال لتسخيرها لمصالح الحاكمين، إذا فسدت الضمائر وتواطؤوا على استغلالها لصوالهم الخاصة، ولهذا وضع الحاكم ومستشارو تحت سيف مصلحت على رقابهم هو سيف الرقابة الشعبية. وبهذا يتميز النظام الإسلامى عن غيره من النظم البشرية قديمها وحديثها.

إذن فمركز الحاكم مركز دقيق محفوف بالآشواك والأخطار، هو خادم مسئول عن سيده أمام سيده وأمام خالقه مسئولية دينوية وأخروية، وهذا هو معنى قول عمر بن الخطاب للناس: «إن الله ابتلانى بكم وابتلاكم بى» «إذا كنت فى منزلة تسعنى. وتعجز عن الناس. فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة الناس، «إنى والله لست بملك فأستعبدكم. ولسكنى عبد الله عرض على الأمانة، فإن أنا أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترووا. سعدت بكم، وإن أنا حملتها واستتبعتم إلى يلقى شقيت بكم»، ولما أقسم عامل الرمادة ألا يذوق سمننا

ولا لحما ولا عسلا ولا لبنا ، وأراد بعض الناس صرفه عن قسمه قال : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني مامسهم ؟ بئس الوالى أنا إذا شبت وجاع الناس ! » ولما قال له الأحنف بن قيس : اتق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قليلا ولا قال ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيئا ، قال رجل : كيف تقول لأمير المؤمنين اتق الله . غضب عمر وقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها . ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم ، !!

ويقول عن أموال المسلمين : « والله ما من أحد إلا وله فى هذا المال حق ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولسكننا على منازلنا من كتاب الله . . » وكان يرى ان ظلم الحاكم مسقط لولايته ، وكان ينادى فى كل موسم حج « من ظلمه أمير فلا إمرة عليه دونى » وبهذه الروح قال لعمر بن العاص : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

وهذا المنهج وتلك المبادئ هما فى الواقع صدق لقوله تعالى لرسوله : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » فهمة الحاكم حسن الارشاد وتحقيق العدالة وقيادة المجتمع قيادة رشيدة إلى الخير والجمال ، والسلام والكمال ، وإذا كان من حتمه أن يكون عام السلطان لمسؤوليته عن كل شيء ، فليس له أن يسيطر ويستعبد الناس ، لأنه واحد منهم . وهم الذين قدموه ، وله ما لهم وعليه حمل أثقل من أحملهم ، ومنزلته منهم كمنزلة ولى اليتيم منه ومن ماله ، فليس لهذا على اليتيم سيادة ، وليس له أن يأكل من ماله إلا إذا كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، لقاء حسن إرشاده وحسن رعايته ، وهكذا أحكم الإسلام وحدة الأمة ، وحقق بهذا التنظيم والتعاون والتضامن ، الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وهذا هو سر حيوية الإسلام السياسية ، وسر قوة الحكم الإسلامى فى العصور الأولى . وسر صلاحية السياسة الإسلامية للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وقدرتها على حل مشاكل العصر الحاضر .

وللكلام بقية ، فإلى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدينا إلى صراطه المستقيم .

دراسات في القرآن

موسى الكليم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

القصص في القرآن باب واسع ، يحتل مكانا فسيحا ، وينال قسطا كبيرا ، ذلك أنه غرض جليل الفائدة ، غزير المادة ، عظيم الخطر ، بالغ الأثر ، سائغ العرض ، محبب إلى كل نفس من الغلام الناشئ ، إلى الشيخ الفاني ، كل يجد فيه السلوى ، ويتخذ منه العظة العظمى . وفي قصص هذا الكتاب السماوى دقة تخير لما ينفع ، وأعظم تحرر لما وقع ، فهو أصدق الحديث ، وأحسن القصص ، « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شئ ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

ولو لم يكن في هذا القصص إلا دلالة الحق على صدق هذا النبي الأمى الذى نشأ يتيمًا فى مكة يحول بين شعابها الجاهلة ويدرج فى ربوعها الغافلة ، حيث لا معلم ولا موجه . ثم هو بعد يتحدى أهل الكتب السماوية ، ويحاج ذوى المعارف والثقافة فى مختلف النواحي فيبهرهم ويصرعهم ، فمن أين كان لذلك اليتيم ناشئ مكة أن يعرف أن الله كتب فى التوراة أن النفس بالنفس ، والعين بالعين إلى آخر القصص ؛ أو يعرف أن الرجم فى التوراة ، ويتحدى أحبارهم لإثبات ذلك مثلا ؛ بل من أين هذا القصص الثابت الصادق الذى تحدى به أمم الأرض ورواتها ، ولا سيما أرباب الكتب المقدسة ، فما حاول أحد أن يكذبه ، وهم الأعداء الأشداء الذين أعييتهم الحيل فى صراع محمد والقضاء عليه ؟؟؟ أليس فى ذلك دلالة على صدقه فى دعوى الرسالة وأن هذا العلم من لدن الله ؛ وفى الكتاب الكريم : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ، إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » ، وفيه أيضا : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولسكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت

ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنّا مرسلين ، وما كنت بجانب
الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك .

ردد الله سبحانه في القرآن الكريم كثيراً من شؤون بني إسرائيل في ماضيهم
وحاضرهم ، وأنبأهم بدخائل نفوسهم ، وكشف لهم طائفة من عيوبهم ، وساق عدة
من أخبار نبيه الكريم قبل الرسالة وبعد الرسالة ، يرددها في ألوان مختلفة في لغة
الوائق المثبت ، وجرأة العليم المتحقق ، وقد أحصيت لها خمسة وعشرين موضعاً
في الكتاب الكريم ، بعض معانيها يتكرر مع بعض آخر ، وهو الأكثر الأغلب
وبعضه ينفرد به موضع واحد ، كقصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة : وقتل
النفس التي تدافعوا فيها أيضاً ، وكقصة قتال الجبارين في المائدة ، وكقصة قارون
في القصص ، وكقصة الخضر وموسى في الكهف وهذا التكرار في الكتاب من
مزاياه الخطيرة . ودلائل إعجازه المشرقة المنيرة . فيا ليت شعري أي كتاب سوى
القرآن سلك هذا المسلك فلم يسخف ، وتطاول إلى ذلك الرقي فلم يهن ولم يضعف
لقد كان جديراً أن يختلف أسلوبه ، أو تفتقر بعض عباراته ، أو تتجف خصوبته
أو تتخف بلاغته ، أو تمر حلاوته ، أو تملح عذوبته . ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

على أن فيه من التشويق والاستطراف ما لا يخفى ، فهو يكمل في بعض
المناسبات ما لم يتم في مناسبة أخرى .

ولعمر أبيهم لو كان الأمر كما يزعمون لسبق به خصوم محمد صلى الله عليه وسلم
من أهل اللسان ، وأصحاب الذوق ، وهم الذين كانوا يلتمسون عثرة جده بكل حيلة
وبخاصة أنه تحداهم بالقرآن وألح في التحدى حتى أصمهم وأعمى أبصارهم .

ذكر الله سبحانه موسى الكريم في خمسة وعشرين موضعاً من كتابه الكريم
في هذه السور : البقرة ، المائدة ، الأعراف ، يونس ، هود ، إبراهيم ، الإسراء ،
الكهف ، طه ، المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، السجدة ،
الأحزاب ، الصافات ، غافر ، الزخرف ، الدخان ، الاحقاف ، الذاريات ، القمر ،
الصف ، النازعات .

أما سورة البقرة فقد تناولت الآيات الكريمة (٤٧ - ٩٣) توجيه الخطاب
إلى بني إسرائيل الذين كانوا يسلكون مع نبيه صلى الله عليه وسلم مسلك الجحود

ويعاملونه معاملة لا يصدر مثلها من مثلهم ، فذكرتهم نعم الله سبحانه وفصلت نواحي من ذلك الإنعام ، من ذلك تنبيه القوم بما كان لبعض أسلافهم من ماضٍ سيء فيه مثلات وعظات ، تأبى على العاقل الموفق أن يتورط بعدها في خروج على رسول عظيم ، أرسله الله يعلمهم ، وقامت عليه الدلائل في كتبهم ، ثم هي تحمل موجب الإيمان به والتقدير له من قبل أن ذلك التاريخ التفصيلي البعيد مداه ، المندثرة آثاره من أقوى الدلائل على أنه وهو هذا الأمل المعروف رسول من عند الله . على أن بين الآيات السكرية استطرادا ، فالآية ٤٩ تذكرهم بنعمة الله عليهم إذ أنقذهم من السكرب العظيم من فرعون وآله ، وكانوا يذيقونهم سوء العذاب ، يذبجون الذكور من أنثاهم ويستبقون الإناث ، ذلك أن الشعب الإسرائيلي كان في مصر عنصرا أجنبيا بين التبت ، بدأ حياته في مصر من عهد يوسف وإخوته ثم أخذ ينمو ويتزايد ، وهو شعب جبار عارم شديد الأثرة والاعتداد فأخذ التبت يستذلونهم بالأعمال الشاقة ، ولم يكن ذلك ليفل من شوكتهم ، فلما كان عهد فرعون ذلك المذكور في القرآن أشار عليه القبط بأن يأمر القوابل بقطع دابر الذكور منهم بأن يذبحوهم وقت الولادة ، وهو بلاء عظيم حتما ، والمعنى مرو في سور كثيرة مع بعض التفصيل في أوائل سورة القصص آية (٤ ، ٥) وفي الآية ٥٠ تفصيل لبعض نواحي التنجية من آل فرعون مع طي ما كان من ولادة موسى وما جرى عليه إلى عهد الرسالة مما تكفلت به سورة القصص وطه والنمل كما ستره إن شاء الله ، فالآية تنص على أن الله فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون برأى منهم ، والمعنى مفصل في الآيات (٩٠ - ٩٣) من يونس والآيات (٧٧ - ٧٩) طه ، والآيات (٥٢ - ٦٦) الشعراء ، والآيات (٢٢ - ٣١) الدخان ، وفي شرح بعض القرآن ببعض متعه ومنفعة وإيمان .

وتعود آية ٥١ من سورة البقرة فتشير إلى مواعدة الله سبحانه عبده موسى بإيتاء التوراة بعد حادث النجاة فقد خلصوا من شواغل تلك المزعجات من فرعون وقومه وما كانوا ينالونهم به قبل موسى وبعده ، واستعدوا لتشريع من الله يسيرون على نهجه . فأمر الله سبحانه موسى أن يجيء إلى الجبل بعد أربعين ليلة ليأخذ التوراة « فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » .

« الحديث متصل »

عدى بن الرقاع

بين الوليد بن عبد الملك وبين هرون الرشيد

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

الأستاذ بكلية اللغة العربية

عدى بن الرقاع العاملي ، أحد شعراء الإسلام ؛ وكان شاعرا مقدما عند بني أمية ، مداحا لهم ، خاصا بالوليد بن عبد الملك ؛ أثيرا عنده ؛ وقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد ، ثم لم تتم بينهما مهاجاة ؛ وكانت مكانته عند الوليد ، مثار حسد له ، وغيره منه ، عند غيره من الشعراء ، كجرير ، والفرزدق ، وكثير وغيرهم . دخل جرير على الوليد مرة وعنده عدى ، فقال الوليد : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، فمن هو ؟ قال : هذا ابن الرقاع . قال : فشر الثياب الرقاع ، فمن هو ؟ قال : من عاملة . قال : أمن التي قال الله تعالى فيها : « عاملة ناصبة ، تصلي نارا حامية » ؟ فقال الوليد : والله ليركبتمك ! لشاعرنا ومدحنا والرائي لامواتنا تقول هذه المقالة ! يا غلام ، على بالكف ولجام . فقام إليه عمر بن الوليد ، فسأله أن يعفيه فأعفاه ؛ وقال : والله لن هجوته لأفعلن ولأفعلن . فلم يصرح جرير بهجاء عدى ، ولكنه عرض به تعريضا ، في قصيدته التي مطلعها :

حي الهدملة من ذات المواعيس ؛ إذ يقول فيها :

إني إذا الشاعر المغرور حربني	جار لقبر على مران مرموس ^(١)
قد كان أشوس آباء فورثنا	شغبا على الناس في أبنائه الشوس ^(٢)
أقصر ، فإن زارا لن يفاضلها	فرع لئيم ، وأصل غير مغروس
وابن اللبون إذا مالز في قرن	لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتي في كل معترك	غلب الأسود ، فبال الضغابيس ^(٣)

(١) حربني : أغضبني . (٢) الشوس [بالتحريك] : التكبر والنظر ، وآخر العين .

(٣) الغلب جمع أغلب : وهو الغليظ الرغبة ، والضغابيس جمع ضغبوس : الضعيف .

وذكر كثير ، وعدى ، فى مجلس بعض خلفاء بنى أمية ؛ فامتروا فيهما أيهما أشعر ، وفى المجلس جرير ؛ فقال جرير : لقد قال كثير بيتاً ، هو أشهر وأعرف فى الناس من عدى بن الرقاع نفسه ! ثم أنشد قول كثير :

أأن زم أجمال ، وفارق جيرة وصاح غراب البين ، أنت حزين ؟

خلف الخليفة : لئن كان عدى بن الرقاع أعرف فى الناس من بيت كثير ، ليسر جن جريرا ، وإيلجمنه ، وليركب عدى بن الرقاع على ظهره ! فكتب إلى واليه بالمدينة : إذا فرغت من خطبتك فسل الناس : من الذى يقول :

أأن زم أجمال ، وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين

وعن نسب ابن الرقاع . فلما فرغ الوالى من خطبته ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أسألكم من الذى يقول :

أأن زم أجمال الخ . قال : فابتدروا من كل وجه يقولون : كثير ، كثير . ثم قال : وأمرنى أن أسأل عن نسب ابن الرقاع ؛ فقالوا : لا ندرى ! حتى قام أعرابى من مؤخر المسجد فتمال : هو من عاملة !

ومن أعجب العجب ، أن يقول نوح بن جرير لأبيه : يا أبت ، من أنسب الشعراء ؟ فيقول له : ألتعنى ما قلت ؟ فيقول : لا ، لى لست أريد من شعرك ، إنما أريد من شعر غيرك . فيقول جرير : أنسب الشعراء ابن الرقاع فى قوله :

لولا الحياء وأن رأسى قد عسا فيه المشيب لزرت أم التماسم
وكأنها وسط النساء أعارها عينيه ، أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنمت فى عينه سنة ، وليس بناثم

ما كان يبالى أن لم يتل بعدها شيئاً !!

وأن يقول جرير : سمعت عدى بن الرقاع ينشد :

تزجى أغن كأن لمبرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه فتملت : بأى شىء يشبهه ترى ! فلما قال : قلم أصاب من الدواة مدادها .

رحمت نفسى منه !

وأنشد عدى بن الرقاع الوليد بن عبد الملك قصيدته ، التي منها البيت السابق ،
والتي أولها :

عرف الديار توها فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها
إلا رواكد كلهن قد اصطلى حمراء أشعل أهلها إيقادها
كانت رواحل للقدور ، فعريت منهن ، وامتلب الزمان رمادها

وعنده كثير ، وكان يبلغه عن عدى ، أنه يطعن على شعره ، ويقول :
هذا شعر حجازى مقرر إذا أصابه قر الشام جمد وهلك . فلما انتهى عدى
إلى قوله فيها :

وقصيدة قدبت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
قال كثير : لو كنت مطبوعا أو فصيحا أو عالما ، لم تأت فيها بميل ولا سناد ،
فدحتاج إلى أن تنمومها . ولما قال :

نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها
قال كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون
مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها . ثم أنشد :

وعنت ، حتى ما أسائل عالما عن علم واحدة لى ازدادها
فقال كثير : كذبت ، ورب البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك
عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك ؛ وما كنت قط أحق منك الآن
حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر ، وقطع بعدى بن الرقاع
حتى ما نطق .

* * *

وروى ابن عبد ربه - فى نسق رائع ، وخبر طويل - عن الأصمعى قال :
تصرفت بنى الأسباب إلى باب الرشيد مؤملا للظفر ، وطاولتنى الغايات بما كدت
به أن أصير إلى قلالة ؛ فلم نشعر أن خرج علينا خادم فى ليلة نثرت السعادة والتوفيق
فيها الأرق بين أجفان الرشيد . فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ فقلت :
الله أكبر ! رب قيد مضيقه قد فكك التيسير للأنعام ! أنا صاحبك . فأخذ

بيدى ، فواجهت الرشيد فى البهو جالسا ، كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالا ، والفضل بن يحيى إلى جانبه ؛ فوقف بنى الخادم حيث يسمع تسليمى ، ثم قال ؛ سلم ، فسلمت ، فرد ، ثم قال ؛ تنحّ ليسكن قليلا إن وجد لروعته حسا ، فتمعدت حتى سكن جأشنى قليلا ، ثم أقدمت فقلت : يا أمير المؤمنين ، إضاعة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر إليهما من اعتراض أذية له . تسألنى فأجيب ، أم أبتدىء فأصيب ، بيمن أمير المؤمنين وفضله ؟ قال : فتبسم الفضل ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لقد أقدم مبرزا محسنا فى استشهاده على براءته من الخيرة ، وأرجو أن يكون محسنا ؛ قال : أرجو . أدن ، فدنوت ، فقال : أشاعر أم راوية ؟ فقلت : راوية يا أمير المؤمنين ؛ قال : لمن ؟ قلت : لذى جد وهزل ، بعد أن يكون محسنا . قال : والله ما رأيت أدعى لعلم ، ولا أخبر بمحاسن بيان ففتته الأذهان منك ! ولئن صدرت حامدا أثرك ، لتعرفن الأفضال متوجها إليك سريعا . قلت : أنا على الميدان يا أمير المؤمنين .

وبعد اختبار دقيق وحوار تمتع لا يتطلبهما صميم الموضوع ، قال : أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن عبد الملك : عرف الديار توها فاعتادها . فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه ، لاستماع الكذب ؟ لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ؟ قال : ويحك ! إنه أدب ، وقلبا يعتاض مثله ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهنى به الرسوم ؛ وللمتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية ، قال الفضل : قد - والله - يا أمير المؤمنين ، شاركتك فى الشوق ، وأعنتك على السوق : ثم التفت إلى الفضل وقال : هذا سيدى أمير المؤمنين قد أصغى إليك ، فر - ويحك - فى عنان الانشاد ، فهى ليلة دهرك ، لا تنصرف إلا غانما . قال الرشيد : أما إذ قطعت على ، فأحلف لتشركنى فى الجزاء ، فما كان لى فى هذا شيء لم تقاسمنيه . قال الفضل : قد - والله - يا أمير المؤمنين ، وطنت نفسى على ذلك متقدما ، فلا تجعله وعيدا ؛ قال الرشيد : لا أجعله وعيدا . قال الأصمعى الآن ألبس رداء التيه على العرب كلها ، وأنا أرى الخليفة والوزير يتناظران فى المواهب لى ، فررت فى سنن الانشاد ، حتى بلغت إلى قوله :

ترجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها
 فاستوى جالسا ، ثم قال : أتخفظ في هذا شيئا ؟ قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ،
 كان الفرزدق — لما قال عدى : ترجى أغن كان إبرة روقه — قال لجرير : أى
 شيء تراه يناسب هذا تشبيها ؟ فقال جرير : قلم أصاب من الدواة مدادها ؛ فارجع
 الجواب ، حتى قال عدى : قلم أصاب من الدواة مدادها ، فقال لجرير : ويحك
 لكان سمعك مخبوء في فؤاده ! فقال جرير أسكت شغلنى سبك عن جيد الكلام ^(١) .
 ثم قال الرشيد : مر في إنشادك ، فضيت حتى بلغت قوله :

ولقد أراد الله إذ ولا كما من أمة إصلاحها ورشادها
 قال الفضل : كذب وما بر ؛ قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا ؟ قالت :
 ذكرت الرواة — يا أمير المؤمنين — أنه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! قال :
 مر في إنشادك ؛ فضيت حتى بلغت إلى قوله :

لم تأت الأسلاب إلا عنوة غصبا ، ويجمع للحروب عتادها
 قال الرشيد : لقد وصفه بعزم وحزم ، لا يعرض بينهما وكل ولا استدلال ؛
 قال : فماذا صنع ؟ قلت — يا أمير المؤمنين — ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله
 الله ؛ قال : أحسبك وهمان . قلت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردنى
 أمير المؤمنين إلى الصواب . قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولا كما من أمة إصلاحها ورشادها
 ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكننى أعلم أن الرجل م يكن يخطئ
 في مثل هذا . قال الأصمعي : وهو — والله — الصواب . ثم قال : مر في إنشادك
 فضيت حتى بلغت إلى قوله :

وعلت ، حتى ما أسائل عالما عن حرف واحدة لى أزدادها
 قال : وكان من خبرهم ماذا ؟ قلت : ذكرت الرواة أن جريرا لما أنشد عدى
 هذا البيت قال : بلى والله وعشر مئين . . .

[١] رويت في هذا رواية أخرى آتفا عن الأغانى ، وهى عندى أرجح مما هنا ، وإن صححوها
 بأن الممدوح شغل عن الشاعر بعد أن أنشد الشطر الأول فترة تسع سؤال الفرزدق وجواب جرير .
 والله أعلم .

قال الرشيد : والله إنه لتلقى السلام في مدحه وفي تشيبيه ؛ قال الفضل :
يا أمير المؤمنين ، لا يحسن عدى أن يقول :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا
قال الرشيد : بلى ، قد أحسن . ثم التفت إلى قتال : ما حفظت له في هذا
الشعر شيئا حين قال :

أطفأت نيران الحروب ، وأوقدت نار قدحت براحتيك زنادها
قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين ، أنه حك يمينا بشمال ممتدحا بذلك ،
ثم قال : الحمد لله على نعمة الإسلام .

وبعد أن استشهد لذي الرمة ، وللشماخ ، قال : أمسك . ثم قال : استغفر الله
(ثلاثا) أآخر قليلا واجلس ، فقد أمتعت منشداً ، ووجدناك محسناً في أدبك ،
معبراً عن سرائر حفظك ؛ ثم التفت إلى الفضل فقال : لسلام هؤلاء ديباج
السلام الحسن ، وإنه يزيدك على القدم جدة وحسناً ؛ فإذا جاء السلام المزين
بالبديع ، جاءك الحرير الصيني المذهب ، فإذا أمتعته الاسماع ، لذ في القلوب له
رونق صواب ، ولكن في الأقل ! ثم قال : يعجبني مثل قول مسلم في أبيك
وأخيك ، مخاطبا حليته ، مفتخراً عليها بطول السرى في اكتساب المغانم :

أجدك ، هل تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشر
صبرت لها ، حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يذكر جعفر

أفرأيت ! ما ألفت ما جعلهما معدنا لجمال الصفات ومحاسنها ، ثم التفت إلى
وقال : أجد ملالة ، ولعل أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف في ليلتنا
هذه ، فأقم عنده ، مسامراً له ... ثم قال : يا غلام ، على بصالح الخادم ؛ فقال :
يؤمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم في ليلته هذه . قال الفضل : لولا أنه مجلس
أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد غيره ، لدعوت له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين .
فدعا له بتسعة وعشرين ألفاً يقبضها من غده . قال الأصمعي : فما صليت الظهر ،
إلا وفي بيتي تسعة وخمسون ألف درهم !

أما بعد ، فتمت ستمت هذا الحديث الذى ليس لى فيه إلا الجمع ، لا أقصد من ورائه أن أترجم لعدى ، فما أكثر تراجم الرجال فى السوق ! ، وإنما قصدت إلى نشر ما حواه ، من رائع الأدب ، وبارع النقد ، وعناية خلفاء المسلمين بهما ؛ واتفاقهم فى ذلك على اختلاف مذاهبهم فى الدين والسياسة والاجتماع والثقافة ؛ وحذقهم للنقد دراية ورواية ؛ وبصرهم بسمات الجمال الفنى فى قديم الشعر وحديثه ، بصر الباحث الخبير الذواقه .

فهذا الوليد بن عبد الملك ، أوسع بنى مروان رقعة ملك ، وأوفاهم حظاً من الشعراء ، لا يصرفه تعريض جرير بابن الرقاع . ولا نقد كثير له فى مجلسه وانقطاع عدى وهزيمته ، عن إدنائه ، والدفاع عنه ، والاختصاص به ، لما يلبسه من قوة فنه ، فى مدحهم ، ورتاء موتاهم ، كما قال .

وهذا الرشيد ، خصم الوليد وقريعه ، وجبار بنى العباس ، لا تصرفه العداوة الطبيعية بين أمية وهاشم فى القديم والحديث ، ولا يصرفه وزيره الفضل بن يحيى بلومه الذى لا يخلو من عنف ، عن سماع قصيدة عدى فى مدح خصمه الوليد ، ولا عن روايته هو نفسه ، لتلك الكلم التوابغ ، التى أرسلها الوليد عقب سماعه لكل بيت نادر ، وللحوادث التى اتصلت ببعض أبيات القصيدة ؛

يقول الرشيد للأصمعى : أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن عبد الملك : عرف الديار توها فاعتادها . فيقول الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ؟ لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ! فيقول الرشيد : ويحك ! إنه أدب ، وقلما يعتاض مثله ، ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهنى به الرسوم ؛ وللممتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية !

ثم يعلل الرشيد مبلغ عنايته بالشعر القديم ، بهذا الحكم العادل القاطع : « لكلام هؤلاء » التمدامى ، ديباج الكلام الحسن ، وأنه يزيدك على القدم جدة . ثم يقول عن شعر المحدثين : « فإذا جاء الكلام المزين بالبديع ، جاءك التحرير الصينى المسذهب ، فإذا أمتعته الأسماع ، لذ فى القلوب له رونق صواب ، ولكن فى الأقل ! ، .

أنظر إلى هذه الدقة ، وهذا النفاذ ، ثم أخبرنى : أليس كلام الملوكة ، ملوك الكلام ؟!

في صحب المكفوفين

لفقيه الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

حينما نستنبئ التاريخ نجد أنه قد ضم في صفحاته كثيرين من كبار المكفوفين الذين كان لهم مكان ملحوظ ومركز ممتاز؛ ويستوى في ذلك التاريخ البعيد والتاريخ القريب، فنحن نجد في الأنبياء مكفوفين مثل إسحق ويعقوب وشعيب عليهم السلام. نعم قد وقع خلاف في جواز العمى على الأنبياء، فتنعه بعضهم لأن مقام النبوة أشرف من ذلك، ولأنه لم يرد نص قطعي الدلالة بعمى إسحق وشعيب، ويقول البعض الآخر: فكيف يقول الله عن يعقوب: «وابيضت عيناه من الحزن»، وقوله عنه: «فارتد بصيرا»؟ إن هذا يفيد سبق العمى، ولا ينفع التأويل بأن قوله «وابيضت عيناه» كناية عن غلبة البكاء وامتلاء العين بالدموع.

ومن أشراف العرب وعظماهم قبل الإسلام مكفوفون منهم عبد المطلب ابن هاشم والحكم بن العاص وزهرة بن كلاب وكراب بن مرة ومطعم بن عدي، وغير هؤلاء.

ومن كبار الصحابة في الإسلام مكفوفون، نذكر منهم أبا قحافة والد أبي بكر الصديق وكعب بن مالك الأنصاري وقتادة بن النعمان والبراء بن عازب وسعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن الأرقم وعمرو بن أم مكتوم ومالك بن ربيعة ومخرمة ابن نوفل وعبد الله بن عباس؛ وتراجم هؤلاء مبسوبة في مختلف المصادر القديمة والحديثة، وهي تفيض بالمآثر والمفاخر.

ومن كبار التابعين مكفوفون مثل عطاء بن أبي رباح وأبي هلال الراسبي وقتادة بن دعامة وأبي عبد الرحمن السلي، وهؤلاء معارف في تاريخ الإسلام وليسوا بشكرات!...

ومن كبار الأئمة والفقهاء والعلماء مكفوفون، وحسبك أن تتذكر هنا هذه

الاسماء الخالدة : الشاطبي ، الترمذی ، النيسابوری ، العكبري ، الشنتری ، أبو زكريا البغدادی .

ومن عظماء شعراء العربية مكفوفون حسبنا منهم هنا علما لا يخفيان على ناظر وهما أبو العلاء المعري وبشار بن برد .

وفي التاريخ القريب نجد كثيرا من الأزهريين النابغين اللامعين كانوا مكفوفين مثل يوسف الدجوى وإبراهيم الإيباري ومحمد المعداوى ومحمد حسنين البولاتي (والد المرحوم أحمد حسنين باشا) وأحمد الزين . ومن الأزهريين المعاصرين النابغين نجد مكفوفين ، فهذا هو الدكتور طه حسين باشا الذي لم يمنعه كف بصره عن الجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، ولا عن تعلم اللغات القديمة والحديثة ولا عن الإنتاج الأدبي الهائل ، ولا عن مركز الوزارة نفسه . . .

وهذا هو الشيخ الصاوى شعلان يعد مثلا من أمثلة نبوغ المكفوفين ، فهو قد أتم دراسته الأزهرية ، ثم برع في دراسته الجامعية ، ثم مهر عدة لغات ، وهو يجيد الشعر والنثر خطابة وكتابة ، وهذا أخونا الأستاذ محمد العلائي ، كان زميلا لنا في الدراسة الأزهرية ، ثم التحق بكلية الآداب وهو مكفوف فأتم دراسته بها ، ثم سافر إلى إنجلترا يتلقى العلم في معاهدها ، ولا يزال هنا يتابع خطواته الموفقة في سبيل الحصول على درجاته العلمية الفاتحة .

ولم نقصد حين ذكرنا كل هذه الاسماء بعد أن نظمناها ، وقد كانت ماثلة متفرقة في شتى المصادر ، أن نقول إن هؤلاء جميعاً ولدوا مكفوفين ، أو أصابهم كف البصر منذ الصغر ، فقد اختلفت أحوالهم من غير شك ، فبعضهم ولد أعمى ، وبعضهم كف بصره صغيراً ، وبعضهم أصابه العمى كبيراً ، ولكنهم على أية حال يعدون في ثبوت المكفوفين .



وكف البصر كما نريد أن نؤكد في الأذهان ليس إلا نقصاً حسيّاً في ناحية من نواحي الجسم ، ومن الممكن تعويض هذا النقص بالمثل أو بأكثر منه ، لأن الخالق سبحانه إذا سلب عبداً نعمة عوضه عنها مثلاً أو خيراً منها ، ومن هنا نرى الكفيف

لا يعوقه كف بصره عن القيام بواجبه في حياته ، لأنه يكون عادة حاد اللبس ، والسمع والنطق والفهم ، ومن حدة لمسه أنه يميز بين الأشياء المتشابهة والأدوات المتماثلة يلبسها ، ولو أغمض البصير عينيه وأراد ذلك لما استطاع ، ومن حدة سمعه أنه يسمع الهمس البعيد والتجوى الخفية ، ومن حدة نطقه أنه يكون جبير الصوت يسمع الجم الغفير ، ولذلك يجلجل صوته إذا خطب أو وعظ ، ويترع الأسباع بنبراته ، ومن هنا قال إبراهيم بن هانيء : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت » ، ومن حدة فهمه أنك ترى المكفوف أسرع إلى الإدراك وأجمل في التحصيل وأدق في التمييز العقلي من مثله البصير ، كما أنه مما يوضح ذلك أننا نرى كثيرين من المكفوفين يبرعون في الخياطة والموسيقى ولعب الشطرنج والخطابة وغير ذلك من دقائق الأعمال ، كما قد يمر بنا تديبانه في مستقبل الكلام .

وانتد قال صلاح الدين بن أيوب الصفدى : « قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكي (ثم ذكر أسماء عميان عظماء ثم قال :) والسبب الذي أراه في ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ، ولا يعود متشعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكر ، فيقع على ما شرد من حافظته ، وفي المثل : أحفظ من العميان ؛ أورده الميداني في أمثاله . »

ولا يحسبن أحد أن إدراك ذلك مما يغيب عن المكفوفين أنفسهم ، بل لعلمهم أسبق من سواهم في الوقوف عليه والتنويه به ؛ قال رجل للقاسم بن محمد الضرير : لقد سلبت أحسن وجهك ، فقال : صدقت ، غير أنى منعت النظر إلى ما يلهي . وعوضت الفسكرة فيما يجدى . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، بعد أن كف بصره :

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكى ، وعتلى غير ذى دخل وفي فى صارم كالسيف مأمور
وقال الحريري الضرير :

فإن عيني خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبي ، ولكنما أرى نور عيني لقلبي سعى

وما أبرعه من تعبير ، وما أدقه من معنى ، حيث قال إن نور عينه قد سعى من باصرته إلى بصيرته فكان ذلك من الله خير تعويض ! . . . وقال أبو علي الأعمى :

لئن كان يهديني الغلام لوجهي ويقتادني في السير إذ أنا راكب
فقد يستضيء القوم بي في أمورهم ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب
وقال عز الدين أحمد بن عبد الدائم :

إن يذهب الله من عيني نورهما فإن قلبي بصير ما به ضرر
أرى بقلبي دنياى وآخرتى والقلب يدرك ما لا يدرك البصر

وما يركب هذه البصيرة في الأعمى ما جاء على لسان النبوة في قصة الأبرص والاقرع والأعمى ، وهي في البخارى ومسلم عن أنى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة في بني إسرائيل - أبرص وأقرع وأعمى - فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فتعال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قدرني الناس . فمسحه فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ؛ فأعطى ناقه عشراء . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الاقرع فتعال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قد قدرني الناس . قال : فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؛ فأعطى بقرة حاملا فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس . قال : فمسحه فرد الله إليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ؛ فأعطى شاة والدأ ، فأتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الجبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيراً أتبلغ عليه في سفري . فقال : الحق كثره . فقال (الملك) له : كمأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس

فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى في صورته وهيمته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الجبال في سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالنذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، نخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته الله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبك ...!

أرأيت كيف أجدى المعروف في المكفوف ، وقد شكر أنعم الله حين جاءته وكيف استحق على لسان النبوة أن يكون صاحب الحكمة بين قريفيه ، والفائز بالخير بينما خسره الآخرون ؟ ... أليس في ذلك إيماء من طرف دقيق خفى بأن المكفوف يستحق التكريم لأنه لا يضيع عنده المعروف ؟ ...

* * *

والمكفوف من الناحية الشرعية لا يتأخر كثيراً عن البصير ، ولا يوجد بينهما من الفروق إلا ما يقتضيه هذا النقص الحسى ، فالأعمى من ناحية الشرع يلى التكاح ، ويكاتب ، ويؤم الناس في الصلاة ، ويجتهد في الأوقات والأواني ، ويبيع ويشترى ، ويحل له الصيد بالكلب والرمى ، ويجوز ذبحه إذا فعله وإن كره ، ويصح أن يكون وصياً ، وتصح منه المساقاة ، وتجب عليه الجمعة إذا وجد قائداً ، ويلزمه الحج إذا وجد مع الزاد والراحلة قائداً .

واختلف القدماء في رؤية الأعمى للنامات ، فقال بعضهم : يرى . وقال بعضهم : لا يرى . والذي يقتضيه المقام هو التفصيل الموافق لما أثبتته التجربة والعلوم الحديثة ، وخاصة علم النفس ، وهو أن الأعمى إن كان قد طرأ عليه العمى بعد إيبصار ، وبعد تمييزه للأشياء ، فإنه يستطيع أن يرى منامات وإلا فلا ، وليس عدم الرؤية للأكمة بممانعة من أن يحلم أحلاماً سمعية أو كلامية ، لأنه وإن فقد البصر يسمع ويتكلم .

الإسلام والاستراكية

لمحاضرة الأستاذ سعيد زهير

قد تقدمت الصناعة في ظل الحضارة الغربية المادية ، غير أن العبقريّة المحمدية التي لا نظير لها لم تغفل مسائل العمل والصناعة ورأس المال ، وقد حرم الإسلام الربا وبهذا هاجم بعنف الرأسمالية . كما أنه فرض بمقتضى قانون الزكاة ضريبة على الأغنياء يؤدونها لمصلحة الفقراء . وقد كانت الأرض على عهد محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مورد للعمال ، وكانت الأرض في ظل الإسلام — كما تبين — ملكاً للأمة . وأما الصناعة القليلة التي كانت قائمة قبل بداية عصر العلم فقد كان يتولى أمرها إما الفقراء بأنفسهم وإما العبيد خدمة لسادتهم الأتوقراطيّين الطغاة . وكان الذين يتولون أى شأن من شؤون التجارة أو الصناعة — قبل مجيء الإسلام — ينظر إليهم نظرة احتقار من قبل الأرسطراطيّين ، وأما العبيد الذين كانوا يمثلون حينئذ الطبقة العاملة فقد كان سادتهم الرأسماليّون يعاملونهم معاملة العبيد ، وقد مارس النبي بنفسه التجارة قبل البعث بالرغم من أنه سليل أنبل أسرة عرفتها العرب ، وكان محمد باعتباره النبي الصادق المعترف به ، سيد الجزيرة العربية والعالم الإسلامى قاطبة ومع ذلك فقد كان يخطط ثوبه ويخصف نعله ، وأجرأ خطوة اتخذها نحو الاشتراكية الصناعية تتمثل في أنه رفع منزلة العبيد إلى مستوى الأحرار ، وجعل الرقيق أنصاره ورفاقه ، وأمرهم على الجيوش وغيرها وصاروا في كثير من الأحيان أعضاء في الأسرة التي كانت تعاملهم قبل الإسلام معاملة الأنعام ، كما أضخى العبيد شركاء لسادتهم فيما يملكون . والواقع أن الخطوات التي اتخذها محمد لتحسين أحوال العمال على عهده لم يتجاوزها أحد في التاريخ الاقتصادى للعالم ، فعمال التمر العشرين الذين يعدون العمود الفقرى للتقدم والرخاء الذى تمتع به أوروبا الماركسيه . . . وعمال المستعمرات البريطانية وعمال التعدين والمناجم فى الترنسفال . . . يعاملون أسوأ مما كان يعامل أولئك الذين كانوا يعرفون بالرقيق فى ظل الفترة الاشتراكية من الحضارة الإسلامية . والحق أن نظرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الاشتراكية كانت أسى وأنبى ، وأن الأسلوب الذى اتخذته ليثبتها فى النفوس لتكون عملية أيسر

من الأسلوب الذى لجأ إليه زعماء الاشتراكية فى الوقت الحاضر . على أن مفتاح الاشتراكية المحمدية هو التقدم الروحى والأدبى للشعب ، فاشتراكيته كانت أخلاقية فى حين أن الاشتراكية الحديثة مادية . والاشتراكيون يطالبون اليوم بأن تنقل ملكية الأراضى ورءوس الأموال إلى الدولة فوراً معتقدين وقد تملكهم الحماس أنه من الميسور تحقيق هدفهم ، وأنهم عندما ينجحون فسيفتح عن ذلك تحسين مستوى حياة الشعب ، والواقع أنهم مخطئون فى زعمهم فهم لا يدركون أن خصومهم تؤيدهم قوة عسكرية أشد كما تبين من مسلك الحكومة المسماة بحكومة الأحرار لمزام عمال السكك الحديدية المضربين ، وحتى إذا نجح الاشتراكيون عن طريق اللجوء إلى العنف وإثارة العواطف كما فعلوا فى فرنسا منذ حين فلن يكون فى وسعهم تحسين حال الشعب أو السير قدماً بقضية الاشتراكية طالما لم يسم رجال الدولة من الناحية الخلقية ، فما لم تتألف الدولة من رجال يحترمون حقوق سيادة الأفراد وما لم تكن عواطف الانسجام المتبادل والأخوة بين الأفراد هى الأساس للاشتراكية الحققة فلن يتحقق قسط حلم الاشتراكيين المحدثين . وإذا حول زمام السلطة على الأراضى ورءوس الأموال إلى المجتمع أو الدولة المؤلفة من أفراد يعتقدون فى الحقوق والمزايا الخاصة والذين ليس فى وسعهم القضاء على أفكار العنصر والطبقة فستصير أحوال الشعب حينئذ أشد سوءاً مما هى عليه فى الوقت الحاضر . وإذن ففسكرة تحويل الأرصدة ورأس المال إلى الدولة لا تكفل وحدها صبغ إدارة الدولة بالصبغة الاشتراكية ، أو ليست جميع الأراضى فى الهند ملكاً لحكومة الهند ؟ أو ليست أسلاك البرق والمسرة وبعض خطوط السكك الحديدية ملكاً للدولة ؟ أو ليست دولة الهند تستخدم عدداً كبيراً من العمال فى أعمال الرى ومصانعه حيث يجرى ذلك على أسس تجارية ؟ أو لم تكن معظم الصناعة ورأس المال فى يد الدولة لإبان نظام الحكم التركى العتيق ؟ بيد أن ملكية الأرض والملكية الصناعية وملكىة الرأسمالية فى تركيا لم تجد شيئاً فى خلق نوع من الدولة الاشتراكية وحتى لم تخف حدة أشد النظم الأوتوقراطية فى هذه الدولات . ذلك لأن الاشتراكية الحققة ولأن الضرورى فى الاشتراكية ليس تأميم Nationalisation الأراضى والأموال فحسب بل تأميم الدولة ذاتها أيضاً . غير أن ذلك يتطلب

عبرية نبي بحيث تكون مرنة وقوية كعبرية محمد عليه الصلاة والسلام حتى يتسنى لها أن تطبق المثل العليا تطبيقاً عملياً . وهناك كثير من المصلحين الذين يظنون يعظون الناس طول حياتهم إلا أنهم يعجزون عن إغراء فرد واحد في العمل وفقاً لما يقولون . ولقد سمعنا في جيلنا هذا عظات وخطباً ألقاها ملوك وأشخاص باركوا السلام وتغنوا باستمراره ومع ذلك لازلنا نرى الدم الإنسانى يراق كأنه الماء على أيدي محبي السلام ودعائه . وقد دأبت الأمم على أن تغلق أعينها عن مسارح المذابح التي يقوم على قربانها الضعفاء من الأطفال والنساء ، ثم تظن أنها أتت شرفها بما أبدته من عدم اكتراث يدل على الجبن ، ويرى فريق من هذه الأمم أفراداً عاجزين قد سلبوا في رابعة النهار بأيدي قراصنة أشداء قساة ، ومع ذلك يدير هذا الفريق من الناس وجوههم معللين أنفسهم بأنه لم يكن لهم يد في هذا الاثم .

وأوربا اليوم مليئة بالأمم التي إما ترتكب بنفسها الجريمة أو تشارك غيرها فيها . ومثل هذه الأمم التي لا تحترم حقوق الآخرين ولا تحترم التزاماتها ووعودها لا يمكن أن ينتظر منها العمل على تقدم المثل العليا النبيلة كإقرار السلام العالمى أو دعم الاشتراكية التي تنشر المساواة في العالم ، وأنا على يقين من أن حديث الاشتراكية الذي يردده أهل أوربا ليس إلا أسطورة لا جدوى من ورائها كأسطورة السلام . فالميول المادية التي تموج في العصر الحاضر تروج في أذهانهم الأهواء التي تعد مناقضة لفكرة الاشتراكية على نحو ما تناقض السلام ، وأوربا التي تسعى إلى الترف وتميل إلى عدم الاعتراف بالالوهية لن يكون في وسعها نشر السلام والاشتراكية ، إذ أن كلا منهما يتطلب أساساً وقوة روحية ، وهما مما تفقر إليه أوربا ، وما معظم الصحائف الذهنية لتاريخ هذا العالم إلا أسفار للنصر الأدبي الذي ظفرت به آسيا ، أما أوربا فقد اخترعت أدوات حديثة عبرية غايتها هلاك الإنسان ، في حين أن آسيا أنجبت تلك الأرواح الخالدة التي أنقذت الجنس الإنسانى بأسره . وقد كان الغزو الأوروبى لآسيا قائماً على أسنة الرماح ، أما سلطان آسيا على أوربا فقد تم بفضل تلك العقول الكبيرة التي أحدثت ثورة في الأخلاق Ethice ورفعت مستوى المثل الإنسانية حتى بلغت مرتبة الكمال (يتبع)

العظمة والخلود

لفقيه الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

حب العظمة نزوع إنسان قديم ، جبل عليه ابن آدم منذ أحس بحاجته إلى نضال العيش ، وسجال السكسب ، وعراك المادة ، والميل إلى الغلب ، والرغبة في السيطرة ، والطموح للتملك والاقتناء . . . وقد صحب هذا كله إعجاب المعجبين بالتفوق ، وتصفيقهم للسابق ، وإكبارهم للبرز ، وتعظيمهم للمتقدم . . . وما زال هذا المعنى يتدرج مع الزمن ، وينمو على الأيام ، حتى ازداد الإقبال عليه ، والطمع فيه ، وود الناس أن يكون تطلع الأنظار إليهم دائماً ، وحديث الأفواه عنهم غير منقطع . . . وهنالك فكروا في أن تقترن العظمة بالخلود ، فرغبوا في امتداد حب الحياة ، وتراخى أجل الموت الذي يدركونه من غير شك ، ويشاهدونه متكرراً متجدداً . . . وقد نشأت عن ذلك خرافات كثيرة ، وترهات متنوعة ، لا يتسع المجال لسردها ، ولا لطول الحديث عنها ، إلا أن عتميدة البعث التي جاء بها الإسلام كانت قضاء على ذلك كله ، وتهدياً للخيال المحلق فيها ، وإرضاء للنهم في البقاء وصار المسلم يطمئن الاطمئنان الصحيح إلى الموت ، لأنه يعلم أنه حياة من طراز آخر ، وخلود على مثال لم تألفه البشرية ، وأكثر القرآن الكريم من حديث البعث والنواب والعقاب ، والمجازاة على الأعمال ، وتركز الإيمان في النفوس على أساس أنه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وجاء في وصف الآخرة ما يفيد أنها دار البقاء والقرار . وأن الدنيا دار الفناء والفرار ، وأكثر الشعراء من جريان ذلك على ألسنتهم ، ودورانه في نايأ قصائدهم . . . إلا أن العمول قد تضاربت في حتمية العظمة ، واختلفت في بيان معناها ، ويظهر أن تنوع البيئة والزمان والمكان ، كان من عوامل تباين وجهات النظر في ذلك . . . حتى كان في اللوصوية عظمة ، وفي الكبرياء عظمة ، وفي العدوان على الضعفاء ، واغتيال الأبرياء ، والتناول على الشرفاء عظمة ، كبأن الأبواب صدئت ، والحجاضل

وميزان الأشياء أصابه خلل ، لأن الرذيلة لا تكون فضيلة ، والنور لا يكون ظلمة ، إلا حين تنعكس القلوب ، وتلتوى الأفئدة . وتحول الأحوال ... وحين أطل فجر الإسلام على المسلمين وكانت رؤوسهم لا تزال - على جاهليتها - متأثرة ببعض دواعي « العظمة الكاذبة » ، مما كانوا يزعمونه من أسبابها ، ويظنون به يجعلهم من أربابها جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أخذاً بتلايبب آخر يشكوه إليه ، لأنه يكثره بماله ، ويفاخره بنفسه ، ويتناول عليه بماضيه في الكفر ، وسوابقه في الجاهلية ، وقد ظن أنه حين يرفع أمره للرسول الكريم ، سيقضى له ، وينصره عليه ، ولم يدر بخلده أن الدين الذي سوى بين الناس في التقدير ، ووفق بينهم في الاعتبار ، لم يجعل لعربي فضلاً على عجمي إلا بالتقوى ، ولم يجعل خيارهم في الجاهلية خياراً في الإسلام إذالم يضموا إلى أحسابهم الأولى ، وميزاتهم السالفة « الفقه في الدين » . وهو بالطبع لا يقصد أن يكون الإنسان عالماً وكفى .. ولكنه يقصد أن يكون العلم سبيلاً إلى العمل ، ووسيلة إلى التنافس في الخير ، والتسابق إلى المجد ، وفهم الذين اعتنقوا شريعته صلى الله عليه وسلم أن العظمة في الطاعة ، والفخر في الامتثال « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » . وكلما أحسوا من أنفسهم أنهم يلتزمون الجادة ، ويسيرون على صراط ربهم المستقيم ، ازدادوا زهواً وخيلاء ، وتناسوا ما في الدنيا من زخرف ، وما في أهلها من مظاهر ، وما يحيط بها من فتنة وقالوا ما كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا هم إن العيش عيش الآخرة » .

وفكرة خلود الخلق في الدنيا بما قدموه من أعمال ، وما قاموا به من جهود ، وما بذلوه من معروف ، وما ادخروه عنده سبحانه من طاعة .. فكرة لم ينكرها الدين ، لأن يوم القيامة وإن كان ظرفاً للجزاء ، ومجالاً للثواب .. إلا أن تردد اسم الموت ، وخطوره بالبال ، وجريانه على اللسان ، إلى جانب كونه نوعاً من الجزاء العاجل ، يغري بالخير ، ويدفع إلى العمل الصالح ، ويحبب في صرف الجوارح لله الذي خلق السموات والأرض .

وكما تكون العظمة في العمل للآخرة تكون كذلك في العمل للدنيا ، غير أن عمل الدنيا العظمة فيه زائلة ، والحديث عنه ينتهي بنهايتها ، ويزول بزوالها ، ولذلك يرشدنا جل جلاله ، إلى العمل الذي ينفع ، والذخر الذي يدوم ، والشرف الذي

يبقى ، إذ يقول « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » . وربما مر بالخاطر أن ثواب الأعمال على قدر ما يحصل منها من فائدة في الدنيا . أما أعمال الآخرة فأمر تعود على العامل وحده ، وأجدر بها ألا تكون من العظمة في شيء . والصحيح أن العمل الصالح في ذاته يعظم به الأجر ، ويزيد به القدر ، ويكثر به الذخر ، وأفضل الأعمال في باب الطاعة ، ما كان أكثر عائدة على الناس ، لأن الأصل في التكاليف أن يتهذب بها المسكف ليكون إلى الملائكة أقرب ، وإلى الخير أشد ميلا .

وبعض الجاهلين يروق له الخلود مطلقا بصرف النظر عن نوعه من الخير أو الشر ، ولا يعنيه من العظمة ، إلا أن يكون حديثا معادا ، وذكرى منقولة ، متناسيا أن خلود الشر شر الخلود ، وترداد الذكر بالسوء من أخبث أنواع السوء ، فاللهم وفقهم لفهم الأشياء ، وارشدهم إلى الصراط السوى ، وبصرهم بالحقائق ، وجنبهم مزلق الشيطان ، واهددهم فإنهم لا يعلمون ؟

من الشعر حكمة

قدم العلاء بن الحضرمي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : هل تروى من الشعر شيئا ؟

قال : نعم !

قال : فأشدني ، فأشدته :

تحبب ذوى الأضغان تسب نفوسهم	تحببك القربى فقد ترقع النعل
وإن حسدوا بالكفر فاعف تكرما	وإن غيوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه سماعه	وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

عجالات مع النفس :

انى صائم .. !

بفضيلة الأستاذ كامل محمد عجمه

المدرس بالأزهر

هذا هو المضطرب الصاحب ، وذاك هو التكالب المريح ، والتطاحن الدائب ، فانزل إليه وساهم فيه ، وألق دلوك في الدلاء ، وخذ في العلائق ، وتعلق بالأسباب : أسباب التشاؤم الذى خدع الناس ؛ واصطنعه بعضهم ، وعاش منه وعليه وله ... هكذا هجست وتلهظت النفس ... غير أنى وقفت وهى تراودنى وتطارحنى الهمهمة ، وكادت قناتى تلين حين أشارت إلى أناس يعدهم الناس من الاختيار ، ويحسبهم الغبي من الاتقياء .

وكادت قناتى مرة أخرى تن ...

ثم عدت إلى النفس أسمع حسيستها ولا أجيب ، وتغلى أهواؤها ولا تفور وجعلت أتصنع الوعى عنها والفهم ... وجعلت تؤزنى أزا وتهزنى هزا ، وأخيرا قلت لها بعد أن قالت لى :

أيتها النفس : أجلى شغفاً ، وهونى عليك . أيتها النفس : إنى صائم ، — نعم ... أنت صائم ...

أعرف هذا من حرمانى . . تمسك عن الطعام والشراب ؟

وضحكت من نفسى وأثخنيتها باللوم ، وأرهقتها من سخرىاتى ، ودميت جوانبها ، كأنما أحارب عدوا يشهر سلاحه فى وجهى .

— أيتها النفس ، صومك عن الطعام والشراب بعض ما فى الصوم من تكليف أيتها النفس : لا حاجة لله فى هذا اللون من الحرمان ، أن جريت فى ميدان "خب" فيه غيرك ووضع .

أيتها النفس : لا تذكرى الأهواء وأنت صائمة ، ولا تجرى وراء الخدع وأنت صائمة ، ولا تخوضى فى حديث اللاهين وأنت صائمة ، ولا تمدى عيناً وأنت صائمة ، ولا تجهرى أو تخافتى بضغينة وأنت صائمة ... ولا ولا ..
وهنا شذعت النفس قائلة : قدك قدك :

— كنت أحسب الصوم ...؟

ولم أدعها تهجس بما عندها من باق وما فى قراراتها من قول ... بل رحت فى نشوة المنتصر أغرقها فى خضم من معانى الروح وصفاء القلب ، وأسوق إليها طرائف و طرف من طيب بالغ فى العظة والتذكير حتى إذا اطمانت . وأخذها صحو الاعتبار كسرت من شوكتها وألقت إلى السمع .

— أيتها النفس : نهارى نهار الناس وليلى ليلهم ، ولكن وراء الليل والنهار صوم تمرن عليه فى شهر لتذكره فى كل شهر ولتعمل به آناء الليل وأطراف النهار .
ذاك هو الصبر على المسكاره والترفع والإبقاء على نعمة العقل وحسن الرضى وصحة رأى ، وتوثيق العقيدة ، والتعلق بحب الله ورسوله ، وإفساح الصدر ، حتى يطرد منه ضيق الجاهلية ، ودعوة الحق ، وغرور المدعين ، وصخب المبطلين .

— أيتها النفس أنى صائم .. وأنت ..؟

— إني صائمة ..

— تصومين أيتها النفس ؟

— نعم أصوم النهار وأقوم الليل !

— يا عجباً ..!

— ولم العجب ..؟

— أعرف النفس أماره بالمطامع ، همازة مشاءة إلى كل ما يردى ..

— تعرِفْنِي ولكن ؟

— ولكن ماذا ..؟

— إنه الصوم ، وإنها فطرة طيبة ، إذا فُتِحَتْ أبوابها غُلقت منافذ الشيطان وقطعت دابر الفتنة ، واطمأنت الروح من غاشيات قاسية قاصمة .

وصامت النفس أبد الحياة ، وحزمت على صاحبها مسالك الطغيان والجور
وفي زحمة الانتصار على النفس ، تنفست وتلفت فإذا الحياة جميلة ، وإذا طوب
الصوم تلفى ، ولا أجد في حرمانه غير طلاوة الهدوء ، وسكينة الاطمئنان ، وراحة
الامل ، وبشرى السلامة من عقاب الله ، وفي ظل اللياذ بعفوه ورجاء مثوبته ،
والطمع في رحمته التي وسعت كل شيء .

أيتها النفس : « أنى صائم » .

أيها القلب : وأنت طول الدهر صائم ، فإلى مائدة الروح . إليها . إليها ..

وأما حاجات النفس ، فإلى أطواء الحرمان ، حتى نلقى الله الذى يتولى السرائر ،
ويضع الموازين فى ملتقى لا ينفع فيه إلا سلامة القلب ، وصوم الدهر عن زیوف
زخرفتها أنامل الخدع ، ورقشتها ريشة لوت فى طلائها ، فتانُ الأبالسة ،
وُفتن الشياطين .

أيتها النفس .. هل تلاقينا .. ؟

أكبر الظن بل عين اليقين أنى وإياك لختلفان ..

أيتها النفس هذا حداء الصائم فى بيداء الحياة ، ولعلك تذكرين غنوة الصحراوى
الذى صحب ناقته إلى هدف يحبه ، وسمع حنين الناقه إلى ما خلفته ، فراح يشكو
وهى تشكو ... وراح يحن وهى تحن ، وكل يغنى على ليله ..

هوى ناقتى خلقى وقدامى الهوى وإنى وإياها لختلفان

أيتها النفس هنيئاً لى ولك صوم شهر ومران دهر ...

هنيئاً مريئاً غير هاجسات مخامرة أيتها النفس « إنى صائم » ؟

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

أما بعد ، وأما بعد ، وبعد .

تورد (أما بعد) في معرض الانتقال من موضوع إلى موضوع . قال الزجاج ^(١) : « إذا كان الرجل في حديث فأراد أن يأتي بغيره قال : أما بعد . ويذكرها علماء ^(٢) البديع في الكلام على الاقتضاب ، وهو الانتقال من حديث إلى حديث لا يلائم . والاقتضاب مذهب الجاهليين ومن يليهم : لا يتأثرون في الحديث ، ولا يتكلفون مراعاة التناسب فيه . ويذكر البديعيون : أن الاقتضاب في (أما بعد) يدنو من مقام التخلص ، في أنه يشوبه شيء من المناسبة .

واشتهر إيرادها في الخطب بعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - ، وكذا في صدور المصنفات والرسائل . قال ابن حجر : « ولا ^(٣) تختص » (أما بعد) بالخطب ، بل يقال أيضاً في صدور الرسائل والمصنفات .

وقد وردت (أما بعد) في خطب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ورسائله . وعقد البخاري في أبواب الجمعة من صحيحه باباً أورد فيه ستة أحاديث فيها أما بعد . وفي فتح الباري : أن هذا اللفظ ورد في أحاديث أخر ، وأن الحافظ عبد القادر الرهاوي تتبع طرق الأحاديث التي وقع فيها (أما بعد) . ومن هذه الأحاديث ما روى عن المسور بن مخرمة : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا خطب خطبة قال : أما بعد . قال ابن حجر : « وظاهره المواظبة على ذلك » وقال ابن ^(٤)

(١) أنظر فتح الباري ، في أبواب الجمعة

(٣) فتح الباري في أبواب الجمعة

(٢) أنظر التلخيص وشروحه في آخر البديع

(٤) أنظر طبقات الشافعية ج ١ ص ١٠٨

السبكي في الطبقات : « ولو ذهبت أسند ما وقع من الأحاديث والآثار في (أما بعد) إطلال الفصل وخرج إلى الملal ، ودخل به السامع في الكلال » .

وقد أخذ العلماء من هذا استحباب (أما بعد) في الخطب والرسائل . قال الزين بن المنير : « ينبغي للخطباء أن يستعملوها تأسيساً واتباعاً » ، وقال النووي في شرح مسلم في أبواب الجمعة في الكتابة على حديث فيه هذا اللفظ : « فيه استحباب (أما بعد) في خطب الوعظ والجمعة والعيد وغيرها ، وكذا في خطب الكتب المصنفة . وقد عقد البخاري باباً في استحبابه . وذكر فيه جملة من الأحاديث ، وإذا كان التارئة لا يخالجه شك بعد هذا الحديث في رفع (أما بعد) إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد يدور بخلده هذا السؤال : هل قيلت قبله ، وهل يحيط العلم بأول من قالها ؟

ولا يكاد الباحث يرى من يسند أوليتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكأن مما لا ريب فيه أنها قيلت قبله ، ولم أقف على نص وردت فيه قبل العهد الإسلامي .

وللعلماء جولات واسعة في أول من قالها ، حتى ليسندها بعضهم^(١) إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام ، ففي بعض الحديث : لما جاء ملك الموت إلى يعقوب - عليه الصلاة والسلام - قال يعقوب في جملة كلامه : أما بعد ، فإننا أهل بيت موكل بنا بالبلاء . وظاهر أن هذه الحكاية إن صحت ، حكاية لما قاله يعقوب وترجمة لمعناه بالأسلوب العربي ، ولا يلزم أن يكون في لغته ما يقابل (أما بعد) . وقد قيل إن (أما بعد) هو فصل الخطاب الذي أوتيه داود عليه الصلاة والسلام ، وإنه أول من نطق بها . قال ذلك بعض المفسرين أو كثير منهم ، قال النووي : « وقال المحققون : فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل ، وابن الأثير في المثل السائر لا يرى ما يراه النووي ، فهو يقول : ^(٢) « والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه - يريد فصل الخطاب - أما بعد ؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر

(١) العيني في شرح البخاري في أبواب الجمعة .

(٢) أنظر النوع الثالث والعشرين .

ذی شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله : (أما بعد) ، وقد يكون ابن الأثير لا يعنى فصل الخطاب الذى أوتيهِ داود عليه الصلاة والسلام .

ويرى بعضهم أن أول من قالها يعرب بن قحطان ، وبعضهم أنه 'قَسَّ ابن ساعدة . وبعضهم أنه سحبان وائل ويوردون له :

لقد علم الحسنى اليمانيون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وسحبان هذا من وائل القبيلة التيسية ، وقد أورده ابن حجر فى الإصابة ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق غير مذکور اسم أبيه . ونسبه صاحب بلوغ الأرب فقال : هو سحبان بن زُفَر بن إياس الوائلى وائل باهلة . وأيا ما كان الأمر فلم أر أحداً جعل أباه وائلا ، وإنما يضاف إلى وائل ، فيقال سحبان وائل لا سحبان بن وائل ، ومن ذلك البيتان المشهوران :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بيانا وعلماً بالذى هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العبيء لما أن تكلمَّ باقل

وقد أردت بهذا أن يتنبه لخطأ توارد عليه الكتّاب فى (أما بعد) ، فهم يقولون : سحبان بن وائل . ترى هذا فى طبقات الشافعية وفتح البارى وشرح العيني للبخارى وغيرها . وفى الإصابة أن المعروف من أمر سحبان أنه جاهلى ، ونقل عن ابن عساكر أنه عُمَر حتى وفد على معاوية رضى الله عنه ، فإذا صح هذا وصح أنه قال البيت السابق قبل الإسلام برّد فى يدنا نصٌّ بها قبل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن فى عزو هذا البيت إلى سحبان بعض الشيء ، فإن سحبان مضرّى ؛ إذ ينتسب إلى قيس عيلان بن مضر ، فما باله يفخر بالخطبة فى الحسنى اليمانيين ، والخطيب إنما يفخر فى العادة بالخطبة فى نادى قومه .

ووردت صيغة أخرى حيث تورد (أما بعد) هى : « وأما بعد ، بزيادة الواو . ومن هذا قول ^(١) الشاعر :

(١) أنظر البيان للجاحظ ١٠٥/٣ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية

وإن جئت الأمير فقل : سلام عليك ، ورحمة الله الرحيم
وأما بعد ذاك فلي غريم من الأعراب ، قبّح من غريم !
وقول صاحب المفتاح : « وأما بعد فإن خلاصة الأصلين ، .

واشتهرت بعد صيغة أخرى أضحت هي المتداولة في الخطب والرسائل
والقصص ، وهي (وبعد) . وقد صارت هذه الصيغة أجرى على الألسنة
والوط بالافتدة .

وقد جرى في شأن هذه الصيغة الأخيرة حديث بين الباحثين ، وأنكرها
بعض الفضلاء .

وفي الحق أن هذه الصيغة لم ترد في المأثور من الكلام القديم . وأقدم ما وقفت
عليه في ذلك قول ^(١) الجاحظ : « وبعد فهل قتل ذؤاب الأسد عتية بن الحارث
ابن شهاب إلا وسط الليل الأعظم حين تبعوهم فلاحقوهم » . وما ينبغي أن يتنبه
عليه في هذا الموطن أن الجاحظ أتى بهذه الصيغة في معرض الفذلكة للكلام السابق
وإجمال ما أسلف من تفصيل . فقد كان يتحدث قبل عن قتال العرب بالليل ، ويرد
فرية من زعم أن العرب لا تعرف هذا الضرب من القتال ، ثم أورد هذا الحديث .
وكذلك ورد هذا اللفظ أيضاً في كلام ابن جنى . ففي ^(٢) الخصائص : « وبعد فقد
صحّ ووضح أن الشريعة إنما جاءت من عند الله تعالى ، وفيها أيضاً ^(٣) : « وبعد
فإذا عرف التوكيد لم وقع في الكلام ، نحو نفسه وعينه وأجمع وكله وكلهم وكلهما
وما أشبه ذلك عرفت سعة المجاز في هذا الكلام ، ويقول ^(٤) أيضاً فيها : « وبعد
فهذا مذهب الشعراء : أن يظهروا في هذا ونحوه شكاً وتخالجاً ليروا قوة الشبه
واستحكام الشبهة ، والقارىء لكلام ابن جنى يرى أنه استعملها أيضاً في الفذلكة

(١) البيان ٩/٣

(٢) ١٥١/١ وهو الجزء المطبوع

(٣) الجزء الثاني (لم يطبع بعد) في « باب المجاز إذا كثر الحق بالحقيقة ،

(٤) الجزء الثاني « باب إقرار الالفاظ على أوضاعها الأول ،

كما استعملها الجاحظ . وقد يرى الباحث أن هذا ليس يبعد من الغرض الأصلي للصيغة الأصلية (أما بعد) وهو الانتقال من موضوع إلى آخر ، ففي الفذلكة الانتقال من التفصيل إلى الإجمال ، وبينهما بعض التغير والاختلاف ، فكأن المنقل من أحدهما إلى الآخر منتقل من موضوع إلى موضوع ومن حديث إلى حديث .

ويبدو أن العلماء كانوا يرون في هذه الصيغة الحادثة أنها صورة للأصل : «أما بعد ، وهم لهذا كانوا لا ينكرونها . ويقول ابن حجر في الكلام على (أما بعد) « وقد كثرت استعمال المصنفين لها بلفظ (وبعد) » بل يرى بعضهم أن لها حكم (أما بعد) في الاستحباب ؛ إذ كانت فرعاً عنها ، ويثبت للفرع حكم الأصل . وقد ألف الشيخ أحمد بن موسى العدوي المالكي ^(١) رسالة لطيفة سماها : «عائدة الورد ، فيما يتعلق بالكلام على (وبعد) » رتبها على سبع مقالات ، وجعل المقالة الخامسة في حكم الإتيان بها ، ويقول في هذا المبحث : « فيندب الإتيان بها ؛ قياساً على أصلها الذي كان يأتي به عليه الصلاة والسلام في خطبه وكتبه وهو (أما بعد) ؛ كما هو الثابت في صحيح الخبر عن الأئمة والأثر ؛ لأن ما ثبت للأصل ثبت لفرعه » . وقد يناقش هذا القياس ؛ فلا استحباب إنما عماده التأسي بالرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لا يتحقق إلا باتباعه في اللفظ الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بعينه ونصه ، فإذا جرى بلفظ آخر كان حراً ألا يكون هذا اتباعاً ، وإن كان بسبب مما جاء به ، وليس هناك ما يدعو إلى تجنب اللفظ الذي أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الرغبة في الاستخفاف .

والناظر في الصيغة من جهة العربية يرى بعدها الفاء حيث لا موجب لها . وهنا تشعبت آراء العلماء ، فيرى فريق أن هذا المقام لما ألف فيه (أما بعد) أضحت (أما) فيه عالقة بالنفس وإن سقطت في الكلام ، فـ (أما) وإن لم توجد حساً فهي موجودة وهما ، وعلى ذلك جاءت الفاء ، والوهم يترتب عليه آثار لسانية كثيرة ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

(١) هذه الرسالة في مجموعة في دار الكتب الأزهرية . انظرها في فهرس النحو .

بدالى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

حيث جر (سابق) على توهم الباء فى (مدرك). ومن ذلك جمعهم مسيلاً من السيل - على مسلان ، توهموا مسيلاً فعيلاً ككثيب ورغيف ، فجمعوه على فعلان ، وإنما مسيل مفعّل . وقالوا : تمسكن وتمنل وتمدرع على توهم إصالة الميم ، وهى - لا محالة - زائدة ، ما كان لها أن تثبت فى بناء الفعل . على أن هذا رأى قد لقي نقداً وإنكاراً ، ويقول ابن عابدين^(١) : « وأما توهم أمّا فلم يعتبره أحد من النحويين ، وكأن ذلك لأن التوهم المذهب فيه السماع ، ولا يتوسع فيه ، ويقتصر به على ما ورد عن العرب .

ويرى بعضهم أن الكلام على تقدير أمّا فى الكلام . ويشترط الرضى لتقدير أمّا فى الكلام بعد الواو أن يكون ما بعد الفاء أمراً أو نهياً ، وما قبلها منصوباً به أو بمفسر به ، كما فى قوله تعالى : وربك فكبر . ويتكلف بعضهم تخريج ما هنا على مذهب الرضى فيتمدر فى الكلام محذوفاً .

ويرى بعضهم أن الواو نائبة عن أمّا ، ومن ثم جاءت الفاء . وبها الغنز بعضهم فقال :

وما واو لها شرط يليه جواب قرنه بالفاء حتما ؟

فأجابه^(٢) بعضهم بقوله :

هى الواو التى قرنت بـعـد وأما أصلها ، والأصل مهما

وأيا ما كان الأمر فقد يخرج القارىء من هذا البحث بصحة « وبعد » عربية وأنه ليس من الخطأ استعمالها . وللمصنفين سلف فى الجاحظ وابن جنى ، وهما من هما فى التحرى للعربية والعلم بها .

(١) الرسائل ٦٩/١ .

(٢) أنظر حاشية السجاعي على القطر فى الخطبة .

سنة نوار المنى طوطات

المجمع المؤسس للمعجم المفهرس

لفضيلة الاستاذ الشيخ أبو الوفا المرافى

مدير مكتبة الأزهري

من مفاخر علماء المسلمين السابقين إبان نهضتهم الفكرية أمانتهم العلمية التي يدهش لها المنصفون من علماء العصر ويقدرونها قدرها بين الفضائل العلمية ، وقد كانت هذه الأمانة تغلب في نفوسهم كل عاطفة مهما اشتدت ، إذ كان الأب يهتم في سبيلها ابنه إذا رأى منه ما لا يتفق وتلك الأمانة ، وقد جاء عن بعض علماء الحديث أنه كان يقول عن ابنه : « لا تثقوا بروايته » ، وبما يعد من مفاخرهم أيضاً وفاؤهم لشيوخهم وإجلالهم واعترافهم بالفضل عليهم . ومن مآثور الحكم : من علمني حرفاً صرت له عبداً .

وقد دفعت تلك الأمانة العلمية بعض العلماء - وبخاصة علماء الحديث - أنه يسجل أسماء شيوخه وما رواه عنهم في أسفار خاصة تعرف بمعاجم الشيوخ ، يحدوهم إلى ذلك عامل الاعتراف بالفضل لشيوخهم ، وعامل الثقة فيما يروونه ، وكأنهم بذلك يقدمون البينات على دعاوهم العلمية .

وفي تاريخ العلوم الإسلامية شيء من هذه المعاجم أو الفهارس ، ومن أحسن ما عثرنا عليه في ذلك : المجمع المؤسس للمعجم المفهرس للعلامة ابن حجر ، وهو مجلد ضخم دون فيه أسماء شيوخه الذين روى عنهم الحديث . وموضوعات هذه المرويات أو أجزاءها ويقع في ١٦٠ ورقة عدا ورقين ملحقين بآخره ، وعدا بعض طيارات في وسطه (ورقات صغيرة ملحقة ببعض ورقاته) وقد ذكر أسماء شيوخه مرتبة على حروف المعجم وقسمهم على طبقات أشار إليها في خطبته كما يأتي :

وهو بخط ابن حجر نفسه والمسودة الأولى له ، لذلك تكثر فيه الكتابة على الهامش تكملة أو تصحيحاً أو تهذيباً لما في الصلب وهو عسر القراءة لعدم جودة

الخط وندرة النقط والإيجام في أكثر كلماته كمنهاج عصره في الخط ، وقد ابتدأ في وضعه سنة ٨٠٦ هـ وفرغ منه سنة ٨٢٩ هـ .

وابن حجر هذا من أشهر علماء الحديث رواية ودراية في عصره ، وله طائفة كبيرة من الكتب في علوم الحديث ، وله الشرح المشهور على صحيح البخارى . . فتح البارى . وقد أجمعت التراجم على غزارة علمه وجلال قدره ، كما أجمعت على صلاحه وتقواه قال العلامة السخاوى في ترجمته في التبر المسبوك : . هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن أحمد السكمانى العسقلانى الأصل المصرى الشافعى ، حافظ العصر . علامة الدهر ، شيخ مشايخ الإسلام ، حامل لواء سنة خير الأنام ، قاضى القضاة ، أدق الحفاظ والرواة ، باشر القضاء بالديار المصرية استقلالاً مدة تزيد على إحدى وعشرين سنة بأشهر تخللها ولاية جماعة . والتدريس بعدة أماكن في التفسير والحديث والفقه والوعظ وخطب بجامعى عمرو والأزهر وغيرهما ، وأمل ما يذيف على ألف مجلس من حفظه ، وزادت تصانيفه على مائة وخمسين ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته ، وارتحل له الأئمة وكثرت طلبته حتى كان رؤوس العلماء في كل مذهب وبكل قطر من تلامذته ، وانتشرت جملة من تصانيفه في حياته وتهادتها الملوك والأكابر ، كل ذلك مع تواضعه وحله وظرفه وصيامه وقيامه وورعه ومزيد أدبه مع المتقدمين والمتأخرين ومحبة أهل الفضل والتتويه بذكرهم وعدم اطراء نفسه وركونه إلى هضمها وبذله وكرمه وقد شهد له القدماء بالحفظ والمعرفة وسعة العلم في فنون شتى وشهد له شيخه العراقى بأنه أعلم أصحاب الحديث .

ولد في شعبان سنة ٧٧٣ هـ بمصر وتوفي سنة ٨٥٢ هـ بمصر أيضاً ودفن بالقرافة الصغرى في مشهد لم ير مثله .

ومن خطبة المجمع المؤسس بعد الديباجة : أما بعد : فإنه كثيراً من سلف المحدثين اعتنوا بجمع أسامى شيوخهم وتدوين أخبار كبارهم وتغايرت مقاصدهم في السير فرأيت أن أحذو حذوهم وأسير تلوهم لأتذكر عهدهم ، وأجدد لهم الرحمة بعدهم تجمعت أسامى شيوخى على المعجم مرتباً وقسمتهم على قسمين مذهباً فالأول من حملت عنه على طريق الرواية ، والثانى من قرأت عنه شيئاً على طريق الدراية

وأضفت إلى الثاني من أخذت عنه شيئاً في المذاكرة من الاقتران ونحوهم وقد قسمتهم من حيث العلو إلى خمس مراتب الأولى من حدثنا عن مثل التقي سليمان وأبي الحسن الموالى وأبي الغوث الدبوسى وعيسى المطعم والقاسم بن عساكر وأبي العباس ابن الشحنة ونحوهم وعلامتنا ط ، إشارة إلى أنهم الطبقة الأولى . الثانية من حدثنا عن أصحاب ابن عبد الدايم والتجيب وابن علان ونحوهم وعلامتهم طس ، إشارة إلى أنهم من الطبقة الوسطى . الرابعة من حدثنا عن أصحاب الفخر بن البخارى وابن القواس والأبرقوهى ونحوهم ممن كان يمكننا الأخذ عنهم . الخامسة من أشرت إليه ممن أخذت عنه في المذاكرة أو شيئاً ما لغرض أو نوعاً من العلم أو انشاء أو فائدة ومن ليس عندي عنه إلا الإجازة أو الشيء اليسير باسماع من أهل الطبقة الخامسة من غير استيعاب لهم وترك العلامة لهم علامة الخ .

وبآخر الكتّاب :

.. آخر المجمع المؤسس للعجم المفهرس علقه أحمد بن على بن حجر الشافعى عفى الله عنه وانفق الفراغ منه في يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالقاهرة سوى ما ألحق فيه بعد ذلك وكان الابتداء في كتابة مسودته سنة ست وثمانمائة . ثم جمعت الفهرست منه وزدت فيه أسانيد كتب كثيرة بالإجازة لتكمل الفائدة وكان في شعبان سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة والله الحمد على ما من وأفضل .

تكلف

لى صديق يرى حقوقى عليه نافلات ، وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولا وإليه ثم من بعد طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير واشتهى أن يزيد فى العرض عرضا
وقال صالح بن عبد القدوس فى صديق السوء :

تجنب صديق السوء واصرم حباله وإن لم تجرد عنه حيصا ، فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله يجده وراء البحر ، أو فى قراره
ولله فى عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

رمضان بين الماضي والحاضر

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

شهد ماضى رمضان نهراً عامراً بالإيمان والإحسان ، وليلاً زاخراً بالذكر والقرآن .

ويشهد حاضره نهراً مفتوناً بشهوة البطون ، وليلاً صاخباً بالخلاعة والمجون
شهد ماضيه مُعبّداً فى الأسحار يتلون قرآن الفجر وقد أمسكوا عن شهوات الدنيا وسجدوا لربهم فى المحاريب خاشعين متضرعين يكون من خشية الله ، ويرجون أن يتقبل الله ، حتى إذا صلوا الفجر راحوا يشهدون رزق ربهم ويجاهدون فى سبيل العيش بعد أن أشبعوا الروح من زاد الآخرة .

ويشهد حاضره فى مصر الإسلامية ألواناً متنافرة : عبّاداً وأشباه عباد وأنصاف عباد ولا عباد ، بل تشهد أسماره سكارى عجت بهم بجالس السمر العاثر بين الغيد والكاس ، لا يصيخون لمؤذن الصباح بل لمؤذن الصبوح ، ولا يرعشهم قرآن بل ترقصهم الألحان ، حتى إذا امتدت فى الأفق خيوط الفجر امتد النوم إلى جفونهم فاستلذوا المخادع ، واطمأنوا فى المضاجع حتى الأصيل ، ليستقبلوا ليلة أخرى حمراء وهكذا ينقضى شهر العبادات والطيبات وهم فى لهُو صارخ واستهتار بالدين والأخلاق .

لم يشهد ماضيه فى الضحى مطاعم ولا مقاهى مفتحة الأبواب ، يختلف إليها أولئك الذين فتمدو الحياء وقد راحوا يلتهمون الطعام ويستعذبون الشراب .

أما حاضره فيشهد فى كل شبر صوراً مختلفة الأشكال من المخازى فى مصر الإسلامية ، فالمطاعم والمقاهى فى ضحى رمضان غاصة بالطاعمين الشاربين الذين لا يستحون من الله ولا من الناس .

ومكاتب الوزارات والمصانع والمجتمعات العامة والسيارات كل هاتيك النواحي يشهد فيها رمضان أفواجا من المسلمين يأكلون ويشربون ولا يتوارون عن العيون .
والمنازل يشهد فيها رمضان أوانس وسيدات خفن أن يضعضع الصوم قوتهن أو يذهب نضارتهم فأفطرن صونا للجمال أن يذبل .

ويل لهؤلاء وأولئك يوم ينادى الله . كلها نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب . .

شهد ماضيه فى الأصائل قصور الأغنياء ودور العطاء يهرع اليها المحتاجون والأراامل والمساكين واليتامى حتى إذا امتلأت بهم الساحات شعت عليهم بسمات المحسنين فأنستهم قسوة الحرمان ، وامتدت إليهم الأيدى بالطعام فأنستهم مرارة الجوع وانطلقت حناجرهم بصادق الدعاء يشق الفضاء إلى السماء .

ويشهد حاضره فى الأصائل قصور الأغنياء ساكنة كأنها المقابر لا تسمع حولها دعاء محسن ، ولا دعوة بائس ، ولا تمتد يد محجة من وراء الستائر بلقمة من العيش ترد جوعة صائم ، أو تحقق أمنية حالم ، وحسب البائس أن تثير رائحة الشواء أمعائه ، وتسيل جفاف لعابه ، ليعود إلى بنيه الجياع ، أو زوجته المنطوية على نفسها ، بالدمع بين جفنيه ، والحسرة والحرمان بين جنبيه .

لم يشهد رمضان فى الماضى المرأة المسلمة إلا راعية فى بيتها تقوم على شئونها وترعى حقوق زوجها وبنيها ، وتضحى براحتها فى سبيل هناءة أسرتها

ويشهد اليوم رمضان المرأة المسلمة وقد تنسكرت لبيتها ، وأنكرت زوجها وأبناءها ، وافتتنت بزینتها عن غيرها ، وجرها شيطان الهوى إلى التسكر لكل ماله صلة بالدين والأخلاق ، ولبيتها نسيت أنوثتها وعواطفها ، وخافت وعيد ربها ، وذكرت قول محمد صلوات الله عليه : « نظرت إلى النار فإذا أكثر أهلها النساء ، فما ينجيها يومئذ من عذاب الله جمال ولا مال ولا جاه .

لقد شهد رمضان فى الماضى نفوسا هذبها الإسلام وربطت بينها أخلاق الإسلام بوشائج من الأخوة وأسباب من التراحم والتواد والتعاطف فى قلوب

لا تعرف الشحنة ولا تثيرها البغضاء في رمضان لغير شيء ، ويشهد رمضان الآن منذ الصباح الباكر في مصر صورا من المعارك لا تنتقطع بين الصائمين ، ومشاحنات لا ينطفئ لها أوار حتى كأن الصوم قد كهرب الناس فأجسامهم لا تطيق المساس ، فكم نرى في الأسواق بائعا يثور ومشتريا يفور وفي الوزارات كم نرى رئيسا يرغى ويزبد ومرؤوسا يحنق ويعربد فلم صام هؤلاء وأولئك ، وليس لله حاجة في أن يدعوا الطعام والشراب ؟ إن الصوم الذي لم يهذب النفوس يعذب المجتمع ، فليفطر هؤلاء وليرحموا المجتمع إذا ضعفوا عن جهاد أنفسهم .

ولكم شهد رمضان في الماضي ساعة الإفطار مساجد تموج بالأغنياء والفقراء جلسوا جنبا الى جنب ينتظرون الإفطار ليعلموا أنهم سواء في طاعة الله ، سواء أمام أوامر الله ، سواء في الوقوف بين يدي الله ، أمسكوا معا وأفطروا معا وسيصلون معا ثم ينصرف كل الى ما يسر الله له من طعام راضيا شاكرا ، ويشهد رمضان الآن مساجد الله ساعة الإفطار وقد خلت إلا من فقير أو غريب ، أما صوام الأغنياء فإنهم يستقبلون الموائد عند دوى المدافع ليتخموا بطونهم بلذائذ الطعام ثم يأخذهم الدوار العنيف لكثرة ما قذفوا في معداتهم من أطعمة يشور تفاعلها حتى ينهك المعدة فتكسل ويمتد كسلها الى الجسم فلا ينهض الى صلاة إلا بعد ساعات طوال .

وأما عن ليالى رمضان في الماضي فكم كانت تزدهر فيها قصور العظماء بالأضواء وتفتح أبوابها لكل وافد يسمع آيات الله يرتلها الفقهاء ، وكما كانت تعج القاهرة بالآفواج المتلاحقة من الطارق الصوفية يرددون ذكر الله وهم في طريقهم الى بيت من بيوت الله تفيض قلوبهم بحب الله وتدوى أصدااء أصواتهم فتهتز قلوب الناس إنهم كانوا يعتقدون أن ليالى رمضان أعياد لأنها تجمعهم في عبادة الله .

ويشهد حاضره قصور العظماء تضج بالحفلات، العابثة فهي ليست بالقصور وإنما هي مذابح تنجر فيها الفضائل وتسفل فيها الأخلاق وتذبح فيها النخوة وتموت الكرامة وقد يجر كل ذلك الى فقدان الشرف وهو أعز ما يملك الإنسان .

إن ماضى رمضان قد شهد ألوانا من العبادة والبر ، وإن حاضره ليشهد صورا من الفجور والشر ، فهل أوشكت القارعة يوم يكون الناس كالفراس المبهوث وتكون الجبال كالعين المنفوش .

أيها الصائمون . أذكروا أن محمدا صلوات الله عليه كان يصوم في جو الصحراء اللافح ، فلا تتأثر أحاسيسه بحرارة جوها فيثور ويغضب بشيء أو بغير شيء ، وأنه كان يفطر على تمرات لا تتم صلبا ولكن القناعة كانت تشبعه ، فهل لكم في رسول الله أسوة حسنة تأتون بها .

إن مصر التي تفخر بماضيها وتذكر مجدها خليق بها أن تنزع إلى الدين وتعود لتجدد ما يلي من أخلاق ، فإن المجد المنشود لن يصل إليه إلا إذا أضأنا سبيله بأخلاقنا ، وإن نفوسنا المظلمة وأخلاقنا المظلمة لن تصل بهما إلى عزة نريدها أو آمال نبتغيها .

إن آلاف المحرومين تغلى صدورهم ، وتتصاعد زفراتهم إلى السماء تشكو إلى الله بخلكم ، فاتموا شكاياتهم فليس بينها وبين الله حجاب .

لكأنى بالساعة وقد قامت ونصبت الموازين فرحمتم تنقبون بين أعمالكم عن صومكم فلم تجدوه ، لأن ربكم لم يتقبل عمل المتبرم الساخط ، أفهل حسبتم أن ربكم في حاجة إلى عبادتكم ؟ إن الإنس والجن لو صاموا الدهر كله ما زاد ذلك من جلال الله شيئا ، وأن الإنس والجن لو كفروا بالله وبرسالات الرسل جميعاً واتخذوا آلاف الأرباب ما نقص ذلك من عزة الله شيئا .
حساب الله عسير فاتقوا الله .

ذكاء

قال الشيباني خرج أبو العباس أمير المؤمنين بالانياز فأمعن في نزهته وانتبه من أصحابه ، فوافى خباء لأعرابي فقال له الأعرابي : بمن الرجل ؟ قال من كنانة ؟ قال من أى كنانة ؟ قال من أبغض كنانته إلى كنانته .

قال : فأنت إذن من قريش . — قال : نعم .

قال : فمن أى قريش ؟ — قال : من أبغض قريش إلى قريش .

قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب — قال : نعم .

قال : فمن أى ولد عبد المطلب أنت ؟

قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب

قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فاستحسن ما رأى منه وأمر له بمجازة .

الحياة الأخرى

عن سيد أمير علي *

اميرناز عمر طلعت زهراته

أستاذ في الآداب

[يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية]

[مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي .]

تحدثنا في المقال السابق عن فكرة الوجود الثاني عند قدماء المصريين واليهود والزرذشتيين ، ثم عن عقيدة اليهود في المسيح المنتظر . وتحدث اليوم عن عقيدة الحياة الأخرى في المسيحية والإسلام .

اجتازت أقوال المسيح عدة أطوار من التغير والتبديل ، حتى إنه ليصعب علينا اليوم - كل الصعوبة - أن نميز صحيحها من غثها . ولكننا إن أخذناها كما هي ، وبحثناها كما بحثنا غيرها من الوثائق الدينية [دون أن نتجاهل روحها الحقة ، ودون أن نحاول إيجاد معانٍ مستترة كما يفعل المتعصبون] رأينا فيها نظرية عن نظام جديد ، هي « مملكة السماء » ، تبدو واضحة خلال هذه الأقوال ، وضوحاً يجعلها متميزة عن غيرها من النظريات : ظهر المسيح ، وصارت مملكة الله قاب قوسين أو أدنى ، وهي مملكة ستحل محل المجتمع والحكومة غير الكاملين ، بل والمليئين بالشروع . وكانت كلماته أحياناً ، تجعل تلامذته يرون أن « المعلم » الجديد سيولد ليقود الجائع والفقير إلى المجد والسعادة ، وأن الفقراء والجوعى فحسب ، سيكونون هم السعداء ، وأن العذاب سيحل بالأغنياء والمتخمين . وكانت مملكة الله تفهم في بعض الأحيان على أنها تعني تحقيق الرؤى أو الأحلام الوحيية^(١)

. The Spirit of Islam : Sayed Ameer Aly (٥)

(١) خاصة ما أرسى للفديس يوحنا في جزيرة باطوس .

فيما يختص بظهور المسيح . وقد تكون مملكة الله - في فهم ثالث - هي حكم الأرواح ويكون الخلاص المقرب ، مجرد خلاص روحي من أغلال هذا الوجود الأرضي . وحالت قسوة الفئة الحاكمة . وحالتها العقلية ، وقوة الرومان ، دون إحداث تغيير اجتماعي ، فتلاشت جميع الآمال في تحسين « الحالة الراهنة » ، وتملكت القلوب آمال ورغبات في مستقبل أكثر سعادة . واعتقد القوم أن « بعث » الإنسانية أصبح قريباً^(١) : فيظهر المسيح نفسه من بين ثنایا السحاب ، يأتزر برداء آلهي ، ويجلس على عرش تحف به الملائكة ويحيطه أتباعه المخلصون . وإذ ذاك ينشر الموتى من القبور ، ويجلس المسيح في مجلس القضاء ، ينفذ الملائكة أحكامه . أما الأبرار ففي جنات أعدت لهم منذ بدء الخليقة ؛ وأما الأشرار فإلى نار خالدة معدة للشيطان وأتباعه^(٢) ، حيث يعلو النواح ويشتد اصطكاك الأسنان . و « المختارون » ، وهم قليلون^(٣) . يقيمون في دار ساطعة الضياء ، تمد لهم ولائم حافلة ، يرأسها أب الجنس الاسرائيلي ، ويحضرها البطارقة والأنبياء^(٤) ، بل ويوجد فيها المسيح ذاته^(٥) .

ويتضح من كلمات السيد [المسيح] أن « النظام » الجديد وعودة يسوع الثانية ، والغشور ، إنما هي أمور قرينة الحدوث ، فطالما أكد لسامعيه اقتراب مملكة الله ، وعبث الاهتمام بحاجات هذه الحياة وشواغلها .

وكانت كلمات المسيح تمس شغاف قلوب المريدين ، فإذا بهم جميعاً ينظرون إلى المستقبل في شوق بالغ ، لم ير التاريخ قط ما يفوقه ، منتظرين أن تتحقق [تحققاً حرفياً] هذه النبوءات .

« وإذا كان الجيل الأول من المسيحيين ذوى عزيمة قوية ثابتة ، فذلك لأنهم ظنوا العالم يقترب من نهايته ، وأن « رؤى » المسيح العظيمة ، قرينة الحدوث^(٦) . ثم صارت الكنيسة المسيحية منظمة ، وانتشر أتباعها يذيعون آراءها ، آخذين

(١) ليس ثمت شك في أن المسيح كان يؤمن بالبعث الجسماني وفي الثواب والعقاب البدنيين في الحياة الأخرى ، فطالما تحدث عن المبرورين في مملكته ، يأكلون ويشربون على مائدته .

(٢) متى ٢٥ / ٤١ . (٣) لوقا ١٣ / ٢٣ . (٤) متى ٨ / ٢ : لوقا ١٣ / ٢٨ و ٢٢ / ٣٠ .

(٥) متى ٢٦ / ٢٩ . (٦) ريتان : حياة المسيح ص ٢٨٧ .

بالنظام الإغريق أو الرومان ، حاملين لواء دينهم إلى آفاق كانت مجهولة ، حيث يعيش البرابرة ، الذين تركوا - بالكاد - غاباتهم ، ورأوا في المسيح ومريم صورة أخرى لآلهتهم التي كانوا يعبدونها .

ظل العالم المسيحي يهزه الشوق ، وتحرقه الرغبة ، كلما ناء بحدثان الزمان - إلى ظهور [المسيح] ، وأخذت فكرة « حكم الله » ، بمرور الزمان وتطور التفكير إما صورة روحية ، أو عفت آثارها من بعض العقول ، أو ركبها الزيادات ، فأخذت تستقى صفات جديدة من بيئات المؤمنين الجدد ، فوجدت في المسيحية أثار كلدانية ومجوسية زردشتية وأفلوطينية ، غيرت جميعها من المعتقدات القديمة وصبغتها صبغة جديدة .



كانت ثمت فكرة في المسيحية ، شجع رجال الدين على انتشارها ، وهي أن محمداً صلى الله عليه وسلم ينكر وجود أرواح للنساء ، ولكن هذه الفكرة اندثرت ، وإنها لفكرة خبيثة ابتدعت لخلق روح الكراهية ضد الإسلام . ولا زال المسيحيون يؤمنون بأن النبي العربي وعد أتباعه المؤمنين بجنة حسية بها الحور ، وبها ملذات تتفاوت درجاتها ، ولكن هذا الفهم إنما تأتى عن الجهل والمغالطة .

ولكن من الضروري - نظراً للبيئة التي نزل فيها القرآن - استعمال أساليب تتفق وعقل سكان الصحراء ، فكان هذا الوصف الذي يسترعى انتباههم ، ولكنه كان صورة جانبية ، يتلوها الجوهر ، وهو عبادة الله في خشوع وحب ولنا نستطيع أن نقول إن الأوصاف الواردة للجنة والنار كانت حسية ، ولنا نستطيع القول إن محمداً صلى الله عليه وسلم أو أحداً من أتباعه - حتى أبعدهم في فهم القرآن فهما حرفياً - كان يقول إنها مبنية على الحواس ، لا العقل أو الروح .

والنظرية الرئيسية السائدة في الإسلام - فيما يختص بالحياة الثانية - إنما تنبى على اعتماد أنه على كل كائن بشرى - في حالة الوجود الآخر - أن يقدم حساباً عن أعماله في الأرض ، وأن سعادة الفرد أو شقاءه ، آنذاك ، إنما تترتب على الطريقة التي أدى بها هذا الفرد حقوق خالقه .

أما رحمته ونعمته [تعالى] فليس لها حدود ، يضفيهما على خلقه . هذا هو المحور الذى تدور حوله نظرية الحياة الثانية فى الإسلام ، بل وهذه هى النقطة العقيدية الوحيدة التى على المسلم أن يؤمن بها ويقبلها ، أما ما عدا ذلك من عناصر أضيفت إليها وأخذت من تقاليد الأجناس والشعوب فإلى ما لا مجرد زيادات ، وإن نحن تركنا جانباً مسألة الموضوعية الموجودة فى جميع النظريات عن الثواب والعقاب المستقبليين ، أو بقول أدق نظريات حياة ما بعد الموت ، فعلينا أن نذكر جيداً أن هذه النظريات أمدت د معلى ، العالم الأخلاقيين بأقوى سلاح يؤثرون به فى سلوك الأفراد والشعوب : فالفضيلة - لذاتها - يمكن أن تقبلها عقول النخبة الممتازة ، أما المتوسطون وغير المتعلمين فلا بد من أن نقرن الفضيلة لهم بالثواب والعقاب .

ولن الآن طبيعة هذا الثواب والعقاب ، على أن نتذكر أنه يندر أن تتمكن من أن تنقل فكرة عن لذة روحية أو ألم روحى إلى أفهام غالبية البشر دون أن نلبس تعابيرنا رداء حسيّاً ، أو أن نقدم فى وصف هذه اللذة أو ذلك الألم موضوعات حسية . وطالما استعملت الفلسفة التعبيرات المجردة ، دون أى رداء محسوس ، وقد كان لهذه التعبيرات والأفهام [الفلسفية] يوم ازدهرت فيه ، ثم ماتت دون أن يشعر بها أحد خارج دائرة العلماء الحالمين الذين كانوا يعيشون ، فى غموض غير محدود ، داخل أفكارهم .

أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان ينقل الدين ، لا للعقول الراجحة الممتازة من المفكرين المثاليين الذين تصادف وجودهم ، فحسب ، وإنما للعالم المتسع حوله ، المؤثر بالسادية بكافة أنواعها ، وكان عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم . فالعربى الجائع ، ماذا عنده أجمل وأحلى ، أو أكثر توافقاً مع تفكيره عن الجنة ، أكثر من أنهار تجري فيها المياه ويجرى اللبن والعسل ، وهل يود أن يرى إلا الفاكهة والخضرة الدائمة والخصب المثمر ؟ إنه لا يستطيع أن يتصور نعمة لا تصحبها هذه الملذات المستمدة من الحواس .

هذا هو رأى جماعة من المسلمين يرى - كما يرى السنائى والغزالى - أنه وراء السعادة المادية ، المصورة فى محسوسات كالاشجار والأنهار والدور الجميلة والمحور

العين ، يوجد معنى أعمق ، وأن لذة اللذات إنما توجد في رؤى النفس المبرورة في حضرة الحق حين يرفع الحجاب بين الرب والعبد ، وتجلي الذات على العقل بعد أن يتخلص من شوائب الجسد وأدران الدنيا . وهم في هذا يتمثلون بكلمات القرآن والحديث ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه - إن أحب الناس إلى الله هو من يرى وجهه تعالى صباح مساء ، فيشعر بسعادة تفوق كل مسرات البدن ، كما تفوق مياه المحيط نقطة العرق . وحدث أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما يرويه عن ربه : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال اقرأوا إن شئتم . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ، ^(١) . وثبت حديث آخر صرح فيه النبي صلى الله عليه وسلم : أن الإرادة الطيبة تتمتع بقرب الله ، وهي التي عناها القرآن بقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ^(٢) .

أما التعبيرات الصريحة في القرآن ، فإن هذه الجماعة من المفكرين تفسرها على ضوء الآية السكريمة من الكتاب الحكيم : « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات [وانحجث للفهم] ، هن أم الكتاب ، وآخر متشابهات » ^(٣) .

وتوجد فرقة تنظر إلى مسرات الآخرة وعذابها نظرة موضوعية إطلاقاً ، فهي ترى أنه لما كان الألم العقلي [المعنوي] الشديد أكثر عذاباً من الألم الجسدي ، فكذلك يكون السرور العقلي [المعنوي] ذا طبيعة أعلى ودرجة أسمى من أى لذة جديّة . ومن هنا « ترجع » [إذا استعملنا اللفظ القرآني] الروح الفردية بعد الموت البدني إلى الروح الكلية ، فإن جميع المسرات والآلام التي صورها النبي [الموحى إليه] في صور حية مثيرة ، ليتمكن العوام من فهم حقيقتها ، إن تكون إلا عقلية وموضوعية . وتتضمن هذه الفرقة بعض كبار الفلاسفة والمتصوفة المسلمين .

وفرقة أخرى ، وربما كانت الأكثر عدداً ، تعتقد في حرفية الالفاظ القرآنية .

(١) السجدة ٢٢ / ٧١ .

(٢) سورة آل عمران ٧ / ٣ .

(٣) سورة يونس ١٠ / ٢٥ - ٦ .

تدرج القرآن بالإنسان من المعانى الحسية إلى المعانى الروحية ، مسائراً قدرة معتققي الدين الجدد على التخلص من حياتهم المادية ، وبالتالي قدرتهم على فهم الحياة الروحية . إن سعادة الأبرار إنما تكون في السلام الدائم والإرادة الخيرة في حضرة الحق : « إن المتقين في جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ^(١) » .

إنما أردنا هنا أن ندلل على فساد النظرية التي تقول بأن صور القرآن عن الحياة الأخرى كانت كلها حسية ، وحسبنا دليلاً هذه الآية من القرآن الكريم ، لنرى عمق الروحية في الإسلام ، ونقاء الآمال وطهر الاتجاهات التي تنبئ عليها قوانين الحياة .

« يا أيها النفس المطمئنة . إرجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ^(٢) » .

الموصلى

كان محمد بن دانيال بن يوسف الطبيب صاحب نثر رقيق وشعر طريف وكان يعتمد على النكات في شعره فيجىء مروحاً للنفوس . من شعره :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى	ما في يدي من فاقة الأيدي
في منزل لم يحو غيرى قاعدا	فاذا رقدت رقدت غير ممد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة	ومخدة كانت لأم المهتدي
ملقى على طراحة في حشوها	قل كمثل السمسم المتبدد
والفأر يركض كالخيول أسابقت	من كل جرداء الأديم وأجرد

موقف الاسلام من الفقراء

لفضيلة الاستاذ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

دعا الإسلام الى المبادئ الإنسانية القوية التي تهدف الى خلق أمة قوية متماسكة تشيع بين أفرادها أسس المبادئ الخلقية التي تتمثل فيما تفيض به نفوسهم ، من محبة خالصة ، وود صادق ، وتعاون حق ، وأخوة أكيدة ، حتى غدا المجتمع الإسلامي الأول ، مجتمعاً مثالياً ليس فيه نأثر آلمه الجوع ، وأمضه الحرمان ، أو مظلوم أحزنه الإغضاء ، وكاد يودى به الفسيان ، أو ظالم أمن في سربه ، وقد أدمت سياطه الظهور ، وغلت أوزاره الأعناق ، أو غنى طغى ، وبغى لأنه وجد من يمالئه طمعاً في ماله ، وركونا الى جاهه ، ورهبة من سلطانه وذلك لأن الدستور الاسلامي سوى بينهم ، وكفل لهم حقوقهم في حدود واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ورسم لأفراد مجتمعه ، السبيل الواضح الى الحياة الكريمة ، حياة العاملين المناضلين ، وكره منهم نوازع المذلة والمهانة ، وندد بمن يستمرنون السكسل ، ويستطيون المسألة ، ويستسيغون الاستجداء ، ورعاية لهذه الأغراض الثبيلة ، لم يفرض للفقراء حتموقاً على القادرين وأرباب الثروات ، إلا بعد أن دعاهم الى الجد والمثابرة على السعى ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى فيمن يستحقون منهم المساعدة الاجتماعية « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وقد دعا الرسول في قوة وحزم ، الى الدأب على العمل في صدق وإخلاص ، فعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقبلت لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته يقول « من يصبر ، يصبره الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، قلت فما أنا بسائلك اليوم » وفيما رواه الزبير ابن العوام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن يأخذ أحدكم حبلأ فيذهب

فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ، فكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر ما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة » .

ولقد اتبع الفقراء الأولون السياسة التي رسمها الدين ، وأخلصوا في تنفيذها ، وأخذوا أنفسهم على القصد والاعتدال . والقناعة عملا بتوجيه الرسول وامتنالا لإرشاده . وقد أصبحت هذه الصفات عقيدة لهم ، يدينون بها ، ويؤمنون بالإخلاص لها ، ولذلك غدا كل منهم خارجا عن سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكتر إذا وجد ، يدل على صدق ما نقول صنيع عبادة بن الصامت حينما أهديت له هدية ، وإن في الدار إثني عشر رجلا من أهل بيته . فقال عبادة اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهو أحوج بها منا . فقال الوليد بن عبادة . فأخذتها فكلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهو أحوج منا إليها حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

وحينما يعجز الفقراء عن السعي والجد لكسب قوتهم ، لم يتركهم دستور الدساتير هملا يتضورون جوعا ، ويعيشون في الأرض فساداً ، بل وضع لهم نظاما قويمًا دعمه بأقوى الأسس وأثبتها ، إذ فرض لهم على الأغنياء فيهم حقوقا تنفي بحاجاتهم ومطالب وجودهم ، وتفسح لهم في مجتمعهم مكانا لا يحسون فيه فوارق تشكي لها النفس . ويتبرم بها الحس .

ولقد عني بهذه الحقوق أكمل عناية ، وفي غير نص من نصوصه ، ولم يفرق بين المسلم وغيره تنديسا للتسامح الذي ينهض أكثر من دليل على أنه من مميزات هذا الدستور . ورصد للوفاء بشئون الفقراء ، يستوى منهم من عجز عن العمل ، ومن عدت عليهم عوادي الأيام ، وحلت بهم صروف الزمن ، ومن ضاقت مواردهم على أن ترتفع حياتهم إلى المستوى الإنساني الذي يليق بهم . رصد لهم بابا موفور الدخل ، هو باب المساعدات الاجتماعية . ولما طبعت نفوس السلف على الخير ، وحب البذل ، والسبق إلى السخاء ، استوى عندهم أن تمتد أيديهم بما أوجبه الدين . وجعله لزاما عليهم . يطالبون بأدائه . وما يفعلونه تطوعا يبتغون به إلى الله التقرب والزلنى . مدفوعين إليه بضمير يقط وحس مرهف .

وقد حذروا بمسارعهم للبذل أن يحقق بهم ما حاق بثعلبة بن حاطب ، وقد وعد أن يتصدق ، ثم نكص على عقبه بعد أن غلبه الشح ، وتمسك منه الضن ، نحاس بعهد قطعه على نفسه أمام رسول الله قال فيه : « فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله سبحانه مالا لأعطين كل ذي حق حقه » . ولما تاب إلى رشده ، بكى ندما وحثا التراب على رأسه ، وفيه يقول تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . ولنكونن من الصالحين . من فضله بخلوا به وتولو وهم معرضون . فآعقبتهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » .

وكان قينا بالمسلمين أن يستجيبوا في صدق إلى هذا النداء الإلهي الحكيم . إذ أحسوا من قائدهم الأمين وزعيمهم الملمهم ، محمد بن عبد الله ، عملا يسبق القول ، ودعوة إلى البر ، تتفقو جودا كالريح المرسلة . يصدر عن قلب رحيم ، أحب الفقراء . ونهض بهم ، وجباهم بفضل من عطفه ، ولفت الأنظار إلى احترامهم . ورعاية أقدارهم حينما قربهم إليه ، وأدناهم منه ، وبالغ في صلتهم ، وسوى بينهم ، وبين من اعتقد أنه عريق الأصل . طيب الأرومة .

روى أنه كان عنده أول ما اشتد به المرض سبعة دنائير خاف أن يقبضه الله وما تزال باقية عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، ولكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته ، وإطراد المرض في شدته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم لأحد الذي سبق وفاته من إغمائه سأله ما فعلوا بها ، فأجابته عائشة أنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تحضرها ، ووضعها في كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لولقي الله وعنده هذه ، ثم تصدق بها جميعا على فقراء المسلمين .

وكذلك كان المسلمون يقتسدون بالرسول في حياته وبعد مماته . يدل لذلك ما روى أنه كان في المدينة في زمن النبي شاب يتمال له مالك بن ثعلبة الأنصاري ، ولم يكن في المدينة شاب أغنى منه ، فمر بالنبي ، والنبي يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم . فتسكوى بها جبابهم ، وجنوبهم ، وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فنذوقوا ما كنتم تكنزون » .

فغشى على الشاب ، فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة ، فقال له النبي نعم يا مالك ، قال والذي بعثك بالحق ليمسك مالك ولا يملك ديناراً ولا درهما ، فتصدق بما له ، وفعل عمر يدل على تنفيذ المسلمين لهذه السياسة بعد رسول الله ، إذ رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب فلما علم أنه يهودى ، قال له ما ألك إلى ما أرى قال : أسأل الجزية ، والحاجة ، والسن ، فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : أنظر هذا وضرباه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ، ثم نخذه عند الهرم .

هذا هو موقف الاسلام من الفقراء ، السواد الغالب فى الأمم والشعوب ، لم يتركهم نهياً لذوى الأغراض وأرباب الشهوات . بل حفظ لهم حقوقهم الانسانية كاملة . أما الآن — وقد تبدل الحال غير الحال ، وغدت الانانية والاثرة شرعة الأقوياء ، وسمه ذوى السلطان — فقد استشرى الفساد ، وشاعت أسباب الفرقه والاختلاف ، ولا أدل على ذلك مما نشاهده من تباعد بين الطبقات ، أفقد الأغنياء ثقة الفقراء لأنهم تخلوا عما يوجب دينهم من التعاون والترحام ، وعاشوا فى أبراج عاجية ، يحيون حياة أبطال الأفاصيص ، من ترف وبذخ ، ومجون وسرف ، يثرون الذهب على موائد الميسر ، وفى ميادين السباق وأما كن اللهو .

أما مواسم البر ، ودواعى الخير ، فليس لهم إليها من سبيل مما جعل الفقراء ينقمون عليهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويتربصون الفرصة المواتية لأن ينزعوا منهم حقهم فى الحياة ، ويتطلعون إلى المبادئ الهدامة ، عليهم يحصلون فى حماها على حقهم المغتصب ، ونصيبهم المسلوب ، وكرامتهم المهذرة ، وإنسانيتهم الممتنه ، بعد أن أيأسهم الوعود الخلابه ، والأساليب المعسولة ، وعبارات الكذب والملق . ولا علاج لهذه الحالة ، إلا إذا أحس الأغنياء ، وأرباب الثراء ، أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، وأن عيوننا تنبعث منها نظرات متقدمة ، كأنها سواظ من نار ، ترنو إلى ما فى أيديهم من أموال ذاخرة ، وما تصل إليهم من أرباح دافقة وترقب فى عناية بالغة مصادرها ، كيف جمعت وإلى أين ذهبت ، وقد تيقظ الوعى القومى ، فأصبحت الشعوب لا ترضى بغير التناسب والتناسق بين الطبقات ، والتعاطف والتعاون ، ليجد الجائع الطعام ، والعارى الكساء ، والمريض الدواء ، والجاهل العرفان ، وإذ ذاك ترفرف على الجميع ألوية الحب والسلام .

مَذْهَبُ الصَّرْفَةِ

ابن حزم

لفضيلة الاستاذ الشيخ علي محمد حسن العمري

مبعوث الأزهر في السودان

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي ، أصله من فارس
جده الثامن أول من أسلم من أسرته ، وكان مولى إيزيد بن أبي سفيان ، ولذلك
كان ابن حزم يميل إلى الأمويين ، ويتشيع لهم .

عاش ابن حزم بين سنتي ٣٨٤ ، ٤٥٦ هـ ، ونشأ في قرطبة ، في بيت رياسة ،
وقد لا بس جزءاً من هذه الرياسة حقبة من دهره ، ثم انصرف في وقت مبكر
إلى الدراسة والتحصيل ، ودفعته همة عالية ، وذكاء متقد إلى التحقق في كثير
من العلوم ، فكان ثانياً اثنين - في الدولة الإسلامية - بلغا الذروة في التأليف ،
ثانيهما ابن جرير الطبري .

ووجد ابن حزم عداً شديداً من أهل الأندلس ، ويرجع ذلك إلى أسباب ،
أحدها ما عبر عنه بقوله :

هنالك تدرى أن للعبد غصة وأن فساد العلم آفته القرب

فزامر الحى لا يطرب ، والفاضل - في كل مكان - مبغض إلى أهل بلده ،
وابن حزم يقول :

تقر لى العراق ومن يليها وأهل الأرض إلا أهل دارى

وثانيها : أن ابن حزم كان معتداً بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد ، فدفعه
ذلك إلى مأزقين خطرين ، فقد كان يتال من الأئمة المتقدمين ، لم يتسلم من لسانه
أحد ، ويصور ذلك قول ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج
توأمين ، كما كان يقول ما يحىء على لسانه دون رفق أو التواء ، لا يعرف التعريض
ولا التلطف في الخطاب ، بل يصك معارضة صك الجندل - كما يقول ياقوت -

كل ذلك إلى تشييعه لبني أمية ، وانحرافه عن عداهم ، بغض فيه رؤساءه ، وكثر أعداءه ، وأساء إلى سمعته .

ولابن حزم تأليف كثيرة - كما أسلفنا - ولعل أهمها كتابه (الفصل في الملل والنحل) وهو كتاب لا ينكر فضله إلا جاحد أو مكابر ، وفيه تكلم عن إعجاز القرآن ، وعليه معتمدنا في هذا البحث .

آراؤه في القرآن :

القرآن المعجز هو المكتوب المتلو ، وإعجازه باق إلى يوم القيامة ، وكله معجز قليله وكثيره ، والمعجز منه نظمه ، وما فيه من الإخبار بالغيوب ، وليس هذا الأخير - وحده - معجزاً - كما روى عن بعضهم ، وبرهان ذلك قول الله تعالى ، فأتوا بسورة من مثله ، فنص على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره ، وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغير ، ووجه إعجازه أن الله رفع القوة عن العرب . وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله .

ويظهر أن ابن حزم يطرد هذه الحيلولة في كل الآيات ، فهو يرى أن من أبهر الآيات وأعظمها قول النبي لليهود الذين كانوا معه في وقته ولعلمهم كانوا الوفا أن يتمنوا الموت ان كانوا صادقين في تكذيبهم نبوته ، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلاً فعجزوا عن تمني الموت ، وحيل بينهم وبين النطق بذلك . وهذه قصة منصوصة في سورة الجمع ، وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا ، وهم يسمعونونه يقول (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم) .

ولم يرو عن أحد أنه قبل التحدى ، وعارض القرآن معارضة صحيحة ، ولم يتكلف أحد معارضته إلا افتضح وسقط . قال ابن خرم وقد تعاطى بعضهم ذلك يوماً في كلام جرى بيني وبينه فتملت له : اتق الله على نفسك ، فان الله قد منحك من البيان والبالغة نعمة سبقت بها ، والله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبك الله هذه النعمة ، وليجعلك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فتمال لي : صدقت والله ، واطهر الندم .

رده على مذهب البيايين :

يقول أكثر أهل العربية - ومنهم الجاحظ - بالإعجاز البياي في القرآن ،

ولكن ابن حزم يعتبر هذا رأى طائفة ، ويعتبر القول بالصرقة رأى طوائف ، وقد عني أولاً بالرد على القائلين بأن القرآن في أعلى درج البلاغة فقال : وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن في أعلى طبقات البلاغة ، وهذا خطأ شديد ، ولو كان كذلك - وقد أبي الله عز وجل أن يكون - لما كان حينئذ معجزة ، لأن هذه صفة كل باسق في طبقته ، والشئ الذى هو كذلك ، وان كان سبق في وقت ما فلا يؤمن أن يأتى في غد ما يقاربه بل ما يفوقه .

وأيضاً فلو كان إعجاز القرآن لأنه في أعلى درجة البلاغة ، لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هرون ، والجاحظ ، وشعر امرئ القيس ، ومعاذ الله من هذا ، لأن كل ما يسبق في طبقته لم يؤمن أن يأتى من يماثله ضرورة ، فلا بد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا إن الله تعالى منع من معارضته فقط .

الاعتراض على الصرقة والإجابة عنه :

يسوق ابن حزم اعتراض الفريق الآخر القائل بأن الأمر لو كان كما يقول أصحاب الصرقة لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام فكانت تكون الحجة أبلغ ، ثم يرد قائلا : فهذا هو الكلام الغث حقاً لوجوه :

(أحدها) أنه قول بلا برهان ؛ لأنه يعكس عليه قوله بنفسه ، فيقال له : بل لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه ، لأن هذا يكون في كل ما كان في أعلى طبقة ، وأما آيات الانبياء فخارجة عن المعهود .

(ثانيها) أنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل ، ولا يقال له : لم عجزت بهذا النظم دون غيره ، ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تقلبها أسداً ؟ وكل هذا حق بمن جاء به لم يوجب قط عقل ، وحسب الآيات أن تكون خارجة عن المعهود فقط .

(ثالثها) أنهم حين طردوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد لزمهم أن يقولوا هلا كان هذا الإعجاز في كلام بجميع اللغات ، فيستوى في معرفة إعجازه العرب والعجم ؛ لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بأخبار العرب فقط .

القرآن وكلام البشر :

يرى ابن حزم أن القرآن ليس من نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ، ولا من أدناه ، ولا من أوسطه ، وبرهان ذلك :

١ — أن إنساناً لو أدخل في رسالة له أو خطبة ، أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجاً عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك ، كما أن الأقسام التي في أوائل السور لا عهد بها ، وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة .

٢ — نجد في القرآن إدخال معنى بين معنيين ، ليس بينهما كقولهم تعالى : « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ، وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ، ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياً » . وليس هذا من بلاغة الناس في ورد ولا صدر ، ومثل هذا في القرآن كثير .

٣ — ما روى عن أنيس أخى أبي ذر الغفاري رضى الله عنهما حين سمع القرآن قتمال : لقد وضعت هذا الكلام على السنة البلغاء والسنة الشعراء فلم أجده يوافق ذلك ، أو كلاماً هذا معناه .

ويتعرض ابن حزم - هنا - لأمور تتصل بالإنجاز ويطول فيها ، وغرضه أن تكون بعض حججه على رأيه ، فهو يتعرض للمقدار المعجز من القرآن ، ويناقش قول الأشعرية مناقشة عنيفة ، ويخلص منها إلى أن القرآن لا يمكن أن يكون معجزاً بأنه في أعلى درج البلاغة ، فالأشعرية يقولون : إن المعجز إنما هو مقدار أقل سورة منه ، وهو إنا أعطيناك السكوتر فصاعداً ، فيرد ابن حزم بقول الله تعالى : على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولا يختلفان في أن كل شيء من القرآن قرآن ، فكل شيء من القرآن معجز ، وهذا هو الحق الذي عليه سائر أهل الإسلام ، ويقلب المسألة على جميع وجوهاً ثم يخلص إلى أنه ما دام القليل والكثير معجزاً فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأن صرف الله العرب عن المعارضة ، ولأن بعض الآيات وردت على لسان المخلوقين ، ولا يتمال حينئذ إنها معجزة ، فلما صارت

مِنْ أَدَبِ الْإِسْلَامِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدني

قدمت أسماء بنت زيد الأنصارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله ، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنّا بك واتبعناك ، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدورات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وأن الرجال فضلوأ علينا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا لهم أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال ، هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه . قالوا بلى يا رسول الله - فقال انصرفي يا أسماء واعلمي بأنك من النساء ، إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاة واتباعها لموافقة ، يعدل كل ما ذكرت للرجال .

من كلام الله أصبحت معجزة ، وأن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت نها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المحيى بمثلها أبداً ، وأنها متى ذكرت في خبر على أنها ليست قرآناً فهي غير معجزة .

حرصت في هذا البحث على أن ألخص آراء بن حزم بكل دقة ، ولم أتعرض للرد عليها ، بل تركت ذلك إلى أوانه حين أفصل ردود السلف على القائلين بهذا المذهب ، على أني أطلت النظر في كلام ابن حزم لأرى هل تعرض لشبهة قديمة يذكرها العلماء في الرد على مذهب الصرفة ، وهي أنه لو كان الأمر كذلك لكان تعجب العرب - حين عجزوا - من عجزهم لا من بلاغة القرآن ، فلم أهتد إلى شيء في كتابه يصرح أو يلمح إلى هذه الشبهة .

وكما نلاحظ أن ابن حزم وإن جعل القرآن نوعاً على حدة ، وليس من نوع كلام المخلوقين - إلا أنه يفهم من ضربه المثل بالماشي في الطريق - أن القرآن كان مقدوراً للعرب ، وأنهم كانوا يستطيعون أن يحييوا بمثله لولا أن الله حال بينهم وبين المعارضة ، وبهذا - عنده - يكون الإعجاز .

هذه القصة ترينا الصورة الحقيقية التي يهدف إليها الإسلام في تربية المرأة وتقويم خلقها ، وتهذيب نفسها ، ومدى صلاحيتها لبناء مجدها ، وتربية أمة قوية في أخلاقها وفي تسكوتها والإشراف على أولادها ، لتخرج للمجتمع رجالا صالحين لأن يبنوا مملكة ، ويعلموا شأن أمتهم .

جيلا سداه الخلق ، ولحمته النظام ، واحترام حقوق الغير ، والعمل لخير المجموع . هذا هو الدستور الصحيح الذي إن تمسكت به المرأة وسارت على عهديه وانتظمت في سلوكه ، وعملت بقواعده ، رقت وسمت ، ونالت المكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة وحق لأمها أن تفخر بين الأمم بما تقدم هذه الأم لأبنائها من مثل عليا ، وما تبعته في نفوس أبنائها من عزة وكرامة ، وسمو واعتزاز ، فالمرأة التي تهز المهدي يمينها هي الحقيقة بأن تحرك العروش بشمالها .

أما تلك التي تفسى واجباتها ، وتهمل مملكتها ، وتخرج إلى الطرقات لتبعث في الناس الفتنة ، وتثير فيهم مكان الشهوة بما تبديه من زينة وما تظهره من خلاعة ومجون ، فهي حرة بكل احتقار ، خليقة بكل ما يصيبها من ثلم شرفها والاعتداء على كرامتها ، ووصفها بأبداً أنواع النعوت ، لا يقيم لها شأن ، ولا يلتفت إليها إلا كما يلتفت الحيوان إلى أليفته حينما تلح عليه الشهوة أو تثيره عوامل الاغراء ، لا يقيم لرأيها وزن ، ولا يعبا بمشورتها .

وقديما قسم العلماء والفلاسفة المرأة إلى ثلاث صنوف :

فالصنف الأول منهن هي التي تعيش في حدود أنوثتها الكاملة ، ومهوماتها السامية ، ورده ناضجة تشم ، لا شوكة تؤذى وتجرح ، وقلبا ينبض بالحيوية لا عقلا يتفلسف ، وشعرا يوحى ويلهم ،

والصنف الثاني - هي التي تلتزم حدود الأنوثة في سماحتها وعفتها ورقتها لها قوة العابدات لا عقل المربيات تعيش للرجل أمة تخضع ومتاعا يستغل .

والصنف الثالث - هي التي تعيش الآن في عصرنا الحاضر تتمرد على أنوثتها وتخرج عن حدود طبعها ، وتشور على حقها ، وتطالب بما للرجال من حقوق قبل إدراكها لمطالب المجتمع قبلها ، تتعلم لتجادل وتطلب التحرر لتتخلل من قيود

الفضيلة وتسعى في الأرض لتبث الفتنة أينما حلت وحيثما ارتحلت وما درت أن الثعالب تترقبها وأن الذئاب تفتنظرها وأنها تذبح الفضيلة في ثورتها .
فعليها إذا أرادت أن تكون المرأة الكاملة في المدينة الفاضلة أن ترحم أمتها وتعني بأسرتها وثوب إلى رشدها وتأخذ لها العبرة من الماضي والحاضر لتبني المستقبل على أسس الدين الصحيحة وأخلاقه الرشيدة ففيها كل السعادة لها وللأجيال المقبلة ، وكفاها هذا الدستور السليم الذي أرسله رب العالمين إلى خير الهادين والمرشدين في قوله « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساتهن أو ما ملكت أيماهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

هذا هو النظام السكوني الصحيح الذي وصفه الله تعالى للمجتمع للسير على هديه وينتظم تحت لوائه وهو المجتمع المثالي الذي ارتضاه رب العزة والجلال لمخلوقاته .
أما تلك النظم الماسعة التي نضعها نحن لأنفسنا والتي لا تختلف في شيء عن نظم الغاب فهو عبث صيداني لا يبنى لأمة مجداً ولا يرفع لها شأنًا ، ولا يعلى لها قدراً بل على العكس من ذلك يهدم بنيانها ويقوض دعائمها وفي النهاية تتردى في هوة سخيفة وتعود إلى همجيتها الأولى .

فالى القادة والزعماء أهيب بهم ألا يجاملوا أحداً على حساب دينهم وليقولوا بصوت الحق والعدل والانصاف للمرأة قولة الطهر والبراءة « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

عند ذلك تستقيم الأمور وتصلح الأحوال ويعرف كل واجبه فيؤديه على خير الوجه ويعود للأمة الإسلامية مجدها وعزها ومكاتها وسؤدها وتجتث عوامل الشر والفساد ونقضى على هذه الفوضى التي نئن منها جميعاً ويرضى عنا الله والناس أجمعين .

والله ولى الهداية والتوفيق ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدروس الدينية

في قصر رأس التين

ألقى صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر حديثين دينيين من أحاديث شهر رمضان المعظم بعد صلاة العشاء، الأول يوم الجمعة ٤ رمضان، والثاني يوم الجمعة ١٨ رمضان، في قصر رأس التين العامر. وقد استمع الى حديثي فضيلته كبار رجال القصر الملكي العامر وكثيرون من العلماء الفضلاء وأهل الرأي.

وقد ختم فضيلته الحديث الأول بهذا الدعاء :

« نسألك اللهم وأنت العلي القدير أن تحفظ حضرة صاحب الجلالة الملك فاروقا الأول أعزه الله . وأن تسكتب له السلامة لخير الدين والأمة والوطن . اللهم أنك تعلم أنه قد بذل من جاهه وقوة نفسه وعزمه ولم يدخر في ذلك وسعا في سبيل مجد مصر ورفعة شأنها وفي سبيل مجد العروبة والإسلام .

« اللهم أنك تعلم أنه انفق الكثير من ماله في سبيل الخير العام وواسى الفقراء واحسن الى الضعفاء وذوى الحاجات بماله وقوله وفعله وعمل لمصلحتهم ولخيرهم ورفاهتهم وكل ذلك في سبيلك وابتغاء مرضاتك .

« اللهم امنحه الرضا واملأ قلبه حكمة ورحمة ونورا من نورك الاسنى واجعل فيه ومنه الخير لعز الإسلام ومجد الإسلام إنك على كل شيء قدير .

« كما نسألك اللهم ان توفق حكومة جلالته إلى ما فيه خير الأمة وصلاحها وفلاحها وأن تمدّها في هذا السبيل بعونك وقوتك وأن تمنحها في أعمالها الرشد والسداد والسلام عليكم ورحمة الله .

وتنشر فيما يلي نص هذين الحديثين :

الدرس الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم . ولا هم يحزنون (٢٦٢) قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حلیم (٢٦٣) يأبى الذين آمنوا أن ينبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالأذى ينفق ماله رثاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين (٢٦٤) » .

في الآيات السابقة ذكر الله مثلين في حياة الأمم وموتها : مثل الأمة التي فتمت حياتها كأمة ، لتهاونها في شئونها ، وخور عزيمة أبنائها أمام عدوها مع كثرتهم . ومثل الأمة التي كادت تستكين لعدوها وتخضع لسلطانها ، وتفقد حياتها كأمة ، لولا ما كان من فريق من أبنائها ذوى القوة والجلد والصبر ، قادوها في معترك الحياة إلى الدفاع عن كيائها ، والاستهانة بالشدائد في سبيل حياتها ، حتى غلبوا عدوهم وظفروا بأمنهم وسلامتهم ، وكتب الله لهم الملك والحياة .

وفي معرض ذكر هذين المثلين أمر الله المؤمنين بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله . وذكرهم بما كان من أمر هاتين الامتين ليعتبروا ، ودعاهم إلى بذل المال في هذا السبيل ، وسعى ما دعاهم إليه قرصا حسنا لله ، مع أنه غنى عن العالمين ، فقال : « من ذا الذى يقرض الله قرصا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » . وأتى بهذا الأسلوب الرائع القوي ليزن قلوب المؤمنين هزاً ، ويملاً نفوسهم روعة وجلالا ويملك عليهم شعورهم ووجدانهم ، حتى أنه ليسهل على المؤمن عند سماعه هذا أن ينزل عن كل ماله حبا في الله وابتغاء مرضاته . فكيف وقد وعده بالجزاء عليه أضعافا كثيرة ، ووعدته الحق .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح : يا رسول الله : أو أن الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : يدك قبل . فناولته يده . قال : فإني قد أقرضت ربّي حائطي : حائطا فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيه في عيالها ، فناداها : يأم الدحداح . قالت : لبيك . قال : اخرجي قد أقرضت ربّي حائطا فيه ستمائة نخلة . وقال زيد ابن أسلم : إن هذا الحائط كان أحسن الأرضين اللتين يملكهما أبو الدحداح .

هذا ما جاء في الآيات السابقة . وبعد أن حذر الله المؤمنين من التواني في الإنفاق في سبيل الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة » ذكر هنا تفصيل ما سبق إجماله ، وبين في الآيات ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن فيما ينفقه في سبيل الله حتى يحظى برضاء الله ، وينال عليه جزاءه في الدنيا والآخرة ، فقال « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » أي أن ما ينفقه هؤلاء في سبيل الخير العام للمؤمنين لإعلاء كلمة الله ورفعة شأن الأمة الإسلامية ينميه الله تعالى ويضاعفه حتى يكون خيره كأبرك حب في أخصب أرض نما حتى جاءت غلته مضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، وأنهم بعملهم هذا سيجزون الجزاء الأوّل في الدنيا والآخرة ، بما يكون لهم من الذكر الحسن بين مواطنهم ، وما يكون لهم بين أفراد الأمة من التمتع بحمايتها ورعايتها ، بما لها من المكانة ورفعة الشأن بين الأمم ، وما ينالون من الثواب العظيم الذي يضاعفه الله تعالى لهم إلى سبعمائة ضعف أو يزيد . « والله يضاعف لمن يشاء » فيزيد من الأجر إلى ما لا يقدر . « والله واسع عليم » لا ينحصر فضله ، ولا يحد عطاؤه ، وهو أعلم بمن يستحق المزيد من فضله من أهل الإخلاص وعمل الخير الدائم .

ولنما قلنا إن الإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق في سبيل الخير العام للمؤمنين ، لأن سبيل الله هو دينه وطريقه الذي يوصل إلى الخير العام . وقد جهز عثمان بن عفان جيش العسرة في غزوة تبوك بألف بعير وألف دينار . وتصدق عبد الرحمن بن عوف بنصف ماله أربعة آلاف دينار . ونزل الكتاب بأن ما أنفقاه هو في سبيل الله يضاعف الله عليه الأجر . وأنفق أبو بكر ماله في مصالح المؤمنين لإعلاء

كلمة الله ، وكان ما أنفق في سبيل الله . وهكذا كان ذوو اليسار من المؤمنين ينفقون أموالهم في خير الأمة وهم يعملون أنهم إنما يفعلون ذلك في سبيل الله وابتغاء مرضاته . وعلى هذا فالإنفاق على نشر العلم ، وإنشاء المستشفيات والمصحات والملاجئ ، وتسهيل سبل العيش على الفقراء ، وإعداد الجيوش ، وكل ما فيه خير للمسلمين ، هو إنفاق في سبيل الله ، يضاعف الله عليه الأجر ، ويجزى عليه خير الجزاء .

والحكومات وإن كانت تقوم بهذا ولكن موازينها عادة لا تكفي ، فيكون من حق الله على الموسرين أن يتموا هذا النقص ، ليسعدوا وتسعد أمتهم ، ويكون لهم من الله الجزاء العظيم .

لما عظم الله أمر الإنفاق في سبيل الله ، وكانت هناك أمور تعرض للنفوس فتكدر صنائع المعروف ، نبه الله المؤمنين إلى أنه ينبغي أن تكون نفقاتهم في سبيل الخير بعيدة عن هذه المسكدرات ، خالصة لوجه الله تعالى ، حتى يكون لهم عند الله عظيم الأجر ونعم العطاء ، فتعال تعالى « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والمن : هو ذكر ما ينفع المصالح المعروف ، بأن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ، يظهر به تفضله عليه . والأذى : هو أن يتناول المحسن على من أحسن إليه بسبب هذا الإحسان .

والمعنى أن الذين يبذلون أموالهم في سبيل الخير العام لأمتهم ، أو لذوى الحاجة من أبنائها ولا يلحقون بهذا العمل ما يكدره من المن على من أحسنوا إليهم بإظهار تفضلهم عليهم ، أو بإيذائهم بالتناول عليهم بسبب ما بذلوه لهم من الإحسان - سيكون لهم عند الله أجر عظيم ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتقرعهم الأهوال ، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون المسككون عن الإنفاق في سبيل الله . وقول الله تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، تأكيد لما تضمنته الآية السابقة من النهي عن المن والأذى .

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يردبه السائل من غير عطاء ، وإغضاء عما يحصل منه من الإلحاف في المسألة ، أو ستر لحاله بعدم التشهير به - خير له

من صدقة يتبعها سوء التمول أو سوء المقابلة ، أو غيرهما من كل ما فيه إساءة أو إيذاء له . والله غنى حليم ، أى غنى عن هذه الصدقات التى تجلب الأذى للفقراء ، لأنه طيب لا يقبل إلا الطيبات . وحليم لا يعجل العقوبة على من يمين ويؤذى بصدقته .

وهذه الآية تقرر مبدأ عاما فى الشريعة ، وهو أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، وأن الخير لا يكون طريقا إلى الشر . وفيها إعلام من الله تعالى لنا بأنه يجب أن نطهر أعمالنا فى الخير من الشوائب التى تنغص على الفقراء ، بل من حتمهم علينا أن نترفق بهم ، وأن الصدقة عليهم إذا لم تسكن إلا مع المن والأذى فلتتركها ، ولا أقل من أن نجبر قلوبهم بكلمة المعروف .

وقال الأستاذ الإمام : القول المعروف يتوجه تارة إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا هاجم البلد عدو ، وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه ، فمن لم يسكن له مال ، يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث على العمل ، وينشط العامل ، ويبعث عزيمته الباذل ، وهذا خير من الذى يساعد الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانها ، وبيان التقصير فيه ، أو تشكيك الناس فى فائدته . فإن كونك مع الأمة بقلبك ولسانك خير من أن ترضخ ببعض المال مع قول السوء وفعل الأذى .

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى صدقاتهم على الفقراء أو فى سبيل المصلحة العامة للمؤمنين ، وهو أن تصدر خالية من المن والأذى ، أفبل عليهم ونهاهم عن ذلك نهياً صريحاً فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، أى أن من يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى فإن صدقته تقس على وجه لا ثواب فيه ، فيحبطها الله ويجعلها كأنها لم تكن .

أو المعنى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى لأن المن والأذى يهدم الغرض المقصود من الصدقة ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين ، وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، أو تخفيف حاجات الأمة ودفع الضرر عنها إذا كانت

الصدقة قد أنفقت في مصلحة عامة . ولا مرأى في أن كل عمل لا يؤدي إلى الفائدة المتصودة منه يكون كأنه لم يكن . وهنا قد أتبع الصدقة بما يحبطها ويمنع من الغرض المقصود منها ، بل هو ضدها ونقيضها .

وقد شبه الله أصحاب المن والأذى في الآية بالمرأى وهو الذى ينفق ماله حباً في الظهور أمام الناس بمظهر فعل الخير ليدحوه ويرضوا عنه ، وقلبه منصرف عن الله ، ومتعلق بالناس الذين يرائيهم ، فقال « كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والإنسان وإن كان مفطوراً على حب المدح وكراهة الذم ، وحب الجاه والسلطان ، ولكن الجاه والمدح والثناء لا يكون محموداً عند الله تعالى إلا إذا كان من طريق الكمال النفسى ، والإخلاص لله في العمل ، لا من طريق مراعاة الناس مع عدم الشعور بعظمة الله وسلطانه . فالذى ينفق ماله ليكسب حب الناس ومودتهم وتعلقهم به ، وليكون له بينهم جاه وسلطان ، ليتوسل بذلك إلى التمكن من قلوبهم ، والسيطرة على نفوسهم ، ليصلح الفاسد ، ويقوم المعوج ، ويهديهم إلى طريق الخير - هو لا شك من القادة الأخيار ، الذين يستحقون أعظم الحمد والثناء في الدنيا ، وأحسن الجزاء عند الله في الآخرة .

وأصحاب المن والأذى هم كالمرأى في أحط صفاته ، وهو أنه مرأى لا يؤمن بالله ولا يؤمن باليوم الآخر ؛ فعمله مجرد من صفات الخير ، لا إيمان بالله ، ولا إيمان باليوم الآخر ، ولا هو يعمل العمل لذات الخير ، كالعمل الذى يعمل به غير المؤمنين لذات الخير غير مرأين فيه ، وإنما هو يعمل للهوى النفسى ، وشهوة المدح والجاه ، وما مثله إلا كمثل الصفوان ، وهو الحجر الأملس ، إذا كان عليه تراب ، يظنه الرأى صالحاً للإنبات ، ولكن لا يلبث هذا التراب حتى ينزل عليه وابل ، أى مطر غزير ، يمحوه فيعود ذلك الحجر أملس لا يصلح لتقبل البذور ، ولا الإنبات . فهو كما قال الله تعالى « فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً » .

والمسانون المؤذون والمرءون هم سواء فى أنهم كالحجر الأملس علىه تراب هو عملهم الذى ىرى كأنه نافع فىنزل علىه الماء ، وهو مثل المن والأذى والمرءة فىمحو هذا التراب وىغسله غسلًا لا ىقدرون على شىء مما كسبوا . أى لا ىنتفعون بشىء مما عملوا يوم القيامة ، لأنه لا ثواب إلا مع الإخلاص ، ولا إخلاص مع المن والأذى والرىاء ، بل هم فى الدنيا ىكونون موضع سخط الناس وىغضبهم عندما ىنكشف حالهم ، وتظهر سوءاتهم . « والله لا ىهدى القوم السكافرىن ، الذىن خلت قلوبهم من نور الهداية ، فىجدوا نعمة الله علىهم ، ولم ىقابلوها بالشكران بأن ىنفقوا مما أنعم علىهم ، كما أراد الله ، من غير من ولا أذى ، ولا مرءاة ، لىكونوا فى عداد العاملین المخلصین .

الدرس الثاني :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَمْغِينَ ، فَمِنْ لَمْ يُصْبَهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَبُودَ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ، فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) » .

بين الله في الآيات السابقة ما دعا اليه المؤمنين من الإنفاق في سبيل الله ، وأنهم إذا أنفقوا في سبيل الله فإن الله تعالى يضاعف لهم الأجر أضعافاً مضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، ونهاهم عن أن يُتبعوا صدقاتهم بالمن على من أنفقوا عليهم ، أو إبدائهم ، بأن يسيئوا إليهم بأى نوع من أنواع الإساءة ؛ وبين لهم أن المن والاذى يبطل الصدقة ، كما تبطلها المראה ، وأنهم هم والمرأى سواء ، في أنهم كالحجر الأملس الذى عليه تراب ، يظنه الناس أنه تراب فيه نفع وصالح للإنبات ، ولكن هذا التراب لا يلبث حتى ينزل عليه مطر غزير ، فيذهب به ويغسل الحجر فيعود أملس ، لا يصلح لتقبل البذر والإنبات ؛ وأن هذا التراب هو مثل ما يقومون به من الصدقات ، وذلك المطر هو مثل المن والاذى والرياء ؛ يذهب بما عملوا ، ويجعله كأن لم يكن .

ثم أعقب الله هذا المثل بمثل المنفقين المخلصين الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، للمقابلة ، وظهور الفرق بين هؤلاء وأولئك ، فقال : « وَمَثَلُ الَّذِينَ

ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة . . . ، إلى آخر الآية .

والمعنى أن أهل البر والإحسان ، الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله ، وهم متثبتون من أنفسهم أن عملهم خالص لله ، هؤلاء مثلهم كمثل جنة في أرض مستوية ، جيدة التربة ، عظيمة الخصب ، إن أصابها مطر غزير آتت ثمرتها مثل ما كان يعمد منها ، وإن أصابها طل ، وهو الندى أو المطر الخفيف ، فإنه يكفيها في أن تثمر وتأتي بالخير ، لحسن موقعها ، وجودة تربتها ، وقوة لبناتها .

والوجه في هذا التمثيل أن هؤلاء المنفقين الصادقين هم كالجنة النامية ، الجيدة الخصب ، فكما أنها إن أصابها الوابل ضاعفت الثمرة ، وإن خف المطر آتت أكملها على كل حال ، كذلك هؤلاء المخلصون في صدقاتهم ، إن وسع الله عليهم أغدقوا الخير ووسعوا ، وإن أصابهم خير قليل أففقوا بنا يتسع إليه حالهم ؛ وهم في صفاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم لا ينضب معينهم ، ولا يخيب قاصدهم ، كهذه الجنة أكملها دائم ، ولا يخشى عليها التلف .

وقد ختم الله الآية بقوله : والله بما تعملون بصير ، ليذكرنا بأنه يعلم كل أمورنا لا يخفى عليه شيء من أعمالنا ، وسيجازي كل عامل بما عمل . وفي هذا تحذير أيضاً لأهل الرياء الذين يسخسون الناس بظواهرهم ، وتحذير لأهل المن والاذى بأن الله بصير بعملهم الذي لا خير فيه .

وقوله تعالى : أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب . . . إلى آخر الآية ، مثل آخر ضربه الله للبرائين وأهل المن والاذى . والاستفهام في الآية للإنكار ، والإعصار هو الريح العاصفة التي تستدير فوق الأرض ثم تنعكس إلى السماء حاملة غباراً ، فتكون كهيئة العمود ، وهي المسماة بالزوبعة . والمراد بالنار : السموم الشديد الحر الذي يحرق النبات والشجر .

والمعنى : أيود الإنسان أن تكون له هذه الجنة ، وهي جنة في غاية الحسن شجرها السكرم والنخل ، اللذان هما أجل الشجر وأنفعه ، وفيها أنهار تجري

من تحتها تزبدها حسناً ، وله فيها من كل الثمرات ، وقد لحقته الشيوخوخة وطعن في السن ، وذريته صغار لا يقدرّون على العمل ، ثم لم يلبث حتى أصابها إعصار فيه سموم محرقة أتت عليها فأحرقتها ، فصار في محنة ملأت نفسه غمّاً وهمّاً وحسرة بما ضاع من الثمرة التي لم يكن له ولذريته معاش سواها ، وأصبح في أشد الحاجة إلى النفقة .

والاستفهام الإنكارى في الآية يعطى معنى النفي ، أى لا يوجد عاقل يود أن يكون صاحب هذه الجنة ، ويصيبه ما أصاب صاحبها من التجرد من منافعها ، في وقت هو أشد ما يكون حاجة إليها .

والمقصود من هذا المثل بيان حال المرائين وأصحاب المن والأذى ، الذين قرّنوا صدقاتهم بما يطلبها ويذهب بثوابها ، وذلك أنهم يجيئون في الآخرة وهم في أشد الحاجة إلى ثواب ما عملوا فلا يجدونه ، وفي غاية العجز عن اكتساب ما ينفعهم ، فيصيبهم من الغم والحسرة والحيرة ما لا يعلمه إلى الله . فمثلهم مثل ذلك الشيخ الكبير الذى احترقت جنته في حال حاجته إليها ، وضرورته إلى ثمرها ، وضعفه عن عمارتها ، وفي حال صغر أولاده وعجزهم عن إحيائها والقيام عليها .

وبعد أن بين الله للمؤمنين ما ينبغي أن تكون عليه صدقاتهم ، وذلك بأن تكون خالصة لله لا يشوبها من ولا أذى ولا رياء ، وضرب لهم الأمثال ليعتبروا ، أعقب هذا بقوله : لعلكم تتفكرون ، أى أن الله تعالى قد بين لكم حقائق الأمور وما فيها من خير وشر بالأدلة الواضحة البينة ، وضرب لكم الأمثال لتفكروا في عاقبة أولئك الذين حادوا عن الطريق السوى ، فنضعوا نفقاتكم في مواضعها التي يرضاها الله .

هذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من الصفات وقت البذل ، وهي الإخلاص لله في أداء الصدقة ، وأن يتنبهوا من أنفسهم أن عملهم خالص لله

أما المال المنفق فقد وصفه الله في قوله : يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، وبما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد ، (٢٦٧) . والطيب : هو الجيد الذى تستطيبه النفس . والخبيث : هو الردى الذى تذكره .

وهذا التفسير هو الذى يتفق مع ما نقل عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والجمهور من أئمة التفسير ، كما فى تفسير الطبرى والفرطى . أما ما نقل عن ابن زيد بن أسلم من أن المراد بالطيب الحلال ، وبالحديث الحرام ، فلا يظهر وجهه ، لأنه لا يتفق مع نظم الآية فى قوله ، ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، ولا مع ما ورد من الآيات الأخرى ، مثل قوله تعالى ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وقوله : ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ، لأن المعنى حينئذ : ويحل لهم الحلال ، ويحرم عليهم الحرام ، وهو من تحصيل الحاصل ، ولا يتفق مع ما ذكره المفسرون فى سبب نزول الآية ، وهو أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقته من ردى التمر .

فقد روى أن بعضهم كان يعزل الردى من التمر ، حتى إذا جاء صاحب الصدقة أعطاه له فيما عليه من الصدقة ، فنزلت الآية . ومع هذا فالخطاب للمؤمنين ، والأصل فى أموال المؤمنين أن تكون حلالا ، وهم إنما خوطبوا بالإتفاق مما فى أيديهم .

وقد بين الله فى الآية صفة المال المبذول فى الصدقة ، وهو أن يكون من طيب ما نكسب بعمَلنا ، كنكسب العمال والتجار والصناع ونحوهم ، ومن طيب ما تخرجه الأرض لنا من الزروع والثمار والمعادن والركاز وغير ذلك مما تحويه الأرض .

وقد نهى الله تعالى فى الآية عن أن نعهد إلى الردى من أموالنا فنبدله فى الصدقة .

أما المال المتوسط بين الجودة والرداءة ، فالآية لا تمنع من بذله ، ولكن بذل الجيد أفضل ، لأن الصدقة قربة إلى الله ، وخير ما يتقرب به إلى الله أجود الأموال وأفضلها ، هذا إذا كان بعض المال جيدا وبعضه رديئا فقصد إلى الردى فأخرجه فى الصدقة وأبقى الجيد لنفسه ، أما إذا كان كل ماله دون الجيد أو كان الحاضر منه كذلك فتصدق منه كان عمله محمودا عند الله تعالى لأنه أنفق مما أعطاه الله من فضله ولم يبخل .

وفي قوله تعالى : « ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ، ما يشعر بالتقريع والتوبيخ لمن يتصدقون من ردى أموالهم . أى كيف تعتمدون الى الردى من أموالكم تتصدقون به وأنتم لا ترضون مثله لأنفسكم فى معاملاتكم إلا إذا أغضيتكم النظر عما فيه من العيب تساهلا منكم !

ثم قال تعالى : « واعلموا أن الله غنى حميد » ، أى دعوا هذا المال الخبيث الذى لا خير فيه فالث غنى عن صدقاتكم وعن غيرها ، ولما دعاكم الى بذل الصدقة من طيب أموالكم ليغنى به عائلكم ، ويقوى به ضيفكم ، ويجزل لكم به فى الآخرة مثوبتكم : فهى الخيركم ومصالحكم ، لا من أجل حاجته إليكم . وهو المحمود الواجب شكره على ما هداكم إليه من الخير ، وعلى ما تفضل وأنعم به عليكم .

ولما رغب الله المؤمنين فى أن تكون صدقاتهم على الفقراء وفى سبيل الخير العام من خير ما يملكون ، ونهاهم عن التصديق بالخبيث ، لفهم الى ما يمرض للنفس من الوسوس التى تُخَيِّلُ لها أن الإنفاق يقضى الى ضياع المال وسوء الحال ، وأن الخير فى إمساكه ليكون عدة المستقبل عند الحاجة إليه ، فقال : « الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء » ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم (٢٦٨) .

والمعنى أن الشيطان يعدكم الفقر ، أى يخوفكم منه ويخيل إليكم أن الإنفاق فى سبيل الخير يذهب بالمال فلا تجدونه وقت حاجتكم إليه ، ومع هذا هو يأمركم بالفحشاء ، وهى المعاصى ، ويغريكم بالإنفاق فيها . أو المعنى أنه يخوفكم من الفقر ويأمركم بالفحشاء أى البخل ، أى ويغريكم بالبخل لإغراء الأمر بالمأمر . والفاحش عند العرب البخل ، كما فى قول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

ويقابل وسوسة الشيطان بالخوف من الفقر والإغراء بالبخل ، وعدالله لنا بأن الإنفاق فى سبيل الله ومواساة الفقراء ، كل بحسب مقدراته وسعة حاله مع الابتعاد عما يذهب بشجرة الصدقة من المن والأذى والرياء ، سيكون منه الخير العام لنا فى الدنيا والآخرة . فى الآخرة غفران الذنوب وتكفير الخطايا ،

وفي الدنيا ما يخلفه الله عليا من فضله ، وهو واسع الفضل ، يحقق ما وعدنا به ، وهو علم بما تنفق ، يحصيه ويجزي عليه .

وقد جاء في الكتاب الكريم : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين ، وفي صحيح البخاري ومسلم : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملأ مكان بنزلان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفعا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا . أي أذهب ماله إلى حيث لا خير فيه . فإله تعالى وعد المتصدقين بأنه يخلف عليهم ما تصدقوا به ، ولكل ما يخلفه الله ليس ضروريا أن يكون من نوع ما أنفقوا ، بل قد يكون من الأمور المعنوية التي يحبها الإنسان وبراها خيرا من كثير من المال وذلك كالذكر الحسن الذي يحصل لأهل البر والاحسان بين مواطنهم ، أو حب الناس لهم ، وتعلق القلوب بهم ، وكأن يرزقهم الله ذرية نافعة لخير الدين والدنيا ، ونحو ذلك من الأمور المعنوية التي يحبها الناس وليست بمال .

وقد يكون ما يخلفه الله من الأمور المادية ، وذلك بأن يسهل الله للمنفقين طرق الرزق ، ويصرهم بالعمل الذي يُدرُّ عليهم المال الذي يخلف الله به ما أنفقوا أو يزيد ، أو يرزقهم بما لا يكون في الحساب مما ليس لهم فيه كسب ، كالمال الذي يجيء من طريق الميراث أو الهبات أو الوصايا أو غير ذلك .

ويدخل في عداد البر والإحسان الذي يخلفه الله على المنفقين ، ما ينبغي أن يقوم به أصحاب الشركات وكبار الملاك من البر والإحسان نحو عمالهم الذين يعملون لهم ، بما يدفع حاجة هؤلاء العمال ويصلح شئونهم المأشوية والصحية والاجتماعية لأن إنفاقهم في هذا السبيل هو من باب الانفاق في الخير العام للامة ؛ لأن العمال جزء منها ، والامة كل يتكون من عدة أجزاء إذا صلتحت صلتحت الامة كلها . فلينفقوا ، وليتبروا عمالهم ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك حق لهم ما وعدهم الله به من فضله عليهم ، والله ذو الفضل العظيم .

وفضل الله عليهم قد يكون من طريق الإرشاد والهداية إلى أقوم الطرق وأصلحها للإنتاج والنجاح في العمل ؛ وقد يكون من طريق ربط الأسباب الظاهرة بمسبباتها ، وهو النظام الذي سنه الله في هذه الحياة . وذلك لأن إصلاح

شأن العمال والإحسان إليهم يغبطهم ويحبب إليهم الملاك ، فينشطون إلى العمل بنفس قوية ، رائدها الإخلاص ، والإنسان عبد الإحسان ، فيكثر الإنتاج ، وتزيد الثروة بما لا يقاس معه المال الذي أنفق في سبيل البر والإحسان إلى العمال .

وهذا فضل الله الذي يخلف ما أنفقوه . والله واسع الفضل ، عظيم الخير .
هكذا وعد الله ، وذلك لإغواء الشيطان ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ،

قوتان تلبسان بالنفس عند نزوعها إلى عمل الخير : وسوسة الشيطان وهي قوة الشر التي تخوف من الفقر وتأمر بالفحشاء ، وإلهامات الرحمن وهي قوة الخير التي تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله ، حيث يكون فضل الله ومغفرته .

وفي صحيح الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ : الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، واللئمة هي الهمة والخطرة التي تقع في القلب ، فما كان منها من خطرات الخير فهو من الإلهامات الإلهية ، وما كان منها من خطرات الشر فهو من الوسوس الشيطانية .

فيأياها المؤمنون : إذا ألمت بكم قوة الخير فاحمدوا الله عليها ، وإذا ألمت بكم قوة الشر فاستعينوا بالله من الشيطان ، وتحصنوا بحمى الله منه ، وأقدموا على فعل الخير ، وعودوا أنفسكم عليه ، حتى لا تُلِمَ بقلوبكم خطرات الشيطان ولا وسوسه وهو أجسه .

وأنتم أيها الباخلون : راجعوا أنفسكم ، وحاسبوها ، وانظروا أين تضعون نفوسكم ، أفي وعد الله تعالى أم في وسارس الشيطان ، وأي الأمرين تسكن إليه نفوسكم وتطمئن إليه قلوبكم : وعد الله لكم بالخير أو إيعاد الشيطان لكم بالشر وقد ظهر الحق ووضح الطريق .

وقد أرشدنا الله تعالى بقوله ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الأبواب (٢٦٩) ، إلى أن ما يقع في قلوبنا من الوسوس والهواجس الشيطانية ، والإلهامات الإلهية ، ويشتهبه الأمر فيه علينا ، إنما يتميز بالحكمة التي يوفقنا الله للحصول عليها . والحكمة هي العلم الذي تعظم منفعة ، وتَجِلُّ فائدته ، وهو العلم الذي يكشف حقائق الأشياء ، ويفرق بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار ، ويميز الإلهامات الإلهية من الوسوس الشيطانية ، ومن يؤت هذا العلم النافع الذي تَجِلُّ فائدته فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الأبواب ، الذين فتح الله قلوبهم للتقوى ، وأعد لهم لقبول الهداية .

لَيْسَ مِنْ هُنَا نَبْدَأُ

ليس من هنا نبدأ ، لأننا بدأنا فعلا من حيث يجب أن نبدأ ، وقد قطعنا مرحلة من الطريق التي يجب أن تسلك . فإن استعرض الباحث ما كنا عليه من حياتنا الاجتماعية والعلمية والعملية ، رأى رأى العين صدق ما نقول ، واستطاع أن يقدر ما قطعناه من الطريق في كل وجهة من وجهات الحياة الأدبية والمادية . فتمد أدركنا أن أساس الحياة العلم والعمل فاندفعنا في سبيلهما بقدر ما تستطيعه وسائلنا المادية والمعنوية ، فإن كنا لا نزال متأخرين عن الأمم التي تعتبر مُشْلا عليا فيهما ، فما ذلك إلا لأننا بدأنا بعسرها ببضعة قرون ، فإن دأبنا وضاعفنا جهودنا فلا شك في أننا مدركوها وسائرون إلى جانبها وربما سبقتها ولا حرج على فضل الله .

فيجب علينا أن ندرك هذه الحقيقة ، وأن ندرأ عنا شيطان العجلة فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهر أبقى .

نعم أن الغيرة الوطنية تشد في بعض النفوس فتحترق جهود الأمة التي تبذلها لتلحق بالقافلة ، فتشدد وطأتها في النعى على بطئها وتردها ، وفي التشهير بتؤدتها وتواكلها ، وهذه النزعة الحماسية من تلك النفوس تضر أكثر مما تنفع ، فهي تغزو مادة اليأس في قلوب الضعفاء ، وتزيد من عديد الجامدين على القديم منهم ، ولو تأمل هؤلاء المتحمسون منا لرأوا أن الأمة بجملتها استقامت في طريق الذين سبقوها . وترسمت خطاهم ، وتشبعت بفسكرة اللحاق بهم ، وهي نزعة إذا سلمت من المثبطات أدت بأهلها إلى اللحاق بمن سبقوها ، لأنها تسلك طريقا عبدها من تقدمها فكفيت مؤونة التعبد والتمهيد ، وهما من أشد القواطع للسالكين ، فتقطع في الزمن القصير ، ما كان يضطرها للصبر الطويل ، وبذل الجهد الجهد . وفي ضرب المثل بالأمة اليابانية مقنع .

فتمد كانت هي والصينيون على مدنية عريضة في القدم ، ولسكنها كانت مدنية صناعة دقيقة وتفكير عميق ، ليس لقوتى البخار والكهرباء فيها من نصيب . فتنبه

اليابانيون لذلك منذ نحو مائة سنة ، فاستخدموها فلم تمض عليهم بضعة عشرات من السنين حتى ارتقوا إلى مصاف الأمم الأوروبية ، واحتذت حذوها الأمة الصينية ، فبلغت مكانة فيها . ونحن بعد فترة قصيرة من الزمن نستكمل فيها تعميم التعليم ، ويكثر بين ظهر انينا المتعلمون الذين لا يجدون عملاً ، فيضطرون بحكم الضرورة الحيوية للبحث عن عمل يحصلون من القيام به ما يسد حاجتهم المعيشية ، وكلما اشتد بهم الضيق تشددوا في تركيز قواهم العقلية في ابتكار ما يوصل إلى كسب القوت من عمل يثيب الناس القائم به ، فتفتح أمامهم ضروب الحاجات المعيشية والصناعية ، فيضطروا للاشتغال بها ، ولكنهم بسبب تفوقهم في القوة الفكرية يعملون عموهم في التجديد والابتكار فيصلون بها إلى درجات رفيعة مما يرقى ذوق المجموع ويحمل مظهره ، ومنهم من يتوصل إلى اختراع أداة يصل من ورائها إلى أبعد حدود الثروة ، ويكون قدوة لغيره في إدمان التفسير في خدمة المدنية . وبازدياد عديد المفكرين من هذا القبيل تزداد قيمة الأعمال الحرة والعاملين فيها ، ويتمنى الذين يحرون وراء الوظائف الديوانية لو أتيح لهم أن يكونوا من قبيل هؤلاء الأحرار النافعين .

على هذا الوجه بدأت الحال في أوروبا ، وقد بلغت اليوم أوجها الأعلى ، فمن هؤلاء الرجال من لو بذلت له الحكومة مالا جما ليشغل وظيفة في إحدى مصالحها ، بل لو عرضت عليه وزارة من وزاراتها لآبى ذلك عليها ، لثقته بأنه يعمل عملاً أشرف من عمله في وزارة وأنفع منه للأمة .

على هذا الوجه ترتقى الأمم ، وتبلغ أقصى الغايات في المدنية ، وليس بلوغ هذه الغايات بوقف على جنس من أجناس البشر ، ولا على قبيل منهم ، فجميعهم سواء في الوصول إلى هذه الدرجة العليا من الحياة ، وقد وصل معظمهم إليها في مدى وجودهم . فالذين يقولون بوقف هذه الغايات على بعض الأجناس دون البعض الآخر واهمون .

فمن الذي يصدق الآن أن الأوروبيين الذين تضرب بعظمة مدنيتهم الآمال ، كانوا قبل بضعة مئات من السنين في حالة من الانحطاط يصعب تصديقها الآن . فقد كانوا يبنون بيوتهم بالخلفاء ويلطخونها بالطين ، ولا يجعلون لها مداخن

يتسرب منها الدخان . وكانوا يرمون فضلات النباتات واللحوم التي يتغذون بها أمام الدور فيتراكم عليها الذباب ، وتتصاعد منها الروائح الكريهة . وكانوا يضطهدون النساء ويضعون على أفواههن الاقفال لمنعوهن من الثروة والقبل والقال . وكان رجال الدين عندهم يضطهدون من يظهر منهم ميل إلى الفلسفة أو العلم ، ومن كان يثابر على الاشتغال بشيء من ذلك ، وفيها ما ينافي ما عندهم من كروية الأرض وصغر حجمها بالنسبة لغيرها من الكواكب ، يلقونه في النار بحجة أنه مناهض للكتب الدينية ، فأحرقوا على هذا الوجه أكثر من ثلاثمائة ألف عالم ومتعلم بهذه الحجة ، حين ثبت لهم أنهم يدأبون على ما هم عليه ، لمنافاته للدين فيما يزعمون .

أما الصنائع والفنون فكانوا منها في الحضيض . قلنا فمن يصدق أن هذا كان ماضى أوروبا قبل بضعة قرون ، وهو يراها اليوم صاحبة الزعامة العلمية ، ورافعة علم المدنية في جميع الآفاق ؟

فالآدم تنحط وترقى ولا علاقة لذلك بجنس أو لون أو مناخ . أليس العرب الذين كانت تضرب بجاهليتهم وأميتهن الأمثال هم الذين أحيوا موات العلم بعد دخولهم في الإسلام ، ورفعوا علم المدنية ، وآخوا بين الدين والعلم مؤاخاة لا انفصام لعراها بفضل هذا القرآن ؟

محمد فريد وجدي

وصف حصان

ما مقرف يختال في أشطانه	ملآن من صلف به وتلهوق
تغرى العيون به ويفلق شاعر	في نعتيه عفواً وليس بمفلق
قد سالت الأوضاح سيل قرارة	فيه ففترق عليه وملتقى
صافي الأديم كأنما ألبسته	من سندس ثوباً ومن إستبرق
مسرد شطر مثل ما اسود الدجى	مبيض شطر كايضاض المهرق
فكأن فارسه يصرف إذ غدا	في مته لبن الصباح الأبلق
أمليسه أمليسه لو علقت	من صهوتيه العين لم تتعلق

النفس

بقية تفسير سورة الفاتحة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ همام محبس

عضو جماعة كبار العلماء

قد انتهينا فيما سبق من التفسير إلى قوله تعالى «إياك نعبد» ، فلنبداً في السلام على بقية السورة فنقول : إلى هنا قد تم بالآيات السابقة إذعان العبد بأن أولاه وآخرته إنما هما لله ، وأنه تعالى المنفرد باستحقاق الحمد والتقدير لأنه وحده الممد للعبد بالوجود والمتعهد له بالتربية والمفيض عليه في كل أطواره .

واسع رحمته والمجازى له على عمله يوم الجزاء على الخير خيراً وعلى الشر شراً ، فهو المهيمن عليه وهو مالك أمره في حياته . هنا وقد تم ذلك ، أدرك العبد ألا مناص من الله تعالى إلا إليه فهو المرجع وإليه المصير .

وهنا وقد ملكت نفسه موجة من هذا الشعور كان لابد أن يسأله خاطره إذا كان ذلك شأن الله في رحمته وعظمته وملكوته لكل شيء فهل هناك في الوجود من يستحق أن يعبد ويقدس وأن يعظم ويكبر سوى من ذلك شأنه . ويكون جوابه هذا السؤال حتماً أنه تعالى وحده دون سواه هو المستحق لأن يفرد بالالوهية ويختص بالعبادة ويصور ما اقتنعت به نفسه من الحق المبين وما امتلأ به قلبه من نور اليقين بقوله «إياك نعبد» ، مما يفيد في الأساليب العربية اختصاصه بالعبادة أي يارباه يامن تولاني برعايته وغمرني برحمته يامسبغاً على نعمه وناشراً حولي رحمته يا مالك شأني كله في أولاي وآخرتي إن لك وحدك التقديس وإن لك وحدك العبادة والتزويه فلا إجلال إلا لك ولا تعظيم لسواك .

ولما دفع العبد إلى الإقرار بوجوب أفراد ربه بالعبادة ما ذكره له تعالى

من عظيم النعم وواسع الرحمة ، وما أيقن به عما سيقام يوم الجزاء من موازين العدل التي لا يضيع معها على العبد أوله مثقال ذرة من خير أو شر .

هنا وقد دفعه ذكر ذلك إلى التيام بواجب المنعم الرحيم والمجازى العادل وجد أن ما يقوم به من عبادة مهما أخلص فيها وأطال فليس موفيا حق الله عليه فلم يبق أمامه من سبيل يسلكه للوفاء بحق ربه أو المتأربة من الوفاء إلا أن يسأله تعالى المعونة حتى يوفى أو يدانى الوفاء وإذ ذاك يقول : وإياك نستعين .

أى لا أطلب إلا منك المعونة فأنت التمدير على كل شئ ، والعليم بباطن الأمور وظاهرها لا تخفى عليك طوية ، ولا تتوارى عنك نيسة فإمدادك أنت هو الإمداد ومعونتك هي المعونة .

وهنا يدور بنفس العبد حين يملك نفسه هذا الشعور ويستغرق في ذكر عظمة الله ورحمته - سؤال - إذا كنت لا تسأل غيره اعونة ففيم تسأله المعونة أفى شأن دنياك وشخصك أم فى شأن آخرتك وربك ، وهنا يكون الجواب ببيان ما يسأل العبد ربه فيه وأن أحب شئ إليه إنما هو هدايته إلى الطريق الذى يوصله إلى أسمى غاياته وأعظم مقاصده فيقول : إهدنا الصراط المستقيم .

أى اهدنا ربنا إلى ما يوصلنا إليك ، ودلنا على ما تحل به ساحة رضوانك ، وذلك هو الطريق المستقيم المفضى بنا فى اختصار إلى ساحتك وجنبنا معوج الطرق مما يبطئ بالسائر عن الغاية ومما قد يضل بالسائر عن المقصد .

وهنا إذ يشتد قرب العبد من ربه ، فيزداد احتياطه فيما يؤدى به إلى الغاية من واضح الطرق وقيمتها ، تراه يزداد فى التحرى والاحتياط لذلك لم يكتف العبد بسؤال ربه الهداية إلى الطريق الموصوف بالاستقامة ، بل زاد فى بيانه فقال : صراط الذين أنعمت عليهم ، وإنما اختار فى البيان أن يضيف الطريق إلى المنعم عليهم لمعينين : أولهما هو إبراز نفسية الحب المخلص ، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه ، وتطمئن قلبه ، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثمة ويفعم قلبه طمأنة إلا أن يبين الطريق بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين ، كما فصل ذلك في غير تلك الآية . وثانيهما : أن من خواطر المؤمل في نعيم ربه أن يكون تمامه في رفقة من الناس صالحين وصحب منهم محسنين .

ولما كان قد يتسرب إلى عموم النفس لفظ المنعم عليهم للكافرين والمؤمنين والعاصين والطائعين ، فقد زاد في تحديد المراد بوصف المنعم عليهم بأنهم « غير المغضوب عليهم » ، مبالغة في التحديد وزيادة في البيان حرصاً على من يتم بهم ومعهم استمتاعه بنعيم ذي الجلال ورضاه .

كما أنه زيادة في التنصيص على تمييزهم عن غيرهم ممن غضب الله عليهم ومن ضلوا سبيل الرشاد ليكون في ذلك إيماء إلى شدة حرصه على تجنب سبيل الضالين وإشارة إلى شدة الاحتياط لوضع الحواجز القوية لحفظ نفسه عن أن يفد عليها خواطر غير مرادة - وإن خرجت بعد ذلك - طريدة التأمل كما هو شأن أساليب القرآن في أنها لا تدع احتمالاً غير مراد يمر بالنفس ، كما أنها لا تترك معنى مراداً دون أن تمسكه في النفس .

ذلك أن نعم الله منها ما قد تشمل الكافر والمؤمن . والعاصي والمطيع ، فقلوه تعالى ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قد لا يمنع لأول سماعه أن يتسرب إلى الذهن شموله وعمومه ، فلدفع هذا الخاطر من أول الأمر جرى بذلك التحديد للمراد من المنعم عليهم ، وأنهم الفائزون بنعمة الرضا بما آمنوا واتقوا ، والمثابون بحسن الجزاء بما صبروا وأحسنوا . فليس المراد مطلق منعم عليه ، بل المراد من نعموا برضا الله وحسن جزائه .

ولما كانت المقابلة بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين ، فقد قدم الأول على الثاني في الذكر ، وإنما جمع بينهما لأن العبد كما قلنا آنفاً كلما اشتد قرب من ربه ، قويت حيلته لطريق فوزه وسلامته ، واشتد بغضه لمن لم ينالوا بالطاعة والتقرب رضا ربهم ، فكان عن ذلك المبالغة في بيان كل من يترب من ربه أن يجنبه طريقهم باستقصاء عناوين الطوائف الذين حادوا عن الجادة ولم يهتدوا سواء السبيل .

ومن هذا تدرك ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من تصوير الفطر السليمة في تدرجها في الاتصال بربها وترتيبها في ما تطلبه إليه وفق قربها منه وقوة علاقتها به .

فإن الفطر إذا سلمت وحاطها من الشئون ما يعود عليها بالصقل والاستئارة ترى أنها أول ما تشعر به هو ما تحسه من نعمة وما يحوطها من رحمة يبعثها نحو الثناء على الله وحده لما تدركه من حياطتها بصانعه منذ تكويناها من الطين إلى أن بلغت مبلغ التفكير والاستنتاج وترتيب المعلومات فهي إذ تدرك نشأتها وتقلاتها في حياطة ربها وفي صيانة من رحمته تنبعث إلى اختصاصه بالحمد والثناء فإذا اتسع أفقها في التفكير وانبعثت إلى الخلوص من حيرتها في أن هذا العالم علويه وسفليه وما احتواه من أنواع وأجناس من ناطق وغير ناطق كيف يكون ذلك النظام البديع والملك المتقن إنما هو لتلك الأيام المحدودة التي تنتهي بموت الناس وفنائهم . هذه الحيرة وذلك التردد يبعث النفوس إلى الحكم بأن وراء تلك الحياة حياة أسمى من تلك الحياة وفيها يتفاوت الناس وفق تفاوتهم فيما أتوا في حياتهم من سيء أو حسن ومن خير أو شر . ذلك هو يوم الدين يوم الجزاء العادل يوم إقامة الموازين . فإذا بلغت الفطرة ذلك وأن هناك حياة أسمى من تلك الحياة فيها المقارنة العادلة بين أفراد البشر التجأت الى التقرب من خالقها حتى تؤدي واجب النعم في الدنيا وتحظى بالجزاء الحسن في الآخرة ، فيعلن في خضوع أنها تعبدوه وتقده ولا تعبد غيره ولا تقدر سواه وإذ تحس الفطرة بواجب العبودية وأنه عظيم قد لا نستطيع له أداء أضطرت إلى سؤال معونته تعالى فإذا عبت وسألت المعونة اشتدت حيلتها فسألته تعالى الهداية إلى أوثق طريق يؤدي للغاية طريق الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين . وبهذا تكون سورة الفاتحة قد أجمل فيها كل ما جاء مفصلا في الكتب السابقة وفي القرآن فإنها لم تعد شرح ما لله من نعم توجب حمده وبيان وعد ووعد يوجب اتقائه وخوفه كما يوجب الرغبة فيه والسعي في سبيل رضاه ورسم طريق لما يؤدي به واجب العبودية وما توفي به مظاهر التقديس مبينة طريق الحق الذي سلكه الفائزون وسار عليه المحسنون .

نسأل الله تعالى أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير

المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين ؟

بهاء الدين السبكي

لفقيه الأئمة الشيخ عبد الله مصطفى المراغى

مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نختم بهذا المقال تراجم السبكيين المصريين الذين شغلت بهم مناصب القضاء حقبة طويلة من الزمن وطلبهم مناصب الفتيا والقضاء المصرية والشامية فأثبتوا كفاءة ممتازة وكان عندهم معين صاف من العلم يرده الظالمون المتعششون للإفادة الطالبون لحكم الدين فيما يعرض لهم من حوادث الزمن وما هم في حاجة إليه من حكم الشريعة الغراء .

وهذا بهاء الدين رابع الثلاثة السبكيين وإسمه محمد بن عبد البر بن يحيى بن على ابن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد السبكي المسكنى بأبى البقاء كانت ولادته سنة سبع وسبعائة من الهجرة وتمذهب بمذهب الشافعى كعلماء أسرته وأظهر شيخ له نال العلم منه هو ابن عم أبيه تقي الدين السبكي الذى لازمه ملازمة طويلة فى أيام صباه حتى تخرج عليه . ومن شيوخه الآخرين الحجار والدبوسى وعبد الله بن على الصنهاجى والمزى والبرزالى والجزرى وعلاء الدين القونوى والقطب السنباطى ، وقد مهر فى اللغة العربية والفقه والتفسير وأصول الفقه وعلم الكلام . ولما ثبتت قدمه وتم نضجه العلمى واستولى على زمام العلوم الشرعية وعرف بين أهلها وذويها بالنبوغ واعترف له أقرانه بالتفوق وكال التحصيل تصدر - على عادة الشيوخ - للتدريس والافتاء فكان ينبوعا عذبا ينهل منه كل من أراد من طلاب العلم والمعرفة . وقال صاحب الدرر الكامنة : وذكر لى الشيخ شمس الدين ابن القطان أنه كان ممن أخذ عنه وأنه كان يضج إذا توجه عليه البحث وغالب من لقيناه كان يبالغ فى وصفه بالتحقيق والحذق ، وكانت له رحلات فى سبيل العلم وخدمة المصلحة العامة فقد دخل الشام مع الشيخ تقي الدين سنة تسع وثلاثين وسبعائة وناب عنه فى قضاء الشام ثم تولى قضاء طرابلس ثم عاد إلى القاهرة وتولى فيها مناصب جليلة فى القضاء فقد ناب عن القاضى عز الدين بن جماعة فى منصبه ثم أضيف إليه قضاء العسكر والنظر فى الأوقاف ثم خلف عز الدين فى وظيفته سنة ست وستين وسبعائة وظل يباشر شئون منصبه بما عرف عنه

من دربة وحذق وكياسة مع احاطة بشئون الحياة الاجتماعية والدينية ثم فوض اليه بعد ذلك قضاء الشام وظل قاضياً بدمشق إلى حين وفاته وقد اعترف له بالفضل العلماء الأفاضل من أهل زمانه فكان الاسنوى يقدمه ويفضله على أهل عصره وكان العماد الحسباني يشهد أنه يحفظ الروضة وكان هو يقول عن نفسه أعرف عشرين عالماً لم يسألني عنها بالقاهرة أحد .

وقد أتى عليه الذهبي ووصفه بأوصاف المبرزين في العلم الحاذقين لدقائق المسائل الغائضين في بحار العلوم والمعارف ، وقال عنه ابن حبيب : شيخ الإسلام وبهاؤه ومصباح أفق الحكم وضيأؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها كان إماماً في المذهب طراز الرداء المذهب رأساً لذوى الرياسة والرتب حجة في التفسير واللغة والنحو والأدب ثمة في الأصول والفروع قدوة لأرباب السجود والركوع مشهور في البلاد والأمصار سالك طريق من سلف من سائلة الانصار . درس وأفاد وهدى بفتاويه إلى سبيل الرشاد .

وهذه شهادة من ثمة تدل دلالة لا ريب فيها على أن مترجنا قد حاز الأوصاف التي تليق بالائمة العلماء العاملين الذين يزكون عن علمهم ويطهرون أنفسهم ويسخون بما وهبهم الله تعالى من تفتحه في الدين فهم يجدون بما حوته قلوبهم من معارف وإرشاد اسكل من قرع بابهم وطلب منهم النوال من أحكام شرعية وتوجيهات دينية ، وإن تنقله بين الشام ومصر وتعدد وظائفه في القضاء لدليل واضح على صلاحيته لأعباء الحياة ومشاركته لمجتمعه مشاركة البصير المستنير ، وذلك شأن العلماء الذين يشعرون من قرارة نفوسهم بأن واجبهم في الحياة التوجيه والإرشاد والاندماج في المجتمعات وتولى الشؤون التي لاتستقيم أمور الأمة إلا بها . وقد اختلفت كتب التراجم في ذكر مصنفات له فيقول صاحب شذرات الذهب في اخيار من ذهب طبعة مكتبة القدسي في الجزء السادس صحيفة أربع وخمسين ومائتين ما نصه : ومع سعة علمه لم يصنف شيئاً ، ويقول صاحب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة مطبعة دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد بالهند في الجزء الثالث صحيفة تسعين وأربعمئة وما بعدها ما نصه : ولم يظهر له من التصانيف شيء مع أنه كتب على الروضة وعلى مختصر ابن الحاجب الأصل ، وعلى المطلب لابن الرفعة .

توفي رحمه الله بدمشق في جمادى الأولى سنة ٧٧٧هـ ودفن بسفح قاسيون بتربة السبكين .

المسلم والقرآن

للدكتور محمد يوسف موسى

بهذا العدد تختم المجلة عامها الحاضر ، وبهذه الكلمة أوشك أن أختم فترة - إن لم أقل عهداً - من فترات حياتي العلمية ، فليكن الحديث فيها على بعض واجبات المسلم بالنسبة للقرآن ، ولا عجب : فنحن في الشهر الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

تحتفل مصر ، مثلها في هذا مثل كل بلد إسلامي ، بهذا الشهر المبارك بكلمات تنشر في الصحف وأحاديث تذايع بالراديو ، وإن كان الكثير من هذه الكلمات والأحاديث من المعاد المكرور الذي لا يكشف عن جديد ، ولذا نراها فقدت لذة الجديد وأصبح تأثيرها جديداً قليل .

على أن لرمضان وهو الشهر الذي اتصلت فيه السماء والأرض بنزول القرآن ، وهو الشهر الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل وأذل فيه الشرك وأهله في غزوة بدر الكبرى ، من الجلالة والكرامة والمنزلة ما يوجب أن يكون احتفالنا به على نحو آخر غير ما ألفنا كل عام .

أريد أن أقول بأن رمضان وهو موسم خير وبركات يجب أن تتجدد فيه العزائم وتتعقد الإرادات على أن نكون خيراً مما نحن ، وعلى أن تنهض فيه حياة عزيزة خير من الحياة التي نحياها الآن ؛ وهذا ما لا يكون إلا بعد أن تفهم القرآن حق الفهم ، وأن نتعرف ما جاء به من هدى وبينات ، وأن نلجأ إليه فنتخذ فيه مثال المسلم الكامل الذي يعرف مكانه في الحياة ومركزه في قيادة العالم .

١ — لقد آن للمسلم ، منذ زمن طويل أن يظفر بتفسير للقرآن يستغنى به عن التفسير التي ورثها عن القرون الوسطى والتي أصبحت لا تلائم روح العصر الذي نعيش فيه ، هذه التفسير ، المذهبية ، والمليئة مع هذا بما لا يتفق مع الحق من الإسرائيليات وغير الإسرائيليات . نريد تفسيراً وسطاً بين الإطناب والإيجاز

تتجلى فيه روح القرآن العظيم ، عقيدة وتشريعاً وأخلاقاً وتقاليد طيبة ، فى التمسك به عز الدنيا والآخرة ، تفسيراً يعرف منه المسلم أمور دينه ودنياه فى سهولة ويسر ، تفسيراً صالحاً للنقل إلى كل لغات العالم الحية ليعرف غير المسلم ما هو القرآن وما هو الإسلام الذى يقوم على هذا القرآن .

مثل هذا التفسير أصبح ضرورة لازمة وفرضا على الأزهر ورجاله ، بل فرض عين على القادر منا بما وهب الله له من العقل النافذ والأسلوب الممتع العربى المبين ، وممكن له من قلوب الناس . متى ، إذاً ، نرى من يعكف على هذا المهم الجليل يقف عليه وقته وجهده ، ويخرجه للعالم أثراً يبقى على الزمن ؟ مثل هذا العمل الجليل يكون خيراً للإسلام والأزهر ولمن يقوم به من الاصطلاح بأكثر المناصب فى الأزهر ، ولعل الله يفتح له قلب من تغنيه بهذا الحديث لى هذه الناحية فيقبل عليه مصحوباً دائماً بعون الله وتأييده ، وبخاصة وما ظهر له حتى الآن من دروس أو محاضرات فى التفسير يجعلنا نتق بأنه المرجى المأمول لهذا العمل الكبير .

والقرآن فيه ، مع هذا ، هدى ، فيما يختصم العالم اليوم بسببه من مشاكل السياسة والحكم والاقتصاد . إن فيه المذاهب المثلى فى كل هذه النواحي الحيوية ، وفيه - بصفة خاصة فى المشاكل الاقتصادية - المذهب الذى يحقق العدالة الاجتماعية كاملة بين أبناء الوطن الواحد . وكل ما علينا ، لنعرف هذا المذهب ، أن نقرأ القرآن لهذا الغرض ، وأن تدبره حين نقرؤه ، وأن تضمم للآية ما يتصل بها من حديث الرسول ، ثم نضم لهذا أو ذاك شواهد من التاريخ الإسلامى الصحيح فيها لإيضاح وتطبيق لأصول هذا المذهب الذى يدعو إليه .

إنه ليس من الكرامة ولا من العقل فى شيء أن نولى وجوهنا شطر الغرب نلتمس لديه ما نحتاج من نظم سياسية أو مالية ، ولدينا القرآن لم نستخرج منه بعض ما يذخر به من كنوز !

سنجد إن درسنا القرآن هذه الدراسة ، أنه حين أباح الملكية الخاصة قد قيدها بقيود لا تبيح أن يكون منا من يملك الآلاف ومن لا يملك قوت يومه بانتظام ؛ وأن للفقراء فى الأموال التى تحت أيدي الأغنياء حقوقاً أخرى غير الزكاة المعلومة المفروضة ؛ وأن الإسلام حرص على أن يكون المجتمع الإسلامى كله متماسكاً

متضامناً ، لافرق بين المسلم وغير المسلم ، بحيث يجد كل من أعضائه العون حين الحاجة له من صغر أو زمانة أو كارثة حلت به مع الفقر ، وهذا ما يسمى في عرف الاقتصاديين المحدثين ، بالضمان الاجتماعي .

متى نعود للقرآن نفهمه ونتخذه لنا مثالا ؟ متى يارب متى ؟ ومتى يصرف الشباب في البلاد الإسلامية وجهه عن هذه الحياة التي يحياها ، ويولى وجهه نحو القرآن يتخذه إماما ؟

٢ — يرى شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، ، ورأيه الحق ، أن هذا الجيل ليس حياً قائماً بنفسه ويفكر بعقله ، بل إن حياته عارية من الغرب فصار ظلاً لأوروبا ، وهو في ذلك يقول (*) :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ؛ مصقول الوجه ، مظلم الروح ؟ مستنير العقل ، كليل البصر ؛ ضعيف اليقين ، كثير اليأس هؤلاء الشباب أشباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، وبين الأجانب من تراثهم الإسلامي كنائس وأدياراً . شباب ناعم رخو كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية . إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون كفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم في ذلك .

« عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم ، وقلوب لا تذوب بالقوارع . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول الماديات . قلوبهم لا تتلقى الخواطر ، وأفكارهم لا تساوى شيئاً ، حياتهم جامدة واقفة متعطلة ، .

٣ — هذا هو وصف شباب الجيل الحاضر في رأى إقبال ، ويحسن بجانبه أن نذكر رأيه في المسلم كما يجب أن يكون :

(*) هذه النقول وما يحىء بعدها عن الرسالة اللطيفة القيمة التي أصدرها هذه الأيام ضيف مصر الأستاذ الكبير أبو الحسن على الحسيني الندوي واسمها : « شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، وهي رسالة يجب على كل مسلم استيعابها وتدبرها .

«المسلم المثالى هو - فى رأيه - الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وبقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بأفاقته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الخميرة .

«وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ورسالته ؛ ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول .

«هذا المسلم - فى رأى إقبال - لم يخلق ليندفع مع التيار ، بل خلق ليوجه العالم ويملى عليه إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، بل مقام الإمامة والقيادة ، وإذا تنسك له الزمان وعصاه المجتمع لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسلم الدهر ، بل عليه أن يشور عليه وينازله حتى يقضى الله فى أمره ؛ وبذلك يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفه الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد . وفى هذا يقول «إقبال» ، متمثلاً :
 «سألتى ربى : هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ، يا ربى ! قال : خطمته ولا تنبالى !» .

وأخيراً ، يرى «محمد إقبال» ، أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الضعفاء الأقرام . وفى هذا يقول فى بعض شعره : «المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى بنفسه فهو قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد» . كما يقول : «إذا أحسن المرء تربية شخصه ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه» . وبعد : هذه الصورة للمسلم المثالى فى رأى إقبال ، مع بيان مكان هذا المسلم فى العالم ، ليس لنا فيه من فضل إلا فضل الناقل لبعض ما يستحسن ؛ لعل فى ذلك ما يفتح أعيون النائمة ، ويسمع الآذان الصم ، ويهز القلوب التى جمدت مع الدهر لتخشع لذكر الله وما نزل من الحق . ولعل فى ذلك أيضاً ما يلفت شبابنا عن الحياة الهزيلة المساجنة التى يحياها ، إلى الحياة الجادة السكريمة التى نرجوها له ، وبالله التوفيق ؟

مذهب الامام مالك

في الأندلس والمغرب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجواد رمضان

فتحت الأندلس والخلافة الإسلامية في دمشق ؛ وإمام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعي ؛ يتفقهون على مذهبه ، ويتبعون على فروعه ؛ وإنما جند الأندلس شعبه من أهل الشام ، فكان طبيعيا أن يحملوا مذهبهم إلى مهجرهم الجديد ؛ فأقام الأندلسيون على مذهب الأوزاعي ، طيلة عهد الولاة ، وصدرا من عهد بنى أمية ؛ ثم تحولوا عنه إلى مذهب الإمام مالك ، في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) .

ولعل مرد ذلك التحول ، إلى ما حكاه العلامة ابن خلدون ، من أن رحلة الأندلسيين كانت - غالبا - إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم ؛ فاقترضوا على الأخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم ، مالك بن أنس . وإلى أن البداوة كانت غالبية على أهل الأندلس في أول أمرهم ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ؛ فسكانوا إلى أهل الحجاز أميل ، لمشاكلتهم لهم في البداوة ، فلما تحضروا ، قاسوا الأمور بأشباهها ، وجروا في التشريع مع العمران .

وقال ابن حزم : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما ، بالآسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة ، فإنه لما ولي النضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله في الدولة الإسلامية : من أقصى المشرق ، إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه .

ومذهب مالك عندنا بالأندلس ؛ فإن يحيى بن يحيى الليثي صاحب الإمام مالك ^(١) كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول في النضاء ، وكان لا يلى قاض

في أقطار الأندلس ، إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ؛ والناس سراع إلى الدنيا ؛ فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ؛ على أن يحيي لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ؛ وكان ذلك زائداً في جلاله عندهم ، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم .

وكان القضاء مأمورين بالحكم بمذهب مالك ، لا يجوز لهم أن يقضوا بغيره ، وإن خالف رأيهم واجتهادهم .

فنزح بن سعيد البلوطي (٢٢٣ - ٣٣٥) قاضي الجماعة ، قاضي القضاء ، لعبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ ، كان ظاهرياً ، يحتج لمذهب داود ويأخذ به في نفسه ، فإذا جلس للقضاء ، قضى بمذهب مالك وأصحابه ، لأمر الخليفة بذلك ، وقد كانت هذه المسألة موضع نزاع بين فقهاء الأندلس ، انشعبوا فيه إلى فرق ثلاثة ، إحداها تصحح التولية والشرط ؛ والثانية تبطلهما ؛ والثالثة تصحح التولية ، وتلغى الشرط ، قياساً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد إذا اقترن بالبيع .

* * *

ولما قامت دولة المرابطين بالمغرب (٤٤٨ - ٥٤٩) وضم عاهلهم يوسف ابن تاشفين جزيرة الأندلس إلى ملكه (٤٨٥) اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولي أحداً من قضائه ، عهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة في جليل ولا حقير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاء في عهده ، أعظم مما بلغوه في الصدر الأول من فتح الأندلس ؛ ولم تزل أمور المسلمين راجعة إليهم ، وشريعتهم موقوفة عليهم ، طيلة حكمه ؛ فانصرفت إليهم وجوه الناس ، واتسعت مكاسبهم ، وكثرت أموالهم ، حتى قال فيهم الشاعر الجياني أبو جعفر بن البني :

أهل الرياء لبستمونا موسم كالذئب أدج في الظلام العاتم
فلمسكنمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصغ صبغت لكم في العالم

يعرض بالقاضي ابن حديد قاضي قرطبة للمرابطين ، ثم يصرح بهجائه بعد ذلك فيقول :

أدجال ، أوان الخروج ويا شمس لوحى من المغرب
يريد ابن حمدين أن يعتق وجدواه أنأى من الكوكب
إذا سئل العرف حك استه ليثبت دعواه فى تغلب !

وكان ابن حمدين ينتسب إلى تغلب . ولا تخفى قوة البيت الأخير ؛ وهو من قول جرير للأخطل :

والتغلبى إذا تنحى للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

* * *

ولم يكن يحظى عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلا من عِلِمَ عِلْمَ فروع مذهب مالك ، فنفتت فى ذلك الزمن كتب المذهب أو عمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بغض الفقهاء إليه علم الكلام ، فكان يصدر المنشورات إلى مختلف البلدان ، بمنع الخوض فى شىء منه ، وتوعد من يملك شيئاً من كتبه بالوعيد الشديد ؛ ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى بلاد المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم ، واستئصال المال ، لمن وجد عنده شىء منها !

* * *

ولما قامت دولة الموحدين ، على أنقاض دولة المرابطين ؛ وتولى من عواهلها أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥) وكان من الصالحين المتبتلين ، خامرته فكرة محو مذهب مالك من بلاد المغرب جملة ، كما خامرت أباه وجده من قبل ؛ فقد أخبر الحافظ بن الجذ : قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة ، التى أحدثت فى دين الله ! أرأيت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فى أى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؛ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لى ، وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى سنن أبى داود وكان عين يمينه ، أو السيف .

فأمر أبو يوسف هذا ، جماعة من علماء الحديث بجمع أحاديث المصنفات العشرة : الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسندا بن أبي شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى ؛ فى الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها ، داعيتهم محمد بن تومرت فى الطهارة ؛ فلما جمعوها ورفعوها إليه ، كان يملئها على الناس بنفسه ، يأخذهم بحفظها ، ويسنى عليه الجوائز من السكسا والأموال .

ثم تقدم بإحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم ، فكان يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، وتطلق فيها النار ، فى مختلف البلاد ؛ فكان بما أحرق : مدونة سخنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وغير ذلك كثير . وكان تهديده المروع كافياً فى صرف وجوه الفقهاء عن البحث فى الفروع إلى طلب علم الحديث ، الذى كفل طلابه ، وقربهم ؛ ولما نرى إليه حسد الموحدين لهؤلاء الطلاب ، جههم بقوله : يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فن نابه منكم أمر ، فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء — يعنى الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا ، فهما نابهم أمر . فأنا ملجؤهم ، وإلى فزعهم ، وإلى ينتسبون .

فعظم ذلك من أمرهم ، وحمل الموحدين على المبالغة فى برهم وإكرامهم .



وكان صلاح أبي يوسف هذا صلاح المؤمن المستتير المثبت ، الذى لا تهفو به العاطفة ، ولا يميل به الهوى ، عن جادة الاعتدال ؛ روى أنه حينما حج ، اجتمع فى حجر الكعبة بالشيخ الصالح أبي العباس أحمد بن مطرف المرى ، فقال له : يا أبا العباس ، إشهد لى بين يدي الله عز وجل ، أنى لا أقول بالعصمة (يعنى عصمة محمد بن تومرت) وكان الموحدون على أنه الإمام المهدي المعصوم .

وقال بعض علماء جيان : لما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وقعة الأرك التى أوقع فيها بالأذفنش ، قدمنى أهل جيان لتكليمه ، فرفعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضائه وولاته وعماله على ما جرت به عادته ، فلما فرغت من جوابه ، سألنى كيف حالى فى نفسى ، فتشكرت له ، ودعوت بطول بقائه ؛ ثم

قال لى : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام (يعنى ابن تومرت)
فنظر إلى نظرة المغضب وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حكمك ان تقول :
قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئاً من السنة ، ثم بعد هذا قل ما شئت ! .

وكتب قبل خروجه إلى بعض غزواته ، إلى جميع البلاد بالبحث عن
الصالحين وحملهم إليه ، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة ، كان يقدمهم بين يديه
كلما سار ، فإذا نظر إليهم ، قال لمن حوله : هؤلاء الجند ، لا أولئك (ويشير إلى
الجيوش) وكأنه فى هذا متأثر بما حكى عن قتيبة بن مسلم وإلى خراسان ، حين لقي
الترك ، وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثّر السؤال عنه ، فيخبر
أنه فى ناحية من الجيوش ، متكئاً على سية قوسه ، رافعاً أصبعه إلى السماء ، ينفض
بها : فيقول : لأصبعه تلك ، أحب إلى من عشرة آلاف سيف ! .

ولعل الغلطة التى يتقف فيها التاريخ عاتبا ، بل غاضبا ، تلك الخنة التى امتحن بها
فى أيامه ، الفيلسوف الإسلامى العظيم أبو الوليد بن رشد : فقد ذكر المؤرخون :
أن أبا الوليد كان يشرح كتاب الحيوان لأرسططاليس ، فقال عند ذكر الزرافة ،
وكيف تتولد ، وبأى أرض تنشأ : وقد رأيتها عند ملك البربر ؛ ونبى ذلك إلى
أبى يوسف ، فاضطغنها عليه ، إلى أن سعى به عنده بعض منائيه من أهل قرطبة ،
ورفع إلى أبى يوسف ملخصات بخط ابن رشد ، يقول فيها حاكيا عن بعض قدماء
الفلاسفة ، بعد كلام تقدم : فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة . فاستدعاه ، بعد ان
جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة ؛ فلما حضر أبو الوليد
رحمه الله ، قال له ، بعد أن نبذ إليه بالأوراق : أخطك هذا ؟ فأنكر ، فقال
أبو يوسف : لعن الله كاتب هذا الخط ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه
على حال سيئة ، وإبعاده ، وإبعاد من يتكلم فى شيء من هذه العلوم ، وتقدم إلى الناس
بترك هذه العلوم جملة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب
والحساب ، وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ
سمت القبلة . ولسكنه لما رجع إلى مراکش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم
الفلسفة ، واستدعى أبا الوليد إلى مراکش ، للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر
أبو الوليد رحمه الله إلى مراکش ، ففرض بها مرضه الذى مات منه سنة ٥٩٤ هـ ،
ومات أبو يوسف أمير المؤمنين بعده بيسير .

لغويات

نفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

عبدان - عبادان

يتردد ذكر هذا الاسم في هذه الأيام على صفحات صحف الأخبار وغيرها في الحديث عن نفط (بترو) إيران .

ففي مقال « البترول في إيران » المنشور في مجلة الكتاب (جزء يونيه ١٩٥١) :
« ويإيران أكبر معمل لتكرير البترول في العالم ، يكرر يومياً نصف مليون برميل من الزيت الخام ، ويقع هذا المعمل في عبدان على الخليج الفارسي ، وفي « مصرى » يوم ٥ يونية سنة ١٩٥١ : « ونفى السيد فاطمي الأنباء المغرضة التي أذيعت عن وجود اضطرابات في منطقة عبدان وخوزستان » .

وقد درج الناس على كتابة هذا الاسم بالصورة الأولى « عبدان » . وهذا خطأ في الرسم ، صوابه : عبادان .

وعبادان مدينة قديمة تقع في رأس الخليج الفارسي ، وتنسب إلى عباد ابن الحصين الحبطي من قواد الحجاج . وقد ألحق بكلمة « عباد » المقطع « ان » ، ليدل به على النسبة ، فعبادان معناها في هذا الاصطلاح : عبادي أو عبادية . ويقول يا قوت في معجم البلدان في الكلام على هذه المدينة : « وأما إلحاق الألف والنون

أما بعد ، فإذا جرت عوادٍ بالسعد والنحس ، على مذهب الإمام مالك ، فطغى سلطانه حيناً على العناية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وضعف شأنه حيناً ، حتى كاد يمحى احياء ؛ وعلى أبي الوليد بن رشد وفلسفته ، فسما مكانه وسميت ، عند أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ؛ وهبط وهبطت إلى الحضيض ، عند ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن . أقول : لئن جرت هذه العوادى بالسعد والنحس ، كما جرت على كثير من عظماء العالم ورجال التاريخ ، لقد محت أيدي الزمن فضول الإسراف ، فاعتدل الغالى ، وارتفع الهابط ؛ وبقي مذهب مالك حياً ، وبقيت فلسفة ابن رشد حية ، لأن الحق والعلم لا يموتان ؟

فهو لغة مستعملة في البصرة ونواحيها : أنهم إذا سموا موضعاً أو نسبوه إلى رجل يزيدون في آخره ألفاً ونونا ؛ كقولهم في قرية عندهم منسوبة إلى زياد بن أبيه : زيادان ، وأخرى إلى عبدالله : عبد اللاهان ، وأخرى إلى بلال بن أبي بردة : بلالان .
لست أفيك حتمك .

يكثر هذا الاستعمال في هذا العصر . فيقال : أنا عاجز عن شكرك على ما أسلفت من يد ، ولن أفيك — مهما اجتهدت — حتمك .
وقد وقع هذا في نثر الكتاب ، وشعر الشعراء .

ففي مقال في مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول سنة ١٣٧٠) في الحديث عن القصص الانكليزية العبقري ، برناردشو : « ولسنا نستطيع أن نفى الرسالة الشوئية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الانكليزي الذي اتجه به شو اتجاهها واقعياً » .

وفي ديوان لشاعر معاصر ذي خطر وشأن :

فلست أفيك بعض المدح شعرا ولست أفيك بعض المدح نثرا
وفيه : فاعذر فلست بمن تفيه قصيدة .
وفيه أيضاً : يا دسوقي لا يفيك مديحي .

وهذا الاستعمال لا تتمره اللغة ، ولا هو يجري على مناهجها . وإنما ينبغي أن يقال : لست أوفيك حتمك ، وأفيك حتمك ، من أوفى ووفى . وفي اللسان : « أوفى الرجل حقه ، ووفاه إياه بمعنى أكمله له ، وأعطاه إياه واقياً . وفي التنزيل العزيز : « ووجد الله عنه وفاه حسابه » . ويقال : أوفيته حقه ، ووفيته أجره » . وفي المصباح : « وقال الفارابي أيضاً : أوفيته حتمه ، ووفيته إياه ، بالتثقيب ، فأما وفي فإنما يأتي لازماً ، يقال : وفي بالعهد ، فهو وفي من قوم أوفياء ، على أن أوفى قد يأتي لازماً كوفي ، وقد جمع الشاعر بينهما فقال :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته كما وفي بقلاص النجم حاديها
الرسالة الشوئية ، الشوئية

وقع البحث في النسبة إلى شو ، وهو الكاتب الانكليزي « برناردشو » الذي طبق ذكره الآفاق بما أبدع من قصص سارت مسير الشمس في الشرق والغرب .
و « شو » هذا اللفظ يلحق بما وضع في العربية على حرفين ثانيهما حرف علة ؛

كلو، وفي، ولا . وتوجب قواعد النحو أن تزداد أمثال هذه الكلمات الثانية عند النسب حرفاً لتحور ثلاثية، فيلحقها علم الإفاضة بعد اكتتالها . ومن الجلى أنه لا ينسب إلى هذه الحروف إلا بعد أن تجعل أعلاماً على أنفسها أو على غيرها فإذا أكثر إنسان من لفظ لو صح أن ينسب إلى هذا اللفظ، وترى أن (لو) في هذا الموطن علم على لفظها . وقد يسمى من يغلب عليه لو لوّا . ولو أريد إعرابها بعد التسمية فلا بد من ردها ثلاثية أيضاً .

وتثليث هذه الثلاثيات بتضعيف الحرف الثانى، فيقال: لو، وفي. ومن شواهد ما نحن فيه قول الشاعر :

الأم على لو، ولو كنت عالماً بأذئاب لو لم تفتنى أوائله
وعلى هذا إذا نسب إلى لو قيل : لوى .

وعلى مثالها إذا نسب إلى (شو) قيل : شوى

ويرى بعضهم بدلاً من تضعيف الحرف الثانى أن يزداد همزة، أيا كان الحرف . فيقال فى النسب إلى لو على هذا : لوئى

وعلى غرار هذا يقال فى النسب إلى (شو) : شوى .

وعلى هذا النهج جرى كاتب مقال « فجيعة الشرق فى مهاتما الغرب » المنشور فى مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول ١٣٧٠) إذ يقول : « وقبل أن نخوض فى جوانب الرسالة الشوئية المتشعبة، نحب أن نلم على عجل بنشأة الأديب التى كان لها أثر عميق فى توجيهه » .

وقد كان الوجه الأخير فى النسب موضع إنكار . ذلك أنك لا تكاد تجد فى كتب الصرف غير الوصية بتضعيف الحرف . ولكننا نرى فى شرح الرضى للشافية ٦٠/٢ : « ولوى، ولوئى، فيمن يكثر لفظه لو، وكتب الفضلاء المحققون للكتاب : « بعض النسخ سقطت كلمة (لوئى) ، والصواب ثبوتها . وأراد الشارح بذلك الإشارة إلى ما حكى عن بعض العرب : من أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعد حرف العلة همزة على الإطلاق، فيقول : لائى، وكئى، ولوئى، وما أشبه ذلك » . وهذا الكلام مأخوذ من كلام الرضى ^(١) ، وقد أحببت أن أسوقه لما فيه من تجلية البحث : « وإذا كان ثانى الثانى حرف علة وجب تضعيفه إذا أعربته ، سواء جعلته علماً للفظ أو لغيره ؛ نحو لو، وفي، ولا، وهو، وهى . تقول :

هذا لو ، وفي ، ولاء ؛ زدت على ألف لا ألفاً آخر ، وجعلته همزة تشبيهاً برداء وكساء . وإنما وجب التضعيف لأنك لو أعربت بلا زيادة حرف آخر لسقطت ^(١) حرف العلة للتونين ، فيبقى المعرب على حرف واحد ، ولا يجوز وحكى عن بعض العرب أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعد حرف العلة الثانية همزة بكل حال ؛ نحو لوء ، وفيء ، ولاء ، والأول - أى التضعيف - أولى ؛ لكون المزيد غير أجنبى ، .

هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء

يجرى هذا الأسلوب كثيراً فى معرض تقرير التماثل بين شيئين واستوائهما . وفيه تكرار سواء مقروناً بباء الجر . والمعروف فى اللغة لإفراد سواء . وبحسب المتكلم فى إفادة غرضه أن يقول : هذا الكتاب لهذا الكتاب سواء . ويقال : الكتاب سواء ، والرجلان سواء فى العلم .

وقد وقع السؤال عن هذا الأسلوب ، سواء بسواء ، ، وهل ورد فى المأثور عن العرب . والباحث لا يرى المعاجم اللغوية عرضت له . غير أنه جاء فى حديث الربا قوله صلى الله عليه وسلم : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد . وقد جاء هذا الحديث فى مسلم وأبو داود ، بل قيل إنه فى الستة ما عدا البخارى . وإذا جاء الحديث بلفظ واحد مع تعدد رواته وطرقه ، قوى الظن أنه لفظ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضعف احتمال الرواية بالمعنى فيه .

ونرجع إلى الحديث . فالمراد أن يباع المثل بمثله ، والسواء بسوائه . فالباء فى (سواء) حرف جر أصلى ، هى باء المعاوضة والمبادلة . وهل يأتى هذا فى مثالنا : هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء ؟ وفى الحق أنه لا يظهر هنا معنى المعاوضة كما يظهر فى الحديث . وهذا يتقودنا إلى القول بأن الأسلوب الجارى على الألسنة احتذى به الحديث فى غير دقة وسداد .

وقد خطر بالذهن أن الباء فى (سواء) فى الاستعمال الشائع زائدة دخلت على سواء ، وهو تأكيد لفظى ، كما تدخل على التوكيد المعنوى فى قولك : جاء زيد بنفسه ، ولبعينه .

وهذا التخريج لا بأس به ، وإن كان يضعفه أن زيادة الباء يقتصر فيها على موارد المسموعة ، وليس هذا الموطن منها . والله يتولانا بالهداية إلى الصواب .

(١) يجرى الرضى على تأنيث الحرف لتأوله بالكلمة ، ولذلك يؤنث الفعل له .

ضيق الصدر

والازمات النفسية

لفضيد الأستاذ الشيخ على رفاعي

مفتش الوعظ

إن ضيق الصدر وما يحدثه من ويلات، وأزمات النفس وماتسيه من كوارث وفنادر الصبر وما ينتج عنه من بلاء وعناء . كل أولئك من الأمراض الخطيرة ، التي كثيراً ما تؤدي بأصحابها إلى سوء المصير - وتجعل حياتهم جحيماً لا يطاق . ولما كان لكل داء دواء ، ولكل علة طريق يفضي إلى الشفاء ، والإنسان إن لم يعالج مرض جسمه هلك ، والنفس كالجسم إن مرضت تحتاج إلى علاج ، وعلاجها بدواء يناسبها . وتركها بدون علاج يذبل زهرتها ويطفىء نورها - لما كان الأمر كذلك . وجب علينا أن نبحث متلبسين طريق الخلاص من مرض ضيق الصدر وما يسببه للنفس من كآبة وحزن ونحن إذا تعرفنا على علة الداء . أصبح من اليسير القضاء عليه قبل أن يستفحل ، ولقد قضى الحكيم العليم . أن تكون الحياة ميداناً صاخباً بالهموم والأحزان . حافلاً بالرزايا والنوائب . مانجاً بالآلام والأسقام ، تصطرع فيه النكبات . وتتراحم على أهله النازلات . والإنسان بين ذلك في جهد وتعب . ومشقة ونصب . خلقه الخالق العظيم وأراد به ذلك ، وفي هذا يقول جل جلاله : « لقد خلقنا الإنسان في كبد ، سبحانه ربى علمت بحكمتك الأزلية فقضيت ولا راد لنقضائك . فلا يزال الإنسان في شدائد . فن ظلمة الرحم ومضيقة إلى اضطراع في الحياة وجهاد مرير ، ثم يعقب ذلك النازلة الكبرى - الموت الذي يضع حداً فاصلاً بين معتركين . معترك الحياة الدنيا - والدار الآخرة - وللإنسان في هذه الحياة الدنيا آمال يرجو تحقيقها يحسدوه الرجاء . ويتملكه القلق . لآمل ينشده ويخشى الحرمان منه . أو لشر يحذره ويخاف وقوعه . . وقد يضيق صدره . ويخيم الحزن على قلبه . وتطير نفسه شعاعاً لمحجوب فات نواله ؛ أو ضر نزل به . وقد يحدث ما نابه أو ما يتوهم أن يصيبه أزمة نفسية يغدوا بها كثيراً كاسف البال

يؤسأ موزع النفس ، فتراه ميتاً في صورة الأحياء . حياته شقاء . وعيشه عناء .
موته راحة له من الآلام . ولقد أدرك هذا المعنى وصوره أكمل تصوير من قال :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

فلاستسلام لضيق الصدر والأزمات النفسية داء خطر يوهن النفس ويضعف القلب ، ويتنظ من زوال الخطب . فيشتد الكرب . ويدوم السكد ويستمر النكد . فيجىء الغد كالأمس في غمه وبلائه ، ويلزم النفس التشاءم والتطير . وينقطع الرجاء ، ويستعصى الخلاص - وهذه جميعاً بلايا لا تجلب خيراً ولا تدفع شراً ولا ترد فائتاً . ولا تحقق أملاً . وفي ذلك سوء الحال . وشر المسأل وفي الحكم المروية - من قل صبره ، وعظم عليه أمره . وضاق عن حمل ما نزل به صدره فقد تبين كفره . فلا يؤمن على من كان الجزع من شأنه أن يذهب بإيمانه .

ويقول بعض العلماء : من كثر جزعه كثرت زلته ، وعظمت علته وبعد أمله وحبط عمله ، وكفى مرض ضيق الصدر قبحا أن الانتحار أثر من آثاره . وسيئة من سيئاته - وهو بعد ليس من صفات العقلاء في شيء . فالمصاب به عقله مختل وقلبه معتل ، ونفسه مريضة فلا يليق بالإنسان الذي جعل خليفة في الأرض . وخلق لغارتها وصلاحها أن يستسلم لهذا المرض الذي يقضى على الهناء ، وينغص الحياة ويهدم القوى ويحطم الأعصاب ويذيب الحيوية والنشاط ، ولنا في الأنبياء عليهم السلام أسوة وقدوة - فهذا موسى عليه السلام ، لم يستسلم لضيق صدره ، حيث لا ينطلق لسانه كما يريد - فطلب من ربه الذي أرسله . أن يعينه بأخيه هارون لأنه أفصح منه لساناً . فلا تحتل دعوته ولا تضعف حجته . وفي ذلك شرح لصدره وتيسير لأمره) قال رب اشرح صدري يسهل أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى أشد به أزرى وأشركه في أمري :) وفي آية أخرى قال الله سبحانه (وإذ نادى ربك موسى أن إئت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون . قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل لى هارون) .

ومن شرح الله صدره بالإسلام ، سهل عليه علاج نفسه من هذا المرض الخطير

وسعد بالشفاعة - وعليه فقط أن يبحث عن الطبيب الحاذق - ويستعمل ما يصفه من الدواء فسيجد السلامة منه . وطيبه في هذا إرشادات الإسلام ، فمن هديه الدعوة إلى الصبر والرضا بالقضاء والقدر ، وإحياء الرجاء في السلامة ، والحياة الصحيحة بالعمل على ذلك . وكل ذلك من شعب الإيمان .

وانقد حصء القرآن الكريم على الصبر في أكثر من سبعين موضعاً . وأضاف أكثر الدرجات والحسنات إليه ، وجعلها ثمرة له وطلب منا الاستعانة على كل أمورنا ، وما ينزل بنا بالصبر والصلاة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين » .

فاستعن بالصبر . وعالج أمرك بالروبة والحكمة . وحذار أن ينفد صبرك ، أو تعيا حيلتك . فالرجل كل الرجل هو الذى يتخذ من الهزيمة فى أمر من الأمور مطية للانتصار فى محاولة مقبلة . والعاقل الأريب هو الذى ينتفع بأخطاء قد تقع منه فيتجنبها ويسير على نهج سوى . ولا يستسلم لليأس فإنه قتال للنفس ، مثبت للهمم ، جالب للهموم والأحزان .

وعلى من ضاق صدره لأمر من الأمور ، أن يتذكر أن أيامه فى هذه الدنيا معدودة وأنفاسه محدودة . وأنه فى هذه الحياة ضيف ولا بد من الرحيل . فإذا أيقن بهذا ، فلماذا يكدر عيشه بضيق الصدر ، وينغص أيامه القصيرة بالأحزان والسكابة . إن كان ذلك للمال فهو إلى زوال ، وإن كان لسعة الرزق فقد تسكفل به الكبير المتعال - وعلى كل حال فالدنيا إما نعمة نازلة ، وإما نعمة زائلة : أولها عناء ، وآخرها فناء . حلالها حساب - وحرامها عقاب . ومن صح فيها أمن ، ومن مرض فيها ندم . ومن استغنى فيها فتن . ومن افتقر فيها حزن . ومن ساعاها فاته ، ومن تعد عنها أته . ومن نظر إليها أعتمه . ومن نظر بها بصرتة : ويرحم الله التماثل :

تمتع من الأيام إن كنت حازماً فإنك منها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

أيها المكتئب الحزين تمثل قول الحسن البصرى رحمه الله :

الدنيا كلها غمٌ فما كان منها من سرور فهو ربح .

دراسات في التصوف

الأمير المتصوف

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

استاذ في الأدب

يا من ترفع للذيها ودينها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلم فأنظر إلى ملك في زى مسكين
أبو العتاهية

كان يقوم في بلخ بخراسان ، في أوائل القرن الثاني الهجري ، قصر عال منيف ، يملؤه الخدم ، ويروح أمامه الحراس ، ويجيشون ، يقيم به أمير من نسل الملوك ، هو أدهم بن منصور بن يزيد العجلي ، من العرب ، من بني عجل ، أو من تميم ^(١) ، كريم الحسب ، عريض الثراء .

حزم الأمير أدهم رأيه على أن يؤدي لله بعض حقه بحج بيته الحرام ، فأعد العدة ، وسار ركبته ، يضم زوجه وخدمه نحو الأرض المقدسة الطاهرة ، فبلغها . وكانت الزوج حاملًا في شهورها الأخيرة ، وكأنما أراد الله لها أن تضع مولودها في أرضه المباركة ، فوضعت غلامًا ، واستخفها الفرح — بالغلام وبالميلاد في الأرض التي حملت على ثراها الرسول — فجعلت تطوف به في المسجد ، وتقول للناس : ادعوا لابني أن يجعله الله رجلاً من الصالحين ^(٢) .

وعلت وجوه الناس ابتسامة حلوة ، إذ هاجت فيهم عاطفة الأبوة ، فدعوا الله بقلوب خالصة خالية ، أن يحقق حلم الام ، وكأنما كانت أبواب السماء مفتحة ، فاستجاب الله لدعاء الداعين .

وعاد الحجيج - كل إلى بلده ، وعاد أصحابنا إلى بلخ ، وشب الرضيع غلاماً ،

ففتى يرتع في ثراء أبيه العريض ، ويحيا الحياة التي كان يحياها أترابه ، لهو وفراغ ، فإذا أضجره الفراغ بحث عن اللهو .

وكان أبوه قد حجب إليه الصيد ، فخرج يوما يصطاد ، وسار بين يديه نحو من عشرين شاكري^(١) ، فأثار أرنباً أو ثعلباً ، فتبعه بجواده ، وهو في نشوة السعادة بفتوة الشباب وفراغ الحياة . وسار به جواده يتبع الحيوان المسكين ، حتى بعد عن رفاهه ، فإذا به يسمع صوتاً يهتف به : « ليس لذا خلقت ، ولا بهذا أمرت » . فتوقف متلفتاً يبحث عن هذا المتحدث فلم يجد بجانبه إنساناً ، فظن الأمر وهما ، ولكن جواده يريد أن يسير ، فإذا بالصوت يخرج من قربوس سرجه : « يا ابراهيم ما لذا خلقت ولا بهذا أمرت »^(٢) .

وآن لدعاء الصالحين ، أن يستجيب له الله ، حين وقف الفتى المترف ، المدثر بالحرير والدمقس ، فصاح في نفسه : « أنبئت ، أنبئت ! جاءني نذير من رب العالمين . والله ما عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى » . وألقى الشاب المرفه المترف ثيابه الغالية ، ونزل عن فرسه المطم ، واستبدل كل هذا بحبة من صوف راع من رعاة أبيه ، ثم أخذ يضرب في بلاد الله .

وقد تختلف الرواية قليلا ، ولكن أساسها يبقى واحداً ، وهو أن الشاب الموسر الغنى المترف المرفه ، ترك الدنيا فجأة ، ونزع عنه أسبابها .

أو قد تختلف الرواية كثيراً . فتجعل الشاب جالساً في قصره ، يتفكر ويتأمل ، فيسمع ذات ليلة ليلة جليلة صاخبة فوق سطح القصر ، فلما ذهب الحراس يستطلعون الخبر ، فاجأوا قوما يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة ، فاقنيد هؤلاء المقتحمين للقصر إلى الأمير ، ولما سألهم : « هل حدث أن تفقد امرؤ إبله فوق سطوح المنازل » ، أجابوا : « نحن لا نعمل إلا اقتداء بك أنت الذى تسعى إلى الاتحاد بالله ، بينما أنت جالس على عرشك ، فهل لرجل فى مثل هذا المقام يستطيع أن يقترب من الله » ، فكان من هذا أن هرب الأمير من القصر ، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت^(٣) .

(١) الحلية ٣٧١/٧ . (٢) الحلية ٣٦٧/٧ ، الرسالة ٩ .

(٣) العقيدة والشریعة فى الاسلام - الترجمة العربية ص ١٤٣ .

ذكر هذه الرواية جلال الدين الرومي ، ومنها نستطيع أن نبين أمرين ،
أما أولهما فهو أن فكرة التصوف - أو الزهد - كانت موجودة قبلاً في نفس
إبراهيم ، وأما الثاني فهو اعتماد فريق من المتصوفة بأن سمو المسكنة يبعد المرء
عن الله ، وهي فكرة نستطيع بها أن نفهم تواضعهم وزهدهم في كل شيء ، عدا الله ،
بل ونستطيع بها أن نعلل سلوك الملامية وأن نعذرهم .

هجر إبراهيم إذن قصره ، وكل ما يربطه بالعالم ، حتى زوجته وأولاده ، ويرى
جولد تسيهر ^(١) . أن قصة إبراهيم بن أدهم تشبه في سماتها البارزة سيرة « بوذا » .
بدأ جوتامو بوذا حياته بهجره لعائلته ، والأسطورة المعروفة الشائعة عنه هي أن
أميراً ألقفه منظر المرض والشيخوخة والموت ، فتمرر أن يبحث عن الخلاص
من آلام الحياة ، فترك في ظلام إحدى الليالي قصره الملكي الباذخ ، وعائلته الحبيبة ،
ليبدأ حياته جواب آفاق فقيراً ، حياة راهب سائل . وقد تبدو هذه القصة خيالية
ولكننا نرى فيها أعمق المعاني ، تتناول مباشرة وبصراحة مأساة الحياة ^(٢) .

وإن كان بوذا وإبراهيم قد تركا الثراء إلى الفقر ، والعز إلى الزهد ، فتمت
كثيرون غيرهما فعلاً نفس الأمر ، وتاريخ التصوف الإسلامي يروى الكثير
عن أمثال إبراهيم بن أدهم ، وإن لم تكن لهؤلاء مثل شهرته : روى الـكتاني قال :
« كان بمكة فتى عليه أطمار رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، ف وقعت محبته في قلبي ،
ففتح لي بمائتي درهم من وجهه جلال ، فحملتها إليه ، ووضعها على طرف سجادته ،
وقلت له إنه فتح لي ذلك من وجهه حلال تصرفه في بعض أمورك . فنظر شزراً ،
ثم كشف عما هو مستور عني ، وقال : « اشتريت هذه الجلـسة مع الله تعالى على
الفراغ بسبعين ألف دينار ، غير الضياع والمستغلات ، تريد أن تحددني عنها بهذه .
وقام وبددها » ^(٣) .

ومثل هذا الزاهد العابد العارف كثيرون ، تركوا جميعاً الدنيا ونزعوا اليد
من الأسباب ، وأرادوا الله .

• • •

(١) المرجع السابق .

(٢) Great Age of world History, V. Stanka, 1946. P. 9

(٣) الرسالة ١٦٤ .

المتصوفة فريقان : فريق آثر الإقامة فلم يسافر إلا لغرض ، ومن هؤلاء الجنيد وسهل بن عبد الله والبسطامي ، وفريق آثر السفر ، فكان على ذلك إلى أن خرج من الدنيا ومن هؤلاء أبي عبد الله المغربي وإبراهيم بن أدهم .

آثر ابن أدهم التنقل والسفر ، فهو كصوفي يرى أن العالم كله وطنه ، والناس كلهم إخوانه . لا يفرقهم عنه وطن ولا دين ، حتى يقال إنه أخذ المعرفة عن راهب مسيحي اسمه أبو سمعان ^(١) .

ترك إبراهيم خراسان ، يرتدى فروا ليس تحته قميص ، ولا يلبس خفين ولا عمامة ، إذا كان الوقت شتاء ، أو يرتدى - صيفا - شتمتين ، بأربعة درام ، يتزر بواحدة ويرتدى الأخرى ، وسار أرض تضعه ، وأرض ترفعه حتى جاء العراق ، ومنها إلى مكة ، ثم البادية وبها لقي سفيان الثوري والفضيل بن عياض ^(٢) . وما لبث أن قصد بلاد الشام والثغور ، فتتقل في ربوعها ، جاعلا منها مركزه الرئيسي ، الذي يرجع إليه دائما بعد سفره الكثير . وهو لم يأت الشام للجهاد أو رباط ، وإنما ليشبع من خبز حلال ^(٣) .

ومات إبراهيم بالشام عام ١٦١ أو ١٦٢ للهجرة ، في خلافة المهدي العباسي . قال أبو نعيم : ، إنه مات في صائفة السفر بالبطن ، ، وهذا قول مردود ، كما سنرى بعد . أما المشهور في موته فهو أنه مات وهو يغزو في إحدى الجزر ببلاد الروم - كما يقول البستاني ، وإن كان الأرجح ، فيما أرى ، هو ما رواه فرج - مولى إبراهيم - من أنه مات في الجزيرة أثناء الغزو ، فحمل إلى صور ودفن بها في موضع يقال له « مدفلة » ، وعرف أهل صور قدره ، فصاروا يذكرونه في تشييب أشعارهم ، ولا يرثون ميتا إلا بدأوا بذكره . وقال القاسم بن عبد السلام إنه رأى قبره بصور ^(٤) .

هذا هو إبراهيم بن أدهم ، الذي عد واحد من أربعة كانوا أهل الورع في زمانه حتى إنه وأصحابه كانوا يمنعون أنفسهم أربعا : لذة الماء والحمامات والحذاء ، ولا يجعلون في الملح أجزارا . ^(٥)

وإلى العدد التالي لنكمل حديثنا عنه . [يتبع]

(١) الحلية ٨ / ٢٨ . (٢) خراساني من مرو ، وقيل ولد بسمرقند ، ومات سنة ١٨٧ هـ

كان يقطع الطريق ثم ناب . (٣) الحلية ٧ / ٣١٣ . (٤) الحلية ٨ / ٩ . (٥) الحلية ٧ / ٣٩٤

مِنْ طَرَفِ الْفَائِزِ الْحَكِيمِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفنى عوض الراجحي

مبعوث الأزهر بسلكية الشريعة الإسلامية في بغداد

نقتصر في مقالنا هذا على سبع مفارقات تتعلق بتشابه النظم في قصص القرآن الكريم حيث يكون المعنى واحد أو كالواحد يذكر في أكثر من موضع بعبارات تختلف تقديماً وتأخيراً وذكراً وحذفاً ونحو ذلك نكشف عن السر في ذلك تفصيلاً بعد ما عرف إجمالاً من أن ذلك مردود إلى التنوع والتنويع ومناسبة المقامات المختلفة لمقتضيات أحوالها المختلفة .

المفارقة الأولى . . في قوله تعالى في سورة الاعراف في قصة صالح : فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى . . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة شعيب . . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة نوح . . ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى . . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة هود : ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى : فقد كانت الرسالة في قصة صالح على لفظ المفرد وفي قصة غيره على لفظ الجمع فهل من سر لذلك . ؟ والجواب أن المؤدى في النهاية واحد لأن الرسالة بالنظر إلى وحدتها في حد ذاتها يصح أفرادها وبالنظر إلى ما تشتمل عليه من الأوامر والنواهي والإرشادات الكثيرة يصح جمعها لكن الأفراد بقصة صالح أوفق لأنه لم يحك عنه في القصة كثير من ذلك بل دار كلامه على الناقة والحث على إكرامها . . والجمع بقصص المذكورين من نوح وهو وشعيب أوفق فقد ذكر في قصصهم كثير من الجدل والأوامر والنواهي سيما شعيب الذى كان مرسلًا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة الأمر الذى يقتضى تعدد التبليغ وتكثر

الإرشادات وفي « ملاك التأويل » ما يعطى أن العرب في كلامها تضع الأكثر في متابلة الأكثر وبجواره والأقل في مقابلة الأقل وبجواره فحيث كان في قصة شعيب كثير من أوامره ونواهيه المتعلقة بالعبادة والموازن والمساكيل وقع التعبير بالرسالات جمعا . . . وحيث كان في قول قوم نوح له « إنا لنراك في ضلال مبين » كثرة وشمول حيث أرادوا أنه ضال في كل ما يأتي ويذر ضلالا بينا كان الرد عليهم بالرسالات جمعا في قوله ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي » وكذلك كان الحال في قصة هود حيث قال قومه له « إنا لنراك في سفاهة » والسفاهة مصدر سفه بالضم أرادوا أنها صارت له ملكة في كل ما يأتي ويذر فكان في ذلك شمول فناسب الجمع في الرسالة في رده عليهم « ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي . . . وحيث لم يذكر في قصة صالح شيء من ذلك اللهم إلا الناقاة وكفر قومه به جاء لفظ الرسالة مفردا .

المفارقة الثانية : في قوله تعالى في سورة هود في قصة نوح أرايتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة صالح أرايتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة شعيب . أرايتم أن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا . فالآيات الثلاثة في حكاية أقوال هؤلاء الأنبياء الثلاثة لأقوامهم لكن المفعول الثاني لفعل الإيتاء في قصة نوح وقع تاليا للفعل ومفعوله الأول لا فاصل بينهما وفي قصتي هود وشعيب وقع المفعول الثاني رحمة في الأولى ورزقا في الثانية مفصولا بينه وبين المفعول الأول وفعله بالجار والمجرور وهو قوله « منه » فهل من سر لذلك ؟؟ والجواب أنه حيث تقدم في قصة نوح في نفس السورة أفعال اقتضت مفعولين لا فاصل بينهما بمثل هذا الجار والمجرور وذلك في قولهم له : « ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك ابتعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » كان من الحسن انباع المتأخر بالمتقدم في الطريقة فلما كان التقدير في قولهم هذا نراك بشراً مثلنا . نراك متبوع الأراذل كان رده على نفس هذه الطريقة . . . آتاني رحمة من عنده بعدم الفصل بين المفعولين بجار ومجرور . . . وحيث تقدم في قصة صالح

في نفس السورة قول قومه في كفرهم « قد كنت فينا مرجوا قبل هذا » فوقع الجار والمجرور بين اسم كان وخبرها كان من الحسن اتباع المتأخر بالمتقدم في الطريقة بوقوع مثل هذا الفاصل بين المفعولين فتيل « وآتاني منه رحمة » وقريب من ذلك الواقع في قصة شعيب فأن ما في حكاية كلامه من تقديم الجار والمجرور على المفعول الذي هو الرزق شبيه بما سبقه في نفس القصة والسورة من قول قومه له « أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء » ، بتقديم الجار والمجرور على المفعول ..

وفي « ملاك التأويل » ما يعطى في سر هذا المفارقة جوابا آخر مؤداه أن قوم نوح ألقوا الشبه والكفريات على الأصل دون تقعير والتواء في الكلام فتمداتهم بالمشلية في البشرية واتباع الأراذل وكشفوه بظنهم كذبه وكذب اتباعه وقوم صالح تقعروا في الكلام وأسقطوا صالحا عن رتبة الرجاء في حاله فوقعت حكاية قول كل رسول على طريقة حكاية كفر قومه فكانت في قصة نوح على الأصل من تقديم المفعول وتأخير المتعلق به فتيل : « وآتاني رحمة من عنده » وكانت في قصة صالح على خلاف الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثاني « وآتاني منه رحمة » وقريب منه ما في قصة شعيب فقد كان قومه متقعرين ملتوين خارجين عن الأصل في قولهم له « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد » فكان في جوابه خروج عن الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثاني في قوله ورزقني منه رزقا حسنا .

أما التعبير بالرزق في قصة شعيب بدلا من الرحمة في قصتي هود وصالح فليناسبة الأموال والمكاييل والموازين المذكورة في قصته فإن لفظ الوزن بجوار ذلك أشكل وأوفق .

أما كون هذا الجار والمجرور في قصتي صالح وشعيب بلفظ « منه » وفي قصة نوح بلفظ من عنده فالمعنى ، وإن كان واحدا إلا أن زيادة العندية تفيد زيادة التمسك في المعنى وذلك أوفق بقصة نوح لما فيها في هذه السورة خاصة من الأطناب والزيادة في بيان جداله مع قدمه الذين كانوا كما نطق القرآن عنهم أظلم وأطغى ..

المفارقة الثالثة : في قوله تعالى في سورة الصافات في قصة إبراهيم من قول ابنه له « ستجدني إن شاء الله من الصابرين » مع قوله تعالى في سورة القصص

فى قصة موسى من قول صهره له ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، وواضح أن الأولى من قول الذبيح حين أخبره والده بعزمه على ذبحه تنفيذاً لوصى الله فكان له معاوناً على طاعة الله بامثاله وقوله له يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين أى على آلام الذبح فالصبر بهذا الموضع أوقع وأن الثانية من قول شعيب لموسى حين المعاهدة بينهما على زواج الثانى بابتنة الأول على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشر آفمن عنده فقال له وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين أى فى المعاملة لا ظالماً ولا طامعاً فالصلاح بهذا الموضع أوقع . .

المفارقة الرابعة : فى سورة الشعراء فى سائر قصص السورة^(١) يتول كل رسول لقومه ، فاتموا الله وأطيعوا ، هكذا تكون آية برأسها إلا أنها فى قصة كل من نوح وهود وصالح ذكرت مرتين وفى قصة لوط وشعيب ذكرت مرة واحدة . . والسر فى ذلك - والله أعلم - أنها فى قصة شعيب وقع الإغناء عن ذكرها مرة ثانية بما ذكر من قوله لقومه « واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ووقع الإغناء عنها فى قصة لوط بما ذكر من قوله لهم « إني لعملكم من التالين ، فهو بغض لعملهم مستلزم لارادته أن يطيعوه بتقوى الله والاقلاع عما هم فيه . ثم لا يبعد أن يكون ذلك لأن شعيباً ولوطاً ذكر عنهما خاصة فى السورة الاشغال بالنهى عن معصية معينة هى اتيان الذكور والتلاعب بالمقاييس فكان ذلك اشتغالا بتحصيل طاعة وتقوى فى أمر معين أغنى عن الاشغال بتحصيل طاعة وتقوى عامة مرة ثانية^(٢) .

المفارقة الخامسة : فى قوله تعالى فى سورة الشعراء قصة ابراهيم ، فأنهم عدوا إلى رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقنى وإذا مرضت فهو يشفين والذى يمتنى ثم يحمين ، مع قوله تعالى فى سورة النجم « وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضلك وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الآخرة وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، الكلام ها هنا فى ذكر الضمير « هو ، قبل بعض الأفعال المسندة إلى الله دون بعض فى كل من الآيتين هل من سر لهذه التفرقة ؟ والجواب أن هذا الضمير ذكر قبل الأفعال التى يتوهم أنها من فعل العبد ومن شأنها أن يلبس الأمر فيها أما الأفعال

(٢) راجع السورة - الكريمة

(١) ما عدا قصى موسى وابراهيم فلمما نمت خاص

التي من شأنها أن لا يقع في أنها محض فعل الله اشتباه فيستغنى بوضوح خلوصها لله عن الاتيان بهذا الضمير وعلى ذلك فتد جاء قبل الاغناء والاقناء والاضحاك والابكاء والاطعام^(١) والهداية وكونه ربا للشعري ولم يحىء قبل كونه عليه النشأة الأخرى وكونه خلق الزوجين الذكر والأنثى مع ما حصلت به تقوية هذا الأخير من سابق قوله تعالى في سورة النجم « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أتم أجنة في بطون أمهاتكم ، لكن ما يستحكم فيه السؤال فعل الإحياء والإماتة وتقدم الضمير عليهما في سورة النجم دون ذلك في سورة الشعراء وهما شيء واحد ولعل ذلك - والله أعلم - لأن الأصل عدم وقوع اللبس في أنهما من محض فعل الله لكن قد يعرض هذا اللبس ويحلو التلبس في هذا للنادر من المعاندين الذين يركبون رؤوسهم كالنمرود حين حاجه ابراهيم فتقال له « ربى الذى يحى ويميت قال أنا أحي وأميت ، وإذا كان ذلك كذلك فقد جاء الكلام على الأصل من عدم الالتباس وبالتالي حذف الضمير في سورة الشعراء السابقة على سورة النجم في ترتيب التلاوة لأنها كالأصل لها فكان ذلك من وقوع الأصل في الأصل مع مراعاة أن عدم اللبس فيما يختص بشخص المتكلم أبرز وأظهر فيتبعه حذف الضمير وهذا هو الواقع في سورة الشعراء لأنها في حديث ابراهيم عن نفسه بينما كان المقابل لذلك كله هو الواقع في سورة النجم ..

المفارقة السادسة : في قوله تعالى في سورة هود والذاريات في قصة ابراهيم « أوجس منهم خيفة » مع قوله تعالى في سورة طه قصة موسى « أوجس في نفسه خيفة موسى » فقد زادت الثانية على الأولى قوله في نفسه وذلك لأن موسى استشعر هذه الخيفة وهو في موقف التحدى بمعجزة العصا على ملأ من الناس بعد أن ألقى السحرة جبالهم وعصيمهم وخيل اليه من سحرهم أنها تسعى فكان يبالغ في إخفاء هذه الخيفة عن الناس وما صرح بها لأحد أما ابراهيم فما كان يبالغ في إخفاء هذه الخيفة عن ضيفه المسكرمين بل أنه أعلنها بعد أن توجسها بقوله إنا منكم وجلون فقالوا له لا توجل إنا نبشرك بغلام علم .

المفارقة السابعة : في قوله تعالى في سورة ابراهيم الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ قصص قوم نوح وعاد وثمود .

(٢) سورة البقرة

(١) قوله ويستقن معطوف على قوله يطعمنى فهما واحد

لمحات في النظم التعبدية

(٢) الرهبانية والديرية والتصوف

لأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

تناولنا في بحثنا السابق بعض نواحي هذا الموضوع ، فنحن قد تحدثنا عن أصل اشتقاق كلمات « الرهبانية والديرية والتصوف » ، كما عرضنا أيضا لماهية هذه النظم التعبدية والظروف التي نشأت فيها .

والآن ، وفي هذا البحث ، نتابع عرضنا لهذا الموضوع ، متناولين تطور هذه النظم التعبدية ، مع تحقيق ما جرينا عليه في بحثنا السالف وهو عتد المقارنة بينهما كلها لاح لنا وجه ملائم لهذه المتارنة .

إن أول من نادى بحياة الرهبانية هما القديسان « بول Paul وأنطون ٢٥١ - ٣٥٦ م ، ويعتبر الأخير المؤسس الأول للرهبانية ، في بلدة « قن العروس » بديرية بني سويف ، كما يعد القديس « باخوم » المؤسس الأول للديرية في مصر العليا .

ولقد انتشرت الرهبانية والديرية بادي الأمر في مصر ، ثم انتقلت إلى فلسطين وسوريا ثم الشرق جميعه ثم الغرب .

وانتد نشأت الرهبانية أولا ثم الديرية ثانياً ، وتعد الديرية في الواقع تشذيب وتهذيب لحياة الرهبانية القاسية ، وقد تم ذلك على يد القديس « باخوم » المتوفى عام ٣٤٩ م ، إذ أدرك قسوة التعاليم الرهبانية ، التي لا تحسب لإنسانية الإنسان حساباً ، والتي تسكفه فوق طاقته البشرية ، فبنى هذا القديس ديراً بجزيرة « تابينا Tabenna » ، بالنيل ، حيث أسس طريقة تبنى في جوهرها على النظام والطاعة والعمل اليدوى والرياضة البدنية ، وبذلك أزال هذا القديس لأول مرة وحشة حياة التنسك الانفرادية ، ثم انتقلت الرهبانية والديرية بعد ذلك إلى الولايات

الرومانية الشرقية على يد أخت القديس ، باسيلي ، عام ٣٥٨ م ثم أسس « باسيلي Basil » هذا مستعمرة من الديرين في « كابدوكيا Cappadocia » وسرعان ما انتشرت تعاليمه في سوريا وفلسطين واليونان في العصور الوسطى ، ولدقة هذه التعاليم وشدة تنظيمها ، أطلق عليها اسم « القاعدة الباسيلية » ويعد « باسيلي » من الرجال النادرين الذين استطاعوا النهوض بالناحية العلمية من الحياة الديرية ، فكانت تعاليمه لا ترمى إلى مساعدة الذات فحسب ، بل إلى مساعدة الفقير والضعيف أيضاً ، وإلى تنمية حاسة الشعور بالواجب .

والواقع أن حياة التقشف الشديدة وحرمان النفس ملذات الحياة ، تجعل الإنسان غير صالح للنفع العام ، وقد كانت تعاليم « باسيلي » تجمع بين الناحيتين التعبدية الدينية والعملية في الحياة . وتتلخص الحياة داخل الدير الباسيلي في الصناعة والزراعة وإنشاء الخدائق وصنع الملابس من الجلود وأعمال التجارة وقطع الأحجار والبناء والترعاء وحفظ المخطوطات ، كما أنه لم يسمح للديرى بتملك الأشياء وحيازتها ، فيما عدا ملابسه وحذائه ، وغير ذلك مشاع للجميع ، أى أنهم كانوا يمارسون نوعاً من الاشتراكية داخل الدير ، وحتم على الديرى ، أن تكون ملابسه بسيطة ، تشف عن فقر نظيف ، كما حرم عليه الفحش في القول والعمل . وبالاختصار فالحياة داخل الدير تنسم بالفقر والنظافة والتواضع والعفة والطاعة والتعاون والتجلد ، مع القيام ببعض الأعمال كالغزل والفلاحة والتعلم واستيعاب المخطوطات والصلاة والصوم والتبشير . ومع ذلك كله فيجب أن نقرر هنا أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية قامتا لتجاربا فحش القرن الرابع ، إلا أنهما مع ذلك لم تخلوا من الشرور ، فهذا النوع من الحياة يعتبر على أية حال « أنانية غير أنانية » ، إذ أن غرضها الاسمى هو أن يسمو الديرى بنفسه إلى ذروة الكمال ، عن طريق التأمل ، وتنمية عاطفة حب الله في نفسه شخصياً بغض النظر عن الآخرين . كما أن هذه الحياة تعد ضرباً من ضروب الانحلال الاجتماعى ، ونتج من شدة تعصب الديرين أن اضطهدوا كل وثنى ، ونحن نعلم أن نشوء حركة الرهبانية والديرية ، كان يتمشى مع النضال الأخير بين الوثنية المحتضرة والمسيحية المتحفزة ، ونعلم كذلك أن النتاج الأدبى والفنى والفلسفى والعلمى كان كله من نتائج الوثنية ،

و ثمرة تفكير العقل الإنسانى حتى تلك العصور ، فراح جماعة الرهبان والديرين المتعصبين يدمرون ويحرقون كل ما يمت للوثنية بسبب من معابد وتماثيل ومخطوطات ومكاتب ^(١) ، بل زادوا على ذلك وحرموا على الناس قراءة الأدب القديم ، وأغلظوا فى معاملة الفلاسفة والمعلمين . وكل ذلك يعد ، دون ريب ، مسبة وعاراً فى تاريخ هذه الحركة .

شقت الرهبانية والديرية بعد ذلك طريقتها من اليونان الشرقى إلى الغرب اللاتينى ، وقدمت ذلك على أيدي أربعة هم : القديس د كسيان Cassian « ٣٦٠ - ٤٣٥ م » ، والقديس د مارتن Martin « ٣١٦ - ٣٩٧ م » ، والقديس د قيصر Caesar توفى عام ٥٤٢ م ، والقديس د بندكت Benedict « ٤٨٠ - ٥٤٣ م » ، ويهمنا من أمر هؤلاء جميعاً القديس د بندكت ، حيث حظيت حركة الرهبانية والديرية على يديه والهرة الأولى فى تاريخها بتعضيد البابوية ، ومن بين أحجار معبد أبولو Apollo ، الوثنى بمدينة « منت كاسينو » الإيطالية ، انبعثت التعاليم البندكتية ، ولقد أدرك بندكت عيوب الرهبانية والديرية الشرقية ، وعدم صلاحيتها للحياة فى أوربا ، فأخرج نظاماً معدلاً جديداً عرف باسم « المذهب البندكتى » ، طابعه الطاعة والعمل وإنكار الذات والصلاة والنظام ، جملة فضائل وضعت بحيث لا تترك ممارستها مجالاً للذائل . أخذت دولة الأوثان تتضاءل بعد ذلك على أيدي بعثات التبشير المسيحية رويداً رويداً ، ويضيق بنا المتنام عن تتبع هذه الحركة تفصيلاً ، ويهمنا أن نعرف النتائج التى تمخضت عنها حركة الرهبانية والديرية : فقد علمت هذه الحركة رجال الكنيسة حب الإحسان والعفاف وكثيراً من الفضائل الأخرى ، أما تأثيرها على الحياة الاجتماعية فكان واسعاً بعيد المدى ، ففى الزراعة ، أصلحوا كثيراً من الأراضى البرز ، التى قاموا فيها بتجارب زراعية . وفى الصناعة ، صنعوا بأيديهم كثيراً من الأدوات التى احتاجوا إليها ، وعرفوا الغزل وصناعة الملابس وقطع الأحجار والبناء ورعى الماشية وطهى الطعام وصنع الملابس ودبغ الجلود وغير ذلك . وفى التعليم ، حفظوا ما هنالك من مخطوطات

(١) أحرق حينذاك مكتبة الإسكندرية الثانية .

وأنشئت المدارس التعليمية « اسكولات » ، ومن مزايا هذه الحركة أيضاً تعويد النظام والطاعة بغير إكراه ، كما عملت على نشر المسيحية في الأقاليم الوثنية ، وأعطت المرأة في تلك العصور فرصاً كانت محرومة منها ، لأن الأديرة النسائية كانت تدار بواسطة إدارة نسائية .

بقي من موضوعنا هذا ، أن نعرض لتطور التصوف ، مكتفين بقتبته أثناء القرنين الأولين من السيطرة الإسلامية ، ففي القرن الثاني لم يكن للتصوفة رابطة منظمة تجمعهم ، أو مكان معلوم يزاولون فيه طقوسهم الدينية ، بل كان مهمهم هو الانصراف عن الدنيا تقريباً من الله تعالى ، ولم تنشأ عندهم بعد في هذا الدور نظرية الاتحاد أو الحلول والصوفية في هذا الدور إسلامية محضة ، لم تدخلها العناصر النورية الهدامة ، وكانت غايتهم من التصوف الاتصال لا الخلاص Slavation .

وفي القرن الثالث ، دخلت في التصوف العناصر غير الإسلامية ، وأشهرها فكرة الاتحاد ، ولهذا التغير في معتقدات المتصوفة عوامله : فالتصوفة كانوا على الدوام ، ينظرون إلى الإسلام كمصدر للسلطة ، وأنهم اقتبسوا نظام الأقطاب عن الشيعة ، وتأثروا بمذهب الاسماعيلية ، وأخذوا مذهب الحلول منهم ، ثم أن الإسلام يعتبر من أصول الصوفية الأولى إن لم يكن من أولها ، وبالإضافة إلى ذلك فإن التصوف قد تأثر دون شك بالعناصر الأجنبية فأخذت الصوفية عن النصرانية نظرية « الحب الإلهي » ، كما قيل إن لباس الصوف من أصل يوناني وأن نذور الصمت وحلقات الذكر يمكن إرجاعها إلى مصدر نصراني ، وتأثر التصوف كذلك بالافلوطينية الجديدة عن طريق الترجمة والنقل والاختلاط مع رهبان النصراني في الرها وحران ، كذلك تأثرت الصوفية بالمعرفة Gnosis or Gnosticism ، ويمكننا أن نلمح هذا الأثر في أقوال الصوفية أنفسهم ، فلقم قال السكرخي « التصوف معرفة الحقائق الإلهية » ، ثم أن الرأي القائل بأن الكون سائر على نظام النور والظلام ، واعتقاد الرفاعية في « الحجب السبعة آلاف » كليهما مأخوذ عن نظرية المعرفة . كذلك تأثر التصوف بالبوذية ، فما استعمل المسابح في الصلوات وتشديد المقامات إلا مقتبسات عن البوذية كما أن « نظرية الفناء » هي أيضاً من تعاليم البوذية .

ويحسن في ختام موضوعنا هذا أن نورد شيئاً عن نظام التنكيا في التصوف ،

تاريخ الرجال . . .

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الحسب

المدرس بكلية الشريعة

قد يضيق الرجل منا ذرعا بصديقه فيقطعه إلى غير صلة ، ويفارقه إلى غير لقاء ، متناسياً ما يوجبه دينه عليه ، من النهى عن هجران المرء لأخيه فوق الثلاث ، أو متغافلاً ما يلحظه من لوم اللاتمين ، وزرابة الناقلين ، لأن الصداقة والعداوة من الأمور التي ترجع إلى المزاج والذوق ، والإحساس والعاطفة ، وأصعب محاولة يحاولها الإنسان التغلب عليها ، والإرغام لها ، وعدم النظر إلى ما يلائمها ، لأن كبت رغباتها ، ومحاربتها في شهواتها ، قتل للروح ، وموت للوجدان ، وهيات أن تكون للحى حياة بعدها ، أو يشعر من نفسه بالطموح بدونها .

لما لذلك من الشبه بنظام الديرية في المسيحية . يقول « المقريزي » ، إن الخانقاه قد دخلت الإسلام إبان القرن ٥ هـ (١١ م) ويقال إن « أبا سعيد بن أبي الخير » هو مؤسس التكايا . وفي هذه الأمكنة يجتمع الشيوخ ومريدوهم ، الذين يبرون بدور الارتضاع ثم العظام ، وتضم هذه التكية رجالاً من مختلف الأعمار والمقدرة ولهم قاعة عامة للصلاة تسمى « بيت الجماعة » ، ومن يرد الانضمام لهذه الزمرة ، فعليه أن يتخلى عن أمواله وممتلكاته للجماعة ، ويخضع لنظامها من تكرار الذكر والصلاة ، ومن أهم هذه الفرق التي نشأت على نظام التكايا : الرفاعية والبكطاشية والتمادرية وغيرها ، والمهم هو أن الناس أصبحوا لا يفرقون بين الشعوذة والدين والعلم ، والنشطر علم الشريعة إلى نوعين : نوع اختص به الفقهاء وأهل الافتاء ، والعبادات ، ونوع اختص به الصوفية من مجاهدة ومحاسبة والسكران في المواجه والاذواق وكيفية الترقى وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم ^(١) ، وألف بعضهم في الورع والمحاسبة كالتشيري والسهوردي ، ولما جاء الغزالي دون النوعين في كتابه المشهور « إحياء علوم الدين » ، فكتب في الورع والاعتداء وآداب الصوفية وسلفها وشرح اصطلاحاتها ، ومن هنا صار التصوف علماً ،

ولهذا يحسب العقلاء الحساب للصدقة ، ويوصون بعدم التهافت عليها ، والإسفاف فيها ، ويقولون إن صديقك عرضك ، فتخيره ممن يسمون بشرفك ، ويرفعون قدرك ، ويعلمون منزلتك ، ويعزون جانبك ، وينصحون لك ، ويدلونك على مواطن الخير ، ومواضع النبل ، ومدارج السكال .

وهناك صديق لا يستطيع المستطيعون خلقه ، وليس في إمكانهم التخلي عنه ، ولا التخلص منه ، والهجران له ، وربما كانت المضاضة في مرافقته ، والتنغيص في مصاحبته ، والألم في زمالته ، وكم ود الناس لو يهجرونه إلى غير لقاء .

ومع ذلك فهم يغطون في نومهم ، ويسبحون في خيالهم ، ويغرقون في أحلامهم ويتيمون في صحراء أوسع من وادی التيه . ولا يعلمون أنه « التاريخ » لا يرحم صاحبه ، ولا يحابي رصيفه ، ولا يفضي لمن يستهتر به ، ويتهاون فيه ، وأن حياة الأمم والجماعات ، قد ينطلي عليها الرياء ، ويروح فيها الكذب ، وينفق في ساحتها سوق النفاق ، أما حياة الأفراد فلا يغتفر لديها التويه ، ولا يصح فيها المداجاة ، ولا يحسن أن تقوم على الباطل ، لأن الفرد هو الذي يكتب صفحاته ، وينقش سطوره ، ويملي على الزمن حوادثه ووقائعه ، وهو مسئول - لا محالة - أمام الله « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » .

بخلاف الشعوب حين تسف ، والدول حين تنزلق ، والأجيال حين تمحدر ، والفرق بين المعنيين واضح التباين ، ظاهر المنافاة ، ولذلك يتناسى الناس الذلة التي يشترك فيها الجماعة ، لأن الذي يحمل وزرها شخصية معنوية ، ولا يفسون الذلة التي تقع من الفرد ، مع صرف النظر عما يترتب على هذه وهذه من الإضرار والإفساد ، والأذى والتسكيل ، والإيلام والكيد ، وفوات الفرصة ، وضياع المصلحة .

ولذلك يعنى المربون بالواحد ، أكثر من عنايتهم بالبيئة ، وبهتمون به أولاً وبالذات ، كنواة ضرورية ، وحجر أساسى ، ونرى الشارع الحكيم ، في توجيهه الواجب ، وإلزامه بالتكاليف ، يصيح في آذان المسكفين واحدا واحدا « ولا تزر وازرة وزر أخرى ... كل امرئ بما كسب رهين ... لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ... ولا يحق المسكر السوء إلا بأهله » .

وما ذلك إلا لأن الأمل المعلق على الشخص بذاته أعظم من الأمل المعلق عليه دائرا في بنى جنسه .

والرجل هو الذى يصنع تاريخ نفسه من غير شك ، ويملا صفحاته بما يحدث من أحداث ، أو يأتى من وقائع ، أو يفكر فيه من خير أو شر ، فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أنى ملاق حساييه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية . . . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حساييه ، ولذلك يرشده النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ومن نوقش الحساب هلك ، ، ويعلمه أن يتعظ بالماضى ، حتى لا يلدغ من جحر مرتين ، وأن ينظر إلى ما ينسكركه من سواء فلا يقارفه ، والدين النصيحة .

وأن يشاور فى أموره ، ومن شاور الرجال شاركها فى عقولها ، بل إنه جعل هذه الشورى من صميم الإسلام .

وأصل ذلك كله أن يكون له ضمير يحذره ، وعقل يناصره ، وعزم يؤازره . . وهذه ليست من السهولة بحيث تتأتى لكل مرتاد ، وتقاد لكل طالب ، وبخاصة الأول منها لأنه نتيجة التربية من البيت إلى المدرسة إلى البيئة . . ولذلك تختلف الضمائر ، إلى بارزة وخافية ، ومريضة وصحيحة ، والويل لمن يموت فيه ذلك الحارس ، ، أو يغفل عنه ذلك المراقب . . وكما أن الجسم يقوى بالغذاء ، ويصح بتجنبه لمعاول الهدم والهلاك ، فكذلك الضمير غذاؤه التقوى ، ينمو بها ، ويشب عليها ، ويزيد تمسكاً وسلامة ، ومنعة وصلابة ، بحيث يحارب نوازع الشر ، ونوازع الطغيان . . . ولا يزال هكذا صحيحاً ، كلما دامت مراقبته . . ولذلك كان من سنته سبحانه الابتلاء ، لا يعرف من الناس مالم يكن يعرف ، ويطلع على ما كان خافياً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولكن ليحفز المسلم بهذا إلى أن يرجع بنفسه إلى ضميره ، ليرى هل تغافل عن إيمانه فترعزع ، أو سها عن بنيانه فتهدم . . . والمصائب فى لغة الشرع تسمى المحن ، لأن صاحبها يمتحن بها ، فإذا جازها بنجاح ، وتحطأها بجلد ، وانتقل منها بفوز ، كان من أبطال التاريخ ، أما إذا انكشف بها عن ضعف ، وظهر منها عن خور ، وانتقلت به إلى سقوط ، كان أشبه بالحيوان الأعجم ، لا تاريخ له إلا فى حياة البهائم . . . فلينظر الإنسان إلى أن الله كرمه ، وليعتبر بغيره من الناس ، وليحاسب نفسه ، وليكن له ضمير المؤمنين ، وعقل المفكرين ، فإنه هو الذى يبنى مجده .

الإسلام والاشتراكية

لحمزة الـانـانـا سـعـيـد زـاـيـر

لا سبيل إلى إحراز السلام والاشتراكية عن طريق أسنة الرماح بل يمكن ذلك بفضل تقدم الطبيعة الإنسانية . ولم تنجح أوروبا حتى الآن في نبذ النفوذ الأخلاقي الذي بسطته آسيا ولكن لا بد لتسترد آسيا سلطانها من ميلاد محمد ثاب ، والظروف التي تكتنف العالم تتطلب ظهور عبقرية قوية تربط بين القوى المادية والروحية ولعل هذه العبقرية تولد في أي حين فالتاريخ يصطنع أمثالها . وأوروبا تبذل قصارى جهدها لتجعل آسيا باقية تحت سيطرتها الدائمة ، ثم إن أوروبا وقد خشيت التقدم العجيب البارز الذي أحرزته جزيرة صغرى كالـيابان تتردد اليوم في السماح لأية دولة أو أمة أسيوية في تنمية مواردها المادية وزيادة قواتها البرية والبحرية التي بفضلها صارت لأوروبا اليد العليا على آسيا ، وأوروبا لا تدع لآسيا متفلسا تتمكن فيه من إصلاح حالها لأنها تعلم أنه لن يمضي وقت طويل على اندماج آسيا من الناحيتين المادية والروحية حتى تقف أمام أوروبا وجها لوجه . وإن المسلك العنيف الذي اتخذته بعض الدول الأوروبية إزاء تركيا وإيران والصين عندما أبدت هذه البلاد علائم النهوض وحاولت أن تطبق الديمقراطية لدليل واضح على أن أوروبا لن ترغب طوعا في السماح لأية دولة أسيوية بأن تقوى نفسها ويكون منها اليابان الثانية سواء في آسيا أو إفريقيا . فلقد قلب الدهر لمراكش ظهر المحن ، وسيفعل كذلك بإيران ، وطرابلس على أبواب نضال ومصر في وضع سيء .

ولم تتمض مضامع هذه البلدان الإسلامية كلها إلا لأن أوروبا لا يسعها أن تنظر إلى قيام حركة إسلامية جامعة ولهذا فقد عقدت العزم على أن تقتلها في مهدها . ولا شك أن أوروبا تتمتع بأعظم قسط ممكن من قوتها المادية غير

أن الطبيعة الإنسانية حتى ولو كانت طبيعة الأوربيين تنطوى على شيء إلهي ، ومن شأن نقض الميثاق الإنساني الأدبي على أيدي الأوربيين أن يكون له صدى فيهم ويشير كثيرا من الذين سينحازون إلى جانب الآسيويين ومساعدتهم على إقامة السلام والاشتراكية العالمية عن طريق النمو الروحية . وقد اقتنع الآسيويون بأن الدبلوماسية الأوربية الحاضرة هي وحدها القوة التي يعتمد عليها . لا ريب في أن مستقبل المسلمين إذا قيس إلى ماضيهم القريب ليس مزدهرا غير أن آسيا في وسعها أن تنجب رجالا مثل بوذا والمسيح ومثل محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن إنجاب مثل هؤلاء الذين لا يوجد في أوربا نظير لهم ميزة عظيمة وميراث لآسيا . وقد أثار الهجوم الذي شنه رجال السياسة الأوربيين على آسيا اشمئزاز المستنيرين من أهل آسيا على الحضارة الأوربية . ولا سبيل إلى التحدث في مثل هذه الظروف عن الاشتراكية فالأوربيون الذين يتوقون حقا إلى اشتراكية عالمية يفبغى لهم أولا أن يوجهوا نشاطهم إلى المساواة في حقوق الإنسانية ، ولن يمكن أن تتاح للاشتراكية فرصة للنجاح ما لم يأخذ العالم بنصيحة الشاعر الأمريكي العظيم لويل ...

وينبغي أن تتألف الجمعية التي تستظل بهيئة تستلم العبقريّة الاشتراكية لحماية حقوق الإنسانية من كل معتد أوربياً كان أو آسيوياً أو أمريكياً أو إفريقيّاً ، ويجب أن تقوم في كل قطر بمجتمعات مهمتها تغذية الأخوة المتبادلة وتقويتها . فهذا وبهذا وحده تنجح الاشتراكية ، والأمة الإسلامية خاصة أهل لتحمل رسالة الاشتراكية ، وبالرغم من أن المسلمين قد أصابهم ضعف مثل سائر أهل آسيا فإنهم ينطوون على الروح الذي يعد لازماً لتقدم الاشتراكية ، وقد بينت الكوارث الأخيرة التي أنزلتها أطماع أوربا بالعالم الإسلامي مظهرين من مظاهر الصحة التي يتمتع بها المسلمون .

أولها أنه لا تزال توجد نقطة يتجمع فيها العالم الإسلامي أو مركز تتلاقى فيه أقطار دوائرهم ، وقد كان أول أثر تركته الوحشية التي أنزلتها إيطاليا بطرابلس

في أنفس المسلمين هو أنهم توجهوا إلى أحكم الحاكمين الذي تسعد الأمة الإسلامية خليفته في الأرض والذي يجب أن يكون تمجيد اسمه وصفاته جل شأنه هو الغاية من حياة كل مسلم .

والمظهر الثاني من مظاهر الصحة التي يتمتع بها المسلمون هو ذلك التعاطف الذي يشعر به المسلمون نحو إخوانهم في الدين من أهل طرابلس وإيران ، وهذا يدل على العواطف الحية القائمة على المودة والأخوة بين الأفراد والتي تعد الأساس الحقيقي للاشتراكية لم تمت في نفوس المسلمين .

ولو أن هاتين الظاهرتين أشد ساعدهما وأصبحتا حقائق واقعة لكان نصر المسلمين أمراً محققاً . فكون الجماعات ذات هدف مشترك في الحياة وكونها مرتبطة بعري مشتركة من الأخوة فضائل اشتراكية ذات قيمة عظيمة ، ولو أن ثقتنا بالله قويت ولو أن شعورنا بالجامعة الإسلامية تأصلت جذوره في قلوب ثلثمائة مليون من الأنفس التي تسكن بقاعاً مختلفة في الكرة الأرضية لوجدت الحضارة من ذلك كله دافعاً عظيماً ولمضت قضية الاشتراكية في خطوات واسعة إلى الأمام . وينبغي للمسلمين أن يعملوا على تحقيق فكرة الرصيد القوى أو يحياوا نظام بيت المال القديم ليتسنى بهذا المشروع الدفاع عن الإسلام والممتلكات الإسلامية المستقلة التي يجب أن يرى كل مسلم أن من واجبه المساهمة بنصيب من دخله في سبيلها ، وكان ينبغي أن تكون كل قطرة دم أراقها الإيطاليون في طرابلس أو الروس في إيران رابطاً يوحد بين قلب المسلم والمسلم في أنحاء العالم ، ويظن كثير من الأوروبيين - على ما يبدو - أنه من المتعذر تحقيق النظام الدستوري في ظل الإسلام غير أن الذين على علم بروح الديمقراطية والاشتراكية المتأصلة في الإسلام يعجبون من جهل الأوروبيين بالإسلام ، ثم إن كثيراً من الكتاب الأوروبيين يتخذون من الاضطرابات التي وقعت في تركيا وإيران أمثلة على أن النظم الدستورية غريبة على الإسلام . إلا أن هؤلاء المفكرين يفسون كم من السنين مرت بها بلادهم المحترمة وهي تعاني الفوضى وإراقة الدماء قبل أن تنجح في إقامة النظم الدستورية الناقصة التي تسود معظم البلدان الغربية .

درس عملي في الزكاة

لمحاضرة الاستاذ ابراهيم علي سموط

المدرس بكلية اللغة العربية

في ليلة من ايام الصيف عام ١٢٦٥ هـ شمل القرية هدوءها المألوف ، وفيها الليل بثوب أبيض شفاف ، صنعته النمر من فضته المعهودة حينما ينتصف شهره العربي .
ونام شباب الريف في أحضان الطبيعة الجميلة ، واتخذوا من أجران القمح وسائد وحشايا ؛ وحين استسلم كل من الفتيان والفتيات الى حلمه الجميل ، روعتهم صيحة المذعورين ، واستغانات الحراس . فهب النوام يهرولون على غير هدى ، وصارت كل جماعة تضرب الى ناحية باحثه عن مصدر الفزع . ثم اتضح أن هناك حريقا اندلعت ناره في قمح أحد الأغنياء المعروفين في القرية .

وراح الذين كشفوا هذا الخبر من شباب القرية الفقراء يرجعون الى ديارهم ؛ وكلما صادفهم مذعور من أمثالهم يجرى الى مصدر الصياح ردوه بقولهم : إرجع يا أخى ، وخفف عن نفسك . إن هذا الحريق ، وتلك النار في قمح فلان . فيرد عليه قائلا : زادها الله اشتعالا ، واستفحالا ؛ ياليتها اشتعلت في بيته ، أو في جسمه هو وأمثاله من الأغنياء الأشحاء . إنه لم يك من المصلين ، ولم يك يطعم المسكين ؛ وليس في ماله حق معلوم للسائل والمحروم . ما فرج كربة عن مكروب ، ولا وائى فتميرا ، ولا عطف على بائس .

ارجعوا يا قرم إرجعوا ؛ فإنه انتقام من الله ، ودرس للعصاة . إنه يضمن على الفقير والمسكين بنصيبه ؛ فسكان جميع ماله طعمة للنار ، وعرضة للبور .

وراح الفلاح الساذج يرسل من زفرات قلبه أنات مكبوتة ممزوجة بروح من التدين ، والرجوع الى الله إعترافا بأن ما آمن به حق من آيات الله وشرعية رسوله . وكنت أسمع ذلك وأنا في طريقى الى النار المشبوبة ، التى عمقد دخانها سحبا كثيفة فى سماء القرية فبدا عليها روح الانتقام من السماء ، وآيات الغضب من رب السماء .

وحملت نفسي إلى مكان الحريق لأرى : هل ترك حقيقة يأكل تراث الغني كله أم إن هناك من تطوع بإخماده والقضاء عليه من شباب القرية العامل الكادح ، الذي يعتمد عليه في مثل هذه الملمات ؟

وليس للأغنياء ، ولا أشباه الأغنياء عمل في هذه الحالات إلا الأمر والتوجيه للفئة الفقيرة العاملة الكادحة التي تعتبر بحق عدة القرية ؛ بل عدة الريف المصرى جمعية في أمثال هذه التوازل ، وتلك الملمات ، بل عدة الوطن كله في حماية الأرواح والأموال ، والسهر على مرافقه ، وكرامته من عدوان مفاجيء ، أو استغلال مبيت .

ورحت إلى مكان الحريق ، فلمست ظاهرة تفسر متدار ما انطوت عليه قلوب الفقراء من حتمد وكرهية للأغنياء البخلاء : رأيت فرق الشباب التي وقفت نفسها لمحاصرة النيران قد اتفقوا فيما بينهم عملياً على أن يحرسوا أموال الكرماء والفقراء ، ويمنعوا النار أن تقربها ؛ على أن يكون ذلك على حساب صاحب القمح الذي تأججت فيه النار . وطريقة الريف في إطفاء الحرائق هي حصار يضرب على النار بإخلاء ما حولها وإبعاد المواد التي تمدّها بالاشتعال ؛ فلما هم هؤلاء بنقل كميات كبيرة لم تصل إليها النار من التمتع وعزلوها عن مكان اللهب ، جاء جماعة آخرون لينقذوا ما يمكن إنقاذه من أفواه السعير ليضيفوها إلى السليم المعزول ؛ وكانوا يتعمدون أن ينقلوا الشرر بهذه العملية إلى الناجي من التمتع ، فلا تلبث أن تلتهب الجذوة المنقولة فيما نجا من مال فينطلق الصياح من هذا الجانب : يا قومنا أدركوا النار . في أسلوب ساخر لا ذع ، له مغزى يفهمه الأغنياء والفقراء .

وهكذا لم تدع النار لصاحب القمح شيئاً ، وعاد الفتيان وفي أفواههم عبارات التشفي ، وفي قلوبهم راحة لما حدث ، وتسبح بحمد الله بعباراتهم الريفية البريئة وهي قولهم : « يا ما أنت ياربى كريم » .

عاد الناس إلى مضاجعهم وقد خمدت النيران التي روعتهم ، لتشتعل من جديد في نفسى لوجود تلك الروح بين الأغنياء والفقراء . فأردت أن أعرف من هؤلاء العمال والاجراء الاسباب التي جعلتهم يضررون في قلوبهم هذه المعاني لهذا الصنف من الأغنياء . وجمعني مجلس بعدد كبير منهم أنسوا بي ، وارتاحوا إلى حديثي ؛ فكانت الزفات والانات تترجم إلى هذه الجمل ، وتلك الكلمات : إن الغنى الكريم نفديه

بالروح ، وننصب من أنفسنا حراساً على ماله . ونتمنى له البركات التى تضاعف تراثه ، وتحفظ أبنائه من كل مكروه . ولماذا يرضن الغنى بحق الفقير فى ماله وهو الذى قام على هذا المال ففناه ورعاه ، وتعهد حتى تضاعف واتخذ سبيله إلى جيب الغنى وخزائنه ؟ ألسنا نحن الذين وضعوا مجهودهم تحت تصرف الأغنياء والوجهاء فهم فى ساعة السكوارث وعند الملمات يأمرؤنا فنطيع ، ويتسلطون علينا باسم الإنسانية فنبلى ؟ نحمل موتاهم على أعناقنا إلى مآثرها الأخير فى حمارة القيظ ، وزمهرير البرد . ونبكي على هؤلاء السادة - أو نتباكى - حتى نعلن أننا وهم فى الكارثة سواء . ونصطف على أبواب السرادقات الأنيقة الفخمة فى ولائهم . وعزائهم لربط المطايا ، وإعداد الركائب للوافدين والمعزين . ثم نحن الذين نصب الماء على أيدي الآكلين للطعام الشهى وليس لنا منه نصيب . ونلقى بأنفسنا فى النار إذا أصاب مالههم مكروه لنحفظ عليهم المال والجاه رجاء أن ينالنا منه حظ قليل . وهكذا طال بذلنا للجهد ، ودفعنا للعرق والدم فى كل مناسبة تلبية لنداء الغنى الذى يستحذنا فيه باسم الإنسانية والإسلام . ولكن الأغنياء لم يقيموا لنا وزناً ، ولم يعترفوا لنا بوجود : فخلعوا فى قلوبنا البغض ، حتى صرنا نتمنى زوال النعمة التى فى أيديهم ، فلا ندفع السوء الذى يحيق بهم . فكيف نطالب بعد ذلك بإخماد النار التى تشتعل فى مالههم ، ودفع الغرق الذى يحتاج محاصليهم ، وهم بحقنا يبخلون وبكلمات الشكر يضمنون ؟

وراجعت ما سمعت على ما علمت ورأيت فى قرى مصر ، فوجدت الحق معهم ؛ وأدركتنى الحسرة على انتشار تلك الروح بين جماعات المسلمين . وتساءلت عن العلاج ، والتمسته فى النظم الاجتماعية الحديثة كلها فلم أجد لذلك من علاج إلا ما شرعه القرآن الكريم ، وما التزمه المسلمون الأول حين كانوا قادة ، ضربوا للناس المثل العليا فى الأخوة بين بنى الإنسان ، فى مشارق الأرض ومغاربها .

ليس من علاج إذاً إلا أن يخرج الغنى زكاة ماله فتؤخذ منه لترد على الفقير والمساكين ، فتقرب المسافات الشاسعة بين الطائفتين ؛ فى الریف نجد الخير كامناً فى القلوب ؛ ولكن بعثه يحتاج إلى توجيه وتحريض ، وقليل جداً أن يوجد هناك العناد والتبجح ؛ وإن وجد فلا يوجد معه الإصرار . أو الاستمرار ، وهم أطوع الناس فى مواسم الخير للتأثر بالارشاد ، وتلبس ما ينجيهم من عذاب الآخرة ، ويرفع

درجاتهم عند الله ، إذا لمسوا الاخلاص في التوجيه ، وأدركوا الرغبة الحقة في العمل على رضا مولاہم .

كانت هذه الدعوة في أول يوم من شهر رمضان المعظم عام ١٣٦٥ هـ ، فلما تحدثنا إلى الناس في الزكاة وسمعوا قول الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ومرت على أسماعهم العظات في الآيات (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) و (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لماوتحبون المال حبا جما) و (أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) . وجدت القوم كأنهم يسمعون كلاما ما سمعوه ، وأعجبوا به إعجابا تمليديا مجاملة للخطيب والواعظ .

فلما رأيت منهم ذلك قلت لهم : هذا هو الكلام في الزكاة ، وأما العمل فسنبدأ به من اليوم : ومن حسن الحظ أنكم في موسم حصاد زرعكم ؛ والله تعالى يقول : (وآتوا حتمه يوم حصاده) فماذا أنتم صانعون ؟ خبروني بربكم عن الطريق الذي تريدون أن ترسموه لأنفسكم في العبادة لتكونوا مؤمنين .

يجب أن نحدد موقفنا مع الله ؛ فأما أن نكون مسلمين حتما فنؤمن بما جاء به رسول الله جميعه ؛ وإما أن نخرج أنفسنا من عداد المسلمين ، فنرفض كل تلك التعاليم جملة ، ونكون بذلك صرحاء مع ربنا غير منافقين ولا خداعين . وأنا أعلن لكم هنا في مسجد القرية وفي بيت الله ، أنكم إن لم تخرجوا زكاتكم فلا حاجة لله في صلاتكم ، ولا صيامكم ، وأنكم حين تشهدون بأن لا إله إلا الله دون أن تطيعوه فأنكم كاذبون . والخطوات العملية يا قوم أن تأتوا جميعاً لتتسلبوا مني زكاتي وزكاة أقاربي ثم بعد ذلك نريد أن نعلن عن أنفسنا أننا مسلمون كما أراد الله منا الإسلام . فلما رأى الناس الجد في التنفيذ ، وصدق النية في الوصول إلى الهدف المقصود ، أستطع في أيديهم ، ووجدوا أن دعوة الحق إن قام أصحابها بتطبيقها على أنفسهم أولاً انهارت المقاومة ، وضعف المبطلون . كان عجبا أن يكون شباب القرية من الموسرين أسرع الناس إلى الجهاد في سبيل هذه الدعوة ، فانتشروا في القرية جباة يتحملون الأذى في سبيل الله . وضرب الحصار حول المتخلفين ، وأقيم للحساب سوق في المسجد يعرض فيه أمر المدعين الذين قالوا : إننا أخرجنا حق الله من زمن بعيد .

ومن أجل هذا كان الخير كل الخير أن تجمع الزكاة في مخزن عام ، ويحصى الفقراء والمساكين في القرية وخاصة المتعففين الذين لم يسألوا الناس فحسبهم أغنياء .

قدر لأهل هذه القرية أن يجمعوا خمسين أردبا من القمح في المخزن العام ونادى منادى الخير في جنبات القرية : من يرى نفسه أهلا للزكاة فليحضر في فجر يوم الجمعة أمام مخزن الزكاة ، وكان المحتاجون من الأسر التي أخنى عليها الدهر ، ومنعها كبريائها من أن تقف على باب مخلوق ، قد عرفوا أنهم إن حضروا أمام المخزن العام ، فإنه لا فضل لسكان من كان على هؤلاء الأفراد ، وليست هنا يد سفلى ولا يد عليا أمام الحق المقرر في القرآن .

ففسل المستحقون والمستحقات ، وخرجوا من كهوفهم مع الليل ليستقبلوا النهار هناك عند المخزن المحبوب . فلما امتد ضياء الفجر في الأفق الشرقى ، وانتشرت أنواره لمع الندى على الوجوه الشاحبة ، والمناكب العارية ، والهياكل المتداعية كيأما خرجت من القبور أشباح موقى قد نساهم أهلهم من الدعوات والرحمات . وتسلم كل منهم حقه بالتسطاس ، وحصل على ما يكفيه بقية العام حتى يأتي الحصاد التالى .

ونما في القرية روح جديد من الود الخالص ، والتعاون التام بين الغنى والفقير ، ووجد الحب في كل قلب ، ووضع للبلاد المجاورة رخاء القرية ونعيمها ، فلم يعد يسمع الناس بتلك الحوادث التي تتسبب عن الفقر ، ومد الأمان والأمن رواقه في قلوب النوم ، فعاهدوا أنفسهم على المواظبة في إخراج الزكاة وأن يعملوا أبناءهم الخير الذى حصلوا عليه من آداء هذا الفرض كما شرع الله .

هذه قصة الدرس العملى في الزكاة ، قد واطب عليه أهل هذه القرية المباركة إلى الآن ؛ فإن شئت أن تسأل عن القرية فأقول لك أنها [حصّة الغنى مركز قلين فؤادية] وإن شئت أن تعرف صاحب هذه الدعوة بين أهله في الريف ؛ فأقول لك : إنه كاتب هذه السطور .

المعتمد بن عباد

لفضيلة الاستاذ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

ملك غنت حوله دنيا الجمال فشدنا معها ، وكان وترآ من أوتارها سحرته الترانيم
فرجعها إلحانا عذابا هي وحي النعيم والهيام الجمال .

ولد المعتمد بين أعطاف النعمة ، وعاش بين أحضان أبيه المعتمد ملك أشيلية
يجالس الشعراء ، وينادم الأدباء ، ويركض بين أفياء اللهو ، ويعفو بين رنين المزاهر
ويصحو على قراع الكؤوس ، ويمجن ما شاء له شبابه الغض ، حتى توج ملكا
بعد أبيه ، فراح ينعم في ظلال ملكه الوارف ، وابتسمت له الحياة وزها له ضحاها
فلم يدع أمنية للشباب الدافق إلا عانقها ، ولا حلها من أحلام الهوى والشباب
إلا نادمه . تدار عليه الراح في مجلس رقت حواشيه ورقصت جوانبه ، فيرى
ساقيه غلاما تسيل رفته ويفيض إشراقه فتزخر شاعريته فيهتف :

لله ساق مهفف غنج قد قام يسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته في جامد الماء ذائب الذهب

وتمتد بجالس خمره تحت ضوء القمر فتزهو أعطافه وعواطفه ، وتراقص حوله
أفنان الرياض ، وتتألا النجوم ، فيلمه كل ذلك صورة شعرية ساحرة إذ يقول :
ولقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه ملكا تنهى بهجة وبهاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثريائها عليه لواء

وهكذا كانت حياة المعتمد كلها شعر فهو يصدر ويصور ، ويفتن في الاصدار
والتصوير عن قريحة شاعرة ، فهو لا يجالس غير الشعراء ، ولا يستوزر إلا المبرز
منهم ، ولا ينادم إلا عباقرة الأدباء ، فابن زيدون وابن عمار من وزرائه ، وابن
حمدين وابن عبد الصمد وابن اللبانه من ندمائه ، وقصوره أندية يختلف إليها كل

من صفت قريحته ورق شعره ، ورحلاته للصيد ولغير الصيد ، لا يصحبه فيها غير شاعر ولو كان من أصحاب الحرف ، خرج يوما للصيد ومعه حاشية من الشعراء فانطلق بجواده في وسط مزرعة تين فضرب شجرة برمح فعلمت به تينة فالتفت وراءه فإذا ابن حاج الصباغ ، فقال له أجز : كأنها فوق العصا

فقال ابن حاج : هامة زنجي عصى

وكان يختبر بنفسه الشعراء قبل أن يستصفهم ، وقد حدث ابن حمديس الصقلي أنه دخل عليه في مجلسه فأمر بطاق ففتح فإذا بكير زجاج تلوح النار من بابه وواقدهما يفتحهما تارة ويسدهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما ، فقال المعتمد لابن حمديس أجز :

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقال ابن حمديس : كما رنا في الدجنة الأسد

فقال المعتمد : يفتح عينيه ثم يطبقها

فقال ابن حمديس : فعل امرىء في جفونه رمد

فقال المعتمد : فابتزه الدهر نور واحدة

فقال ابن حمديس : وهل نجا من صروفه أحد

فأمر له المعتمد بجائزه ، وأضافه إلى حاشيته بعد أن امتحن قدرته على ارتجال الشعر ، وقد بلغ من تقديره للشعر وأهله أنه ركب النهر ومعه ابن عمار وزيره ، فنظر إلى صفحة الماء وقد جعدها النسيم ، فبدت لعينه كأنها درع محكمة السرد فقال لابن عمار أجز :

صنع الريح من الماء زرد

ففسر ابن عمار وطال تفكيره فهبت جارية غسالة فقالت : أى درع لقتال لو جمد ، فأعجب المعتمد بها وبسرعة خاطرها وتزوج بها وتلك هى اعتماد الشاعرة التى أنجبت له أولاده ، والتى اشتهرت بالرميكية ، وكان لها أثر فى اضطغان قلب المعتمد على ابن عمار الذى هجاها بعد فقال فيها :

تخيرتها من نبات الهجان رميكية ما تساوى عتلا

لجأت بكل قصير العذار لثم التجارين عما وخلا

ولم تطق اعتماد صبرا على هذا الهجاء ، فأوغرت صدر المعتمد وأغرته بقتل ابن عمار ، ففتك به .

فحياة المعتمد الأولى حياة كلها لهو صارخ وخمر وسم .

أما حياته الثانية فسكلها شقاء وبكاء ، بدأت منذ رأى المعتمد أن العزة الإسلامية تأتي عليه أن يدفع الجزية المفروضة عليه وعلى ملوك الأندلس جميعاً لملك الفرنجة ، فلما جاءه الجبابة نكل بهم ومد يده يستنجد بيوسف بن تاشفين ملك المغرب فتقدم يوسف بجيشه الجرار وصد عدوان ملك الفرنجة على أشبيلية ، وعاد إلى المغرب وسكن في النفس لهفة وبين الجوانح حسرات على الأندلس على نعيمها ومالها وجمالها الذي يتمول فيه ابن خفاجة .

يا أهل أندلس لله دركمو ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا في دياركمو ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وعز على يوسف أن يملك الأندلس ملوك لا يستطيعون حمايتها أو رد المغير عليها ، ومن ثم فلم يكذب ينتص ملك الفرنجة على أشبيلية ثانية حتى عاد يوسف لصدده فاتصر عليه ، ثم أعلن خلع ملوك الأندلس جميعاً ، وما كان للمعتمد أن يذعن لهذا الخلع ، ويترك عرشه لبرابرة الصحراء ينعمون به ، بل وقف يحارب أطاع يوسف ويطارد أحلامه ، وقام على أبواب أشبيلية يصول فوق فرسه ويهتف :

أن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلى تأخر لم يكن بهوأي ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ل وكان من أملى الرجوع

واشتد أوار الحرب ، وحصر بأشبيلية وطال حصاره حتى ألقى كثير من جنوده بأنفسهم إلى النهر فراراً من حصار يوسف ، وأخيراً أسر المعتمد ونفي إلى أغمات ، إلى صحراء المغرب ، ووقف ابن اللبانة شاعره في حشد من الناس على ضفتي الوادي ليكون ملكهم الأسير ، وقد خرج مكبلاً بالقيود حيث هتفت شاعرية ابن اللبانة الباكية تقول :

تبكى السماء بمزن رانح غاد على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الأرض فيهم ذات أوتاد
وكعبة كانت الآمال تخدمها فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ألق السلاح وخل المشرفى فقد أصبحت فى لهوات الضيغم العادى
ومحرت بهم السفن بين نواح الأندلسيين وبكائهم إلى المغرب ، إلى الصحراء
إلى قرية ليس فيها شيء من سحر الجمال الذى كان ينعم به فى الأندلس تحت حراسة
جند لا يرحمون ملوكا تشكرت له الأيام ، وازورت عنه آمال الليالى ، وراحت بناته
يغزلن للناس ، ويخدمن لياً كلن .

وكم آلمته ذكريات الماضى وأمره ونهيه وقيوده التى رست فيها الناس فقال :
قد كان لثعبان قيدك فى الورى فغدا عليك التقييد كالثعبان
قلبي إلى الرحمن يشكو به ما خاب من يشكو إلى الرحمن
وأنه ليتفجع وقد طبقت أبناء أسره الآفاق ، وأنى له الفكك من ذلك القيد
الذى لاينى عن عضه حتى ورمت فيه رجلاه ويذكر مع هذا سيفه وفتوحاته فيقول :
قد ضاق صدر المعالى إذ نعت لها وقيل إن عليك القيد قد ضاقا
أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالبين وللسباق سباقا
وهكذا لا يفتأ المعتمد فى منغاه يبكى ثقل القيود ويندب عز البنود وأنى يجدى
البكاء أو ينفع التوجع إنه ينظر الى الطليق من الطير فيتمنى لو أصبح طليقا من
قيوده ينعم بما ينعم به الناس ويمرح كما يمرح الطير .

ويرى قرية تنوح على هديلها فوق الفن فتذكر من فقدهم فى الأندلس من أبنائه
وأصحابه فثار الأسى فى نفسه فجواب التمرية نوحها ورجع صداها فقال :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر مساء وقد أخنى على ألفها الدهر
وناحت فباحث واستراحت بسرهما وما نطقت حرفا ييوح به سر
بكت واحدا لم يشجها غير فقدته وأبكى لآلاف عديدهم كثر
وهكذا كانت حياة المعتمد الثانية دموعا وبكاء وزفرات وأنات ، يصدرها
شعرا داميا يذيب الأكباد ، حتى أسلم روحه لا بين صليل السيوف بل بين صليل
القيود ، ودفن فى أغصان وبقيت مأساته تهيج الخواطر وتثير المشاعر ، ولم يعدم
وفيا من شعرائه المخلصين يتسلل فى يوم عيد فيقف على قبره يرثيه ويكيه ويناديه .

أعلام الأزهري

السيد علي الدرويش المصري

المتوفى سنة (١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م)

نفضيلة الأستاذ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو السيد علي الدرويش بن حسن بن إبراهيم الأنكوري . ولد ونشأ بالقاهرة في غرة شهر المحرم سنة ١٢١١ هـ ، ولما شب ألحق بالأزهر ، فتلقي علومه على جلة من شيوخه ، وكان منذ صباه ميالا إلى الأدب وفنونه ، فأقبل على كتبه يغذي ملكته بقراءتها ، وقلب في كتب اللغة فعرف أسرارها ، وكان هواه إلى الهندسة والحساب أيضا فأجال فيهما نظره ، ثم أنه تفرغ للكتابة وقرض الشعر ، وحرر الرسائل ، واشتهر بصناعة المواليا والموشحات حتى أصبح شاعر المرحوم عباس الأول .

وكان غنيا بماله وعقاره عن التكسب بشعره ، معروفا بميله إلى اللهو والطرب ، غزير المدح لمن يحبه ، لاذع الهجاء لمن يبغضه ، ولعله امتاز بهذين عن الشعراء الأزهريين الذين لم يكونوا في ذلك مسرفين ، كما كان حاضر البديهة ، وكانت وفاته في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وألف من الهجرة .

شعره :

عصر الدرويش عصر صناعة وزخرف ، وكلف بالبديع ، على تفاوت الشعراء في ذلك ، ولو أن الدرويش اقتصر في شعره على الـظ الذي تناوله المعاصرون له من الصناعة والمحسنات لكان من أجودهم شعرا ، إلا أنه أغرق في البديع ، وكلف بالزخرف .

فمن جناسه الذي يستعمله في شعره قوله :

أيام أفسراح هي الحسن صدق اليمين بأنها يمن

فالجناس بين اليمين واليمين وهو متكلف إلا أنه غير موغل في الثقل .
ومن الطباق الذى يستعمله في شعره قوله :

بيت جديد قديم المجد عن سلف بسعد أنجالهم قد شرف السكن .
فقد طابق بين (جديد) و (قديم) ، وقوله :

فكم قالت لها الأخرى هلى وكم قالت لها الدنيا تانى
فقد طابق بين الأخرى والدنيا ، ومن أنواع البديع التى يستعملها في شعره
مراعاة النظير كقوله :

لهم جامع من غير باب ، فكم عوت عليهم من المحراب في الصبح جردان
لذا سجدت حيطانه فهى ركع وتسمع تسديح الحصا منه سقفاً
وقد جمع سقفاً على سقفاً والصحيح سقف وسقوف ، وبما أولع به من
التورية في شعره قوله في مليح اسمه رضوان .

قد أكثر البعض في إنكاره سفها يوم القيامة جنات ونيرانا
فأبطل الله في الدنيا أدلتهم لما أراهم من الجنات رضوانا
فيحتمل أن يكون أراد (رضوان) خازن الجنة ، أو المليح المسمى ، رضوان ،
أو الرضوان مصدر كالرضا من رضى ورضوان من الله أكبر .

وهو يغرى بالبديع أيضاً في الموشحات و (أدوار) الغناء فتراه يلتزم الجناس
فيها ، ويستعمل التورية ما استطاع ، كقوله .

بالفاتك الفتان ناسى ، ناسى ، أهواه
وخده النعمان كاسى ، كاسى ، آه ، واه

فقد أوقع الجناس بين ناسى اسم فاعل من نسى و (ناسى) بمعنى أهلى ،
وأوقعه بين كاسى اسم فاعل من كسا ، و (كاسى) التى هى إناء الخمر مضافة إلى ياء
المتكلم ، كما أوقعه بين أهواه ، فعلاً بمعنى أحبه ، وآه وواه اسمى فعل بمعنى أتألم ،
وفى ذلك من التكلف والتشدد ما فيه .

ولوعه بالتاريخ الشعرى :

وهو مفتون بالتاريخ الشعرى ، وما زال يستعمله في شعره حتى عرف به ،
ومهر فيه ، « حتى ما كانت تمر به حادثة إلا أرخها عفو الساعة » (١)

فمن ذلك ما قاله يؤرخ به إنشاء قنطرة .

إنشاء ممدوح الملا من عدله الدنيا ملا
أعنى الوزير محمدا رب المحامد والولا
لقبوله قد أرخوا إنشاء قنطرة العلا

ومما قاله يمدح به المرحوم محمدا عليا ويؤرخ لامتحان المدارس .

أيجهد في سوى العلم المعاني ومعنى الانس إدراك المعاني ؟
كفاني أن رب العلم باق على الدنيا وهل باق كفاني ؟

فهذه أبيات حشد الشاعر فيها ما قدر عليه من أنواع البديع المشدود ، وأنواع
الصنعة المتكلفة المستكرهة حتى لكانها مقصده الأول ، وغرضه الاسمي ، فجاءت
فجة متفجرة من جمال الشعر .

ومن شعره الذي فيه شيء من الطرافة وحسن السبك ما قاله من قصيدة يعتذر
بها للشيخ البديري .

بدر صفا بعد تكدير النوى فيه وجادلى بعد أن زالت نوافيه
فروح الروح واغنم نور بهجتها بمفرد قد سما عين يحاكيه
وقال مضمناً :

وغادة غار منى زوجها فعسى يريد قتلى وفي أحشائه ضرر
يا زوجها كف عن قتلى مساحة بيني وبينك لو أنصفتي رحم
وقال يتغزل في قصيدة طويلة :

تعالى من أعار الغض ليناً وأحرم من خباه العازلينا
يهنا العاشقون بطيب عيش فما أحلى عذاب العاشقيننا
سعدنا بالتواصل بعد هجر وقد كنا بجفوته شقيننا
فقتل للصابرين على هواه دعوا العذال فيما يفتروننا
فإننا في هواك عبيد رق على حب وما كنا سيدينا

وهذه أبيات تمثل غزل العلماء الجاف ، ولكن الدرويش لا يخلو أحساناً
من شعر مقبول ، ونظم على طرف من الجمال والحسن ، ويظفر بذلك كلما تحرر من قيود
التكلف ، وآثر السهولة والتطلق .

ومن ذلك قوله :

ألا محب يلاقيني أطارحه هوى حبيب منيع الدار نازحه
رأيت في الغصن شيئاً من رشاقته فسكنت من فرط أشواقى أصاخه
ومن شعره العذب قوله :

لقد كان لى قلب تضمن لؤلؤاً من الشعر مسبوك النظام أنيقاً
فلما حللت فيه حاولت نقله فأخرجته من ناظرى عميقاً

وقد جمع تليذه مصطفى سلامة النجارى شعره ونثره فى كتاب سماه « الأشعار بحميد الأشعار » ، وطبعه على مطبعة الحجر سنة ١٢٨٤ هـ . ورتب الديوان على ثلاثة أبواب الأول فى الصناعات مرتبة على السنين ، والثانى فى غير المصنع مرتباً على حروف الهجاء ، والثالث فى النثر والأدوار .

أما نثره فهو صورة من شعره فى التكلف والتعسف ، يلتزم فيه السجع حسن أو ساء ، « ولولا ما كانت تجره إليه الأسجاع من الحشو والخروج ، لعد من كتاب الطبقة الأولى فى منشاء ذلك العهد » (١) .

وقد تضمن نثره الباب الثالث من « الأشعار بحميد الأشعار » وله مقامات ورسائل فيها روعة ورصانة .

ومن مؤلفاته كتاب الدرج والدرك ، وهو كتاب وضعه فى مدح من اشتهر فى أيامه بكريم الصفات وجميل المزاي ، وذم ذوى الدنيا والمثالب ، على ما هداه ميله وأوحى إليه عقله . جعل الدرج للدوحين ، والدرك للذمومين . روى تليذه مصطفى النجارى أن هذا الكتاب استعاره منه صديقه حافظ بك مصطفى ولم يرده . وله كتاب آخر اسمه « تاريخ محاسن الميل لصور الخيل » ، وهو كتاب وضعه تلبية لرغبة الخديو عباس الأول ، ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، وله رحلة لم تطبع ولم يتيسر الاطلاع عليها . وله سفينة الآداب ، استعارها منه صديقه على أغا الترجمان ولم يردها .

(١) أعيان البيان للسندوبى ص ٤٧ .

كبرياء القلم

لفقيه الاستاذ كمال محمد عجمه

مدرس بالأزهر

الأقلام معادن منها الحر الخالص للصدق ، ومنها العبد الذى يسخر ويصرف فى شئون من يملك نواصيه ، ويقيد أقدامه ، ويذلله كما تذلل الدابة ، ويرسله لإرسال السائمة ، وربما جلب حنقه بلعاب شبابه ووجور زيوفه أو اندفاعات نزقاته .

والقلم حرفة وهواية ، وهو مع ذلك رسالة تقوم على المواهب ، وتتبع من أعماق النفس الصافية ، وعالم الروح المنظوى على متابه ، لا ندرى من أمرها إلا الآثار التى تدل . . والمبدعات التى تشهد . والله فى خلق الأقلام شئون ، وما يعزب عنه القلم الضال ، ولا صريف اليراع المهتدى . والأقلام منها التقى والفاجر ، ومنها الضاحك والباكى . ومنها القوى والضعيف ومنها الغنى والفقير ، ومنها المترفع والمسف ، ومنها المتعالى والمتظامن .

ولن تقلب آثار القرائح على اختلاف ألوانها وأزمانها وأوطانها ، إلا وجدت نتاج الأقلام مقسما كما وزع الله المواهب على النفوس ، وكما أعطى الحظوظ . وكل قلم ميسر لما براه الله له ، فلا عتاب ولا ملامة .

والأقلام الحرة تجوع فى سبيل فنها وإبداع نتاجها ، ولا تأكل بتسخير لعبها وتوزيعه على مطالب الهوى وشهوة النفس التى تلعب بها الألهواء ، وتراقص بنوازعها الأغراض المسفة والمتع الزائلة ، واللهفة على الشهرة المجلوبة .

وناشئ الأقلام من أبنائنا يجد القدوة بين يديه ممن يشرفون على تفهيم غضارته الإنشائية . وما ينبغى لنا أن نمسك للعدوى السيئة من التفشى فى صفوف

الطلاب ، واسكن والأسف يقطر زفرات ويكاد - لولا الحياء - يسيل عبرات ...
كثيراً ما نجد في حُصْب ما ينشر ، ومسف ما يكتب ونازل ما يحبّر صحفاً لا حظ
لأقلامها من صدق الفكرة ولا سمو الغرض ولا الإمعان وراء الإبداع الفني
والصوغ البياني .

ولأنما هو احتطاب للألفاظ وسوق للكلمات و (نسويد) لوجوه الصحائف بما
يبرأ منه «الأدب الرفيع» والدين الصادق ، ومرد هذا شهوة الشهرة وقلة المراقبة للنتاج .
ونحن في حاجة إلى أقلام لها كبرياؤها . حتى ترتفع بناشئتنا التي تعثرت في كدر
(المجلات) المتهافنة ، وأخص منها التي تنتسب إلى (الدين) ، وتستغل عواطف
الانتماء ، ثم تطلق من مساليلها أساليب منهارة ، ومواد عفنة ، وتعابير هزيلة مكررة
تذهب بنشاط المتلقي ، وتعنى على قوته ، وتخدّر الفتي ، فإذا عينه تدور من فرط
الاجهاد بغير طائل وراء طحالب التعبير .

ولا أنكر أن أمثال هذه (المجلات) تولد في أحضان الفقر وتنمو في ظل
الحاجة وتدرج على أكف تمدّها لوجه الله لا تريد من نتاجها سموً ولا من أسلوبها
علوً ولا من عرضها تفنناً .

ومن المؤسف — ونحن في بلد إسلامي — أننا لا نجد من معارض الصحافة
ولا حقول المؤلفات الشعبية الدينية إلا ما يخجل جبين الفن البلاغي ويسئ إلى
الدين الذي يجب إلى أهله القوة والمتانة ولا يرضى لهم الترهل والخرقة والضعف .
وسبب ذلك ، أن الأقلام التي تصطنع الكتابة الدينية ، أغلبها في أيد فاشلة
ونفوس تجر باسم الدين ولا تراه رسالة سامية يجب أن تنزه عن الرياء والاحتراف
السوقي . والقلم الديني في حاجة إلى كبرياء وفي حاجة إلى أن يدلف إلى أعتاب الخلود
ويلوذ بهراق التجديد . ولا يكون ذلك إلا إذا غربلت مسفات المجلات وحيل بين
الأقلام المتعلقة واليراعات المتاجرة ، وبين التمولي باسم الدين والعيش على حسابه .
وحسبي من الدعوة إلى القوة والتجديد ، أنني أَرْضَى كبرياء قلم ما أهويته لريبة
ولا حملته نحو حقول السفساف من الأدب ، ولا زيوف الطغام من الإحلاس
الذين يعيشون كلا على الدين . وماربك بغافل عما يسطر المسفون ، وتعالى الذي
علم بالقلم ، وكرم من يصون كبرياءه .

مناهج التفسير

حاجة المسلمين إلى تفسير أوضح

لفضيلة الشيخ عبد المنعم النمر

دفعني للكتابة في هذا الموضوع حرج أشعر به دائماً حين يسألني أحد المتعلمين تعليماً مدنياً عن تفسير للقرآن يستطيع أن يقف منه على بعض أسرار الكتاب الكريم ومعانيه . فأستعرض أمامي التفاسير التي ورثناها عن العلماء السابقين لأختار له تفسيراً واضحاً يشبع غلته ويرضى نزغته ويقرب إليه المعنى دون أن يملّه أو يتعبه أو يصدّه عن متابعة القراءة فلا أجد ويقتابني حرج وخجل !! أي التفاسير أدفعه إليه .

إن التفاسير التي أمامنا قد وضعها في عصور قديمة علماء فطاحل دارسون ومستوعبون لكل العلوم الشرعية والعربية وغيرها فجعلوا تفاسيرهم معرضاً لعلومهم التي يعرفونها ، وكلما وجدوا كلمة أو جملة تتصل بأية ناحية من نواحي العلوم التي يعرفونها استطردوا إليها ولو كانت الآية لا تحتاج في فهمها إلى هذا الاستطراد ، وكلما وجدوا آية في القرآن تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع من موضوعات الخلاف في التوحيد أو النحو أو البلاغة أو الفقه خاضوا بهذه الآية غمار الخلاف وتكلموا عن أصل الموضوع والخلاف الطارىء عليه وحجج الفريق الآخر والرد عليها حتى لتشعر وأنت تخوض هذا الخضم معهم أنك بعدت عن الشاطئ كثيراً شاطئ القرآن وأصبحت في جو جديد جو الفقه أو التوحيد أو النحو أو ما شئت من العلوم .

وتجد لكل تفسير من التفاسير التي بأيدينا ميزة يتميز بها عن غيره ، وهذه الميزة التي يظهر بها التفسير راجعة إلى ما يمتاز به المفسر نفسه ، فإن كان المفسر تغلب عليه علوم اللغة ، وجدت تفسيره غاصاً بأبحاث لغوية ، وإن كان متبحراً في علوم البلاغة ، وجدت لهذا أثره البارز في تفسيره ، وإن كان فقيها وجدت

للفقه أثره الملموس الغالب على كل ما عداه في تفسيره ، وإن كان عالماً كونياً فلسفياً انتهز فرصة الآيات التي تتكلم عن الكون وأفاض إفاضة لا يفهمها إلا أمثاله من العلماء الكونيين ، وبعض المفسرين يلجأ إلى نقل الاسرائيليات ويفسر بها كتاب الله وهي مدسوسة من علماء بنى اسرائيل تلتقاها علماؤنا بحسن نية وفسروا بها كتاب الله ونسبوا غالباً إلى ابن عباس أو غيره من أجلة العلماء ، وبعضهم يحرص على نقل أحاديث كثيرة مختلفة في القوة والضعف يريد أن يفسر الآية بها ، وأنت أمام هذه التفاسير كلها لا تظفر بتفسير حقيق للقرآن تطمئن إليه نفسك وينشرح له صدرك ، وكما قيل تظفر من كتب التفسير بكل شيء إلا التفسير ، هذا فوق أن بعض هذه التفاسير يقرر أشياء بعيدة عن روح الإسلام وعن أصوله كما في قصة الغرائق وقصة زينب بنت جحش مما اعتمد عليه المستشرقون في مهاجمتهم للإسلام .

وتجد لهم أحيانا تفسيرات تافهة بعيدة كل البعد عن هدف القرآن وعظمته ، فتجد بعضهم مثلاً يذكر عن قوله تعالى « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن » أن من هذه الكلمات التي ابتلى بها ابراهيم قص الظفر وحلق العانة والختان وتنف الإبط ، مما ننزه القرآن عن التعرض لمثلها في هذا المقام ، بل نكبر الكتاب العاديين عن الخوض فيه .

وإذا كان كل كتاب من كتب التفسير ينفرد بالإفاضة في ناحية من نواحي العلوم الخارجة عن لب التفسير مع عدم إغفاله العلوم الأخرى . فأنتى لا أغالى إذا قلت إنها تكاد تكون خالية من البحث عن أهداف القرآن وأغراضه والروح العامة التي تشتاقي إليها النفوس الظامئة ، اللهم إلا بعض إشارات وعبارات يمكن الاعتماد عليها في الفهم العام لمعانى القرآن .



وإننا لا نزال حتى الآن مغرمين بالسير على منوال السابقين من المفسرين ، فالأبحاث اللفظية والبلاغية والفقهية والكلامية ، هي شغلنا الشاغل كلما تعرضنا لتفسير القرآن ، والمفسر العظيم هو الذى يستطيع أن يحشد فى مقاله أو تفسيره ما قاله السابقون فى كتبهم من الأبحاث البعيدة عن روح القرآن ، أما أنه يتحرر

قليلا من التقييد بهذه الابحاث ، ويرمى إلى الكشف عن لب الآية ، ويربط بينها وبين الحياة وتياراتها دون أن يلتقي بالا إلى التشور ، فذلك المفسر في نظر الكثير لا يعرف شيئا عن التفسير .

ودراستنا في الأزهر الآن متيدة كذلك بقيود السابقين ، ونظرتهم إلى دراسة القرآن ، فشغلنا الشاغل في درس التفسير هو النحو والبلاغة والفقه وعلم الكلام ؛ فإذا ما انتهينا من التحدث عن هذه العلوم كنا قد انتهينا من فهم الآية ودراستها ، ولذلك تجد درس التفسير كأى درس من الدروس الأخرى ، لا يفرق كثيراً عن دروس الكيمياء والطبيعة في جفافه وخلوه من الروح والعظة والهداية .

ولقد درجت على أن أسمي هذه الابحاث التي أضطر إليها في درس التفسير « تلبك » ، في تفسير القرآن « كتليك » ، المعدة تماما ، إذ أنها تحول بيننا وبين هداية القرآن والاتعاظ به ، فتجد المفسرين مثلاً حينما يتعرضون لتفسير قوله تعالى : « وفي خلعتكم وما يبت من دابة آيات لقوم يوقنون » ، يهتمون كل الاهتمام بإعراب الآية من حيث عطف وفي خلعتكم ثم عطف وما يبت ، والخلاف في ذلك « وآيات » ، معربة بالرفع أو النصب الخ ، ويذكرون كلاما لا يفهمه كثير من العلماء !! ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الآية الثانية ، وهكذا دون أن يدلوا على مكان العظة والعبرة والعظمة في خلق الناس وبث الدواب ، ودون أن يكشفوا عن آيات الله في خلقه مما تخشع له القلوب ، وتخزله الجباه . وهكذا لا تجد ما يشفي غلتك أو يشبع نهمك في فهم معاني القرآن ، بينما تجد أبحاثا تجلب الصداق وتصد عن الاطلاع .

ولم نجد من المحدثين من يسد هذا النقص بتفسير تام للقرآن ، يستطيع المتعلمون في غير الأزهر أن يقرؤوه ويفهموه ويجدوا فيه ضالتهم ، ويستطيع الأزهريون وغير الأزهرين أن يشموا منه رائحة الهداية في القرآن وناحية العظة فيه .

وقد ترك لنا الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا عليه رحمة الله نموذجاً طيباً في تفسير القرآن ، وإن كان لم يتم إلا أنه على كل حال فتح جديد في عالم التفسير ، يجد فيه المثقفون ضالتهم وغايتهم ، ويستطيع من يريد أن يخدم كتاب الله أن ينهج هذا المذهب الصالح ، ولقد قام المغفور له الإمام المراغي بدروس في التفسير نهج فيها نهج إمامه وأستاذه الشيخ محمد عبده ، فكانت هي الأخرى على قلبها فتحاً جديداً في الكشف عن معاني القرآن وتربيتها لأذهان الناس

ومنذ سنوات عدة قام ثلاثة من كبار العلماء أصحاب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد الوهاب خلاف والأستاذ عبد الوهاب حمودة بإلقاء محاضرات في تفسير القرآن بدار الحكمة بمعاونة الحاج يعقوب بك عبد الوهاب وقد لقيت هذه المحاضرات نجاحاً كبيراً واحتشد لها المثقفون على اختلاف ثقافتهم حيث وجدوا فيها الغذاء الذى يفسدونه من القرآن الكريم لعقولهم وأرواحهم . وم نجد حضرات المفسرين فى هذا يتسمون خطى المفسرين السابقين من العناية بالآبحاث اللفظية بل إنهم عنوا بالمعنى ، بالروح ، بالهدف ، بالعظة والعبرة . فكشفوا بذلك عن عظمة القرآن وعن سر خلوده .

وهذا النجاح والاقبال حتى من كبار علماء الأزهر على هذه المحاضرات ترينا إلى أى حد نحن محتاجون إلى تفسير كهذا التفسير الذى قرأناه فى المنار وسمعناه فى المحاضرات .

لما نقرأ كثيراً أن الواجب يقضى بوضع تفسير للقرآن يترجم إلى اللغات ليعرف الأجانب منه عظمة القرآن وتشريعاته ومبادئه : وإننى أقول إن المسلمين العرب لفي أشد الحاجة إلى أن يقرءوا بالعربية تفسيراً يفهمون منه معانى القرآن ويقفون منه على عظمتيه وعظمة تشريعاته ومبادئه حتى إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

ولمنا فى الأزهر لفي أشد الحاجة كذلك إلى توجيه طيب فى كيفية دراسة التفسير بحيث نجعله درساً للهداية والعلم ، نفهم فيه القرآن بدل أن نردد فيه ما نعرفه من علوم النحو والبلاغة والفقه . إذ أننا بهذا التوجيه السديد الجديد نفتح فتحة جديدة فى عالم التفسير ونربى جيلاً جديداً من العلماء يقوم علمه على اللب لا على القشور .

وإن فى الأزهر وخارج الأزهر من العلماء الأفذاذ من يستطيعونه لو تضامنوا وصح منهم العزم - أن يخدموا القرآن ويخدموا المسلمين ويخدموا أنفسهم ويخلدوا ذكرهم إذا وضعوا تفسيراً للقرآن يتم ما بدأه الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، ويحقق للنفوس الظامئة المتلهفة رغبته فى التزود من كتاب الله والارتواء من معينه العذب الفرات .

فهل يفعلون ؟ ! إنا منتظرون ؟

المسلمون والتصوير

لدكتور أستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في التاريخ - ودبلوم في الآثار - وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

عرضنا فيما سبق للكلام عن اليهودية والتصوير ، وذكرنا بعض ما جاء في التوراة من آيات تتعلق بهذا الموضوع ، وتكلمنا عن أسباب منع التصوير في الشريعة الموسوية ، ودوافع ذلك المنع ، واحتمال تأثر المسلمين بتلك الأفكار . وننقل بعد هذا إلى الكلام عما يأتي :

المسيحية والتصوير :

جاءت المسيحية ، ولقيت أول ما وجدت ألواناً من الاضطهاد من أتباع الديانة اليهودية من جانب ، ومن الدولة الرومانية الوثنية من جانب آخر . وعاشت المسيحية في جحيم الاضطهاد سنوات ، ورأى المؤمنون بها أن رجال اليهود المكابرين وحكام الرومان الظالمين ، لن يغفروا لهم ثباتهم على تلك العقيدة ، ولن يدعوا فرصة تردون تعذيبهم والقضاء عليهم ، غير أن إيمان المسيحيين الأول كان أقوى من مكر اليهود وبطش الحكام ، وقد هدام إيمانهم إلى الهرب بعقيدتهم إلى المغاور والكهوف والسراديب ، حيث جعلوا منها أماً كن للصلاة والعبادة ، كما اتخذوا لأنفسهم رموزاً خاصة يفهمون وحدهم مدلولاتها : فكان رسم السمكة يرمز ليسوع المسيح المخلص « ابن الله » ، وكانت الحمامة ترمز للروح القدس ، وكان رسم الراعى الذى يحمل الشاة الشاردة فوق منكبيه ، يرمز للمسيح الذى بعث ليخلص الناس وهكذا . ومضت قرون وحل القرن الرابع الميلادى ، وخرجت الأفكار المسيحية من باطن الأرض إلى ظاهرها ، حين اعترف بها الإمبراطورة ديناً رسمياً للدولة الرومانية . ومن ثم انتشرت المسيحية في كل مكان من بلاد الإمبراطورية الضخمة ، ورأى القائمون على أمر الدعوة المسيحية أن خير الوسائل التى تسكفل للدين الجديد الثبات والاستقرار ، اتباع كثير من الأساليب والنظم التى خلقتها الإمبراطورية الوثنية دون أن يخشوا شيئاً من زيغ أو خروج على الدين . والذى حدث أن الكنيسة

أفادت كثيراً من ذلك الاقتباس الذى لم يحمل فى طياته أى خطر بالنسبة إليها . غير أن الفن المسيحى أو الفنون التى نشأت لخدمة الكنيسة وأغراضها قد اختلفت بطبيعة الحال عن الفن الرومانى الوثنى ، حيث كانت أقرب إلى البساطة ، وأطوع لرغبات رجال الدين المسيحيين ، وإن كنا لا نستطيع أن نتجاهل ما أفاده الفن المسيحى مما عاصره ، وما كان قبله من الفنون .

ولما كانت المسيحية قد استعانت منذ ظهورها بالصور لنشر العقيدة ونقلها عن طريق الرسوم الرمزية من مكان إلى آخر ، فقد ظلت على إيمانها بالفن ولزومه لشرح العقيدة ، واستخدامه فى تقريب معانى الإنجيل إلى أذهان الناس وأفهامهم ، وتوضيح الأحداث المسيحية الكبرى ، وحياة الرسل والقديسين باللوحات المصورة والتماثيل . وجدير بالذكر أنه لم يعم - حتى القرن الثامن الميلادى - أى اعتراض أو خوف من رجعة الوثنية أو نكسة المسيحية .

ولقائل أن يقول إن الاعتراض على الصور أو الخوف منها قد ظهر فى القرن الثامن الميلادى بدليل قيام حركة تحطيم الصور الدينية فى الامبراطورية الرومانية الشرقية .

والجواب على هذا أن تلك الحركة لا علاقة لها برجال الدين المسيحيين بل قام بها ودعا إليها الامبراطور نفسه لدوافع سياسية واقتصادية كان لها ما يبررها فى نظر الامبراطور حينذاك . مع أن تلك الحركة كانت قاصرة على اتباع الكنيسة الشرقية أو الكنيسة الأرثوذكسية . بينما ظلت الحال على ما هى عليه فى سائر أجزاء العالم المسيحى . وقد تخلف عن خدمة فن التصوير للمسيحية تراث ضخم رائع ليس الكلام عنه من موضوع هذا المقال .

الفرس والتصور :

يرجع ماضى الفرس الفنى إلى ما يزيد على ثلاثين قرناً قبل الميلاد ، كما تدلنا على ذلك نتائج الحفريات التى قام بها الآثريون الغربيون هناك . وإذن فليس من السهل على شعب يرجع تراثه الفنى إلى ذلك الماضى السحيق ، أن يتحول عن طبيعته الفنية ، ولا أن يغمض عيونه عما يراه ماثلاً أمامه فى كل مكان من روائع ما أنتجه الأجداد السابقون .

ولم تحل الأفكار الدينية التي سادت إيران في عصورها التاريخية — دون مزاولة الفرس للفنون في شتى أشكالها ، فالزردشتية كانت تأمر الناس بعمل الخير اقتداءً بالله الخير ومساعدة له على أن يزعم بفضل أعوانه — الله الشر . ويفهم من هذا أن تقيد الآلهة في أعماله وأفعاله ، أمر تحض عليه الزردشتية ، والاقتداء به فيما ينبغي ويريد ، كالمطلوب . والخلاصة أن الزردشتية لا تخاف تقليد الآلهة بل ترى أن هذا مما تنزع إليه كل نفس طيبة ، لأن الغرض الأول من ذلك هو الوصول للكمال لا المكابرة والعناد .

أما « المانوية » فقد استعانت على أداء رسالتها بالتصوير ، ذلك أن ماني نفسه — صاحب تلك العقيدة — كان مصورا ماهرا ، وقد زين كتبه التي نشرها بين أتباعه بالصور والرسوم وتقبل الفرس ذلك الجهد الفني قبولاً حسناً وإن لم يؤمن الكثيرون منهم بآراء ماني الدينية .

ثم جاء الإسلام إلى بلاد فارس فأمن به الفرس وتناولوا أصوله وأحكامه بعقولهم لا بقلوبهم فحسب . ويبدو أنهم كانوا أكثر تأملاً للنصوص وأعمق فهماً للحقيقة القائلة : « أن الدين صالح لكل زمان ومكان » . وعلى قدر ما كان الفتح العربي لبلاد فارس انقلاباً من حيث نظام الحكم وأشخاص الحاكمين وطبيعة الدين ، كان إيمان الناس بالإسلام استجابة لنداء العقل ، لا خضوعاً لقوة السيف ولا رهبة من بطش الحاكم . على أن الفرس احتفظوا بطابعهم المعيشي القديم ، ورعوا فنونهم بإخلاص حر متوارث ، وزاولوا تلك الفنون في ظل الحكم الإسلامي بنفس التذوق الذي كانوا يزاولونها به قبل أن يحل الإسلام بينهم ،

وفي ذلك العصر الإسلامي رسم الفرس بعض المواقف من حياة الرسول وأحداث التاريخ ، كما شرحوا كتب العلوم بالصور النباتية والحيوانية ، وزينوا الأثاث والأواني ، ونقشوا البسط والنياب ، واتخذوا من الخزف والمعدن تحفاً على صورة الطيور والأناسي ، دون أن يخطر بأذهانهم عمد لمخالفة الدين أو رغبة في الخروج على تعاليمه . ولكن الفرس تحركوا في إيمان عميق ، بأن الإسلام لا يكره الصور ولا يخشاها ، وأن تلك الرسوم لا تستطيع — مهما بلغت من روعة الفن — أن تميل بالنفوس عن جلال الوحدانية وسموها .

دراسات في القرآن

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوى

تردد الحديث عن كليم الله موسى في خمسة وعشرين سورة من القرآن سردها جميعاً ثم بدأت أذكر مواضع الآيات من تلك السور مفسراً لها .

وتحدث اليوم عما تفيد به الآيات (٦٠) فما بعدها من سورة ، البقرة تذكراً في (٦٠) من سورة البقرة أن موسى طلب السقيا لقومه ومعناه أنهم عطشوا في الصحراء ولا ماء . فسأل الله أن يسقيهم فأكرمهم الله بأن أخرج لهم الماء من الحجر . كما أكرمهم من قبل فجعل لهم طريقاً في البحر يبسا .

قال الله سبحانه لموسى منبها له ولهم على ما وضع من أسرار في هذه العصا التي أنقذته من سحر فرعون فالتفت ما كانوا يأفكون ، وضربت البحر فانفرد فكان كل فرق كالطود العظيم ، قال له أضرب بعصاك الحجر ففجرت منه اثنتا عشر عينا ، بعدد الاسباط الذي قسمهم موسى قسمة القائد الحكيم . وعلم كل أناس مشربهم بلا بغى ولا اعتداء .

بعد هذا تورد الآية (٦١) صورة من تمرد القوم في شأن الطعام بعد أن ذكرت ما قبلها صورة من حفاوة الله بهم في أمر الشراب ، فهؤلاء القوم قد أنعم الله سبحانه عليهم في الصحراء المحرقة المجربة ، فظل عليهم الغمام وقاية ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما شهيا ، وغذاء قويا مع ذلك الشراب من الحجر ، فكفروا نعمة الله وقالوا لن نصبر على طعام واحد ، وسألوه عتنا وشقاء شيئا مما تنبت الأرض لا ما تنزل السماء ، فالتسوا لأنفسهم الشقاء ، وطلبوا الأدنى بدلا من الأعلى .

فتحدثهم الله سبحانه كما يقول - الأستاذ محمد عبيد - أن ينزلوا إلى محاربة سكان الأرض الموعودة ، ولكنهم امتنعوا جبنا كما هو شأنهم .

وفي آيتي (٦٣ ، ٦٤) أن الله سبحانه أخذ عليهم العهد والميثاق بعد أن رفع فوقهم جبل الطور تخويفا لهم حتى يقبلوا التوراة . قالوا إن نبي الله موسى طلب من قومه لما رجع من مناجاة ربه ، ومعه التوراة ، أن يعملوا بها ، فأبوا إلا أن يروا الله ويكلمهم كما كلم موسى فأخذتهم الصاعقة كما ذكر في آية سابقة ثم بعثهم الله . ثم عادوا إلى خلافهم فأمر الله سبحانه جبريل أن ينزل الجبل فيجعله فوق رؤوسهم . عند ذلك خافوا وعاهدوا موسى على العمل والطاعة . ثم خالفوا بعد ذلك . ولولا فضل الله عليهم ورحمته لسكانوا من الهالكين .

وذكرت آية (١٧١) من سورة الاعراف أن الله سبحانه نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ففي سورة الاعراف بعض تفصيل للرفع كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم وفي سورة البقرة بيان أنهم نقضوا العهد .

وأما آية (٥٦) مما هنا (البقرة) فهي تحدثنا أن جماعة من بني إسرائيل اعتدوا في السبت فمسحهم الله قردة وتذكر أن يهود الإسلام علموا ذلك وأن الله سبحانه جعل تلك العقوبة نسكالا وعبرة لمن في زمنهم ومن بعدهم وموعظة للمتقين ، والحادث مفصل بأكثر مما هنا في سورة الاعراف (١٦٣ - ١٦٦) ففيها أن ذلك كان بالقرية التي كانت حاضرة البحر قريبة منه وأنهم اعتدوا لأن الله سبحانه ابتلاهم فجعل الحيتان تظهر لهم يوم يسبتون ، ولا تأتيتهم يوم لا يسبتون وأن طائفة كانت تنهائم وأخرى كانت تلوم التي تنهائم لأن الله سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا وأن الله أنجى الناهية وعذب الظالمة وسكت القرآن عن اللائمة فاختلف الناس فيها وأن الله أيضا قال لهم وللمعتدين ، كونوا قردة خاسئين هذا ما في الكتاب الكريم فإما تعيين القرية بأكثر من أنها قريبة من البحر فهي موضع ابتلاء بالحيتان . وأما الكلام في أن الطائفة الناهية هلكت أو نجت فلا ثبوت له ومن عجب النظر وفضوله محاولة التأويل في أمر المسخ بأنه مجاز عن الخسة أو غيرها كما ينقل الشيخ رشيد رحمه الله في التفسير .

والآيات من (٦٧ - ٧١) من سورة البقرة تقص علينا من أنباء بنى إسرائيل ما يصور بعض تنطعهم وإحفاثهم في السؤال ، وهى متصلة بما بعدها (١٢ - ٧٣) مرتبة عليهما ، متأخر مدلولها في الزمن عنهما ، ولكن ذلك مسالك الذكر الحكيم للتشويق حتى يستقر في النفس ما بعده ، ويقع منها موقع الماء من ذى الغلة .

تذكر أن موسى (ص) ينقل إلى قومه عن الله سبحانه أنه يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، وأن ذلك لغرابته عندهم يجعل موسى عندهم كالمستهزى بهم ، فلا علاقة في عقولهم بين قتل نفس يراد معرفة قاتلها ، وبقرة يؤمرون بذبحها ، والاستهزاء من صفات الجاهلين ، فاستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين .

فطلبوا من موسى أولاً أن يعين لهم صفتها ، ما هى ، ففهم أن ذلك سؤال عن سننها فسأل ربه فأجاب بأنها لا فارض « مسنة » ولا بكر « صغيرة » . ولكنها عوان « نصف » ، بين ذلك . ثم سأله ثانياً عن لونها فقال إنها صفراء شديدة الصفرة تسر الناظرين بهذا اللون المحبوب . وطلبوا ثالثاً زيادة التمييز في الصفة أسائمه هى أم عاملة . واعتذروا عن هذا الإسفاف بأن البقر تشابه وأن لهم أملاً في الاهتداء فتمال لهم إن الله سبحانه يطلبها غير عاملة فهى ليست ذلولاً تملب الأرض للزراعة . ولا تسقى الأرض المهيأة لها ويريدها مسلمة ليس فيها لون يخالف لونها فتمالوا الآن جئت بالبيان الحق فذبجوها وما كادوا يفعلون . ولو أنهم ذبحوا بقرة لكفرتهم أيا كانوا ، ولكنهم شددوا فشد عليهم ، وبهذه القصة سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » ذلك فيما أفهم لأنها لم تذكر في غيرها وفى « ٧٢ و ٧٣ » أنهم قتلوا أنفسهم فاختلفوا في القاتل وتدافعوا كل يدفع عن نفسه ويتهم غيره ولكن الله مبين للحق فلذلك قال اضربوا القاتل ببعض تلك البقرة وقوله « كذلك يحب الله الموتى » صريح في أن الله أحياء أو كالصريح فيه ، فلا عبرة بتعسف الشيخ رشيد وتعقيد في آيات الكتاب . والله الموفق للصواب .

في حجب المكفوفين

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

يخطيء بعض الناس حين يظن أن القرآن الكريم قد شوه صورة العمى وقبح منظر الأعمى ، لأنه أكثر من ذكر العمى والأعمى في مواطن الذم والسوء ؛ وهذا ظن قد يساعده الشكل والمظهر ، ولكن الأمر يتبدل حين النظر الدقيق والبحث العميق ؛ وقد تتبعنا الآيات الكريمة التي وردت فيها مادة « العمى » ، ثم بحثنا ، فلاحنا في فيها سمة غالبية ، هذه السمة هي أن القرآن لا يريد بمادة « العمى » ، في أكثر استعمالاته كف البصر وزوال الرؤية من العين ، ولكنه يريد بها ضلال العقل وسفه التفكير وخطأ الرأي ، ولتستعرض الآن طائفة من تلك الآيات لتبين فيها ذلك .

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة واصفا شأن المنافقين : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » ، وهؤلاء المنافقون مبصرون حسا ، ولكن القرآن أراد أن بهم عمى عن الحق وضلالا عن الهدى ، فما أراد القرآن العمى الحسى ، بل أراد العمى المعنوى ، وهو شر ما يعاب به الإنسان . ويقول في سورة الأنعام : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » . ويقول في سورة يونس : « أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون » ، والمراد به أيضا الضالون السفهاء الذين لا يستجيرون . ويقول في سورة الإسراء : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، والمراد الأعمى عن الحجة المنصرف عن الدليل ولو كان له بصر زرقاء اليمامة . وفي سورة الحج يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ، والآية لا تحتاج إلى تعليق ، فهي في الباب أوضح ما يكون . ويقول في سورة النمل : « وما أنت بهادي العمى عن ضلالهم » ، والمقصود مفهوم . ويقول في سورة فصلت : « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى » ، فالمقصود بالعمى هنا هو الضلال لا فقدان البصر ولذلك قوبل بالهدى .

وفي نفس السورة يقول عن القرآن : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أى لا يفهمونه ولا يتأثرون به لبلادتهم وظلمة قلوبهم وعقولهم . وفي سورة محمد يقول عن المجرمين من الكافرين والمعاندين : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أى أضلهم عن الإيمان فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد ، ولذلك عتب الآية السابقة بقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على القلوب أقفالها » .

ويقول في سورة فاطر : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور » . قال المفسرون : هذه أمثال ضربها الله في حق المؤمنين والكفار ، فبقوله : الأعمى والبصير أى العالم والجاهل ؛ ولا الظلمات ولا النور أى الكفر والإيمان ؛ ولا الظل ولا الحرور أى الجنة والنار ؛ وما يستوى الأحياء ولا الأموات أى المؤمنون والكافرون ! ...

من هذا نرى أن أغلب الاستعمالات التي وردت في القرآن الكريم لمادة « العمى » ، أريد بها عمى القلب والعقل والروح ، لا عمى البصر .

فإذا أراد القرآن استعمال مادة « العمى » بمعناها اللغوية الأولى وهو كف البصر ، لم يستعملها على وجه الذم والتوبيخ ، بل يذكرونها في مواطن الرحمة أو التخفيف ، فهو مثلاً يقول : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى » ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتفتحه الذكري » ، فيذكر المكفوف هنا باللفظ الصريح ، لا ليتندر عليه ولا ليسخر منه ولا ليستهزئ به ، وإنما لكي يذكر رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن هذا « الأعمى » ، كان في حاجة إلى الرحمة والإقبال ، لا إلى الإعراض أو الإهمال ، والقرآن الكريم يقول في آية أخرى : « ليس على الأعمى حرج » ، فيذكر أيضاً كلمة « الأعمى » بمعناها الأصلية وهو كف البصر ، ولكن في أى موطن ؟ . ليس في موطن الذم والتمدح والتجريح ، بل في موطن الرحمة والتخفيف ! .. وإذن فالقرآن لا يسخر من الأعمى كما يظن الجمهور ، ولا يذكره ذاماً أو ناقداً ؛ وإذن فاستشهاد الكثيرين بالآيات التي تتضمن مادة « العمى » في الجملة على المكفوفين أو السخرية بهم ، استشهاد يدل على عمى في العقل وبلادة في الشعور . وقد التفت إلى هذا المعنى بعض العباقرة وذكروه في كلامهم ، فقال إبراهيم التيمي

« كفى بالمرء حسرة أن يفسح الله له في بصره في الدنيا ، وله جار أعشى ، فيأتي يوم القيامة أعشى ، وجاره بصيرا . » وقال معاوية بن أبي سفيان لعبد الله بن عباس : ما بالكم تصابون في أبصاركم يا بني هاشم ؟ (وكان ابن عباس قد كف بصره في آخر حياته) فألقمه ابن عباس حجرا حين أجابه قائلا : كما تصابون في بصائركم يا بني أمية ! . وسمعت عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة رجلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا . فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب أشد من عمى العين في الدنيا ، والله لوددت أن الله وهب لي كنهه محبته ولم يبق مني جارحة إلا أخذها ! ... وقال رجل للقاسم بن محمد : لقد سلبت أحسن وجهك . قال : صدقت غير أني منعت النظر إلى ما يلي ، وعوضت الفسكرة في العمل فيما يجدي ! ...

والقاعدة التي نريد تثبيتها في الأذهان ولو بالإلحاح في الإعادة والتكرار هي أن كف البصر ليس بعيب موجب للاحتقار ، وليس بنقص يعوق صاحبه عن السبق والتبريز في الحياة إذا هيئت له الوسائل والأسباب ، وكل ما يقال فيه هو أنه نقص جسمي لا يلام عليه صاحبه ولا يعاب ، وأحيانا يهش له صاحبه ويفرح به ، إذ يريحه من سيئات وييسر له حسنات ، ولعل أبا العلاء المعري أشار إلى ذلك من طرف خفي حين قال : « أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمدونه غيري على البصر » . وكفيف البصر إذا أوقى الموهبة وواتته الظروف قد يعلو غيره من المبصرين وقد يسودهم في مواقف يقام لها كل ميزان ؛ ومن أمثلة ذلك أن أبا العلاء المعري الضرير دخل ذات يوم على المرتضى بلا قائد ، فعثر في طريقه برجل ، وتعجل الرجل فقال ، من هذا السكب ؟ . فأراد أبو العلاء أن يرد عليه سبه بأقذع منه ، ولكن في أسلوب مطوى ومن طريق غير مباشر ، وفي الوقت نفسه يبين له أن هذا الضرير المشتوم أفضل في علمه وحفظه من البصير الشاتم ، فأجابه أبو العلاء معرضاً به : السكب يا هذا هو من لا يعرف للسكب سبعين اسما ، ومعنى هذا أن المعري يعرف للسكب سبعين اسما ، وإلا لحق عليه باعترافه هو أنه كلب ، وهذه عبقرية لغوية مذهشة ، ومعناه أيضاً أن أبا العلاء يدرك أن شاتمته لا يعرف هذه السبعين فهو إذن السكب ! ... ولما شاهد المرتضى ذلك قرب أبا العلاء وأذناه واختبره فوجده عالماً ، مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه وهو ضرير إقبالا شديدا بعد أن ترك المبصرين وراءه ظهرياً ! ...

فكرتا العالمية والقومية

في نظر الاسلام

لفضيلة الأستاذ محمود فياض

مدرس التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

لقد أظهر البحث المقارن في علمي « السياسة والدستور ». أن الإسلام هو أول نظام عالمي سليم عرفته الإنسانية حتى اليوم ، وأن ما ظهر من فكر « عالمية » بعد سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح ، إنما استمد من النظم الإسلامية ، أليس الإسلام قد ألغى الفروق بين الأفراد في الأمة ، وتمعهم بالحرية والاخوة والمساواة ؟ أليس قد ألغى الحواجز والامتياز بين الشعوب ، وجعل الشعب في الأمة الإنسانية فرداً . ومن مقتضيات الاخوة والتمرابية ، المحبة والمودة ، وحسن المعاملة ، وضمان السلامة للجميع ، وتيسير الخير للجميع ، والتعاون في سبيل صالحهم العام ، وهذا هو معنى التعارف الذي جعله الله حكمة من حكم إيجاده البشرية « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فالتعارف والسلام هما أساس العلاقات بين الناس أفراداً كانوا أو شعوباً ، وكما يتفاوت الأفراد في النشاط والكسب ، والقدرة على العمل ومبلغ التبل في القصد من العمل ، كذلك تتفاوت الشعوب في ذلك ، وهذا هو موضع تقدير الشرف ، ودرجة التكريم للفرد أو للشعب ، وفق القاعدة الكلية « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » أي أبعدكم عن الشرك الديني والاجتماعي ، وأتقاكم للبضار والمفاسد ، وأكثركم دفعاً لها عن الأفراد والشعوب .

ونظراً لهذه النظرة الإسلامية إلى البشرية كان الإسلام ديناً عاماً للبشرية كلها ، لا خاصاً بشعب من شعوب الإنسانية ، واتجه في دعوته إلى البشرية كلها . لا إلى الشعب العربي الذي بعث فيه رسول الإسلام محمد صلوات الله عليه ، ولهذا فهو ينادى البشرية في القرآن الكريم بـ « يا أيها الناس » « يا بني آدم » وغالباً ما تجد الحديث الذي يعقب هذا النداء في القرآن الكريم شأناً عاماً للإنسانية ، لا خاصاً

بتنظيمات يعمل بها الذين آمنوا . . وهذا أيضاً هو مغزى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

قرر الإسلام هذا المعنى منذ ١٣٨٣ عاماً (أى منذ بعث محمد رسولا إلى الناس كافة ، وهذا المعنى هو ما تحاول البشرية أن تصل إليه اليوم وعبثا تحاول كما حاولت فيما مضى !!

حقيقة كانت المدنية اليونانية من عوامل إزالة الفوارق بين الشعوب . لأنها كانت خلاصة مدينت لشعوب مختلفة ، وساعدت على قيام دويلات في حوض البحر الأبيض المتوسط في الشرق والغرب ، فجاز أن توصف بأنها كانت نواة لنظام عالمي يجمع أكثر من أبناء شعب واحد في دائرة حضارة واحدة ، ولسكنك إذا عرفت أن « أرسطو » . عندما تحدث عن الرقيق عرفه « بأن كل من كان غير يوناني فهو رقيق لليوناني . لأن اليوناني لا يمكن أن يسترق ولا يحل أن يستعبد وكل غير يوناني يجب أن يكون عبداً لليوناني ، أو من شأنه ذلك ، لأن عبوديته لليوناني تهذبه وترقيه ، وتنمي مواهبه ، !! وإذن فالمدنية اليونانية كانت مدنية استعمارية ، تحم الفروق بين البشر ، ولا تعترف بحقوق الإنسان لغير اليوناني ، ودعوى « أرسطو » هذه هي أساس النظريات الاستعمارية التي أخذت ألوانا مختلفة في العصور الحديثة (استعمار . حماية انتداب . وصاية . مساعدة الخ) .

وحقيقة أيضاً أن الامبراطورية الرومانية القديمة كانت عاملا قضى على الحواجز السياسية بين الشعوب ، بتعميمها حق المواطنة الرومانية لأبناء الشعوب الخاضعة لسلطانها ، ابتغاء الامتزاج في نظام عالمي واحد ، يقوم على التقليل من حدة الفوارق الجنسية والسياسية بين الشعوب سيما بعد أن انتشرت المسيحية فيها وحاول الدين ورجال السياسة جمع العالم كله في دائرة روحية واحدة تظلمها راية سياسية واحدة .

هذا . ولما جاء الإسلام باتجاهه إلى الإنسانية ، ودعى إلى وحدتها على أساس الأخوة والمحبة ، ورسم للبشرية منهجا دينيا واجتماعيا وسياسيا ، يخلصها من قيود

الذل والعبودية ، ويحقق لها السلام ، ويضمن لها السعادة ، وكان بذلك أول تشريع أكرم الإنسانية ، وكان صاحب فضل ظاهر ، وأثر باهر ، في رقيها وسعادتها وتوجيهها نحو المثل العليا ، بقى أن يقول لى القارئ الكريم ، إذا كان الإسلام قد دعى إلى العالمية فما موقفه من القومية أو (الوطنية المحلية) ؟ وأبادر فأقول لك : إن الإسلام فى دعوته إلى العالمية لم يغفل القومية ولم يدع إلى إهدار الوطنية وهو هنا على عكس الشيوعية تماماً ، وذلك أن الإسلام يدعو إلى العالمية وفق منهج خاص يقول : إن بنى الإنسان إخوة وذوو أرحام ، وهم أحرار متساوون فى الحقوق والالتزامات ، ليس لفرد ولا لشعب أن يستعبد فرداً أو شعباً ، ثم يدعوهم إلى إقامة العلاقات بينهم - فردية وجماعية - على المحبة والمودة والسلام ، والبعد عن الظلم والطغيان ، كما يدعوهم إلى النضام الجماعى فى سبيل خير الجميع ، ولضمان تحقق ذلك كله يدعو البشرية إلى عبادة إله واحد هو خالقها ، والاحتكام إلى دستور واحد (القرآن) من صنع الخالق لا من صنع البشر .

ولم تقتل الشعوب من عاداتها وتقاليدها ، إذا لم تتناقض مع مبادئ الإسلام الكلية ، بل نجده يتر العرف (وهو مجموعة العادات والتقاليد للشعب) ، ويحكمه فى كثير من الجزئيات ، ما دام متفقاً مع قواعد الإسلام الكلية ، حتى قال الفقهاء : المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، والإسلام إذ يصبح موجهاً للإنسانية ، ويصبح دستوره دستوراً ، يصبح لدى الناس قوميتان ، قومية عالمية إنسانية تساوى عندئذ القومية الإسلامية ، وقومية خاصة هى الوطنية المحلية لكل شعب من الشعوب ، وفى إبان العصور الإمبراطورية الإسلامية .

عرف الشرقيون بصفة عامة فى العصور الإسلامية المختلفة حتى قبيل انهيار الخلافة العثمانية باسم المسلمين ، وعرفت بلادهم ببلاد المسلمين أو دار الإسلام ، وعرف المسلمون بلاد غيرهم بدار الحرب أو بلاد الكفار ، وتحدث الأوروبيون عن الشرقيين باسم المسلمين أو المحمديين ، وألغيت الحدود بين بلاد المسلمين ، وأصبحت أرض الإسلام موطناً عاماً للمسلمين ، ومع هذا كان لكل شعب خصائصه

ومميزاته ، وعاداته وتقاليده وعرفه ، وطرق معيشته ، وأسلوبه الخاص في الحياة ، وكان لكل إقليم حكومته ونظامه واقتصاده ، والإسلام من وراء ذلك كله مرشد وموجه ودستور عام ، وهذا غير ما دعت إليه العالمية اليونانية ، والرومانية والشيوعية ، فهي تصر إصراراً على إلغاء القوميات ، وتوجب انمياها في القومية اليونانية أو الرومانية أو الروسية مثلاً .

وألفت النظر إلى أن الإسلام عندما دعى إلى العالمية لم يحتم أن تكون للمسلمين في شتى البقاع حكومة واحدة ، ولم يحتم أن تكون للإنسانية حكومة واحدة ، كما أنه لم يمنع قيام مثل هذه الحكومة لو كان فيها تحقيق الخير والسلام لبنى الإنسان ! فهو يرى ذلك شأنًا من شئون البشرية تقدره حسب مصلحتها ، فإذا رأى المسلمون أو البشرية أن سعادتها وسلامتها وتحقيق رخائها والعدالة فيها تتطلبه حكومة عالمية مركزية واحدة ، فمن حقها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها في حكومة عالمية اتحادية تشرف على حكومات شتى لقوميات وشعوب شتى ، تتفق هذه الحكومات فيما بينها على طاعة الحكومة الاتحادية (كحكومة الخلافة في العصور الأولى) فلها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها في حكومات مركزية مستقلة لكل شعب من شعوبها فلها ذلك ، لا يحتم الإسلام شكلاً ولا لوناً من الأشكال السياسية ولا يمنعها ، ويترك ذلك لتقدير الإنسانية ، ولكن الأمر الذي بحته الإسلام هو أن يكون الحكم وفق الدستور الاسلامي ، وان تكون الأخوة والحرية والمساواة والتعاون والسلام هي أسس العلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب والحكومات ، وهذا من أهم مميزات العالمية الاسلامية عن غيرها ، عالميتنا لا تلغى القومية ولا تدعو إلى التسلط والطغيان الاستعماري واستعباد الشعوب ، لأنها تقوم على دين مثالي يقرر الحرية والأخوة ، المساواة للأفراد وللشعوب ، ويوجب المحبة والتعاون على خير الجميع ، ويأمر أن تكون العدالة والسلام والبر والاحسان هي الروابط بين الأفراد والشعوب ، عالمية الاسلام هي سبيل السلام ، ولن تتحقق للإنسانية أحلامها وسعادتها إلا بها ؟

« جهاد الهوى .. »

لفضيلة الأستاذ علي محمد حسن العمري

المدرس بالأزهر

النفس الإنسانية مطبوعة ، على ضرائب من اللؤم ، ومتهمة - دائماً - لتقبل ما يوحى به الهوى ، وكل تشريع سماوى أو أرضى يجعل من أول أهدافه تطهير النفس من أهوائها ، وتنظيفها من نزعات الشر فيها ، وإذا كان فى بعض التشريعات الوضعية ما يساعد النفوس على اتجاهاتها الصغيرة ، فما نشك أن هذه تشاريح فاسدة مفسدة ، فإن المجتمع الصالح لا يتكون إلا بأفراد صالحين ، والفرد لا يكون صالحاً حتى يكون العدل والانصاف ، وحب الخير للآخرين ، والرغبة فى إنهاض أمته ، ومساعدتها على الحياة السعيدة ، حتى تكون كل هذه أولى أهدافه ، وأسمى أغراضه .

وإذا سألتنى عن أمة يشيع فيها الفساد ، ويحالفها التأخر والانتكاس ، وتتقطع أواصر المحبة والإخلاص بين بعضها وبعض ، وبين شعبها وحكومتها ، وبين رؤسائها ومرءوسيه ، إذا سألتنى عن السر فى كل هذه المساوئ ، لم أتردد مطلقاً أن أقول لك : أن هذه الأمة يسود فيها الحكم بالهوى ، والميل مع الأغراض الشخصية ، والخضوع للنوازع الدنيا فى نفوسها ، وبذلك تندفع هذه الأمة إلى التأخر ، والفناء ، بمقدار ما تسود فيها أهوائها ، وتتحكم فى بنيتها شهوات نفوسهم ، ومنذ أربعة عشر قرناً أنذرنا الصادق المصدق بهذا الذى نئن من تفشيهِ بيننا ، فقد ورد أن امرأة من بنى مخزوم سرقَت ، وهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليها الحد ، ولكن قريشاً أهمهم أمرها ، وخافوا أن تقطع يدها ، وهى كريمة قومها ، وسيدة من سيدات قريش العظيمات ، فقالوا من يكلم رسول الله فيها ، فقال قائل : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ، فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشفع فى حرد من حدود الله عز وجل ، ثم قام فخطب الناس ، ثم قال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم

الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

إن هذه قصة يسيرة صغيرة ، ولكن دلالتها عظيمة الشأن ، كبيرة الخطر ، فالخزومية سرقت شيئاً قد يؤثر في حياة فرد ، فكيف يكون الحال لو أن الأيدي القذرة امتدت إلى ما يؤثر في حياة الأمة ، ثم ترك الشريف لشرفه ، فإذا كان ضعيفاً وسرق ما لعله في حاجة إليه رحبت به القيود والسجون ، لا شك أن مثل هذا السلوك خطير جداً على حياة الأمم ، لأنه يولد الاحتقاد والضغائن في النفوس ، ولأنه يسهل لمن يستطيع أن يعرض أمته لأخطر الشرور والاحداث .

والراصد لأحوالنا الاجتماعية ، يحزنه أشد الحزن ما يجده فيها من تغلب الاهواء ، وسيطرتها على كل شأن من الشؤون ، وليس الحكم بالهوى ، فيما يخالف القانون ، هو المظهر الوحيد لسيطرة الهوى وسلطانه ، بل هناك في صغائر الأمور وكبارها أهواء مطاعة ، وشهوات متبعة ، وربما بدا لبعض السذج أن اتباع الهوى في بعض الأمور له ما يبرره ، ولكن ذلك وسوسة الشيطان ، وخداع النفوس ، نأخذ مثلاً الامتحانات - ونحن في موسمها - فنرى بعض التلاميذ على أمرها يخضعون في كثير من الأحيان لأهوائهم ، فلهذا قريبه ، ولذلك ابن صديقه ، والثالث موصى على طالب أو تلميذ ، ولا بأس عندهم أن ينال واحد من هؤلاء أكثر من حقه ، ولكن لو كنا ننظر إلى الأمور نظرة جادة لرأينا أن الامتحان قضاء ، وأنه كما لا يجوز للقاضي أن يخضع لهوى نفسه ، فكذلك لا يحق للدرس أن يتعدى العدل والحق ، فكل محاباة لضعيف إنما هي ظلم لقوى ، وليس أضر على الناشئ من أن يشعر أنه يصعد على يد غيره ، فإن ذلك يعود الاستهانة بالعمل ، والفسق في الحياة ، وكان يقال : إذا رأيتم نخلة شر رائحة من رجل فاحذروه ، وإن كان عند الناس رجل صدق ، فإن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم نخلة غير رائحة من رجل فلا تقطعوا عنه أياسكم ، وإن كان عند الناس رجل سوء ، فإن لها عنده أخوات .

فإذا انتقلنا إلى مسلك الرجل مع أبنائه ، أو الأخ مع أخوته ، أو الصديق مع أصدقائه ، رأينا الهوى متغلباً في كثير من الأحيان ، ووجدنا الأمر كما يقول الشاعر :

فلست براد عيب ذى الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولقد حدثوا أن رجلا من يأكلون العيش بأخلاقهم ، كان يسير مع بعض
الأمراء على نهر يمر ببلدة من البلدان فقال الأمير ما أنفع هذا النهر لأهل هذا المصر
فقال صاحبه : أجل أيها الأمير ، والله أنهم يستعذبون ماءه ، وتفيض مياههم إليه
ويتعلم صبيانهم فيه العوم ، وتأتيهم تجارتهم وطعامهم فيه ، فلما إن كان بعد ذلك
ساير هنا هذا الرجل أمير آخر ، وكان عدواً للأمير الأول ، فقال : ما أضر هذا
النهر بأهل هذا المصر ؛ فقال صاحبه وهو الذى امتدح النهر بالأمس - أجل أيها
الأمير ، تنز منه دورهم ، ويغرق فيه صبيانهم !

وليس الهوى الذى يدفع النفس إلى الغواية والشر ، بأقل خطراً من هذا الهوى
الذى يدفعها إلى أن تجانب العدل والانصاف حين تحكم ، أو حين تعامل الآخرين
فإن الهوى لا يأتي بخير أبداً ، وهو غلاب ، فالإنسان فى حاجة ماسة إلى إرادة
قوية تعصمه من الزلل ، وتحول بينه وبين الخضوع لما تمليه عليه نفسه الامارة
بالسوء ، ولذلك يقول البوصيرى :

والنفس كالطفل أن تهمله شب على حب الرضاع . وإن تفضمه ينظم
فاحذر هواها ، وحاذر أن توليه أن الهوى ما تولى يصم أو يصم

ويقول العارفون من الاولين : جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم ، ما أشد
فضام الكبير ، بل كانوا يقولون قاتلوا أهواءكم أشد مما تقتاتلون عدوكم وقيل لعمر
ابن عبد العزيز رضى الله عنه : أى الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك .

وجماع ذلك كله قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد رجع من بعض غزواته :
رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يريد مجاهدة النفس وشهواتها فإن
الشجاع الباسل قد يتغلب على أقرانه ، ولكنه يضعف أمام رغبات نفسه ، وقد
يرد الخيس العرمرم ، ولكنه لا يستطيع أن يرد هوى من أهواء نفسه ، ومن
الصريح فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى
يملك نفسه عند الغضب .

في القصة المصرية

للمؤلف: أحمد عباس صالح

فن القصة :

تحتل القصة مركز الصدارة الآن في الآداب العالمية ، فهي ضرب من الفن يمتاز عن الفنون الأخرى بالشمول . إذ بينما تختنق المسرحية في « المنظر » أو « الحوار » نجد أن الحركة وامتداد الحوادث وتغير الامكنة لا تتوقف في القصة بل تمضي مضيا طبيعيا يطابق واقع الحياة . وعلى العكس يقف فن التصوير والنحت عاجزاً في حيزه الضيق .

وفي الشعر لا تكاد القصيدة تفي بأغراضها الفنية إلا في مجال محدود حيث العناية باللفظ والموسيقى والقافية تنف بالمرصاد لتمنع القصيدة عن المضى في متابعة الحياة متابعة واقعية .

ومع أن الرواية قديمة قدم الانسان ذاته ، إلا أن الشكل الفني المصطلح عليه الآن ، من حيث الوحدة والتتابع والحبكة الخ . لم يظهر إلا في القرن الثامن عشر . وعلى هذا ففن القصة الحديث مبثوث الصلة بالأساطير والحكايات والملاحم والسير والرحلات التي عرفت قبل هذا التاريخ . كما أن الفرق كبير بين المسرحية (Play) وبين الرواية (Novel) فالأولى يشترط فيها أن تمثل على المسرح ^(١) ويكون « الحوار » فيها عصب الموضوع بينما النائية لا تمثل على المسرح ولا تنقيد بالحوار ، وتستطيع أن تتمثل حيث تشاء ولها أن تطيل الوقوف عند حادثة ما أو أن تسكتني بالعرض السريع .

ولقد ظلت الرواية (Novel) تتطور في الشكل (Form) على أيدي كبار كتابها حتى أخذت شكلها الذي نعرفه الآن .

(١) كتبت كثير من المسرحيات في العصر الحديث للقراءة فقط .

واللحرية التي تتمتع بها في الأداء ظهرت طرق متعددة لكتابتها فهناك اليوميات والخطابات والاعترافات الخ . . ولكنها جميعا تحتم عليها أن تكون ذات وحدة .

وقد انقسم هذا الفن بعد فترة من التطور إلى ثلاثة أقسام : الأول وهو القصة الطويلة (Novel) وميدانها فسيح ، إذ تستطيع أن تعرض لحياة شخص ما منذ نشأته مثل قصة (أوليفر تويست) للكاتب الانجليزي تشارلز ديكنز أو لحياة جيل من الناس مثل رواية (الحرب والسلام) للكاتب الروسي تولستوى .

والثاني وهو القصة القصيرة (Short story) وقد بدأت في شكل حكايات قصيرة (Tales) على يدى بوكاشيو الإيطالى ، ثم تلقاها إدجار آلن بو الأمريكى ونزل بها ميدان الصحافة ، ومن ثم انتشرت في أوروبا وفي ربوع العالم .

وتختلف الأقصوصة عن القصة في أنها غالبا تعنى بحادثة واحدة أو جانب واحد وتدور حول فكرة واحدة ، وتمتاز بالتركيز والعرض السريع . وهى التي تطلع علينا بها الصحف اليومية والاسبوعية من حين لآخر .

والنوع الثالث وهو أحدث هذه الأنواع جميعا إذ يتف بين القصة والأقصوصة ويسمى (Novelet) وهو أطول من الأقصوصة وأقصر من القصة ، ابتدعها الكاتب الروسى تشيكوف ، وتبعه الكاتبا الانجليزى المعاصر سومرست موم وأصبحت شائعة الآن في الآداب جميعا .

وتمتاز بأنها لا تمر مروراً سريعاً على الحياة التي تعرضها ، مثلما تفعل الأقصوصة كما أنها لا تطنب اطباب القصة الطويلة ، والواقع أنها نبعت من القصة القصيرة ، ففيها تجد الخط (Line) الواحد الذي قلما يتسع ، ونجد هذا واضحاً في قصة (رجل مجهول)^(١) لتشيكوف ، ثم أنها تتبع جانباً معيناً من حياة شخص ما ولا تتعدى إلى حياة الآخرين إلا بإيجاز .

(١) ترجمت هذه القصة إلى اللغة العربية دار الكتاب المصرى .

فهرس

المجلد الثانى والعشرين

(لسنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م)

صفحة	بقلم	الموضوع
		(١)
٦٥٨٠٥٤٣	فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى	آراء العرب
١٦٧	محمد عبد المنعم خفاجى	آراء فى إعجاز القرآن الكريم ...
٣٤٥	على محمد العمارى	ابن سنان ومذهب الصرفة
٥٩٢٠٥٠٢	الدكتور محمد يوسف موسى	ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر
٨٠١٠٧٠٨		
٨٥٨	فضيلة الأستاذ على محمد العمارى	ابن حزم
٥٠٧	عبد الله مصطفى المراغى	أبو حامد بهاء الدين السبكى
٦٢٢٠٥٢٠	محمود النواوى	أبو العيناء الضرير
٧٧٦	صاحب العزة مدير المجلة	أثر الصيام فى تقويم الشخصية
١٢	احتفال الأزهر بذكرى الهجرة
٣٨٥ بعيد الميلاد الملكى
٦٨٤	فضيلة الأستاذ الكبير مدير الأزهر	الاحتفال بذكرى عبد القادر الحسينى
٦٧٩	احتفال جمعية المحافظة على القرآن الكريم
٧٦٩	وكيل الأزهر	احتفال ليلية نصف شعبان
٦٧٥	إحياء ذكرى الملك فؤاد
١٦٠	حضرة حمزة محمد الشيخ	الأساطير عند مختلف الشعوب
٤٢٠	فضيلة محمد عبد التواب	أسباب العزة
٤٥٣	حضرة عبد المنعم محمد الشيخ	أسباب الفتنة فى عهد عثمان
٥	صاحب العزة مدير المجلة	الأستاذ الأكبر الجديد
٧٤٤	فضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى	الإسلام أصل حضارة العالم

صفحة	بقلم	الموضوع
٨٢٦-٦٦٥	حضرة ، سعيد زايد	الإسلام والاشتراكية
٩٢١		
٦٦٢	فضيلة ، عبدالحليم عبدالرازق	الإسلام الحق
٥٥٥	حضرة ، عمر طلعت زهران	الإسلام فى مدغشقر
٣٢٨	حضرة ، محمود فياض	الإسلام يحقق السلام
٥٦٥،٤٧٩	حضرة ، هاشم محمد ابراهيم	أسلحة القتال عند المسلمين
٩١	فضيلة ، عز الدين اسماعيل	أسلوب التمثيل فى القرآن
١٨٤	، ، ، ،	أسلوب الجدل فى القرآن
١٧٦،٥٧	حضرة ، عبد المنعم محمد الشيخ	الأفضل بن بدر الجلى
٤٤٦	فضيله الأستاذ محمود محمد المدنى	إلى أى طريق نحن مسوقون
٤٥٩	، ، محمود النواوى	إمام المفسرين ابن جرير الطبرى
٩٠٥	حضرة ، عمر طلعت زهران	الأمير المتصوف
٨٣٢	، ، كامل عجلان	إنى صائم
٥٠	، ، على حسن العمارى	أهل النار يختصمون
٢٩٩	، ، فكرى يس	أول القرآن نزولا وآخره
٥٢٦	، ، ابراهيم أبو الخشب	الإيمان بالله
٥٣٦	، ، محمود محمد المدنى	أى مجتمع نعيش فيه
٥٤٨	، ، منصور رجب	أيهما البردة
(ب)		
٤٩٥	، ، طه الساكت	بركة المسلم حياً وميتاً
٣٦٦	، ، هاشم محمد ابراهيم	البريد فى الإسلام
١٣٩	، ، ابراهيم أبو الخشب	بشرية النبى
٨٨٧	، ، عبد الله مصطفى المراغى	بهاء الدين السبكى
٩٧،٨	بيان من فضيلة الأستاذ الأكبر
(ت)		
٣٠٤	فضيلة الأستاذ عبد الله المراغى	تاج الدين السبكى
٢٣	، ، فكرى يس	التاريخ

صفحة	بقلم	الموضوع
٩١٨	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	تاريخ الرجال
٦	عبد الجواد رمضان	تحفة شعرية
٦٣٨	بدر المتولى عبد الباسط	تسمية الأسماء بغير أسمائها
٣٦٣	حضرة الأستاذ إبراهيم عمار	تعدد الزوجات
٥٠٢، ٣٣٤	سعيد زايد	تعريف الحكم
٨٨٣، ٧٧٩	فضيلة الأستاذ حامد محيسن	التفسير — فاتحة الكتاب
٦٩١	محمد محمد المدنى	التفسير
٥٨٣، ٤٨٦	عبد المنعم النمر	تفسير القرآن
٦٩٧		
١٩٠	تقاريط
١٣٦	عبد الله مصطفى المراغى	تقى الدين السبكي
٧	السباعى الشناوى	تهمنة شعرية
(ث)		
١٤٩	فضيلة الأستاذ عبد الحميد المسلوت	ثقافة الأديب
(ج)		
١٦٣	فضيلة الأستاذ كامل عجلان	جراحات قلم
٢٨٣	عبد الله شوقى الأسد	جماعة التبشير الإسلامى
٩٥٦	على حسن العمارى	جهاد الهوى
(ح)		
١٣٢	الدكتور محمد يوسف موسى	الحج
٣٣	الحج من الناحية الفلسفية
٤٣٤	فضيلة الأستاذ محمد كامل الفقى	حسن قويدر الخليل
٤٦٧	أحمد الشرباصى	حرف بثمانين ألف
٦٢٨	فتوى	حكم الله فى المسلم يقا تل المسلم
٢٣٩	فضيلة الأستاذ محمد كامل الفقى	حزمة فتح الله

الموضوع	بـقـلم	صفحة
حول عروج الجسم الى السماء	حضرة الأستاذ أحمد ترجاني	٢٥٣
الحياة الأخرى	» » عمر طلعت زهران	٨٤٨، ٦٥٠
(خ)		
خداع الحياة	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	٤٢٦
الخلافة بعد فتح الأتراك اصر	حضرة الأستاذ هاشم محمد إبراهيم	٢٧٢
الخلافة العباسية في القاهرة	» » » » »	١٨٠
الخير باق في الناس	فضيلة » محمد عبد التواب	٦٠٩
(د)		
درس عملي في الزكاة	» » إبراهيم سقوط	٩٢٤
الدروس الدينيّة	» » الكبير وكيل الأزهر	٨٦٥
دعاء مستجاب	فضيلة الأستاذ حسن جاد	٤٦
دعائم الدعوة إلى الحق	» » حامد عوني	٦١٧
دعوة الإسلام إلى المساواة	» » السيد شريف	٧٤٩
دفاع عن التعصب	» » محمد محمد المدني	٢٩٥
(ذ)		
ذكرى المولد الشريف - موشحة	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	٢١٥
(ر)		
الربا داء البشرية	» » بدر المتولي عبد الباسط	٧٩٧
رثاء وتقاريط	» » » » »	٩٥
رسالة الأزهر	الشيخ أحمد صقر	٨٧
رسالة شيخ الأزهر	فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر	٢٨٩ د-١
الرسول الأعظم	» » محمد عبد المنعم خفاجي	٢٦٦
رضا الناس	» » علي حسن العماري	١٤٢
رمضان بين الماضي والحاضر	» » محمد خليفة	٨٤٤
الرهبانية والديرة والتصوف	حضرة » عبد المنعم محمد الشيخ	٩١٤، ٧٥٩

الموضوع	بقلم	صفحة
(ز)		
زواج حضرة صاحب الجلالة الملك	٦٧٣
(س)		
السهروردي المقتول	٣٣٩٠٢٤٨
سوف أعود إلى الأرض	٣٧٣
سوق السعاة	٧٣٦
سيدى ابراهيم الدسوقي	٢٢٦
(ش)		
الشباب وكيف نعهده	٤٢٣
شرك العقيدة وشرك العمل	٤٠١
شعاع من فجر الإسلام	٥٣٣
الشعر	١٧٣
شعراء الأزهر	٣١٢
الشعر المسرحى	٤٧٣
شواهد البلاغة	٨٠
(ص)		
صفحة من المجد	٧٥٤
(ض)		
ضبط النفس	٣٦٠
ضيق الصدر	٩٠٢
(ع)		
عجالات في الأدب	٤٧٦٠٢٨١ ٥٤٠
عدى بن الرقاع	٨١٤
عظة الهجرة	٧٦
العظمة والخلود	٨٢٩

صفحة	بقلم	الموضوع
١٥٥،٦٢	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	العقل والنقل والذوق
١٢٧،٦٦	، ، سالم أحمد الرشيدى	العلاقة بين الإسلام والنصرانية ...
٤٠٥	فضيله الأستاذ فسكرى يس	العلم بأسباب نزول القرآن
٣٢٠	، ، محمود النواوى	العلم والعمل
٦٣١	، ، محمد كامل الفقى	على أبو النصر المنفلوطى
٩٣٣	، ، ، ، ، ،	على الدرويش المصرى
٣٥١	، ، أبو الوفا المراغى	على هامش الأخبار
٢٢٤،٢٦٢ } ٦١٣،٥١٦ }	، ، محمود جميلة	على هامش المولد والهجرة
٤١٤	سماحة الأستاذ ، السيد ،	عهد المدنية
٧٠٥	فضيله الأستاذ طه محمد الساكت	عيد الدستور
(ف)		
٢٧٧	حضرة الأستاذ حمزة محمد الشيخ	فاجعة الشرق فى مهاتما الغرب ...
٥١٠،٤٤٠ } ٧٢٣،٦٤٤ }	حضرة الأستاذ محمود فياض	الفقه السياسى عند المسلمين
٨٠٥ }		
٩٥٢	، ، ، ، ، ،	فكرتا العالمية والقومية
٤٤٨	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	فلسفة التصوف
٤٩١	فضيله الأستاذ محمد محمد المدنى	فهم فى آية
٣٩٩	الدكتور محمد يوسف موسى	فى سبيل الله والأزهر
٨٢١،٧٣٩ } ٩٤٩ }	فضيله الأستاذ أحمد الشرباصى	فى صحبة المكشوفين
٩٥٩	حضرة ، أحمد عباس صالح	فى التنصت المصرية
٦٥٥	فضيلة ، السيد شريف	فى مجلس القرآن
٥٧١	الشيخ أحمد صقر	فى النقد الأدبى
(ق)		
١١٦	فضيلة الأستاذ فسكرى يس	القرآن كتاب جامع شامل
٥٩٦	، ، عبد الجواد رمضان	القرآن الكريم واللغة

صفحة	بقلم	الموضوع
٥٨٨	محمد محمد المدني	القرآن وعقيدة البعث
١٩٩	، ، ، ،	القرآن وقواعد النحو
٣٦٩	حضرة ، حمزة محمد الشيخ	القصة بين الذاتية والموضوعية
(ك)		
٩٣٧	فضيلة ، كامل عجلان	كبرياء القلم
٣٠٧	الدكتور محمد يوسف موسى	كلمات
٢١٠	، ، ، ،	كلمات
٢٢٢	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغي	كيف تتقارب الشعوب
٥٦٨	حضرة ، حمزه محمد الشيخ	كيف نقرأ الشعر
٢٨٥	الشيخ أحمد صقر	كيف ندرس الأدب
٤٠٩	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	كيف ندرس الأدب
٦٤١	، ، علي رفاعي	كيف ينهض المسلمون
(ل)		
٥٤	، ، محمود جميلة	لا يستوى الخبيث والطيب
٢١٨، ١٢١	، ، محمد النجار	لغويات
٧١٨، ٤١٥		
٨٩٨، ٨٣٥	صاحب العزة مدير المجلة	ليس من هنا نبدأ
١٧، ١٠٤		
٢٨٩، ١٩٣		
٤٨١، ٣٩٠		
٦٨٧، ٥٧٧	صاحب العزة مدير المجلة	مبشرون بالإسلام
٨٨٠		
٣١٧	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	متاعب الرسول
٢٣٢	، ، ، ،	مجدنا في ديننا
٤٣٠	، ، محمود جميلة	مجلة الأزهر في عامها الثاني والعشرين
٣	صاحب العزة مدير المجلة	مذهب الإمام مالك
٨٩٣	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	المسلمون والتصوير
٧٣٠، ٦٠٥	فضيلة الأستاذ أحمد محمد عيسى	...
٩٤٣		

الموضوع	بقلم	صفحة
المسلم والقرآن	الدكتور محمد يوسف موسى	١٨٨٩
مشكلات المدنية الحديثة	الأستاذ سعد الدين موسى	٣٧٩
مصر والسودان	عبد المنعم محمد الشيخ	٣٥٤، ٢٥٧
مصطفى عبد الرازق	عبد الجواد رمضان	٧١٣
المعتمد بن عباد	محمد خليفة	٩٢٩
منابع التصوف الإسلامي	نور الدين شريعة	٨٤
من أدب الإسلام	محمود المدني	٨٦٢
من أهداف الاستغفار	أحمد الشرباصي	٥٢٩
مناهج التفسير	عبد المنعم النمر	٩٣٩
المتفكرون بهدى القرآن	محمد محمد المدني	١١١، ٢٨
من توجهات الاسلام	محمود النواوى	٤١
من طرائف القرآن الحكيم	عبد الغنى الراجمي	٩٠٩
من مآسى الحياة	حضرة الأستاذ ابراهيم عمار	٦٧٠
من نوادر المخطوطات	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغى	٨٤١، ٥٣٨
من وحى بدر	أحمد حسن كحيل	٧١
المهاجرون والأنصار	ابراهيم أبو الخشب	٣٨
موسى الكليم	محمود النواوى	٩٤٦، ٨١١
موقف الإسلام من الفقراء	السيد شريف	٨٥٤
مولد النور	على رفاعى	٢٣٥
ميلاد محمد	محمود جميلة	١٤٦
(ن)		
نزول القرآن	فكرى يسن	٢٠٣
النفاق الاجتماعى	ابراهيم أبو الخشب	٦١٠
النقد الفنى لمشروع ترتيب القرآن	الدكتور محمد عبد الله دراز	٧٨٤
(و)		
واجب مصر نحو القرآن الكريم	فضيلة الأستاذ بدر المتولى عبد الباسط	٤٩٨
واقعة الجمل	حضرة الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ	٥٦٠
الواقعية الحديثة	أحمد عباس صالح	٧٦٣
وسائل النصر	فضيلة المنشاوى عبود الخولى	٤٦٣